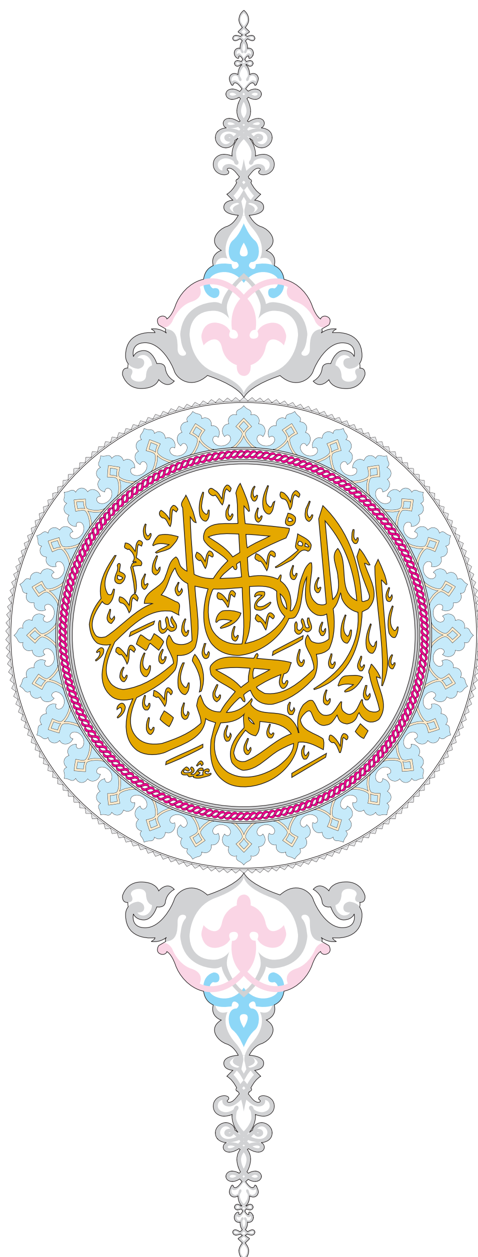
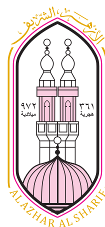




١٢


بسم الله الرحمن الرحيم





مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

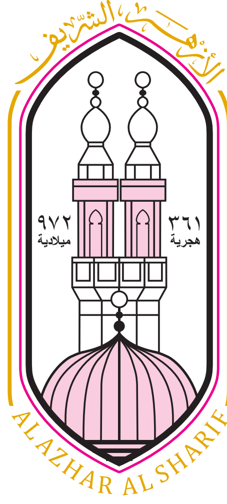
١٢

المجلد الثاني عشر

السنة ١٣٦٠هـ

سقيفة الصفا العلمية

الأزهر الشريف



مشيخة الأزهر الشريف
تليفون : 25899823 / 25907497
فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123
www. azhar. eg

١٤٤٥هـ ـ ٢٠٢٣م

سقيفة الصفا العلمية
SAQIFAT AL-SAFA TRUST
لبوان ـ ماليزيا
www.saqifat-alsafa.org
E-mail : info@saqifat-alsafa.org

الفهرس العام

السنة الثانية عشرة (١٣٦٠ هـ) من مجلة الازهر

حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

يشهد احتفال الأزهر بأول السنة الهجرية الجديدة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام يلقى خطابة جامعة

كان مساء الثلاثاء أول المحرم من هذه السنة (١٣٦٠) من الآونة التى تسجل فى تاريخ التجديد الدينى فى بلاد الاسلام ، فهذه أول مرة يشهد فيها ملك يمثل الاسلام فى جميع أطراف الأرض ، الاحتفال بعيد الهجرة النبوية ، فى حشد حاشد من علماء الملة ، ورجال الدولة ، وقادة الجيوش ، ليستمع الى إمام الدين ما يسمح به المقام فى ذكرى هذا الحادث الجلل .

نعم ، هذه أول مرة يسجل فيها حدوث هذه السنة الكريمة ، وإنها لتجديد عظيم الشأن يضاف الى سائر التجديدات التى سنها حضرة صاحب الجلالة الفاروق فى الناحية الدينية ، وكان لها صدى رنان فى جميع الأقطار الاسلامية ، مما سيكون تقليدا من تقاليد المياهل فى جميع الأمصار ، فيتجلى بذلك من حكمة هذا الدين ، ومن سمو نظره ، فى التقريب بين الحاكمين والمحكومين ، ما يكون سببا فى فهم الناس له ، وتقديرهم لقدره ، وفى حرصهم على إقامة شعائره ، والاهتداء بهديه .

إصلاح بعيد المدى يوفق إليه جلالة الملك الفاروق فى عصر ركبت فيه المادية رأسها ، وافتكت من عُقُلها ، فاقتادت الذين فتنتهم سفسطاتها الى حيث يفقدهم رشدهم ووجودهم ، فهل كنت تتصور أن شيئا ، مهما عظم شأنه ، يستطيع أن يردهم الى الصواب على نحو ما تردهم مواقف جلالة الملك من احترام الدين وإكباره ، والاحتفال بمواسمه وأيامه ؟

ومما يستبشر به المؤمنون أن يتولد هذا التجديد الخطير فى عهد الإمام المراغى ، وأن يتولى هو كُبْره ، وهو أقدر العلماء المعاصرين على إحاطة هذه التجديدات الملكية العالية بما هى أهله من تجلية الروح الإسلامية فى أجل ما تستهدفه من إصلاح الأفراد والجماعات ، وأبعد ما ترمى إليه من شريف المقاصد والغايات ، مما ينبه الغافلين الى حقيقة هذا الدين ، ويقوى فى نفوس أهله ما ضعف من الشعور بجلاله وجماله ؛ وإنها لخطة خطيرة حفظها الله لفضيلة الأستاذ الامام ، ولا يحفظ أمثالها إلا للافذاذ الموهوبين ؛ وهو بما توفر على خدمة العلم وأهله ، وتجرد للنظر فى وجوه إصلاحهم وإرشادهم ، جدير بأن يكون فى طليعة هذه الحركة الطيبة ، التى سيق فيها المسلمون اليوم ، متأثرين ببواعث ليس فى مكنة أحد صدها ، والوقوف فى وجهها .

استهل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام خطبته بذكر ما يتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم نسبا وحسبا ، وشمائل وأدبا ، وما منّ الله عليه من عوامل التكميل حتى استأهل أن يكون خاتم المرسلين ، والمبعوث رحمة للعالمين ، بالدين الفطرى ، والصراط السوى . ثم ألم فضيلة الأستاذ الامام بذكر ما أوجب الهجرة من الاضطهادات العنيفة ، ثم بذكر واضع التأريخ من الهجرة ، وهو أمير المؤمنين عمر ، ثم وجه فضيلته القول الى جلالة الملك ، مصرحا بأن جلالته أول ملك مسلم شهد حفلة الهجرة ، وبذلك شارك عمر الفاروق فى العناية بها ، وإظهار خطرها ، وعظم شأنها .

ثم ألم فضيلته بذكر المدنيــة الفاضلة ، وهنا تجلت كما تجلت فى جميع مواقفه الخطابية ، خصوصية فضيلته فى البيان والتبسط ، والتأثير البالغ فى العقول ، فكان لكلامه وقع عظيم فى القلوب . ونحن ندون هنا هذه الخطابة كاملة ، لنوصلها الى أقصى ما يمكن أن تصل إليه مجلة من بلاد المسلمين .

أعاد الله هذا الموسم العظيم على جلالة الملك والأمة الإسلامية قاطبة فى يمن وإقبال ، إنه سميع الدعاء ، مجيب النداء ؟

محمد فريد وجدى

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك اللهم ، وأنت الحقيق بالحمد والثناء ؛ وأصلى على أفضل أنبيائك وخاتم رسلك ، وعلى آله وصحبه .

وبعد : فقد كان سيدنا محمد بن عبد الله من أوسط العرب نسبا ، وأكرمهم محتدا ، ليس فى آبائه إلا من هو سيد كريم ؛ وكان جده عبد المطلب شيخا مقدما فى قريش ، يصدرون عن رأيه ، ويقدمونه فى مهماتهم ؛ وكان عليه السلام أحسن قومه جوارا ، وأكرمهم مخالطة ، وأعظمهم حلما ، وأشدهم أناة ، وأكثرهم حياء ، وأصدقهم حديثا ؛ ذلك الى شجاعة وعفة وكرم وتواضع ، وصبر وشكر ، حتى قال النضر بن الحارث ، وهو أشد قومه خصومة له : قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر ؛ لا والله ما هو بساحر ! ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : ما كان محمد ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله .

ولما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ، اختاره الله رسولا ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، واصطفاه لحمل أمانة التبليغ عنه وتلقى الوحى ، فكان بشيرا ونذيرا ، أخرج الناس من ظلمة الكفر والجهل ، الى نور الإيمان والعلم ، ورفع قدر الانسانية ، وسما بخلقه وأدبه ، وعلمه وتعليمه وهديه ، الى أعلى مقام يبلغه بشر .

قام بالدعوة أول الأمر سرا ، لا يدعو إلا من وثق به أو توسم الخير فيه ، فلبى الدعوة طائفة من الأشراف كأبى بكر ، وعثمان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، ممن استنارت بصائرهم ، وصفت قلوبهم ، ولم تحجبها ظلمات التقليد والعناد ، عن نفاذ نور الحق اليها ؛ كما دخل فى الدين جمع من الموالى . وكان متبعوه لا يتمكنون من إظهار عباداتهم خوفا من تعصب قريش عليهم ومن إيذائهم .

ثم أمر بالجهر بالدعوة ، ونزل عليه قوله سبحانه : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » ؛ فصدع بالأمر ، وبادر الى الامتثال ، فصعد الصفا ونادى بطون قريش وقال لهم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا . قال : فانى نذير لكم بين يدىْ عذاب شديد . فقال أبو لهب : تباً لك ألهذا جمعتنا ؟ ! ثم نزل عليه قوله سبحانه : « وأنذر عشيرتك الأقربين » فجمعهم قائلا لهم : إن الرائد لا يكذب أهله ؛ والله لو كذبت الناس جميعهم ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعهم

ما غررتكم ؛ والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة والى الناس كافة ؛ والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإنها الجنة أبدا أو النار أبدا . فتكلم القوم بكلام لين غير عمه أبى جهل فانه قال : خذوا على يديه قبل أن تجتمع العرب عليه !

بدأ الدعوة بالدعوة الى توحيد الله ، وإفراده بالعبادة ، وإلى ترك الأصنام والأوثان ، والوسطاء والشفعاء ، فالله أقرب الى العبد من حبل الوريد ، وهو مع العباد أينما كانوا . وطالب الناس بالإحسان وترك الفاحشة ما ظهر منها وما بطن ، وحرم قتل النفس إلا بحق ، وقتل الأولاد خشية الفقر . وطالب بإيفاء الكيل والوزن ، وبالعدل فى الحكم ، والوفاء بالعهد .

تجمعت لدى من أعمى الله بصائرهم ، وطمس على قلوبهم من قومه ومن العرب ، شتى الأسباب والدواعى لمناهضته ومقاومته : حسد الأهل وذوى القربى ، وخوف الرؤساء من ذهاب رياساتهم ، والغيرة على المعتقدات وعلى الآلهة التى كانوا يعتقدون أنها تقربهم الى الله زلفى ، والغيرة على سيرة الآباء والأجداد ، والمحافظة على تقديس ما كانوا عليه .

من هذا الذى سفه عقولنا وأحلامنا ، وأحلام آبائنا ، وسخر بآلهتنا ؟ من هذا الذى يدعى النبوة ، وما هو إلا واحد منا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لم يخصه الله دوننا بغنى ، ولم تحول له جبال مكة ذهبا ، ولم تفجر له الأنهار تطرد فى خلال الجنات ، ولم ينزل عليه كنز من السماء ، ولم ينزل السماء علينا كسفا ، ولم يصعد الى السماء ثم ينزل وبيده كتاب يقرأ ، ولم يأت بالله والملائكة قبيلا ؟

قالوا هذا ، وكانوا شديدى الحرص على معبوداتهم ، وعلى عاداتهم ، وعلى تقديس ما كان عليه آباؤهم ؛ فأجمعوا أمرهم على مقاومته ، وعلى الوقوف فى سبيل دعوته ، وعلى خنقها قبل أن تشبّ عن الطوق ، وقبل أن يكثر أتباعه وجنوده ، وقبل أن يعتز بقوة لا يستطيعون ردها .

لقى منهم الجهد والعنت والمشقة ، وصنوفا من الأذى متعددة الألوان ، لا يستطيع احتمالها والصبر عليها ، إلا نفس ذكية طاهرة ، مخلصة فانية فى الله ، لا يجول فيها إلا خاطر واحد ، هو هداية الناس ، وأن تتفجر ينابيع الدين ، فتجرى أنهارا فى تلك الصحراء ، ثم تسبح وتنساب الى سائر البقاع ، وأن يشرق ذلك النور الإلهى على قلوب العرب وقلوب غيرها من الأمم ؛ وكان حريصا أشد الحرص على هداية قومه ، فاحتمل هذا العنت كله ، طمعا فى هدايتهم ، ولم يعتزم الهجرة إلا بعد أن صفر وطابه ، ولم يبق معه سهم يرميه .

اتفقوا على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب أقرب الناس اليه ، وعلى إخراجهم من مكة ، والتضييق عليهم ، فلا يبيعونهم شيئا ، ولا يبتاعون منهم شيئا ، ومنعوا التجار من مخالطتهم

ومعاملتهم ، وأودعوا ذلك صحيفة أودعوها جوف الكعبة . فعلوا ذلك ليُسلمه قومه اليهم حتى يقتلوه .

حزبه الكرب ، وضاقت عليه السبل جميعها ، وظن أن ثقيفا بالطائف تنصره إن هو استنجد بها ، فذهب اليهم فردوه ردا قبيحا ، وأرسلوا وراءه غلمانهم يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه . واسمعوا ما قاله إذ ذاك تتبينوا ما كان يحيط به من الألم والهوان : قال صلوات الله عليه وسلامه : « اللهم إنى أشكو اليك ضعف قوتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تكلنى ؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى » . فهو لا يبالى بالألم الحسى فى جسده الشريف ، ولا بالألم النفسى من الهوان إن لم يكن بالله غضب عليه . ذلك لأنه كان لله وفى سبيل الله ، وللحق وفى سبيل الحق . وفى هذه الرحلة لم يستطع العودة الى بلده مكة إلا فى حماية المطعم بن عدى حيث جرد هو وأولاده سيوفهم لحمايته.

تلمس الفرج عند وفود العرب ، تفد الى الموسم بمكة ، فلاح بصيص من النور . عرض نفسه على القبائل ، فأسلم ستة من الأنصار ، وأسلم جمع فى موسم آخر ، وعادوا ، فذاع ذكر الاسلام فى دورهم ، ولم يبق لهم حديث إلا حديث الاسلام . ثم بايعه فى موسم آخر ثلاثة وسبعون رجلا من الأوس والخزرج . وبدأ الاسلام بعد رجوعهم يذيع أكثر من قبل . ثم أمر المسلمين بالهجرة الى المدينة .

هنا هاج الشر ، وتحركت الأحقاد ، وأصابهم مس من الشيطان . أصبح لمحمد أتباع يذودون عنه كما يذودون عن أولادهم ، وانتشر دينه فى ربوع المدينة وما حولها ؛ ومحمد شخصية جذابة قوية التأثير بحديثه وأخلاقه وصفاته ، وبيده كتاب أدركوا قوته وروعته فى النفوس ، وجربوه من قبل فى أنفسهم .

لا بد لهم من قتله قبل أن يوجد السلطان بيده ، فاتفقوا على أن يأخذوا من كل قبيلة شابا جلدا ، وعلى أن يجتمع أولئك الشبان أمام داره ليضربوه ضربة رجل واحد ؛ وإذ ذاك يتفرق دمه فى القبائل ، ولا يستطيع قومه أن يقاتلوها كلها .

محمد الآن بين أمرين : إما القتل وزوال هذا الدين ودثور الحق وانطفاء نوره ، وإما النجاة والفرار من هذا الظلم ، وتلمس الحرية فى أرض توجد فيها الحرية والطمأنينة على النفس والدين ، فبتّ فى الأمر وقرر الهجرة .

كانت الهجرة ، وصاحبتها أهوال ؛ لكن الله ينصر من ينصره ؛ فوصل المدينة سالما ، ووجد أتباعا يفْدونه بالنفس والأولاد ، وتتابع نزول القرآن بالهدى والحق ، وتمت النعمة على المسلمين والعالمين .

لم يكن من غرضى فى ذكر الحوادث ، إلا ذكر القدر الذى يتجلى فيه أن الهجرة كانت

حدا فاصلا بين الضعف والقـوة ، وبين العز والهون ، وبين الخفاء والظهور ، وبين الحق والباطل ؛ وأنها كانت من أجلّ الحوادث فى تاريخ الإسلام . والهجرة سنة من سنن المرسلين ، وسنة من سنن المصلحين من بعدهم . والحرية أثمن شىء وأعزه لدى الإنسان ؛ والاعتداء عليها يعادل الاعتداء على النفس ، ويجب الدفاع عنها ، والقتال فى سبيلها . انظروا قـول الله سبحانه : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » . سمى الله سبحانه الصبر على الضيم والذل ، والصبر على ترك الجهر بالحق ، ظلما للنفس ، يجب الفرار منه عند عدم القدرة على دفعه ، ويجب ترك الأوطان والخروج عن الديار والمهاجرة الى غيرها إذا لم توجد العزة ؛ وإذ ذاك تكون الهجرة هجرة فى سبيل الله .

مولاى صاحب الجلالة :

روى الطبرى فى تاريخه أن العرب لم تكن تؤرخ على أمر معروف يعمل به عامتهم ، وكان المؤرخ منهم يؤرخ بولاية عامل عليهم ، أو بالأمر الحادث ينتشر خبره عندهم ، أو بسنة « مجدبة » فى ناحية من نواحى بلادهم . والمشهور أن الفاروق عمر بن الخطاب هو أول من جمع المسلمين للمشورة فى أمر التاريخ ، وأنهم عرضوا عليه أمورا : التاريخ لمولده صلى الله عليه وسلم ، والتاريخ لمبعثه ، والتاريخ لوفاته ، والتاريخ لهجرته ؛ فاختار من بين ذلك كله التاريخ لهجرته ، وقال : إن الهجرة فرقت بين الحق والباطل . ورضيه الصحابة رضى الله عنهم .

وقد اخترتَ يا صاحب الجلالة بتوفيق من الله ، أن تتوج حفلة الهجرة بشرف حضورك وشهودها ، وأنت — فيما أعلم — أول ملك مسلم شهد حفلة الهجرة . وبذلك شارك الفاروق ابن فؤاد ، الفاروق بن الخطاب فى العناية بأمر الهجرة ، وإظهار خطرها فى الإسلام .

مولاى :

قد آن للمسلمين أن يفكروا ، ويبادروا الى اعتناق مدنية فاضلة ، أساسها الدين ، وقوامها الأخلاق والتقاليـد التى أثبتت التجارب حسنها قبل أن يشيع الفساد ، وقبـل أن تعبد اللذة والشهوة ، وقبل أن يشيع تقليد الغرب فى كل شىء ؛ مدنية تجمع بين تقاليدنا النافعة الواقية من الفساد ، وبين ما هو حسن نافع من مدنيات غيرنا ؛ نأخذ كل ما أحدثه البشر من محدثات نافعة مفيدة ، ونطرد كل ما أبدعوه من شر وفساد ؛ وقـد نبتت الأديان كلها فى الشرق ، فليس بعجب أن تحيا فيه تلك المدنية الفاضلة ، إذا تعاضد الناس على الأخذ بيدها وحمايتها . ولا إخال إلا أن الناس قد أدركوا ، وإن لم يكونوا متمسكين بدين ، أن الرجوع الى الأديان خير مما يتخبط فيه الناس من ضلال . ولعل الذين كانوا يدعون الى تقليد الغرب فى كل شىء ،

والتمسك بمدنيته كما هى ، قد أدركوا الآن أنهم لم يكونوا على حق فى دعوتهم ، وخصوصا بعد أن رجع أولئك المقلدون المقتدى بهم عن مذاهبهم ، وثبت لهم أنهم كانوا على ضلال مبين .

وأوجه من هذا المكان الطاهر تهنئتى الى جميع المسلمين فى الأقطار بحلول العام الهجرى الجديد ، ضارعا الى الله سبحانه أن يجعله عام خير وبركة ، ويمن وسلام عليهم وعلى الانسانية ، وأن يرفع بمنه هذه الشرور الطاغية ، التى جعلت العالم جميعه يحس شدة كربها ، ويرجو زوالها .

وأسأل الله سبحانه أن يديم لهـذه البلاد حضرة صاحب الجلالة مليكنا المحبوب : فاروقا الأول ، وأن يعزه بالاسلام ويعز به الاسلام ، وأن يرعاه برعايته ، ويديم له توفيقه .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية
تصدرها مشيخة الأزهر

في كل شهر عربي

الجزء الأول	المحرم سنة ١٣٦٠	المجلد الثاني عشر

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد وجدي

الإدارة

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراكات عن سنة

	ملیم
داخل القطر	٢٠٠
لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ...	١٠٠
خارج القطر	٣٠٠

ثمن الجزء الواحد ٢٠ مليما داخل القطر و ٣٠ خارجه

(مطبعة الأزهر — ١٩٤٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

السنة الثانية عشرة لمجلة الازهر

الحمد لله مانح الحكمة للمتقين من عباده ، ومفيض النور على السالكين سبيل إرشاده ، والصلاة والسلام على من أرسله بالكلمة الجامعة ، والطريقة الناصعة ، وأمده بالحجج الساطعة ، والدلائل القاطعة ، خاتم المرسلين محمد ، وعلى آله وصحبه وتابعيه الى يوم الدين .

أما بعد فاننا بهذا العدد نفتتح السنة الثانية عشرة لهذه المجلة ، ونحن على العهد الذى قطعناه على أنفسنا يوم أن نُدبنا للعمل فيها ، من بذل أقصى وسعنا لابلاغها المكانة التى يجب أن تبلغها مجلة تمثل أكبر وأقدم جامعة إسلامية . فان كنا قد وُفقنا الى ذلك فبفضل الله وتوفيقه ، وبما أمد به العلماء والكتاب الذين تفضلوا بمعاونتنا على تحقق هذا المقصد الجلل ؛ وإنا لنرجو أن يزيدنا الله فضلا وتوفيقا فى الاضطلاع بهذه المهمة الخطيرة .

ومن الحق أن نذكر أن لنشر ما يلقيه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام فى المناسبات ، من الكلمات الجامعة ، والبحوث المستفيضة ، أثراً كبيراً فى إحلال هذه المجلة محلها الذى تحظى به فى نظر القارئين . وقد حلينا صدر هذا العدد بما فتحه الله عليه من تفسير ما ورد فى وصف عباد الرحمن فى خمس عشرة آية من آخر سورة الفرقان ، وهو أكمل وأوفى تفسير لهذه الآيات المحكمات ، مما تدعو إليه الحاجة فى هذا العصر ، وسنتبعه بما ألقاه فضيلته من الدروس الدينية فى شهر رمضان فى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول حامى حمى الاسلام ، ومعظم شعائره ، ومعلى كلمته ، ومعزز شيعته .

أما ما اعتزمنا أن نطرقه من البحوث ، فهو كل ما يكون من أثره إيقاظ العاطفة الدينية فى النفوس ، وتوجيه الشخصية الانسانية الى الوجهة التى فيها كمالها وسعادتها .

وقد دأبنا مذ انتدبنا لخدمة الاسلام أن نستأنس بالعلوم الكونية ، وبالفلسفة الغربية ، علما منا أن اتصال ثقافتنا بالثقافة الغربية ، يحتم علينا أن نلم بالأطوار التى دخلت فيها هذه الثقافة الأخيرة من الناحية الأدبية ، غير متورعين من إيراد شبهات الماديين منهم ومحاكمتها الى أصول العلم ومقررات الفلسفة الصحيحة . وقد أنجح هذا الأسلوب فى لفت النظر الى ما فى الاسلام من حكمة عالية ، ومناعة لا يطمع معها فى زعزعته . وفقنا الله الى خير ما يتفضل به على السالكين إليه ، من مثابرة وهداية ، إنه ولى الكفاية ؟

محمد فريد وجدى

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

يفتتح موسم المحاضرات فى جمعية الشبان المسلمين

دعا حضرة صاحب السعادة صالح حرب باشا رئيس جمعية الشبان المسلمين ، حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام ، ليتفضل بافتتاح موسم المحاضرات فيها . فلبى فضيلته هذه الدعوة بما أثر عنه من التشجيع على كل عمل طيب يرجى منه صلاح لشؤون المسلمين ، وفائدة لعقولهم وأرواحهم . فقصد دار تلك الجماعة الموقرة فى مساء يوم ٢١ شوال سنة ١٣٥٩ واعتلى منبر المحاضرات فى حشد من رجال العلم ، وكبار رجال الدولة ، ولفيف من الأدباء وحملة الأقلام ، وافتتح هذا الموسم الثقافى الجليل ، باسم الله الكريم ، وتفسير خمس عشرة آية من الكتاب الحكيم ، وردت فى بيان صفات عباد الرحمن فى آخر سورة الفرقان .

جمعت هذه الآيات الكريمة من صفات عباد الرحمن ما لم يجتمع مثله فى غير القرآن ، وحصرت من حالتهم النفسية ما يجب على كل سالك سبيله أن يعرفه ، فهى لمن يعرف أسرار المعارف البسيكولوجية الحديثة ، آيات ناطقة بإعجاز هذا الكتاب السماوى ، وبأن الوسع البشرى لا يصل الى تصوير هذه المرتبة العليا التى يصل إليها بعض الناس ، على هذا النحو من التحديد والاستيفاء ، فى هذا القالب من البيان الذى تنتهى إليه أسباب البلاغة كلها بأوسع ما فُهمت عليه من معان . ومن عجب أنها قد جمعت من أمهات الفضائل النفسية ، والآداب الاجتماعية ما لا مزيد عليه فى تكوين الشخصية الكاملة ، المؤاخية بين السمو الروحى والحياة الدنيوية ، وهى ما أعجز الفلاسفة أن يجمعوا بينهما فى قلب رجل واحد ، مدعين أن الكمال الأدبى ينافى الكمال الدنيوى ، فجمع بينهما الاسلام ، وربى عليهما جماعة بزت العالمين فى كرامة الناحيتين ، فكانت مثلا أعلى للجماعات المستقبلة .

وقع اختيار فضيلة الأستاذ الإمام على هذه الآيات ، فتناولها بالفهم المستنير الذى عهده فيه المسلمون ، فجاء بأكمل ما يمكن أن يُفهم منها فى هذا الموطن ، ولم يدع ناحية من نواحى النظر فى تلك الآيات الكريمة إلا جال فيها بفكره المصيب ، ونظره البعيد ، فأتى بأحسن ما يستطاع أن يؤتى به فى هذا الموطن الرهيب .

لم تتجل مواهب الأستاذ الإمام فى تصوير المعانى العالية ، وتوضيح الاشارات الخفية فى موطن من المواطن ، كما تجلت فى شرح ما نحن بسبيله من الآيات ، فإذا كان ينبغى أن يوضع تفسير عصرى للقرآن ، وجب أن يوضع على هذا النحو ، ونحن نرجو أن يبارك فى وقت فضيلته ، وأن يُفسح له فى الحياة ، حتى يقوم للعالم الاسلامى بهذه الخدمة الكريمة .

وقد بادرت إدارة الاذاعة اللاسلكية المصرية فالتقطت أقوال فضيلة الأستاذ الامام على شريط راديوغرافى وأذاعتها على الناس بعد الاعلان عنها ، فسمع سكان أكثر الأقطار الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها هذا التفسير القيم لصفات عباد الرحمن ، فكان هذا العمل الاذاعى من أبرك الأعمال وأولاها بالتحبيذ والتقدير .

والذى نستطيع عمله فى سبيل الاعانة على إذاعة هذه المحاضرات الثمينة أن ننشرها فى مفتتح المجلد الثانى عشر لمجلة الأزهر ، راجين أن نوفق الى طبعها فى كراسة خاصة ليتخذها كل مسلم دستورا له فى الحياة الطيبة ؟

محمد فريد وجدى

صفات عباد الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

« وعِباد الرحمن الذين يمشُون على الأرض هوْناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سُجّداً وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذابَ جهنم إن عذابها كان غَراما . إنها ساءت مستقرا ومُقاما . والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقتُروا وكان بين ذلك قَواماً . والذين لا يَدْعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرّم اللهُ إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعلْ ذلك يَلق أثَاماً . يضاعَفْ له العذابُ يوم القيامة ويخْلُدْ فيه مُهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدّل الله سيئاتِهم حسناتٍ ، وكان الله غفوراً رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله مَتابا . والذين لايشهدون الزور ، واذا مَرُّوا باللغو مروا كراما . والذين إذا ذُكروا بآيات ربهم لم يَخِروا عليها صُما وعُميانا . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجْعلْنا للمتقين إماما . أولئك يُجزَوْن الغرفةَ بما صبروا ويُلَقَّوْن فيها تحيةً وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما . قل ما يَعبَأُ بكم ربى لولا دعاؤكم ، فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » :

جرى الحديث فى الآيات السابقة حول المشركين والكافرين ، ومزاعمهم وأحوالهم ، وما أعده الله لهم من العذاب : اتخذوا من دون الله آلهة عبدوها ، لا تملك ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا . قالوا عن القرآن : افتراه محمد وأعانه عليه قوم آخرون . وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهى تملَى عليه بكرة وأصيلا . قالوا ذلك مع اشتمال القرآن على أسرار الكون وعلوم الغيب التى لا يعلمها إلا الله الذى يعلم السر فى السموات والأرض . قالوا عن محمد صلى الله عليه وسلم : ما نرى إلا رجلا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؛ ولم يكن هناك رسول قبله إلا كان يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . قالوا : لم لا يكون له كنز أو جنة يأكل منها ؟ كان الرسول يجب أن يكون من أغنياء الدنيا وله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة . قالوا : إنه رجل مسحور ؛ وهو الذى دبر أمر تبليغ الرسالة على أحسن وجه ،

وهو الذى ساس أمته فى دينها ودنياها وحروبها وفتوحها . قالوا ذلك وغيره مما أوحى به الحمق والجهل ، وكذبوا بالساعة ، واستكبروا وعتَـوا عتوا كبيرا ، حتى إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفورا . قالوا ذلك مع وضوح الدلالات على وجود الله سبحانه ، وعلى أنه المتصف بجميع الصفات ، ومنهـا صفة الرحمن ، ومع قيام الأدلة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع ما جاء به ، ومنه إخباره بالساعة وأنها حق لا ريب فيها .

وفى هـذه الآيات استأنف الله سبحانه الحديث عن خُلّص المؤمنين من عباده ، فذكر أحوالهم فى الدنيا والآخرة ، ووصفهم بصفات كثيرة استحقوا بها وصف العبودية والإضافة الى اسمه الرحمن ، فدل ذلك على أن صفة العبودية أشرف صفات المخلوقين .

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » :

قرئ عباد بالكسر جمع عبد ، وعُبّاد بالضم جمع عابد ؛ وهو على الأول من العبودية ، وعلى الثانى من العبادة . والعبودية إظهار التـذلل ؛ والعبادة غاية التذلل . والعبد قسمان : مخلص لله تعالى ، ومنه « واذكر عبدنا أيوب » ، « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » ؛ ومعتكف على خدمة الدنيا ، وإياه قصد صلى الله عليه وسلم بقوله : « تعس عبد الدرهم ! تعس عبد الدينار ! » . والهَوْن : الرفق واللين . ومنه الحديث « أحبب حبيبك هـوناً ما » . والجهل : السفه وسوء الأدب .

من صفات عباد الرحمن ترك الإيذاء ، واحتمال الأذى ، حيث لا يترتب على ذلك تهاون بالدين ، أو بالعرض ، أو مذلة لنفس المؤمن .

أشار الله سبحانه الى الأول بقوله : « يمشون على الأرض هونا » : أى مشيا هينا برفق لا تكلف فيه ولا تصنع ، فهو لا يتكلف المشى الهين ، ولا يتكلف ضرب الأرض بقدمه أشراً وبطراً ، ولا التبختر خيلاء ، بل يرسل نفسه على طبيعتها ، لا يقصد الكبر والعلو ، ولا يقصد بالرفق فى المشى الرياء ، ثم يعيث فى الأرض فسادا ، صفته فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « وما أنا من المتكلفين » . المؤمن الذى هذا شانه مؤمن يسلم الناس منه ، ومن أذاه ، ولا يريد فى الأرض علوا ولا فسادا .

وأشار سبحانه الى الثانى بقوله : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » : أى سدادا من القول بلفظ سلاماً أو بغيره مما يدل على المتاركة وعدم المقابلة بالمثـل ، فهو قول لا خير منه ولا شر ؛ أو قالوا هذا اللفظ نفسه على قصد المتاركة لا على قصد التحية ، كما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه : « سلام عليك ، سأستغفر لك ربى » . فالمؤمن حليم وإن جُهل عليه . وترك

المقابلة للسفه مستحسن أدبا وشرعا ومروءة ، وهو أسلم للعرض ، على أن لا يترتب عليه مذلة وثلم للعرض والدين ؛ أما إذا ترتب هذا فقد ندب المؤمن للدفاع . فالإعراض الممدوح إنما هو فى مقابلة سوء أدب الجاهل الذى ينتهى أمره بالإعراض والصفح .

ومن لطيف ما يروى أن ابراهيم بن المهدى ، وكان منحرفا على علىّ كرم الله وجهه ، رأى عليا فى النوم تقدم الى قنطرة يعبرها ، فقال له : إنما تدّعى هذا الأمر بامرأة ونحن أحق به منك . فقال على لإبراهيم : سلاما سلاما ! ! وقص ابراهيم الرؤيا على المأمون ، وقال : مارأيت لعلى بلاغة فى الجواب كما يذكر عنه . فقال له المأمون : أجابك أبلغ إجابة ، اقرأ قوله سبحانه : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » . فخزى ابراهيم واستحيا .

ومن كلام الحسن رضى الله عنه ، وفيه نزعة صوفية : « المؤمنون قوم ذُلُل ، ذلت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى ، وإنهم لأصحاء القلوب ، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، والله ما حزنهم حزن الدنيا ، ولا تعاظم فى أنفسهم ما طلبوا به الجنة ! أبكاهم الخوف من النار ؛ وإنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ؛ ومن لم ير لله عليه نعمة إلا فى مطعم ومشرب فقد قل علمه وحضر عذابه » .

المؤمنون كما وصفهم الحسن : رحماء بينهم ، ولكن إذا دعا داعى الحق ، وتعرض الدين أو تعرضت الأوطان للهوان والذل ، كانوا أشداء ، وكانوا الليوث تحمى العرين ، يظهر بأسهم عند الحاجة ، وليس بينهم بأس ، هكذا يجب أن يكونوا ، فأين هم ؟ !

« والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً . إنها ساءت مستقرا ومقاما » :

البيتوتة : أن يدركك الليل نمت أو لم تنم ؛ وهى خلاف الظلول ، ولذلك صح أن تقول : بات فلان قلقا . وقياما : جمع قائم كصيام جمع صائم . وغراما : معناه : موجعا ملحا لازما .

من صفات عباد الرحمن إحياء الليل كله أو بعضه بالصلاة ، ومن أحياه هكذا قيل : بات ساجدا قائما . وقال بعض العلماء : من صلى الركعتين بعد المغرب والركعتين بعد العشاء صح أن يوصف بهذا . ولا يلزم فى عبودية عباد الرحمن إحياء الليل كله أو أكثره بالعبادة ؛ فقد كان صلى الله عليه وسلم ينام ويقوم ، إلا ما فرض عليه بقوله تعالى : « قم الليل إلا قليلا ، نصفَه أو انقُصْ منه قليلا ، أو زد عليه » . وكان يصوم ويفطر ، وقال : « هذه سنتى ، فمن أعرض عن سنتى فليس منى » . وقد جعل الله الليل لباسا ، والنهار معاشا ، وكلف عباده السعى للحصول على الرزق ؛ والإنفاقُ على من يعوله المؤمن واجب ، والصدقات مندوب إليها ، فكيف يمكن السعى مع قيام الليل كله ؟ وكيف يكون قيامه لازما فى وصف عباد الرحمن ؟

ومن صفات عباد الرحمن أنهم مع اجتهادهم فى العبادة وإحياء الليل ، وجلون حذرون خوف العقاب ، يبتهلون الى الله سبحانه دائما فى طلب صرفه عنهم وبعدهم عنه ، يذكرون أن عذاب جهنم موجع مهلك وملح دائم ، وأنها لهذا بئست المكان الذى ينزل فيه ! وبئست الموضع للإقامة !

والمستقر : ملاحظ فيه معنى القرار . والمقام : ملاحظ فيه معنى الإقامة . وهما فى المعنى واحد لا فرق بينهما ؛ فهو من قبيل قول الشاعر :

. . . . وألفى قولها كذبا ومَينا

والمين هو الكذب . أو يقال : من شأن العذاب فى الآخرة أنه مضرة لا نفع منها ؛ وأشير إليه بقوله : « إن عذابها كان غراما » ؛ ومن شأنه اللزوم ؛ وأشير إليه بقوله : « إنها ساءت مستقرا ومقاما » . واللزوم كما يكون فى الكفار يلازمهم العذاب دائما ، يكون فى العصاة يلازمهم العذاب مدة بقائهم فى النار . ولا وجه لقولهم : إن اللزوم يختص بالكفار .

« والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يَقتروا وكان بين ذلك قَواما » :

إذا عُرف القوام : وهو الوسط والحد الفاصل بين الإسراف والتقتير ، عُرف الإسراف والتقتير ؛ فإن الإسراف تجاوز الحد ، والتقتير التقصير عن الحد . وقد سمى حد الاعتدال قواما لاستقامة الطرفين حوله واعتدالهما . ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء . وليس من اليسير تحديد القوام فى كل الأمور ؛ وقد يسهل فى بعضها على وجه ما . مثلا : يمكن معرفة الجوع والشبع ، والظمأ والرى ؛ فيكون الأكل عند الجوع ، والكف عنه عند الشبع ، والشرب عند العطش ، والكف عنه عند الرى ، قواما . فمن فعل ذلك عد داخلا فى دائرة القوام من حيث الكمية المتناولة . لكن ما هو حد القوام فى نوع الطعام ، ونوع اللباس ، ونوع الصدقات ، وفى غير ذلك مما هو موضع لإنفاق المال ؟

بالرجوع الى قواعد الدين العامة ، وما استرشد به العلماء فى النفقة على الأقارب ، يُرَى أن ذلك متروك الى العرف ، وإلى تحديد الذوق العام ، والعرف العام عند طبقات المعتدلين . فعمل المعتدلين فى كل طبقة من الطبقات هو القياس الذى يسمى القوام . وطبقات الناس مختلفة فى اليسار والإعسار ، وفى الشرف والجاه ، وفى الحسب والنسب ؛ والله سبحانه يقول : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قُدِر عليه رزقُه فلينفق مما آتاه الله ؛ لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسرا » . وما يعد إسرافا عند طبقة يعد بخلا وتقتيرا عند طبقة أخرى . وقد قال الله سبحانه لنبيه : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعدَ ملوما محسورا » . والناس فى كل زمان يفرقون بين الإسراف والتقتير ، ويعرفون ذلك بالإضافة الى كل طبقة والى كل فرد . والمراد من الناس هنا هم العقلاء الذين

لا يرون المال معبودا ، ولا يرونه شيئا لا قيمة له يرمى به ذات اليمين وذات اليسار ، بل الذين يعرفون حق نعمة الله منه ، ويعرفون للمروءة حقها ، وللدين حقه ، وللنفس حقها ، ولله حقه .

ولابد من الرجوع الى هدى القرآن وإلى آياته ليتضح هذا البحث

قال الله سبحانه « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرّم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة ، كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون »

طلب الله سبحانه التزين للمساجد حسبما يعرفه الناس فى عاداتهم وزمانهم ، كل حسبما يقدر عليه . وروى عن الحسن « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قام للصلاة لبس أجود ثيابه ، وكان يقول إن الله جميل يحب الجمال » . وطلب سبحانه الأكل والشرب من غير إسراف وتجاوز للحد ، بل مع التزام حدود القصد والاعتدال ، فإن الإسراف فى الطعام والشراب مضر بالبدن ، والاسراف فيهما وفى غيرهما مضيعة للمال .

والنهى عن الإسراف لا يقتصر على الطعام والشراب ، بل يعم غيرهما . وفى الحديث « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير مخيلة ولا إسراف ، فان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » . وعن ابن عباس : « كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت إذا أخطأك اثنان : سرف ، ومخيلة » والمخيلة الخيلاء والإعجاب والكبر .

وبين الله سبحانه أن الزينة فى الدنيا والطيبات من الرزق ، للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويشاركهم غيرهم فيها ، ولكنها فى الآخرة خالصة لهم لا يشاركهم غيرهم فيها .

وفى القرآن الكريم أيضا « لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » . فقد نهى الله سبحانه عن ترك الطيبات تنسكا وعبادة ، وطلب عدم تجاوز الحد الى الاسراف الضار بالجسد ، والإسراف الضار بالمال ؛ وطلب عدم الاسترسال فى الشهوات من مطعم ومشرب وغيرها ، حتى لا تكون اللذات هى الهمّ الأكبر من الحياة ، فان للمؤمن فى الحياة قصدا أسمى هو العلم ، والمعرفة ، والعبادة ، واكتناه سر الوجود ، والاحسان الى الناس ، والنفع العام للجماعة . وإذا كانت اللذات مشغولا بها الى حد البحث والطلب والانتظار والألم عند فقدها ، كان ذلك صارفا عن المقاصد السامية للمؤمن . وقد أنكر الله سبحانه فى الآية السابقة على من حرم زينة الله التى أخرجها لعباده ، فإن التحريم والتحليل حق الله لا يشاركه أحد فيه .

أباح الله الطيبات وحرم الخبائث حرم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، وحرم المسكر وكل ضار ، وحرم على الرجال الحرير المُصْمَت الخالص أو ما كان الحرير غالبا فيه ،

وحرم التشبه بغير المسلمين فى اللباس ؛ وذلك أن يلبس المؤمن ثوبا هو شارة مختصة بطائفة غير مسلمة . ثم أباح ما عدا ذلك على شرط القصد والاعتدال ، وذلك هو الموافق للفطرة ؛ فقد فطرت النفوس على الاستمتاع بالدنيا والطيبات من الرزق ، وأعطى الاسلام بذلك البدنَ حقه ، كما أعطى الروح حقه . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم » .

طلب الله القصد والاعتدال . وفى الحديث الشريف « الاقتصاد نصف المعيشة ؛ وحسن الخلق نصف الدين » . وفى الحديث « نعمّا المال الصالح للمرء الصالح ؛ وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ؛ واليد العليا خير من اليد السفلى » . وقال فى الوصية : « الثلث ، والثلث كثير ؛ إنك إن تذرهم أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس » .

هذا هو هدى القرآن : لا يحرم الزينة والطيبات من الرزق ، وينكر على من يحرم ذلك ، كما تفعل بعض الأمم وبعض الملل ؛ لكنه يطلب القصد ، فلا يجيز المباراة فى الزينة واللباس والحلىّ والمبانى وغير ذلك ؛ تلك المباراة التى خربت بيوتا كثيرة عامرة بسبب المغالاة فى الأفراح والحفلات واقتناء أداة الزينة التى لا يقدر مقتنيها عليها ؛ وقد كانت هذه المباراة وتلك المغالاة سببا فى خروج الثروة الى أيدى الشياطين ، وكانت سببا فى ضعف حال المسلمين .

هـذا هو الهدى ؛ لكن بعض العلماء رووا أحاديث فى الزهد ، منها الموضوع ، ومنها الضعيف . ولا شبهة فى أن بعض الخلفاء وبعض الصحابة وبعض الأئمة زهدوا وتقشفوا ، وأعرضوا عن طيبات الدنيا وعن زينتها ؛ لكن لهـذا أسبابا ، منها ضيق ذات اليد قبل أن يفتح الله عليهم أبواب الرزق ؛ ومنها مقاومة الفساد بعد أن فتح الله أبواب الدنيا واستولوا على ملك كسرى وملك قيصر ، ووجدوا ما لم يكونوا يعرفون من قبل ، واندفع بعضهم فى الاستمتاع دون الوقوف عند الحد ، وعند القصد ، وعند القوام .

وفى الرجوع الى الهدى المحمدى تبصرة ونور ، وضياء وشفاء . عن ابن عباس : لقد رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلل . وقد لبس صلى الله عليه وسلم الإزار والرداء ، ولبس الجبة والفَرُّوج ، وهما ثوبان يشبهان القباء والفرجية ، ولبس الخَميصة الـمُعْلمة والساذَجة ، ولبس فروة مكفوفة بالسندس ، وكان له جبة طيلسانية خسروانية لينة ، وكان له بردان أخضران وكساء أحمر ، وكان يحب الحَبَرة وهى ضرب من البرود ؛ لكن غالب ثيابه وثياب أصحابه نسيج القطن والصوف والكتان .

فسنته صلى الله عليه وسلم فى اللباس أن يُلبس ما تيسر على أن لا يكون نوعه محرما . وكان يحب فى الطعام الحلوى ؛ وقد أكل الضأن والدجاج والجزور ولحم الحُبَارى وطعام البحر ، وأكل الشواء والرطب والتمر ، وشرب اللبن خالصا ومشوبا ، وشرب نقيع التمر ، وأكل القديد

والدُّبّاء ، والتمر بالزبد ، وكان لا يشرب إلا النظيف العذب ، ويحب البارد الحلو ، وكان يجلب اليه الماء العذب من مسافة يوم أو يومين .

لم يكن صلى الله عليه وسلم فى الطعام واللباس يرد موجودا ، أو يتكلف مفقودا ؛ وما قرب إليه شىء من الطيبات إلا أكله ، إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير تحريم ؛ وما عاب طعاما قط ، إن اشتهاه أكله ، وإلا تركه .

هذا هدى القرآن والهدى المحمدى فى تناول الطيبات ؛ فمن تركها زهدا وتدينا وعبادة فلا حق له ؛ ومن أسرف فى الزينة واللذات فلا حق له ؛ ومن بخل على نفسه وعلى غيره وعشيرته فلا حق له ؛ ومن اتبع القوام فهو من عباد الرحمن الذين وصفهم الله سبحانه بأنهم إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان أمرهم بين ذلك قواما .

ومالك رضى الله عنه إمام فى الدين ، وإمام فى التقى ، لبس الدقاق ، وأكل الرقاق ، وجلس على الوطى ، واتخذ حاجبا . وعابه يحيى بن زيد النوفلى ، فقال له مالك : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » . غير أن مالكا تواضع فقال إن ترك ذلك خير من الدخول فيه . وربما كان الترك خيرا حتى لا يزيد الناس على مالك فيسرفوا ، وهو قدوة ، فيكون عمله سببا فى إسراف غيره .

« والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلقَ أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب الى الله متابا » :

الأثام : جزاء الإثم ، مثل النكال والوبال وزنا ومعنى . والخلود : المكث الدائم ، ويستعمل فى المكث الطويل .

من صفات عباد الرحمن التفكر فى خلق السموات والأرض ، واستعمال العقل واحترامه فيما هو خاص بسلطانه ويمكن أن يصل إليه ، فهم يستدلون بالعالم المصنوع على الخالق الصانع وعلى وحدته ووجوبه ، واختصاصه بالعبادة لاختصاصه بجميع صفات الكمال ؛ ولذلك لا يشركون فى عبادة الخالق أحدا ، حيا أو ميتا ، فى السماء أو فى الأرض ، لأن كل ما عداه لايضر ولا ينفع ، ولا يحيي ولا يميت ، ولا يملك عند الله شفاعة إلا بإذنه ، فهو وحده المعبود ، وهو وحده المستعان ، وهو وحده المقصود بالضراعة لتفريج الكرب وكشف السوء .

ومن صفاتهم عدم الاعتداء على النفس التى حرّم الله قتلها ، فلا يقتلونها إلا بحق ، من كفر بعد إسلام ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس .

ومن صفاتهم المحافظة على العرض ، فلا يقربون ما حرم الله قربانه عليهم .

نفى الله سبحانه عن عباد الرحمن هذه المنكرات الشنيعة ، بعد أن وصفهم بالصفات السابقة من العبادة ، والخوف من النار ؛ ومن حق هذه المنكرات أن يسبق نفيها على ذكر الأوصاف السابقة ، فإن الموصوف بالأوصاف السابقة لا يمكن أن يكون متصفا بشىء من هذه المنكرات . وسبب هذا هو التعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم ، كأنه بعد أن وصف عباده بالصفات السابقة قال : والذين هم مطهرون مما أنتم عليه .

وعن ابن مسعود : قلت : يارسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك .

بعد أن نفى الله سبحانه عن عباد الرحمن هذه الموبقات ، بيّن عقاب مقترفها فقال : إنه يلقى نكالا ، ويضاعف له العذاب يوم القيامة ، ويخلد فيه محتقرا ذليلا ، يجمع بين العذاب المادى والعذاب الروحى .

واسم الإشارة فى قول الله : « ومن يفعل ذلك » عائد على الأمور الثلاثة ، وهى : الشرك ، وقتل النفس ، والزنا ، كما هو الظاهر . ولا خلاف عند العلماء فى مضاعفة العذاب والخلود لهؤلاء إذا فسرت مضاعفة العذاب بالتشديد فيه ؛ أو قيل إن الكفار يعذبون على المعاصى ، ويعذبون على الشرك . وأما إذا قيل إن الكفار لا يعاقبون على المعاصى فلا بد من إرادة الشدة فى تفسير مضاعفة العذاب . ولا شبهة فى أن العذاب على الكفر شديد . ويدل على أن اسم الإشارة مرجعه الأمور الثلاثة ما ذكر فى الاستثناء من قوله سبحانه : « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا » فإن نقيض ذلك هو الشرك وغيره من المعاصى ، وهى هنا قتل النفس والزنا .

بين الله سبحانه جزاء مرتكب هذه الموبقات ، ثم بين أن الذى يقلع عنها ويرجع الى الله سبحانه ، فيؤمن به ، ويعبده لا يشرك معه غيره ، ويعمل الصالحات ، يبدل الله سيئاته حسنات ؛ والله غفور رحيم .

فما معنى هذا التبديل ؟ وهل هو فى الدنيا أو فى الآخرة ؟

قال قوم : التبديل فى الدنيا ، ومعناه أنهم يوفقون الى محاسن الأعمال ، يؤمنون ولا يشركون ، ويجاهدون فى سبيله فيقتلون أعداءه ولا يقتلون أولياءه ، ويعفون ولا يفجرون . فالتبديل تيسير للأعمال الصالحة ، وتوفيق اليها .

وقال بعضهم : التبديل فى الآخرة . وأحسن ما قيل فيه : أنه يضع بدل عقاب السيئة ثواب حسنة ، فهو تبديل الجزاء لا تبديل الأعمال .

والاستثناء فى قوله : « إلا من تاب » مع قوله : « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » ينفى العذاب كما ينفى مضاعفة العذاب بعد التوبة .

ومعنى قول الله سبحانه : « ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا » أن من يترك المعاصى ويندم على فعلها ويدخل فى العمل الصالح ، فانه بذلك يعد تائبا الى الله متابا مرضيا عنده مكفرا للخطايا ومحصلا للثواب . وقد قيل : "لله أفرح بتوبة العبد من المقلّ الواجد ، والظمآن الوارد ، والعقيم الوالد .

وقد قيل : إنها نزلت لبيان أن من يتوب بعد نزولها له حكم من تاب قبل ذلك ؛ فإن المشركين الذين كانت آية « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر » تعريضا بهم ، ظنوا أنها خاصة بمن آمن قبل نزولها ، فنزلت هذه الآية لبيان أن حال التائبين سواء .

« والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما » :

الزور : الباطل . وأصله تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته حتى يخيل الى من رآه أنه خلاف ما هو به . ومن عادة صاحب الباطل أن يزينه ، فهو يزين الشرك ، وينمق الكذب ، ويحسن المعاصى . وحضور الزور شهوده .

واللغو : كل ما ينبغى أن يطرح ويلغى . وأصل كلمة الكريم ماخوذة من قولهم : ناقة كريمة ، إذا كانت تعرض عن الحلب تكرما ، كأنها لا تبالى بما يحلب منها لغزارة لبنها ؛ واستعير ذلك للصفح عن الذنوب .

من صفات عباد الرحمن أن لا يحضروا باطلا ، ولا يساعدوا عليه ، وأن ينكروه ، فهم لا يحضرون مجالس الشرك والعصيان بأنواعه ، ينزهون أنفسهم عن الشر وأهله ، فان مشاهدة الباطل إعانة عليه وشركة فيه . ومن كلام عيسى : « إياكم ومجالسة الخطائين » . وشهادة الزور أمام القاضى من الزور المنهى عنه . ولا يجوز أن يخص الزور بالشرك أو بالكذب أو بالخوض فى القرآن والأنبياء ، بل يجب أن يكون عاما لكل باطل .

لا يحضرون الباطل ، وإذا مروا به مروا كراما ، معرضين عنه ، منكرين إياه ؛ وإذا قدروا على تغييره غيروه . وقد يكون مر الكرام بالمجالدة بالسيف ، كما إذا مر على قاطع طريق واستغاث به أحد ، فمر الكرام إذ ذاك يكون بالنجدة ولو أدى ذلك الى استعمال السيف .

« والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا » :

خر : سقط . وإذا قلت : خر أعمى أصم ، فمعناه الحرفى سقط أعمى أصم . ولكن العرب لا تريد ذلك من مثل هذا ، بل تريد : أقبل عليها أعمى أصم . وإذا قلت : لم يخر على الآيات

أعمى أصم ، كان معناه لم يقبل عليها كالأصم لا يعى ، وكالأعمى لا يبصر ما فيها ، مع إظهار الحرص عليها .

ونظير هذا التركيب من كلام العرب قولهم : سببت فلانا فقام يبكى ؛ يريدون فظل يبكى ، ولا قيام هناك ، ولعله أن يكون بكى قاعدا ؛ ونهيت فلانا عن كذا فقعد يشتمنى ، معناه فجعل يشتمنى ، وقد لا يكون هناك قعود . جرى هذا على ألسنتهم وفهموه .

ومعنى الآية : أنهم إذا ذكروا بآيات الله أكبوا عليها وأقبلوا ، سامعين بآذان واعية ، مبصرين بعيون راعية ، فليس حالهم كحال من إذا ذكر بالآيات رأيته كالأصم لا يعى ، وكالأعمى لا يبصر ؛ ومن يسمع بآذان واعية وعيون راعية يتدبر الآيات ، ويتذكر ويتعظ ، ويتبصر ، ويقف عند الحدود ، ويرعى حق الواحد المعبود .

« والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماما » :

قرة العين : هى السرور والفرح ، مصدر من قرت عينك قرة ، أى فرحت وسررت ، لأن الفرح يجعل العين قارة ، أو لأن دمعة العين من السرور باردة . والإمام : الحجة المقتدى به . ووحدت القرة لأنها مصدر ، ولا تكاد العرب تجمع المصادر . ووحد الإمام لأنه ذهب به مذهب الاسم لا الصفة ؛ وإذا ذهب به هذا المذهب وُحد ، ويكون معناه : حجة . تقول : هم إمام ، أى حجة ، كما تقول : هم بينة . وقال بعضهم : إن الإمام جمع آم ، كصيام فى جمع صائم .

بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمة جاهلة ، على أشد حالة بعث عليها نبى فى فترة ، ما يرون دينا أفضل من عبادة الأوثان ، فجاء بفرقان فرق بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده ، حتى كان الرجل يرى ولده ووالده وأخاه كافرا ، وقد فتح الله قلبه للاسلام ، وهو يعلم أنه إن مات قريب له من هؤلاء دخل النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه فى النار ؛ لذلك كان المسلمون يطلبون من الله أن يهب لهم من ذرياتهم وزوجاتهم من يطيع الله ويعبده لتقر عينهم بهذا . ومن الطبيعى فى النفوس أن يحب الشخص لذريته وأهله ما يحب لنفسه ، وأن يتمنى أن تكون البيئة التى هو فيها من ذريته وأزواجه بيئة صالحة . والبيئة الفاسدة تجعل العيش مريرا ، وتذهب بالفكر وتقسمه ، فلا يستقيم عيش ، ولا تتجه النفس اتجاها كاملا الى الخيرات والعبادات والنفع العام .

من صفات عباد الرحمن أن يطلبوا ذرية صالحة مؤمنة ، وأزواجا مؤمنات . ومن صفاتهم أن يطلبوا من الله درجات عاليات فى التقوى والطاعة يشار اليها ، ويقتدى بهم فيها .

« أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، ويُلَقَّون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما » :

الغرفة : العُليّة . وكل بناء عال فهو غرفة . وقد ذكرت الغرفة واحدة والمراد الغرفات ، لدلالة الواحد على الجنس ، بدليل قوله سبحانه : « وهم فى الغرفات آمنون » ، وقوله : « لهم غرف من فوقها غرف » والمراد بها الدرجات العالية فى الجنة . والتحية : الدعاء بالتعمير . والسلام : الدعاء بالسلامة .

بيّن الله سبحانه أنه أعد لعباده الموصوفين بالصفات السابقة جميعها جزاء على صالح أعمالهم هو الدرجات العالية فى الجنة ، وفيها تتلقاهم الملائكة بالتحية والسلام ، فيدعون لهم بالتعمير والخلود ، ويدعون لهم بالسلامة . هذه الدرجات استحقها هؤلاء بصبرهم على الطاعات ، وعلى ترك الشهوات ، وعلى أذى الكفار ومجاهدتهم ، وعلى الفقر والمصائب ، وغير ذلك مما يعرض للمؤمن من المكروه . وهذا دليل على أن المؤمنين يستحقون الجنة بأعمالهم . وهذا الاستحقاق بوعد الله سبحانه ، وهو صاحب الفضل فى وعد عباده بالجنة ، وبهذا الوعد استحقت الجنة .

« قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ، فقد كذّبتم فسوف يكون لزاما » :

يقال : ما أعبأ بفلان ، أى ما أصنع به ، كأنه يستقله ويحتقره ، فوجوده وعدمه سواء وهو بمنزلة قولهم : لا وزن له عندى .

أمر الله سبحانه رسوله أن يقول للناس إنه لا وزن لهم عنده لولا العبادة ، فلولاها ما اكترثت بهم ؛ ولا يوجد معنى آخر ينظر إليه الله سبحانه فى عباده سوى العبادة ، لأنه قال : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . فلولا الإيمان والعبادة والتوجه إليه فى الشدائد ، وشكره على الإحسان ، لما نظر إليهم نظرة اعتداد ، وهو فى غنى عن العبادة لا شبهة ؛ وما طالبهم بها إلا لمصلحتهم ومصلحة الخلق ونظام العالم .

ثم وجه إليهم الخطاب فقال : « فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » : يعنى فقد خالفتم بالتكذيب حكمى ، وسوف يلزمكم أثر ذلك التكذيب ، فتكبون فى النار . ونظير ذلك أن يقول ملك لمن استعصى عليه : من عادتى أن أحسن الى من يطيعنى ويتبع أمرى ، فقد عصيت فسوف ترى ما أحله بك بسبب العصيان .

والخطاب موجه الى الناس عامة ، ومنهم مؤمنون عابدون ، ومنهم مكذبون عاصون ، نخوطبوا بما وجد فيهم من العبادة بقوله : « قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم » ، وبما وجد فيهم من التكذيب بقوله : « فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » .

والآن نلخص أوصاف عباد الرحمن : فهم هينون لينون لا يمشون فى الأرض فسادا ، وهم صابرون على الأذى لا يجهلون على من يجهل عليهم ؛ وهم قائمون الليل فى عبادة الله ،

قانتون وجلون ، يطلبون النجاة من العذاب ؛ وهم على العدل والقصد فى أموالهم لا يسرفون ولا يقترون ، ولا يعبدون غير الله سبحانه ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، ولا يفجرون ويعتدون على من حرم الله ، ولا يحضرون مجالس الباطل ، وإذا مروا بها مروا كراما ، وإذا ذكروا بآيات ربهم أقبلوا عليها مستمعين واعين ؛ وهم لا يحبون وسط السوء وبيئة المعصية ؛ فهم يطلبون ذرية صالحة ، وأزواجا صالحات ؛ وهم راغبون فى الطاعة يطلبون أن يكونوا أئمة فيها يشار إليهم ويقتدى بهم .

هؤلاء هم عباد الرحمن الذين أعد الله لهم غرفا فى الجنة ، ودرجات عالية ، تحييهم الملائكة وتسلم عليهم ، ووعدهم الخلود فى تلك الغرف ، وهو نعم المستقر ونعم المقام .

وقد اشتملت هذه الأوصاف على ما يسمى الضروريات ، وهى حفظ النفس والعرض والمال ، وحفظ العقل من التدنى فى الرجس والإشراك والمعتقدات الفاسدة ؛ وعلى حال العبد مع الله ، وحاله مع الناس .

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من عباد الرحمن فى غرفات الجنات ، نُلَقى من الملائكة تحية وسلاما .

السيرة المحمدية
تحت ضوء العلم والفلسفة

المعركة الفاصلة بين المسلمين والمشركين — وقعة الأحزاب

إن الحالة القبيلية التى كان عليها العرب لم تكن لتسمح لهم أن يجمعوا على أمر يقومون به مجتمعين ، وإن كان له أكبر تعلق بهم كافة . ولم يكونوا من الناحية الدينية أيضا على شىء مما يدفع غيرهم الى التكافل للذود عن عقائدهم الموروثة ، فلم يكترثوا لظهور دين جديد يعيب عليهم وثنيتهم ، ويحقر آلهتهم ، ويتوعدهم بالهلاك وسوء المنقلب . هذه الحالة تكشف عن مبلغ التفكك الذى كانوا عليه ، وعن خمود العاطفة الدينية فيهم . فإذا كانت قريش قد تحركت لمكافحة المسلمين فى دار هجرتهم مرتين قبل هذه ، فان ذلك منها كان يرجع الى عوامل اقتصادية ، لإزالة العقبة التى أقامها المسلمون فى طريقهم الى الشام . ولولا ذلك لما حدَّث أحد فى قريش نفسه لغزو المسلمين فى يثرب .

ولكن اليهود الذين نزلوا بين أظهرهم مهاجرين منذ أجيال ، وتعلموا لغتهم ، وتسموا بمثل أسمائهم ، كانوا على غرار إخوانهم فى جميع بقاع الأرض ، يعرفون الوحدة الاجتماعية ، والجامعة الدينية ، ويدركون ما يبتنى على انتشار دين بيِّن المقاصد والغاية فى البلاد العربية ، من الوحدة الاجتماعية والسياسية ؛ وهم مع كفرهم بهذا الدين كانوا يرون فيه خطرا على وجودهم هنالك ، وكانوا يظنون أن المسيحيين إذا كانوا على ما أُمروا به من الرحمة والعطف ، يبالغون فى اضطهادهم ، فلا يعقل أن يجىء أهل دين يكونون أرق قلبا منهم ؛ لذلك هالهم أن يستتب الأمر للاسلام فى دار هجرته الجديدة ، فلا يلبث أن تصبح له دولة وصولة ، فيجدوا أنفسهم مضطرين للهجرة ، والى أين هذه المرة ، وليس فى المعمور من يرحب بقادم عليهم من أهل ملة غير ملتهم ؟ حملهم هذا كله أن ينتدب جماعة من عِلْيتهم ، منهم سلام بن مشكم وابن أبى الحقيق وحيي بن أخطب ، خرجوا من خيبر وقدموا على قريش فى السنة الخامسة من الهجرة ، وأخذوا يحسّنون لهم أن يؤلبوا العرب على حرب محمد وجماعته ، حتى يستأصلوهم أو يفرقوا وحدتهم ، ويبطلوا دعوتهم ، خشية أن تصبح لهم دولة فلا يكون لهم ولا لغيرهم محيص عن الخضوع له ، والدخول فى دينه ، وهو ما قد لا يرضاه منهم . وما زال هذا الوفد يحسنون لقريش هذا الأمر

ويسولونه لهم حتى زعموا أن ما عليه المشركون من الدين خير من الاسلام الذى يدعو إليه محمد . وكبير من أمة موحدة أن تداهن أمة وثنية الى هذا الحد الشائن ؛ وقد سجل الكتاب الكريم هذا الخزى عليهم بقوله تعالى : « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبْت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا » . فسر المشركون من هذه الشهادة وقبلوا دعوتهم ، لا لأنهم يأبهون بالدين ، ولكن ليتخلصوا من عدو منع عليهم التقلب فى البلاد ، وتلمس الرزق منها .

ثم جاء هذا الوفد بنى غطفان وكلموهم فى غزو المسلمين ، وما كان ليهمهم هم أيضا أمر الدين ، ولكنهم رشوهم بمحصول تمر خيبر سنة ، فقبلوا دعوتهم .

فخرجت قريش وغطفان ومعهما حلفاؤهما ، فكانت عدة الأولين أربعة آلاف معهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير ، ولاقتهم بنو سليم وعددهم سبعمائة ، تحت قيادة سفيان بن عبد شمس ، وتبعهم بنو أسد تحت قيادة طليحة بن خويلد . وخرجت غطفان تحت قيادة عيينة بن حصن ، وبنو مرة تحت إمرة الحارث بن عوف ، وبنو أشجع تحت زعامة مِسعر بن رُخيلة ، وخرج من يتصل بهم من القبائل حتى بلغ عددهم عشرة آلاف ، وقبل هؤلاء المتحالفون أن يكونوا جميعا تحت قيادة أبى سفيان بن حرب سيد قريش وقائدها المحنك .

لما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم خبر خروج هذا الجيش ، ندب أصحابه للجهاد ، فكان عددهم ثلاثة آلاف ومعهم ست وثلاثون فرسا .

وبينما هم ينتظرون قدوم المشركين أشار سلمان الفارسى رضى الله عنه على النبى صلى الله عليه وسلم ، أن يتقى المغيرين عليه بخندق على عادة قومه . فقبل النبى هذه المشورة وأمر بعمله ، وساهم بنفسه فى حفره ، ورفع التراب على عاتقه . وامتنع أكثر المنافقين عن العمل . وكان سلمان يعمل عمل بضعة أشخاص ، مدفوعا بشدة إيمانه . فتنافس فيه الصحابة ، فقال الأنصار : سلمان منا ، وقال المهاجرون : بل هو منا . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « سلمان منا آل البيت » .

ولما أقبلت القبائل المتحالفة ذهب حيى بن أخطب اليهودى الى سعد بن أسد القرظى سيد بنى قريظة من اليهود المحالفين للمسلمين ، وما زال به حتى أغراه على نقض عهده والانضمام الى القبائل المتحالفة ، ولكنه ما عتم أن رجع عما قاله ولم ينضم الى المغيرين .

وخرج المسلمون من المدينة فى ثلاثة آلاف تحت قيادة النبى صلى الله عليه وسلم ، فجعلوا ظهورهم الى جبل سَلْع وعسكروا إزاء المشركين وبينهم الخندق . وعظم البلاء على المسلمين ، وجاهر المنافقون بما تكنه صدورهم ؛ وقد حكى الله ذلك عنهم فقال : « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا » ، وقالوا : « يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا » وقالوا : « إن بيوتنا عورة (أى غير حصينة) » ، واستأذنوا فى الرجوع

ليحموها . وقال معتب بن قشير ، وكان منهم : كان محمد يرى أن نأكل من كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب الى الغائط .

عند ذاك رأى النبى صلى الله عليه وسلم أن يحاول فصم جماعتهم بما يؤثر على أنفسهم من متاع الدنيا ، فبعث الى عيينة بن حصن الفزارى قائد بنى غطفان ، والى الحرث بن عوف المرى قائد بنى مرة ، أن يرجعا عن قتاله ولهما ثلث ثمار المدينة . ولكنه أراد قبل أن يبت فى الأمر أن يستشير زعيميها الكبيرين : سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فطلبهما ، ولما حضرا استشارهما فى ذلك . فقالا يا رسول الله هذا أمر تحبه فتصنعه ، أم شىء أمرك الله به ، أم شىء تصنعه لنا ؟ فإن كان أمرا من السماء فامض له ، وإن كان أمرا لم تؤمر به ولك فيه هوى ، فسمعا وطاعة ، وإن كان هو الرأى ، فما لهم عندنا إلا السيف . فقال رسول الله : لو أمرنى الله ما شاورتكما ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر شوكتهم الى أمر ما ، وأبطل ما عزموا عليه .

لما قدم جيش القبائل المتحالفة ، نزلت قريش بمجتمع السيول بين مكانين حيال المدينة يسميان بالجرف والغابة ، هم ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة ، ونزلت غطفان ومن تبعها من أهل نجد الى جنب جبل أحد .

أما جنود المسلمين فجعلوا ظهورهم الى جبل سلع ، كما قدمنا ، والخندق بينهم وبين القوم .

ولما تصاف الفريقان للقتال ، أقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له ينظر من أى ناحية يقتحم الخندق ، فهوى فيه واندقت عنقه ، فعظم ذلك على المشركين وطلبوا الى رسول الله أن يسلمهم جثته ليدفنوه ويدفعون اليه عشرة آلاف درهم ، فسلمه إليهم ليدفنوه ولم يقبل الدية .

وقف المشركون دون الخندق حائرين لا يدرون ماذا يعملون لاقتحامه ، وكان كبار قادتهم يتناوبون عليه ، فكان أبو سفيان يغدو إليه يوما ، وخالد بن الوليد يوما ، وعمرو بن العاص يوما ، ولم يكونوا قد أسلموا بعد ، ويغدو غيرهم كذلك ، يجيلون خيلهم يفترقون مرة ويجتمعون أخرى ، يناوشون المسلمين ويناضلونهم بالنبل .

وبينما الجيشان على تلك الحال ، والمسلمون فى قلتهم مستسلمون لقبول ما قُدِّر عليهم ، مع ترابطهم ترابطا لا تفصم له عروة ، إذ هبت ريح صفراء عصفت بالمعسكرين معا ، واشتد البرد والظلام ، حتى اضطر أكثر المسلمين الى اللجأ الى دورهم خشية الهلاك ، ولم يبق مع النبى صلى الله عليه وسلم فى ميدان القتال غير ثلاثمائة ، ولم يقتصر أمر هذه الريح على ما أثارته من الرمال ، وما أحدثته من برد قارس ، ولكنها مالبثت أن اشتد هبوبها حتى قلعت الأوتاد ، وأطفأت النيران ، وألقت الخيام وأكفأت القدور ، وسفت التراب ، وأثارت الحصباء ، فرأى المشركون أن المقام على هذه الحالة متعذر ، وخاصة بعد أن أقاموا إزاء الخندق أسبوعين ، وقيل أربعة

وعشرين يوما ، وقيل شهرا ، لم يجدوا وسيلة لاقتحامه ، فقرروا العدول عن هـذه الغارة ، وأول من أعلن ذلك قائدهم أبو سفيان إذ قال :

« يا معشر قريش والله إنـكم لستم بدار مقام ، وقـد هلك الـكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة (وكانت امتنعت عن الانضمام اليهم) ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل » . وأخذ بزمام بعيره يقوده ويقول للناس : ارحلوا ارحلوا ! فجعـلوا يرحلون حتى لم يبق منهم أحد ، ونجى الله المؤمنين من غائلة المشركين ، وكانت هذه الغارة خاتمة محاولاتهم الشريرة التى رموا بها الى إطفاء نور الله فأبى الله إلا أن يتم نوره .

وقد ذكر الله هذه الغارة فى سورة الأحزاب من كتابه الـكريم ، وذكر فيها من أحوال المنافقين ودسائسهم ما فيه معتبر . قال الله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود ، فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لا مُقام لـكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة ، وما هى بعورة ، إن يريدون إلا فرارا . ولو دُخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ، وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من المـوت أو القتل ، وإذن لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا . قد يعلم الله المعوِّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمَّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحةً عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ، أشحةً على الخير ، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا . يحسَبون الأحزاب لم يذهبوا ، وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائـكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا . لقد كان لـكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا . ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدَنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما . (أى أنهم لما رأوا الأحزاب مقبلين يتوقدون حماسة ، قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله من نزول الشدائد امتحانا لإيمان عباده ، وقد صدق الله ورسوله فى أن العاقبة للصابرين ، وما زادهم هول ما رأوا إلا إيمانا وتسليما) . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا . ليجزى الله

الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء ، أو يتوب عليهم ، إن الله كان غفورا رحيما . ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا »

رأينا فى هذه الغارة الفاشلة :

الذى تبيناه من النظر فى عوامل هذه الغارة وأدوارها عدة أمور :

(أولها) أن قريشاً وسائر العرب كانوا بسبب ما هم عليه من القصور الاجتماعى والدينى قليلى الاكتراث لما يحدث بعيداً عنهم من التطورات لطائفة أخرى ، حتى ما كان منه عائدا بالضرر على معاشهم . وهذا الضعف فى الشعور نتج من حالة التفكك التى كانوا عليها ؛ والمجتمع كالفرد إن لم يتم تألفه ، ويكمل تشكله ، لا تظهر فيه خصائص الاجتماع ولا حوافظه . ولو لا أن رجالا من اليهود انتدبوا لاهاجة قريش وبعض القبائل المحالفة لهم على الغارة على المسلمين ، لما فعلوا . ولما كانوا قد دُفعوا اليها دفعاً باغراء غيرهم ، فان ما حدث من ثورة الريح فى تلك المنطقة كان كافيا فى إرجاعهم عن قصدهم . نعم إن العواصف التى ثارت فى سنة (١٥٨٨) على أسطول فيليب الثانى ملك أسبانيا ، أمام شواطىء انجلترة ، كفت هذه المملكة شره ، وكان أقوى أسطول فى العالم ، وقد دُعى (أرمادا) ومعناها الذى لا يقهر ، ولكن كان لخيبته سبب مادى وهو أن تلك العواصف حطمت أكثره على صخور الجزر البريطانية فلم يعد يصلح لعمل ، فعاد ما سلم منه على أسوأ حال . ولكن الريح الباردة التى ثارت على الجيوش المتحالفة لم تحدث من الخسائر المادية ما يقتضى أن يرجعها أدراجها ، وقد دل الكتاب الكريم على ذلك بقوله تعالى : « وجنودا لم تروها » وهذه الجنود هى العوامل الروحانية التى نفثت الرعب فى قلوبهم ، وسولت لهم النكوص على أعقابهم ، فلو كانت تلك الريح تكفى وحدها فى خذْلهم لما عززها الله بهذه العوامل .

والذى يدل على أن العرب كانوا فى قصور بعيد المدى من الناحيتين الاجتماعية والدينية ، أن بنى غطفان قبلوا أن يأخذوا ثلث تمر المدينة ثمنا لخيانة حلفائهم ، مستهينين بالغرض الكبير الذى دعا الى تآلفهم ، وليس هذا بعجيب فى حياة القبائل .

(ثانيها) أن إيثار الأنصار للدفاع عن حوزتهم بالسيف ، حين استشارهم رسول الله فى بث روح التخاذل بين المشركين ، بالتنازل لبعضهم عن ثلث تمر المدينة ، يكشف عن مبلغ استخفافهم بقوة أعدائهم ، واستهانتهم بخطر جموعهم التى حشدوها لقتالهم ، وهذا لا يكون إلا لتشبع نفوسهم باليقين فى التغلب عليهم ، وثقتهم بسعة العقل الذى يتولى قيادتهم .

(ثالثها) أن عدم تخاذلهم حيال هذه الجموع الزاخرة التى خفت لقتالهم ، وقلة اكتراثهم لإجماع قبائل العرب واليهود على استنكار ما هم عليه ، يبين عن إيمانهم الراسخ بأن ما هم عليه

هو الحق ، وأن ما عليه خصومهم هو الباطل ؛ وهو أمر يلفت نظر البسيكولوجيين ويحيرهم . فإن الخمس السنين التى قضوها فى الإسلام ، وهم من شعب معروف بضعف العاطفة الدينية ، وبعدم التعصب لأى مذهب من المذاهب الفلسفية ، يعتبر من الانقلابات الأدبية التى لم يعهد ما يشبهها فى تاريخ النفسية الانسانية . فإن هذه المدة القصيرة لا تكفى لأن تحمل نفوس جماعة قليلة العدد للاستماتة فى الدفاع عن عقيدة ، والاستشهاد فى سبيلها ؛ لا سيما وهذه الغارة ظهرت فيها الحمية الجاهلية كاشرة عن أنيابها ، معتزمة أن تخوض غمرة حرب ماحقة لا رحمة فيها ولا هوادة . فالوقوف حيال هذا التوثب الجنونى لا يشعر بالشجاعة البالغة أقصى حدودها فحسب ، ولكن يشعر بنزعة من التضحية لا توجد إلا فى أدوار الانتقالات الذريعة فى تاريخ الاجتماع البشرى . فكل متأمل فى موقفى هاتين الطائفتين وفى الروحين اللتين تقودهما الى التناحر ، كان يحكم لأول وهلة أن هذه الطائفة القليلة تضحى بنفسها فى سبيل عقيدتها ، فان قدر لها النصر بورك لها فى وجودها ، وثبتت عقيدتها ، وآلت إليها الدولة فى نهاية الأمر .

(رابعها) أن ثبات جماعة المسلمين إزاء هذه الكارثة الفادحة ، وهم من بيئات مختلفة ، ومتأثرون بأحقاد قديمة لا تزال صورها حية فى نفوسهم ، يدل على مبلغ قوة الرباط الاجتماعى الذى كان يجمعهم . فأهل يثرب كانوا من الأوس والخزرج وهما قبيلتان كانتا فى حالة تناحر منذ عشرات من السنين ، وفى حالة نزاع مع القبائل اليهودية التى كانت قريبة منهم ، ومعهم بضع عشرات من أهل مكة آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وهاجروا معه فرارا بدينهم وحياتهم ، ولم يتوقع أهل يثرب ولا أحد ممن كانوا معهم أن يصبحوا فى يوم من الأيام هدفا لمجموعة من القبائل يُرى ببداهة العقل أنهم لا يقوون عليها ، أفلا يكون ثباتهم على ترابطهم حيال هذه النازلة دالا دلالة لا تقبل النقض على قوة الرابطة التى كانت تجمع بينهم ، قوة لا توجد وسيلة فى الأرض تستطيع أن تحلها أو أن تضعف من استحكامها ؛ وأية وسيلة أفعل من هذه الوسيلة وهى أن تتألب أقوى القبائل العربية عليها ، يقودها قواد مشهورون بسعة الحيل فى إدارة المعارك ، وفرسان معروفون بشدة البأس فى مجالدة الأبطال ، والصبر على الأهوال ؟

(خامسها) أن اليهود الذين تخيروا أن يجعلوا البلاد العربية دار هجرتهم ، كان لهم يد قوية فى حمل المشركين على التألب على المسلمين حرصا على طمأنينتهم ، وسلامة وجودهم ، ولو كانوا أبعد نظرا لساعدوا المسلمين على التغلب على الجاهليين ، لأن الاسلام بما جاء به من سعة الصدر ، وحماية الضعفاء ، والوفاء بالعهد ، كان أجدى عليهم من سلطان أهل الشرك . وقد تبين ذلك فيما عاملهم به من العدل والكرم بعد أن دالت له الدولة ، فبدل أن يحفظ عليهم ما قاموا به من التأليب عليه فى عهد تكوّنه ، وصى بالإحسان اليهم والبر بهم وبسائر أهل الكتب السماوية ، فكان وجوده رحمة لهم .

وإننا ننبه الى هـذا هنا تبريرا لما قام به النبى صلى الله عليه وسلم بعد هـذه الوقعة من إجلاء من بقى منهم عن حصونهم ، دفعا للغوائل التى تتطرق الى جماعة المسلمين من ناحيتهم ، وهذا حق مشروع لـكل جماعة تود أن تنال نصيبها من الوجود ، ما دامت لا تضمر لجماعة سخيمة نفسية ، ولا تصدر فيما تعمله عن العصبية الجاهلية .

(سادسها) لما أشار سلمان الفارسى رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق ، لم يتردد فى الأخذ برأيه ، فأمر بحفره وساعد فيه بنفسه ، فضرب أكمل الأمثال للتعاون الفعلى بين القيادة العليا والجيش ، وهو عمل خطير لم يسبق اليه ، وخطورته تبدو من ناحية أدبية أخرى وهـو عدم التورع من الأخذ بما ثبت نفعه ولو نقلا عن المشركين . وهو من ناحية ثالثة يسوغ التجديد بل يحتمه ما دامت حاجة الجماعة تستدعيه . وقد سار أصحاب النبى وجميع من جاءوا بعدهم على هذا السمت ، فنقلوا كلما رأوه من الأمور النافعة فى الجماعات التى احتكوا بها ، ولم يدعوا العـلوم والفلسفة حتى ما كان منهما مهجورا فى بطـون الـكتب الأجنبية ، فـكلفوا بها يهودا ونصارى ومجوسا من عرفة اللغات قاموا بترجمتها وإذاعتها ، فـكان ذلك سببا فى تخويل المسلمين زعامة العلم والمدنية فى الأرض قرونا طويلة ، وفى الاكبار والإعجاب الذى يحيط به المؤرخون العالميون تاريخهم الحافل بعظائم الأمور ؟

محمد فريد وجدى

بلاغة الاعتذار

روى أبو العيناء محمد بن القاسم الهاشمى قال : كان أحمد بن يوسف الـكاتب قد تولى صدقات البصرة (أى جمع زكاة أهلها) ، فجار فيها وظـلم ، وكثر الشاكى له والداعى عليه . ووافى باب أمير المؤمنين زهاء خمسين رجلا من جلة البصريين يشكون منه . فعزله المأمون وجلس لهم مجلسا خاصا ، وأقام احمد بن يوسف لمناظرتهم (وهو المتهم نفسه) . فـكان مما حفظ من كلامه أن قال : يا أمير المؤمنين لو أن أحدا ممن ولى الصدقات سلم من الناس لسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال الله عز وجل : « ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، فان أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » فأعجب المأمون بجوابه وخلى سبيله .

السنة

الشفاعة عند الله يوم القيامة

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا ! فيأتون آدم فيقولون : أنت الذى خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، فاشفع لنا عند ربنا ، فيقول : لستُ هُنَاكُمْ ، ويذكر خطيئته ، ويقول : ائتوا نوحا أولَ رسول بعثه الله ، فيأتونه ، فيقول : لستُ هناكم ، ويذكر خطيئته ، ائتوا إبراهيم الذى اتخذه الله خليلا ، فيأتونه ، فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته ، ائتوا موسى الذى كلمه الله ، فيأتونه ، فيقول : لست هناكم ، فيذكر خطيئته ، ائتوا عيسى ، فيأتونه ، فيقول : لست هناكم ، ائتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتونى ، فأستأذن على ربى ، فاذا رأيته وقعت له ساجدا ، فيدعنى ما شاء الله ، ثم يقال لى : ارفع رأسك ، وسل تعطه ، وقل يسمع ، واشفع تشفّع ؛ فأرفع رأسى فأحمد ربى بتحميد يعلمنى ، ثم أشفع ، فيحدلى حدا ، ثم أخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأقع ساجدا مثله فى الثالثة أو الرابعة حتى ما يبقى فى النار إلا من حبسه القرآن » وكان قتادة يقول عند هذا : « أى وجب عليه الخلود » . رواه البخارى فى كتاب الرقاق .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معنى الحديث إجمالا . (٢) بيان معنى الشفاعة عند الله يوم القيامة ومن يستحق أن يشفع . (٣) بيان معنى خطيئة الأنبياء التى وردت فى الحديث .

(١) روى البخارى أيضا هذا الحديث فى تفسير سورة البقرة ، فقال : « يجتمع المؤمنون يوم القيامة » فالمراد بالناس هنا المؤمنون الذين كانوا يصدقون بالرسل ويتبعونهم فى هذه الحياة الدنيا . أما الكافرون الذين أشركوا مع الله غيره فقد ورد فى الصحيح ما معناه أنه ينادى مناد لِتتّبعْ كل أمة معبودها ، ويؤتى لكل أمة بما كانت تعبده فيكون إماما لها يقودها الى النار . أما المؤمنون الذين صدقوا بالله ورسله فهم الذين يذهبون الى الرسل ليشفعوا لهم عند ربهم فى فصل القضاء . فقد ثبت أن الناس يصيبهم ذهول عظيم يوم القيامة

كما قال تعالى : «إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى » . وورد فى الصحيح ما معناه أن عائشة رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل يحشر الناس عرايا ؟ فقال لها : نعم ، فقالت كيف يختلط النساء بالرجال وهم على هذه الحالة ؟ فقال لها : الأمر أخطر مما تظنين ، لأن الناس فى ذلك الوقت يكونون فى شغل عظيم وهم كبير ، كل واحد مشغول بنفسه ، فلا يعرف الوالد ولده ، ولا الولد أباه من شدة الذهول والهول . نعم إن بعض المؤمنين العاملين يكونون بمنجاة من ذلك الهول العظيم ، كما ورد فى الصحيح أيضا ، ولكن السواد الأعظم من الناس لا ينجون من ذلك الهول وإن تفاوتت حالتهم شدة وضعفا .

وقوله : « فيأتون آدم فيقولون أنت الذى خلقك الله بيده الخ » : أجمع المسلمون على أن الله تعالى منزه عن الجارحة ، فليست له يد تشبه يد عباده ، بل هو سبحانه منزه عن جميع المواد « ليس كمثله شيء » ، وأنه سبحانه خالق لجميع الموجودات ، سواء كانت مادية أو مجردة عن المواد ، وسواء كانت إنسانا أو حيوانا أو جمادا ، وأنه سبحانه هو مصدر لجميع الكائنات باتفاق العقلاء الذين عرفوا معنى الألوهية وما تستلزمه من الكمال . فقوله فى الحديث : « أنت الذى خلقك الله بيده » معناه : أنت أول آثار قدرة الله تعالى من النوع الإنسانى ؛ فاليد معناها هنا القدرة الإلهية . وأما من يقول إن الله خلقه بيد لا نعرفها فهو متفق مع الذين ينزهون الله تعالى عن المادة والجارحة ، ولكنه يقف من أمثال هذه الآيات موقف الذى لا يعرف المراد منها تورعا عن الخوض فيما لا يكلفنا الله معرفة حقيقته . ولكن مثل هذا الرأى قد لا يلتقى مع صراحة القرآن الكريم ودلالته البليغة على كل معنى يريد التعبير عنه ، وما دامت اللغة العربية تتفق مع التأويل فمن الحسن أن يحمل كلام الله على هذا التأويل . وظاهر أن معنى القدرة يصح التعبير عنه لغة باليد ، لأن آثار القدرة تظهر على اليد ، فمعنى يد الله قدرة الله .

وقوله : « لستُ هُناكُمْ » معناه أن هذا المقام ليس لى بل لغيرى . فهذه العبارة كناية عن أن منزلته دون المنزلة المطلوبة . ولا يخفى ما فى ذلك من تواضع الرسل وخوفهم من ربهم العليم القدير .

وقوله : « ائتوا نوحا أول رسول الخ » : فى ذلك إشكال وهو أن قبل نوح رسل ، وهم آدم على الصحيح ، وشيث ، وإدريس . وقد أجاب بعضهم بأنهم كانوا أنبياء لا رسلا ، ولكن هذا الجواب ليس بشيء ، لأن الله تعالى قد خاطب آدم فقال له : « اسكن أنت وزوجك الجنة » الآية بطريق الوحى الصريح ، وفى هذه الحالة يجب على آدم أن يبلغ رسالة ربه الى زوجه ، وليس من المعقول أن يتناسل آدم ذرية بدون أن تعرف ربها ، فلا بد من أن يرسل اليهم آدم

ليعلمهم كيف يعيشون . وأما شيث فقد ورد أنه كان مرسلا فى حديث صححه ابن حبان . وكذلك إدريس ، فانه ورد أنه هو إلياس .

والذى يظهر لى فى الجواب : أن نوحا كان أول رسول ناضل قومه ، ومكث يدعوهم الى عبادة الله ألف سنة إلا خمسين عاما ، ويحتمل من قومه كل محنة وشدة . أما آدم وشيث وإدريس فان رسالتهم كانت مقصورة على عدد معين ، ولم يلاقوا شيئا مما لاقاه نوح ، فلذا صح بأن يعبر عنه بأنه أول رسول .

وقوله : « حتى ما يبقى فى النار إلا من حبسه القرآن » : قد فسر قتادة معناه بقوله : « أى وجب عليه الخلود » ، وظاهر هذا التفسير صريح فى أن النبى صلى الله عليه وسلم يشفع فى الكبائر ، إلا اذا أريد من الخلود طول المكث كما صرح به القرآن فى قوله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها » فالخلود هنا طول المكث ، لأن القاتل ليس بكافر على التحقيق ؛ وعلى هذا فتكون الجرائم المتعلقة بحقوق العباد لا يشفع فيها الرسول . نعم قد يقال فى الجواب إن الله سبحانه يرضى أصحاب الحقوق فيسامحون بشفاعة النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) أما الشفاعة فمعناها فى اللغة السؤال فى التجاوز عن الذنوب والجرائم ، والمشفع بفتح الفاء هو الذى تقبل شفاعته ، والمشفِّع بكسر الفاء هو الذى يقبل الشفاعة . وقد تطلق الشفاعة لغة على كلام الشفيع للملك فى حاجة يسألها لغيره . وتطلق الشفاعة أيضا على الطلب من الغير ، يقال : شفع اليه فى أمر ، طلب اليه أن يفعله ؛ ويقال شفع لى يشفع شفاعة ؛ وتشفع طلب لى كذا . ولا يخفى أن المعنى الأول للشفاعة وهو السؤال فى التجاوز عن الذنوب والجرائم فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة يصح أن يراد منه الشفاعة عند الله تعالى ، لأنه عبارة عن الدعاء بأن يتجاوز الله سبحانه وتعالى عن بعض ذنوب عباده الذين يستحقون الشفاعة . فالشفاعة فى قوله تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » معناها الدعاء . وقد نقل ذلك صاحب لسان العرب عن المبرد وثعلب .

وقد ذكر فى حواشى المواقف أن الشفاعة تطلق فى العرف على دعاء الرجل لغيره كما يدل عليه اشتقاقه من الشفع ، فكأن المشفوع له فرد يجعله الشفيع شفعا بضم نفسه اليه . وهذا المعنى يناسب قول المبرد وثعلب من أن الشفاعة فى الآية معناها الدعاء . وعلى كل حال فالغرض إنما هو تنزيه الله سبحانه عن أن يقبل التأثر الذى تحدثه الشفاعة عند الناس من تغيير إرادة أو تحويل عن أمر الى آخر .

هذا وقد أجمع المسلمون على ثبوت أصل الشفاعة المقبولة له عليه الصلاة والسلام ، لا فرق بين المعتزلة وغيرهم فى ذلك ، ولكن أهل السنة يقولون إن الشفاعة تكون لأهل الكبائر فى إسقاط العقوبة عنهم . أما المعتزلة فإنهم يقولون إن الشفاعة إنما هى لزيادة الثواب

لا لدرء العقاب ، بناء على قولهم إن الكبائر لا تمحوها إلا التوبة . فمن مات مصرا على كبيرة يكون جزاؤه الخلود فى النار . وقد عرفت مما قدمنا لك غير مرة أن الشريعة الاسلامية تنافى اعتقاد ذلك ، لأن الله سبحانه لا يظلم الناس شيئا ، ولا يضيع الحسنات من أجل سيئة من السيئات ، قال تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .
وقد استدل المعتزلة على أن الشفاعة لا تنفع أهل الكبائر بقوله تعالى : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها عدل ، ولا تنفعها شفاعة » فهذه الآية صريحة فى أن الشفاعة لا تنفع المجرمين وأهل الكبائر يوم القيامة . وقد أجيب عن هذا بأن الآية واردة فى قوم معينين وهم اليهود ؛ قال تعالى : « يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأنى فضلتكم على العالمين . واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا الخ » . وقد أجيب عن ذلك بأن الضمير فى قوله تعالى : « ولا تنفعها شفاعة » راجع الى النفس الثانية وهى نكرة فى سياق النفى فتكون عامة وإن كان سبب نزولها اليهود . وعلى هذا فالشفاعة لا تنفع المجرمين والكافرين مطلقا ، إذ المعتبر فى دلائل القرآن إنما هو عموم اللفظ لا السبب الخاص .

والجواب عن هذا أن التخصيص فى الآية لا بد منه ، إذ معناها أن الشفاعة لا تنفع هؤلاء اليهود فى ذلك اليوم المخصوص ، فاذا قلنا إن الشفاعة تنفع فى زيادة الثواب والأجر كما يقول المعتزلة فان ذلك يتنافى مع عموم الآية أيضا ، لأن زيادة الثواب فيه نفع عظيم ، فلا بد للمعتزلة من أن يخصصوا عدم النفع بهذا الحال الخاص . وأيضا ماذا نصنع فى قوله تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » ؟ أليس فى هذا الاستثناء دلالة صريحة على أن الشفاعة عند الله تكون بإذنه ؟ ثم ماذا نصنع بالأحاديث الصحيحة الصريحة الواردة فى أن النبى صلى الله عليه وسلم يشفع فيمن يستحق النار ؟ وماذا نصنع بقوله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الذى معنا : « ثم أخرجهم من النار وأدخلهم الجنة بشفاعتى مرارا وتكرارا » ؟ لا شك أن الإقدام على إنكار الشفاعة والحكم بإلغاء هذه الأحاديث الصحيحة جرأة على الله ورسوله لا تليق بأولى العلم .

(٣) أما الكلام على عصمة الرسل فقد بيناه فى بعض أعداد المجلة الماضية . والذى نريد أن نقوله الآن هو أن المسلمين يؤمنون إيمانا جازما بأن الله سبحانه لا يرسل رسلا إلا إذا كانوا بعيدين عن كل ما يخل بمقامهم الكريم ويتنافى مع تبليغ رسالتهم واحترامهم عند الناس . وكل ما ورد فى القرآن من أن بعض الأنبياء قد ارتكب ذنبا فانه إما أن يكون خطأ كما هو الحال فى قصة موسى وقتله شخصا بلطمة ، فإن موسى لا يقصد قتله طبعا ؛ وإما أن يكون فى نظر فاعله خطيئة وليس كذلك كما قال نوح فى بيان خطيئته : إننى قد دعوت على أهل الأرض ، وإننى سألت الله تعالى أن ينقذ ابنى . وظاهر أن الأمرين لا خطيئة فيهما ، لأن قومه

قـد استحقوا ذلك الاغراق حتما سواء دعا أو لم يدع ، وأنه لا مانع من الطلب من الله تعالى المرة بعـد المرة ، فانه تعالى لا يسد بابه عن الداعين مطلقا ؛ ولـكن عظم مقام نوح وخـوفه من ربه قد أخجله بسبب هذين الأمرين . وأما آدم فالأمر فيه معروف وهو أن معصيته هذه ترتب عليها إيجاد النوع الانسانى وما يكون عليه من عصيان الله والرجوع اليه للتوبة وقبول هذه التوبة . وعلى هذا القياس فالرسل فى نظر الشريعة الاسلامية منزهون عن كل جريمة تخل بمقامهم الـكريم . على أنه قد ثبت أن سيدنا محمدا صلوات الله وسلامه عليه هو خير الرسل وأكرمهم عند الله تعالى ، فلهذا كان هو صاحب الشفاعة العظمى ؟

عبد الرحمن الجزيرى

عاطفة بعاطفة

روى الزبير بن بكار قال : كان المسوَّر بن مخرمة ذا مال كثير فاسرع فيه على إخـوانه فذهب . فسأل امرأته ، وكانت موسرة ، فمنعته وبخلت عليه . فخرج يريد بعض خلفاء بنى أمية منتجعا (أى طالبا معروفه) .

فلما كان ببعض الطريق نزل ماء يقال له بلاكث . فقال له غلامه : كيف يقال لهذا المـاء ؟ قال : يقال له بلاكث . فقال :

بينما نحن من بلاكث بالقا ع سراعا والعيس تهـوى هويا
خطرت خطرة على القلب من ذكـــراكِ وَهْنا فما استطعت مضيا
قلت لبيك إذ دعانى لك الشو قُ ، وللحاديين كُرَّا المطيا

فقال المسور لغلامه : هن بُدن إن لم تـكرها رواجع ! قال غلامه : قـد أشرفن على أمير المؤمنين . فقال له المسور : هن بدن إن لم تـكرها رواجع ! فرجع ودخل المصلى ليلا فوجد رجال قريش حلقا يتحدثون . فقالوا له : زاد خير . فأجابهم : زاد خير ، ثم انصرف الى داره . فقالت له امرأته : زاد خير . فأنشدها الأبيات التى كانت سبب رجوعه من وسط الطريق . فقالت : كل ما أملك فى سبيل الله إن لم أشاطرك مالى ! فشاطرته مالها جزاء عاطفته .

قوله : هن بُدن ، أى هن من النوق التى تنحر بمكة إن لم ترجعها . وبدن جمع بدَنة . وزاد خير : كلمة ترحيب للراجع من سفر .

دراسات في القرآن الكريم

القرآن والمفسرون

مسارعتهم الى القول بالنسخ فى القرآن

قال الله تعالى : « والذين يُتَوفَّون منكم ويذَرون أزواجا وصيةً لأزواجهم متاعا الى الحول غير إخراج ، فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف ، والله عزيز حكيم » :

يقتصر كثير من المفسرين فى تفسير هذه الآية على القول بأنها منسوخة ، فيقولون فى بيان المعنى المنسوخ : كان الحكم فى ابتداء الاسلام أنه إذا مات الرجل لم يكن لزوجه من ميراثه شيء إلا النفقة والسكنى مدة سنة ، وكانت عزيمة عليها فى الصبر عن التزوج ، ولكنها كانت مخيرة بين أن تكمل السنة فى بيت زوجها أو تخرج منه قبل تمامها ، غير أنها متى خرجت سقطت نفقتها ؛ ويكون جملة ما فى الآية من تشريع هو أمرين اثنين : أحدهما وجوب الوصية على الأزواج ، والثانى وجوب الاعتداد حولا كاملا . فأما الوصية فيبنون نسخها على أن القرآن قد ورّث الزوجة فجعل لها فى حالةٍ الربع وفى أخرى الثمن ؛ ثم إنه الى هذا قد ورد فى السنة أنه لاوصية لوارث ؛ فمجموع القرآن والسنة قد نسخ وجوب الوصية بالنفقة والسكنى . وأما وجوب الاعتداد حولا كاملا فيجعلون نسخه بآية « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ... »

على هذا التأويل يقتصر كثير من المفسرين . وبعضهم يذكر فى الآية وجهين آخرين ، يعزى أحدهما « لمجاهد » ، ويعزى الآخر « لأبى مسلم الأصفهانى »

فأما مجاهد فيرى أن الآية ليست منسوخة ، بل يجعل للمرأة فى الاعتداد حالتين : إحداهما أن تختار الإقامة فى بيت زوجها حولا ، وأن ينفق عليها من مال زوجها مدة ذلك الحول ، وفى تلك الحالة تكون عدتها حولا كاملا ، وهو ما قررته تلك الآية التى معنا . والحالة الثانية أن تختار الخروج من بيت زوجها قبل الحول وترد الإنفاق عليها من ماله ، وفى تلك الحالة تكون عدتها أربعة أشهر وعشرا ، على ما قررته الآية الأخرى .

وأما أبو مسلم فرأيه فى الآية أنه لما كان الحال فى الجاهلية أن الأزواج يوصون لأزواجهم بالنفقة والسكنى حولا كاملا ، وكان يجب على المرأة أن تعتد مدة ذلك الحول ، فقد نزلت هذه الآية لتبين فقط أنه ليس بواجب أن تقيم كل الحول وأن تعتد به ، بل العدة هى الأشهر الأربعة والثلث . وعليه فمجمل هذا التأويل إنما هو إبطال ما كان عليه الجاهلية لا بيان مدة العدة للمتوفى عنها زوجها ، فان ذلك قد تكفلت به الآية الأخرى .

هذا محصل ما ذكره المفسرون فى الآية من تأويل . وإنا قبل أن نبدأ بما نراه صحيحا فى هذا لا بد أن نعرض لبيان ما يرد على ما ذكروه من تأويلات فى الآية :

أما أولاً : فإننا حتى مع مجاراتهم لما ذكروه فى الآية من إعراب ، لا نجد لها من دلالة إلا على وجوب الوصية على الأزواج لأزواجهم ، فإنهم قد جعلوا التقدير فى حال ما يكون لفظ الوصية مرفوعا « فعليهم وصية » ، وجعلوا التقدير فى حال النصب فليوصوا وصية ، وليس فيها بعد ذلك ما يفيد وجوب الاعتداد حولا كاملا ، لا بطريق العبارة ، ولا بطريق الإشارة ، ولا بأى وجه من وجوه الدلالات ، فلا فى جملة من جملها ولا فى مفرد من مفرداتها ، بل ولا فى حرف من حروفها يمكن أن تظفر بما يفيد ذلك من قريب أو بعيد . وعلى العموم فسواء نظرنا الى ما قدروا أو لم ننظر إليه فليس فى لفظ من ألفاظ الآية ما يدل على وجوب الاعتداد حولا كاملا كما يقولون ، لا بالمطابقة ولا بالالتزام ، لا بالحقيقة ولا بالمجاز ، لا بالمنطوق ولا بالمفهوم ؛ وإلا فقل لى بربك أى لفظ من ألفاظها له فى تصريح أو تلويح دلالة على وجوب العدة حولا : أفى لفظ وصية ، أم فى لفظ متاع ، أم فى لفظ حول ؟ إنه لكما ترى ليس فى واحد منها دلالة على شىء من ذلك ؛ وإن كانت الشبهة قد قامت فى لفظ الحول فذلك ما لا يصح ، إذ لفظ الحول قد ذكر مجرورا بالى متعلقا بمتاع ، مما قد أفاد صراحة وتنصيصا أن الحول ظرف المتاع وليس ظرفا للعدة . من هذا يتضح لك جليا أن الآية ليست من تقرير عدة بأى مدة ، فضلا عن حول أو نصف حول ، فى ورد ولا صدر .

وأما ثانيا : فإنه بمقتضى إعرابهم الآية تكون الوصية واجبة ؛ ومن بيانهم للمعنى الذى كان معمولا به فى صدر الاسلام تفهم أن الاعتداد قد كان حولا كاملا ؛ ومن مجموع الإعراب وبيان المعنى تفهم أن الاعتداد حولا كاملا إنما توجبه الوصية . وعلى هذا فنحن نسائلهم : ماذا كان يكون الحال قبل نسخ الآية لو أن الزوج ترك الوصية ؟ أكانت تكون العدة مدة حول واجبة كما لو أوصى ؟ إن كان كذلك فلا معنى إذن لذكر الوصية فى الآية ، أم كانت العدة تكون حينئذ غير واجبة وللمرأة أن تتزوج قبل تمام الحول وفى أى جزء منه ؟ إن كان كذلك فالأمر يكون أكثر إبهاما وأعظم إشكالا .

وأما ثالثا : فانه قد انفهم من كلامهم أنهم قد بنوا النسخ لوجوب النفقة والسكنى على مجموع

أمرين : على أن القرآن قد نص على كون المرأة من الورثة ، وعلى أن السنة قد نصت على أن لا وصية لوارث ؛ فبمجموع الكتاب والسنة تكون الأزواج ممن لا تصح لهم الوصية ، مع أن متاع الحول بالنفقة والسكنى مترتب على الوصية ؛ وبنوا نسخ العدة حولا كاملا على آية التربص أربعة أشهر وعشرا .

هذا قولهم ؛ وإنه لمردود عليهم ، لما أن الوصية فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا وصية لوارث » إنما أريد بها وصية خاصة ، وهى أن يوصى إنسان لأحد الورثة بجزء من التركة ؛ أما الوصية فى الآية التى معنا فليست بذلك المعنى ، بل المراد منها العطف والرحمة بالمرأة ، والمرأة أحد الضعيفين ، وقد كسر الى ذلك خاطرها بموت عشيرها وعائلها ؛ المراد العطف والرحمة بإمتاعها حولا بالنفقة والسكنى ، والنفقة والسكنى ليستا جزءا من التركة .
وأما قولهم إن الاعتداد حولا قد نسخ بالآية الأخرى ، فقد علمت مما قدمنا أنه ليس فى الآية ولا فى أى آية أخرى من القرآن الكريم ما يدل على أن مدة العدة كانت حولا ، وإذا لم يكن هناك منسوخ فليس هناك إذاً ناسخ .

وأما رابعا : فإن المقرر المعروف أن العدة أمر ذو بال لما يرتبط به من عظيم الشؤون ، وكلما كان التشريع ذا خطر وبال كانت العبارة فى تشريعه أوفر بيانا وأشد وضوحا ، وكان من الحكمة أن تكون العبارة أبعد به عن توقفه على قيود ، وأنأى به عن الارتباط بشروط ، حتى لا ينفتح أمام المكلف باب الاعتذار عن تثاقله فى الامتثال بعدم قيد ، أو التعلل بتخلف شرط . لهذا تقرأ قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » الآية ، تقرؤها فتجد أنها فى دلالتها على الغرض بينة واضحة ، ثم هى لم تربط وجوب الاعتداد بأى شىء آخر ، بل جعلت التربص مطلوبا منهن خاصة دون أن يتوقف على شىء ، أو أن يرتبط بشىء ، حتى الرقابة عليهن لم تجعلها لأحد من الناس مهما اشتدت علاقته بهن ولو كان أبا أو أما ، بل وكلت حراستهن لأنفسهن ، فأنفسهن هى الرقيبة على أنفسهن ، حتى تبت خيوط الأعذار ، وتغلق أبواب التعللات . انظر الى قوله : « يتربصن بأنفسهن » ، ثم انظر بعد ذلك الى إيثار مادة التربص على مادة الانتظار ، لما أن التربص انتظار فى تشوف ويقظة ، ففى التشوف لنهاية مدتها الارتقاب لما أحل الله والانشغال عما حرم الله ، وفى اليقظة الحيطة والحذر ، فكأنهن مأمورات فى الآية بدقة الحيطة وشدة الحذر ، والتحرز عما يخل فى هذه المدة بما كلفن به من صيانة أنفسهن وحفظهن لحدود الله . اقرأ هذه الآية تجد هذا الذى بيناه لك ، ثم اقرأ الآية التى معنا تجدها بعيدة كل البعد عن إفادة العدة على أى وجه من وجوه الدلالات . وقد عرفت أن العدة من الشؤون ذات الخطر لما يرتبط بتحقيقها من عظيم الآثار ، وبتركها من كبير الشرور ومشاكل المجتمع ، مما يستدعى الحديث عنه فى بيان تشريعه وضوح العبارة وجلاء الدلالة .

وأما خامسا : فإن النسخ لمن أول ما هـو ذو شأن خطير ، لأن حاصله ترك العمل بحكم من أحكام الله الى العمل بحكم يخالفه على أنه من أحكام الله ؛ وما ذلك شأنه فلا ريب أنه لا يقدم عليه إلا فى تأن متأن وتمهل متمهل ، مع الاستناد الى قاطع من الأدلة ليس فى أفقه من سحائب الشبه لا الوطفاء منها ولا الجهام ، ولا فى ساحه من غبار الاحتمالات لا العثير منه ولا القتام . وأنت ترى أنه ليس معنا فى هذه الآية دليل على النسخ حتى ولا الظنى الراجح فضلا عن اليقينى القاطع ؛ كما أنه ليس هناك أوهى داع لخطور النسخ فى الآية على البال ، فإنه ليس من تعارض بين الآيتين ولا شبه تعارض بينهما حتى يحتال لدفع التعارض بكون إحداهما منسوخة ، فإن إحـدى الآيتين نص صريح فى تقـدير العدة بأربعة أشهر وثلث ، والأخـرى نص صريح فى الاسترحام للمرأة بإمتاعها حولا بالنفقة والسكنى .

وأما سادسا : فانه قد كان من أول ما يقتضيه النظام فى التشريع حتى عند الناس ، فضلا عن بارئهم الحـكيم ، أن يكون المنسوخ أولاً والناسخ ثانيا ، حتى لا يـكون المنسوخ دائما أحضر فى ذهن التالى والسامع من الناسخ مع أن الحـكمة تقتضى النقيض ، وحتى يكون ترتيب التلاوة وفق ترتيب النزول .

الى هنا قد فرغت مما أردت أن أورده من الإشكالات على هـذا التأويل . وإذا كان كذلك فينبغى أن يسلك فى تأويل الآية سبيل يتفق مع أسلوب اللغة ، ويساير ما جاء به القرآن من مكارم وآداب ، ويجارى ما يجب من تثبت وتأن فى الحـكم على أحكام الله .

وتأويل الآية الذى يحقق ذلك كله ، هو أن الله تعالى هو الذى يوصى أى يسترحم ذوى الشأن من أولياء الميت ومن حكام وفقهاء للمرأة المتوفى عنها زوجها أن يمتعوها بالانفاق عليها من مال زوجها حولا كاملا ، وأن لا يخرجوها من بيته بل يبقوا عليها فيه الى نهاية الحول ، على أن يكون البقاء فى بيت زوجها والخروج منه موكولا لإرادتها ، حتى لا يخرج هذا العطف وتلك المواساة بالانفاق والسكنى حولا عن كونه رحمة وجبرا الى كونه إكراها وعضلا ، فقد يكون خروجها قبل تمام الحول إنما هو للزواج ما دامت قد أتمت مدة العـدة أربعة أشهر وعشرا ، فلو لم يجعل لها الخيار فى الخروج لعاد العطف إيذاء . والزواج هو المعنىّ بالمعروف فى قوله تعالى : « فيما فعلن فى أنفسهن من معروف » ؛ فالله تعالى يسترحم الأولياء للنساء مع الاحتياط لتلك الرحمة مما يقلبها مضارة وإيذاء ، باعفائهم من التبعة إن هن خرجن وفعلن فى أنفسهن المعروف ، حتى لا يعضلوهن بحجة إمتاعهن إذا لم ينص على نفى الجناح عن الأولياء فى ذلك . وعلى الجملة فالآية ليس لها صلة بتقرير عدة بأى مدة على أى وجه من وجوه الدلالة ، بل الآية إنما تدعونا الى الرحمة بهؤلاء الضعفاء باصل خلقتهن ، وقد زادت الحوادث فى ضعفهن بهيض أجنحتهن ، واستلاب العوائل والحوامى لهن ... إنما تدعونا الى الابتعاد عن الغـدر

بعهود الراحلين ، وعن الغلظة المفضية الى عدم المبالاة بمصاب المصابين ، وعن القسوة على المكلومين . وإنه ليس من شك فى أن المرأة بموت زوجها هى أوفر من جميع أقاربه نصيبا من الهم ، وأوفاهم حظا فى الحزن ، وأشدهم بعده وحشة ، وأعمقهم جرحا ، على قدر نصيبها فى حياته من خيره وأنسه . لهذا فكل ذى صلة بالميت تكون الزوجة أولى منه بالتعزية والمواساة ؛ وواضح أنه إذا انقطع عنها بموت زوجها ما اعتادته من نفقة فى حياته ، وخرجت عما اعتادته من سكنى معه ، كان فى ذلك تعميق لجرحها ، وتكبير لمصابها ، وإلهاب لحزنها ؛ فاذا أبقى عليها أولو الشأن ممن للميت من أولياء ومن حكام وفقهاء ، إذا أبقوا عليها فى بيت زوجها ، وأبقوا كذلك على ما اعتادته من نفقة ، كان فى ذلك من تعزيتها ما يطفىء من حزنها ، ويخفف من مصابها ؛ كما أن فى ذلك من ناحية أخرى إبرازا لأولياء الميت فى معرض الوفاء والبعد عن الغدر بعهد راحلهم ، وإظهارا لهم فى مظهر البذل وتجنب الشح .

على ذلك لا تكون الوصية فى الآية مصدرها الميت كما يزعمون ، إنما يكون مصدرها هو الله تعالى ، أى أوصيكم يا أولى الشأن للأزواج اللاتى توفى منكم أزواجهن وصية ، وأسترحمكم لهن رحمة . أو يكون لفظ الوصية معمولا لفعل أمر من الوصية موجه الى أولى الشأن بمعنى الرحمة وزيادة الخير المسدى اليهن . وأما على الرفع فيكون المعنى : عندكم وفى ذمتكم وصية وعهد لزوج من توفى منكم . وإنما لم نجعل مصدر الوصية فى الآية هم الأزواج المتوفين على أن تكون واجبة عليهم كما هو مقتضى ما قدروه فى إعرابها رفعا ونصبا ، لأنه مع كون الآية ليست نصا فى الإسناد الى الأزواج المتوفين ، فان المتوفى ليس محلا للتكليف ، فكيف ينفهم أن الأزواج إذن هم المكلفون بالوصية ، وأنها واجبة عليهم ؟ والتخلص من ذلك بأن فى الكلام مجاز المشارفة ، وأن المراد من المتوفى من شارف الوفاة ، غير صحيح ، لأن المشارفة ليست بالأمر المحدد المضبوط فيمكن للناس علمه حتى يتأتى لهم أن يوصوا عند مشارفة الوفاة ؛ فكم من شخص قد باغته الموت وأخذه على غرة دون أن يكون قد خطر له الموت على بال ؛ وكم من مريض ظن أنه ناج من مرضه ثم هو يفتك به ويقتله ؛ وكم من مريض ظن أن مرضه قاتله ثم نجا منه فعاش طويلا طويلا . . . وعلى هذا فالموصى هو الله ، أو هو تعالى الآمر لأولى الأمر بالوصية . والموَصى به هو تمتيعهم حولا بالإنفاق وعدم الاخراج من بيوت الأزواج مدة ذلك الحول ؛ والمطالبون بذلك هم المخاطبون فى قوله « منكم » وهم آل الميت ، وأهل الحل والعقد من حكام وفقهاء .

هذا هو التأويل الذى ينبغى أن تحمل عليه الآية ، لما أن شواهد الحق فيه واضحة عالية ، ومعالم الصواب بينة بادية .

أما أولاً : فلما قدمنا من إشكالات ومبطلات لما ذهب اليه المفسرون فى تأويل الآية ، ذلك الوجه الذى أفضى الى الحكم عليها بأنها منسوخة .

وأما ثانياً : فاننا إذا استعرضنا الآيات التى وردت فى هـذا المقام ، أى الآيات المتعلقة بالفرقة بين الزوجين على أى وجه من وجوه الفرقة : فرقة طلاق قبل الدخول أو بعده ، أو فرقة وفاة ، اذا استعرضنا ذلك نجد أنها قـد بدأت ببيان العدة على وفق أنواع الفرقة ، ثم بعد أن أتمت القول فى بيان العـدد أخذت فى بيان أنواع المتعة ؛ فـكما أنها بينت عدة المطلقة أولاً وانتظم ما تعلق بها من القول فى سلك ما تعلق بالعدد ، ثم بينت متعتها ثانيا وانتظم ما تعلق بالمتعة من القـول فيما تعلق بالمتع ، وجب أن يكون الأمر كذلك فى شأن من توفى عنها زوجها : تُبين عدتها أولا ، ثم تبين متعتها ثانيا ، جريا مع النظام الذى رسمته آيات القرآن فى هذا الشأن . فآية « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ... » المنتظمة فى آيات العدد ، لبيان العدة ، والآية التى معنا المنتظمة فى آيات المتع ، لبيان المتعة ؛ فالنظام الذى رسمته آيات هذا الموضوع تقتضى أنه لو كانت تلك الآية التى معنا من آيات العدد لوجب أن تكون فى سلك آيات العدد ؛ أما وقد انتظمت تلك الآية فى آيات المتعة فقد وجب أن تكون لتقرير المتعة ، خصوصا بعد ما عرفت أنها لا صلة لها ، بمقتضى مواد اللغة وأساليبها ، بالعدة ، لا فى جملة من جملها ، ولا فى مفرد من مفرداتها ، وخصوصا بعد أن ذكرت فيها مادة المتعة صراحة وتنصيصا .

وأما ثالثا : فإن كتاب الله قد شرع للمرأة المفارقة بالطلاق متعة ، والمتعة إنما شرعت جبراً لكسر المرأة بطلاقها ، وأسياً لجرحها ، وتخفيفا لآلامها ؛ وإذا كان الأمر كذلك فى شأن المرأة المفارقة بالطلاق ، فلَجبر المرأة المفارقة بالوفاة أحق وأولى ، وهى إليه أحوج وبه أجدر ؛ فلو أننا تناسينا ما تقتضيه اللغة أسلوبا ومفردات فحملنا الآية التى معنا على العدة كما يزعمون ، لخلا القرآن عن تقرير متعة للمرأة المفارقة بالوفاة ، وفى ذلك منافاة لبالغ حكمة الله ، ومناقضة لشامل عدله .

ومجمل القول فى ذلك ، أن الآية إنما أنزلت لتقرر متعة ، لا لتقرر عدة .

وأما رابعا : فإننا لو أغفلنا ما تؤديه الآية من معنى بمقتضى اللغة أسلوبا ومفردات ، فسلمنا جدلا أنها تدل على أن الحول ظرف العدة لا ظرف المتاع ، لوجب أن لا يكون القيد كما فى الآية ، أعنى قوله : « غير إخراج » ، بل كان يجب أن يكون القيد هكذا « متاعا الى الحول ما نعيهم من الخروج » ، لأنه إذا كان الحول عدة كنّ بذلك ممنوعات من الخروج لا مخيرات فيه ، لأنه ليس أحفظ لهن فى عدتهن عن أن يمسسن من إقامتهن فى بيوت أزواجهن تحت رعاية أولياء المتوفين رجالا ونساء ، لما فى خروجها من الإخلال بما يجب أن تكون عليه المرأة فى عدة ، لا سيما عدة الوفاة ، من مظاهر الوفاء لزوجها الراحل ، ولأهله الذين يؤلمهم أن يروها قد انفتحت عيناها نحو رجال غير زوجها ؛ والقرآن فيما يلقى فينا من إرشاد ، وما يوجه إلينا من

تهديد ، لا يقف بنا دون أعلى درجات الشرف وأسمى مراتب الكمال . ذلك من التعبير ما كان يجب أن يكون لو أن الآية كما يزعمون لتشريع العدة حولا ؛ أما والتعبير فى الآية قد جاء على ما جاء عليه ، فلا شك أنه لغير ما يزعمون ؛ ولكنه فيما هو الغرض من الآية والمقصود منها على أبلغ أسلوب وأدق تعبير فى بيانه وتحديده . ولقد علمت أن الغرض من القيد هو أن الله تعالى لما استعطف أولياء الميت على زوج ميتهم ليمتعوها حولا بالإنفاق والإقامة فى بيت زوجها ، أراد أن يكون هذا العطف وتلك المواساة بعيدة كل البعد عن أى شائبة تشوب وفاءهم لميتهم ، أو تكدر عطفهم على زوجه ، فلم يطلب اليهم سوى أن لا يخرجوها حتى يبقى لها كامل إرادتها فى الخروج وعدمه ؛ ولو كلفهم بقاءها لكان فى ذلك سلب إرادتها وخنق حريتها ، مما يقلب المتعة والعطف إكراها وعضلا ، وأذى وإيلاما . ومن هذا تدرك نواحى البلاغة فى القرآن ، ودواعى السجود لأسلوبه فيه ؛ فما من عبارة غير هذه يمكن أن يكمل بها الغرض ، ويتم بها المراد . وكما أنه لم يكلف أولياء الميت أن يمنعوها الخروج ، فهو لم يكلف النساء أن يبقين فى بيوت أزواجهن ؛ وفى ذلك أيضا دلالة واضحة على أن الحول لم يكن ظرفا للعدة ، وإلا لحظر عليها الخروج وكلفها البقاء ، ولكنه لم يوجه إليهن تكليفا ، بل وجهه الى الأولياء ، مع أن الزوجات هن المكلفات بالاعتداد .

وهناك ناحية غير هذا وذاك ، وهو أن التكليف والخطاب فى الآية لم يوجه الى النساء ، فلم يطلب إليهن شيئا ، ولم ينههن عن شىء ؛ ولو كانت الآية لتقرير العدة والعدة هن المكلفات بها ، لما وجه التكليف والخطاب إلا إليهن ، ولما وجه الى ذوى الشأن ، لأن كل نفس لا تكلف غير فعلها ، والذى هو من فعل الأولياء إنما هو الامتاع بالانفاق وعدم الاخراج .

وأما خامسا : فان قوله تعالى : « فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف » قد أفاد بطريق النص بعد استفادته بطريق الإشارة أنهن مخيرات فى الخروج وعدمه أثناء الحول ، ولو كان الحول عدة كله لما أباح لها الخروج أثناءه ، إذ أن أكمل ما تمضى عليه المرأة عدة الوفاة هو احتفاظها بمظاهر الوفاء لزوجها الراحل ، وإنما يتم لها ذلك حين تكون مدة العدة تحت إشراف آل زوجها من نساء ورجال ، إذ فى ذلك صيانتها عن تعرض وفائها للمساس برميات من نظرات راغب ، أو كلمات من خليع غير ذى حياء ؛ فانه لواضح أن أعظم ما تصان به عن ذلك هو أن تكون تحت إشراف آل زوجها ؛ ثم هى الى هذا ما دامت فى بيت الزوج الفقيد فهى مقرونة فى الأذهان بالمآتم والأحزان ، وإن ذلك لمن أقوى ما يحول عنها الأنظار ويدفع عنها الكلام . وإذا كان بقاؤها فى بيت زوجها هو أكمل حال تؤدى عليه المرأة عدتها فلو كان الحول ظرفا للعدة لما أباح لها الخروج ، بل كان يجب أن يحتم عليها البقاء به كل الحول ؛ فإباحة الخروج دليل أن الحول ليس ظرفا للعدة ، وإنما هو ظرف للإمتاع .

وأما سادسا : فان الآية قد نفت الحرج والتبعة عمن توجه اليهم الخطاب من أولياء وحكام وفقهاء فيما تفعله المرأة بنفسها إن هى اختارت الخروج من بيت زوجها على البقاء فيه ؛ والمراد بالمعروف هنا هو الزواج ومروجاته من تحسين وتجميل . وإنما حملنا المعروف على ذلك لما هو مقرر ومعروف من أن قوانين القول وقواعد الكلام أن لا ينفى الحرج عن فعل إلا إذا كان هناك ما يوهم الحرج فيه ، وليس لدينا ما يتوهم فيه حرج إلا الزواج ومروجاته التى تتقدمه من تزين وتجمل ؛ فلو كان الحول كله عدة لما نفى الحرج عمن عليهم الرقابة والاشراف على المرأة فى مثل هذا الشأن ، بل كان يجب أن يلقى عليهم الحرج ثقيلا ، والتبعة مرهقة ، إن هم تركوها تفعل شيئا من ذلك ، لأن هذا الأمر الذى سماه معروفا لو فعل أثناء العدة لكان من أفظع المنكرات ، لأنه من شر عوامل الفساد فى المجتمع ، ومن أقوى دواعى الإخلال به .

هذا ولا يفوتنى أن أنبه الى أن من شواهد حمل المعروف على الزواج ومروجاته هو أنه فى الآية الأخرى ، أعنى قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ، فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف » نص فى ذلك ، إذ قد رتب نفى الجناح عنه ، وتسميته معروفا ، على بلوغ الأجل أى انتهاء العدة ، إذ هو الذى كان محظورا قبل انتهائها ، وهو الذى كان فيه الجناح قبل بلوغ الأجل . وعليه فالمراد بالمعروف هنا هو المراد هناك .

وأخيرا فمجمل القول فى الآية أن الله يوصى ويستعطف أو يأمر أولى الشأن بالوصية والرحمة ، على وفق ما قدرنا آنفا من أنه : أوصيكم أو لتتواصوا بأزواج من توفيت أزواجهن ، كى يجبروا من كسرها ويضمدوا من جراحها ، بامتاعها حولا بالانفاق والسكنى فى بيت زوجها ، حتى لا يشعرن بتغير فى أحوالهن ولا تبدل فى عوائدهن ، وحتى لا يحسسن بغتة ، بأنهن قد صرن عائلات أنفسهن وقد كن بالأمس معولات مدللات ؛ فاذا مضى على المصاب حول كامل هان الحادث وخف الخطب بتقادم العهد وبعد الذكريات . ثم إنه تعالى ببالغ حكمته قد احتاط لتلك المواساة من أن تلد شرا أو تستتبع فسادا ، فجعل للمرأة الخيار فى الإقامة ببيت زوجها كل الحول أو الخروج أثناءه متى أتمت أربعة أشهر وعشرا ، فلم يكلف الأولياء إلا عدم الإخراج ، ونفى عنهم الحرج فيما يفعلنه فى أنفسهن من معروف ، حتى لا يتحكموا فى شأنها ويستبدوا بأمرها فيقلبوا الوصية والرحمة عضلا وإكراها . هذا ما عنته الآية ، وهى لا صلة لها بالعدة من قريب أو بعيد .

وأما ما يراه « مجاهد » فى الآية من أنها تقرر إحدى حالتين للمرأة المتوفى عنها زوجها ، وأن آية الأشهر الأربعة تقرر لها حالة ثانية ، فتكون عدتها على ما يراه مجاهد تارة حولا كاملا وهذا إن اختارت الاقامة كل الحول ببيت الزوج ، وتكون تارة أخرى أربعه أشهر وعشرا

وذلك إن اختارت الخروج وأبت الانفاق . . . أما هذا فهو كما ترى يجعل ما زاد عن الأشهر الأربعة والثلث موكولا الى اختيار المرأة ؛ وإذا كان الزائد موكولا الى اختيارهن لم يبق لكونه من العدة معنى ما دام قد تخلفت عنه صفة الوجوب ؛ وبذلك يرجع الأمر الى ما قررنا من أن العدة إنما هى أربعة أشهر وعشر . وعلى ذلك يرجع قول مجاهد الى ما أولنا به الآية من كل وجه ، اللهم إلا فى تسميته الزائد عدة حين تختار إقامة الحول كله . وعلى العموم فالذى يعنينا من رأى مجاهد هو أنه قد وافقه ما نراه فيها من أنها ليست منسوخة كما يزعمه المفسرون دون استناد الى يقين أو شبه يقين ، بل كل ما بأيديهم إنما هى ظنون متصدعة لا تنفق فيما هو دون النسخ لكتاب الله ، فضلا عن كتاب الله الخالد على مدى الأيام .

وأما ما يراه « أبو مسلم » من أن الآية تقرر أن الأزواج إذا وصوا لأزواجهم فليست الوصية ملزمة لهن باقامة الحول فى بيت الزوج بل لها أن تخرج أثناءه ، فهو يفيد أن الوصية غير واجبة على الأزواج . وأنت ترى أنها اذا كانت غير واجبة أدت الى التفرقة بين الزوجات فى المتعة ، فمنهن من يمتعن حولا وهن من ظفرن بوصية الزوج ، ومنهن من لا تمتع الحول وهن من لم يوص لهن الأزواج ؛ وحكمة الله البالغة تقتضى المساواة بينهن فى العطف والرحمة . وأما ما قررنا فى الآية فهو يقتضى المساواة بينهن . وعلى العموم فالذى يعنينا من قول أبى مسلم هو أن الآية ليست منسوخة كما يزعمه بعض المفسرين غير متحرجين لكتاب الله خطره ، ولا متهيبين له قدسه .

رب أخلصت لك عملى فاهدنى للصواب ؟

حامد محيسن

فى الجليس وآدابه

قال المهلب بن أبى صفرة : العيش كله فى الجليس الممتع .

وقال سعيد بن العاص : لجليسى علىّ ثلاث : إذا دنا رحبت به ، وإذا جلس وسعت له ، وإذا حدّث أقبلت عليه .

وقال أيضا : إنى لا أحب أن يمر الذباب بجليسى مخافة أن يؤذيه .

وقال زياد : ما أتيت مجلسا قط إلا تركت منه مالو جلست فيه لكان لى ، وترك مالى أحب الى من أخذ ما ليس لى .

وقال هو أيضا : إياك وصدور المجالس وإن صدرك صاحبها فإنها مجالس قلعة (أى وقتية فقد يطلب أن تخليها لمن هو أرفع قدرا منك) .

والقُلعة : ما لا يدوم من المال . والمال العارية .

الكلام والمتكلمون

— ١١ —

متفلسفو المتكلمين — عضد الدين الايجى

هو عبد الرحمن بن أحمد عضد الدين الإيجى الشيرازى ، ولا يعرف التاريخ عنه أكثر من أنه ولد فى « إيج » وأنه كان أحد أكابر فقهاء الشافعية المتصوفين ، وأنه عين قاضيا ثم مدرسا فى شيراز فى سنة ٧٥٦ هـ — سنة ١٣٥٥ م .

أما مؤلفاته فهى كثيرة . وقد ذكر منها الأستاذ « بروكلمان » طرفا ، ولكن أهمها كتاب « المواقف » الذى سنعنى هنا بتحليله فى شىء من التفصيل . ومن مؤلفاته القيمة أيضا كتاب « العقائد العضدية » الذى عنى بشرحه أكثر من واحد من العلماء المتأخرين ، والذى كتب عليه المغفور له الأستاذ الشيخ محمد عبده حاشيته الشهيرة التى لا تزال الى اليوم تدرس فى الجامعة الأزهرية . والآن اليك إجمال الكتاب الأول وتحليله :

كتاب المواقف :

هو دراسة هامة فى علم الكلام ، مزجه المؤلف بكثير من الآراء الفلسفية المعروفة فى عصره .

يتكون هذا الكتاب من مقدمة وستة مواقف وتعقيب ألحقه به . وقد قسم المواقف الى مراصد ، والمراصد الى مقاصد ، فكان مثالا من مثل النظام والتبويب ، وفق اليه المؤلف بعد أن استفاد من اطلاعه الواسع الذى يحدثنا عنه فى مقدمته .

عرض الإيجى فى المقدمة للانسان وما يجب عليه أن يشغل به حياته إذا كان يحس بكرامته وإنسانيته ، فذكر أنه يتفق مع الجماد فى شغل قدر من الفراغ ، ومع النبات فى التغذى والنمو ، ومع الحيوان فى الإحساس والشهوات ، وأن ميزته الخاصة به إنما هى القوة الناطقة ، فاذا لم يستغلها ولم يبرز أثرها فى حياته ، فقد قضى بنفسه على الميزة التى ترفعه على الحيوان .

ولا ريب أن هذا أحد آثار أرسطو على المؤلف ، إذ أنه صرح فى عدة مواضع من كتبه بمثل هذه العبارات (١) .

انتهى الإيجى بعد ما قدمناه الى النتيجة الطبيعية لهذه الآراء ، وهى أن الانسان يجب أن يفرغ مجهوده للحياة العقلية . ولما كان لا يوجد بين العقليات علم أنبل من العلم الذى يتخذ

(١) انظر صفحة ١٠١ من الجزء الثانى من كتاب الفلسفة الاغريقية لكاتب هذه السطور .

موضوعه مبدع الكون ، وهو علم الكلام ، فقد عزم على الاشتغال به لضرورة ذلك لكل عاقل يشعر بحاجة الى أن يمتاز عن الكائنات العجم ؛ وهو فى هذا يقول :

« فإذاً ، الواجب على العاقل الاشتغال بالأهم ، وما الفائدة فيه أتم . هذا ، وإن أرفع العلوم وأعلاها ، وأنفعها وأجداها ، وأحراها بعقد الهمة بها ، وإلقاء الشراشر عليها ، وآداب النفس فيها ، وصرف الزمان إليها ، علم الكلام المتكفل باثبات الصانع وتوحيده وتنزيهه عن مشابهة الأجسام ، واتصافه بصفات الجلال والاكرام ، وإثبات النبوة التى هى أساس الاسلام ، وعليه مبنى الشرائع والأحكام ، وبه يترقى فى الإيمان باليوم الآخر من درجة التقليد الى درجة الإيقان ، وذلك هو السبب للهدى والنجاح ، والفوز والفلاح ، وأنه فى زماننا هذا قد اتخذ ظهريا ، وصار طلبه عند الأكثرين شيئا فريا ، لم يبق منه بين الناس إلا قليل ، ومطمح نظر من يشتغل به على الندرة قال وقيل . فوجب علينا أن نرغب طلبة زماننا فى طلب التدقيق ، ونسلك بهم فى ذلك العلم مسالك التحقيق » (١)

غير أن هذا الاشتغال بعلم الكلام لم يكن ليبرر فى نظره العكوف على تأليف مثل هذا الكتاب ، بل كان يكفى أن يدرس هذا الفن فى مؤلفات من سبقوه ، ولكنه أحاط بهذه المؤلفات وتغلغل الى أعماقها فلم يجد فيها ما ينقع غلة ، لأنه ألفاها إمّا ناقصة مُفرِّطة ، أو مسرفة مُفْرِطة ، أو حاكية مقلدة ، أو مهوشة أو ملفقة ، فأراد أن يسد هذه الثغرة فكتب كتاب « المواقف » . وإليك عبارته التى صور بها هذا الموقف ، والتى تعد نموذجا راقيا من نماذج النقد الذى لا يطمع المحدثون فى أدق منه ، قال :

« وإنى قد طالعت ما وقع لى من الكتب المصنفة فى هذا الفن ، فلم أر ما فيه شفاء لعليل ، أو رواء لغليل ، سيما والهمم قاصرة ، والرغبات فاترة ، والدواعى قليلة ، والصوارف متكاثرة ، فمختصراتها قاصرة عن إفادة المرام ، ومطولاتها مع الاسآم مدهشة للأفهام ، فمنهم من كشف عن مقاصده القناع ، وقنع من دلائله بالإقناع ، ومنهم من سلك المسلك السديد ، لكى يلحظ المقاصد من مكان بعيد ، ومنهم من غرضه نقل المذاهب والأقوال ، والتصرف فى وجوه الاستدلال ، وتكثير السؤال والجواب ولا يبالى إلام المآل ، ومنهم من يلفق مغالط لترويج رأيه ، ولا يدرى أن النقاد من ورائه ، ومنهم من ينظر فى مقدمة مقدمة ويختار منها ما يؤدى إليه بادئ رأيه وربما يكر بعضها على بعض بالإبطال ، ويتطرق الى المقاصد بسببه الاختلال ، ومنهم من يكبر حجم الكتاب بالبسط والتكرار ، ليظن به أنه بحر زخار ، ومنهم من هو كحاطب ليل ، وجالب رجل وخيل ، يجمع ما يجده من كلام القوم ينقله نقلا ، ولا يستعمل عقلا ، ليعرف أغث ما أخذه أم سمين ، وسخيف ما ألفاه أم متين ، فحدانى الحدب على أهل

(١) انظر صفحة ٤ من كتاب المواقف طبعة القاهرة .

الطلب ، ومن له فى تحقيق الحق أرب ، الى أن كتبت هذا كتابا مقتصدا ، لا مطولا مملا ولا مختصرا مخلا ، أودعته لب الألباب ، وميزت فيه القشر من اللباب . ولم آل جهدا فى تحرير المطالب ، وتقرير المذاهب ، وتركت الحجج تتبختر اتضاحا ، والشبه تتضاءل افتضاحا ، ونبهت فى النقد والتزييف ، والهدم والترصيف ، على نكت هى ينابيع التحقيق ، وفقر تهدى الى مظان التدقيق ، وأنا أنظر من الموارد الى المصادر ، وأتأمل فى المخارج قبل أن أضع قدمى فى المداخل ، ثم أرجع القهقرى أتأمل فيما قدمت هل فيه من قصور ، وأرجع البصر كرة بعد أخرى هل أرى من فطور ، حافظا للأوضاع ، رامزا مشبعا فى مقام الرمز والإشباع ، حتى جاء كما أردت ، ووفق الله وسدد فى إتمام ما قصدت . جاء كلاما لا عـوج فيه ولا ارتياب ، ولا لجلجة ولا اضطراب ، متناسبا صدوره وروادفه ، متعانقا سوابقه ولواحقه ، بكرا من أبكار الجنان ، لم يطمثها من قبل إنس ولا جان » (١) .

بعد هـذه المقدمة تناول المؤلف فى الموقف الأول البحث فى العـلم بوجه عام ضروريه ومكتسبه ، ثم فى العلم النظرى ، ثم فى المعرفة الحسية ، وفى المبادئ الأولى أو البديهيات ، ثم حلل الآراء القائلة بضرورة العلم أو بعدم ضرورته ، ونقد الضعيف منها فى رأيه نقدا سليما مستقيما ، ثم عرض فى هذا الموقف أيضا للتصور والتصديق والقياس والبرهان ، وذكر الفرق بين الدليلين العقلى والنقـلى ، وسرد بعض الآراء المختلفة التى تباينت فى إفادة الدليـل النقلى اليقين أو عدم إفادته .

أما الموقف الثانى فقد عنى فيه المؤلف بأمور ، أكثرها ميتا فيزيكى مثل نظرية الموجود واللاموجود التى أفاض فيها ، فذكر الآراء الأربعة المختلفة حولها ، وهى : (١) إن المعدوم ليس بثابت ولا واسطة . (٢) المعدوم ليس بثابت والواسطة حق . (٣) المعدوم ثابت ولا واسطة . (٤) المعدوم ثابت والحال حق . ثم أبان الفرقة المعتنقة لـكل واحد من هذه الآراء وأوضح وجهة نظرها فيما تذهب اليه ، ثم عرض بعد ذلك للوجود وهـل هو عين الموجود أو غيره أو جزؤه ، وأبان المذاهب المتعارضة فى ذلك ، وتحدث عن الحال التى هى الواسطة بين الموجود والمعدوم وعن المـاهية ، ثم عرض لمذهب أفلاطون فى المجردات ، فنفى أن لهـا وجودا حقيقيا إذ قال : « وأنت قـد علمت أن المجرد لا وجود له ، وأن القابل للمتقابلات المـاهية من حيث هى هى . وأما وجود فرد يكون قابلا كزيد وعمرو ، فضرورى البطلان ، ولا يوجد فى الخارج إلا الهويات الجزئية » (٢) .

لاشك أن الايجى يسير فى هذا الجحود للوجود الذاتى للمجردات على مذهب جميع المتكلمين الذين أسلفنا لك فى أكثر من موضع أنهم إما اسميون (Nominalistes) وهم القـائلون بأن

(١) انظر صفحتى ٤ و٥ من المواقف . (٢) انظر صفحتى ٦٠ و ٦١ من المواقف أيضا .

المفاهيم ليست إلا أسماء ابتدعتها الأذهان البشرية، متأثرة فى ابتداعها إياها باصطلاحات المسميات الخارجية، ولهذا لا ثبات لها، وهو مذهب السوفسطائيين. وإما مفهوميون (Consiptualistes) وهم القائلون بأن المفاهيم لها وجودان: أحدهما فى المحسات قبل وقوع الحواس عليها، وثانيهما فى الأذهان بعد انتزاعها من المحسات. أما الوجود الذاتى المستقل عن هذين الموضعين، فلا حقيقة له، وهو مذهب أرسطو. أما المذهب الثالث فهو مذهب الحقيقيين (Réalistes) وهو القائل بالوجود الذاتى المستقل عن المحسات والأذهان لجميع المجردات. وقد قال به أفلاطون كما فهم الايجى.

عرض المؤلف بعد ذلك فى هذا الموقف للوجوب والإمكان، وللواجب لذاته والممكن لذاته، ثم للقدم والحدوث، والوحدة والكثرة، والعلة والمعلول، بتفصيلات دافعة للحاجة وافية بالغرض.

أما الموقف الثالث فقد خصصه للعرض وما دار حوله من جدل بين الفلاسفة والمتكلمين، ثم بين أهل السنة والمعتزلة، ثم أورد شيئا من المآخذ التى ترد على خصوم أهل السنة فى هذه المشكلة. وقدقاده البحث فى العرض الى المقولات، ثم استطرد فأسهب فى الكميات والكيفيات، وعرض للحرارة والرطوبة واليبوسة، والنور والظلمة، وغيرها من المبصرات والمسموعات والمذوقات والمشمومات والملموسات. وبعد ذلك تناول الأمور النفسية فتحدث عن الحياة وأبان وجوداتها المختلفة فى الكائنات الحية، وأثبت أن الموت هو عدمها، ثم أفاض فى العلم فذكر مجمله ومفصله، وما هو منه فعلى وانفعالى، وما هو بالقوة وما هو بالفعل، وعرض للجهل فشرح بسيطه ومركبه، ثم تناول العقل فقسمه الى مراتبه الأربع، الأولى: «العقل الهيولانى، وهو الاستعداد المحض، وهو قوة خالية عن الفعل كما للأطفال. الثانية العقل بالملكة، وهو العلم بالضروريات... الثالثة العقل بالفعل، وهو ملكة استنباط النظريات من الضروريات بحيث متى شاء استحضر الضروريات واستنتج منها النظريات. وقيل: بل حصول النظريات بحيث يستحضرها متى شاء بلا روية. الرابعة العقل المستفاد، وهو أن يحضر عنده النظريات بحيث لا تغيب عنه» (١).

وبعد أن أوضح هذه المراتب التى هى فى الحقيقة من أدق مسائل الفلسفة، قرر أن العقل هو مناط التكليف، ثم عرض بعد ذلك للإرادة والقدرة، ثم تحدث عن الخلق فذكر حده كما وضعه الأخلاقيون، ثم تناول فضائل الحكمة والعفة والشجاعة وأبان أن كلا منها وسط بين رذيلتين على نحو ما فعل أرسطو فى كتاب «الأخلاق الى نيفوماخوس»، ثم أعاد الكرة على بعض المقولات كالأين والاضافة فجلا غوامضهما بهيئة تقتضى الإعجاب؟ «يتبع»

الدكتور محمد غلاب

(١) انظر صفحة ١٤٥ من المواقف.

الفلسفة بين الوجود والفكر

يذكر كثير من مؤرخى الفلسفة ، وفى مقدمتهم فندلبند Windelband ، أن الفلسفة لا يحدها تعريف واحد ، وليس لها ضابط عام ، لاختلاف الموضوعات التى تناولها الفلاسفة بالبحث فى العصور المتعددة ؛ ويذكرون أن كل فيلسوف كان يحدها بالموضوع الذى يميل أو قد يضطر الى بحثه ؛ وهذا صحيح الى حد ما .

ولكن لو ألقينا نظرة عامة على ما تناوله البحث الفلسفى منذ القدم حتى الوقت الحاضر لوجدنا أن هذا الذى تناوله البحث الفلسفى ، على سعته وتشعب أطرافه وكثرة تفاصيله ، يرجع الى موضوعين أساسيين : الى « الوجود » والى « الفكر » . وطبيعة العصر هى التى كانت توجه نظر المفكرين الى بحث واحد دائر بينهما على أنه الأصل وعلى أن الآخر إضافى له .

* * *

فالفلسفة منذ أن تفلسف الانسان حتى آخر القرون الوسطى ، أى الى آخر القرن الخامس عشر تقريبا ، كان موضوع بحثها الرئيسى هو الوجود ، وكانت صبغته العامة هى الصبغة الميتافيزيكية . فإفلاطون يقول : الفلسفة هى معرفة الوجود ؛ وعند أرسطو : علم ما وراء الطبيعة . والعصور الدينية بعد ذلك على تنوعها تراها فى بحث الوجود وعلة الكون . ومعنى أن الفلسفة الى آخر القرون الوسطى كانت تبحث فى « الوجود » أنها كانت تحاول تحديد أصل الكون ، وتحديد هذا العالم ، وتحديد علاقته بعلة الكون ، وتحديد غايته ومصيره . ومهما اختلفت الفلاسفة فى هذه الفترة ، اختلاف طابعهم ، من فرضى خيالى ، أو منطقى طبيعى ، أو دينى . ومهما اشتد التفاوت فى طرق بحثهم وفى المبدأ الذى حاولوا منه الشرح والتعليل ، فغايتهم جميعاً كانت واحدة وهى معرفة الوجود الأزلى — أو الله — وتحديد درجات الموجودات الأخرى منه .

ترى إفلاطون ، وهو أول فيلسوف إغريقى له نظام فلسفى خاص به ، يضع مبدأ « المثل » ليصل منه الى التمييز بين « الوجود » الباقى « والوجود » الفانى ، أو بين الوجود الحقيقى وما له شبه بالوجود ، وليتخذ من هذا الوجود الحقيقى علة لشبه الوجود ، وشرحا لما هو حاصل فيه . وبهذا يجعل من عالمنا الفانى تابعا لما هو علة له ، وهو الوجود الحقيقى — الله ، أو المثل ، وعلى رأسها مثال الخير — فى النشأة وفى المصير . و« الوجود » إن كان — فى نظر إفلاطون — فى غاية

الكمال ، فما هو شبيه به (وهو العالم) يطرأ عليه النقص بسبب ما خالطه من مادة . والإنسان جزء من هذا العالم فعليه أن يسعى لتكميل نفسه بعدم تلبية رغبات المادة ، بالزهد وبالعلم .

ومع أن إفلاطون لا يلقب بالفيلسوف المنطقى — لأن عنصر « الفرض » يسود تفلسفه ، ولأن معظم ما كونه من آراء لا يمكن التمادى فى تعليله ، ولا فى مناقشته مناقشة عقلية — لا يفترق عن أرسطو المنطقى إلا فى الطريقة التى سلكها كل منهما فى تفلسفه ، وفى شرحه للوجود . فغاية أرسطو فى بحثه كانت أيضا تحديد الوجود الواجب ، وتحديد علاقته بالوجود الممكن ، تحديد المبدأ الأول وعلاقته بالعالم . وهو وإن لم يصرح بتبعية الثانى للأول ـ لأنه طبيعى يحاول شرح الشىء من نفسه لا من أمر خارج عنه كما هو شأن الإلهى ، وهما طريقتان فى البحث الفلسفى ـ إلا أنه فى شرح أحدهما بالآخر يجعل غاية الوجود الممكن ، وهو هذا العالم ، السعى الى التقرب من الوجود الواجب ، والوصول الى درجته فى الكمال . وبنى ذلك على ما فرضه من مبدأ عام له ، وهو مبدأ التطور ، أو مبدأ الصورة والمادة .

وليس بغريب أن أهمية البحث الفلسفى الإغريقى تكاد تكون وقفا أولاً وبالذات على «الوجود» ، وأن تكون فكرته الرئيسية هى « فكرة الوجود» ، لأن تفلسف الإغريق لم يكن كله ابتكارا بل غالبه « انتزاع » لآراء كانت منثورة فى الأساطير الدينية Mythologie ، وتعديل قائم على النقد لبعض العقائد الشعبية الموروثة ، فلم يتخلص تماما من الدين ، ولا من أصل فكرته ، وإن لم تكن له قداسته . وطبيعة الدين تعنى أول ما تعنى بإعطاء صورة عن الخالق — وهو المبدأ الأول أو العلة الأولى فى تعبير الفلاسفة — فى غاية الكمال تستحق وحدها وصف الوجود ، ثم بإعطاء صورة أخرى عن علاقته بمخلوقاته . وهم على كل حال دونه مرتبة وكمالا .

فالفلسفة وإن ادعت الاستقلال فى البحث ، بعيدةً عن التأثر بمصادر الدين ، فقد قلدته — على الأقل فى عهدها الأول — فى اتجاهه ، وفيما يعنى به . فاتجهت الى « الوجود » وعنيت بشرح « مبدئه » ، وأطلقت على ذلك « ما وراء الطبيعة » ، وسماه الدين « مصدر الفيض » . والدين فيما يحكيه عن مصدر الفيض أو مصدر الوجود يعتمد على الوحى السماوى (العلوى) ، بينما تعتمد الفلسفة فى بحثها فى « ما وراء الطبيعة » على أداة من نفس الطبيعة ، أى على الانسان . ولذا كان حكمه ، مهما بدا فى صورة منطقية ، على عالم ما وراء الطبيعة ، حكم الأجنبى على غير بيئته ، حكم المتخيل غير المجرب .

والفلسفة الدينية ، وهى الفلسفة المسيحية والاسلامية واليهودية ، لم تخرج عن تقليد الفلسفة الإغريقية فى العناية بموضوع « الوجود » وإن كان على أساس التقيد بما ورد فى العقيدة الدينية . ولذا كانت ترى أن مهمتها فى التوفيق بين ما ينسب الى فلاسفة الإغريق من جهة ، وبين ما يقوله الدين من جهة أخرى ، أكثر من الاستمرار فى البحث على أساس

الاستقلال ؛ الأساس الذى تميزت به الفلسفة عن الدين . فرجال الأفلاطونية الحديثة ، والفنوسطية ، وآباء الكنيسة ، وفلاسفة المسلمين ، وفلاسفة اليهود — كموسى بن ميمون — عُنوا ببحث الوجود ، وعلة الكون أيما عناية ، محاولين تفلسف الدين ، أى التقريب بين وجهتى نظر الفلسفة والدين .

وإذاً فقد كان قوام تفلسف الاغريق فيما قبل الميلاد ، وتفلسف رجال الدين فيما بعده حتى آخر القرون الوسطى ، واحداً ، وهو تحديد « الوجود » ؛ ولكن فى نظر الفلاسفة باسم علة العلل ، وفى نظر علماء الدين باسم الله . وليس معنى ذلك أن بحث الفلاسفة كان قاصرا على تعرف العلة الأولى ، وبحث رجال الدين لم يتجاوز الله ، بل العلة الأولى أو الله كان بدء البحث — وجوهره كذلك — فى نظر الفريقين .

***

منذ عصر النهضة ، أى منذ أن تحول البحث وتحول الاتجاه فيه عن « ما وراء الطبيعة » الى الطبيعة نفسها ، وعن علة الكون الى الكون نفسه ، انتقلت عناية البحث الفلسفى بالتدريج شيئاً فشيئاً الى الانسان وإلى « عقله وفكره » ؛ وابتدأنا نرى ديكارت يعرف الفلسفة بالعلم لأصول المعرفة الانسانية ؛ وهيجل من بعده يحدها بعلم العقل المفكر . وحل الفكر الانسانى فيما بعد عصر النهضة محل « الوجود » أو المبدأ الأول فى العهد القديم ، سواء أكان فى العناية ببحثه أو فى الاعتداد به . ولكن مع ذلك ، وإن كان منزلة إضافية الى حد بعيد ، لم يغفل هنا بحث ما وراء الطبيعة ، كما لم يغفل هناك فى العصور الأولى للفسلفة بحث الانسان .

هذا التحول يرجع فى بدء الأمر ، أى فى أول النهضة ، الى رغبة الباحثين فى تجنب الاحتكاك برجال الكنيسة خشية أن ينالهم من سلطانهم أذى ، ثم فيما بعد الى تحديد معنى العلم الذى تأثر الى حد كبير بالأبحاث الطبيعية التجربية والأبحاث الرياضية النظرية . ففى القديم كان معيار العلوم المفاهيم الكلية ثم المنطق الصورى . والآن أصبحت التجارب والتحديدات الرياضية هى المقياس الذى يحتكم إليه فى وصف « المعرفة » باليقين أو الاعتبار العام . ولا شك أن نتائج البحث النظرى فى الإلهيات تبعد كثيرا عما يطلبه المقياس العلمى الحديث . فتعرضُ الباحث لها إذاً — على أنها الأهم كما كان الحال فى القديم — حكم منه على نفسه بالعزلة عن بيئة الوقت العلمية ، وعن موضوع التنافس فى البحث . ولذا رأى « كانت » أن اختصاص الفلسفة كعلم هو الناحية العملية وتحديد الحياة الواقعة . أما القسم الإلهى فإن بحثته فلا يحق لها أن تطلب لهذا البحث صفة العلم اليقينى .

وقد كان من أثر هذا التحول والاتجاه أن تطرف بعض الباحثين ، وهم الملقبون بالعقليين

(Rationalisten) ، فى تقويم الانسان ، فقطعوا صلته بالعالم العلوى ولم يصبح « منحدرا عنه » ولا فى معرفته معلقا به ، كما كان الحال فى مدارس الأغريق (أفلاطون وأرسطو) . ولم يصبح علمه « فيضا » ولا غايته « تشبها بالله » أو « اتحادا به » كما أرادت المدارس الدينية بعدها ، بل أصبح علمه من « ذاته » وإرشاده من « نفسه » ، وأصبح هو الذى يفيض من نفسه على نفسه ، وصاحب الكلمة فى هذا الكون .

وكلما مال المقياس العلمى الى التجربة والى التحديد المادى ، مال البحث فى دائرة الانسان عن الناحية التى يشوبها الظن أو الخيال فيه ، الى الناحية التى هى أقرب الى المشاهدة . وبهذا تولدت ، منذ آخر القرن التاسع عشر ، الرغبة فى بحث تصرفات الانسان أكثر من بحث عقله ، وفى بحث طريق اكتسابه المعرفة أكثر من إمكان استقلال معرفته عن التجارب أو عدم إمكانها . وأصبحنا نرى أبحاثا نفسية تجريبية بجانب الأبحاث الانسانية العقلية . أصبحنا نرى علم النفس التجربى بجوار « نظرية المعرفة » وبجوار « مبدأ الواجب » .

فاذا كانت أبحاث ما وراء الطبيعة هى التى لعبت الدور الأول فيما قبل الميلاد حتى القرن الخامس عشر بعده ، فالأبحاث الانترويولوجية هى التى تركز فيها تفكير الانسان منذ عصر النهضة حتى أوائل القرن العشرين . وإذا تميزت فلسفة الماضى البعيد بأنها (Transjendenz) ففلسفة الحاضر والنهضة من قبل (Immanenz) .

محمد البهى
مدرس علم النفس والفلسفة بكلية أصول الدين

هل من فلسفة اسلامية ؟

نشرنا هذا البحث الممتع لحضرة الأستاذ الدكتور محمد البهى ، ولسنا نعقب على ما كتبه لنرد عليه ، فان كل ما كتبه صحيح فى ناحية الفلسفة المادية ، ولكن مجلة الأزهر متى كتبت فى الفلسفة فلا يجوز لها أن تقتصر على الناحية المادية منها ، ولا أن تغفل ذكر ما أصاب هذه الفلسفة من تدهور وسقوط أمام المكتشفات الحديثة .

ذكر حضرته الفلسفة الدينية وفسرها بأنها المسيحية والاسلامية واليهودية ؛ وذكر أن مهمتها كانت التوفيق بين ما يُنسب الى فلاسفة الاغريق من جهة وبين ما يقوله الدين من جهة أخرى ، أكثر من الاستمرار فى البحث على أساس الاستقلال ، الأساس الذى تميزت به الفلسفة عن الدين . ولكن منذ عهد النهضة فى أوروبا (أى فى القرن الخامس عشر والسادس عشر) تحول البحث عن (ما وراء الطبيعة) الى الطبيعة نفسها ، وعن علة الكون (أو الله) الى الكون

نفسه . ثم قال : إن نتائج البحث النظرى فى الإلهيات تبعد كثيرا عما يطلبه المقياس العلمى الحديث ، فتعرض الباحث لها ، كما كانت الحال قديما ، حكمٌ منه على نفسه بالعزلة عن بيئة الوقت العلمية . . . الخ الخ .

هذا كلام لا شية فيه من ناحية تصوير النزعة الإلحادية للفلسفة المادية ، وكل ما يعنينى من إيراده أن أنبه القارئين أنه لا توجد فى الاسلام فلسفة مستمدة من الخارج يمكن أن توصف بالدينية أو الاسلامية ، وكل ما وجد فى عهد نهضة المسلمين ، أن أفرادا منهم أُغرموا بالثقافة اليونانية القديمة ، فأخذوا إخذها فى الفلسفة ، واشتغلوا بدراسة مذهبىْ أفلاطون وأرسطو ، وأوسعوهما تقلية وشرحا ، حتى صاروا زعماءها على عهدهم . ولست أنكر أن هؤلاء حاولوا تطبيقهما على الاسلام ؛ ولكن أئمة الدين ، فى كل زمان ومكان ، أنكروا عليهم ذلك ، وجاء حجة الاسلام الغزالى فى القرن الخامس من الهجرة ، فبيَّن قصر نظرهم ، وضعف أدلتهم فى كتاب مشهور له ، دعاه بتهافت الفلاسفة . والتهافت لغة : التساقط قطعة قطعة هلاكا وتلاشيا . فيقال : تهافت القوم : أى تساقطوا موتا ؛ وتهافت الثوب : أى تساقط وبلى .

فاذا كان قد حدث فى الفلسفة تطور منذ عهد النهضة العلمية الحديثة ، فرجع عن أساسها الاغريقى وهو البحث فيما وراء الطبيعة الى البحث فى الطبيعة نفسها ، وعن البحث فى علة الكون أو الله الى الكون نفسه ، واعتبرت الفلسفة القديمة لهذا السبب عتيقة رثة ، لا يجوز أن يشتغل بها إلا من يريد أن يتخطى المقياس العلمى الحديث ؛ قلنا إذا كان قد حدث هذا وهو لم يحدث إلا فى ناحية الفلسفة المادية ، فلا يصيب الاسلام منه شىء ، وإنما يصيب تلك الفلسفة التى اشتغل بها رجال من أهله منذ نحو ألف سنة . بل يشهد هذا الرجوع عنها ببعد نظر أئمة المسلمين الأولين الذين كرهوا الاشتغال بها على الأسلوب اليونانى ، وبثقوب رأى حجة الاسلام الغزالى فى وصف الذين كانوا يشتغلون بها بالتهافت .

ليس فيما نقوله ما يؤيد قول خصوم الاسلام إنه يصد عن الفلسفة ، ولكنه يؤيد أنه يصد عن الخبط فيما ليس فى متناول العقل الانسانى القاصر إدراكه من حقيقة هذا الوجود الضخم ، وعن الجمود على خيالات تعتبر مسلمات ، ويُبنَى عليها ما يشاء الهوى من أوهام لا تقف عند حد ، ثم يتبين فسادها فيما بعد .

كان أساس الفلسفة اليونانية أن للوجود أصلا هو الجوهر الفرد . وما هو هذا الجوهر الفرد فى نظرهم ؟ كانوا يقولون إنه جرم مادى متناه فى الصغر ولا يقبل الانقسام ، تألفت منه جميع ما فى العالم من الأجرام العلوية ، وما على الأرض من الأجساد النباتية والحيوانية . وهذا الأصل المادى قديم أزلى . وقد اختلفوا فى علة تنوع الصور التى نشأت منه ، فبعضهم

كان يقول إنها نشأت بإرادة إله قادر حكيم ، قدَّر لكل منها الصورة التى هو عليها ؛ وبعضهم كان يقول بأنها نشأت على طريقة الاتفاق والخبط .

وكان الأولون يثبتون للانسان روحا غير مادية ، تخلد فى عالم أرقى من هذا العالم ؛ والأخيرون ينكرون الروح ويزعمون أن الانسان يفنى بفناء جثمانه ؛ وللفريقين فى إثبات الروح ونفيها ، وفى إثبات المعاد ونفيه ، أقوال كلها مستمدة من عالم الخيال . فهى ملتطم من نظريات ساذجة ، وأوهام باطلة ، ليس عليها من مسحة العلم إلا ما اودعته من العبارات المؤنقة .

قلنا إن أئمة الاسلام قاوموا الفلسفة اليونانية فى أول ظهورها ، وثابروا على منابذتها لا بالوسائل التعسفية كما فعل سواهم ، ولكن فى مجال البحث الحر ، وهم ما فعلوا ذلك ليعيشوا بدون فلسفة ، معيشة السذج البُلْه ، ولكنهم فعلوه لأن الاسلام نفسه أتاهم بحكمة ذات أصول مقررة فى كتابه ، وجدوا الفلسفة اليونانية بجانبها قاصرة . ونحن الذين ُبلينا فى هذا العهد بوجوب الأخذ بفلسفة نقوِّم بها عقولنا ، ونسترشد بأصولها فى ثقافتنا ، وجب علينا أن نعرض على أفهامنا مبادىء جميع الفلسفات ، وما انتهت اليه العقول من أشكالها لنأخذ بأحسنها .

فلنترك هذا الموضوع جانبا الآن لنعود اليه بعد .

قلنا إن كل ما كتبه حضرة الأستاذ الدكتور البهى صحيح من ناحية الفلسفة المادية . فهى التى حولت البحث عما وراء الطبيعة الى الطبيعة نفسها ، وعن علة الكون (أو الله) الى الكون نفسه .

ونريد هنا أن نقول : إنها فعلت ذلك ذهابا منها أن ليس للطبيعة وراء غير العدم ، فماذا ترجى أن تجد فى العدم ؟ وأن ليس للكون علة أوجدته ، فهو قديم بمادته وقواه ، فعلام البحث عن الله ؟

ولكن ليس جميع المفكرين على هذا الرأى ، وخصوصا فى هذا العهد الذى حطمت فيه المكتشفات الحديثة أصول المذهب المادى تحطيما ذريعا ، فقد ظهر فيه عمليا أن مذهب الجوهر الفرد المادى وهم من الأوهام ، وهو أساس الفلسفة المادية ، إذ ثبت ثبوتا قاطعا أن المادة المحسوسة مؤلفة من كهارب ، وقد اكتشفت وسيلة لتحليلها وأحالتها الى قوة مجردة عن المادية . وقد قام علماء كثيرون بتجارب على الشخصية الانسانية فشوهد أن لها وجودا مستقلا واتصالا بعالم أرقى منها ، فأصبح بذلك كشف ما وراء الطبيعة أمرا لا بد منه لإمكان فهم الوجود المادى على حقيقته . وقد تأثرت العقلية الفلسفية بهذه المكتشفات الى حد بعيد ، حتى أحدثت انقلابا خطيرا فى وجهات النظر العلمية . جاء فى مجلة المقتطف فى مجلد سنة (١٩١٨) تحت عنوان (البحث الفلسفى الحديث) ما يأتى :

« من يطالع ما ينشر من الكتب والمقالات الفلسفية يجد أن أصحابها مالوا عن الطريقة العلمية الى الطريقة الروحية » .

ثم أنحت المجلة على هذا التحول بالاستنكار ، فرأينا أن نلاحظ على هذا الاستنكار بمقال أرسلناه لتلك المجلة ، فنشرته فى عددها الذى صدر فى يناير سنة ١٩١٩ ، قلنا فيه بعد أن أوردنا قولها :

« هذا كلام صريح بأن الميل العام أخذ يتجه غير الوجهة المادية فى المباحث الفلسفية . وهو حادث جلل فى تاريخ الفلسفة الأوروبية لا يصح أن يهمل أمره ، ولا أن يعلل تعليلا بنظرة عجلى ، فإن أوروبا التى بلغت أشدها فى المباحث المادية ، وذاقت ثمار جهادها فيها عدة قرون ، لا تظهر فيها مثل هذه الحركة اعتباطا ، ولكن لا بد لذلك من علل جديرة بانعام النظر » . ثم طالبنا المجلة بوجوب النظر فى تلك العلل وتقديرها .

و نقول هنا : إن العالم الفلسفى لم يكن فى عهد من عهود تاريخ الانسانية العقلى ، على مثل ما هو عليه اليوم من التداعى والتفكك ، فجميع النظريات العلمية الكبرى التى كان يظن أنها تمثل الحقائق الثابتة وُضعت اليوم فى الميزان ، وظهرت الثغرات التى كانت محجوبة عن الأنظار فيها ظهورا أفقدها الثقة التى كانت لها إفقادا لا مرد له ، وأصبح الناس يتطلعون الى نظريات على الوجود والموجودات تناسب المكتشفات الحديثة فى عالمَىْ المادة والروح معا .

قال الفيلسوف الكبير (جيو) (Guyau) فى كتابه « لا دينية المستقبل » (l'Irreligion de l'Avenir) ناقدا المذهب المادى ، وهو كما يدل عليه اسم كتابه ليس من أنصار الأديان :

« إذا وُسِّع المذهب المادى وجب عليه أولاً نسبة الحياة الى العنصر العام ، بدلا من أن يفترضه مادة عمياء . قال الفيلسوف (سبنسر) : « كل جيل من الطبيعيين يكتشف فى المادة الموصوفة بالعمى ، قوى ما كان يحلم بوجودها أعلم علماء الطبيعة قبل ذلك بسنين معدودة » : ذلك لأننا لما رأينا أجساما جامدة تحس رغما عن جمودها الظاهر بتأثير قوى لا يحصى عددها ، ولما أثبتت لنا آلة التحليل الطيفى (السبكتروسكوب) بأن الذرات الأرضية تتحرك بالاتفاق مع الذرات الموجودة فى الكواكب ، ولما اضطررنا الى أن نستنتج من ذلك أن ذبذبات لا يحصى لها عدد تخترق الفضاء فى كل وجهة وتحركه ، لما رأينا ذلك كله وجب علينا أن ندرك كما يقول سبنسر : « أن الوجود ليس بمؤلف من مادة ميتة ، بل هو وجود حى فى كل جهة من جهاته ، حى بأعم معانى هذه الكلمة إن لم يكن بأخص معانيها » . ثم عاد جيو فقال :

« الاصلاح الثانى الذى يحتاج إليه المذهب المادى لكى يفى بحاجة البحث عن العلل الأولية ، هو أن يفترض أن للمادة مع الحياة جرثومة روحانية . وبما أن هذه المادة الأولية هى عبارة عن قوة صالحة للحياة وللفكر معا ، فليس هذا ما يفهم عمليا ولا علميا من معنى

المادة ، فضلا عما يفهم من معنى الأيدروجين (الذى يظن البعض أنه المادة الأولية) . فالمادى البحت الذى يلمس بيديه كرة الدنيا معتمدا على الحاسة الغليظة ، وهى حاسة اللمس ، يصيح قائلا : الكل مادة ! ولكن المادة نفسها تستحيل فى نظره الى قوة (كما ثبت من تحليلها) ، والقوة ليست إلا صورة من صور الحياة ، وعلى هذا يستحيل المذهب المادى الى مذهب روحانى . وتجده مضطرا أمام الكرة الأرضية الدائرة لأن يقول إنها حية . وإذ ذاك يتدخل شخص ثالث يضرب هذه الكرة برجله كما فعل غاليليه ، ويقول نعم هى قوة ، بل حركة ، بل حياة . ومع ذلك فهى أيضا شىء آخر لأنها تفكر فىّ ، وتدرك ذاتها بى . » انتهى كلام الفيلسوف جيو .

نعود نحن فنقول : ما الذى حدث فى العالم حتى أصبحت المذاهب التى كانت تزعم أنها راسخة رسوخ الجبال ، تتطاير شعاعا أمام النقد الصارم ؟ حدث ما يحدثك عنه الأستاذ الكبير (جوستاف لوبون) مكتشف تحليل المادة الى قوة ، كما جاء فى كتابه تحول المادة : (La transformation de la matière) .

« دامت الثقة فى صحة المقررات الكبرى للعلم العصرى حافظة لقوتها الى أن حدثت فى الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على الفكر العلمى (تأمل) ، الذى كان لا يرى صدوعه إلا عدد قليل من العقول العالية ، بأن يتزعزع فجأة بشدة عظيمة ، وصارت التناقضات ، والمحالات العقلية التى فيه ظاهرة للعيان ، بعد أن كانت من الخفاء بحيث لا تبلغها الظنون .

« أدرك الناس على عجل أنهم كانوا مخدوعين ، وأسرعوا يتساءلون : هل كانت الأصول المؤلفة للمقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية ، أكثر من افتراضات واهية تحجب تحت غشائها جهلا لا يسبر له غور ؟ »

وقال الأستاذ العلامة الرياضى هنرى بوانكاريه العضو بالمجمع العلمى الفرنسى ، فى مقدمة كتابه العلم والافتراض (La science et l'hypothèse) صفحة ١ :

« لما تروّى العلماء قليلا لاحظوا مكان الافتراضات من هذه العلوم ، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستغناء عنها ، وأن التجربة لا تستغنى عنها كذلك ، حين ذاك سأل بعضهم بعضا : هل هذه الصروح العلمية على شىء من المتانة ؟ وتحققوا أن نفخة واحدة تجعل عاليها سافلها . فمن أخذ على هذا الوجه صار سطحيا أيضا ، فان الشك فى كل شىء أو الاعتقاد بكل شىء يعتبران حلين قليلى الكلفة ، فان كلا منهما يعفينا من إعمال الروية » .

نفخة واحدة قد تنسف هذه المقررات العلمية المعتبرة اليوم يقينية ، وتجعل عاليها سافلها ! هكذا يقول الأستاذ الرياضى الكبير هنرى بوانكاريه ، فماذا يكون كلام المحبين للعلم ،

الراغبين فى أن يروا له حرما آمنا من الانقلابات والزعازع ، كما كان الناس يتخيلون ذلك له من قبل ؟

ذلك ما لا سبيل اليه ، فما دام الوجود غير محدود ، ووسائل الانسان لدراسته قاصرة على ما تؤتينا به حواسنا الخمس ، وهى لا ترى منه إلا القشور الظاهرة وفى ناحية منه صغيرة ، فلا يمكن أن ينتهى الانسان منه الى مقررات يقينية لا تتزعزع .

وقد أجاد العلامة الكبير (الدكتور جوستاف لوبون) مكتشف تحليل المادة فيما قاله فى هذا الصدد فى كتابه تحول المادة المذكور آنفا :

« من حسن الحظ لا شىء أكثر ملاءمة للترقى من هذه الفوضى العلمية . فالوجود مفعم بمجهولات لا نراها ، والحجاب الذى يحجبها عنا منسوج غالبا من الآراء الضالة أو الناقصة التى تفرضها علينا تقاليد العلم الرسمى ، فلا يمكن عمل أية خطوة الى أمام إلا بعد تفكك عرى الآراء السابقة . والأمر الشديد الخطر على ارتقاء العقل الانسانى ، هو تقديم الظنيات للقراء لابسة حلل الحقائق المقررة ، على نحو ما تفعله كتب التعليم ، والتطاول لوضع تخوم للعلم ، ورسم حدود لما يمكن معرفته كما كان يود ذلك اجوست كومت » .

نقول : إذا كان العلم الذى كان معتبرا فى قرار مكين من الثبوت والرسوخ قد انتهت مقرراته السابقة الى ما ترى من تزعزع الأركان حيال المكتشفات الجديدة ، فما ظنك بالفلسفات وهى لا تقوم إلا على تلك المقررات ، ولا توصف باليقينية لأنها من عالم التفكير والاستنتاج ، وقد اختُلف فيها حتى بلغت بأصحابها أبعد حدود التناقض ، وهو أمر لا يحتاج لبيان ؟

وبعد :

فان ما نشهده فى هذا العصر من هذه الثورة العلمية والفلسفية ، ستكون له آثار بعيدة المدى فى الطأمنة من كبرياء علماء الطبيعة والفلاسفة معا ، فقد كانت وصلت بهم الخيلاء الى أبعد حدود التمرد ، حتى زعموا أنهم يستطيعون أن يعللوا جميع الظواهر الوجودية ، حتى الروح الانسانية والقوى العقلية ، بعدد قليل من النواميس الطبيعية ، وهذا من الغرور الذى لا علاج له إلا ما أصابهم من هذا الإبلاس الذى فاجأهم من هذه المكتشفات فى عالم الطبيعة المادية نفسها ، لا فى عالم الروح كما قد يتوهمه بعض قراء هذه المجلة .

ونحن حين نقدم لقومنا ثمرة ما حصلناه من العلوم والفلسفة ، لا يجوز لنا أن نقدمها إلا على هذا النحو من النقد والتمحيص والتغلية ، فان المسلمين بما طولبوا به من إقامة مبدأ التثبت عملا بقوله تعالى : « يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » لا ينبغى أن تُحمل اليهم المعلومات إلا محاطة بوسائل التثبت والنقد ، لكى يستطيعوا أن يستصفوا

منها اللباب المحض فيأخذوا به ، أو يتميزوا الظنى المرجوح فيعرفوه ولا يغتروا به . وقراء هذه المجلة الذين يستنزلون المعرفة الحقة من ناحيتها لهم الحق فى هذا الاحتياط نفسه .

لو سرنا على هـذا السمت خدمنا المسلمين وقراء مجلة الأزهر خدمة تؤتى ثمراتها اليانعة مباركة موفورة ، وحميناهم من نُفاية الآراء الضالة التى قد تبقى مادة للدراسة مدة طويلة قبل أن تأخذ طورا جديدا كما يقول الأستاذ الدكتور (جوستاف لوبون) فى مقدمته التى نشرنا هنا فقرات منها ، فقد قال :

« لا مشاحة فى أن الأصول التى كان العلم يختال بها اختيالا لم تَـزُلْ كل الزوال ، ولـكنها ستبقى أمدا طويلا فى نظر الدهماء كحقائق مقررة ، وستستمر الـكتب التعليمية على نشرها ، ولـكنها قد فقدت كل ما كان لها من مكانة فى نظر العلماء الحقيقيين » .

ولما كانت العـلوم الطبيعية وفلسفتها أصبحت تنهمر على دور الدراسات الاسلامية ، فقد أضحى واجبا على مجـلة الأزهر أن تقف لها بالمـرصاد ، فتنبه على جهات الضعف فيها ، وعلى ما رآه النقاد من ثُـلَـمها ، مع شفعها بتفصيل العوامل التى قضت على العلماء بان يتنبهوا لانخداعهم بها .

هذه الدراسة التحليلية لنظريات العلوم وللفلسفة المبنية عليها إن اعتبرت واجبة فى ذاتها ، فهى لطلاب الحقائق الدينية أوجب ، لأنها تؤمّنهم خطر التدهور فى مزدلقات الآراء الالحادية ، وتهديهم الى طرق تمحيصها بحيث ييأس مريدو فتنتهم أن يهاجموهم من قبلها .

لقد كانت العلوم الطبيعية وفلسفتها فى جميع أدوارها خصما عنيدا لطلاب الحقائق العلوية ، حتى جاء زمان كان لا يجرؤ فيه الباحث فيما وراء الطبيعة من العالم غير المنظور أن يُظهر نفسه ، تفاديا من أن يسخر منه الناس ويعتبروه من ذوى العقول الساذجة ، ولـكننا أصبحنا فى زمان يعتبر فيه من يُغفل هذا البحث ، مكتفيا بالقشر عن اللباب ، وليس هذا من سلامة الفطرة ، وصحة النظر فى شىء . فعلينا أن نمضى مع العـلم والفلسفة حيث مضيا ، وأن نجول معهما حيث جالا ، ولـكن لا يجوز لنـا أن نقف معهما حيث وقفا من تعاليم هما نفساهما يعتقدان أنها وقتية ، بعد ما بلغا رشدهما وتحققا أن الوجود حافل بالمجهولات ، وأن اكتشافا جديداً قد يحدث فيهما انقلابا ما كان يخطر على قلب أوسع الناس تخيلا .

ولم يأت على الناس عهد شهد العلم فيه على نفسه بالعجز ، واعترفت فيه فلسفته بالقصور ، مثل العهد الذى نعيش فيه . فلنتخلص من فتنة الآراء الضيقة ، ولنستقبل علما أرفع ، وفلسفة أوسع ، نستشرق منهما نور الحق « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

محمد فريد وجدى

الهجرة

كلما دار الفلك دورته ، وأقبل العام الهجرى ، وحزبت المسلمين الخطوب ، واشتدت عليهم الكروب ، وأظلمت أمامهم مشاكل الحياة ، هفت قلوبهم ، وتطلعت نفوسهم الى سيرة النبى الكريم ، يستروحون منها ، ويتنسمون عاطر شذاها ، ويستلهمونها العبر ، ويستوحونها الرشاد .

وإنها لرياض تزدهر بجلائل الأعمال وعظائم الأمور ، ويرف فى ظلالها الخير والهدى . وإنها لدستور لو طبقه المسلمون على سائر أعمالهم لكانوا سادة الأمم وقادة الشعوب ، ولرقت أفرادهم وجماعاتهم ، ولظل بأيديهم صولجان الملك فى سائر الأقطار ، ولكانوا الرءوس لا الأذناب ، ولسخروا الشعوب ولم تسخر منهم الشعوب .

ولكنا جعلنا القدوة غيرها فضللنا ، وجعلنا الامام سواها فتحيرنا ، وذهبت بنا المذاهب ، وتفرقت بنا الأهواء والشهوات ، فصرنا شيعا تتقاذفنا الأمم تقاذف الكرات ، لا حول لنا ولا قوة ، ولا إرادة إلا حيث يرادمنا أن تكون لنا إرادة .

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود

فاللهم نفحة من نفحات رسولك ، وشعلة من جذوة إرادته تصلح أحوالنا ، وتعيد مجدنا وسلطاننا ، وتجمع المتفرق من قلوبنا وأهوائنا .

***

فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم مُثل عليا للفضائل الانسانية ؛ فيها مثل أعلى للخير والبر والصفاء والوفاء ، والثبات فى البأساء ، والصبر على اللأواء ؛ فيها مثل أعلى للأمانة فى أداء الرسالة ، والتضحية فى سبيل المبدأ والدفاع عن الحق ، وحسن السياسة والبراعة فى القيادة ؛ فيها مثل أعلى للحياء والتواضع ، والشكر والزهد ، والعفة والقناعة ، والجود ، وحسن العشرة ؛ وفيها غير ذلك مما يقصر عنه الوصف ويقف دونه البيان . وضربُ الأمثال لهذه الخصال يضيق به هذا المقال .

لولا عجائب صنع الله ما نبتت هذى الفضائل فى لحم ولا عصب

وإذا كان الفداء والتضحية مما يحمده الناس ويقدرونه ، وتلهج بذكره ألسنتهم فى هذه الظروف خاصة ، فإن حادث الهجرة وما فعله النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعلى رضى الله عنهما ، يعتبر مثلا أعلى للتضحية والفداء فى سبيل المبدأ والمصلحة العامة .

فالنبى صلى الله عليه وسلم هاجر من وطنه ـ والوطن حبيب الى النفس لاصق بالروح ـ

وفارق أهله وأنصاره وقومه ، أشد ما يكون تعلقا بهم وحرصا على البقاء فيهم ، وأعظم ما يكون جهادا فى هدايتهم ، وندما على تماديهم فى غوايتهم ، حتى عزاه الله بقوله : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » ، وقوله « فلعلك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » . ولكن قريشا ضاقت به ذرعا بعد أن تفننت فى إيذائه ، وأذاقته وصحبه من العذاب ألوانا ، فلم تصل الى غايتها فيمتنعَ عن تبليغ رسالته . وضاق محمد بقريش ذرعا بعد أن كشف لهم عن ظلمات الباطل بنور الحق ، فسخر من آلهتهم ، وعاب معتقداتهم ، وسفه أحلامهم ، وضلل آباءهم . فلم يكن من الهجرة من مكة الى المدينة بد ، حيث تجد الرسالة تربة صالحة تنبت فيها وتنمو وتزدهر ، وتؤتى أكلها بإذن ربها .

فهاجر عليه السلام يملأ اليقين قلبه بنجاح دعوته ، وركب فى رحلته من المراكب أوعرها ، واحتمل من المخاطر أشدها ، وسلك من السبل ما لم يسلك من قبل ، وأوى الى الكهف هو وصاحبه أبو بكر ثلاثة أيام خوف أن تظفر به قريش ، وأن يطفأ فى يده مصباح الرسالة فلا يسطع ضوؤها على البشرية ، ولا تتنسم روح السعادة التى قدرها الله . ومرت به عليه السلام لحظات كان الموت قاب قوس منه لولا عناية الله .

روى أن المشركين طلعوا فوق الغار فأشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ فأعماهم الله عن الغار ، فرجعوا يترددون حوله فلم يروه . وروى أن أبا بكر قال للنبى صلى الله عليه وسلم : لو نظر أحدهم الى قدميه لرآنا .

عناية ضل كيد المشركين بها وما مكاييدهم إلا الأباطيل
إذ ينظرون وهم لا يبصرونهما كأن أبصارهم من زيغها حول

ولقد قاسمه أبو بكر مرارة فراق الأهل والأحبة والوطن ، وشاطره مخاوف الطريق ونصب السفر ، واحتمل خشونة العيش وألم السجن فى الغار ثلاثة أيام ، وهو من نعم رفاهية وثراء ومكانة فى قومه ، وقدّم نفسه فى مواطن كثيرة فداء للنبى صلى الله عليه وسلم . قيل إنه لما دخل الغار مزق بردته وحشى ما بالغار من جِحَرة ، وبقى جحر واحد فسده بعقبه خوف أن تؤذى الحيات والهوام رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهارا ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر . وأمر عامر بن فهيرة مولاه وراعى غنمه أن يريحها عليهما من الغار ليلا ليأخذا حاجتهما من لبنها . وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما . وعرجت قريش على دار أبى بكر فخرجت إليهم أسماء فقالوا : أين أبوك ؟ فقالت : لا أدرى ، فرفع أبو جهل يده ، وكان فاحشا ، فلطم خدها لطمة طرح من جرائها قرطها ثم انصرف !

وكذلك فعل علىّ رضى الله عنه : فلقد عزم على الهجرة مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن النبى رأى أن يستبقيه بمكة حتى يرد الودائع الى أربابها ثم يلتحق به — ومكة وقتئذ جحيم تسعرها قريش بالمؤمنين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم — وقدّم نفسه فداء للنبى صلى الله عليه وسلم فنام على فراشه ليلة أزمع على الهجرة ، وتدثر ببردته ليخدع قريشا عنه ، وهو يعلم ائتمار قريش عليه ، وحشدهم له ، وتحفزهم لقتله ، ويعلم أنه قد يدفعهم حرصهم على قتل النبى صلى الله عليه وسلم أن يتعجلوا قتله قبل أن يتميزوا شخصه ؛ كان يعلم ذلك كله ولكن حبه لصاحب الدعوة وتغلغل عقيدة الاسلام فى قلبه جعله يرخص نفسه ويقف هذا الموقف من الفداء والتضحية !

***

هذه لمحة خاطفة مما كان من النبى وأبى بكر وعلى فى حادث الهجرة ، وهى صفحة مشرقة فى التاريخ الاسلامى ، فيها المثل الأعلى للفداء والتضحية فى سبيل الحق والعقيدة والخير العام .

ولقد حققت الهجرة للنبى وصاحبيه ما كانت تصبو اليه نفوسهم من نجاح الدعوة وتبليغ الرسالة ، فقد كانت المدينة التربة الخصبة التى ازدهرت فيها الدعوة واستفاضت الرسالة وعم نورها الأقطار والأمصار ، ووجد بها محمد ومن هاجر معه أنصارا مخلصين وأعوانا مجاهدين ، حملوا معه أعباء الرسالة ، وآزروه بأموالهم وأنفسهم ، وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ؛ فرضى الله ورسوله عنهم . ولهذا اعتبر حادث الهجرة حادثا خطيرا فى تاريخ الدعوة الاسلامية ، إذ كان مبدأ لانتصار الرسول فى جهاده فى تبليغ الدعوة ، وتوفيقه السياسى فى الدفاع عنها . وكان من حكمة سيدنا عمر أن يجعل ذلك الحادث مبدأ للتاريخ الهجرى ، تخليدا لذكرى ذلك الأمر الخطير ، يذكر به المسلمون صفحة من تاريخ نبيهم وأصحابه ، ويذكرون ما كان منهم من جهاد فى سبيل الحق وفداء فى افتدائه . ولقد تنبه المسلمون حديثا الى هذا المعنى فى ذلك الحادث فجروا على إحيائه فى كل عام ، إحياء لتلك الذكريات التى لاحظها عمر الفاروق رضى الله عنه ، وسموه عيدا هو فى الحق من أجدر الأعياد بالاحتفاء وأولاها بالإحياء .

وبعد : فإنى أتوجه الى المسلمين فى هذه المناسبة بأخلص التهانى بعيد الهجرة المبارك ، وأضرع الى الله أن يحول حالهم الى أحسن الأحوال ، ويوجه قلوبهم الى صاحب الذكرى صلوات الله عليه ، ويوفقهم للتأسى بسيرته ، ويفيض عليهم من بركاته ما يصلحهم فى دينهم ودنياهم ؟

أبو الوفا المراغى

حياة رجالات الإسلام

أبو بكر الصديق

آية النبوة الأولى ، ومَثَل الاسلام الأعلى ، وصنيعة الوحى المثلى ، ومعجزة الشريعة الكبرى ، ومَظهر أسرارها ، ومهبط عرفانها ؛ مَغدى التقى ، ومراح الهدى ، ومثوى الإخلاص ، وكهف الإيمان ، وملجأ الأمة إذا ادلهمت أمورها ، ومأرز الدين عند تفاقم الخطوب ؛ شيخ المؤمنين ، وأول الخلفاء الراشدين ، الذى رأب شعب الأمة ، وكشف بحزمه عنها الغمة ، وجمع بحكمته لها الكلمة ، ولمّ شعث المسلمين ، وشتت شمل المنافقين ، وقهر المرتدين ، وأعاد الدين فتياً قويا ، عظيما قاهراً ؛ أرجح الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إيمانا ، وأصفاهم سريرة ، وأطهرهم خليقة ، وأنقاهم فطرة ، وأرسخهم يقينا ، وأعظمهم دينا ، وأكملهم نفسا ، وأرهفهم حساً ، وأهداهم عقلا ، وأخصبهم إنسانية ؛ أرحم المؤمنين بالمؤمنين ؛ أعز الله به الدين ، وأيد به اليقين ، وشد به أزر سيد المرسلين .

عظمة مستسرة ، ونبل يكنفه الجلال ، وعبقرية فذة غامرة ، سارت فى شوطها على سواء ، كالحلقة المفرغة ، لا يعرف أين بدأت ، ولا أين انتهت ؛ سمو مفطور ، وكمال منشور ، وفضل منظور ، وسمت مشهور ، وأدب من السماء مصدره ، ومن قدس العزة مورده . وما وزن الحياة لرجل : عمر بن الخطاب ، فاروق الاسلام ، وهو من هو ، فى دوى عظمته وجلاله ، إنما هو حسنة من حسناته ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وهم فى فنون الشرف والعبقرية من هم ، إنما كانوا دعوة من دعواته ؟

وفى الحق إن الباحث فى شخصية أبى بكر الصديق رضى الله عنه ليحار ، ويأخذه البُهر إذا أراد أن يعرض لها صورة تحليلية ؛ فهى كالشمس ، يراها الناظر ، ولكنه لا يستطيع أن يسبر بنظره الكليل غورها ، أو يتعرف كنهها ، أو يحيط بفنون ألوان أشعتها ، فهو يحس حرارتها ، ويرى ضوءها ، ويشهد بؤرتها ، ولكنه لا يستطيع أن يحصى عناصر تكوينها .

كذلك كان موقفى حينما أخذت القلم لأكتب عن الصدّيق الأعظم ، فأنا أعلم وأومن أنه أفضل المسلمين وأعظمهم ، ولكن ماهى عناصر هذا السمو الذى أخذ بأرجاء الأرض ثم صعد حتى لاط بالسماء ؟ ها هى ذه أشعة سمو الصديق تضرب بأكناف الدنيا ، فأنا أراها وأحسها ، ويغمرنى الشعور بها ، ولكنى عاجز عن حصرها ، فتهيبت أن أكتب فى سيرته على غرار

ما كتبت فى سيرة الخالدين من رجالات الإسلام ؛ وكان الصديق رضوان الله عليه أحق بالتقدمة ؛ وهذا هو سر الاعتذار عن مجاوزة هذا الحق ، لأنى خشيت أن يأخذ بى الحديث عنه فى سمت لا تواتينى عدتى على إكمال شوطه ، فأردت أن أستأنس بسيرة من استطاع التاريخ أن يرسم لهم صورا مقاربة تلمع من ثناياها أضواء حياتهم ، حتى يكون ذلك وسيلة لرسم صورة مجملة لشخصية الصديق تفى ببعض الحق ، وتوحى الى قادة الإصلاح فى عصرنا طرائق من الخير تعتمد على منازع نفسية من صنع الضمير ، ولا تأبه لهذه المظاهر الجوفاء ، ولا تعبأ بصخب الحياة واضطرابها .

فى الحديث الشريف أن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : « تذاكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ميلادهما عندى ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم أكبر » . والنسابة يذكرون أن أبا بكر ولد بعد الفيل بعامين وأشهر ، وهم على شبه اتفاق أن النبى صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل ، فالفرق بين سنيهما عامان بنقص أو زيادة على اختلاف الروايات ، يفرع بهما النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر ، وهذا الفرق فى المعاصرة لا يمثل شيئا ؛ فأبو بكر تنسم نسيم الحياة فى الزمن الذى تشرفت فيه الدنيا بوجود المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وعاش فى البلد الذى عاش فيه ، والبيئة التى نشأ فيها ، فنهد وشب فى مكة حول البيت الحرام ، من بيت قرشى ، فى بيئة عامة على أفسد ما تكون ، وأحط ما عرف الناس من نظام اجتماعى وكيان خلقى ، هى الجزيرة العربية وما تعج به من قبائل متنافرة متناحرة ، عاشت على سفك الدماء ، ونهب الأموال ، وهتك الأعراض ؛ يعبدون الأوثان ، ويعتقدون الخرافات ، ويطوفون بالبيت عرايا ، ويتكسبون بأعراض البغايا ؛ يدمنون الخمور ، ويئدون البنات خيفة العار ، ويقتلون الأبناء خشية الإملاق ، ويستقسمون بالأزلام ، ويذبحون للأصنام ، ويلعبون الميسر ، ويدينون بالهامة ، ويتطيرون ، ويتشاءمون ، يستوى فى ذلك منهم السيد والمسود ؛ انغمسوا فى حمأتها ، واتخذوها شعارهم ، واعتدّوا رذائلها فضائلهم ، فتأصلت فى نفوسهم ، فدافعوا عنها دفاعهم عن حياتهم .

وإلى جانب ذلك البيئةُ الخاصة التى لامست عن قرب أو ملاصقة شخصية أبى بكر فى بيت أبى قحافة أحد رجالات بنى تيم بن مرة ، فرع قريش سيدة القبائل العربية ، ذات الفخر والخيلاء ، والبطر والكبرياء ، والعنجهية الجهلاء ، وخادمة البيت الحرام ، وحامية الدين ، وسادنة الأصنام ، وطريق القوافل التجارية غادية ورائحة ، وسوق التجارة للعرب عامة ، تتبادل فيها سلعها ، وتتمازج فيها لهجاتها .

فما أثر هاتين البيئتين فى تكوين شخصية أبى بكر ؟ وهل استطاعتا أن تجعلا منه مثالا يضرب لهما كغيره من أبناء العرب ؟ أو أن هناك عوامل خفية أو ظاهرة فوق البيئات انتزعت

أبا بكر من بيئته وسبكته فى غير صوغها ، وأقامته على خلاف طرزها ؟ إن الشذوذ عما ألف الناس من مناهج الطبيعة وقوانينها كثيرا ما يكون من سنن خالق الطبيعة تدليلا على إطلاق القدرة الإلهية ، وتقييد العقول البشرية فى مداها الخاص مهما بلغت من القوة والنفاذ .

نشأ أبو بكر فى مكة أم القرى ، والعرب على ما هم عليه ، لا يحسون بشىء من أحداث الكون إلا ما يجلب لهم الخبز والماء ، لا يبالون فى سبيل الحصول عليهما أية طريق سلكوا ، فلم يكن أبو بكر كأحدهم يشهد مجالسهم ، ويقترف آثامهم ، ويأتى منكراتهم ، ويدين بأباطيلهم ، ويعتقد خرافاتهم ، ويأبه لترهاتهم ، ويحفل بمراسم تدينهم ، كلا ، ولكنه كان خلقاً وحده ، وأمة فى نفسه ؛ رأى أن الخمر تنقص العقل فحرمها على نفسه وامتنع عن شربها تعززا وتكرما ، ورأى أن السجود لهذه الأصنام بلادة فى الفطرة فترفع عنها ، ورأى أن وأد البنات سوأة فى المروءة ووهن فى العرض فلم يأته مطلقا ، ورأى أن قتل الأولاد خشية الإملاق عجز عن الكسب من أشرف طرائقه فأبى أن يفعله ، ورأى فى جميع ما عليه قومه من سىء الخصال ومنكر الخلال مطعنا فى رجولته ومغمزا لإنسانيته ، فاعتزلهم إلا فى المحامد والمكارم ؛ قال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب الاستيعاب : « وكان أبو بكر فى الجاهلية وجيهاً رئيسا من رؤساء قريش ، وإليه كانت الأشناق ، والأشناق الديات ، كان إذا حمل شيئا قالت قريش : صدّقوه ، وأمضوا حمالته وحمالة من قام معه أبو بكر ، وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدقوه » .

ورأى أبو بكر محمد بن عبد الله من بين لداته وأقرانه من شباب قريش أكملهم وأزكاهم ، فصادقه ولازمه وجعله قدوته ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أكمل الخليقة نفسا ، وأعظمهم خلقا ، وأكبرهم قلبا ، وأطهرهم روحا ، وأجلهم أدبا ، وأصدقهم حديثا ، فطرة الله التى فطره عليها ؛ فتآلفا وتحابا ، وأخذ أبو بكر من أخلاق محمد ما اتسعت له فطرته ، وتهيأ له استعداده ؛ وهذا هو سر ما اشتهر عن أبى بكر من مشابهته لبعض أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم قبل النبوة .

ومن أظهر شواهد ذلك حديث ابن الدَّغِنَّة : روى البخارى فى صحيحه عن عروة بن الزبير « أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : لم أعقل أبوىّ قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا ويأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفى النهار بكرة وعشية ، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة حتى بلغ بَرْكَ الغِماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة ، فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : أخرجنى قومى ، فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى ؛ فقال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرَج ؛ إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكَل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك ؛ فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية فى أشراف قريش ، فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ، ولا يخرج ،

أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟! فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره ، فليصل فيها وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ، ولا يستعلن به ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ؛ فقال ذلك ابن الدغنه لأبى بكر ؛ فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ فى غير داره ؛ ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجدا بفناء داره ، وكان يصلى فيه ، ويقرأ القرآن ، فيتقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم ، وهم يعجبون منه وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ؛ فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا الى ابن الدغنة ، فقدم عليهم ، فقالوا : إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره ، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان . قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة الى أبى بكر فقال : قد علمت الذى عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع الىّ ذمتى ، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له ؛ فقال أبو بكر : فإنى أرد لك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل » .

وفى هذا الحديث ضروب من العلم وفنون من الفضائل ، وأول ذلك ما يَبْدُ هنا فى صدر الحديث من حال النبى صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر وآله وبيته ، ومداومة زيارته لهم طرفى النهار فى أشد الأوقات عليه وأحرجها ، وذلك يشير الى ما ذكرناه من اختصاص النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر بمودته وصداقته قبل النبوة ، فلما جاء الله بأمره الى رسوله الكريم وقاومته قريش أشد المقاومة لم يجد فى هذا الحرج متنفسا إلا بيت أخيه وصاحبه وحبيبه وصفى شبابه أبى بكر يفضى إليه ببعض سره .

وفيه أيضا أن الأذى اشتد بأبى بكر مع مكانته فى قومه فخرج مهاجرا بدينه .

وفيه أن سيد القارة ابن الدغنة أنكر أن مثل أبى بكر يَخرج أو يُخْرج من بلده ، وأفزعه ذلك معللا له بذكر بعض مناقب أبى بكر ، وهى صفات من أفخر مفاخر العرب ، وأفضل فضائل الانسانية . ومن ألطف ما فى ذلك وأبدعه أن هذه الأوصاف النبيلة هى نفسها التى وصفت بها أم المؤمنين السيدة خديجة رضى الله عنها النبىَّ صلى الله عليه وسلم فى مبدأ الدعوة ؛ قال العلامة ابن حجر فى الاصابة : «ومن أعظم مناقب أبى بكر أن ابن الدغنة سيد القارة لما رد إليه جواره بمكة وصفه بنظير ما وصفت به خديجة النبى صلى الله عليه وسلم لما بعث ، فتواردا فيهما على نعت واحد من غير أن يتوطآ على ذلك ، وهذا غاية فى مدحه ، لأن صفات النبى صلى الله عليه وسلم منذ نشأ كانت أكمل الصفات » .

وفى هذا الحديث أيضا أن أبا بكر كان مشهورا معروفا بين قبائل العرب بالخير والفضائل ، حتى أن قريشا لم تكذب بجوار ابن الدغنة حينما أنكر عليهم إخراجه ، وهو متصف بجماع الخير والبر ؛ ذكر ابن حجر فى الاصابة أن ابن اسحاق قال فى السيرة الكبرى : « كان أبو بكر رجلا مؤلفا لقومه محببا سهلا ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلمهم بما كان منها من خير أو شر ، وكان تاجرا ذا خلق ومعروف ، وكانوا يألفونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته » .

وفى هذا الحديث أيضا إبانة عن أثر الإيمان فى نفس أبى بكر ورسوخه أول ما نزل فى قلبه .

وفيه بيان رقة قلبه وأنه لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن لما يفتح الله عليه من جلائل أسراره .

وفيه بيان أثر الإخلاص فى أقسى القلوب وأشدها إعراضا ، حتى أن نساء المشركين وأبناءهم جعلوا يتقذفون على أبى بكر يعجبون منه ، وحتى خشى عليهم منه صناديدهم .

وفيه تتجلى ثقة أبى بكر رضوان الله عليه بربه عز وجل ، ورده جوار ابن الدغنة ، وركونه الى حماية الله تبارك وتعالى ، ورضائه بجواره الكريم ؟

صادق ابراهيم عرجون

معدم يغنى مدينة

كان الحكم بن حنطب من سراة الناس وأجوادهم . قيل لنصيب بن رباح : لقد خرف شعرك أبا محجن (يريد أنه نضب) . قال لا ، ولكن خرف الكرم . لقد رأيتنى ومدحت الحكم بن حنطب فأعطانى ألف دينار ومائة ناقة وأربعمائة شاة .

وسأل أعرابى الحكم بن حنطب فاعطاه خمسمائة دينار ، فبكى الأعرابى ، فقال مايبكيك ، لعلك استقللت ما أعطيناك ؟ قال : لا والله ولكنى أبكى لما أكل الأرض منك ؛ ثم أنشأ يقول :

وكأن آدم حين حان وفاته أو صاك وهو يجود بالحوباء
ببنيه أن ترعاهم فرعيتهم فكفيت آدم عيلة الأبناء

الحكم بن حنطب هذا قال عنه رجل من أهل منبج : قدم علينا الحكم بن حنطب وهو مملق فأغنانا . فسأله سائل : كيف أغناكم وهو مملق ؟ قال علمنا المكارم ، فعاد غنينا على فقيرنا .

من أخلاق الشريعة وآدابها

عرضنا فى بعض الأعداد السابقة لماما لمبلغ ما أفاضته الشريعة السمحة على الوجود من البر به والحدب عليه ، وما أشادته فى بناء الإنسانية وصرح المجتمع من المثل العالية المنبثة فى الكائنات .

فالأخلاق المثالية المتوارثة تنمو وتزداد نماء على هدى الفرقان والسنة ، لأنها أخلاق بقاء ما بقى هذا الوجود يشع فى أجزائه المثل الصالحة . فالشريعة التى حملت الى الانسانية بين أطوائها فيما حملت الحض على اعتناق الآراء الصحيحة والعقائد السليمة والمبادئ القيمة والمثل العالية ابتغاء توجيهها الى خير طريق وأبلج محجة ، وتجنيبها الآراء الفطيرة والمعتقدات الضارة الفاسدة التى ترديها فى مباءة الشهوات الجامحة والنزوات الطامحة ، شريعة البقاء السرمدى ، ووحى الخلق المثالى . ثم هى بعد ذلك تدعو الناس فيما تدعو الى تجنب الأخلاق الضارة الوبيئة العاقبة ، كظن السوء والحقد والحسد ، وتتبع العورات والكبر والاختيال والغيبة والنميمة ، ثم تتسامى بالمجتمع فترشده الى أن الاغراق فى المديح لوثة أخلاقية لاينبغى للمسلم أن يتخذها له شعارا ، وأن السب والقذف واللعن والفحش واحتقار المسلم وهجره والجدل والمراء والبخل وسوء الخلق والكذب والنفاق مما ينبغى لكل مسلم أن يترفع عنها ، وأن يتقى نفسه شرورها ومآثمها .

أخرج الشيخان فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا » .

وأخرج أبو داود فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إياكم الحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار العشب » .

وهل أبلغ فى الدعوة الى اعتناق المثل الفضلى والسير بالانسانية فى أفضل وسائلها وأعلى أنماطها بنبذ الشحناء والبغضاء فى القلوب والقضاء على إحن الصدور ووساوس النفوس لتتعاون الهمم العلية الصادقة المؤمنة فى بناء صرح الانسان الكامل حتى يؤدى كل رسالته الى المجتمع على طاقته ، من تلك المبادئ النبوية السامية ؟

فنظرة فاحصة الى قصة مثالية يرويها الزبير بن العوام فيما يروى عن الرسول الأعظم تقوم آية الآيات على سمو الدعوة المحمدية بالانسانية الى أوج الكمال الانسانى وأعلى مراتبه . فقد أخرج الامام الترمذى فى صحيحه عن الزبير بن العوام رضى الله عنهم عن النبى صلى الله عليه

وسلم أنه قال : « دب اليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين ، والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أنبئكم بما يثبت ذلكم ؟ أفشوا السلام بينكم » .

ثم يأتى دور تتبع العورات ، وتتبع العورات من النقائص الخلقية التى كفل الشارع حماية المجتمع منها ، فإنها مفسدة للخلق والدين . فالمتتبع لعورة أخيه المسلم إنما يبتغى أن تشيع الفاحشة الخلقية فى المؤمنين ، فيأخذ الله لهم بالجزاء حيث يتتبع الله عورته ، فإن بدا للمرء ما يحمل على الريبة فى شأن أخيه والتظنن به فلا ينبغى له أن يأخذ أخاه بتلك الريبة ، وإنما يأخذه باليقين وصادق البينة . فقد أخرج أبو داود والترمذى فى صحيحيهما عن أبى برزة أن النبى صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فنادى فى الناس بصوت رفيع : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الايمان الى قلبه : لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فانه من تتبع عورة المسلم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله » .

وقيل لعبد الله بن عمر رضى الله عنه : هذا فلان تقطر لحيته خمرا ، فقال : إنا نهينا عن التجسس ولكن إن يظهر لنا شىء نأخذ به . فالعبرة المستخلصة من ذلك أن زعيم البيت أو الجماعة أو الأمة إذا حاول أن يستريب فى قومه وأن يتعرف مثالبهم على غير بينة وحجة ، أشاع فيهم الفساد والفرقه وانقسام الكلمة ، ودلهم على شر مستطير أقله التبرم به والكيد له والخروج على أوامره .

ويأتى فى أثر العيوب الاخلاقية الكلام عن الكبر والخيلاء . والكبر والخيلاء خلة تستتبع المقت من الناس بعد المقت من الله ، فقد انفرد سبحانه بالعظمة والكبرياء ؛ فالمتكبر ينازعه فيهما ويتحداه عليهما .

أخرج أبو داود ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى : « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما قذفته فى النار » .

وأخرج مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » قال رجل : يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا . قال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس » . وأخرج مسلم أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر » .

فالعبر المستخلصة من تلك المبادىء الأخلاقية شواهد صدق على أن الشريعة السمحة قد أحاطت المجتمع بسياج من الخير صفيق ، وأوحت اليه الشعور بصدق رسالة الانسان الى أخيه الانسان . وإلى الغد ؟

عباس طه

في عالم المؤلفات الجديدة

خواطرى — تحت ضوء القمر

أحسن ما توصف به الرسالة التى تحمل هذا الاسم أنها عصارة تفكير ناضج عميق فى الحياة الانسانية ، وفى الوجود الذى قذف بها اليه لتتطور فيه ، وفى عوامل هذا التطور ، وفى القواطع التى تحتوشها ، وفى الأهـواء والأوهام التى تلازم الطبيعة البشرية وتلون بهـا ما تندفع اليه بألوان خـداعة ، وفى الجماعة وسلطانها ، والوراثة وتأثيرها ، والتقليد ونتائجه ، وفى النفس والقوى المستكنة فيها ، والمناعة التى تستطيع أن تتقى بها شرور المجتمع لو أرادت الخ الخ .

تفكير عميق فى كل هذه المناحى معبر عنه بعبارات طلية أخاذة من قبيل الشعر المنثور يتراوح بين الابداع والاجادة ، وإن كان لا يخلو أحيانا من غموض ، وهو أقل ما يصادف فى هذه الرسالة .

أتدرى لمن أهدى رسالته هذه ؟ لا الى ذى جاه ، ولا الى ذى مال ، ولـكن :
الى الحائر بين أكوام الحياة وصخورها .
الى المطل من نافذة الحياة على الوادى العميق .
الى العالق بصره بالفجر الرائع فى جوف الزمن .
الى التائه بين الأشواك والزهور .
الى السائر تحت الشعاع المنصب من السماء الى الأرض .
الى الذين انتزعت من حياتهم المعانى .

مما يزيد فى إعجابنا بهذه الرسالة أنها لطالب فى الجامعة الأزهرية لم تتجاوز سنه العشرين ، هـو الأستاذ الشيخ محمود حسين مرعى . وكنا نود أن ننقل منها فقرات كثيرة فمنعنا ضيق الصحيفة ، فنجتزئ ببعض ما كتبه فى مقدمتها وهو قوله :

وسواء أأصغى هؤلاء الحيارى لصوتى أم جعلوا أصابعهم فى آذانهم فاننى لم أكتبه إلا إجابة للصوت الذى يهتف فى داخـل الانسان ، وإلا رغبة فى أن ينتبه هؤلاء قبل أن تهوى النفوس فى الحفر العميقة » .

ونحن ندعو لهذه النفس الطيبة الناشئة أن تتأدى الى أفضل ما يذكره عن النفس الهادئة المطمئنة ، وأن يثبته فيما يعتقد ، وأن يبلغ بإيمـانه الراسخ الغايات البعيدة ، ليصبح واحدا من

الألمعيات الكثيرة التى تفتحت أكمامها بين أكناف الأزهر ، ويخدم المجتمع الاسلامى فى الناحية التى يعمل فيها ، وهى أخص نواحى الانسانية الفاضلة .

الشموس المشرقات فى المخلفات النبوية

يسمع الناس عن المخلفات النبوية ولا يعلمون عنها شيئا يعتد به ، فقيض الله لسد هذه الثلمة فى المطبوعات المصرية حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ حسين محمد الرفاعى من أفاضل علماء الأزهر ومن كبار موظفى دار الكتب المصرية ، فوضع كتابا حافلا بالمعلومات الدقيقة عن المخلفات النبوية وحلاه بصورها . فبدأ بما كان للنبى صلى الله عليه وسلم من الأرقاء ومن السيوف والدروع والأقواس والرايات والخيول والدواب والنوق والجمال والأغنام .

ثم ثنى بسرد ما هو موجود الى اليوم من تلك المخلفات . فتكلم عن القضيب والبردة والعمامة والخاتم ، والسرير والمنبر . وذكر ما وجد من قدميه صلى الله عليه وسلم فى الصخور والنعال التى كان يلبسها والركاب والشعرات . ويلى ذلك كله سيرة كاملة للنبى صلى الله عليه وسلم .

هذا الكتاب فذ فى بابه لما اشتمل عليه واستوعب تاريخه مما لا يعثر عليه فى كتاب آخر . فنشكر لفضيلة مؤلفه حسن صنعه ، ونرجو له زيادة من التوفيق لخدمة دينه وبلاده .

بحر الأنساب ، وبحر الأنساب المحيط ، ونور الأنوار

هـذه ثلاثة كتب مجموعة فى كتاب واحد أولها تأليف الأستاذ السيد محمد بن أحمد ابن عميد الدين على الحسينى النجفى النسابة . والثانى والثالث تأليف حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ السيد حسين محمد الرفاعى مؤلف الكتاب المتقدم . فأما الكتابان الأولان فقد تكفلا ببيان أسماء وأنساب وأصول وفروع وتواريخ ووفيات ومناقب ومشاهد جميع الأشراف المنبثين فى بقاع الأرض . وهو عمل جد خطير يقتضى من التحقيق والتمحيص والتثبت ما لا يقدم عليه إلا الكبار الغيورين على حفظ نسب البيت المحمدى ، وتطهيره من الدخيل . فنشكر فضيلة واضعه ، معجبين بغيرته ، مثنين على همته ، راجين لكتابه الحظ الوفير من الانتشار والذيوع .

الاشتراكات الجديدة

بهذا العدد تبدأ مجلة الأزهر سنتها الثانية عشرة . اشتراكاتها تدفع مقدما بإذن على بريد الأزهر . وتقبل تقسيط الاشتراك كرغبة الطالبين . وننبه هنا أن لا يكتب فى الإذن أمام مكتب البريد (مصر) ولكن يكتفى بكتابة كلمة الأزهر فقط .

بسم الله الرحمن الرحيم

احتفال الازهر
بعيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام يلقى كلمة قيمة فيه

احتفل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام فى مساء الاثنين ١٠ من فبراير ١٩٤١ بعيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ؛ فأم المسجد أجلاء العلماء ورجال الدولة ، وجمهور من كبار الموظفين والوجهاء وطلاب العلم ، حتى حفل بهم على سعته ، فلما كانت الساعة الرابعة نهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام وألقى كلمة انتظمت من مناقب جلالة الفاروق فى كلمات جزلة منتخبة ، وعبارات فخمة منتخلة ، ما نفذ الى القلوب قبل الأسماع ، حتى ضج الحاضرون بالدعاء لجلالته بأن يحفظ الله وجوده ذخرا لمصر والاسلام ، وأن يطيل من أيامه السعيدة حتى تبلغ هذه الأمة فى ظل رعايته كل مناها من الرقى والسؤدد والسلام . ومن أولى من فضيلة الأستاذ الامام بالتحدث عن شمائل جلالته وفضائله فى مثل هذا المقام ؟

قال فضيلته حفظه الله :

تقام فى أنحاء البلاد حفلات كثيرة ، لأغراض مختلفة ، لكن الحفلات التى تقام فى المناسبات الخاصة بصاحب الجلالة الملك فاروق الأول ـ أعزه الله ـ لها طابع خاص تمتاز به عن سائر الاحتفالات ، هو طابع الحب الخالص ، والولاء الخالص ، هو الحب الذى يجازى حبه لبلاده ، والإخلاص الذى يجازى إخلاصه لبلاده .

يعرف ذلك من لهم شرف الاتصال ، قليلا أو كثيرا ، بجلالته ، ويدركه الجمهور بالآثار الظاهرة التى تتجدد دائما كلما جد سبب ، وكلما وقع نظره الكريم على شىء يلفت النظر .

تعلمون أن الحفاء فى مصر منتشر بين الطبقات الفقيرة من طبقات العمال والفلاحين ؛ وتعلمون أنه داء قديم وقعت عليه من قبل أنظار ولاة الأمور ، وأنظار الأغنياء ، ولم تتحرك نفس أحد لعلاجه ، ولم تهز الأريحية أحدا لتخفيفه أو القضاء عليه . وقد سمعتم أخيرا أن جلالة الملك الصادق فى بره وإحسانه ، وجه عنايته الى هذا الموضوع ، فرصد له مبلغا دعا الناس الى القدوة ، والى انهمار سيل التبرعات للمشروع .

مسألة قد تبدو حقيرة ، لكنها جليلة الشأن بآثارها ، وبما تدل عليه . فهى فضلا عن أنها تخفف آلام البؤساء والمعوزين ، وتزيل عن مصر هذه اللطخة من العار ، تدر خيرا كثيرا على جميع الصناعات المتعلقة بالجلود ، وتزيد فى عدد عمال هذه الصناعات ، فتخفف ألم البطالة عن المتعطلين ، وتنبه الموسرين الى واجبهم نحو الفقراء وأعمال البر العامة .

وهى أيضا تدل على شدة اليقظة والانتباه من جلالته لأحوال رعيته . والتنبهُ الى الأمور الصغيرة أمارة التنبه الى كبريات الحوادث ، والى العظيمات من الأمور .

أيها الإخوان من العلماء ، والأبناء من الطلبة : لا تعجبوا إن قلت لكم : إنه شرفنى مرات بالقاء أسئلة دقيقة علىَّ فى طريق التعليم والتعلم ، وفهم الأغراض العامة من الدين ، وفى طريق استفادة الأمة من أحكام دينها ، واستفادة جمهور الأمة من علماء الدين . فهو ـ أعزه الله ـ شديد العناية بأمركم ، كما أنه شديد العناية بأمر غيركم .

وجدت فى نفسه الكريمة مرة من المرات ، مرارة من الطرق التى تتبع فى بعض المسائل العامة ، والتى لا تأبى قواعد الدين أن تغير بطرق أخرى أفضل منها . ووجدته شديد الإشفاق على تلامذة المكاتب والمدارس ، وعلى غيرهم ممن لا يحسنون قراءة القرآن فى المصاحف بسبب صعوبة قراءة الرسم العثمانى عليهم . وسألنى هل تأبى قواعد الدين العامة إلا هذه الطريقة ؟ فقلت : لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، ولعلنا نجد من آراء بعض سلف الأمة ما يساعد على هذه المشكلة ، ويحقق هذه الرغبة السامية .

لجلالة المليك ـ حفظه الله ـ وللأمة آمال جسام فى علماء الدين وطلاب العلوم الدينية ، هى الواجبات التى يفرضها الدين ، ويطلبها الوطن ، ويدعو اليها العلم الذى تتشرفون بالانتساب اليه . فان لم تحققوا هذه الآمال فقد جلبتم على أنفسكم اللوم ، وجنيتم على العلم . والإخلاصُ للعلم ، والإخلاص لله ، هما أساس النجاح ، وسر الفلاح .

وإن نفس أحدنا لتتضاءل أمامه كلما التفت بنظره فوقع على ذلك الجهد الجبار ، والآثار الخالدة التى تركها أسلافنا فى أصول الفقه وأصول الدين ، وفى الفقه واللغة وفروعها ، وفى غير ذلك ، مما يثير العجب ، ويدعو الى أجل التقدير . حاولوا الوصول الى أقصى أسرار الدين وأسرار اللغة ، وأحاطوا ذلك كله بسور من القواعد الجليلة ، وحاولوا تقريب ذلك كله الى الناس بكل ما عرفوه من الأساليب .

فاذا لم يكن لنا مطمع فى زيادة هذه الثروة ، فلا أقل من أن يكون مطمعُنا حفظَها وفهمها وتقريبها الى الناس . ذلك يكون بأن توهب النفوس للعلم ، وأن نخلص لله .

أسأل الله أن يديم للبلاد وللعلم وللدين ، صاحب الجلالة الملك فاروقا الاول ، وأن يرعاه برعايته ، ويعينه بعونه ، ويؤيده بتوفيقه ، إنه سميع الدعاء ؟

تفسير سورة الحديد

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » :

سبّحته : بعّدته عن السوء ، مأخوذ من سبح إذا ذهب فى الماء وأبعد .

و « ما فى السموات والأرض » : ما هو مستقر فيهما ، وما هو متصل بهما على أى نحو من أنحاء الاتصال ؛ فهو عبارة عن جميع الموجودات علوية وسفلية . والآية على هذا مساوية للآية الأخرى : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » . فجميع الموجودات تنزه الله سبحانه عما لا يليق بذاته وبصفاته وبأفعاله وأحكامه ، وتدل على أنه الواحد الأحد ، المتصف بجميع صفات الكمال ، المبرأ عن سمات النقص ؛ وتدل على أن أفعاله صادرة عن ذاته على وفق العلم ومقتضى الحكمة ، وعلى أن جميع ما يصدر عنه من الأحكام يصدر على حسب العلم والحكمة لخير العباد ، وفق النظام العام الذى قدره .

والأصل فى معنى سبح : نطق بسبحان الله أو غيرها مما يدل على التنزيه ؛ فهل هذا هو المراد من قول الله سبحانه : « سبح لله ما فى السموات والأرض » ، أو هو محمول على معنى آخر غير هذا ؟ للعلماء فى هذا خلاف ؛ ذهب بعضهم الى حمله على الحقيقة ، وأن كل موجود يسبح تسبيحا اختياريا بعبارة تدل على التسبيح ، وأننا نفقه بعض هذه العبارات كالعبارات الصادرة عن الانسان ، والصادرة عن الملائكة ، ولا نفقه بعض هذه العبارات كالعبارات الصادرة عن الجماد وبعض أنواع الحيوان . والدليل على ذلك قوله سبحانه : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » ؛ فقد أثبت سبحانه لكل شىء تسبيحا ، وثبت أننا نفقه بعضه ولا نفقه بعضه ؛ ولو كان هذا التسبيح اعتباريا يرجع الى الدلالة العقلية

لما كان لهذا التقسيم وجه ، فإن جميع الناس متساوون فى إمكان إدراك الدلالة العقلية ، وهى دلالة الموجودات على موجدها . وأكثر الصوفية على هذا الرأى .

وقد استبعد جمهور العلماء أن تكون للجمادات تسبيحات اختيارية لا نفقهها ، وأن تكون للحيوانات تسبيحات اختيارية لا نفهمها ، فصرفوا اللفظ عن ظاهره الى معنى آخر ، فالأنفس والآفاق والسموات والأرض وما فيها من دقة الصنع ، والحكمة العالية فى الوضع ، والأسرار الباهرة فى الوجود ، والسنن التى يفنى الزمان قبل أن يتناولها الادراك « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » ، هذا كله يدل دلالة قاطعة ، وإن كانت متفاوتة حسب تفاوت العقول ودرجاتها ، على إله منزه عن النقص فى ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه ؛ إله واجب الوجود ، يشرق وجوده على جميع الموجودات ، ويشرق علمه على جميع المعلومات . وهذه الدلالة هى التسبيح المشار اليه بقول الله : « سبح لله مافى السموات والأرض » . ولما كان بعض الناس لم يدرك هذه الدلالة وأنكر الإله والخالق ، صح أن يقول الله سبحانه : « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » أى لا يفقه بعضكم هذا التسبيح . وتذييل الآية بقوله سبحانه : « وهو العزيز » الذى يدل على القهر ، يشير الى أن هذا التسبيح قهرى ، والتسبيح القهرى هو تسبيح الدلالة .

وينبغى أن يعلم أن من الدلالات ما هو اختيارى يقع بارادة الدال كدلالة النطق والاشارة والكتابة عند الانسان ، ومنها ما هو غير اختيارى كدلالة المصنوع على الصانع ، والمخلوق على الخالق . والدلالة الثانية لا يعرض لها الكذب ، أما الأولى فهى محتملة للصدق والكذب .

وكل ما فى الوجود يدل دلالة عقلية على الله سبحانه ، وعلى تنزيهه ، يشترك فى ذلك الموجودات العاقلة وغير العاقلة ؛ وللموجودات العاقلة عبارات تدل على التنزيه أيضا ؛ لا خلاف فى هذا كله ، وإنما الخلاف فى أن الجمادات والحيوانات غير الناطقة وما أشبه ذلك هل تسبح بعبارة خاصة بها تدل على تنزيه الله كما يسبح الانسان ، فيكون لها تسبيح اختيارى وتسبيح غير اختيارى ، أولا تسبح على هذه الصفة ، فلا يكون لها إلا تسبيح غير اختيارى هو تسبيح الدلالة ؟

وقد ذكر التسبيح فى هذه السورة بلفظ الماضى ، وكذلك جاء فى سورة الحشر وسورة الصف ، وذكر فى سورة الجمعة وسورة التغابن بلفظ المضارع . والماضى يدل على الحصول الى زمان الإخبار ، والمضارع يدل على الاستمرار فى الحال والاستقبال ، فاكتنفت الصيغة بقسميها جميع الأزمنة ، ودل هذا على أن التسبيح يلازم الموجودات فى جميع الأوقات ، وأن ذلك شأنها وديدنها ودأبها . ولفظ سبح يتعدى بنفسه ، وقد عدى هنا باللام ؛ ونظير ذلك نصحته ونصحت له ، زيدت اللام لتقوية وصل الفعل بالمفعول .

« وهو العزيز الحكيم » : العزة : حالة تمنع صاحبها من أن يغاب ، مأخوذ من قولهم : أرض عزاز أى صلبة . والحكمة : إصابة الحق بالعلم والعقل . وإذا أسندت الى الله سبحانه كان معناها معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام .

« لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » :

المُلك بالضم : ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم والملك ؛ فهو أخص من الملك .

يحيي ويميت : يخلق الحياة والموت ، يفيض الحياة على الميت فيحيا ، ويسلبها عنه فيموت .

والقدير : البالغ القدرة .

بعد أن بيّن الله سبحانه أن جميع الموجودات تنزهه عن كل نقص ، بيّن أنه الغالب القاهر الذى لا ينازعه شيء ؛ أوجد كل شيء بقدرته ، وأحسن صنعه بحكمته ، لولا جوده ما وجد موجود ، ولولا علمه الواسع وحكمته لما وجد هذا النظام الذى تحار فيه العقول وتضل الأفهام « إن الله يُمسك السموات والأرضَ أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » . فهو المتصرف فى السموات والأرض وما فيهما تصرف المالك الضابط ، المحكم فى تصرفه ، القادر القاهر فى ملكه ؛ ومن أظهر آثاره الإحياء والإماتة ؛ فهو الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ؛ وهو الذى يفيض على الأحياء الحياة ويسلبها عنهم فى الأوقات المقدرة حسب علمه . وهذا الذى صرح به من صفاته لازم للدلالة العقلية التى تدل بها الموجودات على تسبيحه ؛ ولذلك جاء بها عقب التسبيح ؛ وستجيء صفات أخرى فى الآيات الآتية .

« هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » :

الأول : السابق فى الوجود على جميع الموجودات . والآخر : الذى يبقى بعد فناء جميع الموجودات . أما أنه أول بهذا المعنى فأمره ظاهر ، لأنه واجب الوجود ، ووُجوده مقتضى ذاته ، أو هو الوجود الحق وكل ما عداه فهو هالك فى ذاته يحتاج فى وجوده الى إشراق الوجود الحق ، وليس هناك ما يسبق الوجود الحق ، ولا ما يساوى الوجود الحق . وأما أنه آخر بهذا المعنى فليس موضع اتفاق ، وأكثر العلماء على خلافه ؛ فمن الناس من ذهب الى أن كل شيء يفنى ويبقى الله وحده « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » ، « كل شيء هالك إلا وجهه » ؛ والله تعالى يوصل الثواب الى أهل الثواب ، والعقاب الى أهل العقاب ، ثم يفنى الجنة وأهلها ، والنار وأهلها ، والعرش والكرسى ، والملك والفلك ، ولا

يبقى مع الله شيء أبدا ، ولا يعيد بعد ذلك شيئا أبدا ، وكما كان الله ولا شيء معه سيكون الله ولا شيء معه أبد الآباد . وهذا المذهب ، إن صح ، هو تفسير الآخر . ومن الناس من جرى على هذا الرأى وخالف فى الإعادة ، فقال : إن الله بعد أن يفنى كل شيء ويبقى وحده وبذلك يكون آخرا (١) يعيد كل شيء مرة أخرى ويبقيها أبدا ؛ وقالوا : مما لا شبهة فيه إمكان بقاء العالم . وهناك إجماع من المسلمين على أبدية الجنة والنار ؛ فالآخرية التى وصف الله بها نفسه لا تتحقق إلا بعد فناء الجميع وبقائه وحده جل وعلا ؛ وأبدية الجنة والنار المجمع عليها لا تتحقق إلا إذا أعيدت الجنة وأهلها ، والنار وأهلها ، وبقى الكل بعد ذلك أبد الآباد .

وهناك آراء فى تفسير الآخر غير منظور فيها الى فناء الجنة وأهلها والنار وأهلها ، تدور كلها على اعتبار الأولية ذاتية كما سبق ، والآخرية اعتبارية . فمنها أنه وصف نفسه بأن المرجع والمصير إليه ، فقال : « وإليه ترجع الأمور » ، وفى آية « وإليه المصير » . ومنها أن أول ما أدركه الانسان ويدركه هو آثار الله سبحانه ، وبهذه الآثار عرف الله ؛ فهذه الموجودات أدلة عند الإنسان فى الحس ، ومنها توصل بالنظر والدليل الى معرفة الله ؛ فالله سبحانه هو الآخر عند العقل .

وقال حجة الاسلام : الأول يكون أولا بالإضافة الى شيء ، والآخر يكون آخرا بالإضافة الى شيء ، ولا يتصور أن يكون الشيء الواحد من جهة واحدة أولا وآخرا بالإضافة الى شيء واحد ؛ فإذا نظرت الى سلسلة الموجودات المترتبة فالله سبحانه بالاضافة إليها أول ، لأنه هو الموجود بذاته وجميع الموجودات استفادت وجودها منه ؛ وإذا لاحظت ترتيب السلوك فى المعرفة وراقبت منازل السالكين فهو تعالى آخر ما ترتقى إليه درجات العارفين ، وكل معرفة تحصل قبل معرفته فهى مرقاة الى معرفته ، ومعرفته هى المنزل الأقصى ، سبحانه ، فهو أول بالاضافة الى الوجود ، وآخر بالاضافة الى السلوك ؛ سبحانه وتعالى إليه المرجع وإليه المصير . والأول والآخر لا يقالان فى صفات الله سبحانه إلا مزدوجين ؛ وكذلك الظاهر والباطن ، وسيأتى بيانهما .

« والظاهر والباطن » : إدراك كنه الموجودات الممكنة بالعقل عسير أو مستحيل ؛ فما بالك بإدراك الذات الإلهية ، وقد قيل : إن إدراكها هو العجز عن إدراكها ؟ فوجود الله سبحانه تضافرت الأدلة العقلية عليه ، وأجمع عليه الناس ، إلا من أعمى الله بصائرهم . وقد وصفه العلماء الذين لا يعترفون بدين بما هو لائق بذاته ، وحقيق بجلاله ، وبما نكرره نحن اليوم ونتدارسه . ويكاد يكون الاعتراف بالإله الخالق فطريا ضروريا فى غير حاجة الى الدليل . وكنه ذات الإله

(١) وعليه تكون الآخرية فى وقت ما ، وليست أبدية كما هى على الرأى الاول .

لا يمكن الوصول اليه بالعقل ، كما أنه لا يمكن إدراك الله أيضا من طريق الحواس . فإذا نظرت اليه من خزانة العقل فوجوده ظاهر ؛ وإذا نظرت اليه من خزانة الحواس فوجوده باطن ؛ كذلك هو باطن فى خزانة العقل من جهة الكنه ، فالله ظاهر الوجود إن طلب بالعقل ، والله باطن إن طلب كنهه بالعقل ، أو طلب بالحواس .

« وهو بكل شىء عليم » : لا يغيب عن علمه شىء ؛ وهذا الصنع الدقيق فى العالم العلوى والسفلى شاهد على أن الذى أبدعه محيط به .

« هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » :

يقال : استوى فلان على عمالته ؛ ومتى عدى بعلى اقتضى معنى الاستيلاء ، كقوله : « الرحمن على العرش استوى » ؛ وإذا عدى بالى اقتضى معنى الانتهاء إما بالذات أو بالتدبير ، مثل « ثم استوى الى السماء وهى دخان » .

العرش : يقال : عرشت الكرم وعرشه ، إذا جعلت له كهيئة سقف . وسمى مجلس السلطان عرشا اعتبارا بعلوه ، ويكنى به عن العز والسلطان والمملكة .

خلقُ السموات والأرض من آيات الله الكونية الدالة على وجوده وقدرته ورحمته ، وعلمه الواسع ، فيه آيات بينات يبهر الناظرين بعض ظواهرها ، فكيف حال من اطلع على ما فيها من عجائب كشف العلم عن بعضها ، ودل ما عرف على ما لم يعرف ، وهو لا نهاية له ؟

والأجرام السماوية طوائف يبعد بعضها عن بعض بعداً شاسعا ، ولكل طائفة منها نظام عام ، وأقرب تلك الطوائف الينا ما يسمى النظام الشمسى ، منسوبا الى الشمس التى يفيض نورها فيكون سببا للحياة فى الأرض . وكوكب الشمس يتبعه كواكب مختلفة فى أبعادها ومقادبرها ، وقد استقر كل كوكب فى موضعه ومداره ، وحفظت النسبة بينه وبين غيره من الكواكب ؛ كل ذلك بسنن إلهية أوجدها القادر الحكيم ، ولو لا هذه السنن لتفلتت هذه الكواكب السابحة ، وصدم بعضها بعضا ، وهلك العالم .

وقد قلنا إن المراد بالسموات والأرض هو الموجودات ؛ وقد تطلق السموات على ما دون العرش من العالم العلوى ، وبخاصة إذا وصفت بالسبع .

وفى هذه الآية بين الله سبحانه أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ؛ وقال فى آية أخرى : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا

بمصابيح ، وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم » . ففى هذه الآية الأخيرة تفصيل لما أجمل فى آية الحديد ، حيث جعل للسموات يومين ، وجعل لخلق الأرض يومين ، ثم أوجد الرواسى فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى يومين ، فيكون مجموع ما أخذته الأرض وما فيها أربعة أيام ؛ وذلك قوله : « فى أربعة أيام » ، أى فعل ذلك كله فى أربعة أيام . وجملة ما أخذته السماء يومان : « فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها » .

ولا يعقل أن تكون الأيام الستة فى هذه الآية من جنس أيامنا ؛ فان هذه الأيام وجدت بعد خلق الأرض ؛ ولا بد أن تكون من أيام الله التى يعلمها هو ؛ وقد قال فى يوم القيامة : « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » ، وقال فى آية أخرى : « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » . وقد تكون السنة سنة نورية . فالأيام مقادير لأطوار مرت على الخليقة يعلمها الله سبحانه وتعالى ، ويجب أن نقف عن تحديدها ، فانها لم تحدد بأخبار صحيحة ؛ والله سبحانه يقول : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » . وقد روى عن أبى هريرة ما يدل على أن الأيام من أيامنا ؛ وتكلم فيه البخارى وغيره من الحفاظ ، وجعلوه من رواية أبى هريرة عن كعب الأحبار ، ولم يجعلوه مرفوعا . والذى قاله البخارى هو الذى يجب التعويل عليه . وفى الاسرائيليات شىء كثير ، وفيها بيان لما صنع فى أيام الأسبوع ؛ ولو كانت هناك أية فائدة فى بيان جنس الأيام وفى بيان ما صنع فى الأيام لأخبرنا الله سبحانه بذلك ، فهو الجواد . والعبرة إنما هى فى الخلق وفى جعله أطوارا . وقد أرشد الله سبحانه فى آية فصلت الى أنه استوى الى السماء وهى دخان ؛ وقال فى سورة الأنبياء : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شىء حى ، أفلا يؤمنون » . وهذا يدل على أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة وفصل بعضها عن بعض ، وهى مادة تشبه الدخان ، ومن هذه المادة خلق السموات ، بدليل « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها » ؛ ويدل على أن مادة الدخان بعد الفصل تحول جزء منها الى ماء ، وبعد ذلك تكونت اليابسة والرواسى ، وبعد ذلك ظهرت الحياة والأقوات . فالأطوار التى مرت على الأرض : الدخان ، ثم الماء ، ثم اليابسة ، ثم الأحياء والأقوات .

ونحن نؤمن بأن الله خلق السموات والأرض فى ستة أطوار يعلمها هو ؛ ونؤمن بأن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقهما ؛ ونؤمن بأن خلق السموات فى يومين ، وخلق الأرض وما فيها فى أربعة ؛ ونؤمن بأن كل شىء حى فمن الماء خلقه ، وأن كل شىء خلقه بقدر ، وما أنزل شيئا إلا بقدر معلوم . وإذا كشف العلماء عن تفاصيل فى مادة الخلق وأطواره لا تنافى ما قرره القرآن فلنا أن نقبلها . وما قيل حتى الآن لا يخرج عن دائرة الظنون والفروض ، فلا يجوز لنا أن نرد به شيئا من القرآن .

« ثم استوى » : سئل مالك عن قوله : « استوى على العرش » كيف استوى ؟ فوجد وجدا شديدا وأخذته الرُّحضاء ، ولما سُرّى عنه قال : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأخاف أن تكون ضالا ؛ وأمر به فأخرج . وروى عنه أنه قال له : استوى كما وصف نفسه ، وكيف ، عنه مرفوع ، وأنت رجل سوء صاحب بدعة .

ونحن نؤمن بأنه استوى على العرش كما وصف نفسه ؛ وعرشه لا يعلمه البشر إلا بالاسم ، وليس حاملا له كما يتوهمه الناس ، وتعالى الله عن أن يكون محمولا أو فى جهة أو حيز ، وتعالى الله عن سمات المخلوقين : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » . والقرآن يدل على أن العرش لم يزل مستعليا منذ وجد ، بدليل قوله : « وكان عرشه على الماء » . وأقرب ما يقال فى الاستواء عند إرادة التأويل أنه التصرف فى الموجودات والتمكن منه مع عدم المنازع والمغالب ، عبر عنه بما يفهمه الناس من استواء الملك على العرش وتمكنه من التصرف فى شؤون الملك . وقد نزل القرآن على أساليب العرب ومناحيها ، فمنه المجاز ومنه الكناية ، والعقل هو الذى يصرف الألفاظ عن ظاهرها الى ما يليق بجلاله . ولا يجوز أن يتحكم أولئك الجهلة فى تفسير القرآن والحديث النبوى ويحملوا الألفاظ على ظاهرها فيوقعوا الناس فى التجسيم ولوازم التجسيم . ولولا طائفة من علماء السلف تحقق فيهم الذوق العربى ففهموا دقائق العربية وأسرارها ، ووجد عندهم العقل الراجح والعلم الناضج فى معرفة الموجودات وطرق الاستدلال ، لضل الناس فى فهم القرآن ومناحيه وأسراره ، ودخل فى العقائد مالا يريده الله ولا يريده رسوله من الزيغ ، ودخل فى التشريع مالا يريده الله من مجافاة مصالح العباد .

« يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » :

الولوج : الدخول فى مضيق . والعروج : ذهاب فى صعود . ولفظة مع تقتضى الاجتماع فى المكان أو الزمان أو الشرف أو الرتبة ؛ وقد تقتضى معنى النصرة فيكون ما يضاف اليه لفظ مع هو المنصور ، نحو « إن الله معنا » « إن الله مع الذين اتقوا » .

ويقال البصر للجارحة المعروفة ، ولقوة الإبصار التى فيها ؛ ويقال لقوة القلب المدركة بصيرة ؛ ويقال لها بصر أيضا .

يعلم الله سبحانه كل ما هو فى الأرض من جامد وسائل ، وكل ما يخرج منها من نبات ، وكل ما هو عليها من حيوان وإنسان ؛ ويعلم كل ما ينزل من السماء من مطر وملائكة ورحمة

وعذاب ، وكل ما يصعد إليها من دعاء وملائكة ؛ ويعلم جميع المخلوقات ما خفى وما ظهر ، وهو مع جميع المخلوقات فى كل لحظة ، ولو لم يكن معها فى كل لحظة لفنيت ، فإنه موجدها وبجوده أشرق وجوده عليها ؛ وهو بصير بأعمال العباد ، فإنه قدرها وأرادها قبل أن توجد ، وقد أقدرهم عليها . وقد أجمعت الأمة على تأويل قوله سبحانه : « وهو معكم أينما كنتم » ونفوا أن يكون المراد بها المعية الذاتية ؛ وجعلوها من قبيل التمثيل لإحاطة العلم ، والتصوير لعدم خروجهم عن علمه أينما كانوا . وعن ابن عباس « وهو معكم » : أى عالم بكم . وهذا الإجماع منهم إجماع على وجوب تأويل كل ما أوهم ظاهره تشبيه الله بالمخلوقات .

« لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ » :

له السلطان المطلق ، والحكم النافذ فى السموات والأرض ، وإليه يصير الخلق فيقضى بينهم بحكمه .

« يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » :

قال عكرمة : « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل » : قصر هذا فى طول هذا وطول هذا فى قصر هذا . ومعناه أنه يدخل ما نقص من ساعات الليل فى النهار فيجعله زائدا فى ساعاته ، ويدخل ما نقص من ساعات النهار فى الليل فيجعله زائدا فى ساعاته . وفى هذا تنبيه على آثار نعمته وآثار قدرته . واختلاف الليل والنهار وطول هذا بقصر ذاك يجرى بحسبان مطرد فى جميع البلدان والأقطار . ومثله اختلاف الفصول باختلاف مواقع الطول والعرض ؛ وهذا الاختلاف أثر من آثار مقابلة الأرض للشمس وحركتها بإزائها . وفى اختلاف الفصول والليل والنهار منافع للناس واضحة بينة ، وفيها دلائل على قدرة الإله ، ووحدة هذا النظام البديع المطرد ؛ والناس جميعهم يعرفون منافع هذا كله ، وبعضهم يعرف منافعه ويعرف أسبابه . وقد أرشد الله الى ذلك كله بقوله : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب . وكل شىء فصلناه تفصيلا » .

« وهو عليم بذات الصدور » : أى بالنيات الخافية فى الصدور ، وبكل ما يهجس فيها من الخواطر .

حياة رجالات الإسلام

أبو بكر الصديق

— ٢ —

كلما ازداد الباحث إمعانا فى سيرة الصديق الأكبر رضى الله عنه ، ازداد تهيبا لدراسة حياته دراسة علمية تحليلية ، وتصويرها ترجمة تاريخية ، لأن حياة أبى بكر من طراز خاص بين شخصيات عظماء الوجود ، فليس لها ذلك الدوى الذى يطن فى أذن التاريخ لأبطال الحروب ، وقادة الجيوش ، وزعماء الثورات الانقلابية الكبرى فى العالم ، ولكنها شخصية تستمد عظمتها الغامرة من منابع الجلال الروحى الذى اختص به الأنبياء ، وآحاد من أتباعهم يأتون على رءوس مراحل الحياة ، رموزاً لروحانية النبوة ، ومرايا تنعكس على صفحتها ظلال الهداية الإلهية ، ومُثلا حية تحكى للناس تاريخ إشراق شمس الوحى فى آفاق الكون حقبة من الزمن تتصل فيها حلقات الخير والإصلاح .

فهم أقمار الدنيا ، والأنبياء شموسها ، وللشمس قوتها ووهجها ، وللقمر نوره وصفاؤه ، ولولا أشعة الشمس ما أضاء القمر ، وإذا أشرقت الشمس ذابت فى توهجها إشعاعات الكواكب ، واحتجبت أجرامها فى كِسَف وهاجة من تموجات ضوئها ، حتى إذا انحرفت الشمس الى أفق جديد عادت الكواكب سيرتها الأولى نيرة هادية ، تختلف فى قوة التماعها بحسب مواضعها دنواً من مصدر فيضها .

هكذا تنطبع فى النفس صورة أفذاذ الصديقين من حواريى الأنبياء ، ووارثى مقامهم فى الدعوة الى الخير والهدى ، ومرايا أنفسهم فى صفاء السريرة ، ومظاهر تعاليمهم فى سموها ، ومُثل شرائعهم فى تكييفهم بها ؛ فهم أصدق معجزات الرسل ، وأوضحها ، وأوفاها ، وأسرعها انسلاكا الى القلوب ، وأدعاها الى الايمان ، وأهداها الى اليقين ؛ وتاريخ النبوات فى جميع مراحل الحياة مزيل بآيات وشواهد من حياة الصديقين ، ولكنها مغلّفة لا تُقرأ إلا إذا اكتملت أسفار النبوة ، لأنها إعادة لأصدائها ، وتذكير بعبرها ، وتأكيد لحقائقها ، وحفظ لأصولها ، وتثبيت لقواعدها .

ومن ثَم كانت هذه العظمة المستسرة فى وداعة الايمان ، والإذعان المطلق فى فناء الذات ، مادامت شمس النبوة مشرقة ، وما دام منبعها فياضا بالحياة ، هى سر الإعجاز فى النبوة ،

وسر العبقرية فى الصديقية ، وهى نفسها — إذا انتقلت شمس النبوة الى أفق الخلود — تلك العظمة الفذة الغامرة ، القوية القاهرة ، التى تتضاءل الى جانبها كل مفخرة لكل عظيم ، وتنماع فى تيارها داويات العبقريات .

ذاك أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، نسيج وحده فى عظمته الهادئة ، تلك العظمة التى هى أعظم شاهد على ما صورنا به حياة أفذاذ الصديقين ، صنعه الله على عينه ، فانفلت من أغلال بيئته ، وتسامى عن عادات قومه ، فنشأ فيهم أريبا ، نبيلا ، حكيما ، عاقلا ، كريما ، عطوفا ، يواسى الفقراء ، ويعين الضعفاء ؛ صادق فى شبابه أصفى الناس سريرة ، وأطهرهم نفسا ، فكانت تلك الصداقة صيقل نفسه ، ومغنى أنسه ، ومرهف حسه ؛ آمن حيث كفر الناس ، وأنفق فى سبيل الله حيث أمسك الناس ، لم يكد يعرض عليه صديقه وصفى نفسه أنه مرسل من عند الله ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، حتى أجاب الى الايمان فلم يتلجلج ، وأسرع الى الاسلام فلم يتخلج ، فكانت له ذخرا خالدا فى سجل عظمته على لسان الصادق المصدوق صلوات الله عليه ، فقال متحدثا عن مفخرة الصديقية فى السبق الى الاسلام انسياقا مع الفطرة الطاهرة : « ما دعوت أحدا الى الاسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر » .

فلم يكن شىء أبهج لنفس النبى صلى الله عليه وسلم من إسراع أبى بكر فى استجابته لدعوته ، فسماه الصديق لبداره الى تصديقه فى كل ما جاء به ؛ وكان على بن أبى طالب يحلف أن الله تعالى هو الذى سمى أبا بكر على لسان رسوله صدّيقاً .

وهذه لعمر الحق أعظم مزايا أبى بكر فى إسلاميته ، وبها كان الصديق أعظم المسلمين ، وأفضل المؤمنين ، لأن أبا بكر كان أنف قومه ، وكان قومه يضربون بعرق قريح الى أرومة قريش أعز العرب ، حتى لقب لصفاء نسبه عتيقا ؛ ذكر ابن عبد البر فى الاستيعاب ، وابن حجر فى الاصابة : أن مصعبا الزبيرى وطائفة من أهل النسب قالوا : « إنما سمى أبو بكر عتيقاً لأنه لم يكن فى نسبه شىء يعاب به » . وكان وجيها فى العرب ، معروفا بالخير والبر ، وكان أنسب العرب وأعلم قريش بأيامها ، وكان من أكثرهم مالا ؛ روى أبو داود فى سننه : أنه أسلم وله أربعون ألف درهم . فلم تكن بأبى بكر حاجة الى التماس وسيلة من وسائل السيادة الدنيوية فى غير ما مكن له حظه من أسباب .

فما سر الجاذبية التى عرجت بابن أبى قحافة من جاهلية قومه وبلده الى سماء الاسلام ؟ ذلك السر هو خصيصة عظمة الصديق التى انطوت عليها نفسه منذ عقدت الحياة بينه وبين حبيبه محمد بن عبد الله أواصر الحب وعرى الصداقة مذ كانا شابين يستوحيان فطرتهما فى كراهية ما عليه الناس ، فسرت له منه نفحة إنسانية كان بها أبو بكر ذلك الرجل المصطفى لأول قطرة من غيث الهداية الإلهية ؛ فلما بعث الله محمدا رحمة للعالمين كان أبو بكر أول منازل

تلك الرحمة ، فا من بقلبه وعقله ؛ آمن بقلبه لأنه عرف محمداً صلى الله عليه وسلم فأحبه وصدقه ، وآمن بعقله لأن محمداً صلى الله عليه وسلم أرشده الى كتاب الوجود فقرأ فيه آيات الله شاهدة على عظيم قدرته وجليل حكمته .

وبهذا كان أبو بكر الصديق أول الناس إيمانا ، وأسبقهم إسلاما ، وأرسخهم يقينا . فالذين يذهبون الى أسبقية على بن أبى طالب رضى الله عنه الى الاسلام إنما يعنون إسلام القلب والعاطفة ، لأن عليا كرم الله وجهه كان يوم أن جاء الله بالحق والهدى غلاما يكنفه النبى صلى الله عليه وسلم بتربيته ، ويرعاه بمحبته ، ويخلطه بنفسه ، فمن الطبعى أن تكون روحه وعواطفه وإحساساته وشعوره وسلوكه أسيرة توجيه النبى صلى الله عليه وسلم ، فآمن بقلبه وروحه وعواطفه ومشاعره ، وهى كل ما يملك يومئذ من مدارك ؛ أما إيمان التكليف والعقل فانما يكون إذا استوفى العقل مُنّته التكليفية فى اعتبار الشريعة المطهرة ؛ ولم نعلم أن أحدا من علماء الاسلام زعم أن عليا كرم الله وجهه حين إيمانه صبياً كان مخاطبا بهذا الإيمان خطاب التكليف .

ومهما يكن من أمر فان كثيرا من أئمة الاسلام ذهبوا الى أن أبا بكر رضى الله عنه أول الناس إسلاما ، وفى طليعة الذاهبين الى هذا حبر الأمة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ؛ روى الموثقون من أصحاب السير عن الشعبى أنه قال : سألت ابن عباس : أى الناس كان أول إسلاما ؟ فقال : أما سمعت قول حسان :

إذا تذكرتَ شجوا من أخى ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها ... بعد النبى وأوفاها بما حملا
والثانىَ التالى المحمودَ مشهده ... وأول الناس قِدما صدق الرسلا
وثانى اثنين فى الغار المنيف وقد ... طاف العدو به إذ صعّد الجبلا
وكان حِبَّ رسول الله قد علموا ... خير البرية لم يعدل به رجلا

وليس استدلال ابن عباس بمجرد شعر حسان ، ولكنه راجع فى الحقيقة الى تصديق النبى صلى الله عليه وسلم وإقراره ، بل استحسانه لشعر حسان ؛ روى ابن عبد البر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان : هل قلت فى أبى بكر شيئا ؟ قال نعم ، فقال : قل وأنا أسمع ، فأنشده هذه الأبيات ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أحسنت يا حسان . وممن ذهب الى ذلك جماعة من التابعين ، منهم ابراهيم النخعى ، وابن الماجشون ، ومحمد بن المنكدر ، والأخنس ، وجزم به القسطلانى فى مواهبه ، فقال : وكان أول ذكر آمن بعدها (السيدة خديجة) صدّيق الأمة وأسبقها الى الاسلام أبو بكر ، فآزره فى الله .

ولعلنا نستشف ما ذهبنا إليه من توجيه أسبقية إسلام أبى بكر من قول محمد بن الحنفية

وقد سئل - كما فى الإصابة - لأى شىء قدم أبو بكر حتى لا يذكر فيهم غيره ؟ قال : لأنه كان أفضلهم إسلاما حين أسلم ، فلم يزل كذلك حتى قبضه الله إليه . وبعض العلماء يذهب الى التوفيق بين الروايات المختلفة ؛ قال الطبرى : الأولى التوفيق بين الروايات كلها وتصديقها ، فيقال : أول من أسلم مطلقا خديجة ، وأول ذكر أسلم على بن أبى طالب ، وهو صبى لم يبلغ ، وكان مستخفيا باسلامه ، وأول رجل عربى بالغ أسلم وأظهر إسلامه أبو بكر بن أبى قحافة . قال القسطلانى فى المواهب : ويؤيد هذا ما روى عن الحسن أن على بن أبى طالب قال : سبقنى أبو بكر الى أربع لم أوتهن : سبقنى الى إفشاء الاسلام ، وقدم الهجرة ، ومصاحبته فى الغار ، وإقام الصلاة ، وأنا يومئذ بالشِّعب ، يُظهر إسلامه وأخفيه .

وهذه الشهادة من أمير المؤمنين أفضل ما يحتج به على مكانة الصديق فى الاسلام ، وأنه أول الناس بعد النبى صلى الله عليه وسلم استطاع أن يجدع أنف الوثنية باظهار التوحيد ، وأن يَجْبَهَ الباطل بصولة الحق ، وأن يغشى الاسلام فى محافل غطارفة قريش ورءوس الشرك ، وأن يقف وحده الى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم يناضل معه فى سبيل تبليغ دعوته ، ويقوم دونه متحملا معه أشد أنواع الأذى ، صابرا محتسبا ، يرى أن أفضل جزاء يناله أن يفدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه حتى يبلّغ دعوة ربه ؛ روى البخارى فى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلف ثوبه فى عنقه ، فخنقه خنقا شديدا ، فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه فدفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ! » . قال العلامة القسطلانى فى مواهبه : وقد ذكر العلماء أن أبا بكر رضى الله عنه أفضل من مؤمن آل فرعون ، لأن ذاك اقتصر حيث انتصر على اللسان ، وأما أبو بكر فأتبع اللسان يدا ، ونصر بالقول والفعل محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقد امتزج الإيمان بروح الصديق وجسمه وحواسه ، فلم يهن لأشد الآلام تصيبه فى سبيل الله ، بل قابلها بفطرته الهادئة الوادعة رضاء بقضاء الله ، وتأييدا لرسول الله ؛ وإذا ثارت نفسه أو غضبت رجولته فإنما هى الثورة لله ، والغضب لدين الله ، لا يبالى ما يلاقيه فى شخصه أو ماله أو أهله ؛ روى ابن عبد البر فى الاستيعاب عن أسماء بنت أبى بكر أنهم قالوا لها : ما أشد ما رأيت المشركين بلغوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : كان المشركون قعودا فى المسجد الحرام ، فتذاكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يقول فى آلهتهم ، فبينما هم كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاموا إليه ، وكانوا إذا سألوه عن شىء صدقهم ، فقالوا : ألست تقول فى آلهتنا كذا وكذا ؟ قال : بلى ، فتشبثوا به بأجمعهم ، فأتى الصريخ الى أبى بكر ، فقيل له أدرك صاحبك ، فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد فوجد رسول الله صلى

الله عليه وسلم والناس مجتمعون عليه ، فقال : ويلكم ! أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ فلهوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على أبى بكر يضربونه ، قالت أسماء : فرجع إلينا فجعل لا يمس شيئا من غدائره إلا جاء معه ، وهو يقول : تباركت ياذا الجلال والإكرام !

وكان أبو بكر رضى الله عنه أول خطيب دعا الى الله تعالى ، وألحّ فى إظهار الدعوة ، والنبى صلى الله عليه وسلم يعبد الله فى قلّة من أصحابه مستخفيا ، فلم يزل به أبو بكر حتى خرج وأظهر أمر ربه ، فنال أبا بكر من الأذى ما كاد أن يأتى على نفسه ، فلم يزده ذلك إلا إيمانا وتثبيتا وحبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ذكر ابن هشام وغيره فى السيرة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل دار الأرقم ليعبد الله هو ومن معه من أصحابه سرا ، ألحّ أبو بكر رضى الله عنه فى الظهور ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر إنا قليل ؛ فلم يزل به حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الصحابة رضى الله عنهم ، وقام أبو بكر فى الناس خطيبا ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، ودعا الى رسول الله ؛ فهو أول خطيب دعا الى الله تعالى ؛ فثار المشركون على أبى بكر رضى الله عنه وعلى المسلمين يضربونهم ، فضربوهم ضربا شديدا ، ووُطئ أبو بكر بالأرجل وضرب ضربا شديدا ، وصار عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بنعلين مخصوفتين ويحرفهما الى وجهه حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه ، فجاءت بنو تيم يتعادون ، فأجلت المشركين عن أبى بكر الى أن أدخلوه منزله ولا يشكون فى موته ، ثم رجعوا فدخلوا المسجد ، فقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة ! ثم رجعوا الى أبى بكر ، وصار والده أبو قحافة وبنو تيم يكلمونه فلا يجيب حتى آخر النهار ، ثم تكلم وقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فعدلوه فصار يكرر ذلك ، فقالت أمه : والله مالى علم بصاحبك ، فقال : اذهبى الى أم جميل فاسأليها عنه ، وخرجت إليها وقالت لها أن تسأل عن محمد بن عبدالله ، فقالت : لا أعرف محمدا ولا أبا بكر ، ثم قالت : تريدين أن أخرج معك ؟ قالت : نعم ، فخرجت معها الى أن جاءت أبا بكر فوجدته صريعا ، فصاحت وقالت : إن قوما نالوا منك هذا لأهل فسق ؛ وإنى لأرجو أن ينتقم الله منهم ؛ فقال لها أبو بكر رضى الله عنه : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : هذه أمك ! قال : فلا عين عليك منها ، قالت : سالم ! هو فى دار الأرقم ، فقال : والله لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قالت أمه : فأمهلناه حتى إذا هدأت الرِجْل وسكن الناس ، خرجنا به يتكىء علىّ حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرق له رقة شديدة ، وأكب عليه يقبله ، وأكب عليه المسلمون كذلك ، فقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ما بى من بأس إلا ما نال الناس من وجهى ، وهذه أمى برّة بولدها فعسى الله أن يستنقذها بك من النار ! فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاها الى الاسلام فأسلمت » .

وفى هذه القصة غير ما قدمناه ضروب من مفاخر الصديق الاسلامية ، ففيها أن رؤساء المشركين كانوا يرون فى أبى بكر رضى الله عنه شخصية خطيرة عليهم فى مؤازرة رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك لما يعرفونه عنه من محاسن الشيم وجليل المناقب ، وسعة الثراء ، ورفيع المـكانة ، والشهرة فى أحياء العرب ، مما سيكون له أعظم الأثر فى نشر الدعوة الاسلامية ، فـكانوا يخصونه بأقصى ألوان الأذى ليفتنوه عن دينه ، ولـكن هيهات للباطل أن يصمد طويلا لسطوة الحق وقوة الإيمان !

وفيها إبانة عن مكانة أبى بكر فى قومه بنى تيم ، وشرفه عندهم ، وعظيم منزلته بينهم ؛ فقد غضبوا حمية له ، وأقسموا إن وقع به شىء ليقتلن فيه عتبة ، وهو من هو فى سادة قريش ورؤساء المشركين .

وفيها أصدق تصوير لما يكنه أبو بكر من الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهو لم يكد يفيق من غشيته لشدة ما ناله حتى يبادر فى أول كلمة ينطق بها ، وقومه حواليه ، وهم على غير دينه : « ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ »

وفيها تصوير لحالة المؤمنين فى بدء الاسلام ، وأنهم كانوا مفزّعين يخشون كل شىء ؛ فهذه أم جميل مؤمنة صادقة الإيمان ، لم تأمن أم أبى بكر على شىء من أمر رسول الله صلى الله عليه وسـلم وصاحبه الصديق ، فتنكر معرفتهما ، ولـكن قلبها يحدثها بشىء فتحتال حتى تصل الى أبى بكر ، ولم تملك نفسها إذ رأته صريعا أن اندفعت صريخة الإيمان ، تدعو بالويل والثبور على من نالوا منه ، فيتماسك أبو بكر رغم ما به ويسألها عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم ليطمئن على حياته المفداة ، فتأبى إلا الحذر والشك فى أم أبى بكر ، لأنها كانت لا تزال على دين قومها ، فيكشف لها الصديق عن ثقته فى أمه ، وتخبره حين تطمئن الى أنه لا عين عليها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عافية من كلاءة الله ورعايته . وهنا تتجلى خصائص الإيمان الصديقى ، وتظهر معجزة الحب الذى ينسى أمرّ الآلام ؛ فأبو بكر لم يكد يسمع بعافية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ينسى ما حـل به ، ويتحامل على نفسه وعلى أمه ليرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطمئن عليه ، فيرق له رقة شديدة ، ويكب عليه يقبله ، ويقبله المسلمون .

موقف تعجز أبرع الأقلام وأبينها ، وأنطق الألسنة وأفصحها ، عن كشف سرائره العاطفية ، وآياته الوجدانية البالغة ، ولـكنه معبر عن نفسه بصورته وآثاره ؛ وحسبك أنه سرت منه نفحة الى قلب أم الصديق ، وقد جاءت تسند ولدها ليرى حبيبه ، وهى مشركة ، وعادت معه بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تمشى فى فجاج الخلد الى عليين !؟

صادق عرجون

الكلام والمتكلمون

— ١٢ —

تتمة الحديث عن متفلسفى المتكلمين

أما الموقف الرابع ، فأكثره فى الطبيعيات ، إذ عالج فيه المؤلف الجسم المركب وتألفه من بسائطه ، ثم مشكلة قبول الأجسام للتجزؤ الى غير النهاية أو عدم قبولها ذلك ، وأورد حجج المتكلمين والفلاسفة فيها ؛ ثم تناول الهيولى والصورة وذكر أدلة الفلاسفة على وجودهما ؛ ثم عرض بعد ذلك للأفلاك فذكر دعوى الفلاسفة أنها تسعة ، وتحدث عن الأفلاك المشغولة منها كفلك الثوابت ، وفلكى الشمس والقمر ، والأفلاك الخمسة الأخرى ، وعن الخسوف والكسوف والبدر وما شاكل ذلك ، ثم عن العناصر الأربعة ، وأبان أن أولها خفيف مطلق حار يابس وهو النار ؛ وثانيهما خفيف نسبيا ، وهو حار رطب إذا خلى وطبعه ، وبارد بمجاورة الأرض وهو الهواء ؛ وثالثها ثقيل مطلقا ، وبارد يابس ، وهو الأرض ؛ ورابعها ثقيل نسبيا ، وهو بارد رطب جامد إذا خلى وطبعه ، ولكن الشمس تذيبه وهو الماء ؛ وأبان بعد ذلك أن هذه العناصر قابلة للكون والفساد ؛ ثم انتقل الى مشكلة الأرض فقرر أنها كروية ، وأنها من العالم بمثابة المركز .

تحدث بعد ذلك عن النفوس الفلكية والبشرية ، فذكر أنها كلها كائنات مجردة ، وأن النفوس الناطقة حادثة . ثم اختتم هذا الموقف بالحديث عن العقل ، وأنه أول الموجودات عند الحكماء ، وبكيفية ترتيب هذه الموجودات فى رأيهم .

أما الموقف الخامس — وهو فى الإلهيات — فقد تناول فيه المؤلف إثبات الصانع ومخالفته لكل من عداه ، وقرر أنه لا ند له ؛ ثم انتقل بعد ذلك الى تلك المشكلة التى شغلت الفلاسفة والمتكلمين زمنا طويلا ، وهى : هل وجوده عين ذاته أو غيرها ؟ ثم أثبت بعد ذلك أن البارى ليس جسما ولا جوهرا ولا عرضا ، ولا يحده زمان ولا مكان ، ولا يتحد بغيره ، وأن ذاته ليست محلا للحوادث ، وأنه واحد ، حى ، عالم ، مريد ، قادر ، سميع ، بصير ، متكلم . ثم عرض بعد ذلك للصفات المختلف فيها ، فذكر طائفة من أوجه النظر المتعارضة حولها ؛ ثم تناول ما يجوز فى حق الله وما لا يجوز ، وتكلم فى مسألة رؤيته تعالى ، وأبان أوجه الخلاف فيها وفى مثيلاتها من النظريات التى كانت مثار جدل عنيف بين الجماعة والمعتزلة : كمسائل أفعال العباد ، والحسن والقبح ، والصلاح والأصلح ، وأسماء الله وهل هى توقيفية أولا ، وما شاكل ذلك .

أما الموقف السادس — وهو فى السمعيات — فقد ألم فيه المـؤلف بمسائل النبوات ، ومعنى النبوة والمعجزة ، ونبوة محمد ، والمعاد وحشر الأجسام وآراء الحـكماء فى ذلك ، ومسألة الجنة والنار وهل هما مخلوقتان ؟ ومسائل العفو عن الـكبيرة ، والحياة فى القبر ، وشفاعة النبى والصراط والميزان ، والحوض المورود ، وقراءة سجلات الأعمال ، وشهادة الأعضاء وغيرها مما ورد به الخـبر ؛ ثم درس بعد ذلك مسألة حقيقتى الإيمان والـكفر ، وهل الايمان يزيد وينقص أولا ؟

وأخيرا عرض لمسألة السياسة ، فتحدث عن الإمامة وما تستتبعه من شروط ، وذكر آراء الفرق المختلفة فيما وقع بعد وفاة النبى من فتن بين المسلمين بسبب الخلافة .

أما التذييل فهو — كما أسلفنا — فى ذكر فرق المسلمين ومذاهبهم ، على نحو ما فعل الأشعرى والرازى والشهرستانى . وقد ذكرنا أهم هذه الفرق وطرفا من آرائها فى موضعه ، فارجع اليه .

هذا هو مجمل أهم ما فى كتاب « المواقف » من آراء . ونحسب أنك توافقنا بعد ذلك على أن هذا الـكتاب هو أجل ما أنتجه المتكلمون فى جميع عصورهم ، وأنك توافق مؤلفه على أنه قد سد الثغرة التى أحس بها بعد انتهائه من مطالعة كتب أسلافه ومعاصريه .

(٨) سعد الدين التفتازانى :

حياته ومؤلفاته :

هو سعد الدين مسعود بن عمر التفتازانى ، وقد ولد فى صفر سنة ٧٢٢ هـ سنة ١٣٢٢ م فى تفتازان إحدى قرى خراسان الـكبرى . ولما نشأ تلقى العلم على الايجى ، وعلى قطب الدين الرازى . وقد روى بعض المؤرخين أنه هو وأستاذه كانا فى عصرهما من العلماء المقربين لدى الملوك والحـكام ، وأنه هو الذى قدم الجرجانى الى المظفر . وحينما احتل تيمور تلك الأصقاع دعاه الى سمرقند وقربه من مجلسه ومنحه منحا عظيمة . ولما استولى على شيراز فى سنة ٧٨٩ هـ سنة ١٣٨٧ م جاء صديقه القديم الجرجانى الى سمرقند وأقام بها ، فحدثت بينهما منافسة علمية لم تلبث أن تحولت الى بغض وحقد بينهما جعلا يدفعانهما الى مناقشات عنيفة يلمح من خلالها التحامل أكثر مما تلوح عليها أمارات حب الحقيقة أو خدمة العلم . وقد وجدت نماذج هذه المحاورات الحادة فى كتب السيد الجرجانى . وقـد حدثتنا خرافة منتشرة فى بعض الـكتب العربية أن الجرجانى سأل سعد الدين سؤالا محرجا فى جمع من العلماء والأمراء فلم يعرف جوابه فمات لساعته ؛ وكان له حفيد عالم ، فلما عرف سبب موت جده ، صمم على الآخذ بثأره بنفس الطريقة ، فانتهز فرصة وجود الجرجانى فى حفل كبير وألقى عليه سؤالا عويصا كانت نتيجته أن خر الجرجانى صريعا جزاء وفاقا . ونحن لا نرتاب فى أن هـذه خرافة مصنوعة ، ولـكن صانعها صور فيها بلباقة ودقة ما كان يحدث بين هذين العالمين المتنافسين من مناضلات حادة .

وأخيرا توفى التفتازانى فى سمرقند فيما بين سنى ٧٩١ و ٧٩٧ هـ — ١٣٨٩ و ١٣٩٥ م .

أما مؤلفاته فهى كثيرة جدا ، إذ أنه كتب فى علوم مختلفة ، وهذا هو أهمها :

فى المنطق :

(١) شرح الرسالة الشمسية ، وهو معروف فى الهند تحت عنوان « السعدية » ، وهو شرح لـكتاب نجم الدين على بن عمر القزوينى . (٢) « تهذيب المنطق والـكلام » أو « غاية تهـذيب الـكلام فى تحـرير المنطق والـكلام » وهو مشهور ، وقد نشر عـدة مرات . (٣) « المقاصد » وهو معروف . (٤) شرح العقائد النسفية ، وهو ذو قيمة جليلة فى البيئات العلمية ، ولا يزال يدرس فى الجامعة الأزهرية . وقـد أشرنا اليه حين تحـدثنا عن النسفى . (٥) كتاب ضد مخالفات الدين التى وردت — فيما يرى المؤلف — فى كتاب « فصوص الحـكم » لابن عربى . وربمـا كان عنوانه : « فضيحة الملحدين » .

فى التفسير :

(٦) « كشف الأسرار وعدة الأبرار » ، وهو تفسير بالفارسية . (٧) شرح الـكشاف .

فى الفقه والأصول :

(٨) « المفتاح » وهو فى الفروع الشافعية . (٩) « اختصار شرح تلخيص الجامع الـكبير » وهو موجز غـير تام لشرح مسعود بن محمد على تلخيص الخلاطى لـكتاب الجامع الـكبير للشيبانى فى الفروع الحنفية . (١٠) مجموعة من فتاوى الحنفية . (١١) « التلويح الى كشف حقائق التنقيح » وهو شرح لـكتاب « تنقيح الأصول » تأليف « صدر الشريعة الصغير » المتوفى فى سنة ٧٤٧ هـ — سنة ١٣٤٦ م . (١٢) « شرح المختصر فى الأصول » وهو شرح على شرح الايجى لـكتاب « المختصر المنتهى » لابن الحاجب .

فى البلاغة والنحو :

(١٣) « المطول » . (١٤) « مختصر المعانى » . (١٥) « شرح القسم الثالث من المفتاح » . (١٦) « شرح التصريف العزى » وهو تفسير لرسالة عز الدين عبد الوهاب بن ابراهيم الزنجانى . (١٧) « الإرشاد الهادى » أو « إرشاد الهادى » وقد كتبه خصيصا لابنه .

فى اللغة :

(١٨) « النعم السوابغ فى شرح الـكلم النوابغ » وهو تفسير لـكتاب الزمخشرى المعنون : « الـكلم النوابغ » .

(٩) السيد الجرجانى : حياته ومنتجاته :

هو على بن محمد السيد الشريف، ولد فى قرية قريبة من سراباذ بين همذان و بغداد فى سنة ٧٤٠هـ سنة ١٣٣٩ م ولا يعرف التاريخ شيئا يذكر عن شبابه أو عن دراسته، وإنما هو يبتدئ يحدثنا عنه حين قدمه سعد الدين التفتازانى الى الشاه، فينبئنا بأن هذا الأخير لم يكد يكتشف ذكاءه وعلمه حتى عينه أستاذا فى شيراز فى سنة ٧٧٩ هـ. وحينما افتتح « تيمور » شيراز بعث به الى سمرقند فى سنة ٧٨٩ هـ. ولما توفى تيمور فى سنة ٨٠٧ هـ ـ سنة ١٤٠٤ م استطاع الجرجانى أن يعود الى شيراز، فعاد وظل فيها حتى توفى فى سنة ٨١٦ هـ ـ سنة ١٤١٣ م.

أما مؤلفاته فكثيرة العدد، كتب بعضها بالعربية، و بعضها بالفارسية، وهى فى الفلسفة والفلك والفقه. و بين هذه الكتب عدد غير يسير موضوع، والباقى شروح فى هذه المواد المتقدمة. ومن أهمها ما يأتى :

(١) كتاب التعريفات. (٢) شرح موجز على الكشاف للزمخشرى. (٣) « علم المعانى والبيان » وهو شرح للقسم الثالث من كتاب « مفتاح العلوم » للسكاكى. (٤) شرح على المطول للتفتازانى، وعلى تلخيص المفتاح. (٥) شرح على الفرائض السراجية للسجاوندى. (٦) حاشية على شرح قطب الدين الرازى على الرسالة الشمسية فى القواعد المنطقية للكاتبى. (٧) حاشية على شرح البخارى على كتاب « حكمة العين ». (٨) شرح على كتاب « المواقف ». (٩) « الأصول المنطقية ».

من هذا العرض الموجز الذى أسلفناه لحركة المتكلمين فى عصورهم الثلاثة : عصر ما قبل الترجمة، وعصر سيادة الفلسفة، وعصر ما بعد الغزالى، يتبين لنا الدور الذى قام به أولئك المفكرون المتقيدون بالاسلام فى أكثر مناحيهم، والذين بعد أن درسوا الفلسفة الإغريقية وهضموا كثيرا من نظرياتها واستفادوا منها أكبر الفائدة، نصبوا أنفسهم لمهاجمتها ومحاولة النيل منها، فوفقوا حينا وأخفقوا أحيانا ؛ وكان إخفاقهم إما لأن النظريات التى كانوا يعرضون أنفسهم لمهاجمتها كانت فنية الى حد لم تصل معارفهم إليه، وإما لأنها نقلت إليهم مشوهة فكانت ردودهم فى الحالتين على أساس غير متين، ولكنهم فيما عدا ذلك كانوا فى تاريخ الفكر البشرى أعلام شرف ومجد لا ينبغى إغفالها أو التغاضى عنها. ولم لا ؟ أليس الفلاسفة المدرسيون الذين تباهت بهم أوروبا فى العصور الوسطى صورا توشك أن تكون أمينة لأولئك المتكلمين المسلمين فى أكثر نزعاتهم الفكرية، وهم مع ذلك قد حسبوا فى عداد الفلاسفة عند الأمم التى تقدر نابغيها ؟ وفوق هذا فإن تلك الأمم الناهضة أنفسها قد أثبتت أسماء عدد غير يسير من هؤلاء المتكلمين المسلمين فى سجلات المفكرين الخالدين. ولا ريب أن هذا يحملنا على المساهمة فى إبراز ما خفى من نواحى هؤلاء الأعلام النابغين ؟

الدكتور محمد غلاب

بحوث في المسائل الفقهية

تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

— ٩ —

الشـــافعى

حياته ، عهده بمصر ، هل أثرت مصر فى فقهه ،
أو تأثرت به ؟ نقـــد علمى لرأى مشهور .

حيـاته :

كان الشافعى ، رضى الله عنه ، رجلا كبير الهمة ، وثاب العزيمة ، نـّظارا الى المعالى ، متطلعا الى الكمال ؛ وكان يساعفه على ما يريد ، ويمده الى ما يبتغى ، طبع صاف ، وعقل حاضر ، وذكاء موهوب ؛ وقد ظلت هذه الصفات تدفعه نحو الكمال منذ حداثته حتى أصبح رجلا من الرجال العالميين ، وسُجل اسمه فى سجل الخالدين !

حياة يملأ جوانبها النشاط والعمل ، والسعى والدأب ، ورِحَلٌ يتصل بعضها ببعض ، فى صبر وعناية ومثابرة ، وانتهاز للفرص ، وحرص على الانتفاع بكل شىء والنظر فى كل شىء !

طفل يتركه أبوه ابن سنتين فقيرا لا مال له ، وحيدا ليس له من عائل سوى أمه ، فما هو إلا أن ترسله الى المعلم كسائر الصبيان ، حتى يلمح المعلم نبوغه ، ويتبين مخايل عبقريته ، فيرضى بأن يخلفه فى عمله إذا غاب عنه ؛ ولكن الصبى لا يكتفى بهذه المنزلة التى ينالها من بين إخوانه ، ويطمع فى منزلة أسمى ، فيتردد الى المسجد حيث يجالس العلماء ، ويستمع الى أحاديثهم ، ويسألهم ويحاورهم ، ويحفظ عنهم ، فيلفت بذلك نظر أمه الى ذكائه وحسن استعداده ، فاذا هى ترسله الى البادية ، وتنزله فى هذيل ، يقيم معها ما أقامت ، ويرحل معها إذا رحلت ، ويتعلم كلامها ، ويحذق لغتها ، ويروى أشعارها ، ويبلغ من ذلك كله مبلغ العلماء المتأدبين ، حتى يقرأ عليه مثل الأصمعى أشعار الهذليين ، ثم لا يكتفى باتقان ذلك والبراعة فيه ، ولكنه يتخذه وسيلة الى علم أكبر ، وفضل أظهر ؛ فهو إذ يتوجه الى مكة راجعا من هذيل ، يلقاه فى طريقه رجل من الزبيديين ، فيتحدث أحدهما الى الآخر حديثا يظهر به الشافعى فتى فصيح اللسان عبقرى الذكاء ، فيقول له صاحبه : أيها الفتى ! يعز علىّ ألا يكون مع هذه الفصاحة وهذا الذكاء

فقه تسود به أهل زمانك ! فقه ؟ تطرق هـذه الـكلمة سمع الشافعي فتصادف من نفسه هوى لعله كان يحبسه ، وتحدد له معنى لعله كان يضطرب فى فؤاده ، فاذا القلب القوى يتوجه الى العلم القوى توجها ، ويلتفت اليه التفاتا يتغير به مجرى حياة هذا الشاب الجرئ ، فهو يعكف على الفقه ، فيستوعب ما عند مسلم بن خالد الزنجى منه ، ثم ما عند ابن عيينة والفضل بن عياض ؛ ثم يشرئب الى مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، فيرحل اليه ، ويقرأ عليه موطأه ويسمع منه ، ويومئذ يرى فيه مالك من علائم النجابة ماراه الناس فيه من قبله ، فيقربه اليه ، ويعلن إعجابه به ويثنى على ذكائه ، وجودة حفظه ، ويصله بجزيل العطايا ، فيذيع فى الناس ذكره ، ويطير فى الآفاق صيته ، وتسبقه أينما حل شهرة تفتح أمامه المغاليق ، وتذلل له الصعاب ، وتجعله ملء المسامع والأفواه والمقل !

فهل يقف الشافعي عند هـذا الحد ؟ وهل يكتفى بهـذه المنزلة السامية ؟ كلا ، ولـكنه يظل يرحل ويتعلم ويتثقف ، فيجوب أنحاء المملـكة الاسلامية طولا وعرضا ، ويجادل ذوى الآراء ، ويناظر فحول العلماء ، ولا يثنيه عن طريقه أن تستيقظ له عيون الحاسدين ، وأن تتناثر من حوله التهم والمطاعن ذات الشمال وذات اليمين ، لأنه مخلص لله ، واثق بالله ، مطمئن الى نفسه .

عهده بمصر :

قدم رضى الله عنه الى مصر فى أخريات عمره سنة ١٩٩ هـ بعد أن شرّق فى البلاد وغرّب ، وبعد أن تعلم وتـكمل ، وجادل وناظر ، وكتب وألف ، واستوى ونضج .

وكان كل شيء فى مصر يدعوه إليها ، فله فيها تلاميذ يحبونه ويحرصون على أن يقيم بينهم ؛ والناس فى مصر فريقان ـ كما ذكرنا : فريق يعتنق مذهب الحنفية ويتعصب له ، وفريق يميل الى مذهب المالـكية ويناضل عنه ؛ فلعله إذا صار إليهم أن يأتيهم بما يشغلهم به عن المذهبين جميعا ، أو لعل الله يصلح به بين المتخاصمين ؛ ثم هو بحاجة الى أن يستقر قراره ، ويلقى عصا الترحال ، ويتفرغ الى كتبه فيدونها ، وينقحها ، ويسجل فيها علمه وآراءه وما استفاده طول حياته ؛ ولعله كان أيضا يحس بدنو منيته ، وقرب أجله ، وأن من الخير له ولأهله أن يقيم بعد طول ما رحل ! وهكذا قدم رضى الله عنه الى مصر ، واشتغل فيها بالفقه والتدريس ، فـكان يقرأ كل يوم فى مسجد الفسطاط ، ويملى دروسه وكتبه على تلاميذه ، وكان يناظر العلماء من كل مذهب ، ويثير من حـوله نقد الناقدين أحيانا ، وإعجاب المعجبين أحيانا ، وحسد الحاسدين ، وطعن الطاعنين ، ولـكنه مع ذلك كله كان مثالا يحتذى فى العلم والأدب ، والصبر على المـكاره ، وتحمل المشاق ، كما كان مثالا فى النشاط ، والمثابرة ، والدأب على الدرس والتحقيق .
وقد أملى بمصر كتاب الأم ، والرسالة الأصولية التى تصف لنا منحاه فى اجتهاده ، وطريقته فى استنباطه ، والتى تحدث فيها عن كثير من مسائل علم الأصول ، وعُدّ بها أول مؤلف فى هذا الفن .

وللشافعى مذهبان : قديم ، وجديد ؛ وقد أملى مذهبه الجديد بمصر ، ولذلك اشتهر بين كثير من الناس أن هذا المذهب الجديد مصرى .

ومن حق القراء أن يتساءلوا : أيهما قد تأثر بالآخر ؟ أفقه الشافعى تأثر بمصر ، أم مصر هى التى تأثرت بفقه الشافعى ؟

وكثيرا ما وجهت الى نفسى هذا السؤال ، وربما كنت أميل الى شقه الأول ، وأرى أن الشافعى ماوضع مذهبه الجديد إلا بعد أن رأى ما لم يكن قد رأى ، وسمع ما لم يكن قد سمع ، وبعد أن تلقحت هذه العقلية الجبارة بلقاح جديد من العلم والرأى والنظر . وقد رأيت كثيرا من الباحثين قد اغتر بمثل ما اغتررت به فقرر أن الشافعى قد تأثر فى مذهبه الجديد بمصر تأثراً ظاهراً ؛ ومن هؤلاء الأستاذ الفاضل أحمد بك أمين .

وقد تبينت — بعد البحث والتأمل — خطأ هذا الرأى ، وأصبحت أجزم بأن الشافعى هو الذى أثر فى مصر أثراً ظاهراً ، وأن مصر لم تؤثر فيه أثراً يذكر .

ويحسن بى أن أعرض أمام القراء نص كلام الأستاذ أحمد بك أمين ، ليتبينوا رأيه ، ثم أتبع ذلك بنقدى له ، حتى إذا انتهيت من هذا وذاك بسطت رأيى ، إن شاء الله .

يقول الأستاذ احمد بك أمين (١) :

« والعلماء يقسمون فقه الشافعى الى مذهبين : قديم ، وجديد ؛ فأما القديم فهو ما كتبه وقال به فى العراق ؛ وأما الجديد فهو ما كتبه وقال به فى مصر ؛ ذلك أنه لما جاء مصر عدل عن بعض أقوال له كان قالها من قبل ؛ وسببه أنه خالط علماء مصر ، وسمع ما صح عندهم من حديث ، وسمع تلاميذ الليث بن سعد ينقلون عنه آراءه وفقهه ، ورأى بعض حالات اجتماعية تخالف تلك التى رآها فى الحجاز والعراق ، فغيّر ذلك من فقه الشافعى فى بعض أقواله ، وأطلق عليه المذهب الجديد » .

ويقول الأستاذ أيضا (٢) :

« إنه كان للمصريين معاملات لا يتعامل بها أهل العراق ولا الحجازيون ، ونظام الرى للنيل فى مصر غير نظام دجلة والفرات ، وذلك يستتبع اختلافا فى الخراج وما اليه ، وكلاهما يختلف فى ذلك عن بلاد لا تعرف أنهاراً كالحجاز ؛ كل هذا وأمثاله كان له أثر كبير فى تكوين مذهب الشافعى » .

ويقول الأستاذ فى التمثيل لهذا التأثر (٣) :

« ثم هو متأثر بالمصرية أحيانا ، فاذا أراد أن يمثل بصيغة لوقفية مثّل لذلك بوقف بيت فى الفسطاط من مصر ؛ ويتكلم فى الطين الذى يعرف بالطين الأرمنى ، والطين الذى يقال له

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٣١ (٢) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٢١ (٣) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٣٢

طين البحيرة ، وهما مما يدخلان فى الأدوية ، ويقارن بين الطين الأرمنى وطين رآه فى الحجاز ؛ ويتكلم فى القراطيس « وهى مصرية » ، ويبين متى يجوز أن تسلف ومتى لا يجوز ؛ ويتكلم فى شهادة الشعراء ومن يجوز شهادته منهم ومن لا يجوز ، فيستملى — فيما يظهر — من حال الشعراء فى مصر ، الى أمثال ذلك » .

هذا هو رأى الأستاذ أحمد بك أمين كما يصوره قلمه .

وهذا الكلام يمكن ضبطه بارجاعه الى مقدمات ونتيجة .

فأما المقدمات فهى :

(١) الشافعى سمع من المصريين بعض الأحاديث التى لم يكن سمعها ، أو قوّى برواياتهم بعض الأحاديث التى كانت ضعيفة عنده من قبل .

(٢) الشافعى رأى من الحالات الاجتماعية فى مصر ما يخالف الحالات التى بالعراق والحجاز ، يعنى أنه كان للمصريين عرف يخالف عرف العراقيين والحجازيين .

(٣) الشافعى رأى بمصر موضوعات جديدة ، ومسائل فقهية لم ترد على ذهنه فى الحجاز والعراق كالقراطيس المصرية مثلا .

وأما النتيجة فهى :

« كل هذا وأمثاله كان له أثر كبير فى تكوين مذهب الشافعى . . . غيّر ذلك من فقه الشافعى فى بعض أقواله ، وأطلق عليه المذهب الجديد » .

بهذا قد أصبح رأى الأستاذ مفهوما راجعا الى نقط يمكن مناقشتها وبيان وجه الخطأ فيها ؛ وإليكم أيها القراء هذا البيان :

١ — من المعروف أن الشافعى لم يقدم الى مصر إلا فى أواخر حياته بعد أن تركزت ثقافته وتكونت ، وأنه قد اشتغل بالتدريس فى جامع عمرو بن العاص منذ قدومه ، وكان يملى كتبه التى ألفها من قبل على تلاميذه ؛ وواضح أن ما يمليه على هذا النحو لا يعد تأليفا مصريا تأثر بمصر والمصريين .

٢ — أن الشافعى لم يعش فى مصر أكثر من أربع سنوات كان فيها موضع منافسة ومزاحمة ، كما كان مشتغلا بتوطيد مقامه فى هذا الموطن الجديد ؛ ومثل هذا الزمن لا يكفى لتكوين فكرة جديدة تستحق أن يلغى من أجلها مذهب كوّنه العمر ، وركزته الرحل والأسفار والمدارسات .

٣ — إن من يرجع الى المذهب الجديد يرى أكثر المدارك التى يعتمد عليها راجعة

الى الحديث ؛ والتأثر الذى يكون سببه الحديث ، لا يصح أن ينسب الى مصر ، فان أهلها فى الرواية متأثرون بغيرهم من الصحابة ، وأعلام المحدثين ، وليسوا مؤثرين .

على أن أخذ الشافعى بحديث ظهرت له صحته لا يجعله متأثرا بأقليم بخصوصه ، فان مذهبه الذى اشتهر وعرف به هو الذى عبر عنه بقوله : « إذا صح الحديث فهو مذهبى » ؛ فإذا بنى مسألة من المسائل على حديث سمعه بالعراق ، فانه لا يكون بذلك متأثرا بالعراق ؛ وكذلك إذا بنى على حديث سمعه بالحجاز أو بمصر ، فان ذلك لا يعد تأثرا بالحجاز أو بمصر ، وإنما هو تأثر بالحديث ، اللهم إلا إذا كانت إضافة هذا التأثير لمصر لأدنى ملابسة كما يقولون !

٤ — التأثر الذى سببه العرف والحالات الاجتماعية ، كما يقول الأستاذ ، لا يكاد يوجد فى المذهب الجديد ، ولا يكاد يشعر به من فقهاء الشافعية أحد .

على أننا لا نحب أن نقطع بعدم وجود شىء من ذلك ، فلنفرضه موجودا ، ولنفرض أنه كثير ، ولكن العلماء لا يعدون مثل هذا مذهبا جديدا ، فان الاختلاف الذى يكون أساسه العرف لا يعد اختلافا على الحقيقة ، وإنما هو رأى واحد له شقان يطبق أحدهما فى عرف ، ويطبق الآخر فى عرف غيره .

ولذلك يأبى البَطَلْيَوْسى والشاطبى أن يعدا العرف من أسباب الاختلاف ، فاذا روى مثلا عن فقيهين اختلاف فى اعتبار الكفاءة فى الحِرَف أساسه العرف بأن تكون حرفةٌ ما شريفة فى عرف قوم ، وضيعة فى عرف آخرين ، فلا ينبغى أن يعد ذلك خلافا على الحقيقة ، إذ لو شاهد كل إمام ما شاهد الآخر لقال بما قال .

وإذا لم يعد مثل هذا خلافا حقيقيا مع أن فى المسألة قولين ، لكل فقيه قول ، فأولى ألا يعد قول القائل الواحد مختلفا مع نفسه ، ولكن علينا أن نعد الرأى الثانى بمثابة القيد فى الرأى الأول ، كأنه قال : الحكم كذا بحسب هذا العرف فاذا تغير فالحكم كذا ؛ ومن الواضح أن المسألة على هذا الوضع لا يظهر فيها كيف أثرت مصر فى فقه الامام الشافعى .

أما الأمثلة التى أوردها الأستاذ كشواهد على تأثر الشافعى بالمصرية فلها حديث بعد هذا الحديث ؟

محمد محمد المدنى

المدرس بكلية الشريعة

القيمة العلمية لأبحاث المستشرقين

ليس هناك من يستطيع أن ينكر فضل المستشرقين فيما قاموا به من جهود جبارة ، وما أدوا من خدمات فى محيط البحث العلمى ؛ فلقد حققوا الكثير من المسائل العلمية ، وأثاروا الكثير من البحوث القيمة ، كما نشروا الكثير من أمهات الكتب التى كانت تعتبر مفقودة ، وكان لا يعرف عنها المشتغلون بالعلم إلا الاسم كما وردت فى كتب بعض المؤلفين ممن انتفعوا بها فى تآليفهم ؛ نشرها المستشرقون بعد أن بذلوا غاية ما يمكن من جهد فى التنقيب عنها فى مظانها ، وفى الحصول على أصولها المخطوطة ، غير باخلين بدفع الثمن لأصحاب هذه الأصول مهما بلغ ، وبعد أن أعدوها للانتفاع بها على خير وجه ، بفضل الإخراج المتقن ، والتنظيم العلمى الموافق لقواعد فن الإخراج الحديثة .

وهم لهذا وغيره يستحقون الشكر منا على ما قدموا وبذلوا فى سبيل العلم ، كما تستحق أعمالهم عناية الباحثين يتناولونها بالنقد العلمى والترجمة . وإنا لنرى بحمد الله هذه العناية تزداد يوما بعد يوم ، ونقرأ للكثيرين فى الأيام الأخيرة ما يترجمونه من كتب المستشرقين وأبحاثهم ، وما يتحدثون به عن المستشرقين وعن أعمالهم ، وهو ولا شك حديث قيم يثير اهتمام من له صلة علمية بهؤلاء العلماء ، أو بموضوع الحديث على السواء .

بيد أن الباحث لا بد له من الحيطة والحذر حينما يريد معالجة رأى أو بحث من البحوث الاستشراقية ، حتى لا يخدع فى تحديد القيمة العلمية لهذا الرأى أو لذلك البحث المعين بما لصاحبه من سمعة علمية طيبة ، وحتى يكون أقرب الى الصواب والعدل فى حكمه وتقديره ؛ فعليه ألا يأخذ الكلام على علاته ، وألا ينقله قضية مسلمة ، وإنما يرجع به الى أصوله ويرده الى مآخذه ، ويمتحن صحة الاستنتاج فيه ليرى مقدار تمشيه مع قواعد الحكم الصحيح ؛ وخاصة إذا كان ذلك فيما يتصل بالاسلام وعلومه ؛ فكثيرا ما يكون الأساس الذى اتخذه المستشرق فى بحثه وبنى عليه إصدار حكمه فى مسألة ما غير صحيح ، وكثيرا ما يكون عدم الفهم للعوامل الأساسية ، أو القياس مع الفارق ، أو الحكم على الاسلام بأعمال المسلمين المخالفة لتعاليم الدين بعد اعتبار أنها صورة من صور الاسلام ، كثيرا ما يكون أحد هذه الأشياء أو غيره سببا لخطأ المستشرق فى حكم من أحكامه العلمية .

وقد يكون سبب الخطأ فى الحكم قصد المستشرق الى أن ينقد الاسلام ، ويظهر فى تعاليمه وجها من وجوه المؤاخذة ؛ فمما لا شك فيه أن بعض الغربيين المشتغلين بالعلوم الاسلامية لم يعن بدراسة مبادئ الاسلام وعلومه إلا ليكون ذلك وسيلة لأن ينقده ، وطمعا فى استطاعته

بهذه الوسيلة أن يرد شيئا من مبادئه . وهذه الطائفة من الباحثين كانت فى مبدئها تعمد الى تحريف الكلم عن مواضعه ، فتقدم الى شعوبها باللغة اللاتينية أو بلغاتها المختلفة صورة مشوهة للاسلام ، ثم تعقب على ذلك بإصدار أحكامها المغرضة فى تحديد القيم للمبادئ الاسلامية ؛ وهذه الأحكام المبيتة المبنية على التحيز والصادرة عن الغرض ، كانت تصادف هوى فى نفوس المسيحيين وترضى عاطفة بغضهم للشعوب المسلمة . وما زالت هذه طريقتهم فى مناوأة الاسلام وكتاباتهم عنه بنقلهم المبادئ الاسلامية مشوهة الى شعوبهم ، ما زالوا كذلك حتى سلك الأستاذ هادريان ريلاند Hadrian Reland (١) فى ذلك سبيلا آخر ، فعمد أولا الى تقديم صورة صحيحة للتعاليم الاسلامية ، والى تصحيح الأخطاء التى كانت شائعة فى ذلك الوقت عن مبادئ الاسلام فى كتابين (٢) ألفهما باللغة اللاتينية ؛ وكان بذلك أول من أعطى صورة علمية صحيحة للتعاليم الاسلامية من علماء الغرب كما يقول الأستاذ (Gustav Pfannmuller) (٣) ولقد قامت ضجة كبرى فى الأوساط المسيحية عند ظهور كتاب ريلاند الثانى ، واتهم بموالاته للاسلام ضد النصرانية ، ووصف بأنه من دعاة الاسلام المبشرين به ، واتخذت الكنيسة ضده الاجراءات التى كانت متبعة فى ذلك الحين ضد « الملحدين » فأثبتت كتابه فى قائمة الكتب المحرمة (Index hibrorum prohibitorum) . ولكن الأمر كان على غير ما تبتغى الكنيسة ، وكان فى عملها أكبر دعاية للكتاب ، فراج رواجا كبيرا ، ولم تمنع هذه الضجة التى قامت حول ظهوره — كما يقول الأستاذ Pfannmuller — من ترجمته الى الانكليزية والفرنسية والألمانية والهولندية والاسبانية ، ومن أن يصبح مرجعا للباحثين فى تعاليم الاسلام من الغربيين .

والعبرة فى هذا هى أن الأستاذ ريلاند ما كان يبغى بتصحيحه للأخطاء الشائعة فى وقته عن المبادئ الاسلامية ، وبتقديمه للشعوب المسيحية صورة صحيحة عن تعاليم الاسلام ، ما كان يبغى بهذا إلا وضع أساس علمى على الطريقة التى يرضاها لما كان ينويه من مهاجمة الاسلام باسم النصرانية التى كان يعتنقها دينا ، ويريد الدفاع عنها بمهاجمة وتجريح الاسلام ، ذلك الدين القويم صاحب التعاليم القوية والمنطق الصحيح ؛ فهو يريد أولا أن يدرس المبادئ الاسلامية كما يعرفها ويقرها المسلمون ، يريد أن يقدم لها صورة صحيحة ، ثم يحاول بعد هذا إيجاد مأخذ وفتح باب يلجه للمهاجمة والنقد . هذا ما قصد إليه ، وذلك ما دافع به عنه

---

(١) عاش الاستاذ Reland من ١٦٧٦ — ١٧١٨ م وكان أستاذ اللغات الشرقية بجامعة أوترشت Utrecht الهولندية . (٢) هما كتاب (Compendium theologiae ، Mohammedicae, arabice et latine) . وكتاب Mohammedanis ، De nonnullis quae· falso tribunutur) . (٣) راجع ص ٦٣ من كتاب rHandbuch der Islam-Literatur للاستاذ المذكور طبعة سنة ١٩٢٣ م وإخراج دار الطباعة ببرلين لصاحبها Walter de Gruyter .

أصدقاؤه ومقدروه فيما بعد ، أمثال الأستاذ Pfamuller (١) ؛ وأيضا هذا هو ما صرح به ريلاند نفسه فى مقدمة كتابه ، وقد كتبها طبعا قبل صدور الكتاب ، وقبل أن تثار الضجة حوله ؛ فلا شك أنه يقصد ما يقول ؛ فإنا نرى هذا الباحث الثائر بعد أن يصرح بأن الاسلام ، كسائر الأديان ، قد افترى عليه معارضوه ، واعتدوا على أتباعه ، وأشاعوا عنه ما ليس منه ، إما عن قصد وعمد أو عن جهل وعدم فهم ، كما كان موقف الوثنيين مع اليهودية والنصرانية ومع اليهود والنصارى ، وكما فعل الكاثوليك مع لوتر وأتباعه ومع سائر المصلحين الدينيين من المسيحيين وقت ظهورهم . بعد أن صرح بهذا وصرح بأنه سيقدم على إخراج كتابه فينشر بذلك صورة حقيقية لتعاليم الاسلام ، كما تنفذ فى المساجد وتدرس فى مدارس المسلمين ، لا كما شوهها بعض الغربيين ، وبأنه سيفعل ذلك بالرغم من اعتقاده بأن أعداءه سينتهزون هذه الفرصة للتشهير به والنيل منه ، فهو لا يبالى بما عساه يحدث لأنه من طلاب الحقيقة ، وهم يبحثون عنها ويطلبونها أنى كانت وحيث وجدت ؛ نراه بعد أن يصرح بكل هذا يقول ما معناه : (٢)

« حقا إن الاسلام دين خطير ، دين شديد الأضرار بالديانة المسيحية ؛ ولكن أيجوز لنا لهذا أن نهمله ولا نعنى بشأنه وندرسه ؟ أم الواجب علينا هو أن نبحثه ونكشف عن خفاياه ، كما نبحث عن خفايا الشيطان ونكشف عن حيلته ؟ ! نعم الواجب علينا هو أن نعنى كل العناية بأن يكون من أغراضنا العمل على معرفة الدين الاسلامى ودراسته على حقيقته ، فذلك أعون لنا على مكافحته ومعارضته بقوة وثبات » .

فهو إذاً يشارك غيره من طائفته فى العزم على مكافحة الاسلام ومعارضته بقوة وثبات ، وإن اختلفت الطرق .

تلك جملة من الأسباب التى قد تدعو الى خطأ بعض المستشرقين فى بحوثهم المتعلقة بالاسلام والعلوم الاسلامية ؛ وسنضرب للقارىء فى مقال آخر بعض الأمثلة لهذه الأخطاء التى ترجع الى اعتبار من الاعتبارات التى ذكرناها . والآن نود أن نصرح بأن التنقيب عن مثل هذه الأخطاء العلمية ورد الحق الى نصابه فيها مهمة ليست بالسهلة ، ولكنها مهمة أولئك الذين اتصلوا بالمستشرقين وعنوا ببحوثهم التى فيها الكثير من الغناء والنفع ؛ فعليهم أن يضطلعوا بهذه المهمة ، وخاصة منهم أعضاء البعثات الأزهرية الذين جمعوا بين الثقافتين : الثقافة الاسلامية الشرقية ، والثقافة الغربية ؛ فهم أولى وأجدر بالاضطلاع بها ، وعليهم قبل غيرهم تقع التبعة إذا هم قصروا فى التنقيب عن مثل هذه الزلات فى بحوث المستشرقين ، والكشف عن وجه الشبهة فيها ، حتى تسفر الحقيقة ويستقر الحق فى نصابه ؟

محمد عبد الله ماضى
أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين

(١) راجع ص ٦٣ أيضا من المرجع السابق . (٢) راجع ص ٦٤ من المرجع السابق .

التجديد والمجددون فى الاسلام

الامام الاعظم أبو حنيفة — دراسات فى مذهبه

هل آثر أبو حنيفة العمل بالرأى والقياس على العمل بآحاديث الآحاد ؟

هذا البحث يستدعى سرد جميع أبواب الفقه لمعرفة ما حصلت فيه المخالفة أو الترك إن كان حصل شىء منهما فى مذهب أبى حنيفة ؛ ولما كان هذا من التطويل بحيث يحتاج الى سفر برمته ، فنقتصر الآن على ذكر قواعد إجمالية هى أصول هذا الموضوع ، وفيها غنية عن الإطناب والتطويل ، فنقول :

١ — زعم بعض العلماء أن الامام أبا حنيفة خالف فى مذهبه أحاديث صحيحة ، وفضلا عن ذلك فقد ترك العمل ببعض أخبار الواحد . والسبب فى زعمهم هذا أنهم لم يتأملوا قواعد الامام ، ولم يحققوا النظر فى أصول مذهبه ؛ إذ منها كما قال الامام ابن عبد البر فى كتاب « الكُنَى » : أن من مذهب أبى حنيفة فى أخبار الآحاد أنه لا يقبل منها ما خالف أصول الشرع المجمع عليها ؛ فأنكر عليه ذلك أصحاب الحديث ، ورموه تارة بنبذ السنة وعدم الاعتراف بها ، وتارة بقصور باعه فيها ؛ وحاشاه من كل ذلك ؛ وهذا مسنده الذى جمعه أبو المؤيد فى ثمانمائة صفحة كبيرة دليل على ذلك ، وهو مطبوع بمصر سنة ١٣٢٦ﻫ وما يقال من أن أبا حنيفة لم يصح عنده أو لم يبن مذهبه إلا على سبعة عشر حديثا ، قول باطل ، ففى الفتوحات الإلهية أن أبا حنيفة انفرد بتخريج ٢١٥ حديثا غير ما اشترك فى إخراجه مع بقية الأئمة ؛ وقد روى فى مسنده من رواية الحصكفى فى باب الصلاة وحدها ٢١٨ حديثا ، كما روى فى كل باب من بقية أبواب الفقه الأحاديث الكثيرة ، فكيف يصح بعد كل هذا أن يرميه خصومه بأنه نبذ السنة ؟

٢ — وقال ابن عبد البر أيضا فى كتابه « العلم » : ليس لأحد من علماء الأمة أن يثبت حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم يرده دون ادعاء نسخ ذلك بأثر مثله أو باجماع أو بعمل يجب الانقياد اليه أو طعن فى سنده ؛ ولقد عافى الله الامام أبا حنيفة وجميع أئمة المسلمين من ذلك ؛ فان صح أن الامام أبا حنيفة ترك العمل ببعض أحاديث الآحاد ، أو خالف حديثا كما زعموا ، أو قدم القياس أحيانا ، فانه لم يفعل ذلك إلا لموجب شرعى ، ولم يفعله عبثا ، أو ردا للحديث مع سلامته من القوادح والعلل ؛ وعلى كل حال فما كان هذا الترك أو هذه المخالفة إلا لأمور خفيت على ناقديه ، ولم يقفوا على أصول مذهبه فيها . منها :

أولاً — عدم اتصال علم الامام الأعظم بالأحاديث التى زعموا أنه ترك العمل بها ، وليس

أبو حنيفة أو مالك أو الشافعى أو أحمد أنبياء معصومين ، وإنما هم أئمة الهدى المجتهدون ، يخطئون ويصيبون ، ولهم على تقدير الخطأ أجر ، وعلى تقدير الإصابة أجران كغيرهم من المسلمين .

ثانيا — أن يكون خبر الواحد مخالفا لعموم القرآن الكريم أو ظاهره ، وأبو حنيفة لا يرى تخصيص عموم القرآن أو نسخه بخبر الواحد ، لأن عمومات القرآن وظواهرها إذا أفادت اليقين فلا يجوز تخصيصها ومعارضتها به ، لأن فى ذلك ترك العمل بالأقوى من الدليل بما هو أضعف منه وهذا لا يجوز . مثال ذلك : قوله صلى الله عليه وسلم : « الحرم لا يعيذ عاصيا ولا فاراً بدم » هذا الحديث يخالف قول الله تعالى : « ومن دخله كان آمنا » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب » يخالف عموم قول الله تعالى : « فاقرءوا ما تيسر منه » ، فخبر الواحد ظنى ، والقرآن الكريم يقينى ، ولا يجوز تقديم الدليل الظنى على الدليل اليقينى ، وتقديم أقوى الدليلين واجب دائما . فلا يجوز عنده ترك العمل بالكتاب الكريم لهذه الأحاديث .

ثالثا — أن لا يكون مخالفا للسنة المشهورة ، لأن الخبر المشهور فوق خبر الواحد ، لأنه أقوى منه ومقدم عليه ، حتى جازت الزيادة به على الكتاب الكريم ، ولم تجز بخبر الواحد ، فلا يجوز ترك الأقوى بالأضعف . مثال ذلك : الحكم بالشاهد واليمين ، فانه ورد مخالفا للحديث المشهور ، وهو ما روى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « البينة على المدعى واليمين على من أنكر » . وبيان المخالفة من وجهين : أحدهما : أن الشرع جعل جميع الأيمان فى جانب المنكر دون المدعى ، لأن اللام تقتضى استغراق الجنس ، فمن جعل يمين المدعى حجة ، فقد خالف النص المشهور ولم يعمل بمقتضاه وهو الاستغراق. (ثانيهما) أن الشرع جعل الخصوم قسمين : قسما مدّعيا ، وقسما منكرا ، وجعل الحجة قسمين : قسما بينة ، وقسما يمينا ، وحصر جنس اليمين على من أنكر ، وجنس البينة على المدعى ، وهذا يقتضى قطع الشركة وعدم الجمع بين اليمين والبينة فى جانب ؛ والعمل بخبر الشاهد واليمين يوجب ترك العمل بموجب هذا الخبر المشهور ، فيكون مردودا . وعبر بعض العلماء عن هذا الحكم بأن يكون فى حديث الآحاد زيادة على القرآن الكريم ، فإن القرآن نص على : « شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان » . فالشاهد واليمين زيادة على القرآن الكريم .

رابعا — كون الحديث الذى تركه أبو حنيفة أو خالفه لم يصح عنده ، لأنه لا يصح الأخذ بحديث غير صحيح ، ولا يجوز بناء الأحكام الشرعية على مثل هذه الأحاديث .

خامسا — عمل الراوى بعد ما روى حديثا بخلاف ما رواه ، لأن الراوى إذا عمل بخلاف ما رواه ، فالعبرة عندهم بما رأى لا بما روى ، لأن الراوى العدل المؤتمن إذا روى حديثا

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمل بخلافه دل ذلك على شىء ثبت عنده : إما نسخ ، وإما معارضة ، وإما تخصيص ، أو غير ذلك من الأسباب . مثال ذلك : ما روى الشيخان حديث ابن عباس مرفوعا : « من بدل دينه فاقتلوه » ، وصح من قوله : « إن المرأة لا تقتل » .

سادسا — كونه خبرا واحدا مما تعم به البلوى : أى كل أحد يحتاج الى معرفته ، لأن العادة تقتضى استفاضة نقل ما تعم به البلوى ، لأن فيما تعم به البلوى لا يقتصر النبى صلى الله عليه وسلم على مخاطبة الآحاد ، بل يلقيه الى عدد يحصل به التواتر والشهرة مبالغة فى إشاعته لحاجة الخلق إليه ، فانفراد واحد به قدح فيه . ومثاله : حديث الجهر فى الصلاة بالبسملة ، وهو ما رواه أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجهر بالبسملة ، فإنه لما شذ مع اشتهار الحادثة لم يعمل به ، وحديث مس الذكر الذى روته بسرة ، فإنه شاذ لانفرادها بروايته مع عموم الحاجة الى معرفته ، فدل ذلك على ضعفه ، إذ القول بأن النبى صلى الله عليه وسلم خصها بتعليم ذلك ، ولم يعلم به الصحابة مع شدة الحاجة إليه — لأن كل مسلم يجب أن يعرف هل مس الذكر ينقض الوضوء أو لا ينقضه — فالقول بأن الرسول خصها بهذا ولم يعلم به الصحابة شبه المحال .

سابعا — أن لا يكون متروك المحاجة به عند ظهور الاختلاف بين الصحابة ، فإنهم إذا تركوا الاحتجاج به مع وقوع الاختلاف فيما بينهم يكون هذا الخبر مردودا عند بعض الحنفية المتقدمين وعامة المتأخرين ، لأن الصحابة وهم الأصل فى نقل الدين لم يهتموا بترك الاحتجاج بما هو حجة والاشتغال بما ليس بحجة مع أن عنايتهم بالحجج أقوى من عناية غيرهم ، فترك الاحتجاج والعمل به عند ظهور الاختلاف فيما بينهم دليل ظاهر على سهو ممن رواه بعدهم ، أو على أنه منسوخ . مثال ذلك : ما روى عن زيد بن ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الطلاق بالرجال » ، فان الصحابة اختلفوا فى هذه المسألة ، فذهب عثمان وزيد وعائشة الى أن الطلاق معتبر بحال الرجل فى الرق والحرية كما هو مذهب الشافعى ؛ وذهب على وابن مسعود الى أنه معتبر بحال المرأة كما هو مذهب الحنفية ، وعن ابن عمر أنه يعتبر بمن رق منهما حتى لا يملك الزوج عليها ثلاث تطليقات إلا إذا كانا حرين ، وأنهم تكلموا فى هذه المسألة بالرأى ، وأعرضوا عن الاحتجاج بهذا الحديث — مع أن راويه وهو زيد فيهم — فدل ذلك على أنه غير ثابت أو منسوخ ، ولئن ثبت فهو مؤوّل بأن إيقاع الطلاق الى الرجال .

ثامنا — كونه خالف القياس الجلىّ أو الذى عضده حديث آخر .

تاسعا — معارضته حديثا آخر ثابتا عنده يؤيّده القياس .

عاشرا — طعن بعض السلف فيه كحديث القسامة ، فقد طعن فيه عمرو بن شعيب بن عبد الله بن عمرو بن العاص .

حادى عشر — كونه ورد فى الحدود والكفارات لأنها تسقط بالشبهة ، ويحتمل أن راويه كذب أوسها أو أخطأ ، فكان ذلك شبهة فى درء الحد . هذا مذهب الامام الكرخى .

٣ — قال المحققون : لا يستقيم الحديث إلا باستعمال الرأى فيه ، بأن يدرك معانيه الشرعية التى هى مناط الأحكام ، ولا يستقيم العمل بالرأى إلا بانضمام الحديث إليه . مثال الأول : أن بعض المحدثين سئل عن صبيّين ارتضعا على شاة ، هل تثبت بينهما حرمة الرضاع ؟ فقال بأنها تثبت عملا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « كل صبيين ارتضعا على ثدى حرم أحدهما على الآخر » فأخطا لفوات الرأى ، وهو أنه لم يتأمل أن الحكم متعلق بالجزئية والبعضية ، وذلك إنما يثبت بين الآدميين لا بين الشاة والآدمى . ومثال الثانى : أن الرأى لا تنقض الطهارة بالقهقهة فى الصلاة لأنها ليست بخارج نجس كما أنها ليست بحدث خارج الصلاة ، ولكن ثبت بحديث الأعرابى أنها حدث ، فوجب ترك الرأى فيه ، وثبت أن الحديث لا يستقيم إلا باستعمال الرأى فيه ، وأن العمل بالرأى لا يستقيم إلا بانضمام الحديث إليه ، وأن كل واحد منهما لا يستقيم بدون الآخر .

٤ — فبمقتضى هذه القواعد وأمثالها ترك الامام أبو حنيفة العمل بأحاديث من الآحاد . ومما يدل على اعتنائه بالأحاديث أيضا أنه قدم العمل بالأحاديث المرسلة على العمل بالرأى ، فأوجب الوضوء من القهقهة وهى ليست بحدث فى القياس ، وإنما ترك القياس للخبر المرسل فيها ، ولم يوجبه فى صلاة الجنازة وسجود التلاوة لأن النص لم يرد إلا فى الصلاة ذات الركوع والسجود ، فاقتصر على مورد النص . ومن هذا الباب إذا أكل الصائم أو شرب ناسيا لم يفطر ، والقياس الفطر لوجود ما يضاد الصوم ، وهو قول مالك ، وترك أبو حنيفة فى هذا القياس لحديث « تم على صومك » ، وقدم قول الصحابى لاحتمال سماعه ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٥ — من علم هذا انهارت فى نظره دعواهم أن أبا حنيفة خالف أحاديث الرسول أو ترك العمل بخبر الواحد بلا حجة ، وثبت أنهم لم يفهموا قواعد الامام وأصوله ، وأن أبا حنيفة ما كان حاطب ليل يقبل كل خبر صح أو لم يصح ، ولكنه كان كبير العقل ، شديد الاحتياط فى الدين ، إماماً نقادا لا يقبل خبرا إلا بعد عرضه على محك النقد ووزنه بميزانه وتطبيقه على أصول الشرع ، فإذا ثبت عنده بعد ذلك صحته أخذ به ، وهذا يدل على أنه قد بلغ المرتبة العليا فى فهم القرآن والسنة وحكمة التشريع وأسراره .

السيد عفيفى

رأى الامام الغزالى فى مدعى التصوف

لم يمتحنا بما تعيا العقول به ... حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم

هكذا وصف العارف بالله البوصيرى الدين الإسلامى فى إجمال و إفهام ، فالإسلام من بين الأديان السماوية دين وضحت تعاليمه ، فليس بينها أصل غامض ، ولا فرع مبهم ، لا يقتضى فهمها والعمل بها إلا الفطرة السليمة والطبيعة الخالصة من شوائب الشهوة والعناد . كانت آياته تتلى على العربى الجلف فى شعاب الجبال و بطون الأودية ، فتملك عليه نفسه وعقله ، ويلبى دعوة الله مخلصا

ولعل هذا المعنى من أنجع العوامل وأنجحها فى الدعوة إليه ، وجذب النفوس نحوه ، فهو فى واقعه وحقيقة أمره ، دين خوطب به العامى كما خوطب به الفيلسوف . على أنه ابتلى قديما وحديثا بأناس نحلوه دعاوى كاذبة ، وألصقوا به تعاليم باطلة ، صادفت هوى فى نفوس المتبطلين فدأبوا على نشرها وترويجها حتى كدرت من صفائه ، ونالت من بهائه ، تلك هى دعاوى الجذب والشطح التى يتظاهر بها مدعو التصوف من أهل البطالة ، الذين ثقلت نفوسهم بتكاليف الإسلام الصحيحة ، وأعرضوا عن فهم عقائده الحقة ، وأعجزهم كسب العيش من وجوهه المشروعة ، حتى استشرى شرهم ، وتفاقم خطبهم ، وحاول كثير من أولى الأمر بشتى الوسائل ردعهم فلم ينجحوا فى استئصالهم ، ولازالت جمهرة من المسلمين تؤمن بدجلهم وتهاب مكانهم ، وتحسن الظن بأحوالهم ، بل ما زال بعض الخاصة يؤمن بقداستهم ويعتقد فيما يدعون من أنهم أحباب الله وأصفياؤه ، وأنهم فى مقامات الوصول رفعت عنهم التكاليف وأزيلت دونهم الحجب !

وإن مما يؤلم الغيور على الاسلام ويجرح عاطفته الدينية ، أن هؤلاء المتمخرقين قد يتخذهم دعاة السوء ورسل الشر من الأجانب عنوانا على الدين الاسلامى ، ويقدرون أثره فى نفوس أتباعه بما يظهره أولئك الدجالون من سوء فى القول والفعل واللباس والطعام ، وقد يلتقطون لهم صورا شمسية فى هيئات مزرية يتوسلون بها الى غاياتهم الدنيئة ، وهى تشويه جمال الاسلام وتصويره أمام الراغبين فيه بأبشع الصور ، ونعته بأقبح الأوصاف .

ولقد تنبه لخطر تلك الطائفة على الدين كثير من أهل النظر والغيرة ، وكان أقدرهم على تصوير خطرهم رجل ابتلى بهم وبلاهم ، ومنحه الله بسطة فى العلم وقدرة فى البيان : ذلك هو الامام الغزالى ؛ وحرصا على حسن بيانه ولطيف معناه ، وخروجا من تهمة الكذب ، أسوقه الى القارئين الكرام دون تحوير . قال الامام الغزالى فى إحياء علوم الدين :

« وأما الشطح فنعنى به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية :

« أحدهما الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى ، والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة ، حتى ينتهى قوم الى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب ، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب ، فيقولون : « قيل لنا كذا وقلنا كذا » ، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذى صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله : أنا الحق . وبما حكى عن أبى يزيد البسطامى أنه قال : سبحانى سبحانى ؛ وهذا فن من الكلام عظيم ضرره فى العوام ، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم ، وأظهروا مثل هذه الدعاوى ؛ فان هذا الكلام يستلذه الطبع ، إذ فيه البطالة من الأعمال ، مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ، ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة . ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدل ، والعلم حجاب ، والجدل عمل النفس ؛ وهذا الحديث لايلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق . فهذا ومثله مما قد استطار فى البلاد شرره ، وعظم فى العوام ضرره ، حتى من نطق بشىء منه فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة . وأما أبو يزيد البسطامى رحمه الله فلا يصح عنه ما يحكى ، وإن سمع ذلك منه فلعله كان يحكيه عن الله عز وجل فى كلام يردده فى نفسه ، كما لو سمع وهو يقول : إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، فانه ما كان ينبغى أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية .

« الصنف الثانى من الشطح : كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة ، وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل ، وذلك إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط فى عقله وتشويش فى خياله ، لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه ، وهذا هو الأكثر ؛ وإما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ضميره ، لقلة ممارسته للعلم ، وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعانى بالألفاظ الرشيقة ؛ ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ، ويدهش العقول ، ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منها معانى ما أريدت بها ، ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : « ما حدث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم » . وقال صلى الله عليه وسلم : « كلموا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله » ؟ وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع ، فكيف فيما لا يفهمه قائله ؟ فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره . وقال عيسى عليه السلام : « لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولاتمنعوها أهلها فتظلموهم . كونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء فى موضع الداء » . وفى لفظ آخر « من وضع الحكمة فى غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم ؛ إن للحكمة حقا ، وإن لها أصلا ، فأعط كل ذى حق حقه » .

ذلك هو نص كلام الغزالى ورأيه فى مدعى التصوف ؛ وللامام الغزالى مكانة بين المسلمين نرجو أن تلفت نظرهم الى تفهم كلامه والعمل به ؟

أبو الوفا المراغى

هل من فلسفة اسلامية ؟

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ مدير هذه المجلة معلقا على ما نشرته لى مجلة الأزهر فى عددها الأول لسنة ١٣٦٠ ه بعنوان « الفلسفة بين الوجود والفكر » ولكن لا ليرد عليه ، بل لأن مجلة الأزهر ترى من واجبها تنبيه قراءها الى ما فى بعض المذاهب الفلسفية من ضعف و « تهافت » إذا عرضها بعض الكتاب على صفحات هذه المجلة باسم الفلسفة . « ونحن ـ يقول حضرته ـ حين نقدم لقومنا ثمرة ما حصلناه من العلوم والفلسفة لا يجوز لنا أن نقدمها إلا « محاطة » من النقد والتمحيص والتفلية ، فإن المسلمين بما طولبوا به من إقامة مبدأ التثبت عملا بقوله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » ، لا ينبغى أن تحمل اليهم المعلومات إلا محاطة بوسائل التثبت والنقد لكى يستطيعوا أن يستصفوا منها اللباب المحض فيأخذوا به ، أو يتميزوا الظنى المرجوح فيعرفوه ولا يغتروا به . وقراء هذه المجلة ـ مجلة الأزهر ـ الذين يستنزلون المعرفة الحقة من ناحيتها ، لهم الحق فى هذا الاحتياط نفسه . لو سرنا على هذا السمت خدمنا المسلمين وقراء مجلة الأزهر خدمة تؤتى ثمراتها اليانعة مباركة موفورة ، وحميناهم من نفاية الآراء الضالة التى قد تبقى مادة للدراسة مدة طويلة قبل أن تأخذ طورا جديدا . . . ص ٥١ ، ٥٢ » .

***

وتعليق الأستاذ الكبير على كلمتى باسم هذه الغاية يفهم منه أن كلمتى كانت :

(١) تمثل مذهبا فلسفيا ، ومذهبا فلسفيا باطلا .

(٢) ثم يوحى هذا التعليق كذلك بأنه كان يجب علىّ ـ كعالم أزهرى أولاً ، وكمشتغل بالفلسفة ثانيا ، وكمبعوث للازهر فى أوربا لغرض خاص أهمه معرفة الدفاع عن الدين ثالثا ـ على الأقل أن أشارك المجلة فى غرضها ، فلا أدع الكتابة فى ناحية فلسفية إلا محاطة بوسائل التثبت والنقد ليستخلص منها المسلمون اللباب المحض . . .

وفعلا تضمن تعليق عزته :

(١) التساؤل عن وجود فلسفة إسلامية .

(٢) ودحض ما صوره ، لنفسه ، مقالى « من مذهب فلسفى مادى وماله من نزعة إلحادية دلت المكتشفات الحديثة على تدهوره وسقوطه » .

(٣) و تحديد الغاية للكاتب فى الفلسفة ، و بعبارة أدق تحديد الغاية الصحيحة للتفلسف .

***

١ — تساءل حضرته عن وجود فلسفة إسلامية ، ثم ذكر « أنه لاتوجد فى الاسلام فلسفة مستمدة من الخارج يمكن أن توصف بالدينية أو الاسلامية ... وعليه إذا اعتبرت الفلسفة القديمة عتيقة رثة فلا يصيب الاسلام — من هذا الاعتبار — شىء . ص ٤٧ » .

والمعروف فى تاريخ الفلسفة أن الفلسفة (١) الدينية شىء آخر غير ما فى مصدر الأديان ، وأنها فقط عنوان على تراث الإغريق الفلسفى الذى اشتغل به رجال الدين . ومن اسم الدين الذى ينتمى اليه هؤلاء الرجال يشتق مؤرخو الفلسفة وصفا لما اشتغل به ذلكم فى تراث الاغريق من تنظيم أو شرح ، أو تعديل بحذف أو تأويل ، حتى لا تبدو معارضة للدين . فيقال الفلسفة المسيحية ، ويعنون بها مؤرخو الفلسفة مسائل الفلسفة الاغريقية التى اشتغل بها علماء المسيحية ، ويقال الفلسفة اليهودية ، ويقصدون بها أيضا مسائل الفلسفة الاغريقية ذاتها التى اشتغل بها علماء اليهود ، ويقال الفلسفة الاسلامية ، ويريدون بها كذلك تلك المسائل بالذات التى اشتغل بها نفر من علماء المسلمين .

فالفلسفة الدينية واحدة فى جوهرها عند مؤرخى الفلسفة . وتنوعها بين مسيحية ويهودية وإسلامية لاختلاف المذاهب الدينية التى كان ينتمى اليها ذلكم العلماء ، الاختلاف الذى من شأنه أن يجعل تغايرا فى كيفية التعديل أو الشرح للمسائل الاغريقية . وكثيرا ما تسمى الفلسفة الاسلامية بالفلسفة العربية . فليس ملحوظا فى هذه التسمية على الاطلاق صلتها بالدين نفسه .

والاحتمال إذاً الذى نفاه حضرة مدير المجلة « لمدلول الفلسفة الاسلامية » احتمال يعرض لهذا التعبير لا من حيث هو اصطلاح معروف لمؤرخى الفلسفة ولقراء الفلسفة والمتصلين بالثقافة الفلسفية .

٢ — ذكر حضرته أن ما كتبته ونشرته المجلة فى عددها السابق صحيح من حيث هو تصوير للمذهب المادى ولنزعته الفلسفية الالحادية . وبناء عن فهم هذا التصوير رأى حضرته أن يكشف عن ضعفه ... ليعين المسلمين على التثبت الوارد فى قوله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

وهذا غرض دينى نبيل فى ذاته . ولكن كلامى كما يبدو من عرضه لا يصور إلا تاريخا لتحول التفكير الفلسفى ، وتحول عناية الفكر الإنسانى من موضوع الى موضوع فى عصر من العصور لعوامل دعت الى هذا التحول .

فذكرت أن الفكر الإنسانى فى بدء تفلسفه كان يعنى ببحث الوجود وبحث ما وراء الطبيعة ، وكانت فلسفته لهذا فلسفة ميتافيزيكية . والعامل المشترك الذى حمل على بحث الوجود

---

(١) وهى غير فلسفة الدين

فى كل مدة بحثه (من قدماء اليونان الى آخر القرون الوسطى) طبيعة الثقافة فى ذلك الوقت — والثقافة من أهم عوامل تكوين الفلسفة — فثقافة الإغريق كانت الى حد كبير دينيــة ، وثقافة رجال الدين (منذ الميلاد الى عصر النهضة) كانت بطبيعة الحال كذلك دينية . وشأن الدين - أيا كانت قيمته - أن يعنى أولا وبالذات بتوجيه النظر الى ما وراء الطبيعة ؛ الى موجد الـكون . وليس ذلك العامل هو التدين إذ لم يعرف التدين لفلاسفة الاغريق ؛ لمنشئى المدارس الفلسفية المختلفة حتى عصر النهضة .

ثم ذكرت أن البحث الفلسفى منــذ عصر النهضة تحول الى بحث الطبيعة ، وعللت هــذا التحول بخشية الباحثين من تعقب رجال الـكنيسة ، إذا بحثوا فيما وراء الطبيعــة وخالفوهم فى رأى من آرائهم ؛ وكذلك برغبة الباحثين فى أن يصلوا فى أبحاثهم الى يقين ترتضيه التجارب والتحـديدات الرياضية . وليست هذه الرغبة بمحققة فى بحث ما وراء الطبيعة ، لأن ما وراء الطبيعة أوسع من محيط تفكير الإنسان فضلا عن أن يخضع لتجاربه . — وليس عامل التحول هنا (كما لم يكن عامل توجه الفكر هناك هو التدين) هو عداوة الدين أو نزعة إلحادية . وإن احتمل أن يكون أيضا كره رجال الـكنيسة وعـدم الخضوع لتعاليم الـكنيسة ، كفكرة الخلافة فى السلطان عن الرب ، وفـكرة صكوك الغفران . . . ولـكن رجال الـكنيسة ليسوا هم حواريى عيسى ، وتعاليم الـكنيسة فى القرون الوسطى ليست هى المسيحية (١) — .

وإذا كان هذا التحول فى البحث عن « ما وراء الطبيعة » الى « الطبيعة » نفسها يحدد لنا بإيجاز المذهب الطبيعى Naturalism وهو محـاولة شرح الطبيعة من الطبيعة ذاتها ، فلا يصور لنا لا فى قليل ولا كثير المذهب المـادى Materialism لأن هذا المذهب له نواح ثلاث :

(أ) الناحية النظرية : وهى ناحية ميتافيزيكية تحاول شرح الطبيعة من ما وراء الطبيعة — على النقيض من المذهب الطبيعى — ؛ هى ناحية تفرض وجود شىء مستقل Substantia نشأ عنه هذا العالم ؛ هذا الشىء المستقل فهمه ديموقريط وإبيقور من فلاسفة الإغريق على أنه نوعان من المـادة : نوع غليظ وهو أصل الأجسام ، ونوع دقيق وهو أصل النفوس . وفهمه هوبز Hobbes ولاماترى Lamettrie وبوخنر Buchner من الفلاسفة المحدثين على أنه فى جوهره واحد وهو أصـل الأجسام . أما الظواهر النفسية والعقلية فى نظرهم فخاصة من خواص الأجسام أو أثر من آثارها .

---

(١) هيجـل الفيلسوف القسيس الالمـانى أبان فى محاضراته عن فلسفة الدين فى جامعة هيـدلبرج ضروبا كثيرة من التفرقة بين تعاليم الـكنيسة فى القرون الوسطى والمسيحية . ومن أشهر هذه الفـروق نسبته الى المسيحية مبدأ الوحدة فى التاليه .

ويسمى فهم فلاسفة الاغريق للمذهب المادى بالمذهب المادى الثنائى ، وفهم غيرهم من المحدثين بمذهب الوحدة للمادة .

(ب) والناحية العلمية (الأخلاقية) : وهى حصر الغرض من الحياة الانسانية فى التمتع بالملذات الحسية ، واحتقار القيم المثالية .

(ج) والناحية التاريخية : وهى اعتبار الجانب الاقتصادى فى الحياة هو الأساس المحدِّد لمصير المدنية حتى للثقافة العقلية .

على أن بعض فلاسفة المذهب المادى منذ القرن الثامن عشر أمثال هول باخ Holbach (الفيلسوف الألمانى المتوفى سنة ١٧٨٩ م) ولينين Lenin (الفيلسوف الروسى المتوفى سنة ١٩٢٤) قد نحا بالمذهب المادى فى شقه النظرى ناحية أبعد عن الفهم الحسى الساذج من أن هناك شيئا مستقلا اسمه المادة نشأ عنه الكون وما فيه من أجسام ونفوس . فالمادة فى نظر هذا البعض ليست إلا كلمة ـ وتعبيرا ـ تدل على معنى الوجود كما يبدو لنا فى أجزاء الكون وحوادثه ، وكما يتضح لنا هذا الوجود بالمعرفة شيئا فشيئا .

فالمذهب المادى إذاً فى جزئه النظرى ـ وهو الذى يمكن أن يفهمه رجال الدين أو مدافعو الدين على أنه يتعارض مع الدين — مذهب ميتافيزيكى . وأنا فيما ذكرته فى تصوير البحث الميتافيزيكى حتى عصر النهضة لم أتعرض الى التحديدات المختلفة للفلاسفة فيما عساه فيما وراء الطبيعة أن يكون علة للطبيعة والكون حتى أكون قد أشرت الى المذهب المادى جملة فضلا عن تصويره .

(٣) قصد حضرته أيضا من محاولة هدم المذهب المادى Materialism بعرض آراء أمثال المؤرخ جوستاف لوبون ، ومن ترجيح المذهب الروحى Spiritualism نصرة الدين من جهة الفلسفة : « فلنتخلص من فتنة الآراء الضيقة ولنستقبل علما أرفع وفلسفة أوسع نستشرق منهما نور الحق « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » ص ٥٢ . وبهذا يحدد مهمة التفلسف أو مهمة كاتب الفلسفة .

وهذا غرض دل تاريخ تفلسف الدين ، أو تاريخ اشتباك الفلسفة مع الدين لخدمة هذا الأخير ، ودلت بسيكولوجية الدين الحديثة ، على أنه غرض يسىء — من غير قصد — الى العقيدة فى الصميم . إذ تفلسف العقيدة ، فضلا عن أن يعقدها ويقلل من قداستها ، يعرضها للتقلب فى نظر البحث بين الصحة والخطأ . لأن الآراء الفلسفية نفسها التى تعالج الموضوع الذى يعالجه الدين — وهى الآراء الفلسفية الإلهية — والتى تجذب أحيانا لغاية تأييد الدين ، عرضة للتبديل والتغيير ، وموضع للتخطئة والتصويب .

وما أحكم نظر (كانت) إذ يقول : « لندع القول فيما وراء الطبيعة للدين فلسنا بقادرين على أن نأتى فيه بيقين » . وما أحكم نظر ماكس شيلير Max Scheler (الفيلسوف الألمانى المتوفى سنة ١٩٢٨) إذ يقول : « للدين قيمته واعتباره فيما يحكيه عن الله ، وللفلسفة قيمتها واعتبارها فيما تحكيه عن الانسان » .

إن محاولة الاستدلال على صحة العقيدة الدينية فى الله من طريق الفلسفة ظاهرة من ظواهر عدم الثقة باستقلال العقيدة فى وجودها بذاتها .

لندع عاطفة الانسان الدينية فى قوتها وحرارتها ، فإن وضع العقيدة موضع النقاش والنقد إضعاف لقوة الإيمان بها .

***

وأخيرا يطلب النقد العلمى الحديث ، إذا أريد إبطال رأى فلسفى أو تأييد رأى آخر ، أن يلجأ الكاتب الى الفلسفة ذاتها . ومعنى ذلك أنه فى حل من أن يلجأ الى الدين فى إبطال المذاهب الفلسفية أو تأييدها ، ولكن فقط تحت عنوان دينى وليس باسم الفلسفة . . فالمزج لم يعد وسيلة من وسائل البحث العلمى الحديث ، وإن بقيت له قيمته فى نظر الشعب والجمهور .

والإمام الأكبر المراغى ، وهو قائد نهضة الأزهر الدينية والعلمية ، فى مناقشة رسالة « العرف » للشيخ أحمد فهمى أبى سنة بدار كلية الشريعة فى ٢٠ يناير سنة ١٩٤١ ، قد حدد شعار البحث فى الأزهر الجديد : وهو الفصل بين القيم الذاتية ، لأنه أقر التفرقة بين الفقه الاسلامى والدين ؟

محمد البهى
مدرس علم النفس والفلسفة
بكلية أصول الدين

الفلسفة بين الوجود والفكر

رأى حضرة الأستاذ الدكتور محمد البهى أن يلاحظ على ما كتبناه تعقيبا على ما نشره تحت العنوان السابق فى العدد الماضى ، وقد نشرت ملاحظاته ورأيت التعقيب عليها ، لا إيثارا للجدل ، ولكن لأن فى تعيين الأسلوب الأكمل فى مزاولة الفلسفة فى هذا العصر ، حدا فاصلا بين الأوهام وإن دعيت بالفلسفة ثلاثين قرنا متوالية ، وبين الحقائق العلمية التى تجلت فى هذا العهد ، لا سيما ونحن هنا فى طليعة نهضة ثقافية يجب أن نجردها من كل ما يلابسها من أضاليل سابقة .

يشهد كل من اطلع على ما كتبت أنى تجردت للموضوع ولم أمس ما عداه ، وسأسلك فى هذا التعقيب ذلك السمت نفسه فلا أجاوزه ، ولذلك لا أناقش فى غيره مما سمح لنفسه به حضرة الدكتور من العبارات .

بدأ الأستاذ ملاحظاته بتقرير أن الغرض من إطلاق كلمات يهودية ومسيحية وإسلامية على الفلسفة ، هو تعيين ما اشتغل به من الفلسفة الاغريقية أصحاب هذه الأديان الثلاثة . والذى أراه أنا أن هذه التسمية لا تصح ، وخاصة فى معرض الكلام على الفلسفة عند المسلمين . وكل ما قرأناه فى كتب الفرنجة أنهم يعبرون عن هذه الفلسفة بقولهم : (الفلسفة عند العرب) La philosophie chez les Arabes ، وقد أردفوا ذلك بقولهم : إن عناية المسلمين بالفلسفة كانت قليلة فليس لهم فلسفة مستقلة .

ثم قال حضرته ما خلاصته :

« إن كلامى لا يقصد منه إلا تصوير تاريخ تحول التفكير الفلسفى من البحث فيما وراء الطبيعة ، الى البحث فى الطبيعة ، وكانت ثقافة الإغريق والأوروبيين الى عصر النهضة دينية ، وشأن الدين أن يعنى قبل كل شىء بتوجيه النظر الى ما وراء الطبيعة ، الى موجد الكون . وعللتُ هذا التحول بخشية الباحثين من تعقب رجال الكنيسة إذا خالفوهم فى رأى مما وراء الطبيعة ، وبرغبة الباحثين فى أن يصلوا بأبحاثهم الى يقين ترتضيه التجارب والتحديدات الرياضية (؟) ، وليست هذه الرغبة بمحققة فى بحث ما وراء الطبيعة ، لأنه أوسع من محيط تفكير الانسان ، فضلا عن أن يخضع لتجاربه(؟). وليس عامل التحول هنا هو عداوة الدين أو نزعة إلحادية ؛ ولا يصوِّر هذا التحول المذهب المادى ، لأن هذا المذهب له نواح ثلاث : نظرية ، وعلمية ، وتاريخية ، وفى هذه النواحى يتعارض هو والدين ؛ ولكننى فيما ذكرته لم أتعرض للتحديدات المختلفة للفلاسفة فيما عسى أن يكون علة للوجود ، حتى أكون قد أشرت الى المذهب المادى جملة فضلا عن تصويره . فهذا المذهب هو الذى يتهمه رجال الدين بأنه يناقض الدين . وأنا فيما ذكرته لم أتعرض الى التحديدات المختلفة للفلاسفة فيما عساه أن يكون علة للطبيعة والكون حتى أعتبر أنى قد أشرت إليه فضلا عن تصويره » .

وأنا أعقب على هذا بقولى :

الفلسفة من المحاولات العقلية التى لا يمكن وضع تعريف جامع لها . جاء فى المعجم الفلسفى للأستاذ جوبلو Goblot قوله : « لما كان لكل مذهب فلسفى وجهة نظر خاصة فى تحديد الفلسفة ، وعلاقتها بالعلوم وبالحياة ، فانه من المحال أن يعطى لهذه الكلمة تعريفا يصح عليها جميعا » انتهى .

ولكن للفلسفة من ناحية عامة معنى مستقرا فى وجدان الناس ، وقد عبرت عنه دوائر المعارف بقولها : « الفلسفة إلمام عام بالكائنات والأصول والأسباب »

كذلك انقسمت الفلسفات الى مذاهب شتى من حيث وجود أصل حيوى عام مستقل عن المادة، أو عدم وجوده ، وظهور الحياة فى الأحياء كثمرة للتفاعلات الكيماوية . هذه المذاهب يجمعها اسمان عامان : المذهب المادى والمذهب الروحى . Matérialisme et Spiritualisme . فالأول يقول بوجود كائنات غير مادية . وفسر المعجم الفلسفى هذه الكائنات بقوله : « إنها لا تقع تحت سلطان الحواس وليس لها صورة ولا حجم ولا حيز الخ ؛ منها مذهب ديكارت فانه كان يقول بوجود نوعين من الكائنات ، أولهما مادى والآخر روحانى ؛ ومنها مذهب لبنتز ، ومذهب باركلى ، وكانا لا يسلمان بوجود صحيح إلا للكائنات الروحانية »

وقد اعترف الدكتور البهى نفسه فى مقدمة بحثه ، بأن الفلسفة لا يحدها تعريف واحد . ثم عاد فقال : « إنها ترجع الى موضوعين أساسيين : الوجود والفكر » وانتهى من ذلك الى القول بأنه « قد تحول البحث فى الفلسفة عما وراء الطبيعة الى الطبيعة نفسها ، وعن علة الكون الى الكون نفسه »

ثم قال : « ولا شك أن نتائج البحث النظرى فى الإلهيات تبعد كثيرا عما يطلبه المقياس العلمى الحديث . فتعرُّض الباحث لها — على أنها الأهم كما كان الحال فى القديم — حكمٌ منه على نفسه بالعزلة عن بيئة الوقت العلمية ، وعن موضوع التنافس فى البحث . ولذا رأى (كانت) أن اختصاص الفلسفة كعلم ، هو الناحية العملية وتحديد الحياة الواقعة . أما القسم الالهى فان بحثنه فلا يحق لها أن تطلب لهذا البحث صفة العلم اليقينى » انتهى .

فاذا كانت الفلسفة فى قسميها العامين لا يمكن أن تخرج عن كونها إما روحية كمذهب ديكارت وسبينوزا ولبنتز وباركلى وغيرهم ، وعدد لا يحصى من أئمة الفلاسفة المحدثين وعلى رأسهم العبقرى (هنرى برجسون) Bergson الذى توفى فى الشهر الماضى ؛ وإما هى فلسفة مادية لا تعتد بغير البحث المادى ، ولا تتلمس فى تعليلاتها للحياة والعقل والروح الانسانية غير العلل المادية ؛ قلنا إذا كانت الفلسفة لا تخرج عن هذين القسمين ، فأين يصح أن توضع الفلسفة التى يكتب عنها الدكتور البهى والتى قطع صلتها بما فوق الطبيعة ؟

يمكن أن يقال إنها لا توضع فى واحد منهما ، لأنها اختارت لنفسها خطة مستقلة تجرى عليها فى البحث عن الحقائق غير متقيدة بصبغة معينة .

نقول : هذا كان يصح لو لم تقيد نفسها بأصول مذهبية مقررة ، وتحد للآخذ بها مجال البحث تحديدا لا يسمح له بتخطيه ، فاذا كان الدكتور البهى يتنصل من تصوير المذهب المادى محتجا بأنه لم يتعرض للتحديدات المختلفة للفلاسفة ، فأى تحديد أشد من قطع الصلة بين

الفكر الانساني وعالم ما وراء الطبيعة ، وبينه وبين علة الكون ، وحصر التفكير كله فى الطبيعة المادية ؟ أليس فى قطع هذه الصلة تأكيد ضمنى بأن ليس وراء الطبيعة شىء يمكن التحسس منه ، ولا للبحث فى علة الكون موجب يوجبه ، بعد ما تبين أن الوجود قائم بذاته ، ولا يحتاج فى قيامه الى قيوم فوقه ؟ أليست هذه ميتافزيكا أشد تطرفا واستبدادا من ميتافيزكة هوبس ودلامترى وبوخنر ؟

ومن ناحية أخرى :

إن مقالة الدكتور البهى تصلح أن تصوِّر نزعة لفلسفة معينة ، أكثر مما تصلح أن تكون مدخلا على الفلسفة على وجه عام ، فقد ذكر الاستاذ فى أول كلامه أن الفلسفة لا يحدها تعريف واحد ، وليس لها ضابط عام الخ ؛ وكل الناس يعرفون أن الخلافات فى المبادئ والأصول الفلسفية لا تقف عند حد ، وخاصة فى العصر الحاضر ، وأن من المخالفين للمذهب الذى يقطع الصلة بما فوق الطبيعة رجالا يعتبرون من أرقى من أنجبتهم الانسانية ، لا يقطعون الصلة فى الفلسفة بمافوق الطبيعة ، ويرون لهذه الصلة ضرورة عقلية وعلمية ؛ فهل نغفل ذكر مذاهب كل هؤلاء الفحول فى عرض ذكر الفلسفة ، ونكتفى بذكر مذهب واحد من أشد المذاهب المادية تطرفا ، فيتوهم القارئ أن الفلسفة قد تأدت على وجه عام الى هذه البيئة القاحلة ؟

يقول الدكتور البهى فى بيان مؤدى هذا المذهب : « إن نتائج البحث النظرى فى الإلهيات تبعد كثيرا عما يطلبه المقياس العلمى الحديث » . والذى أفهمه أنا منه أن مؤسسه الأوروبى يقصد بالبحث النظرى فى الإلهيات مسائل ما يسمونه عندهم بعلم التيولوجيا ، وهى مسائل كهنوتية متشعبة مبنية على الآراء والظنون والنُقول ، لا مجرد القول بوجود خالق مدبر للكائنات لا تدركه الأبصار ، وتعجز عن فهم كنهه العقول . لأن المقياس العلمى الحديث لم يأب الاعتراف بالأثير كافتراض علمى لا بد منه لإمكان تعليل أكثر الظواهر ؛ والأثير لم يره أحد ، ولا يعقل توافر صفاته فى شىء من الأشياء . فالذين لم يأنفوا أن يفترضوا ما لم يروه ، وأن ينحلوه صفات لا تعقل ، ليتوصلوا بذلك الى تعليل بعض الظواهر الطبيعية ، لا يجوز لهم أن يعتبروا البحث فى وجود قدرة أزلية حكيمة بعدا عن المقياس العلمي الحديث .

أما قول (كانت) إن اختصاص الفلسفة كعلم لا يجوز أن يدخل فيها القسم الإلهى ؛ فهو قول لا غبار عليه ، ولكن من ناحية اعتبار الفلسفة علما ، لأن العلم لا يصح إلا بالتجربة ، والإلهيات غير مادية لا تخضع للتجربة . فتحصيل اليقين بالإلهيات من فلسفة منتحلة اسم العلم غير ممكن لهذا السبب .

ولكن اعتبار الفلسفة علما أو انتحال الفلسفة مهمة العلم ، قد انقضى زمنه منذ قرون ، بعد وضع (بيكون) Bacon الدستور العلمى ، وبعد تحديده مناطق النشاط العقلى ، وتسمية

كل منطقة باسمها الحقيقى . فليس فى عصرنا الراهن من يطلق كلمة فلسفة على العلم . فالعلم يبحث فى الكائنات التى تقع تحت الحس وتتناولها التجربة ، وأما الفلسفة فتنظر فى مقررات العلوم نظرة إجمالية ، وتستخرج منها بأدواتها من الاستقراء والاستدلال والاستنتاج والتحليل والتركيب ، معرفةً عامة عن الوجود والموجودات والأصول والعلل .

وللفلسفة طريق مَهْيع يعرفها فيلسوف كونيجسبرج الكبير (كانت) تأدى من طريقها الى درجة اليقين بالخالق الحكيم ، والى وجود الروح وخلودها بعد الموت .

وهل الفلاسفة الذين بلغوا درجة اليقين من هذه العقيدة ، ويعتبرون من أكبر أقطاب الفلسفة العصرية ، وصلوا اليه إلا من طريق النظر العقلى ، والاستدلال المنطقى ؟ ألا توجد مبادئ عقلية ضرورية هى فى تحصيل اليقين فى مثل قوة الحس بل أشد ؟

وإذا كانت الفلسفة تبرأ من الذين يتأملون فى الكون ، لتعرُّف علة الوجود فى عالم ما وراء الطبيعة ، فأى أداة ترجى بعدها لتحصيل حكم يثلج عليه الصدر إثباتا أو (نفيا) فى هذه المسألة ؟

أليس تجريد الفلسفة من النظر فيما فوق الطبيعة يعتبر بعد هذا من تعاليم الماديين الأقحاح ، والفلسفة التى تقول به تعتبر مادية متطرفة ؟

تفلسف الدين يضر أكثر مما ينفع !

قال الدكتور البهى ما ملخصه :

« قصد حضرته (يعنينى) هدم المذهب المادى بعرض آراء أمثال المؤرخ جوستاف لوبون لنصرة الدين من جهة الفلسفة . ثم قال (يعنينى أيضا) : فلنتخلص من فتنة الآراء الضيقة ، ولنستقبل علما أرفع ، وفلسفة أوسع ، نستشرق منهما نور الحق . وبهذا يحدد (يريدنى كذلك) مهمة التفلسف أو مهمة كاتب الفلسفة . وهذا غرض دل تاريخ اشتباك الفلسفة مع الدين ، ودلت بسيكولوجية الدين أنه يسىء الى العقيدة فى الصميم الخ الخ » .

ونحن نقول :

إننا بما قلناه لم نرد تحديد مهمة الفلسفة ولا مهمة كاتبها ، وكيف نُتهم بذلك ونحن القائلون فيما كتبناه فى ملاحظاتنا : « علينا أن نمضى مع العلم والفلسفة حيث مضيا ، وأن نجول معهما حيث جالا ، ولكن لا يجوز لنا أن نقف معهما حيث وقفا من تعاليم هما نفساهما يعتقدان أنها وقتية ، بعد ما بلغا رشدهما ، وتحققا أن الوجود حافل بالمجهولات ، وأن اكتشافا جديدا قد يُحدث فيهما انقلابا ما كان يخطر على قلب أو سمع الناس تخيلا » .

فقولنا : علينا أن نمضى مع العلم والفلسفة حيث مضيا ، وأن نجول معهما حيث جالا ، معناه أن لا نضع فى سبيلهما العراقيل ، وأن ندعهما حرين فى مجاليهما ، فكيف نُتهم مع هذا

بأننا نحدد للفلسفة مهمتها أو مهمة كاتبها ؟ لا محل لهذا الاتهام ، ولكننا ننصح مزاولها أن لا يقف معها حيث وقفت من تعاليم هى نفسها تعتقد أنها وقتية بعد ما بلغت رشدها . فهل نلام على هذا الاحتياط الذى أصبح شعار أهلها وأهل العلم فى هذا الزمان الأخير كما رأيت ؟

يقول الدكتور البهى : إنى سلكت هذا المسلك لنصرة الدين ، على حين أنى لم أذكر الدين فى كل ما كتبت ، وإنما ذكرت العقل والتبصر والاحتياط وعدم الانخداع بالمعلومات المؤقتة ، واستشهدت بأقطاب العلم العصرى على ضرورة وقوف هذا الموقف إزاء جميع المقررات العلمية والفلسفية . وقد حاول الدكتور البهى أن يحط من أقدار هؤلاء الأقطاب كأنهم أتوا أمرا إدًّا ، فوصف أولهم بأنه مؤرخ ، وأن الباقين من أمثاله . والواقع أن الدكتور جوستاف لوبون فيلسوف وطبيعى كبير ، واليه يرجع الفضل فى تحليل المادة وإحالتها الى قوة ، وهو أكبر اكتشاف علمى حدث فى القرن العشرين . وأن مارى جان جويو من أشهر الفلاسفة المعاصرين ، وقد اشتهر كتابه (لا دينية المستقبل) فى العالم كله . أما سبنسر فأشهر من أن يذكر ، وكذلك العلامة الكبير هنرى بوانكاريه ، الرياضى الجليل وعضو المجمع العلمى الفرنسى . فهؤلاء أئمة عالميون ليس فى المشتغلين بالعلم والفلسفة من يجهلهم ، وهم ليسوا متدينين ولا من أنصار التدين ، ولم يقولوا شيئا يوجب السخط عليهم ، فهم وعدد لا يحصى من أمثالهم الأقطاب يبينون خطر الانخداع بالعلم والفلسفة ، ويهيبون بالناس الى استقبال عهد جديد لهما ، وهذا لا يتأتى حدوثه إلا بعد تحطيم الأوهام المحيطة بهما . فهل أساؤا هم وأسأنا نحن فى وقوفنا هذا الموقف المشرف للعقل الانسانى ، والمبشر بفتوحات عظيمة فى العلم والفلسفة ؟

يقول الأستاذ البهى : إن اشتباك الفلسفة مع الدين يسىء الى العقيدة فى الصميم . ومعنى هذا أن الدين لا يقوى على منازلة الفلسفة ، فاذا حدَّث الدين نفسه بذلك أصيب فى الصميم .

وأنا مع عدم ذكرى للدين فيما كتبت ، ومع عدم تحاملى على الفلسفة إلا من الناحية التى يحمل عليها منها الأقطاب الذين أفاقوا من غرورها القديم ، أحب أن أرى كيف تصبح فلسفة أساسُها العقل والعلم والدليل ، خطرة على دين أساسه العقل والعلم والدليل ؟

على أن القول الذى أتى به الدكتور البهى قرأناه كثيرا فى كتب الفلاسفة الماديين ، ولكنهم يوجهونه الى أديان ليس أساسها العقل والعلم والدليل ، وليس يتجه إلينا منه شىء ، فنحن على دين نفخر بأنه يقاوم كل حملة يمكن أن تحملها عليه أية فلسفة فى العالم ، ولولا ذلك لكنا شاكين فيه ، وقد خبرنا ذلك بأنفسنا ، فإن كان فى الأرض من يستطيع أن يعطينا مثالا من صراع دينى فلسفى ، يصاب منه الاسلام فى الصميم ، فليتفضل علينا به ، لنريه أنه واهم فيما يقول . ألا إن أخوف ما أخافه على المسلمين ، وخاصة على علمائهم ، أن يتسرب إليهم هذا الوهم من الفلسفة الى هذا الحد فلا يبقى لهم دين !

وقال الدكتور البهى : « إن محاولة الاستدلال على صحة العقيدة فى الله من طريق الفلسفة ، ظاهرة من ظواهر عدم الثقة باستقلال العقيدة فى وجودها بذاتها . لندع عاطفة الانسان الدينية فى قوتها وحرارتها ، فإن وضع العقيدة موضع النقاش والنقد إضعاف لقوة الإيمان بها ».

ونحن نقول :

إن الاستدلال على صحة العقيدة من طريق النظر والتأمل ، هى الوسيلة التى اتفق الفلاسفة والعقلاء قديما وحديثا على القيام بها . ولم يقل أحد من المفكرين إنها ظاهرة من ظواهر عدم الثقة باستقلالها ، بل لا يفهم هنا معنى لاستقلالها ووجودها بذاتها ، وهى ثمرة عقلية لا أقل ولا أكثر .

إن العقيدة مدرك عقلى يقوى ويضعف ويزول ككل مدرك عقلى آخر . وقد لجا أهل الأديان جميعا قديما وحديثا الى النظر والاستدلال لتحصيل العقيدة ، واتفق الفلاسفة القدامى والمحدثون على تسخير المنطق وقوى العقل فى هذه السبيل ، وزاد الدين الاسلامى على هؤلاء جميعا فطالب كل معتقد بالدليل ، حتى قال أصوليوه : إن إيمان المقلد غير جائز ؛ فهل لم يفطن كل هؤلاء الى أن هذا الجهاد العقلى منهم لتثبيت العقيدة ، ظاهرة من ظواهر عدم الثقة باستقلالها ؟ وما معنى استقلال العقيدة ووجودها بذاتها مقطوعة عن جميع وسائل التفهم والتعقل والتدليل ؟ وهل التفهم والتعقل والتدليل شىء غير الفلسفة الحرة من قيود الماديين ؟

الفلسفة لا تكافح إلا بفلسفة مثلها لا بالدين .

قال الدكتور البهى : « إذا أريد إبطال رأى فلسفى أو تأييده وجب أن يلجأ فى ذلك الى الفلسفة لا الى الدين » .

ونحن نقول : يشهد الله والناس أننا لم نلجأ فى يوم من أيام حياتنا فى مكافحة رأى فلسفى الى الدين . ألم ير نى الدكتور قد لجأت فى مكافحة ما كتبه الى آراء كبار الفلاسفة الأوربيين ، وهل فى كل ما كتبته ذكر الدين أو الى مخالفته للدين ؟

وإنى فى كل ما حاولته فى مؤلفات سابقة لى ، وأحاوله فى هذه المجلة ، أعمل على حماية الناشئة الاسلامية من الانخداع بكل ما يرد الينا محمولا فى كتب الدراسة من الآراء المضللة ، فى عهد وُضعت فيه جميع الآراء العلمية ، والمذاهب الفلسفية فى الميزان ، واعتُرف فيه بأن أبعد ما كان يُظن خلوصه من التجريح ، لا يخلو من عوج يجب تقويمه ، حتى لا يؤدى فيما يبتنى عليه الى انهيار شنيع .

هذه الحالة النفسية الجديدة للعلماء الأوربيين فضلا عن أنها لا يجوز أن تؤلمنا ، يجب أن تسرنا الى حد بعيد ، لأن ما نحصله بعد اليوم ، ونحن على هذه الحالة من الحذر ، والخلوص

من الانخداع ، يكون إما حاصلا على جميع ضمانات الحق اليقين ، وإما موسوما بطابع من الشك حتى يُفتح على الناس فيه بسلطان مبين .

أى موقف أولى بطلاب الحقائق ؟ أأن يعيشوا فيما يسمونه بالعلم والفلسفة فى ضلال يزيدهم كل يوم بعـدا عن الحق ، ودنوا من الباطل ، وتغلغلا فى العماية ، أم أن يحيطوا علما بحقيقة موقفهم فلا ينخدعوا به ، وخاصـة إذا كان هذا التثبت يقوم به اليوم أقطاب الفلسفة والعلم فى بلاد المتمدنين ؟

وإنى مختتم هذه الملاحظات بما اختتمت به الملاحظات السابقة وهو :

« علينا أن نمضى مع العلم والفلسفة حيث مضيا ، وأن نجول معهما حيث جالا ، ولـكن لا يجوز لنا أن نقف معهما حيث وقفا من تعاليم هما نفساهما يعتقدان أنها وقتية ، بعد ما بلغا رشدهما ، وتحققا أن الوجود حافل بالمجهولات ، وأن اكتشافا جديدا قد يُحدث فيهما انقلابا ما كان يخطر على قلب أوسع الناس تخيلا .

« ولم يأت على الناس عهد شهد العلم فيه على نفسه بالعجز ، واعترفت فيه فلسفته بالقصور ، مثل العهد الذى نعيش فيه ؛ فلنتخلص من فتنة الآراء الضيقة ، ولنستقبل علما أرفع ، وفلسفة أوسع ، نستشرق منهما نور الحق ، « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

محمد فريد وجدى

اعتـــــذار

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد البهى مقال جديد من سلسلة المقالات الفلسفية التى وعد بنشرها فى مجلة الأزهر ، اضطررنا الى إرجائه للعدد المقبل لضيق المقام ، وسننشره فى العدد المقبل . وقد اضطرنا هذا السبب نفسه لإرجاء نشر مقالنا فى السيرة المحمدية ومقالات أخرى جمعت حروفها ولم نجد لها مكانا فى هذا العـدد لضرورة نشر فتاوى جاءت متأخرة . فنعتذر لحضرات الـكرام الـكاتبين ، ونعدهم بنشر ما أرسلوه فى العدد المقبل ، إن شاء الله .

فى بلاغة القرآن

حدثتك فى حديث مضى عن بعض الأسرار البلاغية فى قوله تعالى : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين » . ولست أزعم أنى أشرفت على الأمد ، وأوفيت على معجزة الأبد فيما أفضت القول فيه « فان هذا أمر ضيق كثير الالتواء لمن تلمس جوانبه ، واقتحم مصاعبه ، وما أشبه القرآن فى تركيب إعجازه ، وإعجاز تركيبه ، بصورة كلامية عن نظام هذا الكون الذى اكتنفه العلماء من كل جهة ، وتعاوروه من كل ناحية ، وأخلقوا جوانبه بحثا وتفتيشا ، ثم هو بعد لا يزال عندهم على كل ذلك خلقا جديدا ، ومراما بعيدا ، وإنما بلغوا منه إذ بلغوا نزرا تهيأت لضعفه أسبابه ، وقليلا عـرف لقلته حسابه ؛ وبقى وراء ذلك من الأمر المتعذر الذى وقفت عنده الأعذار ، والابتغاء المعجز الذى انحط عنده قدر الانسان ، لأنه مما سمت به الأقدار » . وإنما الذى أستطيع أن أزعمه فى غـير ما خيلاء ولا تطاول ، أنى استطعت بتوفيق الله أن أتوسم هذه الآية على ضوء العلم الحديث ، وأن ألقى على هذا التشبيه المعجب الذى احتوته ، بصيصا من النور إخاله أضاء جوانبه ، وبين دقائقه ، وجعلها على أعين الناس لعلهم يشهدون أن هذا القرآن « لا تنقضى عجائبه » كما قال الصادق الأمين صلى الله عليه وسـلم ، وأن الـكلمة فيه ليست كما تكون فى غيره « بل وجه السمو فيها على الـكلام أنها تحمل معنى ، وتومىء الى معنى ، وتستتبع معنى ، وهذا ما ليس فى طاقة البشر ، وهو الدليل على أنه « كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

لقد جاء هـذا المثل العبقرى متمما للصورة البيانية الرائعة التى رسمهـا الله لمن أنفق ماله رئاء الناس ، وهو غير مؤمن : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتـكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليـه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلدا ، لا يقدرون على شىء ممـا كسبوا » ، فإنه سبحانه لمـا ضرب مثل من أنفق ماله رئاء الناس وهو غير مؤمن ، ذكر ضـده بتمثيل محسوس للذهن ، كى يتصور السامع تفاوت ما بين الضدين ، ويختار لنفسه أنسب الأمرين ، وأطيب المنزلتين ؛ وهـذا من بديع أساليب فصاحة القرآن الـكريم . ومن يقايس بين المثلين يجد أنه تعالى لمـا وصف صاحب النفقة بوصفين قابل ذلك هنا بوصفين ؛ فقوله : « ابتغاء مرضاة الله » مقابل لقوله : « رئاء الناس » ، وقوله : « وتثبيتا من أنفسهم » مقابل لقوله : « ولا يؤمن بالله واليوم الآخر » لأن المراد بالتثبيت توطين النفس على المحافظة عليه وترك ما يفسده ، ولا يكون إلا عن يقين بالآخرة .

وهنا بدأ بالوصف الثابت وهو كونها بربوة ، ثم بالوصف المعارض وهو أصابها وابل ، وجاء فى وصف صفوان قوله : « عليه تراب » ثم عطف عليه بالتاء ، وهنا لم يعطف بل أخرج صفة ، على ما ذهب إليه أثير الدين . ولو أنعم الناس النظر فى هذه الصورة البيانية الرائعة ، وجعلوها نصب أعينهم ، وتفطنوا لأسرارها ، لحببت إليهم البذل ابتغاء مرضاة الله ، وكرهت إليهم المن والأذى ، فرقا من أن يبطل الله بذلهم ، ويأباه عليهم كما أباه على الكفار والمنافقين : « قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين ؛ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كُسالى ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون » ، « إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم » ، « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به ، أولئك لهم عذاب أليم ، وما لهم من ناصرين » .

لقد توهمت فى هذه الآية الأخيرة أنها أتت على غير وجهها البلاغى ؛ ولو جاءت عليه لقيل « لو افتدى به » بدون الواو ... فما سر هذا القلب ؟ وما معنى مجئ هذه الواو ؟ ذهب كثير من العلماء الى أنها زائدة ، وأنا أرى فى هذا الموطن رأى أبى العباس المبرد ، فان له مذهبا سديدا فى جملة الحروف التى يقولون عنها إنها مزيدة فى القرآن ، وهو أنه ليس شىء من الحروف جاء فى القرآن إلا لمعنى مفيد ، ولا يجوز أن يكون لَقًا مطَّرحا ، ولا خاليا من الفائدة صفرا ؛ وذلك أن الزيادات والنقائص فى الكلام إنما يضطر اليها ويحمل عليها الشعر الذى هو مقيد بالأوزان والقوافى ، وينتهى الى غايات ومرام ، فاذا نقصت أجزاء كلامه قبل لحاق القافية اضطر الشاعر الى أن يزيد فى الحروف فيمد المقصور ، ويقطع الموصول ، وما أشبه ذلك . وإذا زاد كلامه ـ وقد هجم على القافية فاستوقفته عن أن يتقدمها ، وأخذت بمخنقه دون تجاوزها ـ اضطر صاحبه الى النقصان من الحروف ، فقصر الممدود ، ووصل المقطوع ، وما أشبه ذلك حتى يعتدل الميزان ، وتصح الأوزان ؛ فأما إذا كان الكلام محلول العقال ، مخلوع العذار ، ممكنا من الجرى فى مضماره ، غير محجور بينه وبين غاياته ، فان شاء صاحبه أرسل عنانه فخرج جامحا ، وإن شاء قدع لجامه فوقف جانحا ، لا يحصره أمد دون أمد ، ولا يقف به حد دون حد ـ فلا تكون الزيادات الواقعة فيه إلا عيا واستراحة ، ولغوبا وإلاحة ؛ وهذه منزلة ترفع عنها كلام الله سبحانه ، الذى هو المتعذر المعوز ، والممتنع المعجز ، وكل كلام إنما هو مصل خلف سبقه ، وقاصر عن بلوغ أدنى غاياته ؛ بل قد يرتفع عن هذه المنزلة كلام الفصحاء المتقدمين ، والبلغاء المحذَّقين ، فضلا عما هو أعلى طبقات الكلام ، وأبعد مقدورات الأنام .

وإذا كان ذلك كذلك فما معنى هذه الواو ؟ ما كدت أوجه هذا السؤال الى جأشتى حتى تذكرت ـ وللذكرى شجون ـ سؤالا من هذا القبيل وجه الى أبى العباس المبرد ، وقد

قرأ قوله تعالى : « هذا بلاغ للناس ولينذروا به » سأله سائل فقال : قد علمنا أن هذه اللام لام كي فما معنى إدخال الواو عليها إن لم نقدرها مزيدة ؟ فقال له المبرد : ألست تعلم أن قوله تعالى : « هذا بلاغ » مصدر ، وقوله : « ولينذروا به » فعل موضوع فى موضع المصدر ، لأن الأفعال تدل على مصادرها ؟ فالتقدير : هذا بلاغ للناس وإنذار ؛ فبطل أن تكون الواو جاءت لغير معنى . وقد أحسن المبرد فى هذا الجواب غاية الاحسان . فما أحسن جواب فى واو الآية التى نحن بصددها ؟ قال الزمخشرى : « فان قلت : كيف موقع قوله : « ولو افتدى به » ؟ قلت : هو كلام محمول على المعنى كأنه قيل : فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبا » (١) وهذا المعنى الذى ذكره لا يتسق ونظم الكلام . والذى يقتضيه التركيب وينبغى أن يحمل عليه ، أن الله تعالى أخبر أن من اخترم كافرا لا يقبل منه ما يملأ الأرض من ذهب ، على كل حال يقصدها ، ولو فى حالة الافتداء به من العذاب . ومن المعروف فى النحو : أن لو تأتى منبهة على أن ما قبلها جاء على سبيل الاستقصاء ، وما بعدها جاء تنصيصا على الحالة التى يظن أنها لا تندرج فيما قبلها كقوله : « أعطوا السائل ولو جاء على فرس ، وردوا السائل ولو بظلف محرق » كأن هذه الأشياء مما كان لا ينبغى أن يؤتى بها ، لأن كون السائل على فرس يشعر بثرائه ، فلا يناسب أن يعطى ؛ وكذلك الظلف المحرق لا غنى فيه فكان يناسب أن يقبل منه ملء الأرض ذهبا لكنه لا يقبل ؛ ونظيره قوله تعالى : « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » لأنهم نفوا أن يصدقهم على كل حال حتى فى حالة صدقهم ، وهى الحالة التى ينبغى أن يصدقوا فيها ؛ ولو هنا لتعميم النفى والتأكيد له ، فكأن الله سبحانه لما قال : « فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا » عمم وجوه القبول بالنفى ، ثم فصل سبحانه لزيادة الإيضاح والبيان . . . ولو لم ترد هذه الواو لم يكن النفى عاما لوجوه القبول ، وكان القبول كأنه مخصوص بوجوه الفدية دون غيرها من وجوه القربة . . . وهكذا تتكشف لك دقائق الإعجاز فى القران إذا أعملت الفكر ، وأرهفت الخاطر ، ويتبين لك جليا أن « الحرف الواحد من القرآن معجز فى موضعه لأنه يمسك الكلمة التى هو فيها ، ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة ، ولأنه ما من حرف إلا ومعه رأى يسنح فى البلاغة من جهة نظمه ، أو دلالته أو وجه اختياره بحيث يستحيل البتة أن يكون فيه موضع قلق ، أو حرف نافر ، أو جهة غير محكمة ، أو شىء مما تنفذ فى نقده الصنعة الانسانية من أى باب من أبواب الكلام إن وسعها منه باب » . وهذا هو السر فى إعجاز عامته ، والدليل الناصع على أنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، خلق الانسان علمه البيان ؟

السيد أحمد صقر

(١) الكشاف ...

باب الأسئلة والفتاوى

بين لجنة الفتوى ووزارة الشئون الاجتماعية

حضرة صاحب المعالى وزير الشئون الاجتماعية

السلام عليكم ورحمة الله :

وبعد ، فقد ورد الى لجنة الفتوى بالأزهر استفتاء من جماعة من المسلمين فيما نشر بمجلة الشئون الاجتماعية فى أعدادها ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ من آراء يرونها تمس المبادئ الاسلامية ، وقد ضربوا لذلك أمثلة كثيرة ، وطلبوا بيان حكم الله فى هـذه الآراء ، وفى نشرها فى مجلة رسمية على جمهور يدين بالاسلام ، وفى دولة دينها الرسمى الاسلام .

وقد رجعت لجنة الفتوى الى المقالات التى تضمنت هذه الآراء فى الأعداد المشار إليها ، فتبين لها أن بعض الكاتبين ومحررى المجلة قد تجمح بهم أقلامهم فتصور الآراء والأفكار صورا تحمل فى طياتها بعضا من الغمز والتعريض ، وتهجم على مقامات سامية يحترمها العالم كله ، ويؤمن بتعظيمها كل ذى دين سماوى ، كما أنها تحاول أن تخلع على بعض المبادئ الاسلامية ثوب الرجعية البالى وأنها لا تنهض بالإصلاح الاجتماعى المنشود ، ثم تنوه بشأن نظم أخرى لا يقرها الدين ولا يعرفها المسلمون . وإلى معاليكم أمثلة من ذلك :

١ — فى العدد الرابع من المجلة تحت عنوان (الطفولة المشردة) يقول الكاتب : « أليست حضارة العالم تقوم الآن على تعاليم موسى وعيسى ومحمد ؟ هـل كان أحد هؤلاء الثلاثة شيئا يذكر عندما كان فى مرحلة الطفولة ؟ ألم يكن أولهم لقيطا على الوصف الذى ورد فى التوراة ؟ ألم يكن ثانيهم فى حكم اللقيط ينتسب الى نجار ؟! » اهـ

ولا يخفى على معاليكم أن كلمة « لقيط » صارت بحكم العرف العام الحاضر من الألفاظ التى تنبو عنها الأسماع فى البيئات المتوسطة ، وتتحاشاها ألسنة كثير من العامة ، فضلا عن البيئات الراقية المثقفة .

وأن فى التعبير عن سيدنا عيسى روح الله وكلمته بأنه ينتسب الى نجار تعريضا شنيعا بسيدنا عيسى الرسول وأمه مريم البتول عليهما السـلام ، وأن حسن النية فى استعمال هـذه الكلمات الجارحة لا يقتلع من نفس القارئ مرارة الألم الذى يساوره حينما يقع نظره عليها .

إن قداسة الأنبياء شأن من الشئون التى تكفلها الأديان جميعا ، والتى يغار عليها جميع المتدينين ؛ وإنها لأجل وأعظم من أن تكون مضرب المثل للطفولة المشردة فى عصرنا الحاضر .

٢ — فى العدد الخامس تحت عنوان (الأسرة الأوربية والدعائم التى تقوم عليها) تنويه بشأن النظم الأوربية فى الطلاق والزواج ، إذ يقول الكاتب : « ففى بعض الأمم الأوربية وخاصة التى تدين بالمذهب الكاثوليكى يكاد الطلاق يكون من المستحيلات . . . . ثم يقول : « ولكن هذه القوانين ليست كل ماعمدت اليه الشعوب الراقية من وسائل الحماية ، بل هناك أنواع أخرى ، منها أن الأوربى على وجه عام متعصب بطبعه وآدابه أشد التعصب للزواج بواحدة ؛ وتعدد الزوجات جناية يعاقب عليها مرتكبها بالسجن سنتين أو أكثر » اه .

ومما لا خفاء فيه أن الدعوة الى إصلاح الأسرة بهذا الأسلوب تتضمن الغض من المبادئ الاسلامية التى تشرع الطلاق لأسبابه المعقولة ، وتبيح تعدد الزوجات لمن تطمئن نفسه الى العدل والقيام بالحقوق ، كما تتضمن التلويح بأن هذه المبادئ تتنافى ورقى الأمم وتقدمها .

وإذا كان المسلمون يقرءون فى مجلة تصدرها حكومة إسلامية تصوير أحكام دينهم بهذه الصورة ، فان ثقتهم فى هذه المجلة لتضعف وتتلاشى ، وإن الشك ليساورهم فى القائمين على أمرها .

٣ — فى العددين الرابع والخامس أيضا دعوة شديدة الى أنه يجب أن تطول مدة الخطبة قبل الزواج ، وأن يترافق الخطيبان ويتعارفا حتى يتاح لكل منهما أسباب الوقوف على فضائل الآخر وعلى عيوبه .

ولا شك أن الدعوة الى هذا المبدأ إمعان فى تسهيل ذرائع الفساد ، وأن حوادث الفتك بالأعراض التى تقع فى ظل تعارف الخطيبين لأكثر من أن تحصى ، وأن فى بعضها ما يكفى لهدم هذه الدعوة التى يراد حمل المسلمين عليها .

إن الاسلام أباح للرجل أن يرى خطيبته ، ولكنه حرم تحريما باتا أن يختلى بها قبل العقد ، أو يعاشرها معاشرة الرفقة والتعارف على الوجه الذى تدعو اليه المجلة ، وتعتبره من وسائل تدعيم الأسرة والمحافظة عليها .

وبعد ، أفلا يرى معالى الوزير أن نشر مثل هذه المبادئ والآراء وترويجها بين المسلمين فى مجلة حكومية ، يدعو الشبان وأنصاف المتعلمين الى التمسك بها وازدراء غيرها ؟ أفلا يرى معاليه أن نشر المبادئ الأوربية فى مجلة الشئون الاجتماعية لا يمكن أن يعتبره الرأى الاسلامى مجرد عرض لصور الحياة الاجتماعية عند الأوربيين ؟ !

أفلا يكون الرأى العام معذورا إذا هو اعتقد فى القائمين على تحرير المجلة أنهم يريدون تقريب المبادئ الأوربية الى المجتمع الاسلامى ، ودعوته ضمنا الى اعتناقها والعمل بمقتضاها ؟

إن لجنة الفتوى لا يخامرها أدنى شك فى أن معالى الوزير يقدر هـذه المسائل قدرها ، ويعطيها المـكانة اللائقة بها من الخطورة ، فيعمل على تلافيها ، وتطهير المجلة منها ، وتوجيهها الوجهة الصالحة . والله الموفق .

والسلام عليكم ورحمة الله . رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

رد وزارة الشؤون الاجتماعية

حضرة صاحب الفضيلة رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف .

السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد ، فقد تشرفت بتسلم كتاب فضيلتـكم المتضمن رأيـكم فى فقرات وردت بمقالين نشرتهما مجلة الشؤون الاجتماعية خلال العـام المـاضى . وإنه ليسرنى بداءة ذى بدء أن أرى فضيلتـكم تقررون أن حسن النية متوافر فى الأقلام التى جرت بهـذه الفقرات . وعلى ذلك لا يبقى إلا أن يكون التعبير قد خان تلك الأقلام ، فجاءت عبارتها تحتمل اللبس والتخريج .

ولقد راجعت المقالتين اللتين أشرتم اليهما فوجدت الأولى لحضرة الأستاذ وهيب بك دوس المحامى وعضو مجلس الشيوخ ، وقد عرض فيها لحال الطفولة المهملة فى مصر ، وأخـذ يحث على وجوب العناية بتعليمها وتهـذيبها بغية إنضاج ما قـد يـكون كامنا فى بعضها من الذكاء والنبوغ ، وضرب لذلك مثلا بعض عظماء مصر فى العهد المـاضى فقال : إنهم لا ينتمون الى أسر كبيرة معروفة ، وإنمـا انتزعوا من أوساط رقيقة الحال ، فعلموا وهذبوا ، ثم نجحوا فى وضع أساس نهضة مصر الحاضرة ؛ وترقى من ذلك الى ضرب المثل بالأنبياء : موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ؛ وذكر فى مقام تمجيد عبقريتهم والإشادة بآثارهم أن حضارة الانسانية كلها على مدى العصور إنمـا قامت على تعاليمهم مع أن أحدهم كان لقيطاً على حد رواية التوراة ، وأن الثانى مطعون فى نسبه فى رأى اليهود ، وأن الثالث كان يتيما على حد قول القرآن الـكريم .

هـذا هو سياق الـكلام ومفهومه ومرماه . فاذا كان التعبير عنه لم تراع فيه بعض الاعتبارات فهو على كل حال تعبير رجل مسئول لا يمكن أن يشك فى حسن قصده وسلامة نيته ، ولو كانت إدارة المجـلة تتوقع أن كلامه سيفسر بمعان غـير التى يريدها لاستشارته فى إدخال بعض التعديل على ألفاظه .

أما ما جاء فى الفصل الخاص بالأسرة الأوربية والدعائم التى تقوم عليها فلا يخرج عن كونه

عرضا للنظم التى تقـوم عليها الأسرة فى الغرب ، ولا يقصد منها سوى تعرف هـذه النظم ، لنوازن بين صرامتها فى مسألة الطلاق وتعدد الزوجات ، وبين ما تفشى عنـدنا من الفوضى فى هذه المسائل ، نتيجة لانحرافنا عن أصول الاسلام وتعاليمه الصحيحة ، عسى أن تفضى هذه الموازنة الى كبح جماح بعض النفوس ، أو التنبيه لوضع قيود ترد نظام الأسرة الى أصول الدين . ولا شك أنه كان بعيداً جـداً عن تفـكير كاتب المقال أن يحاول الغض من سـلامة المبادىء الاسلامية التى أباحت التعدد والطلاق لأسبابهما المعقولة ، بدليل ما تفيض به أبحاث هذا الـكاتب نفسه فى أعداد المجلة من الدفاع عن تلك المبادىء ، مع المطالبة بالحرص على توخى حكمة الشارع فى وضعها . ولا شك أيضا فى أنه أول الآسفين على أن يحمل كلامه محملا لم يقصده ولم يخطر له ببال .

وأما ما يتعلق بإطالة مدة الخطبة قبل الزواج فليس معناه أن يباح للخطيبين اختلاط مطلق من كل قيد قد يستغل فيه ضعف الطبائع والغرائز ، وإنما أراد به الـكاتب أن يفسح الوقت للشابين ، فى حدود مشروعة ، ليتعرف كل منهما حقيقة الآخر قبـل أن يرتبط به ارتباطا يبقى مدى الحياة ، وأن يفسح الوقت أيضا للأسرتين حتى يتعرف كل منهما من دخائل الآخر ما لا تسمح المصاهرة المرتجلة أو السريعة بتعرفه .

وبعد ، فانى أستطيع أن أطمئن فضيلتكم على أن مجلة الشؤون الاجتماعية قد عهد بها الى موظفين من أحرص الناس على دينهم وأخـلاقهم ، وأن هؤلاء الموظفين خاضعون لرقابة يقظة لا تتسامح ولا تتهاون ، وهى كفيلة بأن تسّير المجلة فى الطريق المستقيم ، وبأن تحل ملاحظاتكم محل الاعتبار .

وفى الختام أرجو من فضيلتكم أن تعتبروا المسألة منتهية عند هذا الحد ، وأن تتقبلوا وافر تحيتى واحترامى ؟

وزير الشؤون الاجتماعية

محمد عبد الجليل

تعليق اللجنة

وقد اطلعت لجنة الفتوى على خطاب معالى الوزير وطلبت إلينا نشر ما يأتى :

إن لجنة الفتوى يسرها أن حضرة صاحب المعالى الوزير قد سجل فى خطابه « أن كاتبى المقالات « موضوع الاستفتاء » قد خانتهم أقلامهم فجاءت عباراتهم تحتمل اللبس والتخريج » .

ونحن لا نشك أن معاليه يوافقنا على أن الأمر يحتاج الى شدة اليقظة والحيطة حتى لاتخون الأقلام أصحابها ، وخاصة فيما يتعلق بقداسة الأنبياء والمرسلين ، موضع التجلة والاحترام عند جميع الأديان .

ولا نشك أيضا أن معاليه يرى أن مما زلّ به القلم فى هذه المقالات أن تتخذ الأنبياء الثلاثة مضرب المثل للطفولة المشردة ، وأن يقال عن سيدنا عيسى عليه السلام — تأييدا لذلك — « إنه ينتسب الى نجار » . فهذا تعبير بشع ، وطعن صريح من الكاتب لا يقره عليه أحد ، ولا يحتاج معه إلا أن تتوقع المجلة أولا تتوقع تفسيره بمعنى غير الذى يدل عليه .

وقد كان يسر لجنة الفتوى ، كما يسر كل حريص على صالح المجتمع ، أن تنشر وزارة الشئون الاجتماعية فتوى اللجنة بنصها الكامل ، وألا تختزلها هذا الاختزال الذى قد يعتبر فى عرف الناس محاولة للتخلص ؛ فالحق أسمى من أن يخضع لاعتبار ما .

وبعد ، فقد اطمأنت لجنة الفتوى الى ما أكده حضرة صاحب المعالى الوزير من أن موظفى المجلة خاضعون لرقابة يقظة لا تتسامح ولا تتهاون ، وأن تلك الرقابة كفيلة بأن تسيّر المجلة فى الطريق المستقيم ، وأن تحل ملاحظة لجنة الفتوى محل الاعتبار ؛ فان الاصلاح الذى تنشده لجنة الفتوى وتنشده معها وزارة الشئون الاجتماعية ليقضى بهذا التضامن ، وبالرجوع الى الحق والاعتداد به ، والعمل على إقراره .

ومن هنا تستطيع لجنة الفتوى أن تعتبر المسألة منتهية . والله يوفقنا جميعا الى ما فيه خير الدين والوطن ؟

رئيس لجنة الفتوى بالأزهر

محمد عبد اللطيف الفحام

حجاب المرأة

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

أرجو التفضل ببيان ما اعتمده وصححه فقهاء الاسلام من الحكم الشرعى لوضع الحجاب وستر وجوه النساء فى الطرقات أمام الرجال الأجانب ، مع بيان حكمة المشروعية ، وتوضيح معنى قوله سبحانه وتعالى : « يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدْنِين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يُعرَفْن فلا يُؤذَين ، وكان الله غفورا رحيما » .

يافا — الأمير عبد القادر الشهابى

الجواب :

قال الله تعالى فى سورة النور : « وقل للمؤمنات يَغضُضْن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن » : تضمنت هذه الآية الكريمة الأدب الذى يجب أن تكون عليه المرأة بالنسبة الى الرجال الأجانب ؛ واتصلت بالآية فى ذلك أحاديث صحيحة فى البخارى ومسلم وغيرهما .

وقد اختلف الفقهاء فيما يباح للمرأة كشفه من أعضائها أمام الرجال الأجانب ، وما لا يباح لها كشفه ، تبعا لاختلافهم فى فهم هذه الآية وتلك الأحاديث :

فالإمام أحمد بن حنبل والامام الشافعى ، فى أحد قوليه ، يرى كل منهما أنه لا يباح للمرأة المسلمة أن تكشف أى جزء من أعضائها أمام الرجال الأجانب إلا إذا دعت الى ذلك حاجة ، كما فى حالة العلاج ، والشهادة فى المعاملة فى البيع والشراء ، والخطبة للزواج . ويرى كل منهما أن المراد بقوله تعالى : « إلا ما ظهر منها » بعد قوله : « ولا يبدين زينتهن » استثناء ما ينكشف من غير تعمد من المرأة : كأن تكشف الريح عن صدرها أو ساقيها ، فانه لا إثم عليها فى ذلك ولا حرج .

ومذهب الحنفية ، والرأى الثانى للشافعى ، والقول المفتى به عند المالكية : أنه يباح للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها فى الطرقات وأمام الرجال الأجانب . ويرى أصحاب هذا الرأى أن المراد بالآية نهى النساء عن إبداء شىء من أعضائهن إلا الأعضاء الظاهرة بعادتها ، وهى الوجه والكفان .

وقد قيدوا هذه الإباحة بحالة أمن الفتنة . أما إذا كان كشف الوجه واليدين يثير الفتنة ويغرى بالمرأة من لاخلق له فانه يجب عليها سترهما كما تستر بقية أعضائها . فانه مما لا شك فيه

أن من مقاصد الاسلام العمل على سد الذرائع ، وقطع دابر الفتن ، وصيانة الآداب ، وحفظ الأعراض .

هذه هى مذاهب الفقهاء فيما يحل للمسلمة أن تكشفه من أعضائها أمام الرجال الأجانب ، وما لا يحل . وقد بنيت كما سلف على اختلافهم فى فهم المراد من قوله تعالى فى آية النور : « إلا ما ظهر منها »

الخلاصة :

والخلاصة : أن بعض الأئمة لا يبيح للمرأة أن تكشف شيئا من جسمها أمام الرجال الأجانب من غير حاجة ، وأن جمهورهم يبيح لها كشف الوجه واليدين أمام الرجال بشرط أن لا تخاف الفتنة ؛ فإن خيفت الفتنة فلا يسوغ لها أن تكشف شيئا من جسمها لا الوجه ولا غيره .

ولجنة الفتوى ترى — تمشيا مع القاعدتين الاسلاميتين العظيمتين : « يسر الدين وسماحته ، وسد ذرائع الفساد » — ترجيح الرأى القائل بأن وجه المرأة وكفيها ليست من العورة ، فلا جناح عليها أن تكشف شيئا منها أمام الرجال الأجانب ، دفعا للحرج والمشقة فى معاملاتها العامة والخاصة ، وأنه إذا خيفت الفتنة يجب عليها ستر جميع بدنها سدا لذريعة الفساد .

واللجنة تقرر فى الوقت نفسه أن كشف الوجه واليدين مزينةً بالأصباغ المعروفة نوع من التبرج الذى يمقته الشرع ويشدد فى النكير عليه ، وأن الكشف المباح إنما هو للوجه واليدين على طبيعتها التى خلقها الله عليها ، خالية من أصباغ وألوان ؛ وهى تناشد المسلمين حرصاً على سعادتهم أن يهيمنوا بهذا الأدب الاسلامى الكريم على نسائهم وفتياتهم ، ويشعروهن بأن مخالفة هذا الأدب توجب غضب الله تعالى وسخطه ، فضلا عن أنها تدهور كيان الأسرة الخلقى . وتهيب اللجنة بهم أن يجعلوا نصب أعينهم دائما قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وَقودها الناس والحجارة » .

أما قوله تعالى فى سورة الأحزاب : « يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين ... الآية » فقد جاء ضمن آيات سيقت لمعالجة حالة خاصة نشأت بين المنافقين والمؤمنين ، وهى أن المنافقين كانوا يتصدون للمسلمين بكثير من أنواع الإيذاء ، تارة فى أشخاص المسلمين ، وتارة فى أشخاص المسلمات ، بما ألفوا أن يقابلوا به بغايا الجاهلية من فحش القول وبذىء الكلام ، فنزل قوله تعالى : « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا . والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا . يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفورا رحيما . لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض

والمُرْجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا . ملعونين ، أينما ثقفوا أُخذوا وقُتّلوا تقتيلا » .

فسجلت هذه الآيات الكريمة ، حسماً لتلك الحالة وردعا لهؤلاء المنافقين ، أنواعا من العلاج يرجع بعضها الى تهديد المنافقين ووعيدهم بسوء عاقبتهم الآخروية والدنيوية إذا استمروا على إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، ويرجع بعضها الى بيان ما يتحصن به المؤمنات من تعرض المنافقين لإيذائهن ، وكان من هذا ما تضمنته آية « يأيها النبى قل لأزواجك . . . الخ » . فقد أمر فيها نساء المؤمنين أن يتخذن فى زيهن ما يميزهن ويجعلهن معروفات لمن يحاول التصدى لهن بالإيذاء تحت ستار الجهل أو التجاهل بهن . يشير الى هذا قوله تعالى فى بيان حكمة ذلك الأمر : « ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » .

ولا شك أن إدناء الجلباب على نساء المؤمنات بحيث يغطى جميع أجسامهن ، يميزهن عن غيرهن ، وهو مع ذلك أنسب بالتصون والمبالغة فى مظهر العفاف المطلوب منهن ، وأبعد بهن عن معانى الريبة ومواقع الإيذاء .

هذا هو ما تتجه اليه الآية الكريمة ، وهو المراد منها . ويؤخذ من دلالة هذا العلاج أن المرأة المسلمة يجب عليها بوجه عام وفى جميع الأوقات والشؤون أن تبتعد عن مواطن الريب ، وأن تسمو بنفسها عن مساقط الإيذاء ، صونا لدينها ، وحفظا لكرامتها وكرامة ذويها ؟

أجر المأذون

وجاء الى اللجنة أيضا :

ما الحكم فى الأجرة التى يأخذها مأذون عقود الأنكحة : هل هى حلال أو حرام أو مكروهة ؟ لأن الرواتب التى تصرف على أئمة المساجد ومؤذنيها وخدمتها من هذه الأجور ، فإن ألغيت أهملت المساجد وتعطل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حيث إنه لا وقف هناك يقوم بكفاية المذكورين ، إلا أن يكونوا عالة على الناس ؟

محمد عبد الرحمن الخطيب
إمام الجامع العمرى بالكرك

الجواب :

أخذ الأجرة على تسجيل عقود الزواج حلال ولا شىء فيه . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

تاريخ الازهر

بواعث التفكير فى وضعه وإذاعته

هذا بحث عرضت لموضوعه منذ خمس سنين ، ثم صرفتنى عنه شواغل كثر .

وأشهد لقد كان الحافز الذى أهاب بى أن أعرض لموضوع هذا البحث ، مستمدا وجوده من لحظات سعيدة أمضيتها مع صحفى من « كوبنهاج » عاصمة الدانمرك .

كان هذا الصحفى يؤدى لصحيفته جولة ميدانها بلاد الشرق ، وقد شخص الى مصر ، وتعرف فيها الى قادتها ، وتحدث إليهم وأدرك عنهم جمهرة التيارات الفكرية التى تتجاذب مصر الإسلامية بعد أن استقامت لها على العالم الإسلامى زعامة يقول بها كل موطن يدين بالاسلام أهله . . .

وقال لى الصحفى الدنمركى : لقد دخلت البيت من بابه !

فقلت له : كأنك مرنت قبل الآن على أن تدخل البيوت من نوافذها . . !

فاستطرد وهو يضحك : كلا ، فما الى هـذا الذى ترمى إليه أقصد ، وإنما أقصد من ذلك الى القـول بأنى وقـد قصرت بحثى فى مصر على الدوافع التى مهدت لها زعامة العالم الاسلامى رأيت الخير كل الخير فى أن أدرس هذه العوامل فى الجامع الأزهر ، لأنها تجتمع فيه وتصدر عنه ، ومن هنا كان حديثى مع الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى أنفع حـديث صحفى ظفرت به من الشرق . . !

ثم قال : إننا نعرف الأزهر فى « كوبنهاج » ، ونعرف أن المسلمين فى سبيلهم الى الاحتفال بعيده الألفى . . .

قلت : وهذا ما لا يجهله أى أحد فى جنبات الأرض . . .

فمضى الصحفى الكوبنهاجى يقـول : إنى أعرف ذلك وأطمئن الى أنه الحق ، ولـكنى أرجو أن تصنع معى معروفا .

قلت : وإنه ليسعدنى حقا أن أوفق فى ذلك الى ما تريد .

فقال : أريد أن ترشدنى الى الـكتب التى يدرس الأزهريون فيها تاريخ الأزهر من باكورة عهده بالوجود الى اليوم ، فانها على التحقيق لن تخلو من متاع يطيب لى أن أكون أول من ينقله الى « البلاد الواطئة » . فقد نقلت إليها فصولا ممتعة عن كتاب قيم يتحدث عن جامعة « براج » وهى الجامعة التى أحسبها تؤاخى الجامع الأزهر فى طول العمر وامتداد صفحة الوجود .

قلت : ولكنك لم تظهرنى حتى الآن على الينبوع الذى صدرت إليه وانصرفت عنه وأنت على معرفة بأن الجامع الأزهر معهد يدرس فيه الطلاب ، وأنه يتهيأ لاستقبال عيده الألفى .

فقال : أما هذا « الينبوع » فانه لا يزيد عن ذلك الفصل القصير الذى كتبه « فولرز » فى دائرة المعارف الإسلامية « الانجليزية » ، وعن فصول قصار أخرى كتبتها أقلام أدركت الآن أنها لم تساير الجادة فى طائفة غير قليلة مما عرضت له من المسائل الموصولة بالأزهر من ناحية تاريخه ، ومن ناحية المنهاج الثقافى الذى ينهض بأعباء إشاعته وجمع كلمة المسلمين من حوله ، ولقد صححت غير قليل من هذه الأخطاء بعد أن استمعت الى حديث الأستاذ الأكبر الى .

وافترقنا قبل أن أقول له إن القدر الذى يعرفه من تاريخ الأزهر عن طريق الفصل القصير الذى كتبه « فولرز » قد لا يعرف مثله الأزهريون الذين يحصلون العلم فى أقدم جامعة إسلامية فى هذا الوجود .

كان هـذا الحديث مع الصحفى الـكوبنهاجى إذن هو الحافز الذى أهاب بى أن أجعل من « تاريخ الأزهر » مشغلة الفراغ ، ومسألة الساعة التى تخلو من مسائل .

والحق أقول : إنه ما من أحد يستطيع وحده أن يعرض لتحقيق التاريخ الأزهرى خلال ألف عام دون أن يلتزمه العناء ، أفدح العناء ، ويستحوذ عليه الضيق ، كل الضيق ، من هذه الأخاديد التى تعترض طريق التاريخ الأزهرى فى هذه الحقبة التى تجمع الى طول الأمد وجوها كثيرا من النقائض والأضداد ، وألوانا كثيرا من التيارات التى تختلف بين السياسة من ناحية تفاعل السلطات التى تعاقبت على مصر تفاعلا نوّع من ضروب النظر الى الأزهر والى ما يلقى من منبره أو على أديمه من بحوث .

ولـكن العناء والضيق اللذين يعرض لهما الباحث الواحد ، قد لا يتعرض لهما من يبحث التاريخ الأزهرى فى جمهرة من الذين يؤاخونه البحث ويتوفرون عليه معه ، فـلا خلاف على أن إنتاج الجماعة فى هذه الناحية يكون أقرب الى التوفيق ، وأعمر بالخصوبة ، وأمعن فى السداد .

ولن يكون التعرض لهـذا العناء المحمودة مغبته ، شرا من الألم الذى يلمسه الأزهرى بيديه حين يسأله السائلون : ماذا يعرف من تاريخ الأزهر ، فلا يرى أنه يعرف من تاريخه إلا أنه جامع أنشأه الفاطميون فى مصر ليروجوا من منبره لمذهبهم فى الدين ، وأنه يتعهد طـلابه بطائفة من فنون المعرفة ، ويجرى عليهم أرزاقا حبسها على أهله بعض الملوك وبعض السادة ، وبعض السيدات . . . . !

ولن يكون الجهد الذى ينفق فى سبيل تحقيق تاريخ الأزهر وإخراجه ليتدارسه طلابه ، جهدا تنطوى نتائجه على أية ظاهرة من العبث أو مضيعة الوقت والمال ، لما يعرف الأزهر

فى مصر ، وفى غيرها من بلاد الله ، على أنه مدرسة ينصرف اليها الطلاب ، ليصدروا عنها علماء يقولون فى الفقه والنحو والتوحيد ، وما الى ذلك من فنون العلم التى يتألف منها منهاج الدراسة الأزهرية وحسب ، وإنما يعرف الأزهر على أنه الموطن الذى تتلاقى فيه أمزجة العالم الاسلامى ، والذى تنصرف منه الدعاوة لرأى فاذا هو الرأى الذائع الشائع ، أو تنصرف منه الدعاوة ضد فكرة فاذا هى الفكرة البائدة الخامدة .

وكيف كان ذلك ؟

كان ذلك ، لأنه ما من مسألة شغلت أذهان المسلمين فى دينهم إلا ومستها ألسنة الأزهريين بحديث جرى من مقاعد الشيوخ التى كانت مستقرة على حصير الأزهر من أقدم الحقب ، فالمذاهب الدينية كلها ، حتى تلك المذاهب التى اجتمعت الكلمة على رفضها ، قد قال فيها الشيوخ القدامى والمحدثون كلاما من حق الأزهريين أن يعرفوا تفصيل أمره حتى يعلموا لأى سبب توافدت هذه المسائل على الأزهر لتبحث فيه ، ولأى سبب كان استبعاد بعضها عن حوزته وكان استبقاء بعضها الآخر مستقرا فى مقصورته .

وكان ذلك ، لأنه ما من أحد أمسك بيده مقاليد الأمر فى مصر إلا وأبقى فى الأزهر أثرا يدل عليه ويفصح عنه ويسجل حقيقة مزاجه ، سواء أكان هـذا الأثر تعلية لمكانة الأزهر وتوسيعا لأرزاق أهله ، أم كان هو التدلى بهذه المكانة الى القاع ، والتضييق على الأزهريين تضييقا يصرفهم بعض الشىء عن التزام التفرغ للتحصيل . . .

وكان ذلك ، لأنه ما من أمة يعرف أهلها الاسلام إلا وكان منهم من عرف الأزهر وأخذ عن شيوخه ، ونقل الى مواطنيه ما تهيأ له أن يقتبسه من علومه ؛ فمن الخير إذن أن يعرف الأزهريون ، وفيهم الآن بضع مئات من الطلاب الأجانب الذين لا تنصرف منهم فئة إلا لتستقر فى مكانها فئة أخرى . . . من الخير حقا أن يعرفوا المعهد الذى استروح الأزهر فيه أنفاس الفوج الأول من طلابه الغرباء ، وأن يلموا بالبواعث التى دفعت بالبعوث تبعث اليه من كل جانب .

وكان ذلك ، لأنه ما من مشكلة تعرضت لها مصر ، وكانت مشكلة فى الدين أو الأدب أو السياسة أو نظام الحكم ، إلا وكان للأزهر فيها رأى ، وكان له فى موضوعها توجيه ؛ فمن الخير كذلك أن يتعرف الأزهريون إلى ما ربحه الأزهر من هذه المشكلات والى ما خسر منها ، لأنهم سيدركون من ذلك طائفة من حقائق الحياة المصرية التى لا يستطيعون إدراكها إلا فى ضوء معرفتهم بهذه الجوانب من تاريخ معهدهم ، ثم هم يفيدون منها ، على هـذا كله ، معرفة صادقة بمراحل الحياة الفكرية والسياسية والدينية فى مصر ، لأن الذى يعرف تاريخ الأزهر من هذه الناحية ، ويعرف قدرا من تأثيره فى الحياة المصرية ، ومن تأثير الألوان التى سادت الحياة المصرية فيه ، إنما يكون فى ذلك كله قد عرف التاريخ المصرى فى أوضح حقائقه وأحفل صوره بالدلالة على طابعه الأصيل . . .

ثم كان ذلك ، لأنه ما من عمود من هـذه العمد القائمة فى الجامع الأزهر إلا واقترنت بأسماء طائفة من جلة الأشياخ الذين أحسنوا فيما توفروا على تأديته من رأى قالوا به فى الدين واللغة وما يتصل بهما من مسائل العلم وفنونه ، حتى لقد كان « شيخ العمود » أكبر الأمنيات التى تنطوى عليها أضالع الأزهـرى وهو مقبل على الأزهر ليستمع فيه الى شيوخه متلهفا الى اليوم الذى يستطيع فيه أن يظفر بمثل مقعدهم الى جانب واحد من هذه العمد التى اشتهرت بأسماء الشيوخ الـكفاة الذين استندوا إليها وهم يرسلون على طلابهم خير ما يقال فى فنون العلم ؛ فمن الخير إذن أن يعرف الأزهريون بما يستطاع التفصيل فيه من تاريخ هؤلاء الأعلام ، وأن يجمعوا الى ألبابهم طائفة محققة منسقة من ألوان التراث الثقافى الذى أنتجوه .

وكان ذلك ، لأنه ما من ناحية يدين أهلها بالاسلام فى هذه الدنيا إلا وبسط الأزهر عليها ظله بواسطة البعوث التى استقبلها من أهل هذه المواطن ، وفى الرسائل التى تعيها محفوظاته ، فى العهد الأخير ؛ فمن الخير إذن أن يعرف الأزهريون هـذه الناحية حتى تتوفر لهم الدراية الـكاملة بالجانب الاجتماعى من حياة معهدهم ، لأنها تضم إليها ألوانا تؤلف الصورة التى يطالع العالم فيها وجه الزعامة الدينية على العالم الإسلامى .

وقد اقتعد أريكة الرياسة على الأزهر شيوخ فيهم من ارتفع بمكانة العلماء الى الأوج ؛ فمن فائدة الأزهريين أن يلموا بالخصائص التى أكسبت أولئك الشيوخ منزلة الذين كانوا يتمتعون بالـكلمة العليا ، لا فى البيئة الأزهرية وحدها ، وإنما كانوا يتمتعون بالـكلمة العليا فى البيئة الحاكمة أيضا .

ومن فائدة الأزهريين أن يعرفوا البواعث التى حفزت أكثر الذين ولوا الأمر فى مصر أن يكونوا على عناية ملحوظة بالأزهر ، ففى هـذه البواعث ألوان من التوجيهات يستطيع الأزهرى المعاصر استغلالها لنفسه لتكون حياته العامة نفعا محضا ، وخيرا خالصا .

وقد اكتملت للأزهر سلسلة طويلة من الانقلابات ينبغى على طلابه أن يكونوا على دراية بها ليعلموا منها جمهرة المراحل التى اجتازها حتى انتهى الى هذا العهد الذى صار اليوم اليه ، وليعرفوا الجهود التى أنفقها فى سبيل المحافظة على التراث الدينى الذى ائتمن عليه .

كل هذا ولم أقل لك : إنه فى مقدور طائفة من كفاة العلماء ومعهم طائفة من المؤرخين إذا تصدوا لتحقيق تاريخ الأزهر أن يواتوا أطماعنا فى إخراج هذا التاريخ الى أكثر مما نأمل فيه .

ولو أتيح لتاريخ الأزهر أن يشهد الضوء بين دفتى كتاب يضم اليه مراحل هذا التاريخ كله ، لـكان ذلك أنفس ثروة ثقافية يمد بها هذا الجيل ما يأتى بعده من الأجيال .

وعسى ألا يذهب هذا الصوت فى الدعاوة لتلك الفكرة سدى !

علي عامر

من وحى الشريعة الخالدة

مما لا خلاف فيه أن الأوضاع السماوية بما حملته فى أطوائها من سمو المبادئ وراجح الآراء ونبيل المقاصد ، كانت ولا تزال مرد الكائنات كلها فيما يصدر عنها من تفاعل إيجابى أو سلبى ، لأن قوانين المجتمع الصالحة لاعتناقها والسير على هداها كانت منذ البشرية الأولى تتعثر فى أذيال الإخفاق تارة ويكتب لها النجح نوعا ما تارة أخرى ، بما تستهدف له البشرية من تبدل فى الأطوار وتغير فى البرامج والأنماط ، تبعاً لتلك الأحداث الإملائية التى تفرضها الملابسات الملحة ، وترسم فى أفقها صورها مختلفة تقع على هدى تلك الأحداث وفى ظلها . ومن أجل ذلك كان الوجود فى افتقار مطرد الى الرسل والأنبياء ، والى المصلحين والعلماء ، والى القادة والزعماء ، لأن العقل البشرى بما اكتنفه من شهوات النفوس وما أحاط به من نزعات الآراء ، ليس بقادر وحده على أن يتبين فى جميع الأحوال الأخلاق المثالية ، أو الصور البدائية التى ترسم فى لوحة هذا الوجود سعادته الدائمة وعظمته الموافية ، فكان إرسال الرسل ضرورة قضى بها ناموس الاجتماع ، فهو من هذه الناحية خاضع لوحى الضمائر النزيهة التى استمدت سعادتها وسؤددها من تعاليم وحى السماء ، ووحى السماء رسول الفطر ، وملاك الغرائز ، وقانون الطبائع ، وما الخير والشر بما يندرج تحت مدلولها إلا مجرد صور تتلاقى تحت الوجود وبين آفاقه المتباعدة أو المتقاربة ، فاذا أفاض ذلك الوحى السماوى من الخير قسطا على بعض النفوس صيرها نفوسا ملائكية تتراءى لها أوضاع الكائنات فى صور مثالية ، وتصبغ آفاقها بصبغة الفضائل كلها ، فتتخلص تلك النفوس من ظلمات الهيولى ويواجهها النور الإلهى فى ساحة القدسية الخالدة والسرمدية الدائمة ، والعكس بالعكس .

وما الخلاف الذى شجر بين فريق من علماء الأخلاق حين عرضوا لنظرية مشهورة وهى افتقار المجتمع الى الخير والشر ، إلا أثر من تلك الآثار التى شيد علماء الأخلاق عليها نظرياتهم ، فقد ذهب غير واحد منهم الى أن الخير والشر وما يقع فى مدلولهما ملاك هذا المجتمع وعتاده وقوته وزاده ، ورتبوا على ذلك الاتجاه أن إرشاد المرشد وهدى الهادى قائم على الفصل بين الأثرين للخير والشر ، لكنه لا يستطيع أن يجحد أن النفوس المنفعلة بالخير ليس لها عن المزيد غنى ، وأن النفوس المنفعلة بالشر فى حاجة قصوى الى إرشاد المرشد ، ينبهها الى مكمن دائها ويدل بها الى أسباب حتفها تبصرة وذكرى لقوم يعتبرون ، ومن هنا نشأت وظيفة الرسول والمرشد والعالم والواعظ ، فكانت تلك الوظيفة أداة قضاء على الرذيلة وإشادة لمعالم الفضيلة . فلو افترضنا أن العالم كله أمسى خيرا محضا أو شرا محضا ، لتزعزع نظام الكائنات ، وفسدت

الاتجاهات ، لأن الخير لا يعلم إلا بنقيضه ، ولأن ما فى أطواء الوجود ، لا يخلو من خير وشر ، فالخير ما كان فيه خير وإلى جانبه شر ، والشر ما كان فيه شر وإلى جانبه خير ، فليس ثمة خير محض ، ولا شر محض ، ولم تتمحض للخير إلا المبادئ السامية التى استمدت قوتها وجدتها ونماءها من وحى القرآن وآداب القرآن وتعاليم القرآن ، وبما ورد بألسنة الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

الحق أن الخير والشر متلازمان فى هذا المجتمع ، ولكل أعوان وخلان ، وأن وظيفة المرشد تستزيد من الخير عند الخيرين ، وتحاول اجتثاث عوامل الشر من النفوس الشريرة ، فالهداة قد بعثوا للخير والشر على فرق بينهما . قال حجة الإسلام الغزالى فى أخلاقيانه : « ليس ما فى المجتمع من خير وشر إلا كان شغل العلماء والهداة والمرشدين ، فقد وضعوا للخير حدودا وأحكاما ، ونصبوا له مقاييس وأعلاما ، ثم وضعوا للشر فروقا وأحكاما » « فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة » . والكشف عن تفاريع ذلك مرتهن بالأعداد القادمة ، فإلى الغد القريب ؟

عباس طه

احياء ذكرى فقيد مصر العظيم

نظراً لما كان للفقيد العظيم (محمد محمود باشا) من الفضل العظيم فى المحافظة على الروح الدينية ، والأخلاق الاسلامية ، بانشاء قسم الوعظ والارشاد ، وتعميمه فى أرجاء البلاد .

نظرا لهذا ولما كان عليه الفقيد العظيم من صفات يحبها الدين ويحض عليها ويحث على إنمائها ، من عفة لسان ، وأدب خصومة ، وطهارة فى كل ناحية من نواحى الرجولة ، وبعد عن الدنايا ، وأمانة فى أموال الدولة .

نقول : نظرا لكل هذا وغيره ، جمع فضيلة شيخ معهد شبين الكوم حضرات المدرسين والطلاب عقب آخر حصة من يوم الثلاثاء ٤ فبراير سنة ١٩٤١ وألقى فيهم كلمة عن صفحات مجيدة من صفحات هذه الشخصية الخالدة ، وحضهم جميعا على أن يحيوا ذكراه العظيمة ، باحياء المبادئ السامية بين ذويهم وأصحابهم ، حتى يكون ذلك خير جزاء له على حسن ما قدم لدينه ووطنه ، فيعمه الله بفضله ، ويسبغ عليه واسع رحمته .

سكرتير المعهد

محمد الحسينى

في عالم المؤلفات الجديدة

الرد على سير الاوزاعى :

الأوزاعى إمام الشام فى القرن الثانى ، يروى عنه أنه لما اطلع على كتاب السير الصغير لمحمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة قال : « ما لأهل العراق والتصنيف فى هذا الباب ، فانه لاعلم لهم بالسير ، ومغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانت من جانب الشام والحجاز دون العراق فانها محدثة فتحا » . فرد عليه محمد بن الحسن بكتاب أسماه كتاب السير الكبير .

وصنف الاوزاعى كتابا رد فيه على سير الامام أبى حنيفة نفسه . فرد عليه صاحبه أبو يوسف بالكتاب الذى هو بين أيدينا الساعة . وقد كان نادر الوجود . فرأت لجنة إحياء المعارف بالهند أن تعنى بنشره ، فقام بتصحيحه والتعليق عليه فضيلة الأستاذ أبو الوفا الأفغانى رئيس لجنة إحياء المعارف ، وأشرف على طبعه بمصر فضيلة الأستاذ الشيخ رضوان محمد رضوان بالقاهرة . فنشكر للجنة إحياء المعارف عملها على نشر هذا الكتاب التاريخى القيم . ونرجو لها المزيد من التوفيق .

كتاب المسيح وأمه على ضوء العلم :

عالج مؤلف هذا الكتاب حضرة الدكتور الغيور ابراهيم محمد مرزوق موضوعا لم يطرقه أحد قبله ، وهو تفسير حدوث الحمل بعيسى عليه السلام بدون وساطة بشرية ، كما خلق آدم مباشرة من التراب . فقال فى آدم : إن حدوثه نشأ من أن الله خلق خلية أولية من التراب مباشرة ، فنمت على الأسلوب الذى تنمو به الخلايا فى عالم الطبيعة ، فتم تكوين آدم . وقال فى عيسى عليه السلام : إنه نشأ على هذا النحو ، ولكن ليس فى التراب ولكن فى أحشاء والدته مريم عليها السلام ، فقال : « إذا كان المراد إيجاد خلية تناسلية للغاية التى نحن بصددها ومن مادة ترابية ، فالأولى والأجدر اتخاذها من أم الخلايا ، من المبيض الذى تحمله مريم لمثل هذه الغاية ، وكانت النتيجة هى الرجوع للوضع الطبيعى من حيث نشأة عيسى من بويضة أم مريم الخ »

ولكن حضرة الدكتور لأجل أن يصل الى هذه النتيجة ، أفاض فى ذكر موضوعات علمية عالية ينكشف منها للقارئ ناحية مجهولة لأكثر الناس من نواحى علم التوالد ببيان شاف وتعبير شائق .

إننا نحض على وجوب قراءة هذا المؤلف لأنه يسن أسلوبا جديدا لفهم آية من أكبر آيات التولد البشرى ، فإن فات القارئ الاقتناع بنظريته ، فلن يفوته الإلمام بالأصول العلمية الكثيرة التى استعان بها الدكتور لبناء مذهبه . فله منا الشكر الكثير والاعجاب الجم .

and hardship. Strong and steadfast must have been the motives which enabled him, amidst such opposition and apparent hopelessness of success to maintain his principles unshaken. No sooner was he released from this restraint than, despairing of his native city, he went forth solitary and unaided to At-Taif, and there summoned its rulers and inhabitants to repentance, with the message which he said he had from his Lord ; on the third day he was driven out of the town with ignominy, while blood flowed from wounds inflicted on him by the populace. Retiring to a little distance, he poured forth his complaint to God, and then returned to Mecca, there to resume the same outwardly hopeless cause, with the same high confidence in its ultimate success. We search in vain through the pages of profane history for a parallel to the struggle, in which for thirteen years the Prophet of Arabia, in the face of discouragement and threats, rejection and persecution, retained thus his faith unwavering, preached repentance, and denounced God's wrath against his godless fellow-citizens. Surrounded by a little band of faithful men and women, he met insults, menaces, and danger with a lofty and patient trust in the future. And when at last the promise of safety came from a distant quarter, he calmly waited until his followers had all departed, and then disappeared from amongst an ungrateful and rebellious people.

"Not less marked was the firm front and unchanging faith in eventual victory which at Medina bore him through seven years of mortal conflict with his native city ; and enabled him, sometimes even under defeat, and while his influence and authority were yet limited and precarious, even in the city of his adoption, to speak and to act in the constant and undoubted expectation of victory."

Denunciation of Polytheism and Idolatry : "From the earliest period of his religious convictions, the Unity, or the idea of One Great Being guiding with almighty power and wisdom all creation, and yet infinitely above it, gained a thorough possession of his mind. Polytheism and idolatry, at variance with this grand principle, were indignantly condemned, as levelling the Creator with the creature. On one occasion alone did Mohammad swerve from this position, when he admitted that the goddesses of Mecca might be adored as a medium of approach to God(1). But the inconsistency was soon perceived ; and Mohammad at once retraced his steps. Never before, nor afterwards, did the Prophet deviate from the stern denunciation of idolatry."

---

(1) This is a great mistake on the part of the biographer caused by a misconception of the peculiar verse of the Koran which refers exclusively to the heathens' own conviction of the successful intercession of their idols. Qadi Ayad.

acknowledged the hand of God. A fixed persuasion that every incident, small and great, is ordained by the divine will, led to the strong expressions of predestination which abound in the Koran. It is the Lord Who turneth the hearts of mankind; and alike faith in the believer, and unbelief in the infidel, are the result of the divine fiat. The hour and place of everyman's death, as all other events in his life, are established by the same decree; and the timid believer might in vain seek to avert the stroke by shunning the field of battle. But this persuasion was far removed from the belief in a blind and inexorable fate; for Mohammad held the progress of events in the divine hand to be amenable to the influence of prayer. He was not slow to attribute the conversion of a scoffer, like Omar, or the removal of an impending misfortune (as the deliverance of Medina from the Confederate hosts), to the effect of his own earnest petitions to the Lord."

Unwavering Steadfastness at Mecca: "The growth in the mind of Mohammad of the conviction, that he was appointed to be the Prophet and Reformer, is intimately connected with his belief in a special Providence embracing the spiritual as well as material world; and out of that conviction arose the confidence that the Almighty would crown his mission with success. While still at Mecca, there is no reason to doubt that the questionings and aspirations of his inner soul were regarded by him as proceeding directly from Cod. The light which gradually illuminated his mind with a knowledge of the divine unity and perfections, and of the duties and destiny of man,—light amidst gross darkness,—must have emanated from the same source; and He Who in His own good pleasure had thus begun the work, would surely carry it through to a successful ending. What was Mohammad himself, but an instrument in the hand of the Great Worker? Such, no doubt, were the thoughts which strengthened him, alone and unsupported, to brave for many weary years, the taunts and persecutions of a whole people. In estimating the signal moral courage, thus displayed, it must not be overlooked that for what is ordinarily termed physical courage Mohammad was not remarkable.

"It may be doubted whether he ever engaged personally in active conflict on the battle fields. Though he often accompanied his forces, he never himself led them into action, or exposed his person to avoidable danger. And there were occasions, on which he showed symptoms of a faint heart. Yet even so, it only brings out in higher relief, the singular display of moral daring. Let us for a moment look to the period when a ban was proclaimed at Mecca against all citizens, whether professed converts or not, who espoused his cause or ventured to protect him; and when along with these, he was shut up in the 'Shi'b' or quarter of Abu Talib, and these for three years, without prospect or relief, endured want

Obaida, son of Harith, fell a martyr at Badr, and his widow Zainab, daughter of Khuzaima, was taken in marriage by the Prophet in the same year. In the next year, Abu Salma died, and his widow Um-i-Salma was taken to wife by the Prophet. As Christian criticism lays too much stress upon the Holy Prophet's marriage with Zainab daughter of Jahsh, a full explanation of the events in connection with this marriage is necessary :

Zainab was the daughter of the Prophet's own aunt; she was one of the early converts to Islam, and the Holy Prophet proposed to her brother that she should be given in marriage to Zaid, his adopted son and freedman. Both brother and sister were averse to this match and only yielded under pressure from the Holy Prophet. It is related, that they both desired that the Holy Prophet himself should marry Zainab(1), but the Prophet insisted that she should accept Zaid.

The marriage was, however, not a happy one. Zainab was harsh of temper, and she never liked Zaid, on account of the stigma of slavery which attached to his name. Differences arose, and Zaid expressed a desire to the Holy Prophet of divorcing Zainab. The news was grievous to the Prophet, for it was he who had insisted upon the marriage, and he therefore advised Zaid not to divorce her. He feared that people would object, that a marriage which had been arranged by the Prophet, was unsuccessful. It is to this circumstance, that the verse in the Koran 37 : XXII refers : "And, you feared men, and God had a greater right that you should fear Him(2)."

Let us now revert to Sir William Muir's views of the character of the Prophet.

Conviction of Special Providence : "Proceeding now to consider the religious and prophetical character of Mohommad, the first point which strikes the biographer is his constant and vivid sense of a special and all-pervading Providence. This conviction moulded his thoughts and designs, from the minutest actions in private and social life to the grand conception, that he was destined to be the Reformer of his people and of all Arabia. He never entered a company but he sat down and rose up with the mention of the Lord. When the first-fruits of the season were brought to him, he would kiss them, place them upon his eyes and say : 'Lord, as Thou hast shown us the first, show unto us likewise the last.' In trouble and affliction, as well as in prosperity and joy, he ever saw and humbly

(1) Al Razi ; Abul Fida ; Ibn Athir & c.

(2) On the other hand, an end had to be put to the old custom of the Arabs' condemning a man's marriage with a woman who was once wedded to his adopted son. Hence, Koran's verse.

faithful husband to her alone. It is obviously absurd, to think that a man whose character was such, could have any 'range of uxorious inclinations.'

Sir William Muir asserts, that "it was not until the mature age of fifty-four, that the Prophet made the 'trials' of Polygamy." It is obviously a contradiction, unworthy of a fair and impartial critic, to think for a moment that at such an advanced age, a man who had 'lived in his youth a virtuous life,' and who, 'at the age of twenty five, married a widow, forty years old, during whose life-time, for five and twenty years, he was a faithful husband to her alone,' should have sexual inclinations. To any really impartial biographer and also to any thoughtful reader, this is quite impossible.

But the marriages of the Holy Prophet have furnished his critics with their chief weapons of attack, and the interested missionary has gone so far as to call him a voluptuary, although some of his own revered spiritual leaders and prophets were chronicled to possess even as many as a few hundred wives(1). For this reason I give here a few particulars regarding the Prophet's marriages.

His first marriage was contracted when he was twenty five years of age, and the widow, Khadija, whom he married was forty years old, that is fifteen years his senior. It was with her and her alone, that he passed all the years of his youth and manhood, until she died three years before the Hijra, or emigration to Medina, when he was already an old man of fifty. This circumstance alone is sufficient to give the lie to those who would belittle him and call him a voluptuary. After her death, while still at Mecca, he married Sauda and Ayesha, the latter of whom was his only virgin wife, and she was the daughter of his intimate and illustrious friend and helper Abu Bakr. Then followed the emigration to Medina, and subsequent to the emigration, he had to fight many battles with his enemies, the Koreish, or such tribes as sided with the Koreish and persecuted the Moslems. The result of these battles, was a great discrepancy between the number of males and females, and as his favourite followers fell in the field of battle, fighting his enemies, the care of their families devolved upon the Prophet and his surviving companions. In the battle of Badr fell Khunais, son of Huzafa, and the faithful Omar's daughter Hafsa was left a widow. Omar offered her to Othman and Abu Bakr in turn, and she was at last married to the Holy Prophet in the third year of the Hijra.

---

(1) David had six wives and numerous concubines, (2 Sam. v. 13. 1 Chrou, iii 1-9 ; xiv 3) Solomon had as many as 700 wives and as many as 300 concubines, (Kings xi : 3) Rehoboams had 18 wives and sixty concubines (2 Chrou, xi 21)

space in refuting the numerous mis-representations made by hostile biographers. However, as one instance of the false charge of cruelty, brought against the Prophet or his followers without foundation, I quote a statement on the subject by Mr. George Sale :— "Dr. Prideaux, speaking of Mohammed's obliging those of Al Nadir to quit their settlements, says that a party of his men pursued those who fled into Syria, and having overtaken them, put them all to the sword, excepting only one man that escaped. 'With such cruelty,' continues he, 'did those barbarians first set up to fight for that imposture they had been deluded into(1).' But a learned gentleman has already observed, that this is all grounded on a mistake which the doctor was led into by an imperfection in the printed edition of Elmacinas ; where, after mention of the expulsion of the Nadirites, are inserted some incoherent words, relating to another action which happened the month before, and wherein seventy Moslems, instead of putting others to the sword, were surprised and put to the sword themselves, together with their leader Al Mondar Ebn Omar, Caab Ebn Zeid alone escaping. (Vide Gagnier, not. in Abulf. Vit. Moh. p. 72)(2)."

Sir William Muir continues his remarks on the person and character of the Prophet as follows :—

Domestic Life : "In domestic life, the conduct of Mohammad was exemplary. As a husband his fondness and devotion were entire. As a father he was loving and tender. In his youth, he lived a virtuous life ; and at the age of twenty-five he married a widow, forty years old, during whose lifetime, for five and twenty years, he was a faithful husband to her alone. Yet it is remarkable that during this period were composed most of those passages of the Koran, in which the black eyed 'Houries' reserved for Believers in Paradise, are depicted in such glowing colours."

Sir William Muir, following the example of other Christian writers, has attributed the Prophet's polygamy to 'unchecked range of his uxorious inclinations,' and when veiwing the social and domestic life of Mohammad, 'fairly and impartially,' he saw it to be chequered by light and shade ; and that, "while there is much to form the subject of nearly 'unqualified' praise, there is likewise much which cannot be spoken of but in terms of reprobation."

Sir William Muir himself, as quoted above, states that in his youth the Prophet lived a virtuous life ; and at the age of twenty five married a widow, forty years old, *during whose life-time, for five and twenty years, he was a*

---

(1) Prid. Life of Mah. p. 82.

(2) G. Sale, Trans. of Al Koran P. 405, Fred Warne & Co.

with others; and was sedulously solicitous for the personal comfort of every one about him. A kindly and benevolent disposition pervades all these illustrations of his character."

Friendship : "Mohammad was also a faithful friend. He loved Abu Bakr with the close affection of a brother; Ali, with the fond partiality of a father. Zaid, the Christian slave of his wife Khadija, was so strongly won by the kindness of the Prophet, that he preferred to remain at Mecca, rather than return home with his own father: 'I will not leave thee,' he said, clinging to his patron, 'for thou hast been a father and a mother to me.' The friendship of Mohammad survived the death of Zaid, and his son Osama was treated by him with distinguished favour for the father's sake. Othman and Omar were also the objects of his special attachment; and the enthusiasm, with which at Al Hodeibiya, the Prophet entered into 'the Pledge of the Tree', and swore that he would defend his beleaguered son-in-law even to the death, was a signal proof of faithful friendship. Numerous other instances of Mohammad's ardent and unwavering regard might be adduced. And his affections were in no instance misplaced; they were ever reciprocated by a warm and self-sacrificing love."

Moderation and Magnanimity : "In the exercise of a power absolutely dictatorial, Mohammad was just and temperate. Nor was he wanting in moderation towards his enemies, when once they had cheerfully submitted to his claims. The long and obstinate struggle against his mission, maintained by the inhabitants of Mecca, might have induced its conqueror to mark his indignation in indelible traces of fire and blood. But Mohammad, excepting a few criminals, granted a universal pardon; and, nobly casting into oblivion the memory of the past, with all its mockery, its affronts and persecution, treated even the foremost of his opponents with gracious and even friendly consideration. Not less marked was the forbearance shown to Abdallah and the disaffected citizens of Medina, who for so many years persistently thwarted his designs and resisted his authority, nor the clemency, with which he received the submissive advances of tribes that before had been the most hostile, even in the hour of victory(1)."

Some Christian biographers of the Prophet dwell too much on what they termed his cruelty towards his enemies. Honestly speaking, cruelty was nowhere shown in the conduct of the Prophet, as the reader will have observed in his Life, as given in this book.

It is not the intention of the author of this book to occupy too much

(1) Vide Sir William Muir's "The Life of Mohammad."

Simplicity of his Life : "A patriarchal simplicity pervaded his life. His custom was to do everything for himself. If he gave an alms, he would place it with his own hand in that of the petitioner. He aided his wives in the household duties, mended his clothes, tied up the goats, and even cobbled his sandals. His ordinary dress was of plain hhite cotton stuff, made like his neighbours ; but on high and festive occasions he wore garments of fine linen, striped or dyed in red. He never reclined at meals. He ate with his fingers ; and when he had finished, he would lick them before he wiped his hands. He lived with his wives in a row of low and homely cottages, built of unbaked bricks, the apartments separated by walls of palm-branches, rudely daubed with mud, while curtains of leather, or of black haircloth, supplied the place of doors and windows. He was to all easy of access,—'even as the river's bank to him that draweth water from it'—yet he maintained the state and dignity of real power. No approach was suffered to familiarity of action or speech. The Prophet must be addressed in subdued accents and in a reverential style. His word was absolute; his bidding law. Embassies and deputations were received with the utmost courtesy and consideration. In the issue of rescripts, bearing on their representations, or in other matters of state, the Prophet displayed all the qualifications of an able and experienced ruler, as the reader(1) will have observed from the numerous examples given. And what renders this the more strange, is that he was never known himself to write."

Urbanity and Kindness of Disposition : "A remarkable feature was the urbanity and consideration, with which Mohammad treated even the most insignificant of his followers. Modesty and kindliness, patience, self-denial and generosity pervaded his conduct and rivetted the affections of all around him. He disliked to say No. If unable to answer a petitioner in the affirmative, he preferred silence. 'He was more bashful,' says his wife Ayesha, 'than a veiled virgin ; and if anything displeased him, it was rather from his face, than by his words, that we discovered it ; he never smote anyone, but in the service of God, not even a woman or a servant.' He was not known ever to refuse an invitation to the house even of the meanest, nor to decline a proffered present, however small. When seated by a friend, 'he did not haughtily advance his knees towards him.' He possessed the rare faculty of making each individual in a company think that he was the favoured guest. If he met any one rejoicing at success, he would seize him eagerly and cordially by the hand. With the bereaved and afflicted, he sympathised tenderly. Gentle and indulgent towards little children, he would not disdain to accost a group of them at play, with the salutation of peace. He shared his food, even in time of scarcity,

(1) i. e. the reader of Sir Wm. Muir's 'Life of Mohammad'.

power of working miracles. Whatever he had said he could do, his disciples would straightway have seen him do. They could not help attributing to him miraculous acts which he never did, and which he always denied he could do. What more crowning proof of his sincerity is needed? Mohammed to the end of his life claimed for himself that title only, with which he had begun, and which the highest philosophy and the truest Christianity will one day, I venture to believe, agree in yielding to him, that of a Prophet, a very Prophet of God(1)."

VIII

The Person and Character of the Prophet Mohammad

It is only right that, before bringing the biography of the Prophet to a conclusion, I should give illustration of his chief traits and character, as already brought to light and passed as authentic by distinguished European critics.

Sir William Muir writes(2).

Personal Appearance and Gait (of the Prophet) : "His form, though little above mean height, was stately and commanding. The depth of feeling in his dark black eyes and the winning expression of a face otherwise attractive, gained the confidence and love of strangers, even at the first sight. His features often unbended into a smile full of grace and condescension. 'He was' say his contemporary biographers, 'the handsomest and bravest, the brightest faced and most generous of men.' Yet when anger kindled in his piercing glance, the object of his displeasure might well quail before it. His stern frown was an augury of death to many a trembling captive. In later years, the erect figure began to stoop; but the step was still firm and quick. His gait has been likened to that of one descending rapidly a hill. When he made haste, it was with difficulty that one kept pace with him. He never turned, even if his mantle caught in a thorny bush, so that his attendants talked and laughed freely behind him, secure of being unobserved."

His Habits : "Thorough and complete in all his actions, he took in hand no work without bringing it to a close. The same habit pervaded his manner in social intercourse. If he turned in conversation towards a friend, he turned not partially, but with his full face and his whole body. In shaking hands he was not the first to withdraw his own; nor was he the first to break off in converse with a stranger, nor to turn away his ear."

(1) Vide 'Mohammed and Mohammedanism' by Bosworth Smith, p. 340.
(2) Vide 'The Life of Mohammad' by Sir Wm. Muir.

Mr. Bosworth Smith, apparently an uprejudiced English historian in his "Mohammed and Mohammedanism" comments as follows :—

"Mohammed did not, indeed, himself weld together into a homogeneous whole a vast system of states like Charles the Great. He was not a philosophic king, like Marcus Aurelius, nor philosopher, like Aristotle, or like Bacon, ruling by pure reason the world of thought for centuries with a more than kingly power; he was not a legislator for all mankind, nor even the highest part of it, like Justinian; nor did he cheaply earn the title of the Great by being the first among rulers to turn, like Constantine, from the setting to the rising sun. He was not a philanthropist, like the Greatest of the Stoics.

"Nor was he the apostle of the highest form of religion and civilisation combined, like Gregory or Boniface, like Leo or Alfred the Great He was less, indeed, than most of these in one or two of the elements that go to make up human greatness, but he was also greater. Half Christian and half Pagan, half civilisd and half barbarian, it was given to him in a marvellous degree to unite the peculiar excellences of the one with the peculiar excellences of the other. 'I have seen,' said the ambassador sent to the triumphant Quoraish at the despised exile at Medina 'I have seen the Persian Chosroes and the Greek Heraclius sitting upon their thrones; but never did I see a man ruling his equals as does Mohammed.'

"Head of the state as well as of the Church, he was Caesar and Pope in one; but he was Pope without the Pope's pretensions, Caesar without the legions of Caesar. Without a standing army, without a fixed revenue; if ever any man had the right to say that he ruled by a right divine, it was Mohammed, for he had all the powers without its instruments, and without its supports . . . .

. . . .

"By a fortune absolutely unique in history, Mohammed is a threefold founder of a nation, of an empire, and of a religion. Illiterate himself, scarcely able to read or write, (1) he was yet the author of a book which is a poem, a code of laws, a Book of Common Prayer, and a bible in one, and is reverenced to this day by a sixth of the whole of the human race, as a miracle of purity of style, of wisdom and of truth. It was the one miracle claimed by Mohammed — his standing miracle he called it, and a miracle indeed it is. But looking at the circumstances of the time, at the unbounded reverence of his followers, and comparing him with the fathers of the church or with mediaevel saints, to my mind the most miraculous thing about Mohammed is, that he never claimed the

(1) All trustworthy commentators aud Moslem Historians agree in that the Prophet Mohammad was absolutely illiterate. He could never read or write. (Cf. Ibn Athir; Ibn Hisham Al Wakidi; G. Sale; Sir. Wm. Muir; The Koran)

can possibly be written by the pen of a European historian. In his lecture "The Hero as Prophet," Thomas Carlyle writes: "Mohamet himself, after all that can be said about him, was not a sensual man. We shall err widely if we consider this man as a common voluptuary, intent mainly on base enjoyments — nay, on enjoyments of any kind. His household was of the frugalest, his common diet barley-bread and water; sometimes for months there was not a fire once lighted on his hearth. They record with just pride that he would mend his own shoes, patch his own cloak. A poor hard-toiling, ill-provided man; careless of what vulgar men toil for. Not a bad man I should say; something better in him than hunger of any sort; or these wild Arab men fighting and jostling three-and-twenty years at his hand, in close contact with him always, would not have reverenced him so. These were wild men, bursting ever and anon into quarrel, into all kinds of fierce sincerity; without right, worth and manhood, no man could have commanded them. They called him Prophet, you say? Why he stood there face to face with them; bare, not enshrined in any mystery, visibly clouting his own cloak, cobbling his own shoes, fighting, counselling, ordering in the midst of them, they must have seen what kind of a man he was, let him be called what ye like. No emperor with his tiaras was obeyed as this man in a cloak of his own clouting. During three and twenty years of rough actual trial, I find something of a veritabe hero necessary for that of itself.

"His last words are a prayer; broken ejaculations of a heart struggling-up in trembling hope towards its Maker. We cannot say that his religion made him worse; it made him better; good not bad. Generous things are recorded of him: when he lost his daughter, the thing he answers is, in his own dialect everyway sincere, and yet equivalent that to that of Christians, 'The Lord giveth and the Lord taketh away; blessed be the name of the Lord.' He answered in like manner of Zaid, his emancipated well-beloved slave, the second of the believers. Zaid had fallen in the war of Tabûc, the first of Mahomet's fighting against the Greeks. Mahomet said it was well; Zaid had done his Master's work, Zaid had now gone to his Master: it was all well with Zaid. Yet Zaid's daughter found him weeping over the body; — the old greyhaired man melting in tears! 'What do I see?' said she. 'You see a friend weeping over his friend.' He went out for the last time into the mosque two days before his death; asked, if he had injured any man? Let his own back bear the stripes. If he owed any man? A voice answered: 'Yes me three drachms borrowed on such an occasion.' Mahomet ordered them to be paid. 'Better be in shame now', said he, 'than at the day of judgment.' You remember Khadijah and the 'No, by Allah!' Traits of this kind show us the genuine man, the brother of us all, brought visible through twelve centuries, the veritable Son of our common Mother." (1)

---

(1) Lectures on Heroes by Thomas Carlyle, p. 66.

made lawful; nor have I prohibited aught, but that which God in His Book hath prohibited." Then turning to to the women who sat close by, he exclaimed: "O Fatima, my daughter, and Safia, my aunt, Work ye both that which shall procure you acceptance with the Lord; for verily I have no power to save you in any wise." He then rose and re-entered the house of Ayesha. (1) After this, the Prophet never appeared at public prayers. A few hours after he returned from the mosque, the Prophet died whilst laying his head on the bosom of Ayesha. As soon as the Prophet's death was announced a crowd of people gathered at the door of the house of Ayesha, exclaiming, " How can our apostle be dead?" " No," said Omar, " he is not dead, he will be restored to us, and those are traitors to the cause of Islam who say he is dead. If they say so let them be cut in pieces." But Abu Bakr entered the house at this moment, and after he had touched the body of the Prophet with demonstration of profound affection, he appeared at the door and addressed the crowd with the following speech: " O Moslems, if any of you has been worshipping Mohammad, then let me tell you that Mohammad is dead. But if you really do worship God, then know you that God is living and will never die. Do you forget the verse in the Koran: 'Mohammad is but an apostle, before whom other apostles have already passed?' and also the other verse: 'Thou shalt surely die (O Mohammad) and they also shall die?' Upon hearing this speech of Abu Bakr, Omar acknowledged his error and the crowd was satisfied and dispersed.

Al Abbas, the Prophet's uncle, presided at the preparation for the burial, and the body was duly washed and perfumed. There was some dispute between the Koreishites and the Ansars as to the place of burial; but Abu Bakr settled the dispute by affirming that he had heard the Prophet say, that a prophet should be buried at the very spot where he died. A grave was accordingly dug in the ground within the house of Ayesha, and under the bed on which the Prophet died. In this grave the body was buried, and the usual rites were performed by those who were present.

Thus the glorious life of the Prophet Mohammad ended. The Arabs, being then united in one faith and under one banner and one prince, found themselves in a position to make those conquests which extended the Mohammadan faith over so great a part of the world. (2)

The following comment on the Prophet's life by Thomas Carlyle, will be found to be as true a picture of Mohammad's character as

---

(1) Ibn Hislam; Al Wakidy; Ibn Athir.

(2) G. Sale in his Preliminary Discourse to his translation of the Koran.

He soon succeeded in gaining over his tribesmen, and with their help reduced to subjection many of the neighbouring towns. He killed Shahr whom the Prophet had appointed as Governor of Sana in the place of his father, Bazan who had just died. Bazan had been the viceroy of Yemen, under Chosroes of Persia, and after he had adopted Islam, was allowed by the Prophet to remain as Governor of Yemen. He was able to convert to Islam all the Persian colony in that province. Al Aswad, the conjurer, had now killed Shahr, but soon after, he was massacred by the Persians of Yemen. The other two pretenders, Tulayha and Haroun by name, were not suppressed until after the death of the Prophet, during the reign of Abu Bakr. Haroun, better known as Mussaylamah, addressed to the Prophet a letter which ran as follows : "From Mussaylamah, the Prophet of God to Mohammad the Prophet of God. Peace be to you. I am your partner. Let the exercise of authority be divided between us. Half the earth will be mine, and half will belong to your Koreish. But the Koreishites are too greedy to be satisfied with a just division." To this letter the Prophet replied as follows : "From Mohammad, the Apostle of God, to Mussaylamah, the liar. Peace be to those who follow the right path. The earth belongs to God. It is He Who maketh to reign whomsoever He pleaseth. Only those will prosper who fear the Lord."

The health of the Prophet grew worse. His last days were remarkable for the calmness and serenity of his mind. He was able, though weak and feeble, to lead the public prayers, until within three days of his death. He requested that he might be permitted to stay at Ayesha's house, close to the mosque, during his illness, an arrangement to which his other wives assented. As long as his strength lasted, he took part in the public prayers. The last time he appeared in the mosque, he addressed the congregation, after the usual prayers were over in the following words : "O Moslems, if I have wronged anyone of you, here I am to answer for it ; if I owe aught to anyone, all I may happen to possess belongs to you." A man in the crowd rose and claimed three dirhams which he had given to a poor man at the request of the Prophet. They were immediately paid back with these words : "Better to blush in this world than in the next." The Prophet then prayed and implored God's mercy for those who had fallen in the persecution of their enemies. He recommended to all his followers the observance of religious duties and the leading of a life of peace and good-will. He concluded his advice with the following verse of the Koran : "The future mansion (of paradise) We will give unto them who do not seek to exalt themselves on earth or to do wrong; for a happy issue shall attend the pious." Then he spoke with emotion, and with a voice still so powerful as to reach beyond the outer doors of the mosque : "By the Lord in Whose hand lies the soul of Mohammad," he said, "as to myself no man can lay hold on me in any matter ; I have not made lawful anything excepting what God hath

ye appear before the Lord, as this day and this month is sacred for all; and remember, ye shall have to appear before your Lord Who shall demand from you an account for all your actions. Ye people, Ye have rights over your wives, and your wives have rights over you.... Verily ye have taken them on the security of God and have made their persons lawful unto you by the words of God. And your slaves, see that ye feed them with such food as ye eat yourselves, and clothe them with the stuff ye wear, and if they commit a fault which ye are not inclined to forgive, then part with them ; for they are the servants of the Lord and are not to be harshly treated. Ye people, Listen to my words and understand them. Know that all Moslems are brothers. Ye are one brotherhood; but no man shall take aught from his brother, unless by his free consent. Keep yourselves from injustice. Let him who is present tell this to him who is absent. It may be, that he who is told this afterward may remember better than he who has now heard it."

The Prophet concluded his sermon by exclaiming, "O Lord, I have fulfilled my message and accomplished my work." The assembled multitude all in one voice cried, "Yea, verily thou hast." The Prophet again exclaimed, "O Lord, I beseach Thee, bear witness unto it."

Having rigorously performed all the ceremonies of the pilgrimage, that his example might be followed by all Moslems for all succeeding ages, the Prophet returned with his followers to Medina.

The eleventh year of the Hijra, being the last year of Mohammad's life, was spent at Medina. There he settled the organisation of the provincial and tribal communities which had adopted Islam and become the component parts of the Moslem federation. More officers had to be deputed to the interior provinces for the purpose of teaching their inhabitants the precepts of the religion, administering justice, and collecting tithes. Muaz-Ibn-Jabal was sent to Yemen. On his departure to that distant province the Prophet enjoined him to use his own discretion, in the event of his being unable to find express authority in the Koran. Ali was deputed to Yamama in the south-east of the Peninsula. To him the Prophet said: "Never decide between any two parties who come to you for justice unless you first hear both of them."

A force was now being prepared under Osama, the son of Zaid, who was killed at Muta, against the Byzantines, to exact the long delayed reparation for the murder of the envoy in Syria, when the news of the Prophet's sickness and failing health caused that expedition to be stopped. This news was soon noised abroad and produced disorder in some districts. Three pretenders had arisen who gave themselves out as prophets, and tried by all kinds of imposture to win over their tribes. The most dangerous of these pretenders was known as Al Aswad. He was a chief of Yemen and a man of great wealth and sagacity, and a clever conjurer.

turned to their homes and before the following year was over the majority of them were Moslems.

During the tenth year of the Hijra as in the preceding one, numerous embassies continued to pour into Medina from all parts of Arabia, to testify to the adhesion of their chiefs and their tribes. Teachers were sent by the Prophet into the different provinces to teach the new converts the principles and precepts of Islam. These teachers were invariably given the following injunctions when they were about to depart on their mission: "Deal gently with the people, and be not harsh; cheer them, and do not look down upon them with contempt. Ye will meet with many believers in the Holy Scriptures, (1) who will ask you 'What is the key to heaven?' Answer them that it (the key to heaven) is to bear witness to the Divine truth and to do good." (2)

Thus, the mission of the Prophet Mohammad was now accomplished; the whole work was achieved in his lifetime. Idolatry with its nameless abominations was entirely destroyed. The people who were sunk in superstition, cruelty and vice, in regions where spiritual life was utterly unknown, were now united in one bond of faith, hope and charity. The tribes which had been, from time immemorial, engaged in perpetual wars were now united together by the ties of brotherhood, love and harmony. Henceforth, their aims are not confined to this earth alone; but there is something beyond the grave — much higher, purer and diviner — calling them to the practice of charity, goodness, justice and universal love. They could now perceive that God was not that which they had carved out of wood or stone, but the Almighty, Loving, Merciful the Creator of the Universe.

On the return of the sacred month of the pilgrimage, the Prophet, under the presentiment of his approaching end, determined to make a farewell pilgrimage to Mecca. In February 632, he left Medina with a very considerable concourse of Moslems. It is stated that from 90,000 to 140,000 persons accompanied the Prophet. (3) On his arrival at the holy places, from which every trace of the old superstition had been removed, and which in accordance with his orders of the previous year, no idolater was to visit unless he assumed the pilgrim garb. Before completing all rites of the pilgrimage, he addressed the assembled multitude from the top of the Mount Arafat, in the following words: "Ye people! Listen to my words, for I know not whether another year will be vouchsafed to me after this year to find myself amongst you. Your lives and property are sacred and inviolable amongst one another until

(1) i.e. Jews or Christians.
(2) Ibn Hisham.
(3) Ibn Hisham, Ibn Athir Vol. II.

Arabs for its idolatrous priesthood. A small detachement under Ali was sent to reduce them to obedience and to destroy their idols. The prince of the tribe was Adi, the son of the famous Hatim, whose generosity was spoken of all over the peninsula of Arabia. On the approach of the Moslem force, Adi fled to Syria, leaving his sister with some of his principal clansmen, to fall into the hands of the Moslems. These were conducted by Ali with every sign of respect and sympathy to Medina. When the daughter of Hatim came before the Prophet she addressed him in the following words: " Apostle of God, my father is dead; my brother, my only relation has fled into the mountains, on the approach of the Moslems. I cannot ransom myself; I count on your generosity for my deliverance. My father was an illustrious man, the prince of his tribe, a man who ransomed prisoners, protected the honour of women, fed the poor, consoled the afflicted and was deaf to no appeal." "Thy father," answered the Prophet, "had the virtues of a true Moslem; if it were permitted to invoke the Mercy of God on any whose life was passed in idolatry, I would pray to God for mercy for the soul of Hatim." Then, addressing the Moslems around him, he said: "The daughter of Hatim is free, her father was a generous and humane man; God loves and rewards the merciful." With the daughter of Hatim, all her people were set at liberty. She proceeded to Syria, and related to her brother the generosity of Mohammad. Adi, touched by gratitude, hastened to Medina where he was kindly received by the Prophet. He professed Islam and returned to his people, and persuaded them to abandon idolatry. They all submitted and became devoted Moslems. (1)

Hitherto no prohibition had been enforced against idolaters entering the Holy Kaaba or performing their abominable rites within the sacred precincts. Towards the end of the ninth year of the Hijra, during the month of pilgrimage Ali was delegated by the Prophet to read a Proclamation that ran as follows: "No idolater shall after this year perform the pilgrimage; no one shall make the circuit of the temple naked (such a disgraceful custom was practiced by the heathen Arabs), any treaty with the Prophet shall continue in force, but four months are allowed to every man to return to his territories; after that there will be no obligation on the Prophet, except towards those with whom treaties have been concluded. (2)

The vast multitude who had listened to the above declaration re-

(1) Cf. Ibn Hisnam; Ibn Athir Vol. II., Tabari Vol. II., Amir Sayed Aly; Suirit of Islam.

(2) Abul Feda; Ibn Athir; Ibn Hisham.

him to set free their families. The Prophet replied that he was willing to give back his own share of the captives and that of the children of Abdul Muttalib, but that he could not force his followers to abandon the fruits of their victory. The disciples followed the generous example of their teacher and about six thousand people were in a moment set free.(1) The spirit of liberty influenced the hearts of several members of the Thaqif tribe who offered their allegiance and soon became earnest Moslems.

The Prophet now returned to Medina fully satisfied with the achievements of his mission.

The ninth year of the Hijra is known as the year of embassies, as being the year in which the various tribes of Arabia submitted to the claim of the Prophet and sent embassies to render homage to him. Hitherto the Arabs had been awaiting the issue of the war between Mohammad and the Koreishites; but as soon as that tribe — the principal of the whole nation, and the descendants of Ismail, whose prerogatives none offered to dispute — had submitted, they were satisfied that it was not in their power to oppose Mohammad. (2) Hence their embassies flocked into Medina to make their submission to him. The conquest of Mecca decided the fate of idolatry in Arabia. Now deputations began to arrive from all sides to render the adherence to Islam of various tribes. Among the rest, five Princes of the tribe of Himyar professed Islam and sent ambassadors to notify the same. These were the Princes of Yemen, Mahra, Oman and Yamama.(3)

The idolaters of Tayef, the very people who had driven the Preacher of Islam from their midst with violence and contempt now sent a deputation to pray forgiveness and ask to be numbered amongst his followers. They begged however, for temporary preservation of their idols. As a last appeal they begged for one month's grace only. But this even was not conceded. The Prophet said Islam and the idols could not exist together. They then begged for exemption from the daily prayers. The Prophet replied that without devotion religion would be nothing. At last they submitted to all that was required of them. They, however, asked to be exempted from destroying the idols with their own hands. This was granted. The Prophet selected Abu Sufian and Mughira to destroy the idols of the Tayefites, the chief of which being the notorious idol of Al Lat. This was carried out amidst cries of despair and grief from the women of Tayef.

The conversion of this tribe of Tayef is worthy of notice. This tribe which hitherto had proved hostile to the new faith was noted among the

(1) Cf. Tabari, Vol. III; Ibn Hisham; Ibn el Athir, Vol. II.
(2) G. Sale, Introd. to Koran.
(3) Cf. Abul Feda, G. Sale; Intro. to Koran.

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحديد

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر

— ٢ —

بسم الله الرحمن الرحيم :

« آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » :

الخلافة : النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه أو موته أو عجزه . ويقال : خلف فلان فلانا : قام بالأمر عنه ، إما معه أو بعده .

والأجر : ما يعود على العامل من ثواب العمل ، دنيويا كان أو أخرويا . ويقال لما كان عن عقد أو ما يجرى مجرى العقد ، ولا يقال إلا فى النفع .

بعد أن بيّن الله سبحانه أنواعا من الدلائل على وجوده ووحدته وقدرته وحكمته ، وأنه لا يصدر منه إلا ما هو خير ومصلحة ، توجّه الى العباد وأمرهم بالإيمان بالله وبرسوله ، وبالإنفاق فى سبيله . والخطاب موجه الى الناس جميعهم من آمن منهم ومن لم يؤمن ، أما من آمن فبطلب الثبات على الايمان وعدم الزيغ والنفاق ، وأما من لم يؤمن فبطلب الإقرار بالله ورسوله ثم الإنفاق ؛ والمخاطبون مختلفون ؛ والخطاب يتوجه الى كل واحد بما يليق به ؛ كما يقال لأهل بلد من البلاد : صلوا وأنفقوا وأوفوا الكيل ، فيفهم كل واحد من الخطاب ما هو لائق به ، فمن كان يصلى ثابر على الصلاة ، ومن كان لا يصلى صلى ، ومن كان يخسر فى الكيل أوفى ، وهكذا .

طلب الله سبحانه الى عباده الإنفاق مما بأيديهم فى سبيل البر ، ونبههم الى أن الأموال التى فى أيديهم ليست أموالهم على الحقيقة ، بل هى أموال الله سبحانه ، أنشأها وخلقها وخولهم الاستمتاع بها ، ومكنهم من التصرف فيها ، فهم خلفاؤه ووكلاؤه ، وإلى أن هذه الأموال انتهت إليهم عن غيرهم ، وستنتقل عنهم الى غيرهم ، فهم خلفاء عمن قبلهم وسيخلفهم من بعدهم ؛ وإذا كان المال مال الله تداولته الأيدى ، فلا وجه للحرص الشديد عليه ، وخير أن يدخره الانسان عند الله ليكون له أجره يوم الحساب من أن يخرج الى الوارث ، أو يخرج بجائحة من الجوائح . وفى الحديث الشريف « يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » !

« فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » : كان الظاهر أن يقال : آمنوا وأنفقوا تؤجروا ، لكنه عدل عن الظاهر الى هذه الجملة الاسمية ، وأعيد ذكر الإيمان والإنفاق ، ونخم الأجر بالتنكير ، ووصف بالكبير ، كل هذا للدلالة على نخامة الأجر واستمراره ، وتعظيم الإيمان والإنفاق . وقد سمى الله ما يعود على فاعل الخير أجرا ، لأن الله سبحانه وعد الصالحين أن يجزيهم جزاء حسنا ؛ فكأن هناك تعاقدا بين العبد وربه ، واتفاقا على أن يوفى جزاء عمله .

« وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » :

« لا تؤمنون » : حال من معنى الفعل فى ما لكم ، كما تقول : مالك قائما ، بمعنى ما تصنع قائما .

« والرسول يدعوكم » : جملة حالية أيضا ، فهما حالان متداخلتان . والمعنى : ما لكم كافرين بالله والرسولُ يدعوكم ويتلو عليكم الآيات ويقيم عليكم البراهين ، وقد أخذ الله من قبل عليكم الميثاق بالإيمان حين ركب فيكم العقول ، ونصب لكم الأدلة ، ومكنكم من النظر ، وأزاح عنكم العلل ؟ لا عذر مع هذا كله ، فإن كنتم مستعدين للإيمان فقد وجب ، وهذا وقته ، والأسباب متوافرة ، والموانع غير قائمة . فقوله : « إن كنتم مؤمنين » شرطٌ جوابه فهذا وقته أو فقد وجب .

بيّن الله سبحانه أن لا عذر لأحد لأن الأدلة السمعية قائمة هى دعوة الرسول وآياته ، والأدلة العقلية قائمة هى دلائل الآفاق والأنفس ، ووجود العقل المستعد للنظر والاستدلال . وحمل بعض المفسرين الميثاق على ما هو مشار إليه بقوله سبحانه : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى » . وهذا الحمل غير

لائق لأن الميثاق على هذا النحو (١) لم يعرف إلا من جهة الرسول ، وقبل تصديق الرسول والايمان به لا يكون قوله سببا فى إلزامهم ، وإنما الذى هو سبب الإلزام - كما نفهم - هو الدليل العقلى القائم المشاهد بالحواس ، والذى يتصرف العقل فيه بوجوه النظر والاستدلال .

« هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » :

الآية : العلامة الظاهرة . وحقيقتها شىء ظاهر ملازم لشىء آخر غير ظاهر ظهوره ، فاذا أدرك الظاهر منهما علم أنه أدرك الآخر . مثلا : إذا علم شخص أن العَلَم يلازم النهج ثم وجد العلم ، علم أنه أدرك الطريق ؛ وإذا علم شيئا مصنوعا علم أنه لا بد له من صانع .

والبينة : الدلالة الواضحة عقلية أو حسية . والبيان قسمان : بيان بالتنجيز وهو بيان الأشياء التى تدل على حال من الأحوال من آثار الصنع ، وبيان بالاختبار بالنطق أو بالإشارة أو بالكتابة وما أشبه ذلك .

والظلمة : عدم النور ، ويعبر بها عن الجهل والشرك والفسق ، كما يعبر بالنور عن أضدادها .

والرأفة والرحمة : واحد ، وهى رقة تقتضى الإحسان الى المرحوم . وتستعمل فى الرقة المجردة ، وفى الاحسان المجرد ؛ وإذا وصف الله بها فليس معناها إلا الإحسان والإنعام .

بعد أن بين الله سبحانه أنه لا عذر فى ترك الإيمان لوجود الميثاق ودعوة الرسول ، بيّن فى هذه الآية أن دعوة الرسول موجهة اليهم من قبل الله سبحانه رأفة بهم ورحمة ، فهو الذى نزّل على عبده الآيات البينات المفصلات الواضحات ليخرجهم من ظلمة الكفر والجهل الى نور الايمان والعلم ؛ وما على الرسول إلا البلاغ ؛ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، فقد قطع العذر ببعث الرسل ، وأقام الحجة على خلقه .

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » :

(١) هذا جريا على أن الميثاق فى الآية ميثاق خطاب لا ميثاق الادلة . وهما رأيان للمفسرين .

الوراثة : انتقال قنية الى شخص من غيره من غير عقد ولا ما يجرى مجرى العقد . وقد وصف الله نفسه بالوارث لأن مصير الأشياء جميعها اليه سبحانه .

الحسنى : الحسن : كل مبهج مرغوب فيه . والحسنة نعمة تنال الانسان وتسره فى نفسه أو بدنه أو أمواله . والحسن يقال فى الأعيان والأحداث ، والحسنى لا تقال إلا فى الأحداث .

الخبير : الُخبرة : معرفة بواطن الأمور ؛ والُخبر : العلم بالأشياء من جهة الخبر . وإذا قيل : الله خبير بما تعملون ، صح أن يكون معناه : الله عالم بأخباركم ، وأن يكون معناه : عالم ببواطن أموركم .

ومعنى الآيات : أىُّ غرض لكم فى ترك الإنفاق فى سبيل الله ، والله سبحانه سيرث السموات والأرض وما فيهن ، والأموال صائرة إليه ؟ فإذا لم تنفقوها فى سبيله ذهبت منكم بعد موتكم دون مقابل فلم تنتفعوا منها بشىء ، أما إذا أنفقتموها فى سبيله فسينالكم الحظ والأجر ، وتكون مدخرة عنده . وهذا ندب الى الإنفاق ، وحث شديد عليه ، وتقريع على تركه ؛ وكأنه يقول : إنه لايتصف بهذا عاقل ولا يرضاه ، لأن تصرف العقلاء يجب أن يكون له باعث ومصلحة ، ولا مصلحة فى ترك الإنفاق ، بل المصلحة فى الإنفاق لنيل الأجر . وهذه الآية أقوى فى الحث على الإنفاق من الآية السابقة .

وقد كان هناك قتالان أحدهما أفضل من الآخر ، وكان هناك نفقتان إحداهما أفضل من الأخرى : كانت النفقة والقتال قبل فتح مكة أفضلَ من النفقة والقتال بعد فتح مكة ؛ فالذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتح أعظم درجة من الذين أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح ، لأن الأولين فعلوا ما فعلوه عند مسيس الحاجة الى النصرة بالأنفس والأموال ، لقلة عدد المسلمين وفقرهم ، وكثرة أعدائهم ويسرهم ، ولأنه لم يكن إذ ذاك غنائم تنتظر ، ولا كان الوثوق بالظفر ، فكانت النفقة أشق على النفس ، وكانت الحاجة إليها ماحة ، وكذلك شأن القتال ؛ فالنفقة والقتال قبل الفتح من أعظم الأدلة على الإيمان والإخلاص ، وعلى أنهما ابتغى بهما وجه الله . وهذا معنى قوله سبحانه : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل » أى لا يستوى هو ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل . وقد دلّ على هذا قوله : « أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا » .

نفى الله استواء الفريقين فى الأجر ، ولكنه أثبت لهما معا الحسنى ، وهى المثوبة فى الدار الآخرة ، وهى الجنة ورضوان الله سبحانه .

والله سبحانه خبير بأعمال العباد ظاهرها وباطنها ، وعالم بأخبارهم ، وسيجازى على مقدار الأعمال وما يحيط بها من الملابسات ، وما يدفع إليها من الغايات والنيات .

« مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » :

القرض : ما يدفع من المال على شرط رده . وإذا وصف الله بالكرم فمعناه إحسانه وإنعامه المتظاهران ؛ وإذا وصف الإنسان بالكرم فهو اسم للأفعال والأخلاق المحمودة التى تظهر عليه ؛ ولا يقال هو كريم حتى يظهر ذلك منه . وكل شىء شَرُف فى بابه يقال له كريم .

سمى الله سبحانه قرضا ما ينفق فى سبيله وفى وجوه الخير ابتغاء مرضاته . والقرض كما سبق بيانه : ما يعطى على شرط الرد ؛ ففى ذلك دلالة على أنه سيرده الى المنفق . ثم ذكر صراحة أنه سيعطيه أجرا كريما ، وأنه سيضاعف هذا الآجر الكريم . ولا يوجد ما هو أبلغ فى الحث على الصدقة والإحسان من هذا التعبير . يقول الله سبحانه : هذه يدى بسطتها أريد قرضا سأرده ، وسأجزى عليه أجرا كريما مضاعفا ؛ فمن الذى يسمع هذا ولا يبادر الى الإجابة ويتمم عقد القرض مع الله ؟ فالجملة مسوقة مساق التمثيل ، وأثرها ظاهر فى النفس ، وهى أبلغ من كل عبارة تقال فى الحث على الصدقة . وقد ذكروا أن يهوديا قال عند نزول هذه الآية : ما استقرض إله محمد حتى افتقر ! فلطمه أبو بكر ، فشكا اليهودى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لأبى بكر : ما أردت بهذا ؟ قال : ما ملكت نفسى أن لطمته ، ولم يقلها اليهودى إلا استهزاء وحمقا وجهلا .

وقد ذكروا فى شروط القرض الحسن وجوها : أن يكون حلالا ، فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب ؛ وأن لا يكون رديئا ؛ وأن يعطى للأحوج فالأحوج ؛ وأن يكتم الصدقة ولا يتبعها المن والأذى ؛ وأن يقصد بها وجه الله دون الرياء ؛ وأن لا يستكثرها وإن كانت كثيرة ؛ وأن تكون من المال المحبوب عنده ؛ وأن لا يرى لنفسه عزة الغنى ويرى للفقير ذلة الفقر ؛ وأن يكون الانفاق فى حال رجاء الحياة وطول الأمل .

وقد أكثر الله سبحانه فى القرآن من الحث على الصدقات بأساليب مختلفة ؛ وفى سورة البقرة طائفة من الآيات ، نورد بعضها هنا تتمة لموضوع الصدقة :

« الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يُتْبِعون ما أنفقوا مَنّاً ولا أذًى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقة يَتْبَعها أذى ، والله غنى حليم » ، « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتَثْبِيتاً من أنفسهم كمثل جنة بِرَبْوَةٍ أصابها وابل فآتت أُكُلها ضعفين ، فإن لم يصبها وَابِلٌ فَطَلٌّ ، والله بما تعملون بصير » ، « يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تَيَمَّمُوا الخبيثَ منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تُغْمِضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد » ، « إن تُبدُوا الصدقاتِ فنعمّا هى ، وإن تخفوها وتؤتوها

الفقراء فهو خير لكم » ، « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يُوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون . للفقراء الذين أُحصِروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض ، يحسَبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافا ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » .

ففى هذه الآيات ترغيب فى النفقة ، وفيها شروط القرض الحسن التى مر ذكرها . وهناك أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرغبة فى الصدقة . وكل هذا يدل على روح الاسلام وحبه للتعاون والتناصر ، تحقيقا للوحدة التى يبتغيها ، وتزهيدا فى المال إذا وجدت مصارفه وبان موضع الحق فيه . وهذا يدل على قيمة المال ، وعلى أن له قدرا عظيما ، فإنه وسيلة الى تحصيل الأجر العظيم من الله ، ووسيلة الى أن يعقد المؤمن مع الله قروضا ، وهو وسيلة فى إعزاز البلاد وإعزاز الدين إذا ما تعرض المسلم للجهاد ؛ فلا يجوز التزهيد فى المال على معنى عدم طلبه وعدم جمعه ، وإنما يكون التزهيد فيه على معنى عدم حبه الحب الموجب لادخاره ؛ وكيف يزهد فى المال مع أن الله وعد منفقه بالأجر العظيم ، وبالأمن والمسرة ، حيث قال : « لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ؟

استمر السلف الصالح يفهمون هذه الآيات ويعملون بها ، فصانوا بلادهم وأنفسهم ، وأيدوا الوحدة الاسلامية والتضامن بين أفراد الأمة ، وقويت الروابط بينهم ، فلم يحقد الفقراء على الأغنياء ، ولم ينظر الأغنياء الى الفقراء نظر المدل الفخور ؛ ثم نسى ذلك وقست القلوب ، فظلم الناس فى جمع المال ، وظلموا فى ادخاره . ولا سبيل إلا بالرجوع الى الله وكتابه ، ولا فلاح إلا بالإيمان والتقوى ، والإنفاق فى سبيل الله .

« يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » :

السعى : المشى السريع دون العدو . وبشرته : أخبرته بخبر سار بسط بشرة وجهه . ويقال للخبر السار بشارة وبشرى . والفوز : الظفر بالخير مع حصول السلامة .

بعد أن رغّب الله سبحانه فى الإنفاق ، وحث عليه ، ووعد بالأجر الكريم عليه ، وبالمضاعفة ، بين أن ذلك الأجر المضاعف يكون يوم القيامة . وقد اختلف العلماء فى تفسير ذلك النور : فعن ابن مسعود وقتادة : هو ضياء حقيقى والمؤمنون والمؤمنات يضئ نورهم بين أيديهم وعن أيمانهم ، ونورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم من يضئ نوره كما بين عدن وصنعاء ، ومنهم من يكون نوره مثل الجبل ، ومنهم من لا يضىء نوره إلا موضع قدميه ، وأدناهم

نورا من يكون نوره على إبهامه فينطفئ مرة ويتقد أخرى . وقال بعضهم : هو نور الهداية الى الجنة ، ونور الأعمال الصالحة والمعارف الحقة .

وقوله تعالى : « وبأيمانهم » هو خبر (١) والمبتدأ محذوف . والمعنى : يسعى هداهم بين أيديهم ، وبأيمانهم كتبهم وسجل أعمالهم ؛ وهى فى ذلك نظير قوله تعالى : « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه » . ونور البصيرة والمعرفة إذ ذاك هو الأحق بأن يسمى نورا ، ومقادير الأنوار يوم القيامة على حسب مقادير المعارف ، والله سبحانه هو النور الحقيقى ، والنور المشتق من نوره هو نور الهداية والمعرفة . ولو كان المراد الضياء الحقيقى لما خص بالسعى بين الأيدى ، بل كان يعم جميع الجهات ؛ والتخصيص بالسعى بين الأيدى دليل على أنه عنى به معنى آخر .

وقوله : « بشراكم اليوم جنات » : أى يقال للمؤمنين فى ذلك اليوم : ما تبشَّرون به اليوم هو جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها لا تتحولون عنها ، وهذا الخلود فى الجنات هو الظفر والنجح العظيم .

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ، قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً ، فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ، وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ . فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، مَأْوَاكُمُ النَّارُ ، هِيَ مَوْلَاكُمْ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » :

النفاق : الدخول فى الشرع عن باب والخروج عنه من باب آخر .

انظرونا : قرأ عامة قراء المدينة والبصرة وبعض أهل الكوفة : انظرونا موصولة ، بمعنى انتظرونا ؛ وعامة أهل الكوفة : أنظرونا مقطوعة الألف من أنظرت . وذكر الفراء أن العرب تقول : انظرنى وهم يريدون انتظرنى قليلا . قال ابن جرير : والصواب من ذلك قراءة

---

(١) يرى بعض المفسرين أن قوله « وبأيمانهم » معطوف على أيديهم ، وأن الباء بمعنى عن . وعدل الشيخ عن هذا لان النور إذا كان يسعى بين الايدى فهو ينتشر بطبعه الى الايمان فلا يفيد ذكر الايمان معنى جديدا . على أنه كان يكفى مجرد العطف بدون ذكر الباء . والموضع لمن . وقد عين المحذوف بالآية التى استشهد بها .

الوصل لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب إذا أريد به انتظرنا ، وعلى قراءة الوصل يصح أن يكون المعنى : انظروا الينا .

والقبس : هو المتناول من الشعلة ؛ والاقتباس : طلب ذلك ، ويستعار لطلب الهداية .

التمسوا : أى اطلبوا . والمس : إدراك بظاهر البشرة كاللمس ، ويعبر به عن الطلب ؛ ومنه قوله : وألمسه فلا أجده ، وقول الله سبحانه : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها مُلئت حَرسا شديدا وشهبا » .

وأصل الفتن : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته ؛ واستعمل فى إدخال الناس النار ؛ ويستعمل أيضا فيما يحصل منه العذاب ؛ ومنه « ألا فى الفتنة سقطوا » . ويستعمل استعمال البلاء فيما يدفع اليه الإنسان من شدة .

والتربص : الانتظار بالشىء ، مثل تربص غلاء السلعة أو رخصها ، وتربص زوال الشىء أو حصوله . ويقال : رابنى ريبا وأرابنى إرابة . والريب : أن تتوهم بالشىء أمراً ما فينكشف عما تتوهمه . وسمى ريب المنون ريبا مع أنه لا شك فيه باعتبار الشك فى وقته .

والغرة : غفلة فى اليقظة ؛ يقال : غررت فلانا إذا أصبت غرته ونلت منه ما تريد . وغَرُّ الثوبِ أثرُ كسره ؛ ومنه قيل : اطوه على غَره . وغره كذا غرورا كأنما طواه على غره .

والتمنى : تقدير شىء فى النفس وتصويره فيها ، قد يكون عن ظن ، وقد يكون عن روية وبناء على أصل ، وأكثره ما كان عن تخمين ؛ فصار الكذب له أملك . وأكثر التمنى تصور ما لا حقيقة له .

والفدية والفداء : حفظ الإنسان عن النائبة بما يبذله عنه .

والمأوى : اسم للمكان الذى يأوى اليه أى ينضم اليه . ويقال : صار الى كذا أى انتهى اليه فى تنقله وحركته . ومنه « وإليه المصير » .

بعد أن صور الله حالة المؤمنين يوم القيامة ، وبين أن نورهم يسعى بين أيديهم ، وأنهم يبشرون بالخلود فى الجنة ، صور فى هذه الآيات حال المنافقين الذين دخلوا فى الاسلام من باب وخرجوا منه من باب ، فهم فى الظاهر مع المؤمنين وفى الباطن مع الكافرين ؛ ولذلك قال الله تعالى فى حقهم : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيرا » .

وقد روى عن ابن عباس : بينما الناس فى ظلمة إذ بعث الله نورا ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلا على الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا تبعوهم فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ : انظرونا نقتبس من نوركم فانا كنا معكم فى الدين ؛

قال المؤمنون : ارجعوا من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا النور هناك ، فضرب الله بين الفريقين بسور ، وهو حاجز بين أهل الجنة وأهل النار .

وهـذا التصوير ظاهر على رأى القائلين بأن النور نور حقيقى هو ضياء ، وعلى أن معنى انظرونا أمهلونا حتى نسير معكم فى نوركم فإنا لا نرى حولنا إلا ظلمات لا نستطيع السير فيها ، ويكون الاقتباس واضحا أيضا ، لأنه تناول النور من الشعلة .

أما على الرأى القائل بأن النور نور الهداية ، فيكون المعنى : انظرونا نسر فى هديكم معكم ؛ ويكون الاقتباس معناه الانتفاع بالهداية ، ويكون معنى قول المؤمنين لهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا : ارجعوا فاطلبوا الهداية من خلفكم لا من عندنا ، إما من الدنيا بتحصيل الأعمال الصالحة التى ثمرتها الهداية يوم القيامة ، وإما من الموقف المظلم قبل أن يشع نور الهداية للمؤمنين ؛ وكلا الأمرين مستحيل ، لأن الرجوع الى الدنيا غير ميسور ، وحصول الهداية من الموقف المظلم غير ميسور .

وعلى كل حال فتفسير انظرونا بانظروا الينا فإنكم إذا نظرتم الينا وقع نوركم أمامنا فأمكن من السير ، غير واضح ، لأنهم إذا نظروا اليهم وتقابلوا كيف يمكن السير ؟

وسواء أكان النور ضياء أم كان هداية ، فقد بين الله سبحانه أنه يفصل فى ذلك اليوم بين الفريقين بحاجز له باب باطنه من قبل المؤمنين رحمة وسلام ، وظاهره من قبل المنافقين عذاب ، وأن المنافقين ينادون المؤمنين : ألم نكن معكم نعمل أعمالكم من صلاة وصيام ونقيم الشعائر ، فلم تمتازون علينا وتخصون بهذه النعم ؟ فيقول لهم المؤمنون : حقا كنتم معنا ولكنكم أوقعتم أنفسكم فى البلاء ، وعملتم ما هو سبب فى دخول النار ، وتربصتم أن تدور الدائرة علينا فيضعف أمرنا ، ويهون شأننا ، ويزول من الوجود ظلنا ، وشككتم فى الدين ، وغرتكم الأمانى التى كنتم تقدرونها وتمنون أنفسكم بها من زوال الإسلام وانعكاس أمر المسلمين ؛ ظللتم على هـذا الحال حتى جاء أمر الله وهلكتم ، وفارقتم الدنيا ، وعجزتم عن اكتساب صالحات الأعمال ، وغركم الشيطان وزين لكم النفاق بما أوقع فى صدوركم من الأمانى ، وبما لوح لكم من عفو الله ؛ فاليوم لا سبيل الى النجاة ، ولا سبيل الى دفع الفدية والبدل الذى يؤخذ منكم للنجاة من النار ؛ النار أولى وأحق بكم ، والنار بئس المصير الذى انتهيتم إليه بعد طول التنقل . وعلى هذا فكلمة مولى نوع من اسم المكان لوحظ فيه معنى أولى لا أنه مشتق منه . ومثله لفظ مئنة ، تقول : فلان مئنة الكرم ، أى هو مكان لقول القائل : إنه لكريم . وقد يكون معنى المولى الناصر ، أى لا ناصر لكم غير النار ، من قبيل قوله : تحية بينهم ضرب وجيع . سمى الضرب الوجيع تحية على معنى أنه لا تحية لهم إلا الضرب الوجيع ، فإنهم لا يستحقون غيره تحية .

هذا التصوير لحال المؤمنين وحال المنافقين ، مما يبعث الرغبة الى الإنفاق فى نفس المؤمن ، ليزيد نوره فى ذلك اليوم ، ويكون مع المؤمنين الذين يسيرون الى الجنة كما يسير البرق الخاطف ولا تنالهم أهوال يوم القيامة ، ولا يكون مع المنافقين الذين يتخبطون فى الظلمات ، ويقتبسون النور فلا يمكنون منه ، ويتهكم عليهم المؤمنون بقولهم : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا .

وقد رغب الله فيما سبق من الآيات فى الإنفاق على وجوه شتى :

أولها : وعد الذين أنفقوا بأن لهم أجرا كبيرا .

وثانيها : تنبيههم الى أن هذه الأموال ليست أموالهم بل هم وكلاء مستخلفون فى التصرف فيها .

وثالثها : أنها ستذهب عنهم وتصير الى الله وارث السموات والأرض .

ورابعها : هذا التصوير القوى لحال المؤمنين وحال المنافقين .

« يتبع »

السيرة المحمدية
تحت ضوء العلم والفلسفة

غزوات وسرايا فيما بقى من السنة الخامسة وفى السنة السادسة للهجرة

لما آب النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة الأحزاب ، وهمّ أن يخلع لبوس الحرب ، أوحى اليه أن يقاتل بنى قريظة ، وهم من اليهود المجاورين للمدينة ، تأديبا لهم على خيانتهم العهد ، وعلى ممالأتهم للمشركين عندما قدموا لمقاتلة المسلمين . فما وسع النبي صلى الله عليه وسلم وقد أمر بأن يغزوهم على الفور إلا أن قال لأصحابه : لا يصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة . فصدعوا بالأمر وخرجوا طالبين ديار بنى قريظة ، وتبعهم رسول الله ، وكانت عدتهم ثلاثة آلاف مقاتل لواؤهم بيد على بن أبى طالب .

فلما وصلوا الى أرض بنى قريظة بادر هؤلاء فاعتصموا بحصونهم ، فحاصرهم المسلمون خمسا وعشرين ليلة ، فرأوا أن لا مناص من التسليم ، فطلبوا الى النبى صلى الله عليه وسلم أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير من ترك السلاح والجلاء بالأموال ، فلم يقبل منهم ذلك . فطلبوا أن يجلوا بأنفسهم تاركين سلاحهم وأموالهم ، فأبى طالبا اليهم أن ينزلوا على حكمه . فرجوه أن يرسل اليهم بأحد رجاله أبى لبابة ، وكان حليفا لهم فى الجاهلية ، ليستشيروه . فأرسله اليهم . فلما استشاروه قال لهم : انزلوا ، وأشار الى حلقه ، يريد أن الحكم الذبح .

قال أبو لبابة هذا محدثا عن نفسه : « لم أبارح موقفى بعد إفضائى لهم بما قلت حتى أدركت أنى خنت الله ورسوله » . وما كان منه إلا أن رجع من فوره الى المدينة ولم يقابل النبى خجلا منه ، وربط نفسه فى سارية من سوارى المسجد ، آخذا على نفسه أن لا يزال موثقا فيها حتى يقضى الله فيه بأمره . وسأل عنه النبى فأخبر بما كان منه فقال : أما لو جاءنى لاستغفرت له ، أما وقد فعل ما فعل فنتركه حتى يقضى الله فيه .

لم يسع بنى قريظة إلا النزول على حكم رسول الله ، فأمر بتكتيف الرجال . فجاءه رجال من بنى الأوس حلفائهم فى الجاهلية ، وسألوه أن يعاملهم كما عامل إخوانهم بنى قينقاع . فقال لهم : ألا يرضيكم أن يحكّم فيهم واحدا منكم ؟ فقالوا نعم ، واختاروا زعيمهم سعد بن معاذ . وأمر النبي باحضاره ، وكان جريحا ، فحمل على حمار وعُنى به جماعة من قومه كانوا طول الطريق يرجونه أن يترفق بهم .

فلما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم قال له : احكم فيهم ياسعد . فقال : أحكم أن يقتل رجالهم وتُسبى نساؤهم وذراريهم . فنُفّذ هذا الحكم فيهم . ولم يبق بعد هؤلاء مجاور للمسلمين من اليهود غير بقية من كبارهم بخيبر .

أما أبو لبابة الذى أوثق نفسه فى سارية المسجد ، فما زال على تلك الحال حتى نزل فيه قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم » حُلّ وثاقه واستراح قلبه .

(سرية القُرْطاء) : طائفة من بنى بكر كانوا ينزلون بناحية ضَرِيَّة وهى على بعد سبع ليال من المدينة فى طريق البصرة . أمر النبى صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة أن يغير عليهم فى ثلاثين مقاتلا . ففعل وقتل منهم عشرة وقيل عشرين ، واستاق ما كان معهم من الماشية وهى مائة وخمسون بعيرا وثلاثة آلاف شاة .

واتفق ورجال هـذه السرية عائدون ، أن صادفوا ثمامة بن أثال من رجالات بنى حنيفة فأسروه ، وهم لا يعرفون من هو ، وقدموا به على النبى صلى الله عليه وسلم . فقال لأصحابه : أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفى ، وأمر به فربط الى سارية من سوارى المسجد لينظر حسن صلاة المسلمين واجتماعهم . ثم أقبل عليه بعد الصلاة وقال له : ماذا عندك يا ثمامة ؟ قال : خير يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تُنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد مالا فسل تعط منه ماشئت . فتركه حتى كان الغد . ثم قال له : ما عندك يا ثمامة ؟ فأعاد عليه ماقاله أمس ، فتركه حتى بعد الغد ، ثم عاد اليه فساله كما فعل أولا وثانيا . فقال ثمامة : عندى ما قلت لك . فأمر النبى صلى الله عليه وسلم باطلاق سراحه . فخرج الى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم عاد الى المسجد معلنا إسلامه ، فبشره النبى بخيرى الدنيا والآخرة . فشخص الى مكة ليعتمر . فلما سمعه المشركون ينفى الشريك لله ، قال له قائل : صبأت عن دينك ؟ فقال : لا ولكنى أسلمت لله رب العالمين مع محمد رسوله ؛ ولا والله لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبى صلى الله عليه وسلم وكان أهل مكة فى حاجة الى استيراد حنطتهم من اليمامة بلد ثمامة ، فخشوا إن هم قتلوه أن يقاطعهم أهل بلده فتصيبهم مجاعة . ورأوا أن يكتبوا الى رسول الله أن يأذن لثمامة فى عدم حبس حنطة اليمامة عنهم . فكتب اليه النبى أن يخلى بينهم وبين حاجتهم منها . وهذا من الصفات العالية التى تؤثر عنه صلى الله عليه وسلم ، فان قبوله إمداد أعدائه بما يقوتهم مع تمكنه من إجاعتهم وتضييق الخناق عليهم ، يدل دلالة صريحة على أنه يرى أن للنضال آدابا تجب مراعاتها ، وأن للانسانية حقوقا فوق جميع الاعتبارات ينبغى الوفاء بها . وسلاح إجاعة الأعداء لتضييق المنادح عليهم مشروعة ، ولكن والحرب قائمة ، أما والسلام ضارب أطنابه ، فلا تصح مهما كانت درجة التوتر فى العلاقات بين الفريقين .

غزوة بنى لحيان :

بنو لحيان قبيل من العرب كانوا قد قتلوا عاصم بن ثابت ورجالا معه من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما كان ربيع الأول من السنة السادسة للهجرة سنحت فرصة للاقتصاص منهم ، فأمر بعض أصحابه بالاستعداد للحرب ، وخرج فى مائتين منهم قاصدا بنى لحيان . فلما بلغهم الخبر تفرقوا فى الجبال . فأقام النبى بديارهم يومين يبعث السرايا فلا يعثرون بأحد منهم ، فرجع الى المدينة .

غزوة الغابة :

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم عشرون لَقحة ترعى بالغابة (١) فأغار عليها مغير يدعى عيينة بن حصن فى أربعين راكبا واقتادها . فأبلغ هذا الخبر الى النبى سلمة بن الاكوع ، وكان عدّاء ومن مهرة الرماة . فأمره أن يتصل بالقوم ويشغلهم بالنبل حتى يلحق بهم . فأدركهم سلمة فى الطريق فأخذ يشغلهم بالنبل . فكانوا يركضون خيولهم ليقبضوا عليه فيفوتها ، فاذا كفوا عنه عاد لرميهم ، حتى اضطرهم لإلقاء كثير مما كان معهم من الرماح والأبراد ليخففوا أثقالهم ، فيسهل إفلاتهم من جنود المسلمين .

فى هذه الأثناء ندب النبى صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه للخروج معه ، فدفع لواءه للمقداد بن الأسود وأمره بالخروج ولحق به الفرسان ، فأدركوا مؤخرة العدو ، فحدثت مناوشة قتل فيها مسلم ومشركان ، واستنقذ المسلمون أكثر اللقاح ، وهرب أوائل القوم بالبقية .

فطلب سلمة بن الاكوع الى النبى أن يرسله فى جماعة ليدرك الهاربين ويأخذهم على غرة وهم نازلون على أحد مياههم . فقال له صلى الله عليه وسلم : « قد ملكتَ فأسجح » أى قد غلبت فأحسن العفو . ثم رجع بعد خمس ليال .

إحدى عشرة سرية :

(أولاها) — أن بنى أسد كانوا يؤذون من يمر بهم من المسلمين ، فأرسل اليهم النبى صلى الله عليه وسلم عكّاشة بن محصن فى أربعين راكبا ليقاتلهم . فلما بلغهم الخبر هربوا ، فاستاق المسلمون ما وجدوه من نَعَم العدو وكانت مائة بعير ، وعادوا بها الى المدينة .

و (ثانيتها) — أن النبى صلى الله عليه وسلم علم أن المقيمين بذى القصة (٢) يريدون الإغارة على ماشية المسلمين التى ترعى بالهيفاء (٣) فبعث إليهم محمد بن مسلمة فى عشرة من المقاتلة . فلما وصلوا كان الليل قد أرخى سدوله ، وكان المشركون قد علموا بخبرهم وكمنوا لهم . فلما

---

(١) اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن . والغابة : موضع قريب من المدينة .

(٢) ذو القصة : موضع على بعد ٢٤ ميلا من المدينة . (٣) والهيفاء : موضع آخر قرب المدينة .

ناموا أخذ الأعداء يرمونهم بالنبل ، فتواثبوا الى أسلحتهم ولكن بعد ما فات الوقت ، فقتلوا كلهم إلا قائدهم . فأرسل النبي إليهم أبا عبيدة عامر بن الجراح ليعاقبهم على ما فعلوا . فلما بلغ ديارهم وجدهم قد هربوا ، فاستاق أنعامهم ورجع .

و (ثالثتها) – أن بنى سليم كانوا يعاكسون الذين تحزبوا مع المسلمين فى غزوة الخندق عند ما كانوا يمرون بديارهم . فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة ليقاتلهم . فلما بلغ أرضهم وجدهم قد فروا . فأخذ المسلمون ما عثروا عليه من أنعامهم وشائهم ، ووجدوا رجالا فأسروهم وعادوا الى المدينة .

و (رابعتها) — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نمى إليه أن قافلة تجارية أقبلت من الشام تريد مكة ، فندب لاعتراضها زيد بن حارثة فى مائة وسبعين رجلا ، فاستولى عليها وأسر رجالها ، وكان فيهم أبو العاص بن الربيع وهو من رجالات قريش ، زوج زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت قد هاجرت الى المدينة وتركت زوجها هذا مشركا ، فاستجار بها بعد أسره ، فأجارته وأعلنت ذلك . فقال رسول الله : « المسلمون يد واحدة يجير عليهم أدناهم ، وقد أجرنا من أجرتِ » . ورد على زوجها حريته وماله . فرجع الى مكة ثم عاد الى المدينة مسلما ، فرد عليه رسول الله زوجته زينب .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « يجير عليهم أدناهم » تقرير لمبدأ المساواة لم يكن معروفا لا عند عرب الجاهلية ، ولا عند اليونانيين ولا الرومانيين ممن بلغوا فى القدم درجات عالية فى المدنية . فقد كان لا يجير عندهم إلا كبار الرجال ذوو الجاه والمكانة المالية ؛ أما أدنى القوم فقد كان لا يأبه بهم أحد ، بل كان أهل الطبقة الدنيا فى المدنية الرومانية يدخلون فى حماية السراة ، حتى لا يكونوا عرضة للعدوان وإلا بطش بهم الأقوياء .

و (خامستها) — أن رسول الله بلغه أن بنى ثعلبة ، الذين قتلوا أصحاب محمد بن مسلمة كما أوردناه فى تاريخ السرية الثانية هنا ، يقيمون على بعد نحو ستة وثلاثين ميلا من المدينة ، فوجه إليهم زيد بن حارثة فى خمسة عشر مقاتلا للثأر منهم ، فهربوا من وجه السرية ، فاستولى المسلمون على أنعامهم وشائهم ورجعوا الى المدينة .

و (سادستها) — أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل زيد بن حارثة ليشن على بنى فزارة غارة عقابا لهم على ما تعرضوا لزيد المذكور وهو آيب من الشام بتجارة وانتهبوا ما معه . فقصد القوم فى وادى القرى وهو موضع شمال المدينة . فأحاط بالقوم برجاله وقتل منهم رجالا كثيرين .

و (سابعتها) — أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل عبد الرحمن بن عوف فى سبعمائة من المقاتلة ، لدعوة بنى كلب الى الاسلام ، وكانوا فى دومة الجندل ، وهى قرى فيها حصن على بعد خمس عشرة ليلة من المدينة ، وتقع على بعد خمس ليال من دمشق . وقبل أن يسير الجيش أوصاهم قائلا :

« اغزوا جميعا فى سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ولا تغلّوا (١) ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا ، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم » .

فلما حلوا بديار القوم دعوهم الى الاسلام ثلاثة أيام ، وفى الرابع أسلم رئيس القوم الأصبغ ابن عمرو وكان على النصرانية ، وأسلم معه كثيرون من قومه ، ورضى الباقون أن يدفعوا الجزية باعتبار أنهم من أهل الكتاب .

و (ثامنتها) - أن رسول الله أرسل على بن أبى طالب فى مائة مقاتل لمحاربة بنى سعد بن بكر بفدك (٢) لأنه اتصل به أنهم على وشك الاتفاق مع يهود خيبر لمقاتلة المسلمين . فاتفق لهم أن عثروا بالطريق على جاسوس لهم ، فأمنوه على نفسه فى مقابل دلالتهم على موضع القوم ، فدلهم عليه ، فأغار المسلمون على ماشية القوم واستاقوها الى المدينة ، وكانت خمسمائة بعير وألفى شاة .

و (تاسعتها) - أنه لما أرسل النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عتيك وأربعة رجال معه لقتل أبى رافع سلام بن أبى الحقيق زعيم يهود خيبر ، وكان لغناه ومكانه من قومه كثير التأليب على المسلمين ، ونجح ابن عتيك فى قتله بعد أن دخل فى حصنه بحيلة توصل بها اليه ، وولى اليهود أمرهم أسير بن رزام ، وجّه رسول الله من يأتيه بخبر القوم ، فعلم أن هذا الزعيم الجديد ليهود خيبر يعمل على الاتفاق مع بنى غطفان للثأر من المسلمين . فبعث النبى اليه بعبد الله بن رواحة فى ثلاثين من رجاله ليستميلوه الى المسالمة .

فلما قدم هذا الوفد خيبر عرضوا على أسير بن رزام أن يقدَم معهم الى المدينة ويترك ما عزم عليه من الخصومة ، فيعترف به النبى صلى الله عليه وسلم رئيسا لخيبر ، ويزول ما بين الطرفين من الجفاء . فقبل أسير بن رزام هذا العرض وخرج فى ثلاثين من رجاله ، فجعل كل واحد منهم رديفا لواحد من المسلمين ، وجعل نفسه رديفا لعبد الله بن رواحة ، فبينما هو بالطريق ندم على خروجه وأهوى بيده الى سيف مردفه ليستله ، فجذبه منه وأسرع فى النزول وضربه على فخذه فقطعها ، وتولى كل مسلم رديفه فقتله .

و(عاشرتها) - أن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد قدم عليه جماعة من بنى عكل وعرينة فتظاهروا بالدخول فى الاسلام وكانوا مصابين بأعراض سوء التغذى من رقة حالهم ، فتعطف عليهم النبى صلى الله عليه وسلم فأمر راعيا له أن يعطيهم حاجتهم من ألبان بعض إبله ، وأشار عليهم أن ينتقلوا الى مرعى تلك الابل حتى تعود اليهم صحتهم ، فصدعوا بالأمر ؛ ولما آنسوا فى أنفسهم القوة بعد شفائهم قتلوا الراعى ومثلوا به وأخذوا الابل وفروا . فأمر رسول الله

(١) غل كذا أخذه خفية ودسه فى متاعه (٢) قرية بينها وبين المدينة ست ليال .

كرز بن جابر الفهرى أن يأخذ عشرين فارسا ويلحق بهم ويقتادهم . فلما جيء بهم اليه أمر أن يمثَّل بهم كما مثلوا بالراعى ، فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسمرت أعينهم ، وألقوا خارج المدينة حتى ماتوا .

أما ما ورد من النهى عن التمثيل بالأعداء فقد حدث بعد هذه الحادثة .

و(حادية عاشرتها) - أن النبى صلى الله عليه وسلم أرسل عمرو بن أمية الضمرى وكان رجلا فاتكا فى الجاهلية ، وأصحبه بمعين له ، ليقتلا أبا سفيان بن حرب غيلة ، جزاء له على إرساله رجلا ليقتل النبى غيلة .

فلما شخص عمرو بن أمية الى مكة توجه ورفيقه ليطوفا بالبيت ، فعرف رجل من المشركين عمرا وأذاع الخبر ، فرأى عمرو أن ينجو بنفسه قبل أن يقبض عليه ، فرجع هو وشريكه الى المدينة وبقى أبو سفيان حيا حتى أسلم عندما شرع رسول الله يفتح مكة .

أما خبر الرجل الذى كان أرسله لاغتيال النبى صلى الله عليه وسلم ، فان أبا سفيان قال يوما وهو ينادى قومه : ألا رجل يذهب لمحمد فيقتله غيلة لنستريح منه ؟ فنهض اليه رجل وتعهد له بذلك . فأعطاه راحلة ونفقة . فلما وصل الى المدينة كان النبى بمسجد بنى عبد الأشهل فذهب الى ذلك المسجد ، ولما وقعت عينه على رسول الله قصده متظاهرا بالطاعة وانحنى عليه ، فخشى أسيد بن حضير أن يكون قد أسر شرا فجذبه من إزاره ، فسقط الخنجر الذى أعده له ، فافتضح أمره ، وسأله النبى عن الحامل له على سوء نيته ، فصدَقه وأسلم من ساعته .

***

نظرة على ما سبق :

إننا لم نعمل فى كل ما مر فى هذا الفصل إلا سرد الحوادث التى وقعت فى السنتين الخامسة والسادسة للهجرة ، وكنا نستطيع أن نقف عند الحد الذى انتهينا اليه لنستأنف بقية السيرة المحمدية فى الأعداد التالية ؛ ولكننا شعرنا أن القارئ سيشعر بشيء من الحيرة عندما يقرأ ما عومل به المستسلمون من بنى قريظة من الشدة ، وما حُكم به على الجماعة من عكل وعرينة من التمثيل ، جزاء قتلهم رجلا واحدا وتمثيلهم به ، وما كان يُرسَل من أهل الجرأة والفتك لقتل بعض رؤساء الخصوم غيلة ؛ فلهذا رأينا أن التعقيب على هذه الحوادث واجب .

جاء الاسلام لينشر إصلاحا يشمل الأديان والأصول والمبادئ التى كانت تقود الجماعات الانسانية وأُخرجت عن حدودها ؛ ولبثِّ أصول ومبادئ أدبية جديدة لا بد منها لتكميل أدوات التطور الاجتماعى ، تكميلا لا تحتاج بعده لأدوات أخرى ؛ واقتضى هذا الاصلاح أن تقام له دولة تمثله وتدافع عنه . لأنه ثبت أن كل إصلاح دينى أو اجتماعى لا تتقمص روحه

دولة ، تنافح العوامل المحللة دونه ، يضمحل ويزول كأن لم يكن . والدليل المحسوس على هذا أنه لم يوجد ولا يوجد دين أو نظام مدنى قام بدون دولة . وهذه الديانة النصرانية ظلت فكرة مضطهدة مدة ثلاثة قرون متوالية حتى قامت لها دولة ، سُفكت فى سبيلها دماء ، وهُدمت هياكل وبِيَع ، فقويت واشتدت ونشرت رواقها على أوروبا برمتها ، وعلى بقاع كثيرة من القارات الأخرى .

فكان لابد للاسلام من أن يقيم لنفسه دولة ؛ والدولة عمل إنسانى يقتضى ككل عمل إنسانى أن يناسب البيئة التى يعمل فيها ، والنفوس التى يحتك بها ، ويحطم العقبات التى تقوم دونه .

وهذا العمل الانسانى فى البيئات التى لم تصل بعد الى أرفع درجات السمو الأدبى لا يجدى فيه القيام على المُثُل العليا إلا بعد أن يصل الى غايته القصوى ؛ أما وهو لا يزال فى دور التكوين فلا بد للقائم به من أن يتنزل الى استخدام الأساليب التى لا تتأثر النفوس الراهنة إلا بها . وإذا كان من النفوس من تكفيها الاشارة ، ومنها من لا يؤثر فيها إلا السوط يلهب ظهور أصحابها ، فمن الجماعات ما تجزئ فى زجرها المثل العليا من العدالة ، ومنها ما تفسدها هذه المثل العليا نفسها ، ولا ينفع معها إلا معاملتها بمثل ما تعمل لتقتاد الى ما يصلحها .

إذا أنصف خصوم الاسلام وجب عليهم أن يعجبوا كيف لم تشع هذه المعاملة الشديدة فى الدور الأول من تأسيس الدولة الاسلامية ، وتكون هى الأسلوب العملى لتقويم أمة جاهلية من الطراز المتحجر ، لا أن تقتصر على حادثتين أو ثلاثة فيه ، فان معالجة الجماعات التى فسدت نفوسها بالعيش آلافا من السنين على حالة البداوة ، وقست قلوبها حتى صارت كالصخور أو أشد قسوة ، تضطر أرق المصلحين لها أن يعمدوا كارهين الى وسائل تلائم ما هى عليه من التحجر المستعصى ، وخاصة إذا كان المراد نقلها عما هى عليه ، خلافا لسنن التطور ، فى سنين معدودة .

ليس يدرك صحة ما نقول إلا من ابتلى باصلاح رجل واحد ممن نذكر ، ورأى كيف تعجز جميع وسائل التقويم المعروفة فى علاجه ، وكيف يُلقى المنطق سلاحه ، وتتحطم نصال الأدلة الماضية دون إصراره وعناده .

على أن حادثتين أو ثلاثا مما لاحظه الخصوم واقتضتها أحوال خاصة ، لا تكدر صفو تاريخ حافل بآيات ، أصغر واحدة منها تنحنى أمامها الرءوس إجلالا ، وتفيض منها القلوب إيمانا ، وتزداد بها العقول عرفانا .

محمد فريد وجدى

السنة

مثل من فهم الصحابة فى كتاب الله

عن صالح عن ابن شهاب قال : « أخبرنى عُروة بن الزبير عن عائشة رضى الله تعالى عنها ، قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى : « حتى إذا استيأس الرسل » قال : قلت : أ كُذِبُوا أم كُذِّبُوا ؟ قالت عائشة : كُذِّبوا . قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذَّبوهم فما هو بالظن . قالت : أجلْ لعمرى لقد استيقنوا بذلك . فقلت لها : وظنوا أنهم قد كُذِبوا ؟ قالت : معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ! قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدّقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذَّبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك » . رواه البخارى فى كتاب التفسير .

(١) معنى هذا الحديث أن عروة بن الزبير سأل خالته السيدة عائشة رضى الله عنهما عن معنى قوله تعالى : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا » الآية . والذى أشكل على عروة فى هذه الآية أمران : أحدهما : يأس الرسل من نصر الله تعالى مع أن الله تعالى قد وعد الرسل بالنصر ؛ ثانيهما : ظن الرسل أنهم قد كُذِبوا (بالتخفيف) أى أُخبروا بالكذب ، (يقال كُذِب الرجل بضم الكاف وتخفيف الذال إذا أخبره غيره بالكذب) مع أن ذلك لا يجوز فى حق الرسل عليهم السلام ؛ فأجابته السيدة عائشة بأن كُذّبوا مثقلة لا مخففة . فالآية وظنوا أنهم قد كُذّبوا بمعنى أن قومهم كذبوهم ، فلا ارتباط لإخبار الله تعالى إياهم بهذا ؛ ولكن عروة لم يقتنع بهذه الإجابة ، فقال لها : إن الرسل قد استيقنوا بأن قومهم كذَّبوهم ، والقرآن يقول : وظنوا أنهم قد كذبهم قومهم ، فكيف يتفق هذا مع ذاك ؟ فقالت له : أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك . فقال لها عروة : إذا استيقنوا بأن قومهم قد كذَّبوهم فلا يكون للآية معنى إلا أن الرسل قد ظنوا أنهم قد أخبروا بالكذب ، لأنه لا واسطة بين هذين المعنيين ؛ فالمسألة إما أن تقرأ الآية بتشديد الذال ويكون المعنى أن قومهم كذبوهم ، وهذا لا يتناسب مع قوله : وظنوا أنهم قد كذبوا ، لأن قومهم قد كذبوهم يقينا ؛ وإما أن تقرأ بتخفيف الذال ويكون المعنى أن الرسل قد ظنوا أن الخبر الذى وعدوا فيه بالنصر قد كذِبوا فيه . فقالت له

السيدة عائشة : معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ! فقال لها عروة : فما معنى هذه الآية حينئذ ؟ فقالت له : هم أتباع الرسل ، والمعنى أن أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم الاضطهاد من أعدائهم وتأخر النصر الذى وعدوا به ، يئسوا من انتصارهم على من كذّبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذّبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك .

وحاصل ما تريده السيدة عائشة رضى الله عنها من هذا الجواب أن تقول : إن الذين استيقنوا بتكذيب الرسل هم غير أتباعهم ؛ والآية إنما يراد بها أتباع الرسل الذين آمنوا بهم ، فهؤلاء الأتباع الذين وعدوا على لسان الرسل بالنصر على خصومهم الكافرين قد ظنوا أن الرسل قد كذَبوهم فيما وعدوهم به من النصر ؛ وقوله : « استيأس الرسل » (أى يئسوا ، فالسين والتاء زائدتان للدلالة على شدة اليأس) ؛ ومعناه أن الرسل قد يئسوا من إيمان من كذّبهم من قومهم ؛ فحالة الرسل بإزاء ذلك تكون حرجة كل الحرج ، لأنهم بين ظن أتباعهم الكذب فى خبرهم ، وبين تمادى الكافرين من غير أتباعهم المكذبين بهم ؛ وعند ذلك يجىء النصر الذى وعدهم الله به . ولعل حكمة هذا التأخير هو امتحان المؤمنين الذين صدقوا برسلهم ، وتمرينهم على احتمال الشدائد والمشقات ، ليضاعف الله لهم الأجر ، ويزيد فى سرورهم بالنصر على أعدائهم الذين آذوهم وآذوا رسلهم ، فإنه سبحانه قد يبتلى المؤمنين بالمصائب الدنيوية حتى يعلم الصابرين منهم فيجزيهم على الصبر أحسن الجزاء .

وقد ورد فى كثير من القرآن الكريم ما يؤيد ذلك المعنى : قال تعالى : « ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين » ، وقال : « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين » الى غير ذلك .

هذا الذى فهمته السيدة عائشة رضى الله عنها من الآية الكريمة ، هو الظاهر المتبادر ، ولا يرد عليه شىء . إلا أن ظاهر هذا إنكار القراءة الواردة بتخفيف الذال من كذبوا ، وهى قراءة متواترة ، قرأ بها حفص ، وهى قراءة ابن عباس وعلى كرم الله وجهه وابن مسعود ومجاهد وطلحة والأعمش ، وبها قرأ الكوفيون ؛ وعلى هذا فماذا يكون التأويل ؟ وقد عرفت أن كذبوا بضم الكاف وكسر الذال مخففة معناه أنهم أُخبروا بالكذب ، وهو فعل مبنى للمجهول ، فمن الذى أكذبهم أو أخبرهم بالكذب ؟ لا ريب فى أن الذى أخبرهم بذلك عن الله عز وجل هو الوحى ، وهو معصوم عن الخطأ فضلا عن الكذب بلا مراء ، فليس من المعقول أن الرسل تظن أن الوحى قد أخبرهم عن الله كذبا ؛ وظنّ ذلك محال على الرسل ، لأنهم بذلك الظن يهدمون الشريعة التى جاءوا بها من أساسها ؛ فان من أهم صفات الرسل التى يجب اعتقادها العصمة عن الخطإ فى كل ما يبلغ اليهم من ربهم ؛ ولذا قد أنكر المحققون حديث الغرانيق المشهور ، وقالوا إنه موضوع ، لعصمة الرسل عن الخطإ فيما يبلغونه عن الله ؛ وليس من المعقول

أيضا أن يقدر الفاعل : أنفسهم أو رجاؤهم فيقال: كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بالنصر ، أو كذبهم رجاؤهم النصر ، لأن هذا إنما ينفع إذا لم يكن النصر قد أوحى به اليهم ، ومتى أوحى به اليهم فكيف تكذبهم أنفسهم الوحى الذى يجيئهم من عند الله ؟ ومن الصعب جدا ما روى عن بعضهم من أن ابن عباس قال : كذبوا بمعنى أخلفوا وكانوا بشرا . فان هذا لا يصح أن يقوله ذلك الامام الجليل ، فان معنى ذلك أن الرسل ظنوا أن الله تعالى قد أخلفهم وعده بالنصر . وهل هذا يليق بالرسل سواء قلنا إن الظن بمعناه المشهور وهو إدراك الطرف الراجح ، أو بمعنى الشك أو الوهم ؟ لا ريب أن مقام الرسل فوق هذا . ولهذا ذكره الزمخشرى بعبارة تدل على إنكاره فقال : إن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهجس فى النفس ، وحديث النفس لا يترتب عليه شىء من المؤاخذة لأنه من مقتضى الطبيعة البشرية ؛ أما الظن وهو ترجيح أحد الطرفين فلا يليق بالمسلم فضلا عن الرسول . وهذا حسن لا شك فيه ، لأنه لم يرد عن ابن عباس أنه فسر بهذا التفسير من طريق صحيح ، بل يستحيل على ابن عباس أن يجوز على الرسول أن نفسه تحدثه بأن الله يخلف وعده ؛ ولا بد أن يكون المعنى الذى ذكرته السيدة عائشة هو الذى أراده ابن عباس . فقوله تعالى : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا » بتخفيف الذال ، معناه : حتى إذا يئس الرسل من إيمان الكافرين ، وظن أتباعهم أن الرسل قد كذبوهم ، جاءهم النصر من عند الله . وقد روى الطبرى هذا المعنى عن سعيد بن جبير فقال : يئس الرسل من قومهم أن يصدقوهم ، وظن المرسل اليهم من أتباعهم أن الرسل كذبوا . وهذا هو الذى يليق بابن عباس رضى الله عنهما .

بقى إشكال آخر ، وهو أن ظاهر الكلام يفيد أن عائشة تنكر القراءة بتخفيف الذال مع أنها من القراءات المتواترة . وقد أجاب بعضهم بأن عائشة لم تنكر القراءة وإنما أنكرت التأويل الذى ترتب عليها ، فإن قراءة كذبوا بالتخفيف تحتمل المعنى الذى لا يليق فهمه بالرسل ، بخلاف قراءتها بالتشديد فانها لا تحتمل . فغرض السيدة عائشة من ردها على عروة تفهيمه أن الرسل يئسوا من إيمان قومهم ، وأن المؤمنين من قومهم ظنوا أن الرسل قد كذبوهم . وهذا المعنى تدل عليه القراءة بالتشديد حتما ؛ أما القراءة بالتخفيف فإنها توهم أن الرسل يئسوا من وعد ربهم وظنوا أن الله قد كذبهم وعده . فإذا انتفى هذا الإيهام وأولت الآية على الوجه الذى ذكرته فانها لا تنكرها . وهذا هو اللائق بمقام السيدة عائشة التى كانت مرجعا لكبار الصحابة فى فهم كلام الله ورسوله فى كل ما يشكل ويخفى . أما الجواب بأنها لم تكن تعلم بهذه القراءة المتواترة بين المسلمين يومئذ فانه بعيد كل البعد ؟

عبد الرحمن الجزيرى

التصوف والمتصوفون

— ١ —

كنا قد هممنا منذ نحو ثلاثة أعوام بنشر بحوث فى نشأة الحركة التصوفية وآراء المتصوفين النظرية ومالها من منزلة بين صفوف أعلام الفكر البشرى ، ولكننا ـ لأمرما ـ آثرنا أن نعدل إذ ذاك عن متابعة هذه السلسلة بعد أن نشرنا منها فصلين فى مجلد سنة ١٣٥٧ من هذه المجلة ؛ غير أن كثيرا من متقفى القراء قد ألحوا علينا أن نعنى فى بحوثنا بحركة التصوف الاسلامى ، مستندين فى طلبهم هذا بأنه لا ينبغى أن نغفل هذه الناحية الهامة من نواحى الفكر فى النهضة الاسلامية ، فلم يسعنا إلا أن نعود الى هذه البحوث آملين أن نوفق الى الإلمام بها بقدر ما تسمح به الظروف . ولما كنا قد أوجزنا — فى الفصل الأول الذى نشرناه من هذه الفصول — الحديث عن نشأة التصوف وكيف أنه كان فى أول الأمر عمليا ثم صار نظريا ، وعن مأتى كلمة « صوفية » وما ذكر فى ذلك من آراء القدماء والمحدثين ، فقد رأينا أن نكتفى بما نشرناه عن هذا كله فى حينه . والآن اليك ما بعد تلك التمهيدات :

نبذة من تاريخهم :

كان المتصوفة فى أول نشأتهم متفرقين ، ولكنهم لم يلبثوا أن شعروا بالحاجة الى اجتماعهم وتأليفهم وحدة قوية ، فتعارفوا واجتمعوا فريقين : أحدهما فى البصرة ، وثانيهما فى الكوفة ، وكوّن كل فريق منهما مدرسة لها تعاليمها وآراؤها التى تتفق مع ميولها الفطرية .

كان البصريون من التميميين المنعطفين بفطرتهم الى الواقعية والنقد الجاف ووضع القواعد التى يندر فيها الاستثناء وتحديد النحو ، وكبح جماح الشعر فى دائرة الحقيقة بقدر الامكان ؛ وكانت آراؤهم سنية مع النزعة الى حرية الفرد من آراء القدرية ؛ وكانوا يقولون بوجوب استكناه بواطن الأحاديث وبرفض الأخذ بظواهرها . ولهذا كان من الطبيعى أن يحتفظ متنسكوها بشىء من هذه الصفات ، وهذا هو الذى حدث ؛ فكان رئيس نساكها الحسن البصرى المتوفى فى سنة ١١٠ هـ — سنة ٧٢٨ م زاهدا من الطراز الأول ، وناقدا عميقا ، ومنطقيا سليم العقل وقوى الحجة بهيئة تسترعى الانتباه ، وسنّيا معقولا ، ومن أنصار حرية الفرد فيما يزعم كثير من زعماء المعتزلة . ومن نساك المدينة أيضا : مالك بن دينار ، وفضل الرقاشى ، ورباح بن عمر القيسى ، وصالح المرى ، وعبد الواحد بن زيد الذى أسس جماعة النساك الشهيرة فى مدينة عبادان ، والمتوفى فى سنة ١٧٧ هـ وسنة ٧٩٣ م .

أما الكوفيون فقد كانوا بطونا يمنية تنزع نحو المثالية العليا فى كل شىء . كان شعرهم

أفلاطونيا دون أن يعرفوا أفلاطون ، وخيالهم متطلعا نحو الكواكب ؛ وكانوا يقولون بوجوب الأخذ بظاهر الحديث ، ويتشيعون لعلى ، ويدينون بمبادئ المرجئة . وقد ظهرت هذه النزعات كلها فى نساكهم كذلك ، فربيع بن خيثم المتوفى فى سنة ٦٧ هـ — سنة ٦٨٦ م ، وأبو اسرائيل الملائى المتوفى فى سنة ١٤٠ هـ — ٧٥٧ م ، وجابر بن حيان ، وكليب الصيداوى ، ومنصور بن عمار ، وأبو العتاهية ، وعابدك ؛ كل أولئك آيات ناصعة على ما أسلفناه من اختلاف نساك الكوفة عن نساك البصرة فى نزعاتهم .

وهؤلاء الثلاثة الأخيرون ذهبوا فى أواخر حياتهم الى بغداد التى كانت قد صارت مركز الحركة التنسكية كما هى مركز الحركة العلمية عامة ، والتى كانت حلقات المحاضرات التنسكية قد بدأت تنعقد فى قاعاتها منذ سنة ٢٥٠ هـ وهو نفس العصر الذى انفجرت فيه المعارك الصريحة بين النساك والمتكلمين ، وحقق فيه فى قضية ذى النون الناسك المصرى ، ثم فى قضيتى النورى وأبى حمزة فيما بين سنتى ٢٦٢ — ٢٦٩ هـ ، ثم فى قضية الحلاج فى سنة ٣٠١ هـ .

لم يكن الأولون من النساك يتوقعون أن تنشب الحرب بينهم وبين الفقهاء يوما ما ، وأن يدس لهم أولئك عند الخلفاء دسا ينتهى بقتل بعضهم واضطهاد البعض الآخر .

وفى الحق أنه لم يكد المتصوفون يعلنون أنهم يحاسبون القلوب والضمائر ، وينشغلون بالبواطن دون الظواهر ، حتى ثارت ثائرة الفقهاء ، وهبوا يتهمونهم بالمروق عن الشريعة التى تعلن فى وضوح أنها تحكم بالظواهر والله يتولى السرائر . وليس الفقهاء وحدهم هم الذين دانوا الصوفية ، وإنما سبقهم الى ذلك القدرية والإمامية وغيرهم من الغلاة فرموهم بأنهم لا يقصدون من وراء تنسكهم إلا « الرضى » الذى يعفيهم من إجلال الأئمة الاثنى عشر ، وهذا إثم كبير .

أما المعتزلة والظاهرية ، فقد كانوا يجدون من غير المعقول الموافقة على ما تسميه الصوفية بالعشق بين الخالق والمخلوق ، لأنه نظريا يقتضى التشبيه ، وعمليا يستلزم الملامسة والحلول . وأما السنية فقد كانوا يأخذون عليهم الإفراط فى التأمل الى حد طغيانه على الأدعية الصوتية ، وكذلك ادعاؤهم وضع الروح فى حالة صلة ثابتة مع الإله تعفيها من الاشتغال بمعرفة المباح والمحظور .

غير أن هذا كله لا يمنعنا من أن نقرر هنا أن المتصوفين العمليين لم ينبذوا من حظيرة الاسلام ، بل إن أهل السنة طالما اغترفوا كثيرا من تعاليمهم الأخلاقية وأدعيتهم التقية من مؤلفات أولئك المتصوفين ، ككتابى « قوت القلوب » لأبى طالب المكى ، و « الإحياء » للغزالى(١) .

---

(١) انظر بحث الاستاذ ماسنيون فى صفحة ٧١٥ ومابعدها من المجلد الرابع من دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية .

نشأة فكرة الاتحاد وتطورها :

لم يكد المتنسكون يأخذون بنصيب من الحركة الفكرية العامة حتى أيقنوا بأن هذا الجدل الذى أشعل الفلاسفة والمتكلمون أواره قد عجز عن حل مشكلة الكون ، وأنه لا سبيل الى المعرفة إلا الزهد ونزع علائق المادة التى هى الغشاء الحائل بين عالم الأرض وعالم السماء . ولقد كانت هذه النزعة الى الضعف خليقة بأن تسخط القائمين على أمر الشريعة لنبوّها عن روح الاسلام الحاث على القوة والمغالبة ، ولكن ما حيلتهم وصاحب الشريعة نفسه قد أقر الزهاد على زهدهم ، بل أمر باحترامهم ؟ فلم يسعهم إلا الانحناء لما أقره النبى ، فظلوا يجلون المتنسكين حتى نزعوا الى التصوف النظرى الذى ظهرت فيه فكرتا وحدة الوجود والحلول الآتيتان من فلسفتى الهنود والاسكندريين ، واللتان كانتا السبب الأول لكل ما نزل بالمتصوفين من كوارث، كما سنشير الى ذلك فى حينه .

نشأ التصوف النظرى إذاً عندهم من فكرة وجوب ملازمة العبادة الخالصة ، وضرورة التحرر من نير الشهوات . ومجمل ذلك أنهم أيقنوا بأن العبادة المخلصة المتحمسة توجد فى النفس ما يسميه المتصوفون بـ « الفوائد » وبأن علم القلوب ينشىء فيها المعرفة التى تقتضى ضرورة انسجام الإرادة مع الفيض الممنوح .

وعندهم أن علم القلوب هو الذى يرسم طريق السفر نحو الإله ، ويحدد مقامات هذا الطريق وأحواله . ولا تخرج هذه المقامات وتلك الأحوال عن فضائل مكتسبة وأفضال ممنوحة . وقد اختلف المتصوفة فى تحديد المقامات والأحوال ، ولكنها لا تخرج عند الجميع عن أمثال هذه المعانى : الصبر ، التوبة ، التوكل ، الرضى .

وغاية هذا السفر عند المتصوفة هى الوصول — بعد التخلص من علائق المادة وغواشى الحس — الى الإله الحق الذى تصبو اليه الأرواح ؛ ولكن لما لم يمكنهم وضع حد لا يتنافى مع العقيدة لهذه الحالة الخاصة ، فقد لجأوا الى تعبيرات المتكلمين المعروفة فى عصرهم ، فأدخل شقيق الى التصوف « التوكل » ، وأدخل ذو النون والبسطامى « الفناء » ، وابن كرام وذو النون « المعرفة » ، وأدخل الخراز « عين الجمع » ، والترمذى « الولاية » ؛ ولكنهم أساؤا استعمال هذه الكلمات كما يرى الأستاذ « ماسينيون » . وفوق ذلك فانهم بعملهم هذا أسقطوا التنسك الاسلامى فى فخ « ميتافيزيكية » المتكلمين المادية المؤسسة على نظرية « الذر » الديموكريتى المتخبط بعماء ، والمقود بالمصادفة المحضة ، والتى تقتضى ضرورة جحود خلود النفس ، بل جحود روحانيتها ، والتى خلطت بين وحدة الموجود والوحدة العددية ؛ وهذا يوضح كيف أن النظريات الصوفية لم تكد تنشأ حتى وجد فيها الاستعداد الكامل للهوى فى الحلولية .

غير أنه لم يكد القرن الرابع يحل حتى كانت الفلسفة « الهيلينية » قد عملت عملها فى البيئات الاسلامية ، فسمح ما استحدثته فى لغة العـرب من تعبيرات ميتافيزيكية مضبوطة للصوفية بأن يستولوا على ما يحتاجون اليه فى نظرياتهم ، فصرحوا بلا مادية الروح ، وتحدثوا عن الفكر العامة والعلل والمعلولات وما شاكل ذلك . ولـكن لما كانت هذه المفردات الميتافيزيكية منتثرة فى مختلف المؤلفات الفلسفية ، وممتزجة بالمثاليات الأفلاطونية ، والانبثاقات الأفلوطينية ، فقد لجأ المتصوفون الى البحث عنها فى هـذه المطولات ، فتأثروا بنظرياتها أثناء بحثهم فيها . وقد ظهر هذا الأثر على الأخص فى آرائهم عن الصلة الإلهية حيث انقسمت الى ثلاثة أقسام :

الأول : « اتحادية » ابن مسرّا والفارابى وإخوان الصفاء . ومجملها انطباع العقل الفعال الذى هو الفيض الإلهى فى النفس السلبية .

والثانى : « إشراقية » السهروردى الحلبى ، والدوّانى ، وصدر الدين الشيرازى ، وهى تتلخص فى تجوهر الروح .

والثالث : « وصولية » ابن سينا وابن طفيل وابن سبعين التى تقرر أن النفس بوصولها الى الإله تدرك وجودها التام الذى لا يقبل التبدل .

أخذت هذه النظريات الثلاث تمتزج وتتطور حتى انتهت الى وحدة الوجود المغالية التى أطاق عليهم خصومهم من أجلها اسم « الوحدتية » ، والتى سنعرض لها عند كبار الصوفية ؟

« يتبع »

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

العناية بالادب

قال حماد الراوية : دعانى أبو مسلم ليلا فراعنى ذلك ، فلما دخلت عليه سألنى عن شعر فيه (أوتاد) . قلت : من قائله ؟ قال لا أدرى . قلت : قائله جاهلى أم إسلامى ؟ قال لا أدرى . فبدر الى وهمى شعر الأفوه الأزدى :

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا
والبيت لا يبتنى إلا له عمـد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد
فان تجمع أوتاد وأعمـدة يوما فقد بلغوا الأمر الذى كادوا

فقلت : هو للأفوه الأزدى ، وأنشدته الأبيات . فقال : صدقت ، انصرف إذا شئت . فلما خرجت لحقنى رجاله ببدرة من المال ، فعرضت عليهم شيئا منه فأبوا .

حياة رجالات الإسلام

أبو بكر الصديق

— ٣ —

انطوى أبو بكر على الاسلام ، لأنه رأى فى مرآة آدابه حقيقة نفسه ، ولقى فى سماحته عناصر فطرته ؛ وانطوى الاسلام على أبى بكر ، لأن شخصيته كانت صورة حية لأرفع تعاليمه وأسمى معانى روحانيته ، فسيط الإيمان بلحمه ودمه ، وامتزج بروحه وعقله ، فباع الصديق نفسه لله سمحا بها رضيا ، وغدت حياته فداء لرسول الله ، ولدين الله ، وغدا ماله — وما هو بقليل المال — رفدا فى سبيل الله ، وغدا أهله وولده ووطنه قربانا لرضاء الله .

أوذى رضى الله عنه حتى كادت نفسه تتلف فلم يكن له هم فى نفسه وحياته ، وإنما كان همه الأعظم فى عافية رسول الله وسلامته ، لأن فى سلامة الرسول وعافيته حياة الانسانية وتخليصها من عار الوثنية ، ورفع شأوها الى ما هيئت له من سيادة الوجود وتحرير الأفكار عند ما تبلغ رشدها ، فان يهلك أبو بكر فانما هو رجل واحد من الناس يموت كما يموت الناس ، وإن يُصَب رسول الله صلى الله عليه وسلم فانما هو الحق ، والخير ، والهدى ، والنور ، والبر والرحمة ، والعدل ، والاحسان ، تمّحى من سجل الحياة فيذوى عودها ، ويجف ماؤها ، فاذا هى شجرة مصوّحة فى أرض قاحلة ، لا تثمر عاطفة من عواطف الخير ، ولا ينبت على أديمها إحساس من أحاسيس البر والاحسان .

هكذا كان أبو بكر يقدر حياته الى جانب حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهكذا أدرك أبو بكر مهمة رسول الله فى بعثته رحمة للوجود ؛ روى الزمخشرى فى كشافه : أن المشركين لما طلعوا فوق الغار أشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن تصب اليوم ذهب دين الله » ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » . وفى مواهب القسطلانى : أن أبا بكر لما رأى القافة اشتد حزنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « إن قتلت أنا فانما أنا رجل واحد ، وإن قتلت أنت هلكت الأمة » ، فعندئذ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تحزن إن الله معنا » .

ولأرباب القلوب من الأصفياء هنا كلام لطيف تأنس به الأرواح فى عروجها الى منازل التقديس ، وتهش له العقول المهيأة لتلقى أسرار الوجود ؛ قال العارف شمس الدين بن اللبان :

« وتأمل قول موسى عليه السلام لبنى اسرائيل : « كلا إن معى ربى سيهدين » ؛ وقول نبينا صلى الله عليه وسلم للصديق : « إن الله معنا » ، فموسى خص بشهود المعية ولم يتعـد منه الى أتباعه ، ونبينا تعدى منه الى الصديق ، ولم يقـل « معى » لأنه أمـد أبا بكر بنوره فشهد سر المعية ، ومن ثم سرى سر السكينة على أبى بـكر ، وإلا لم يثبت تحت أعباء هـذا التجلى والشهود ؛ وأين معية الربوبية فى قصة موسى عليه السـلام من معية الإلهية فى قصة نبينا صلى الله عليه وسلم » ؟

ثم تأمل فى أن نبى الله صلوات الله عليه لمـا رأى حزن الصديق قد اشتد إشفاقا عليه ، جذب روحه الى مسارح الأنس بشهود المعية ، وقوى قلبه ببشارة « لا تحزن إن الله معنا » ليكون الخبر من الحبيب حـكاية ليقين الشهود ، وكانت تحفة « ثانى اثنين » مدخرة له دون الجميع ، فهو الثانى فى الاسلام ، والثانى فى بذل النفس والعمر ، لمـا وقى الرسول صلى الله عليه وسلم بماله ونفسه جوزى بمواراته معه فى رمسه تخليدا لخصيصة الصديقية ، وإلى هذه الخصيصة يشير أبو محجن الثقفى فى قوله :

وسُمّيتَ صـديقا وكل مهاجر ... سواك يسمى باسمه غير منـكر
سبقت الى الإسلام والله شاهد ... وكنت جليسا بالعـريش المشهّـر
وبالغار إذ سميت بالغـار صاحبا ... وكنت رفيقـا للنبى المطهـر

وإليها يشير ما يرويه أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب : أن رجلا من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال فى مجلس فيه القـاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق : والله ما كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من موطن إلا وعلىّ معه فيه ! فقال القاسم : يا أخى لا تحلف ، قال : هلم ، قال : بلى ، ما لا ترده ، قال الله تعالى : « ثانى اثنين إذ هما فى الغار »

وقد كان إشفاق أبى بـكر رضى الله عنه على النبى صلى الله عليه وسلم أبلغ وأعظم مما تتصوره الأفـكار ويرسمه الخيال ، ففى قصة الهجـرة أن أبا بكر رضى الله عنه لمـا خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم متوجها الى الغار جعل طورا يمشى أمامه ، وطورا يمشى خلفه ، وطورا عن يمينه ، وطورا عن شماله ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما هـذا يا أبا بكر ؟ » فقال : يا رسول الله أذكر الرصيد فأحب أن أكون أمامك ، وأتخوف الطلب فاحب أن أكون خلفك ، وأحفظ الطريق يمينا وشمالا ! فقال عليه الصلاة والسلام ، إيناسا وتثبيتا للصديق : « لا بأس عليك يا أبا بكر ، الله معنا » .

ولمـا وصلا الى الغار أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يدخـله ، فقال له أبو بـكر : والذى بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخل فأسبره قبلك ! فدخل الصديق رضى الله تعالى عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقيه بنفسه ، فجعل يتلمس بيديه جوانب الغار وزواياه فى ظلمة الليل

مخافة أن يكون فيه شيء يؤذى رسول الله ، فرأى أجحارا متعددة ، فعمد الى أثوابه يقطع منها ما يسد به الأجحار ، وبقى جحر لم يجد له ما يسده ، فجلس قريبا منه وألقمه عقبه ، فجعلت الحيات والأفاعى تضربنه وتلسعنه ، ورسول الله قد نام ووضع رأسه فى حجره ، فجعلت دموعه تتحدر من شدة الألم وهو لا يتحرك ، حرصا على راحة رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا يوقظه بعد ما لقى من جهد جهيد استبكى أبا بكر ، فقال : « نظرت الى قدمى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الغار وقد تقطرتا دما فاستبكيت وعلمت أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن تعود الحفا والجفوة » ولكن دموع الصديق غلبته فسقطت على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « مالك يا أبا بكر ؟ » فقال : « لدغت فداك أبى وأمى ! » فتفل رسول الله صلى الله عليه وسلم على موضعها فذهب ما يجده . وفى خبر سراقة بن جعشم المدلجى أنه تعرض لرسول الله وصاحبه فى طريق هجرتهما ، فبكى أبو بكر ، وقال : يا رسول الله أتينا ! فقال « كلا » ! قال سراقة : فركبت فرسى تقرّب بى حتى إذا سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ، ساخت يدا فرسى ، فسألتهما الأمان ، فأمنانى ، وقالا : أَخْفِ عنا .

هذه أحاديث تنطوى عليها سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة صاحبه الصديق الأعظم ، يقرؤها كثير من الناس عابرين ، دون أن يقفوا معها وقفة البصيرة النيرة ، والفكرة النفاذة ، والفطرة الصقيلة ، ليستوحوا منها دروس العبرة الصادقة ، والعظة البالغة ، والأسوة الفاضلة ، ولتكون لأنفسهم ضياء ، ولأرواحهم غذاء ، ولكننا نحن هنا لا نريد أن نتعجل الخطو ، لأن من أهم أمرنا فى كتابة سيرة رجالات الاسلام وبناة مجده ، أن تكون دروسا لنا ولأبنائنا من طلاب العلم فى معاهد الاسلام ، وإخواننا المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، نتعرف منها فى ريث وأناة قيم العناصر التى هيأت لأولئك العباقرة تكوين شخصياتهم العظيمة ، هذا التكوين الذى كان فى حقيقته قوة الاسلام القاهرة ، ومعجزاته الباهرة ، وروحه التى سار بها فى أرجاء الأرض فاتحا وناشرا لواء العدالة والرحمة فى ظل رجاله الغر الميامين .

فلنقف متأملين الى جانب هذه الأحاديث الصديقية نجتلى بعض أسرارها ليرى معنا شباب الاسلام أن أسلافنا لم يملكوا ناصية الحياة ، ويقيموا بناء أعظم « أمبراطورية » عرفها التاريخ فى مدى زمن هو فى أعمار الأمم والممالك كاليوم بل الساعة فى أعمار الأفراد ، بالكلام يلقى هنا وهناك ، وإنما بنوا هذا الصرح الشامخ للعظمة الاسلامية التى تطل علينا من نوافذ التاريخ بالدماء فى لبنات الفداء والتضحية ونكران الذات ، والتفانى فى سبيل العقيدة ، والإيمان بالحق إيمانا يجعل الحياة رخيصة إذا لم تكن قائمة على الحرية الفاضلة والعدالة الكاملة ، والاخلاص لله تعالى ، والثقة به ثقة تعصم النفوس من مزالق النفاق فى صورة الذوق المستعار والمجاملات الزائفة .

أحب أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حبا ملك عليه كل شيء ، فجاد بنفسه فداء لحياة رسول الله ، وآمن به فقدر رسالته حق قدرها ، وعرف أنه رحمة مهداة للانسانية ليخرجها من الظلمات الى النور ، فان لم يبلغها صيحة الحق بقيت تنوء تحت أعباء الجهالة وبلادة الفكر وسوء العقيدة ، وترزح تحت أثقال الظلم والاستبداد ، فقدم حياته فداء لعقيدته وإيمانه فى شخص رمز تلك العقيدة وذلك الايمان : سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهو بهذا قد كتب فى ديوان الحياة سفرا خالدا ، سوره وآياته عناصر الشخصية التى ينهض على يديها الاسلام ، والشخصية التى تعتز بها الأخلاق الاسلامية ، والشخصية التى يصبو اليها الوفاء فى أشرف معانيه وأرفع صوره ، والشخصية التى يحتاج اليها المصلحون والزعماء والقادة ليجعلوها مثلا حافزا لضمائرهم فيما يطلبون من إصلاح .

فهل قرأ شباب الاسلام هذا السفر من حياة أبى بكر رضى الله عنه ؟ من قرأ فليفقه ، ومن لم يقرأ فليرض نفسه على أن تصحبه فى رحلة الى مغانى الخلود على ضفاف التاريخ ، فسيعود إذا وصل ورأى إشراق الشمس فى أفق الدهر شيئا آخر فى رجولته وإسلاميته ، وإيمانه بنفسه وأمته وإنسانيته ، فنحن أحوج ما نكون الى الايمان بأنفسنا وأمتنا أمة الاسلام ، وفى الأخير الى الايمان بانسانيتنا ، فهل نصل ؟ هيا والى اللقاء ؟

صادق ابراهيم عرجون

التلطف فى الاقناع

حدث سعيد بن محمد عن نصر بن على عن الأصمعى قال : كان معاوية يعيب على عبد الله ابن جعفر سماع الغناء ، فأقبل معاوية عاما حاجا ، فنزل المدينة فمر ليلة بدار عبد الله بن جعفر ، فسمع عنده غناء على أوتار ، فوقف ساعة يستمع ثم مضى وهو يقول : أستغفر الله ، أستغفر الله . فلما انصرف آخر الليل مر بداره أيضا ، فإذا عبد الله قائم يصلى ، فوقف ليستمع قراءته ، فقال : الحمد الله ، ثم نهض وهو يقول : خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم . فلما بلغ ابن جعفر ذلك أعد له طعاما ودعاه ، وأحضر ابن صياد المغنى وقال له : إذا رأيت معاوية واضعايده فى الطعام فحرك أوتارك وغن . فلما أقبل معاوية وشرع يأكل حرك ابن صياد أوتاره وغنى بشعر عدى بن زيد :

يالبينى أو قدى النارا   إن من تهوين قد حارا

فطرب معاوية حتى رفع يده عن الطعام وجعل يضرب برجله الأرض . فقال له عبد الله : يا أمير المؤمنين إنما هو مختار الشعر يركب عليه مختار الألحان فهل ترى به بأسا ؟ فقال معاوية : لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الألحان .

الرجعية والتجديد
فى الأزهـر

كانت نهضة الإصـلاح الاجتماعى الدينى ، فى مؤخرة نواحى النهضة المصرية الحـديثة ، التى مضى بمجـدها مؤسس الأسرة المالـكة الـكريمة وأعضاء بيته من بعده ، لأسباب ؛ منها اختلاف هـذه النهضة عما سبقها من النهضات الاسلامية الأخرى ، كالنهضة العباسية ، فى أن الدولة فى العصر العباسى كانت فى إبّان نشاطها ، وفورة قوتها ، فهضمت ما دخل عليها من علوم الأمم الأخرى وصبغته بصبغتها العربية الاسلامية ؛ فأما النهضة الحاضرة ، فقد وافت الأمة وقد نهكها ثلاثة قرون عجاف ، منذ الفتح التركى ، تركت أبناءها يساقون كالأنعام ، لا علم ، ولا حرية ، ولا رأى .

ومنها ، تعـذر الانتقال الاجتماعى فجأة من حال الى حال ، ونفور الشرقيين من تقليد الغربيين ، لما ركب فى طباع الأمم من التمسك بآدابها وعادِها وتقاليدها الموروثة ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بالدين ؛ يقول الجاحظ : « فَدَاءُ المنشأ والتقليد ، داء لا يحسن علاجـه جالينوس ؛ وتعظيم الـكبراء ، وتقليد الأسلاف ، وإلف دين الآباء ، والأنس بما لا يعرفون غيره ، يحتاج الى علاج شديد ... وضربَ الأمثال بأتباع زَرادُشت فى فارس ، وعبدة البُدّ فى الهند ، والأصنام فى الجاهلية ، مع سمو مداركهم عن ذلك ، وإنما هو الإلف والمنشأ » .

ومنها ، أن النهضة كانت فى أول أمرها نهضة عسكرية ، ثم علمية ، ولم تشمل الدين والأدب إلا فى العصر الثانى من عصورها : عصر المغفور له اسماعيل باشا وما بعده ؛ بخـلاف نهضة سوريا ، فانها كانت نهضة دينية أدبية ، لأن المرسلين الغربيين ، هم أول من نهض فيها .

***

ولا ريب أن قبس الحرية الشخصية ، الذى تحملته البعوث المصرية الى أوربة ، فيما عادت به الى مصر من عـلوم وآراء ؛ الى شيوع العلوم الطبيعية ، وأخـذِ كثير من العرب والمسلمين بأسبابها ؛ هـو منشأ ما ظهر من نهوض بعض دعاة الإصـلاح السياسى والاجتماعى والدينى فى مصر ؛ فقام الأستاذ الامام محمد عبده ، يحاول التوفيق بين الاسلام والعلوم الحديثة ، وقام قاسم أمين يطالب بتحرير المرأة ، ثم قام مصطفى كامل وغيره يدعو الى الاصلاح السياسى ... الخ .

بيد أن شيوع الحرية والعـلوم الطبيعية ، كان بجانب ناحيتهما المُصلحة ، ناحية أخرى هادمة ؛ وهى ترعرع النقد الحر « النقد العالى » الذى يطرح الأديان على بساط الشك ؛ وينقدها نقد غيرها مما ليس دينا ، ولا عقيدة ؛ ويعلل الحوادث كما تتجلى للعقل ، لا كما ترى الشرائع

والأديان ؛ وأعان على ذلك ومضى بأوفى قسط من إثمه ، شيوعُ مذهب النشوء والارتقاء ، الذى أسىء فهمه ، وأخذ الكتاب والباحثون يطبقونه على جميع الأشياء ، تطبيق من لا يرى مؤثرا سواه ، ولا علة إلاه .

وكان طبيعيا أن تلقى الدعوة الى الإصلاح الدينى إنكارا ومعارضة عنيفة ، لما أسلفنا من الأسباب ؛ ولم يكن غريبا ولا عجيبا أن تستفتى الحكومة شيخ الجامع الأزهر « الانبابى » ومفتى الديار المصرية « محمد البنا » فى : « هل يجوز تعليم المسلمين العلوم الرياضية ، كالهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء ، المعبر عنها بالكيمياء ، وغيرها من سائر المعارف ؟ » . لمّا استجابت لدعاة الاصلاح الأزهرى ، وعزمت على إدخال العلوم الطبيعية والرياضة فى منهجه ، ولكنها خشيت عواقب مفاجأة الجمهور بهذا الاصلاح المخالف لما رسخ فى أذهانهم من تقبيح العلوم الطبيعية ، ورمى المشتغلين بها بالإلحاد والكفر . فكانت فتوى الشيخ والمفتى بجواز تعليم هذه العلوم وتعلمها لنفعها فى الدين والدنيا ، تمهيدا لا بد منه ، لتشريع هذا الاصلاح ، والسير فى طريق تنفيذه . ولست أخطئُ الصواب إذا أنا قررت أنه كان لشخصية الامام محمد عبده ، أثر غير صغير فى معارضة الدعوة الى الاصلاح ، لما كان معروفا عنه فى المحيط الأزهرى من التمدين ، وخلاط المتمدينين والغربيين ، مما كان كافيا وحده فى إساءة الظن به ، ومقابلة كل ما يجىء به بالريبة والحذر ؛ فكيف وهو — مع كل أولئك — أخص تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى ، الذى كانت جمهرة الأزهريين لا تطمئن الى تعاليمه ، ولا ترتاح الى مذاهبه فى الاصلاح ؟ ولعله لو قام بهذه الدعوة — أول أمرها — شيخ ممن توافرت الثقة به ، من كبار العلماء ، لمضى الاصلاح فى طريقه ، بخطا أوسع مما سار بها .

ومهما يكن من شىء ، فقد اتخذ الاصلاح الدينى الأزهرى طريقه الى القلوب ، وإلى العمل ؛ وكان من المحال أن يجمد والزمن يتحرك ، حتى لو لم يقم دعاة الإصلاح بالدعوة ، لأن طبيعة الحياة تأبى ذلك الجمود الجزئى ، فى جسم يتحرك ، إلا لشلل يصيب ذلك الجزء ، وهو ما تنفيه علائم الصحة الكاملة ، التى كانت تبدو واضحة فى أسارير الأزهر الشريف إذ ذاك ؛ والمعارضة والإنكار ، أبرز دلائل الحياة . ولئن كان نجاح الأستاذ الامام فى تطبيق الاصلاح محدودا ، إنه لم يمض لسبيله ، حتى نشّأ من التلاميذ ، وجمع من الأنصار من تسلموا منه لواء الدعوة ، ومضوا قدما فى سبيل الاصلاح ، يعاونهم فى ذلك روح الزمن ، وعمل الطبيعة ؛ وانتشروا فى أنحاء العالم الاسلامى ، فانبعث النور فى آثارهم ، واستقامت المعاهد العلمية على الطريق المستقيم .

***

لا جرم أن الامام محمد عبده ، هو إمام الدعوة الى الاصلاح الأزهرى ؛ ولا خلاف فى أنه نجح فى بذر بذوره واستنباتها ، وتدريب من يتعهدها بعده بالتنقية والإرواء والحفاظ ؛

ولا ريب فى اطراد نموّها وترعرعها وازدهارها ، فى كل يد تسلمتها بعده ، لأن نموّها داخلى ذاتى مركب فى طبيعتها ، غير محتاج الى العوامل الخارجية المعينة ، إلا بوجه سلبى ، تكفلت به طبيعة الزمن ، ونواميس العمران . ولئن بدت حركة التجديد والإصلاح بطيئة جدا ، فليس ذلك لأنها ضعيفة ، بل لأن الحركة إنما تبدو بوضوح فيما خف وصغر من الأجسام ؛ فأما ذلك المحيط الزاخر ، فإن حركته وإن كانت أثبت وأرسخ ، هى فى مرأى العين دقيقة خفية ؛ وأسرع عقارب الساعة حركة ، هو عقرب الثوانى ؛ كما أن أثبت الخطا ، خطوة المتريث المتأنى ، وقد يكون مع المستعجل الزلل . على أن الأزهر لو أراد الحركة السريعة ما استطاعها ؛ ذلك بأن مجده منوط بالمحافظة على قديم الاسلام ، فالتجديد الثائر فيه يقلب حقيقته ؛ وإنما ينجع فيه التطعيم الثقافى التدريجى الذى يعمل فى التقريب بين الجديد والقديم ، ويوائم بين عناصرهما فى أناة ورفق ، ويؤلف بين طبيعتيهما تأليفا منسجما معتدلا ، فيه جلال القديم وفيه جمال الجديد ، فيه المخبر وفيه المظهر ، فيه الشكل وفيه الجوهر ؛ بخلاف غير الأزهر من المدارس المدنية ، فانها كلما اقتربت من الجديد ، كان النفع منها أكبر ، والخير منها أكثر ، لأنها إنما أنشئت على غرار الجديد ، فلتكن — إذن — جديدة فى الشكل وفى الصميم . ومن أبلغ الجور على الشرق أن توحد المدرسة فيه ، على الرغم مما لتوحيدها من المزايا الجسام .

***

سار الأزهر فى طريق التجديد على هذا النسق ، وكانت الجدّة فى الشكل والمظهر ، أوضح منها فى الجوهر — كما قلنا — فأصبحت أماكن الدراسة على الطراز الحديث : نظيفة صحية نظامية ؛ وتمايزت فيه الوحدات التعليمية ؛ وفتح صدره لجميع طوائف المدرسين ، ولكل التعاليم أو جلّها ؛ وأصبح رجاله ، وزملاؤهم الآخرون ، يتعاونون على عملية التعصير والتقريب من مقتضيات الزمن بقدر الإمكان ؛ وأثمرت هذه الجهود ثمراتها القريبة ، فنشأ منه الكاتب والخطاط والمؤرخ والخطيب والمعلم ؛ وقامت الجماعات لتيسير الأحكام فى الأحوال الشخصية ، والمذاهب الدينية ؛ وارتقت البحوث اللغوية والأدبية ، وتحرر النقد الأدبى من القيود والحدود الخارجة عنه ، والتى كانت تشل من حركته ، وتضعف من نشاطه ، وصارت أحدث الآراء الأدبية تناقش فيه مناقشة حرة من كل قيد ، فيقبل منها المفيد النافع ، ويطرح منها ما لا يثبت على النقد الصحيح ، دون نظر الى القائل ، ولا مزج للشخصيات ، ولا للعقائد ، ولا للأديان ، بالقضايا الفنية ، والبحوث العلمية ؛ كما كان الشأن غالبا ، لأول عهد الأزهر بالنهوض .

فأما الثمرة الحقيقية البعيدة ، من تجديد كتب الدراسة وتهذيبها ، ومن إصلاح مناهج الدرس والبحث ، فتلك مرتبة ، تأتى فى الترتيب بعد التطعيم ، والهضم ؛ كما حصل فى العصر العباسى ؛ فاذا تطلبها الأزهر قبل أوانها ، جناها غضة فجة ، ضررها أكبر من نفعها ، وشرها أكثر من خيرها ، وجنايتها على الثقافة والدين ، أقرب تحققا من إحسانها اليهما ؛ فلتكن هذه

الخطوة مما يؤجله الجيل المخضرم العامل، للجيل المتعلم الناشئ، حتى تنضج تلك الثمرة فى إبانها، وتجنى فى أوانها؛ وإن كان قد أخذ فى أسبابها فعلا.

* * *

أما بعد ـ فقد رأيت فى أخريات هذا الزمان، وبعد أن أصبحنا نخشى على الأزهر عثرات التجديد، أكثر مما نخشى عليه جمود المحافظة ـ من يرمى الأزهر بالرجعية، وبأنه بيئة غير صالحة للبحوث الحديثة، والأفكار الجديدة، وينعى على البعوث الأزهرية تباطؤها فى نشر ما اجتلبت من ثقافات، وما استحدثت من آراء تناهض هذه الرجعية، وتطاردها، وتعفى على آثارها السيئة فى الأزهر الشريف. ولم تؤلمنى هذه التهمة، وإنما أثارت فى نفسى عوامل الشفقة والرثاء، لهذه الصيحة التى تنطلق، وقد:

سارت مشرقة، وسرت مغربا شتان بين مشرِّق ومغرِّب!

أجل إنها صيحة جاءت متأخرة كل المتأخرة، ضائعة جد ضائعة؛ فأين نحن من الرجعية، وأين الرجعية منا؟! لقد قطع الأزهر مراحل بعيدة المدى فى التجديد والتطور، فى الفروع، والأصول، والعلوم والآداب؛ وليس ينقصه الآن من نواحى البحث والدرس والنقد، إلا النقد العالى، أى طرح الاسلام على بساط البحث، للوصول الى صحته أو فساده؛ فهل هذا ما يريده رماة الأزهر بالرجعية من كتاب آخر الزمان؟! على أن نقد المذاهب الدينية للفرق الاسلامية، لا يزال يبحث ويدرس فى المعاهد الأزهرية، وهو — بلا ريب — نوع من النقد العالى؛ إلا أنه على الطريقة الاسلامية، لا على ما سن تيودُور الفرنسى، فى كلمته المأثورة: «الكفر أول خطوة الى الفلسفة».

فاذا لم يكن هذا مرادهم (وهو خير ما نتمناه) فهل لهم أن يضعوا أصابعهم على مواضع النقص فى المناهج الأزهرية، حتى نستدرك مافات، وأن يدلونا على الثقافات التى قد أباها الأزهر على طلابه وأساتذته، فنرفع هذا الحظر، و ـ أخيرا ـ أن يعرضوا علينا نماذج للآراء الحديثة، والأفكار الحديثة، والثقافات الحديثة، حتى نعرف مبلغها من التجديد والرقى الحديث؟!

إننا نتنظر ذلك، ونتطلع اليه بملء الرغبة، ونعدهم وعدا صادقا أننا سنأخذ به عن بينة أو نبهرجه عن بينة؛ فأما إلقاء الكلام على عواهنه، واتهام البرءاء، والفت فى أعضاد العاملين، فذلك شأن المعوقين، وخلق المريبين، وما أهونه فى نظر المخلصين! وكم نود ـ بجدع الأنف ـ أن تنقح الكتب، وتهذب أساليب الدراسة! بيد أننا نعدّ من أشنع ضروب الإفلاس، أن نترك ما فى أيدينا من قديمنا، قبل أن يحصل فيها ما يغنى عنها من الجديد.

فأما البقية الباقية من الرجعيين، فما لنا نتعجل بها الزمن؟ على أن لها وظيفة ضرورية، هى تمثيل الطرف المحافظ، حتى تتزن خطا المتطرفين، فيردون الى صفوف المعتدلين؟

كلية اللغة العربية عبد الجواد رمضان

الحسد والرقية منه

الحسد ثابت فى القرآن والسنة . وقد قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم فى قوله تعالى : « وقال يا بَنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة » : إنه خاف عليهم العين ، وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة ، ومنظر وبهاء ، فخشى عليهم يعقوب عليه السلام أن يصيبهم الناس بعيونهم .

وبالجملة فالمفسرون المتقدمون مطبقون فى تفسير الآية على هذا . وقد كان صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين فيقول : « أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامّة ، ومن كل عين لامّة » . ويقول : « هكذا كان يعوذ أبوكم إبراهيم إسماعيل وإسحاق » . وقد روى أن عبادة بن الصامت قال : « دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول النهار فرأيته شديد الوجع ، ثم عدت اليه آخر النهار فرأيته معافى ، فقال : إن جبريل عليه السلام أتانى فرقانى فقال « بسم الله أرقيك ، من كل شىء يؤذيك ، ومن كل عين وحاسد ، الله يشفيك » . ويروى أن بنى جعفر بن أبى طالب كانوا غلمانا بيضا فقالت أمهم : يارسول الله إن العين اليهم سريعة أفأسترقى لهم من العين ؟ قال : نعم . وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم : « العين حق ، ولو كان شىء يسبق القدر لسبقته العين » . وكان صلى الله عليه وسلم يأمر العائن أن يتوضأ ثم يغتسل من وَضوئه المعينُ الذى أصيب بالعين .

وأما الذين أنكروه كأبى على الجبائى وهو رأس من رءوس المعتزلة ، فليس معهم شبهة فضلا عن حجة .

والتحقيق فى ذلك : أن الحسد تأثير روحى ، وللأرواح تأثير ليس على قانون ما تعرف من تأثيرات الأجسام ، فلا يشترط فيه اتصال ولا قرب ولا غير ذلك . ولا يمترى فى ذلك إلا من غلبت عليه أحكام الجسمانيات ونواميس الماديات ، فقد يكون التأثير نفسانيا محضا ولا يكون للجسمانية دخل فيه . وقوانين النفوس البشرية مجهولة لأكثر الناس . وليس يخفى عليك أن الانسان إذا تصور كون فلان مؤذيا له ، حصل فى قلبه غضب فيسخن مزاجه جدا . فمبدأ تلك السخونة ليس إلا ذلك التصور النفسانى ؛ ومبدأ الحركات البدنية ليس إلا التصورات النفسانية . فما المانع إذاً من كون بعض النفوس تؤثر فى غيرها ، والتجارب من الزمن الأقدم تشهد لذلك وتنطق به ؟ وقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم عندما سحره لبيد بن الأعصم اليهودى فأحدث به بعض الأذى فى بدنه (لا فى عقله ونفسه) عندما جىء له بتلك العقد التى عقدها لبيد المذكور كان يقرأ عليها المعوذتين ، فكلما قرأ آية انحلت عقدة ، فقام كأنما نشط

من عقال . وروى الترمذى عن ابن أبى خزامة عن أبيه قال : «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله : أرأيت رقى نسترقى بها ، ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقى بها : هل ترد من قدر الله شيئا ؟ قال : هى من قدر الله » . قال الترمذى : هذا حديث حسن .

وأما الرقى والتعاويذ فقد اتفق الاجماع على جوازها إذا كانت بآيات من القرآن ، أو كانت واردة فى الحديث . ويدل على صحة ذلك أن جبريل رقى النبى صلى الله عليه وسلم كما قلنا . وعن عوف بن مالك رضى الله عنه قال : « كنا نرقى فى الجاهلية ، فقلنا يا رسول الله كيف ترى فى ذلك ؟ فقال : « اعرضوا علىّ رقاكم » ، ثم قال : « لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك » . رواه مسلم وأبوا داود . وعن جابر رضى الله عنه قال : « لدغت رجلا منا عقرب ونحن مع النبى صلى الله عليه وسلم فقال رجل : يا رسول الله أرقى ؟ قال : من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل » . وعن أنس رضى الله عنه قال : « رخص لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الرقية من العين والحُمَة(١) والنملة(٢) » . رواه البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى . وقد رقى أبوسعيد سيد الحى الذى نزلوا به بفاتحة الكتاب ثم أخبروا النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « وما يدريك أنها رقية ؟ » الى آخر ما جاء فى الحديث ، وهو صحيح لا مطعن فيه .

ولا بأس أن نذكر لك من تلك الرقى التى كانوا يرقون بها فى الجاهلية وأقرها صلى الله عليه وسلم ولم ينه عنها : « العروس تحتفل وتكتحل ، وكل شىء تفتعل ، غير ألا تعصى الرجل » .

وأما من أنكر الحسد وتاثير النفوس من الفرق الضالة فمردود عليه ولا يلتفت اليه . وإن من العلم ما يكون وبالا على صاحبه ، فانه يفتح له باب التأويل فيضل ضلالا بعيدا ، وإنما الهدى هدى الله .

وقد قال بعضهم فى بيان سر تأثير الحسد : إن اهتمام الحاسد بالمحسود يوجب توجيه نظر الحاسد اليه والتفات نفسه له على وجه الغضب ، ونفس الحاسد حينئذ تتكيف بكيفية خبيثة تؤثر فى المحسود بسبب ضعفه وقوة نفس الحاسد شرا قد يصل الى حد الإهلاك ؛ ورب حاسد يؤذى بنظره .

أسأل الله أن يقينا شر الشريرين ، ويجعلنا من الراضين الموفقين بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

---

(١) الحمة : سم العقرب . (٢) النملة : قروح تظهر فى الجنب ، فكانت نساء العرب ترقيها بتلك الكلمات مرات صباحا ومرات مساء .

باب الأسئلة والفتاوى

صلاة الظهر بعد الجمعة

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

١ — ما قولكم زادكم الله علما ونورا فى صلاة الظهر بعد تأدية فريضة الجمعة، وهل هى واجبة أم مستحبة أم بدعة ؟

٢ — هل للامام الشافعى رضى الله عنه فيها قول ؟ وما هى حجته ؟

سيد على
رئيس جمعية التعاون على البر الاسلامى

الجواب :

ورد عن الشافعى أنه قال : « لا تقام فى البلد إلا جمعة واحدة مهما كبر البلد واتسع » . وقد تمسك بظاهر هذا النص بعض أصحابه ، فمنعوا تعدد الجمعة ولو دعت اليه حاجة (كأن يكون البلد كبيرا) ، ورأوا أنها إذا تعددت كانت الجمعة الصحيحة هى السابقة ، وأنه تجب صلاة الظهر على أصحاب الجمعة المتأخرة .

ويرى الحنفية فى معتمد المذهب أن الجمعة يصح أداؤها فى أماكن متعددة من المصر الواحد لحاجة ولغير حاجة . وعليه إذا أديت جمعتان أو أكثر فى بلد واحد صح الجميع ولا تجب صلاة الظهر على أحد منهم .

ويرى المالكية والحنابلة وجمهور الشافعية أنه لا يجوز تعدد الجمعة فى البلد الواحد إلا إذا دعت الى ذلك حاجة ، فاذا تعددت الجمعة لحاجة صحت الجمعة للجميع ، ولا تجب صلاة الظهر على واحد منهم حينئذ .

وأما إذا تعددت لغير حاجة فالمالكية يرون أن الجمعة الصحيحة هى التى أديت فى المسجد الذى أقيمت فيه أول جمعة فى هذا البلد ، والشافعية والحنابلة يرون أن الجمعة الصحيحة هى السابقة ، ويرى هؤلاء جميعا فى هذه الحالة أنه تجب صلاة الظهر على من لم تصح جمعته .

ومن هنا يتبين أن الحنفية يرون عدم وجوب صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة ، واحدة كانت أم متعددة .

وأن جمهور الفقهاء يرون فى معتمد مذاهبهم صحة الجمعة إذا تعددت لحاجة . ولا شك أن البلاد التى تقام فيها الجمع الآن تتحقق فيها الحاجة الماسة الى ذلك التعدد . وعلى ذلك تكون الجمعة فيها صحيحة ، ولا تجب فيها صلاة الظهر ، بل لا تندب إلا على بعض الآراء خروجا عن الخلاف .

واللجنة ترى أن صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة من المسائل التى توسع فيها الفقه الإسلامى ، فلا ينبغى للمسلمين أن يتخذوا منها مثارا للجدل والخلف الذى يفرق الجماعة ويجعل المسلمين فى دين الله وعبادته شيعا وأحزابا : « إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا لستَ منهم فى شىء » . والله أعلم ؟

فى الميراث

وجاء الى اللجنة أيضا الاستفتاء الآتى :

توفيت هانم بنت سوريال بن عطا الله القبطية عما يأتى :

١ — هيلانه سمعان خالتها الشقيقة ، وفى الوقت نفسه بنت عم أبيها .

٢ — باقى نكله سمعان ابن خالها الشقيق ، وفى الوقت نفسه ابن ابن عم أبيها .

والمراد بيان : هل الميراث كله لباقى نكله ابن خال المتوفاة بوصف أنه العاصب لأنه ابن ابن عم أبيها ، أو تكون المسألة من باب توريث ذوى الأرحام ؟ وما نصيب كل منهما على هذا ، مع مراعاة وصف القرابة من الجانبين لكل منهما ؟

بشارة فرج الشطانوفى
بقليوب — البلد

الجواب :

الميراث كله للعاصب ، ولا شىء فيه للخالة التى هى بنت عم أبى المتوفاة لأنها من ذوى الأرحام ، والعاصب مقدم على ذوى الأرحام فى الميراث . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى
محمد عبد اللطيف الفحام

بحوث في المسائل الفقهية

تاريخ الفقه الاسلامى فى مصر

— ١٠ —

الشـــــافعى

لم يتأثر الشافعى بمصر ، وإنما تأثرت مصر به .

لا يكون الفقيه متأثرا بغيره من الأشخاص أو البيئات إلا فى حالة من أربع حالات :

(١) أن يرجع عن أصل من أصوله التى كان يبنى عليها ، كأن يكون ممن يقدمون خبر الواحد على القياس ، ثم يصبح من الذين يقدمون القياس على خبر الواحد .

(٢) ألا يرجع عن أصل من أصول مذهبه ، ولكن يختلف فهمه فى تطبيق بعض الأصول ، فيفتى فى مسألتين متشابهتين برأيين مختلفين مع اتفاق الظروف فيهما ، فيعتبر ذلك تعديلا فى التطبيق لا فى الأصل .

(٣) أن يحكم بحكم عام لا يخصصه بمخصص ، ثم تعرض له حالة من الحالات لم يكن يتوقعها ، فيدعوه ذلك الى أن يخصص ذلك العموم .

(٤) أن يتأثر فى مجموعة ثقافته وميوله ببيئة من البيئات تأثرا يجعله يستحسن ما لم يكن يستحسن ، أو يكره ما لم يكن يكره .

تلك هى الحالات التى يسوغ معها للباحث أن يحكم بأن فقيها ما تأثر بغيره من الأشخاص أو البيئات .

فهل ما ذكره الأستاذ الفاضل أحمد بك أمين من الأمثلة يعود الى حالة من هذه الحالات ؟ فلننظر فى ذلك .

المثال الأول :

كان أول هذه الأمثلة : أن الشافعى فيما كتبه عن الوقف كان إذا أراد أن يمثل بصيغة وقفية مثل لذلك بوقف بيت فى الفسطاط من مصر .

ولست أدرى : كيف يصلح هـذا المثال دليلا على التأثر الفقهى ، وإنما هو مثال حاضر أوحت به ظروف المكان ، فرأى أن يمثل به لتلاميذه ، ولم يفهم منه تلاميذه قطعا أن الحكم خاص بهذا البيت أو غيره من بيوت الفسطاط .

فإذا كان الأستاذ يرى أن الشافعى تأثر بهـذا الظرف المكانى فظهر ذلك فيما جرى على لسانه من مثال ، فنحن لا ننكر هذا النحو من التأثر ، ولكن الذى ننكره هو أن يعد هذا التأثر السطحى تأثرا فى الاتجاه الفقهى ، والنظر العلمى ؛ فليس هذا النوع من التمثيل براجع الى صميم المسألة الفقهية ، وقد يصلح شاهدا يستأنس به الباحث على أن الشافعى كان يملى هذا الفصل فى الفسطاط مثلا !

المثال الثانى :

يقول الأستاذ : إن الشافعى كان يتكلم فى الطين الأرمنى والطين الذى يقال له طين البحيرة ويقارن بين أولهما وطين رآه فى الحجاز .

ولا شك أن هذا أيضا لا شأن له بالتأثر الفقهى ، فمن الواضح أن أحدنا لو تكلم فى المياه المعدنية فى أوروبا ، وقارن بينها وبين مياه حلوان مثلا ، لما صح أن يقال إنه قد تأثر فى أفكاره بأوروبا .

فإذا كان الأستاذ يريد أن يقول إن الشافعى أعطى الطين الأرمنى حكما لم يكن قد أعطاه للطين الحجازى ، فليس هذا عدولا عن حكم قديم الى حكم آخر جديد ؛ وإنما هما نوعان من الطين عرف أحدهما فأعطاه حكمه ، ثم عرف الآخر فأعطاه حكمه ؛ ولو وصف له الطين الأرمنى وهو فى الحجاز لأعطاه نفس الحكم الذى أعطاه إياه وهو فى مصر .

المثال الثالث :

كان الشافعى يتكلم فى القراطيس «وهى مصرية» ويبين متى يجوز أن تسلف ومتى لا يجوز .

وهذا أيضا لا يعد اختلافا فى مذهب الشافعى ورجوعا عن قديم الى جديد ، لأن القراطيس لم تكن معروفة له من قبل ، ولم يكن له رأى سابق فيها ، ولا دخل لمصر فى حديثه عنها إلا أنها أتاحت له موضوعا جديدا يبحث فيه ويطبق فقهه عليه ، فهذا الموضوع هو الذى تأثر بفقه الشافعى لأنه اكتسب منه حكما فقهيا ، ولقد كان الشافعى وهو فى مصر يأبى أن يعطى الأوراق التى كان يتعامل بها المصريون حكم النقد ، فلو كان متأثرا بمصر لما أبى ذلك .

المثال الرابع :

كان الشافعى يتكلم فى الشعراء ومن تجوز شهادته منهم ومن لا تجوز ، فيستملى فيما يظهر « هكذا يقول الأستاذ » من حال الشعراء فى مصر .

والأستاذ ـ فيما يظهر ـ غير مطمئن الى هذا المثال كما يبدو من تعبيره ، وحق له ألا يطمئن اليه ، فان الشعراء فى بيئة الشافعى الأولى كانوا أكثر منهم فى مصر ، والفقهاء والقضاة وأهل العلم عامة كانوا ينظرون إليهم نظرة تنفق مع قوله تعالى : « والشعراء يتّبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا » .

ولست أدرى أصح عن الشافعى أم لم يصح قوله :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد !

ولكنه على كل حال يصور بعض الذى كان يدور بنفوس العلماء عن الشعراء يومئذ . فاذا كان الشافعى يتحدث عمن تجوز شهادته منهم ومن لا تجوز شهادته ، فليس ذلك بحديث جديد يستملى فيه من حال الشعراء المصريين خاصة ، وإنما يكون جديدا لو كان فى القديم يجيز شهادة الشعراء إطلاقا أو يمنعها باطلاق ثم رجع عن ذلك أو غيّر فى بعض تفاصيله .

هذه هى الأمثلة التى أوردها الأستاذ ، ولست أدرى إن كان لديه أمثلة غيرها لم يذكرها فى كتابه أولا . ولكن هذه الأمثلة التى ذكرها لا تنهض دليلا على تأثر الشافعى فى فقهه بمصر ، فليس فيها رجوع عن أصل عام كان يجرى عليه ، وليس فيها اختلاف فى التطبيق الفقهى يرجع الى تغير فى الفهم ، وليس فيها رجوع عن حكم عام ، وليس فيها تأثر بالبيئة الخاصة ينبنى عليه كراهة أو استحسان !

ومن الغريب أن هذا الباحث الفاضل بينما يستدل فى كتابه « ضحى الاسلام » بهذه الأمثلة على تأثر الشافعى بمصر ، تراه فى كتابه « فجر الاسلام » ينقد نظرية لابن خلدون يقرر فيها أن مدنية البلد الذى نشأ فيه الامام أو بداوته لها أثر خاص فى تكوين مذهبه ، فيقرر بأن هذه النظرية واضحة فى بعض الخلافات المذهبية ، ثم يقول :

« والظاهر أن هذا المنزع ، أعنى تقرير الإمالة للظروف التى تحيط به ، وتأثيرها فى آرائه إنما يكون حيث لا يصح نص عند الامام ، فاذا صح فلم يكن لهذه الظروف أثر فى تكوين رأيه ، ودليلنا على ذلك مثلا ما نرى من أن مذهب أبى حنيفة اعتبار الكفاءة فى الزواج نسبا ، فقريش عنده أكفاء لبعض ، وليس سائر العرب أكفاء لقريش ، والموالى ليسوا بكفء للعرب . مع أن الامام مالكا يقول : لا تعتبر الكفاءة إلا فى الدين لأنه صح عنده قوله عليه الصلاة والسلام : « الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى ، إنما الفضل بالتقوى » . ولو كانت المسألة لتقدير الظروف فقط لانعكس المذهبان (١) » .

---

(١) فجر الاسلام ج ١ ص ٣٠٧

وهذا نقد جيد من الأستاذ أحمد بك أمين ، ما كان أجدره بأن يطبقه على نظريته عن الشافعى ليعلم أنه لم يتأثر بمصر فى فقهه ، وإن كان قد تأثر بها فى أمثلته أو موضوعات مسائله أحيانا !

***

بقى علينا بعد هذا أن نشرح رأينا الذى نراه من أن الشافعى هو الذى أثر فى مصر ، وهذا التأثير له مظاهر ترجع الى ما يلى :

(١) كان المصريون قبل الشافعى فريقين : فريق يرى مذهب الحنفية ، وفريق يعتنق مذهب المالكية ، ثم كادوا يجمعون على مذهب المالكية ، لأنه مذهب أهل المدينة ، ولأن الناس ــ كما يقول الليث بن سعد فقيه مصر ــ « تبع لأهل المدينة التى اليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن » ، فلما جاء الشافعى اجتمع له المصريون ، واتصل به بعض فقهاء المالكية وأخذوا عنه ، حتى آلم ذلك بعض كبار المصريين ، فنفسوا على الشافعى هذا النجاح ، وجعلوا يكيدون له ويدبرون لإيذائه . وقد روى ابن خلكان والكندى شيئا من ذلك ، وروى يافوت أن هذا قد انتهى بالاعتداء على الشافعى وهو فى حلقته العلمية اعتداء حمل معه الى منزله عليلا ولم يزل به حتى مات (١) .

(٢) توفى الليث بن سعد قبيل قدوم الشافعى الى مصر ، وكان لليث فى مصر منزلة سامية ، ورأى مشهور ، فكان من عوامل ضياع مذهب الليث ، وانقراضه بين المصريين ما شغلهم به الشافعى من حضوره اليهم بنفسه ودفاعه عن آرائه ، فكأن أصحاب الليث رأوا فيه عوضا عن فقيدهم ، ولأمر ما قال الشافعى فى الليث : « هو أفقه من مالك ، ولكن أصحابه ضيعوه » .

(٣) أزكى الشافعى بين المصريين روح المناقشة والمناظرة والجدال ولم يكونوا من قبل يعرفون المناظرات الفقهية ، ومما يدل على ذلك ما رواه صاحب تاريخ بغداد من مناظرة الشافعى مع ابراهيم بن اسماعيل المعروف بابن عليه فى تثبيت خبر الواحد مما أدى الى أن يضع ابن عليه وعيسى بن أبان كتابا عن الشافعى والرد عليه ، والى أن يضع داود بن على الأصبهانى ردا عليهما (٢) .

(٤) انتشر مذهب الشافعى فى مصر انتشارا عظيما بهمة أصحابه ، وبحسن استقبال القبائل العربية النازحة من بلاد العرب الى مصر إياه ، ولأمر ما نرى المذهب الشافعى سائدا فى كثير من الأقاليم التى ينزع سكانها الى الأصل العربى كاقليم الشرقية مثلا .

---

(١) معجم الادباء ج ٦ ص ٣٩٥ .

(٢) انظر كتاب « فى الادب المصرى الاسلامى » للاستاذ محمد كامل حسين ص ٥٤ .

(٥) ظلت آثار الشافعى فى مصر بعد وفاته ، حتى اشتدت المنافسة بين أصحاب مالك والشافعى ، واتخـذت شكلا عنيفا بات يخشى معه على الأمن والنظـام ، فقد جاء فى كتاب « المُغرب فى أخبار المغرب » قوله : « وفى سنة ٣٢٦ هـ عاد أصحاب مالك والشافعى الى القتال فى المسجد الجامع العتيق ، وكان فى الجامع للمالـكيين خمس عشرة حلقة ، وللشافعية مثلها ، ولأصحاب أبى حنيفة ثلاث حلق ، فلما زاد قتالهم أرسل الأخشيد ونزع حصرهم ومساندهم وأغلق الجامع . وكان يفتح فى أوقات الصلوات ، ثم سئل الأخشيد فيهم فردهم » (ص ٢٤ ج ٤ من المغرب) .

تلك بعض الآثار التى أثرها الشافعى فى مصر ، فلعـلى بذلك أكون قد وضعت المسألة فى وضعها الصحيح . وإنما عنيت بمناقشة نظرية الأستاذ أحمد بك أمين وتبيين ما فيها لأمرين :

أحدهما : أننى على كثرة ما بحثت لم أعثر على مسألة من المسائل الفقهية التى يظهر بها جليا كيف تأثر الشافعى بمصر ، وقـد استعنت بكثير من فضلاء الشافعية فى الأزهر ، فلم أجد أحدا منهم يؤيد هذه الفـكرة أو يذكر مثالا واحدا مما مر به يشجع على القول بها .

والثانى : أنى رأيت هذه الفـكرة مقتبسة بنصها فى كتاب « تاريخ التشريع الإسلامى » الذى يدرسه الطلاب فى كلية الشريعة ، فلم أر بدا من التنبيه الى وجوه الخطأ فيها ، رعاية لحق الطلاب على .

ولست مع هذا بجاحد فضل الأستاذ العلامة أحمد بك أمين ، فان بحوثه العلمية الهادئة أمثلة شاهدات على فضله ونبوغه ؟ « يتبع »

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة

من كلام عمر بن عبد العزيز

من ذلك ما كتبه الى عدى بن أرطاة عامله على العراق : « إذا أمكننك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق القادر عليك . واعلم أن ما لك عند الله أكثر مما لك عند الناس » .

وكتب الى عماله : « مروا من كان قبلكم فلا يبقى أحد من أحرارهم ولا مماليكهم صغيرا ولا كبيرا ذكرا ولا أنثى إلا أخرج عنه صدقة فطر رمضان : مُدَّين من قمح ، أو صاعا من تمر أو قيمة ذلك نصف درهم . فأما أهل العطاء فيؤخذ ذلك من أعطياتهم عن أنفسهم وعيالاتهم ، واستعملوا على ذلك رجلين من أهل الأمانة يقبضان ما اجتمع من ذلك ثم يقسمانه فى مسكنة أهل الحاضرة ، ولا يقسم على أهل البادية » .

دراسات اجتماعية منوعة

نشأة الحياة الاقتصادية عند العرب

لقد كانت البيئة العربية قبل الاسلام بسيطة التركب تتكون من بدو رحل لا تربطهم بالأرض وشيجة قوية لكثرة تنقلهم سعيا وراء منابت العشب ومساقط الماء، وأخيراً استقرت فى مدن أشهرها مكة حول البيت الذى بناه ابراهيم عليه السلام ، فكان يفد اليهم رجال القبائل حاجين مزودين بخيرات من عندهم يقدمونها قرابين وصدقات ، وأدى كثرة تنقلهم فى أنحاء الجزيرة الى تنمية روح المجازفة عندهم ، وضرورة المتاجرة بينهم ، وكانت مكة محطا تتجه اليه حركاتهم لمكانتها المقدسة من الكعبة ، وكانوا قد ملأوها أصناما لكل قبيلة صنم يقطعون الفيافى ليحجوا اليه ، حتى إذا قضوا مناسكهم عاجوا على مكان قريب من المدينة يضربون به خيامهم ، ويعرضون فيه سلعهم .

فى ذلك الزمن كان للرومان مدنية مزدهرة فى شمال الجزيرة الغربى، وللفرس أخرى فى شرقها ، وللأحباش حضارة فى جنوبها الغربى ، وتولدت فى تلك الشعوب الحاجة الى التبادل التجارى ، ولم يكن النقل فى البحر مأمونا ، فكانوا ينقلون بضائعهم عبر الجزيرة ، وتنيخ قوافلهم فى المدن الكبيرة ليتزودوا منها لسفرهم ، وكانوا يحملون من منتجات البلاد العربية معهم ، فنشأت عن ذلك حركة تجارية فى بلاد العرب كانت مورد رزق لكثير من المدائن التى انتشرت على طول خط سير القوافل فى الشرق والغرب .

وكان عرب اليمن يأتون معهم بالعبيد من الحبشة وسواحل أفريقيا الشرقية ويبيعونهم فى الأسواق ، فيشتريهم ثراة القوم من التجار والزارعين ، ليحملوا لهم بضائعهم ، أو ليخدموا لهم حقولهم وبساتينهم ، واعتمدوا عليهم فى ذلك اعتمادا جعل للاسترقاق قيمة كبيرة فى الكيان الاقتصادى للبلاد العربية . وانصرف القوم من أغنياء العرب وسادتهم الى اللهو والكلام ، وتعطلت مواهبهم العملية ، فلم تعرف لديهم مهن ولا حرف غير التجارة والزراعة . فكان أطباؤهم الشيوخ الذين اشتهروا بالكهانة والعرافة ، وكان علاجهم الكى والحجامة ، وكان صناعتهم صقل السيوف ، وعلماؤهم العارفين بالأنساب وقافة الآثار . فتجارة العرب لم تكن منظمة ولا على أساس كغيرها فى البلاد المجاورة لها مع أهميتها ، فهى من ذلك النوع المعروف

الا ن بتجارة الترانسيت والتى تجنى منه انجلترا ومصر أموالا طائلة . ذلك لأنه لم يكن عند العرب نظم مالية ، ولا ضرائب مفروضة ، ولا حواجز مشروطة ، وكان التبادل بينهم وبين غيرهم يقوم على أساس مساومة ساذجة يعود منها السورى واليهودى والفارسى بنصيب الأسد ، وكانوا إذا تعاقدوا فبالكلام ، وإذا تداينوا فبالضمان .

ولما تولدت فى العرب الحاجة الى الاتجار فى تلك البقاع ، رتبوا تجاراتهم فى رحلتين : رحلة فى الشتاء الى اليمن ، ورحلة فى الصيف الى الشام ، وبدأت تسير قوافلهم بانتظام فى تلك الرحلات الموسمية تنقل حاصلات الحجاز وما جاوره وتعود محملة بسلع الشام واليمن ، وقد برع بعضهم فى فنون المساومة ، فكانوا يستأجرونهم فى الاتجار فى عروضهم وأموالهم . وقد جلبوا معهم ضمن ما كانوا يستوردونه من اليمن والشام بذور فواكه وخضروات لاقت فى جو الطائف منبتا خصبا ، فأثمرت وآتت أكلها . وازدهرت الزراعة فى تلك الجهات ، فزاد فيها عدد السكان لاطمئنانهم فيها الى رزق مستديم ؛ كما أن كثيرين من اليهود الذين اضطرهم اضطهاد الروم فى الشام والأحباش فى اليمن الى المهاجرة ، نزحوا الى بلاد العرب واستقروا بجوار يثرب ، بعد أن حالت عصبية المجوسية فى فارس من دخولهم أرضها ، أو أنهم اختاروا ذلك المكان لأن كتابهم يبشرهم برسول منتظر يخرج من جزيرة العرب .

وقد استعمروا تلك الجهة وزرعوها ، وبذلك أصبح فى جزيرة العرب جهات زراعية تبدو عليها آثار النعمة والغنى ، فشيدت بها بيوت ، وغرست حدائق ، وأقبل العرب فيها على الترف وامتلاك العبيد والجوارى وتعدد الزوجات ، بينما تضرب قبائل أخرى خيامهم على مقربة منهم تحت رحمة الرياح ، إن اشتدت خلعتها وشتتت سكانها ، وإن ترفقت أبقتها وتركت أهلها يرعون إبلهم ، ويجمعون الكفاف لسد رمقهم . لذلك كانوا يتحينون الفرص للسطو على القرى والقوافل ، خصوصا أنه لم يكن هناك سلطة تنفيذية ، ولا هيئة مسئولة تبطش بالمعتدين منهم .

وكان المجتمع العربى فى المدن مؤلفا من كبار الملاك الرعاة والزارعين ، وأصحاب العروض والتجارة ، وطبقة الرقيق المسبيين من بلاد متمدنة ، وقد أدى هؤلاء خدمات جليلة فى نواح اقتصادية كثيرة بما نقلوه من النظم المتبعة فى بلادهم ، فنهضوا بالزراعة ، ونظموا عرض السلع فى الأسواق ، وحذقوا بعض الصناعات الأولية ، كتجفيف البلح وصناعة الرحى لدش الشعير ، وإنما كان يقوم بها الرقيق لاحتقار العرب للصناعة ، لأن خلق العربى ونزعته الى الكلام والحرية ، وأثر حالة الرعى التى تقتضى دوام التنقل فى الفضاء فى تكوينه الاجتماعى ، يجعل من الصعب عليه أن يحبس نفسه أمام قطعة يصنعها أو داخل مصنع ضيق ؛ وطبيعة إقليمهم القحل الصحراوى وعدم توفر المواد الأولية به لا يدعو الى قيام صناعات فيه ؛ لذلك لم يتجه تفكيرهم الى النواحى العملية اتجاهه ناحية نظم القوافى .

وقد اشتهر من بين العرب قريش فى الحجاز وأهل تهامة ، وثقيف فى الطائف ، والتبابعة باليمن أمام الحبشة ، والمناذرة على مقربة من العجم ، والغساسنة على حدود سورية . وقد غلبت مدنيات الحبش والعجم والروم على الثلاث الجهات الأخيرة ، فقامت بها نهضات زراعية وصناعية كانت تزدهر حينا فتتقدم فيها فنون هندسة الزراعة والعمارة ، كما يدلنا على ذلك إقامة سد مارب فى اليمن لحجز مياه الأمطار لتنظيم رى الأراضى الزراعية ، وتتدهور أحيانا لتصادم المطامع والمنازعات السياسية والدينية ، أو نتيجة ما أصاب المسيحية والمجوسية من الضعف والانحلال .

إلا أننا نعتقد أن الأفراد من أهالى تلك الجهات قد عنوا بالمسائل المالية الناتجة من مزاولة التجارة والزراعة وغيرها ، ولابد أن يكونوا فى حدود مصالحهم الشخصية قد عملوا على تنمية ثروتهم . كان ذلك حتما ، وإنما كان يجرى بطرق فردية لا رابط بينها ، فلم تكن هناك سياسة مرسومة للقبيلة ، إنما كانوا يقلدون الأمم المجاورة فيما ابتدعه أفرادها لأنفسهم من نظم .

وكانت قريش تعيش من سقاية الحاج وسدانة الكعبة ، ورعى المواشى ، والاتجار فى البضائع الواردة ؛ وكل هذه أشياء تزيد أو تنقص حسب الظروف ، ولكنهم لم يعبأوا بذلك بل كانوا مسرفين مترفين ، فلم يدخروا لمستقبلهم . وربما كان يرجع ذلك الى أن نفقات معيشة العربى قليلة ، فطعامه كان الشعير أو البلح أو اللحم ، ولبن شاة أو بعير ، وهذا متوفر فى الصحراوات ، وكان سكنه فى بيوت صغيرة أو خيام ، فلم يفكر فى تحسين مستوى معيشته لقصوره فى النواحى الصناعية والعلمية ، حتى إنهم عجزوا عندما أرادوا إصلاح الكعبة عن القيام بأعمال النجارة الأولية فاستدعوا نجّارا من مصر . كما أن صفاتهم التى اشتهروا بها كالمبالغة فى الكرم والحماسة وكثرة الحروب والانغماس فى اللهو سببت إسرافهم وضياع أموالهم ، مع العلم بأن وجود الادخار ورءوس الأموال من أهم الشروط الضرورية لبناء الدول .

إلا أن وجود الكعبة جعل أفئدة من الناس تهوى الى الحجاز من جميع البقاع العربية ، وتنظر الى قريش باكبار واحترام ، إذ هم خدمها وسدنتها ، فذاع بذلك صيتهم ، ودرّ عليهم أموالا كثيرة فى مواسم الحج ؛ كما أنه أثار الحقد والغيرة فى قلوب أهل اليمن ، فطمع ملكهم فى انتزاع مكانة قريش وتحويل تلك الأموال الى اليمن ، فبنى بيتا وأثثه بأفخر الأثاث ، وجهز جيشا مزودا بالعدد اللازمة لهدم الكعبة ، وسار لتنفيذ عزمه .

وكان لتلك الغزوة آثار بينة ، فإنه ماكاد يتحرك الجيش ويعلم الناس بغرضه حتى زلزلوا وهالهم الأمر ، وأرادت بعض القبائل صده فعجزت وأسر رؤساؤها حتى وصل الجيش الى الطائف ، فخشى أهله على زراعتهم وأسرع بعضهم الى قائده يخبرونه أن البيت الذى يقصده ليس بحيهم ، وساروا معه يرشدونه الى مكانه ، فلما اقترب من مكة دها قريشا كرب عظيم . فلما أبلغهم

القائد أنه أتى لهدم الكعبة فإن خلوا سبيله دونها لم يتعرض لأحد منهم بسوء ، حرص عبد المطلب شيخ قريش على طلب إبله التي أخذها الجيش وترك حماية البيت لربه .

وتدلنا تلك الظاهرة على مبلغ اختلال النظام القبلي وقلة استعداده وعجزه عن صد قوى دولة منظمة قد رتبت شئونها وطمعت في بسط سيادتها على غيرها . فأهل الطائف يخشون على زراعتهم ويرشدون الجيش الى البيت ليبعدوه عنهم ، ويتركونه يهدم الكعبة وفيها رمز وجودهم ، وقريش يتخلون عنها وهم يبكون عليها لضعفهم وقلة حيلتهم وهي مورد رزقهم وسبب شهرتهم وفيها آلهتهم وعبادتهم . وفي خشية أهل الطائف على بساتينهم وحرص قريش على أموالهم دليل على نمو الفكرة المادية عندهم .

وفشلت تلك الغزوة بعد أن قضى الله على هذا الجيش ، فزاد إكبار الناس لمكة واعتقاد العرب في الكعبة وتقديسهم لها وتشوقهم للحج اليها ، وبذلك زاد دخل قريش وعلت مكانتهم ، ولكنهم احتفظوا بنظام القبيلة ، وزاد ترف سادتهم وأغنيائهم ، وعاشوا حياة معطلة كلها لهو ومجون واستهتار ، ولم يعنوا بصالح الجماعة وتنظيمها ، بل استمر المجتمع العربي قائما على غير أساس ثابت كالنبت ينمو على حافة الأنهار من تلقاء نفسه بغير ترتيب ، ويرجع ذلك الى جهلهم وركودهم العلمي .

وكما هو الحال في كل بيئة ضعيفة جاهلة ، انتشر البغاء بين العرب لكثرة ما كان يجلبه تجار الرقيق الأبيض والخمور من فتيات الروم ونبيذ الشام المعتق الذي أولعوا به وأدمنوا تعاطيه ، وأديرت في أحيائهم بيوت الدعارة ، وراجت بينهم سوق الفساد ، وفي طبع العربي الإسراف . ثم إن هذه الظاهرة نفسها أحوجت الكثيرين منهم الى التداين ، وأدى ذلك الى تفشي الربا الفاحش ، كما دعا الى تجمع الثروة في أيدي نفر قليل أغلبهم أجانب عن العرب ، حتى قلت ثروة المجموعة ، وزاد انحطاط مستوى معيشة القوم .

وهكذا استمروا على تلك الحالة ، لم تؤثر فيهم غزوة الفيل ، ولم ينتبهوا للكيان الدولي الذي كان يمثله جيش أبرهة ، بل عادوا الى حياتهم الأولى ، حياة النزاع والنضال ، والحسد والبغضاء ، فكانت حرب الفجار ، ودارت رحى حرب بين الأوس والخزرج . لذلك لم يكن هذا المجتمع يبشر بقيام دولة موحدة ، تحت لواء حاكم واحد ، وفي كنف نظام سياسي ومالي عام .

وهكذا بقي العرب مفككي الأوصال في حالة فوضى اجتماعية حتى بعث النبي الأمي عليه الصلاة والسلام ، فجاء بالمعجزة الاجتماعية الكبرى ، وسن الآية التشريعية الخالدة ، ووضع الأسس الاقتصادية المحكمة ، التي تضمن للناس سعادتهم في الدنيا والآخرة . وهذا ما سنفصله في البحث القادم ، إن شاء الله ؟

ابراهيم زكي

مذاهب العرب فى كلامهم

مناحى القول كثيرة ، ومذاهبه متشعبة ، لم تحتجزها لغة من لغى البشر ، ولم تقتطعها لهجة دون أخرى ، فمبعث وجودها وسر تكوينها شائعان فى الأذهان ، وإن تباعدت البيئات والجدران ، فـكل قبيل له فى ذلك سهمه ، وكل أمة لها منه قسطها ، وكل لغة تنوعت فيه طرقها ، فالتقارب والتباعد والتوافق والتباين وفنون القول جميعها ، أقدار سائرة بين الناس ، قد عقدت أطرافها على اللغات جميعا . غير أن هنالك من المذاهب ما تفردت به لغة العرب أو بالغت فيه مبالغة جعلتها كأنها متفردة به . وفى هذا المنحى سنجرى القول من هذا البيان ، ونضم اليه من مذاهب القوم ما يجىء به الـكلام وافيا ، ويكون المعنى فيه واصلا . ونقدم القول بأن هذه المذاهب تدلنا على ما كان للعرب من صفاء الذهن ، وجودة الطبع ، وسلامة الإدراك وقوة التصرف ، حتى إنهم كانوا يحملون الـكلام على فهم السامع وسبق الزمن ، وتقوم الإشارة مقام الحالة ، مما جعل متكلمهم كالطبيب الحاذق يعمد بدوائه الى موطن الداء فيحسمه .

فمن مذاهبهم فى ذلك : الحذف ، وقد بذ العرب فيه غيرهم ، وفاقوا من عداهم ؛ وهو قسمان : حذف يدل عليه سياق الـكلام فيسهل فهمه ويدنو إدراكه ، وآخر يختفى دليله فيتطلب فهمه عسرا ومشقة . قال المهاجرون : « يا رسول الله إن الأنصار فضلونا فانهم آووا ونصروا ، وفعلوا وفعلوا ؛ فقال : أتعرفون ذلك لهم ؟ قالوا نعم ، قال : فانّ ذاك » . ليس فى الحديث غير هذا ، يريد أن ذاك شكر ومكافأة لهم . وقام رجل من قيس على عمر بن عبد العزيز فى حاجة له وجعل يمت اليه بقرابة ، فقال عمر : وإن ذاك ، فذكر الرجل حاجته ، فقال عمر : لعل ذاك . لم يزد على هذا ؛ ومعناه وإن ذاك كما قلت ، ولعل حاجتك أن تقضى . وجاء فى الشعر لعبد الله بن قيس :

بـكرت علىّ عـــواذلى يلحيننى وألومهنه
ويقلن شيب قـد علاك وقـــد كبرت فقلت : إنه

وقال الأسدى لعبد الله بن الزبير : لا حملت ناقة حملتنى اليك ! قال : إن وراكبها . ولما قرأ عمر كتاب أبى عبيدة فى الطاعون استرجع ، فقال الناس : مات أبو عبيدة ؟ قال : لا وكأن قد . وقال النابغة :

أزف الترحل غـير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكأن قد

وأنشد ابن الأعرابى :

إذا قيـل أعمى قلت إن وربما أكون وإنى من فتى لبصير

وقال عمر بن الخطاب : إنى لأستعين بالرجل الذى فيه . وأراد قول الأسدى :

سويد فيـــه فابغـونا سواه أبيناه وإن بهاه تاج

أما ما يقوم دليله فكأن يحذفوا صدر الجملة أو عجزها ، وقد يحذفون جملة كاملة أو جملا متعددة .

ومن كلامهم مذهب يذهب السامع فيه الى معانى أهله والى قصد صاحبه ، كقول الله تعالى : « وترى الناس سُكارى وما هم بسكارى » ، وقال : « لا يموت فيها ولا يحيا » ، وقال : « ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت » ، وقال لنبيه : « فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » . قالوا لم يشك ولم يسأل . وقال عمر فى جواب كلام تقدم : متعتان كانتا على عهد رسول الله أنهى عنهما وأضرب عليهما . وقال رجل لبلال مولى أبى بكر وقد أقبل من جهة الحلبة : من سبق ؟ قال : سبق المقربون ؛ قال : إنما أسألك عن الخيـل ، قال : وأنا أجيبك عن الخير .

ومن مذاهبهم تشبيه الشىء بالشىء فى دقة تكاد تخفى الصلة بينهما ، قال الشاعر :

بدا البرق من نحو الحجاز فشاقنى وكل حجازى له البرق شائق
سرى مثل نبض العرق والليل دونه وأعـلام أبلى كلها والأسالق

وقال آخر :

أرقت لبرق آخر الليـل يلمع سرى دائبا فيـه يهب ويهجع
سرى كاحتساء الطير والليل ضارب بأرواقه والصبح قد كاد يسطع

ومن مذاهبهم فى الكلام حمل بعضه على بعض ، ويقولون : أصاب الهدف إذا أصاب الحق فى الجملة ، أو قرطس فلان إذا كان أجود إصابة من الأول . فإن قالوا : رمى فأصاب الغرة ، فهو الذى ليس فوقه أحد . ومن ذلك قولهم . يفل المحز ، ويطبق المفصل ، ويضع الهناء مواضع النقب . ومن حملهم بعض الكلام على بعض قول الله تعالى : « هذا نُزُلهم يوم الدين » والعذاب لا يكون نزلا ولكنه لما أقام العذاب لهم فى موضع النعيم لغيرهم ، سماه باسمه ؛ وقوله تعالى « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » وليس فى الجنة بكرة ولا عشى ولكن على مقدار البكر والعشيات . وعلى هذا قوله تعالى : « وقال الذين فى النار لخزنة جهنم » والخزنة الحفظة وجهنم لا يضيع منها شىء فيحفظ ، ولا يختار دخولها إنسان فيمنع ، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت باسمه . وقال الشاعر :

يادار قـد غيّرها بلاها كأنما بقـلم محاها
أخربها عمران من بناها وكر ممساها على مغناها
وطفقت سحابة تغشاها تبكى على عراصها عيناها

فلما بقى الخراب فيها وقام مقام العمران فى غيرها سمِّى بالعمران ، وعيناها هنا للسحاب ، وجعل المطر بكاء من السحاب على طريقة الاستعارة وتسمية الشىء باسم غيره إذا قام مقامه .

وقال غيره :

ياعجّل الرحمن بالعـذاب لعامرات البيت بالخراب

يعنى الفأر . يقول : هذا عمرانها ، كما تقول : ما نرى من خيرك ورفدك غير ما يبلغنا من فتّك فى أعضادنا .

ومن مذاهبهم الإيجاز وتحميل الألفاظ القليلة معانى كثيرة ، وهو مـذهب بذ العرب فيه غيرهم ، وساقوا فيه كثيرا من كلامهم وحكمهم وأمثالهم . وجاء فى الحـديث من ذلك : « يا خيـل الله اركبى . لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين . المسلمون تتـكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، ويرد عليهم أقصاهم ، وهم يد على من سواهم » . فانظر قلة حروفه وكثرة معانيه . وقال : « اليد العليا خير من اليد السفلى . ابدأ بمن تعول . لن يهلك امرؤ بعـد مشورة . المستشار مؤتمن . رحم الله عبدا قال خيراً فغنم أو سكت فسلم . إياى والتشادق . أيها النـاس إنما بغيكم على أنفسكم . إياكم والمشارة فانها تميت الغرة ، وتحيي العرَّة . دبَّ اليكم داء الأمم من قبلـكم : الحسد والبغضاء . ليس من أخـلاق المؤمن الملق . وقال على : النـاس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم » .

ومن الإيجاز والاعجاز والجزالة والبلاغة وحسن التقسيم وكمال الوصول قوله تعـالى : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض المـاء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين » . فهذه الألفاظ القليلة جمعت قصة كاملة ، وهى بعد سهلة سائغة قـد وصلت بالمعنى الى غايته ، فلو سألت متوسط الذكاء عما أوجزت بلغ بك من فهمها الى ما تريد . وهـذه الآية لها قصة بل قصص قديمة وحديثة ، وآخر ما رأيته منهـا أن بعض علمائنا المعاصرين تناولها بالتفسير فجعل سبب إعجازها مخاطبة ما لا يعقل وتنفيذه ما أمر به ، فأخرج الإعجاز عن النظم والمعنى معاً ، وحوله الى جهـة خارجة لا أدرى كيف تصورها ، فاذا كانت مخاطبة الجماد مدعاة الاعجاز ، فان العرب قد خاطبوا الأطلال والدور والنياق وغيرها ؛ وإذا كان الجماد عقل و نفذ ما خوطب به فانه لا فضل لنظم القرآن فى ذلك .

ومن مذاهبهم الإطالة والوحى والإشارة ، قال أبو دؤاد بن جرير الإيادى :

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحى المـلاحظ خيفة الرقباء

وقد يلجأون الى ترديد المعنى إذا اقتضاه المقام ، كما فعلوا عند استنفار الناس ، وفى الأوامر السلطانية وولاية العهد ، وعند الحشد العام ، ليصح فى الأفهام ما يقصدون اليه من معنى معين . وقد تردد فى الذكر الحـكيم بعض القصص والألفاظ كقصة موسى وهارون وهود وشعيب

وعاد ولوط وثمود وذكر الجنة والنار وغير ذلك ، لأنه خاطب الأمم كافة وفيها الغبى الغافل ، والمشغول الساهم ، والقوى المعاند ؛ وتعلق بهذا المذهب كثير من الكتاب ، ودافع عنه الجاحظ فى كتاب البيان ، وأخذ به كما أخذ به أديب كبير من أدبائنا المعاصرين ، ولكنه يدور فى اللفظ كثيرا بخلاف القدامى فانهم يدورون فى المعنى لبقائه وتثبيته .

ومن مذاهبهم تنويع الخطاب وما سماه المتأخرون التفاتا ، فينتقل بك من حالة الى أخرى لحكمة تقتضيها ، وقد يضيفون الى الكلمة حرفاً أو ينقصونها حرفاً فينقلب معناها الى ضده ، وقد يذهبون باللفظ أو المعنى فى غير ناحية ، وإن كنت أرى أن هذا نشأ من اختلاف القبيل وتعدده .

وجاء علماء العباسيين فأضاف البيانيون منهم مذاهب أخرى نوعوا فيها الكلام تنويعاً ، وبرقشوه برقشة جعلتهم يقيمون لها فنا قائما وعلما كاملاً . وكانت إضافتهم سائغة مقبولة ، وسهلة غير مرذولة ، ولكن المتأخرين بالغوا فى ذلك مبالغة أثيمة ، وقيدوا بعضها قيودا ثقيلة يمجها ذوق اللغة وفهم أسرارها . وقد أنكر عليهم ذلك علماء عصرنا وأخذوا فى محاكاة القرون الأولى ، وإن جاء اليوم منهم من يدخل أساليب الفرنجة ويقلدها . وقد نتحدث عن ذلك بعد ؟

محمد ناصف

الاعتذار عن البخل

روى عن أبى الأسود الدؤلى أنه قال لبنيه : لا تجاودوا الله فإنه لو شاء أن يغنى الناس كلهم لفعل ، ولكنه علم أن قوما لا يُصلحهم الغنى ، ولا يَصلح لهم إلا الفقر ، وقوما لا يصلحهم الفقر ، ولا يصلح لهم إلا الغنى .

وجاء رجل من تغلب لرجل من كندة طالبا جدواه ، فقال له : يا أخا بنى تغلب إنى لن أصلك حتى أحرم من هو أقرب الى منك ، وإنى والله لو مكنتهم من دارى لنقضوها لَبِنة لبنة ! والله يا أخا بنى تغلب ما بقى بيدى من مالى وأهلى وعرضى إلا ما منعته من الناس !

وقال بخيل متفلسفا : من أعطى فى الفضول ، قصر فى الحقوق .

وقال رجل لسهل بن هارون : هبنى مالا مرزأة عليك فيه . قال سهل : وما ذاك يا ابن أخى ؟ قال الرجل درهم واحد . فقال سهل يا ابن أخى لقد هونت الدرهم وهو طابع الله فى أرضه الذى لا يعصى . والدرهم ويحك عشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف دية المسلم ، ألا ترى يا ابن أخى الى أين انتهاء الدرهم الذى هونته ، وهل بيوت المال إلا درهم على درهم ؟

مولد الرســـول

صلى الله عليه وسلم

الاحتفال بالحوادث الجسام ، وخاصة الحوادث التى أفادت البشرية وأمدتها بسبب من السعادة ، سنة جرت عليها الأمم وتوارثتها الأجيال ؛ وقلما تخلو أمة استضاءت بنور المعرفة من احتفال بذكرى بطل من أبطالها ، أو واقعة حربية ذهبت بمفاخر الظفر فيها ، أو اكتشاف علمى هدى اليه عالم من علمائها .

وأهم ما يقصد من ذلك إغراء الشباب بالسعى فى طريق الرقى ، والسير على سنن ذلك البطل أو العالم ، حتى يصل الى ما وصل اليـه ، ويفيد أمته ووطنه كما أفاده ، فضلا عما فى الاحتفال من تكريم المحتفل به وتخليد ذكره .

والأنبياء عليهم السـلام أبطال التاريخ ، جلت مآثرهم فى أممهم ، وأفادت منهم فى دينها ودنياها ، واحتملوا فى سبيل ذلك ـ كما جاء فى القرآن الكريم والتاريخ الصحيح ـ ما جعلهم أهلا للتبجيل والتكريم .

ومحمد عليه الصلاة والسـلام بطل الأبطال فى تاريخ الأنبياء والانسانية عامة ، واجب على الانسانية أن تكرمه ، وتحتفل بذكرى مولده . وإن كان حقا على المسلمين أن يحتفلوا بذكرى محمد كرسول أشرقت به شمس الهداية ، وحمل اليهم رسالة الإسلام ، فخرجوا بها من الظلمات الى النـور ، وساروا على هـديها فى طريق السعادة فى الدنيا والآخرة ، وأصبحوا فى وقت قصير أمة ودولة بعد أن كانوا أوزاعا لا رابطة بينهم ، ولا جامعة تجمعهم : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

إن كان حقا على المسلمين أن يحتفلوا بمولد محمد كرسول ، فان حقا على غيرهم أن يحتفلوا بمولده كمحرر للانسانية ، رفع شأنها ، وأعلى قدرها ، ووضع عنها إصرها والأغلال التى كانت عليها فعاقتها عن السير فى طريق الرقى والإنتاج ، وقصرتها على رسوم باطلة فى العقائد والأعمال ؛ وكانت أعماله وأقواله قبل البعث وبعده جهادا فى تحريرها وإعدادها للغاية التى أرادها الله لها ، من استعمار الأرض ، وتسخيرها وما فيها فى خيرها وإسعادها .

فقد رغب بفطرته قبل البعث عن عبادة الأصنام ، وقومه عاكفون عليها حريصون على تقديسها ، ورثوا ذلك عن آبائهم ، وأشربوا حبها فى قلوبهم ـ احتراما لعقـله وإنسانيته ـ

وانصرف عنها يبغى معبودا يستحق أن يخلص له نفسه ، ويخضع له قلبه وجوارحه ؛ وشارك فى إحياء الفضائل الانسانية كالتعاون ودفع المظالم ونحو ذلك .

روى فى كتب السيرة أن محمدا عليه السلام حضر حلف الفضول (وهو حلف عقد بين بعض قبائل قريش لدفع المظالم ورد الظالم) وكان يقول : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو أدعى به فى الاسلام لأجبت » . وروى أن قريشا لما اختلفت فى وضع الحجر الأسود حين بناء الكعبة وأبدى لهم الشر ناجذيه ، حكموه بينهم فى شأنه ، فقال : هلم الىّ ثوبا ، فأتى به ، فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه ثم قال : ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب ، ووضعه فى موضعه . وبذلك انحسم الخلاف وانهزم الشر . والأمثلة التى ضربها عليه السلام قبل البعث لاحترام الانسانية وتكريمها وتقديرها قدرها ، كثيرة ، تفيض بها صحف التاريخ .

أما فضله على الانسانية وإنزالها منزلتها بعد بعثه ، فلا يحيط به الوصف ، ولا يحصره البيان ؛ فلقد كان أساس دعوته توحيد الله وتنزيهه عن الأنداد والشركاء : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفُواً أحد » ، « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض » .

وبذلك محا عن الانسانية عار الشرك ، وأطلقها من ذل التقليد البغيض ، وصرفها الى عبادة من يستحق العبادة .

ودعا الى استعمال العقل والتفكير فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، ونعى على الناس التقليد من غير روية ولا تدبر : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » ؟ « أو لم يتفكروا فى أنفسهم ؟ ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ، وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون » ، « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ » فرفع بذلك قدر العقل ، ودفعه الى العمل بعد أن شلت حجب التقليد حركته ، فأنتج نتاجه العلمى ، فكانت العلوم والحضارات التى ترتع الانسانية فى غياضها ، وتمرح فى رياضها ، وتنعم بثمارها .

وحث على طلب العلم واحترام العلماء : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، « العلماء ورثة الأنبياء » ، « لموت قبيلة أيسر من موت عالم » . الى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

ودعا الى الإخاء والمساواة : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » ، « يأيها الناس

إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .
« الناس سواسية كأسنان المُشط » « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

وقدس الحرية وطلبها ، وذم من رضى بالذل والعبودية ، ووصفه بأنه ظالم لنفسه ، قال تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » .

ودعا الى التعاون فى البر : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

وربط ما بين الطبقات برباط متين من المودة ، ففرض الزكاة ، وندب الى الصدقة : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » ، « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

ودعا الى الوحدة والتآلف : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

واعتبر الناس كلهم سواء أمام العدل : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » .

ووضع للحرب نظما وقواعد تحمل فى طياتها الرفق والرحمة ، فأمر ألا يقتل شيخ ولا طفل ولا امرأة ، وألا تهدم ديار الأعداء ولا تحرق أشجارهم ، وقد كانت فوضى لا حدود لها ولا قواعد يثيرها القوى متى لاحت له بوادر الظفر والغنيمة ، ويستبيح فيها العرض والشرف والمال .

ويطول بنا القول إذا استرسلنا فى تعداد المبادئ الانسانية السامية التى وردت فى القرآن والسنة ، والتى قام محمد حاميا لها ومدافعا عنها . وحسبنا ما ذكرنا كنموذج لهذه المبادئ لنستطيع أن نقول : إن محمدا عليه السلام خدم الانسانية عامة ، وإنه إن وجب على المسلمين الاحتفال بمولده كرسول اصطفاه الله لأداء أكمل رسالة الى البشر ، فإن حقا على غيرهم أن يحتفلوا بمولده كخادم للانسانية أخلص فى خدمتها وتحريرها وتنبيهها الى مكانها الذى وضعها الله فيه ، حيث فضلها على كثير مما خلق ، وتحمل فى سبيل ذلك من العنت والعناء والكفاح والجلاد أعظم مما تحمله خادم لها .

ونحن فى عصر من قضاياه المردّدة أن خادم الإنسانية أهل لتكريم الإنسانية ، وأن التعصب للجنس والدين واللغة خصلة بغيضة مرذولة . فان كان صدقا ما يقوله أهل العصر فمن حق محمد عليهم جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها أن يحتفلوا بمولده وبعثه وهجرته ، وإلا فحسبه جزاء الله وإكرامه ، واحتفال الملائكة والمؤمنين به : « إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » ؟

أبو الوفا المراغى

نظرة الفلسفة الميتافيزيكية

إلى الانسان

الفلسفة الميتافيزيكية : ناحية من البحث الفلسفى تحاول شرح الطبيعة من شىء خارج عنها ؛ من « ما وراء الطبيعـة » . وهى طريقة من طرق التفلسف سيطرت عليه أطول مدة عرفها تاريخ الفلسفة . فتمتد منذ التفلسف المنظم ، المركز حول مبدأ معين — ومن قبل هذا النوع كذلك فى الثقافات الدينية الشرقية القديمة — حتى عهد البحث الطبيعى (الى نهضة العلوم فى أوربا) . فتصور نشأة هذا الكون عن أصل غير ذاته ؛ عن قوة هى العقل ، أو عن المادة ، أو عن ما هو أسمى من العقل أو المادة (١) ؛ عن الله ؛ يحده مؤرخو الفلسفة بأنه تصور ميتافيزيكى ؛ والتقيّد به فى تعليل الكون وما فيه من موجودات وأحداث مختلفة وظواهر متعددة يطلق عليه هؤلاء أيضا نهجا فى البحث ميتافيزيكيا .

والانسان واحد من موجودات الكون المتعددة ، ولكنه من بينها أهمها فى الواقع وفى نظر الإنسان نفسه . ولذا يضع البحث الميتافيزيكى عناية كبيرة على توضيح نسبة الانسان الى الأصل العام للكون ، لأن فى توضيح هذه النسبة على الأخص توضيحا لنسبة الكون عامة الى مصوره الخارج عنه .

***

لندع عصر الديانات الشرقية القديمة وما نقل عنها من تصورات تحدد علاقة الإنسان بموجده ـ وفى تحديد هـذه العلاقة تتبيَّن منزلته وقيمته ـ لأن هذه الديانات وإن اعتبرت من الوجهة التاريخية الفلسفية كمصدر مؤثر على المدارس الفلسفيـة المنظمة ، وهى مدارس الإغريق المختلفة ، إلا أنها مع ذلك تمثل عهدا مستقلا غير عهود الفلسفة بمعناها المتعارف .

إفلاطون ، كأول فيلسوف ميتافيزيكى منظم ، يرى أن الانسان مكوّن من جزأين مستقلين : من النفس والجسم . فالنفس جزء علوى إلهى انحدر ـ أو هو صـورة ـ من النفس الكلية التى هى نفس العالم ، أى التى باشرت التأثير فيه . والجسم جـزء سفلى من المادة حلت فيه النفس . وكما أن من أخص صفات النفس (قبل حلولها فى الجسم) الطهر أو الخيرية ، والعلم والحكمة ، فمن لوازم الجسم الدنس أو الشرية . واجتماع النفس مع الجسم أمر مقضى به من سابق ! ! . وإذاً كل منهما ، فى نظر إفلاطون ، مستقل عن الآخر ، وكل منهما من طبيعة غير طبيعة الآخر .

(١) المادة التى ينسب إليها المذهب الفلسفى الميتافيزيكى ليست على النحو الذى يفهمه علماء الطبيعة المحدثون .

والنفس بحلولها فى الجسم نسيت ما كان لها من معرفة بسبب كثافته . فالمعرفة التى كانت من لوازمها عبارة عن معرفة « المثل » التى تكوّن عالم الوجود الحقيقى الأبدى . وقد كانت النفس بحكم طبيعتها العلوية مع هـذه المثل . وكلما عصيت النفس رغبات الجسم وشهواته كلما تضاءلت وخفت أمها كثافته فتذكرت من معرفتها الأولى . والنفس السعيدة هى التى تعود إليها معرفتها الأولى .

ولكن لا سبيل الى هـذه السعادة — فى رأى إفلاطون — إلا أن تكف النفس عن الشهوات ، بالزهد والتريض اللذين قد يبلغان حد الفناء . ومهما كان حرص النفس على عدم تلبية مطالب المادة فإنها لا تبلغ ما تصبو إليه من تمام المعرفة ، التى ترى فيها سعادتها الكاملة ، إلا بعد فناء الجسم . عنـدئذ يزول عنها غشاء المادة فترى من جـديد ما كانت بجانبه أمس من المثل .

فالنفس فى نظر إفلاطون بطبيعتها مستقلة عن الجسم ، وعالمة فى الأزل ، وتسعى فى الحياة الدنيا لأن تتكمل بالعلم الذى أنساها إياه الجسم ، وتترقب فى كل لحظات هذه الحياة فى لهف وولع عودتها الى مقرها الأول . وإفلاطون بذلك يحدد مهمة الانسان فى هذا العالم ؛ يحددها بالسعى الى العلم والمعرفة عن طريق كفاح المادة ؛ عن طريق الزهد واتقاء رغبات الجسم . ويحدد ، تبعا لذلك ، مهمة الجماعة الانسانية ، ويراها فى إقامة دولة العلم والحكمة ؛ دولة الفيلسوف . فالفيلسوف بما حصّله من معرفة تفوق معرفة غيره ، يمثل النفس الانسانية فى صفائها وفى خيريتها ؛ يمثل النفس التى لم يتحكم فيها الجسم وشهواته . فهو أجدر بأن يكون صاحب الكلمة ، وغيره أجدر بأن يكون المطيع ، إذ أن كلمته عن تبصرة ، وتعبر عن رشد ، وأبعد عن معنى الغواية .

ومن هنا نرى أن نظرة إفلاطون الى الانسان نظرة مزدوجة : مرة الى النفس باعتبار ، ومرة الى الجسم باعتبار آخر . وهـذه النظرة المزدوجة فى رأى إفلاطون هى الأساس عنده لشرح تصرفات الانسان وتعليل تباينها . فمصدر الخير من الانسان « حكمته » ، ومصدر الشر « جهله » أو مطاوعة المـلذات الجسمية . والعلم إذاً مصدر الفضيلة أو هو نفسها ، والجهل أصل الرذيلة أو هو نفسها . والانسان فى جملته مصدر الخير ومصدر الشر والغواية . وفقط أحد المصدرين فيه سابق فى الوجود عن الآخر .

ومن هنا نرى كذلك أن إفلاطون فى الواقع يعود بمصدر الخـير فى الانسان الى صلته بموجده وهو «مثال» الخير أو إله الخير فى عالم «المثل» ، كما يرجع أصل الشر فيه الى هذا العالم ؛ الى المادة التى تكونت منها الأجسام . ولكن لماذا كان هذا العالم شرا ؟ سؤال لم يجب عنه إفلاطون وإن كان جوابه فيما تأثر به من ثقافة .

إفلاطون بتحديد مهمة الانسان فى الحياة الدنيا بتحصيل العلم عن طريق الزهد ، يرى أن

الانسان مسئول عن تصرفاته الشهوية ؛ عن تصرفاته غير الحكمية ، لأنه يكون وقتئذ مقصراً فى السعى لبلوغ غايته . ولذا كان للشرير من الانسان عقاب المهمل المفرط من ناحية ، أو عقاب المقترف للجريمة من ناحية أخرى . وعلى كل فالعقاب على ترك واجب أو فعل منهى عنه . كما أن الانسان إذا حصل المعرفة كان له ثواب المطيع ؛ فى الدنيا بارتفاع المنزلة ، وبعد فناء الجسم بالصعود الى الخير المحض . وفى كلتا الحالتين : حالة الإهمال وحالة تحصيل المعرفة ، للانسان كسب واختيار .

***

هذه الأفلاطونية التى تميزت الآن نظرتها الى الانسان :

(ا) بالقول بعدم تبعية كل من النفس والجسم للآخر ؛

(ب) وباختلافهما فى الطبيعة ؛

(ج) وباختلافهما فى المصير — أحدهما فان والآخر باق —

لقيت نقدا شديدا من أرسطو ، لأنه نهج فى البحث الفلسفى نهجا آخر ؛ نهجا طبيعيا ، أى أنه حاول شرح الطبيعة من الطبيعة ذاتها . وتبعا لاختلافه فى النهج كانت نظرته الى الانسان مغايرة لنظرة أستاذه إفلاطون ، سنبينها عند عرض « نظرة الفلسفة الطبيعية الى الانسان » فى مقال آخر .

ولكنها لم تذهب ضحية نقد أرسطو ، بل تجدد لها اعتبارها ، وعادت اليها حيويتها بعد قرنين تقريبا من نشأتها ، وبعد ما شكت الجماعة الإغريقية قبيل الميلاد تحت ضغط الرومان وظلمهم فى قيمة الفلسفة ، وبالأخص فلسفة أرسطو ، كضمان لسيادة العدل فى الوحدة الانسانية ، وتخفيف غريزة السلطان فى نفس الحاكم المشرف . لأن أرسطو غالى فى إيمانه بالانسان وبقدرته — لسيادة الفلسفة والحكمة — على تحقيق المساواة لأفراد الجماعة البشرية .

رجال اليهودية قبيل الميلاد ، ورجال المسيحية من بعده ، بعثوا مذهب إفلاطون من جديد وجعلوه المحور الذى يدور عليه تفلسفهم ، لغاية خاصة ابتغوها من تفلسفهم ، وهى تثبيت الدين أو ترويجه فى نظر الخاصة باسم العقل والفلسفة حتى يضمنوا بقاء الأمة مجتمعة على دين واحد ، إذ العامة يكفيها فى الاقناع عنوان العقيدة « Logme » ولكن طبيعة الخاصة تطلب التعليل . وكان مذهب إفلاطون بالذات هو محور تفلسف رجال الدين ، لأن نهجه فى البحث يوافق نهجهم فى أن كلا منهما ميتافيزيكى يعلق الكون فى وجوده وفى مصيره بأمر خارج عنه ، ولأن كثيرا من حقائقهما يتفق بعضها مع بعض .

ونشأ تبعا لغاية رجال الدين من التفلسف تعديل فى الأفلاطونية أعطاها لونا جديدا ، وهو اللون الدينى ، وسميت من أجله باسم آخر يرمز الى الأصل وهذا الطارئ ؛ سميت بالأفلاطونية الحديثة .

ورجال اليهودية والمسيحية وإن أخذوا فى تفلسفهم من فلسفة الاغريق ، كعنصر أساسى ، المذهب الأفلاطونى ، إلا أنهم لم يغفلوا مذهب أرسطو ، بالأخص فى نظرته الى الانسان . فجذبوه كذلك . وبهذا صار شعار فلسفتهم المزج ؛ المزج لمذهبى إفلاطون وأرسطو بعضهما ببعض ، ومزجهما كذلك بالدين . ولكنها بالرغم من هذا المزج لم تخرج عن كونها فلسفة ميتافيزيكية ، لأن عنصر الأفلاطونية كعنصر الدين كان السائد فيها . وهما ميتافيزيكيان ؛ فلم تتحول بدخول فلسفة أرسطو الى فلسفة طبيعية .

* * *

وطبيعى أن تكون نظرة هذا المذهب الفلسفى الميتافيزيكى الجديد الى الانسان نظرة مغايرة لمذهب إفلاطون الخالص ، لأنه دخل فى تكونه عنصران آخران لهما نظرتهما الخاصة الى الانسان كذلك . ومغايرتها — كما سيتضح لنا فى المقال التالى — عبارة عن اضطراب فى تكييفها ، سببه الخلط المرقع والمزج المفكك ؟

محمد البهى

مدرس علم النفس والفلسفة بكلية أصول الدين

ماهى الميتافيزيقا

أنا أشكر الأستاذ الدكتور محمد البهى ، فقد أتاح لى فرصا للكتابة فى الفلسفة كنت أمنى النفس بها فلا أجد عليها باعثا .

الفلسفة بقدر ما هى أينع ثمرات التفكير الانسانى ، وأدل على قوة سلطانه ، هى بذلك القدر نفسه أحوج الى قوامة العلم فانها فى الواقع نفحة من نفحاته . والعلم لا يزال فى ميعة صباه ، والمجهولات الوجودية محدقة بالانسان من كل جانب . وهذا العلم لم يفه بكلمة نهائية فى أى فرع من فروع المعارف ، بل هو اليوم ، وقد سلخ قرونا طويلة فى البحث والتنقيب ، أحير ما يكون حيال مسائل كان يظن أهله الأقربون الى عهد قريب أنهم وصلوا منها الى العلم اليقين ، حتى قال الأستاذ (ايزوليه) Izoulet المدرس بجامعة باريز فى مقدمة كتاب للكاتب الكبير جول بوا : « هل ما نسميه اليوم علما غير جهل مرتب ؟ »

وأنت خبير بقيمة ما يبتنى على هذا الجهل المرتب من صروح الوهم المرتب ، وهو أمر يعرفه أهل الرسوخ فى الفلسفة كما يعرفون أبناءهم ، ولكن للفلسفة فى جميع أدوارها ، حتى

حينما كانت بأقاصيص العجائز أشبه ، نشوة إذا لعبت برءوس غير الراسخين خيلت إليهم أنهم هتكوا حجاب المساتير الكونية فاطلعوا على حقيقتها ، وهنا موطن الخطر على الفلسفة نفسها ، وعلى الذين يتحمسون لها . ومن أهم أغراض مجلة الأزهر معالجة هذه النشوة باحالة الفلسفة الى قيمتها الحقيقية ، بالاستعانة بأئمتها الذين أفاقوا من غرورها .

كلمة فى الميتافيزيقا :

الذى يفهمه القارئ من مقال الدكتور البهى أن الميتافيزيقا ناحيـة من الفلسفة تحاول تعليل الطبيعة بسبب خارج عنها ، وقد استمرت هذه النزعة المناسبة لسذاجة القدماء حتى بعد استحالة الفلسفة الى بحث منظم على عهد أفلاطون . فلما نبغ تلميذه أرسطو نقد آراء أستاذه ، ونهج بالفلسفة نهجا طبيعيا ، أى أنه حاول تعليل الطبيعة من الطبيعة . ولـكن الميتافيزيقا عاد اليها اعتبارها بعد أرسطو وبقى سلطانها الى عهد نهضة العلوم فى أوربا ، أى الى ما قبل نحو قرنين أو ثلاثة ، ومن ذلك العهد استحالت الى قيمتها الخيالية .

هـذا ما يؤخذ من مقـال الدكتور البهى ، وهو لا يعطى القارئ فـكرة صحيحة عن ماهية الميتافيزيقا ومهمتها ، ويؤدى الى الاعتقاد بأن العقـل الإنسانى قد تخلص نهائيا من أوهامها ، وأصبح مكتفيا بتعليل كل ما فى الطبيعة بقوى الطبيعة نفسها ، وأن هذه الطريقة هى النزعة العلمية ، التى يعتبر كل مجاف لها بعيدا عن بيئة العصر الثقافية .

ونحن لأجل تجلية هذا الموضوع نقول : إن أرسطو الذى قال الدكتور البهى إنه ناقض أستاذه فى مقرراته الميتافيزيقية ، هو نفسه واضع الميتافيزيقا ، أو هم تلاميذه الذين وضعوها ، وإن له كتابا اسمه (الميتافيزيقا) ، وإنه كأستاذه أفلاطون علل الوجود بسبب خارج عنه ، وإن الميتافيزيقا لم تزل شاغلة مكانتها الرفيعـة من البحوث الفلسفية ، إلا لدى طائفة من المـاديين الذين لم يبق لمذهبهم قيمة علمية بعد حدوث مكتشفات طبيعية محضة حطمت أصولهم تحطيما ، كما سيتبين القارئ ذلك هنا .

ونحن لأجل أن نجعل لمـا نقوله صبغة رسمية نأتى على تعريف عـلم الميتافيزيقا من أقوال أئمـة الفلسفة العصرية ، فننقل الى العربية ما كتبه البروفسور إميل بواراك فى دائرة المعارف الفرنسية الـكبرى تحت كلمـة ميتافيزيقا ، قال :

« إن كلمة ميتافيزيقا أى ما بعد الطبيعة يصعد تاريخها الى أرسطو . بل الى تلاميذه الذين أطلقوها على أحد مؤلفات هذا الفيلسوف ، واقتضى موضوعه أن يُجعل بعد علم الطبيعة . فى هـذا المؤلف عالج أرسطو (الفلسفة الأولية) وعرَّفها تارة بقوله هى : « عـلم الأصول الأولية وعلم العلل الأولية » وتارة أخرى بقوله هى : « عـلم الـكائن فى حدود كينونته » ، معتبرا هذا العلم النقطة المركزية العليا للمعرفة الانسانية . ومن هذا العهد وُصفت الميتافيزيقا

على وجه عام بأنها أعلى أقسام الفلسفة ، فهى التى تعالج وتحاول حل المسائل الأساسية المتصلة منطقيا بكل فـكرة وبكل تحقق من وجود كائن . هـذا هو المعنى الذى أراده أرسطو من تعريفيه السابقين .

« فأما تعريفه الأول وهـو قوله : « إن الميتافيزيقا هى عـلم الأصول الأولية والعلل الأولية » ، فمفهومه أن فى كل العلوم التدليلية توجد أصول لا تستطيع البراهين أن تصل اليها ، وهى مع ذلك ضرورية للتدليل بها على حقائق أخرى ؛ ومن ناحية نجد فى جميع العلوم المستمدة من المراقبة والتجربة أن حوادثها تفسر باحالتها الى علل ، وهـذه العلل تفسر بعلل أخرى . ولـكن هـذا التسلسل ينتهى الى وقوف جميع التفسيرات عند حدود علل أولية أو نهائية ، سمِّها كما تشاء ، يستحيل الصعود الى ما فوقها . والمعروف أن جميع العلوم الخاصة لا يمكن أن تتألف إلا بافتراض مجموعة من أصول وعلل تحقق وجودها بدون إمكان تحديدها ولا تحليلها ، وكثيرا ما لا يستطاع إثباتها . من أمثلة ذلك العلوم الرياضية فانها تفترض وجود عدد وزمان وحيز الخ ؛ وعلما الطبيعة والـكيمياء فانهما يفترضان وجود مادة وحركة وقوة ونواميس طبيعية الخ ؛ وعلم الفيزيولوجيا فانه يفترض وجود الحياة الخ . ولـكن ما هو الحيز ، وما هى المـادة ، وما هى الحياة ؟ لا يستطيع واحد من هذه العلوم المذكورة أن يحل هذه المسائل ، ولا أن يناقش فيها . ومع هذا إذا كانت المعرفة الانسانية لا ينبغى أن تـكون كبناء لا أساس له ولا رأس ، فلا شك فى أنه سيأتى يوم تمكن فيه المناقشة فى هذه المسائل ؛ وإذا قدر لهذه المسائل أن تحل تدريجيا لا بواسطة واحد من العلوم الخاصة كالرياضة والطبيعة والفيزيولوجيا ، ولـكن بواسطة عـلم يتوِّج جميع العـلوم ويطبع فيها وحدة من طريق التوفيق والتأليف ، فهذا العلم الذى يـكون موضوعه الأصول الأولية أو العلل الأولية هو الميتافيزيقا التى نحن بصدد الـكلام عنها .

« فلننظر الآن فى التحديد الثانى لأرسـطو وهو قوله : « الميتافيزيقا هى علم الـكائن فى حدود كينونته » فنقول : إن الموضوع الأساسى لجميع العـلوم هو الـكائن ؛ ولـكن منها ما يبحث فى بعض أنواع الـكائنات (كالطبيعة والـكيمياء والبيولوجيا الخ) ؛ ومنها ما موضوعه درس خصائص الـكائن مستقلة عن وجوده الذاتى (كعلم الرياضيات) ؛ وليس من بينها علم يدرس الـكائن فى ذاته وفى خواصه العامة فى حـدود كينونته . فالميتافيزيقا هى على التحقيق العلم الذى يعنى بدرس هذه النواميس والعلل العامة الموجدة لذلك الـكائن ، وهى تندرج كما هو واضح فى الأصول الأولية وفى العلل الأولية .

« وقد عُرِّفت الميتافيزيقا أخيرا بأنها علم العالم المطلق . وهذا التحديد يمكن استنتاجه من التحديدين السابقين ، فإنهما ينطويان على هذه النتيجة وهى : أن موضوع علم الميتافيزيقا

ليس تفصيل الكائنات والظواهر الطبيعية والنواميس ، وهى الموضوعات التى تدرسها العلوم الخاصة ، ولكن موضوعها الأساس المشترك ، والينبوع العام للكائنات وللظواهر وللنواميس ، أى الحقيقة المستترة الخالدة التى لا نهاية لها ، والتى يستمد منها كل شىء علة وجوده . وهذه الحقيقة هى الكائن الموجود بذاته ، أى الموجود المطلق . إن جميع العلوم إنما تعالج الحوادث الطبيعية أى الظواهر ، ولكن الميتافيزيقا تحاول فيما وراء هذه الظواهر أن تصل الى الكائن الحقيقى الموجود بنفسه .

« فأنت ترى الآن كنه العلاقات التى تربط الميتافيزيقا سواء أبا لعلوم الأخرى أم بسائر أجزاء الفلسفة . فالقيمة العلمية للعلوم مستقلة في الواقع عن الميتافيزيقا ، ولكن من الناحية النظرية نرى تلك العلوم ناقصة وغامضة ما دامت مسائل الميتافيزيقا المتورطة فى مقرراتها لم تُدرس ولم تُحل . وبناء على هذا المعنى يمكن أن يقال إن الميتافيزيقا فى مقدمة جميع العلوم . ومن ناحية أخرى لا تكون البسيكوجيا (علم النفس) بدون الميتافيزيقا إلا وصفا ساذجا لطائفة خاصة من الظواهر ، وعلما أجدر أن يكون تابعا الى الفيزيولوجيا من أن يكون جزأ مكملا للفلسفة ، إذا لم يعمد فى دراسة النفس الى تلمس بصيص من نور يكشف الصميم من طبيعة الذات البشرية . ويجرى أيضا المنطق وعلم الأخلاق هذا المجرى فيبقيان ناقصين ومبهمين معا ، إذا لم يجدا فى عالم الاطلاق الأصل الأول للحق وللخير .

ثم قالت دائرة المعارف الفرنسية الكبرى :

« فى رأى (أجوست كومت) لا موجب لوجود الميتافيزيقا لأن علماءها لم يتفقوا على أصول هذا العلم المزعوم . فهى تمثل ، على مقتضى القانون ذى الثلاثة الاعتبارات اللاهوتية والميتافيزيقية والوضعية ، دورا متوسطا من أدوار التطور للعقل الانسانى ، ومجازا بين الديانة والعلم ، ويجب أن يستعاض عنها (بفلسفة) حسية محضة ، أى (فلسفة) مؤسسة على النتائج العامة للعلوم الخاصة .

« ولكن (الفلسفة) التى يوصى أوجوست كومت بها أليست ضربا من الميتافيزيقا ؟ أى أن غرضها سيكون محاولة تأليف وتعليل عامين بقدر ما تسمح به حالة العلوم الخاصة ؟ فأوجوست كومت بهذا الرأى لم يحذف الميتافيزيقا ولكنه يقترح أسلوبا جديدا تسير عليه .

ثم قالت :

« إن الدليل الذى يُقنع العقل بعدم ضرورة الميتافيزيقا يقتضى أن يُثبت بتحليل الادراك الانسانى بأن موضوعها يخرج عن دائرة تناوله . وقد خُيل (لكانت) أنه أقام هذا الدليل فى كتابه نقد العقل المحض فقال : إن الميتافيزيقا تتطاول الى معرفة الأشياء على ما هى عليه ،

على حين أن العقل الانسانى لا يستطيع معرفة شىء على حالة مطلقة . وإقامة ميتافيزيقا من طريق التسليم بدون دليل مما لا يمكن قبوله .

« ولـكن النقد الذى يُثبت من طريق الافتراض هذه الاستحالة أليس يعتبر هو نفسه عملا ميتافيزيقيا ؟ فالميتافيزيقا إذن ضرورية حتى لإثبات استحالة وصولها الى حلول يقينية ، لجميع المسائل التى تعالجها . فهى وحـدها التى تختص باثبات وتعليل هذه الاستحالة . هنا يجب أن نتذكر قول أرسطو فى ضرورة الفلسفة ، فقد قال : إذا كانت الفلسفة ضرورية وجب استعمالها ، وإن لم تكن ضرورية وجب استعمالها أيضا للتدليل على عدم ضرورتها .

« وغير هـذا فإنا إن عدمنا العلم المطلق بطبيعة الأشياء ، فان العقل الانسانى يستطيع أن يحاول الوصول الى علم نسبى عنها ، فان لم يصل إليه أيضا اكتفى بافتراضات ذات درجات مختلفة فى الرجحان . وإذا كانت هذه الافتراضات تعتبر غير وافية من الناحية النظرية فانها لا تعدم أن يكون لها قيمة عملية ، لأنها تكون عرضة دائما للبحث والمناقشة .

« بناء على ما تقـدم فالميتافيزيقا ، حتى لو افترض أنها لا تستطيع أن تفضى الى حـلول يقينية لجمع المسائل التى تعالجها ، هى وحـدها التى يختص بها أن تبرهن على هذه الاستحالة وأن تعللها . وهى ليست كما زعمه فيلسوف معاصر (هو المسيو ريبو فى مقـدمة كتابه البسيكولوجيا الانجليزية الراهنة) أن الميتافيزيقا فن ونوع من الخيال المجـرد ، لأنها تسد فى الجملة حاجة أساسية للعقل هى فى درجة حاجته الى العلم ، وهى حاجة ترتيب آرائنا عن الأشياء فى مجموعة قائمة بنفسها . والفارق بين الميتافيزيقا وبين العلم فى هذا الاعتبار أن هذه المجموعة يجب أن تشمل الحقيقة فى جملتها ، ولهذا فان تنظيمها لسعة نطاقه يكون أشد صعوبة وأكثر تعرضا للخطأ من المجموعة العلمية . ولـكنها تعتبر مشروعة ، وقد تـكون الحاجة إليها أشد ، لأنها باعتراف أوجوست كومت نفسه يتعلق بها نظام الفكر ونظام الحياة الانسانية . ينتج من هذا أن الآراء الميتافيزيقية على أية صورة كانت تتسلط على العقلية الانسانية وتقودها » .

* * *

هذا ما كتب على الميتافيزيقا فى أكبر موسوعة عالمية ، وهو يدل على مبلغ اعتداد الفلسفة الرسمية بها ، وحرصها عليها ، ولا عبرة بشذوذ طائفة من المـاديين عنها .

إننا نعترف كغيرنا بأن الحـكم على العالم الـكلى المطلق ، ليس فى قدرة العقل الانسانى الجزئى المقيد ، ولـكنا لسنا بسبيل تحديد شئون تفصيلية عنه ، بل بسبيل ربط القوى التى تعمل فى عالمنا الجزئى بالقوى الـكلية المحيطة بالـكون كله ، ووَصْـل العلل الطبيعية المحدودة فى عالمنا بأصول أولية لها وجود ثابت فى عالم الاطلاق ، وهذا أمر تقضى به الحاجة العقلية الفطرية ، فإن البحث عن علل الحوادث أمر لا بد منه فى عالم الطبيعة ، وبتتبع العلل الجزئية ننتهى الى

علة يشعر العقل ببداهته أنها هى نفسها تحتاج الى علة ، وهذه العلة لعدم وجودها فى الطبيعة يشرئب العقل لتصورها فى عالم بعده يسميه عالم الأصول الأولية أو الميتافيزيقا .

فاذا حرم العقل من هذا اللجوء لعالم ما بعد الطبيعة أصبح علمه محصورا فى دائرة ضيقة ، ومقطوع الصلة فى نهاياته بعلم يكمله ، ولو من ناحية عامة أو افتراضية ، وهو موقف لم يستطعه العقل فى عهد من عهوده ، ولم يستطعه فى هذا العهد أيضا وقد بلغ رشده . ليس لأنه اعتاد القناعة بالأوهام ، ولـكن لأنه يرى أن علومه تصبح مبتورة لوقوفها عند حدود ليست هى حدودها النهائية ، فتدفعه الحاجة لوصلها بما يكملها من نوعها ولو افتراضا ، منتظرا أن يفتح عليه بشىء يقربه من الحقيقة المحجوبة عنه . هذا موقف لا يستطيع العقـل عنه تحولا ، لأن منطق العلم يتطلبه ، ونظـام العقل يقتضيه . لهذا قال الأستاذ إميل بوراك فيما نقلناه عنه من دائرة المعارف الفرنسية الـكبرى : « إن الآراء الميتافيزيقية على أية صورة كانت تتسلط على العقلية الإنسانية وتقودها » .

بقى الـكلام عن أرسطو :

قد علمت مما نقلنـاه عن الموسوعة الفرنسية الـكبرى أن الميتافيزيقا من وضع أرسطو أو تلاميذه ، وأن له كتابا اسمه (الميتافيزيقا) . وقد ذكر الدكتور البهى فى مقاله المنشور هنا أن أرسطو خالف أستاذه أفلاطون فعلل الطبيعة بالطبيعة ، ومؤدى هذا أنه لم يعول على الميتافيزيقا ، والواقع أنه وإن خالف أستاذه فى مواضع من الفلسفة سنبينها ، لم يخالفه فى الاعتداد بالميتافيزيقا كتكملة للعلم الطبيعى ، وقد علل فيها الطبيعة بشىء خارج عنها وهو الله والأرواح العلوية . فقد قال فى كتابه (القوسمولوجيا) : إن العالم قسمان سماوى وأرضى . أما السماوى فتمتع بحركة دائرية صادرة عن الله مباشرة . والنجوم أزلية خالدة وهى مكونة من الأثير ولذلك لا تقبل الفساد . وسماء النجوم الثوابت هى مقر الـكون والحياة الـكاملة والنظـام الثابت . وهذه النجوم كائنات لا يعتريها الهرم حية حياة سعيدة ودائبة على العمل بدون كلال ، وهى أقرب للألوهية من الانسان .

وقال فى كتابه « الميتافيزيقا » :

إن وجود الله يَثبت لدى العامة من رؤية التكمل التدريجى للـكائنات ، وبالغايات المقدرة لها فى عالم الطبيعة . ولـكن وجوده عند الخاصة يقوم علميا على تحليل أحوال الحركة العالمية . ومن ذَكر الحركة ذَكر معها الفاعل فيها . ولما كانت الحركة أبدية فوجدها يجب أن يكون أبديا . وهذا الموجد هو الله ، وهو منزه عن الحد والنقص والتغير ، فهو ثابت وغير متغير (وخارج عن العالم ومتميز عنه) ، كما يكون القائد للجيش متميزا عنه .

وقال إن للانسان نفسين : نفسا حيوانية وهى فانية مع الجسم ، وروحا إلهية وهى خالدة ، ومتنزلة عليه من (خارج) الطبيعة المتغيرة الفانية .

هـذا بعض ما نأتى به من مؤلفات أرسطو إدلالا على تغلغـله فى الشئون الميتافيزيقية ، وخوضه فيها بما لا يدع حاجة فى نفس مريد الاستدلال على مذهبه فيها .

هذا ما يجب أن يعرفه طالب الفلسفة عن الميتافيزيقا قديما وحديثا ، وما حفزنا الى الاتيان به إلا استكمال عناصر فهم الفلسفة على وجهها الأكمل ، ولست بما أوردته من مذهب أرسطو أريد أن أنتصر لما يقرره ، فقد أصبح بخيالات الصبيان أشبه ، والميتافيزيقا ليست بمسئولة عنه ، وقد مر العلم الطبيعى نفسه بدور مثل هذا الدور الطفلى ، فكانت مقرراته قبل ألف سنة تنم عن سذاجة مضحكة ، فانتقلت تدريجيا الى ما هى عليه اليوم ، وإن كان من سيخلفنا عليها بعد ألف سنة سيرون أن بيننا وبينهم بونا شاسعا فى سعة المعرفة والبعد عن الأوهام .

من كل ما مر يتضح أن الميتافيزيقا لم توضع لغرض دينى ، ولكنها وضعت بواسطة أرسطو أو تلاميذه لغرض فلسفى ، ولم يُلق بها الى عالم الأوهام منذ نهضة العلم فى أوروبا أى منذ نحو قرنين أو ثلاثة ، ولكنها لا تزال قسما من الفلسفة الرسمية الى اليوم ، وهى من الأدوات العقلية التى لا بد منها للوصول الى فهم الوجود الذى نعيش فيه ؛ فان كنا لم نصل الى تحقيقه على مقتضى الدستور العلمى فليس بمستحيل أن نحظى بفتح جديد فى العلم تنكشف لنا منه أمور يكون لها أكبر أثر فى تقريبنا من الحقيقة

وإذا صدق الطبيعيون فى قولهم إن الطبيعة غير مسرفة فيما تعمل ، ساغ لنا أن نقول إن هذا التعطش من العقل فى البحث عن علل الموجودات ، وتتبعها حتى تصل الى نهاية فى العالم المحسوس لا يثلج الصدر عليها ، ثم لجوءه الى النظر فيما وراء العالم المحسوس ، وتشبثه بهـذه المحاولة بنهمة لا تهدأ ، إن هـذا الولوع المفرط بالوصول الى ما وراء العالم المحسوس لا يمكن أن يكون قد وُضع فيه عبثا ، ولا بد من أنه سيحفزه الى بلوغ درجة من العلم تناسب درجة هذا العامل المستعصى فيه . ومن يُجل الطرف فى كل ما حصله الانسان من الفتوحات العلمية والعملية يتحقق أنها لم تكن إلا ثمرة هذا الحافز العلوى . فهل فكر من يحاول كبته أنه إنما يحاول كبت أكرم غريزة نفسية كانت سببا فى إيصال الانسان الى كشف مساتير كان لا يخطر ببال أجرأ المتفائلين أنه سيصل الى كشفها ، وستوصله الى ما لا يحلم به من أسرار هذا الوجود الذى لا نهاية له ؟

محمد فريد وجدى

من وحى الشريعة الخالدة

ما من ظاهرة أخلاقية تمخضت عنها أطوار الوجود وأبرزتها الى آفاق المجتمع بين الظاهرات النافعة أوالضارة ، إلا كان لها من الشريعة مرد بين الأوامر والنواهى ، وبين ما صبغته فى الوجود من ألوان ، وما ألقت فيه من عظات بالغات ، ومثلات سابقات .

فللشريعة الخالدة سلطانها الأعلى فى إفاضة الخير على المجتمع فى مختلف آفاقه وشتى عصوره ، بقدر ما لها من الوازع المنبث فى أطرافه ومناحيه ؛ وهل أبلغ أثرا وأعم سلطانا وأكثر لمصالح البشرية تحريا واستقصاء من تلك التى أحاطت الوجود منذ مرحلته الأولى ببيض الفعال ونوابغ الخصال ، وحكمته بأنماط للخير مثالية ، فرسخت فيه عوامل الفضيلة ، ونادت بلسان الرسل والأنبياء فى صيحة واحـدة بين الناس كافة بما تقوم عليه السعادة للمجتمع ، وما يشقى به إذا صدف عن الحجة أو رغب عن المحجة ؟

فشريعة الكمال والبقاء هى تلك الشريعة التى أوحت الى الإنسانية الشعور بأعبائها الثقال ، فانصرفت الى خـيرها وتجنبت شرها بمقدار ما تنفعل به النفوس من دعوة الدعاة ، ورسـالة الوعظة والهداة .

فهى تدعو الناس فيما تدعو الى الصـدق والبر ، والتراحم والنجدة ، والنخوة والـكرم والسخاء ، وحفظ السر ، والاحتفاظ بالأمانة والعدالة ؛ ثم هى فيما وراء ذلك وما اليه تدعوهم الى مجانبة الأضداد كلها ، فمثلا تدعو الى الـكف عن الإطراء فى المدح ، وترى أن ذلك الإطراء فى بعض جوانبه للمدوح قد يكون عليه إثما ووبالا ، وقد يجر اليه غرورا وخبالا .

فعلماء الأخـلاق يرون أن الإطراء نوعان : نوع يراد به الممدوح فى عارفة من عوارف هذا الـكون تسلك فئة من الناس فى أفق من الخير ينتفعون به ويسيرون بحطامه غرضا من أغراض الحياة ولأوائها ؛ هذا النوع من البر بالانسانية والحدب عليها ليس فى شىء من الحظر أن يكون الممدوح عليـه إذا مثالا يحتذى ، ونمطا يقتدى ، وقبسا يستضاء به فى الظلمات الحوالك . ومما يلتحق بهذا النوع أنواع شتى لا عداد لها ، كالرئيس فى قومه يقيم فيهم المعدلة ويرفع بينهم علم اليقين ، وينشر عليهم سلطان الحق المبين ، لا يعـدل به عن الصواب بطر ، ولا ينأى به عن مظاهرة المظلومين ريح من التشيع أو الـكيد . أما المطريون على غـير حقيقة ابتغاء الزلفى وبلوغ المـآرب أو حقير المطالب ، فذلك هو الاطراء الذى دونه الملق والرياء ، وفى مرتبته ضعف الثقة برب السماء ، مع التشبث بالمخلوقين الضعفاء . هـذا النوع هو الذى

تضافرت الشرائع كلها على اطراحه من بين ظاهرات البشرية ، وقد أهلك فيمن أهلك أمما وأباد شعوبا وقبائل ، وصيرهم مثلا فى الآخرين .

روى الشيخان فى صحيحيهما عن أبى موسى رضى الله عنه قال : « سمع النبى صلى الله عليه وسلم رجلا يثنى على رجل ويطريه فى المدحة فقال : « أهلكتم ، أو قطعتم ، ظهر الرجل » . فالحديث فى ظاهر أسلوبه ينكر على الرجل مدحته لأخيه فى محضر النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن الرجل لم يسلك فى طريق مدحه ما كان يجب اتباعه ؛ وما يجب اتباعه فى امتداح الخليقين به أن يسنده الى تقديره وأن يكله لحسبانه ، فإذا أطلق فى المدح كان معناه أن الممدوح منفرد بالثناء عن كل أحد ، وأنه استحق بذلك تمجيده وتقديسه . فالمفروض فى العباقرة الأفذاذ فى كل فن وفى كل عصر وجيل أن تبسط فيهم ألسنة المادحين ابتغاء لما لهم أو جاههم أو تشجيعهم ، أو طلبا للنكاية من أعدائهم ، أو ما الى ذلك . ولكن على المادح أن يكون فى ممدوحه مقسطا فى عد مفاخره وتبيان عوارفه .

وقد أباحت الشريعة الغراء أن يمدح المؤمن فى وجهه لأنه لا يفتتن بهذا المدح ، فلا يستطيل به على النظراء ، ولا ينتقم به من الأعداء ، ولا يحابى به فريقا من الأولياء والنصراء ، بل يشكر الله على أن بوأه فى الوجود مكانا عليا .

وأخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : « ذكر رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فأثنى عليه رجل خيرا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ويحك قطعت عنق صاحبك ! يقوله مراراً ، إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك ، وحسيبه الله ، ولا يزكى على الله أحدا » .

ولما كان هذا الموضوع كثير الشعب طويل الذوائب ، وكانت المجلة لا تتسع للتبسط فيه فى البحث الراهن ، فقد أرجأنا ذلك الى بحوث تالية .

عباس طه

تصحيح

وقع فى العددين السابقين خطأ نصححه فيما يلى :

	ص	س	خطأ	صواب
فى العدد الأول	د	٤	أبى جهل	وفى الأصل : أبى لهب
فى العدد الثانى	٦٦	١	حقيرة	« صغيرة

by God Himself, and to sink their tribal dissensions in the common weal of the brotherhood of faith. "O men, verily, we have created you of one male and one female; and we have divided you into peoples and tribes, that ye might have knowledge one of another. Truly, *the most worthy of honour in the sight of God is he who feareth Him most.* Verily, God is knowing and cognisant[1]."

Equality of rights was thus the distinguishing feature of the Islamite commonwealth. A convert from a humbler clan enjoyed the same rights and privileges as one who belonged to the noblest Koreish. Even a slave was admitted as a brother from the very moment of his conversion, and the highest dignitary in the state thought it no dishonour, to partake of his repast with him. Nor in the place of worship were suffered artificial differences between man and man: the high and the low, the prince and the peasant, the rich merchant of Mecca and the roaming bedouin of the desert, stood shoulder to shoulder in the presence of their common Deity. This equality and fraternity was, and is even to-day, though much weakened, the key-note of Islam and the secret of its power as a world-religion[2]. This levelling principle, underlying the tenets of the new faith, proved a veritable blessing to the Arabs in particular. Tribes and races, hitherto at war with one another, were, in the embracing fold of Islam, welded into one nation, imbued with common ideas, common aims and aspirations, and devoted to a common cause. Conflicting interests were harmonised from a loyal desire to advance the public good. The Holy Koran laid down certain principal laws, intended to govern their new relations as members of the state, to extinguish the fire of the old tribal jealousy, and to affect a union of hearts unknown before. The laws soon succeeded in bringing order out of chaos and confusion and made civic life possible for the first time in Arabia. "O believers," so run the fine verses of the Koran, "if any wicked man come to you with news, make a thorough inquiry, lest through ignorance ye harm a people and have to repent on the morrow of what ye have done; and know that an apostle of God is among you. Should he submit to you in most matters, ye would certainly fall into difficulty. But God hath endeared the faith to you, and bath given it favour in your hearts, and hath made unbelief and wickedness and disobedience hateful to you. Such are they who pursue a right path,—a bounty from God and a grace: and God is knowing and wise. If two bodies of the believers are at war, then make ye peace between them with fairness and do justice; God loveth those who are just. Those who believe, are brethren; wherefore make peace between your brethren; and fear God, that ye may obtain mercy.

(1) Koran, ch. "The Apartments."

(2) T. W. Arnold, 'The Preaching of Islam.

noble in its doctrine of the duty of man to the lower creatures. There is little in it of superstition[1], less of complexity of dogmas : it is an exacting religion without the repulsiveness of asceticism ; severe but not merciless.

"Nothing in fact is more odious, according to the doctrines of Islam, than the self-inflicted torments and voluntary penance of the ascetics. It always recommends the cultivation of the social virtues and the practice of those qualities which form the graces of a corporate life. Islam laid the foundations of a social system which breathes the spirit of charity, friendship, and mutual trust among its members. So impressively did the Prophet bring these high lessons home to the Arab mind, both by precepts and example, that the tribal jealousies of centuries soon became extinct, the old spirit of revenge, inherent in the nation, died away, and the hearts of the true believers were knit together in the closest bond of sympathy and fraternity. They now felt themselves as the brethren of one and the same faith, and citizens of the same commonwealth, enjoying equal rights and privileges.

"Islam penetrated into the very hearts of the Arab people, and the old spirit of jealousy and vengeance, of hostility and ill-will, yielded place to a happy consciousness of the power of love, sympathy and fellow-feeling ; the very character of the Arab mind was changed, and many of the evils rooted in the nation were fast eradicated. Within the Islamic commonwealth the internecine wars, which were the cause of much wanton bloodshed, soon became a thing of the past ; and hostile tribes were united in faith and obedience ; and the valour which had been idly spent in domestic quarrels, was vigorously directed against a foreign enemy[2]."

XIII
The Political System of ISLAM

When the Prophet settled at Medina, he established a commonwealth based, not upon the old basis of consanguinity, but upon Religion, with the Prophet himself as the chief magistrate. The spirit of blood-revenge, derived from the fiery and sensitive temper of the Arabs which was responsible for the long-protracted blood-feuds between clan and clan, waned away, and in its place there grew up in each member of the new commonwealth a genuine, earnest desire to see the peace and unity of the commuuity maintained. The sense of tribal pride and superiority lost much of its keenness ; the bond of consanguinity was greatly relaxed. They were taught to reverence the new institution, planted through the Prophet,

(1) There is not the slightest superstition in Islam.

(2) S. L. Poole's 'Lectures on Islam.'

XI

The Social Changes Brought about by the Prophet

Dealing with the social changes brought about by the Prophet, Dr. Noldeke states[1]: "One fact among others, by which we can estimate the striking impression the Prophet produced upon the Arabs, is that as each tribe submitted, or adopted his religion, it renounced the right of retaliation for the bloodshed in the struggle. Under other circumstances, this renunciation of blood-revenge, or of wergild at least, would have seemed to the Arab the lowest depth of humiliation. This was, indeed, so striking a feature of the new brotherhood that it could not fail to make a silent but deep impression upon the unbelieving multitude who now began to feel the power of the new religion.

"To those who seek miracles, this glorious result, achieved in less than a decade, constitutes a real and splendid miracle of Islam, which alone gives it the title, to be ranked as a great religion and a wonderful civilising agency. In an exquisitely beautiful passage, full of grace and wisdom, the Holy Koran draws a contrast between the life and manners of the Arabs in the shade of Islam and those in pre-Islamic times; and urges upon the true believers a true union of hearts, and dwells on the real purpose of the advent of the new religion. Here is a translation of the verses: 'O ye believers, fear God as He deserveth to be feared; and die not but as true Muslims. And hold ye fast by the cord of God, all of you, and do not scatter yourselves, and remember God's goodness towards you, ***how that when you were enemies. He united your hearts, and through His grace, ye became brethren***, and when ye were on the brink of the pit of fire, He drew you back from it; thus clearly God showeth His signs, that ye may be guided. And let there be among you a people who invite to the good, and enjoin the right, and forbid the wrong: and these are they who shall succeed. And be ye not like those who have broken into divisions and fallen into variance, after the clear proofs have come to them; and for those there waits a terrible chastisement."

XII

The Political Organisation Wrought by the Advent of Islam

"Islam", writes Mr. Stanley Lane Poole, "is a form of pure theism, simpler and more austere than the theism of most forms of modern Christianity[2], lofty in the conception of the relation of man to God, and

(1) Dr. Noldeke's Book on Islam.

(2) In fact there is not to be found such a pure theism in any other religion than Islam,

concubines, why should not they raise the same objection against such of the Old Testament prophets whose number of wives and concubines had by far exceeded that number ?

David had six wives and numerous concubines (2 sam. v. 13; 1 Chron. iii, 1-9; xiv. 3); Solomon as many as 700 wives and as many as 300 concubines, (Kings xi. 3). Rehoboam had 18 wives and 60 concubines (2 Chron. xi. 21), a plurality expressly forbidden to the sovereign of Israel, who was commanded not to multiply wives to himself (Deut. xvii. 17).

Honestly speaking, prejudice and partiality alone reign over all the writings of Christian missionaries, when they deal with the person and character of the Holy Prophet.

The mere fact that the Prophet Mohammad entered into polygamous relationship, should not be made the pretext for attacks on his unsullied character, vouched for by friends and foes alike. The circumstances, connected with the marriages of the Prophet must be taken into consideration, in order to come to a right conclusion. As already stated [1], he passed his adult days with an elderly widow and did not condescend to enter into another wedlock, even though the Meccan elders gladly agreed to place the most beauteous damsel of the wealthiest family at his disposal. However, later on, in the declining years of his life, he married a number of wives who, with the solitary exception of Ayesha, were either widows or divorced women. These facts, viewed in the light of the truth that the Prophet passed his days in preaching and actively pushing the cause of his new faith, and his nights in prayer, and that the Prophet was universally believed to be an honest man, endowed with all the qualities of moral greatness and all the attributes of virtuous manliness, bring home the conviction to every sound mind, that sensuality as a motive of action, is conspicuous by its absence in the life of the Holy Prophet of Islam. Each of his marriages brought a world of social and political good to the Moslem community, and these marriages were a valuable instrument in welding together the contending factions of Arabia into a united community. Had polygamy, allowed by the Prophet under reasonable restraints and limitations, been a social bane, as some prejudiced critics try to assert, it would have hampered the moral elevation of the corrupted Arabs. But with the adoption of Islam as a moral code the moral improvement grew apace, and the transformation wrought in the moral condition of Arabia, is without a parallel in the history of the world.

(1) Vide pp. 68—70 of this Book.

"It is this perfect abnegation of self, connected with this apparently heartfelt piety, running throughout the various phases of his fortune, which perplex one in forming a just estimate of "Mahomet's" character. However he betrayed the alloy of earth after he had worldly power at his command, the early aspirations of his spirit continually returned and bore him above all earthly things. Prayer, that vital duty of Islamism, and that infallible purifier of the soul, was his constant practice. 'Trust in God', was his comfort and support in times of trial and despondency. On the clemency of God, we are told, he reposed all his hopes of supernal happiness. Ayesha relates that on one occasion she inquired of him, 'Oh, prophet, do none enter Paradise but through God's mercy ?' 'None, none,-none,' replied he, with earnest and emphatic repetition. 'But you, Oh prophet, will not you enter excepting through His compassion ?' Then 'Mahomet' put his hand upon his head, and replied three times, with great solemnity, 'Neither shall I enter Paradise, unless God cover me with His mercy.'

"When he hung over the death-bed of his infant son Ibrahim, resignation to the will of God was exhibited in his conduct under this keenest of afflictions ; and the hope of soon rejoining his child in Paradise was his consolation. When he followed him to the grave, he invoked his spirit, in the awful examination of the tomb, to hold fast to the foundations of the faith, the unity of God, and his own mission as a prophet. Even in his own dying hour, when there could be no longer a worldly motive for deceit, he still breathed the same religious devotion, and the same belief in his apostolic mission. The last words that trembled on his lips ejaculated a trust of soon entering into blissful companionship with the prophets who had gone before him[1]."

X

Attacks of Christian Divines against the Private Character of the Prophet

The manner, in which Christian divines have attacked the private character of the prophet, is indeed very surprising. They seem to reject the sacred mission of the Prophet Mohammad merely on account of his polygamous marriages etc., when yet they receive as inspired the sayings of Balaam, David or Solomon. Missionaries should not, as a rule, attack the character of Mohammad.

If the prophetic mission of Mohammad should be rejected by the ministers of the church on account of his having had nine wives and two

(1) W. Irving's Life of 'Mahomet' (Bell & Daldy, London) p. 200.

To assail it, must draw on himself the hostility of his kindred, the indignation of his fellow-citizens and the horror and odium of all his countrymen who were worshippers of the Kaaba.

"Was there anything brilliant in the outset of his prophetic career to repay him for these sacrifices, and to lure him on ? On the contrary, it was begun in doubt and secrecy. For years it was not attended by any material success. In proportion as he made known his doctrines and proclaimed his revelations, they subjected him to ridicule, scorn, obloquy, and finally to an inveterate persecution, which ruined the fortunes of himself and his friends; compelled some of his family and followers to take refuge in a foreign land; obliged him to hide from sight in his native city, and finally drove him forth a fugitive, to seek an uncertain home elsewhere. Why should he persist for years in a course of 'imposture' which was thus prostrating all his worldly fortunes, at a time of life when it was too late to build up anew ?

"He was forty years of age before he first broached his doctrines. He suffered year after year to steal away, before he promulgated them outside of his own family. When he fled from Mecca, thirteen years had elapsed from the announcement of his mission, and from being a wealthy merchant, he had sunk to be a ruined fugitive. When he reached Medina, he had no idea of the worldly power that awaited him; his only thought was to build a humble mosque where he might preach; and his only hope, that he might be suffered to preach with impunity.

"His military triumphs awakened no pride nor vainglory, as they would have done had they been effected for selfish purposes. In the time of his greatest power he maintained the same simplicity of manners and appearance as in the days of his adversity. So far from affecting regal state, he was displeased if, on entering a room, any unusual testimonial of respect were shown him. If he aimed at universal dominion, it was the dominion of faith; as to the temporal rule which grew up in his hands, he used it without ostentation, and he took no step to perpetuate it in his family.

"The riches which poured in upon him from tribute and the spoils of war were expended in promoting the victories of the faith; and in relieving the poor among its votaries; insomuch that his treasury was often drained of its last coin. Omar Ibn Al Hareth declars that 'Mahomet' at his death, did not leave a golden dinar nor a silver dirham, a slave nor a slave-girl, nor anything but his gray mule Daldal, his arms and the ground which he bestowed upon his wives, his children, and the poor.

His intellectual qualities were undoubtedly of an extraordinary kind. He had a quick apprehension, a retentive memory, a vivid imagination, and an inventive genius. His ordinary discourse was grave and sententious, abounding with those aphorisms and epilogues, so popular among the Arabs ; at times, he was excited and eloquent, and his eloquence was aided by a voice musical and sonorous.

He was sober and abstemious in his diet, and a rigorous observer of fasts. He indulged in no magnificence of apparel, the ostentation of a petty mind, neither was his simplicity in dress affected, but the result of a real disregard to distinction from so trivial a source. His garments were sometimes of wool, sometimes of the striped cotton of Yemen, and were often patched. He forbade the wearing of clothes entirely of silk ; but permitted a mixture of thread and silk.

He was scrupulous as to personal cleanliness, and observed frequent ablutions. In his private dealings he was just. He treated friends and strangers, the rich and the poor, the powerful and the weak, with equity, and was beloved by the common people for the affability, with which he received them, and listened to their complaints. He was naturally irritable, but had brought his temper under great control, so that even in the self-indulgent intercourse of domestic life, he was kind and tolerant. 'I served him from the time I was eight years old,' said his servant Anas, 'and he never scolded me for anything, though things were spoiled by me.'

IX

The real Motives of the Prophet

W. Irving, seeking to discover the real motives of 'Mahomet', 'in giving himself for a prophet of God', put the following questions, which he himself answered :—

"Was it riches ? His marriage with Khadija had already made him wealthy, and for years preceding his 'pretended vision', he had manifested no desire to increase his store. Was it distinction ? He already stood high in his native place, as a man of intelligence and probity. He was of the illustrious tribe of Koreish, and of the most honoured branch of that tribe. Was it power ? The guardianship of the Kaaba, and with it the command of the sacred city, had been for generations in his immediate family, and his situation and circumstances entitled him to look forward with confidence to that exalted trust. In attempting to subvert the faith, in which he had been brought up, he struck at the root of all these advantages. On that faith were founded the fortunes and dignities of his family.

Earnestness and Honesty of Mohammad at Mecca: "As he was himself subject to convictions thus deep and powerful, it will readily be conceived that his exhortations were distinguished by a corresponding strength and cogency. Master of eloquence, his language was cast in the purest and most persuasive style of Arabian oratory. His fine poetical genius exhausted the imagery of nature in the illustration of spiritual truths; and a vivid imagination enabled him to bring before his people the Resurrection and the Day of Judgment, the joys of believers, in Paradise, and the agonies of lost spirits in Hell, as close and impending realities. In ordinary address, his speech was slow, distinct, and emphatic; but when he preached, his eyes would redden, his voice rise high and loud, and his whole frame agitate with passion, even as if he were warning the people of an enemy, about to fall on them the next morning or that very night."

His disposition : "When Ayesha was questioned about Mohammad, she used to say: 'He was a man just such as yourselves; he laughed often and smiled much.' If he had the choice between two matters, he would always choose the easier, so that no sin accrued therefrom. He never took revenge, excepting where the honour of God was concerned. When angry with any person, he would say: 'What hath taken such a one that he should soil his forehead in the dust.'"

Humility : "His humility was shown by his riding upon asses, by his accepting the invitation even of slaves, and when mounted, by his taking another behind him. He would say: 'I sit at meals as a servant doth, and I eat like a servant, for I really am a servant;' and he would sit as one that was ready to rise. He discouraged supererogatory fasting, and works of mortification. He hated nothing more than lying; and whenever he knew that any of his followers had erred in this respect, he would hold himself aloof from them, until he was assured of their repentance."

Attitude at Prayers: "He used to stand for such a length of time at prayer that his legs would swell. When remonstrated with, he said: 'What, shall I not behave as a thankful servant should?' He never yawned at prayer. When he sneezed, he did so with a subdued voice, covering his face. At funerals he never rode; he would remain silent on such occasions, as if conversing with himself so that the people used to think he was holding communication with the dead [1]."

The following are abstracts of Washington Irving's account of the characteristics of the Prophet Mohammad [2].

---

(1) Sir William Muir's The Life of Mohammad.

(2) Life of Mahomet by Washington Irving (Bell & Daldy, London 1864).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحديد

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر

— ٣ —

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ :

أَنَى الشيء يأْنِى أنى إذا جاء وقته. والخشوع : الضراعة والانقياد ، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح ، وأكثر ما تستعمل الضراعة فيما يوجد فى القلب ؛ ولذلك قيل : إذا ضرع القلب خشعت الجوارح .

والحق : ما دعا اليه العقل ، وهو الذى من عمل به نجا ، ومن عمل بخلافه هلك ، وهو مطلوب كل عاقل فى نظره وإن أخطأ طريقه .

وذكر الله : إما أن يكون من إضافة المصدر الى الفاعل ، فيكون الذكر وما نزل من الحق شيئا واحدا هو القرآن ، وللقرآن صفتان : صفة أنه ذكر وموعظة ، وصفة أنه حق نزل من عند الله ؛ وإما أن يكون من إضافة المصدر الى المفعول فيكون ذكر الله تذكر الله ، وما نزل من الحق هو القرآن . ونظير ذلك « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » .

وقد روى عن أبى بكر رضى الله عنه أن هذه الآية قرئت بين يديه وعنده قوم من أهل اليمامة ، فبكوا بكاء شديدا ، فقال : هكذا كنا حتى قست القلوب . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن . وعن أحمد عن أبى الحوارى قال : بينا أنا فى بعض طرقات البصرة إذ سمعت صعقة ، فأقبلت نحوها

فرأيت رجلا قد خر مغشيا عليه ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : رجل حاضر القلب سمع آية من كتاب الله فخـر مغشيا عليه ، فقلت : ما هى ؟ فقيل : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق » .

وهناك قصص كثيرة تدل على مقدار تأثير القرآن فى قلوب سامعيه ؛ وهذا التأثير يتبع حضور القلب وفهم معانيه وتذوق اللغة العربية وأساليبها . وللذين يتدبرون القرآن أحوال عجيبة ، وأسرار تهبط عليهم من فيض الله وجوده . أما الذين يتلون القرآن للتبرك بتلاوته ولا ستخراج ما فيه من قواعـد اللغة العربية ووجوه الإعجاز ، فهؤلاء لا ينالهم من جود الله إلا النزر اليسير .

وعن الأصمعى : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود له فقال : من الرجل ؟ قلت : من بنى أصمع ، قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن ، فقال : اتل علىّ ، فتلوت : والذاريات ، فلما بلغت قوله سبحانه : « وفى السماء رزقكم » ، قال : حسبك ، فقام الى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ، وعمد الى سيفه وقوسه فكسرهما ، وولى . فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت رقيق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابى قد نحل واصفر ، فسلم علىّ واستقرأ السورة ، فلما تلوت الآية صاح وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ! ثم قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت « فورب السماء والأرض إنه لحق مثـل ما أنكم تنطقون » ، فصاح وقال : يا سبحان الله ! من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف ! لم يصدقوه بقوله حتى ألجؤه الى اليمين ! قالها ثلاثا ، وخرجت معها نفسه .

والمعنى : ألم يجىء الوقت الذى تخشع فيه القلوب وتلين ضارعة الى الله سبحانه عند سماع القرآن ، وفيه الذكر والعظة ، وقد نزل بالحق من عند الله سبحانه ، وتنقاد الجوارح لأوامره ونواهيه ، وتعكف على العمل بمـا فيه ، وتتدبر أسراره وتحافظ عليه ، ولا تزيد ولا تبتدع كما فعلت الأمم من قبل ، حيث كانوا أول أمرهم يحول الحـق بينهم وبين شهواتهم ، وكانوا إذا سمعوا التوراة أو الإنجيل خشعت قلوبهم لله ورقت ، ثم لمـّا طال عليهم الزمان من وقت تنزيل الـكتب وبعث الرسل غلبهم الجفاء والقسوة ، فاختلفوا وأحدثوا ما أحدثوه من البدع والتحريف ، فحرفوا الـكلم عن مواضعه ، وحدثت الفرق ، وانتهى الأمر بكثير منهم الى الفسق والخروج عن الدين ، ورفض ما جاء على لسان أنبيائهم . هكذا نبهنا الله سبحانه لنعتبر بأحـوال المـاضين . وقد نبهنا الى ظاهرة نفسية من ظواهر الأنفس ، فان طـول الأمد على الحوادث يُخلق جِدّتها ، ويذهب رُواءها ، ويضعف التأمل فيها والحماس لأجلها ؛ وإلف الشىء يورث التهاون به ، ولذلك يحتاج الدين دائمـا الى مذكر ومجدد ، وليس من وظيفة المجدد أن يحدث فى الدين جـديدا ، وإنمـا وظيفته أن يحافظ عليه كما هو ، وأن يعيـد الى النفوس تفهمه وفهمه ، وأن يذود عنه ويبعد ما ليس منه . وقد ورد « إن الله يبعث الى هذه الأمة على

رأس كل قرن من يجدد لها أمر دينها » . والسنن الإلهية لا تتبدل ، والغرائز الانسانية تعمل عملها . وعلى القادة والمرشدين أن ينبهوا دائما الى هذه الظواهر ، والى العبر بأحوال الماضين ، اقتداء بكتاب الله المبين ، سبحانه وهو أحكم الحاكمين . وما أحسن ما قيل : لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، فان القلب القاسى بعيد عن الله ، ولا تنظروا الى ذنوب العباد كأنكم أرباب ، وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عباد ؛ والناس رجلان : مبتلى ، ومعافى ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية .

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ :

هو تمثيل لأثر الذكر فى القلوب . والله الذى يحيي الأرض بعد دثورها ودروسها فتنبت إذا تعهدها العامل بالحرث والعمل ، وتعهدها بالسقى ، أو أصابها الغيث ، يحيي القلوب الميتة إذا تعهدها العبد بالذكر وتدبر الآيات ، وراضها على الصالح من الأعمال ، فتعود الى الرقة بعد القسوة ، وتعود الى الطاعة والانقياد بعد الغلظة والجفوة .

« قد بينا لكم الآيات » : وهى الحجج الواضحة ، والدلائل الباهرة ، وضربنا لكم الأمثال لعلكم تعقلون وتأخذون بمقتضى أحكام العقل ، فتحافظوا على التكاليف الشرعية ، والأخلاق الراضية .

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ ، وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ :

قرئ المصدقين والمصدقات بالتشديد والتخفيف ، وهما قراءتان صحيحتان ؛ وعلى قراءة التشديد يكون المعنى : إن الذين تصدقوا والذين أقرضوا ؛ وعلى قراءة التخفيف يكون المعنى : إن الذين آمنوا والذين أقرضوا .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ :

فى قوله سبحانه : « والشهداء عند ربهم » رأيان :

الأول : أنه مرتبط بما قبله وليس كلاما مبتدأ ؛ والمعنى على هذا : والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون عند ربهم وهم الشهداء عندربهم ، فكل مؤمن صديق ، وكل مؤمن شهيد . قال مجاهد : كل من آمن بالله ورسله فهو صديق وهو شهيد ، وتلا هذه الآية . وإنما كان المؤمن صديقا لأنه كثير الصدق ، وكان شهيداً لأن المؤمنين شهداء عند

ربهم على أعمال العباد ، وهم العدول الذين تقبل شهادتهم . وينبغى أن يحمل الإيمان فى هذه الحالة على الإيمان الكامل . ثم بعد أن أخبر الله عن المؤمنين بأنهم صديقون وشهداء ، أخبر بأن لهم أجرهم ونورهم ، أى لهم ثواب أعمالهم ونورهم الذى يهتدون به الى الجنة .

والرأى الثانى : أنه كلام مستأنف وقد انتهى الأول عند قوله : هم الصديقون ، وابتدأ هنا قوله : والشهداء ؛ والمعنى على هذا : المؤمنون هم الصديقون ؛ والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ؛ نظير قوله : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله » . قال ابن جرير : والظاهر أن الإيمان لا يوجب اسم الشهداء ، فهذا غير متعارف ، والرأى الثانى أولى ؛ وأنا أيضا أرى هذا ، وأزيد على ذلك أن الله سبحانه فى هذه الآيات أراد أن يعطى حكم أربعة أصناف : حكم المتقين المصدقين ، وحكم المؤمنين ، وحكم الشهداء ، وقد أشار اليهم سابقا بقوله : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى » ، فهناك من قاتل قبل الفتح وبعده لم يعط حكما إذا لم يجعل قوله : « والشهداء عند ربهم » مستأنفا كما هو الرأى الأول . أما إذا جعل مستأنفا كما هو الرأى الثانى فان هذا الصنف يكون قد أخذ حكما . والصنف الرابع هم الكفار ، وقد حكم عليهم فى الآية الآتية :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ :

هؤلاء الذين كفروا أشير اليهم بقوله سبحانه : « فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا » ، كما أشير الى الشهداء بقوله : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ... »

وبعد أن بين الله سبحانه أحوال المؤمنين ، وأحوال المقرضين ، وأحوال الشهداء ، بين فى هذه الآية أحوال المكذبين بالله وآياته ، وحكم عليهم بأنهم أصحاب الجحيم ، يلازمونها كما يلازم الصاحب الصاحب ، لا يفارقونها بل يخلدون فيها ما دامت السموات والأرض ، إلا ما شاء ربك ، إن ربك فعال لما يريد .

هل تعلم النبى الكتابة بعد النبوة

رد شبهة وردت فى بعض الكتب

لم يكن للكتابة فى هذا الموضوع من داعية ، لولا أن كاتبا فى جريدة البورص اجبسيين التى تنشر بالفرنسية فى القاهرة قد كتب تحت عنوان (افيميريد) Ephémérides كلمة فى موضوع الأمية ، مدح الاسلام فيها بأنه يدعو لمكافحة الأمية ، جاء فى عرض كلامه ما يؤخذ منه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ ويكتب ، فقد قال : « وإذا ذكرنا أن الاسلام من أول وجوده رفع من قدر الكتابة الى حد أن عدها من العبادة ، وأنه عظم الكتاب والأمم التى لها كتاب كالنصارى واليهود ، وإذا ذكرنا أيضا أن نبى المؤمنين كان هو نفسه كاتبا مبدعا Styliste وعالما مكملا Scribe accompli يلقن الناس الشريعة ، وأن الشعوب العربية قد اشتهرت بحبها الشديد لتذوق الآداب الرائعة ، إذا ذكرنا هذا كله كان من حقنا أن نحكم بأن بقاء هذا العدد العديد من الأميين بين ظهرانى فلاحى النيل ، من التقصير الذى لا يغتفر » .

وإننا مع شكرنا لحضرة الكاتب على شهادته الحقة للنبى صلى الله عليه وسلم وللمسلمين كافة ، نلاحظ أنه مال الى رأى العدد القليل من علماء المسلمين الذين قالوا بأن الله بعد النبوة علم رسوله القراءة والكتابة .

نعم هذا قول نسب الى بعض علماء المسلمين من أشهرهم الشعبى ومجاهد ومال إليه القاضى عياض . وعندما عورضوا بقوله تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك » أجابوا بأن ذلك كان قبل نزول القرآن .

وقد استند هؤلاء القائلين بأن الله علمه أن يقرأ ويكتب على حديث رواه البخارى والنسائى وأحمد بن حنبل ، مؤداه أن النبى لما كان يملى على علىّ بن أبى طالب شروط صلح الحديبية ، وسفير المشركين حاضر ، وأملى هذه العبارة وهى : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » اعترض السفير قائلا : لو نعلم أنك رسول ما منعناك شيئا . فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعلى : امح رسول الله . فتحرج علىّ من ذلك . فأخذ رسول الله الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله الخ .

هذا مستند الذين قالوا بأن الله علم نبيه القراءة والكتابة . ولكن أكثر علماء المسلمين لايرون هذا مستندين الى رواية مسلم ، وفيها أن سفير المشركين لما اعترض على عبارة (رسول الله) وتأثم علىّ من محوها ، قال صلى الله عليه وسلم لعلى : أرنى مكانها ، فأراه مكانا فمحاها .

وقد اعتد جمهور العلماء الإسلاميين بهذه الرواية لموافقتها لنص الكتاب من ناحية ،

ولعدم وجود ما يحتم الأخذ بالرأى المخالف غير عبارة حديث البخارى والترمذى وليس هو بالمتواتر حتى يتحتم الأخذ به كما يتحتم الأخذ بالقرآن .

والمعقول أن الأمية التى اعتبرها الكتاب نفسه معجزة للنبى وكررها أكثر من مرة لا يصح أن تتخلف عنه على مدى الأزمان . فأقل تكلفا من كل هذا أن يؤول نصا البخارى والترمذى وأن يصرفا عن ظاهرهما .

على أنه لو ثبت ثبوتا قاطعا أن النبى صلى الله عليه وسلم تعلم القراءة والكتابة فى آخر أيامه ، بل لو سُلم للملحدين جدلا أنه كان قارئا وكاتبا فى أثناء نزول القرآن وقبله ، فهل فى ذلك ما يقلل من قيمة المعجزات الكبرى التى اختص بها وهى إتيانه بكتاب حافل بأمهات الأصول الأدبية والنفسية والاجتماعية ، التى لم يصل البشر اليها إلا تدريجيا وبعد عهده بمئات السنين ؛ ونجاحه فى القضاء على الوثنية والجاهلية فى أمة برمتها ، وإقامتها على التوحيد الخالص ، والمدنية الخلقية الصحيحة ؛ وتوحيد قبائلها وتوجيهها وجهة فاضلة ، وتحليتها بجميع الصفات التى تبنى الجماعات الراقية ، والخصائص التى تضمن تطورها ، والحوافظ التى تمنع ارتكاسها حتى تصل الى درجة خلافة الله فى الأرض ، وزعامة العالم كله فى العلم والحكمة والسياسة وآمادا طويلة ؟

إذا كان مجرد القراءة والكتابة توصل صاحبها الى هذه المكانة ، وهو يخفى بين جنبيه روح الاحتيال والتدليس بادعائه النبوة وهو ليس بنبى ، وانتحاله الأمية وهو ليس بأمى ، وإيهامه أنه يوحى اليه وهو لا يوحى اليه ، قلنا إذا كان مجرد القراءة والكتابة والافتراء على الله والناس يوصل الى مثل هذه المكانة ، لم يوجد معيار يفرق به بين الحق والباطل ، ولبطلت جميع ما قررته التجارب من أن النفوس الملتاثة بأقبح الصفات لا تصلح لإقامة بناء أدبى ينفع البشر .

فاذا كان النزاع بين الطرفين فى أن النبى كان قارئا كاتبا أم أميا ، هو لأجل حماية معجزته من الشبهات ، فان هذه المعجزة لا تمس بسوء لكثرة الأدلة عليها ، ولتضافرها على إثباتها .

يحرص خصوم الاسلام على إثبات أن النبى كان قارئا كاتبا ليتوسلوا بذلك الى أنه قرأ التوراة والإنجيل وألف منهما القرآن وادعى أنه تنزيل من حكيم حميد . والذى يقرأ القرآن الكريم يعرف أنه اتفق وهذين الكتابين فيما هو حق ، وخالفهما فى أمهات من المسائل ، ورد على ما تقتضى الرد منهما ، فهل يريد الخصوم أن يقولوا إن هذين الكتابين ليس فيهما حق يمكن الاتفاق وإياهما عليه ؟

إن الذى يجب أن يستوقف النظر فى القرآن الكريم هو النقد المنطقى الذى وجهه الى أهل الكتاب ، والتعديل العلمى المعجز الذى دعاهم اليه ؛ هذا هو الذى يجب أن يتأمله العاقلون ليدركوا بدليل جديد أن القرآن أنزل لإصلاح عالمى عام ، وأنه بهذا الوصف سيبقى أبد الآبدين ؟

محمد فريد وجدى

باب الأسئلة والفتاوى

حكم الشريعة الاسلامية فى عقوبة الزنا

ورد الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر خطاب من حضرة صاحب العزة محمود بك لطيف عضو مجلس النواب ومعه مذكرة عنوانها «دراسة فى عقوبة الزنا» للأستاذ مرقص فهمى المحامى، وقد طلب فى خطابه بيان حكم الشريعة الاسلامية فيما جاء بهذه المذكرة خاصا بعقوبة الزنا فى الاسلام.

ولأهمية هـذا الموضوع رأت اللجنة أن تستوعب ما جاء فى المذكرة متصلا بعقوبة الزنا فى الاسلام دراسة وتمحيصا ، فتبين لها أن هذه المذكرة تضمنت الدعاوى الآتية :

(أولا) أن الزنا إذا وقع فى غير علانية ليس جريمة ، لا عقوبة عليه .

(ثانيا) من الخطأ أن يقال فى واقعة الزنا إنها من أشد الجرائم على الجماعة .

(ثالثا) الزنا إذا وقع علنا فليست العقوبة عليه باعتباره زنا ، وإنما العقوبة على إشاعة الفاحشة .

(رابعا) إنما قرر الاسلام عقوبة الزنا تهدئة لخواطر الناس ، ومن باب مخاطبتهم على قدر عقولهم.

(خامسا) الزنا ليس معطلا للنسل .

(سادسا) واجب الزوج ، أمام زوجته الزانية ، أن يصفح ويستر .

وإلى القارئ بيان حكم الشريعة الغراء فى هذه الدعاوى :

أولا — إن الاسلام يعتبر كل اتصال جنسى قائم على أساس غير شرعى زنا تترتب عليه العقوبة ويناله التهديد والوعيد ، وأن الزنا كيفما وقع (مستوراً أو غير مستور) جريمة معاقب عليها ؛ والله تعالى يقول : « والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غـير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » والعادون هم الذين يتجاوزون حدود الله وينتهكون حرماته ؛ وقد قال الله تعالى : « ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » ؛ وقال جل شأنه : « ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا » ؛ ويقول تعالى : « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ؛ ومن يفعلْ ذلك يلقَ أثاماً ، يضاعفْ له العذاب يوم القيامة ويَخْلُدْ فيه مُهانا » .

فليس صحيحا ما قاله الأستاذ فى صفحة ٢١ أن الزنا إذا وقع فى غـير علنية ليس جريمة لاعقوبة عليه ، بل هو جريمة من أخش الجرائم ، ومعاقب عليه أشد العقاب . نعم لا يقيم القاضى على الزانى حد الزنا إلا إذا ثبت لديه بطريق الإثبات التى سنها الشارع .

وليس معنى هذا أن الزنا إذا لم يثبت أمام القاضى لعدم توفر أدلة الاثبات عليه لا يكون جريمة ، بل هو فى الواقع ذنب وجريمة ، وإثم يستوجب من الله الغضب والعقوبة الأخروية . ومثل الزنا فى ذلك مثل سائر الجرائم إذا لم تثبت بدليلها ، فانها لا تستوجب العقوبة الدنيوية

مع كونها جرائم فى الواقع ونفس الأمر تستوجب المقت والغضب من الله وسوء العقوبة فى الآخرة .

ثانيا — ولما كان للاتهام بالزنا أثر سيء فى سقوط الرجل والمرأة ، وانهيار كرامتهما أمام قومهما ، وإلحاق العار بهما وبأسرتهما وذريتهما على طول الدهر ، شدد الشارع الحكيم فى طريق إثبات هذا الجرم الشنيع ، فرفع نصاب الشهادة فيه الى أربعة رجال يشهدون به مفسرا أمام القاضى ، حتى يسد السبيل على الذين يتهمون الأبرياء جزافا أولأدنى حزازة بعار الدهر وفضيحة الأبد . ولكن الأستاذ صاحب المذكرة يزعم أن الاسلام ما شدد فى إثبات الزنا إلا استهانة به ، وإلا ليجعله فى معزل من كل جناية ، إذ يقول فى مذكرته صفحة ١٥ بعد أن ساق آية القذف : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة » ، قال : بهذه الآية خرجت واقعة الزنا من حدود التشريع الجنائى كله ... فاذا بها ليست تلك الجريمة التى يقال خطأ إنها من أشد الجرائم على الجماعة لا بد لها من عقوبة سريعة شديدة ، بل وضعها الشارع فى معزل من كل جناية لا تلحقها العقوبة إلا استثناء وفى النادر القليل ، بل العقوبة فيها أقرب الى الاستحالة منها الى الإمكان اه .

بهذا الأسلوب يتناول الأستاذ التشريع الاسلامى ، ويحاول أن تلين له قناته . كلا ! إن جريمة الزنا هى التى يقال حقا إنها من أشد الجرائم على الجماعة ، ولا بد لها من عقوبة شديدة ، بل لا تجد جريمة يترتب على دعواها والقذف بها ما يترتب على دعوى الزنا والقذف به من لصوق العار الأبدى بالمتهم وأسرته وقومه ومعارفه . فمن هنا ومن هنا فقط رفع النصاب فى الشهادة على الزنا الى أربعة رجال عدول يندر أن يتمالئوا على قذف الأبرياء ، وتقرر كذلك جلد القاذف ثمانين جلدة إذا لم يأت بهؤلاء الشهود الأربعة .

ثالثا — والاسلام يقرر العقوبة إذا ثبتت الجريمة شرعا — على الجريمة نفسها — وهى الزنا ، لا على إشاعة الفاحشة ؛ فقد قال الله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله » ، فعلق العقوبة على الزنا لا على شيء آخر . فغير صحيح ما ذكره الأستاذ فى صفحة ٢٢ إذ يقول : أما إذا وقعت الواقعة علنا فقد تمت إشاعة الفاحشة فاستحقت العقوبة لأجلها لا لأجل الزنا .

واللجنة كانت تود أن يكون الأستاذ على ذكر مما يقوله الأصوليون ورجال القانون : من أن العقوبة إذا علقت على وصف كان الوصف هو المسبب لها ، فحين تقول المادة (٢٥٣) من القانون المصرى : « يعاقب أيضا الزانى بتلك المرأة » يكون معنى ذلك حتما أن الزنا سبب العقوبة ، وأنها تترتب عليه ولا تترتب على شيء سواه ؛ والآية الكريمة « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » فيها هذا الترتيب نفسه ، أى توقيع العقوبة على الزنا

ومن أجله فقط ، وليس لإشاعة الفاحشة فى الآية ذكر. فدعوى أن إشاعة الفاحشة هى السبب فى العقوبة إغفال للسبب الموجود ، واختراع لسبب غير موجود .

رابعا — والاسلام قد تدرج فى تقرير بعض الأحكام حدودا وغير حدود ، كالذى حصل فى تحريم الخمر، وكالذى حصل فى تشريع الصوم ، وكالذى تراه أغلبية الفقهاء فى تقرير حد الزنا ، حيث كانت العقوبة أول الأمر الإيذاء بالتوبيخ والتعنيف «واللذان يأتيانها منكم فآذوهما»، ثم تدرج من ذلك الى الحبس فى البيوت « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أويجعل الله لهن سبيلا »، ثم استقر أمر العقوبة على جلد الزانى غير المحصن مائة جلدة ، ورجم المحصن حتى يموت .

ولم يكن هذا التدرج استجابة من الشارع لعاطفة من عواطف الناس ، ولا تهدئة لخواطرهم ، وإنما كان تدريجا فى ترقية المجتمع ، وإخراجهم على رفق وهوادة من ظلمات الشرك والفوضى الى نور الإيمان وحسن النظام ، حتى لا يشق على الناس هذا الانتقال ، وحتى لا يكون عليهم فى الدين من حرج .

وكيف يتصور عاقل أن يكون هذا التدرج خاضعا لهوى فرد أو فريق من الناس وهو قد حصل فى العبادات كما حصل فى غير العبادات ؟ ومحال أن يتصور هذا الهوى فى العبادات التى هى علاقة محضة بين المرء وخالقه لا شهوة للمرء فيها ولا غرض « بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون . ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » .

فليس صحيحا ما يعزوه الأستاذ للاسلام من أن التدرج فى عقوبة الزنا إنما قصد به تهدئة الخواطر من باب مخاطبة الناس على قدر عقولهم ، وتكرر هذا المعنى فى مذكرته ؛ ففى صفحة ١٤ يقول : « فالواقع أن الوحى قصد فى تشريعه الأول أن يجعل الزنا مخالفة نفسية جزاؤها التعنيف والتوبيخ ، ولكن غيرة العرب لم ترد أن تطمئن ، فنزلت الآية الثانية بالحبس فى البيوت. وقال فى صفحة ٨٤ : ثم أخيرا ولتهدئة القوم رفعت العقوبة الى الجلد . اهـ

ولئن صح أن يقال كلام مثل هذا فى القوانين الوضعية التى تستمد مبادئها من رغبات البشر وآرائهم ، فما كان يصح أن يقال فى جانب التشريع الإلهى المنزه عن الهوى والغرض .

خامساً — والاسلام يصون الأعراض أيما صيانة ، ويحفظها من التلويث والدخالة ، لأن الأعراض الطاهرة تستوجب الطمأنينة السعيدة فى الأسرة ،فتنجب ذرية قوية ماجدة شريفة ترفع الانسانية وتسمو بها ؛ وما من شك فى أن الأسرة المتهدمة لا تنسل أمة نبيلة ولا شعبا كريما ، وأن الشعوب التى يفشو فيها الزنا يسارع اليها الخراب المادى والأدبى، ويستحيل أهلها الى شراذم متهدمة لا تناصر بينهم ولا تعارف ؛ والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تزال أمتى بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا، فاذا فشا فيهم ولد الزنا أوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

فليس صحيحا مايقول الأستاذ فى مذكرته صفحة ٢٣ « أن الزنا ليس معطلا للنسل... » بل إنه معطل للنسل القوى الصالح المتناصر، وقاطع للرحم التى تكون بين الناس، والتى على نظامها وتقديرها تبنى كافة الروابط من الأبوة والبنوة والأخوة وسائر القرابات: « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »، « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ».

سادسا — والاسلام ينمى العفاف بين الناس، ويدعو الى التمسك بالطهر، ولذلك يرغب فى التزوج بالصوالح المصونات؛ وقد فظع رسول الله صلى الله عليه وسلم السكوت على الخنا، وأن يعلم المرء على زوجته سيئة ويسكت، فقال عليه الصلاة والسلام: «لايدخل الجنة ديوث».

فمن الخطأ ما جاء فى مذكرة الأستاذ فى شأن الزوجة الزانية حين يقول: « وإن كان الزوج يحبها فواجبه الصحيح أن يصفح ويستر، وكانت هـذه نصيحة النبى صلى الله عليه وسلم .. الخ ». وقال فى صفحة ٨٦: « وعملا بنصيحة النبى طلق أو فاستر عليها الخ ». وقال أيضا فى صفحة ١١١: « نصيحة النبى والأئمة فى شأنه الطلاق أو التستر » اه.

وقد زعم الأستاذ أنه يستند فى شأن هـذا الذى سماه نصيحة النبى الى حديث نقله عن النيسابورى، فقال فى صفحة ٢٠: جاء فى النيسابورى صفحة ٥٣ جزء ١٨ « روى أن رجلا قال: يا رسول الله إن لى امرأة لا ترد يد لامس، قال: طلقها، قال: إنى أحبها، قال: فأمسكها ». وهذا الحديث لا يصح التمسك به لضعفه واضطراب أقوال العلماء فيه.

فالنيسابورى نفسه يشير الى أن هـذا الحديث لم يصل الى درجة الصحة، إذ تراه يسوق الرواية فى أسلوب المتبرى، فيقول: «روى أن رجلا» ولم يذكر المروى عنه؛ ومن القواعد المقررة فى مصطلح الحديث أن الراوى إذا لم يذكر المروى عنه كان ذلك دليلا على ضعف الحديث وعدم الوثوق بصحته.

وقد نقل الحافظ ابن حجر عن ابن الجوزى عن الامام أحمد أنه قال: لم يثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب شىء، وأن هذا الحديث ليس له أصل. وتمسك ابن الجوزى بذلك فأورد الحديث فى الموضوعات.

وبعد: فإن لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ترجو من الأستاذ صاحب المذكرة وغيره ممن تدفعهم أعمالهم الى التعرض للمسائل التشريعية الاسلامية، ألا يتخذوا من مواقفهم القضائية وأعمالهم الخاصة فرصة للخوض فى التعاليم الاسلامية الثابتة فيظهروها على غير وجهها الصحيح بأساليب تشوه من جمالها، وتفتح باب التأويل الفاسد، وتثير الشكوك والريب.

والله ولى التوفيق والهداية، يهدى من يشاء الى صراط مستقيم؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

حول

خــــلاف فلسفى

بينى وبين صاحب « على أطلال المـذهب المادى »

كتبت فى الجزء الأول من مجلة الأزهر ، من مجلدها الثانى عشر ، مقالا بعنوان : الفلسفة بين الوجود والفكر ، وعلق عليه فى الجزء نفسه حضرة الأستاذ محمد بك فريد وجدى تحت عنوان : هل من فلسفة إسلامية ؟

ورددت على تعليق حضرته بعنوانه نفسه : هل من فلسفة إسلامية ؟ فى الجزء الثانى من المجلة ، وعقب حضرته على هذا الرد فى الجزء عينه بعنوان : الفلسفة بين الوجود والفكر .

ونشرت لى المجلة فى جزئها الثالث مقالا بعنوان : نظرة الفلسفة الميتافيزيكية الى الانسان ، وعقب عليه فريد بك فى الجزء ذاته بعنوان : ما هى الميتافيزيكيا ؟

وكل ما يستخلص من الكتابة ، والتعليق ، والرد ، والتعقيب ، ينحصر فى أن الخلاف بيننا :

(١) فى تحديد بعض الاصطلاحات الفلسفية ؛

(٢) وفى أسلوب البحث الفلسفى ؛

(٣) وفى قيمة الجمع بين الدين والفلسفة وأثره ؛

(٤) وفى تحديد المذهب المادى والمذهب الطبيعى وقيمة كل منهما ؛

(٥) وفى الميتافيزيكيا والمنهج الميتافيزيكى فى التفلسف .

***

بعض الاصطلاحات الفلسفية :

فعند ما كتبتُ مقال « الفلسفة بين الوجود والفكر » وأشرت الى موضوع الفلسفة الاسلامية ، والى ما كان من إعراض علماء النهضة عن موضوع البحث فى فلسفة القرون الوسطى عامة ، ومنها موضوع الفلسفة الاسلامية ، علق الأستاذ فريد بك نافيا وجود فلسفة إسلامية استمدها « الاسلام » من خارجه . وكان ردى عليه أن هذا المعنى المنفى للفلسفة الاسلامية لا يدخل فى مفهومها حتى يُنفى ، لأن التعبير « بالفلسفة الاسلامية » اصطلاح لمؤرخى الفلسفة وضعوه للفلسفة الاغريقية التى نقلت الى المسلمين فى ثوب الأفلاطونية الحديثة والفيثاغورية الحديثة واشتغل بها فريق من علماء المسلمين كالفارابى وابن سينا وإخوان الصفاء ، بدليل أنها كثيرا ما تذكر فى تاريخ الفلسفة باسم الفلسفة العربية . فالخلاف بيننا أنى التزمت التعبير الفنى ، والتزمت ما يقصد منه ، بينما هو أضاف اليه معنى — لينفيه ثانيا — يحتمله التعبير فى نفسه بغض النظر عن كونه اصطلاحا .

ولم أفهم بعد هـذا التوضيح من تعليقه الثانى فى الجزء الثانى للمجلة بعنوان « الفلسفة

بين الوجود والفكر » أنه ينكر عليّ أن « الفلسفة الاسلامية » تعبير اصطلاحى خرج عن عموم المعنى اللغوى وأريد به ما أردتُ . وكنت أنتظر من فريد بك ـ وهو يكتب باسم العلم ـ أن يصرح بموافقتى لا أن يدع هذه الموافقة مستورة فى كتابته .

* * *

أسلوب البحث الفلسفى :

وعندما تعرض حضرته فى تعليقه : هل من فلسفة إسلامية ؟ لقيمة المذهب المادى ، لم أتخذ فى ردى على هذا التعليق بالعنوان نفسه موقفا تجاه رأيه ، لأنى لم أكن بصدد بيان القيم المختلفة للمذاهب الفلسفية ، وإنما خالفته فحسب فى شيئين :

أولا : فى أن كتابتى فى « الفلسفة بين الوجود والفكر » لم تتعرض لتصوير مذهب من المذاهب الفلسفية ـ وما زلت أخالفه فى هـذا ـ بل كانت فقط عرضا تاريخيا لتغير موضوع البحث الفلسفى فى الأزمنة المختلفة وأسباب هذا التغير .

وثانيا : فى أن قيمة أى مذهب فلسفى فى نظر تاريخ الفلسفة لا تتوقف على رأى الدين فيه ؛ فضعف المذهب الفلسفى لا يكون من حيث إنه « يصور نزعة إلحادية » بل لأن أسسه أصبحت فرضية بالنظر لما اتفق عليه الباحثون فى عصر من العصور فى أن يكون مقياسا « للحقيقة واليقين » . وكذلك قوته لا تكون من حيث إنه يمثل « الإيمان الكامل » بل لمطابقته لذلك المقياس . نعم جاء عصر ، وهو عصر القرون الوسطى أو عصر الفلسفة الدينية ، كان مقياس « الصحيح والفاسد » من الفلسفة هو الدين نفسه . ولكن العدول عن الدين كمقياس كان قرينا للرغبة فى توجيه البحث الفلسفى نحو الطبيعة أكثر من بقائه على بحث ما وراء الطبيعة ؛ أى أنه استبدل بغيره منذ عصر النهضة . وليس معنى هذا أنى أوافق الباحثين أو أخالفهم فيما عدلوا إليه ، إذ ذلك شىء آخر له بحث آخر غير العرض التاريخى الذى قصدت إليه .

وفريد بك وإن أكد أنه يسلك فى بحثه الفلسفى ، إذا ما ناصر مذهبا فلسفيا أو حاول إضعافه ، سبيل الفلاسفة الذين لا يمزجون بين مصدر للمعرفة ومصدر آخر ؛ فلا يعترضون مثلا على مبادئ التصوف ، وهى قائمة على المعرفة الصوفية ، بطريق أهل المنطق ، ولا على النظريات المؤسسة على معرفة هؤلاء بطريق « الفيض والتفضل » وهكذا . . . ؛ هـو وإن أكد ذلك إلا أنه بقى مع هذا التأكيد فى شدة الغموض وصفُه للمذهب الفلسفى المادى ، فى سياق التدليل على ضعفه ، بأن هذا المذهب « يصور نزعة إلحادية ، أى نزعة غير دينية .

* * *

قيمة الجمع بين الدين والفلسفة :

الأستاذ فريد بك فى تعقيبه فى الجزء الثانى من المجلة بعنوان : « الفلسفة بين الوجود

والفكر » يرى أن سند الدين فى الفلسفة ، وأن القرآن لا تبرز حكمته ولا قيمته الذاتية إلا فى ضوء العلم والفلسفة . بل ذهب الى أبعد من هذا : ذهب الى وضع (١) منطق للدين يُتعرف بوساطته الحق والباطل منه (من الدين) كما وضع أرسطو فى القرن الرابع قبل المسيح منطقه الصورى لمعرفة الصحيح والخطأ من الأحكام العقلية ، وكما وضع بيكون فى القرن السابع عشر منطقه التجربى تكملة لمنطق أرسطو . ومنطق الدين فى نظر فريد بك يجب أن يتكون من الأبحاث العلمية والنفسية الراهنة . ومن أهم هذه الأبحاث فى رأيه بحث « الأثير » وبحث « استحضار الأرواح » و « التنويم المغناطيسى » الذى أثبت وجود الروح فى الجسم بتجارب حاسمة ! ! مستقلة عنه يمكن إخراجها منه بواسطة التنويم العميق ، فتتجسد على صورته تجسدا خفيفا مستعيرا جسده من مادته يمكن تعيين وزنها بما نقص من جسم المنوَّم ، وتظهر حاصلة على عقليته ونفسيته ، وكل مميزاته ، ظهورا يلمس ويصور ، وتصدر منها أفعال مادية لا تدع فى النفس شبهة (٢) » .

فالحق من الدين والصحيح من المعانى الدينية فى نظر فريد بك ما وافق هذه الأبحاث ، وهذه الأبحاث وحدها ، رغم عدم استقرار نتائجها ، هى الحكم والمرجع للحقائق الدينية .

وأنا أرى ، اتعاظا من تاريخ الفلسفة ، واعتماداً على الأبحاث الحديثة لسيكولوجية الدين ، أن قوة الدين فى عزلته عن الفلسفة ، وليست قوته رهنا على موافقة حقائقه بعض آراء الفلاسفة ؛ كما أرى أن اتصال الدين بالفلسفة بغية طلب العون منها لم يكن له من أثر — وليس له من أثر — سوى تعقيد العقيدة ، فضلا عن إضعاف قوة الايمان بها ، لوضعها موضع النقاش والجدل (٣) . ولا أريد أن أذهب بعيدا عن ثقافتنا الاسلامية ، ولا بعيدا أيضا عن الطور الذى اشتبكت فيه العقيدة الاسلامية بالفلسفة الإغريقية لتصوير هذا الأثر .

دخلت الفلسفة الاغريقية بشرح رجال مدرسة الاسكندرية ، منذ عصر المأمون فى آخر القرن الثانى الهجرى ، فى ثقافة المسلمين ؛ وتناولت مما تناولته بالبحث المبدأ الأول للكون ،

(١) مجلة الأزهر ص ١٤٦ ج ٢ من المجلد العاشر

(٢) من كلام فريد بك فى العدد السابق

(٣) يقول الإمام المراغى فى درسه الدينى الثالث الذى ألقاه مساء الخميس ٢٢ من شهر رمضان سنة ١٣٥٦ بمسجد أبى العلا بالقاهرة فى شأن الجمع بين الدين والفلسفة : « وجد الخلاف بين المسلمين فى العقائد والأحكام الفقهية ، ووجد عندهم مرض آخر وهو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع اليها ، وتأويله لبعض النظريات العلمية التى لم يقر قرارها ، وذلك خطر عظيم على الكتاب ، فإن للفلاسفة أوهاما لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى . والنظريات التى لم تستقر لا يصح أن يرد اليها كتاب الله . . . »

وصفات هذا المبدأ، ونشأة العالم المشاهد عنه، والانسان ومستقبله وغايته الأخيرة التى يرى فيها سعادته ؛ ووضعت أمام العقل الاسلامى نظرية الواجب والممكن ، ونظرية وساطة العقل الفعال بين الله والعالم ، ونظرية الصورة والهيولى ، ونظرية العقول المجردة ، ونظرية فيض النفس الكلية على النفوس الجزئية . . .

ولم يشأ العقل الاسلامى أن يعالجها فى عزلة عن الدين ، ولا أن ينقدها ـ إذا نقدها ـ من غير رعاية للدين ؛ بل حاول جهد طاقته ، فى بدء اشتغاله بها ، أن يشرح بعض حقائق العقيدة بما ورد فيها من آراء الفلاسفة ، ثقة منه بأن ذلك هو طريق تأييد العقيدة ، وفى بلوغ ذلك بلوغ الكمال . « فاذا انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال » (١) ؛ وثقة منه كذلك بأن الدين والفلسفة حقيقة واحدة ، وبأن كلا منهما يرمى الى غاية واحدة . « وهل الحكمة إلا مولدة الديانة ؟ وهل الديانة إلا متممة للحكمة ؟ وهل الفلسفة إلا صورة النفس ؟ وهل الديانة إلا سيرة النفس ؟ » (٢) ، « لا خلاف بين أحد من العلماء بالفلسفة ولا بين أحد من العلماء بالشريعة بأن غرض الشريعة هو غرض الفلسفة على الحقيقة » (٣) .

على هذا النحو يصور لنا العلماء الاسلاميون الصلة بين الدين والفلسفة ، بعد ترجمتها منذ القرن الثانى الهجرى . ولهم بعض العذر فى أنهم حددوا الصلة بينهما بهذا القدر ، لأن الفلسفة الاغريقية وردت إليهم فى ثوب دينى صوفى فى كثير من نقطها ـ نتيجة عمل رجال الاسكندرية ـ ولأن منطق أرسطو الذى ترجم أولا ، فى عصر المنصور ، أحدث فى نفوس المسلمين شبه يقين برجاحة العلم اليونانى وعصمة الحكمة اليونانية .

وتبعا لهذه الثقة أصبحنا نرى علماء العقيدة يستدلون على مغايرة الله للعالم بنظرية الواجب والممكن التى فرعها أرسطو على نظامه فى الصورة المحضة والهيولى المحضة ، والتى استتبعت مما استتبعت من صفات ، وحدة الوجود الواجب بمعنى عدم تعدد ذاته ، وعدم تركيب ذاته الواحدة من أجزاء . وقد غالى فريق من المسلمين فى إبراز وحدة الوجود الواجب فنفى صفات البارى ، كلها أو الكثير منها ، لأن إثباتها يقتضى ـ فى نظره ـ التركيب . وسلك فريق آخر من الراغبين فى إثبات الصفات ـ تمشيا مع ظاهر القرآن ـ وفى الوقت نفسه من الحريصين على نفى ما يوهم عدم الوحدة ، طريقا هو ، كما يقول : دى . بور ، أقرب الى التلاعب بالألفاظ منه الى الإتيان بنصيب جوهرى إيجابى فى حل هذا الاشكال ، وهو الجمع بين إثبات الصفات والوحدة ، فقال : لله صفة كذا ... وهى عين ذاته .

---

(١) مقابسات أبى حيان التوحيدى ص ٤٥ ، المطبعة الرحمانية سنة ١٩٢٩

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٠ (٣) الفصل فى الملل والنحل ص ٧٩

كل هذا بعد أن كان يفهم المسلم ، وبعد أن كان فى استطاعة كل مسلم كذلك أن يفهم ، أن المعبود واحد لا شريك له ، وأنه غير ما فى الكون من مخلوقات ، إذا تليت عليه آيات ربه الداعية الى التوحيد ، مثل قوله تعالى : « وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » ، وبعد أن كان يكفيه فى التدليل على صحة هذه الدعوى كى يقنع بها مثل قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

تبعا لهذه الثقة أصبحنا نسمع لأبى الهذيل العلاف من شيوخ المعتزلة رأيا فى أن كلمة التكوين (قول الله للشىء : كن) التى تعبر عن الارادة الإلهية ، حادثة لا فى محل ، وأن الارادة تغاير المريد والمراد . وعلى هذا ، فكلمة التكوين فى المكان الوسط بين الخالق الأزلى وبين العالم المخلوق الحادث . وهذه الكلمات المعبرة عن الارادة الالهية هى بمثابة جواهر بسيطة تشبه المثل الأفلاطونية وعقود الأفلاك .

يقرأ كثير من المسلمين لأبى الهذيل هذا الرأى ، ولكن الذى يفهم المراد منه قليل ، وهو الذى يفهم المثل ، ويفهم لأى غرض وضع إفلاطون نظرية المثل ؟ ولماذا كان القول بالوساطة بين المبدأ الأول (الله) والعالم ؟ بينما المسلم الى عهد الترجمة كانت نفسه مطمئنة الى الايمان بخلق الله على أية كيفية ، وكانت حرارة هذا الايمان تعمر قلبه حتى أنتج وساد ، وكان لا ميزة لأحد على غيره بخاصية فى تصور تأثير الله فى العالم ، ولا فى معرفة كيفية له مختصة به .

تبعا لهذه الثقة أصبحنا نرى الملائكة تحدد بأنها : « جواهر ، بسيطة ، علامة ، فعالة ، وبأنها صور مجردة عن الهيولى ، مستعملة للأجسام ، مدبرة لها ، ومنها أفعالها(١) » . كما رأينا هذا التحديد يتخذ أساسا من أسس الايمان : « والثانى من الأمور التى يضعها واضع الشريعة — فى نظر إخوان الصفاء — ثم يبنى عليها سائر ما يعمل ، أن يرى ويتصور موجودات عقلية مجردة من الهيولى ، كل واحد منها قائم بنفسه ، متوجه نحو ما نصب له من أمره ، وهم ملائكة الله تعالى وخالص عباده(٢) » .

فما معنى الجوهر ؟ وما معنى بساطته ؟ وما معنى كونه علامة ؟ وما معنى كونه فعالا ؟ وما معنى الصورة ؟ وما معنى تجريدها عن الهيولى ؟ وعلى أى كيفية يكون تدبيرها الأشياء ؟ . لا شك أنها معان لا تفهمها إلا قلة من الخواص فضلا عن أن تفهمها عامة المسلمين . ومع ذلك طولب المسلمون بالايمان بها فى نظر فريق من علماء المسلمين ؛ فى نظر إخوان الصفاء .

تبعا لهذه الثقة رأينا الشريعة الالهية تحدد بأنها : « جبلة روحانية ، تبدو من نفس

(١) إخوان الصفاء ج ١ ص ١٨٠ (٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٨٣

جزئية فى جسد بشرى ، بقوة عقلية تفيض عليها من النفس الكلية ، بإذن الله تعالى ، فى دور من الأدوار لتجذب النفوس الجزئية ، وتخلصها من أجساد بشرية متفرقة ليفصل بينها يوم القيامة (١) ».

لماذا وجدت النفس الكلية ؟ ولماذا كانت المصدر المباشر للفيض ، أو لماذا كانت القوة التى تتولى نقل الأثر من الله الى هذا العالم ؟ وما معنى جذب النفوس الجزئية الى النفس الكلية ؟ لا شك أنه لا سبيل الى فهم ذلك إلا لمن اطلع على فكرة النفس الكلية فى الأفلاطونية وفى الرواقية وفى الأفلاطونية الحديثة ، وإلا لمن اطلع على فكرة « جذب » الصورة المحضة للهيولى فى رأى أرسطو .

تبعا لهذه الثقة نرى فريقا من المسلمين يتعرض لبيان الروح أو النفس فيقول : « ومعرفة الانسان نفسه تكون بأنواع : منها أن يعلم أنه مركب من جوهرين متباينين : أحدهما الجسد الجسمانى . . . والآخر هذه النفس التى هى جوهرة ، بسيطة ، روحانية ، معقولة ، سماوية ، نورانية ، علامة ، دراكة ، فعالة (٢) . . . » .

تبعا لهذه الثقة نرى الجنة تفسر بأنها عالم الأفلاك والعقول المجردة ، ونرى النار تفسر بأنها عالم ما تحت فلك القمر ، وهو العالم الأرضى ، عالم الكون والفساد ؛ ورأينا هذه الآية الكريمة : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » تفسر بفكرة التناسخ ورجعة الأرواح الى الأجسام فى عالم ما تحت فلك القمر (وهو النار) ؛ ورأينا كذلك « الشهداء » الذين ذكرهم الله فى قوله تعالى : « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » تعلل تسميتهم بالشهداء لمشاهدتهم تلك الأمور الروحانية المفارقة للهيولى .

هذه بعض أمثلة لشرح حقائق العقيدة الاسلامية بالفلسفة الإغريقية ، أو لتفلسف الدين ونصرة الدين بالفلسفة .

هلا يرى معى الآن فريد بك أن من خدمة الدين عدم تعقيد العقيدة ؟ وأن تفلسف الدين تعقيد لحقائقه ؟

وهلا يرى معى الآن أنى لم أكن « واهما » حينما ذكرت أن العقيدة الاسلامية بعد شرح حقائقها بالفلسفة الإغريقية مالت الى التعقيد والغموض بعد أن كانت واضحة ، وأصبح فهم كتبها وقفا على الخاصة وسرا من أسرارها بعد أن كان المسلمون ـ تقريبا ـ فى مرتبة واحدة فى فهم ما يراد من كتاب الله وما ذكر فيه من عقائد ؟

---

(١) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٨٢ (٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٨٠

البقية فى صفحة ٢٤٢

السنة

مثل من إيذاء المنافقين والمشركين للرسول بعد الهجرة

عن الزهرى قال : أخبرنى عروة بن الزبير « أن أسامة بن زيد رضى الله عنهما أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار على قطيفة فَدَكِيّةٍ وأردف أسامةَ بن زيد وراءه يعود سعد بن عُبَادةَ فى بنى الحارث بن الخَزْرَج قبل وقعة بدر ، قال : حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أُبَىّ ابنُ سَلولَ ، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أُبَىّ ، فإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدةِ الأوثان واليهود والمسلمين ، وفى المجلس عبد الله بن رَوَاحة ، فلما غشيت المجلسَ عَجاجة الدابة خمّر عبد الله بن أبى أنفه بردائه ، ثم قال : لا تغبِّروا علينا ، فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ثم وقف ، فنزل فدعاهم الى الله ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبىِ ابنُ سَلول : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول ، إن كان حقا فلا تؤذنا به فى مجالسنا ، ارجع الى رحلك ، فمن جاءك فاقصص عليه ؛ فقال عبد الله بن رَواحة : بلى يارسول الله فاغشَنا به فى مجالسنا فإنا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزَل النبى صلى الله عليه وسلم يخفِّضهم حتى سكنوا ، ثم ركب النبى صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عُبادة ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ياسعد : ألم تسمع ما قال أبوحُبابٍ ؟ (يريد عبد الله بن أبى) قال كذا وكذا ! قال سعد بن عبادة : يارسول الله اعفُ عنه ، واصفح عنه ، فَوَ الذى أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذى أُنزَل عليك ولقد اصطلح أهلُ هذه البَحْرةِ على أن يتوّجوه فيُعصِّبوه بالعصابة ، فلما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك الله شَرِق بذلك ، فذلك فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابُه يَعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى . قال الله عز وجل : « ولَتسمعُنّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا — الآية » ، وقال الله : « ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم — الى آخر الآية » ؛ وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتأول العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله فيهم ؛ فلما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً فقتل الله به صناديد كفار قريش ، قال ابن أبىِ ابنُ سلول ومن معه من المشركين وعبدة

الأوثان : هذا أمر قد توجه ، فبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فأسلموا » . رواه البخارى فى كتاب التفسير .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه إجمالا . (٢) بيان بعض ما لقيه النبى وأصحابه من المشركين والمنافقين من الأذى فى سبيل الدعوة الى الله . (٣) بيان معنى الآيتين الكريمتين المذكورتين فى الحديث .

(١) يستفاد من هذا الحديث إجمالا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان لا ينفك عن الجهاد فى سبيل الله بالقول والفعل ، مهما لاقى من عنت وعناء ، ومهما صادفه من إساءة وإيذاء ؛ وأنه كان قدوة حسنة لأمته فى كل حركة وسكون ، فلا تصدر عنه إلا الفضائل الخلقية ، والمكارم التى تقرها العقول السليمة ، وترضاها الانسانية الكاملة ، وتؤمن بها الأنفس الراضية الطاهرة .

بيان ذلك : أنه صلى الله عليه وسلم ذهب ليعود مريضا من أصحابه ، وعيادة المرضى من الأهل والصحب سنة من سنن شريعته الطاهرة ، بشرط أن لا يترتب على زيارتهم أذى لهم أو لغيرهم من الأصحاء ، فلا يحل الاختلاط بالمريض إذا كان مصابا بمرض من الأمراض المعدية التى تنتقل الى الأصحاء ، أو كانت الزيارة تؤذى المريض ، فإذا ترتب على مخالطة المرضى ضرر لهم أو لغيرهم فان الشريعة الاسلامية تنهى عن مخالطتهم ، وتحث على السؤال عنهم بدون مخالطة . ومن هذا يتبين أن سعد بن عبادة كان مصابا بمرض خفيف لا تنتقل عدواه الى الناس ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد خالطه وتحادث معه .

وقوله : « ركب على حمار على قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد خلفه » : فيه إشارة الى تواضعه وعدم اهتمامه بزينة الحياة الدنيا ومظاهرها الكاذبة ، فلقد كان عظماء العرب يومئذ يفخرون بركوب الخيل المسومة ، ويبالغون فى إرهاق العبيد والخدم فلا يقربونهم منهم ؛ أما هو صلى الله عليه وسلم فقد ذهب لعيادة المريض راكبا على حمار ، وخلفه أسامة بن زيد الذى كانوا يعتقدون أنه من الأرقاء وإن كان الواقع غير ذلك ، فان زيدا لم يكن رقيقا بل كان قد اختطفه بعض العرب واسترقه ، الى آخر ما هو معروف فى ترجمة زيد رضى الله عنه .

ومعنى « قطيفة فدكية » : كساء غليظ منسوب الى فدك (بفتح الفاء والدال) وهى بلد مشهور بينها وبين المدينة مرحلتان .

وقوله فى « بنى الحارث بن الخزرج » معناه فى منازل بنى الحرث . وبنو الحارث هم قوم سعد بن عبادة .

وقوله : « قبل أن يسلم عبد الله بن أبى » : فيه إشارة الى أن الاسلام معناه الانقياد الظاهرى وإن كان غير مصدق بالقلب ، لأن عبد الله بن أبى لم يكن مؤمنا ، بل كان رأس المنافقين كما بيناه فى غير هذا المقال .

وقوله : « أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين » : فى هذه العبارة تـكرار لفظ المسلمين ، وفى بعض الروايات حذف المسلمين الثانية ، وهـو الظاهر . وبعضهم يقول : إنها زيدت تأكيدا للعناية بشأن المسلمين .

وقوله : « فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبى أنفه بردائه » : معناه أن مشى الدابة أثار الغبار على المجلس الذى به عبد الله بن أبى ، فغطى أنفه بردائه . فمعنى عجاجة الدابة : الغبار الذى أثاره مشيها . ومعنى خمر أنفه : غطى أنفه بردائه .

وقوله : « إنه لا أحسن مما تقول الخ » : يريد ابن أبى بذلك أن يقف فى سبيل الدعوة ، فيسلم بحسن ما يقوله الرسول ولـكنه لا يؤمن به لا هو ولا قـومه ، فعلى فرض أنه حسن وحق فانه يتأذى منه ، وعلى هـذا فلا يصح للرسول أن يؤذى الجالسين بالدعـوة الى الله . ولا ريب فى أن ذلك جحود وسفه ، لأن الذى يتأذى من الحق ويضيق صـدره من سماعه ليس بانسان كامل ؛ فعبارة ابن أبى سخيفة على هذا ؛ ولذا رواها بعضهم : لا أُحسِن مما تقول بضم أوله وكسر السين ، أى لا أفهم شيئا مما تقول . وعلى كل حال فان هذا ظاهر فى المـكابرة والعناد .

وقوله : « اصطلح أهل هذه البحرة على أن يعصبوه بالعصابة » : معناه اصطلح أهل هذه المدينة على أن يتوجوه رئيسا عليهم . فالبحرة تطلق على البـلد وعلى القرية . وبعضهم يقول : إنها اسم للمدينة . والعصابة : شارة خاصة بالرؤساء يمتازون بها .

وقوله : « هذا أمر قد توجه » : معناه ظهر وجهه فلا معنى لمعارضته والوقوف فى سبيله موقف العداء ، فأسلم هو ومن معه ظاهرا وقلوبهم ممتلئة حقدا ونفاقا .

(٢) من هـذا يتضح بعض ما كان يلقاه النبى صلى الله عليه وسلم من الأذى فى سبيل الدعوة الى الله ؛ فقد كان وهو بمكة يلاقى من إيذاء قومه واضطهادهم إياه هو ومن آمن معه ما لا يحتمله بشر سواه ؛ فلما هاجر الى المدينة ووجد من الأنصار عضدا وإخـلاصا سخط اليهود من انضمام الأنصار الى الرسول ، وناصبوه العداء هو ومن معه . ومما يوجب العجب فى هذا المقام أن اليهود كانوا يبشرون بظهور النبى العربى فى زمانهم ، وكانوا يخبرون بصفاته التى تنطبق عليه تمـام الانطباق ، وكانت المدينة بلدتهم ووطنهم ؛ أما الأوس والخزرج فقد كانوا من أهل سبأ الذين يعبدون الأوثان ، فلما أرسل الله عليهم سيل العرم هاجروا واتخذوا لهم موطنا بجوار المدينة ، ثم أخذوا يزاحمون اليهود حتى ضايقوهم ، وابتدءوا يظهرون عليهم ؛ فـكان اليهود دائمـا يقولون لهم : إن الله سينصرهم عليهم بظهور النبى العربى الذى سيرسله الله قريبا . ولـكن الله تعـالى أبى إلا أن يهـدى هؤلاء المشركين ويجعلهم أنصار ذلك الرسول الأمين ، فذهب بعض هؤلاء المشركين الى مـكة فى موسم الحج بتجارة لهم فسمعوا بظهور

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فمشوا إليه وآمنوا به ، وأخذوا معهم رسلا من المسلمين الى المدينة ، وأخبروا قومهم بالاسلام ، فهدى الله الأوس والخزرج الى الاسلام ؛ ثم بعد ذلك هاجر النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة فانقلب اليهود على الرسول وأصحابه وناصبوهم العداء ، وجحدوا الحق الذى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ووقفوا فى سبيل الدعوة الى الله كما كان المشركون يفعلون فى مكة ، إلا أن شرهم كان أهون من شر مشركى مكة ، لأن الاسلام فى المدينة كان له أنصار مخلصون أشداء ، فلم يستطع اليهود أن يقاوموا الدعوة الى الله ؛ وفى كلتا الحالتين كان صلى الله عليه وسلم يحتمل من الأذى ما لا يستطيع احتماله بشر سواه . فانظر الى سعة صدره وقوة احتماله للإساءة عندما قال له ابن سلول : « اذهب الى رحلك ولا تؤذنا بدعوتك » فإنه صلى الله عليه وسلم أبى أن يثور أنصاره على أعدائه ، وأخذ يسكن غضبهم حتى هدأت ثائرتهم ؛ ولما قص الأمر على سعد بن عبادة قال له « ألم تسمع ما قال أبو حباب ؟ » يريد بذلك ابن أبى ، فذكره لسعد بكنيته تعظيما له ، ولم يستفزه الغضب فيخرجه عن حلمه وحسن خلقه الذى لا يجاريه فيه أحد من خلق الله تعالى .

ولعل ذلك أهون ما لقيه صلى الله عليه وسلم من أعداء الحق ؛ فقد لقى وهو بمكة من الإيذاء والعدوان والتآمر على قتله وقتل من يؤمن به ما لا يستطيع أن يحتمله بشر سواه ؛ وكان فى كل أحواله يقابل السيئة بالحسنة ، مشفقا على أعدائه ، حريصا على إخراجهم من ظلمات الشرك الى نور التوحيد الخالص ، بل كان يحزن حزنا شديدا قاتلا لعدم إيمان المشركين والمنافقين ؛ قال تعالى مخاطبا إياه : « لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين . إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » . ومعنى هذا أن الله سبحانه يقول لنبيه : إنك مكلف بتبليغ ما يوحى إليك وتنفيذ ما تؤمر به من قبل الله عز وجل ، وبذلك تكون قد بلغت رسالة ربك ، وأديت الأمانة التى حملتها ، ولم تكلف بما وراء ذلك من الحزن والأسى حتى تكاد تقتل نفسك . فمعنى باخع نفسك : قاتل نفسك لعدم إيمانهم . ثم أراد الله تعالى أن يهون على رسوله الأمر فبين له أنه سبحانه قادر على هدايتهم بأن ينزل عليهم آية يخضع لها عظماؤهم الذين يسوقونهم الى حيث يشتهون ، ولكنه سبحانه أنزل عليهم من الآيات البينات ما لا يجعل لهم معذرة فى تماديهم على الشرك والضلال ؛ وهذه هى سنة الله فى خلقه ، فإنه سبحانه قد أرسلك لهم وأيدك بالكتاب المبين الذى فيه كفاية لقوم يتدبرون ، ومع ذلك فقد انصرفوا عنه عنادا واستكبارا ، واستكانوا لأعناقهم (رؤسائهم) وأطاعوهم فى كل ما أمروهم به من محاربة الله ورسوله ، فاستحقوا غضب الله وعقابه بما اقترفوه باختيارهم من الشرك والضلال بعد ما تبين لهم الحق ، ووضحت أمامهم سبله ، فكانوا لأنفسهم من الظالمين ؛ وإذا كانت هذه حالهم التى لا ينفكون عنها فلماذا تحزن عليهم وعلى عدم إيمانهم ذلك الحزن المضنى الذى يكاد يذهب بحياتك ؟

على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مع هذا كله لا ينفك عن الجهاد السلمي واحتمال الأذى الشديد والصبر عليه ، لعل هؤلاء القوم يتدبرون ما جاءهم به من آيات بينات فيسعدون في الدنيا والآخرة ؛ وقد حقق الله رجاءه فآمن به الكثير من قومه ، وظهر نور الحق على يديه ، فأصبحوا أمة عزيزة الجانب ، قوية الارادة ، لا تبالي بالموت ، ولا تهاب المصائب ، ولا تخشى الإحن ، فجاهدوا في الله حق جهاده ، ومحوا ظلمات الشرك ومظالم الطغاة من القياصرة والرؤساء ، وكان رائدهم من بعده صلى الله عليه وسلم كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وما تعلموه من أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله . فجزاه الله عن أمته ودينه خير الجزاء .

(٣) أما معنى قوله تعالى : « لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » فهو أن الله سبحانه وتعالى يقول للمؤمنين : إن هذا الذي تسمعونه من المنافقين والمشركين واليهود هو أمر ضروري لا بد من وقوعه لكل من يجاهد في سبيل الله ويقوم بالدعوة الى الله ، والله سبحانه وتعالى يملي للكافرين به وبرسله وأنصار رسله ثم يأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر ، فما عليكم إلا أن تصبروا وتحتملوا الأذى والابتلاء حتى يأتيكم الله تعالى بالنصر والفتح المبين .

وأما قوله تعالى : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ، إن الله على كل شيء قدير » فالغرض منه حمل المؤمنين على الصبر والأناة ، واحتمال ما يلقونه من إيذاء أهل الكتاب الذين يعرفون الحق بقلوبهم ولكن الحقد والحسد قد طغى عليهم فاستولى على أنفسهم ، وحملهم على إنكار ذلك الحق والعمل على إزالته بكل ما أوتوا من قوة ، بل دفعهم العناد والجحود الى مجاراة أعدائهم الطبيعيين من المشركين ليستعينوا بهم على محاربة الحق الذي يعرفون أنه الحق ؛ وذلك من شر ما منيت به الفضيلة ، فان الذي يحارب الحق وهو يعلم أنه الحق انتقاما من خصمه وانتصارا لشهواته لهو من أتعس الناس وأشقاهم .

وقوله تعالى : « فاعفوا واصفحوا الخ » هو محل الشاهد الذي سيقت من أجله هذه الآية ، فانه سبحانه قد أمر المسلمين باحتمال الأذى والصفح عن المؤذين الى أن يأمرهم الله تعالى بقتالهم . والله عزيز ذو انتقام ؟

عبد الرحمن الجزيري

حياة رجالات الإسلام

أبو بكر الصديق

— ٤ —

المعهود فى طبائع الوجود ، جريا مع سنن الله تعالى ، أن للانسان فى حياته أطوارا يتنقل فى مراحلها حتى ينتهى الى ما قُدِّر له من مكان يقف عنده متخلفا عن قافلة الحياة ، لا يتخطاه ولو امتطى الفلك ، أو ساير الليل والنهار ؛ ولكل طور أمد لا بد من قضائه فى مرحلته المقدرة له ، لأن الطفرة لم يجعلها الله تعالى من نواميس الوجود العامة ؛ وألوانُ الحياة مهما اختلفت ، راجعةٌ الى ذلك المعنى العام الشامل فى طرائق النمو عند الأحياء ، وخاضعة لأطوار التكوين فى أصناف الموجودات .

بيد أن هذا القانون الطبعى على شموله لا ينطبق على حياة العبقريين من أفذاذ الرجال ، وقادة الاصلاح ، ومُثُل الانسانية الفاضلة ؛ فان هؤلاء العظماء امتازوا فى خصائصهم الذاتية بالشذوذ عن قوانين العامة ، وإن كان لا بد لحياتهم أن تندرج تحت قانون يضبط سيرها ؛ فقانونهم هو ذلك الشذوذ عن المعهود فى مجرى حياة عامة الناس ، لأن الله تعالى لم يجعلهم بما ركب فيهم من خلائق خاصة خاضعين لتلك القوانين ، بل جعلهم فوقها ، وجعل أطوار حياتهم مولودة معهم ، يسيرون اليها مدفوعين بدوافع خفية تسوقهم الى عظائم الأمور ، ولا يستطيعون ردها حتى تنتهى بهم الى طور العظمة دون حاجة الى تلبث زمنى فى تخطى مراحل الأطوار التكوينية ، لأن النمو الروحى عندهم قائم على قانون الطفرة — إذا صح أن للطفرة قانونا — والطفرة أخص خصائص العبقريين فى العالم ، منذ أتيح للعبقرية الانسانية توجيه الحياة وجهة الخير والإصلاح .

ولسنا فى حاجة الى تلمس الشواهد من أسفار التاريخ ؛ وحسب الباحث أن يعمد الى أى عبقرى من عباقرة الانسانية فينشر بين يديه كتاب حياته ليقرأ تاريخ نشأته ، فسيجده فى بداءة أمره إنسانا كأفراد الأناسى ، لا يمتاز بشىء يرفعه فوق تاريخ أقرانه ، فاذا تابع الباحث النظر انقطعت به سلسلة التدرج ، ووثب به التاريخ على غير انتظار أو تهيؤ الى طور جديد ، جديد فى كل شىء ، لا يكاد يرتبط فيه حاضره بشىء من الماضى القريب أو البعيد ، فهو فى الماضى إنسان يولد كما يولد الناس ، وينشأ نشأتهم ، ويحيا حياتهم ، ويعيش عيشتهم فى بيئة تسيطر على

عقله وروحه ، وتتحكم فى أخلاقه وعاداته ، ولـكنه فى حاضره إنسان جديد ، وأول مظاهر هذه الـجِدّة أنه ارتفع بروحه وعقله فوق بيئته ، وتحكم فيها بأخلاقه وأفـكاره ، وقادها الى طرائق فى الحياة لم تسلـكها من قبل ، فاذا هى مباءة هـداية وإصلاح ؛ ولو حاول الباحث أن يعلل لهذه الظاهرة فى حياة العباقرة لأعياه أن يجد من الأسباب الطبعية ما يصلح علة لها ، لأنها فى الواقع فوق ما يعهد الناس من علل وأسباب .

هذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، أعظم من انفرجت عنهم دعوة الأنبياء والمرسلين من السابقين واللاحقين . انشر بين يديك صحيفة حياته ، فاذا هو فى بدء أمره طفل تعجب به أمه كما تعجب كل والدة بوليدها ، ثم هو غلام يافع بين غلمان قريش ، فشاب ناهد فى شباب مكة ، فرجل فى عداد رجالها ، يحمل عبء نفسه وحياته وأسرته ، لا تـكاد تحس به الحياة فى مدى قرابة أربعين عاما إلا كما تحس بأى إنسان فى بوادى العرب من أولئك الذين يضطربون فى فجاجها بتجارتهم ، ولـكن ... ما هى إلا دورة الفلك حتى أشرقت شمس الهداية فى بطحاء مكة ، فاذا أبو بكر يثب الى طور العبقرية وثبا ، يفصله عن ماضيه ، ويرتفع به الى سماء العظمة الاسلامية ، فيصبح سيد المؤمنين ، ووزير أعظم المرسلين ، ثم أول الخلفاء الراشدين ، يتحدث فيصغى اليه الزمن بسمعه ، وينادى فتلبى الدنيا طيّعة ، وتتكشف نفسه عن خصائص لم تبد منه أيام فتوة شبابه ، يؤمن بدعوة الاسلام فيرجح إيمانه بإيمان أهل الأرض ؛ روى البيهقى فى المحاسن عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم » ، ويتغلغل فى نفسه هذا الإيمان فيملك عليه روحه وعقله ، فلا يحيا إلا به ، ولا يفكر إلا فيه ، فـكان إيمانه عند نفسه أعظم من نفسه وماله وولده .

وقد تحدثنا فيما سبق عن روائع الإيمان فى نفس الصديق رضى الله عنه ، فـكانت تلك الخصيصة الممثلة فى التضحية بالنفس إحـدى سموات أبى بكر التى طار إليها فذًّا على أجنحة العبقرية الوادعة ، فأشرقت منها شمس حياته الاسلامية المباركة ؛ وإذا كنا قد أعطينا قارئينا صورة مصغرة عن بعض مواقف الصديق فى بذله نفسه دون حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودون الدعوة الاسلامية فى شتى مظاهرها ، فـكان المثلَ الأعلى فى الدفاع عن العقيدة وحرية الفـكر ، ومناهضة الجمود الفكرى والتقليد البليد ، حتى انطلقت الأفـكار من عقالها تسرح فى ظـلال الاسلام وتعاليمه ، شاهـدة على الحيوية الناضجة التى أشاعها فى روح الانسانية ، فـكانت انقلابا ثوريا جدّد ديباجتها ، وهذب أفـكارها ، وفتح أمامها طرائق التقدم الى غايتها السامية ، فمن حق البحث علينا أن نقرن بين الخصائص التى تفـرد بها الصديق فـكانت منها عناصر عظمته الخالدة ؛ وإذ كانت تلك الصورة فى بذل النفس فلنتحدث هنا فى بذل المال — وهو شقيق الروح — لنرى أن صنيع الصديق فى هذه السبيل كصنيعه فى تلك ، لم يسامه فيهما

أحد من الناس ؛ روى أبو داود عن عروة بن الزبير أنه قال : « أسلم أبو بكر وله أربعون ألفا أنفقها كلها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبيل الله » . وقال عروة أيضا : « وأخبرتنى عائشة أنه مات وما ترك ديناراً ولا درهما » .

كان أبو بكر رضى الله عنه ينظر الى المسلمين فى بدء الدعوة فيرى استضعافهم وحاجتهم الى المعونة ؛ وكان رجلا معروفا بالتجارة فيمد يده إليهم يعولهم وينقذ المستعبدين منهم ، فقد أعتق من ماله سبعة كلهم يعذب فى الله تعالى ؛ أعتق بلالا وعامر بن فهيرة ، وأعتق خمسا من النساء ، وقد قدم المدينة فى هجرته ولم يبق له من ماله الكثير سوى خمسة آلاف كان يفعل فيها ما فعل بمكة من قيامه بحاجات المسلمين ؛ وكان النبى صلى الله عليه وسلم يرى أن مال أبى بكر ماله ، ولم يعط هذه المنزلة لأحد من أصحابه سوى أبى بكر ؛ روى أنه صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وأراد بناء المسجد الشريف قال : « يا بنى النجار ثامنونى بحائطكم » قالوا : لا نطلب ثمنه إلا لله تعالى ، فأبى ذلك صلى الله عليه وسلم ، وابتاعها بعشرة دنانير أداها من مال أبى بكر رضى الله عنه ، وكان خرج من مكة بماله كله .

ومن بارع الأخبار فى ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصدقة ووافق ذلك مالاً عندى ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته ، لجئته بنصف مالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : النصف ؛ وجاء أبو بكر بكل ماله ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك ؟ قال : اللهَ حقا ورسولَه ؛ فقلت : والله لا أسبقك الى شىء أبدا » . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعلن منة أبى بكر عليه بماله ونفسه فى مواقف كثيرة إظهارا لفضيلة الصديق ؛ روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « خرج علينا رسول الله فى مرضه الذى مات فيه وهو عاصب رأسه حتى صعد المنبر ، فقال : « إنى لقائم الساعة على الحوض وإن عبداً عرضت عليه الدنيا وزينتها ، فاختار الآخرة » ؛ فلم يفطن لها أحد إلا أبو بكر رضى الله عنه ، فقال : بأبى أنت وأمى ، بل نفديك بآبائنا وأبنائنا وأنفسنا وأموالنا ، وبكى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تبك يا أبا بكر ، إن مِن أمنّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلا من الناس لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الاسلام ، لا يبقى فى المسجد باب إلا سُدّ إلا باب أبى بكر » . فبكى أبو بكر ، وقال : أنا ومالى لك يا رسول الله » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « بينا النبى صلى الله عليه وسلم جالس وعنده أبو بكر رضى الله عنه وعليه عباءة قد خلّها فى صدره بخلال إذ نزل جبريل عليه السلام ، فقال : يا رسول الله ، مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلها فى صدره ؟ قال : أنفق ما له علىّ قبل الفتح ، قال : فاقرئه من الله عز وجل السلام ، وقل له : يقول لك ربك تبارك وتعالى : أراض

أنت عنى فى فقرك أم ساخط ؟ فقال أبو بكر : أعلى ربى أغضب ؟ أنا عن ربى راض » . وروى ابن عبد البر فى الاستيعاب قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما نفعنى مالٌ ما نفعنى مال أبى بكر » . وعن أبى أمامة الباهلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله أبا بكر : زوّجنى ابنته ، وحملنى الى دار الهجرة ، وأعتق بلالا من ماله » .

وروى البخارى فى صحيحه عن أبى الدرداء قال : « كنت جالسا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ أقبل أبو بكر آخذا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أما صاحبكم فقد غامر (ألقى بنفسه فى شدة) فسلم ، وقال : يارسول الله إنه كان بينى وبين ابن الخطاب شىء فأسرعت اليه ، ثم ندمت فسألته أن يغفرلى فأبى على ، فأقبلت إليك ، فقال : يغفر الله لك يا أبا بكر ، ثلاثا ، ثم إن عمر قدم ، فأتى منزل أبى بكر ، فسأل : أثم أبو بكر ؟ فقالوا : لا ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فسلم فجعل وجه النبى صلى الله عليه وسلم يتمعّر (يتغير غضبا) حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه ، فقال : يارسول الله ، والله أنا كنت أظلم ، مرتين ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله بعثنى اليكم فقلتم : كذبت ، وقال أبو بكر : صدق ، وواسانى بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركولى صاحبى » ؟ مرتين ، فما أوذى بعدها » .

وهذا الحديث من أعظم الأصول فى منقبة أبى بكر وفضيلته ، وفيه من فنون العلم ضروب ، فأنت ترى فيه كيف صور ما بين الشيخين ، وكيف رجع كل منهما ليترضى صاحبه ، وكيف أن نفس أبى بكر لم تحتمل غضب أخيه عمر حتى أذهله ذلك بعض الشىء فرفع ثوبه حتى كشف عن ركبتيه ، وكيف أن عمر أدرك أنه اشتد إذ لم يغفر لأبى بكر هفوته فطاف يسأل عنه ليتراضيا ، وكيف أن أبا بكر سارع الى الملجأ الأعلى ليستغفر له وليصلح بينهما ، وكيف أظهر النبى صلى الله عليه وسلم منزلة أبى بكر فى نفسه ومكانه فى الاسلام بما ظهر عليه من دلائل التغير فى وجهه الشريف ، وكيف خشى أبو بكر من عواقب غضب النبى صلى الله عليه وسلم فترضاه ، ثم هذه الكلمات الخالدات التى ألقاها النبى صلى الله عليه وسلم فى جموع أصحابه فى تعريفهم مكانة الصديق ، ثم هذه الاضافة التشريفية فى قوله « فهل أنتم تاركولى صاحبى » الدالة على سر عظمة الصديق ، وفاقا لقول الله تعالى : « ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » ؟

صادق ابراهيم عرجون

دراسات في القرآن الكريم

القرآن والمفسرون

نظرة تكميلية فى توجيهاتهم

قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » :

تقرأ هذه الآية فتراها بمقتضى قانون اللغة وأساليبها تُفهم أن حظر الربا والنهى عن تعاطيه إنما يكون فيما إذا كان أضعافا مضاعفة ؛ ويقابل هذا أنه إن قل عن ذلك فلا حظر ولا تحريم. وإنما كان هذا هو مفاد الآية لأن القيود فى الجمل هى دائما محط قصد المتكلمين ، وهى دائما مناط الإفادة ، فإذا كان المتكلم نافيا فإليها يقصد بالنفى ، وإن كان ناهيا أو آمرا فإليها يقصد بالأمر والنهى ، وإن كان مثبتا أو مستفهما أو راجيا فالأمر فى جميعها كذلك . وإذا رجعنا الى الآية وجدنا أن « أضعافا مضاعفة » قد وقعت فى أسلوب الآية حالا ، والحال قيد فى عاملها كما أنها قيد فى صاحبها تبعا لذلك ؛ وعلى هذا فمناط النهى فى الآية إنما هو هذا القيد ، وبذلك يكون الحظر منتفيا إذا لم يبلغ الربا أن يكون أضعافا مضاعفة ؛ فلو دان امرؤ أخاه بدينار مثلا على أن يأخذه دينارا وزيادة فلا يحرم عليه أخذ تلك الزيادة حتى يأخذ مع ديناره ستة دنانير ، إذ ضعف الدينار دينار ، والضعف قد ذكر فى الآية مجموعا ، وأقل الجمع ثلاثة ؛ ثم إن الآية لم تقف عند حد الجمع ، بل زادت كونه مضاعفا ، وبذلك يبلغ الزائد على الأصل وهو رأس المال ستة دنانير ؛ أما إذا كانت الزيادة دون ذلك فمقتضى الآية أنه غير منهى عنه ولا محظور .

هذا هو ما تفيده الآية بمقتضى قانون اللغة ؛ ولما كان القرآن قد نص فى موضع آخر على تحريم الربا دون تقييد بقليل ولا كثير ، بل أطلقه إطلاقا مما يقتضى تحريمه قليلا كان أو كثيرا ، قال عز من قائل فى سورة البقرة : « وأحل الله البيع وحرم الربا » ، لما كان القرآن كما ترى صريحا فى تحريم الربا مطلقا ، كان لا محالة مقتضى الآية التى نحن بصددها الآن مشكلا غير مفهوم .

أما المفسرون فإنهم فى هذه المرة لم يهاجموا القرآن بالنسخ والتهديم ، بل سلكوا للخلوص من هذا الإشكال سبيلا آخر : قالوا لدفع هذا الاشكال : إن الآية إنما نزلت للنهى عن الصورة

التى كانوا يتعاملون بها حين نزول تلك الآية ؛ وصوّروا كيف كان يبلغ الربا الى الأضعاف المضاعفة بأن المدين كان إذا عجز عن أداء الدين عند حلول الأجل ، ذهب الى الدائن وسأله أن يزيده فى الأجل فى مقابل أن يزيده فى المال ، وهكذا يتكرر أن يزيد الدائن فى الأجل وأن يزيد المدين فى المال حتى يكون الربا أضعافا مضاعفة .

هذا ما قالوه لدفع الإشكال فى الآية ؛ ولكنهم لم يدروا أنه قد فاتهم أن ذلك لم يغير من الأمر شيئا ، إذ الآية بما قالوه لم يتغير مفادها ، بل لا تزال تدل على أن الربا لا يحرم إلا إذا بلغ الأضعاف المضاعفة ، وهى بهذا باقية على مناقضتها لآية البقرة ، ولما عليه فقهاء الأمة ؛ فهل هم يريدون أن يقولوا : إن الآية إنما نزلت لفريق من الناس خاص وفى وقت خاص وقد انتهى هذا الفريق من الناس وانتهى بانتهائهم ذلك الوقت ؟ إنهم إن أرادوا ذلك فهم بهذا يكونون قد قرروا النسخ فى الآية ما دام قد انتهى هذا الفريق وهذا الوقت . وليس من المفهوم المقبول أن يقال : إن هذه الصورة من صور الربا لما كانت من أفظع الصور فقد خصت بالنهى للاهتمام بشأنها ؛ نعم ليس من المفهوم ذلك ، لأن الآية لو وجهت النهى الى قليله وأكدت حرمة ذلك القليل بمقدار ما لهذه المعاملة من ضرر بالمجتمع ، لو فعلت ذلك لكان الى كثير الربا أشد توجها وأشد تأكيدا ، ولكان الى الأكثر مضاعف التأكيد . وليس من الخفى على من مارس اللغة أن من أساليب التنفير عن الشىء أن يفظّع القليل منه ليفيد أن كثيره أشد فظاعة ما دام الضرر من لوازم ماهية ذلك الشىء وحقيقته ، كما يوضح لك هذا قوله تعالى : « ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما » إذ نهى عن أقل أنواع الإيذاء ليكون الأكثر من هذا أشد فى النهى عنه وأوفر فى الحظر والتحريم . ثم يبقى حتى لو صح هذا القصد أن يكون أسلوب الآية مفهما ما لا يصح كما بيناه آنفا .

هذا أولاً . وأما ثانيا : فان الآية إنما تخاطب المؤمنين ، وليس بمعقول أن المؤمنين وهم فى عهد الوحى ورسول الله لا يزال بين ظهرانيهم أن يقدموا على أفظع صور الربا بعد ما نزل القرآن بتحريمه على الاطلاق دون تفرقة بين القليل منه والكثير ؛ فلو أننا إذ أجزنا على المؤمنين فى ذلك العهد أن يخالفوا أمر ربهم كنا قد أجزنا عليهم أن يخالفوا الى أقل صوره لا الى أشدها وأفظعها لكان أقرب الى التصور والانفهام ؛ أما أن يخالفوا الى أبلغ صور الربا وأكبرها فذلك ما لا نعرفه لهم ، ولا يمكن أن نفهمه منهم ، بل ذلك فى جانبهم مما يتاخم المستحيل . نعم ذلك ما لا نفهمه فى جانب المؤمنين فى ذلك العهد ، لأن ما نعرفه لهم من الحرص على الاستجابة لله تعالى ، ومن إيمان ويقين امتلأت به نفوسهم ، ومن قوة مراقبة لربهم ، ومن تحقير للدنيا وزهد فيها ، إن ما نعرفه للمؤمنين من ذلك كله مما لا يمكن معه أن يقدموا على أقل صور ما حرم الله عليهم ، فضلا عن أن يقدموا على أكبرها وأفظعها . وعلى هذا فكيف يفهم ما يقوله المفسرون من أن الآية إنما نزلت للنهى عن الحالة التى كانوا يتعاملون بها وقت نزول تلك

الآية ؟ فانه لمن المقطوع به أنه لم يكن بين المؤمنين فى ذلك العهد تعامل بالربا على هـذا الوجه الذى يتنافى مع ما كان للقرآن فى ذلك العهد من بناء المكارم وفاضل الأخلاق فى نفوسهم .

الى هنا قـد اتضح لك فساد ما سلـكه المفسرون فى تأويل تلك الآية . وعليه فلا بد لنا أن نسلك فى تأويلها سبيلا غير هـذا السبيل . وإنى فى ذلك أستلهم الله ما يمنحه المخلصين من توفيق الى الصواب :

وإليك أيها القارئ الـكريم ما أردنا أن نسلـكه فى تأويل تلك الآية :

إنه لما كان الربا من المعاملات المتفشية المنتشرة بين الشعوب والأمم ، حتى لا يكاد يخلو منها زمان أو يخلص منها مكان ، حتى كأنها طبيعة للمجتمع لا يستغنى عنها كلازم من لوازم العمران وضرورة من ضرورات الحياة ؛ وإنا نرى أنه ليس من سر فى ذلك إلا أن كل مجتمع من البشر لا بد أن يكون فيـه المثرون والمعوزون ، وقد جبلت النفوس البشرية أن تحرص على المال وأن تحبه حبا جما ، وأن تحاول دائما الاستزادة منه ، كما أن النفوس كذلك قد طبعت على الأثرة وحب الذات ، ولا بد للمعوزين أن يدفعهم إعوازهم الى مد أيديهم الى المثرين ، والمثرون قد حال بينهم وبين أن يمدوا أيديهم للمعوزين بالمال الى الميسرة والقدرة على الأداء ما جبلوا عليه من الحرص والأثرة مما هو فى الحقيقة آفة الخير وجائحة المروءات ، وإذن فلا بد للمثرين من أنهم لا يخرجـون أموالهم من أيديهم إلا أن تكون مستمرة الزيادة مطردة النماء ، ولا بد للمعوزين أن يقبلوا ذلك استجابة لنداء الضرورات الملحة القاسية .

ولما كان الأمر كذلك كان تـكليف الناس بتركه تـكليفا شاقا ، لما رأيت من أن تركه كالمناقض لما هو طبيعة أو كالطبيعة فيهم ، حتى ليكاد بعض الناس أن ينزل هذه المعاملة من حياة المجتمع منزلة الضرورات التى لا يمكن أن يستغنى عنها .

لهذا كان لا بد لرد الناس ودفعهم عنها ، كان لا بد لأخذهم بهذا التـكليف فى رغبة وقوة ، أن يبين الله لعباده ما فى تلك المعاملة من الأضرار الاجتماعية بما تفضى إليه من تدمير وتخريب لا بد أن يؤدى بين الدائنين والمـدينين الى إثارة حفائظ وأحقاد تكون هى الهائجة للقلق بين الناس ، والمثيرة للاضطراب فيهم .

وعلى هذا فمعنى الآية إذن : « يأيها الذين آمنوا » أى أيقنوا بالله ربا عليما حكيما ، وبمحمد رسولا من عند الله ، وبالاسلام الذى جاء به دينا هو وحده إن يأخذ به الناس سر سعادتهم ، وناشر السلام والطمأنينة بينهم ، « لا تأكلوا الربا » : لا تتعاملوا به والحال أن مآله ومصيره أن يكون أضعافا مضاعفة ، يعنى وما يكون له هذا المآل وذلك المصير يكون إقدامكم عليه إقداما على آفة اجتماعية شرها بعيد وفسادها مديد ، وما تكون هذه عاقبته وتلك نتيجته لما يتحتم عليكم أيها المؤمنون أن تتحاموه . أما أن هذا هو مآل الربا ومصيره ، سواء قل مقداره

فى مبدأ الاستدانة أو كثر ، فذلك ما ليس فيه شك ولا مراء ، حتى ولو كان المقدر للمائة من الجنيهات جنيها واحدا فإنه بتكرير الآجال وتكرير الزيادة فى مقابل ذلك لا بد أن يصل يوما ما الى كونه أضعافا مضاعفة ، فإنه ليس للمدين مهما كان شأنه من يضمن له وفاء الأيام وسلام الليالى ومواتاة الأقدار بما يتمكن معه من الأداء عند حلول أول أجل ، فما أقرب أن تتنكر الأيام وتتجهم الليالى ويقلب الدهر ظهر المجن ، وتعاكس رياح الحوادث اتجاه سفينة الحياة فتفضى بالمدين الى حال لا يستطيع معها سد ضروراته ، فضلا عن أداء ديونه ! ومن هـذا يتضح لك ما قلنا من أن الربا وإن قل الى أبعد مدى فى مبدأ الاستدانة ، فإن له ذلك المآل وهـذا المصير ، وبهذا تدرك فى وضوح أن الربا حـرام مطلقا سواء كان قليلا أو كثيرا ما دام هـذا المآل وأن يكون يوما ما أضعافا مضاعفة غير مأمون الوقوع فى جانبه بما ليس منه مانع ولا له دافع ، من محاربة الأيام ومعاكسة الأقـدار . فليس مناط النهى فى الآية إذن كون الربا أضعافا مضاعفة بالفعل ، وإنما مناط النهى والتحريم هو كونه أضعافا مضاعفة بالقوة والاستعداد . وإنه لـكاف جدا فى النهى عنه والتشديد فى تحريمه أن يكون هذا المصير محتمل الوقوع ، فإن تحقق هذا المصير لنصف ما يقع للناس من نوع تلك المعاملة ليكفى لإشعال نيران الأحقاد والخصام ، واضطراب حبل الطمأنينة والسلام . وعلى العموم فإن الآية تعلل تحريم الربا بأن له تلك العاقبة الوخيمة وذلك المآل السيء الذى كثيرا ما أخرج أناسا من أموالهم ، واقتلعهم مما يملـكون من عقار وغيره ، فأمسوا فى العراء بعد مشيد البناء ، وفى ذل الحاجة بعد عزة الاستغناء ، وما كان ذلك لأن الربا كان لأول ما استدانوا أضعافا مضاعفة ، وإنما كان لتأخرهم عن الأداء وتكرر الزيادة بتكرر الآجال حتى يبلغ الأضعاف المضاعفة ، إما لغواية تستولى عليهم ، وهوى يملك نفوسهم فيجعلهم ينفقون غلات أعيانهم وعقاراتهم فى مسارح اللهو ومعارض الفساد ، وإما لعدم مواتاة الظروف ، ومساعفة الأقدار . ولا ريب فى أن تلك العاقبة كما قلنا مثار حفائظ وخصومات من لوازمها زعـزعة الأمن واضطراب النظام ؛ فلا جرم أن كان الربا لهذا محظورا أيما حظر ، ومحرما أيما تحريم .

وهنا قـد يقف بالقارىء عن متابعة القراءة أن توجيه « أضعافا مضاعفة » فى الآية على الوجه الذى سلـكناه فى تأويلها لا يتفق وكونه فى أسلوب الآية حالا ، لأن المعروف أن الحال من شأنها أن تقارن عاملها وصاحبها فى التحقق والوجود مع أن الربا بنـاء على هـذا التأويل لا يتصف بكونه أضعافا مضاعفة فى مبدأ الاستدانة ، وإنما يصير كذلك بعـد مرور الزمان وتكرير الزيادة بتكرير الآجال ، فلا تكون الحال حينئذ جارية على ما هو الشأن فيها من مقارنتها لعاملها وصاحبها فى التحقق والوجود .

وإنا لدفع هذا الخاطر عن نفس القارىء نقول : إننا حتى لو قطعنا النظر عن تقسيم النحاة

للحال وجعلهم من أقسامها الحال المنتظرة ، أى التى لا تكون مقارنة فى الوجود بل تكون مستقبلة الوقوع ، لوقطعنا النظر عن هذا لأننا لسنا بحاجة اليه ، لو جدنا الحال فى الآية جاريا على ما هو الغالب من المقارنة . فإنا لم نرد من كون الربا أضعافا مضاعفة كونه كذلك بالفعل ، بل كونه كذلك قوة واستعدادا ، ولا شك أن تلك حالة مقارنة للربا من مبدأ الاستدانة .

هذا هو التأويل الذى يجب أن تؤول به الآية حتى يبقى القرآن على ما هو مراد منه من أنه هدى للناس كافة ، وإرشاد للبشر جميعهم ، وحتى يبقى القرآن على ما أريد به من أنه أصول عامة ، وقوانين شاملة ، لا يختص به فريق من الناس دون فريق ، ولا يقصر على وقت دون وقت ، كالذى يقتضيه ما سلكه المفسرون فى تأويلهم للآية . وقد قلنا : إن هذا الذى سلكوه هو على الحقيقة نسخ للآية وإبطال لمقتضاها . هذا من ناحية . ومن ناحية ثانية : ترى أن مفاد القيد فى الآية أى قوله تعالى « أضعافا مضاعفة » على تأويلنا الذى سلكناه ، تراه بيانا لحكمة التحريم وسر الحظر ، حتى إذا علم الناس ذلك تحاموه لماله من تلك العاقبة الخطرة والمآل السيئ والضرر البالغ الذى يحيق بالمجتمع دائنين منهم ومدينين ؛ وترى القيد على ما سلكه المفسرون مجرد بيان للحال التى يحظر فيها الربا ، وبذلك يفوت تحذيرهم وتنفيرهم عنه على أى حال يكون ، قليلا كان أو كثيرا .

هذا ، وإنك لتعجب كثيرا حين ترى المفسرين لما أرادوا بيان كيف يكون الربا أضعافا مضاعفة قد صوروا ذلك بأنه كان الرجل إذا استدان ثم حل الأجل ولم يستطع الأداء ذهب الى الدائن وطلب اليه أن يزيده فى الأجل ليزيده فى المال وهكذا يتكرر ذلك حتى يصير الربا أضعافا مضاعفة ؛ ثم تراهم يقررون مع هذا أن ذلك كان حالا للربا وقت نزول تلك الآية ، إذ لسنا ندرى ما هو السر فى أن يجعلوا ذلك المآل للربا خاصا بفريق من الناس خاص ووقت خاص ، ولم يعمموه فى كل الناس وفى جميع الأوقات ، مع أننا نرى فى كل يوم حوادث تقع بمرأى منا ومسمع من نوع ما صوروا به أن يكون الربا أضعافا مضاعفة . وعليه فهذا المآل للربا الذى قرروه هو مآل له باطراد وفى كل وقت ؛ فما كان الربا أبدا أضعافا مضاعفة لأول ما يستدين المدين ، بل مصيره أضعافا مضاعفة إنما كان لتكرير الزيادة بتكرير الآجال ؛ وما دام الأمر كذلك فقد وجب أن يكون هذا القيد فى الآية إنما هو لبيان ذلك المآل حتى تتبين الحكمة فى حظر الربا وتحريمه .

هذا موقفنا مع المفسرين . أما موقفنا مع هذا الفريق من الناس الذين قد ولعوا فى كثير من الأمور التى تخالف أحكام الدين وقواعد الاسلام أن يتلمسوا لها مستندا من كتاب الله أو من سنة رسوله ، فانا نقول لمن حاول منهم أن يجعل الربا قسمين : ما كان منه قليلا وما كان منه كثيرا ، فيبيح القليل منه ويحرم الكثير استنادا لتلك الآية استنادا ناشئا عن فهمها

خطأ : إن هـذا القيد المذكور فى الآية أى قوله « أضعافا مضاعفة » قـد تبينتم أنه لم يكن لتحديد الحال التى يحرم فيها الربا ، وإنما هو لبيان المآل وأنه مآل لـكل ربا قل فى المبدأ أو كثر مما يقضى بأن كل ربا محرم محظور ما دامت تلك العاقبة له محتملة الوقوع . على أننا لو جارينا القيد لما كان ما جعله هذا الفريق محرما محرما ، لأنهم لم يبلغوا فى تقدير المحرم أن يكون أضعافا مضاعفة ، بل فرقوا بين أن يكون ربا المائة تسعة أو ستة (كتعبيرهم المعتاد) ، وبين أن يكون ربا المائة عشرين ، فجعلوا الأول مباحا والثانى حـراما مع أن مقتضى القيد أن هذا أيضا ليس بحرام ، لأن العشرين لم تبلغ أن تكون أضعاف المائة المضاعفة ، مما يدلك فى وضوح على أنه استناد غير صحيح ، وعلى أنها تفرقة باطلة . ألا فليتذكر أولو الألباب .

هذا هو القصد الأول من عرضنا لتأويل تلك الآية ؛ وقد بيناه فى شىء كثير من الوضوح . بقى أنه لا يفوتنا أن نعرض لشىء من دقائق البلاغة فى تلك الآية :

ومن أول ذلك : أنك ترى الآية قد قالت فى النهى عن الربا بدل : لا تأخذوا الربا أضعافا مضاعفة ، مثلا : « لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » . وسر ذلك : أنه قد قـُصد الإشارة الى مصرف المال والغاية منه وأنها إنفاقه فى الأكل ليكون ذلك إيذانا بهوان تلك الغاية وخفتها ، إذ هى لا تستدعى كل ذلك الحرص ، ولا تقتضى كل ذلك الحب الذى دفع الناس الى ارتـكاب هذه الفعلة ، فعلة الربا ، فجعلتهم بمنأى عن فضيلة التعاون ومكرمة الإمداد ، ومطاولة إخوانهم المعوزين الى ميسرة وقـدرة على الأداء ؛ ولو أن الناس قـدروا ما للمال من غاية ومصرف تقديرا صحيحا ، وأنها تلك الغاية التى تؤدى بقليل المال كما تؤدى بكثيره ، إذ ليس فى اختلاف المأكل بكميته أو كيفيته أثر فى مواهب الشخص أو استعداده أو فيما يؤديه من عمل فى المجتمع ، لو أنهم قدروا ذلك تقديرا صحيحا لما كان منهم كل ذلك الحرص الذى دفعهم عن الفضيلة الى الرذيلة ، وعن التناصر والتواد مع إخـوانهم الى التباغض والقطيعة . وإنما أشار القرآن الى تلك الغاية فقط التى هى الأكل دون غايات أخـرى تؤدى بالمال كالبناء للسكن وكالملبس وكأمور أخـرى غير ذلك ، لأنك لو استعرضت كل ذلك وقارنته بحاجـة الطعام لوجدت الطعام أكثر من كل هـذه الغايات تطلبا للمال ، فانه هو المتكرر فى كل يوم ، وهو المتكرر فى اليوم الواحد ؛ أما المصارف الأخـرى فليس لها من المال بالقياس الى الطعام إلا النزر اليسير . فانظر الى ذلك المسلك الذى يأخذ بالقلوب حين تتأمله . انظر كيف هوّن مصرف المال وكيف حقر غايته ؟ فإن فى ذلك دفعا قويا للحريصين عن حرصهم ، وللطامعين عن مطامعهم .

وثانى ذلك : قوله تعالى : « لعلكم تفلحون » : إذ تراه رتب الفلاح على ترك الربا الذى هو مظهر التقوى بصيغة الرجاء ، مع أن الحقيقة فى الفلاح أنه مما يستتبعه ترك الربا لما علمته فيه من الظلم والفساد ، وتدمير الثروات ، وتخريب البيوت ، مما يهيج الحفائظ ، ويشعل نار

الفتن والأحقاد ، وإن أمرا شأنه ذلك ، لا شك أن فى تركه الخير والفلاح . وبهذا يكون الفلاح من الثمرات المترتبة على اجتناب تلك المعاملة ؛ فعلاقة الفلاح بترك الربا علاقة العلة الغائية بالمعلول ، فالموضع موضع التعليل لا موضع الرجاء ؛ وحتى لو صح أن يكون موضع رجاء فإنه لا يصح فى هذا الموضع ، والكلام كلام الله ، والله هو المرجو فى كل شىء ، فكيف يكون مع هذا هو الراجى ؟

وإليك سر العدول عن أسلوب التعليل الى أسلوب الرجاء :

ذلك أنه قد أريد إبراز الفلاح فى صورة المرجو ليثير فى النفوس استشرافا إليه يبعثها الى تحصيله ، ويلهبها نحو تحقيقه ، لما فى إبرازه فى صورة المرجو ما يشعر باحتياجه فى التحقق الى محاولة وعلاج . وإن شيئا من هذا كله لا يكون لو سلك فى التعبير سبيل التعليل فقيل : « لا تأكلوا الربا واتقوا الله لتفلحوا » إذ فى وضعه وضع العلل ما يجعله شيئا مستتبعا كالذى لا يحتاج فى تحققه الى محاولة وعلاج ، وفى ذلك فتّ فى النفوس نحوه ، وإطفاء للاستشراف إليه ، لفوات تخييله وإبرازه فى صورة الأمر المرجو المحبوب . وأما أن هذا الكلام كلام الله وذلك يقتضى ألا يصح التعبير بالرجاء ، فذلك إنما يقال ويفهم لو كان المنظور إليه فى أساليب الكلام هو ذات المتكلم ، وذات المتكلم فى مثل هذا غير منظور اليها ، بل المنظور فى ذلك هو ما وضعه الله فى هذا الكون من نواميس الارتباط بين شئونه ، فيجاء من العبارات بأبلغ ما يقتضيه مثل هذا المقام من غير نظر الى ذات المتكلم ، بل الى معتاد الأساليب العربية .

هذا ما أردت أعرض له فى تلك الآية . وإنى لأرجو الله تعالى أن يوفقنى الى صواب القول فيما أؤول به آيات كتابه العزيز ، إنه عليم بذات الصدور ؟

حامد محيسن

ما البلاغة

قال رجل للعتابى : ما البلاغة ؟ فأجابه بقوله : كل من بلغك حاجته وأفهمك معناه بلا إعادة ، ولا حبسة ، ولا استعانة ، فهو بليغ .

قال الرجل : قد فهمنا الإعادة والحبسة ، فما معنى الاستعانة ؟

قال العتابى : أن يقول المتكلم عند مقاطع كلامه : اسمع منى ، وافهم عنى ، أو يمسح عثنونه ، أو يفتل أصابعه ، أو يكثر التفاته من غير موجب ، أو يتساعل من غير سعلة ، أو ينبهر فى كلامه . وقال الشاعر :

مليء ببهر والتفات وسعلة ومسحة عثنون وفتل أصابع

وهذا كله من العى .

العثنون : اللحية ، وكل ما فضل منها ، وقيل طولها .

تاريخ علم التفسير

بينا فيما تقدم أن لتاريخ هـذا العلم الجليل مرحلتين : الأولى قبل أن يصير علما مدونا ، والثانية بعد أن كان كذلك .

والمرحلة الأولى تبدأ بتفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ؛ والاجماع منعقد على أن السنة تبين القرآن ؛ والسنة هى أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته .

ومستند الاجماع فى هذا ، أى فى أن السنة تفسر القرآن ، قوله تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » ، وقوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ، وقوله تعالى : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .

وذكر ابن عبد البر فى كتاب العلم له عن عبد الرحمن بن يزيد : أنه رأى محرما عليه ثيابه ، فنهى المحرم ، فقال : ائتنى بآية من كتاب الله تعالى تنزع عنى ثيابى ، قال : فقرأ عليه « وما آتاكم الرسول فخذوه » الآية . وعن هشام بن حجير قال : كان طاوس يصلى ركعتين بعد العصر ، فقال ابن عباس : اتركهما ، فقال : إنما نهى عنهما أن تتخذا سنة ، فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد العصر ، فلا أدرى أتعذب عليهما أم تؤجر ، لأن الله تعالى قال : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » . وروى أبو داود عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا وإنى قد أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ، ولا كل ذى ناب من السباع ، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه ، فان لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه » .

والحديث يكاد يكون صريحا فى الدلالة على المعنى المراد الذى أوردناه لأجله . واليك البيان :

قوله صلى الله عليه وسلم : « أوتيت الكتاب ومثله معه » يحتمل وجهين : أحدهما أنه أوتى من الوحى الباطن غير المتلوّ مثل ما أعطى من الظاهر المتلو ؛ والثانى أنه أوتى الكتاب وحيا يتلى ، وأوتى من البيان مثله ، على معنى أنه أذن له أن يبين ما فى الكتاب ، فيعم ويخص ويشرع ما فى الكتاب ، فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلوّ من القرآن . وقوله صلى الله عليه وسلم : « يوشك رجل شبعان الخ » يحذر بهذا القول من مخالفة السنة التى سنها مما ليس له فى القرآن ذكر . وقد خالفت الخوارج والروافض هذا النص ، فتعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنة التى تضمنت بيانه .

فأنت ترى أن هذه الأدلة من الكتاب والسنة متضافرة على أن الرسول صلوات الله عليه بيّن القرآن ، ولا معنى للتفسير إلا البيان .

هـذا هو الرأى السائد بين العلماء فى هـذا الموضوع . وهناك أحاديث وردت يخالف ظاهرها هـذا الرأى ، وقد أجاب عنها العلماء وبينوا أن ظاهرها غير مراد . وأشهر هـذه الأحاديث ثلاثة : حديث روته السيدة عائشة رضى الله عنها ، وحديث رواه ابن عباس رضى الله عنهما ، وثالث رواه جندب رضى الله عنه . ويحسن أن نورد هنا الأحاديث الثلاثة وأجوبة العلماء عنها استيفاء للبحث ، وتوقيفا للقارىء على أصول هذه المسائل الرفيعة السامية :

حديث عائشة :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر من كتاب الله تعالى إلا آياً بعدد علمه إياهن جبريل » .

حديث ابن عباس :

روى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا الحديث علىّ إلا ماعلمتم ، فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » .

حديث جندب :

عن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ — وزاد رزين : ومن قال برأيه فأخطأ فقد كفر » .

أما حديث السيدة عائشة فأجوبة العلماء بالنسبة له تتلخص فى أن هذا الحديث فى مغيبات القرآن مما لا سبيل اليه إلا بتوقيف من الله تعالى ، ومن جملة مغيباته ما لم يُعلِم الله به ، بل استأثر بعلمه ، كوقت قيام الساعة ونحوها مما يستقرى من ألفاظه ، كعدد النفخات فى الصور ، وكرتبة خلق السموات والأرض ، ونحو ذلك .

وأما حديث ابن عباس ، وحديث جندب ، فقد قال أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الانبارى فى كتاب الرد(١) : فسر حديث ابن عباس تفسيرين : أحدهما : من قال فى مشكل القرآن بما لا يعرف من مـذاهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرض لسخط الله تعالى . وثانيهما ، وهو أثبت القولين وأصحهما معنى : من قال فى القرآن قولا يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار .

(١) هو كتاب ألفه الانبارى فى الرد على من خالف مصحف عثمان رضى الله عنه .

وقال فى حديث جندب : حمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأى مَعنِىٌّ به الهوى ، من قال فى القرآن قولا يوافق هواه لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب فقد أخطأ ، لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله ، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه .

قال ابن عطية معلقا على قول الانبارى : ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى من كتاب الله عز وجل فيتسور (١) عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء أو اقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول .

وليس يدخل فى هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته ، والنحويون نحوه ، والفقهاء معانيه ، ويقول كل واحد باجتهاده المبنى على قوانين علم ونظر ، فان القائل على هذه الصفة ليس قائلا لمجرد رأيه .

وسنعرض لبقية البحث فى مقال آت إن شاء الله ؟

محمود حسين

(١) من قولهم : تسور الحائط إذا صعد عليه ، والمراد التهجم على تفسير القرآن بدون بصيرة .

الجود مع الاقلال

قيل لبعض الحكماء : من أجود الناس ؟ قال : من جاد من قلة ، وصان وجه السائل عن المذلة .

وقال حماد عجرد :

أبرق بخير تؤمل للجزيل فما ترجى الثمار إذا لم يورق العود
بث النوال ولا تمنعك قلته فكل ما سد فقرا فهو محمود
وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود

وقال حاتم :

أضاحك ضيفى قبل إنزال رحله ويخصب عندى والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

وقال عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين : ما كنت أحب أن أحدا ولدنى من العرب إلا عروة بن الورد ، لقوله :

أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى بجسمى مس الحق والحق جاهد
لأنى امرؤ عافى إنائى شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

عظمته صلى الله عليه وسلم

ووجوب محبته

رأينا أن نكتب كلمة فى هذا الموضوع الخطير بمناسبة ذكرى مولده صلى الله عليه وسلم؛ وقد جاءنى هذان البيتان عفوا بهذه المناسبة :

أحبَّ رسولَ الله تحظ بما تشا فان جميع الخير فى ذلك الحب
وكن راضيا بالله مولى وسيدا وأخرج جميع الكائنات من القلب

فنقول : لا شك أنه يأخذ منك العجب كل مأخذ ، ويمضى بك اليقين بعظمته صلى الله عليه وسلم الى أعلى غاياته ، إذا تأملت فى نظره الى بواطن الخلق وظواهرهم وتربيتهم بما هيأهم لأعلى الدرجات وأسمى الغايات .

فانظر الى سياسته العامة والخاصة ، وحسن سيرته مع الجميع ، وما نقل عنه من مكارم الأخلاق ومحاسن التعاليم وأحكام الشرائع ، دون تعلم سبق ، ولا ممارسة تقدمت ، ولا مطالعة للكتب ، إذ هو النبى الأمى الذى جبل على أفضل الغرائز تهيئة له من خالقه عز وجل كى يكون رسولا لجميع الأمم فى جميع الأزمان الى يوم القيامة .

ولا غرو ، فشريعته جاءت بكل ما يحتاج اليه نوع الانسان فى كل عصر وجيل الى يوم البعث والنشور ، مما كان برهانا ساطعا على نبوته ، وأنه خاتم المرسلين ، وأن كتابه تنزيل من رب العالمين . وعندى أن معجزاته المعنوية أكثر وأبهر من معجزاته الحسية لدى أرباب العقل والبصيرة . وقد قال وهب بن منبه : قرأت فى واحد وسبعين كتابا أن النبى صلى الله عليه وسلم أرجح الناس عقلا ، وأفضلهم رأيا . وقد قال جبريل عليه السلام للبراق لما استصعب عليه ليلة الاسراء : « ما ركبك أحد أفضل منه صلى الله عليه وسلم » . ولعمرى إن ذلك لثابت بشهادة العقل والنقل .

ومن كرامته على ربه أنه نوه به فى كتب الرسل السابقين والأنبياء المتقدمين : « يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » .

ومن كرامته على ربه أنه أخذ الميثاق على جميع الأنبياء أنهم يؤمنون به وينصرونه إذا أدركوه ، وأكد ذلك غاية التأكيد ، اعتناء به وإشادة بشرفه وعظمته ، فقال : « وإذ أخذ

لله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » . فانظر الى هذا التأكيد وهذه العناية العجيبة حيث يقول : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين .

وانظر الى ثناء الله عليه فى الآيات الأخرى حتى أصبح قرآنا يتلى كى لا يغيب عن الأذهان ، فتراه يقول : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم » . فقد أعطاه فى هذه الآية كما قال بعضهم اسمين من أسمائه تعالى حيث سماه رءوفا رحيما . ويقول : « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجاً منيرا » . فانظر الى ذلك الثناء العاطر ، والتنويه الباهر ، وما زاد فى مدح الشمس على أنها سراج . ولا غرو فهو صلى الله عليه وسلم شمس الوجود ، ومظهر الفضل والجود . ويقول فى حق أمته : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

ثم انظر الى ما يبهر عقلك ، ويدهش لبك ، ولا يستسيغه إلا إيمانك ، حيث يقسم تعالى بحياته فيقول له ملاطفا معظما : « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » . ويقول فى بيان صفاته الكريمة وأخلاقه العظيمة : « وإنك لعلى خلق عظيم » . وناهيك بأمر يعظمه الله فى علاه ، ويثنى عليه فى كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ويقول له : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

ويعلمنا الأدب فى مخاطبته صلى الله عليه وسلم فيقول : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » . ويقول : « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » . ولا أدرى مبالغة أكثر من هذا ، حيث كان رفع الصوت فوق صوته صلى الله عليه وسلم محبطا للعمل .

أسأل الله أن يرزقنا الأدب معه كما يحب ويرضى .

ويقول : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » . الى آخر ما جاء فى الكتاب العزيز من تعظيم قدره والتنويه بذكره ، فماذا يمدح المادحون ، وماذا يكتب الكاتبون ؟

إذا الله أثنى بالذى هو أهله ... عليه فما مقدار ما يمدح الورى

ولله در من قال :

محمد كل الحسن من بعض حسنه ... وما حسن كل الحسن إلا محمد

وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يعلمنى حقيقة إلا ربى » أو كما قال .
ولنختم كلمتنا هذه بقول الله تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم

وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكنُ ترضَونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » .
فكفى بهذا حضا وتنبيها ودلالة وحجة على إلزام محبته ووجوب فرضها وعظم خطرها واستحقاقه لها عليه السلام ، إذ قرع تعالى من كان ماله وولده وأهله أحب إليه من الله ورسوله ، وأوعدهم بقوله تعالى : « فتربصوا حتى يأتى الله بأمره » ، ثم فسقهم بتمام الآية وأعلمهم بأنهم ممن ضل ولم يهده الله تعالى :

أسأل الله أن يملأ قلوبنا بمحبته ، وأن يجعلنا من خدام شريعته بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

تقويم اللسان

قال عبد الملك بن مروان : اللحن فى الكلام أقبح من التفتيق فى الثوب ، والجدرى فى الوجه.

وقيل له : لقد عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين . قال : شيبنى ارتقاء المنابر ، وتوقع اللحن .

كان العرب فى صدر الاسلام يرون اللحن شينا فى الكلام العادى ، ويعتبرونه كالجدرى فى الوجه ، فماذا يكون حكمهم اليوم والناس يلحنون فى الكتابة ، ولا يعرفون وجه اللحن فيها ؟

وقال الحجاج بن يوسف لابن يعمر : أتسمعنى ألحن ؟ قال : لا ، ربما سبقك لسانك ببعضه فى آن وآن . فقال الحجاج : إذا كان ذلك فعرفنى .

انظر كيف قبل الحجاج وهو من أكبر ولاة الدولة وقوادها أن يرده سامعه الى الصواب إذا لحن ، وكيف يترفع اليوم من هو دونه بمراحل أن يراجع فى كلامه فتأخذه العزة بالاثم ، ويؤثر أن يمضى قُدُما فى ارتكاب الأخطاء على أن يهدى الى الصواب !

وقال عبد الملك بن مروان : الإعراب جمال للوضيع ، واللحن هجنة على الشريف .

وقال : تعلموا النحو كما تتعلمون السنن والفرائض .

ذكرى المولد الشريف

جَرت ذكراكَ ، فابتهج الأنامُ   عليك صلاة ربك والسلامُ

ربيعَ الكون والدنيا مُحُولٌ   وبدر التّم والدنيا ظلام

وُلدْتَ فغنّت الدنيا احتفاءً   وقال الدهر : قد وُلِد الإمام

وطاولتِ السماءَ الأرضُ فخراً   وجدّد قدسَه البيتُ الحرام

هنا وهناك آلاءٌ وبشرٌ   هنا وهناك آيات جسام

سطعن فأبصر الأعمى ، ورفّت   عبيراً ، مثلما نَفَحَ البَشام

فيا لأجادبٍ عادت رياضا   على عَذَباتها غنّى الحمام !

وفاض الماءُ فيها كوثريّاً   وأخملَ أذفرَ المسك الرّغام

ويا لك حجرة أمست مَحَجّا   على أبوابها اشتد الزحام !

جثا طُهْرُ الملائك فى ثراها   وطافوا حول كعبتها وقاموا

***

بنفسى يوم مبعثه رسولا   وقد فاض الشقاء والانقسام

فنظّم من رِعاء الشاء صَفّاً   مشى الاسلام فيه والسلام

حداه الوحيُ وضّاحا ، فلما   تمادى الشر غنّاه الحُسام

سبيل الدين واضحة المحيّا   كذاك المجد : هَدْىٌ واعتزام

سَلوا الكرّار : كم أردى كماةً   تَضيمُ الدارعين ولا تضامُ

سلوا سعداً ، سلوا الجراح : ماذا   أفاد عدوّه الجيشُ اللهام

سلوا فَتّاك مخزوم تجبْكم   بأرض العجم أجداث وهام

أُولاكَ عواهل الاسلام فلوا   شَبا الحرب التى فيها عُرام

مَضَوْا قُدُماً ، فللكفر انهدامٌ   وللاسلام أعلام تقام

زَكا غَرْسُ السعادة فى ذَراها   وقَرّ الحق ، وانقطع الكلام

ومُتّع بالكرامة كلُّ حرّ   له بمكارم الدين اعتصام

ببعثة أحمد انبعثت حياة | بأمجاد الخلود لها اتّسام
محت بؤس الوجود فعاد سعداً | إذا حل الهدى ، ولّى الظلام

* * *

شباب الشرق ماضيكم مجيدٌ | بَنَى تاريخَه العربُ الكرام
وهذا الغربُ أصبح أشْعَبيًّا | بروم النيّرات ولا يُرام
فذودوا عن حياضكمُ ، وهُبُّوا | فليس المجدُ يدركه النيّامُ
حياة الشرق إيمان صحيح | وعزم — بعد ذلك — والتئام
وفى ذكرى النبى بشير سعد | على الله المعونة والتمام

* * *

رسول الله لست أخا قريض | ولكنى المحبّ المستهام
تقاصر دون قدرك جهد نظمى | فعقّ الشعر ، وانتثر النظام
لئن أعيا مديحى دون قصدى | فلى حقٌّ عليك ، ولى ذمام
اليك فررت من عَنَت الليالى | عليك صلاة ربك والسلام

عبد الجواد رمضان
مدرس بكلية اللغة العربية

وجوب اصلاح المعيشة

قال أحد حكماء المسلمين : من أشبع أرضه عملا ، أشبعته خبزا .

هذا من أبلغ الحكم الزراعية ، فان الأرض إذا لم تخدم الخدمة اللازمة لها ، على الأصول الفنية المقررة بالتجارب المتكررة ، وجدد موادها التى تستنفدها النباتات المختلفة ، قصرت فى إيتاء صاحبها بحاجته ، وربما أمحلت وأصبحت فى عداد الأراضى السبخة . وقد دلت الاستقراءات التى عملت فى بلادنا أن الأراضى التى تعطى حقها من الحرث والقلب والتشميس والتسميد والرى الخ تعطى أربعة أضعاف ما تعطيه الأراضى المهملة من كل ذلك .

وقال أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان : من كان فى يده شىء فليصلحه فانه فى زمان إن احتاج فيه فأول ما يبذله دينه .

وهذه من أروع الكلم ، فان الحاجة الملحة تدفع بالانسان الى تجاوز الحدود التى أخذ نفسه بعدم تجاوزها ، وأول ما يصادفه منها حدود الدين فيتسامح فيه ، وكلما ألحت به الحاجة ازداد تسامحا فى سائر الحدود حتى يخرج الى الاباحة فيخسر دنياه ودينه معا .

المسلمون والإسلام

لامنى بعض الناس على كلمة كتبتها فى عدد من مجلة الأزهر، صورت فيها بعضا من أمراض الجماعة الاسلامية التى أعجزتها عن مجاراة الجماعات الأخرى فى رقيها الخلقى والثقافى والاقتصادى ، ونبهت بوجه خاص الى مرض التفرق والتخاذل والتحاسد لأنه من أخطر الأمراض على الجماعات . ولقد كتبتها كما يعلم الله وأنا كاسف البال ، شديد الحسرة والألم ، على بلاء جماعتنا به واستفحاله فيها ، كما أنى لم أكن متجنيا ولا مسرفا ، بل كنت عادلا منصفا ، أصور ما أرى ، وأسجل ما أسمع فى أمانة ، متوخيا إغراء المسلمين بعيوبهم ليصلحوها ، ولفت نظرهم الى أمراضهم ليعالجوها ، فلقد كنت أستعرض كثيرا من الطوائف فأحس بذلك الداء يسرى فى أعضائها ، ويهد من كيانها .

أنظر الى طوائف السياسيين فلا أجد طائفة منها تثنى على أختها ، والى طوائف التجار فلا أجد طائفة منها تنصف الثانية وتمتدح عملها وتعترف بفضلها ، والى طوائف الصناع فلا أجدها تفضل غيرها .

وأنظر حتى الى الطوائف العلمية ، فأجد أن هذا الداء قد نال منها ، وأخذ من نفوس رجالها:

وتفرقوا شيعا فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

وأستعرض أحوال الأفراد وأعمالهم، فأجد كثيرا منها على النقيض مما أمر به الاسلام . فالاسلام يأمرنا بالتعاون والنصيحة ، والصدق والشجاعة ، والعدل والأمانة ، وإنجاز الوعد والوفاء بالعهد، والجد فى العمل ، والاقتصاد فى الانفاق ؛ وأعمال كثير منا تباين هذه الفضائل وتجافيها .

وكنت أوازن بين طوائف المسلمين وأفرادهم ، وبين أمثالهم من الأمم الأخرى ، فيتملكنى الدهش والأسف . فبينا نجدنا نحن المسلمين ـ إلا قليلا منا ـ قد فرطنا فى فضائلنا الاسلامية ، نجد هؤلاء أحرص الناس عليها ، وأشدهم تحققا بها ، حتى إن بعض هذه الفضائل قد صار عناوين على بعض هذه الأمم ؛ فالصدق عنوان على أمة ، والاقتصاد عنوان على أخرى ، والجد عنوان على ثالثة ، وهكذا ؛ وأخرج من هذه الموازنة بالألم الممض والحسرة البالغة ، وتزعجنى الهوة العميقة بين أعمال المسلمين وتعاليم الاسلام .

والى القارىء مجموعة من تعاليم الاسلام فى القرآن الكريم والسنة السمحة ، أحب أن يطبقها على أعمال المسلمين ليعلم كيف جفا المسلمون الاسلام ، حتى أصبح العامل بدينه غريبا فيهم ، ينظرون اليه فى دهش واستغراب ، ويتهمونه بالجمود والتأخر ، لفرط ما ألفوه من الأوضاع المستحدثة فيهم ، أو المستعارة من غيرهم :

قال الله تعالى : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة » ، وقال تعالى : « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » ، وقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون . يأيها الذين امنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ، إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم » ، وقال تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ، وقال تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، وقال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » ، وقال تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث » ، وقال تعالى : « ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » ، « ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » . وعنه أنه قال : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » ، وعنه أنه قال : « من غشنا فليس منا » ، وعنه أنه قال : « ليس منا من لم يوقر كبيره ويرحم صغيره » ، وعنه أنه قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وعنه أنه قال : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يسلمه » . وعنه أنه قال : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » .

هذه أمثلة من تعاليم الاسلام أسوقها مجملة ، وهى فى وضوحها غنية عن الشرح والتطويل . وأعتقد أن القارئ بعد أن يستعرضها ويستعرض أعمال المسلمين يشعر بمقدار عقوق المسلمين لدينهم ، وبأن ما هم فيه من سوء وهوان ، وما يتهددهم من خطر ، إنما هو جزاء العقوق والتفريط ، وبأن على الهداة أن يأخذوا بأيديهم ، ويبصروهم بمواطن الرشد فى أمورهم ، ويذكروهم بحدود الله فى أعمالهم ؛ وهداة المسلمين علماؤهم الذين ورثوا النبى فى رسالته ، فعليهم أن يؤدوها ويتحملوا فى سبيلها ما تحمله من صبر وجهاد ، لا يبالون ما يقال فيهم ، فما سلم داع الى الخير من جاحد ومبغض وسفيه ، ومن كان فى الله جهاده وعمله فالله جازيه وناصره : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

أبو الوفا المراغى

التصوف والمتصوفون

– ٢ –

تتمة البحث فى نشأة وحدة الوجود :

زعم متأخرو الصوفية أنهم تلقوا وحدة الوجود عن بعض آيات القرآن ، وعن تعبيرات الزهاد الأولين ، وعن قول الأشعرية بأن جميع الحوادث الكونية أفعال إلهية محضة ، وعن عبارات البسطامى والحلاج وأمثالهما من الوحديين الذين لم ينقصهم فى هذا المذهب إلا الاسم الفنى ؛ ولكنهم استمدوها فى الحقيقة ـ فيما يرى الأستاذ ماسّينيون ـ من مزج فكرة النور المحمدى الذى هو عند الكثيرين مبدأ الخلق بفكرة العقل الفعال الهيلينية . ويقرر هذا الأستاذ أن ابن عربى هو أول من صرح تصريحا قاطعا بهذا المذهب ، وأعلن أن جميع الكائنات انبثقت عن العلم الالهى الذى سبق وجودها فيه ـ وهو المعروف بالثبوت ـ وجودها الخارجى ، وأن الأرواح بعد الموت تعود الى الجوهر الإلهى ، وأن الفرغانى والجيلى لم يدخلا على هذه النظرية إلا تعديلات طفيفة ، وأنها لا تزال الى اليوم عقيدة المتصوفين الإسلاميين ، كما لا تزال موضع تغنى الشعراء الفارسيين ، بل إن الكورانى والنابلسى قد أهاجا فى القرن السابع عشر سخط أهل السنة حين أعلنا أن وحدة الوجود هى المعنى الصحيح الدقيق الذى ينطبق على وحدانية الاسلام . وأكثر من ذلك أن الجيلى وابن عربى قد قررا أن (الشهادة) معناها حلول الإله فى جميع مخلوقاته ؛ وهذا يقتضى أن تكون مجموعة الكائنات فى جميع أحوالها جديرة بالعبادة . ولهذا حكم الجيلى برد شرف إبليس ، وحكم ابن العربى برد شرف فرعون (١) .

أما نحن فنرى أن من البواعث التى حملتهم على تشرب فكرة وحدة الوجود ، أنهم لما اعتقدوا أن أسلافهم قد اتصلوا بعالم الملكوت على أثر قطع علائقهم بالمادة ، أيقنوا أن المادة لم تكن إلا حجابا بين الفرع الذى هو النفس البشرية ، والأصل الذى هو الإله ؛ وإذا كان ذلك هكذا ، كان الكل صادرا عن البارى ؛ وما عاد الى مصدره استضاء ، وما ابتعد أظلم ؛ وما منشأ ظلمة المادة إلا ابتعادها عن مصدرها الذى هو الكل الأوحد . ولا ريب أن هذا هو مذهب الأفلاطونية الحديثة . وقد أدخل عليه المتأخرون منهم بعض تغييرات أخذوها من فرقتى الاسماعيلية والرافضة ، مثل القول بقطب الوقت المتصرف فى شئون الكون ، وما شاكل ذلك . وفى هذا يقول ابن خلدون : « إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين فى الكشف ، وفيما وراء الحس ، توغلوا فى ذلك ، فذهب الكثير منهم الى الحلول والوحدة ،

(١) انظر صفحتى ٧١٧ و ٧١٨ من المجلد الرابع من دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية .

كما أشرنا إليه ، وملأوا الصحف منه ، مثل الهروري فى كتاب « المقامات » له ، وغيره . وتبعهم ابن العربى وابن سبعين وتلاميذهما ابن العفيف ، وابن الفارض ، والنجم الإسرائيلى فى قصائدهم . وكان سلفهم مخالطين للاسماعيلية والمتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول وإلهية الأئمة ، وهو مذهب لم يعرف لأولهم ، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر ، واختلط كلامهم ، وتشابهت عقائدهم ، وظهر فى كلام المتصوفة القول بالقطب ، ومعناه رأس العارفين ، يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد فى مقامه فى المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان (١) » .

أعيان المتصوفين :

أوصل المؤرخون طبقات المتصوفين الى عشرين طبقة ، وذكر أسماء أفراد كل طبقة ومؤلفاتهم . ولما كان ما يعنينا هنا هم أشهر مشاهير الصوفية لا جميع أفراد طبقاتهم ، فقد اثرنا أن نلم بأولئك الأفذاذ حسب ترتيبهم الزمنى ، مغضين عن الطبقات التى احتوتهم ، وعن الأمكنة التى عاشوا فيها . وإليك هذه الإلمامات :

(١) سفيان الثورى :

هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى الكوفى . وقد ولد فيما بين سنتى ٩٥ و ٩٧ هـ — ٧١٣ و ٧١٥ م . ولما نشأ تلقى الحديث على والده الذى كان أحد مشاهير علماء الكوفة ، والذى توفى حوالى سنة ١٢٦ هـ . ولما تم الأمر لبنى العباس كان سفيان أحد الذين أرادوا أن يعلنوا كراهتهم للحكم الحاضر برفضهم مناصب الدولة التى عرضتها عليهم السلطات الجديدة . وفى سنة ١٥٠ هـ عرض أبو جعفر على سفيان منصب القضاء فرفض وفر الى اليمن ، ولكن حكومة بغداد جعلت تتعقبه ، فأحس بذلك فارتحل الى مكة ، غير أن أمير مكة محمد بن ابراهيم تلقى أمرا من الخليفة بتعقبه . ويقول بعض المؤرخين : إنه كان أمراً بقتله . ولعل هذه إشاعة منشؤها أن الشعب فى ذلك العهد كان يتندر فى الخفاء بأوامر العباسيين قائلا : إذا عثرت عليه فاصلبه ! إلا أن النووى وابن حجر يؤكدان أنه كان أمرا جديا .

ومهما يكن من شىء فإن سفيان قد تنبه الى ذلك قبل فوات الفرصة ، ففر الى البصرة وفيها اختبأ فى منزل أحمد بن سعيد ؛ وهناك نصح له بعض أصدقائه أن يحسن علاقته بالقصر . وبالفعل بدىء فى المفاوضات بينه وبين بغداد ، ولكنه مرض قبل تمامها ، وتوفى فى شعبان سنة ١٦١ هـ سنة ٧٧٨ م .

هذا هو ما يحدثنا به التاريخ الصحيح عن ذلك المتنسك ، ولكن حياته قد أحيطت بسياج من الخرافات آثرنا أن نغضى عنه .

(١) انظر صفحتى ٤١٢ و ٤١٣ من مقدمة ابن خلدون .

ومن غرائب الأمور أن بعض المؤرخين يضعونه فى الصف الأول ويقـدمونه على مالك ابن أنس ، وأن الذهبي يدعوه بالحجة والثبت على الرغم من أنه كان من كبار المدلسين فى عصره ، فـكان مثلا يعزو بعض الروايات فى الحديث الى شخصيات عظيمة لم يتلقها عنها ، بل تلقاها عن وسائط غـير موثوق بها . وقـد ذكر لنا الفهرست عددا من مؤلفاته كالجامع الـكبير والجامع الصغير والفرائض ، ولـكن لم يبق شىء من هذه الـكتب . ويروى بعض المؤرخين أن الثورى أنّبه ضميره قبل موته على هذا التدليس فـكلف أحد أصدقائه بإحراق كتبه .

كان سفيان من كبار فقهاء عصره ، بل إنه حاول إنشاء مذهب ولـكنه لم يوفق فى ذلك ، وكان من أهل السنة الذين يؤمنون بالصفات ، و بأن القرآن غير مخلوق ، و بأن علائم الايمان : القول والعمل والنية ، وأنه يمكن أن يقوى ويضعف ، وأن أبا بكر وعمر مقدمان على على . وله آراء أخرى مثـل قوله بصلاة الجمعة والعيدين خلف أى إمام ، وبالعناية باختيار الإمام فى الصلوات الأخرى ، وقـوله بتفضيل الإسرار بالبسملة على الجهر بها ، وبجـواز المسح على الخفين بدون ضرورة ، وبوجوب الخضوع للسلطان عادلا كان أو ظالما .

على أنه لم يرتب أحد فى أنه كان يباشر التصوف العملى بين جماعة من رفاقه ، منهم السيدة رابعة العدوية المتوفاة بالبصرة فى سنة ١٣٥ ﻫ

(٢) المحاسبي :

هو أبو عبد الله الحارث بن أسد العنزى . وقد ولد بالبصرة ، ولم يحدد التاريخ الذى بين أيدينا سنة مولده . ولما نشأ تلقى الفقه على علماء الشافعية فـكان أحد أعلامهم ، وتبحر فى علم الـكلام وكان فيه من أنصار العقل ، ولـكنه كان يستخدم مفردات المعتزلة ومنطقهم لمهاجمتهم . وأخيرا اعتزل الحياة العامة ، وألقى بنفسه بين أحضان التنسك ، بعد أن تامل ردحا من الزمن فيما هو قادم عليه ، كما وصف ذلك باسهاب فى وصاياه . وقد اشتهر بالزهد القاسى فى عصره ، حتى لقد قيل : إنه كان إذا اشتهى لوناً من ألوان الطعام ومد اليه يده ، تحرك فى أصبعه عرق إنذاراً له ، فيمتنع عنه . وقد أطلق عليه لفظ المحاسبي لـكثرة محاسبته نفسه على مأتيه من أعمال .

غير أن هذا الزهد لم يحل بينه و بين الاستزادة من العلوم الظاهرية والارتواء منها ، بل إن مؤلفاته ومناظراته فى علم الـكلام قد احتوت من النظريات والمجادلات ما أحنق عليه فقهاء عصره كما حنقوا على جميع علماء الـكلام . وقد ظهر هذا الحنق فى حملة أحمد بن حنبل وأنصاره على أولئك العلماء ، تلك الحملة التى كان من نتائجها أن اضطهد المحاسبي وانقطع عن المجالس العلمية العامة فى سنة ٢٣٢ ﻫ واعتزل الحياة كلها زهاء عشرة أعوام . وأخيرا توفى فى عزلته فى سنة ٢٤٣ ﻫ — سنة ٨٥٧ م .

أما مؤلفاته فمن أهمها ما يلي :

(ا) « الرعاية لحقوق الله » وهو كتاب فى المبادئ التى يجب على المتصوفة اتباعها ، وهو واحد وستون فصلا فى صورة نصائح مملاة على أحد المريدين ، ويعتبر منهجا كاملا للإرشاد النفسانى . وقد عكف الغزالى — قبل أن يؤلف كتاب الإحياء — على دراسته والعمل بما فيه زمنا طويلا ، وظلت تعاليمه ذائعة فى بيئات الصوفية ، ولا سيما فى الطريقة الشاذلية ، عدة قرون رغم ما وجه إليه من حملات الخصوم . وهذا الكتاب يوجد فى مصر. (ب)«رسالة فى المبادئ العشرة الموصلة الى السعادة» . ويوجد فى برلين . (ج) «شرح المعادن وبذل النصيحة» ويوجد فى برلين . (د) « البعث والنشر » ويوجد فى باريس . (هـ) « رسالة فى الأخلاق » . وتوجد فى مكتبة محمد باشا الاسلامبولى . (و) كتاب « التوهم » . (ز) « ما هية العقل ومعناه » (ح) « رسالة فى العظمة » . (ط) « رسالة فى فهم الصلاة » .

شىء من آرائه :

يعد المحاسبي أول صوفى سنى دلت مؤلفاته على ثقافته الواسعة فى علم الكلام . ومن آيات هذه الثقافة ذلك المنهج الذى وضعه للبحوث النفسانية ، والذى أظهر أنه من الممكن تحقيق صلة بين أفعال الأعضاء الخارجية ونيات القلوب ، فأبان أن سلسلة الأحوال يمكن أن تنتهى الى نقاء كامل على شرط أن يخضع الشخص لقاعدة الحياة التنسكية والأخلاقية ، وأن هذه هى الرهبانية الحقة . وقد خالف بهذا الرأى أبا الهذيل وأكثر المتكلمين فى عصره ، فحملوا عليه وانضم إليهم الفقهاء وأهل الحديث بحجة أنه ضل حين فرق بين الإيمان والمعرفة ، وبين العلم والعقل ، وحين أقر خلق اللفظ وقال بأن المختارين فى الجنة سيدعون الى الاستمتاع بالذات الإلهية (١) .

غير أن هذا لم يمنع الأشعرية من أن يجلوه ويعدوه القبس الأول لمذهبهم الذى لم يجمد كما جمد الذين لم يفرضوا للعقل وجودا ، ولم يسرف كما أسرف الذين نبذوا كل ما عدا العقل ؟

« يتبع »

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) انظر بحث الاستاذ ماسينيون فى صفحة ٧٤٧ من المجلد الثالث من دائرة المعارف الاسلامية الفرنسية.

التجديد والمجددون فى الاسلام

الامام الأعظم أبو حنيفة والقياس

تحامل بعض المتكلمين وبعض المحدثين على مذهب أبى حنيفة لأخذه بالقياس والاستحسان وتوسعه فيهما ، فقالوا : إن الشريعة تعبد محض لا مجال فيها للرأى ولا للقياس ، فهم يرون أنه لا يجوز البحث فى علل الشريعة ، ولا فى الروابط التى تربط المسائل بعضها ببعض ، ويقولون : إذا قلنا إن للشريعة عللا أو مصالح مقصودة التحصيل ، لزم تعليل أفعال الله تعالى ، وأنه يصله نفع من خلقه ، ويلزم أيضا التحسين والتقبيح العقليان ، وهذا مدار الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة . وأما أهل الحديث من ذلك البعض فيرون أن السنة أصل من أصول التشريع الاسلامى مكمل للقرآن الكريم ، من غير نظر الى علل الأحكام والقياس عليها ، أو الى الأصول العامة والأخذ بالاستحسان ؛ وإذا لم يجدوا نصا امتنعوا عن الفتوى وقالوا : لا ندرى ، ولذلك يسمون بالمشرعين الحرفيين ، وزعموا أن مذهب أهل الرأى والقياس فلسفة تجعل الشرع الإلهى من أوضاع البشر .

ومن حقق النظر فى هذه الانتقادات وجدها تنم عن جهل أصحابها بحقيقة الشريعة ، فهى ليست ـ بنص الكتاب والسنة ـ تعبدية فحسب ، ولكنها شريعة عامة لجميع الشئون الدنيوية والأخروية ، روعيت فيها المصالح العامة والخاصة ، وحقوق التملك ، والحرية الشخصية والفكرية وسائر أنواع الحريات ، كما روعيت فيها النواميس الطبيعية .

فمن أنكر القياس وزعم أن الشريعة كلها تعبد فحسب ، فقد عطل الحكمة ، ولم يفهم الشريعة ، وجعلها شريعة جمود وآصار . وفى مسألة النسخ والحكمة التى شرع لأجلها إرشاد الى أن الأحكام روعيت فيها المصالح الراجعة الى سعادة الناس فى الدنيا والآخرة .

وكان ابراهيم النخعى شيخ حماد بن أبى سليمان شيخ الامام أبى حنيفة وأضرابه من كبار الأئمة ، يرون أن أحكام الشرع مشتملة على مصالح راجعة الى الأمة ، وأنها بنيت على أصول محكمة فهمت من الكتاب والسنة وشرعت لينتظم بها أمر الحياة ، فكانوا يجتهدون فى معرفتها ؛ فأحكام الله تعالى لها غايات أى حكم ومصالح راجعة الينا نحن ، كما يدل على ذلك أمثال قول الله تعالى : « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فاخوانكم ، والله يعلم المفسد من المصلح ، ولو شاء الله لأعنتكم ، إن الله عزيز حكيم » . فكان الفقهاء يبحثون عن تلك العلل والحكم التى شرعت الأحكام لأجلها ويجعلون الحكم دائرا معها وجودا وعدما .

وكان أبو حنيفة على طريقة شيوخه هؤلاء ، فنظر فى الأحكام كى يجد لها عللا ، فما وجده

بطريق الكتاب أو السنة أو الاجماع أخذه ، وإلا استنبطه من أصول الشرع ، فكلما وجد فرعا مشتملا على تلك العلل طرد الحكم فقاس وأحسن القياس ، وعلى هذا سار علماء الشرع إلا شذاذا من الغلاة ، فالنص وإن كان خاصا لكنه يصير عاما إذا علمت علة الحكم ، فكل ما وجدت فيه تلك العلة كان من مشتملات النص ، ولم يكن تشريعا بالعقول والأفكار والأخذ بالرأى ، ولا فلسفة كما يزعمون ؛ وفى تاريخ التشريع والفقه تفصيل لهذا الاجمال .

ومن هنا اتسع علم الفقه وعظمت دائرته ، وعم المصالح ، وأصبح قانونا عاما للمجتمع الانسانى ، كافلا المصالح والمنافع ، دافعا المضار ، وكل هذا بفضل القياس وما اليه ، ولو لم يؤخذ بالرأى الممدوح والقياس والاستحسان لكان الفقه فى غاية البساطة والضيق ، بل ولا نصرف عنه الناس لعدم وجودهم فيه ما يكفى النوازل التى تنزل بهم من أحكام ؛ فالقياس من أهم العوامل التى تحفظ للشريعة جدتها وبقاء العمل بها وكفايتها المجتمع فى التشريع والأحكام ، فى كل زمان ومكان ، وفى جميع الأحوال . ولقد أخذ أهل المذاهب الأربعة بالقياس ، ولم يقطعوا النظر عن روح التشريع ومراعاة المعانى ، ولم يجمدوا على ظواهر النصوص ، بل نظروا الى المقاصد ورأوا أن ألفاظ الشرع وسائل لتلك المعانى . ولا ريب فى أن هذا المذهب هو المناسب للترقيات والنهضات فى جميع العصور ، ولتطورات الزمان والمكان ، بخلاف مذهب هؤلاء الشذاذ فانه مخالف لناموس العمران والاجتماع ؛ لذلك عاب أصحاب المذاهب الأربعة أولئك الجامدين الذين لا يأخذون بالقياس ، ورموهم بالجمود وعدم فهم المعانى المقصودة من روح التشريع .

ولما فى القياس من منافع ، أرشد الله تعالى عباده اليه فى غير موضع من القرآن الكريم ، وضرب الأمثال وصرفها فى الأنواع المختلفة ، وكلها أقيسة عقلية ينبه بها عباده على أن حكم الشىء حكم مثله ؛ وقد اشتمل القرآن الكريم على بضعة وأربعين مثلا تتضمن تشبيه الشىء بنظيره والتسوية بينهما فى الحكم ، فالقياس فى ضرب الأمثال من خاصة العقل ؛ وقد ركز الله فى فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتماثلين وإنكار التفريق بينهما ، والفرق بين المختلفين وإنكار الجمع بينهما . قالوا : ومدار الاستدلال جميعه على التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين كما قال ابن القيم . ولقد برهن ابن تيمية وابن القيم على أن من محاسن هذه الشريعة الاسلامية ومنن الله علينا بها أنها شريعة العقل ودين الفطرة التى فطر الله الناس عليها . ولابن تيمية فى تجلية هذه الحقيقة كتاب اسمه « بيان صريح موافقة المعقول لصحيح المنقول » .
والقول بالقياس ليس مخصوصا بالمذهب الحنفى ، وإنما أخذ به الصحابة والتابعون والأئمة الأربعة وسائر علماء الاسلام إلا قليلا منهم . قال الحافظ ابن عبد البر : قال الامام المزنى : الفقهاء من عصر الرسول الى يومنا وهلم جرا استعملوا المقاييس فى الفقه فى جميع الأحكام ، وأجمعوا على أن نظير الحق حق ، ونظير الباطل باطل ، وذلك لا ينافى كون السنة أصلا أصيلا

فى التشريع إذا توافرت فيها الشروط ، أما عنـد فقدها فالقياس أصل يرجع اليه إذا وجد له أصل معين يقاس عليه ، وإلا فنرجع الى الأصول العامة وهو الاستحسان كما قال بعض المحققين .

وقال ابن خلدون : نظرنا فى طرق استدلال الصحابة والسلف بالـكتاب والسنة فإذا هم يقيسون الأشباه بالأشباه منهما ، ويناظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض فى ذلك ؛ فإن كثيرا من الواقعات بعده صلوات الله وسـلامه عليه لم تندرج فى النصوص الثابتة ، فقاسوها بمـا ثبت وألحقوها بمـا نص عليه بشروط فى ذلك الإلحـاق تصحح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحـد ، وصار ذلك دليلا شرعيا بإجماعهم عليه وهو: القياس . فالقياس مناط الاجتهاد وأصل الرأى ، ومنه يتشعب الفقه وأساليب الشريعة ، وهو المفضى الى الاستقلال بتفاصيل أحكام الوقائع مع انتفاء الغاية والنهاية ، فإن نصوص الـكتاب والسنة محصورة مقصورة ، ومواقع الإجماع معدودة مأثورة ، وهى على الجملة متناهية ، ونحن نعلم قطعا أن الوقائع التى يتوقع وقوعها لا نهاية لها ؛ والرأى المبتوت به عند كثير من الأئمة أنه لا تخلو واقعة عن حكم الله تعالى متلقى من قاعدة الشرع ؛ والأصل الذى يسترسل على جميع الوقائع هو القياس وما يتعلق به من وجوه النظر والاستدلال ، فهو إذاً من أحق الأصول باعتبار الطالب ، ومن أحاط به فقد احتوى على مجامع الفقه كما قال إمام الحرمين .

وعلى الجمـلة فقد اتفق جمهور العلماء على أن مصادر الأحـكام الشرعية أربعة : الـكتاب والسنة والإجماع والاستنباط ، وهو القياس على هذه الأصول الثلاثة ، لأن الله تعالى جعل المستنبط من ذلك علما وأوجب الحـكم به فرضا ، فقال تعالى : « ولو ردوه الى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

ولقد أخذ أبو حنيفة بهذه الأصول الأربعة وبنى مذهبه عليها ، فقال : « إنى آخذ بالقرآن الـكريم ، فإن لم أجد فبالسنة ، فإن لم أجد فبقول الصحابة ، فان اختلفوا آخـذ بمـا كان أقرب الى الـكتاب والسنة من أقوالهم ولا أخرج عنهم ، فاذا لم أجد لأحد منهم قولا لا آخذ بقول أحـد من التابعين ، وإنما أجتهد كما اجتهدوا » . فـكيف بعد هذا يعاب أبو حنيفة على الأخذ بمـا أخذ به جماهير علماء وأئمة المسلمين ، ولا يجوز أن يغيب عن العقول أن القياس من أهم عوامل التجديد فى الدين وتوسعة الفقه وكفايته للمجتمع .

ظهر مما تقدم أن جمهور العلماء والأئمة أخذوا بالقياس ولم يصرفوا النظر عن روح التشريع ومراعاة المعانى ، ولم يجمدوا على ظاهر النصوص . وقد أخذ أبو حنيفة بمـا أخذوا به ، ولا ريب فى أن هذا المذهب الشرعى هو المناسب لنهضات الأمم وتطورات الزمان والأحوال ، وهو الملائم لناموس العمران والاجتماع ؟

السيد عفيفى

وهلا يرى معى الآن أن النهج الأقوم إزاء الحقائق الدينية هو نهج القرآن وما سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده ؟ : يحكى القرآن الكريم « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى » ، ويقول : « يسألونك عن الأهلة ، قل هى مواقيت للناس » . ويمنع (١) الرسول صلى الله عليه وسلم طائفة من الجدل فى ذات الله تفكرا فى جلاله وتصرفا فى أفعاله ، ويخوفهم بقول الله تعالى : « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال » . ويروى عن الوليد بن مسلم أنه قال : « سألت مالك بن أنس وسفيان الثورى والليث بن سعد عن الأخبار التى جاءت فى الصفات (يعنى صفات الله تعالى) فقالوا : أمِرُّوها كما جاءت بلا كيف » . وسئل ربيعة الرأى عن قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » كيف استوى ؟ فقال : « الاستواء مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق » . ويرى عن مالك بن أنس أنه سئل : كيف استوى ؟ فأطرق برأسه ثم قال : « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » .

وهلا يرى معى فريد بك أن الغزالى حينما نقد فلاسفة المسلمين ، وحينما كشف عن تهافتهم — وما نقد إلا غرورهم بالفلسفة ومسلكهم فى الجمع بين الدين والفلسفة — كان صاحب « إحياء علوم الدين » ، وكان غيورا على الدين ، وفى الوقت نفسه محبا للعلم ؟

وهلا يرى معى فريد بك أن عدم الإفاضة وعدم المغالاة فى شرح حقائق الدين بالآراء الفلسفية التى هى عرضة للتغيير والتبديل (كشرح الله وخالق الكون من نظرية الأثير ، وشرح الروح وحقيقتها من الأقوال فى استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسى ، ومما يسمى « بالدلائل الحسية التجربية » على انفصال الأرواح (٢)) ، أجدى على المسلمين فى وحدتهم ، وأجدى على الاسلام فى بقاء حقائقه سهلة فى متناول الأفهام وفى الدعوة اليه ؟ .

وهلا يرى معى فريد بك الآن إذا كان لابد من البحث فى الدين بحثا علميا فأولى أن يكون ذلك بتعليل مبادئه وبيان « حكمة التشريع » ، أو ببيان قيمته من وجهة البحث السيكولوجى والأبحاث النفسية الدينية ؟ كتعليل مبدأ الزكاة فى الاسلام مثلا ، وجعل حظ الذكر فى الميراث مثل حظ الأنثيين ، ومبدأ صلاة الجماعة ، ومبدأ الحج ... الخ ؛ وكتعليل : لماذا كانت طبيعة الدين تحتم وجود أمور تعبدية فى العقيدة ؟ أو لماذا كان الدين ضرورة اجتماعية وعنصرا أساسيا فى التنشئة والتهذيب ؟ أو لماذا كان القانون المرتكز على الدين أشد

(١) الملل والنحل للشهرستانى .

(٢) وهو صنيع صاحب « المنطق الدينى » ص ١٤٦ ج ٢ من المجلد العاشر لمجلة الأزهر .

تأثيرا فى النفوس من القانون الوضعى ؟ وتعليل مثل هذه الأشياء لا يتعرض لحقائقها بالشرح والتحديد بالآراء الفلسفية كما يتعرض له تفلسف الدين على نحو صنيع المتقدمين والمعاصرين .

* * *

المذهب المادى والمذهب الطبيعى :

فريد بك يصر على أن المذهب المادى هو المذهب الطبيعى ، وأن المذهب الطبيعى هو المذهب المادى ، وله إصراره رغم ما ذكرت من التفرقة الفنية بينهما فى تعقيبى على تعليقه بعنوان : هل من فلسفة إسلامية ؟ فى الجزء الثانى من المجلة . ولكن فقط نرى فريد بك يناقض نفسه فى الحكم على قيمة المذهب المادى أو قيمة المذهب الطبيعى — لأن كليهما فى نظره سواء — :

فمرة يحكم عليه بأنه مذهب ضعيف يمثل نزعة إلحادية ضد الدين ، فيقول (١) : « ولكن مجلة الأزهر متى كتبت فى الفلسفة فلا يجوز لها أن تقتصر على الناحية المادية ، ولا أن تغفل ذكر ما أصاب هذه الفلسفة (وهى الفلسفة المادية الطبيعية) من تدهور وسقوط أمام المكتشفات الحديثة » . ويقول (٢) : « هذا كلام لا شبهة فيه (وهو الكلام فى الفلسفة المادية الطبيعية) من ناحية تصوير النزعة الإلحادية للفلسفة المادية » .

ومرة يحكم عليه بأنه من أقوى الوسائل لشد أزر الدين ، وأنه لا يصور النزعة الالحادية إلا فى رأى قصير النظر وقليل المعرفة به ، فيقول(٣) تحت عنوان : صفحة من الابداع الإلهى : « ومن العجيب أن بعض الناس يتوهمون أن التوغل فى العلم الطبيعى يوقع صاحبه فى الإلحاد لا محالة لما يبينه من علل الموجودات وتسلسل وجودها ورجوعها كلها الى علة واحدة هى القوى الطبيعية (وهذا هو المذهب الطبيعى المادى الفلسفى) ... !!

« وهذا وهم عظيم على القليل فيما يتعلق بالعصر الحاضر ، فإن علماء الطبيعة اليوم بعد ثبوت تحلل المادة وفنائها ، وبعد قيام الدليل على أن المادة ليست بشىء غير ذبذبات ذات عدد معين فى الأثير ، وبعد تحطم جميع المدركات القديمة على الجوهر الفرد والمذاهب التى حاول بها أصحابها تعليل وجود الكون وما فيه الخ ، بعد هذا كله فقد الإلحاد أقوى أركانه وأصبح لا مرتكز له من العلم يقوم عليه . . .

« هذه الحالة العقلية ستزداد رسوخا وذيوعا بين الناس ، وهى مقدمة لتطور آخر يأتى بعد

---

(١) ج ١ ص ٤٦ من المجلد الثانى عشر من مجلة الأزهر .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧ (٣) مجلة الأزهر ، ج ٨ ص ٥٧٤ ، من المجلد الثامن

حين ، وهو الذى سيبلغ فيه الأدب النفسى أرفع ما قدر له ، وفى هذا العهد تتجلى الحقائق الإلهية ويصبح كل ما فى العلم أدلة لها ، لا شبها عليها ، وليس هذا العهد ببعيد » .

لماذا لا يصور المذهب المادى الطبيعى ، إذا تفلسف فيه فريد بك ، نزعة إلحادية ؟ ولماذا كان دعامة قوية للدين ؟ ولماذا ، إذا ذكره غيره فى عرض تاريخى ، صور هذا المذهب نزعة إلحادية يخشى أثرها على العقيدة ، وتظهر مجلة الأزهر بمظهر الغيور المدافع عن الدين ، والناصح المرشد الأمين لأبناء الأزهر من الانخداع بالفلسفة والعلم وبأوربا ؟ جواب ذلك عند صاحب « على أطلال المذهب المادى » !

***

الميتافيزيكيا والمنهج الميتافيزيكى فى التفلسف :

ذهبت فى « نظرة الفلسفة الميتافيزيكية الى الإنسان » إلى أن أرسطو فى شرحه الانسان وفى تحديده علاقة الروح بالجسم كان طبيعيا ، ولم ينهج المنهج الميتافيزيكى فى هذا الشرح ، أى لم يشرحه من أمر خارج عن طبيعة الانسان نفسه ، فلم ير مثلا أن نفس الانسان « انحدرت » من عالم علوى نورانى ، من عالم ما وراء الطبيعة أو عالم العقول المجردة ، واتصلت بهذا الجسم المادى ، بل رأى أن « نفس » الانسان كامنة فى طبيعته ، وأنها خاضعة لقانون التطور ، وأن النفس والجسم كلا منهما يكون وحدة واحدة . وعلى العكس من ذلك كان إفلاطون . فهو يرى أن نفس الانسان انحدرت من النفس الكلية ، لأمر ما ، فى هذا الجسم ، وهى تعيش فيه عيشة السجين المقضى عليه بالعقاب فى سجنه حتى يزول هذا الجسم وتصعد الى عالم المثل .

وليس معنى أن أرسطو فى نظرته الى الانسان كان طبيعيا ، أى نهج المنهج الطبيعى ، أنه لم يعالج موضوع المبدأ الأول للكون ، ولم تكن له لهذا ميتافيزيكيا أى بحث فيما وراء الطبيعة .

وفريد بك فى تعليقه فى الجزء الثالث يقول : إن أرسطو كان له ميتافيزيكيا . وأنا لم أنكر هذا . والجديد حقا ، وفيه خدمة لتاريخ الفلسفة كذلك ، لو تفضل حضرته فأبان أن أرسطو فى نظرته الى الانسان كان ميتافيزيكيا ولم يكن طبيعيا . عندئذ أصرح له بأنه صحح عندى خطأ ذكرته فى « نظرة الفلسفة الميتافيزيكية الى الانسان » .

***

وبعد : فلو قرأنا لبعض مؤرخى الفلسفة بأن تحديد العبارات من مهمة الفلسفة ، لوجدنا فى هذا القول صوابا كثيرا ، لأن الجدل كثيرا ما يقوم على الاختلاف فيما يرمى اليه التعبير ؟

محمد البهى
مدرس علم النفس والفلسفة
بكلية أصول الدين

مقررات العلم والفلسفة فى الميزان

تطور خطير للعقلية الانسانية فى القرن العشرين

ملاحظاتنا على ملاحظات حضرة الدكتور محمد البهى

إن كل جهد يبذل لتمحيص الفلسفة لايعد ضائعا ، وخاصة فى عهد اشتد فيه تناحر مذاهبها طلبا للبقاء . وإن من مصلحة الناس الإشراف على هذا الصراع ، فانهم هم الذين سيقعون تحت نير ما يكتب لها النصر من ضروب النظريات المتنازعة .

للفلسفة اعتبار خاص فى نظر الناس ، ولمقرراتها سلطان عظيم على عقولهم أكثر مما يجب أن يكون لها فى الواقع ؛ لأن جمهورهم يجهلون تاريخها وتطوراتها وجهات ضعفها ، وما آلت اليه اليوم من الانحلال والتفكك والسقوط .

إن جمهور القارئين يجب أن يعرفوا هذه الحال والعلل التى أوجدتها ، ليتضح لهم أن عهد الغرور بالفلسفة قد انقضى ، وأن العقل الانسانى على وشك تطور جديد لا يعرف مداه إلا مبدعه . فكل مناقشة وتمحيص فى الفلسفة يجب أن يقابل بما يليق به من الاكبار، لأن ثمرته إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وإقامة الانسان على الجادة الموصلة الى اللباب ، وهى مهمة المصلحين والهداة فى كل زمان ومكان .

وقد أرسل إلينا حضرة الدكتور محمد البهى ملاحظات جديدة له نشرناها ورأينا أن نعقب عليها بما يلى :

يحصى الدكتور البهى وجوه الخلاف بينى وبينه ويجدها خمسا ، وهو يعلم أن الفلسفة صناعة كلامية ، إذا اتبع فيها هذا الأسلوب من الأخذ والرد فلا يعدم كل من المتنازعين حجة يلجأ اليها يتخيلها آية فى الإفحام . فلو كانت الفلسفة مما تغنى فيها الأدلة ، وتثمر المجادلات ، لما وجدت بين أقطابها خلافا ، ولرأيتهم كلهم أجمعوا على فلسفة واحدة .

أما أنا فلا أعلم أن بينى وبين الدكتور البهى غير وجه واحد من الخلاف ، وهو أنه يريد أن يصور للقارىء أن الفلسفة انتهت منذ عصر النهضة العلمية فى أوروبا الى المذهب الطبيعى ، الذى لا يلجأ فى تعليل شىء فى الطبيعة إلا الى الطبيعة نفسها ، غير شاعر بحاجة الى اللجوء الى عامل خارج عنها ؛ وأنا أؤكد للقارىء ، وأسرد على صحة قولى أدلة ، بأن هذه الفلسفة الطبيعية قد سقطت عن منزلتها ، واعترى أقطابها الإبلاس والحيرة من ظهور مكتشفات جديدة فى العالم الطبيعى نفسه ، هدمت مذهبهم من أساسه ، وتركتهم حيرى على أنقاضه !

هذا هو الوجه الوحيـد من الخلاف الذى بينى وبينه ، وهو الذى أُعنى به هنا وأقف كل جهودى على توفيته حقـه ، لأنه بداءة تطور علمى سيكون نصيب العقـل والقلب منه موفيا بحاجتهما من كل وجه ، وهو التطور النهائى للفلسفة التى تخيلها أقطاب الرجال فى كل عهد .

كيف وجدت الفلسفة ؟

خُلق الانسان ومُنح إدراكا لا يقف عند حد ، فانصرف فى أول عهده لحفظ وجوده ؛ فلمـا أمن على ذاته من هـذه الناحية ، نظر فى نفسه وفيما حوله ، جاريا على سجيته فى تطلب العلل، وتحرى الأسباب ، بقدر مايسمح له به عقله فى ذلك الدور من الطفولة البشرية ؛ فاهتدى الى معارف أولية ، واستعان بمـا أوتيه من خاصة الـكلام ، فانتشرت فى آحاده ، وكانت مزيجا من معلومات على كل ما أهمه من دين وأخلاق وطب وعلاج وزراعة وهيئة الخ . . .

ولما اكتشفت الـكتابة دوّن كل تلك المعلومات وسماها علما ، وأخذ الرجال الذين أسند اليهم سدانة هيا كله فى تدارسها وزيادة مادتها ، وكان للشرقيين فى هذه الثقافة العقلية ميزة السبق .

وقد تنبه اليونانيون قبل الميلاد بأكثر من ستمائة سنة الى وجوب أخذ العلم عن الشرقيين ، فشخص الى الشرق رجال منهم ، وتلقوا عن أهـله كل ما كان لديهم ، وعادوا به الى بلادهم مطلقين عليه اسم الفلسفة ، فـكان الفيلسوف لاهوتيا وطبيعيا ومهندسا وطبيبا وزراعيا الخ آمادا طويلة ، حتى تميزت المعلومات بعضها عن بعض فى الزمان الأخير .

ولما نبغ العلامة (بيكون) الانجليزى (١٥٦١ — ١٦٢٦) ووضع للبحث العلمى دستورا ، وأخرج من العلم كل ما فيه من ظنون وآراء ، وقصره على ما يثبت بالتجربة والتحليل والتركيب ، تأثرت الفلسفة بهذا الأسلوب بعض التأثر ، ودخل اليها عنصر جديد من التثبت ، ولـكنها استمرت معتمدة على مجرد النظر العقلى ، والاعتداد بالعالم الروحانى . وكان بيكون نفسـه يعتد به ، فلم يهمل فى فلسفته الـكلام عن الملائكة والأرواح .

أما الذى يعتبر فى العهد الأخير عميدا لمذهب الثنية أى القول بوجود عالم روحانى فوق العالم المـادى ، فهو (ديكارت) الفرنسى (١٥٩٦ — ١٦٥٠) ، وجرى على شاكلته (سبينوزا) و (ليبنتز) و (كانت) و (فيخت) و (شلين) و (هجل) من أعلام الفلسفة ؛ ولا يزال هذا المذهب قائمـا وله أنصار من أقطاب الفكر الى اليوم ، ناهيك أن العبقرى (برجسون) الذى يعتبر مجددا من درجة الأفذاذ الأولين من أشياع هذا المذهب .

متى وكيف نشأ المذهب الطبيعى فى الفلسفة ؟

يقول الفيلسوف الـكبير (بوخنر) Buchner الألمـانى : إن المذهب المـادى فى الفلسفة قديم يتصل بعهد قدماء المصريين والهنود وغيرهم .

قال : وقد وجد فى اليونانيين قبل ظهور سقراط (سنة ٤٤٩ ق . م .) فلاسفة اشتغلوا بتعليل وجود العالم بالعلل الطبيعية نحواً من قرن ونصف قرن ، وكان أولهم طاليس (٦٤٠ ق م.) ثم تلاه فلاسفة عديدون كان اريستيب آخرهم ؛ ثم ظهر سقراط فخلا الجو للفلسفة النظرية .

فالمذهب الذى كان يرى تعليل الطبيعة من الطبيعة ، قديم كما يقرر بوخنر . والمهم فى هذا أن يدرك القارىء أنه ليس وليد نهضة علمية ، ولكن وليد مزاج مادى بحت ، وقصر نظر معيب ، وإعياء عقلى شديد .

وكيف لا يكون مصدره ما وصفت وقد بدأ والعلم لا يزال فى مهده ؟ ومن يستعرض تعليلات أئمته الأولين لا يتمالك نفسه من الضحك لسذاجتها ، وظهور بطلانها .

ولما نبغ سقراط (٤٦٨ ـ ٤٠٠ ق.م.) نشر فلسفة التثنية الروح والمادة الذى كان أول من أسسه أناغزاغور (٤٢٨ ق . م .) وتلاه تلميذه أفلاطون ، ثم أرسطو ؛ واستمرت الدولة لهذه الفلسفة حتى ظهر ابيقور (٣٤١ ـ ٢٧٠ ق . م .) فأحيا مذهب الطبيعيين ؛ ولما مات هجعت الفلسفة المادية ، وظهرت المسيحية فقضت عليها ، وأحيت فلسفة أرسطو .

استمر المذهب المادى هاجعا الى القرن الخامس عشر حيث نبغ الفيلسوف الإيطالى بطرس بومبوناتيوس فأنكر خلود النفس (١٥١٦) م .

وفى سنة (١٥٤٣) أصدر نيقولا كوبرنيك كتاب دوائر الأجرام السماوية فزعزع أركان الإيمان .

وفى سنة (١٥٩٢) نشأ (جاساندى) فى فرنسا فجدد المذهب المادى ورد على ديكارت فى استقلال الروح عن الجسد . وكان على شاكلته توما هوبس وجون لوك ودافيد هيوم من الانجليز ؛ وبطرس بيل و كوندياك و دولامترى و ديدرو و دالامبير و هلفتيوس من الفرنسيين .

الفلسفة فى القرن العشرين :

كانت الفلسفة والعلم ممتزجين الى عهد قريب ، فلما نبغ العلامة بيكون ونقى العلم من الآراء والظنون ، وجعل لكل فرع منه حدودا ، بدأت الفلسفة تستقل عن العلم حافظة لنفسها مكانة عالية ، باعتبار أنها فى عدم تقيدها بالتجارب والمشاهدات تفتح للعلم مجالات جديدة ليرودها بما يملكه من وسائل السبر والتمحيص .

وللعلم حفظة منقطعون له يزيدون مادته بمكتشفاتهم ، ويرتبون الأشباه والنظائر ، ويتعرفون النواميس التى تسودها ، والقوى التى تعمل فيها الخ الخ .

هؤلاء وحدهم يدركون جلالة ما هم بسبيله من مساتير الكون ، واستغلاق ما يحاولون

فهمه من قواه ، فكانوا كثيرا ما يكتفون فيها بالمرجحات . على هذا النحو وضعوا للوجود صورة ذهنية ، وأطلقوا على بعض ما وقفوا عليه من قواه اسم النواميس .

ولكن كان دون هؤلاء طبقة تتخيل أن كل ما صدر عن هؤلاء الحفظة من المعارف حقائق خالدة لا يعتريها تبديل ، وأن العلم قال كلمته الأخيرة فى أصل الوجود وفى نواميسه وقواه المختلفة ، فلم يبق عليه إلا أن يخلق ما يريد .

قال الدكتور الكبير (جوستاف لوبون) فى كتابه (تحول المادة) (La transformation de la matière) مشيرا الى هذا الغرور العلمى فى القرن التاسع عشر :

« دامت هذه العقيدة فى المقررات الكبرى للعلم العصرى حافظة لقوتها الى أن حدثت فى الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على الفكر العلمى بأن يكابد من الشكوك ما كان يعتقد أنه قد تخلص منه أبد الآبدين . فان الصرح العلمى الذى كان لا يَرى صدوعَه إلا عدد قليل من العقول العالية ، تزعزع فجأة بشدة عظيمة ، (تأمل) وصارت التناقضات والمحالات التى فيه ظاهرة للعيان ، بعد أن كانت من الخفاء بحيث تكاد لا تبلغها الظنون . فأدرك الناس على عجل أنهم كانوا مخدوعين ، وأسرعوا يتساءلون : هل كانت الأصول المكونة للمقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية غير افتراضات واهية تحجب تحت غشائها جهلا لا يسبر له غور ؟ الخ الخ » .

فما هى هذه المكتشفات غير المنتظرة التى قضت على الصرح العلمى بهذا التصدع الخطير ؟

(أولها) إثبات العلامة الفرنسى (باستور) أن الحى لا يتولد إلا من حى ، بعد أن كان العلماء يعتقدون بأن الحياة تتولد من الجمادات بواسطة القوى الطبيعية وحدها ، فعادت مشكلة كيفية نشأة الحياة الى أشد مما كانت عليه من إعضال .

(ثانيها) ثبوت أن جميع المواد الأرضية التى كان يعتقد أنها لا تتلاشى ، تفنى ببطء بواسطة الإشعاع ، وأن منها ما يمكن الاستفادة من إشعاعاتها فى معالجة الأمراض كالراديوم . وهذه الإشعاعات تنقص من وزنها تدريجيا الى أن تتلاشى ولو بعد آماد طويلة .

(ثالثها) أن الوجود تخترقه تيارات شتى من الأشعة لا يعرف مصدرها ، ولها خصائص مختلفة ، اهتدى العلامة (رونتجن) الى واحد منها وسُمى باسمه ، أمكن بواسطته أن تُرسم الأشياء من خلال الأغلفة الكثيفة ، حتى توصل به الى تصوير العظام المكسوة بالعضلات ، وكشف ما فى الأحشاء من الأعراض .

(رابعها) التوصل الى إحالة المادة الجامدة الى قوة ، فسقطت نظرية الجواهر الفردة ، وسقط بسقوطها كل ما بُنى عليها من فلسفات طبيعية .

(خامسها) ثبوت تخالف الأنواع النباتية والحيوانية بالانتقالات الفجائية ، كما بينه بالتجربة

العلامة دوفريس De Vries الهولاندى ، فسقطت بها نظريات التطورات المتعاقبة فى الآماد الطـويلة ، وهى ما بنى عليه لامارك وداروِن نظرياتهما فى التحول التدريجى بواسطة تأثير البيئة وناموس الانتخاب .

(سادسها) ظهور نظريات انشتين فى النسبية ، وإثباته أن الوجود المادى محدود ، ودحضه لناموس الجاذبية العامة ، وإقعاده علم الفلك على قواعد جديدة .

كل هـذه المكتشفات الانقلابية دلت الناس بأدلة محسوسة على أن ما كانوا يعتقدونه مقررات يقينية ، ليست إلا افتراضات قابلة للتطور ، وسوّغت لمثل العلامة هنرى بوانكاريه الرياضى الأشهر العضو بمجمع العلماء الفرنسى أن يقول :

« لما تروى العلماء قليلا لاحظوا مكان الافتراضات من هذه العلوم ، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستغناء عنه ، وأن التجربة لا تستغنى عنه كذلك . حينذاك سأل بعضهم بعضا : هل هذه الصروح العلمية على شىء من المتانة ؟ وتحققوا أن نفخة واحدة تكفى لجعل عاليها سافلها » .

قد يستغرب الذين يسمعون عن العلم ما يملأ قلوبهم تهيبا منه ، صدورَ مثل هذه التصريحات عن أقطابه ، ونحن لأجل إزالة استغرابهم ووقفهم على جلية أمرها نوجز لهم المسألة فى كلمتين .

للعلم الراهن غرضان : (أولهما) التأمل فى علاقات الكائنات بعضها ببعض ، والبحث فى بسائط موادها ومركباتها ، وتعرف نظم استحالاتها وتطوراتها ، والاستفادة من ذلك فى الشئون الحيوية . و (ثانيها) إدراك كنه المادة ، وضبط النواميس العاملة فيها ، وإعطاء فكرة صحيحة عن الوجود المادى والقوى المؤثرة فيه .

فأما الغرض الأول فقـد بلغ منه العلماء حدا بعيدا ، فأوسعوا المواد تحليلا وتركيبا ، واستخدموها هى والقوى المتسلطة عليها فى المنافع الانسانية ، ولا يزال المجال مفتوحا أمامهم للمزيد .

وأما الغرض الثانى فلا يزال مبنيا عنـدهم على الظنون والمرجحات ، على حين أن السواد الأعظم من الناس يعتبرونه من اليقينيات ، ويبنون عليه القصور والصروح من الأوهام . وقد وقع فى هذا الوهم نفسه كثير من العلماء أنفسهم حتى كان القرن العشرين ، فقضت المكتشفات الجديدة بأن يفيقوا من غرورهم جميعا ، وأخذ أقطابهم يبينون للناس أسباب هـذا الغرور ، والخطر الذى يبتنى على استمراره .

ونحن لأجل كشف الحجب المسدولة على عقول الناس هنا نترجم لهم ما يقوله هؤلاء الأقطاب :

نقل العلامة هنرى بوانكاريه الرياضى الكبير فى كتابه (قيمة العلم) La valeur de la science ، تعريف الفيلسوف الكبير (لوروا) Le Roy للعلم وهو قوله :

« العلم ليس قائما على شيء غير أمور اتفاقية ، ولهذا السبب يشاهد عليه مظهر الأمر اليقيني . فالمقررات العلمية فى الواقع لا تقوم إلا على المرجحات ، والنواميس ليست بشيء سوى مدارك صنعها العلماء أنفسهم . فالعلم والحالة هذه لا يستطيع أن يعطينا شيئا عن الحقيقة » .

أما ما يقال عن المادة فقد لخصت دائرة المعارف الفرنسية الكبرى جميع الآراء التى أبديت فيها ثم قالت :

« وعلى هذا فجميع الافتراضات التى أبديت فى المادة لا تزال عاجزة عن حل تناقضاتها الذاتية ، ولا تنطبق على الحوادث . فماذا نستنتج من هذه الحال غير أن مدركاتنا العلمية فى المادة ، لا تستطيع أن تزعم أنها الحقيقة المطلقة ؟ » .

هذا رأى العلم فى المادة فى العصر الحاضر ؛ أما رأيه فى النواميس وهى مظاهر القوى الكونية فتتبين مما قاله الكيمائى الكبير السير وليم كروكس من أكبر علماء الانجليز ومن رؤساء المجمع العلمى البريطانى فى خطبة له فى ذلك المجمع كما ورد فى مجموعة خطبه :

« متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية نبدأ بادراك الى أى حد هذه النتائج أو هذه النواميس — كما نسميها — محصورة فى دائرة نواميس أخرى ليس لنا بها أقل علم . أما أنا فان عدم اعتدادى برأس مالى العلمى الوهمى قد بلغ حدا بعيدا . فقد تقبض عندى هذا النسيج العنكبوتى للعلم — كما عبر به بعض المؤلفين — الى حد أنه لم يبق منه إلا كرّية صغيرة تكاد لا تدرك .

« ولست بآسف من الحدود التى تضعها أمامنا الجهالة الانسانية ، ولكنى أعتبرها منقذا » .

هذا مثال من عقلية علماء الطبيعة فى القرن العشرين ، وقد أعلنوها على رءوس الأشهاد ، إنقاذا للناس من الغرور العلمى الذى كانوا قد وقعوا فيه ، تحت تأثير فلاسفة ومتفلسفين جردوا لهم الوجود من كل ما سوى المادة والنواميس ، وادعوا أنه أصبح مفهوما جملة وتفصيلا بحيث يستطيعون أن يحددوا مناطق التفكير ، وأصول التعليل ، فالى هؤلاء المحددين الجامدين يوجه الفيلسوف الكبير (هربرت سبنسر) فى كتابه الأصول الأولية قوله :

« أى وظيفة تؤديها هذه الأصول فى تكوين هذا الفهم ؟ هل تستطيع واحدة منها أن تعطينا وحدها فكرة عن هذا الوجود ، أعنى عن مجموع ظواهر الموجود الذى لا يمكن إدراكه ؟ وإذا اعتبرناها مجتمعة ، فهل تستطيع أن تعطينا فكرة تساوى جلالة هذا الوجود ؟ وإذا رتبت وجعلت مذهبا ، فهل تستطيع أن تكوّن لنا هذه الفكرة المرجوة ؟ ليس لنا على كل هذه المسائل إلا جواب واحد وهو : لا ! » .

بعد كل هذا نعود الى الفلسفة فنقول :

إذا كان هذا حظ مقررات العلم من التزعزع والقلق فى النصف الأخير من القرن

التاسع عشر وفاتحة القرن العشرين ، فما ظنك بالفلسفة وهى تستمد وجودها من تلك المقررات ، وخاصة الفلسفة الطبيعية التى تترسم خطوات العلم ، وتسير تحت لوائه ، وتُدِل على جميع الفلسفات بقيامها على تحديداته ؟

هل بقى من الغرور بالعلم أثر فى رءوس المتتبعين لأطواره ، حتى يبقى فيها أثر من الغرور بفلسفته ؟

أناشدك الله والرحم أن تخبرنى أى أثر يحدثه فى نفسك أن تقرأ للبروفسور أندريه كريسون مدرس الفلسفة فى جامعة ليون فى كتابه (قواعد الفلسفة الطبيعية) Les Bases de la Philosophie Naturelle par le prof. A. Cresson هذه العبارة بعد فصول تفصيلية :

« ما هى الفلسفة الطبيعية اليوم فى الواقع إن لم تكن عقيدة فوق متناول العلم ؟ هل يقتصر الفيلسوف الطبيعى على قول ما يعرفه ؟ هل يمتنع عن الحكم على الأشياء التى يجهلها ؟ لا ! ولكنك ترى مذهبه يكبر ويمتد ، لأنه فى كل خطوة من خطواته يحمِّل الفلسفة ما ليس عندها » .

الى أن قال : « فالذى يغتر بمقررات الفلسفة الطبيعية لا يجوز له أن ينسى أن هذه النتائج لم تثبت ثبوتا مطلقا ، ولا يمكن أن تصل الى هذه الدرجة أبدا » انتهى .

فإذا كان العلم يعلن على رءوس الأشهاد ، عقب مكتشفات طبيعية حديثة ، أن كل ما كان يعتد به من نظرياته فى المادة ونواميسها قد تصدَّع ، وأن نفخة واحدة قد تكفى لنسفه من أساسه ؛ فهل لفلسفة فى الأرض أن ترفع رأسها فتعلن أنها أقوم من سواها طريقة ، وأدنى منها الى الصواب أسلوبا ؟

وإذا كان ممثل الفلسفة الطبيعية ومدرسها فى جامعة من أشهر الجامعات العالمية ، وهو البروفسور أندريه كريسون يقول : « ما هى الفلسفة الطبيعية اليوم فى الواقع إن لم تكن عقيدة فوق متناول العلم ؟ » ، فهل لمنتصر لها أن يدعى أنها الفلسفة الحقة ، وأنها يجب أن تتحكم فى العقول وتحد لمحاولاتها حدودا ، وتحل لها مجالات للنظر وتحرم عليها أخرى ؟

وإذا كان رجل كالأستاذ وليم كروكس وهو من أكبر كيمائى العصر ، وأعرف الناس بالمادة ونواميسها يقول : « إن عدم اعتدادى برأس مالى العلمى الوهمى قد بلغ حدا بعيدا . وإنى أعتقد بأنى لست أنا ولا أحد سواى أهلا لأن نعين مقدما ما ليس بموجود فى الكون . » فهل لفلسفة أن تعتد بنفسها الى أبعد حد ، وأن تعين ما هو موجود وما ليس بموجود ، وأن تستبد بالعقول فتمنعها عن الجولان فى غير المناطق الضيقة التى ترسمها ؟

إذا كان شعار العلم فى القرن العشرين الاعتراف بالجهل ، فالفلسفة أولى منه بهذا الشعار ، وكل فلسفة تشذ عن هذا التواضع تكون (بعيدة عن البيئة العلمية) .

كلمة فى رد الدكتور البهى علينـا :

وبعد : فقد رأى الدكتور البهى أن يقابل تعقيباتى بكرّة ملطفة عليها ، وأنا لا أرى بأسا من مقابلتها بالمثل فأقول :

(١) إن ما ذكرته أنا فى موضوع الفلسفة الاسلامية وجواز تسميتها بهذا الاسم أوعدم جوازه لا يحتمل أكثر مما قلته فيه ، فأدعه لفطنة القراء .

(٢) ويقول الدكتور : إنه فيما كتب أولا لم يتعرض لتصوير مذهب من المذاهب الفلسفية ، ولكنه كان يعرض تاريخ البحث الفلسفى وتحوله وأسباب هذا التحول .

وأنا أقول : إن كان هذا قصده ، كان يجب عليه أن لا يقول: إن كل من لم يقتصر فى الفلسفة على تعليل الشئون الطبيعية بالطبيعة نفسها يكون (بعيدا عن البيئة العلمية) ، لأنه يعرف وجميع المطلعين على الفلسفة يعرفون أن جمهورا كبيرا من الفلاسفة المعاصرين وفيهم أفذاذ ممتازون يقولون بوجـود عنصرين مستقلين فى الوجود : المـادة والروح Spiritualistes ، وهؤلاء القائلون بالثنية لا يصح اعتبارهم (بعيدين عن البيئة العلمية) وفيهم أقطابها المقدمون .

(٣) ويقول الدكتور : إن قيمة أى مذهب فلسفى فى نظر تاريخ الفلسفة لا تتوقف على رأى الدين فيه .

وأنا لم أجعل الدين حكما فى مذاهب الفلسفة ، فانى إن عبرت عن المذهب المـادى بأنه ذو نزعة إلحادية ، فانمـا أقصد من ذلك وصفه باعتبار أنى خصمه ، وهذا شىء والقول بأنه باطل لأنه ينافى الدين شىء آخر . وقد قلت الأول ولم أقل الثانى .

(٤) ويقول الدكتور: إنى أقرر أن سند الدين الفلسفة ، وأن القرآن لا تظهر حكمته إلا تحت ضوء العلم والفلسفة .

أقول : نعم ، ولـكن أى فلسفة ؟ الفلسفة التى مبدأها البحث عن الحقيقة بحثـا مجردا عن القيود ، والتى تدرك عظمة الوجود فلا تعين ما هو موجود وما ليس بموجود ، والتى لا تستبد بالعقول فتجوز لها النظر فى مجالات ، وتحرم عليها النظر فى أخرى ، والتى تصرح بأنها تنشد الحقيقة فتقبلها متى قام عليها الدليل المحسوس ، ولا ترفضها لمجرد أنها لا تنطبق على الأصول التى قررتها من قبل .

وأى علم ؟ العلم الذى يقوم على التجارب المدققة ، والمشاهدات المحققة ، لا على الظنون والآراء على ما بينته فى هذه المقالات ، وتبرأ منه العلماء أنفسهم .

هذه هى الفلسفة وهذا هو العلم اللذان يبينان حكمة القرآن ، ويدلان العقل على أنه يهدى للتى هى أقوم .

(٥) ويقول الدكتور : إنى أعمل على وضع منطق للدين بالاستناد الى العلم والفلسفة .

نعم بالاستناد الى الكليات العلمية الكبرى التى ثبتت بالتجربة والمشاهدة ، وأى عاب علىّ فى ذلك ، ما دام العلم يتحكم فى العقلية الانسانية فلا يستطيع عقل أن يقبل ما يجافيه أو مالا ينطبق عليه ؟ هل ترى أو تتخيل وجود رجل يعتد بالعلم فى أعماله ، ولا يعتد به فى اعتقاده ؟

من هو الذى يستطيع أن يأخذ بفلسفة تقول له : لا يجوز تعليل الشؤن الطبيعية إلا بالطبيعة ، وإن لم يفعل ذلك يكن (بعيدا عن بيئة العلم) فى العصر الراهن ؛ ويأخذ الى جنب هذه الفلسفة بدين كل ما فيه خاص بما فوق الطبيعة ، وهو عارف أنه فى تدينه (بعيد عن البيئة العلمية ؟)

ليُسمح لى أن أقول : إذا كان العلم ، وهو المتحكم فى نفسية المعاصرين اليوم ، لم يصل الى كشف شىء يدل على وجود عالم ما فوق الطبيعة ، على مقتضى أسلوبه من السبْر والتمحيص ، فلا يعقل أن يستقر فى قلب الآخذين به إيمان بشىء يتصل بذلك العالم مهما كان مصدره .

فأنا إن حاولت أن أضع للدين منطقا قائما على الفلسفة الحقة والعلم الصحيح ، وما ثبت بالأدلة القاطعة بواسطة البحوث النفسية القائمة فى أوروبا وأمريكا منذ تسعين سنة ، من وجود الروح واستقلالها وبقائها بعد الموت ، فانى أحاول أمرا عظيما يجب أن يشغل عقول الذين يغارون على مصلحة العالم الانسانى .

على أنى لست بدعا من هؤلاء الغيورين ، فانه فى سنة (١٩٢٠) اجتمع مؤتمر فى لوندره لإبداء رأى المسيحية فى البحوث النفسية التى استفاضت فى العالم ، وبعد أن اختبر أدلتها وأعلن رأيه فيها ، كتب الفيلسوف الكبير (جان فينو) الفرنسى فى مجلته (المجلة العالمية) ، وهى أكبر المجلات الأوروبية ، فى العدد الصادر فى ١٥ يناير من سنة (١٩٢١) فقال :

« فى مؤتمر الأساقفة الانجليكانى الذى عقد فى قصر (لامبيث) من ٥ يوليو الى ٧ أغسطس سنة ١٩٢٠ وحضره ٢٥٢ من رءوس الكنيسة ، منهم مطارنة كانتر بورى ويورك وسدنى وكبتاون والهند الغربية وميلبورن وإمارة بلاد الغال الخ . وهذا غير مائة أسقف من أكبر الأساقفة ، تقرر النظر فى أمر الاسبرتزم والعلم المسيحى والتيوصوفية ، بسبب تأثيرها العظيم فى عقلية أهل العصر الحاضر . واعترف بقيمة هذه البحوث الروحانية التى تكافح المادية بنجاح عظيم .

الى أن قال الفيلسوف جان فينو :

« فالعلم القديم المتأخر يكره هذه الفتوحات الجديدة ، ولكن من الظلم ومما يؤسف له (تأمل) إغلاق النوافذ التى فتحت أمام أعيننا فبهرتنا منها هذه الأنوار العلمية » انتهى .

فاذا كان رجال الدين فى أرقى أمة أوربية يضطرون لعقد مؤتمر خاص لإصدار حكم فى هذه البحوث النفسية على كراهتهم لها ، وسبق محاولة وضع العراقيل فى سبيلها ، فمعنى ذلك أنها

اكتسبت العقول بقيامها على الأدلة المحسوسة ، وأصبحت بحيث تحمل رجال الكنيسة على الاعتراف بمكافحتها للمادية مكافحة تكللت بنجاح عظيم .

فهل من عاب على طالب الحقيقة الفلسفية ، أن يستعين بهذه الحركة (العلمية) على تلمس مخرج مما دفعه اليه أصحاب (الفلسفة) المادية أو الطبيعية ؟ هل من عاب عليه أن يعتد بأدلتها بعد أن قال (العلم) ممثلا فى ألوف من أقطابه كلمته الحاسمة فيها ؟ .

يقول الدكتور البهى : إن هذه بحوث لم تصل بعد الى درجة الاستقرار . ويقول الأستاذ وليم جيمس البسيكولوجى العالمى المدرس بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة فى كتابه (إرادة الاعتقاد) La volonté de croire : « إن دقة هذه الدراسات النفسية تفوق فى عدد تجاربها وكثرة المشتغلين بتمحيصها ، دقة أية دراسة أخرى فى الموضوعات الفزيولوجية » ، فليختر القارىء لنفسه الأخذ بأوجه القولين .

عدم الاستقرار ! هذه كلمة قالها المنكرون عند ظهور النتائج الأولى للدراسات الروحية ؛ ولا يزالون يقولونها بعد أن أصبح محققوها من كبار العلماء يعدون بعشرات الألوف ، وبعد أن مضى عليها تسعون سنة قُـلـِّبت فيها على كل وجه ؛ وسيقولونها الى أن تقوم الساعة ! . .

فهل تريد الكنيسة الإنجليكانية بالاستعانة بهذه البحوث النفسية أن يتفلسف الدين ؟ لا ولكنها تريد أن يستفيد أتباعها من الأدلة العلمية المحسوسة على وجود الروح وخلودها ، ووجود عالم روحانى وراء هذا العالم إجمالا بدون تفصيل .

وهذا ما نريده نحن من الاستعانة بهذه البحوث .

ونحن فى اتجاهنا هذا إنما نتجه الى (العلم) لا الى الفلسفة ، فإن الذى يتولى الحركة الروحية اليوم هو (العلم) ، بأدواته العملية من التجربة والتمحيص ؛ فقول الدكتور البهى من أن « طلب العون من الفلسفة لم يكن له من أثر سوى تعقيد العقيدة الخ الخ » قول لا موجب له ، ولا موجب كذلك لكل ما أتى به من تخليطات فلاسفة العرب ، ولم يقبلها المسلمون .

و (العلماء) الذين يبحثون فى إثبات وجود الروح عمليا بالتنويم المغناطيسى وغيره ، لا يبدون آراء فى الدين ولا فى الأمور المتعلقة به ، ولكنهم يبحثون فى أمرين اثنين : هل فى الجسد روح مستقلة عنه لها بقاء بعد الموت ، وهل يوجد عالم محجوب عنا وراء هذا العالم ؟ هاتان المسألتان لا أقول يجوز بل يجب على كل مسلم الاهتمام بهما ، وتتبع تطوراتهما ، دفعا لما ينصبّ عليهما يوميا من التشكيكات فيهما ، سواء من ناحية المتعالمين أم من ناحية المتفلسفين .

فهل يريد الدكتور من وجوب عزلة الدين ، أن يصم أهله آذانهم عن الأدلة المحسوسة التى هُدى إليها (العلم) فى الزمان الأخير ، مع بقاء الفلسفات المادية تتسرب إليهم فى مدارسهم ،

وفى الكتب والمجلات التى تترامى اليهم، فيتناولوا منها الشبهات الداحضة للدين، ولا يتناولوا من (العلم) علاج هذه الشبهات بالدليل المحسوس ؟

هل رآنى الدكتور أيدت الدين بالفلسفة العربية، التى أكثر من النقل منها ؟

وهل رآنى استدللت على وجود الخالق بنظرية الأثير كما قال ؟

وهل رآنى شرحت الروح (وحقيقتها) من الأقوال فى استحضار الأرواح ؟

كل ما يستطيع أن يعثر به من إكثارى الكتابة فى البحوث النفسية هو أن (العلم) يشتغل اليوم باثبات وجود الروح وخلودها، وإثبات وجود العالم الروحانى، ولم أزد على هذا. وهذا التنويه واجب حيال الشكوك التى تساور العالمين اليوم من كل مكان، على يد الفلسفة الطبيعية.

المذهب المادى والمذهب الطبيعى :

يرى الدكتور البهى أنى أصر على عدم التفرقة بين المذهب المادى وبين المذهب الطبيعى فى الفلسفة. ويرى أنى أناقض نفسى، فمرة أذم المذهب الطبيعى ومرة أمدحه ! وقد نقل كلاما لى فى ذمه، وكلاما آخر لى فى مدحه ! ولست أتعرض لذمى إياه فهو صحيح. ولكنى أتعرض لاتهامه إياى بمدحه، فأنقل ما قاله فى هذا الموضوع، قال :

« ومرة يحكم عليه بأنه من أقوى الوسائل لشد أزر الدين، وأنه لا يصور النزعة الالحادية إلا فى رأى قصير النظر قليل المعرفة به، فيقول (يريدنى أنا) تحت عنوان صفحة من الابداع الإلهى : « من العجيب أن بعض الناس يتوهمون أن التوغل فى (العلم الطبيعى) يوقع صاحبه فى الإلحاد لا محالة ... وهذا وهم عظيم الخ ... »

وأنا لدفع هذه التهمة عنى، وما بناه عليها أقول : فرقٌ عظيم بين (الفلسفة) الطبيعية وبين (العلم) الطبيعى، فالعلم الطبيعى لا يذمه إلا مأفوك، وهو لا يوقع فى الالحاد، إلا كل قصير النظر مأفون. وهو الذى قلت ولا أزال أقول إنه يؤدى إلى الحق والى الحكمة، والى الإيمان الصحيح.

والميتافيزيقا ؟

يقول الدكتور البهى : « لو تفضل حضرته (يريدنى) فأبان أن أرسطو فى نظرته الى الانسان كان ميتافيزيكيا ولم يكن طبيعيا، عندئذ أصرح له بأنه صحح عندى خطأ ».

أقول : إن أرسطو قرر فى كتابه الميتافيزيقا أن للانسان روحا إلهية متنزلة عليه من الخالق، ومتميزة عن الطبيعة، فهل هذا القول لا يعتبر ميتافيزيقيا من ناحيتيه فى نظر الفلسفة الطبيعية ؟

محمد فريد وجدى

من وحى الشريعة الخالدة

أسلفنا لقراء هذه المجلة شطرا من الكلام عن التأدب بآداب الإسلام والتخلق بخلائقه، وكيف أن الشريعة أحاطت المجتمع بسياج من الخلق الصفيق، فما من ظاهرة من ظاهرات هذا الوجود تخلع عليه الخير وتقيه مظانّ السوء ومواقع البهتان إلا كان لها من الشريعة مرد، ومن آدابها مرجع.

فالشريعة تحدثنا فيما تحدث عن فئة المطريين من الناس، وكيف أنهم لا يأخذون أنفسهم بأساليب المدحة والاطراء فيما أحل حلالا أو حرم حراما، ولا يصدفون عن الجادة الواضحة إذا مدحوا على ألسنة المادحين، وتجاوبت الأصداء بزلفى المزدلفين، فان المدح على غير وجهه مدخل من مداخل الهوى والغرور، وأفن الرأى وسوء المصير؛ وفى مرتبته السب حين يبدأ أحد المستبين صاحبه بما هو منه برئ، فتعود قالة السوء الصادرة عنه إليه، ويصبح مسئولا عنها ديانة وقضاء.

والمثل الأعلى ما رواه البخارى ومسلم الترمذى فى صحيحهم «أن رجلا جاء الى عثمان رضى الله عنه فأثنى عليه فى وجهه، فأخذ المقداد بن الأسود ترابا فحثا فى وجهه وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا لقيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب». وروى الإمام أحمد وأبو داود «أن وفد بنى عامر جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا: أنت سيدنا، فقال: السيد الله. قالوا: وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا، فقال: قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان». وتلك أمثلة قائمة على أن الإطراء ليس مما يجرى على سنن واحد، وأن المدح لغير الله غير جائز حتى فى عرف المروءة، إلا إذا قصد بذلك تشجيع المطريين الى عمل دائم الثمرات جميل البركات كثير المثوبات. فلا ضير على ما حققه علماء الأخلاق أن يريد المادح فيما ذهب اليه توجيه الممدوح الى الطريقة المثلى، وحمله على بذل سلسلة من العوارف لنوع من أنواع الانسانية قد استأهله. ولا ضير على المادحين أن يسلكوا نوعا من البشر فى سلسلة من الثناء ومرحلة من الإطراء ليشجعوا غيرهم على المضى فى سبيلهم وورود منهلهم. وهذا فى الظن الكثير قليل.

من أجل ذلك كان الرسول الأعظم يوجه المادح الى أقوم السبل فى مدحه، ويبصره بعاقبة إفراطه. وهكذا يتسق وحى الشريعة لأحكام البشرية اتساقا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها مما سنأتى عليه فى بحوث تالية؟

عباس طه

will clearly show that the number of illegitimate births is alarmingly greater in Christian than in Moslem countries. The honour of the fair sex is more in jeopardy in the former than elsewhere, and the freedom of the softer sex is nowhere so cruelly abused and insulted as in Christian lands. Islam enjoins upon its followers to live and act under a constant sense of the fear of God. Whatever a Moslem does, he does it God-fearingly. Fear of God is the prevailing passion with a Moslem, and governing all his thoughts, words, and actions. Even in conjugal relations and connubial dealings, fear of God is the main motive of action.

I give, below, in extenso, the nuptial sermon, universally preached on the occasion of marriage, in imitation of the Holy Prophet :—

"O ye believers, fear God as He deserves to be feared, and die not without having become Moslems. O men, fear your Lord Who hath created you of one progenitor, and of the same spec es created He his wife, and from these twain hath spread abroad so many men and women. And fear ye God, in Whose name ye ask mutual favours, and reverence the wombs that bore you. Verily, God is watching over you. O believers, fear God and speak with well-guided speech, that God may bless your doings for you and forgive you your sins. And whoso obeyeth God and His apostle, with great bliss he surely shall be blest."

The sermon is a collection of Koranic verses, and their repetition at each and every wedding, is meant to remind the Moslem men and women of their duties and obligations. It opens with a commandment to fear God, and the self-same commandment is repeated quite a number of times in the course of the sermon, showing that the whole of the ceremony is to be carried through with fear of God so that from beginning to end it may be a pure, moral binding, and no selfish equivocation or hypocritical prevarication may mar the sanctity of the sacred rite. The obligations accepted by the pair at the time when the marriage sermon is delivered, will thus be real and will exercise a lasting influence on the future life of the couple, as man and wife. The institution, based solely on fear of God, is bound to be holy and those who hold to such a holy institution cannot be charged with sinister motives, if they are true Moslems. Such a sacred system can never be productive of sex-indulgence. A man who God-fearingly enters into a contract and binds himself to certain obligations, cannot be termed a sexual man. The verses clearly give the Moslem to understand that the ultimate object of the marriage contract is to win the pleasure of God. When acting from such motives, it cannot be conceived that a Moslem considers himself to be pleasing God, while indulging in sensuality. Sensuality is an abomination to God, and a Moslem knows that fact from the Koran, more than anybody else. It is

ye that I am come to give peace on earth ? I tell you, nay, but rather division.' Once more we read in the Gospel : 'Then said he unto them, but now he that hath no sword, let him sell his garment and buy one.' It is now as clear as the day, that if Jesus had had the opportunity of gaining political strength, he would have filled the earth with war and bloodshed, notwithstanding his saying 'Love your enemy.' Peace is the thing a Moslem is called upon to maintain by whatever means he can ; but peace, according to the above statements attributed to Jesus, is the very thing Christ came to destroy [1]."

Instead of the Christian commandment, 'Resist not evil, but whosoever smiteth thee on the right cheek, turn to him the other also,' the Moslems follow their Koranic verdict, to wit : "Ward off evil in the best possible manner [2]."

If evil is not to be resisted, it would be allowed to grow unchecked, and eat away the very vitals of humanity. All gaols, reformatory schools, and law-courts should be abolished forthwith, so that under the charitable teachings of the Christian faith, evil may have perfect freedom and run riot in whatever way it can. When it is a sin to resist evil, the natural consequence is the abject toleration, or rather encouragement, of all sorts of nefarious designs and mischievous courses. Human nature is not safe under the assumed Christian teachings ; therefore it naturally, revolts against them. Never has mankind, even in the very heart of civilisation which is said to be the direct result of Christian teachings, acted upon these teachings which are against the intellect, nature and instincts of humanity. The Holy Koran strikes at the very root of evil. It stops the very source of it. It says : "Ward off evil in the best possible manner." The measure to be taken for the removal of evil is not positive non-resistance which is not a sensible policy at all, but on the contrary the most effective methods ought to be used for the extirpation of evil. The means suited to particular cases are to be employed, whether they be harsh or mild. Whatever is productive of desirable results should be resorted to for the eradication of evil.

2.

"Mohammadanism : A Religion of Sex-Indulgence."

As regards the assertion that Islam is a religion of sex-indulgence, nothing can be farther from the truth. A comparison of the moral conditions of the countries, populated by Moslems and Christians respectively,

(1) Qazi Abdul Haque, 'The Review of Religion' (Sept. 1913).

(2) Koran.

enmity, if it is possible to do so, a Moslem should be sincerely loving. But if the cause cannot be removed, our hostilities should not be active and aggressive, for we are, in the honest discharge of our religious duties, bound to wish for peace under all circumstances and all events.

I have already stated with sufficient fulness, and need not repeat it over and over again, that Moslem wars, as allowed in the Koran and explained by the sayings of the Prophet, were entirely defensive, and therefore the attacks recommended are never aggressive. The religion of Islam is essentially for peace, and even in fighting the aim was nothing but peace[1].

The defensive wars of the early Moslems are a matter of history. It is an historical truth, and no reasonable person can refuse to accept it. After thirteen long years' persistent persecution, when all peaceful measures had failed and proved unavailing, when war or death were the only alternatives, it would not have been right to act upon the Gospel verdict "Love your enemies and do good to them that hate you," and thus to allow the enemies of Islam to revel in the wholesale massacre of harmless worshippers of the one true God, and to sweep the only living faith out of existence. Moslems who were bent upon the preservation of their beloved faith at all hazards, Moslems who loved God above all worldly considerations, even their very lives, Moslems who were by all sorts of ruthless tortures and merciless butcheries, goaded by natural anger, so far kept down by the peaceful ordinances of Islam, could not of course adopt the "love your enemy" maxim as their guide. The enemy of God and his blessed dispensation which preaches love, peace and fellow-feeling, can scarcely be expected to deserve real love at the hands of a sincere lover of God. A Moslem cannot afford to love an enemy who hates God. He cannot go against human nature. His ideal will be peace, he refuses to play the aggressive part, he takes the initiative in the reconciliation and shows sincere love there-after. A zealous enthusiastic Moslem writer makes the following remarks on the attitude of Christian critics who lay great stress on the defensive wars of the Holy Prophet, as follows :—

"Our Christian friends love to conceal facts while dealing with Islam. They are ever prepared to dwell upon the defensive wars of the Prophet and his holy followers, but they take good care to keep us away from what Jesus is reported to have said with positive definiteness : 'Think not that I am come to send peace on earth. I came not to send peace, but a sword.' Again we read : 'I am come to send fire upon the earth and what will I if it be already kindled.' We read again in the Gospels : 'Suppose

(1) Vide T. W. Arnold 'The Preaching of Islam'

deal of fighting, and although much of this later fighting had little to do with religion, there is certainly nothing in it, to blame the Moslems for. The political development of a nation is another problem which needs careful handling and which I leave for students of politics to examine. With regard to those verses of the Holy Koran, in which war is enjoined upon Moslems against the infidels, and that "wherever they are found they shall be taken and killed with a general slaughter," these verses and their likes, as already stated, bear upon the defensive war of the Holy Prophet. The Moslems can produce any number of verses from the Holy Koran which enjoin all courtesy, politeness and civility, even in the case of severe persecutors. The example of the Prophet is clear on this point. He granted pardon to the Meccan persecutors when, quite vanquished, they threw themselves on the mercy of the Holy Prophet. God says; "And the servants of the God of Mercy are they who walk upon the earth softly; and when the ignorant address them, reply 'Peace'; and they pass the night in the adoration of their Lord, prostrate (at times) and standing (at others) for prayers."

I appeal to the good sense of the readers as to whether there can be found a higher ideal for humanity to pursue. God's servants are required to walk humbly and harmlessly, and when they are confronted with ignorance which is only another name for lack of manners and manly behaviour, even there, when hedged round by ill manners and ill-treatment, the true Moslem is called upon to wish for peace. His sole object in his social capacity should be to spread peace, even when harassed by bad behaviour and inconsiderate treatment. Peace is the Moslem's watchward, whatever circumstances he has to pass through. When comparing this highly practical ideal with the Christian injunction "Love your enemy," a Moslem is constrained to admit his impression that the Christian code of morality is only a set of fair-seeming platitudes, not meant for practice, but merely for controversial purposes. It is all very well to love one's enemy, but is it, a Moslem asks, in consonance with human nature, to be able to show anything like real and true love, where there exists enmity? Our enemy, if he is an enemy at all, in the natural sense of the word, cannot be expected to feel favourably disposed, much less loving and affectionate, to us. However pious and godly we may happen to be, hatred and contempt, the necessary characteristics of enmity, must re-act on us, and our attitude, at best, will be supposed inactive hatred, and in no case real love. Love begets love, and hatred begets hatred. This is the law of nature, and a wise man cannot ignore the course of nature, and frame a line of conduct conflicting straightway with it. Islam does not require us to be hypocritical lovers of our enemies, but calls upon us to be reconciled with our enemies, and to be at peace with them. Thus, removing the cause of

pondered over the fact, that the early Moslems were so much devoted to the letter, as well as the spirit of this Book, that they sacrificed everything to obedience to the injunctions contained in it, and did not swerve even a hair's breadth from the path laid down in their Book. If the Book enjoined force and compulsion for the spread of Islam, then the Moslems must have fought and worked havoc for the propagation of Islam. There is not even a single verse in the Holy Koran which directly or even indirectly insinuates the alternative of death or Islam for the unbelievers. "There is no compulsion in religion" trumpets forth loudly the peaceful spirit of Islam. The commandment is absolutely positive and admits of no exception. The use of force and compulsion is, then, totally forbidden, and the imperative and highly dictatorial character of the injunction leaves no room for any chance of making an exception in favour of the employment of war-like means, for the purpose of popularising Islam. The mere fact that in the history of Islam one meets with fighting and bloodshed, can in no way lead to the conclusion that Islam was spread by the sword. There is no religion, the history of which is not stained with blood. The Crusades, the Christian conquest of Spain, the subsequent persecution and expulsion of the Moslem Moors, the days of the Inquisition, the massacres of St.-Bartholomew's day and other similar tragedies, perpetrated in the name of religion, recurring to the memory, send a new horror and dismay throughout the world.

No reasonable person will therefore be prepared to accuse the adherents of any religion, of allowing force and compulsion, on the flimsy ground that the story of such religion makes mention of bloodshed and fighting. Islam will be to blame, if it can be proved that it sanctions the use of force and compulsion for the propagation of the faith. But on the contrary, we find clear and explicit injunctions forbidding force for the purpose of religion. The only possible conclusion that can be drawn from the above considerations, is that if the Moslems were acting in accordance with the teachings of Islam, they did not take up arms for the sake of forcing conversions. A glance at the history of those days will bring to light the fact, that they were persecuted, and were subjected to all sorts of torture and ill-treatment. They left their homes to save their lives, but the merciless enemies followed them. At last, when all peaceful means had failed, and the aggressive spirit of their antagonists reached its zenith, the enemies having made up their minds to annihilate the embryo dispensation, the handful of Moslems were driven to have recourse to arms. They fought and fought, till there was no danger left to retard, free growth and expansion of Islam. If facts alone are looked at, there should be no difficulty in realising the real situation of the early Moslems who had to fight for the sake of self-preservation. Later on there was also a good

us to worship one God, to speak truth, to keep good faith, to assist our relatives, to fulfil the rights of hospitality, and to abstain from all things impure, ungodly, unrighteous. And he ordered us to say prayers, give alms, and to fast. We believed in him; we followed him But our countrymen persecuted us, tortured us and tried to cause us to forsake our religion; and now we throw ourselves upon thy protection. Wilt thou not protect us ?[1]"

Dealing with this great spiritual revolution, Sir W. Muir observes as follows :— "Never since the days when primitive Christianity startled the world from its sleep, had men seen the like arousing of spiritual life... Thirteen years before the 'Hijra', Mecca lay lifeless in this debased state. What a change had those thirteen years now produced. A band of several hundred persons had rejected idolatry, adopted the worship of one God, and surrendered themselves implicitly to the guidance of what they believed a Revelation from Him; praying to the Almighty with frequency and fervour, looking for pardon through His Mercy and striving to follow after good works, alms-giving, purity and justice. They now lived under the constant sense of the omnipotent power of God and of His providential care over the minutest of their concerns. In all the gifts of nature, in every relation of life, at each turn of their affairs, individual or public, they saw His hand. Mohammad was minister of life to them, the source under God of their new-born hopes, and to him they yielded an implicit submission[2]."

XV

Refutation of Certain False Charges by Prejudiced Writers against Islam

1.

"Force and Compulsion Were Employed for the Dissemination of Islam"

Islam took its birth, and has since lived, in the broad daylight of history. The Moslems adhere to the faith of Islam not because they were born and bred in this faith, but because it is the most historical religion and can bear with perfect safety even the severest possible criticism.

If those who brought the above charge, had cared to deal with their subject in an honest, straightforward manner, they should have gone through the teachings of Islam, as embodied in the Holy Koran, and then

(1) Sir William Muir. cf. pp. 36, 37 of this book

(2) Sir William Muir's "Life of Mohammed."

The Holy Koran inculcates the softer virtues, such as friendliness, good temper, affability of manners, hospitality, forgiveness, fairness in dealing, regard for superiors, kind treatment of inferiors, respect for women, care of orphans, tending the sick, helping the helpless and the destitute, with a force and persuasion which it is difficult to find elsewhere[1]. The critics of Islam have for the most part expressed their unstinted admiration for the heroic, or sterner virtues, to wit: patient endurance, fortitude, love of truth under personal risk, courage and manly independence, which Islam has always exalted and in the practice of which the Prophet himself and the early Moslems were so marvellously distinguished; but these critics often forget that Islam enjoins with equal emphasis the cultivation of the gentler virtues too. Lessons of modesty and benevolence and charity have been so often re-iterated in the Koran, and again, these virtues form so conspicuous an element in the life and conduct of the Prophet and his companions, that Islam can justly claim to be ranked as a Religion of Love. Every chapter of the Holy Koran begins with the name of "God, the Merciful, the Compassionate."

The Prophet of Islam has been denominated in the Koran as "the tender, the compassionate," and "the mercy for the universe." Himself the tenderest and the most loving of men, he was never tired of preaching to his followers the brotherhood of man and humanity to all God's creatures. "How do you think," he asks, "God will know you when you are in His presence?—"By your love of your children, by your love of your kin, of your neighbours, of fellow-creatures." He displayed the greatest consideration for the feelings and sensibilities of others. He loved his wives, and was kind to his servants. He was particularly fond of little children and discouraged the use of the rod for their correction. He enjoined humanity even to dumb animals.

Such being the ethics of the Koran and the teachings of the Apostle of Islam, it is easy to form some idea of the exact nature and extent of the change wrought thereby in the life and thought of the Arabs. Some of the first few converts to Islam, unable to bear persecutions at the hands of the idolaters, sought refuge in Abyssinia. When asked by the Negus as to the reason why they had left their country, Jaafar, a cousin of the Prophet, spoke thus as the mouthpiece of the small band of refugees:— "O King, We lived in ignorance, idolatry and unchastity; the strong oppressed the weak, we spoke untruth; we violated the duties of hospitality. Then a prophet arose, one whom we know from our youth, with whose descent and conduct and good faith we are all acquainted. He told

(1) Stanley Lane Poole.

Ò believers, let not a people laugh, another people to scorn who haply may be better than themselves; neither let women laugh women to scorn who haply may be better than themselves. Neither defame one another, nor call one another by bad names. Wickedness is such a bad quality to adopt, after becoming true believers, and whose repent not (of this) are wrongdoers. O believers, avoid frequent suspicions; verily some suspicions are a crime, and pry not into others' secrets, neither let the one of you traduce another in his absence. Would any of you like to eat the flesh of his dead brother? Surely you would loathe it. And fear ye God, for God is ready to turn, and Merciful. O men, verily We have made you of one male, and one female, and We have made you peoples and tribes that ye might know one another. Truly, the most worthy of the honour before God is he who feareth Him most. Verily God is Knowing, Cognisant[1]."

Such were the principles, on which the political system of Islam was grounded. It was thoroughly democratic in character. It recognised individual and public liberty, secured the person and property of the subjects, and fostered the growth of all civic virtues. It Communicated all the privileges of the conquering class to those of the conquered who conformed to its religion, and all the protection of citizenship to those who did not. It put an end to old customs that were of immoral and criminal character. It abolished the inhuman custom of burying the infant daughters alive, and took effective measures for the suppression of the slave-traffic, it prohibited adultery and incestuous relationship; and on the other hand, inculcated purity of heart, cleanliness of body, and sobriety of life[2]."

XIV
The Social Organisation of Islam

The Prophet Mohammad did not only promulgate a religion, but he also laid down a complete social system, containing minute regulations for a man's conduct in all circumstances of life, with due remarks and penalties, according to his fulfilment or otherwise of these rules. The social and the religious parts of Islam are so inseparably bound up that it is impossible to cut off the one from the other without destroying both. Religion according to Islam should not only lay down the law of relation of man to God, but should also regulate and distinctly define the proper relation between man and his fellow-creatures.

(1) Koran, ch. The Apartments.
(2) Bosworth Smith, 'Mohamed and Mohamedanism.'

عيد جلوس حضرة صاحب الجلالة فاروق الاول

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام يحتفل به فى الأزهر

احتفلت الأمة المصرية بعيد ولاية حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول الملك، فتجلى فيه ما تكنه هذه الأمة لجلالته من خالص الولاء، وعظيم الاخلاص، وما يعمر فؤادها من صادق الشكر لله عز وجل على ما منحها فى شخصه المحبوب من راع جمع فى ريِّق شبيبته بين حنكة الشيوخ، ومضاء الشباب.

وكان فى مقدمة الهيئات التى احتفلت بهذا اليوم السعيد الجامع الأزهر المعمور تحت رئاسة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخه الجليل. فما وافت الساعة الخامسة من مساء اليوم الخامس من شهر مايو سنة ١٩٤١، حتى حفل الأزهر بالعلماء، وكبار رجال الدولة، والوجهاء وطلاب العلم، يترقبون أن يحظوا من بيان الأستاذ الامام بما اعتادوا أن يحظوا به فى كل عام، فكان حظهم موفورا من الحكم القيمة، والتعاليم النيرة، والأصول البينة؛ ولست بمبالغ إن قلت إن خطبة هذا العام قد جمعت من أمهات الإصلاح ما يجب على كل من عهد اليه بنصيب من سلطان الأمة، أن يتخذه دستورا له فى حياته العملية.

وقد ختمها فضيلته بفذلكة موفقة فى شمائل حضرة صاحب الجلالة الملك، جلت من مواهبه العلية، وفضائله السنية، ما طار صيته فى الآفاق، وأصبح مثلا أعلى للقادة فى سائر الأقطار.

قال فضيلته حفظه الله:

كان من سعادة الأمة المصرية فى هذه الأوقات التى تعصف فيها بالأمم عواصف الشر والبلاء، أن مليكها، وحامل تاجها، ورب عرشها: هو صاحب الجلالة فاروق الأول، أعزه الله، وأدام توفيقه، وزاده حكمة.

لقد أجمعت الأمة على حبه وتقديره مذ تبوأ العرش، وتعلقت به القلوب تعلقا لم ينله أحد قط من ولاة مصر قبله؛ وكان مصدر هذا الاجماع إلهاما فطريا من عادته أن ينزل على الجماعات فيهديها الى الصواب؛ فلما خبرته تأكد هذا الحب، وزاد ذلك التقدير، ودلت التجربة على صدق الإلهام، وعلى أنه ربان ماهر، وهاد خبير، ودليل صادق، وقائد حكيم.

وكما منحت الأمة الفاروق حبها وإخلاصها وولاءها ، منحها حبه وبره وعطفه ورعايته وسهره على مصالحها . فلا شيء عنده أعز من بلاده ، ولا شيء عنده أحب اليه من أمته . فهو شديد الحرص على كرامتها وعزها ، ومجدها واستقلالها ، وسلامتها وأمنها ، ويسرها ورخائها ؛ لا يغفل عن ناحية من نواحيها . فكما يسأل عن المدرسة والمعلم والتلميذ ، يسأل عن المزرعة والفلاحين ، وعن المصنع وعماله ؛ وكما يسأل عن الجيش وجنوده ، يسأل عن المحكمة وقضاتها ؛ وكما يهتم بكبار رجال الدولة وأولى الأمر فيها ، يبحث عن مساعديهم .

إنه فى تفكير دائم فى كل شأن من شؤونها ؛ أعز أمانيه أن يرى البلاد تسير على نظام اجتماعى يستند الى دينها وتقاليدها ، وأن تكون عناية الحكومة موجهة الى إصلاح الجمهور ، ترفع عنه الجهالة ، وتيسر له عيشا سعيدا هنيئا ، وتشعره بعدل الدولة فى حكمها وشفقتها على الرعية ، حتى يعيش الضعيف آمنا على نفسه وعلى حقه ، ويشعر بيسر الطريق فى الوصول الى حقه ، حتى يجد كل واحد من عمله ما يكافئه ، فيجد الفلاح والعامل غذاء صالحا ، وملبسا مناسبا ، ومسكنا لائقا ، وحتى لا يطغى القوى على الضعيف يستلب رزقه فلا يعطيه أجر عمله كاملا متناسبا مع جهده .

هذه الرغبات الحقة هى التى يجب أن تكون مقصد الحكومات وقادة الأمة وساستها . فيجب أن يبذل جهد وافر لإصلاح حال الشعب ، جسميا وخلقيا وتهذيبيا ، ليكون منه رجال أقوياء الأجسام ، صالحون للحياة الكاملة ، وليكون منه سلائل قوية تستطيع الكفاح فى الحياة ؛ ثم توفر لهذا الشعب أرزاقه وأقواته ، حتى يعيش راضيا مطمئن النفس هادئ البال . ويجب أن يمنع عنه أذى الوسطاء ؛ فهذه الثمرات التى تؤتيها الأرض المصرية الطيبة لا ينال منها العاملون عليها ما يوازى جهدهم وكدهم ، ثم لا ينفق عليهم مما تجبيه الدولة ما يجب أن تنفقه الدولة عليهم .

وفى الحق أن الشعب لم يجد حتى الآن ما يستحقه من العناية ، وقد عنى الناس حتى الآن بالزينة وتركت مقومات الحياة

كل شيء عندنا فى حاجة الى دراسة ، وفى حاجة الى إصلاح ، وأكثر الأشياء أجسام لا أرواح فيها ؛ وأساس الخير كله أن يشعر الحكام بأنهم أجراء لهذا الشعب ، وأن يستشعروا خوف الله ، فلا يأكل أحد أجره دون أن يعمل بأجره .

نعود الى الحديث عن جلالة الفاروق ، والحديث عنه يحلو ويطيب :

إنه لا يرتجل الآراء أو تلقى اليه الآراء فيهم ويلقى بين عينيه عزمه وينكب جانبا عن ذكر العواقب ؛ كلا ! إنه يدير الرأى ويقلب وجوه الأمور ، فاذا بدا له وجه الصواب وأشرق نوره واختمر الرأى عنده ، أمضى الأمر لا يقفه شيء إلا أن يكون قدرا مقدورا . فهو كما قال القائل :

أبى لى البلاء وأنى امرؤ إذا ما تبينت لم أرتب

وقد تعددت شواهد بره بالضعفا والبائسين ، فلست فى حاجة الى ذكرها وتعدادها . لكنى أقول : إنه يتبع قول الله سبحانه : «إن تبدوا الصدقات فنعما هى ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ؛ ويكفرُ عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير» . فهو يؤثر الخير عند الله لا يبدو من إحسانه إلا ما لا سبيل الى كتمانه .

أيها الاخوان :

لا أظن أنى فى حاجة الى تعداد مآثره على الأزهر وأهله وحبه للعلماء ، وعطفه على طلبة العلم ، فهو فى هذا متابر على طريقة والده العظيم المغفور له الملك فؤاد ، رفع الله قدره فى الجنات ؛ يحوط أهل الدين بعناية خاصة ، لأنه يعرف قدر الدين ومنزلته ، وأنه وسيلة السعادة ، وطريق الاصلاح الحق ، وأساس الخلق القويم ، ودواء المجتمع الانسانى من شروره ؛ فهو يعز أهل الدين لأنه يحب الدين . أبقاه الله حارسا للدين وأهله ، مدافعا عنه وعن أهله .

أيها الإخوان :

إن على العلماء وطلبة العلم فى هذه الحقبة التى يتطاير فيها اللهب من بقعة الى بقعة فى الأرض ، واجبا لا مناص من أدائه ، هو إرشاد الجمهور الى ما يقضى به العقل ويوجبه الوطن على أهله :

سلامة الوطن وأمنه ، والسعى الى ذلك فريضة على كل أحد أن يحتمل نصيبه منها ؛

المحافظة على قواعد الدين ونظمه وعلى تقاليدنا التى لا تنافى الدين فريضة يجب على كل وطنى أداؤها . . .

هناك نزعات الى الشر يجب أن تقاوم ، وهناك أوهام تسود الناس فى مثل هذه الظروف يجب أن ترد الى العقل ، وأن يرشد الناس الى الخير والحق .

لقد حافظنا على تراث الإسلام وآثار الاسلام ؛ فنحن حملة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، ونحن خادمو القرآن الكريم والسنة المطهرة ؛ ونحن الذين حافظنا على علوم الإسلام وعلوم اللغة العربية ؛ ونحن ورثة السلف فى علومهم وآدابهم ولغتهم وآثارهم وكتبهم ، وقد عرفنا بأننا أمة تحفظ العهد وترعى الجميل .

فمن الحق أن نلحظ هذا وأن يفهمه غيرنا ، وأن ننبه الى أن الاعتداء على هذا البلد الآمن الذى لم يسىء الى أحد ولم يكن من الجناة على أحد ، إجرام فى حق الانسانية ، وفى نظر العدل والخلق . والأمة فى هذا وغيره من الحقوق العامة يجب أن تكون صفا واحدا ويدا واحدة .

أسأل الله الذى تباركت أسماؤه وتعالت ذاته وعمت رحمته وشملت حكمته ، أن يرينا الحق حقا فنتبعه ، ويرينا الباطل باطلا فنجتنبه ، وأن يبارك لهذه الأمة وللأمم الاسلامية فى جلالة المليك المحبوب فاروق الأول ، أعزه الله وأيده بنصره .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحديد

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر

— ٤ —

﴿ اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاماً ، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ :

قيل : اللعب : ما رغّب فى الدنيا ، واللهو : ما ألهى عن الآخرة . وقال مجاهد : كل لعب لهو ، لأنه يلهى عن الآخرة .

وهاج : تحرك الى أقصى ما يتأتى له ، أوجف بعد الخضرة .

والحطام : الهشيم المتكسر .

والمقصود من هذه الآيات تحقير أمر الدنيا ، وتعظيم أمر الآخرة ، والدنيا دار فناء ، والآخرة دار بقاء ؛ والعاقل لا يبيع الباقى بالفانى . واللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر أمور محقرات عند العقل لا يجوز أن تكون مقصدا للعاقل ، ويجب أن يكون مقصده الأسمى هو المغفرة والرضوان والنجاة من النار .

فى الدنيا لعب ولهو يتفكه الناس بهما ، وأكثر ما يكون الأول للصبيان ، وأكثر ما يكون الثانى للشبان ، وأكثر ما تكون الزينة للنساء ومن فى حكمهن من الرجال . وفيها تفاخر بالأنساب والقدرة وغيرها من الصفات ؛ وفيها مباراة فى الإكثار من المال والولد والجيوش ؛ وكل هذه عرضة للتبدل والزوال ، فهى فانية ، ويغلب أن تقع الحسرات بعد اللهو واللذات ؛ على أنها سريعة الانقضاء ، مذهبة للعمر والمال .

وقد ضرب الله مثلا للدنيا فى سرعة تقضيها وقلة جدواها ، وفى بهجتها عند إقبالها وعبوسها عند إدبارها ، فقال : إنها كالنبات يستوى على سوقه ويخضر ويعجب به الزراع ، ثم يجف ويصفر ويكون هشيما وحطاما متكسراً ؛ فى الطور الأول جمال وفتنة وسحر للناظرين ، وبهجة للنفس وراحة للعين ، وأنس لا يقدر قدره ، لكن هذا الطور لا يدوم بل ينقضى بسرعة ، ويحل الطور الثانى ؛ وفى هذا الطور الثانى يزول الجمال والسحر والفتنة وراحة العين ، ثم لا يبقى من تلك الأعواد البديعة إلا حطام لا تستريح النفس الى رؤيته ، وتذروه الرياح .

قال سعيد بن جبير : الدنيا متاع الغرور إذا ألهتك عن طلب الآخرة ، أما إذا دعتك الى رضوان الله فنعم المتاع . لكن الله سبحانه لما علم حب النفوس لزخرف الدنيا ، وعلم فتنتها وإعجاب الخلق بها ، أراد أن يحط من قدرها لتضعف شدة الرغبة فيها ، وشدة الحرص عليها ، وليوجه الناس الى الآخرة بالإحسان فى طلب الدنيا ؛ فهى ذات صورتين : صورة منهما على هذه الصفة التى ذكرها الله سبحانه هنا ، وصورة أخرى جميلة أشير إليها بقوله سبحانه : « سابقوا الى مغفرة » ، وسيأتى بيان ذلك . هى متاع الغرور ، أى الغفلة عن الآخرة ، وعما ينبغى أن يكون عليه الحريص اليقظ .

﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ :

سارعوا الى الأعمال الصالحة التى هى أسباب مغفرة الله ، وأسباب دخول الجنة ، مسارعة المتسابقين . وقد وصفت الجنة بأن عرضها كعرض السماء والأرض مجتمعتين ؛ وإذا كان العرض كذلك كان الطول أكثر امتدادا . والظاهر أن هذا تمثيل للعباد بما يعقلونه ويقع فى أفكارهم ونفوسهم ؛ وأوسع شىء يقع فى نفوسهم هو مقدار السماء والأرض . وقد جاء فى آية آل عمران : « وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » ، ولا أرى فرقا بين الآيتين فيما تدلان عليه من السعة ، لأن السماء تطلق ويراد بها السموات كما فى قوله سبحانه : « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات » ، فتكون الآية فى آل عمران قرينة على أن المراد بالسماء هنا الجمع . هذا إذا كان الغرض التحديد ؛ أما إذا كان الغرض إفادة السعة لا غير فالأمر ظاهر . وقال بعض المفسرين : إن البشارة هنا أعم من البشارة فى سورة آل عمران ، لأن البشارة هنا للمؤمنين ، وفى آل عمران للمتقين . ولا أرى ذلك . ويجب أن يحمل المؤمن هنا على المتقى ، لأن قواعد الاسلام العامة تقضى بأن عصاة المؤمنين

يدخلون النار أولاً ويطهرون فيها ثم يدخلون الجنة ؛ فالجنة لم تعدّ لهم وإنما أعدت للمتقين ؛ وإذا جاز أن يقال إن الجنة أعدت لهم بعد دخولهم النار ، جاز أن يقال إن النار أعدت لهم لأنهم سيدخلونها أولاً . وحمل الآيات بعضها على بعض أولى .

« ذلك فضل الله » : من الناس من قال : إن نعيم الجنة تفضل محض من الله سبحانه غير مستحق بالعمل ، واستدل بهذه الآية ؛ ومن الناس من قال : إنه مستحق بالعمل . وعندى أنه لا تنافى بين كونه مستحقا وكونه فضلا ، فالذى جعله مستحقا هو الله صاحب الفضل فى ربط نعيم الجنة بالأعمال الصالحة ، وهو الذى قال : « ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون » ، وهو الذى قال : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه » ، ووعده حق لا يتخلف ، وهذا الوعد فضل منه ، والله ذو الفضل العظيم ؛ وإذا كان فضله عظيما فثوابه عظيم ، وعطاؤه عظيم .

وصف الله سبحانه الدنيا فى الآية السابقة بأنها لعب ولهو ، وأنها زينة وتفاخر وتكاثر ، وأنها متاع الغرور ؛ وطلب فى هذه الآية المسابقة الى الأعمال الصالحة الموصلة الى الجنة والمغفرة ، وهذه المسابقة فى الدنيا لا شك ؛ وإذا كان ذلك كذلك فللدنيا صورتان : صورة جد تكون فيها مطية الجنة ومزرعة الآخرة ، وتكون ثمراتها نعيم الله ورضوانه ومغفرته ، إذا أخلص العبد فى العمل ، واستمتع بزينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، ولازم حدود الله لم يتعدها ، وأدى حقوق المال كاملة ، وحقوق الله كاملة ؛ وصورة لعب ولهو تكون فيها الدنيا مطية النار ، وتكون ثمرتها غضب الله وسخطه ، إذا كاثر بالأموال والأولاد ، وافتخر واختال ، وبخل وحمل الناس على البخل ، واسترسل فى الشهوات ، وأضاع حقوق الله وتعدى حدوده ، وظلم عباد الله لجمع المال من غير وجهه ثم اكتنزه . فالدنيا متاع الغرور ، والدنيا متاع العقل والشرع ؛ غير أن أكثر الخلق لما كانوا مشغولين بالدنيا على الصورة التى صورها بها القرآن فى هذه الآية ، أطلق الله فيها القول إطلاقا ، وجاء بهذه الصورة على سبيل النص . ولما كان القليلون منهم هم المشغولين بالدنيا على وجهها الآخر ، حبب الله اليهم التسابق فى طلب المغفرة ، ووعدهم الجنة ؛ وكأن هذا إشارة الى الصورة الثانية من صور الدنيا .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ :

اختصت المصيبة عرفا بالنائبة ، ومنه « أوَ لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها » ، « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » ؛ وقد استعمل أصاب فى الخير أيضا كما استعمل

فى الشر ، ومنه « إن تصبك حسنة تسؤهم ، وإن تصبك مصيبة ... » ، « ولئن أصابكم فضل من الله » . والإصابة فى الخير اعتبرت بالصوب وهو المطر ، وفى الشر اعتبرت باصابة السهم ، وكلاهما يرجع الى أصل واحد . ومعنى برأ : خلق .

ذهب أكثر المفسرين الى حمل المصيبة فى الآية على الشر فقط اعتبارا بالاشهر فيها وباختصاصها عرفا بالنائبة ، وفسروا المصيبة فى الأرض بقحط المطر وآفات الزروع والثمار وغلاء الأسعار وما أشبه ذلك ، وفسروا المصيبة فى الأنفس بالأمراض والأوجاع والفقر وفقد الأهل والولد ، والكفر والمعاصى .

وذهب بعضهم الى أن المصيبة هنا تعم الخير والشر ، بدليل قوله سبحانه : « لكيلا تأسَوْا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » ؛ وأرى ترجيح هذا الرأى الآخر ، لأن الكتاب سواء أريد به علم الله سبحانه أو أريد به شىء غير العلم ، وهو ما يسمى اللوح ، شامل لسعادات الأنفس وشقائها ، وخيرات الأرض وشرورها ، ولا وجه لتخصيص الشرور بأنها ثابتة فى الكتاب .

وإنما خصصت الأرض والأنفس بالذكر مع أن علم الله شامل لما فى السموات والأرض ، ولما هو فى الجنة والنار ، لأن ذلك هو الذى يعنينا الحديث عنه ، وهو الذى نشاهده . لكن إذا أريد بالكتاب ما يسمى اللوح المحفوظ فلا يمكن أن يشمل نعيم الجنة وعذاب النار مما هو غير متناه .

كل شىء من الخير والشر فى الأرض والأنفس والأبدان ثابت فى علم الله قبل أن يخلق الأرض والأنفس والأبدان ، وقبل أن يخلق الخير والشر ، بل قبل أن يخلق العالم ويفطر السموات والأرض . وهذه الحلقات جميعها فى سلسلة الوجود من أول حلقة الى آخر حلقة معلومة لله سبحانه ، مربوطة بأسباب وسنن لا تتبدل ولا تتغير ، كما أن العلم لا يتبدل ولا يتغير ، ولها نظام عام شامل مقدر هو خير كله ، والشر يعرض للأفراد كما يعرض الخير . ذلك كله مكتوب فى لوح العلم ، وذلك على الله يسير ، بل هو واجب لذاته سبحانه ، ولا يمكن إلا أن يكون معلوما مقدرا .

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ :

الأسى : الحزن . وحقيقته إتباع الفائت بالغم .

والخيلاء : التكبر عن تخيل فضيلة تراءت للإنسان فى نفسه .

والفخر : المباهاة فى الأشياء الخارجة عن الانسان كالمال والجاه .

والفخور : صيغة تكثير من الفخر .

واللام فى « لكيلا تأسوا » تفيد لغة جعل أول الكلام سببا لآخره .

والمعنى أن الله سبحانه أخبر بأن ما يصيب الأرض والأنفس ثابت فى كتاب لكيلا يشتد حزنكم على ما فاتكم من الخيرات ، ويشتد فرحكم بما أعطاكموه . والله سبحانه لا يطلب أن لا يكون فرح ، وأن لا يكون حزن ، بل يطلب أن لا يكون فرح يطغى ويكون معه الأشر والبطر ، وأن لا يكون حزن يهلك النفس ويفوت عليها ثواب ما سلب من النعمة . أما الفرح بالنعمة والشكر عليها فغير مذموم ؛ وأما الحزن الطبيعى الذى هو غريزة للنفس ، والذى لا يلهيها عن تذكر ثواب الله بالصبر ، فلا يمكن النهى عنه ، وليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن الأمر كما قيل : اجعلوا للمصيبة صبرا ، وللخير شكرا .

والله سبحانه لا يحب المتكبرين الذين يباهون الناس ويفاخرونهم ، لأن الكبر والفخر يبعدان عن تذكر نعمة الله ، ويؤذيان عباد الله . ومن علم أن كل شىء مقدر له فى كتاب ، وأن كل نعمة فمن الله ، توجه بالشكر اليه ، ومن الشكر الاحسان الى عباده بالتواضع وإظهار الخشوع لله سبحانه ؛ وكذلك لا يشتد فرحه بما يناله من الخير ، ولا يشتد حزنه على ما يصيبه من الشر ، خصوصاً إذا تذكر جزاء الصابرين على ما أصابهم ، وتذكر أن عليهم صلوات الله ورحماته . وهذه العقيدة : عقيدة أن كل شىء من عند الله سبحانه ، تحفز النفوس الى طلب الآخرة ، والى التسامح ، والبعد عن المشاحة فى التعامل ، وترك الحسد والحقد . ومن لم يفرح لموجود ولم يحزن لمفقود ، يهون عليه أمر الدنيا ، ويأخذها من ناحية الخير التى تؤدى الى مغفرة الله ورضوانه .

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ :

الذين يبخلون ، بدل من كل مختال ؛ ذلك أن المختال الفخور الذى يطغيه الرزق ويرى المال نعمة توجب العز ، يحرص عليه غالبا ، ويرى الحرص فضيلة يدعو الناس إليها ، فتراه يبخل ، وتراه يأمر الناس بالبخل ، ويعده مذهبا ورأيا محمودا يستحق الدعوة والاحتجاج له ؛ لكن الله غنى عن الإنفاق ، محمود فى ذاته ، لا يضره إعراض الناس عن الانفاق ، ولا يضره ألا يتقرب الناس إليه بالبذل ، فمن يتول منهم ويعرض عن أوامره فهو الظالم لنفسه ، وهو الذى حرمها الأجر ، والله غنى حميد .

وهنا شىء لا أرى أن أفوته ، وأرى من الواجب أن أقول كلمة فيه :

أكثر العلماء من التعلق بهذه الآيات « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى

كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور » ، والاستدلال بها على مذاهبهم ؛ فالجبرية وجدوا فيها دليلا على الجبر ، لأن ما هو فى كتاب الله لا يمكن أن يتخلف ، ولابد من حصوله ، فلا يقدر العبد على مخالفته ؛ والقدرية وجدوا فى قوله « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » مستندا للاختيار والتمكن من فعل الفرح وتركه والحزن وتركه . والمرتاض على الاستدلال ، والملم بقواعد الدين العامة ، ومن تهديه الفطرة والبديهة الى الحق ، يعجب من الجبرية ويرثى لهم ، كما يشفق على القدرية .

الأمة مجمعة على شمول علم الله سبحانه للأشياء ، لا فرق فى ذلك بين قدرى وجبرى ؛ ومجمعة على أن علمه حق مطابق للواقع ، وسيطابق الواقع كلما برز منه شىء الى الوجود ؛ ولو لم يكن الأمر كذلك لا نقلب علمه جهلا ، ولو لم يكن كذلك لكان جاهلا ؛ تعالى الله سبحانه عما يقول الظالمون .

والأمة مجمعة على فائدة إرسال الرسل ؛ والله يقول : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ، فهو يقرر أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قطع العذر ، وبعد البيان ونصب الأدلة « إن علينا للهدى وإن لنا للآخرةَ والأولى » . والأمم جميعها لا فرق بين المتدينين وغيرهم مجمعون على فائدة التربية والتهذيب ، وفائدة القدوة الصالحة ، وعلى ضرورة وضع القوانين الزاجرة لحماية الناس بعضهم من بعض .

هذا كله يوجب بلا ريب اعتراف البشر واعتراف الأديان بوجود الاختيار عند الانسان ، وبأنه يستطيع اختيار أحد الطريقين : طريق الخير أو طريق الشر . ويؤكد هذا أيضا قول الله سبحانه : « وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ؟ فك رقبة » الى آخر الآية ؛ وقول الله سبحانه : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه » ؛ وقول الله سبحانه : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ؛ وقد وعد المتقين الجنة ، ووعد العصاة النار . ولا شبهة بعد هذا فى أن القول بالجبر يصادم العقل ، ويناقض ما أجمعت عليه الأمم ، ويهدم حكمة إرسال الرسل ، وحكمة الشرائع ، سواء أكانت وضعية أم سماوية ؛ والقائلون به يجب عليهم أن يتركوا أنفسهم فى الحياة تسيرها الرياح كما تشاء ، وليس لهم أن يتعلقوا بقواعد التهذيب ، وليس لهم أن يلوموا فاسقا ولا كافرا ، ولا مرتكب أية كبيرة أو أية معصية . وهذا قول نعوذ بالله منه ومن شروره . واتفاق الأمم جميعها فى القديم والحديث على خلافه دليل على أنه مناقض للفطرة كما هو مناقض للعقل .

نعود الى الحديث عن علم الله وعن إثبات كل شىء فى الكتاب ، فنقول : إن علم الله سبحانه يجب أن تتبعه إرادته ، والعلم صفة انكشافية لا إلزام فيها . والعلم الصحيح هو المطابق للمعلوم

مطابقة تامة ، فلا أثر لعلم الله سبحانه فى أفعال العباد ، لأن أفعال العباد لا تتبعه ، بل علم الله هو الذى يتبع أفعال العباد ؛ والله سبحانه فى مرتبة وجوده قبل أن يخلق الخلق قدر الخلق ووضع هذا النظام التام الذى هو خير كله ، والذى يعرض فيه الخير والشر للأفراد ، أما النظام نفسه فلا يعرض له الشر بحال ، لأنه هو الصادر عن الجود ، وعن الحكمة ، وعن العلم التام ؛ وقد علم الله سبحانه ما سيختاره كل أحد من خلقه فوضعه فى كتاب ؛ وفعل العبد تابع لاختياره المحض لا ارتباط له بالعلم إلا ذلك الارتباط الحاصل بين العلم والمعلوم ؛ وإذا كان ذلك كذلك فلا دلالة فى الآية على الجبر ، وهى كغيرها قد تدل على الاختيار .

لكن القدر سلوى المؤمن ، والمؤمن مطلوب منه أن يتحرى وجوه الصواب ، ويروض نفسه على الفكر وسؤال أهل الذكر ، وعلى التدبر وأخذ الحيطة ، وتقليب وجوه الرأى ، ومشاورة العقلاء ؛ فإذا قدر له أن يصيب الخير ووجه الحكمة وينال النعمة ، طلب الله سبحانه منه ألا يطغيه الفرح وتطغيه النعمة ، وأن يذكر أن هذه النعمة ثابتة فى كتاب لم يكن هناك بد من حصولها ، ولم يكن هناك بد من اختيارها إذا كانت مما تقع تحت الاختيار ؛ وإذا قدر له الأخرى وأصابه شر ، طلب الله منه ألا تذهب نفسه حسرات ، وأن لا يلهيه الحزن عن تذكر ثواب الله ، وأن يذكر أن هذا مقدر فى كتاب ، ولم يكن هناك مفر منه ، ولم يكن هناك بد من أن يختاره إذا كان ذلك مما يقع تحت الاختيار .

والحق أن هذا تهذيب من الله سبحانه ، إذا روعى كان المؤمن دائما رضى النفس ، صابرا على البلاء ، غير فخور بالنعمة ، وكان مطمئنا ، هادئ البال ، مثلوج الصدر ، غير ضجر بالحياة ولا برم بها ، ولا مزهو بالنعم يدل على الناس بما أعطاه الله .

أشرت فيما مضى الى أن هذا النظام كله خير إذ هو صادر عن الجواد الكريم ، وكله حكمة لأنه صادر عن العليم الحكيم ، فلا يعرض له الشر قط ، وكله خير ، وإذا كان هناك فى الوجود شر فذلك الشر يعرض للأفراد ، ويعرض للجزئيات . وإذا لاحظنا هذا أمكن أن تعرض لنا شبهة الجبر ، وهذه الشبهة لا يمكن أن تعرض من ناحية التسجيل فى الكتاب ، ولا من ناحية أى دليل آخر غير هذا ؛ لكن عروض الشبهة ينفيه العقل ، والأدلة القائمة ، وإجماع الأمم ، والفطرة . والبحث عن التوفيق بين ما تهدى إليه الفطرة وما يهدى إليه العقل من أن النظام خير كله ، بحث عن سر القدر لا يجوز للمؤمن أن يدخل فيه وأن يعدو طوره .

السيرة المحمدية
تحت ضوء العلم والفلسفة

الجهاد الأدبى يبز الجهاد الحربى — صلح الحديبية وما أحدثه من هدم الوثنية

فى السنة السادسة من الهجرة أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بأنه يريد العمرة ؛ والعمرة هى الطواف بالبيت فى غير وقت الحج ؛ وطلب الى الأعراب المحيطين بالمدينة أن يخرجوا معه ، ولكنهم تلكأوا ثم قالوا له : قد شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا . وكان السبب الصحيح فى تثاقلهم أنهم ظنوا أن المشركين يفتكون بالمسلمين ؛ وقد أشار الى ذلك الكتاب الكريم فى قوله تعالى : « سيقول لك المخلفون من الأعراب (١) شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ، بل كان الله بما تعملون خبيرا . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا ، وزُين ذلك فى قلوبكم ، وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا » أى هالكين .

فتركهم النبى صلى الله عليه وسلم وخرج فى ألف وأربعمائة من أصحابه ليس عليهم من السلاح شىء غير السيوف ، وساروا حتى وصلوا عسفان ، فجاءه الخبر بأن قريشا أحست بمجيئهم وأجمعت على صدهم ، واستعدت للحرب تحت قيادة خالد بن الوليد (ولم يكن أسلم) . فاتبع المسلمون طريقا غير الطريق المعروفة ، فلم يشعر القرشيون إلا والمسلمون بجوارهم فى مستوى سهل يملك مكة من أسفلها . وأمر النبى أصحابه بالنزول فى أقصى مكان اسمه الحديبية فيه بئر تحمل هذا الاسم . وهناك أقبل سفير لقريش يدعى بديل بن ورقاء يسأل عن سبب قدوم المسلمين . فأخبره النبى بأنه جاء معتمرا .

ثم أرسلوا حليس بن علقمة سيد الأحابيش ، وهم أعراب لا أحباش كما يتوهم بعضهم ، فلما قدم على المسلمين وجدهم يلبون ، فِعْلَ من يريد العمرة لا الحرب ، فعاد الى قريش وأخبرهم بأن القوم جاءوا معتمرين ، ولامهم على منعهم .

فقالوا له أنت أعرابى وليس لك علم بالمكائد ، وأرسلوا عروة بن مسعود الثقفى سيد أهل الطائف ، فأقبل على رسول الله وكلمه قائلا : يا محمد قد جمعت أوباش الناس وجئت الى عشيرتك لتفضها بهم . إن قريشا قد عاهدت الله أن لا تدخلها عليهم عنوة ، وأيم الله لكأنى بهؤلاء

(١) الاعراب : سكان البادية من العرب . والعرب : اسم جنس ، ويطلق على المتحضرين .

قد انكشفوا عنك . وكان عروة يتكلم وهو يمس لحية النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان المغيرة ابن شعبة يقرع يده كلما أراد ذلك .

ثم رجع عروة وقد أدهشه ما يجده رسول الله من تبجيل أصحابه له ، فقال لقومه : يا معشر قريش والله لقد جئت كسرى وقيصر فما رأيت ملكا فى قومه مثل محمد فى أصحابه . فاقبلوا ما يعرضه عليكم فانى أخاف أن لا تنصروا عليه .

فتأثرت قريش مما قاله عروة لهم ولكنها أصرت على المشادّة . واتفق أن رسول الله رأى أن يرسل عثمان بن عفان فى عشرة من أصحابه سفيرا من قبله لإبلاغ قريش ما قصده من مجيئه . فبلغ عثمان رسالته الى قريش . فقالوا له : إن محمدا لن يدخلها علينا عنوة ، وحبسوه هو وأصحابه عندهم . فشاع عند المسلمين أن عثمان قد قتل .

بيعة الرضوان :

لما ذاع خبر قتل عثمان دعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه لمبايعته على الموت فى قتال المشركين ، فبايعوه على ذلك تحت شجرة هناك سميت بعد ذلك بشجرة الرضوان ، ونسبت إليها تلك البيعة .

وكانت قريش ، وقد اعتزمت أن تلجأ الى الشدة ، قد أرسلت خمسين رجلا تحت قيادة مكرز بن حفص ليطوفوا بعسكر المسلمين عسى أن يصيبوا منهم غرة ؛ فشعر بهم الحرس فأسروهم وأفلت قائدهم . فلما بلغ ذلك قريشا أرسلت كتيبة لمناوشة المسلمين ، فأسر المسلمون منهم اثنى عشر رجلا ، وقتل من المسلمين واحد .

عند ذاك خشيت قريش مغبة هذا المركب الخشن ، فلانت عريكتها ولجأت الى الملاينة ، وأرسلت سفيرا من قبلها هو سهيل بن عمرو طالبة الصلح . فلما قابل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا محمد إن الذى حصل ليس من رأى عقلائنا ، بل هو شيء قام به السفهاء منا ، فابعث الينا بمن أسرت . فقال له النبي : حتى ترسلوا الذين عندكم .

عند ذاك أرسلوا عثمان والعشرة الذين كانوا معه ، وقدم سهيل الشروط التى تطلبها قريش وهى أربعة :

(١) تقرير هدنة بين قريش وبين المسلمين أربع سنين .

(٢) إذا لجأ رجل من قريش الى المسلمين فعليهم رده ، وإذا فر واحد من المسلمين الى قريش فليس عليها رده .

(٣) أن يعود المسلمون هذا العام بغير عمرة ، ويأتوا فى العام الذى يليه فيدخلوا مكة بعد أن تخليها لهم قريش ثلاثة أيام ، ولا يكون معهم من السلاح إلا السيوف والأقواس .

(٤) من أراد أن يدخل فى عهـد محمد من غير قريش فله ما أراد ، ومن طلب أن يدخل فى عهدقريش فله ما أراد كذلك .

فقبل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الشروط دون تردد ، وداخل المسلمين منها أمر عظيم ، وأجمعوا على أن يكلموا النبي فيها . فكان مما قالوه له : يا رسول الله كيف نرد الى المشركين من جاءنا منهم مسلما ، ولا يردون هم الينا من فر اليهم مرتدا ؟

فقال لهم النبي : إن من ذهب منا اليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه اليهم فسيجعل الله له مخرجا .

وبلغ من شدة وقع هـذا الصلح على المسلمين أن عمر بن الخطاب نفسه قصد الى أبى بكر وأظهر امتعاضه منه . فقال له الصدِّيق : إنه رسول الله وليس يعصى ربه ، وهو ناصره .

فلم يقتنع عمر بما قاله له صاحبه ، وذهب الى رسول الله ، وقال له مثل ما قال لأبى بكر .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى .

فاستدعى النبي أوس بن خولة وأمره أن يكتب الشروط . فاعترض سهيل وطلب أن يكون الكاتب على بن أبى طالب أو عثمان بن عفان .

فأمر النبي عليا أن يكتب ، وأملاه بسم الله الرحمن الرحيم .

فاعترض على ذلك سهيل وقال : إن قريشا لا تعرف إلا باسمك اللهم .

فضج المسلمون من هذا التشدد ، وأمر عليا أن يكتب باسمك اللهم .

ثم قال له اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله .

فاعترض سهيل على ذلك ، وقال : لو كنا نعرف أنك رسول الله لم نقاتلك ولم نصدك عن البيت ، ولكن اكتب باسمك واسم أبيك .

فقال النبي لعلى : امح رسول الله يا على . فصعب عليه أن يمحوه ، فتناول النبي الكتاب ومحاه بيده ، وقال لعلى اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو .

بعد كتابة هـذه الشروط وتسلُّم كل من المعسكرين نسخة منها ، وأصبحت نافذة ، أقبل رجل من المسلمين يدعى أبا جندل بن سهيل لاجئا الى المسلمين ، وكان القرشيون قد منعوه من الهجرة . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إننا قد عقدنا مع القوم صلحا وأعطيناهم وأعطونا عهدا فلا نغدر بهم . فاصبر واحتسب فإن الله جاعل لك وللمستضعفين مخرجا .

لما تم أمر التعاهد أمر رسول الله أصحابه أن يتحللوا من عمرتهم وذلك بأن يحلقوا رءوسهم ، وينحروا هديهم . فأصابهم من ذلك كرب عظيم حملهم على عدم المبادرة بالامتثال . فدخل النبي على زوجته أم سلمة ، وكان قد استصحبها معه ، وقال : هلك المسلمون ، أمرتهم فلم يمتثلوا .

فقالت له : يا رسول الله اعذرهم ، فقد حملتهم أمرا عظيما بهذا الصلح ، وكانوا يريدون أن يفتحوا مكة ، فهم لذلك مكروبون ؛ فابدأ يا رسول الله بما تأمرهم به ، فاذا رأوك فعلت اتبعوك . فاتبع النبي مشورتها ، فلما رآه المسلمون يتحلل من العمرة فعلوا مثل ما فعل ، وعادوا معه .

ما كاد المسـلمون يستقرون فى مدينتهم حتى لحقت بهم أم كلثوم بنت عقبة أخت عثمان لأمه ، فطلبها المشركون . فقالت : يا رسول الله إنى امرأة ، وإن أرجعت اليهم فتنونى فى دينى ، فنزل على النبي فى ذلك حكم وهو قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار ، لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ، وآتوهم ما أنفقوا ، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ، ولا تمسكوا بعِصَم الكوافر ، واسألوا ما أنفقتم ، وليسألوا ما أنفقوا ، ذلكم حكم الله يحكم بينكم ، والله عليم حكيم » .

مؤدى هـذا الحـكم أن المرأة المؤمنة إذا جاءت مهاجرة استحلفت بأنها ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، ولا من بغض زوج ، ولا لالتماس دنيا ، ولا لرجل من المسلمين ، ولـكن حبا لله ولرسـوله ؛ فان حلفت فلا ترد ويعطى زوجها المشرك ما أنفقه عليها . وكذلك يفعل مع الزوجة المشركة فترد الى أهلها بعد أن يعطوا زوجها المسلم ما أنفقه عليها .

وحدث أن أبا بصير عتبة بن أسيد الثقفى فر الى رسول الله فأرسلت قريش فى أثره رجلين يطلبان تسليمه اليهما . فأمره صلى الله عليه وسـلم بالرجوع معهما . فرجع مع صاحبيه . ولما قارب ذا الحليفة عدا على أحد حارسيه فقتله وهرب منه الآخر . ورجع الى رسـول الله ثانية قائلا له : قد وفيت ذمتك . فقال له : لا ، اذهب حيث شئت ولا تقم بالمدينة . فخرج الى ناحية على طريق الشام تمر به تجارة قريش ، فأقام به ، واجتمع به نفر ممن كانوا مسلمين بمكة ونجوا ، ولحق به أيضا أبو جندل بن سهيل اللائذ الأول ، وأخذوا يقطعون الطريق على تجارة قريش ، فاضطر المشركون أن يرسلوا الى رسول الله يرجونه إبطال هـذا الشرط من المعاهدة ، فقبل منهم ، ومحا الله من تلك المعاهدة ما كان يجد منه المسلمون ألما ممضا .

التأثير العظيم الذى أحدثه صلح الحديبية :

روى الامام أحمد وأبو داود والحـاكم عن مجمع بن حارثة الأوسى قال : شهدنا الحديبية فلما انصرفنا منها وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفا عند كراع الغميم ، وهو موضع أمام عسفان ، وقد جمع الناس وقرأ عليهم : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا . الآيات» فقال رجل: يا رسول الله أوَ فتح هو ؟ قال : إى والذى نفسى بيده إنه لفتح .

قد يعجب القارئ لأول وهلة أن يصف الـكتاب الـكريم بالفتح المبين ما اعتبره جيش برمته ضعفا واستسلاما ، ما عدا واحدا هو أبو بكر .

وقد رأى المؤمنون بأعينهم ثمرة هذا الصلح ، وتبين أنه كان أجل أثرا وأعظم عائدة على جماعتهم من أى فتح تقدمه ، بل رأوا أنه كان يجب أن توجد هـذه الهدنة لتمهد السبيل أمام الاسلام بفتح القلوب له من طريق الاقتناع العقلى ، لا من طريق السيف وحـده . فان كل فتح فى تاريخ البشرية اعتمد على القوة وحدها انهار عقب قيامه مباشرة ، ما دام لم يصحبه تأثير أدبى فى النفوس تتألف منه عقيدة تخالط العقول والقلوب ، وتصبح بذلك حاجة روحية للقائمين به .

فالحق سبحانه وتعالى ، الذى كتب للاسلام أن تكون له دولة تُحدث فى العالم من ضروب الانتقالات الأدبية والاجتماعية ما لم تحدثه الفتوحات الكبرى مجتمعة ، أراد أن يكثر عديد الذين يصبح لهم الاسلام عقيدة متغلغلة الى أعمق ما تصل اليه عقيدة من ضمائرهم ، ليقوموا به كحاجة قلبية لهم ، الى جانب ما هو عليه كحاجة اجتماعية لوجودهم . وكيف يتسنى هذا فى وسط المعارك الدامية ، والسخائم المستعرة ؟ فكان لا بد من وجود هدنة يُلقَى فيها السلاح جانبا مـدة كافية ليتمكن العقلاء من الناحيتين من التقابل والتفاهم ، والأخـذ والرد ، والاقناع والاقتناع ، حتى يكون فى الجماعة رجال كثيرون انضموا اليها منقادين لأصوات ضمائرهم ، لا مستسلمين لعامل المنفعة ، فلا يلبثون بعد ارتفاع اليد الماسكة عنهم أن يعودوا لما كانوا عليه من جاهلية وما ورثوه وألفوه من وثنية .

من أراد أن يعرف الفرق بين هاتين الحالتين بدليل محسوس ، أحلناه الى حقيقة تاريخية وهى : أنه على أثر قيام الجماعة الاسلامية على صورة دولة قبيل فتح مكة وبعدها ، دخلت القبائل العربية المنتشرة فى جزيرة العرب فى الاسـلام ، وكان دخولها فيـه للمحافظة على وجودها ، ولاتقاء قارعة تحل بها من جراء شذوذها ؛ فلما انتقل رسول الله الى الرفيق الأعلى شقوا عصا الطاعة على مَن خلفه ، وعادوا الى وثنيتهم ، ومنعوا الأتاوات التى كانت تتقاضاهم إياها الدولة ؛ فاضطر أبو بكر الى مقاتلتهم وإعادتهم الى الطاعة بالقوة . وكان هذا العمل مما يستحيل حدوثه لو كان السواد الأعظم من مقيمى تلك الدولة على شاكلة هذه القبائل التحقوا بالاسلام طلبا للمصلحة ، لا عن اقتناع راسخ بحقيقته .

ولـكن الذى كان أن السواد الأعظم من أولئك الأصحاب والأنصار كانوا يعتقدون عقيدة راسخة بأنهم يمثلون دينا هو حاجة روحية لهم ، ويقومون بنظام اجتماعى وأدبى سينقذ الانسانية من أدوائها القاتلة ، وأنه سيعلو ويمتد حتى يؤتى أهله بخلافة الله فى الأرض ، ويعيش الناس فى رعايته على أكمل ما تكون عليه الانسانية من سعادة مادية ومعنوية . هذا العامل الأدبى دفعهم لأن يبذلوا أموالهم وأرواحهم فى سبيل الذياد عن حوضه ، والدفاع عن بيضته ، وإعادة المنشقين عنه الى حظيرته .

فأنت ترى أن هذا العامل الأدبى الذى أدت اليه العقيدة الراسخة ما كان لينتشر فى ألوف

من الناس لو اعتمد ناشروه على القوة وحدها . وكيف كانت تتهيأ البيئة لتبادل الآراء فيه ، وإقامة الأدلة عليه ، لولا عهد طويل من السلام يحدث فيه اختلاط بين رجال القبيلين يفضى كل منهم الى خصمه بما هو عليه ؟

هذا من لباب العلوم الاجتماعية التى لم يفتح بها على الناس إلا فى القرون المتأخرة ؛ ناهيك أن الناس عز عليهم أن يفهموا ما سماه كتابهم فتحا مبينا ، فى الوقت الذى كانوا يعتقدون فيه أنه مظهر من مظاهر الاستخذاء والتسليم لعدوهم .

ولم يطل العهد على الذين أنكروا هذا الصلح ، فقد تجلت لهم حكمته فى أجلى مظاهرها بعد عقده بسنتين عند فتح مكة . فقد روى سعيد بن منصور باسناد صحيح عن الشعبى فى قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » أنه قال : « لم يكن فى الاسلام فتح قبله أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس بعضهم بعضا ، والتقوا وتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، لم يُكلم أحد ذو عقل فى تلك المدة فى الاسلام إلا دخل فيه . ولقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان دخل فى الاسلام قبل ذلك أو أكثر ، ويدل عليه أنه صلى الله عليه وسلم خرج الى الحديبية فى ألف وأربعمائة ، ثم خرج بعد سنتين الى فتح مكة فى عشرة آلاف » . اهـ

لا جرم أن هذا من أعظم دلائل النبوة ، فان إقدام النبى على عمل استنكره أصحابه كلهم ، والتشدد فى إمضائه الى هذا الحد ، لم يكن من عادته صلى الله عليه وسلم ؛ فقد أثر عنه أنه كان يستشير أصحابه ويعمل بمشورتهم فيما لم ينزل فيه وحى . وقد أخبرهم فى هذه المرة بأنه نزل فى هذا الصلح وحى ، ودعاه الكتاب الكريم بعد إتمامه فتحا مبينا ، خلافا لما كان يراه فيه الناس كلهم ، وقد ظهر أنه يستحق هذا الوصف بعد ظهوره بسنتين اثنتين .

لو كانت الأمور تجرى على عاداتها ، لكان هذا الصلح الذى اعتبره المسلمون مذلا لهم ، قد زاد المشركين غرورا بقوتهم ، وتمسكا بوثنيتهم ؛ أما وقد أنتج عكس ما كان ينتظر منه ، وصدَّق الكتاب فى تسميته إياه فتحا مبينا ، فهذا مما لا يمكن تعليله إلا إذا اعتبر وحيا إلهيا ، لا تدبيرا بشريا .

إن أمثال هذه المعجزات هى التى يعتد بها العلم ، ويرى فيها مظهرا من مظاهر الاتصال بعالم أرفع من هذا العالم ، يُمَد منه الإنسان بما لا تعطيه الطبيعة المجردة من خطط العمل ، ولا سيما فيما يتعلق بالشؤون الاجتماعية التى لا يدركها إلا الذين حذقوا العلم بأحوال النفوس ، وطبائع البيئات ، وعوامل التطور ، وأين هم من هذا كله فى ذلك العهد من الظلام الدامس ، وفى تلك البقعة من قرارة البداوة المنحلة ؟ ؟

محمد فريد وجدى

السُّنَّةُ

العمل الصالح وقاية من عذاب الله

عن جابر رضى الله عنه قال : « لما نزلت هذه الآية « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعوذ بوجهك . قال : « أو من تحت أرجلكم » قال : أعوذ بوجهك . « أو يَلبِسَكم شِيَعاً ويُذيقَ بعضَكم بأسَ بعض » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا أهون ، أوهذا أيسر». رواه البخارى فى كتاب التفسير.

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) معنى الحديث إجمالا . (٢) طاعة الله وقاية من عذابه الدنيوى والأخروى . (٣) ما ذا يجب على المسلمين أن يفعلوه عند الشدائد ليحفظوا أنفسهم من الهلاك .

(١) معنى هـذا الحديث واضح ، لأنه تفسير لقوله تعالى : « قـل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم ... الخ » ، وذلك لأنه تعالى يذكر الناس بقدرته القاهرة ، ويهددهم بالعقاب الصارم الذى حاق بالأمم السابقة فأبادهم . وقد اختلف العلماء فى المعنى المراد بالعذاب فى هذا المقام ، فقال بعضهم : إن العذاب من فوق : هو الرجم ، ومن تحت : هو الخسف . وقال بعضهم : إن العذاب من فوق هو حبس المطر ، ومن تحت هو منع الثمرات . ولـكن التفسير الأول هو المعتمد الذى تؤيده الآيات الأخرى . وعلى كل حال فان عذاب الله للـكافرين شديد فى الدنيا والآخرة . ولـكن الذى ينبغى الاهتمام به حقا هو : هل هذا العذاب الدنيوى يشمل المؤمنين الذين يخالطونهم فى وطن واحد ، أو هو مقصور على الـكافرين والعاصين الذين يجاهرون بالعصيان ؟ وهل هذا العذاب واقع لا محالة ، أو قد رفعه الله تعالى بعد رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم ؟

أما الجواب عن السؤال الأول فسيأتى فى البحث الذى بعد هذا .

وأما الجواب عن السؤال الثانى فان ظاهر هـذا الحديث يفيد أن بعضه واقع لا محالة ، والبعض الآخر قد رفعه الله تعالى بعـد بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما الذى رفع فهو الرجم والخسف ، وأما الذى بقى فهو محاربة بعضهم بعضا ، واختلاطهم فرقا مختلفين على أهواء شتى ، كل فرقة تشايع حاكما خاصا حسبما تهوى أنفسهم ، فينشب القتال بينهم ويختلطون

فيه . وهذا معنى قوله تعالى : « أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » . ويدل على هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استعاذ بالله من العذاب الذى من فوقهم أو من تحت أرجلهم ؛ ومعنى استعاذته بالله منه أنه طلب من الله تعالى أن يرفعه عن الناس ولا يعذبهم فى الدنيا بذلك ، فاستجاب الله له . أما العذاب باختلاطهم شيعا وإذاقة بعضهم بأس بعض ، فانه لم يستعذ بالله منه ، بل قال : هذا أهون أو هذا أيسر . ويؤيد ذلك ما رواه ابن مردويه من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دعوت الله أن يرفع عن أمتى أربعا ، فرفع عنهم ثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين : دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء ، والخسف من الأرض ، وأن لا يلبسهم شيعا ، ولا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع الله عنهم الخسف والرجم ، وأبى أن يرفع عنهم الآخريين » .

ويرى بعض الأئمة أن الخسف والرجم لم يرتفعا وأنهما يقعان فى هذه الأمة ، واستدل لذلك بما رواه الترمذى من حديث عائشة مرفوعا : « يكون فى آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف » ، وبما رواه أحمد والترمذى من حديث سعد بن أبى وقاص قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية « قل هو القادر » الى آخرها ، فقال : أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد» ، وبما رواه أحمد والطبرى من حديث أبي بن كعب فى هذه الآية « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ـ الآية » قال : « هن أربع وكلهن واقع لا محالة » ، الى غير ذلك من الأحاديث الدالة على وقوع العذاب الدنيوى بعد بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وتحقيق هـذا المقام يستلزم تفسير قوله تعالى : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ، وقوله تعالى : « ولو لا كلمة سبقت من ربك لـكان لزاما وأجل مسمى » . فمعنى الآية الأولى أن الله تعالى قد وعد نبيه عليه الصلاة والسلام برفع عذاب الاستئصال والإبادة للأمم الذين كذبوه . ومعنى الآية الثانية أن خروج المشركين عليه وتكذيبهم إياه ومحاربة دينه بكل قسوة وغلظة يستدعى إبادتهم كما أبيدت الأمم الفاجرة من قبلهم ، ولـكن الله تعالى قد وعـد نبيه بقوله : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » برفع هـذا العذاب عنهم ؛ فهو سبحانه يقول لنبيه : ولو لا هذه الـكلمة التى سبقت منى لـكان عذاب الأمم السالفة لا زما لهذه الأمة .

وقد بين الحديث الذى معنا المراد بالعذاب الذى رفع عن الناس بعد بعثة الرسول ، فإنه صرح بأن ذلك العـذاب هو المسخ والرجم الذى يستئصل الأمم ويبيدها ، أما غير ذلك من أنواع العذاب فإنه لم يرفع .

وما ورد فى الأحاديث التى تدل على أن الخسف والرجم لم يرتفعا بعد بعثة الرسول وأنهما سيقعان لا محالة ، لا ينافى ذلك ، فإن الأحاديث الدالة على أن الله رفع هذا النوع من العذاب بعد بعثة رسول الله ليس فيها ما يدل على رفعه دائما ، بل الآية تدل على أن رفعه محدود له أجل

مسمى ، كما يدل لذلك قوله تعالى : « ولو لا كلمة سبقت من ربك لـكان لزاما وأجل مسمى » ، فإن قوله : « وأجل مسمى » معطوف على « كلمة » . والمعنى : ولو لا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لـكان عذاب الاستئصال لا زما لـكل أمة تجاهر ربها بالعصيان وتكفر بآياته وتحارب رسله الذين يريدون بهم الخير . ولهذا قال فى فتح البارى : إن طريق الجمع بين هذه الأحاديث أن الإعادة المذكورة فى حديث جابر (الذى نشرحه الآن) وغيره مقيدة بزمان مخصوص وهو وجود الصحابة والقرون الفاضلة ؛ وأما بعد ذلك فيجوز وقوع ذلك فيهم . ومعنى ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قد قبلت استعاذته من هذا النوع من العذاب وأجل تنفيذه الى أجل مسمى ، وهو الذى يريد الله فيه أن يبطش بالفجار الذين خرجوا عليه وعلى نظمه المعقولة النافعة واتبعوا أهواءهم وشهواتهم بعد أن أمهلهم أزمنة كثيرة وقرونا طويلة .

(٢) مما لا ريب فيه أن فساد الناس وخروجهم على ربهم يستوجب النقمة ويستنزل العذاب ، ولـكن قد يكون من الناس الفجار من لا يستحق العذاب ، بل قـد يكون فيهم الصالحون الذين يؤمنون بالله ويتبعون ما أمرهم به ؛ فهـل هؤلاء الصالحون يذهبون ضحية هؤلاء الفجار ويهلـكون مع الهالـكين ؟

والجواب عن ذلك أن طاعة الله سبحانه وتعالى وقاية من العذاب الدنيوى والأخروى ، ولـكن طاعة الله تعالى ليست مقصورة على أداء العبادات الخاصة بالشخص كالصلاة والصيام ونحو ذلك ، بل طاعة الله تعالى تتناول كل ما أمر الله به أو نهى عنه . فاذا أمر الله المسلمين أن لايتجاهروا بالفسوق والعصيان ، وأن يأمر بعضهم بعضا بالمعروف وينهى بعضهم بعضا عن المنـكر ، وأن يستعملوا كل الوسائل التى تجعلهم أقوياء فى أبدانهم وفى أخلاقهم وفى أموالهم وفى قوتهم المعنوية والمـادية ، فأهملوا ذلك كل الاهمال واتبعوا كل شىء تدفعهم اليه شهواتهم الفاسدة وتزينه له أهواؤهم الضارة بالخلق والمـال والقوة ، فانهم لا يجديهم بعد ذلك أن يصلوا ويصوموا ، أو نحو ذلك من العبادات . نعم إن هؤلاء يثابون على أداء هذه الفرائض ويخرجون عن المسئولية أمام الله تعالى فى الآخرة ، أما فى الدنيا فان الله تعالى قد جعل الحياة فيها منوطة بوسائل معروفة وسنن متبعة ، وقال لنا : يجب عليكم أن تستمسكوا بهذه السنن ، وأن تقاوموا شهواتـكم الضارة بـكل ما أوتيتم من بطش وقوة ، فان لم تفعلوا خسرتم كل شىء فى هذه الحياة ؛ خسرتم الصحة ، والقـوة ، والشرف والـكرامة ، وتداعت عليكم الأمم كتداعى الآكلة الى قصعتها . ويؤيد ذلك قوله تعالى : « أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعـذاب بئيس بما كانوا يفسقون » ، فان ذلك صريح فى أن الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنـكر ولا يرضون عن الفسق والفساد ويقاومونه بـكل ما أتيح لهم من قوة ، يكونون بمنجاة من عذاب الله تعالى . وما ورد من أن العذاب الدنيوى يعم المفسدين والصالحين

فانه خاص بالصالحين الذين لا يقومون بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ؛ أما الذين يقومون بواجباتهم ولا يبالون بما عساه أن ينالهم من عنت وشدة فى سبيل محاربة الفساد ، فان الله تعالى يجعل لهم سبيلا الى النجاة لا محالة . ولذا قال تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » ؛ فان معنى ذلك محاربة الشرور والفتن الضارة بالدين والدنيا قبل استفحال أمرها وتفاحش شرها .

فمن المؤكد أن طاعة الله تعالى وقاية من عذاب الله الدنيوى والأخروى ، بشرط أن لا يخلط الانسان قواعد الدين ، فلا يظن مثلا أن الصلاة تغنيه عن العمل لدنياه ، ولا يظن أن الدعاء وقراءة الأحزاب تغنى عن وسائل القوة التى يرهبها أعداء الدين ، لأن الله تعالى قال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » الى غير ذلك مما ذكرناه غير مرة .

(٣) ولعل قائلا يقول : ماذا يصنع المسلمون الآن ، وقد فرط أسلافهم من قبل وتفرقوا شيعا حتى تمكن منهم الضعف الخلقى ، وزين لهم الشهوات الفاسدة ، وحبب إليهم الخروج على الأدب والحياء ، بل أصبحوا فى حالة صعبة العلاج ، لأنهم يرون التهتك والخلاعة والمجون مدنية لا مناص للإنسانية منها ، ويرون الجد فى القول والعمل جمودا يتنافى مع المدنية والإصلاح ؟

والجواب : أن المسلمين ما داموا مندفعين فى هذا التيار فإنهم سيرون من عقوبة الله وبطشه بهم مالا يخطر لهم على بال ؛ ولا بد أن يسلط الله عليهم أعداء كثيرين يسومونهم سوء العذاب ، أو يأخذهم بنوع من أنواع العذاب الذى أخذ به من كان قبلهم .

فلا مناص لهم الآن من أمرين : الاتحاد ، وترك الرذائل الخلقية جانبا ، فإذا اتحدوا وتجنبوا وسائل العظمة الكاذبة ، وطرحوا الرذائل الخلقية جانبا ، فإن الله تعالى يرفع عنهم مقته وعذابه الذى حاق بالأمم السالفة . وهذا علاج قد يكون عزيزا ، بل قد يخيل للناس أنه محال لأن قادة الأفكار فيهم مختلفون فى مشاربهم ومذاهبهم وأخلاقهم ، وهذا الاختلاف يستحيل معه الوفاق . ولكننا لا نرى شيئا فى هذه الحياة مستحيلا ؛ فما على المسلمين إلا أن يحاولوا هذا الاتحاد ؛ وعليهم أن يحتقروا المفسدين الإباحيين وينزلوهم المنازل اللائقة بهم ؛ وعند ذلك يأمنون عقاب الله وسخطه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ؟

عبد الرحمن الجزيرى

الحلم يقهر الجهل

قال شاعر حكيم :

وذى رحم قلمت أظفار جهله ... بحلمى عنه حين ليس له حلم
إذا سمته وصل القرابة سامنى ... قطيعتها ، تلك السفاهة والإثم
فداويته بالحلم والمرء قادر ... على سهمه ماكان فى كفه السهم

التصوف والمتصوفون

— ٣ —

كان النظام يقضى علينا بأن نتناول فى هذا المقال بعد الذين قد مناهم من أعيان المتصوفين ، ذا النون المصرى ، وأبا يزيد البسطامى ؛ ولكن لما كنا قد أشرنا الى هذين المتنسكين فى فصل نشرته لنا هذه المجلة منذ أعوام ، فقد آثرنا أن نتركهما تجنبا للإعادة ، وإن كان لا يفوتنا أن نقرر أن ثانيهما وهو البسطامى يعتبر أحد مؤسسى التصوف النظرى الذى أسسه أصحابه على فكرة وحدة الوجود ، وأنه كان أول من نشر فكرة « الفناء » فى البيئات العربية ، وأن طريقته تدعى حينا بالطيفورية ، وحينا بالبسطامية ، ولا تزال بقاياها الى هذا العصر الحديث فى بسطام حيث يوجد قبره . والآن اليك من يلون هذين المتصوفين :

ابراهيم بن أدهم :

لا يعرف التاريخ عنه إلا قصصا مشوبة بالخرافات والأساطير ، فهو يحدثنا أنه أحد أمراء بلخ ، وأنه كان فى أحد الأيام يصطاد الظباء فى جمع من أفراد حاشيته ، فطارد ظبية حتى ابتعد عن أتباعه ، فلما اختلت به الظبية سألته فى لغة فصيحة رشيقة قائلة : ألمثل هذا أنت خلقتَ فى هذا العالم ؟ ومن الذى أمرك أن تعيش على هذا النحو ؟ فلم يكد يسمع هذه العبارات حتى ندم واعتزل الناس ، وعاش عيشة الفقراء يأكل من عمل يديه . وأخيرا ترك العمل وتغلغل فى الصحراء ، فجعل الطعام يأتيه من طريق غير طبيعى ، وأخذ يستقبل الخضر الذى كان يزوره كثيرا ، ويلقى عليه دروسا فى العلم والتنسك .

وتذكر رواية أخرى أنه وهو أمير فى بلخ كان نائما فى غرفته ذات ليلة ، وكان الحارس نائما فوق سطح هذه الغرفة ، فسمع ضجيجا ووقع أقدام فوق السقف ، فسأل عن مصدر هذه الجلبة ، فأطلت كائنات من نوافذ الغرفة وأجابته قائلة : إننا نبحث عن جمال . فسأل إبراهيم قائلا : وهل يبحث عن الجمال فوق السقف ؟ فأجابته الأشباح قائلة : وأنت كيف تحاول الاتصال بالله وأنت جالس فوق العرش ؟ فأثرت هذه العبارات فى نفس الأمير تأثيرا دفعه الى مغادرة قصره وهجران ثروته . ومنذ ذلك العهد انقطع عن العالم وتفرغ للعبادة والتأمل فى مصنوعات الله حتى صار من أجلاء الصوفية ، وأصبحت الوحوش والطيور تأتمر بأمره .

هذه هى الصورة التى قدمتها إلينا الأساطير عن إبراهيم بن أدهم . أما تاريخه الصحيح ،

وكيفية تخليه عن الحياة وانصرافه إلى الزهادة ، ومرتبته الحقيقية بين المتنسكين ، فقد ظلت محجبة عن الباحثين تماما . ولهـذا نحن نكتفى فى جانب هذه الشخصية الهامة بذكر تلك الأساطير التى تشبه أساطير بوذا ، بل لعلها ماخوذة منها ، الى أن تكشف البحوث الحديثة حقيقة أمر هذا الرجل العظيم .

إلى هنا ينتهى الفريق الأول من الطبقة الاو لى ، وهو فريق العصر الإعدادى ، أو فريق المتنسكين العمليين . وسندرس فيما بعد طائفة من أعيان متصوفى عصر الإزهار ، وهم الذين اشتهروا با رائهم النظرية المباينة لظاهر الشرع .

غير أنه ليس معنى هذا أن جميع متصوفى عصر الإزهار كانت لهم آراء متعارضة مع الشرع ، كلا ، فان بينهم من لم يؤثر عنه هـذا التعارض كالجنيد والنورى مثلا ، وإنما أكثر أعيان متصوفى ذلك العصر كانوا ذوى آراء نظرية تأثرت بالفلسفة الاغريقية وبالمتنسكين : الهندى والمانوى ، وبوحدة الوجود والحلولية الاسكندريتين ، وبالرهبنة المسيحية ؛ وسنرى بيان ذلك فيما بعـد :

النورى :

ولد أبو الحسن أحمد بن محمد البراوى فى بغداد ، ولا يعرف بالضبط تاريخ مولده . ولما شب تتلمذ على سرى السقطى عم الجنيد ، فكان ذلك سببا فى الاتصال بينه وبين الجنيد كزميلين ثم كصديقين . وفى أثناء هـذه الدراسة أخذا يتعاونان معا على شرح وبسط بعض النظريات الإلهية والأخلاقية للمحاسبى ، وعلى الأخص نظرية المحبة الإلهية التى كان المحاسبى (فيما يظهر) أول من تناول الكتابة عنها فى البيئات الاسلامية . وقد قرر النورى فى هذه المسألة أن آية هذا الحب الإلهى هى تحمس المؤمنين لأداء العبادات دون أى أمل فى مكافأة ، وليست العبادة التى ينتظر أصحابها من ورائها الجزاء . وقد رأى الحلاج فيما بعد أن المكافأة العليا التى يمنحها الله عباده المطيعين هى رؤيته فى الجنة ، لا ما فيها من متع مادية .

غير أن أصحاب النورى كأبى حمزة البغدادى وأضرابه قد غالوا فى هذه النظرية ، ورمزوا لها برموز مادية سخيفة ، حيث قرروا أن هـذا الحب يقرب صاحبه قربا حسيا من الإله ، فجحد النورى هذه المغالاة ، ولكن أحد خصومهم من الصوفيـة وهو أحمد بن محمد الباهلى أبلغ عنهم الخليفة الموفق ، فأمر باعتقال النورى وأصحابه وهددهم بالموت . ولما كان الجنيد من المتصلين بهذه الجماعة ، فقد فر وخلع لباس الصوفية ، وأعلن أنه فقيه لا يلقى على تلاميذه إلا الشريعة الاسلامية الواضحة .

أما خطة النورى فقد كانت برهان البطولة والشجاعة ، إذ أنه — مع جحوده لهذا الرأى

الذى كان سبب محنته — كان أول من قدم نفسه الى الموت فى هدوء واطمئنان ، فتأثر محتسب الخليفة بهذه الشجاعة وعفا عنهم جميعا .

لم يفقد النورى بعد هذه الحادثة شيئا من تحمسه لما يعتقده ، ولم يعدل عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أيا كان شأن ذلك المخالف ، حتى قيل إنه كان ينهى الخليفة فى عنف عن مخالفة الشرع . وأكثر من ذلك أنه رأى فى أحد الأيام شخصا يحمل وعاء مملوءا بالنبيذ ليدخله الى القصر ، فكسر الوعاء ونهر حامله .

وأخيرا توفى النورى بسبب سقوطه فوق عود مدبب وهو فى حالة الغيبوبة ، وكان ذلك فى سنة ٢٩٥ هـ .

الجنيد ـ حياته ومؤلفاته:

هو أبو القاسم بن محمد الخزاز القواريرى ، وقد ولد وترعرع فى نهاوند ، فلما شب ارتحل الى بغداد ، وبها عرف عددا من أجلاء الأساتذة وتلقى عنهم العلوم المختلفة ، فكان فى الفقه تلميذ أبى ثور الكلبى ، وفى التوحيد تلميذ المحاسبى ، وفى الأخلاق الدينية تلميذ معروف الكرخى ، ثم صار بعد ذلك من أكابر رجال الحديث ، ولكنه بعد اتهام النورى وقف مجهوده العلمى على الفقه . وقد كان من الأساتذة الأساسيين الذين كونوا الحلاج .

كان الجنيد شديد الورع ، ولم يمنعه تصوفه عن التمسك بأهداب الشريعة ، لأنه كان يؤمن بالمبدأ القائل : المتصوف هو الذى لا يطفئ نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات على هتك محارم الله . وله تعبيرات صوفية شهيرة ، وشطحات معروفة . وقد توفى فى شوال سنة ٢٩٨ هـ .

أما مؤلفاته الموثوق من صحة نسبتها إليه فمن أهمها ما يلى :

(ا) «كتاب السكر» (ب) «كتاب دواء الأرواح» (ج) «كتاب الفناء» .
(د) «كتاب الميثاق» . (هـ) «كتاب الألوهية» . (و) «كتاب آداب الفقر» .
(ز) «كتاب التوحيد» . (ح) «كتاب آداب المفتقر الى الله» . (ط) «كتاب سر أنفاس الصوفية» . وله غير ذلك رسائل هامة وأجوبة على أسئلة ذات قيمة .

مذهبه :

صدر الجنيد فى مذهبه عن مسألة الميثاق الوارد فى القرآن ، والذى أقسمت الأرواح بمقتضاه أن تؤمن بالله قبل أن يخلق أبدانها ، واستخلص من هذا أن كل حقيقة الانسان كانت موجودة فى تلك اللحظة التى تعهدت الأرواح فيها لخالقها بالإيمان . وإذاً ، فهذه الحقيقة الانسانية تنحصر فى جوهره الروحانى . أما البدن فباطل لا يقام له وزن . ثم قرر أن مصير

الإنسان قد تحدد نهائيا فى ذلك اليوم الذى عقد فيه الميثاق ، فاختار الله السعداء وانفصل فيهم من الأشقياء . وعبارة الجنيد نفسها هى : « اعتزل الله بهم » أى أن ألوهيته قد انكشفت لهم فى ذلك الوجود النقى الذى كانوا فيه قبل عالم الأشباح ، والذى لا يزال الإله يجذبهم الى العودة إليه من خلال هذه الحياة ، ولكن هذه العودة لها درجات ، أولاها المعرفة ، وهى تبدأ بالتوحيد ، ثم بتحديد الوحدانية الإلهية ، وهذا التحديد لا يتحقق إلا بجحود الكيف والحيث والأين وهو التنزيه ، ولكن الوصول الى هـذه الدرجة لا يكفى فى تحقيق الغاية المثلى ، لأن الله لا يلحق بهذه الغاية إلا من يشاء عن طريق السكر التنسكى ، وهو نوع من الجنون الفجائى والغير الطبيعى يمنحه الله الانسان فيصير بوساطته فى حالة يقول ويفعل فيها ما يشاء دون أن يكون مسئولا عما يقول أو يفعل ، ودون أن يتنزل الإله الى التوفيق بين هذه الأفعال والأقوال وبين أوامره الموحى بها . ومن يتجلى الله عليه بهذه المنزلة ، يستولى عليه بعنف جليل ، ويحوله الى تراب قبل أن يميته ويهلكه ويدفنه ثم يبعثه دون أن يذكر أى شىء عن حياته الأولى التى ارتقى فيها الى مرتبة السكر .

فى هـذه المرتبة ينعزل الالهى من المادى . وبعبارة أخرى : نهاية الانسان تعيده الى مبدئه ، أى أن الله يعيد المصطفين عند وصولهم الى الدرجـة العليا الى نفس الحالة الإلهية المحضة التى كانوا عليها قبل حلولهم فى الأشباح ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

من صنوف الناس

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « كن عالما أو متعلما ، ولا تكن الثالثة فتهلك » .

أقول : لست أذكر أنى فيما قرأت للحكماء شرقيين وغربيين ، أنى صادفت حضا على طلب العلم أرفع ، وأوقع فى النفس ، وأبلغ فى الإيجاز ، من هذا الحض .

لا جرم ، أنه من جوامع الكلم التى خص بها النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال حكيم :

الإخوان ثلاثة : فأخ يخلص لك وده ، ويبذل لك رفده ، ويستفرغ فى مهمك جهده ؛ وأخ ذو نية يقتصر بك على حسن نيته دون رفده ومعونته ؛ وأخ يتملق لك بلسانه ، ويتشاغل عنك بشانه ، ويوسعك من كذبه وأيمانه .

وقال شاعر :

وما الداء إلا أن تعلم جاهلا ... ويزعم جهلا أنه منك أعلم

حياة رجالات الإسلام

أبو بكر الصديق

— ٥ —

هجرته الى المدينة

أقام أبو بكر رضى الله عنه بمكة ما أقام فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ردءاً للمسلمين ، يحوطهم برعايته ، ويحنو عليهم ، ويعينهم بنفسه وماله ، يفتدى أرقاءهم ، ويفك عانيهم ، ويريش فقيرهم ، ويحملهم الى حيث يأمنون على دينهم وأنفسهم ، حتى أصبح وله فى قلوب المؤمنين ما كتب الله له من الفضيلة الفارعة ، والشرف الأسبق ، والحب الخالد ، وحتى أصبح للمشركين شجا ، وللكفر داء عياء ، يكيده براسخ إيمانه ، ويطعنه فى مقاتله بأشرف خصاله ، فضاقوا به ذرعا ، وجعلوه فى عداوتهم مع النبى صلى الله عليه وسلم عدلا ، وأرادوا بهما كيدا ، فقدروا ودبروا ، وكان الله خير الماكرين .

اشتد الأذى بالصديق رضى الله عنه كما اشتد بسائر المؤمنين ، فهاجروا هجرة الفتح والنصر المؤزر الى يثرب ، حيث المنعة والقوة ، فى سبيل الله ، باذن من النبى صلى الله عليه وسلم ، بعد أن وطأ لهم أواصر الاخاء مع البهاليل من بنى قيلة ، وبقى أبو بكر مع نفر قليل من الصحابة بمكة ، فكان ذلك دافعا لصناديد الكفر الى اشتداد ضغينتهم على المؤمنين ، وقسوتهم فى ألوان الأذى بهم خشية أن يلحقوا باخوانهم ، وصرفوا أكبر همهم الى أبى بكر ، وتفننوا فى إيذائه ، ومنعوه القيام بحقوق ربه ، تخشى أن يتحرك له قومه عصبية لحميتهم فيتفاقم الخطر فى غير عائدة على عقيدته ودينه ، فاستقر رأيه على اللحاق باخوانه مهاجرا الى الله بدينه . قال صاحب المواهب : « وكان الصديق كثيرا ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ، فيقول : لا تعجل ، لعل الله أن يجعل لك صاحبا ، فيطمع أبو بكر أن يكون هو » . وهذا مظهر من أعظم مظاهر حفاوة النبى صلى الله عليه وسلم بالصديق ، واختصاصه بنفسه دون غيره من سائر الناس ، وهو أيضا مظهر من مظاهر تعلق نفس الصديق بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وإرادة ملازمته فى غدواته وروحاته .

ويحدثنا الامام البخارى فى الصحيح من حديث طويل عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « وتجهز أبو بكر قِبلَ المدينة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : على رِسْلك ، فانى أرجو

أن يؤذن لى ، فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبى أنت ؟ قال : نعم ، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر (وهو الخَبَـط) أربعة أشهر ، قالت عائشة رضى الله عنها : فبينا نحن يوما جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهيرة قال قائل لأبى بكر : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنعا فى ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فداء له أبى وأمى ! والله ما جاء به فى هذه الساعة إلا أمر ! قالت عائشة : فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن فأذن له فدخل ، فقال لأبى بكر : أخرج مَن عندك ، فقال أبو بكر : إنما هم أهلك بأبى أنت يا رسول الله ، قال : فانى قد أذن لى فى الخروج ، فقال أبو بكر : الصحابة بأبى أنت يا رسـول الله ؟ قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، قال أبو بكر : فخذ بأبى أنت يا رسـول الله إحدى راحلتى هاتين ، قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : بالثمن ، قالت عائشة : فجهزناهما أحث الجهاز ، وصنعنا لهما سفرة فى جراب ، فقطعت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاقين » .

وفى هذا الخبر من فنون المعرفة والأدب ما يجعلنا نقف معه لنزيدها تبيينا وتوضيحا ، لتكون للمؤمنين تبصرة وذكرى ، وللعاملين منار هداية وإرشاد ، وللمصلحين خير أسوة : فأبو بكر رضى الله عنه رأى أن مكة لم تعد صالحة فى ذلك الحين لنشر شرائع الحق فيها ، وأنها عبأت نفسها للوقوف فى وجه الدعوة الجديدة ، وأنها متشبثة بأوثانها ، فاستعد للهجرة زمنا طويلا ، ولكنه كان يتطلع الى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل يحس إحساسا قويا بمصاحبة النبى صلى الله عليه وسلم فى هجرته ، لأنه اطمأن الى بشارته برجاء أن يجعل الله له صاحبا ملوّحا الى ذاته الشريفة ، فأعد الصديق لهذا اليوم راحلتين ليحمل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤنة التفكير فى وسائل هذا السفر ، وتدبير أسبابه المادية كدأبه فى جميع مواقفه النبيلة .

ولا يخفى ما أشاعه ذلك فى نفس أبى بكر من البهجة التى صورها فى هذه العبارة الهادئة الرائعة بعد قول النبى صلى الله عليه وسلم له : على رسلك فانى أرجو أن يؤذن لى ، وهل ترجو ذلك بأبى أنت ؟ ولا يفوت أرباب القلوب هنا الالتفات الى مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوكل المطلق ، حيث لم يتخذ لهذه الهجرة وهو يرجوها أى سبب من الأسباب المادية ، والى مقام الصديق رضى الله عنه حيث أعد العدة واتخذ الأسباب .

وفى هـذا الخبر أبرع تصوير وأدقه لمكانة أبى بكر وآله عند رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، فانه لم يكد يأتيه الإذن من الله تعالى بالهجرة حتى يذهب الى بيت صاحبه فى ساعة لم يكن يجيئهم فيها ، ويأمره أن يخلو إليه باخراج من عنده ليسر إليه أمرا هو أخطر ما عرض لامتحان الدعوة فى هذه المرحلة القصيرة ، فيجيبه أبو بكر بأن لا عين عليك ، لأن هؤلاء الذين عندى إنما هم أهلك الذين يشاركوننى فى فدائك بأنفسهم ، فيقول رسول الله صلى الله

عليه وسلم : «فإنى قد أذن لى فى الخروج » ، فيطلب الصديق فى لهفة ، الصحبة ، فيجاب بما يقر عينه . وهنا أعتذر للقلم إذا اعتراه البهر فلم يستطيع تصوير حال أبى بكر فى هذه الساعة التى تحققت فيها أعظم أمانيه ، ثم هو يرجو من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل منه إحدى راحلتيه ، فيقبلها ولكن بثمنها لتكون هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم متمحضة الى الله تعالى ، وفى هذا تعظيم شأن الهجرة . قال العلامة القسطلانى : « فان قلت فلم لم يقبلها إلا بالثمن وقد أنفق عليه أبو بكر من ماله ما هو أكثر من هذا فقبل ؟ أجيب بأنه إنما فعل ذلك لتكون هجرته الى الله بنفسه وماله رغبة منه عليه السلام فى استكمال فضل الهجرة الى الله ، وأن يكون على أتم الأحوال » .

وفى هـذا الخبر يتمثل فن من فنون أدب الخطاب ، وأدب الحب الروحانى ، فما يكاد أبو بكر يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو فى خطابه يفديه بأبيه وأمه تعظيما لقدره العظيم ، فأين منا هذه القدوة فيما ابتدعناه فى أساليبنا المتحدثة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، حتى أصبح أقربنا الى التأسى من « يصلعم » أو يكتفى مشيرا الى هذه « الصلعمة » بحرف « ص » ؟! فما أحوج المسلمين الى إشعار قلوبهم فى كل لحظة بعظمة النبى صلى الله عليه وسلم ، وإيقاظها بلهج الألسنة وخط الأقلام اقتداء بأعرف الناس بقدر الحياة وأوزنهم للحظات الأزمان ؟ أين نحن من الحياة وقد زعمنا أننا نكتفى بالاشارة الى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بهذه « الصلعمة » الجوفاء حرصا على « الوقت » و « المداد » و « الورق » بالنسبة الى بناة مجد الاسلام وواضعى أساس أعظم دولة فى العالم ، وما كانوا يرون فى ترداد ذكرهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإظهار تعظيمه بالصلاة عليه إلا أشرف حافز لهم على تناول أسباب السيادة العادلة بإيمانهم .

إنهم جدّوا وهزلنا ، وغاصوا على اللباب وتشبثنا بالقشور ، فسادوا وتعبدنا ، وتحرروا وقلدنا ، وتقدموا وتخلفنا . وما أحرانا أن نتأمل قول الصديق الأعظم رضى الله عنه : « إن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ، ولا يحتمله إلا أفضلكم وأملككم لنفسه » .

وفى هذا الخبر يتمثل وزن العقيدة الصادقة فى النفوس العظيمة ، فلا عزازة الوطن ، ولا لصوق المال بالروح ، ولا محبة الأهل والولد ، بأحرى أن تكون فى كفة ميزان مع العقيدة الراسخة إذا لفت فى جوانبها الإيمان بالحق ؛ وما قيمة وطن لا يطمئن فيه المرء على إعلان كلمة الحق ، ولا يستطيع أن يؤدى فيه حقوق خالقه ، ولا يستطيع أن يرد باطلا ، أو ينصر مظلوما ؟ وماقيمة مال لا يعرف فيه حق المنعم به ، ولا يتسنى فيه مواساة الفقراء والمساكين ، ولا يعان به على نوائب الحق ؟ وما قيمة أهل وولد لا يستجيبون لدعوة الحق ، ولا يؤازرون فى سبيل

الله ؟ إن حلاوة الإيمـان تجعل كل أولئك فى جانب العقيـدة الصحيحة لا يزن عند صاحبها شيئا ، وكذلك كان المؤمنون الصادقون فى صدر الاسلام .

ويتمثل فى هذا الخبر دستور المؤمنين المخلصين إذا احتوشتهم بيئات شملها الفساد فى كيانها الاجتماعى والخلقى حتى لم يعـد لصيحة الحق فيها أثر ، بل إن فسادها لاستفحاله يصور لها باطلها حقا ، تدافع عنه ، فتضطهد دعاة الحـق ، وتؤذى المصلحين ، وترميهم بـكل قاصمة ، وتسد فى وجوههم سبل الارشاد ، فلا يبقى لهم طريق الى قلوبهم ؛ والحق رحمة الله الى الانسانية عامة أينما وجدت ، فإذا استيأس المصلحون أن تنبت بذور الخير فى بيئة انتقلوا الى غيرها حتى تلاقيهم فِطر مكتنزة الحيوية ، لا يعشيها ضوء الحق ، وهناك يستنبتون حتى يستثمروا ، فإذا امتلأت أيديهم وقلوبهم عادوا الى ما استعصى عليهم فطهروه ومزجوا آخرهم بأولهم ، وضموا الى وطنهم أوطانا ، وإلى أموالهم أموالا ، وإلى أهلهم أهلا وولدانا ، وهـذا وعد الله تعالى فى قوله : « ومن يهاجرْ فى سبيل الله يجدْ فى الأرض مُرَاغماً كثيرا وَسعة » . قال جار الله فى الـكشاف عند تفسير قول الله جل شأنه : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » : « وهـذا دليل على أن الرجل إذا كان فى بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب لبعض الأسباب ، والعوائقُ عن إقامة الدين لا تنحصر ، أو علم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله ، وأدوم على العبادة ، حقت عليه المهاجرة » .

خرج الصديق رضى الله عنه مهاجرا الى الله تعالى فى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقيه بنفسه ، وكان أبو بكر مقصودا للمشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يبال بالموت وهم يترصدونهم فى كل مكان . روى عن أسماء بنت أبى بكر أنها قالت : « ولما خفى علينا أمر رسـول الله صلى الله عليه وسـلم أتانا نفر من قريش ، منهم أبو جهل بن هشام ، فخرجت إليهم فقـال : أين أبوك ؟ فقلت : والله لا أدرى ، فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشا خبيثا ـ فلطم خدى لطمة خرج منها قرطى ، ثم انصرفوا » .

وحديث الهجرة ينشر فضيلة للسيدة الجليلة أسماء الصديقية ، فهى كانت ممن اطلع على سر الهجرة ، وكانت مقدرة تمام التقدير خطورة موقف المهاجرين فى تلك الساعة الحرجة ، فلم تفقد من شجاعتها شيئا ، فاذلم تجد ما تربط به على فم الجراب عمدت الى نطاقها تشقه لتعجل لحظات من الزمن يتقـدم فيها الرسول وصاحبه الى غرضهما النبيل ، وبذلك كتبت فى بياض التاريخ سطرا خالدا أضاف الى اسمها اسما جديدا كان من مفاخرها الى مفاخر آل الصديق فى الاسلام ؟

صادق ابراهيم عرجون

اثبات الروح الانسانية حسيا

أدلة جديدة على مقتضى الدستور العلمى

نشرنا فى العدد الأخير من أعداد السنة الماضية أن العلم اهتدى الى أدلة جديدة على وجود الروح الانسانية مستقلةً عن الجسد ، وأنه قد توصل الى تصويرها خارج الجثمان ؛ فأقام بذلك دليلا محسوسا على بقائها بعد الموت . وقلنا إننا سنترجم ما ألفه فى ذلك الموضوع الأستاذ الكبير (ارنست بوزانو) العلامة البسيكوحى الايطالى ، وترجمه الى الفرنسية المسيو (جبرييل جوبرون) . وقد نقلنا مقدمته فى ذلك العدد . ومضت الأعداد الأربعة من السنة الراهنة ولم نجد فيها مكانا يتسع لتلك الترجمة ، واليوم نعود لانجاز ما وعدنا به من متابعة النقل فى هذا الموضوع الخطير ، لأنه يعتبر من أعظم الفتوحات العلمية ، التى يحقق الله بها ما وعد به فى كتابه ، من موالاته العالم بالآيات فى الآفاق وفى الأنفس ، حتى يتبين أن ما أوحاه الى رسله هو الحق . ولست أستطيع أن أقدّر قدر الانقلاب الأدبى الذى يحدثه اعتراف العلم بوجود الروح وخلودها من طريق أسلوبه المؤسس على الأدلة المحسوسة .

الطائفة الأولى من تلك الأدلة المحسوسة

كتب الأستاذ المؤلف فى هذه الطائفة نحو عشرين صفحة ، أثبت فيها أن الذين تُبتر بعض أعضائهم يحسون بوجودها إحساسا يقينيا ، مع أن مادتها غير موجودة . فمن بُترت ذراعه أو ساقه ، شعر بوجودها وحرّكها وفرّق بين أصابعها بارادته ، على حين أنه مبتور الذراع أو الساق المادية .

فرد المنكرون على هذا بقولهم : إن هذا الشعور من المبتور وهمى محض ، لأنه صاحبَ العضو المبتور سنين كثيرة من حياته ، فلما قُطع بقى له الشعور الذى ألفه ؛ وهذا يمكن تعليله بشدة التوهم لا بشىء آخر .

ولكن الأستاذ البسيكولوجى المشهور (وليم جيمس) الأمريكى ، المدرس بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة ، رد على هذا التعليل بايراد ما كتبه العالم الفيزيولوجى الألمانى فالانتان فى كتاب له وهو قوله :

« شوهدت بنت سنها خمس عشرة سنة ، ورجل سنه أربعون سنة ، لم يكن لكليهما إلا يد واحدة صحيحة ؛ أما الثانية فكانت معيبة إذ كان فيها بدل الأصابع بروزات لحمية لا عظم فيها ولا عضلات . وكان الاثنان رغما عن هذا النقص يشعران موقنين بوجود أصابع فى تلك اليد تنثنى بالإرادة كلما ثنيا تلك البروزات اللحمية الشوهاء . ويشبه هذا ما يشعر به الذين وُلدوا و إحدى يديهم أقصر من الأخرى ، فانهم يؤكدون بأنهم يشعرون أن يدهم القصيرة فى مثل

طول يدهم الطبيعية . وشوهد أشوه آخر يكاد يكون لا ساعد لذراعه ، بحيث كانت يده الضامرة تظهر كأنها ملتحمة بالمرفق ، كان يشعر بأن ذراعه طبيعية ، وأن طولها لا يقل عن طول ذراعه الأخرى » . اهـ

لا شك فى أن شعور المولودين شوهاً بسلامة أعضائهم المعيبة ، يدل دلالة قاطعة على أن هذا الشعور ليس بمجرد وهم ، وأنه يُشعر بأن لهم أرواحا على شكل أجسادهم لا يعتريها التشوه الذى يعترى أعضاءهم ، فتبقى سليمة ، ويبقى شعور المشوهين سليما أيضا .

ومما يقوى هذا القول شهادة أهل الكشف من الناس ، وهؤلاء أفراد وُهبوا خاصة رؤية المرئيات اللامادية ، والاشعاعات الخفية ، فقد أجمعوا على رؤية الصور الأثيرية للأعضاء المبتورة على حالة طبيعية (١) .

وقد كان عهد الى الأستاذ الدكتور الألمانى الكبير كرنر Kerner أن يعالج شابة عصبية كانت تدرك الأجساد الأثيرية للأرواح ، ورأى من صحة رؤيتها لها مدهشات محققة حملته على وضع كتاب فيها أسماه (كاشفة بريفورست) جاء فيه ما يأتى :

« وعند ما كان يتفق للمريضة أن تلاقى شخصا فَقَدَ عضوا من أعضائه ، كانت ترى مقابله من جسمه الأثيرى متصلا ببقية الأعضاء ؛ أى أنها كانت تراها كما كانت ترى صور الأجساد الأثيرية للموتى . هذه الظاهرة المفيدة تسمح لنا بتعليل الإحساسات التى يشعر بها المبتورون بوجود العضو المقطوع ؛ وأن بقاء صورة العضو المبتور غير منظورة ، واتصالها اتصالا مستمرا بالجسم المنظور ، يثبت لنا إثباتا كافيا أنه بعد انهدام الجسم المحسوس تبقى صورته محفوظة بواسطة السيال العصبى » .

نقول : إن الذى يهمنا من نقل هذه العبارة شهادة الأستاذ (كرنر) لما يراه أهل الكشف من صور الأعضاء البائنة عن الأجساد الحية ، وما يستدل به هو عن صحة ما يخبر به المبتورون من إحساسهم بوجود أعضائهم إحساسا كاملا كأنه أمر واقع .

ولا عبرة بتعليله ظهور تلك الأعضاء بالاشعاعات العصبية ، لأنه لم يَثبت قط أن للقوى العصبية خاصة التشكل ؛ فأنى لها أن تتشكل الى ساعد وكف وأصابع ، أو الى ساق وقدم بجميع مميزاتها على نحو ما كانت عليه قبل أن تُبتر ؟ والصحيح أن ما يرى هو صورة الجثمان الأثيرى المتوسط بين الروح والجسد .

(١) أيدت البحوث النفسية ما قاله الفلاسفة الأقدمون ، وأهل الكشف من المحدثين ، أن بين الجسد المرئى للانسان والحيوان والنبات ، وبين الروح الالهى المدبر له ، جسدا متوسطا من مادة أثيرية غير قابلة للفناء على صورة الجسد المادى . وقد نقل عن الامام مالك أنه قال عن الروح : إنها صورة كالجسد . فما يراه أهل الكشف الذين نذكرهم هو صورة هذا الجسد المتوسط .

عذر الأستاذ كرنز أنه لم يدرك المباحث الأخيرة التى عملت لإثبات وجود جسم متوسط بين الروح والجسد، مكون من مادة أثيرية لا تبلى ، هـو الذى يقيم فى الجسم مدى الحياة ؛ حتى إذا عجز الجثمان عن حفظه خرج منه على صورة صاحبه ، حاصلا على الروح الإلهى الذى أُودعه ، وبقى حيا فى عالم الأرواح لا يتحيفه تحلل ، ولا يعتريه زوال .

ولـكن الدليل الذى يعتبر قاطعا فى هذا الموضوع هو ما توصل اليه الباحثون من تصوير تلك الصور الأثيرية التى أخبر عنها أهل الـكشف . وكان أول من وُفق الى إقامة هذا الدليل المحسوس ، البحاثة المشهور (ألفونس بوفييه) ، فقد اتخذ وسائل علمية ، معتمدا على خواص بعض الألوان الناتجة من التحليل الطيفى . فأنجح فى تصوير الأعضاء الأثيرية لتلك الأعضاء المبتورة ، ونشر تفصيلا وافيا عن الوسائل التى تذرع بها ، والنتائج التى وصل اليها ، فى مجلة بسيشيكا (Psychica) صفحة ١٩٢ من مجموعة سـنة ١٩٣١ ، ونقلها عنه الأستاذ إرنست بوزانو فى كتابه الذى نحن بصدده ، ثم ختم الأستاذ المذكور هذا الفصل بقوله :

« بهذه التجارب الأخيرة نجد أنفسنا ، كما ترى ، حيال أدلة عملية حاسمة على صحة وجود الأعضاء المبتورة على صورة أثيرية ؛ وهذا يؤدى على وجه لا يقل حسما الى صحة وجود الجسم الأثيرى للروح داخل الجسم المادى المنظور .

ثم قال :

« هـذا هو البرهان الأساسى الضرورى للتدليل (العلمى) على وجود الروح الانسانية وخلودها .

« ونزيد على هذا بأنه لما كانت هـذه الظواهر تمثل الدرجة الأولية لظواهر خـروج الروح من الجسد ثم عودتها إليه فى بعض الحالات ، فهى تعيننا على أحسن وجه على تـكميل الأدلة التجريبية الضرورية على صحة ما نحن بسبيله ؛ وهذه الظواهر فى أكمل صورها ، عند ما يكون الشبح النفسانى المنفصـل عن الجسد حاصـلا على الوعى والعقـل والذاكرة فى أتم أحوالها ، والخصائص النفسية العلوية كلها ، تهيئ لنا مشاهدة محسوسة حافلة بالنتائج النظرية ، وهى : أن بقاء الروح الانسانية بعد موت جثمانها المادى ، أصبح أمرا تجريبيا يمكن إقامة الدليل العملى عليه ، حتى لو اقتصرنا على هذه الظواهر وحدها » . اهـ

وبعد : فإننا اقتصرنا على تلخيص الباب الأول من كتاب الأستاذ بوزانو ، لأن فى تلخيصه غناء ، ولـكنا سنأتى على كل ما أتى به من المشاهدات فى أبوابه الأخرى لعظم خطرها ، وجلال أثرها ، فى تدعيم عقيدة وجود الروح وخلودها على دعائم علمية جديدة ، لا على المنطق فحسب ؟

محمد فريد وجدى

بين لسان الدين بن الخطيب (١)

وعبد الرحمن بن خلدون

للعلامة ابن خلدون فى النقد الأدبى ، ذهن خصيب ، وآراء حصيفة ، ونظرات تدل على نفاذ بصر ، وإحاطة بخصائص الكلام الجيد ، وتمييز طبقاته ، ومراتب رجاله ؛ وبالوسائل التى لا بد منها لبلوغ الإجادة ، وبالأسباب المباشرة وغير المباشرة لتربية الملكة الشعرية ؛ وما الى ذلك مما يتصل من الشعر بسبب قريب أو بعيد . له فى كل أولئك الأصول الثوابت ، والقواعد ، التى لا يجد الناقد عنها معدلا ، ولا الى الخروج عليها سبيلا .

انظر الى قوله : « اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطا ، أولها الحفظ من جنسه ، أى من جنس شعر العرب ، حتى تنشأ فى النفس ملكة ينسج على منوالها ، ويتخير المحفوظ من الحر النقى الكثير الأساليب ، وهذا المحفوظ المختار أقل ما يكفى فيه شعر شاعر من الفحول الاسلاميين ، مثل ابن أبى ربيعة ، وكثير ، وذى الرمة ، وجرير ، وأبى نواس ، وحبيب ، والبحترى ، والرضى ، وأبى فراس ؛ وأكثره شعر الأغانى ، لأنه جمع شعر أهل الطبقة الاسلامية كله ، والمختار من شعر الجاهلية ؛ ومن كان خاليا من المحفوظ ، فنظمه قاصر ردىء ، ومن قل حفظه أو عدم ، لم يكن له شعر » .

وقوله : « ولا يكون الشعر سهلا إلا إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه الى الذهن ، ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله ، يعيبون شعر ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس ، لكثرة معانيه وازدحامها فى البيت الواحد ، كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعرى بعدم النسج على الأساليب العربية » .

وقوله : « ذاكرت يوما صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب « يعنى لسان الدين » وزير الملوك بالأندلس من بنى الأحمر ــ وكان الصدر المقدم فى الشعر والكتابة ــ فقلت له : أجد استصعابا على فى نظم الشعر متى رمته ، مع بصرى به ، وحفظى لجيد الكلام ، من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب ، وإن كان محفوظى قليلا ، وإنما أتيت ــ والله أعلم ــ من قبل ما حصل فى حفظى من الأشعار العلمية ، والقوانين التأليفية ؛ فانى حفظت قصيدتى الشاطبى : الكبرى والصغرى فى القراءات ، وتدارست كتابى ابن الحاجب فى الفقه والأصول ، وجمل الخونجى فى المنطق ، وبعض كتاب التسهيل ، وكثيرا من قوانين التعليم فى المجالس ، فامتلأ محفوظى من ذلك ، وخدش وجه الملكة التى استعددت لها بالمحفوظ الجيد ، من القرآن والحديث

(١) ولد لسان الدين فى ٢٥ من رجب سنة ٧١٣ ، وتوفى سنة ٧٧٦ . وولد ابن خلدون فى رمضان سنة ٧٣٢ ، وتوفى سنة ٨٠٨ هـ .

وكلام العرب ، فعاق القريحة عن بلوغها . فنظر الىّ ساعة معجبا ، ثم قال : لله أنت ! وهل يقول هذا إلا مثلك ؟ » .

تقرأ هذا وغيره من روائع أصول النقد للعلامة ابن خلدون ، وتراه يطبقها بدقة وعناية ، حتى على نفسه ؛ ولكن يروعك ، ويدهشك ، ويملأ نفسك عجبا ، رأيه فى وزير الملوك بالأندلس من بنى الأحمر : لسان الدين بن الخطيب ، إذ يقول فى الموشحات بعد أن ذكر ابن سهل وموشحته : « وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب لعصره » .

ويقول بعد أن ذكر سلسلة الزجالين : « ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب إمام النظم والنثر فى الملة الاسلامية غير مدافع !! ».

ويقول ـ كما سبق آنفا : « وكان الصدر المقدم فى الشعر والكتابة » .

الى غير ذلك من الأحكام الفضفاضة ، التى يستعصى على النظر قبولها ، ويعسر على الناقد تأويلها . ولقد حاولت أن أردّ ذلك الى عاطفة ودية بين الرجلين ، فعكر علىّ هذا الخاطر ، ما ذكره ابن خلدون فى تاريخه ، من أنه لما كان بالأندلس ، وحظى عند السلطان أبى عبد الله ومخدوم ابن الخطيب ، شمّ من وزيره ابن الخطيب رائحة الانقباض ، فقوض الرحال ، ولم يرض من الاقامة بحال ، ولعب بكرته صوالجة الأقدار ، حتى حل بالقاهرة المعزية واتخذها خير دار . . . ومن المفارقات الغريبة : أن الشيخ ابراهيم الباعونى الشامى يقول : كنت أوثر الاجتماع بابن خلدون بالقاهرة المحروسة للمودة الحاصلة بينى وبينه ، وكان يكثر من ذكر لسان الدين بن الخطيب ، ويورد من نظمه ونثره ، ما يشنف به الأسماع ، وينعقد على استحسانه الإجماع ، وتتقاصر عن إدراكه الأطماع . اهـ

فاصرار ابن خلدون على المغالاة بابن الخطيب ، على رغم المنافسة الخفية بين الرجلين ، هى عقدة الرواية ، وهى موضع الحيرة ، وهى محل النظر .

* * *

لسان الدين بن الخطيب : عالم ، كاتب ، شاعر ، وشّاح ، زجال . وقد نستطيع أن نعدّه فى الصدر من علماء عصره وكتابه ؛ ولكن حكمنا على شعره ، يجب أن نمهد له بنماذج منه ، حتى نهيئ للقارئ الكريم أن يتابعنا فى تعرف حيثيات الحكم ؛ فنقول : قال المقرى فى نفح الطيب :

« ومن أبدع ما صدر عن لسان الدين رحمه الله تعالى ، لاميته المشهورة ، التى خاطب بها سلطانه حين عاد من المغرب الى الأندلس ، وأعاد الله تعالى عليه ملكه الذى كان خلع منه .

ويقال إن السلطان أمر بكتب هذه القصيدة على قصوره بالحمراء ، إعجابا بها ، وإنها الى الآن لم تزل مكتوبة بتلك القصور التى استولى عليها العدو الكافر ، أعادها الله تعالى للاسلام . وأول هذه القصيدة :

الحق يعلو ، والأباطل تسفل والله عن أحكامه لا يسأل

قال لسان الدين رحمه الله تعالى : نظمتها للسلطان ، أسعده الله تعالى ، وأنا بمدينة سلا ، لما انفصل طالبا حقه بالأندلس ، كان صنع الله تعالى براعة استهلالها ، ووجهت بها إليه الى رُندة قبل الفتح ؛ ثم لما قدمت أنشدتها بعد الفتح وفاء بنذرى ، وسميتها : المنح الغريب ، فى الفتح القريب . ومنها :

وإذا استحالت حالة وتبدلت فالله عز وجل لا يتبدل
واليسر بعد العسر موعود به والصبر بالفرج القريب موكل
والمستعدّ لما يؤمّل ظافر وكفاك شاهد : قيدوا وتوكلوا !
أمحمد والحمد منك سجية بجليلها دون الورى تتجمل
أما سعودك ، فهو دون منازع عَقد بأحكام القضاء مسجّل
ولك السجايا الغر والشيم التى بغريبها يتمثل المتمثل
ولك الوقار إذا تزلزلت الرّبا وهفت من الروع الهضاب الُميّل
عوّذ كمالك ما استطعت فانه قد تنقص الأشياء مما يكمل
تاب الزمان إليك مما قد جنى والله يأمر بالمتاب ويقبل
إن كان ماض من زمانك قد مضى باساءة ، قد سرّك المستقبل

وهى طويلة ، وكلها من هذا الطراز .

وعندى أن هذه المعلقة على الطراز الحديث ، التى انعقد إجماع الملك والرعية ، على روعتها وعلى الإعجاب بها ، وتحدث عنها ناظمها مباهيا تياها ، لو قالها أحد مخضرمى طلبة الشيخ الجهنى بالقسم العام ، لصب عليه شؤبوب ثلجى من النقد اللاذع ، والسخرية الأليمة ، ولكانت منبتا خصبا للنكتة والتندر على الأيام . وحسبى أن أضع للقارئ الكريم خطا ، تحت : والأباطل تسفل ؛ وتحت قضية : والله عز وجل لا يتبدل ؛ وتحت : قيدوا وتوكلوا ، التى أشار بها الى الأثر الشريف : اعقلها وتوكل ، فأخطأ لغة النبوة ولغة الشعر معا ؛ وتحت : فهو دون منازع عقد بأحكام القضاء مسجل ؛ وتحت : وهفت من الروع الهضاب الميل ؛ وتحت : قد سرك المستقبل ، إذ قد جرد فيه الجواب المقرون بقد من الفاء ، وهو خطأ . الخ .

ولا أدرى ، كم يلزمنى أن أقيم فى الخانقاه ، حتى أقنع نفسى ، بأن قائل مثل هذه القصيدة ، جدير بلقب : إمام النظم والنثر فى الملة الإسلامية غير مدافع ؛ وممّن ؟! إنه من العلامة ابن خلدون !!.

فأما موشحات ابن الخطيب ، فهى ـ بلا ريب ـ أرفع طبقة من شعره ؛ ولا غرو ، فان دولة الموشحات ، قامت على أنقاض دولة الشعر ، ولم تزدهر ويطرد رقيها إلا فى النصف الثانى من القرن الخامس ، بعد أن مضى لخول شعراء الأندلس ، مع أن ابتكار الموشحات ـ كما قالوا ـ يرجع فضله الى مُقدَّم بن مَعافر الفريرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى ، (٢٧٥ — ٣٠٠ ﻫ) . ولو استطعنا أن نصدق ابن خلدون فى أن ابن عبد ربه قد أخذ عن مقدم فن الموشح ، ولكن لم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسدت موشحاتهما ، فاننا لا نستطيع أن نعلل عدم معالجة أمثال ابن هانئ ، والرمادى ، وابن زيدون ، وابن خفاجة ، وأضرابهم من كبار الشعراء ، نظم الموشحات ، إلا بأن ضعف الشعر ، ووقوفه ، كان عاملا من عوامل نهوض الموشحات ، الى حاجة الغناء الملحة ، الى تيسير انطلاق ألحانه ، فى آفاق أرحب من آفاق البحور الخليلية ؛ ويؤيده حال العصر الحاضر ؛ فقد أصبح عصر الموشحات والأزجال ، بعد أن وقف الشعر ، وذهبت ريحه ، وندر الإقبال عليه .

ولابن الخطيب كثير من الموشحات ، أشهرها موشحته التى عارض بها موشحة ابن سهل الاسرائيلى ، وكلتاهما معروفة ؛ ومنها موشحته التى يقول فى مطلعها :

رب ليل ظفرتُ بالبدر ونجوم السماء لم تدر
حفظ الله ليلنا ورعى أى شمل من الهوى جمعا
غفل الدهر والرقيب معا ليت نهر النهار لم يجر
حكم الله لى على الفجر

* * *

ومن أبدع موشحاته :

كم ليوم الفراق من غصة فى فؤاد العميد
نرفع الأمر فيه والقصة للولى الحميد

* * *

رحل الركب يقطع البيدا بسفين النياق
كل وجناء تتلع الجيدا وتبذ الرفاق
حسبت ليلة اللقا عيداً فهى ذات اشتياق
صائمات لا تقبل الرخصة قبل فطر وعيد
فهى مذ أمته مختصة بجهاد جهيد

* * *

فأما الأزجال ، فليس لها فى ديوان الشعر حساب .

نعود من هذه الشطحة فنتساءل : لماذا كان حكم ابن خلدون على أدب ابن الخطيب فضفاضا على خلاف ما عرف عنه من دقة النظر ، وتحرى مواقع الصواب ؟

* * *

ابن خلدون أحدث سنا من ابن الخطيب ، وأرفع منه جاها فى الأندلس ، وفى غير الأندلس ، وأوسع منه حيلة وتصرفا فى بلاده ، وفى غير بلاده . وقد تفضل ابن الخطيب فترجم لابن خلدون ، فى كتابه « الإحاطة فى تاريخ غرناطة » ترجمة حافلة بالثناء ، جاء فيها : « عبد الرحمن ابن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى ، من ذرية عثمان أخى كرَيْب ، المذكور فى نبهاء ثوار الأندلس ؛ وينسب سلفهم الى وائل ابن حجر ، وحاله عند القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة ؛ انتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نباهة وتعيّن وشهرة ، عند الحادثة بها أو قبل ذلك ، فاستقر بتونس منهم ثانى المحمدين : محمد بن الحسن ، وتناسلوا على حشمة ومراوة ورسوم حسنة ، وتصرف جد المترجم به فى القيادة ؛ وأما المترجم به فهو رجل فاضل ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، باهر الخصال ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، وقور المجلس ، خاصّىّ الزّىّ ، عالى الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوىّ الجأش ، طامح لقنن الرياسة ، خاطب للحظ ، متقدم فى فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، بارع الخط ، مغرى بالتجلة ، جواد ، حسن العشرة ، مبذول المشاركة ، مقيم لرسم التعين ، عاكف على رعى خلال الأصالة ، مفخر من مفاخر التخوم المغربية ... الخ . الى أن قال : « وأما نثره وسلطانياته السجعية ، فخُلُج بلاغة ، ورياض فنون ، ومعادن إبداع ، يفرغ عنها يراعه الجرىء ، شبيهة البداءات بالخواتيم ، فى نداوة الحروف ، وقرب العهد بجرية المداد ، ونفوذ أمر القريحة ، واسترسال الطبع . وأما نظمه ، فنهض لهذا العهد قدما فى ميدان الشعر ، ونقده باعتبار أساليبه ، فانثال عليه جوه ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريبة » . اه

ثم أورد ــ بعد هذا ــ كثيرا من قصائده ، منها قصيدته المشهورة ، التى مطلعها :

أسرفن فى هجرى وفى تعذيبى   وأطلن موقف عبرتى ونحيبى
وأبين يوم البين موقف ساعة   لوداع مشغوف الفؤاد كئيب

وقد خاطب بها ملك المغرب ليلة المولد الشريف عام ٧٦٢ ، ومنها :

يا سيد الرسل الكرام ضراعة   تقضى منى نفسى ، وتُذهب حوبى
عاقت ذنوبى عن جنابك ، والمنى   فيها تعللنى بكل كذوب

لا كالألى صرفوا العزائم للتقى فاستأثروا منها بخير نصيب
لم يخلصوا لله حتى فرقوا فى الله بين مضاجع وقلوب

ومن قصائده ، قصيدة خاطبه بها عند وصول هدية ملك السودان إليه ، وفيها الزرافة ؛ جاء منها فى وصفها :

ورقيمة الأعطاف حالية مَوْشِيّة بوشائع البردِ
وحشية الأنساب ما أنست فى موحش البيداء بالقِرْد
تسمو بجيد بالغ صعدا شرف الصروح بغير ما جَهْد
طالت رءوس الشامخات به ولربما قصرت عن الوهد
قطعت إليك تنائفا وصلت إسآدها بالنص والوخد
تحدى على استصعابها ذللا وتبيت طوع القِن والقد

وشعر ابن خلدون ، أرفع طبقة من شعر ابن الخطيب ، شاعر الملة الاسلامية غير مدافع !

* * *

وأما بعد — فمن جملة ما تقدم ، نعرف أن رأى ابن خلدون فى ابن الخطيب ، من باب عرفان الجميل ، وتقارض الثناء ؛ وذلك أبلغ عيوب تأريخ الأحياء ؟

عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

معرفة الاقدار فضيلة

قال جعفر بن سليمان : سمعت عبد الرحمن بن مهدى يقول : ما رأيت أحدا أقسط من شعبة ، ولا أعبد من سفيان ، ولا أحفظ من ابن المبارك .

وقال : ما رأيت مثل ثلاثة : عطاء بن أبى رباح بمكة ، وطاوس ومحمد بن سيرين بالعراق ، ورجاء بن حيوة بالشام .

وقيل لأهل مكة : كيف كان عطاء بن أبى رباح فيكم ؟

فقالوا : كان مثل العافية التى لا يعرف فضلها حتى تفقد .

ومن العجب أن عطاء بن أبى رباح هذا كان أسود أعور ، أفطس أشل ، أعرج ، ثم عمى ، وأمه سوداء كانت تسمى بركة . فانظر كيف ستر جمال روحه كل هذه العيوب الجثمانية فيه ؟ وأعجب من هذا تقدير الناس للفضائل حتى شبهوه بالعافية .

باب الأسئلة والفتاوى

رؤية الطبيب المرأة الاجنبية

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

ما قولكم فى امرأة توفيت واشتبه فى وفاتها أهى عمل جنائى أو عن مرض وبائى عام ، ولا يكشف الأمر فى ذلك إلا رؤية الطبيب لها ، فهل يجوز الكشف عليها من طبيب أجنبي لإقرار العدالة فى مقرها أو لدفع شر الوباء عن المجتمع ؟ والمفروض أن ليس فى النساء من يقوم بهذه المهمة .

نرجو تبيين حكم الشرع الاسلامى فى ذلك .

على احمد عامر

خان الخليلى — القاهرة

الجواب :

من القواعد المقررة فى الشريعة الاسلامية ، وخرج عليها الأئمة فى جميع المذاهب كثيرا من الجزئيات والوقائع ، قاعدة « الضرورات تبيح المحظورات » .

ولا ريب أن معرفة سبب الوفاة عند الاشتباه فيه أمرض وبائى أم حادث جنائى ، شأن من الشئون الضرورية التى تهتم بها الشريعة ، حفظا للدماء من الإهدار ، ووقاية للناس من الأمراض الوبائية .

وبناء عليه : ترى اللجنة أنه يجوز للطبيب أن يرى هذه المتوفاة للوقوف على أسباب وفاتها ، كما يجوز فى حال حياتها أن يرى منها ما تدعو اليه الضرورة للتداوى ونحوه من الواجبات إذا لم يوجد من النساء من يستطعن القيام بهذه المهمة .

ولابد فى الحالتين أن يكون فحص الطبيب مقدرا بقدر الضرورة التى تحقق الغرض المقصود . والله أعلم .

فى الرضاع

وجاء الى اللجنة أيضا :

رجل تزوج بابنة عمه ورزق منها بطفلين ، أحدهما توفى وهو الذكر ، والأخرى باقية على قيد الحياة ؛ وبعد مضى أكثر من أربع سنوات على زواجه أخبرته والدته أنها أرضعت أخت زوجته التى تكبر عنها بسنتين على أخيه الذى يكبر عنه بسنتين أيضا .

فهل تحرم عليه هذه الزوجة بسبب هذا الرضاع ؟

حسن على النحاس

الجواب:

إنه لا عبرة بإخبار الأم وحدها بالرضاع فى مثل هـذه الحالة ؛ وإذا فرضنا ثبوت هـذا الرضاع بطريقه الشرعى فانه لا يكون مستوجبا تحريم هذه الزوجة على زوجها .

وبناء عليه : فان الزوجية بينهما لا تزال صحيحة وقائمة لا أثر لهذا الرضاع فيها . والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

الاشتراك فى الكتب

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى

ما قول فضيلتكم فى الكتب التى ندفع اشتراكاتها قبل أن تطبع وننتظرها الى تمام الطبع ، فان بعضهم يقول إنه حرام . فنرجو إبداء رأيكم فى هذا الموضوع على صفحات مجلة الأزهر . أبقاكم الله ذخرا للاسلام والمسلمين بمنه وكرمه ؟ جزيرة النجدى — ابراهيم سيد نصار

الجواب:

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

أما بعد : فقد وصلنى خطابك ، وأكتب هذا من غير بحث ولا مراجعة ، ممتلئة نفسى بأن الاشتراك فى الكتب التى تطبع لا شىء فيه ، فأنه داخل فى بيع الموصوف المعروف ولو إجمالا ، ومدة الطبع تكاد تكون معلومة بالعرف والعادة ، ودين الله يسر . وليس هناك مفسدة تترتب على مثل هذا . فروح الشريعة لا تأباه ما دام خاليا من الضرر والأذية فى غالب الأحوال . ويكفى غلبة الظن . وهذا هو الأليق بالشريعة السمحة . وهذا ما حضرنى فى الوقت . والسلام عليكم ورحمة الله ؟

يوسف الدجوى

عضو جماعة كبار العلماء

جمال الدين بن هشام

النحوى المصـــــرى

فـذٌّ من الأفذاذ ، وعلم من الأعلام ، تحرك فى عصر الركود ، وأضاء فى عهد الظلمات ، ورفع اسم مصر فوق الأسماء .

ولد هذا الرجل العظيم بمدينة القاهرة سنة ثمان وسبعمائة ، أى فى مفتتح القرن الثامن الهجرى ، ومات بها فى سنة إحـدى وستين وسبعمائة ، ودفن خارج باب النصر ، ولا يزال قبره ظاهراً الى الآن فى نقطة يتعرض فيها للاصطدام بعربات نقل الأحجار النازلة من المقطم أو الصاعدة إليه . ولو أُنصف هـذا الرجل لخلد ذكره بين كبار الرجال ، ولصين قبره من الابتذال ، ولحوفظ عليه من الدثور والزوال .

لو لم يكن لجمال الدين بن هشام غير كتابه المسمى « مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب » لـكفى به أثرا يرفعه الى مقام عظماء الرجال ، فكيف يكون الحال إذا علمنا أن لهـذا الرجل كتبا غيره فى أمهات الـكتب كما سنرى فيما بعد ؟

تمتاز كتب جمال الدين بن هشام بميزتين : أولاهما الابتكار ؛ وثانيتهما التجرد من السخافات التى تخرج عن دائرة علم النحـو ، والتى أقحمها النحاة فيه بلا موجب ولا مبرر . فابن هشام من هاتين الناحيتين يعتبر معلّما ، بل قل إن شئت : إنه خليق بأن يطلق عليه اسم (المعلم الأول) ، فقد كان على تأخر زمانه (أنحى من سيبويه) بشهادة ابن خلدون نفسه .

ولتوضيح هذا نأتى هنا ببعض عباراته التى أوردها فى خطبة كتابه (المغنى) :

قال رحمه الله تعالى : « واعلم أنى تأملت كتب الإعراب فإذا السبب الذى اقتضى طولها ثلاثة أمور : أحدها التـكرار ، فإنها لم توضع لإفادة القوانين الـكلية بل للـكلام على الصور الجزئية ، فتراهم يتكلمون على التركيب المعين بكلام ثم حيث جاءت نظائره أعادوا ذلك الـكلام » . ثم قال : والأمر الثانى « إيراد ما لا يتعلق بالإعراب كالـكلام فى اشـتقاق (اسم) ، أهو من السمة كما يقول الـكوفيون ، أم من السمو كما يقول البصريون ، والاحتجاج لـكل من الفريقين ، وترجيح الراجح من القولين ؛ وكالـكلام على ألفه (يعنى ألف اسم) لما حذفت من البسملة خطا الخ » . ثم قال : والثالث (أى الأمر الثالث) « إعراب الواضحات كالمبتدأ وخبره ، والفاعل ونائبه ، والجار والمجرور ، والعاطف والمعطوف الخ » .

أقول : والناظر فى فهرس مواد كتاب المغنى هذا يرى أن الباب الأول منه (فى تفسير المفردات وأحكامها) إنما هو معجم نفيس مرتب على حروف ألف باء لمراجعـة ما يعرض

للمشتغل بالإعراب من الألفاظ والعوامل . وهـذا الباب النفيس يستغرق الجـزء الأول من الـكتاب ، وقسما لا بأس به من الجزء الثانى .

وما أظن أن جمال الدين بن هشام قد سُبق الى هـذا ؛ ومن ثم نحكم له بالابتـكار والاجتهاد ، فهو من هذه الناحية أمة وحده ، بل لا نبالغ إذا قلنا : إنه (إمام مجتهد لا مقلد فى علم النحو) .

ويحسن بى بعد ذلك أن أجيء على ترجمته فأقول :

هو عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصارى ، الشيخ جمال الدين الحنبلى النحوى ، الفاضل العلامة المشهور أبو محمد . ولد فى ذى القعدة سنة ثمان وسبعمائة ، ولزم الشهاب عبـد اللطيف بن المرحل ، وقرأ على ابن السراج ، وسمع على أبى حيان ديوان زهير ابن أبى سلمى ، ولم يلازمه ولا قرأ عليه غير هذا الديوان ، وحضر دروس التاج التبريزى ، وقرأ على التاج الفاكهانى ، وتفقه للشافعى ، ثم تحنبل فحفظ مختصر الخرقى من كتب الحنابلة فى دون أربعة أشهر ، وذلك قبل موته بخمس سنين . وأتقن رحمه الله العربية ففاق الأقران بل الشيوخ ، وحدث عن ابن جماعة ، وتخرج به جماعة من أهل مصر وغيرهم ، وتصدر لنفع الطالبين ، وانفرد بالفوائد الغريبة ، والمباحث الدقيقة ، والاستدراكات العجيبة ، والتحقيق البارع ، والاطلاع المفرط الواسع ، والاقتدار على التصرف فى الـكلام ، والملـكة التى كان يتمكن من التعبير بها عن مقصوده بما يريد ، مسهبا وموجزاً ، مع التواضع ، والبر والشفقة ، ودماثة الخلق ، ورقة القلب ، ولين الجانب .

قال ابن خلدون : « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه » .

وكان ابن هشام كثير المخالفة لأبى حيان (مع أن أبا حيان رحمه الله من أكبر علماء العربية فى ذلـكم العصر) ، بل لقد قرأ عليه صاحبنا ديوان زهير بن أبى سلمى كما أسلفنا فى صـدر هذه الـكلمة .

أما مصنفات ابن هشـام فهى : (مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب) ، (التـوضيح على الألفيـة) فى مجلد ، (دفع الخصاصة) فى أربعة مجلدات ، (عمدة الطالب فى تحقيق تعريف ابن الحاجب) فى مجلدين ، (التحصيل والتفصيل) فى عدة مجلدات ، (شرح التسهيل) ، (شرح الشواهد الـكبرى) ، (القواعد الـكبرى) ، (القـواعد الصغرى) ، (شـذور الذهب وشرحه) ، (قطر الندى وشرحه) ، (الجامع الـكبير) ، (الجامع الصغير) ، (شرح اللمحة لأبى حيان) ، (شرح بانت سعاد) ، (شرح البردة) ، (كتاب التذكرة) فى خمسة عشر مجلدا ، (المسائل السفرية فى النحو) ، وفوق ذلك عدة حواش على الألفية والتسهيل .

ولابن هشام شعر جزل ، فمن ذلك قوله :

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله ... ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل
ومن لا يذل النفس فى طلب العلا ... يسيرا يعش دهرا طويلا أخا ذُل

توفى ابن هشام فى ليلة الجمعة خامس ذى القعدة سنة إحدى وستين وسبعمائة . ولقد رثاه ابن نباتة الشاعر المشهور بقوله :

سقى ابنَ هشام فى الثرى نوء رحمةٍ ... يجر على مثـواه ذيلَ غمام
سأروى لهفى سيرة المدح مُسْنَداً ... فما زلت أروى سيرة ابن هشام

أقول : وقد دفن هـذا المفرد العلم فى قبر متواضع خارج باب النصر ، الى يسار الخارج من هـذا الباب ، عند ملتقى شارع باب النصر المؤدى الى قرافة باب النصر الى يمين الداخل من ذلك الشارع ، وهو فى نقطة مرور عربات نقل الأحجار ، وكثيرا ما تصطدم به فى ذهابها وإيابها .

ويجب حتما على أهل الأزهر الدين يعدون العدة للاحتفال بعيد جامعتهم الألفى ، أن يزوروا قبر هذا الرجل العظيم ، وأن ينقلوا رفاته الى مكان آخر أكثر لياقة به وبمكانته ، أو يحيطوه على الأقل بسياج يمنع اصطدام العربات به ، ويجعله فى مظهر يليق بمقام ساكنه . على ساكنه رحمة الله ورضوانه ؟

مصطفى عبد الحميد أبو زيد

تحديد البلاغة

قيل لبليغ : ما البلاغة ؟

قال : إيجاز الكلام ، وحذف الفضول ، وتقريب البعيد .

وقيل لخطيب : ما البلاغة ؟ قال : أن لا يؤتى القائل من سوء فهم السامع ، ولا يؤتى السامع من سوء بيان القائل .

معنى هذا أن البلاغة تقتضى أن يكون الكلام مرتبا مترابطا بحيث لا ينبهم على السامع ، وأن يكون بينا واضحا بحيث لا يعجز عن تبينه فهم السامع ؟ والتبعة فى كلتا الحالتين واقعة على القائل .

وقال معاوية لصحار العبدى : ما البلاغة ؟

قال صحار : أن تجيب فلا تبطئ ، وتصيب فلا تخطىء . ثم قال : أقلنى يا أمير المؤمنين .

قال معاوية : قد أقلتك .

فقال صحار : البلاغة أن لا تخطىء ولا تبطىء .

كأنه شعر أنه زاد فى الألفاظ ما لا حاجة اليه وهو ضد البلاغة ، لحذف الزيادة .

دراسات في القرآن الكريم

تاريخ علم التفسير

وإذا قد فرغنا من إثبات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر القرآن ، ننتقل الى بيان طبقات المفسرين . ويمكن حصرها فى أربع طبقات :

الأولى : طبقة الصحابة والتابعين وأتباع التابعين .

الثانية : طبقة المحدثين ، وهم الذين صنفوا التفاسير بطريق التحديث والإسناد ، وأوردوا أقوال الصحابة .

الثالثة : المفسرون من أهل السنة الذين ضموا التأويل الى التفسير ، فتكلموا على معانى القرآن وأحكامه وإعرابه وبلاغته وإعجازه وما فيه من تشبيهات واستعارات ، وربط آيه بعضها ببعض وغير ذلك .

الرابعة : طبقة المفسرين من غير أهل السنة كالمعتزلة والشيعة وغيرهما .

أصحاب الطبقة الأولى هم الذين يسمون بحق مفسرين ، وكذلك أصحاب الطبقة الثانية ، وإن كان أكثر العلماء يسمونهم « نقلة » . أما أصحاب الطبقة الثالثة « فمؤولون » ، ولهذا يسمون كتبهم غالبا بالتأويل . وأما أصحاب الطبقة الرابعة ، فمنهم مفسرون وهم الذين شايعوا عليا كرم الله وجهه فى عصره ، فلم يدخلوا فى تفسيرهم أحكاما استنبطوها ، ولا مسائل ابتكروها ، مما يكسب تفسيرهم صفة التأويل ؛ ومنهم « نقلة » وهم المتأخرون عن هؤلاء الذين رووا تفسيرهم بطريق الإسناد والتحديث (وإن كانت أسانيدهم مقصورة على أهل البيت) ؛ ومنهم مؤولون وهم الجمهرة المتاخرة عن عصر التابعين وأتباع التابعين ، وهؤلاء لهم فى تأويلهم واستنباطهم الأحكام ، وبيانهم معانى القرآن ، أسلوب خاص وطابع خاص ، سنعرض له فيما بعد . وهذا التقسيم خاص بالشيعة . أما المعتزلة فكلهم مؤولون ، ولهم كذلك فى تأويلهم أسلوب خاص يتفق وما قرروه من مبادئ ، مخالفين فى ذلك مبادئ أهل السنة .

نعود الآن الى الكلام على الطبقة الأولى مبينين طريقتهم فى تفسير كتاب الله تعالى ، وأرى هنا أن أنبه القارئ الى ما سبقت الإشارة إليه فى مقالاتنا فى العام الفائت ، من أن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحرج من تفسير كلام الله تعالى خوفا من الخطأ فيه . وها هو شيخهم الجليل أبو بكر الصديق ، وقد سئل عن تفسير حرف من القرآن ، يقول :

« أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى ، وأين أذهب ، وكيف أصنع إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى » ؟ !

قال ابن عطية : وكان جملة من السلف كسعيد بن المسيب ، وعامر الشعبى وغيرهما يعظمون تفسير القرآن ، ويتوقفون عنه تورعا واحتياطا لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم . قال أبو بكر الأنبارى فى تعليل ذلك : « وقد كان الأئمة من السلف يتورعون عن تفسير (المشكل) من القرآن ، فبعض يقدر أن الذى يفسر لا يوافق مراد الله تعالى فيحجم ، وبعض يشفق من أن يُجعل فى التفسير إماما يبنى على مذهبه ، ويقتفى طريقه ، ولعل متأخرا أن يفسر حرفا برأيه ويخطىء فيه ويقول : إمامى فى تفسير القرآن بالرأى فلان الامام من السلف » اهـ .

ومن هنا يتضح السبب فى توقف بعض الصحابة عن التفسير مع أنهم الأئمة المبرزون ، وهم الذين عاصروا الرسول صلوات الله عليه ، وتشرفوا بصحبته ، وتلقوا العلم عنه فى مجالسه .

ونحن نحمد الله سبحانه وتعالى على أن هذه الفكرة ــ على سموها ــ لم تتغلغل فى نفوس جميع الصحابة فلم يمسكوا عن تفسير القرآن فيقع من بعدهم فى غاية الحرج والمشقة ، بل كان من لطف الله سبحانه وتعالى أن هيأ جمهرة من الصحابة لتفسير القرآن ، فتمشوا مع قول النبى صلى الله عليه وسلم : « يحمل هذا العلم من كل خلف عُدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » . قال الخطيب أبو بكر أحمد بن على البغدادى : وهذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم أعلام الدين ، وأئمة المسلمين ، لحفظهم الشريعة من التحريف والانتحال للباطل ، ورد تأويل الأبله الجاهل ، وأنه يجب الرجوع إليهم ، والتعويل فى أمر الدين عليهم » اهـ . فكان ذلك من رحمة الله تعالى بالأمة الإسلامية على اختلاف طبقاتها فى جميع العصور .

ومن المبرزين فى التفسير من الصحابة : عبد الله بن عباس ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله ابن مسعود ، وأُبَىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير ، وأنس بن مالك ، وبوأ هريرة ، وجابر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وغيرهم ، رضى الله عنهم أجمعين .

ومن المبرزين فى التفسير من التابعين :

أولا ـــ أصحاب عبد الله بن عباس ، وهم علماء مكة . ومن مشاهيرهم : مجاهد بن جبر المكى ، المتوفى سنة ١٠٣ هـ ، واعتمد على تفسيره الامام الشافعى والبخارى ؛ ومنهم سعيد ابن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وطاوس بن كيسان ؛ وعطاء بن أبى رَباح ، وغيرهم .

ثانيا ـــ أصحاب عبد الله بن مسعود ، وهم علماء الكوفة . ومن مشاهيرهم : علقمة بن قيس ، والأسود بن زيد ، وابراهيم النخعى ، والشعبى وغيرهم .

ثالثا — أصحاب زيد بن أسلم ، ومن مشاهيرهم : عبد الرحمن بن زيد ، ومالك بن أنس ، والحسن البصرى ، وعطاء بن أبى سلمة ، وأبو العالية رفيع بن مهران الرياحى ، والضحاك بن مزاحم ، وعطية بن سعيد ، وقتادة بن دعامة السدوسى ، والربيع بن أنس ، وغيرهم .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسرون القرآن على نمط تفسير الرسول ، فكانوا يبينون الأحكام ، ويروون السنة المخصِّصة للعام ، والمقيِّدة للمطلق ؛ وكانوا أعلم الناس بالناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه ، وغير ذلك من علوم القرآن . ولا عجب ، فهم أصحاب الرسول ، وأصحاب مجالسه ، وهم الذين تلقوا عنه صلى الله عليه وسلم بالمشافهة ، وهم أصحاب الحوادث والوقائع التى كانت أسبابا فى نزول القرآن مقررا أحكامها ؛ فهم أعلم الناس بعد رسول الله بكتاب الله وبسنة رسوله . وكثيرا أقرهم الرسول صلوات الله عليه وسلامه على أحكام استنبطوها بحضرته ، على رأى من يقول من الأصوليين بجواز اجتهاد الصحابة بحضرته صلى الله عليه وسلم ، وهم كثيرون من الأصوليين ؛ واستدل لهم ابن الحاجب فى مختصره ، وأورد أقوال المخالفين ورد عليها . ولهم فى هذا جدل وحجاج ليس هذا موضعه . وكل ما أريد أن أقوله هو أن الصحابة رضوان الله عليهم تخرجوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأدبوا بآدابه ، واهتدوا بهديه ، واستنوا بسنته ، وتعلموا طريقة تخريجه وإفتائه ، وحفظوا سنته .

فلا عجب أن كان تفسيرهم للقرآن على نمط تفسيره ، كما ستعلم من النماذج التى سنوردها لك فيما بعد .

نعم إن سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما كان يستند فى تفسير غريب القرآن على شعر العرب ، فكان يُسأل عن الكلمة من القرآن فيقول : هكذا وهكذا ، أما سمعت الشاعر يقول كذا وكذا ؟ ومن ذلك أنه سئل عن قوله تعالى : « ذواتا أفنان » قال : ذواتا ظل وأغصان ، أما سمعت قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هديل حمامة تدعو على فنن الغصون حماما
تدعو أبا فرخين صادف طائرا ذا مخلبين من الصقور قطاما

والمراد بغريب القرآن ما يوجد فيه من الألفاظ البعيدة المعنى عن أفهام العامة كلفظ أفنان مثلا ، فقد لا يوجد فى العامة ولو كانوا عربا خلصا أن يعرفوا أن معناه أغصان وأنه جمع فَنَن .

وتفسير غريب القرآن بالشعر ليس بدعا ، إذ غريب القرآن هو غريب اللغة ، والشعر ديوان العرب . وقد طال بنا القول ، فلنرجئ إيراد النماذج الى مقال آت ، والله الموفق .

حسن حسين

مستقبل الدين

دحض شبهات ودفع ظنون وأوهام

إنها والله لبدعة العصر، ومرض الباحثين فى هذه الأيام، أن يصنع فى العلم صنيع المنجم، يتنبأ بمستقبل العلم والاجتماع البشرى، ويستطلع الغيب فى النظم القائمة والأحوال الجارية!

ليس هذا مما يصح، لأن العالم الأدبى — كما يقول الدكتور جوستاف لوبون — كالعالم الحسى، مسيّر بنواميس ثابتة لا تقهر؛ وأما ما نسميه مصادفة واتفاقا، فليس سوى سلسلة طويلة من العلل غير المتناهية التى لا نعرفها؛ وإن اشتباك هذه العلل يجعل كل تكهن صريح فيها مستحيلا، إذ الانسان لا يصح أن يتوصل الى تفهم الحوادث الاجتماعية قليلا، ولا الى كشفها قبل وقوعها، إلا إذا بحث عن كل عامل فى تكوينها على حدته، ثم عن التأثير المتبادل لهذه العوامل؛ وعند ما يكثر عدد العناصر المؤثر بعضها فى بعض، فان العالم الحاضر يصرح بعجزه عن اكتشاف نتيجتها القاطعة.

ويقول الدكتور لوبون: إن الانسان مسير بالبيئة والأحوال التى تحيط به، ولا سيما عزائم الأموات، أى بالقوى الارثية الخفية الحية فيه، فهذه القوى متسلطة على أكثر أفعالنا، وعلى نسبة خفائها تكون قوتها، وأما أفكارنا الشخصية فلا تؤثر إلا فى الأجيال التى لم تخلق بعد. ولما كانت أفعالنا صادرة عن ماضٍ بعيد، فان جميع نتائجها لا تقع إلا فى مستقبل لا نراه. ثم إن الساعة الحاضرة هى التى لها قيمة عندنا، مع أن هذه الساعة لا قيمة لها فى حياة الانسان الطويلة. وإنه ليستحيل علينا أيضا أن نقدر الحوادث التى تقع أمامنا حق قدرها، لأن تأثيرها فى مصيرنا يدفعنا الى المبالغة فى بيان أهميتها. وما أشبه هذه الحوادث بالأمواج الصغيرة التى تحيا وتموت على سطح النهر من غير أن تؤثر فى مجراه!

نعم إن الانسان يسعى دائما فى كشف الغطاء الذى يحجب عنه المستقبل الكثيف؛ وإن ذلك لغريزة متمكنة من طبعه؛ والفلاسفة أنفسهم لم يكبحوا جماحهم عن هذا التطلع؛ ولكنهم — على الأقل — يعرفون أن نبوءاتهم ليست سوى فروض مشتقة عن حوادث الماضى المتشابهة، أو مستخرجة من أخلاق الأمم؛ كما أنهم يعرفون أن أصدق النبوءات فى ظاهرها هى الخاصة بمستقبل قريب؛ وإن من الممكن أن يكذبها كثير من الحوادث المجهولة؛ ومن ثم فان النفس العلمية لا تقدر على الاتيان بنبوءة اجتماعية صادقة خاصة بالمستقبل البعيد؛ وكيف نقدر على الإنباء بالمستقبل ونحن نجهل كل شىء فى العالم الذى نعيش فيه، ونصطدم بجدار يتعذر خرقه عند ما نريد كشف علة الحوادث والبحث عن الحقائق المحجوبة خلف الظواهر؟

إننا نسبح عميا فى بحر محيط من الأمور المجهولة ؛ وإنما نرى أحيانا فى هذا الفضاء الغامض بضع أشعة شاردة ، أى بضع حقائق نسميها نواميس ، وهى وإن كانت أدلة ضعيفة فنظرنا لا ينفذ إلا اليها ، ولا شيء غيرها يستمد منه العلم (١) .

لقد تقدم الانسان فى العلم درجات ودرجات ، ولكنه لا يزال عاجزاً عن إدراك حقيقة نفسه وما يتصل به وجوده ، وليست حياة الأمم على ما يحسب بعض الناس ، تصنع فى مكاتب السياسيين وكتب المفكرين ، ولكنها تخضع لنواميس وقوانين فوق متناول الذهن البشرى وأكبر من طاقته ؛ وإن الرجل المفكر مهما أوتى من الإحاطة وسعة العرفان وقوة الذكاء فلن يقع من فهم العالم وإدراك الحياة إلا موقع الذبابة من تمثال « بافاريا » فى تمثيل الفيلسوف الألمانى ماكس نوردو ؛ وماذا يا ترى يكون موقف تلك الذبابة إزاء ذلك البناء الضخم ، وماذا تكون حيرتها وتعجبها ، وماذا يكون إنكارها واستهجانها ؟ لا شك سترى الذبابة فى ذلك التمثال كتلة لا شكل لها ولا مبدأ ولا نهاية ، ولا أدنى آية على عقل أو حكمة أو نظام أو غرض ؛ فاذا قيض لهذه الذبابة أن تقضى أيامها فى جوف هذا التمثال وكانت ممن يستطيعون التعبير عن آرائهم ، لأوسعته طعنا وإزراء ، ولوجدت من مثيلاتها من يؤمن بما تقول ويعجب به .

وثمة حقيقة لا يصح أن تخفى على ذى الخاطر اليقظ ، وهى أن الباحث مهما تحرز وتحرج ، فانه لا يستطيع أن يخلص من شعوره وهواه نحو المستقبل ؛ وإنه لن يكون فى النظر الى الغد إلا على ما يشيع فى جوانب نفسه من خير أو شر ، وما يسيطر على ميوله من تفاؤل أو تشاؤم ، وما يحيط به من تعقيد أو بساطة ؛ فالمفكر المتوتر الأعصاب ، الذى ينظر الى الدنيا دائماً بمنظار أسود قاتم ، ينبئك بأن نور الشمس سينطفئ ، وأن آية الليل ستمحو آية النهار ، فالدنيا صائرة الى الشقاء لا محالة ، والعمران سينقلب على عقبه ، والانسانية ستعود الى الهمجية كيوم ابتدأت تاريخها على وجه الأرض ؛ وأما المفكر المبتهج النفس ، الذى يفيض قلبه بالبهجة والغبطة ، وتمتلئ جوانحه بالسرور والبشاشة ، فانه ينظر الى المستقبل نظرة الشاعر الى الماء والروض والوجه الحسن ، فالدنيا فى رأيه بخير وسعادة ، والعالم صائر الى جنة عرضها السموات والأرض ، وستمطر السماء ذهباً وفضة ، وستفيض الأنهار بالخبز كما تفيض بالماء ، وسيتم الإخاء بين الكائنات الحية حتى ليصطحب الذئب والكلب ويتصافى القط والفأر ، وويل لطالب الحقيقة من كل هذا البهتان !

ونحن إذ نحمل القلم لنكتب فى مستقبل الدين فلسنا نصنع صنيع القوم ، وإنما نحن نكتب فى الموضوع مجاوبة لبعض الباحثين ، فهم يزعمون أن الوقت الذى كان الدين فيه يسيطر على المشاعر ويستولى على القلوب قد فات وانقضى ، وأن الزمن الذى كان الناس فيه يتطلعون

(١) راجع ما كتبه الدكتور لوبون عن مستقبل الاشتراكية فى الفصل الذى كتبه عن مستقبل الاشتراكية .

نحو السماء قد ذهب وانمحى ، وأن هدى الأنبياء والحكماء قد ضاع أثره من قرارة النفوس ، ونفد سحره من شغاف القلوب ؛ وإذا كان الدين فى القديم قد استطاع أن يهز مشاعر الناس وأن يستبد بأهوائهم وميولهم ، حتى فنوا فيه ، وعاشوا من أجله ، وكان مظهر سلوكهم وفنهم ومدنيتهم ، فلا شك أن العلم قد حل عندهم مكان الدين فى هذا كله ؛ ذلك لأن الانسانية تجرى فى ارتقائها على أطوار ثلاثة كما يقول أصحاب الفلسفة الوضعية : طور الطفولة وهو الاعتقاد بأن العالم محكوم بالأرواح والآلهة ، وطور الشباب وهو البحث فيما وراء الطبيعة ، ثم طور الرجولة وهو طلب الهيئة الاجتماعية والخضوع للعقل ونفع الناس بدافع الواجب . ولا شك عندهم أن الانسانية قد بلغت الطور الثالث فى نضجها وتفكيرها ، فهى الآن تسير بهدى العقل وتفكيره ، وتنزل على حكمه وتقديره .

تلك هى تكهنات القوم فى مستقبل الدين ؛ وإنها لتجد عند بعض الناس مسمعا ، وتحتل من إدراكهم موضعا ، وهذا ما حملنا على مناقشة تلك الأقوال وردها على أهلها فى حدود المنطق والعقل ، وعلى مقتضى الإدراك والفهم . ولما كان الدين من جهة اتصاله بالمشاعر حقيقة وجدانية ، ومن جهة أثره فى سلوك الشخص قاعدة أخلاقية ، ومن جهة سيطرته على الجماعات روحا اجتماعية عمرانية ، فسنمد القول فى كل هذه المناحى ما أمكن ، وسنجرى مع القوم الى آخر الشوط ما وسع الجهد ، إن شاء الله ؟ « يتبع » **محمد فهمى عبد اللطيف**

التذكير بذمام متقدم

لما آلت الخلافة للمأمون قال له ثمامة ابن أشرس ، وكان من جلسائه أثناء ولاية عهده : يا أمير المؤمنين كان لى أملان : أمل لك ، وأمل بك ؛ فأما أملى لك فقد بلغته ، وأما أملى بك فلا أدرى ما يكون منك فيه .

قال المأمون : يكون أفضل ما رجوت وأملت . وجعله من سماره وخاصته .

ولما صارت الخلافة الى هشام بن عبد الملك ، خر أصحابه الجالسون معه سجودا إلا الأبرش الكلبى .

فقال له هشام : يا أبرش ما منعك أن تسجد كما سجدوا ؟

قال : يا أمير المؤمنين لأنك ذهبت عنا وتركتنا .

قال هشام : فان ذهبت بك معى ؟

قال الأبرش : أو تفعل يا أمير المؤمنين ؟

قال هشام : نعم . قال الأبرش : فالآن طاب السجود ، ثم سجد .

تطور التصميم والزخرفة فى مساجد مصر

التصميم والزخرفة قبل قيام الدولة الطولونية

لا يمكن لكتب التاريخ وحدها أن تجلو على الباحث صورة واضحة من الحضارة الاسلامية فى عصورها المختلفة ، بل ثمة مراجع أخرى أصدق فى التعبير عن جلال هذه الحضارة وعظمتها . فالتأمل فيما تركه المسلمون من المساجد والقصور ، والنظر فيما خلفوه من التحف المختلفة ، يكشف للباحثين عن صور مادية لهذه الحضارة تنم عن سمو ذوق هؤلاء الأجداد . نعم هذا التراث الفنى لا يغنى وحده عن النظر فى كتب التاريخ ، ولكنه فى الواقع يكملها ، ويبعث فى حقائقها روحا تردها الى الحياة .

ولمصر ميزة يحق لها أن تفخر بها على غيرها من الأقطار الاسلامية ، إذ هى تضم تحت سمائها سلسلة من المساجد فى العصور الاسلامية المختلفة . وسنبدأ بدراسة أول مسجد أسس فى مصر . ولئن كانت يد التغيير قد لعبت فعلا بهذا المسجد حتى لم تبق من آثار مؤسسه الأول عمرو بن العاص إلا البقعة التى شيده عليها ، فان المؤرخين قد احتفظوا لنا بوصفه فى مراحل نموه ، إذ أمدونا بصور متعاقبة من التغييرات التى حدثت به ؛ وما كان هـذا المسجد ، عند ما اختطه عمرو فى سنة إحدى وعشرين من الهجرة ، بأكثر من بناء غاية فى السذاجة ، لا يزيد كثيرا عن المساجد المبنية فى قرانا اليوم إن لم يقل عنها : مساحته كانت تقرب من خمسمائة متر ، وله أبواب ستة ، وسقف وطىء جدا محمول على جذوع من النخل ، ومحراب مسطح .

وقد ظل هذا المسجد الصغير ينمو ويكبر طوال أيام الدولة الأموية ، وكلما ازداد عدد المسلمين فى مصر وارتقت حياتهم ، وارتفعت عن سذاجة البداوة ، انعكس ذلك على مسجدهم هـذا ، فاتسعت رقعته ، وزادت أبوابه ، فأصبحت أحد عشر ، وفرشت أرضه بالحصر بدل الحصباء ، وارتفع سقفه ، واستبدلت بجـذوع النخل عمـد من الرخام ، وبدت فى تصميمه مظاهر معمارية جديدة لم تكن فيه من قبل كالمحراب المجوف والمآذن .

أما المآذن فلم تكن معروفة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، بل كان بلال يؤذن من أعلى سطح يجاور مسجد المدينة .

ولقـد بنى مسلمة بن مخلد والى مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان لمسجد عمرو أربعة أبراج فوق أركانه الأربعة ، وجعل الوصول اليها من مراقى خارج الجامع ، ونقش عليها اسمه .

أما المحراب المجوف فقـد أحدثه عمر بن عبد العزيز ـ على قول المقريزى ـ عنـد ما أعاد

بناء مسجد المدينة . وظهر فى مصر لأول مرة على يدى قرة بن شريك والى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك فى سنة اثنين وتسعين هجرية .

أما العمد الرخامية فلم يؤثر عن المسلمين أنهم عنوا بقطعها وإعدادها ، بل كانوا يستخدمون ما تصل اليه أيديهم من عمد المعابد المهدمة . ولقد كان شأنهم فى ذلك شأن الرومان من قبلهم ، إذ كانوا يفضلون نقل العمد اليونانية من المعابد القديمة الى معابدهم على أن يكلفوا أنفسهم مشقة عمل عمد جديدة . ولقد نسج مسلمو مصر فى ذلك على نفس المنوال الذى نسج عليه مسلمو الكوفة من قبلهم ، الذين أقاموا ظلة مسجدهم على أساطين كانت للأكاسرة كما يقول الطبرى .

***

تسلمت الدولة العباسية هذا الجامع الذى أصبح له فى النفوس مكانة سامية ، ولم تشأ أن تقف عند حد المحافظة عليه ، بل وجهت إليه عنايتها ، فزادت فى رقعته حتى وصلت مساحته الى القدر الذى هو عليه الآن أى ثلاثة عشر ألفا ومائتى متر تقريبا على يدى عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل المأمون الخليفة العباسى .

ترى كيف كان تصميم هذا الجامع قبل الأعمال العظيمة التى قام بها فيه ابن طاهر ؟ هل احتفظ بالتصميم القديم الذى كان عليه يوم أنشىء : أى ظل مسقوفا بأكمله كما كان ؟ أم صار يتكون من صحن مكشوف يحيط به من جهاته الأربع أروقة مسقوفة ؟ أم كان له تخطيط آخر ؟

هذه الأسئلة لم نظفر لها بجواب حتى الآن . سكت عنها المؤرخون جميعا ، ولم يكشف البحث الأثرى الذى قامت به لجنة حفظ الآثار العربية عما يميط اللثام عن هذه الغموض .

ولكن الواقع الذى لا مجال للشك فيه ، والذى ثبت فعلا من الأبحاث الأثرية التى قام بها الأستاذ محمود أحمد باشا مدير إدارة حفظ الآثار ، ومن التحليل الذى قام به الأستاذ كرزول أستاذ العمارة الاسلامية بالجامعة ، أن المسجد بعد زيادة ابن طاهر ، أصبح مكونا من صحن مكشوف يحيط به أربعة أروقة يشتمل كل من الرواقين القبلى والبحرى على سبعة صفوف من العقود تجرى فى موازاة حائط القبلة ، ويتكون كل صف من صفوف الرواق القبلى من تسعة عشر عقدا تتكىء على عشرين عمودا ، كما يتكون كل صف من صفوف الرواق البحرى من عشرين عقدا ترتكز على واحد وعشرين عمودا ، ومن المحتمل أنه كان فيما بين العقود طاقات صغيرة الغرض منها تخفيف البناء .

والرواق الشرقى به سبع طارات ، فى كل منها أربعة عقود ترتكز على خمسة أعمدة ، وتسير فى اتجاه الصفوف السابقة .

أما الرواق الغربى فيختلف عن ذلك قليلا ، إذ به أربعة صفوف من العقود بكل صف ثمانية تتجه من الجنوب الى الشمال (على عكس العقود الأخرى فهى تتجه من الشرق الى الغرب) .

ولقد كان فى المسجد محاريب ثلاثة : محراب وسط الحائط الجنوبى ، وواحد على سمت محراب عمرو (فى النصف الشرقى من المسجد الحالى) ، وثالث فى النصف الغربى من المسجد.

ويرجح أن ارتفاع الحوائط كان يزيد على تسعة أمتار بقليل ، وأن جدار القبلة كان به سبع عشرة نافذة يقابلها مثلها فى الجدار البحرى . أما فى كل من الجدارين الشرقى والغربى فيوجد اثنان وعشرون نافذة متقابلة . وهذه النوافذ جميعا يعلوها عقد مدبب قليلا تتكئ على أعمدة مندمجة من الرخام ، وبين كل نافذتين من الخارج دخلة سقفها معقود مضلع وترتكز على أعمدة صغيرة من الطوب ، وقد زاد عدد الأبواب فأصبح ثلاثة عشر بابا (خمسة فى الجدار الشرقى ، وأربعة فى الجدار الغربى ، وثلاثة فى الجدار البحرى ، وواحد فى جدار القبلة) .



هذا هو تصميم مسجد عمرو قبل قيام الدولة الطولونية . وهو وإن كان لا يطابق تماما شكل المسجد القائم الآن ، إلا أنه من اليسير جدا على الزائر أن يتبين فى سهولة التصميم الأصلى للمسجد ، بصرف النظر عما هنالك من تغيير . فأسس الأعمدة الباقية فى الرواقين الشرقى والغربى ، وبقايا العقود الناتئة فى هذين الجدارين ، والنوافذ التى سدت ولكن معالمها لا تزال واضحة ، والنوافذ التى تقطعها العقود الحالية ، هذه الشواهد جميعا تنطق بأجلى بيان بما جرى لهذا الجامع من التغيير . وليس هنا مجال الإفاضة فى ذلك ، فحسبنا أن نعلم أن صفوف العقود فى رواق القبلة (وهو الجزء المحتفظ بكيانه دون باقى أجزاء المسجد) قد تغير وضعها وأصبحت الآن عمودية على جدار المحراب بعد أن كانت موازية له ، وأن نقف عند حد التصميم الذى تركه عليه ابن طاهر لأنه أساس لتصميم المساجد التى أتت بعد ذلك .

ولكن هل ظل الجامع عاطلا من الزخرفة برغم اتساعه وظهور تلك العناصر المعمارية فيه ؟ لا شك أن سنة التطور قد اقتضت أن يتدرج فى سلم الرقى من ناحية الزخرفة كما تدرج من ناحية التصميم . فالإنسان بطبعه يحب الجمال ويقدره ويميل الى الشىء الجميل ويؤثره على غيره ؛ ولقد أشار المؤرخون الى أن الجامع قد بيض وزخرف وذهبت تيجان بعض أعمدته ، وهذه الأقوال لا تترك مجالا للشك فى أن المسجد قد خرج عن بساطته الأولى ، فتعاون الفنان مع البناء على إلباسه حلة قشيبة من الجمال الفنى ، وأضفيا عليه رواء لم يكن له من قبل .

ويرى الأب لامنس ، ويشاطره الأستاذ كريزول رأيه ، أن فكرة تزيين الجوامع عامة إنما ترجع الى زياد بن أبيه ، أحد رجال معاوية بن أبى سفيان الذين استعان بهم على تثبيت ملكه ، ذلك أن زيادا عندما أدرك القيمة السياسية للجوامع ، ورأى أنها كانت فى الواقع دار الندوة التى فيها يبسط الحاكم سياسته ، ويدعو الناس اليها ، ووجد أن للمساجد المحلية خطراً على هذه السياسة لأنها كانت مراكز تنقد فيها تصرفات الحكومة ، وتدس فيها الدسائس ، وتدبر بين جدرانها المؤامرات ، وليس من اليسير على الحكومة القائمة أن تراقبها مراقبة دقيقة

لجأ الى وسيلة يجذب بها معظم المسلمين من مساجد أحيائهم الى جامع العاصمة ، فزينه وحلاه وأسبغ عليه من الزخرفة رداء جعله يكسف بروعته وأبهته مساجد الأحياء ، ويدعو الى ساحته أفواج المسلمين ، وبذلك تتاح له الفرصة لكى ينشر آراءه ، ويؤيد وجهة نظره فى الحكم ، ويقيم حجته أمام أكبر عدد ممكن من رعيته .

ولئن صح ذلك فانه فى الواقع لا يكفى وحده لتعليل هذا الأمر ، ولا ينهض بمفرده دليلا عليه ، ولكنه قد يكون عاملا مساعدا فحسب ، ذلك لأن مسألة زخرفة الجوامع ليس فيها من الغموض ما يحمل على التماس العلل لها ، إذ هى أمر طبيعى اقتضته سنة الارتقاء . فلقد خرج المسلمون من شبه جزيرتهم الصحراوية الى بلاد عريقة فى المدنية وشاهدوا فيها الأبنية الفخمة والعمائر العظيمة ، فاقتبسوا من زخارفها وتصميماتها مالاءم طبعهم ، ووافق رغباتهم ، وطلبوا الى فنانى هذه البلاد سواء أكانوا من الذين دخلوا فى الاسلام أم من الذين بقوا على دينهم أن يستخدموا مواهبهم الفنية فى زخرفة جوامعهم ، فكان ذلك .

ولئن كان يعوزنا معرفة الزخارف التى ازدان بها جامع عمرو على عهد الدولة الأموية ، ولم يشبع المؤرخون رغبتنا فى هذه الناحية ، فلم يصفوا لنا هذه الزخارف وصفا فنيا دقيقا ، فان الأجزاء الصغيرة من الزخرفة التى كشفت عنها الأبحاث الأثرية فى هذا المسجد ، لتتضاعف قيمتها فى نظرنا لأنها تعتبر فى الواقع أقدم زخرفة مصرية إسلامية وجدت قائمة فى مكانها .

هذه الزخارف التى كان يزدان بها الجامع على عهد ابن طاهر ، بعضها محفور على الخشب وبعضها على الجص . أما الأولى فقد وجدت على بعض الطبالى الخشبية التى تعلو تيجان الأعمدة الموجودة فى الرواق البحرى الى يمين الداخل ، وفى الجهة الغربية من الإيوان القبلى ، كما أنها تشاهد أيضا على النوافذ الموجودة فى الجدار الغربى . وهى على قلتها ليس لها شبيه فى زخارف العمارة الاسلامية فى مصر ، وهى تمت بصلة وثيقة الى بعض زخارف قبة الصخرة التى بناها الوليد بن عبد الملك سنة ٧٢ هـ ببيت المقدس ؛ وقوامها فروع نباتية متموجة يتصل بها أوراق العنب ، أو حلقات حلزونية من النبات المعروف باسم شوك اليهود . ويرى الأستاذ هرسفلد فى هذه الزخرفة مثالا ناطقا على اعتماد الزخرفة الاسلامية على التقاليد الفنية السابقة على الاسلام ، لا سيما التقاليد البيزنطية .

ولقد بين الأستاذ كريزول فى وضوح كيف أن هذه الزخرفة تمثل الدور الأخير من أدوار تطور ذلك العنصر الزخرفى الذى كان مألوفا فى الشام قبل الفتح الاسلامى بنحو قرن أو قرنين .

أما الزخرفة المحفورة على الجص فتشاهد فى حنية فى الجدار الغربى ، ولم يعثر على زخارف جصية قائمة فى مكانها قبل هذه الزخرفة . ولقد ألقى اكتشافها ضوءا على المؤثرات التى استمد منها جامع ابن طولون تصميمه وزخارفه .

محمد عبد العزيز
الأمين المساعد بدار الآثار العربية

المسلمون

حاضرهم ومستقبلهم

ليس أحب الى نفس الغيور على المسلمين ، الراغب فى نهوضهم ، الحريص على رقيهم ، من أن يتفقد مواضع الضعف منهم ، والنقص فى أخلاقهم ، وينبههم اليها فى غير مواربة ولا استحياء ، ولا مبالاة بما عسى أن يناله من أذى ، أو يعترضه من صعاب . والذى يأخذ نفسه بذلك إنما يكون حاله حال الطبيب الذى يظفر بموضع الداء من المريض فيصوره له ويصف العلاج ولا يكتمه شيئا ، ليكون على علم بعلته ، ويشدد عليه فى استعمال الدواء وإن كان مرا ، ليكون من وراء ذلك الشفاء المقدور له . أما من يرى المنكر فى المسلمين ويغضى عنه ، ولا تثور الحمية فى نفسه لدفعه ، ولا يزعجه انحلال أخلاقهم ، خاشيا التهمة فى نصحه ، والتجريح فى عمله ، فهو كالطبيب يرى الداء يستفحل ، والعلة تستشرى ، ثم لا يصارح المريض بالخطر ، فيستهين بالأمر ، ومن وراء استهانته الهلاك والفناء . كلا الرجلين مقصر وملوم .

لا شك أن المسلمين اليوم ، ومن زمن طويل ، فى حال لا ترضى ولا تسر ، فقد امتدت غفلتهم ، بل طال نومهم ، وأريدوا على ما لا يرضاه لهم دينهم من الذل والهوان ، وطال عليهم الأمد فألفوه واستساغوه ، وأصبح الناصح المذكر غريبا فيهم ، وموضعا للسخرية منهم ، فيرميه خاصتهم وكثير من عامتهم بشتى التهم ، حتى زهد فى النصح والتذكير من هو أهل لهما ، إلا نفراً قليلا أهمتهم أمور المسلمين ، وأزعجتهم أحوالهم ، فصبروا على ما أصابهم من أذى ، وثابروا على النصح ، وأخلصوا فى الدعوة ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الاصلاح ، ولم يبالوا بقالة السوء فيهم من حاسديهم ، وكانت جهودهم بذورا صالحة للنماء ، ولكنها ككل غراس ، فى حاجة الى من يتعهدها حتى تنبت وتترعرع ، وتثمر ثمرتها ، وتصل الى غايتها .

المسلمون اليوم أشد ما يكونون احتياجا الى هداة ذوى بصائر نافذة ، يتلون عليهم آيات الله ، ويذكرونهم بهدى رسوله ، وسيرة أصحابه ، وماضى سلفهم الصالح ، ويقفونهم على الفروق بين ماضيهم وحاضرهم ، ويدعونهم الى التفكير فى مستقبلهم .

ألا إن للمسلمين ماضيا مجيدا ، وتاريخا حافلا بالعظائم ، يعرفه المسلمون ، ويعرفه كثير غيرهم ، بل يعرفه الناس جميعا .

يعرف الناس أن الدنيا خلصت لهم بالفتح والسلطان ، ودانت لهم الأمم بالإصلاح والتدبير ، وسادتها ثقافتهم وعلومهم ، وهذبتها أخلاقهم وحكمتهم ، وأسعدتها عدالتهم ونزاهتهم ، وآمنتها عفتهم وقناعتهم .

يعرف المسلمون ذلك ويفاخرون به ، ولكن ماذا تغنى المفاخرة بالماضى ، وما هى إلا كالوقوف بالأطلال ، والبكاء على الدمن ، بل ما هو إلا إفلاس من الحياة ؟ ! قد يغنى الماضى التليد إذا كان موصولا بعز الطريف وعظمته وسلطانه ، وليس ذلك شأن المسلمين اليوم ، فالصلة بين حاضرهم وماضيهم صلة ضعيفة ؛ فماضيهم كما أسلفنا مملوء بالجلائل والمفاخر ، وحاضرهم كما نرى عجز وتقصير . تقوم الدنيا وتقعد ، ويضطرم العالم بالحوادث ، ويزدحم بالأهوال ، وتثل عروش وتنحل دول ، وتفنى شعوب ، ويضطرب العالم اضطرابا سيعجز التاريخ عن وصفه ، ويسفر السفراء فى السلم والحرب ، وفى الشرق والغرب ، وموقف الأمم الاسلامية موقف يضيق المقال والمقام بالافاضة فى وصفه ، وإجماله معروف للجميع .

إن حاضر المسلمين إذا قورن بماضيهم ، خلص منهما للمتأمل حال مؤسف مبك ، غير أن البكاء فى المصائب ليس شأن الرجال ، وإنما شأنهم الرجوع الى الصواب ، والاستفادة منها اعتبارا واستبصارا .

إن أحكم بيت قاله شاعر من المعاصرين هو قول شاعرنا شوقى :

فانما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فأخلاق الأمم هى قوام وجودها ، وعناصر كيانها ، وروح حيويتها ، إذا توافرت لها توافر لها كل حظ من الحياة ترجوه ، وكل سؤدد فى البقاء تتطلبه ، وكل كرامة بين الجماعات ترمى إليها .

إن الله عز وجل قد صدق آباءنا وعده ، لحباهم أمرع بلاده جنابا ، وأكثر مما لكه عمرانا ، وأسخاها تربة ، وأصحها مناخا ، فزادوها مرعا وعمرانا ، وبلغوا بها أوجا من المدنية أرفع مما كانت فيه حتى أصبحت مطمح أنظار العالم ، يفدون إليها للاستفادة من علومها ، والاقتباس من صنائعها ، والتزود من آدابها وأصولها . وقد شهد بهذا جميع المؤرخين حتى مالا تربطنا وإياهم رابطة أدبية أو مادية ؛ فما لنا ننحرف عن جادة أسلافنا ، ونكب على شهوات نفوسنا ، ونتسامح فيما لا يجوز أن يتسامح فيه من الأخلاق المنافية للحياة الفاضلة ، لنضيع ما بقى بأيدينا من تراث آبائنا ؛ وليس هذا شأن الأمم الشاعرة بوجودها ، المحسة بتبعات حياتها ؟ !

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » ، « وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا ، وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذابا شديدا ، فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا ، قد أنزل الله إليكم ذكرا » ؟

أبو الوفا المراغى

التجديد والمجددون فى الاسلام

الامام الأعظم أبو حنيفة — دراسات فى مذهبه

الاستحسان فى مـذهبه :

أنـكر بعض الناس على أبى حنيفة القول بالاستحسان ، وقالوا : إنه يحلل ويحرم بالهوى من غير دليل ؛ حتى فسر هذا الاستحسان ابن حزم فى كتابه « الإحكام » بأنه : ما اشتهته النفس ووافقها خطأ كان أو صوابا . ومن أحاط بمذهب أبى حنيفة خُبرا ، علم أنه لم يقل بهذا الاستحسان الذى عَزَوْه اليه بغير حق ، كما لم يقل به أحد من أصحابه ومن سار على منهاجه ، بل لم يقل به فقيه من فقهاء المسلمين . ولا أدل على هذا من أقوال جمهرة العلماء ، فقـد قال ابن السمعانى : « إن كان الاستحسان هو القول بما يستحسنه الانسان ويشتهيه من غير دليل فهو باطل ، ولا أحد يقول به ؛ وإن كان هو العدول عن دليل الى دليل أقوى منه فهو مما لم ينكره أحد » . وقال غيره : « الاستحسان هو العدول عن قياس الى قياس أقوى ، أو هو تخصيص قياس بأقوى منه » . وقال ابن العربى : « الاستحسان عندنا وعند الحنفية هو العمل بأقوى الدليلين » . وقال القاضى : « الاستحسان مذهب أحمد بن حنبل ؛ وهو أن يترك حكم الى حكم هو أولى منه ، وهذا لا ينكره أحد » .

وقـد أثنى كبار الأئمة على الاستحسان وأخذوا به ، من ذلك ما قاله الامام مالك : « الاستحسان تسعة أعشار العـلم » . وما قاله الامام أصبغ : « الاستحسان عماد العـلم » . وتضمن كلام الشاطبى فى الموافقات « أن الاستحسان ليس هو الرجوع الى مجرد الذوق والتشهى ، ولـكنه الرجوع الى ما علم من قصد الشارع ، وذلك كالمسائل التى يقتضى القياس فيها أمرا ، إلا أن ذلك الأمر يؤدى الى فوت مصلحة أوجلب مفسدة ، فيكون إجراء القياس على إطلاقه يؤدى الى حرج ومشقة، والله تعالى يقول : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » .

فمن هـذه الـكلمات تظهر وجهة النظر العامة فى الاستحسان إجمالا عنـد جمهور الأئمة ؛ أما وجهة نظر الحنفية الخاصة به ، فقد آثرنا الامام المجتهد فى مذهب أبى حنيفة أبا بكر الرازى الجصاص ليحدثنا عنها ، فهو الذى يحق له أن يتكلم فى هذا الموضوع الدقيق المدارك ، وقوله فيه هوالفصل ؛ قال : « جميع ما يقول فيه أصحابنا ـ الحنفية ـ بالاستحسان ، ما قالوه إلا مقرونا بدلائله وحججه لا على جهة الشهوة واتباع الهوى ، ونحن نذكر هنا جملة تقضى بالناظر فيها الى معرفة حقيقة قولهم فى الاستحسان بعد تقدمة القول فى جواز إطلاق لفظ « الاستحسان » فنقول : لما كان ما حسنه الله تعالى باقامته الدلائل على حسنه مستحسنا ، جاز لنا إطلاق لفظ

الاستحسان فيما قامت الدلالة بصحته ، فقد ندب الله تعالى الى فعاله ، وأوجب الهداية لفاعلها فقال عز من قائل : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ». وروى عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما رآه المسلمون حسن فهو عند الله حسن ، وما رآه المؤمنون سيئا فهو عند الله سيء » .

ولفظ الاستحسان يكتنفه معنيان : أحدهما : استعمال الاجتهاد وغلبة الرأى فى إثبات المقادير الموكولة الى اجتهادنا وآرائنا ، نحو تقدير متعة المطلقات ؛ قال تعالى : « ومتعوهن على الموسع قَدَرُه ، وعلى المقتر قدره ، متاعا بالمعروف حقا على المحسنين » . فأوجبها على مقدار يسار الرجل وإعساره ، ومقدارها غير معلوم إلا من جهة أغلب الرأى وأكثر الظن ؛ ونظيرها أيضا نفقات الزوجات ؛ قال الله تعالى : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » . ولا سبيل الى إثبات المعروف من ذلك إلا بطريق الاجتهاد ؛ ونظائر هذا أكثر من أن تحصى ، وقد سمى أصحابنا هذا الضرب من الاجتهاد « استحسانا » ، وليس فى هذا المعنى خلاف بين الفقهاء ، ولا يمكن أحدا منهم القول بخلافه .

واما المعنى الآخر من ضربى الاستحسان ، فهو ترك القياس الى ما هو أولى منه ، وذلك على وجهين : أحدهما أن يكون فرع يتجاذبه أصلان ، يأخذ الشبه من كل واحد منهما ، فيجب إلحاقه بأحدهما دون الآخر لدلالة توجبه ، فسموا ذلك استحسانا ، إذ لو لم يعرض شبه للوجه الثانى لكان له شبه من الأصل الآخر ، فيجب إلحاقه به ، وأغمض ما يجىء من مسائل الفروع وأدقها مسلكا ما كان من هذا القبيل ، لأنه محتاج فى ترجيح أحد الوجهين على الآخر الى إنعام النظر واستعمال الروية فى إلحاقه بأحد الأصلين دون الآخر .

والخلاصة : أن الاستحسان فى اللغة عد الشيء حسنا ، وفى اصطلاح الأصوليين يطلق على الدليل الذى يعارض القياس الجلى ، سواء كان هذا الدليل نصاً من كتاب أو سنة ، أو إجماعا أو قياسا خفيا ، وإنما سمى استحسانا لاستحسانهم ترك القياس الجلى به ، فكان هذا مستحسنا ، وشاع فى كتب الأصول أنه إذا أطلق الاستحسان يراد به القياس الخفى ، كما غلب اسم القياس على القياس الجلى ، فالقياس الخفى وإن اختص باسم الاستحسان لا يخرج عن أن يكون قياسا شرعيا ، وهو حجة عند الحنفية ويعملون به إذا كان أقوى من القياس لأنهم يقصدون به دليلا من الأدلة المتفق عليها فى مقابلة القياس الجلى . قال فى مسلم الثبوت : إن أريد بالاستحسان ما يعده العقل حسنا ، فلم يقل بثبوته أحد ؛ وإن أريد به ما أراده الحنفية ، فهو حجة عند الكل ، فليس هو أمرا يصلح للنزاع .

فلاخصوصية لأبى حنيفة فى الأخذ بالاستحسان ، وإنما الأئمة ـ إلا قليلا منهم ـ يشاركونه فى القول به ، فالمالكية والحنابلة أخذوا به ، وقد سبق من أقوالهم ما يدل على هذا ؛ ولم يخل

الامام الشافعى رضى الله عنه من الأخذ به ، أما ما روى عنه فى الرسالة وفى الأم مما ظاهره إنكار الاستحسان ، فهو محمول على الاستحسان المحرم الذى هو التحليل والتحريم بالهوى من غير دليل ، وما روى عنه من قوله : « من استحسن فقد شرع » فقد حمله ابن العربى فى الفتوحات على مدح الاستحسان ، وقال : إن مراد الشافعى بهذا القول : أن من استحسن فقد صار بمنزلة نبى ذى شريعة ، فمقصوده المدح ، ولكن أتباع الشافعى لم يفهموا كلامه .

هذا ما تضمنه كلام الشيخ الأكبر فى الفتوحات المكية . ومن الأدلة على أن الأئمة الأربعة أخذوا بالاستحسان المسألة الآتية : فقد ثبت عن الامام الشافعى رضى الله عنه أنه قال : إن مدة الحمل أربع سنوات ، مع أن القياس يقتضى أن تكون تسعة أشهر لأنه غالب ما يقع ، والشريعة جاءت بالحكم بالغالب ؛ وقال أبو حنيفة : إن مدة الحمل سنتان ، وعن أحمد روايتان : المشهورة كمذهب الشافعى ، والأخرى كمذهب أبى حنيفة ؛ وعن مالك روايات : أربع سنين ، وخمس سنين ، وسبع سنين ؛ وقال الظاهرية : تسعة أشهر تمسكا بالغالب الذى هو القياس . ولا مستند لهذه الأقوال المختلفة فى مدة الحمل سوى الاستحسان ، ولم يكن فى المسألة نص قاطع من الشرع .

ومما تقدم تتبين حقيقة الاستحسان وأنه ليس هو التحليل والتحريم بالهوى من غير دليل كما افتروا على أبى حنيفة ، وإنما هو الأخذ بأقوى الدليلين ، ولم يخرج عن كونه دليلا شرعيا من الأدلة المتفق عليها ، وليس هو دليلا زائدا عليها . والذين عابوا أبا حنيفة لأخذه به إما حساد له ، والله تعالى يقول : « يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » ، وإما أنهم لم يفهموا مدارك مذهب أبى حنيفة الدقيقة ، وإما أنهم غير منصفين .

ولم تزل قِلةُ الإِنصاف قاطعة   بين الأنام ولو كانوا ذوى رحم

أمّا ما نقدوا أبا حنيفة عليه من أخذه بالحيل الشرعية أو الخروج من المضايق ، فسنتكلم على هذا بعد إن شاء الله تعالى .

السيد عفيفى

من أوهام العامة

سأل رجل عمرو بن قيس عن الحصاة يجدها الانسان فى ثوبه ، أو فى خفه ، أو فى جبهته من حصى المسجد .

فقال له عمرو : ارم بها .

فقال الرجل : زعموا أنها تصيح حتى تُرد الى المسجد .

فقال عمرو : دعها تصيح حتى ينشق حلقها.

فقال الرجل : سبحان الله ألها حلق ؟ قال عمرو : فمن أين تصيح ؟ !

بحوث في المسائل الفقهية

دفع الخطأ عن الصواب

الامام الشافعي بين القديم والجديد

ليس جديدا على الناس أن يتحدث إليهم واحد من الأزهر أو من غير الأزهر عن الشافعى رضى الله عنه ، وعن مذهبه القديم فى العراق ، ومذهبه الجديد فى مصر .

وليس جديدا فى العلم أن يقول قائل : إن الشافعى بعد أن وفد على مصر اتجه الى تحرير مذهبه وتصفية مسائله مما عسى أن يشوبها من غموض أو ضعف ، وتدعيمها بما انتهى إليه من أدلة صحيحة ، وما وصل اليه اجتهاده فى الفهم ، وما استقر عليه رأيه من صواب الاجتهاد .

وليس كذلك غريبا على العقــول ، ولا إحــداثا فى الدين ، ولا بعيدا عما يقول به علماء الاجتماع وتشهد به التجارب الملموسة ، أن يكون الشافعى رضى الله عنه كغيره من أهل العلم يؤثر فى البيئة ويتأثر بها ؛ وشاهد ذلك أن الشافعى دوّن فى العراق ما دوّن ، ولما وفد على مصر ووجد فيها من دواعى البحث ما لم يكن وجد ، وتوفرت لديه أدلة لم تكن تهيأت له من قبل ، وتكشف له من عادات الناس ما لم يكن عرف فى العراق ، كان له من ذلك كله حافز جديد ـ إذ لم يكن طوى صحيفته ، ولا ألقى يراعته ، ولا فض حلقة درسه ـ على استئناف البحث فيما مضى ، فمحا الكثير وعدل الى غيره ، وأثبت القليل (نحوا من عشرين مسألة) ، ونهى عن الأخــذ بمــا سواه مما أخذ عنه فى العراق . وكذلك كان من آثار البيئة العلمية لدى الشافعى رضى الله عنه أن ظهر له فى جمهرة من المسائل قولان مثلا بدلا من قول واحــد ، تبعا لظهور أدلة جديدة صحت عنده ولم ينف بعضها بعضا .

ذلك شأن مفروغ منه ، وكتب الطبقات وكتب التاريخ وكتب الفقه وما إليها حافلة بالكلام فى هذا . فإذا تحدث صاحب كتاب قديم أو جديد بأن الشافعى تأثر بالبيئة فمعناه ما قدمنا لك ، وهذا لا ينفى أنه أثر فى البيئة فأوجد فيها وأفادها ما لم يكن لها من قبل .

ولا يمكن أن يحمل الكلام على غير ما عرفنا من تأثير البيئة ، وليس يتأتى لمدع أن ينفى هذا ، إلا من تخيل إبطال البديهيات الأولية .

فمن شاء بعد ذلك أن يكون ضمن من كتبوا فى تراجم الفقهاء فالسبيل معبــدة أمامه ، ويسير من الجهد يصل به الى غايته دون أن يتكلف عسيرا ، أو يصادف شاقا .

ما كان لى أن أعرض لهذا ، أو أشغل القراء بشىء منه ، لولا أن مجلة الأزهر نشرت فى عددها الأسبق والذى قبله طرفا من الكلام عن الشافعى لزميل مدرس معنا بكلية الشريعة ، وكان من المؤسف ، أن يتطوع زميلنا هذا بتجريحنا فى نهاية مقاله الأخير .

ذلك أنه أخذ على الأستاذ أحمد أمين بك ما تحدث به فى كتابه « ضحى الاسلام » عن تأثير البيئة فى الإمام الشافعى ، وبعد أن أتعب نفسه كثيرا فى إبطال ما ذكره أحمد بك أمين هجم على كتابنا ـ تاريخ التشريع الاسلامى ـ الذى يدرس بكلية الشريعة ، ونسب إلينا أننا اقتبسنا فيه بالنص ذلك الخطأ الكبير .

وإن يكن بين كلامنا وكلام الأستاذ أمين بك اتفاق فى الفكرة ، أو شبه اتفاق فى الأسلوب ، فقد سجلنا نحن فى كتابنا أن من بين مراجعه كتب الأستاذ أحمد بك أمين ، فلا غرابة أن يكون بيننا تقارب ما . وعلى ذلك فلم يكتشف الزميل سرا كتمناه ، ولا اهتدى الى خبيئة غابت عن سواه ، وقليل من التؤدة كان يكفيه لتوجيه كلامنا الى الصواب الذى يتمثل فيما كتبنا واضحا شاخصا . ولو أن فى الكتاب شيئا يؤخذ علينا حقا لكان من مقتضيات الصلة العلمية ، ومن مظاهر صدق النية بين الزملاء ، أن يصادف لدى الأخ حسن تعليل ، وجميل اعتذار عنا أمام الطلاب .

أكتب هذا لأزيل ما علق بالأذهان ، وليس حبا منى فى الجدل ، ولا تهافتا على إثارة الخلاف ، فليس من خلقى النزوع الى شىء من هذا ، والله يهدينا ويهدى الناس بالقدوة من أعمالنا ؟

عبد اللطيف السبكى

العقل والحمق

جاء فى الأثر : أن الله عز وجل لما خلق العقل قال له أقبل ، فأقبل ، ثم قال له أدبر ، فأدبر ؛ فقال : وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أحب الى منك ، ولا وضعتك إلا فى أحب الخلق الى . ولما خلق الحمق قال له أقبل ، فأدبر ، ثم قال له أدبر ، فأقبل ؛ فقال : وعزتى وجلالى ما خلقت خلقا أبغض الى منك ، ولا وضعتك إلا فى أبغض الخلق الى .

وقال الأحنف بن قيس : أنا للعاقل المدبر ، أرجى منى للاحمق المقبل .

وقال شاعر :

يعد رفيع القوم من كان عاقلا ... وإن لم يكن فى قومه بحسيب
وإن حل أرضا عاش فيها بعقله ... وما عاقل فى بلدة بغريب

مذاهب العرب فى كلامهم

من مذاهب العرب أنهم يلتزمون فى الاستفهام بهل أو ، فيقولون مثلا : هل تحب العلم أو المال ؟ وفى الاستفهام بالهمزة أم ، كما قال تعالى : « آلله أذن لكم أم على الله تفترون » .

ومن مذاهبهم أنهم قد يضيفون الى الجملة حرفا كقد مثلا ، فيجعل لها معنى ، فإذا حذفت منها كان لها معنى آخر ، كقوله تعالى : « قد أفلح من تزكى » .

وهذا من الفروق الدقيقة التى تميز لغة العرب عن غيرها .

ويحسن أن أشير هنا الى أن بعض الكاتبين قد ينحرف عن القصد فى هذا الحرف فيلحق به نفيا ، ، فيقول : قد يكون كذا وقد لا يكون ، والعرب لا تعرف هذا ولم يرد عنهم .

ومن مذاهبهم أنهم يجمعون بين معنيين متغايرين للكلمة فى وقت واحد ، كما فعلوا فى الاستفهام الإنكارى مثلا ، نحو « أتقولون على الله ما لا تعلمون » ، فهو استفهام وإنكار معا .

ومنها أنهم يحكون القول المتقدم ويبقونه على إعرابه ، فيقولون : من محمدا ؟ فى جواب من قال : أر أيت محمدا ؟ ولكن النحاة يعتبرون أن هذا عرض للمشابهة ويردون الإعراب الى وضعه الأول .

ومن مذاهبهم الإتباع ، فيجرون الكلمة التالية على حكم السابقة « كحَسَن بَسَن » .

ومن مذاهب القول عند العرب أنهم يربطون المعنى بعدد الأحرف ، فيجعلون زيادة المبنى زيادة للمعنى ، مثل قتل وقتّل ، كأنهم يزنون الكلام وزنا ، أو يصبون المعانى فى أكسية لا تفيض أطرافها ولا تنقبض أزلالها .

ومن مذاهبهم أنهم يلقون على الساكن الذى سكن ما بعده للتقييد حركة الإعراب ، كقول الشاعر :

عجبت والدهر كثير عجبه ... من عَنَزِىٍّ سبّنى لم أضربُه

ومن مذاهبهم أنهم يطلقون على بعض الأشياء اسما مؤنثا فيشمل المؤنث والمذكر معا ، كما فعلوا فى الحيوان ، مثل حمامة ودجاجة ، فتقول : هذا حمامة وهذه حمامة ، فلا يفرق بينها إلا باضافة كلمات اليها . وقد يخص بعض الأسماء كثور وديك ، ولكن هذا لا يمنع من أن تقول فى الثور : هذا بقرة ، وفى الديك : هذا دجاجة ، وهكذا . وقد يطلقون التأنيث فى كل ما لم تظهر أنوثته وذكورته .

ومن مذاهبهم النحت والإبدال والاشتقاق .

ومنها أنهم أحيانا يحملون الكلام على السياق ، فمثلا لا يذكرون ما يعود عليه الضمير إذا كان معلوما من السياق ؛ ومن ذلك قوله تعالى : « حتى توارت بالحجاب » أى الشمس .

ومن مذاهبهم أنهم يصلون الكلام فى موطن ويفصلونه فى موطن آخر . وهذا باب جليل ، ومعرفته من الدقة بحيث جعلها بعضهم البلاغة كلها .

ومن مذاهبهم الغريبة أنهم قد يقتصرون فى الغرض على كلمة أو بعض كلمة ، ويتركون للسامع أن يفهم ما يريدون . قال الأصمعى : سمعت العرب تقول : « درس المنا » أى المنازل .

وأشير هنا الى أنه يأتى فى القصص الغربى حذف قال وقلت ، فيظن بعض المتأدبين أن هذا الأسلوب تنكره مذاهب العرب ، ولكنه عربى صحيح . فمن مذاهبهم أنهم يحذفون هذا الفعل كثيرا قال ويقول من كلامهم ؛ قال تعالى : « وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم » أى يقال له هذا فى الآخرين . وقال تعالى : « فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم » أى فيقال لهم .

وجملة القول أن للعرب مذاهب كثيرة فى كلامهم تجعل لغتهم من الأمهات بين لغات العالم بحيث تتسع لكل ما يلقى فيها من الأساليب الحديثة . فلما جاء المتأخرون لونوا الكلام ألوانا مختلفة ، وجعلوا لها فنا قائما ، ولكنهم استندوا فى جملة ما فعلوا الى أصول العرب التى ذهبوا اليها ، وأضافوا من عندهم إضافات جاء بعضها مقبولا وبعضها الآخر مرذولا ، كاسرافهم فى تكلف السجع ، ودرجوا على ذلك حتى عصرنا الحاضر ، وكاد يكون ما ابتدعوه موضعيا فى أول أمره ، خصوصا الشعر ، فقد كان للمشارقة المواليا ، والقوما ، وكان وكان ، وغيرها ، وللمغاربة عروض البلد والزجل وغيره ، ولمصر أوزانها البلدية وخصوصا « الواو » .

وقد استحدث الأندلسيون فنا سموه الموشح ، ينظمونه أسماطا وأغصانا يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ، ويلتزمون عند قوافى تلك الأغصان وأوزانها متتاليا واحد الى آخر القطعة ، وأكثر ما تنتهى عندهم الى سبعة أبيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمقاصد . وأول من اخترعها مقدم ابن معافر الفريرى ، وأخذ عنه صاحب العقد الفريد .

ومن أحسن ما قيل فى ذلك لعبادة بن القزاز :

بدر تم ، شمس ضحى غصن نقا ، مسك شم
ما أتم ، ما أوضحا ما أورقا ، ما أنم
لا جرم ، من لمحا قد عشقا ، قد حرم

وهناك موشحة لسان الدين ، وقد طارت شرقا وغربا ، ويتغنى بها بعضهم الآن ، نذكر منها البيت الآتى :

جادك الغيث إذا الغيث هما يا زمان الأنس بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما فى الكرى أو خلسة المختلس

وقد التزموا الإعراب فى الموشحات ، وأما المواليا فقد تجىء معربة ، وأكثر ما تكون ملحونة ، وما عداهما عامى كله .

ومن المذاهب الغريبة فى التصور وطريقة التفكير ، لا فى الصورة والوضع ، ما يذهب اليه أحيانا بعض الشعراء ، فيلتوى عليهم قصدهم ، وتعتل طريقتهم ، ولم يكن نهجهم من الحق أو الواقع فى شىء .

نذكر من ذلك ما ذهب اليه الكميت فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول :

فاعتتبَ الشوقُ من فؤادى والشعرُ ، الى من اليه معتتبُ
الى السراج المنير أحمد لا تعدلنى رغبة ولا رهب
عنه الى غيره ولو رفع الناس الىَّ العيون وارتقبوا
وقيل أفرطتَ ، بل قصدتُ ولو عنفنى القائلون أو ثلبوا
اليك يا خير من تضمنت الأرض ولو عاب قولى العُيُب
لجَّ بتفضيلك اللسان ولو أكثِرَ فيك اللجاج واللجب

فمن رأى أن من يمدح الرسول فى أرض مسلمة ، وللاسلام شوكته ، يلقى من العنت واللوم والتعنيف ما يزعمه الكميت فى شعره ؟ ألا إنه الخطأ فى الفكر والاضطراب فى الخيال .

بقى أن ننظر بعد ذلك فى مذاهب القوم فى فهمهم وفى طريقة تفكيرهم ، فالى المقال الآتى إن شاء الله ؟

محمد ناصف

جمعية المحافظة على القرآن الكريم

ستجرى جمعية المحافظة على القرآن الكريم بالقاهرة مسابقتها السنوية لامتحان الطلبة صغار السن فى حفظ القرآن الكريم وتلاوته وأحكامه ، من كل بلاد القطر ، فى صباح يوم السبت ٩ أغسطس سنة ١٩٤١ بمقرها بشارع الملكة نازلى رقم ١٢ على جوائز مالية وشهادات .

والطلبات تقدم من الآن باسم سعادة رئيس الجمعية ومرفق معها شهادة الميلاد ، على شرط ألا يزيد سن الطالب عن ١٤ سنة فقط لغاية أغسطس سنة ١٩٤١ ، ولا تقبل شهادة تقدير الطبيب ، ولا يكون ممن أخذ مكافأة السنين الماضية ؟

من وحى الشريعة الخالدة

لقد كان فيما تجلى بين الناس مما يسود الأنظمة البشرية ويسلكها فى طلق واحد هو الجد المطلق والسعادة القيمة ، وما يردها فى شتى مرافقها ومنازع وجودها الى سُبل من الحياة لا عداد لها وآفاق مختلفة لا تقاس اليها القوانين الوضعية فى قليل ولا كثير - أنبل ما عرف التاريخ فى أطوار الماضى البعيد ، وأقوم ما اهتدت اليه البشرية فى مختلف صورها ومحيط آفاقها.

فالشريعة التى تعنى بإحكام أنماط المجتمع ، وبث المثل العليا فى أطرافه ، ودعوة الناس الى أن يستجيبوا تلك الدعوة العامة ترسم لهم المناهج فى أحوالهم الشخصية ، وتقيم بنيانهم على أسس من الجد منيعة ، وبراج من السعادة رفيعة ، وتدل بهم الى أن حياة الفرد التى تتألف منها حياة الجماعة والأمة أحرى بها أن تكون حياة وثيقة الاتصال بالحياة الدائمة ، حتى لا يتسرب اليها وهن ، ولا يعتورها ضعف وانحلال - هى شريعة السرمدية والبقاء ، وناموس الخلود المستمد من وحى السماء . ولم ترسم الشريعة فيما رسمته أحكاما خلت من العبرة ، ونبت عن الموعظة ، بل رسمت كما رسمت من طرائق الجد أحكاما تعلم الانسان كيف يكون فقيها فى دينه ودنياه .

ومن فقه العبد فى دنياه أن يكون بصيرا بعقبى أمره ، مضطلعا بالخطوب وما يجد له عنها فرجة ، وما يستدفع غوائلها من حجج بالغات ومثلات سابغات .

ومن فقه العبد بدنياه أن يكون حذرا فى متركه ومأتاه ، ومتبلغه وغاية مناه ، لا يخدعه سراب الأمل ، ولا تهيج به نوازع المنى فتصدفه عن جادة العمل ، يعتبر بالماضين ، ويقفو أثر السابقين ، فله اليهم غاية ، وله بهم وشيجة رحم ولحمة قرابة . قال الله سبحانه جل وعلا : « واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ، واعلموا أن الله غفور حليم » . وحذرُ العبد من الله أن يكون بصيرا بعقباه ، قائما على سره ونجواه ، صادقا فى عافيته وبلواه ، فلا يخدع إلا من حيث يعلم أنها خدعة الصبى على اللبن فلا تورثه تلك الخدعة ظاهرة من ظاهرات الضعف وضيق العطن ، ولا تهبط به بين عارفيه الى وهدة الغفلة والراحة وفطير الرأى ، بل ينبغى أن يكون العبد ذا دراية وحنكة إذا خدع مرة فلا يخدع أخرى ، بل إن الخدعة الأولى تعلمه كيف ينجو من الخدعة الثانية ، لأنها ميسم التجربة ودليل الجدة ومشكاة الظلام .

حكى بعض رجال الحديث فى السيرة أن الشاعر أبا غرة كان هجاء مستطيلا على منازل الناس وكرائم الخلق ، أسر يوم بدر فضرع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى فك أسره ، وكان يعلم منه أنه رجل يقع فى الأعراض والكرامات ، ليس له من خلقه وازع ولا من عقله رادع ،

غير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاهده على أن لا يعود سيرته ، فقال أبو غرة نعم . عند ذلك أطلق النبي صلى الله عليه وسلم سراحه . لكنه ما لبث أن لحق بقومه وعاد الى ما كانت تخلع عليه خلائقه من التحريض والهجاء والإقذاع . وللايام دورتها ، وللافلاك مدارها ، فأسر أبو غرة مرة أخرى فى واقعة أحد ، وجيء به موثقا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله المن ، فأباه عليه صلى الله عليه وسلم وقال : « لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين » .

فالمؤمن كيس فطن . وكياسة المؤمن ألا يؤخذ على غرة ، فلا تستخفه أحلام ، ولا تعبث بيقينه أوهام ، وإنما يرى الرأى مجتهدا فيه صادق العزمات ، مسدد الوثبات ، فان أخطأ فله أجر وإن أصاب فنعما هى . فالحذر من الناس هو الذى يبلغ من الحياة أوطارها ؛ وينال منها بلغته ، وهو بما يحمل من عين ساهرة ، وفكرة من اليقظة مترافدة ، نادر المثال ، لأنه المفرد العلم فى قومه ، فيترسمون خطاه ، ويضربون على قيثارته . والى هذا يشير رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « تجدون الناس كابل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة » . وهذا الحديث يعنى أن الناس وإن كثروا عددا فالمفرد العلم الذى يمكن أن يكون فيهم ملاك الفضائل أندر وجودا وأعز منالا ، كما أن المائة من الابل مثلا تكون بين سمعك وبصرك فلا تقع فيها على راحلة قوية سهلة السير مأمونة الجانب سلسلة القياد إلا نادرا . والناس يتكاثرون عددا ولكنهم يقلون شمائلا :

إنى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

عباس طه

اعلان لحضرات المشتركين

نرجو الذين يودون متابعة الاشتراك ودفعوا نصف قيمته أن يبعثوا الينا بالنصف الثانى حتى لا تتأخر عنهم المجلة .

But the best remedy to avoid future unpleasantness lies in the hand of the woman in Islam, where marriage is a civil contract and can be saddled with adequate conditions, to violate which would in itself bring marriage to nullity. Thus, a woman who fears the possibility of a second-marriage on the part of her betrothed, can make provisions against its unpleasant effects, before she is married. She may get such special damages, as are provided in the contract of marriage, when the contingency arises; she may have the option of living separately from her husband with a suitable maintenance; or get herself divorced and lead an independent life, and recover damages as well. But this should all be provided for in the contract of marriage.

"Polygamy in a word, in Islam, is a remedy. It has its uses and abuses. Islam guards against the latter, and allows the former under restrictions and within stringent limits. More knowledge of human needs and exigencies would enlighten the world and enable it to see the necessity of allowing an institution, like polygamy, with its rare and limited use as in Islam [1]."

Polygamy is not an institution originated by Islam. "Now Mohammed," writes Mr. B. Smith, "was a legislator and a statesman, as well as the founder of a religion and why is the defence which we allow to Solon, and the praise we bestow upon the limited scope of the Mosaic legislation, denied to Islam ?

"Polygamy is, indeed, next to caste, the most blighting institution, to which a nation can become a prey. It pollutes society at the fountain-head, for the family is the source of all political and all social virtues. Mohammed would have more than doubled the debt of gratitude the Eastern world owes to him, had he swept it away; but he could not have done so, even if he had fully seen its evil. It is not fair to represent polygamy as a part of Mohammedanism any more than it is fair to represent slavery as a part of Christianity. The one co-exists with the other, without being mixed with it, even as the muddy Arve and the clear Rhone keep their currents distinct, long after they have been united in one river bed. Perhaps it is strange that they ever could have co-existed, even for a day; but we have to deal with facts as they are, and it is a fact, that slavery has co-existed with Christianity, nay, has professed to justify itself by Christianity even till this nineteenth century. Mohammed could not have made a 'tabula rasa' of Eastern society, but what he could do he did. He at least put strict limitations on the unbounded licence of Eastern polygamy, and the facility of

(1) H. H. Nawab Sultan Jahan Begam Sahiba, Ruler of Bhopal; India.

the institution under restrictions which gradually proved to be a most efficacious check to polygamy, and made the largest portion of the Moslem world observe strict monogamy. The best check indeed has been provided in the very verse of the Koran which is held to authorise polygamy : "Then marry what seems good to you of women, two, three or four (wives) ; but if ye fear that ye shall not act equitably, then one (wife) only [1]."

In this verse the licence given to polygamy is curtailed by the proviso which enjoins strict equity and justice towards all wives as obligatory on man. In case a man feared that he could not act equitably and justly between his wives, he was directed to be content with one wife only. The word 'fear' in the verse deserves special notice; that is to say, if a man is afraid that he will not be able to comply with the proviso, he must not go beyond one wife. And it need hardly be pointed out, how difficult it is to give every one his (or her) own just due ; nor is every one able to do it. Nay, the Book of God itself admits in another verse the inability of man, to observe the required equality of treatment in every respect to all of his wives, and thus emphasises the desirability of having only one wife ; but suggests, at the same time, a very wise course to those who under unavoidable circumstances have been compelled to have more than one wife. The verse is as follows : "And ye can never act equitably between women, although ye covet (it); but turn not with all partiality (towards one of them) nor leave the other like one who is in suspense ; but if ye be reconciled, and fear (to do wrong), verily God is Forgiving, Compassionate [2]." Again : "And if a wife fear ill-usage or aversion from her husband, it shall be no crime in them both that they should be reconciled among themselves with some reconciliation ; for reconciliation is best. And souls are prone to avarice ; but if ye be good and God-fearing, verily God knows what ye do [3]."

It will thus be clear from the above instructions that when a man has married two wives in the belief that he is able to treat them equitably, and he then finds that he is inclined towards the one to a degree amounting to aversion against the other, and is prepared to divorce one of his wives, the above verses lay down directions for the guidance of both man and wife, namely, that they should come to an understanding between themselves and be reconciled—the wife by foregoing some of her rights, and the man by self-control. This would save each of them the troubles attendant upon a divorce.

---

(1) Koran IV ; 3. (2) Koran IV : 129.

(3) Koran IV ; 128.

of the law in the West which, practically speaking, condones what it condemns under the name of bigamy. Marriage after all is only a union of man and woman which under specified formalities received the sanction of society. Therefore, if the special circumstances of an age do demand the multiplication of units in a nation, why not legalise what has already received the sanction of practice and usage, and save thousands and thousands of souls from the ignominy of being called 'bastard' sons or daughters, and thus give them the right to inherit from those who gave them their body ? It would tend to improve morality, and enhance the sacredness of nuptial rights. Thus, polygamy sometimes becomes a national necessity.

This institution has also its legitimate uses in individual cases as well. Propagation of one's species is the most important of all the purposes of marriage, and if all hopes of an issue through the first wife are at an end, there seem to be only three ways open to a man : either to divorce his wife ; to deny himself the pleasure of having issue—the desire of nearly every married man ; or to wait till the death of the wife, and spoil his whole life. Is not then a second contemporaneous marriage to be preferred to any of the above alternatives ? A man may do it and save heart-burnings, if he is strongly attached to his first wife. The case of Napoleon presents a good illustration. He had to divorce, his well-beloved wife, Josephine, a lady possessing virtues and abilities of a very high order. There was the warmest attachment between the two, but Napoleon could not have issue from her, and the country therefore insisted upon her divorce. The account of her divorce, as related by historians and biographers, is extremely pathetic. Napoleon married another wife, he reigned splendidly and enjoyed the benefits of a prosperous kingdom ; then came calamities, upon him, which continued until his death. Josephine had been divorced, but their love for each other underwent no change. She remembered him with ardent love and sympathy in his troubles and calamities as in the days of happiness. But the strong cord which bound them together had snapped asunder. If polygamy had been allowed -and this was, I say, one of the rare occasions where the jurists of Islam have sanctioned polygamy—Napoleon and his widow, would not have suffered this extreme affliction. Moslem ladies have often allowed their husbands in such cases to take another wife and beget an issue [1].

Of course, those who indulge in polygamy without obvious reasons, are not acting in accordance with the spirit of their religion. Islam placed

---

(1) 'Muslim Home' by H. H. Nawab Sultan Jahan Begam Sahiba, Ruler of Bhopal, India.

of wives, let him live with one wife, and Islam will not be a bar in his way.

Polygamy is not essential in Islam. To consider polygamy an essential in Islam, would be an unpardonable mistake. In fact, the teaching of the Koran is to the contrary, and strongly recommends monogamy, as already shown. Islam claims to be a universal religion. It was not revealed to meet the requirements of a particular race or age; with its world-wide mission, Islam had to look to the requirements of all ages, countries, and civilisations. Besides the substantial laws, the code of Islam, as every wise legislation must do, provides certain ordinances which may be looked upon as auxiliary or remedial laws, with an elasticity to meet the contingencies of place and time. It deprecates their abuses, and lays down proper restrictions as to their use.

The events of the world sometimes give rise to circumstances which cause appreciable paucity in the number of men. Inter-tribal or international wars often lead to the same result; and leave numberless members of the weaker sex without home or protection. The great European war (1914-18) is a quite recent example of international calamity that caused an unimaginable decrease in the number of males, leaving hundreds of thousands of females without guardians or protectors. With all our refined ideas of chivalry and broadmindedness, no other institution than marriage can safely come to save the situation. Other measures under similar circumstances have been schemed and resorted to, but they could not avoid undesirable results. To maintain strict continence and piety in society, Islam would not recommend any woman to seek refuge under the roof of any man who does not stand in marital, or within the prohibited degree of relation to her. Our experience also goes for to endorse the advisability of Islamic policy in this respect. Polygamy is the only specific remedy to meet the need. But woman has not been left without her own choice in the matter. To secure her peace, comfort, and happiness, if she needs no other help or protection, no Moslem would compel her to marry a man who is already the husband of another woman. Thus polygamy, as said before, is a sort of remedial law in Islam which may come into operation when opportunity arises, and should not be resorted to when there is no occasion for it. It is not only for connubial purposes, that equality of number in men and women is a necessity. In human life there are occasions when only men are in requisition. How to fill up the shattered ranks, if similar calamities cause the dearth of men? The only two resorts left are either to encourage bastardy or adopt polygamy. To recruit the number no one having the least sense of decency, would recommend the former measure. One, indeed, cannot understand the wisdom

is always very high and there is no province where the returns are more lamentable than Bengal. In the annual report of the Sanitary Commission for 1912, it is stated that nearly 34,000 children died during the first year of their existence, this representing a loss of twenty one per cent of the births. Under these conditions the only way to protect the numerical strength of the human race against the undermining effect of infantile diseases, is to resort to polygamy. Heat that engenders sickness cannot be prevented ; therefore it is impossible to better the climate of the hot region in this direction at least. As long as the maladies, fatal for childran, cannot be effectively combated, it is unwise not to adopt another counter-active measure. If mortality cannot be reduced, the birth rate should be increased to a very high degree. The fatal influence of the sickness can be encountered by producing a large number of healthy children, so that a good number of children may survive the bad effect of the climate. This necessitates Polygamy. By two or more wives one can beget more children, and thus contribute to the preservation of the human race. The high number will make up for the increased death-rate among the young, and keep the population from dwindling.

This is one of the many natural ressons that go to prove the necessity of polygamy [1].

The writer takes this opportunity to point out, that our critic friends have no cause to lose their temper at the mention of polygamy. Islam does not enforce polygamy. It enjoins marriage where no disabilities stand in the way. Monogamy is the general rule, polygamy is a provision for urgent emergencies. It is unwise to question the general wisdom of an institution in exceptional cases. If a man can be content with one wife, Islam does not compel him to resort to polygamy. If Christian critics find that their way of living obviates the necessity of a plurality of wives, they are not bound to have recourse to polygamy. Let them live with one wife and refrain from reviling Islam, as Islam does not make polygamy obligatory. If they clearly understand the problem of polygamy, I hope they will come to entertian a better feeling towards the law of the Holy Prophet. Islam simply permits polygamy, if one cannot live in happiness and piety with one wife. But if Christians can live piously and happily with one wife, Islam does not interfere. Islam is as much monogamous as Christianity, the difference being, that the former makes a provision for urgent needs, with due regard to the rights of the wife, whereas the latter does not. Should a man fail to find any emergency calling for a plurality

---

(1) Physical inability on the part of a married woman to fulfil the duties of marriage is evidently a justification of polygamy, for instance.

like other cravings of nature, being duly gratified, may lead to the perfect safety and the complete security of social morality. Thus the Islamic system of marriage, harmonising with the practical need and requirements of mankind, gains fresh lustre when brought under the search-light of unbiassed criticism. The Prophet's example in the matter of marriage is specially striking. It refutes the commonplace objection of ignorant people, that it is impossible to deal fairly with more than one wife. One need not waste time and energy in discussing the practicability of monogamy or polygamy for mankind. The example of the Prophet is vividly before us. He had as many as nine wives, but how lovingly and fairly he behaved towards them, is known to all students of religion. The love he bore to each individual wife, and the consummate spirit of good will that characterised the mutual relation of the Prophet and his wives, is above the possibility of suspicion. We have the absolutely credible evidence of the wives themselves. They state him to be the embodiment of love and justice[1]. Never was there any real grievance on the part of the wives against his treatment. The Prophet with his perfect example has proved up to the hilt, that it is quite possible for a polygamous husband to maintain justice and equality of treatment among his wives, if only he has a mind to do so. When the Prophet could do perfect justice towards nine, there should be no reason why we cannot do justice towards only four, even less than half the number. The excess allowed to the Prophet is not to permit him to indulge in sensuality, as certain critics would have us believe, for the Prophet's life is unsullied and above such base charges, but it is meant to show to the world how the Prophet was endowed with superhuman feeling of love and affection towards his wives. It was also intended to show the Moslems how it was within the range of possibility, to deal kindly and justly with a plurality of wives. He left no room for discussion. He acted and asked his followers to act. Polygamy must not be discarded, if it be found conducive to social happiness, on the clumsy pretext that it is impossible to live smoothly with more than one wife. The Prophet did live peacefully with nine wives, and we Moslems can also do so, under given conditions, with four wives, if we follow the noble example of the Holy Prophet in all our doings and actions. It is only when we fail to live up to the standard of the Prophet's perfect manners, that we fail to secure a peaceful and loving attitude towards a plurality of wives, nay even towards a single wife.

The natural causes that go to prove the necessity of polygamy are many. According to the Pioneer (Allahabad, India) infant mortality in India,

(1) Ibn Athir, Abul Feda, Sir W. Muir & c. & c.

discover their hidden ornaments. And be ye wholly turned to God, O ye believers ; then it shall be well with you [1]."

Thus, both men and women are required to refrain from unnecessarily looking at each other. The softer sex is required to walk about so carefully as not to be a stumbling block for any weakling, and therefore the social morality and individual chastity are kept intact. Promiscuous intermingling of both sexes, and the reckless display of charms on the part of the fair sex, have gone a long way towards undermining the moral tone of Christian countries.

A learned man[2], commenting on the charge that Islam stimulates sex-indulgence, writes in the Review of Religions :—

"The living facts speak volumes for themselves, and no one who has had occasion to read up certain articles in the Encyclopaedia Britannica, can afford to question the truth of the sad state of affairs so strikingly brought to light in them. We cannot shut our eyes to the ennobling influence of the growing civilisation of Europe, but civilisation with all its softening and elevating forces, has not yet been able to obviate the necessity of food, and alleviate the pressure of all the cravings of nature. If, therefore, attraction of charms, is a natural aptitude, as surely it is, one cannot help admitting, that unlike other natural desires, this craving of nature also remains unaffected by the advance of civilisation. No amount of learning and no sort of culture and scholarship can alter human nature ; and it follows, therefore, that civilisation can scarcely prove a bar to the inborn desire of man for woman, and vice versa. To assert that civilised Europe is proof against the resistless onslaught of passion, is a ridiculous statement when, civilisation has failed to do away with other natural desires of mankind. To give a moral lift to the Christian countries, it is necessary to introduce the Islamic moral code which pays equal attention to the intellectual, moral and social advancement of the people. But under the present circumstances, it is sad to note that Christian Europe improves the intellectual side at the sacrifice of the moral one."

(3)
Islam and Polygamy

Islam enjoins marriage, whether monogamous or polygamous, as the conditions of life necessitate, with due regard to piety, so that there may be no violence to human nature ; and the desire for sexual intercourse,

---

(1) Koran. (2) Qazi Abdul Haque.

impossible, therefore, to incur displeasure where the avowed object is to win approval. Thus it is clear that Islamic marriage makes life pure and chaste, and does not afford occasion to taunt any one with the vice of sensuality.

Whether a Moslem weds one wife or the fullest admissible number of wives, he connot lose sight of the object of his life. He is not born for anything but the adoration of God. He turns heretic if he even for an instant, even in the moment of sexual intercourse—the moments of utmost enjoyment and therefore of utmost self-forgetfulness—banishes from his mind the purpose, for which he was brought into being. Marriage, whether monogamous or polygamous, is for a Moslem the means of attaining the nearness of God[1]."

The Gospel's commandment "Every one that looketh on a woman to lust after her, hath committed adultery with her already in his mind," shows us that an evil look is forbidden; but a look having no wicked intention behind it is permitted. Moslems, however, are bound by their religion not to look repeatedly and freely at a strange woman, for the pleasure of doing so. According to human nature a woman, on account of her charms, is an object of temptation; and whoever exposes himself freely to temptation prepares the way for his moral destruction. Too much indulgence in the habit of looking freely at beauties, as it seems to be allowed according to the Gospel's text, leads to evil. The best way to guard against evil, is to avoid the path that leads to temptation. The Koran forbids both pure and impure free looks; for too much recourse to pure looks is likely to prompt impure ones. To be safe, temptation must be kept at arm's length and not nourished freely to exhaust one's patience and power of resistence. The Koran's injunctions on the subject are as follows :—

"Ask the believers to cast down their eyes and observe continence. Thus will they be more pure. Of a truth, God is well aware of what they do. And ask the believing women to refrain their looks and observe continence; and to display not their ornaments except those which are external, and to draw their veils over their bosoms, and to display not their ornaments, except to their husbands or their fathers or their husband's fathers or their sons, or their husbands' sons, or their brothers or their brothers' sons or their sisters' sons or their women or their slaves or male domestics who have no natural force, or to children who note not women's nakedness. And let them not strike their feet together, so as to

(1) Al Ghazali.

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الحديد

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر

— ٥ —

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ :

الوزن : معرفة قدر الشيء . والمتعارف فى الوزن عند العامة ما يقدر بالقبّان ونحوه . وقوله تعالى : « وأقيموا الوزن بالقسط » أمر بمراعاة المعدلة فى جميع ما يتحراه الانسان من الأفعال والأقوال .

والقسط : النصيب بالعدل . والبؤس والبأس : الشدة والمكروه .

والغيب : يستعمل فى كل غائب عن الحواس وعما يغيب عن علم الانسان . ويقال للشيء غيب وغائب باعتبار الناس لا باعتباره سبحانه وتعالى ، فانه لا يغيب عنه شيء .

طلب الله سبحانه فى الآيات السابقة الإيمان به والإيمان برسله ، وبيّن أن ما يدعو اليه الرسل منزل من عنده أراد الله سبحانه به إخراج الناس من الظلمات الى النور رأفة منه ورحمة بهم ؛ وفى هذه الآيات بيّن الغرض من إرسال الرسل وإنزال الكتب والموازين ، وهو أن يقوم الناس بالعدل ، فيأخذ كل واحد حقه لاغير ويعطى حق غيره . وما اشتملت عليه الكتب السماوية جميعه ، سواء كان متعلقا بالعقائد أو بالأخلاق أو بنظام الأسر والمجتمع أو بقواعد التعامل بين الأفراد والجماعات ، عدل كله ، وحق كله ، وفى العمل به نصفة وقيام بالقسط ؛ فاذا نزهت الله سبحانه عما لايليق به وآمنت به وبرسله ، فذلك عدل وإعطاء للحق ؛

وإذا تخلقت بالأخلاق الحقة الفاضلة ، فقد زكيت نفسك وأعطيتها حقها ، ويتبع ذلك أن تعامل الناس بالحسنى وتعطيهم حقهم ؛ وإذا عاملت الناس على وفق أحكام الله المنزلة ، فقد أعطيتهم حقهم وأخذت حقك وقمت بالقسط .

أرسل الله الرسل بالبينات والأدلة والمعجزات الدالة على نبوتهم ، وأنزل الكتب لتكون معهم يدعون الناس الى هديها ، وفى هذه الكتب مقاييس العدل وموازينه ، وهذه المقاييس والقواعد هى الميزان الذى أنزله الله سبحانه ؛ فليس الميزان شيئا آخر ماديا ، وليس شيئا غير ما فى الكتب .

أنزل الله الميزان ليعدل الناس ، كما أنزل الحديد ، أى خلقه وجعله ذا بأس وشدة ونكاية ، وأودع فيه منافع لا عداد لها ، ليستعمله الناس فيما خلق له ، وليستعمله الناس فى النكاية بأعداء الله الظالمين عباده ، وفى الانتصار للحق ، حتى يعلم الله من ينصره وينصر رسله وهو غائب لا يبصره . والله قوى عزيز . والقوى هو الذى لا يلحقه ضعف فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، فلا يمسه نصب ولا تعب ، ولا يدركه قصور ولا عجز . والعزيز هو الذى لا يقهر ولا يغلب ولا يعارض .

فسّرنا إنزال الحديد بخلقه وتهيئته ، وذلك مروى عن الحسن ؛ ونظيره قوله سبحانه : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » ؛ وتبعنا فى تفسير الميزان جمهورا من العلماء . وقد قال الغزالى رضى الله عنه : أتظن أن الميزان المقرون بالكتاب هو ميزان البُر والشعير والذهب والفضة ؟ أم تتوهم أنه الطيار والقبان ؟ ما أبعد هذا الحسبان وأعظم هذا البهتان ! واعلم يقينا أنه ميزان معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله وملكه وملكوته .

ذكر الله سبحانه الكتاب والميزان والحديد ، وقرنها بعضها ببعض ؛ فالكتاب إشارة الى الأحكام المقتضية للعدل والإنصاف ؛ والميزان إشارة الى سلوك الناس على وفق هذه الأحكام ؛ والحديد إشارة الى ما يحملهم على اتباع هذه الأحكام إذا تمردوا ؛ والله سبحانه وهو العليم الحكيم لا يضع للخلق من القوانين إلا ما فيه مصلحتهم ؛ وخيار الخلق تكفيهم تلاوة الكتاب وعلمه لاتباع ما فيه ؛ وغيرهم لا بد له من الوازع وهو سلطان الحاكم المشار اليه بالحديد ؛ ولذلك وجدت التعازير فى الاسلام ، ووجدت الحدود ؛ أما ترك الناس أحراراً من غير وازع فهو ضار بالمجتمع الانسانى ، وموجب للتراخى فى إقامة العدل واتباع القانون ؛ جرب هذا فى العصور المختلفة ، وقامت الشواهد الناطقة فى العصر الحديث عليه ، وعلم أن الأمم التى لم تحط أخلاقها بوازع انحدرت الى الدرك الأسفل ، وأضلتها الشهوات . وقد كانت درّة عمر سلكا قويا للنظام الاسلامى ، فلما رفعت ضعف ذلك الرباط .

وقد ذكر الله للحديد فائدتين : الأولى : أن فيه البأس والشدة والنكاية ، فآلات الحروب

جميعها منه أو تحتاج اليه ، وبخاصة إذا أريد بالحديد جنس المعادن ، كما عليه بعض المفسرين ؛ فمنه الرماح والسيوف والدروع قديما ، ومنه المدافع والقنابل والطائرات والدبابات والسيارات ، وسفن البحر على اختلاف أنواعها مما يسبح فوق الماء أو يغوص فيه ؛ وعلى الإجمال فقد كشف العصر الحديث عن ذلك البأس بما لا يدع مجالا للبحث .

والفائدة الثانية : أن فيه منافع للناس ، وذلك واضح ، فما من شيء من ضروريات الحياة أو كمالياتها إلا وللحديد دخل فيه ؛ فهذه سفن الملاحة وطرق السكة الحديدية وما يتبعها من قاطرات وعربات ، وأدوات الحرث والطحن والغزل والنسيج ، وآلات البناء ومواده ، وسيارات الركوب ، وآلات الطباعة والطباخة والأكل ، وأدوات الزينة ؛ كل ذلك من الحديد ، أو يرجع اليه ، أو يحتاج اليه .

امتن الله سبحانه على خلقه بالحديد ، ولم يمتن فى هذا الموضع بما هو أغلى قيمة منه كالذهب والفضة ، لأنه أعم وجودا ، وأسهل تناولا ، وأكثر فائدة ؛ ومن نعمة الله سبحانه أن سهل كل ما تشتد اليه الحاجة وجعل وجوده أكثر . وأعظم الأشياء قيمة فى الحياة أكثرها وأسهلها تناولا ، وأحقر الأشياء قيمة فى الحياة أندرها وجودا وأغلاها ثمنا ؛ فما هى قيمة الجواهر الكريمة للحياة إذا قيست بالهواء والماء ، أو قيست بالبر والشعير ؟ وهكذا إذا نظرت الى الأطعمة وجدت ما هو لازم منها وضرورى ، أرخص مما هو غير لازم لزومه .

بعد أن امتن الله بالكتب والميزان والحديد ، بين أنه قوى عزيز مستغن عن خلقه ، وأنه لم يفعل ذلك إلا لإقامة العدل والدفاع عنه ؛ والدفاعُ عن العدل هو نصرة الله والرسول ؛ وبهذا البيان أعذر من لم ينصره ، وأشار الى أنه لا عذر له . وقد قال بعض الناس فى قوله سبحانه : « وليعلم الله من ينصره ورسله » : أى وليعلم حزبُ الله ومتبعوه من ينصر الله ورسله ، فرارا من توهم أنه حدث له علم بعد أن لم يكن ؛ والواقع أنه عالم من ينصره قبل أن ينصره ، ولا داعى الى هذا ، فان المعنى : ليعلم من ينصره علما يتعلق به الجزاء ، وذلك لا يكون إلا بعد وقوع النصرة .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ :

نوح أول الرسل الى الأرض ؛ وإبراهيم قد انتسب اليه أكثر الأنبياء ، وعظم فى كل الأديان ، ومن ذريته الأنبياء الذين جاءوا بالكتب الأربعة : التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان ؛ وهو من ذرية نوح أيضا ؛ فالنبوة والكتاب لا تخرج عن ذريتهما ، ولذلك خصا بالذكر .

وقوله سبحانه : « فنهم مهتد وكثير منهم فاسقون » معناه أن بعض هذه الذرية اهتدى بكتب الأنبياء واتبعها ، والبعض فسق عن أمر ربه وضل السبيل ، فخرج على الدين جملة وكفر به ، أو بقى فيه وارتكب الإثم والعصيان ، وهؤلاء كثيرون .

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا ، وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ، وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ :

التقفية : جعل الشىء فى إثر الشىء على الاستمرار .

والآثار : جمع إثر بالكسر ، تقول : خرجت على إثره أى عقبه .

والرأفة والرحمة : اللين والشفقة .

والرهبانية : الخصال والأفعال المنسوبة الى الرُّهبان بفتح الراء وهو الخائف ، فعلان من رهب كخشيان من خشى .

والابتداع : ابتداء أمر لم يحتذ فيه على مثال . والبدعة منه ، وسيأتى بيانها .

ومعنى الآيات : أن الله سبحانه أرسل عقب نوح وإبراهيم على التتابع رسولا بعد رسول حتى انتهى الأمر الى عيسى فأعطاه كتابه المسمى بالإنجيل ، وجعل الله فى قلوب الذين آمنوا به واتبعوه رأفة ورحمة على عباده ، وجعلهم أيضا رحماء فيما بينهم ، كما كان المؤمنون فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ثم زاد الله فى ألطافه معهم حتى قويت دواعيهم الى الطاعة والتشدد فى العبادة ، فأحدثوا الرهبنة وابتدعوها ابتغاء رضوان الله ومغفرته ، ولم يكتبها الله سبحانه عليهم . أحدثوا هذه الرهبنة فرعاها الأولون المخلصون حق رعايتها ، ثم خلف من بعدهم خلف تظاهروا باتباعها ورعايتها ، ولكنهم تركوها باطنا ، وضعفت عندهم دواعى التشدد فى الطاعة ، فأخلوا بما عاهدوا الله عليه ونذروه ، وبذلك فسقوا وخرجوا على العهد ، فليس لهم حظ من الأجر ؛ وهؤلاء كثيرون . أما الذين آمنوا ورعوا ذلك العهد وحافظوا عليه فقد وفاهم الله أجرهم .

ومعنى تلك الرهبانية التى ابتدعوها : تحمل الكلف الزائدة على ما كلفوا به ، فهم قد زهدوا فى الدنيا ونسكوا ، وحببت إليهم الخلوات واعتزال الخلق . لبسوا الخشن ، وأكلوا الغليظ من الطعام ، وتركوا النساء ، وتعبدوا فى الكهوف والغيران ، وخلصوا أنفسهم للعبادة متحملين ضروب العنت والمشقة حبا فى طاعة الله .

هذه أوصاف أتباع عيسى كما وصفهم القرآن ، فما الذى بقى من أوصافهم وأوصاف أتباع محمد ؟ ندع هذا تجيب عليه الحوادث ، ويجيب عليه الواقع .

وقوله سبحانه : « ابتدعوها » إما صفة لرهبانية ، أو معمول لعامل محذوف تقديره : وابتدعوا رهبانية ابتدعوها ابتغاء رضوان الله . والاستثناء فى قوله : « إلا ابتغاء رضوان الله » منقطع ، ومعناه لكن ابتدعوها .

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ :

من الممكن أن يكون الخطاب لمن آمن بالأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم ؛ طلب إليهم أن يؤمنوا به ، ووعدوا نصيبين من الأجر : نصيب على الإيمان بالأنبياء قبله ، ونصيب على الإيمان به ؛ ووعدوا أيضا ذلك النور الذى يسعى أمام المؤمنين يوم القيامة هاديا لهم الى الجنة ؛ ووعدوا المغفرة على ما فرط منهم من العصيان . ومن الممكن أن يكون الخطاب لمن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ طلب إليهم التقوى والاستمرار على الايمان ، ووعدوا نصيبين من الأجر أيضا : نصيب على إيمانهم به ، ونصيب على إيمانهم بالأنبياء قبله ، كما وعدوا النور والمغفرة .

﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ :

اللام فى « لئلا يعلم » زائدة ، بدليل القراءة الثانية : ليعلم أو لكى يعلم .

كان بنو إسرائيل يقولون : إن الوحى والرسالة فيهم ، والشرع والكتب لهم وحدهم ، خصوا بهذا كله ، وموسى آخر الأنبياء لا تنسخ شريعته . فنفى الله سبحانه هذه المزاعم ، وبين أن الفضل بيده يؤتيه من يشاء ، ولا يملك أحد أن يخص به واحدا أو يخص به أمة ، فهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بهم أو بغيرهم ، ولا يملكون حصر الرسالة فيهم .

نفى الله هذه المزاعم حيث طلب إليهم أن يؤمنوا بمحمد ، وبين لهم أنهم لا ينالون النور والمغفرة إلا بالإيمان به ؛ أو حيث طلب من أمة محمد الاستمرار على الإيمان به ، وبين لهم أنهم لا ينالون المغفرة إلا بذلك . وعلى كلا الحالين فهناك فضل لمحمد صلى الله عليه وسلم ثابت من الله ؛ والإشعار بهذا الفضل إعلام لبنى إسرائيل وغيرهم بأنهم لا يقدرون على شىء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، وأنه صاحب الفضل العظيم .

لم يذم الله سبحانه أتباع عيسى على الابتداع ، لـكنه ذمهم على عدم رعايته ، فهل الشأن فى الاسلام كهذا أو للبدعة شأن آخر ؟

عن أبى وائل عن عبد الله قال : « خطّ لنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا طويلا وقال : هذا سبيل الله ، ثم خط لنا خطوطا أخرى عن يمينه وعن يساره وقال : هذه سبل وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ، ثم تلا « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتَفَرّقَ بكم عن سبيله » .

وعنه صلى الله عليه وسلم « من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد . أما بعـد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » .

وكان عمر رضى الله عنه يقول : « إنما هما اثنتان : الـكلام والهدى ، فأحسن الـكلام كلام الله ، وأحسن الهدى هدى محمد ، ألا وإياكم ومحدثات الأمور فان شر الأمور محدثاتها ؛ إن كل محدثة بدعة »

وقال مالك : « من ابتدع فى الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا خان الرسالة . والمبتدع باحداثه جديدا أنزل نفسه منزلة الشارع » .

فهذا يدل على ذم البدعة فى الإسلام ؛ لـكن تمييز البدعة عن غيرها قـد يكون سهلا وقديدق ؛ إلا أنه يجب ألا يغيب عن الفكر هذه القاعدة ، وهى أن العبادات من الأمور التى وضعها الله سبحانه لمصلحة عباده ، فلا يجوز أن يزاد فى العبادة شىء على ما ورد به الشرع ، فلا تستحدث عبادة جديدة ، ولا يزاد شىء فى كمية عبادة مشروعة أو فى كيفيتها وهيئتها ، ولا يلتزم وقت معين فى عبادة لم يرد فيها تعيين .

وكما تكون البدعة فى إحداث جديد ، تكون فى ترك شىء من الأشياء المباحة على سبيل التدين والتعبد ، كترك نوع من الأطعمة ونوع من اللباس أباحه الشارع لـكنه تركه زهدا وقصد بذلك العبادة ؛ ففى هذه الحالة وضع نفسه منزلة الشارع فى اعتبار الترك عبادة ، والشارع لم يشرع ذلك إلا فيما عيّنه ، لـكنه إذا ترك لا على نية العبادة لم يكن الترك بدعة . وأهم خصائص البدعة قصد التعبد والتدين فيما أحدث ، سواء أكان فعلا أم تركا .

ومادة بدع تدل على الاختراع على غيرمثال سابق ؛ ومن ذلك قوله سبحانه : « بديع السموات والأرض » أى مخترعهما على غير مثال سابق متقدم ؛ وقوله سبحانه : « قل ما كنت بدعا من الرسل » معناه : ما كنت أول من جاء برسالة من عند الله . وبناء على هذا يقال : ابتدع فلان بدعة : أى اخترع طريقة لم يسبقه إليها سابق ؛ ثم خصت البدعة فى لسان الشرع بعمل لا يوجد دليل عليه من الشرع ، على أن يقصد بهذا العمل المبالغة فى التعبد ، وعلى أن يقصد به مضاهاة الأمور الشرعية ، ويلبس به على الناس ، ويوهم واضعه أن له أصلا فى الشريعة .

بناء على هذا لا تشمل البدعة شيئا مما أحدثه الناس لمصالحهم الدنيوية النافعة فى الزراعة والتجارة والأكل والملبس والحروب وطرق المواصلات وطرق نقل الأخبار ، ولا يكون استعمال شىء من هذا ابتداعا ، وإنما هو انتفاع بمباح ، وبزينة أخرجها الله لعباده .

وهناك أمور يعرض لها أن تكون بدعة وأن لا تكون بدعة ؛ مثلا : الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم وبيوم الهجرة وبالمحمل ، إذا فعلت هذه على أنها عبادة وتدين كانت بدعة بلا شبهة ، لأنه إحداث عبادة لم تكن ولم يؤذن فيها ؛ أما إذا فعلت على سبيل العادة ، وعلى أن الاحتفال بالهجرة وبمولده صلى الله عليه وسلم احتفال بذكريات عزيزة كانت سببا للخير وموجبة للشكر ، لتنبعث نفس المؤمن الى التمسك بالهدى وبالخلق الكريم ، لم تكن بدعة لأنه لم يقصد بها التدين ، ولم يرد إحداث شىء فى الدين . لكن إذا حفت هذه المحدثات التى ليست بدعا بما هو بدعة ، وبما هو مخالف للشريعة ، حرمت ، لما هو ملابس لها من البدع ، ولما هو ملابس لها من المعاصى . وكل معصية فشت لا تسمى بدعة ؛ فجميع ما يقع فى الأسواق والمجتمعات والمساجد ، وكل ما أطلق الناس لأنفسهم فيه العنان مما هو مخالف لقواعد الشريعة ، لا يسمى بدعة ، وإنما هى معاص ومحرمات .

وملاحظة ضوابط البدعة يساعد كثيرا على معرفة البدعة . وقد قلنا إن أهم المميزات والخواص أن يحدث الشىء على أنه دين يتعبد به ، وعلى أن يقصد فاعله التعبد والتدين والتقرب الى الله سبحانه به .

هناك أمور قد تظن بدعا وهى عبادة ؛ مثلا : تدوين الحديث ، وتدوين اللغة ، ودراسة علم الكلام ، والمنطق ، ودراسة جميع المعارف النافعة ، هذه اخترعت على غير مثال سابق مع أن المسلمين يعتقدون أنها عبادات ؛ وفى الحق أنها عبادات ؛ وسبب ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » ، والفقه فى الدين موقوف بلا شك على الإحاطة باللغة ، والحرصُ على أن تكون سليمة موقوف على التدوين ، وحمايةُ العقائد الاسلامية والحجاج للايمان بالله والرسل ، وأصله موجود فى الكتاب ، موقوف على دراسة الكلام والمنطق ؛ فلهذه الأشياء سند من قواعد الدين العامة ، وسند من المصالح المرسلة ؛ وخاصة البدعة ألا يكون لها سند .

وأكتفى الآن بهذا ، والوقت لا يتسع لأكثر منه .

وهذه السورة الكريمة التى يسر الله أن تكون موضع الأحاديث الدينية فى هذا الشهر المبارك ، يمكن أن يطلق عليها سورة الإيمان ، وسورة البر ؛ فقد صدرت بأقوى الدلائل على وجود الله وكماله ، وصيغت فيها الآيات الحاثة على البر والصدقات بأرفع الأساليب وأقواها تأثيرا على النفوس .

السُّنَّة

التصوير واتخاذ المساجد على القبور

فى نظر الاسلام

عن عائشة « أن أمّ حبيبة وأمّ سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تلك الصور ، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » . رواه البخارى فى كتاب الصلاة .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) معنى الحديث وحكم التصوير فى الشريعة الاسلامية . (٢) حكم بناء المساجد على القبور ، وهل يصح تكريم الموتى بما لا يقره الدين ؟

(١) معنى هذا الحديث ظاهر ، وهو أن أم حبيبة وأم سلمة من زوجات النبى صلى الله عليه وسلم كانتا من بين المهاجرات الى الحبشة ، فنظرتا كنيسة يقال لها مارية هناك فيها تصاوير ، فذكرتا له صلى الله عليه وسلم هذه الكنيسة وما رأين بها من التماثيل والصور ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن أولئك (بكسر الكاف وفتحها) إذا كان فيهم الرجل الصالح . . . الحديث .

أما حكم التصوير فهو محل خلاف الأئمة المجتهدين ؛ فمنهم من بالغ فى منعه وتحريمه ، ومنهم من تسمح فيه بعض التسامح . وقد يقال للمانعين المتشددين : إن البحوث العلمية النافعة للمجتمع الانسانى قد تتوقف على التصوير فى بعض النواحى كالصور الانسانية المتخذة من الجبس أو الشمع ، فإن تلاميذ الطب الذين لا يجدون الأجسام الانسانية التى يتعلمون منها ومن تشريحها ما يفيد النوع الانسانى ، لا بد لهم من هذه التماثيل فى دراستهم الطبية ومعرفة تركيب أجزاء الجسم واتصال بعضها ببعض . وكذلك الحال فيما إذا اقتضت ضرورة العلم أو الأخلاق تصوير جسم الانسان فى صورة مجسدة كاملة ، فإن من الجمود الذى تأباه الشريعة الاسلامية أن يقال إن التصوير ممتنع فى مثل هذه الأحوال ، وهى تلك الشريعة السمحة المبنية على تحصيل المنافع العامة فى كل قواعدها وأحكامها ؛ فالتصوير علم من العلوم التى لا يصح إهمالها لأن الحاجة الملحة قد تدعو إليه .

وهذا الـكلام حسن لا نزاع فيه ، ولـكنه لم يفت العلماء المتقدمين الذين بحثوا هـذه المسألة طبقا لقواعد الدين الاسلامى .

ولعل أكثر المذاهب الأربعة تسامحا فى هذه المسألة هو مذهب السادة المالـكية ؛ فقد قالوا : إن النـوع المحرم من التصوير هو أن تكون الصورة المجسدة كاملة الأعضاء الظاهرة التى لا يمكن أن يعيش الانسان أو الحيوان بدونها ، فإن ثقب بطنها أو رأسها ثقبا لا يمكن أن يعيش الانسان أو الحيوان معه كان ذلك النوع جائزا لا شىء فيه .

ومن السهل أن يوفِّـق المصورون من المسلمين بين هـذه القاعدة وبين فن التصوير ، إذ من الممكن أن يثقب المصور ثقبا صغيرا فى أعلى الرأس أو فى العظمة التى وراء الأذن ، أو فى أى جـزء من الأجزاء التى لا يعيش الإنسان مع ثقبها ، ثم يغطى ذلك الثقب بالشعر أو غيره بحيث لا يظهر للرائين ولا يقدح فى الفن الذى يحرص المصورون على إتقانه .

على أن المالـكية قد صرحوا بجواز التصوير فى النـوع الذى تقتضيه الحاجة أو تترتب عليه مصلحة ؛ فقد صرحوا بجواز تصوير الدُّمَى (العرائس التى تلعب بها البنات) فى صورة مجسمة لغرض نافع وهو تدريب البنات على تربية الأولاد ، وفى حكم ذلك طبعا تصوير جسم الإنسان كاملا فى صورة مجسمة لتعليم تلاميذ الطب ، أو غير ذلك من الأغراض العلمية التى تنفع المجتمع الانسانى . وبذلك يندفع الإشكال من أساسه .

أما الحنفيـة والحنابلة فإنهم وإن كانوا يوافقون المالـكية على جواز تصوير الإنسان أو الحيوان فى صورة مجسمة بشرط أن تكون ناقصة نقصا لا تبقى معه الحياة ، كأن تكون بلا رأس أو تكون كالتماثيل النصفية ، إلا أن ظاهر عبارتهم تفيـد أن يكون ذلك النقص محسا ، لأنهم صرحوا بأن تكون الصورة ناقصة عضوا لا يمكن أن يعيش الانسان أو الحيوان بدونه . ومعنى هذا أنه لا بد من نقص عضو من الأعضاء الرئيسية ، فلا يكفى الثقب الصغير . فإن كان مرادهم بالنقص ما يقـول به المالـكية كانت المسألة محل وفاق . وعلى كل حال فإن المالـكية قد ذكروا بصريح العبارة أن الصورة الـكاملة المجسدة التى تتعلم بها البنات الصغار تربية الأولاد جائزة كما ذكرنا ، وهذا النص صريح فى أن المسألة تتبع المصلحة العامة ، فـكل ما يترتب عليه مصلحة للنوع الانسانى فإنه جائز عندهم . وكذلك الصور التى لا يترتب عليها مصلحة فقد أجازوها إذا كانت مثقوبة ثقبا لا تتأتى معه الحياة .

أما الصور التى ليس لها جسم كالصور (الفوتوغرافية) المطبوعة على الورق فإنها جائزة عند بعض المالـكية ، ومكروهة فقط عند البعض الآخر . وعلى كل حال فالأمر فيها سهل ؛ ووافقهم الحنفية والحنابلة على ذلك ، وقالوا : إنه يشترط أن لا تكون الصورة معظمة بل جوازها مشروط بامتهانها ، كأن تكون على وسادة أو بساط أو نحو ذلك حتى لا يكون فى ظاهر هذا احترام الوثنية التى حرم من أجلها التصوير .

وظاهر عبارة الشافعية تقتضى عدم جواز التصوير مطلقا ، وإنما الكلام فى التفرج عليها بعد تصويرها ، فقالوا إنه جائز إذا كانت غير مجسدة أو كانت مجسدة ولكنها ناقصة عضوا لا تصح معه الحياة وإلا حرم التفرج عليها . ولكن نقل فى الفتح عن النووى أن أبا حنيفة والشافعى ومالكا اتفقوا على جواز التصوير إذا كانت الصورة غير محترمة ، سواء كان لها ظل أولا ، ثم اعترضه بما لا حاجة الى ذكره هنا .

هذا هو رأى المذاهب الأربعة فى هذا الموضوع . وقد اعترض بعضهم على من حرم التصوير اعتراضا وجيها ، فقال : إن الله تعالى قد امتن على سليمان بقوله تعالى : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل » الآية ؛ وقد نقل الطبرى عن مجاهد أن التماثيل كانت صورا من نحاس ؛ وقال بعضهم : إنها كانت من خشب ؛ وبعضهم يقول : إنها كانت من زجاج . وعلى كل حال فهى صور مجسدة .

وقد أجاب بعضهم بأن ذلك كان جائزا فى شريعة سليمان ، وقد نسخ فى شريعتنا بالأحاديث الصحيحة . ولكن هذا الجواب على ما فيه فانه ليس بشىء ، لأن الأحاديث الواردة فى هذا الباب ظاهرة فى النهى عن الصور المقربة من الوثنية ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « إن أشد الناس عذابا عند الله المصورون » ، ولا يعقل أن يكون المصورون أشد عذابا من المشركين أو القتلة أو الزناة أو غيرهم من المجرمين . ومهما حاول شراح الحديث فى تفسير كلمة أشد فان الحديث لا يفهم فهما صحيحا تستريح اليه النفس إلا إذا كان المراد بالمصورين صناع الأوثان التى تعبد من دون الله ، فهؤلاء مع كفرهم بالله ورسله يصنعون التماثيل التى تعبد من دون الله ، فهم ضالون مضلون يعذبون على ذلك أشد العذاب . ومتى كان معنى هذا الوعيد مقصورا على الوثنيين الذين ينحتون الأوثان فلا تعارض بينه وبين الآية ، لأن التماثيل التى كانت تصنع فى عهد سليمان بأمره كانت لأغراض صحيحة كالأغراض التى أشرنا اليها . ومحال أن تكون أوثانا تعبد فى منزل سليمان كما هو مذكور فى التوراة المحرفة ، فانها قد صرحت بأن سليمان قد ارتد وعبد الأوثان لتأثره بزوجاته الحسان الوثنيات المصريات . أما القرآن الكريم فانه قد برأ سليمان من ذلك ووصفه بأحسن الصفات وأجلها ، وهو رسول كريم معصوم عن الجرائم التى ألصقتها به التوراة .

وأغرب من هذا أن بعضهم يستدل على النسخ بالحديث الذى نشرحه ، وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال لزوجتيه : إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك هم شرار الخلق الخ . فهذا النص صريح فى نسخ ما كان يعمل فى الأمم التى من قبل .

والجواب أن هذا الفهم ليس بشىء مطلقا بل لا ينبغى لعالم أن يفهمه ، لأن هذا الحديث

صريح فى أن الذين كانوا يفعلون ذلك شرار النـاس ، فـكيف يدخل فى هـذا الوعيد عمل الأنبياء ؟ وكيف يكون هذا وحيا من عند الله ينسخ فى شريعتنا ؟ بل الذى يفهم من هـذا الحديث أنهم كانوا يعملون عمل الوثنية فيبنون المساجد على القبور ويصورون فيها التماثيل ، وهؤلاء وإن كانوا يتدينون بدين ، ولـكنهم فى الواقع يعملون عمـل المشركين الوثنيين ، فأولئك هم شرار الناس بلا نزاع . وهذا الحديث غير ناسخ للآية بلا نزاع .

والذى يدفع هـذا الإشكال هو ما ذكره ابن حبان بأن هذا الحـكم خاص بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا عمل بهذا الرأى كان رافعا لـكل إشكال فى هذا الموضوع ، وذلك لأن النبى صلى الله عليه وسلم كانت داره مهبط الوحى ، فـكل ما كان يستعمله الوثنيون يومئذ من صورة أو جرس أو اقتناء كلب كان من المعقول أن يتنزه عنه منزل الرسول ، خصوصا أن الوثنية كانت محببة الى النفوس يومئذ ، فلا بد من مضى زمن حتى تنسى صورها وآثارها . أما فى الجهات التى ليست فيها وثنية ، أولا تتخذ من تلك الصور آلة للعبادة والاحترام ، فانه لا وجه لتحريمها بها . ويدل لذلك ما رواه عاصم عن عكرمة أنه قال : كانوا يكرهون ما نصب من التماثيل نصبا ، ولا يرون بأسا بما وطئته الأقدام . فظاهر هذا وغيره يرشدنا الى حكمة تحريم التصوير ، فانه إنما حرم إذا كان يبعث الى الوثنية أو يجر الى عبادة الصور ، وإلا فلا .

(٢) أما حكم بناء المساجد على القبور فهو غير جائز باتفاق . وهـذا الحديث الذى معنا صريح فى النهى الشديد عن بناء المساجد على القبور ، فإن النبى صلى الله عليه وسـلم وصف الذين يتخذون المساجـد على القبور بأنهم شرار الخلق . وقد ورد فى البخارى أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يتوفى بخمس : « لا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك » . وهذا يدل دلالة صريحة واضحة فى أن النهى عن بناء المساجد على القبور لم يتطرق اليه احتمال نسخ أو غيره ، فهو محكم لا شك فيه ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قاله فى آخر حياته ، ولم ينقل أحد عنه حديثا بعد ذلك فى هـذا الموضوع . فلا نزاع حينئذ فى أن بناء المساجد على القبور غير جائز ، ولذلك قال الحنابلة : إن الصلاة تبطل على القبـور إذا كانت أكثر من اثنين .

وروى مسلم : « لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها أو عليها » . وهذا يدل على أن الصلاة فى المقبرة لا تجوز على أى حال . ولذا روى عن عمر رضى الله عنه أنه رأى أنسا يصلى الى القبر فناداه : القبر القبر ! فتنحى أنس عن الصلاة اليه .

ومن هذا تعلم أن ما ذكرته الفتاة التى قيل إنها دفنت وأخرجت من قبرها بعد دفنها من أن الشيخ هارون طلب إليها بناء مسجد على قبره ، قول باطل لا تقره الشريعة الإسلامية ، بل كل رواياتها المتعلقة بالشيخ لا ينبغى لعاقل أن يصدقها ولا يعول عليها ، فإن غرضها ظاهر

وهو جلب النذور للشيخ كما هو الحال فى المساجد التى اتخذت أضرحتها لهذا الغرض الفاسد الذى نهت عنه الشريعة الاسلامية نهيا صريحا وحرمته تحريما باتا .

وقد صرح بعض أئمة الحنفية بأن المال الذى يودع على ذمة الصالحين من الموتى بصفة نذر أو غيره مال خبيث ، وأن الذين يتخذون الوسائل لتحصيله بمثل هذه العقيدة الفاسدة إنما يأكلون حراما باتفاق .

ولا ينبغى للمسلمين أن يظلوا على هذه الحالة التى تدل على جهالة بدينهم ، وبما تقتضيه النواميس الكونية والسنن الإلهية من ارتباط الأسباب بمسبباتها . فلا بد للناس من التمسك بالأسباب التى أمرهم الله بها فى معاشهم ومعادهم ، ولا بد لهم إذا أرادوا نجاحها من الاعتماد عليه وحده . أما الصالحون من الموتى أو غيرهم فان إكرامهم إنما هو بالاقتداء بهم فى التمسك بالدين الصحيح ، لا بمثل هذه الأباطيل التى يخترعها الدجالون الكذبة ، وسيلقون جزاءهم عند ربهم مرتين .

هذا وقد سألنى بعضهم عن جواز إعادة الحياة الى الميت وبعثه فى الدنيا .

والجواب : أن ذلك جائز ، بل وقع فعلا مع العزير . ولكن كان هذا لأغراض عظيمة القيمة ، منها التدليل للعزير على كيفية إحياء الميت الذى كان يستعظمه ، ومنها إماتة العزير زمنا طويلا ثم بعثه بعد ذلك لمحاربة الوثنية بين قومه ، وإعادة أحكام التوراة التى أضاعوها بوثنيتهم ، الى غير ذلك من الحكم التى لها آثار عظيمة بين الناس . أما إماتة شخص عادى لا قيمة له ثم إحياؤه بعد ذلك حقيقة ليخبر الناس بخبر كاذب يضر الدين الاسلامى ، فذلك محال بلا كلام ؟

عبد الرحمن الجزيرى

حب البنات

دخل عمرو بن العاص على معاوية وبين يديه بنته عائشة ، فقال عمرو : من هذه ؟

فقال معاوية : هذه تفاحة القلب .

فقال عمرو : انبذها عنك ، فوالله إنهن ليلدن الأعداء ، ويقربن البعداء ، ويورثن الضغائن .

فقال معاوية : لا تقل ذاك ياعمرو ، فوالله ما مَرَّض المرضى ، ولا ندب الموتى ، ولا أعان على الأحزان مثلهن ، ورب ابن أخت قد نفع خاله .

وقال المعلى الطائى :

لولا بُنَيات كزُغْب القطا خططن من بعض الى بعض
لكان لى مضطرب واسع فى الأرض ذات الطول والعرض

التصوف والمتصوفون

— ٤ —

الشبلى:

هو أبو بكر بن جحدر الشبلى ، قد ولد فى بغداد فى سنة ٢٤٧ هـ ، ولما شب بدأ حياته العملية بشغل منصب سياسى هام ، إذ كان واليا على مدينة « داماواند » ، ثم اتصل بأحد أصدقاء الجنيد من الصوفية فترك الحياة العامة وتنسك ، وكان مالكى المذهب ، وقد تبع آراء المحاسبى فى التوحيد ، وكان شاعرا شهيرا فى عصره .

اعتنق الشبلى الحياة التنسكية بتحمس دفع الجنيد الى أن يقول عنه ما يلى : « إن كل بلد يحمل فوق رأسه تاجا ، وإن تاج بلادنا هو الشبلى » .

كان الشبلى يدين بنفس الآراء التى كان الحلاج يدين بها ، ولكنه حين رأى الحلاج قد قدم الى المحاكمة انزعج وأسرع الى جحود مذهب وحدة الوجود الذى كان الصوفية يعبرون عنه بـ « عين الجمع » .

غير أن هذا الجحود لم يكن كافيا فى طمأنته ، لأن الروايات السرية عن اتهامه وعن عدم كفاية تبرئه من آرائه قد تعددت ، فلم ير منجاة لحياته إلا فى ادعائه الجنون فتظاهر به . وأكثر من ذلك أنه اندمج فى وسط الجماهير يوم تعذيب الحلاج واشترك فى سبه ، ولكنه لم يلبث أن ندم على هذه الفعلة التى لم تكن تليق بالعامة فضلا عن الخاصة والمتنسكين .

ظل بعد ذلك يزاول حياة غريبة متباينة الأطوار ، فاذا رأى من يخشى عاقبة الحديث معه تظاهر بالخبل ، وإذا اختلى بتلاميذه وأصدقائه أطلعهم على حقيقة آرائه ، وبشر أمامهم بمذهبه .

ومما كان يقوله أمام أولئك الأنصار العبارة التالية : « أنا والحلاج لم يكن لنا إلا رأى واحد ، ولكن جنونى المزعوم نجانى وبصيرته أضاعته ، هو أظهر رأيه ، وأنا أخفيته » .

وقد روى عنه الامام الغزالى فى أكثر من موضع أنه لم يكن ينطق بشهادة أن لا إله إلا الله ، بل كان يكرر دائما : الله الله ، فلما سئل عن السبب فى هذا أجاب مخاطبا الإله قائلا : « إن المنزل الذى تقطنه ليس فى حاجة الى مصباح » . ومما أثر عنه أيضا ارتيابه فى كل حقيقة ماعدا ذاته ، كما فعل الحلاج من قبل .

ومن هذا كله يتبين أن الشبلى كان يدين بكل آراء الحلاج ، ولكن حرصه على الحياة أنقذه من ذلك المصير المرعب الذى انتهى اليه الحلاج على ما سيجىء . وأخيرا توفى هذا الصوفى فى سنة ٣٤٤ هـ .

الحلاج — حياته :

ولد الحسين بن منصور الحلاج فى بيضا حوالى سنة ٢٤٤ هـ ، ولما شب تلقى العلم فى تستر على سهل بن عبد الله التسترى . ولما بلغ من العمر ثمانية عشر عاما ارتحل الى البصرة ثم الى بغداد حيث تتلمذ على عمرو بن عثمان المكى مدة ثمانية أشهر ، ثم تزوج أم الحسين ابنة أبى يعقوب الأقطع ، فتسبب هذا الزواج فى غضب أستاذه عليه ، فافترقا ، وارتحل الحلاج الى مكة فأدى فريضة الحج ومكث فيها سنة ، ثم عاد الى بغداد فالتقى بالجنيد وكان يعرفه من قبل . وفى أحد الأيام وجه اليه سؤالا فلم يجبه الجنيد عليه احتقارا له ، لأنه كان يرى أنه رجل أطماع ، فانجرحت كرامة الحلاج وغادر بغداد الى تستر فظل فيها سنتين قاسى أثناءهما عناء شديدا ، لأن صوفية هذه المدينة كانوا يهاجمونه فى عنف ؛ ولما بلغ الغضب من نفسه أقصاه ، نزع ملابس الصوفية وألقى بها جانبا ، ثم ارتحل الى خراسان وسجستان فأقام متنقلا بين هاتين المدينتين خمسة أعوام ، ثم ارتحل الى مكة فأدى الحج للمرة الثانية ، ثم عاد الى بغداد ، ثم ارتحل منها الى خراسان ، فالى الهند ، فالى الصين . وفى هذه المدن النائية قد عرفت قيمته ، ففى الهند كانوا يدعونه بالشفيع ، وفى الصين كانوا يسمونه المطعم ، وفى خوزستان كانوا يلقبونه بحلاج الأسرار ، وفى بغداد بالغيبوبى ، وفى البصرة بالمنبهر .

وبعد ذلك عاد الى مكة لحج للمرة الثالثة وأقام بها سنتين ، ثم ألقى عصا التسيار أخيرا فى بغداد حيث بنى فيها منزلا وأخذ يلقى دروسا عامة على المتعلمين يبسط فيها آراءه الصوفية ، فلم يلبث أن صار موضع جدل ونزاع بين سامعيه ، فقرر بعضهم أنه ساحر ، وجزم البعض الآخر بأنه مجنون ، وأكد فريق ثالث أنه يأتى بكرامات .

وأخيرا علا صيته ونسب اليه أصحابه عددا من الكرامات ، فأثار ذلك عليه حقد الفقهاء ، فأبلغوا عنه الخليفة ، واستشهدوا على كفره بمستند موقع عليه من عدد كبير من القضاة والفقهاء ، فأمر الخليفة بالقبض عليه فى « سوز » فى سنة ٣٠١ هـ وألقى به فى السجن ثمانية أعوام . وفى نهاية هذه المدة جدد الفقهاء الشكوى فى حماسة أعظم من الأولى وطالبوا بقتله ، فأجابهم الخليفة الى سؤلهم وأمر بتسليمه الى الجلاد وأوصى أن يعذب قبل قتله بضربه وتقطيع أطرافه . وقد سرد فريد الدين الفارسى قصة تعذيبه المؤثرة التى يحمر لها وجه التاريخ خجلا ، فقال :

« أصعد الجلاد الحلاج فوق منصة عالية تحوط به الجماهير الغفيرة من عامة الشعب ملقية عليه الأحجار والأوحال ، وهو لا ينفك عن تكرير تلك الكلمة التى كانت السبب فى قتله ، وهى : « أنا الحق أنا الحق » ، ولما طلب اليه أن ينطق بالشهادة صاح مخاطبا الإله قائلا : « إن وجودا أنت فيه غير محتاج الى مشعل ينيره » .

ونحن نرى أن هذه العبارة هى نفسها التى عبر بها الشبلى ، ومعناها أن وجود الله واضح

وليس محتاجا الى أن يؤيده الحلاج بشهادته . ولما سئل ما هى الصوفية ؟ أجاب بقوله : « هى مالا تستطيعون أن تفهموه » . فأخذ الجلاد يضربه بالسوط وهو يبتسم ، فلما فرغ من ضربه قطع يديه ورجليه فقابل ذلك بالابتسام ، وجعل يلطخ وجهه بدم ذراعيه المتدفق ، ولا يدرى أحد ما حكمة ذلك عنده ، ثم فقأ الجلاد عينيه . وفى نفس اللحظة التى هم الجلاد فيها بقطع لسانه كان هذا اللسان ينطق بالاستغفار لذلك الجلاد ولمن اشتركوا معه فى تعذيبه . وبعد موته أحرقوا جثته وألقوها فى نهر دجلة ، وقيل إن رأسه أرسل الى خراسان .

هذه هى رواية فريد الدين ، وقد روى كثيرون غيره هذه الحادثة على صور تختلف قليلا عن هذه الصورة . فمثلا أنبأنا ابن الحلاج نفسه أن والده وهو سائر الى موضع الصلب كان يرقص فى أغلاله فرحا ، وأنه سمعه بعد قطع يديه ورجليه يناجى ربه فيقول : « يا إلهى إنى سآوى الى مقر رغباتى ، وسأشاهد عجائبك » !

وقد حدثنا كذلك أن أبا بكر الشبلى قدم الى والده أثناء التعذيب وأخذ عليه أنه باح بسر الإله ، ففعل به ما فعل . وأنبأنا كذلك أنه ضرب قبل قطع يديه ورجليه خمسمائة سوط ، وأن تلميذه ابراهيم بن فاتك قد رأى بعد موت الحلاج بثلاثة أيام الإله فى المنام فسأله قائلا : مولاى ماذا فعل الحسين بن منصور حتى يلقى هذا العذاب ؟ فأجابه الإله قائلا : إننى أوحيت إليه الحقيقة ، ولكنه دعا اليها الناس من نفسه فأنزلت عليه العقاب الذى رأيته .

وقد حدثنا أحد كتاب الحكومة الرسميين أن رئيس الشرطة قد أحضر الحلاج أمام باب الطاق فى اليوم الرابع والعشرين من شهر ذى القعدة سنة ٣٠٩ هـ وأمر بضربه ألف سوط ، فضرب ستمائة دون أن ينطق بكلمة ، ثم قال لضاربه بعد ذلك : دعنى أحدثك فان لدى نبأ هو خير للخليفة من مدينة القسطنطينية ، فقال له : إنى قد أنبئت أنك ستعدنى بأكثر من هذا ، ولكن لا سبيل الى الكف عن ضربك ، وأخذ يضربه حتى أتم الألف ، ثم قطع الجلاد يديه ورجليه ثم رأسه .

هـذا هو قليل من كثير من الروايات المتباينة التى أوردها المؤرخون فى موت الحلاج ومزجوا ما فيها من حقائق بأضعافها من الخرافات .

مؤلفاته :

كتب الحلاج كثيرا من المؤلفات ، ولكنها فقدت كلها تقريبا ولم يبق منها إلا شذرات متناثرة وفقرات متفرقة . وقد ذكر لنا ابن النديم قائمة بستة وأربعين كتابا من هذه الكتب تدل عناوين أكثرها على أهميتها فى الناحية الصوفية من الحركة العقلية الإسلامية . وهاك أهم هذه الكتب :

(١) « طس الأزل والالتباس » وهو الآن موجود تحت الفصل السادس من كتاب « الطواسين » . (٢) « الجوهر الأكبر والشجرة الزيتونة المباركة النورية » . (٣) « الأحرف المحدثة والأزلية والأسماء الكلية » . (٤) « الظل الممدود والماء المسكوب والحياة الباقية » . (٥) « حمل النور والحياة والروح » . (٦) « تفسير قل هو الله أحد » . (٧) « الأبد والمأبود » . (٨) « قراءة القرآن والفرقان » . (٩) « خلق الإنسان والبيان » . (١٠) « كيد الشيطان وأمر السلطان » . (١١) « الأحوال والفروع » . (١٢) « سر العالم والمبعوث » وهذا الكتاب موجود . (١٣) « العدل والتوحد » . (١٤) السياسة والخلفاء والأمراء » . (١٥) « علم البقاء والفناء » وقد بقى قسم منه . (١٦) « شخص الظلمات » . (١٧) « نور النور » . (١٨) « المتجليات » . (١٩) « الهيا كل والعالم والعالم » وهو موجود . (٢٠) « مدح النبى والمثل الأعلى » وهو موجود تحت الفصل الأول من الطواسين . (٢١) « غريب الفصيح » . (٢٢) « النقطة وبدء الخلق » وقد بقيت منه شذرات . (٢٣) « القيامة والقيامات » . (٢٤) « الكبر والعظمة » . (٢٥) « الصلاة والصلوات » . (٢٦) « خزائن الخيرات الألف المقطوع والألف المألوف » . (٢٧) « مواجد العارفين » . (٢٨) « الصدق والاخلاص » . (٢٩) « الأمثال والأبواب » وهو موجود تحت الفصلين الرابع والخامس من الطواسين . (٣٠) « اليقين » . (٣١) « التوحيد » وهو موجود . (٣٢) « النجم إذا هوى » . (٣٣) « الذاريات ذروا » . (٣٤) « الذى أنزل عليك القرآن » ولعله هو الفصل الثانى من الطواسين . (٣٥) « الدرة » وهو موجود . (٣٦) « السياسة » . (٣٧) « هو هو » . (٣٨) « كيف كان وكيف يكون » . ولا يوجد منه إلا شذرات فى الطواسين . (٣٩) « الوجود الأول » . (٤٠) « الوجود الثانى » . (٤١) « الكبريت الأحمر » . (٤٢) « الكيفية والحقيقة » . (٤٣) « الكيفية والمجاز » ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

رذيلة الوشاية

قال رجل لمطيع بن إياس : جئتك خاطبا مودتك . فقال له : قد زوجتك على شرط أن تجعل صداقها أن لا تسمع فىَّ مقالة الناس .

وقال محمد بن بشار :

عاتب أخاك إذا هفا واعطف بودك واستمده
وإذا أتاك بغيبة واش فقل لم تعتمده

حياة رجالات الإسلام

أبو بكر الصديق

— ٦ —

مضى أبو بكر رضى الله عنه فى هجرته الى الله تعالى رفيقا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يرتاد له المنازل إذا حل ، ويَخبُر له خبر الطريق إذا ارتحل ، ويسهر عليه إذا نام ، ويخدُمه إذا استيقظ ، ويرد السائلين عنه بألطف جواب ، حتى يأمن عليه الطلب ، وينجو وإياه من الدرك ، فرارا بدين الله من وجه البغى والعدوان . روى البخارى فى الصحيح عن البراء بن عازب قال : « اشترى أبو بكر رضى الله عنـه من عازب رحلا بثلاثة عشر درهما ، فقال أبو بكر لعازب : مر البراء فليحمل الىّ رحلى ، فقال عازب : لا ، حتى تحدثنا كيف صنعت أنت ورسـول الله صلى الله عليه وسلم حين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكم ، قال أبو بكر : أخـذ علينا الرصد فخرجنا ليلا ، فأحيينا ليلتنا ويومنا حتى قام قائم الظهيرة ، فرميت ببصرى ، هل أرى من ظل فآوى اليه ، فاذا صخرة أتيتها ، فنظرت بقية ظل لها فسوّيته ، ثم فرشت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فروة معى ، ثم قلت له : اضطجع يا نبى الله ، فاضطجع النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم انطلقت أنظر ما حولى ، هل أرى من الطلب أحدا ؟ فاذا أنا براع قد أقبل فى غنيمة يريد من الصخرة مثل الذى أردنا ، فسألته : لمن أنت يا غلام ؟ قال : أنا لرجل من قريش سماه فعرفته ، فقلت : هل فى غنمك من لبن ؟ قال : نعم ، قلت : هل أنت حالب ؟ قال : نعم ، فأمرته فاعتقل شاة من غنمه ، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار ، ثم أمرته أن ينفض كفيه ، فحلب لى كُثبة من لبن ، وقد جعلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم إداوة من ماء عليها خرقة ، فصببت على اللبن حتى برد أسفله ، فانطلقت به الى النبى صـلى الله عليه وسـلم فوافقته قد استيقظ ، فقلت له : اشرب يا رسول الله ، فشرب حتى رضيتُ ، ثم ارتحلنا والطلب فى أثرنا » .

وكان أبو بكر رضى الله عنه رجلا عروفا فى العرب ، فاذا مر على قبيل منهم وهو رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سئل عنه : من هذا الرجل الذى بين يديك ؟ فيقول : هـذا الرجل يهدينى السبيل ، فيحسب الحاسب أن أبا بكر إنما يعنى الطريق ، وهو رضى الله عنـه إنما يعنى سبيل الخير ؛ وهـذا من لطيف المعاريض التى يخرج بها المتكلم من مضائق السؤال دون أن يشعر سائله باعراض عن إجابته ، أو يطلع على سر من أسرار نفسه ؛ وهو مذهب من أدق مذاهب الأسلوب العربى وألطفه .

وفى حديث أنس بن مالك « أنه صلى الله عليه وسلم أقبل المدينة وهو مردف أبا بكر وأبو بكر شيخ يعرف ، والنبى صلى الله عليه وسلم شاب لا يعرف » . قال بعض العلماء : وإنما كان أبو بكر معروفا لأهل المدينة لأنه كان يمر عليهم فى سفره للتجارة . والمعول عليه فى التاريخ أن النبى صلى الله عليه وسلم كان أسن من أبى بكر رضى الله عنه ، غير أن الصديق كان قد شاب ، والنبى صلى الله عليه وسلم لم يشب . وعند ابن سعد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر : ألهِ عنى الناس ، فكان أبو بكر إذا سئل : من أنت ؟ قال : باغى حاجة ، فاذا قيل : من هذا معك ؟ قال : هذا يهدينى السبيل . وفى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر لما وصلا الى المدينة ونزلا فى بنى عمرو بن عوف « قام أبو بكر للناس وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتا ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيى أبا بكر ، حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك » .

وفى مجموع هذه الأخبار الصادقة مايزيدنا يقينا بمكانة الصديق فى الإسلام وقبله ، ويزيدنا إيمانا بما حباه الله به من المزايا السامية التى جعلت منه رجل الاسلام الأول فى كل موطن من مواطن البطولة والتفانى فى سبيل الخير والحق .

باستقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالمدينة المنورة ، واتخاذها موطن الدعوة ، اتجه المسلمون الى حياة الجهاد والقوة ليفتحوا أمام الحق الطريق الى قلب الإنسانية الظمأى الى الإيمان بما يبعث اليها الهداية والرشاد ، وكان أعظم مظاهر ذلك وأحزمها غزوة النصر « بدر الكبرى » ، خرج اليها النبى صلى الله عليه وسلم فيمن نشط من أصحابه وعن يمينه أبو بكر الصديق ، وعن يساره عمر الفاروق ، وأمامه السعدان سيدا الأنصار ، يقدمهم الحق ، ويحدو بهم الإيمان ، وتجمعت لها قريش بخيلها ورجلها ، تُحادّ الله ورسوله بباطلها وأبطالها ، وأقيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش من جريد ، فدخله ومعه أبو بكر الصديق ، وقام سعد ابن معاذ على باب العريش متوشحا سيفه ، والتقى الجمعان ، وتقدم فتيان قريش فى صلف العنجهية يطلبون أقرانهم من المسلمين للمبارزة ؛ وهنا موقف لأبى بكر الصديق رضى الله عنه هو آية الآيات فى باب البطولة والتضحية بالنفس ليكون مثلا مضروبا لكل من تبطن عقيدة الحق وحيل بينه وبين حرية الدعوة اليها :

ذلك أنه كان فيمن خرج الى المبارزة ابن لأبى بكر الصديق ، فما رآه أبو بكر وعرفه حتى ناشد رسول الله صلى الله عليه وسلم طالبا أن يأذن له فى الخروج اليه ، فقال : يا رسول الله دعنى أكون أول الرعيل . ولكن أبا بكر هو القائد الثانى لجيش الإسلام ، يحتاج المسلمون الى رأيه وعقله المدبر ، فلم يأذن له القائد الأعظم ، وأشعره بالحاجة اليه ، فقال له : « متعنا

بنفسك يا أبا بكر ، أما تعلم أنك عندى بمنزلة سمعى وبصرى » . قال جمهرة من المفسرين : وفى هذه الحادثة نزل قول الله تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » .

حسب عظمة الصديق رضى الله عنه أن يسجل فى سجل مفاخرها هـذه المنقبة البارعة التى تدل على أن منزلته من نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تعدلها منزلة أحد فى الدنيا ، وفى قوله له : متعنا بنفسك يا أبا بكر ما يومى الى مقام الاختصاص الذى تفرد به الصـديق ، وليس بعد سمع رسول الله وبصره منزلة فى العزة والمحبة ؛ وفى مسارعة الصديق الى مبارزة ابنه وفلذة كبده واستئذانه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون فى الرعيل الأول ما يكشف عن حقيقة الإيمان ورسوخ العقيد التى تسمو بصاحبها الى حيث تسنم أبو بكر مكانه فى ذروة الإسلام .

تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض ، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسـلم وهو فى العريش معه الصديق كثرة عدد المشركين ووفرة عُددهم ، فقام يناشد ربه ماوعده من النصر ، واستشعر قلبه الشريف الشفقـة على أصحابه وهو بالمؤمنين رءوف رحيم ، فألح فى الدعاء حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأخذ أبو بكر الرداء وألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يانبى الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فانه سينجز لك ما وعدك . قال الخطابى : لا يتوهم أحد أن أبا بكر كان أو ثق بربه من النبى صلى الله عليه وسـلم فى تلك الحالة ، بل الحامل للنبى صلى الله عليه وسـلم على ذلك شفقته على أصحابه ، وتقوية قلوبهم ، فبـالغ فى التوجه والدعاء والابتهال لتسكن نفوسهم عنـد ذلك ، لأنهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة ، فلما قال له أبو بكر ما قال ، كف عن ذلك وعـلم أنه استجيب له لمـا وجد أبو بكر فى نفسه من القوة والطمأنينة ، ، فلهذا عقبه بقوله : سيهزم الجمع ؛ وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى تلك الحالة فى مقام الخوف ، وهو أ كمل حالات الصلاة .

انـكشفت المعركة فإذا لواء النصر بيد المسلمين ، وإذا الله تعالى قد أنجز لرسوله ما وعده ، فقتل كثير من صناديد قريش ورءوس الـكفر ، وعاد المؤمنون الى المدينة وفى أيمانهم الغنائم وفى شمائلهم أزمة الأسرى يقودنهم بأنوف ذليلة راغمة ، وعقـد مجلس الشورى برياسة سيد العالمين ، وعن يمينه الصديق الأعظم وزيره الأول ، وعن يساره الفاروق ، وفتى الفتيان علىّ بن أبى طـالب ، يحف بهم الغر الميامين من المهاجرين والأنصار ليضعوا للانسانية أول مادة فى دستور الديمقراطية الفاضلة ، وليؤسسوا صرح الحرية على دعائم الشورى ، تحقيقا لقـول الله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » ، وعملا بقوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » .

هـؤلاء رءوس الشرك فى أيدينا أظفرنا الله بهم ، فماذا نصنع فيهم ؟ وهل غير القتل

يستحقون ؟ لا ، بل تسعر لهم نار فى واد كثير الحطب فيلقون فيه ؟ إنهم أئمة الكفر الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أشد الإيذاء ، وصدوا الناس عن سبيل الله ، وأخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم . إن الأمر جد خطير ، فهذه جرثومة قريش فى غطارفتها الذين كذبوا رسول الله وأخرجوه وقاتلوه ، إن هلكوا بأيدينا فقد شفينا صدورنا منهم ، ولكن أليس من الجائز أن يكون فى هذه الأصلاب من ادخر لانقاذ الإنسانية حين تضطرب بها أمواج الحياة ؟ أو ليس فى هذه الأنفس نفس يجوز أن يهب عليها نسيم الرحمة الإلهية فاذا هى أهدى سبيلا ، وأقوم قيلا ، وأرشد رشدا ؟ كل ذلك جائز أن يكون ، فليسمع القائد الأعظم صلوات الله عليه من وزرائه آراءهم وله من بعد ذلك الرأى الأعلى . وهنا تتجلى خصيصة الإسلام فى مرآة الفطرة الصديقية والفاروقية ، والإسلام دين يجمع بين عنصرى العقاب الحازم والعفو الرحيم ، فيأخذ الصديق الأعظم بجانب الرحمة المطلقة ، ويأخذ الفاروق بجانب القسوة الزاجرة ، وينطق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحكم ، فيحقق الغيب حكمة الصديق ، ويأتى التشريع على وفق سياسة الفاروق ، وسنبين ذلك إن شاء الله ؟

صادق ابراهيم عرجون

أدب الحديث والاستماع

قال حكيم : رأس الأدب كله حسن الفهم والتفهم ، والاصغاء للمتكلم .

وذكر الشعبى قوما فقال : ما رأيت مثلهم أشد تناوبا فى مجلس ، ولا أحسن فهما من محدث .

ووصف الشعبى عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى فقال : ما علمته إلا آخذا بحسن الحديث إذا حَدَّث ، وبحسن الاستماع إذا حُدِّث ، وبأيسر المؤنة إذا خالف ، تاركا لمجاوبة اللئيم ، ومماراة السفيه ، ومنازعة اللجوج .

وقال حكيم لابنه : يا بنى تعلم حسن الاستماع ، كما تتعلم حسن الحديث ، وليعلم الناس أنك أحرص على أن تسمع ، منك على أن تقول ، فأحذر أن تسرع فى القول فيما يجب عنه الرجوع بالفعل ، حتى يعلم الناس أنك على فعل ما لم تقل ، أقرب منك الى قول ما لم تفعل .

وقال آخر : من حسن الأدب أن لا تغالب أحداً على كلامه ، وإذا سئل غيرك فلا تجب عنه ، وإذا حَدَّث بحديث فلا تنازعه إياه ، ولا تقتحم عليه فيه ، ولا تُرِه أنك تعلمه ، وإذا كلمت صاحبك فأخذته حجتك ، فحسن مخرج ذلك عليه ، ولا تظهر الظفر به ، وتعلم حسن الاستماع ، كما تتعلم حسن الكلام .

أقول : إذا عمل الناس بهذا الأدب بطل كثير من الفضول واللجاج والتشاد ، وحل محله ما يجب أن يكون بين العقلاء من الوقار والنبل والتحاب .

ابن حزم الاندلسى

حياته وفلسفته

هو أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم ، ينتهى نسبه الى عبد شمس الأموى ، وأصل آبائه من إقليم الرواية من كورة نبلة غرب الأندلس . وكان مولده بقرطبة آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٣ ﻫ وكان أبوه أبو عمرو أحمد بن سعيد أحد وزراء المنصور بن أبى عامر .

كان ابن حزم وزيراً لعبد الرحمن المستظهر بالله ، ثم المقتدر بالله ، ثم ترك الوزارة وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن ، وأوغل فى الاستكثار من علوم الشريعة حتى نال منها ما لم ينله أحد قط بالأندلس .

مكانة ابن حزم فى التأليف :

قام ابن حزم بتأليف رسالة فى المفاضلة بين الصحابة ، عرض فيها لمعنى الفضل ووجوه المفاضلة ، وأبدى رأيه فى فضل أزواج الرسول ، ثم وازن بين أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وبيّن الأسباب التى دعت الى ترتيبهم فى الفضل ، مستندا الى الأسانيد القوية التى قام عليها هذا الترتيب ؛ وأجمل ما يعنينا فى هذه الرسالة أن ابن حزم التزم فيها ترتيب أفكاره بطريقة منطقية محكمة ، فاستعرض فى القسم الأول منها آراء المخالفين لرأيه فى المفاضلة بين الصحابة ، وشرع فى تمهيد الاحتجاج لرأيه والرد على جميع الآراء المختلفة ، فكان موفقا فى الرد مبرزا فى الاحتجاج والتفوق العقلى عليهم . وفى القسم الثانى سرد حججه فى فضل أزواج الرسول مستمدة من الكتاب والسنة وصحيح الخبر ، واقفا عند النصوص ممعنا فيها تدقيقا وتحليلا واستنباطا ، وناقش نصوصها مناقشة فنية من جهة الحديث والأصول . وهنا يبدو لك تمكنه من الدين وعلومه ؛ ثم ذكر جميع الاعتراضات والشبه حتى إذا دفع جميع الاعتراضات ، ذكر الرأى فى تفضيل عائشة وخديجة على سائر أمهات المؤمنين . وفى القسم الثالث عين لنا أفضل الصحابة بعد أمهات المؤمنين مهتما بصورة خاصة بجدال الشيعة وآرائهم . وخاتمة الرسالة فى ميزة الإسلام وتسويته بين الناس كافة ، وإهداره تقديم القرابة ، واعتداده فى القيمة بالعمل لا بأى شىء آخر .

أما كتابه « طوق الحمامة » المطبوع فى ليدن سنة ١٩١٤ ، فقد أحدث فكرة جديدة عن فن الحب ، حتى لقد تناولته أقلام الكتاب فى أوروبا وأمريكا بالنقد والتحليل . وكان من العجيب حقا أن يكتشف الباحثون أنه كان فى أواخر القرن الرابع الهجرى كاتب عربى

يتناول حديث الحب الوجدانى البرىء فى أسلوب جذاب ، وله دراية فى فهم أسرار النفس والقلب .

ماكاد هذا الكتاب يظهر على يد الأستاذ بيتروف صاحب الفضل فى الكشف عنه ، وقد كاد أن يندثر ، حتى صدره بمقدمة طويلة بالفرنسية عام ١٩١٤ . ومن هنا أقبل على ترجمته والتعليق عليه جمهرة من كبار المستشرقين أمثال دوزى وبروكلمان ومرسيه وغيرهم .

أما ابن حزم فقد رجع فى كتابه العاطفى الى ذكرياته فى عنفوان الشباب ، ونقب على الدفين من أهوائه ورغباته ، وحلل التيارات الفكرية والوجدانية التى كانت تضطرب بين جنبيه ، وعالج الأزمة النفسية التى استولت عليه . ثم ما لبث أن تحول ابن حزم فى بابى قبح المعصية وفضل التعفف ، الى واعظ دينى يدعو الى محاربة الشهوات ، وإحلال الفضيلة مكانها ، حتى يتغلب الجانب الخلقى فى النفس على الجانب الدنىء منها ، كما يتغذى الجسم بالغذاء المناسب لتقويم كيانه ؛ ومن هنا جاء كتابه عن الحب وجدانيا وأخلاقيا معا ، وكان خير كتاب أخرج للناس فى هذا الباب .

الفلسفة عند ابن حزم :

بعد موت الخليفة الحكم سنة ٣٦٦ هـ الذى عنى بعلوم الأوائل وعمل على انتشارها والإقبال عليها ، أمر المنصور بن أبى عامر بإحراق جميع الكتب المؤلفة فى العلوم القديمة ، وبخاصة المنطق وعلم النجوم ؛ وكان المنصور يعتمد فى تأييد حكمه على رجال الدين ، حتى إذا ما ظهر ابن حزم كان من المؤيدين لعلم المنطق على الرغم من تحمسه الشديد لنصرة السنة .

ولدراسة المنطق عند ابن حزم قيمة خاصة ، فنراه يقول (الملل والنحل جـ ٢ ص ٩٥) : إن الكتب التى جمعها أرسطو فى قواعد المنطق كلها كتب سالمة مفيدة ، بها يتعرف كيف يتوصل الى الاستنباط الصحيح ، وكيف تؤخذ الألفاظ على مقتضاها ، وكيف يعرف الخاص من العام ، والمجمل من المفصل ، وبناء الألفاظ بعضها على بعض ، وغير ذلك مما لا غناء للفقيه المجتهد لنفسه ولأهل ملته عنه .

وقد ذكر أحد معاصريه ونعنى به القاضى أبا القاسم صاعد بن احمد قاضى طليطلة المتوفى سنة ٤٦٢ هـ ، قال صاعد :

« عنى ابن حزم بعلم المنطق وألف فيه كتابا سماه (التقريب لحدود المنطق) ، بسط فيه القول على تبيين طرق المعارف ، واستعمل فيه أمثلة فقهية وجوامع شرعية ، وخالف أرسطو فى بعض أصول هذا العلم » .

ومن هنا نستنتج أن اشتغال ابن حزم بالمنطق كان من أجل خدمة نظرياته الدينية والفلسفية .

وكان يصرح أن الفلسفة الحقيقية غايتها إصلاح النفس ، وتلك الغاية بعينها هى غاية الشريعة ، ولا تعارض بين الاثنين (الملل والنحل ج ١) .

ولابن حزم مصنفات كثيرة العدد ، شرعية المقصد ، ومعظمها فى أصول الفقه وفروعه ، وقد روى عنه الفضل المكنى أبا رافع أن تآليفه فى الفقه والحديث والأصول والملل والنحل والأدب تبلغ نحو أربعمائة مجلد ، تشتمل على ثمانين ألف ورقة . وقال ياقوت فى ذلك : هذا شىء ما علمناه لأحد ممن كان فى دولة الاسلام قبله إلا لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى .

ويعتبر كتابه الملل والأهواء والنحل من أهم المراجع لفروع الفلسفة ، ومذاهب المتكلمين ؛ فهو يعطينا فكرة قوية وضاءة عن الفرق الدينية التى ظهرت فى المملكة الاسلامية كالخوارج والشيعة والمعتزلة والمرجئة والقدرية وغيرهم ، كما يبحث عن اختلاف الديانات كاليهودية والمسيحية ومدى انتشارها ، وأثر هذه الأديان فى نفوس معتنقيها . ثم يخرج من هذا البحث الى نتيجة أثر اليهودية فى الثقافة الاسلامية ، وتسرب هذه الثقافة الى المسلمين ، معتمدا فى بحثه على التاريخ والرواية الصحيحة .

شخصية ابن حزم :

كان ابن حزم فيلسوفا ومؤرخا وعالما ، وكان له أثره العظيم فى تاريخ بلاده . ومؤلفاته مرآة جلية تبدو من خلالها مواهبه الفنية على أكملها ؛ وهوفوق ذلك مرب ذو بصيرة وقادة ، قضى حياته ثابت النفس ، مصيب الفكر ، قوى العقل .

ومما نكب به فى حياته حرق مؤلفاته وتمزيقها علانية ، من قبل أعدائه . وفى ذلك يقول :

وإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى ... تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبى ... وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى

وقال يخاطب حسّاده :

هنالك تدرى أن للعبد قصة ... وأن كساد العلم آفته القرب
وأن مكانا ضاق عنى لضيق ... على أنه فيح مهامهه سُهب
وأن رجالا ضيعونى لضُيَّع ... وأن زمانا لم أنل خصبه جدب

إلا أن الأحداث الشديدة التى تواترت على الفيلسوف ابن حزم لم تكن لتغير من تراثه العلمى ، أو تفل من حدة ذهنه الوثاب . فإن أهم ما كتبه فى مؤلفه الملل والنحل من أبحاث هو تاريخ الأديان وفلسفة التاريخ . فهو إذا تناول مسألة من المسائل الدينية أو التاريخية لم ينظر إليها نظرة تحليلية تتناول التفاصيل ، وتعنى بما هو جزئى ذو قوام مادى ، وإنما ينظر إليها نظرة تركيبية عامة لا تفيها التفاصيل إلا من حيث إنها مظاهر ومعارض لتيارات روحية كبرى ، ودوافع باطنة قوية تحكم التطور التاريخى وتسوده وتوجهه .

ولا عجب فأن ابن حزم أعظم من بحث فى المذاهب الاسلامية وفى علم الكلام والحديث ، ولعله كان من أقدر الباحثين الذين استطاعوا أن ينفذوا الى طبيعة الحياة الدينية فى الاسلام ، وأن يحللوا اتجاهاتها ويكشفوا عن جوهرها ، والعوامل المؤثرة فيها .

جمع الفيلسوف ابن حزم الى ناحية الخلق المتين ، شخصية المفكر الحر فى عقيدته ، معتمدا على بصيرة حادة نافذة الى باطن الأشياء وسرها الكامن ، وعلى وجدان مرهف يستطيع أن يكون هو وجوهر الشيء الذى يحاول إدراكه شيئا واحدا ، بأن يكون بينه وبين هذا الشيء نوع من المشاركة الوجدانية والاتصال الحى النابض .

ولكنه لم يكن يكتفى بهذا الضرب من الاتصال ، بل كان يربط المسألة الواحدة بجميع المسائل الأخرى المرتبطة بها ، ناظما الكل فى سلك تاريخى واحد ، ناظرا إليه كوحدة لها صفاتها الذاتية ، معتبرا ذلك كنسيج حى متصل الأجزاء .

بهذه القدرة العلمية استطاع ابن حزم أن يجعل منهج بحث الأديان الذى أودعه كتابه القيم (الملل والأهواء والنحل) خصبا فى يديه ، ومؤديا الى أخصب النتائج وأعمقها . ويكفى أن يكون كتاب الملل والنحل منبعا حيويا يستملى منه المؤرخ وطالب المثل الأعلى ما للفيلسوف ابن حزم من شخصية خدمت الدين الإسلامى والتاريخ العام الى يومنا هذا ؟

عبد الحميد سامى بيومى

رذيلة النميمة

أحسن ما رأيناه من الزجر العملى عن النميمة ما روى عن الأسكندر المقدونى ، فقد قيل : إنه دخل عليه رجل فوشى برجل آخر راجيا بذلك أن يوقع به الأسكندر .

فقال له الأسكندر : أتحب أن نقبل منه عليك ، ومنك عليه ؟

فقال الرجل : لا ، وانصرف .

وقال ذو الرياستين : قبول النميمة شر من النميمة ، لأن النميمة دلالة ، والقبول إجازة ، وليس من دل على شيء كمن قبله وأجازه .

وذكر الوشاة عند المأمون فقال : لو لم يكن فى عيبهم إلا أنهم أصدق ما يكونون ، أبغض ما يكونون الى الله ، لكفاهم ذلك عقابا .

وقال المأمون أيضا لبعض ولده : إياك أن تصغى لقول السعاة ، فانه ما سعى رجل برجل إلا انحط من قدره عندى ما لا يتلافاه أبدا .

وقال شاعر :

لعمرك ما سب الأمير عدوُّه ولكنما سب الأمير المبلغ

باب الأسئلة والفتاوى

فى الرضاع

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر من محمد سعيد الخطيب بشرق الأردن الاستفتاء الآتى :

محمد نايف ومحمد وحيد الدين ابنا عم ، وقد رضع الأول من أم الثانى ، فهل يجوز للثانى أن يتزوج أخت الأول ؟

الجواب :

أنه يجوز بإجماع المذاهب لمحمد وحيد الدين فى هذه المسألة أن يتزوج أخت محمد نايف . والله أعلم ؟

وجاء الى اللجنة الاستفتاء الآتى من سيد عبد الخالق :

ما قولكم دام فضلكم فى امرأة ادعت أن بنتها رضعت من أم ضرتها ، ولما سئلت أم ضرتها قالت أنا عرضت عليها ثديى مرة واحدة فلم تقبله ، وفى ذاك الوقت كان عمرها ستة أشهر ، فما يكون الحل مع العلم بأن المدعية للرضاع أم الزوجة الأولى ، وقد قالت أم الزوجة الثانية أعنى المرضعة: عرضت عليها ثديى فبكت ولم تقبله ، وكان عمرها ستة أشهر وهى مرة واحدة ، ومع العلم أيضا بأن أم الزوجة الأولى تريد أن تفرق بين الزوجة الثانية وزوج بنتها ، أعنى الزوجة الأولى ، والزوج ناظر لكونه جمع بين الأختين فى الرضاع ، فإذا كان فيه حرمة أفيدونا بالفتوى حتى ينتهى المشكل .

الجواب :

لايثبت الرضاع بمثل الكلام المدون فى الاستفتاء ، فلابأس على الزوج أن يقيم مع زوجتيه ، ولا يؤثر هذا الكلام فى الزوجية . والله أعلم ؟

فى الزكاة

وجاء الى اللجنة أيضا الاستفتاء الآتى من عثمان عمر صالح :

اعتاد أهالى أجتره مركز دلجو بالسودان إخراج زكاة الفطر من التمر والذرة والقمح

والشعير لأن التمر والذرة على الخصوص هما غالب قوت هذه الجهات ، وقد زارهم أخيرا طالب من معهد أم درمان فأفتى بعدم جواز إخراج زكاة الفطر تمرا لأنه ليس بقوت .

الجواب :

أن التمر مما يقتات ويدخر، وما دام أهل الجهة المذكورة يقتاتونه كما هو نص الاستفتاء ، فإن المذاهب الأربعة تجيز إخراج زكاة الفطر منه ، متى كان هو غالب قوت أهل الجهة ، والله أعلم .

فى الميراث

وورد الى اللجنة من عبد الفتاح السيد بميت يزيد الاستفتاء الآتى :

رجل توفى وترك أخا لأب وأختين شقيقتين وبنتين وزوجة ، فما نصيب كل ، مع أن المرأة لها صداق مؤخر ؟

الجواب :

يخرج مؤخر الصداق من التركة أولا ويعطى للزوجة ، ثم يقسم الباقى هكذا :

للبنتين الثلثان ، وللزوجة الثمن ، وللأختين الشقيقتين الباقى ، ولا شىء للأخ للأب .

فى الطلاق

وورد منه أيضا :

رجل حلف بالطلاق ثلاثا على زوجته أنها لا تذهب الى أخيها وإن ذهبت تكون مطلقة ، وذهبت عنادا له .

الجواب :

أن هذه يمين يقصد بها الحث على الامتناع عن الذهاب الى أخيها ، ويرى كثير من الفقهاء أنه يقع إذا ذهبت .

ويرى كثير من الأئمة عدم وقوع الطلاق الذى قصد به الحث على الامتناع عن شىء . وعلى هذا جرى العمل فى المحاكم الشرعية . واللجنة تفتى بما جرى عليه العمل تيسيرا على الناس ، وتوجيها لهم وجهة واحدة فيما يعود عليهم بالخير والمصلحة . وعليه لا تقع هذه اليمين ولو ذهبت الزوجة الى منزل أخيها . والله أعلم .

وجاء الى اللجنة الاستفتاء الآتى من حضرة محمد زكى افندى راضى المدرس بكلية الهندسة :

زوج حلف على زوجته فى غيبتها بالطلاق الثلاث ألا تخرج من المنزل إلا بصحبته ، ثم عقب على يمينه بأنه إن وقع هذا الطلاق فلا يرده ، والغرض من اليمين منعها من كثرة الخروج إلامعه ، ثم حدث أن خرجت الزوجة وحدها .

الجواب :

أن هذه اليمين يقصد بها الحث على امتناع الزوجة عن خروجها منفردة . ويرى كثير من الفقهاء أنها تقع لو خرجت وحدها .

ويرى بعض الأئمة أن اليمين التى يقصد بها الحث على الامتناع عن شىء لا تقع ولو وقع ذلك الشىء ، وعليه جرى العمل فى المحاكم الشرعية ، وبه تفتى اللجنة تيسيرا على الناس وتوجيها للمسلمين وجهة واحدة تعود عليهم بالاتحاد ، وعليه تكون هذه اليمين لاغية ولا يترتب بها شىء من التأثير فى العصمة . والله أعلم .

وجاء الى اللجنة الاستفتاء الآتى :

لرجل زوجة لايحب لها الشجار مع الغير، ويكره جدا أن تشتبك مع أى كان سواء بالقول أو العمل ، دخل مرة فوجدها تصيح وتصخب إثر تعارك عائلى ، فاستشاط غضبا وقال : « أنت طالق بالثلاثة وزى أمى وأختى » وكررها ثلاث مرات .

فما حكم الشريعة وآراء الأئمة فى هذا الموضوع ؟ ابراهيم دويدار

الجواب :

يرى بعض الفقهاء أن الطلاق بلفظ الثلاث يقع ثلاثا ، ويرى بعض الأئمة أن الطلاق بلفظ الثلاث لايقع إلا طلقة واحدة ، وعلى هـذا الرأى الأخير جرى العمل فى المحاكم الشرعية ، واللجنة تفتى به تيسيرا على الأمة وتوحيدا لتفكيرها واتجاهها فى العمل بالشريعة الغراء .

أما كلمة « زى أمى وأختى » الواقعة بالعطف ، فالظاهر أنها لتوكيد معنى الثلاث المذكور فى لفظ الطلاق ، ولا يعتبر معنى جديدا ، كما أن التكرار لمجرد التوكيد .

وبناء عليه لا يقع باليمين المذكورة إلا طلقة واحدة . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

بين رجال الدين والفلسفة

اعتزمت كتابة هذه الكلمات لهذه الظاهرة التى تحققتها بعد طول التجربة ، وهى أنه قد يكون من العسير أحيانا إقناع فلان من الناس ـ وهو مثقف أو فى طريقه للثقافة الفكرية العالية ـ برأى أو فكرة فى العلم أو الفلسفة يعتقد بادئ الأمر أنها لأحد المفكرين الأحرار أو الفلاسفة الذين وسمهم بالالحاد أو الكفر . فإذا أسندت هذا الرأى نفسه أو هذه الفكرة ذاتها لصاحبها وعرف أنه الامام الغزالى مثلا ، رآها صحيحة سهلة الهضم ومعقولة ، وسلم بها !

معنى هـذا أن للماضى قداسته وقوته العارمة ، وأن أحكام الغزالى ومن لفّ لفّه على الفلاسفة بالكفر لا يزال لها أثرها الذى رجاه وعمل له من نزع الثقة بهم وتنفير الناس منهم(١) . ومعنى هـذا أيضا أن جانبا كبيرا منا لا يزال يخلط فى هذه الخصومة التى أذكى نارها رجال الدين ضد الفلاسفة والمفكرين ، بين ما كان منها للدين وما كان للدنيا ، وبين الحكم بالإلحاد عن يقين والحكم به عن هوى أو تقليد . وكأن هذا الفريق منا يعتقد أن الله أعفانا من النظر بعقولنا ، وقد نظر حجة الاسلام وقدر وحكم ، فتراهم يصدرون عن رأيه ويتقبلون حكمه ، ويرفضون أن يسمعوا لمخالفيه رأيا وإن كان صحيحا ! ومن ثم ما يلقاه الباحث من عسر وصعوبة فى إقناع الغير وإن كانوا تلاميذه ببعض ما يقتنع من آراء .

من أجل ذلك رأيت معالجة هـذا الأمر والتصدى لهذا البحث الشائك ، وأعنى به تبيّن العلاقة بين رجال الدين والفلسفـة ، حتى نسير على بينة من أمرنا ، وحتى نعطى ـ فيما نبحث ونناقش ـ ماللقيصر لقيصر وما لله لله . والغرض الذى أهدف إليه هو معرفة الموقف الصحيح الذى كان لرجال الدين مع الفلسفة وما يتصل بها ، وتبين البواعث التى جعلت من الأولين خصوما لُدًّا للفلاسفة والمفكرين ، والغايات التى قصدوا إليها من هذا اللدد فى الخصومة والإمعان فى الكيد ، والحكم على بعضهم بالالحاد فى الدين ومحادة الله ورسوله ، وبيان أن من الفلاسفة من كان مستوجبا لبعض ما اتهم به ، وأن منهم من كان يرى الحيطة فى الأمر فلا يرضى بتعليم تلاميذه طرفا من الفلسفة إلا بعد تثبتهم من الدين وحذق علومه التى تعتبر منه بمنزلة الأصول ، وذلك لما يعلمه من أنها ـ أى الفلسفة ـ مزلقة لغير المتثبت من دينه قبل كل شىء . ويتصل حتما بهـذا الغرض أو الأغراض تعرف الجهود التى بذلها الفلاسفة

---

(١) هذا الغرض يبين كثيرا من أقوال الغزالى : مثلا المنقذ من الضلال طبع دمشق ص ٨٩ ـ ٩٠ ، ١٠٤ ـ ١٠٥ ، التهافت طبع الاب بويج ببيروت ص ٦ ـ ٧ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٧٦ ـ ١٧٧ .

للتوفيق بين الدين والفلسفة ، وبيان أنهما رضيعالبان (١) ، فما كان يصح فى العقل المستقيم أن يكون بينهما إلا كل تعاون وتآزر فى البحث عن الحقيقة وتجليتها . كما نذكر أيضا أن هذه الخصومة ليست مما يعيب الاسلام فى شىء وإن عابت بعض رجاله ، وأنها ليست مما اختص به الاسلام ورجاله .

حقيقة ليس الاسلام بدعا فى هذه الخصومة التى تقتضيها طبيعة الدين وطبيعة الفلسفة ؛ ذلك أن تاريخ العلم والفكر فى القرون الوسطى المسيحية حافل بأعنف ألوان الصراع بين العلم ورجاله ورواد الكشف والاختراع ، وبين الكنيسة وحماتها ، لأمور ما كان يجوز — فى رأى الباحث اليوم — أن ينتطح فيها عنزان .

هذه الخصومة شبت نارها فى أزمان مختلفة لبواعث تتقارب وتتباعد وتتشابه وتختلف ، لا فرق بين المسيحية فى هذا والاسلام ، إلا أن يكون عنف الخصومة وتفاهة أسبابها أظهر فى الأولى .

الدين مصدره القلب الذى يتفتح للعقيدة بالهام قوة عليا ، فترسخ هذه العقيدة بحيث يهون لدى المؤمن التضحية بالنفس فى سبيل الدفاع عنها والمنافحة دونها . والفلسفة أداتها العقل الذى يستقرئ ويحلل ويستدل ثم يعتقد دون أن يتقيد بادئ الأمر برأى أو عقيدة لم يقم عليها دليل . من أجل هذا يكون عدم الالتئام بين الدين والفلسفة لاختلاف مصدريهما ، وتكون الخصومة والإلحاح فيها واضطهاد الفلاسفة أحيانا ، واجبا فى رأى بعض رجال الدين دفاعا عنه ، ووقوفا فى سبيل المعتدين عليه المناهضين له على ما يرون .

على أنه لو أنصفنا الحق وفهمنا الأمر على وجهه ولم نطلب الدنيا بالدين ، لرأينا — لما سيجىء ذكره من أسباب — أنه لم يكن ليصح أن يقوم بين الدين الذى يستند الى العقل فى ترسيخ قواعده واستكناه أسراره وبين هذا العقل الذى لا يستغنى عن الدين ، خلاف أو خصومة فى حال من الأحوال . ورحم الله الغزالى حين يرى أن العقل كالأس والشرع كالبناء ، وأنه لن يغنى أس ما لم يكن بناء ، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس (٢) . وليته صرف بعض جهده الجبار فى التوفيق بين الدين والفلسفة — ما دام يرى هذا الرأى — بدل الحرب التى أرث نارها ضد الفلسفة والفلاسفة بلا هوادة ولا رحمة ، وبلا إنصاف أحيانا ! بعد هذا ندخل فيما قصدنا اليه أولا ، وهو عرض ما كان من هذه الخصومة فى الاسلام ، فنقول :

عاش العرب قبل مجىء الإسلام فى بيئتهم القاسية فى جوها وأرضها وسمائها ، فكانوا مضطرين أن ينتجعوا الغيث ويتتبعوا مواقع القطر ، وأن يحيوا حياة قلقة مضطربة لا قرار

(٢) كتاب فلسفة ابن رشد نشر ميلير (Muller) بمونيخ عام ١٨٥٩ ص ٢٦ .

(١) معارج القدس الطبعة الاولى عام ١٣٤٦ هـ ص ٥٩ .

فيها يساعد على النظر أو يدفع اليه ؛ لذلك نجدهم شغلوا بضرورات الحياة عن العلم والفلسفة إلا ما كانوا مضطرين اليه من أنواع المعارف المختلفة . ولهذا يقول صاعد بن أحمد الأندلسى فى كتابه طبقات الأمم (١) : « وكان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها ، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها ، على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة ، لاحتياجهم الى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة ... وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله عز وجل شيئا منه ، ولا هيأ طباعهم للعناية به » .

ولما جاء الاسلام ونزل القرآن ، بهرتهم تعاليمه ، وأخذتهم روعته ، ووجدوا فيه بعد أن تقبلوه غذاء لقلوبهم ومتعا لنفوسهم وإرضاء لطلعتهم ، فانصرفوا به عن الفلسفة . لم يكن لهم فى صدر الاسلام حاجة للتفلسف وقد أغناهم القرآن عن البحث فى الألوهية ، وخلق العالم ، والقضاء والقدر ، وخلود النفس ، والحياة الأخرى ، وما الى ذلك من المشاكل والمسائل التى شغلت ولا تزال تشغل الفلاسفة بعد أن رأوا فيما نزل الله على رسوله ما اعتبروه حلولا لهذه المسائل . إذن انصرف العرب فى جاهليتهم عن التفلسف لقسوة الحياة التى كانوا يحيونها ، وانصرفوا أيضا عن الفلسفة طوال العصر الأول من الاسلام لأنهم وجدوا فى القرآن غنية عنها .

ثم اتصل المسلمون بالثقافة اليونانية ، وانتفع علماء الكلام لا سيما المعتزلة بها فى تأييد آرائهم والرد على مخالفيهم . وهكذا بالترجمة وبعوامل أخرى انسابت الفلسفة اليونانية أو علوم الأوائل بين المسلمين بما فيها من آراء لا تتفق مع الاسلام فى رأى كثير من المسلمين ، فأوجسوا منها شرا ، ورفضوها جملة وتفصيلا ، ورأوا فى رجالها وأشياعها أعداء للدين يجب الحذر منهم والتنكيل بهم ما وجدوا الى ذلك سبيلا ؛ إلا أن هذه الخصومة كانت تشتد حينا وتخف حدتها حينا ، وتستعلن آنا وتستسر آنا ، تبعا لتعصب رجال الحكم أو تسامحهم ، ولقوة رجال الدين أو ضعفهم ، ولغير هذا وذاك من العوامل التى كان لها أثرها فى تلك الأيام .

هذه الخصومة بل هذا العداء لم يكن بين رجال الدين والفلسفة وحدها ، بل كان بين الأولين ورجال علم الكلام أيضا ، كما كان كذلك بين أهل السنة والمعتزلة . فالباحث المؤرخ للحالة العلمية فى القرن الثالث والرابع من الهجرة يرى أن أهل السنة كانوا فى القرن الثالث يظهرون الكراهية والاحتقار للمعتزلة ويناصبونهم العداء ، وأنه فى أثناء القرن الرابع كان أصحاب مذهب أهل السنة القدماء (أى قبل الأشعرى) يضيقون على المعتزلة الخناق فى جميع البلاد لاستعانتهم بالفلسفة وإدخالها فى علم الكلام (٢) بل إن أبا حسن الأشعرى الذى كان معتزليا ثم خرج على أصحابه وبدأ يحاربهم بسلاحهم — وهو النظر العقلى الذى يستند بعض

---

(١) الطبعة المصرية ص ٥١ . (٢) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى للمستشرق الالمانى آدم متز ج ١ ص ٣٣٩ من الترجمة العربية للاستاذ محمد عبد الهادى أبى ريده .

الشيء للفلسفة اليونانية — لم يعـدم من رجال الدين المتزمتين خصوما لُدًّا في خصومتهم ذلك أن المذهب الأشعري لم يكد يأخذ في الانتشار بالعراق نحو عام ٣٨٠ هـ حتى بدأت تظهر آثار اضطهاده ؛ ومن ذلك ما حاوله الحنابلة من منع الخطيب البغدادي المتوفى عام ٤٦٣ هـ من دخـول المسجد الجامع ببغداد لا لشيء إلا لأنه كان يذهب مذهب الأشعري (١) وبلغ من لدد الحنـابلة في الخصومة وتحاملهم على الأشاعرة في ذلك العصر ، أن وقع بسبب إثارتهم العامة قتال في شوارع بغداد سببه الاختلاف في الرأي وقصر النظر وضيق العطن ، وأن لم يتورع شيخ الحنابلة حوالى عام ٤٠٠ هـ من لعن أبي الحسن الأشعري (٢) .

هـذه مثل تبين نظر رجال الدين الأوائل لعلم الـكلام على مذهب الأشعري أو مذهب المعتزلة ، ومبلغ الخصومة التي كانت بينهم والـكراهة التي كانوا يحسونها لرجال الـكلام عامة ، والاضطهاد الذي لاقاه هـؤلاء من الأولين . ولـكن يحسن ألا ننتهي من هذه الـكلمة قبل أن نشير الى ثلاثة أمور تبين بجـلاء لا خفاء فيه ولا لبس موقف رجال الدين عامة من عـلم الـكلام ؛ هذه الأمور هي :

(١) يذكر ابن الأثير في تاريخه عند عرضه أخبار عام ٢٧٧ هـ أنه كان من المفروض على النساخ المحترفين ببغداد في ذلك العام أن يقسموا بأنهم لن يشتغلوا بانتساخ أي كتاب في الفلسفة، وكان هذا القرار ـ كما يروون ـ يشمل تحريم الاشتغال بنسخ كتب علم الـكلام أيضا (٣) .

(٢) إن الحملة التي أثيرت ضد المتكلمين وبخاصة المعتزلة ، والتي حمـل لواءها الحنابلة ومشايعوهم ببغداد ، حملت الحـكومة على أن تتدخل رسميا لوضع حد لتلك المنازعات الدامية أحيانا ؛ فأصـدر الخليفة القادر بالله العباسي عام ٤٠٨ هـ كتابا ضد المعتزلة يأمرهم فيه بترك الـكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والمقالات المخالفة للإسلام ، وأنذرهم بحلول النكال والعقوبة الصارمة إن خالفوا أمره (٤) .

(٣) إن المقريزي ذكر في خططه ـ في الفصل الذي عقده لبيان الحال في عقائد أهل الإسـلام في الزمن الأول الى أن انتشر مذهب الأشعري ـ أنه لما حدث مذهب الاعتزال وتـكلم المعتزلة فيما تـكلموا فيه عن العدل والتوحيد وإثبات أفعال العباد الى غير ذلك من مسائلهم « تبعهم خلائق في بدعهم ، وأكثروا من التصنيف في نصرة مذاهبهم بالطرق الجدلية ،

(١) المرجع المذكور ج ١ ص ٣٣٩ . ويرجع أيضا للمقريزي في الخطط ج ٢ ص ٣٥٨ .
(٢) الطبقات للسبكي ج ٣ ص ١١٧ .
(٣) انظر أيضا التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ص ١٣٥ .
(٤) الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٣٤٠

فنهى أئمة الاسلام عن مذهبهم، وذموا علم الكلام وهجروا من ينتحله »(١). ثم ختم المقريزى هذا الفصل الأول بقوله: « فهذه جملة من أصول عقيدته (أى عقيدة الأشعرى) التى عليها الآن جماهير أهل الأمصار، والتى من جهر بخلافها أريق دمه » (٢).

وموعدنا إن شاء الله تعالى العدد الآتى لبيان ما يأخذه الباحث من هذه النصوص التاريخية والواقعات الثابتة، ليستطيع أن يحدد فى وضوح تام موقف رجال الدين من علم الكلام وكتبه ورجالاته ؟

محمد يوسف موسى

المدرس بكلية أصول الدين

(١) ج ٤ ص ١٨٣ (٢) ج ٤ ص ١٨٨.

الحكمة القرآنية والفلسفة اليونانية

نشرنا المقال السابق لفضيلة الأستاذ النابه الشيخ محمد يوسف موسى، وموضوعه خطير، وهو إيجاد عهد سلام بين الاسلام والفلسفة، وقد اضطر لأجل الوصول الى هذه الأمنية أن يسرد تاريخ المسلمين فى مجافاة الفلسفة اليونانية متابعين فى ذلك أئمتهم، ثم قال: « ومعنى هذا أيضا أن جانبا كبيرا لا يزال يخلط فى هذه الخصومة التى أذكى نارها رجال الدين ضد الفلاسفة والمفكرين »، وذكر حجة الاسلام الغزالى فقال: « إن أحكام الغزالى ومن لف لفه على الفلاسفة بالكفر لا يزال لها أثرها الذى رجاه وعمل له ». وقال فيه أيضا: « ليته صرف بعض جهده الجبار فى التوفيق بين الدين والفلسفة (ما دام يرى أن العقل كالأس والشرع كالبناء)، بدل الحرب التى أرّث نارها ضد الفلسفة والفلاسفة بلا هوادة ولا رحمة، وبلا إنصاف أحيانا ».

ونحن نقول: إن هذا بعينه رأى الفرنجة، وهم يعللونه بأن أئمة المسلمين وقفوا هذا الموقف جهلا منهم واستبقاء لسلطانهم على العامة. ولسنا نرى نحن هذا الرأى؛ وليس بحث مسألة الفلسفة على هذا الوضع بمؤد الى حسم مادة الخصومة بينها وبين الاسلام، ولا هو بمتفق مع أمر جلل قام به المسلمون الأولون ولم يدون مثله فى تاريخ ملة من الملل، ألا وهو أخذهم كل ما صادفوه فى الناحية العلمية الطبيعية من الفلسفة اليونانية حتى بزوا فيها أصحابها، مع إصرارهم على رفض الناحية الفلسفية المحضة منها، وكراهتهم لها الى أقصى حد.

فكيف يعقل أن الأئمة الذين لم يمنعوا ذويهم من الاخذ بما نضج من ثمرات العلم مهما كان مصدره ، والذين قرروا وجوب تأويل كل نص يخالف ظاهره حكم العلم ، يعمدون الى معاداة الفلسفة اليونانية ، مع شغفهم بأخذ كل جديد صادفوه لدى الأمم ؟

السبب فى ذلك هو ما ذكرناه فى عدد سابق ووعدنا ببسط القول فيه ، أن المسلمين لم يجافوا الفلسفة اليونانية سذاجة وبلاهة منهم ، ولكن لأنه كان لديهم فلسفة آتاهم إياها القرآن ، تسمو على كل فلسفة فى الأرض ، وتجليها على ما هى عليه فى الواقع أوهاما لا يقام لها وزن .

ما هى الفلسفة القرآنية ؟

لا عبرة بالتسمية ، فكلمة فلسفة يونانية معناها محبة الحكمة ، وقد أطلقوها على ثمرات تفكير عقلائهم فى الوجود وموجده ، وفى القوى العاملة فى الكون ، وفى الانسان وعلاقته بالعالم ، وفى النفس البشرية وخصائصها الخ الخ ؛ جاعلين أساسىْ إنتاجهم العقل وقوة التصور . وقد اختلفوا فى مذاهبهم بقدر ما اختلفوا فى هذين الأساسين ، حتى كان منهم المثبت إثباتا مطلقا ، والنافى نفيا مطلقا ، بل كان منهم من أنكر المحسوسات مؤكدا أن الوجود وهم فى وهم .

وقد جرت الفلسفة على هذا السمت نحو ألفى سنة حتى تخلص العلم من الأوهام والظنون واتخذ لنفسه دستورا أساسه المشاهدة والتجربة ، فألقى بكل فلسفة خيالية من حالق ، وأسس الآخذون إخذه فلسفة دعوها بالفلسفة الطبيعية ، جعلوا قاعدتها المكتشفات العلمية . وقد أريناك من أقوالهم الى أى حد من الأدب والتحفظ وصلوا ، فى مقالنا الفلسفى المنشور فى العدد الرابع .

بعد هذه المقدمة الوجيزة نتساءل : هل جاء القرآن المسلمين بفلسفة ؟

نعم جاءهم بفلسفة تبز فى سموها أرقى فلسفة ، وأطلق عليها ما يقابل هذه الكلمة من اللغة العربية ، وهى (الحكمة) ، وقد نوه بها القرآن فى آيات كثيرة ، وأفردها بالذكر فى مقامات تقتضيها ، إشارة الى أنه سيأتى يوم يكون النضال فيه حول هذه الكلمة شديدا ، وتكون المقابلة بينها وبين مزاحماتها من الفلسفات الأجنبية متحتما .

نبدأ بحثنا فى هذا الموضوع باثبات صحة نظرنا فى وجود (الحكمة) القرآنيـة بالاعتبار الذى بيناه هنا ، ثم نأتى ببيان الأصول التى تقوم عليها ، لتتعين اسما ومعنى ، وتمكن المقابلة بينها وبين أرقى فلسفات العالم ، والمناخة عنها على أساس علمى لا تتأتى الملاحاة فيه .

بعض الآيات التى تثبت ادعاءنا فى وجود الحكمة القرآنية :

قال الله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب (والحكمة) يعظكم به ، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم » .

وقال تعالى : « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب (والحكمة) ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

وقال تعالى : « وأنزل الله عليك الكتاب (والحكمة) ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » .

وقال تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب (والحكمة) ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

وقال تعالى : « واذكرن (الخطاب لنساء النبي وسائر النساء) ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله (والحكمة) » .

هذا بعض ما ورد فى القرآن الكريم من التنويه بالحكمة ؛ وفى خَصها بالذكر إشارة لا يجوز أن تخفى على أحد اليوم ، فلا عجب أن يستعصى الذين أنزلت اليهم (حكمة) أساسها العقل والعلم والمشاهدات ، على حكمة أجنبية ُقدمت اليهم تحت اسم فلسفة أساسها الظنون والخيالات والأوهام .

بهذا وحده يمكن تعليل تسارع المسلمين الأولين الى تلقف ما صادفوه لدى الأمم من العلوم الطبيعية ، وشغفهم بما قام لديهم الدليل على صحته منها ، حتى أولوا فى سبيله ما يناقضه من ظاهر الكتاب ، وتوقفوا عن أخذ الناحية النظرية من الفلسفة كل التوقف .

نعم إن المسلمين أمروا أن يبادروا الى تصيد (الحكمة) حيث وجدت ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ولو من مشرك » ؛ ولكن هذا لا يصح إلا فيما لم يكن لديهم ما يقابلها ؛ وقد قامت لديهم الأدلة على سمو ما لديهم على جميع منافساتها ، كما سيتضح للقارىء مما سنعرضه عليه من أصول الحكمة الاسلامية ، وأصول الفلسفة اليونانية .

ومما يدل على أنهم جروا من هذا التخير على أساس صحيح ، مبادرتهم الى اقتباس المنطق من القسم النظرى من الفلسفة اليونانية ، لأنهم رأوا أن المنطق أداة نافعة للتدليل ، وواقية من الخبط فى وضع المقدمات واستخراج نتائجها ، وكان هذا المنطق مما استخدموه من الوسائل لنقض الفلسفة اليونانية التى افتتنت الأمم بها ، ثم اضطرت لأن تتركها لما ارتقت العلوم والعقول ، ورأت أنها لا تقوم إلا على الخيال الذى لا يغنى أمام الحقائق اليقينية شيئا . فبطلت الفلسفة اليونانية وبقيت (الحكمة القرآنية) قائمة ؛ وسيتضح للقارئين كافة أنها من الحقائق الخالدة ، وأنه كان لدى أئمتنا الأولين بصيرة نافذة فى التعويل عليها ، ورفض ما عداها رفضا لا هوادة فيه ، ولأنهم رأوا أن لا أساس لها إلا الظنون والخيالات ، وقد نهتهم حكمتهم عن الأخذ بالظنون التى لا تستند الى برهان .

أصول الحكمة القرآنية :

الحكمة القرآنية تتناول جميع ما يتصل بحياة الانسان المادية والأدبية ، وهى تبتدئ من قواعد الآداب العادية وموجباتها الحيوية ، الى الحالات العالية للنفسية الانسانية ، وبواعثها من العوامل الروحية ؛ ومن أوليات الأصول الاجتماعيـة ، الى نهايات الوحدة الانسانية بل العالمية ؛ ومن بسائط الأسس الادارية والاشتراعية ، الى أعلى المبادئ الحكومية والدستورية ؛ ومن أوضح القواعد الثقافية ، الى أسمى وأدق القوانين الفلسفية والعلمية . الخ

هـذه الأصول كلها مبثوثة فى الكتاب الذى أُمر المسلمون أن يتخذوه دستورا لهم فى جميع ما تدفعهم اليه الحياة الدنيوية ، والأغراض الأخروية . وهى كما ترى ذات نواح متعددة قد درسنا كثيرا منها فى عدد عظيم من بحوث نشرناها هنا . وحاجتنا اليوم ماسة الى استخراج ما يتصل منها بالقواعـد الثقافية ، والأصول الفلسفية والعلمية ، وشهوة العقـل للوصول الى الحقائق الوجودية ، لمقابلتها بأصول الفلسفة اليونانية وأصول الفلسفة العصرية .

الأصل الأول : الانسان لم يحصل من العلم إلا قليلا : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

الأصل الثانى : يجب على الانسان أن يتعلم لمصلحته المادية ومصلحته الروحية : « وقل رب زدنى علما » ، « وتلك الأمثال نضربها للنـاس وما يعقلها إلا العالمون » بكسر اللام . « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

الأصل الثالث : العلم لا يحصَّل إلا بالنظر فى الوجود والموجودات ، والتأمل فى أحوال الكائنات ، لا بالظنون والأوهام : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ، « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ، « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟ » .

الأصل الرابع : إقامة سلطان العقل ، والالتجاء الى حكمه فى كل خلاف ، مع البعد عن الأهواء والجنوح الى الأباطيل : « أفلا تعقلون » ، « لعلكم تعقلون » ، «ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » ، « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » ، « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » .

الأصل الخامس : الاعتماد فى تحقيق المسائل الى تقرير العلم الممحص لا الى الأوهام ولا المقررات الموروثة : « وإن كثيرا ليُضلون بأهوائهم بغير (علم) » ، « سفها بغير (علم) » « عَدْواً بغير (علم) » . « يضلونهم بغير (علم) » . « قل هل عندكم من (علم) فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تَخْرُصون » أى تكذبون .

الأصل السادس : عدم متابعة الخيالات فيما ليس وراءه علم يسنده ، ويعدل من تطرف الناظر فيه : « ولا تَقْفُ (أى ولا تتبع) ما ليس لك به (علم) إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

الأصل السابع : وجوب التثبت فى العلم وعدم الأخذ بدون دليل : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » ، « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »

الأصل الثامن : تحريم التقليد للآباء فى العلم ، والتعصب لآرائهم : « قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » .

الأصل التاسع : عدم الجمود على المعلومات المختزنة ، وضرورة سماع كل رأى والأخذ به إن كان حقا : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » .

الأصل العاشر : وجوب الحذر من الظنون والأوهام ، فانهما كانا السبب فى تضليل الناس وإفساد نفوسهم فى جميع الأجيال : « فماذا بعد الحق إلا الضلال » . « وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لا يغنى من الحق شيئا ، إن الله عليم بما يفعلون » .

كره الاسلام لذويه الاعتماد على الظنون حتى فيما يتعلق بفهم القرآن نفسه ، فقرر أن فيه نوعين من الآيات ، أولهما يشتمل على الحلال والحرام ، وأصول الشريعة والأخلاق ، وما تحتاج اليه الأمة فى كل ما يتصل بحياتها الاجتماعية والاقتصادية ؛ وهى جلية صريحة لا تعترك عليها الأفهام ، وسمى هذا النوع (مُحْكما) . (وثانيهما) يتعلق بأمور تعلو متناول العقل البشرى ، ولو عولجت به اختلفت عليها الآراء ، وتباينت فيها التأويلات ، وصارت مثارا للجدال والنزاع ، وسمى هذا النوع (متشابها) ؛ ففرض على الآخذين به النظر فى الأولى ، والعمل بها ، وحرم عليهم الجدل فى الثانية ومحاولة تأويلها ، فقال تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب (أى أصله) ، وأخر متشابهات (أى لا يتضح مقصودها لكونها غير موافقة للظاهر) ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله » .

فاذا كان مذهب الحكمة القرآنية عدم جواز الخوض فى الظنيات ، حتى فيما يتعلق بفهم القرآن ، فهل يسمح به فى سبيل الناحية النظرية من الفلسفة اليونانية ؟

القرآن لم يحرم النظر فى الوجود بل حث عليه وطالب به ، ولكنه نبه على أن الحكم على شىء منه لا يجوز أن يكون إلا إذا كان مستندا الى (علم) ، أما الى مجرد الأوهام والخيالات فلا ؛ وهذه نزعة فلسفية لم يسمع بها إلا فى القرن التاسع عشر ، واعتُبرت خطوة نهائية فى

سبيل إبلاغ الفلسفة أوج تطورها ؛ فهل يلام أئمة المسلمين الأولين على توقفهم عن الآخذ بالفلسفة اليونانية ، عملا بأصول حكمتهم ، وخاصة بعد ما ثبت فى القرون الأخيرة أن بضاعة تلك الفلسفة فى ناحيتها النظرية كانت وليدة الظنون والأوهام ؟

المقرر المعلوم أنه كان للفلسفة اليونانية ناحيتان : ناحية علمية طبيعية ، وناحية نظرية افتراضية ؛ فأما الناحية الأولى فقد أخذها المسلمون عنهم ، وأوسعوها بحثا وتمحيصا ، وزادوا مادتها زيادة عظيمة ، حتى بزوا فيها أصحابها الأولين . ولم يكتفوا بذلك بل أضافوا إليها كل ما صادفوه منها لدى الأمم الأخرى كالفرس والهنود والصينيين ، مما جعل جامعاتهم محط رحال طلاب العلم من جميع الشعوب .

وأما الناحية النظرية الفكرية التى اعتمد اليونانيون فيها على الآراء والظنون ، فقد أهملها المسلمون عملا بالحكمة المنزلة إليهم من عدم إضاعة الوقت سدى وراء ما ليس لهم به (علم) ، ولا يمكن تحقيقه بدليل محسوس .

فهل يلام أئمة المسلمين على إهمالهم التوفيق بين دينهم وبين الناحية النظرية الافتراضية من الفلسفة اليونانية ، وليس لديهم لتحقيق صحتها أثارة من علم يقين ؟

أثر هذه التعاليم فى نفسية المسلمين :

هذا الدفع المتواتر فى وجوه الأوهام والظنون ، وهذا الزجر المتتابع لعدم التعويل على خواطر الصدور ، وهذه الانذارات المتوالية للمتسامحين فى الأخذ بدون دليل ، يضاف الى هذا كله الوصايا المشددة بوجوب التثبت مما يقال ، والاستيثاق من صحته ، تفاديا من الوقوع فى الضلال ؛ كل هذا أنشأ لعقلية المسلمين مناعة عظيمة ضد الآراء والظنون ؛ مناعة حملتهم على نقد كل شىء حتى أحاديث نبيهم ، فأنشأوا ضوابط للرواية ، لم يسبقهم الى مثلها سابق من العالمين ، وصاروا لا يقبلون ما يروى لهم منها إلا سالما من جميع علل الرواية والرواة والمؤلفين .

هذه المناعة نفسها خدمتهم فى أخذهم بالعلوم الطبيعية ، فقد أوسعوها نقدا ، وتمكنوا بذلك من تمحيصها وتثبيتها على قرار مكين .

وهذا كان السبب الرئيسى فى تمهرهم فى العلوم الطبيعية ، وحلولهم مكانة الزعامة منها دون سائر الأمم التى كانت عريقة فيها . وهذه ظاهرة اجتماعية لم يدونها تاريخ البشرية لغير الأمة الاسلامية . ذلك أنه لم يشاهد قط أن أمة تشتغل ، وهى فى دور حماستها الدينية ، بالعلوم المادية ، فضلا عن أن تبز فيها حاملى لوائها بين العالمين .

فان تعجب من هذه الظاهرة الفذة فى تاريخ العقلية الإنسانية ، فان الفضل فيها لتوجيهات

(الحكمة القرآنية) لأهلها من الناحية الثقافية ، ولو كان المسلمون َنكبوا عنها الى الفلسفة اليونانية ، لما بلغوا المكانة التى وصلوا اليها ، ولخلطوا بين المنقول والمعقول خلطا يتعذر عليهم بعده أن يتخلصوا من تبعاته ، ولانحرف دينهم الفطرى عن صراطه ، كما انحرفت الأديان التى سبقته ، ولا ضطروا الى محاولة إصلاحه ، وهذه المحاولة تجر بطبيعتها الى فصم عروة وحدته ، وفى فصمها الشر كله على أهله كما لا يخفى على خبير .

وليس فى بقاء الاسلام نقيا خالصا من الشوائب ، فضل يعود الى شىء غير (الحكمة) التى قرنت به ، فانها أُلفت بحيث تحميه من كل عدوان يوجه اليه ، و حليت من الحوافظ بما يجعله بمأمن من كل انحراف يؤثر فيه ؛ وكان من أقوى هذه الحوافظ سدها الطريق على الظنون والأوهام والتأويلات التى جعلته ينبذ كل فلسفة ظهريا ، ودفعته لتطلب العلم الثابت دفعا حتى جعلت نجاة الآخذ به معلقا عليه . ألم يقل الله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » ؟ أوَ لم يقل أيضا : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ » ؟

ومن آثار (الحكمة القرآنية) فى عقلية المسلمين كراهة أئمتهم أن تُعتبر آراؤهم قضايا مسلمة لدى تلاميذهم ، فنهوهم عن الأخذ بها بدون نقد ولا تمحيص ، فاشتغل هؤلاء التلاميذ بعرضها على الموازين العلمية ، واستدركوا على أساتذتهم فى بعضها ، وأعلنوا ذلك للباحثين .

هذه الحرية فى البحث لم تؤثر إلا عن المسلمين ، وهى من أينع ثمرات (الحكمة القرآنية) التى نعرضها اليوم على الناظرين .

وكان من النتائج الطبيعية لهذه الحرية ، أن اعتبر باب التجديد مفتوحا فى وجوه الناس الى يوم الدين .

رجوع الفلسفة الغربية الحديثة الى أصول (الحكمة القرآنية) :

إذا كان فى القرن العشرين ما يجب اعتباره سموا لا مرتقى بعده للعقل البشرى ، ونضجا لا يخشى عليه معه الانخداع بالأوهام ، فهو ما تحققه هذا العقل نفسه بعد طول مراسه لظواهر الوجود ، أنه لم يصل من حقائقها إلا لذرو لا يسمح له أن يُزهَى به ، وأن يعتبر نفسه بسببه قد وصل الى شىء يحسن به أن يحمد عليه .

وقد صرح بهذه الحقيقة أعلام الباحثين فى الكون ، وقد نقلنا بعض أقوالهم فى مقالنا المنشور بالعدد الرابع من هذه المجلة ؛ ونرى أن نحلى مقالة اليوم بواحدة منها للفيلسوف المشهور هربرت سبنسر الانجليزى منقولا عن كتابه (الأصول الأولية) فى فهم حقيقة الكون ، قال :

« أى وظيفة تؤديها هذه الأصول فى تكوين هذا الفهم ؟ هل تستطيع واحدة منها أن

تعطينا فكرة عن هذا الوجود ، أعنى عن مجموع ظواهر الموجود الذى لم يمكن إدراكه ؟ وإذا اعتبرناها مجتمعة ، فهل تستطيع أن تعطينا فكرة تساوى جلالة هذا الوجود ؟ وإذا رُتبت وجعلت مذهبا ، فهل تستطيع أن تكوّن لنا هذه الفكرة المرجوة ؟ ليس لنا على كل هذه المسائل إلا جواب واحد ، وهو : لا ! » .

***

نقول : فى هذا الدور من التطور البعيد المدى للعقلية الانسانية ، تتفق الفلسفة العصرية و (الحكمة القرآنية) ؛ فاذا طُلب الى المسلمين أن يوفقوا بينهما لمصلحة الثقافة العامة ، فهاهما قد اتفقتا كل الاتفاق فى هذه النهاية المناسبة لسمو المواهب الانسانية .

وأما ما كان يُرجَى أن يقوم به الامام الغزالى من التوفيق بين (الحكمة القرآنية) والفلسفة اليونانية ، فى الوقت الذى كان فيه العقل لا يزال فى درجة الطفولة ، تخدعه العبارات المنمقة ، والألفاظ المبهرجة ؛ والذى كانت فيه الفلسفة مجموعة ظنون وأوهام وخيالات ، فإن ذلك مما كان يعجز عنه الإمام الجليل كل العجز ؛ وكان أجمل موقف يستطيع أن يقفه : هو أن يكافح تلك الفلسفة ويبعد خطرها عن عقلية المسلمين ، كما فعل أسلافه من قبل .

خلاصة القول :

خلاصة القول أن الحكمة القرآنية تأبى قبول أية فلسفة تستند على مجرد الظنون ، فهى تشترط للأخذ بها أن تكون قائمة على (علم) يؤيدها ؛ قال تعالى : «نبئونى (بعلم) إن كنتم صادقين» « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير (علم) » .

و(العلم) فى عرف (الحكمة القرآنية) يجب أن يكون محققا بوسائل التحقيق المتفق عليها ، فان ظفرتْ بشىء من ذلك أسرعتْ الى اقتباسه ، واستنتجتْ منه كل ما يحتمله من ثمرات مادية وأدبية . وهل يرادمنها فى سبيل احترام العلم اليقين ، أكثر من صرف الآيات عن ظواهرها إن ناقضت ما ثبت منه بالدليل المحسوس ؟

(فالحكمة القرآنية) بطبيعة تركيبها ، ومقتضى أصولها ، هى من الضرب الذى اتفق على تسميته حديثا بالفلسفة العلمية ، وهى التى تقرر أنها الفلسفة الحقة التى لا يجوز تجاوز حدودها ، بعد ما ثبت أن مالا يقوم على (العلم) فلا يبعد أن يكون وهما من الأوهام ، وهو ما يجب أن يتقيه الانسان ، وخاصة بعد ما بلغ رشده الفلسفى فى هذا الزمان ؟

محمد فريد وجدى

المدنية المادية

وهل أفلست فى إسعاد البشرية

وفق العلماء فى الثلاثة القرون الأخيرة الى مخترعات كانت مثارا للدهش والاستغراب، فخيل الى الناس أن حلم السعادة المنشودة قد تحقق، وأن البشرية تستقبل عصرا مملوءا بالهناء والرخاء، وأنها لن ترى بعد ذلك بؤسا ولا شقاء، وأن نعيم الآخرة الذى وصف فى الكتب السماوية سيتحقق فى هذه الحياة، فعظم شأن العلم الطبيعى فى أعينهم وسموا هذا العصر بعصر النور، وعنوا بالنور نور المعرفة والعلم، وغفلوا عن أن الذى يفتنهم من هذه المدنية هو الجانب الصناعى، وهو كما ولد الوسائل والآلات المعينة على تسهيل الحياة، وتخفيف الآلام، ولد بجانبها البوارج والمدمرات، والغواصات والطيارات، والقنابل الهادمة والمحرقة، والمهلكات من جميع الأنواع.

هذه هى أهم مظاهر المدنية التى اغتبط بها الناس وظنوا بها خيرا؛ ولكنها لم تحقق الظن فيها، فلم تفتح لهم بابا من أبواب السعادة إلا فتحت عليهم أبوابا من الويلات لم تعهدها البشرية فى تاريخها. فما إن أخذت هذه المخترعات مكانها من الوجود وتميزت وظائفها وتوزعتها الدول كل على قدرها، حتى تجاوبت نذر الحروب، فشهد الناس تلك المخترعات الجهنمية تصب الحديد والنار فى البحر والجو، وفى الأرياف والأمصار، وفى كل بقعة من البقاع، حتى لم يبق بها ملاذ يعتصم به النساء والولدان؛ وأنى يكون ملاذ وقد سلطت الطائرات على الناس تمطرهم بوابل من القذائف بلا تمييز بين محارب ومسالم، وشيخ وشاب، وسليم ومريض، وبلا رقيب ولا محاسب، وسلطت الغواصات والطرادات على مراكب المسافرين وسفن التجارة فى البحار تغرق وتحرق ما تظفر به من غير مبالاة بما تحمل من إنسان أو بضاعة.

وجعلت السيارات تنقل عدد الحرب وعتاده، وتحمل أوزارا من الذخيرة والجنود الى ميادين الحرب أو الى المجازر البشرية التى أحدثتها المدنية المادية، وحولت المصانع بأنواعها الى مصانع حربية، وزاحمت مظاهر الحرب مظاهر السلام، حتى أصبح العالم كله فى تناحر وصيال

كان الناس الى ما قبل ربع قرن يعرفون أن معنى الحرب أن جنود الأمتين المتخاصمتين يقتتلون فى ساحات معينة، فمن هزم خصمه أملى عليه الشروط التى يرضاها، لا أن يصبح جميع أفراد الأمم فى خطوط النار حتى الهرمى والزمنى والنساء والأطفال، وكانوا يعرفون أن هناك معاهدات تحترم، وقوانين حربية لا تنقض، تحترم فيها حياة الزمنى والهرمى والنساء والولدان. ولكننا لم نعتم أن رأينا الحرب قد انقلبت الى تناحر حيوانى بين الجماعات قد أهدرت فيها هذه

النظم ، ثم انقضت تلك الحروب وخلفت الفوضى فى نواح كثيرة بدرجة كبيرة حتى فشا الالحاد والزندقة ، وتدهورت الأخلاق ، فشاع التهتك بين الرجال والنساء ، وتمردوا على العادات الصالحة والتقاليد الكريمة ، وأسىء فهم الحرية ، نخيل لأهل الأهواء أن كل منكر يمكن أن يرتكب باسم الحرية ، وتحلل الناس من الفضائل باسم المدنيـة ، وانعكست موازين الأشياء فى نظر النـاس ، فصار التـدين رجعية ، والاحتياط لصيانة العرض رجعية ، ومراقبـة الأبنـاء فى تربيتهم رجعية ، وهكذا عملت المدنية المادية فى الأمم عمل السوس ينخر فى العظام ، حتى تهدم كيانها ، وانتقض بنيانها ، ثم استفاق عقلاء الأمم على أنات الألم ، وصيحات الفزع من هذه الأحوال ، وحاولوا جبر الصدع ، ورم الرث ، فعقدت المؤتمرات للنظر فيما أعقبه الحرب من هذا التطور الشديد الخطر على الاجتماع ، وعلى السلام العام ، رجاء توجيهه الوجهة النافعة للبشرية .

وفى هذه الأثناء كانت المخترعات تسير فى طريق الإتقان والـكمال ، وكان أسرعها سيرا فى هذا الطريق المخترعات الحربية ، وكان كثير من الأمم فى غفلة عما وراء ذلك التقدم من خطر وشر ، وكانت تعلل النفوس بسلام يطول أمده ويحلو مذاقه ، وبينما تسبح الأمم فى هذا الخيال إذا الحرب الحاضرة تقرعهم قارعتها ، وتقوم عليهم قيامتها ، وإذا هم يسمعون ويشاهدون من الأخطار والأهوال ما يقصر دون وصفه الخيال .

لهذا أجمع العقلاء بعد ما بلوا هذه المدنية المادية وابتلوا بها ، أنها قد أفلست فى إسعاد البشرية ، وذهبوا فى تعليل ذلك مذاهب شتى ، أقربها الى الصواب أن تلك المدنية إنما أفلست لأنها فقدت أهم العناصر للوصول الى هذه الغاية : وهو العنصر الروحى ، أو عنصر الدين ؛ فالمدنية إن لم تنتظم هذا العنصر فلن تصل الى غايتها أبدا . ذلك أن الدين يطهر النفوس من الأدران والأضغان ، ويكسر شرة الأطماع ، ويحرم التطاول والطغيان ، ويزيل الفوارق بين الأجناس والألوان ، وينظم العلاقات بين الأفراد والجماعات ، ويقيمها على أسس العدل والمحبة والتعاون ، ويحرم سفك الدماء إلا بحق ، لا لمجرد الهوى والتسلط ، ويريح النفوس القلقة مما تراه من التفاوت فى الأرزاق والدرجات ، ويندب الى المثل العليا فى الفضائل والآداب . تلك هى بعض مزايا الدين الذى تنبه العقلاء بعد أن صهرتهم المحن وكرثتهم الخطوب الى وجـوب توافره فى بناء المدنية .

وقد يكون مما يؤذن بالخير ويبعث على الأمل فى المستقبل القـريب ، أن شعور هؤلاء لا يزال فى ازدياد . وفى الظن أنه لا تنجلى الظلمات الحاضرة حتى يستتم يقينهم بضرورة الدين كعنصر هام فى مدنية يجب أن يسودها الأمن والسلام ؟

أبو الوفا المراغى

الساعات الرهيبة
فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم

حياة محمد صلى الله عليه وسلم حافلة بالساعات الرهيبة . وماظنك برجل قام يدعو الى التوحيد فى قوم ألفوا عبادة الأصنام ، وورثوا الشرك كابرا عن كابر ؟

كان هذا الرسول الكريم فى قلة من أتباعه وسط جماهير من الطغاة تألبوا عليه ، وكادوا له ، وفعلوا به الأفاعيل .

خرج الى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف فأعرض عنه أشرافهم ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه الى حائط . فلما رأى ما رأى رفع رأسه الى السماء وقال : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، الى من تكلنى ؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى » . فهذه ساعة من الساعات الرهيبة فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم .

فلما استيأس من قريش بعد أن لقى ما لقى من أذاهم ، استنصر أهل يثرب من الأوس والخزرج فنصروه وبايعوه . فلما علمت قريش أنه صار لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنصار ، وأن أصحابه بمكة قد لحقوا بهم ، خافوا من خروجه الى المدينة ، فاجتمعوا واتفقوا على أن يقتلوه ؛ فأزمع الهجرة وأمر عليا أن ينام فى فراشه ، وخرج الى دار أبى بكر ، وكان ما كان من صحبة أبى بكر إياه ، وإقامتهما أياما فى غار بجبل ثور ، ثم خروجهما الى المدينة ، وإرسال قريش سراقة بن مالك فى إثرهما ؛ فكانت هذه من الساعات الرهيبة فى حياة محمد .

ثم كانت الوقائع بين محمد وبين قريش ، وأولها وقعة بدر الكبرى ، حيث أقبلت قريش فى تسعمائة وخمسين رجلا ، فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن معه إلا نحو ثلاثمائة قال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى » . فهذه ساعة من أشد الساعات رهبة فى حياة محمد .

وكانت غزوة أحد ، وكان من حديثها أن اجتمعت قريش فى ثلاثة آلاف تحت قيادة أبى سفيان بن حرب ، وساروا من مكة حتى نزلوا ذا الحليفة مقابل المدينة ، فخرج محمد صلى الله عليه وسلم فى ألف من الصحابة الى أن صار بين المدينة وأحد ، فانخذل عنه عبد الله بن أبىّ المنافق فى ثلث الناس ، ونزل محمد ومن بقى من الشعب من أحد وجعل ظهره الى أحد ، ثم كانت الواقعة ؛ فلما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قامت هند بنت عتبة زوج أبى سفيان فى النسوة اللاتى معها وضربن الدفوف خلف الرجال ، وهند تقول :

ويها بنى عبد الدارْ ويها حماة الأدبارْ ضرباً بكلٍّ بتـارْ

وقتل رجل من المشركين اسمه قمئة مصعب بن عمير حامل راية رسول الله وهو يظن أنه رسول الله ، فقال لقريش : « إنى قتلت محمداً » . ووقع الصراخ أن محمداً قتل ، فانـكشف المسلمون ، وأصاب فيهم العدو . وكان يوم بلاء على المسلمين استشهد فيه منهم سبعون رجلا ، ووصل العدو الى رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، وأصابته حجارتهم حتى وقع ، وأصيبت رباعيته ، وشج فى وجهه ، وكلمت شفته ، وجعل الدم يسيل على وجهه . ثم صعد أبو سفيان الجبل وصرخ بأعلى صوته وقال : « الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، أعل هبل » . فهذه أيضا ساعة من الساعات الرهيبة فى حياة محمد .

وجاء بعـد ذلك نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، فلما فتحت مـكة ، تجمعت هوازن بنسائهم وأولادهم وأموالهم لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانضمت إليهم ثقيف (وهم أهل الطائف) ، وبنو سعد بن بـكر ، وحضر مع بنى جشم دُريد بن الصمة الشاعر الفارسى المشهور فى الجاهلية ، وهو إذ ذاك شيخ كبير قد جاوز المـائة ، ولـكنهم جملوه معهم تيمناً برأيه .

فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم باجتماعهم خرج من مكة وخرج معه اثنا عشر ألفا من أهل مكة وعشرة آلاف كانت معه يوم الفتح . فانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حنين والمشركون بأوطاس ، وقال رجل من المسلمين لما رأى كثرة جيش النبى : « لن يغلب هؤلاء من قلة » . وفى ذلك نزل قوله تعالى : « ويوم حُنَـيْن إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا » . فلما التقوا انكشف المسلمون لا يلوى أحد على أحـد ، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين فى نفرمن المهاجرين والأنصار وأهل بيته ، فنادى عمه العباس فى الناس يطلب إليهم العودة الى الدفاع عن دينهم ونبيهم ، فرجعوا واقتتلوا قتالا شديداً ، فحقت الهزيمة على المشركين ، ونصر الله المسلمين . ففى هذه الوقعة أيضا ساعة رهيبة .

ولـكن أية هذه الساعات أشدها رهبة فى حياة محمد ؟ أهى ساعة تسفيهه وسبه فى الطائف من سفهاء ثقيف ؟ أم هى ساعة خروجه من مكة وقد ترصدوا له ، مجمعين على قتله وإهدار دمه ؟ أم هى ساعة أدركه سراقة بن مالك فى طريقه هو وصاحبه الى المدينة ؟ أم هى ساعة أقبلت عليه قريش بخيلها ورجلها وخيلائها وفخرها يوم بدر ؟ أم هى ساعة أُحد يوم كسرت رباعيته ، وشج وجهه ، وكلمت شفته ؟ أم هى ساعة حنين يوم انكشف المسلمون عنه فثبت حتى أيده الله بنصره ؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال يجب علينا أن نعرف أى رجل من الرجال كان محمد ؟

لم يكن محمد رجلا عظيما وحسب ، ولـكنه كان المثل الأعلى للعظمة ، بل المثل الأعلى للكمال

الإنسانى بأدق معانيه . كان حكيما بل كان المثل الأعلى للحكمة ، وكان مؤمنا بالله بل كان المثل الأعلى للإيمان : كان يغضب لله ويرضى لله ، ويحب لله وفى الله ، ويكره لله وفى الله . كان لا يخشى أحدا إلا الله ، ولا يرهب أحدا غير الله . كان كل همه وقصارى إرادته وعزيمته أن يبلغ الرسالة ، وأن يعلى كلمة الله ، وأن ينشر هذا الدين الذى بعث به رحمة للعالمين .

انظر الى دعائه يوم أغرت به ثقيف سفهاءها وتدبر معانى هذا الدعاء ، قال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، الى من تكلنى ؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى » . فهذا رجل لا يبالى غضب الناس بل يبالى غضب الله ، ولا يستعين بأحد غير الله ، ولا يشكو ضعف قوته وقلة حيلته إلا لله .

ثم انظر الى قوله يوم بدر وقد أقبلت قريش بخيلها ورجالها ، وكبريائها ، وخيلائها ، وليس معه يومئذ من الأنصار والمهاجرين إلا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، ووراءه فى يثرب جمهرة من المنافقين على رأسهم عبد الله بن أبىّ ابن سلول يكيدون له ويتربصون به الدوائر . انظر فيما قال فى هذا اليوم : نظر الى المشركين وما كانوا فيه من قوة فقال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت فى خيلائها وفخرها تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى » ، فلما تزاحف القوم قال : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض ، اللهم أنجز لى ما وعدتنى » .

من عبارة هذا الدعاء نستنتج أن أشد الساعات رهبة فى حياة محمد هى تلك الساعة الرهيبة التى كانت فيصلا بين الاسلام والشرك . إن محمداً كان يخشى أن تهلك هذه العصابة ، ويظن أنها إن هلكت فلن يُعبَد الله بعدها فى الأرض ، فهو لا يخاف الموت والهلاك على نفسه وأصحابه حبا فى الحياة لذاتها ، ولكنه يخاف الموت والهلاك لأن فيهما القضاء على الاسلام وعلى عبادة الله سبحانه وتعالى فى الأرض .

فإذا قال قائل : « أية ساعة هى أرهب الساعات فى حياة محمد ؟ قلنا : هى ساعة الزحف يوم بدر ، وهى الساعة التى أعقبها النصر على قريش ، فكانت فاتحة مجد الاسلام وإيذانا بشروق شمسه ، وأفول نجم الوثنية والشرك أبد الآبدين ودهر الداهرين » ؟

مصطفى عبد الحميد
حقوقى

المتألهون والادب (١)

كان المجتمع العربى قبل الإسلام يعج بألوان متباينة من الفوضى والهمجية، ويطفح بضروب شتى من السفاهة والضلالة، ويفيض بالمخزيات التى تنبو منها العقول السليمة، وتنفر عنها الطباع المستقيمة؛ فمن وأد بنات خوف عار أو فاقة، ومن استباحة محارم تلبية لسلطان هوى متغلب أو شهوة جامحة، ومن معاقرة خمور إشباعا لنفوس متعطشة الى المجانة والخلاعة، ومن شنّ حروب تزهق الأنفس وتبيد الثمرات لقتل جمل أو ناقة، ومن تأليه حجر أو نجم استجابة لمرض فى العقول ونقص فى الحلوم . . . !

وسط هذا الجو المكفهر، وتحت هذه السماء الملبدة بالغيوم، وفوق هاتيك البقاع التى استشرى فيها الفساد، وانتشر الضلال، وعمت الجهالة، وغلبت السفاهة، ورفع الشرك عقيرته، أشرقت شموس الهداية، وسطعت كواكب العرفان فى نفوس آحاد صفت منها العقول، واستنارت الأفكار، ورجحت الآراء، فاهتدت بفطرتها الى أن للكون ربا رفع السماء وزينها بالنجوم، وبسط الأرض وكساها بالنبات؛ فلا ريب أن كان ذلك النفر منبعا صافيا عذبا وسط هذه الصحراء المقفرة التى تتحرق سمائمها، وتتوقد هواجرها .

وقصدنا من هذا الموضوع أن نميط اللثام ونكشف الحجاب عن هؤلاء، وأن نعرض للقارئ صورة صحيحة من أدبهم شعرا ونثرا وحكمة ومثلا؛ وأن نبرز ما حف به الغموض وحاطه الاضطراب، فى أحسن المعارض وأدقها، متوخين التحقيق، ومستمسكين بأوثق المصادر ما وسعتنا الطاقة وواتتنا الجهود؛ وسواء لدينا أكان تأله المتأله من وحى عقل وإلهام طبع، أم من أثر شريعة وهدى سماء .

فمن هؤلاء المتألهين الذين جمعوا بين الشعر والخطابة :

١ — قس بن ساعدة الإيادى .

نسبه : وللمؤرخين هنا اضطراب لم نشهده فى غير قس . وأياما كان فقد أجمع النسابون أنه من إياد؛ وقد كانت قبيلة إياد من القبائل التى اشتهرت بالخطابة والفصاحة وعلوّ الكعب فى اللسن والبيان، حتى ضربت بخطبائها الأمثال . يروى الجاحظ فى صفة خطبائها قول القائل .

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحى الملاحظ خيفة الرُّقباء

(١) يقال : تاله الرجل أى تعبد وتنسك . أوادعى الالوهية، وليس هذا المعنى مقصودا هنا .

ذكر أبو حاتم السجستانى قسا فى المعمَّرين ، وقال : إنه عاش ثلاثمائة وثمانين سنة ، وأدرك النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال المرزبانى : ذكر كثير من أهل العلم أنه عاش ستمائة سنة ، ونقل الأبشيهى فى كتاب المستطرف أنه عاش سبعمائة سنة . تقرأ ذلك فى الكتب ثم تجد الى جانب هذا اختلافا فى صحبته للرسول أوعدم صحبته ، فيقول الذهبى : قس بن ساعدة أورده ابن شاهين وعبدان فى الصحابة . ويقول ابن حجر فى الإصابة : ذكره أبو على بن السكن وابن شاهين وعبدان المروزى وأبو موسى فى الصحابة . وصرح ابن السكن بأنه مات قبل البعثة . وجاء فى سيرة ابن سيد الناس بسنده الى ابن عباس رضى الله عنه قال : « قدم الجارود بن عبد الله وكان سيدا فى قومه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : والذى بعثك بالحق لقد وجدت صفتك فى الإنجيل ، ولقد بشر بك ابن البتول ، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله . قال : فآمن الجارود وآمن من قومه كل سيد . فسر النبى عليه السلام بهم وقال : يا جارود هل فى جماعة عبد القيس من يعرف لنا قسا ؟ قال : كلنا نعرفه يا رسول الله وأنا من بين القوم كنت أقفو أثره : كان من أوساط العرب فصيحا ، عُمِّر سبعمائة سنة ، أدرك من الحواريين سمعان ... الخ . فقال له النبى : على رسلك يا جارود فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل أورق وهو يتكلم بكلام ما أظن أنى أحفظه . . . الخ » .

والذى نرجحه : أنه كان من المعَمَّرين ، ولكنه تعمير معقول يزيد عن المائة ولا يبلغ المائتين ، تلك هى السن التى عرفت للمعمرين ، كما أننا نؤمن بأنه مات قبل البعثة ولم تكن له بالرسول صحبة ، وإن كان رآه هو أو أبو بكر يخطب على جمل أورق بسوق عكاظ حَلبَةِ العرب وميدان سباقهم فى اللسن والبيان .

حياته وعقيدته :

عماد الباحثين فى التعريف بالجاهليين إنما هو أثرهم الكلامى من شعر أو نثر ؛ ونحن إذا رجعنا الى آثار قس بن ساعدة نجدها عاجزة عن تصويره فى أكمل الصور وأجلاها ، لقلة ما وصلنا منها ، ولكونه مرويا على وتيرة واحدة ، وفى غرض واحد وهو الغرض الدينى . وقد ذكر القس السورى الأديب شيخو خبر الجارود بن عبد الله ووفوده على رسول الله من طريق آخر غير الذى ذكرناه آنفا ، قال : قيل إن الجارود بن عبد الله لما وفد فى وفد عبد القيس على الرسول ، وكان سيدا فى قومه ، معظما فى عشيرته ، فأسلم ، سأله محمد : يا جارود هل فى جماعة عبد القيس من يعرف لنا قسا ؟ قال : كلنا نعرفه ، وأنا كنت من بينهم أقفو أثره ، وأطلع خبره : كان قس سبطا من أسباط العرب ، صحيح النسب ، فصيحا ذا شيبة حسنة ، يتقفر القفار ، ولا تكنه دار ، ولا يقره قرار ، يتحسى فى تقفره بعض الطعام ، ويأنس بالوحوش والهوام ، يلبس

المسوح ، ويتبع السُّيّاح على منهاج المسيح ، لا يغير الرهبانية ، مقرا بالوحدانية ، تضرب بحكمته الأمثال ، وتكشف به الأهوال ، وتتبعه الأبدال ؛ أدرك رأس الحواريين سمعان . فهو أول من تأله من العرب ، وأعبد من تعبد من الحقب ، وأيقن بالبعث والحساب ، وحذر سوء المنقلب والمآب ، ووعظ بذكر الموت ، وأمر بالعمل قبل الفوت ، الحسن الألفاظ ، الخاطب بسوق عكاظ ، العارف بشرق وغرب ، ويابس ورطب ، وأجاج وعذب ، كأنى أنظر اليه والعرب بين يديه ، يقسم بالرب الذى هو له ، ليبلغن الكتاب أجله ، وليوفين كل عامل عمله ، ثم أنشأ يقول :

هاج للقلب من هواه ادّكار ... وليال خلالهن نهار
وجبالٌ شوامخ راسيات ... وبحار مياههن غزار
ونجوم يحثها قمر اللي ... ل وشمس فى كل يوم تدار
ضوؤها يطمس العيون وإرعا ... دٌ شديد فى الخافقين مثار
وغلام وأشمط ورضيع ... كلهم فى التراب يوما يزار
وقصور مشيدة حوت الخ ... ير وأخرى خوت فهن قفار
وكثير مما تقصر عنه ... حدسة الناظر الذى لا يحار
والذى قد ذكرت دل على الله ... ه نفوسا لها هدى واعتبار

فقال محمد : يرحم الله قسا ! إنى لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة وحده » .

فذلك الخبر ـ إن صح ـ ولا بعد فى صحته جملة لا تفصيلا ، يعطينا صورة تقريبية عن حياة قس وعقيدته الدينية ، فنقف منه على أنه كان زاهدا فى الحياة راغبا عنها ، ذا بصر بالحياة ودراية بالمجتمعات ، مقرا بالوحدانية موقنا بالبعث والحساب . وقد أخطأ القس شيخو فى عده من شعراء النصرانية ؛ فان خدعه قول الجارود : « ويتبع السياح على منهاج المسيح » قلنا له : ليس لك من هذا بمتمسك ؛ فان ذوى الفطر السليمة كثيرا ما يهتدون بعقولهم الى توحيد الله والإيمان به ، حتى ليظن بهم أنهم يقتفون شريعة من الشرائع . وإنما شبه الجارود قسا بعيسى فى السياح فى الأرض ولبسه المسوح ، وأولى من هذا القول بالاعتبار أنه كان من الحنفاء الذين عبدوا الله على دين إبراهيم دون كتاب يقرأ أو نص يحتذى .

هذا وقد كان قس معظما فى عشيرته وقومه ، فيروون أنه كان يفد على قيصر ويزوره ، فقال له يوما : ما أفضل العقل ؟ قال : معرفة المرء بنفسه . قال : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه . قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحقوق .

أولياته :

يقال : إنه أول من تأله من العرب (١) ، وأول من علا على شرف وخطب عليه ، وأول من قال فى كلامه « أما بعد » ، وأول من قال : البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، وأول من اتكأ عند خطبته على سيف أو عصا ، وأول من كتب من فلان الى فلان .

تلك أوليات ينسبونها لقس ويؤكدون أنه صاحبها . ونحن إذا تأملنا قليلا وجدنا ذلك إسرافا ومبالغة ؛ فليس لأحد أن يقطع ـ مهما أوتى من قوة البحث ـ بنسبة هذه الأمور جميعها الى شخص معين ؛ فمعرفة الخالق أمر لم يخل منه عصر ، وطبيعة الجماهير تحتم على الخطيب أن يعلوعنهم حتى يتبينوه وحتى يستطيع إسماعهم ... الخ . ولكن كثيرا ما تداخل الغفلة المؤرخين فيتقبلون كل خبر دون نقد يعين على كشف الحقائق وينير الطريق لمن بعدهم من الباحثين .

نكتفى فى هذا العدد بهذا القدر مرجئين الى ما يليه الكلام فى أدب قس وحكمته ؟

أحمد ابراهيم موسى
تخصص البلاغة والأدب

(١) تأله معناه تعبد وتنسك . ومن معانيه ادعى الالوهية، وليس مقصودا هنا .

احتمال القادة وتجاوزهم

قال أحد جلساء المنصور له ، وقد أراد عقوبة رجل : ياأمير المؤمنين إن الانتقام عدل ، والتجاوز فضل ، والمتفضل قد جاوز حد المنصف ، ونحن نعيذ أمير المؤمنين أن يرضى لنفسه أوكس النصيبين ، دون أن يبلغ أرفع الدرجتين .

وجرى بين أبى مسلم صاحب الدعوة للعباسيين وقائد من قواده كلام ، فبدرت من القائد كلمة فيها بعض الغلط ، ثم ندم على ما كان منه ، فجعل يتضرع ويتنصل اليه .

فقال له أبو مسلم : لا عليك ، لسان سبق ، ووهم أخطأ ، وإنما الغضب شيطان ، وإنما جرأتك عليّ لطول احتمالى عنك . فإن كنت للذنب متعمدا فقد شاركتك فيه ، وإن كنت مغلوبا فإن العذر يسعك ، وقد عفونا على كل حال .

فقال القائد : أصلح الله الأمير ، إن عفو مثلك لا يكون غرورا . فان عظم الذنب لا يدع قلبى يسكن . وألح فى الاعتذار .

فقال له أبو مسلم : عجبا لك إنك أسأت فأحسنت ، فلما أحسنت أأسىء .

مذاهب العرب فى كلامهم

— ٣ —

طريقتهم فى القول والتفكر

أخذ العرب قسطهم فى القرون الوسطى من العلم والمعرفة ، وانبعث نورهم يضىء الآفاق قريبها وسحيقها ، فأخذت عنهم الأمم تراث الفكر القديم مما خلف الروم وفارس وما ابتدعوه من عند أنفسهم ، ولكن تراث الروم كان بينهم أظهر لتعلق أمرائهم ورؤسائهم بالحكمة والفلسفة ، فترجموا ما وصل الى أيديهم وتفهموه ، ثم شرحوه وعلقوا عليه ، فوافقوا بعضا وخالفوا بعضا ، وجال فى ذلك فلاسفتهم من العرب والمستعربين . هذا الاختلاط فى ثروة الفكر حمل بعض العلماء من المتأخرين على أن يوازنوا بين العرب والروم فى قوة التفكير والتصور ، ولكنهم وضعوا أمامهم صورة البدوى قبل الاسلام ووازنوها بعصر سقراط وأرسطو ووصلوا الى حكم خاطئ قذفوا به فى وجه التاريخ ، فقالوا : ليس للعربى من عمق التصور ودقة التفكير ما لغيره من أمة يونان . غير أن هذه الموازنة تحمل فى أطباقها ظلمها ، فانها لم تعرف من دعم الحق وأسسه ما يجب أن يتوافر فى موازنة سليمة عادلة . فاذا كانت أمة العرب تشبه أمة الروم فى النشأة والبداوة والأخلاق وطبيعة البلاد فانه يجب أن تقوم الموازنة بين عهدين متماثلين رقيا وانحطاطا ، فاذا حكمت أن البدوى فى تهامة ونجد وحجاز واليمن كان ساذجا لا يصل بتفكيره الى أبعد مما يطبق عليه حواسه ، فقل مثل ذلك عن الأثينى والاسبرطى فى إبان الجهالة الأولى ، ولا تحفلن بالياذة هومير وأمثالها فانها لم تنحدر عن كبير فكر ، وبدأت قصة صغيرة لشخص خيالى فأخذ الزمن يزيد فيها فى مراحله المتعددة حتى وصلت الى ما هى عليه ، فهى من هذه الناحية تشبه قصة عنترة . فكلتاهما قد صنعت للكسب والتسلية والإشادة بمفاخر القدماء ، وصيغت فى قوالب من الشعر وبدأت صغيرة ثم كبرت ، وجاءت معانيهما فى الشجاعة التى لم يألف الناس مثلها ، وإن كان هناك بعض الفروق كضخامة الأولى ، ووجود عنترة ، بخلاف بطل طرواده ، كما افترقا فى الأسلوب وفى بعض المعانى مما لسنا بصدد استقصائه هنا ، وإنما يهمنا أن نقول إن ما نسب الى اليونان فى بداوتهم لا يدل على كبير فكر ، ولم تعجز العرب عن عمل مثله .

فإذا اردت أن توازن بين عصرين ناهضين ، ووقعت على عهد سقراط وفيثاغورس وأضرابهما ، فيجب أن تنظر الى عصور العرب التى أنبتت الخليل الفراهيدى وابن الصباح الكندى وابن رضوان المصرى وبنى الحسن وغيرهم من فلاسفة العرب ، وتسلك فى سلكهم من أخذ بتعاليمهم من فلاسفة الموالى كالفارابى وابن سينا وابن طفيل وغيرهم ، فإذا صنعت هذا فإنك واجد للعرب فكرا وحكمة ، وفلسفة ونبوغا ، بل ستجد لهم بجانب الفلسفة اختراعا فى الرياضة

والهيئة والهندسة وقوانين الثقل وعلم الحيل والكيمياء والطب والجراحة والتقطير والتصعيد وتركيب الأدوية والرصد وتخطيط البلدان ، واخترعوا الساعة والبندول والبوصلة وبيت الإبرة ، وأخذ الفرنجة عنهم أرقام الأعداد والجبر والمقابلة ، وغير ذلك مما يدل على أن العرب من الفكر والعلم بمكان كريم . أما العربى قبل الاسلام فلا يطلب منه وهو أمى ضارب فى العراء أن يعلم أو يفكر فى غير ما يحيط به ، فقد كان يفتح عينيه فى الأصباح فلا يجد إلا السماء من فوقه والصحراء من تحته ، وناقته أمامه وسلاحه بجانبه ، فإذا هب فضجيج الرعاء وهمهمة الخيل ورغاء الابل وثغاء الغنم وصريخ الخليط للنجدة أو للمرعى ، فإذا أخذ عدته وضرب فى الصحراء إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، فما الذى يعدل به الى البحث والتفكير والتعقيد والتنقير وحياته قفزة هنا ووثبة هناك ، إن عرّس يوماً فراحل غدا ، وإن رعى الصيف فى وادٍ أكل الشتاء فى آخر ؟ فهو غير مستقر فى عيشه ، غير مطمئن فى تفكيره ، يتنقل به تنقل الحاجة والمكان ، والرؤيا والزمان ، وتبع ذلك طريقته فى القول ، فقد جاء متنقلا من حالة الى حالة ومن مكان الى مكان ، لا يعرف للموضوع وحدة ، ولا للغرض زماماً ، بينما تراه يحدث عن الأرض إذا به يقفز الى السماء لا تربط شعره فكرة ولا تجمع نثيره جامعة ، فهو يرسل من نفسه سورة ما تفرق أمام حسه.

قد يكون ميل العربى الى أن يكون حرا طليقا لا يقيده قيد ولا يحتجزه حاجز من أكبر الأسباب التى جعلته يسلك سبيله ، كما أن ميله الى الراحة الفكرية قد جعله ينحو هذا المنحى ، فإن قيام الفكر على موضوع واحد واحتباسه فيه زمنا يجهده أى إجهاد ، ويبعث اليه السآمة والملل ، وكيفما كان الشأن فى ذلك فان العربى قبل الاسلام يتنقل فى قوله وتفكيره ، فلا يستقر فى مكان ولا تربطه فكرة ، حتى إنه قد يرسل أبياته مستقلة لا يحتاج البيت منها الى غيره فى تمام معناه.

فإذا أردت أن أضرب لك مثلا ، فهذا شيخهم امرؤ القيس قد بدأ معلقته بذكر حبيبته والديار ، وعرج على الليل والخيل ووصف الصيد ، وانتقل الى السماء فأخذ يصف البرق والمطر ، وذكر أبانا وما أحاط به ، وما انكشف السيل عنه ، ولم يعد الى ذكر حبيبته التى ساق القصيد من أجلها ، فهذه النقل الكثيرة والاتجاهات المختلفة تدل على طريقة التفكير عندهم ، ولم ينل هذا التنقل من جودة ما يقولون ، فان الصورة التى يعرضون لها قد تجىء على صغرها واقتضابها من أروع ما يرى الإنسان فى شعر ونثر ، وهذا وصف المرئى لجواده مع اقتصاده فيه قد جاء مضرب الأمثال حتى يومنا هذا ، وليس هذا التنقل فى القول والضرب فيه يمنة وشأمة موقوفا على الشعر وحده ، وإنما النثير قد مشى فيه على غراره ، فالعرب هم العرب ولم يدخل عليهم ما يصرفهم عن طريقتهم . قام أكثم ابن صيفى أمام كسرى فقال : « إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها . الصدق منجاة والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطىء . آفة الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر . حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة .

إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى . من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء . شر البلاد بلاد لا أميرها ، وشر الملوك من خافه البرىء . المرء يعجز لا محالة . أفضل الأولاد البررة . خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة . أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته . يكفيك من الزاد ما بلغك المحل . حسبك من شر سماعه . الصمت حكم وقليل فاعله . البلاغة الإيجاز . من شدّد نفّر ومن تراخ تألف » .

لم يبق لنا الرواة ما يدل على الغرض الواضح من هذه الخطبة . ويظهر أنها قيلت لما اختصت به ألسنة العرب من الحكمة وفصل الخطاب ، فان وفد النعمان لكسرى تكلم فى غير ناحية من فضائل العرب . أما الشعر فى جملته فانهم كادوا يجعلون كل بيت فيه مستقلا كما قدمت ، يبدءونه بالغزل والنسيب أو يصفون الحيوان والطبيعة ، أو يبكون الديار والدمن ، أو يخاطبون النجم والشجر ، الى غير ذلك مما تقع عليه أبصارهم أو ينال تقديرهم ، وقد يطيلون فى ذلك إطالة تملك جمهرة ما يقولون .

وقد يعرضون للغرض فى أبيات قليلة ثم يفرون منه الى نواح أخرى ، كما درجت عليه طبيعتهم المتنقلة التى لا تعرف الاحتباس ، وإنما تتنقل وتستطرد ، وربما لا تعود الى الغرض مرة أخرى ، فرجل البادية ينظر أمامه ويتكلم لا يهمه بعد ذلك أن يقع التناسق وتنسجم الفكرة أو تتفرق الأواصر وتنفك العرى ، غير أن هذا التنقل والوثوب هنا وهناك لم يكن مطردا فى كل ما يقولون منتظما جميع ما ينطقون ، وإنما كان فى جملته يقع فيما يجىء للتسلية والتفاصح أو للمدح والذم أو للوصف والغزل ، أما ما يقع موقع الإرشاد والزهد أو موقع الحماسة والفخر أو يأخذ مأخذ الترهيب والترغيب فإن وحدة الموضوع تدنى أطرافه والتناسق يجمع أشتاته ، وتكون جميع الكلمات للموضوع لباسا ولمعناه غراساً .

وهاهى ذى كلماتهم فى الرشد والحماسة والفخر والزهادة ، مما قال الأعشى والنابغة وزهير وابن كلثوم وغيرهم ، فالقوم كانوا يتنقلون ويتواثبون فى الجلة فيما ليس ذا بال ، فاذا جد الجد وحزب الأمر جعلوا كلامهم فنا واحدا ، وصفا قائما ، وأخذت كل كلمة بحجزة أختها ، وأمسك كل معنى برقبة أخيه . غير أن العلماء والنقاد إنما يبنون أحكامهم بالكثرة القائمة ، والجمهرة الدائرة ، وجمهور كلام القوم فى النقلة والحركة والوثوب هنا والاستطراد هناك ، حتى كأن القصيدة الواحدة تنتظم موضوعات عدة . هذه الحالة قد أورثها العربى أولاده ومن جاء بعده ، فدرجوا عليها ونشأوا فى ظلها ، ونطقوا بمثلها ، فجاءت عباراتهم وأخيلتهم وأفكارهم وتقاربهم وتباعدهم وفق ما ورثوا وعلى غرار ما ألفوا ، فلا تجد منهم من نبا ، ولا من اتخذ له فى القول مذهبا ، قد سلخوا فى ذلك أيام ما قبل الاسلام وعصر بنى أمية حتى كانت الدولة العباسية ؟

محمد ناصف

التجديد والمجددون فى الاسلام

الامام الأعظم أبو حنيفة — دراسات فى مذهبه

الحيل والمخارج والتحامل على أبى حنيفة بسببها :

أخذ بعضهم على أبى حنيفة أنه يجيز الحيل والمخارج ، وأنها أصل من أصول مذهبه ؛ وهذا الكلام على إطلاقه غير صحيح ، فإن من الحيل ما هو محرم فلا يجيزه إمام من أئمة المسلمين ، ومنها ما هو جائز ممدوح ؛ فأما الحيل المحرمة فهى التى يتحيل بها على إسقاط حكم شرعى ، ليصير الواجب غير واجب ، والمحرم حلالا ولو فى الظاهر ، مع أن الله تعالى إنما أوجب الواجبات ، وحرم المحرمات ، لما تتضمن من مصالح عباده فى معاشهم ومعادهم ، فإذا احتال الشخص على تحليل ما حرم الله ، وإسقاط ما فرض الله ، وتعطيل ما شرع الله ، كان ساعيا فى دين الله بالفساد .

لا يوجد أحد من المسلمين يقول بهذا الضرب من الحيل ، فكيف أبو حنيفة قدوة المسلمين ، وإمام الأئمة ، الذى ائتمنه المسلمون ، وعبدوا الله على مذهبه ، وعامل بعضهم بعضا بموجبه ؟ فامام هذا شأنه لا يجيز منها إلا ما يجيزه الشرع ، ولا يحرم منها إلا ما حرمه الشرع .

وهذا الامام محمد بن الحسن تلميذ أبى حنيفة وصاحبه يعبر عن وجهة نظر المذهب الحنفى فى الحيل فيقول : « ليس من أخلاق المؤمنين الفرار من أحكام الله تعالى بالحيل الموصلة الى إبطال الحقوق » . ويقول : « لا بأس بالحيل فيما يحل ويجوز ، وإنما الحيل شىء يتخلص به الرجل من الحرام ويخرج الى الحلال ، فما كان من هذا ونحوه فلا بأس به ، وإنما لا يجوز أن يحتال الرجل فى حق لرجل حتى يبطله ، أو يحتال فى باطل حتى يوهم أنه حق ، أو يحتال فى شىء حتى يدخل فيه شبهة ، وأما ما كان على السبيل الذى ذكرنا فلا بأس به » .

ويقول شمس الأئمة السرخسى : « إن الحيل فى الأحكام المخرّجة عن الامام الأعظم جائزة عند جمهور العلماء ، وإنما كره ذلك بعض المتعسفين لجهلهم ، وقلة تأملهم فى الكتاب والسنة . والدليل على جوازها من الكتاب قوله تعالى : « وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث » . هذا تعليم المخرج لأيوب عليه السلام عن يمينه التى حلفها ليضربن زوجته مائة سوط . وأما السنة فما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب لعروة بن مسعود فى شأن بنى قريظة : « فلعلنا أمرناهم بذلك » . فلما قال له عمر رضى الله عنه فى ذلك ، قال عليه الصلاة والسلام : « الحرب خدعة » . وكان ذلك منه اكتساب حيلة ومخرج من الإثم بتقييد الكلام « بلعل » .

والآثار فى الحيل كثيرة ؛ فأصل الحيل والمخارج فى الشريعة مما لا شك فيه ، ولا يخلو منه مذهب . قال السرخسى : « إن ما يتخلص به الرجل من الحرام أو يتوصل به الى الحلال من الحيل فهو حسن ؛ وإنما يكره ذلك أن يحتال الرجل فى حق لرجل حتى يبطله ، أو فى باطل حتى يموهه ، أو فى حق حتى يدخل فيه شبهة ، فما كان على هذا السبيل فلا يجوز » .

وقال ابن القيم ما مؤداه : إن الأئمة ذموا الحيل ، لأن فيها الاحتيال على إسقاط فرائض الله وإسقاط حقوق المسلمين ، واستحلال ما حرم الله ، ولا يجوز أن تنسب الى أحد من الأئمة ، ومن نسبها الى أحد منهم فهو جاهل بأصولهم ومقاديرهم ومنزلتهم فى الاسلام ، لأن نسبتها الى إمام قدح فى إمامته ، وذلك يتضمن القدح فى الأمة ، لأنها ائتمت بمن لا يصلح للامامة ، وهذا غير جائز ؛ ولا خلاف بين الأمة فى أنه لا يجوز النطق بكلمة الكفر لغرض من الأغراض إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان حقنا لدمه ؛ وهذا على مذهب أبى حنيفة وأصحابه أشد ، فإنهم لا يأذنون فى كلمات وأفعال دون ذلك بكثير ويقولون إنها كفر ، حتى قالوا : لو قال الكافر لرجل : إنى أريد أن أسلم ، فقال له : انتظر ساعة ، فقد كفر ، فكيف بالأمر بانشاء الكفر أو المحرم ؟ فالذين يفتون بالحيل المحرمة ليسوا بمعتدين بمذهب أحد من الأئمة ، وإن الأئمة أعلم بالله ورسوله ودينه ، وأتقى من أن يفتوا بهذه الحيل أو يبيحوا لأحد الإفتاء بها .

وأما الحيل التى خلصت من المحرم ولم توقع فى إثم ، ولم تخالف أصلا شرعيا ، فهى شرعية جائزة . قال الله تعالى : « إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا » . أراد بالحيلة التخلص من الكفار ، أو تخليص المال منهم . وقال تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » . قال كثير من المفسرين : مخرجا مما ضاق على الناس . ومن أمثلة ذلك ما ذكره الإمام محمد بن الحسن عن أبى حنيفة « أنه أتاه أخوان قد تزوجا بأختين ، فزفت كل امرأة منهما الى زوج أختها خطأ ، فدخل بها ولم يعلم ، ثم علم الحال لما أصبحا ، فذهبا الى أبى حنيفة وسألاه المخرج من ذلك ، فقال لهما : هل كل منكما راض بالتى دخل بها ؟ فقالا نعم ، فقال ليطلق كل منكما امرأته التى عقد عليها تطليقة واحدة ، ففعلا ، فقال : ليعقد كل منكما على المرأة التى دخل بها ، ففعلا . فقال : ليمض كل منكما الى أهله » .

قال بعض الأئمة : هذه الحيلة فى غاية اللطف ، فان المرأة التى دخل بها كل منهما كان ذلك بشبهة ، فله أن يتزوجها فى عدتها ، فإنه لا يصان الرجل عن نفسه ؛ وأمره أن يطلق تطليقة واحدة ، فانه لم يدخل بالتى طلقها ، فالتطليقة الواحدة تبينها فلا يملك ردها ، ولا عدة عليها منه ، فللآخر أن يتزوجها .

فهذا هو نوع الحيل التى يقول بها الحنفية ، وهى مخارج من المضايق حقا ، ولا تخالف أصلا من أصول الشريعة ، فلا حرج فى الشريعة ولا ضيق . والآيات والأحاديث الدالة على

ذلك كثيرة . فالحيل عند العلماء على أقسام بحسب الحامل عليها ، فإن توصل بها بطريق مباح الى إبطال حق ، أو إثبات باطل ، فهى حرام ، وإن توصل بها بطريق مباح الى إثبات حق ، أو دفع باطل ، فهى واجبة أو مستحبة ، وإن توصل بها بالطريقة المذكورة الى سلامة من وقوع فى مكروه فهى مستحبة أو مباحة ، وإن توصل بهـا الى ترك مندوب فهى مكروهة ؛ وعلى ذلك فالحيل تعتريها الأحكام الخمسة ، وهى الوجوب والحرمة والاباحة والكراهية والاستحباب.

الخلاصة : أن الحيلة إذا هدمت أصـلا شرعيا ، أو ناقضت مصلحة شرعية ، فهى ملغاة ولا يجوز الترخيص بها ؛ وما ليست كذلك فلا تلغى . فالحيل كما قال بعض المحققين ثلاثة أقسام : ملغاة بالاتفاق كحيلة المنافق فى إظهار الاسلام وإخفاء الكفر ، وغير ملغاة بالاتفاق كمن نطق بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان حقنا لدمه ؛ ونوع ثالث لم يتبين فيه بدليل قطعى إلحاقه بالقسم الأول ولا بالقسم الثانى ، وفى هـذا النوع اضطربت أقوال العلماء وهو محل التنازع بين الحنفية وغيرهم ، ولذا قسمها الأئمة الى الأحكام الخمسة ، فمنها الجائز والحرام والمندوب والمكروه والواجب . أما الحيلة الشرعية فهى ما خلصت من المحرم ولم توقع فى إثم . وأبو حنيفة وأصحابه لا يقولون إلا بهذه الحيل الشرعية ، وبها قال الأئمة ؛ فلا وجهة لمن آخذ الحنفية عليها ؟

السيد عفيفى

آداب السلام

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أطيبوا الكلام ، وأفشوا السلام ، وأطعموا الأيتام ، وصلوا بالليل والناس نيام » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن أبخل الناس الذى يبخل بالسلام » .

وأتى رجل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : عليك السلام يا رسول الله . فقال رسول الله : لا تقل عليك السلام فإنها تحية الموتى ، وقل السلام عليك .

ودخل رجل على رسول الله فقال له : أبى يقرئك السلام . فقال عليك وعلى أبيك السلام .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يسلم الماشى على القاعد ، والراكب على الراجل ، والكبير على الصغير » .

وقال صاحب حرس عمر بن عبد العزيز : خرج عمر فى يوم عيد وعليه قميص كتان وعمامة على قلنسوة لاطئة ؛ فقمت إليه وسلمت عليه ، فقال : مه ! أنا واحد وأنتم جماعة ، السلام علىّ والرد عليكم ؛ ثم سلم ورددنا عليه ، ومشى فمشينا معه الى المسجد .

ودخل ميمون بن مهران على سليمان بن هشام وهو والى الجزيرة ، فقال : السلام عليكم . فقال له سليمان : ما منعك أن تسلم بالإمرة ، فقال ميمون : إنما يسلم على الوالى بالإمرة إن كان عنده الناس .

اثبات الروح الانسانية حسيا

أدلة جديدة على مقتضى الدستور العلمى

نأتى فى هـذا الفصل على طائفة أخرى مما جمعه الأستاذ الكبير ارنست بوزانو مدرس البسيكولوجيا فى جامعة تورينو فى كتابه خروج الروح من الجسد ثم عودتها إليه. وقد وضع هذه الطائفة نفسها بعنوان (حالات تجد فيها الشخصية الانسانية خارج الجسد فى جسم إثيرى) قال:

« إن الحالات المأثورة عن هذه الطائفة من المشاهدات تحدث أثناء النوم الطبيعى أو الصناعى، وتحدث كذلك بتأثير المخدرات الجراحية، وفى أحوال النوم المغناطيسى، وفى أدوار الهذيان المرضى، والإغماء، والنقاهة، والضعف العصبى، والهبوط النفسى الخ. وهى تحدث نادرا فى شروط فيزيولوجية ونفسية عادية.

« فى هـذه الحالة الأخيرة تحدث تلك الظاهرة فى أثناء الراحة التامة للجسم، ولا سيما فى البرهة التى تسبق أو تلى النوم مباشرة. وفى هـذه الحالة يكون الشعور بها مبهما وسريع الزوال . . .

ثم أخذ الأستاذ فى سرد الحوادث المؤيدة لقوله فقال:

« أقتبس هذه الحادثة من مجلة (اللايت) The hight الانجليزية، وهى تدل على الشعور بخروج الروح من الجسم على أثر شم قليل من الكلورفورم. فقد كتب الدكتور (جورج ويلد) لتلك المجلة ما يأتى:

« فى يوم من أيام سنة ١٨٧٤ اضطررت الى استنشاق الكلورفورم، لأتخلص من آلام شديدة أصابتنى بسبب مرور حصاة كلوية من الحالب. فما كدت أشمها حتى انقطع الألم فجأة، ولكنى رأيت نفسى قد انتقلت على صورة روحية الى بعد يقدر بست أو سبع أقدام عن السرير الذى كنت عليه، ورأيت جسمى ممتدا فوقه عادم الحراك وأنا واقف حياله أتأمل فيه.

« هذه الحالة وإن لم تدم إلا بضع ثوان، فانها أقنعتنى بأنى قد شهدت انفصال صورتى الروحية عن جثمانى المادى ».

« فتحدثت فيما أصابنى الى أطباء آخرين ممن يكثرون استخدام الكلوروفورم، فأخبرونى بأنهم كثيرا ماسمعوا من مرضاهم تنويها بمثل هذه الحادثة. فلم أكتف بذلك وقصدت الى مستشفى أمراض الأسنان، فأكد لى أطباؤه بما يؤكده لهم مرضاهم من شهودهم لمثل هذه الحالة ».

« والذى رأيته أن هؤلاء جميعا متفقون على اعتبار هذه الحوادث من الأوهام. ولكنى

أنا لا أستطيع أن أقول مثل ما يقولون ، فقد جربت ذلك بنفسى ، وأنا على علم أكيد بأن هذه الحالة حقيقة واقعية وليست من الوهم المزعوم » .

وكتب الدكتور (فرنز هارتمان) فى مجلة The occult Review سنة ١٩٠٨ ما يلى :

« فى سنة ١٨٨٤ حينما كنت بمدينة كولومبو من جزيرة سيلان ، قصدت صحبة صديق لى ، أحد أطباء الأسنان لاقتلاع سن يؤلمنى ؛ فما كدت أستنشق الكلوروفورم حتى وقعت تحت تأثيره ورأيتنى واقفا خلف الكرسى الذى عليه جسمى . فكنت أنظر الى نفسى وأشعر بأنى أنا على الحالة الطبيعية ، وكنت أميز جميع الأشياء التى حولى ، وأسمع كل ما كان يقوله الموجودون هنالك . ولكنى مع هذا عندما حاولت تناول إحدى الآلات الموضوعة على المنضدة الصغيرة المجاورة للكرسى ، لم أفلح فى محاولتى ورأيت أصابعى تخترق الآلة .

« حصل بعد هذه الحادثة أن روحى انفصلت عن جسمى الطبيعى مرات ، وكان ذلك يحدث على ضربين مختلفين : أولهما كان يحدث مع بقاء جميع خصائصى الواعية فى جسمى المادى ، فكنت أرى جسمى الأثيرى ماثلا أمامى الى جانب سريرى . وثانيهما كان يحدث مع انتقال جميع خصائصى الواعية الى جسمى الأثيرى ، وفى هذه الحالة كنت أرى جثمانى المادى ممددا فى السرير ولا حراك به .

« ولم يحدث أنى انتقلت فى أثناء حدوث هذا الانفصال الى مسافات بعيدة ، أو على القليل أنى لم أحفظ فى ذاكرتى ذلك . ومع هذا فهذه المشاهدات تكفى فى إقناع من تحدث له بأن للانسان جسما أثيريا يصلح أن يقوم بنفسه مستقلا عن جسمه المادى .

« قد تتوجه الى الذى يتكلم فى أمر هذا الانفصال الروحانى عن تجربة شخصية ، إنكارات غير مستندة الى دليل ، من الذين لم يوفقوا الى مثلها ؛ فهذه الانكارات لا قيمة لها ، ولا ينبغى أن يلتفت اليها بحال من الأحوال ، كما لا ينبغى أن يعتد بانكار من لم يروا قط الخطوط الحديدية فيحاولون أن يدعوا استحالة وجودها » .

بعد أن سرد الأستاذ بوزانو المشاهدات التى تقدمت قال :

« قبل أن نسرد الحالات التى تشتمل على حوادث من الكشف والنظر من بعد ، يحسن بنا أن نورد مشاهدتين أخريين مشابهتين للتين تقدمتا ، ولكنهما أكثر دلالة على صحة الرأى الذى نؤيده هنا . فأقتبس المشاهدة الأولى من جريدة جمعية المباحث النفسية اللوندنية لسنة ١٩٢٩ وقد حصلت فى أثناء الحرب العالمية الماضية ، وقد أرسلها الذى حدثت له الى الأستاذ أوليفرلودج وهو الذى تولى نشرها بالجريدة المذكورة آنفا . قال صاحب المشاهدة وهو من المحاربين فى الحرب الماضية :

« تركنا (مونشييه) بعد الظهر ، وبعد أن سرنا سيرا مضنيا فى طريق موحلة اختلطت

حمأتها بذائب البرد حتى لا يستطيع الانسان أن يتقى فيهـا الزلق ، وصلنا الى (بومتز) من الميدان الفرنسى ليلا . ثم عاودنا السير بعد فترة قصيرة من الراحة قاصدين (ويللى) على خط النار ! وهناك دخلنا فى خندق متعرج خضنا منه فى ماء ووحل ، وكان طوله نحو ميل نخيل الينا أنه غير محدود . وكانت حمأته تصل الى ركبنا ، وفى تلك الأثناء كان ينفح وجوهنا البرد باستمرار ، فـكنا والحالة هذه متأثرين بالـبَرْد الى مخ عظامنا . وانتهينا أخيرا الى خط النار، حيث دعينا لانجاد أورطة فرنسية فـكنا فى أسوأ الخنادق حالا ، لم يتعهده أحد باصلاح منذ شهور ، وكان قد انهار فى نواح كثيرة منه فلم يكن يحمى رءوسنا من نار العدو . فـكان من جميع جهاته يشبه حفرة تجمعت فيها أبوال الحيوانات . فصدر الأمر الى هـ . والىّ أن نتولى الحراسة فيه . وكنا من فرط الاعياء بحيث لم نجد من نفسنا القوة على ندب سوء حظنا . وكنا مع ذلك جياعا ولا نملك ما نأكله ، ولا نقوى على إيقاد نار للاصطلاء بها ، وليس لدينا وعاء نسخن فيه ماء لأنفسنا ، ولا نجد قدر أصبع من أرض جافة لأجل أن نجلس عليها ، ولا ملجأ نخدع فيه جوعنا بتدخين قليل من التبغ . فـكنت أنا وهـ . متفقين فى الرأى على أننا ما كنـا لنتصور أن آلاما كالتى منينا بها تتأتى أن تجتمع على كائن حى ، وكنا قد ذقنا ليالى من العذاب لم تطف بخيال أحد .

« مرت علينا ساعات فى هذا الموقف الهائل ، وإذا بتبدل ذريع حدث فى حالتى لم أكن أتوقعه : فقد شعرت مفاجأة شعورا مطلقا بأنى خارج جسمى ، وتأكدت بأن أنيتى الحقيقية ووعيي وروحى — ولا عبرة بالألفاظ — قد تحررت كل التحرر من جسمى المـادى ، فكنت أتأمله من الخـارج وهو مهين ، وعليـه بذلة سنجابية ضاربة للخضرة ، ولـكنى كنت أتأمله بعدم اكتراث ، وأقول فى نفسى إنى مع علمى بأن هذا جسمى فلا يوجد شيء يجعلنى أشاطره العذاب الذى هو فيه ، وكنت أنظر اليـه كأنه جسد إنسان غيرى . وكنت أعلم أن جسمى هو الذى كان واقعا تحت هذه الآلام العنيفة ، ولـكنى أنا ، أى روحى ، فما كنت أشعر بشيء .

« وقد ظهر لى طوال المدة التى مكثتها على هـذه الحالة بأن ما حدث أمر طبيعى محض . ولـكنى لما عدت الى جسدى أدركت أنى شهدت أعجب تجربة فى حياتى . فلا شيء بعد هذا يستطيع أن يزعزع عقيدتى المطلقة ، واقتناعى التـام ، بأن روحى فى تلك الليـلة الجهنمية قد انفصلت انفصالا مؤقتا عن جسدى » . (يتبع)

نقول : إننا ننشر هذه المشاهدات بحسب ترتيبها فى كتاب الأستاذ (بوزانو) ، وقد اعتاد العلماء أن يتدرجوا من القوى الى الأقوى فى الدلالة ؟

محمد فريد وجدى

الطلاق

مشروعيته فى القانون المقارن

إن من الأمثلة البارزة التى يمكننى أن أدلل بها على أن التشريع الاسلامى هو تشريع قائم بنفسه وغير مأخوذ عن القانون الرومانى، هو تباين التشاريع المختلفة العظيم فى مشروعية الطلاق. وإننى سأنهج فى بحثى هذا المنهج الذى سلكته فى أبحاثى السابقة تماما، أى أننى سوف أبحث عن مشروعية الطلاق فى (١) القانون الرومانى (٢) فى القرون الوسطى (٣) فى فرانسا إبان الثورة الافرنسية (٤) فى فرانسا فى الوقت الحاضر (٥) عند العرب فى الجاهلية (٦) فى التشريع الاسلامى.

(١) الطلاق فى القانون الرومانى :

كان النكاح يقسم عند الرومانيين الى قسمين: نكاح مع السلطة، نكاح دون ما سلطة. (١) أما فى النكاح مع السلطة Mariage cum manus فان المرأة كانت تحت سلطة زوجها كأحد أولاده سواء بسواء، لذلك لم يكن لها أى وسيلة للتخلص من زوجها. أما الزوج فانه يقدر أن يطلق امرأته، وذلك بأن يضع حدا لسلطته وسلطانه عليها «مانوسى manus»، بأن يتبع نفس الأسلوب الذى أدخلها به تحت سلطته. (٢) أما فى النكاح دون ما سلطة mariage sine manus الذى كان يعتبر كحياة فعلية نجمت عن رضا الطرفين فقط، فان النكاح يتلاشى بتلاشى هذا الرضا، وذلك إما أن يكون برضا الطرفين، أو أن يكون برضا أحدهما سواء أكان الرجل أم المرأة، وهذا الطلاق يحصل دون وساطة القضاء، فللإنسان أن يتزوج وأن يطلق بكل سهولة، حتى إنهم أساءوا استعمال هذا التشريع فى باكورة الحكم الامبراطورى، حتى إن النساء ـ كما قال أحد المؤرخين ـ كن لا يؤرخن السنين بأسماء القناصل كما كان عليه الأمر من قبل، بل كن يحصين السنين بأسماء أزواجهن (١).

أما (أوغست) الذى كان لا يألو جهدا لمحاربة قلة السكان فانه كان يجبر من يريد أن يطلق زوجه أن تبلغه ذلك أمام سبعة شهود. أما إبان حكم جوستنيان فإنه كان يوجد أربعة أنواع للطلاق: (١) الطلاق برضا الطرفين، (٢) الطلاق لأسباب شرعية كالعقم والعنة، (٣) الطلاق كعقاب لأحد الزوجين؛ وفى هذا النوع كان للرجل حالات أكثر من الحالات التى يمكن للمرأة أن تطلق بها الرجل؛ فالرجل يمكنه أن يطلق امرأته إذا ذهبت دون إذنه الى الحمام أو أكلت بصورة علنية أو ذهبت الى الملعب cirque مع أجنبى، أو ارتكبت الزنا؛ أما المرأة فانها يمكنها أن تطلق زوجها إذا دخل فى مؤامرة ضد سلامة الدولة، أو إذا زنى فى منزل الزوجية أو على الأقل فى البلدة التى تقيم فيها امرأته؛ (٤) الطلاق دون ما سبب. وفى هذا

---

(١) فوانى. القانون الرومانى ص ٧١

النوع يجوز لأحـد الزوجين أن يطلق الآخر حتى ولو لم يكن هناك سبب شرعى أو غيره ، فالطلاق وإن كان صحيحا إلا أنه يوجب عقوبة على من يريد إيقاعه على الزوج الآخر (١) .

(٢) الطلاق فى القرون الوسطى :

كان النـكاح عند الجرمانيين يحصل بشكل بيع : فالزوج يشترى المرأة من أبيها . وهذا البيع كان حقيقيا فى بادئ الأمر ، ثم صار بشكل رمزى ، وللرجل أن يطلق امرأته متى أراد ، ثم صار الطلاق يستعمل برضا الطرفين .

تأثير الـكنيسة : إن الـكنيسة عملت منذ البداية ضد مشروعية الطلاق ، وإن هـذا الأمر يعود منشؤه الى كلام صادر عن المسيح عليه السلام . قال مسيو (بلانيول) (٢) أحد أساطين وجهابذة القانون فى فرنسا : « لقد حصل خلاف بيّن بين الإنجيليين على ذلك : فإن القديس متا يجيز الطلاق فى إنجيله إذا كان سبب ذلك الزنا ، ولـكن القديس مرقس والقديس لوكا لا يجيزانه مطلقا ، وإن كثيرا من البابوات كانوا فى سحابة قرون عديدة منهم (ترتوليتان) يجيزون الطلاق أخذا بنص القديس متا ، ولـكن مبدأ عدم تلاشى النكاح المطلق فاز بصورة نهائية فى العصر الثانى عشر ، حتى إن كراتيان ، وبير لومبارد ، قررا أن الطلاق لا يجوز حتى مع ثبوت الزنا » .

ولـكن كان يوجد ما يلطف هذا المنع : (١) أن القانون الـكنسى كان قد نظم التفريق الجسدى بين الزوجتين Separation de corps إذا أصبحت الحياة الزوجية غير ممكنة بينهما، وبذلك يعيش الزوجان متباعدين ، ولـكن العلاقة الزوجية تبقى قائمة الى أن يموت أحدهما (٣) ، فالمرأة كانت بصورة خاصة تستفيد من ذلك لأنها يمكنها أن تطلب التفريق الجسدى فى كل الأحوال، أما الرجل فإنه لا يستطيع أن يطلب ذلك إلا إذا زنت امرأته ، (٢) أن كثرة الأسباب المبطلة لعقد النكاح ـ وبذلك يصير النكاح كأنه لم يكن ـ والتى كان القانون الـكنسى يقبلها ، كانت تلطف فى بعض الأحيان عواقب هـذا المنع ، ولـكن هـذا التلطيف كان غير تام لأن أسباب بطلان النكاح كانت تعود الى أسباب سابقة أو مقارنة للعقد ، كعدم حصول الرضا أو الإكراه على الزواج . أما ما يحصل بعد العقد كالزنا وغيره فإنه لا يؤثر عليه قط .

(٣) الطلاق فى فرنسا إبان الثورة الافرنسية :

لقد ذهب رجال الثورة فى سنة ١٨٩١ الى مشروعية الطلاق ، وألغوا التفريق الجسدى لأنه يعود الى منشأ دينى ، فقد جاء فى مقدمة القانون « أن الطلاق ناجم عن الحرية الشخصية ، والعقد الذى لا يمكن تلاشيه يكون مضيعا وحاجزا لهـذه الحرية » . وكان الطلاق فى هذا

(١) موجز دالوز ، القانون الرومانى ج ١ ص ٢٢٥
(٢) بلانيول ، القانون المدنى ج ١ ص ٣٦٧
(٣) موجز دالوز ، تاريخ القانون الافرنسى ص ١٧٧

العهـد يتم إما برضا الطرفين ، أو لسبب معين ، كأن يرتكب أحدهما خطأ تجاه الآخر ، أو أن لا تتوافق طباع الزوجين وأمزجتهما . ثم ذهبوا الى أكثر من ذلك فى التساهل فصدر مرسوم سمح بموجبه لضابط الأحوال المدنية أن يلفظ الطلاق إذا شهد ستة شهود بأن الزوجين يعيشان متباعدين منـذ ستة أشهر على الأقل . أما فى القانون المدنى الافرنسى الصادر سنة ١٨٠٤ فان المشرع قد وضع كثيرا من القيود للحصول على الطلاق ، فانه قد نص على أن لا يتم الطلاق إلا بواسطة القضاء ، ووضع شروطا وقيودا كثيرة يتطلب الراغب فى الطلاق عدة سنين للوصول الى تحقيقها ، وقد حدد له أسباب معينة منها الزنا ، والحكم على أحد الزوجين بعقوبة شاقة ، وسوء العشرة ، إلا أنه مع ذلك كله أجاز الطلاق إذا رضى الطرفان بذلك .

أما فى سنة ١٨١٦ فان الطلاق قد منع ولم يبق مسموحا إلا بالتفريق الجسدى .

(٤) الطلاق فى فرانسا فى الوقت الحاضر :

لقد بذلت جهود عدة لإعادة الطلاق فى سنة ١٨٣٠ ، ١٨٣٤ ، ١٨٤٨ ، ١٨٧٦ ، وكان الإخفاق رائدها ، ولم تتم الموافقة على إعادة الطلاق إلا فى سنة ١٨٨٤ ، وقد قيد المشرع الطلاق بقيود عـدة ، وأجازه لأسباب معينة ؛ وهى (١) زنا أحد الطرفين (٢) الحكم على أحد الزوجين بالسجن : كالحكم بالاعدام أو الأشغال الشاقة أو النفى أو الحبس (٣) سوء العشرة كحبس وحجز أحد الزوجين للآخر (٤) Injures graves الاهانة العظيمة كالشتم والاهانة باللفظ أو بالكتابة ، وتعاطى السكر الدائم والعلنى ، وتعاطى الميسر إذا كان ذلك قد يسبب إهانة للزوج الآخر ، والامتناع عن القيام بالواجبات الزوجية ، والنشوز .

أما القيود الأخرى فهى أن يقدم الزوج الراغب فى الطلاق عريضته بنفسه حتى إنه إن كان ما يمنع عن ذلك ينتقل رئيس المحكمة الى منزله ، وأن يحاول رئيس المحكمة بنفسه للتوفيق والصلح بينهما ، ويقرر فى الحال السماح للزوجين بعدم السكنى معا ، ويعين للزوجة المنزل الذى يجب أن تقطن فيه ، وينظم حياة الأولاد ، وما الى ذلك من أمور ، حتى إنه للمحكمة بعد ختام المحاكمة أن تؤجل الحكم ستة أشهر عسى أن يحصل الصلح بينهما . لقد رأى المارشال « بيتان » أن الوسيلة الوحيدة لإنهاض فرنسا بعد كبوتها هو إصلاح نظام العائلة ، لأن الوطن الأصلى مركب منها فلم يأل جهدا فى سن التشاريع الجديدة فى شتى المناحى لإنهاضها من عثرتها فأذاع راديو الشرق باللغـة الافرنسية فى ١٢ / ٤ / ١٩٤١ أنه صدر قانون فى الجريدة الرسمية يمنع بموجبه تقديم طلب الطلاق قبل مضى ثلاث سنين على عقد النكاح ، وأنه يجب على القاضى بعد تقديم الطلب أن يسعى للصلح بين الزوجين مرتين بين كل مرة سنتان ، أى يجب أن لا يحصل السير فى الدعوى إلا بعد مضى سبع سنين على النكاح ، وأمر أن تكون دعاوى الطلاق سرية بعد أن كانت علنية لأنها تضر بالأخلاق ؟

« يتبع »

فخر الدين الصاحب

من وحى الشريعة الخالدة

كلما اطلع الباحث فى آفاق هذا المجتمع وما يجد فيه من أحداث وعبر ، وما يطالعه من عظات ونذر ، وجد كل ما ينشده من حلول لما استغلق عليه ماثلا فى وحى الشريعة وأخلاقها .

فوحى الشريعة وأخلاقها وآدابها فى كل عصر وجيل هو المعقل الحصين ، وهو الركن الركين ، لا بل هو المنهل العذب الذى تصدر عنه البشرية منذ فجرها الأول ، وهو الهدى المضىء إذا عميت السبل على الحكماء ، وشملت الحيرة قلوب أهل الخبرة .

والإنسان بما وقر فيه من غرائز حادة وعلل متضادة ، مفطور على الشد النوعى . ومن أجل ذلك جاءت الشريعة فى وحيها وحوافزها خير مطهر للإنسانية من درنها ، وطائح بلوثاتها وأكدارها .

وشر ما يبدو فى الانسان شهوة الجدل والمراء ، وقد نعاها الله على الانسان فقال جل ثناؤه : « وكان الانسان أكثر شىء جدلا » . فالجدل والمراء من خلائق الانسان ، وخير الموفقين فى الظفر بالمقصود ونيل المدد المنشود ، أولئك الذين حاسبوا شهواتهم فى الجدل والمراء ، ثم تحاكموا معها الى العقل الراجح والرأى المكافح ، وأجالوا عيون بصائرهم الى ما فى الأفق الاجتماعى من محاسن ومفاخر ثم جعلوها لهم أهدافا ، واتخذوها من دون غيرها أكنافا . هذا الفريق من الناس بلغ شأوا فى الكمال مرموقا لا يكاد يصل بين حلقاته فى سلسلة مترسلة إلا كان خليقا بالاطراء والحمد والثناء والرشد .

وليس الجدل والمراء إلا ظاهرة هجينة فى آفاق هذا المجتمع . وكثيرا ما أفسدت تلك الظاهرة على المصلحين ميولهم ، وقذفت بكثير من المشاريع النافعة فى أتون من الأحقاد والإحن والسخائم ، وعجز طلاب الإصلاح عن الاستمرار فى مرتجلاتهم أحيانا وأبوا استئنافها أحيانا . وكثيرا ما فاضت القلوب الخيرة بشتى الاتجاهات فى طرائق الإصلاح ومسارب الجد ولكنهم خافوا أن يقوم حول اتجاهاتهم جدل أو مراء ، وأن يعصف الجدل والمراء بتلك المشاريع النافعة ، وهو أعصى ما يقف فى طريق المصلحين من عقبات . وليس الجدل والمراء إلا معولا حادا من معاول هذا الكون ، وسوسا ينخر فى عظام بنيانه .

ولقد عنى علماء الأخلاق وفقهاء المجتمع بأمراضه كالعلامة المحقق ابن حزم ، والعلامة الغزالى ، والباحث الثبت ابن رشد ومن إليهم ، فخلص العلامة ابن حزم بعد بحوث مستفيضة الى أن الجدل والمراء عيب خلقى أحرى بالعقول المثمرة أن تتضافر على مناهضته والقضاء عليه بما لا يدع منه أثارة بين طلاب الاصلاح ورواد الهدى .

ولعل قصة ابن أبى السائب رضى الله عنه شريك النبى صلى الله عليه وسلم فى فترة من فترات تجارته تلقى على قلوبنا قبسا من نور ، فنتبين منها كيف كان الرسول الأعظم يجانب تلك الخلال ، ويتأسى بخلقه عنها ؛ فقد روى أبو داود فى صحيحه عن ابن أبى السائب أنه قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فجعلوا يثنون على ويذكروننى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أعلمكم به ، قلت : صدقت بأبى أنت وأمى ، كنت شريكى ، كنت لا تدارى ولا تمارى » .

وأخرج الترمذى فى صحيحه عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا ، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا ، وببيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه » .

فالجدل والمراء لوثة أخلاقية تتجافى عنها أخلاق الكرام وتأباها الخلائق الرضية .

أما أن الجدل والمراء ظاهرة من ظاهرات العلوم الآلية يتسلح بها العلماء الآليون لقهر خصومهم فى قضاء أوطارهم ابتغاء مجد منشود وصيت ممدود ، وأن العلماء خلقاء بما يسميه الأخلاقيون جدلا ومراء ، وما يدعونه فيما بينهم حمدا وثناء ، وتحقيقا للمناحى العلمية التى لا تخلص الى النفوس إلا بالجدل ، فمبحثه فرصة سانحة ، فإلى الغد ؟

عباس طه

دفع الخطأ عن الصواب

أرسل إلينا فضيلة الأستاذ الشيخ عبد اللطيف السبكى ملاحظة على ملاحظة جاءت فى حقه بمقال لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد المدنى ؛ فلم نتمكن من نشرها فى العدد التالى لتزاحم المواد ثم اضطررنا لتلخيصها تفاديا من ارجائها ثانية . وقد جاء فى التلخيص هذه العبارة : « ونسب إلينا أننا اقتبسنا فيه بالنص ذلك الخطأ البين » وهى فى السطر السابع من صفحة ٣١٥ من العدد السابق .

فكتب إلينا فضيلته يقول إن هذه العبارة ليست من كلامه لأنه لا يعتبر الرأى الذى توافق فيه هو والأستاذ احمد بك أمين خطأ . فرأينا أن نستدرك ذلك بهذا البيان .

***

وجاء فى العدد السابق أيضا ص ٢٦٧ س ٥ :

والعمرة هى الطواف بالبيت فى غير وقت الحج ، وصوابه أنها الطواف بالبيت مطلقا .

زيارة دولة رئيس الوزارة

لمعهد شبين الكوم

لما شخص حضرة صاحب الدولة حسين سرى باشا رئيس الوزارة الى شبين الكوم ، تفضل فزار المعهد الدينى ، فاستقبل هنالك بما يليق بمقامه الكريم ، وألقى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الموقر الشيخ عبد الجليل عيسى شيخ المعهد كلمة ترحيب بدولته ، نثبتها هنا ، ونعقبها بما دار بين دولته وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام من تلغرافى الشكر المتبادل .

قال فضيلة الأستاذ شيخ المعهد :

يا صاحب الدولة :

يشرفنى أن أرحب بدولتكم فى هذا اليوم المبارك ، ترحيبا يتناسب وشرف القصد من اختصاصكم المعهد بهذه الزيارة الكريمة دون سائر المعاهد فى هذا الإقليم ، فان شعارنا معاشر العلماء رد التحية بأحسن منها ، وسبيلنا الاعتراف بالفضل لذوى الفضل .

يا صاحب الدولة :

تفضلتم فخصصتم معهد شبين الكوم بزيارتكم ، وهى ظاهرة طيبة تدل على أنكم تترسمون خطا صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم « فاروق الأول » فى احترام رجال الدين ، وفى الحرص على تعرف أحوالهم ، وفى الحدب على مجاملتهم . واسمحوا لى يا صاحب الدولة أن أقول : إنهم جديرون بهذا التكريم ، وخليقون بهذا العطف ، فهم حملة كتاب الله ، وهم طلبة العلم الشريف ، وهم رمز القومية فى هذا البلد الأمين .

يا صاحب الدولة :

وسط مشاغلكم الكثيرة فى هذا الوقت العصيب ، تريدون أن تؤدوا واجبكم فى تعرف حال الناس ، وفى الاتصال عن كثب بنواحى الحياة المختلفة فى أنحاء البلاد ، لتكونوا على بينة من أمر من ولاكم الله أمرهم ، وطالبكم بالعمل من أجلهم ؛ وهو شعور طاهر ، وخلق كريم ، وأمانة فى الواجب ؛ وقد كان هذا سبيل الولاة ، وطريق الحكام ، حين كان الولاة والحكام يراقبون الله فى عباد الله ؛ سهروا الليالى ، وقطعوا الفيافى ، باحثين ومنقبين عن حاجات الناس ، وأحوالهم ، وآلامهم ، وآمالهم ، ثم وضعوا العلاج ، ورسموا طريق الإصلاح ، فكانوا ألصق بالنجاح ، وأقرب الى التوفيق .

يا صاحب الدولة :

هذا المعهد الذى يتشرف اليوم بزيارتكم ، حديث عهد بالوجود ، فلقد أنشئ منذ أربع

سنوات ، ولا يدهشكم ما قد ترون فيه من إعداد كامل ، ونظام شامل ، فهو ثمرة من ثمرات عهد الملك الصالح « فاروق الأول » حفظه الله . فإلى جلالته يرجع الفضل كله فى شد أزر صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، شيخ الجامع الأزهر ، ذلكم المصلح الفذ ، الذى يعمل لخير الأزهر ، ولخير الوطن ، بروح صادقة وقلب مخلص ؛ وهو فوق أنه مفطور على حب الخير ، وحب الإصلاح ، يستلهم ملكا عظيما ، يحب الخير ، ويحب الإصلاح ، ويحب أهل الخير ، وأهل الاصلاح ؛ يشجعهم ، ويرضى عنهم ، ويقربهم ، ويحسن إليهم .

يا صاحب الدولة :

أعود فأكرر الشكر لدولتكم على هذه الزيارة الكريمة ، وأرجو أن تتقبلوا الشكر منى ، ومن حضرات إخوانى علماء المعهد ، وأبنائى الطلاب .

وسنذكر دائما أن حضرة صاحب الدولة حسين سرى باشا حين شرف شبين الكوم ، اختص المعهد الدينى بزيارته ، فسجل بذلك حبه لرجال الدين ، وتشجيعه لطلاب العلم الدينى ، وفى ذلك تقرب الى الله . ومن كان هذا شأنه ، فأولئك هم المفلحون ، إن شاء الله .

صورة البرقية

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر بالقاهرة .

سررت مما شاهدته اليوم عند زيارتى للمعهد بشبين الكوم ، وأنتهز هذه الفرصة لأعبر لفضيلتكم عن شكرى لحضرات شيخ المعهد والأساتذة والطلبة ، وعن خالص تهنئتى لفضيلتكم .

امضاء

حسين سرى

صورة خطاب الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

صاحب الفضيلة الأستاذ شيخ معهد شبين الكوم .

السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد : فقد تلقيت البرقية المرسلة صورة منها مع هذا من حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء ، ويسرنى أن أبعث بها إليكم لتعلنوها لحضرات الأساتذة والطلاب مع سرورى وتحياتى .

والسلام عليكم ورحمة الله .

امضاء

محمد مصطفى المراغى

of dissolution of marriage, the husband can retain no part of the wife's property, including her ante-nuptial settlement; and, if the administration of the wife's estate was entrusted to him, he must render the wife an account of such administration. Her property is in fact jealously guarded on all sides, and no restrictions are placed on the individual right she has in her belongings. She possesses the right of dividing and alienating her property, and this right of alienation is in regard, not only to her husband but to every body else. She can sue her husband, as she can sue her other debtors, in the open court. She does not require her husband or father, to represent her at law. She can act as an executive and can enter into any contract independently.

A Moslem wife retains her distinct individuality even after marriage, and she never assumes her husband's name. Coverture has no place in the marriage of Islam.

Marriage under Islam is but a civil contract, and not a sacrament, in the sense that those who are once joined in wed-lock can never be separated. It may be controlled, and under certain circumstances, dissolved by the will of the parties concerned. Public declaration is no doubt necessary, but it is not a condition of the validity of the marriage. Nor is any religious ceremony deemed absolutely essential. Two witnesses are required to attest that the contract has been concluded [1].

---

(1) The whole history of the Christian laws, of marriage and divorce, furnishes a very interesting and instructive reading to a Moslem jurist: for, he perceives, perhaps not without a feeling of just pride, that his Christian brethren are coming nearer to Islam, at least in their conception of marriage and the relations to which it gives rise. In all European countries, the laws relating to marriage and divorce have been revised and recast, and the changes introduced, when examined will be found to exhibit in some of their broad features, a very close analogy to the Islamic laws, framed several centuries before. Thus, in Germany, for instance, the code of 1900 recognises civil marriages alone. 'It is effected by the declaration of the parties before a Registrar, in the presence of each other, of their intention to be married. Two witnesses of full age must be present. The Registrar asks each of the parties whether he or she will marry the other, and on their answer in the affirmative, declares them duly married, and enters them in the register. The marriage must be preceded by a public notice.' Dissolution of marriage has long been recognised in Germany and the United States of America. In England, divorces were very rare till 1857, when the powers exercised in matrimonial matters by the house of Lords, the Ecclesiastical Courts of Common Law were transferred to a lay court termed, 'The Court for Divorce and Matrimonial Causes,' and constituted for the administration of all matters connected with divorce. In France, a similar change came about in the year 1884. In Italy divorces are still almost unknown.

the other half by leading a virtuous life in constant fear of God."

That Islam viewed marriage as means of procreation, and not for gratification of sensual desires, is clear from a short but pregnant saying of the Prophet : "Marry and generate." On another occasion he said : "Marry a woman who holds her husband extremely dear, and who is richly fruitful."

The Prophet advised great circumspection in the selection of the bride, and even permitted that the intended bride be seen, before her betrothal, by him who seeks her hand, lest a blunder in choice or an error of judgment should defeat the very end of marriage.

2. Marriage and Divorce

The laws of marriage and divorce were so framed by the Prophet, that they may ensure the permanence of marriage relations, without impairing individual freedom. These laws display a wonderful insight into human nature, inasmuch as they never lose sight of exceptional circumstances, requiring special treatment. In the formulation of the laws of marriage and divorce, extremes have been avoided in favour of a golden mean. If, under certain circumstances, more than one wife is permitted, or dissolution of marriage is favoured, it is because of the operation of the same principle of flexibility that governs the entire body of the Islamic laws. It is certain that the Islamic laws of marriage and divorce have been abused; and sometimes flouted in certain Moslem lands; but the laws themselves are not responsible for the delinquencies of the individual.

The Islamic laws have recognised women as free and responsible members of society, and have assigned to them a convenient position. A Moslem woman is entitled to a share in the patrimony, along with her brothers, and though the proportion is different, the distinction is founded on a just appreciation of the relative position of brother and sister. No male member of the family, not even her husband, can manipulate her property which during the marriage remains absolutely her own and quite at her disposal. The exigible portion of the stipulated dower is payable to her on demand, as soon as the status of marriage is established, and the deferred portion on the termination of the marital relation, unless the woman is guilty of a manifest wrong. Under the Moslem law, the dower settled upon the wife, is an obligation imposed by the law on the husband, as a mark of respect for the wife, the non-specification of which, at the time of marriage, does not affect the validity of the marriage. In the event

best manners, and shows the greatest kindness to his wife and children."

5. "Fear God in regard to the treatment of your wives, for verily they are your helpers. You have taken them on the security of God, and made them lawful by the words of God."

6. Once the Prophet portrayed an ideal wife in the following words : "She is the ideal wife who pleases thee when thou lookest at her, obeys thee when thou givest her direction ; and protects her honour and thy property when thou art away."

7. "The world is full of objects of joy and delight, and the best and the most profitable source of delight is a pious, chaste woman."

8. "Paradise lies at the feet of mothers."

9. "Search after knowledge is obligatory both on Moslem men and Moslem women."

1. The Object of Marriage

The object of marriage was defined by the Prophet in clear unambiguous words. It was never meant to be a means of satisfying the sensual appetite; but, on the other hand, it was instituted, in the first place, as a safe-guard against lewdness and incontinence, and, in the second place, as a means of procreation. It is on these and similar grounds, that he always encouraged a married life in preference to a life of celibacy, and laid so much stress on the piety and fruitfulness of women. "Whoever marries a woman solely for her power and position," said the Prophet, "God but increases his humiliation; whoever marries a woman solely for her wealth, God but increases his poverty; whoever marries a woman solely for her beauty, God but increases his ugliness; but whoever marries a woman, in order that he may restrain his eyes, observe continence, and treat his relations kindly, God putteth a blessedness in her for him, and in him for her."

Thus piety and continence are uppermost in the conception of Islam, as the prime motive of marriage. This is clear enough in another saying of the Prophet. "There are three persons," said he, "whom the Almighty Himself has undertaken to help—first, he who seeks to buy his freedom ; second, he who marries with a view to secure his chastity ; and third, he who fights in the cause of God."

Another saying of the Prophet is equally clear on this point : "He who marries, completes half his religion; it now rests with him to complete

there a man who walks with his wife hand in hand, but that God sets it down as a virtue for him; and if he puts his arm round her neck in love, his virtue will be increased tenfold."

Once again, he was heard praising the women of the Koreish, "because," said he, "they are the kindest to their children while they are infants, and because they keep a careful watch over the belongings of their husbands."

In another instance the Prophet of Islam said: "There are four things, such that if a person is endowed with any one of these, it is as if the blessings of both worlds were showered upon him: first, a heart that is grateful; second a tongue that utters constantly the name of God; third, a mind that is patient and calm amid troubles; fourth, a wife that is never guilty of a breach of trust, either in respect of her own person or in respect of her husband's property."

I will now give some further sayings of the Prophet Mohammad, on the question under discussion, which I hope will shed more light on the position assigned to women in Islam.

1. "Among my followers the best of men are they who are best to their wives, and the best of women are they who are best to their husbands.... To each of such women is set down the reward equivalent to the reward of a thousand martyrs... Among my followers, again, the best of women are they who assist their husbands in their work, and love them dearly for everything, save what is a transgression of God's laws. The best of men, on the other hand, are they who treat their wives with the kindness of a mother to her children. To each of such men is set down a reward equivalent to that of a hundred martyrs." On being asked by Omar, who afterwards rose to be the second Caliph, why woman's reward should be ten times greater than man's, the Prophet said: "Do not you know that woman deserves greater reward than man? for, verily, Almighty God exalts the position of a man in heaven, because his wife was pleased with him and prayed for him."

2. "The best among you is he who is the kindest to his wife, and I am the kindest of you all to my wives."

3. "What are the rights that a wife has over her husband?" asked Moawiyah; and the Prophet forthwith replied: "Feed her when thou takest thy food; give her clothes to wear when thou wearest clothes, refrain from either giving a slap on her face or even abusing her; separate not from thy wife, save within the house."

4. "Verily, of the believers he has the most perfect faith who has the

of unmixed evils. He said : "Let not any Moslem be harsh in his treatment of his wife ; for if certain aspects of her conduct displease the husband, certain others will please him." He neither desired that woman should be the bond-slave of her husband, nor did he countenance the idea, that woman should be so far free as to overstep her proper limits and encroach upon the sphere of her husband. On the principle of division of labour, Islam assigns to each a particular sphere of work, on the faithful discharge of which depends the happiness of hearth and home. Woman, in her capacity of a good mother and a devoted wife, is the queen of her home, while the husband is to protect her from all danger and temptation, earn his bread by the sweat of his brow in the open world, and provide for the maintenance of the family. In connection with this setting apart of spheres of work with regard to the nature, constitution, mental habitude and position of the person concerned, the Prophet of Islam said ; "All of you are so many sovereigns, and all of you will be required to render account in respect of whatever persons or things you have under your charge. So the chief who is sovereign over his subjects, shall be questioned about the treatment he accorded to men placed under his control ; the head of the family is the sovereign of the house and he shall be questioned with respect to the members of the house ; and woman is sovereign in the house of her husband, and rules her children and she shall be questioned about these, and the slave is sovereign over his master's belongings, and he shall be questioned about them."

The ruling idea in the teachings of Islam with regard to man and woman, is that the husband and the wife should supplement each other, call into play the distinctive excellence of their respective character, and, in mutual confidence, strive to work out their united happiness. Woman is to exercise her beneficient, humanising influence over her husband, soften the hardness of his nature and level down the stiffness of his character ; while man, for his part, is to educate her mind and help her to realise those womanly qualities, in which she by her very nature excels. This is the conception of wife-hood which the Prophet of Islam favoured, as is inferred from some of his sayings. "A woman is married for four reasons," said he, "either in consideration of her wealth, or her noble parentage, or her beauty, or her piety. Succeed then in getting a woman of piety for your wife, for she is to her husband a helper in life, and she remains content with little."

On another occasion he told a certain woman who had brought a complaint against her husband : "There is no woman who removes something to replace it in a proper place, with a view to decorate her husband's house, but that God sets it down as a virtue for her. Nor is

observes thus : "Physically, men have the indisputable superiority in strength, and women in beauty. Intellectually, a certain inferiority of the female sex can hardly be denied, when we remember how almost exclusively the foremost places in every department of science, literature and art have been occupied by man... It is as impossible to find a female Raphael, or a female Handel, as a female Shakespeare, or Newton." Lecky, however, thinks, and perhaps rightly enough, that morally the general superiority of women over men is unquestionable. Be that as it may, when once we admit the physical and intellectual superiority of man over woman, we cannot deny that woman has to depend upon, and take advantage of, the intellectual resources and superior strength of the opposite sex; and this is precisely what Moslem doctors hold to be the import and significance of the verse under consideration.

Some critics made needless comments on the following saying of the Prophet ; "Treat women with kindness, for woman was made of a rib which is crooked in the upper part; if you try to bend it straight, you will break it, and if you leave it as it is, it will remain so." In these words the Prophet only appeals to the good sense of man and the kindliness of his heart, by reminding him of the natural weaknesses of the fair sex ; so that we may not expect of women things out of proportion to their talents and capabilities; for in such expectations we are likely to be disappointed, and our disappointment may tempt us to accord to them harsh treatment. The Prophet, therefore, exhorts his followers to be rather generous and forgiving than severely exacting and calculating. It is as if the Prophet said to his followers : "I am giving you sound advice relative to what your treatment should be towards women, carry out therefore my will respecting them. Do good to them; and be not angry with them, if they act in a way not acceptable to you, unless, of course, the deed involves any positive sin; for, they are made of a crooked rib (and, as such, are naturally liable to error.)

Elsewhere, the Prophet has positively warned us against running after scandals and constant searching after the secrets and faults of women, since such a course of action may impair the conjugal relations, and finally lead to the absolute dissolution of the marriage bond.

Close acquaintance with the teachings of Islam repudiates the false charge, that the Prophet is responsible for the degradation of woman. The Prophet saw the weak points of woman's character, as well as its strong points. He regarded woman as physically and intellectually inferior to man in general, but richer in nobler emotions of the heart, in tenderness and delicacy of feeling. No body can be so bold as to say, that the Prophet saw nothing good in woman, and conceived her to be a bundel

the wrong interpretations that have been put, from time to time, on certain verses of the Koran and certain sayings of the Prophet of Islam, they have a firm hold on the imagination of the critics of the West.

One of the verses of exquisite beauty which have been subject to misconstruction in certain quarters, is: "They (the wives) are a garment for you and you are a garment for them." It is garment that hides one's nakedness; so do husband and wife, by entering into marriage relations, secure each other's chastity. The garment gives comfort to the body; so does the husband find comfort in his wife's company, as she in his. The garment is the grace, the beauty, the embellishment of the body, so too are wives to their husbands, as the husbands, to them.

Another verse which has been similarly misconstrued is the verse which the Rev. Rodwell translates thus: "Men are superior to women on account of the qualities, with which God hath gifted the one above the other, and on account of the outlay they make from their substance for them. Virtuous women are obedient, careful during the husband's absence, because God hath of them been careful." From this verse several critics have drawn the erroneous inference that in Islam woman holds a very subordinate position, and that she has been placed under man's tyrannical sway, she having no choice but to submit to his arbitrary dictates and self-willed decrees. Even accepting the Rev. Rodwell's translation of the verse as correct, the sense of the verse appears to be nothing more than this: that man should treat his wife with love and affection and provide for her from his abundance, while woman should preserve her honour, attend to domestic duties and look up to him as her friend, philosopher and guide. Understood thus, the verse has nothing revolting to our feelings, and describes the relationship between husband and wife as it naturally ought to be. There is nothing in the verse to imply that the wife's judgment is in any way fettered, that she is simply the slave of her husband's desires, or that she is at best an 'ornamental article of furniture.' Neither, according to respectable commentators of the Koran, does the verse admit of the meaning which superficial critics have wilfully put upon it. These commentators understand the verse to point out a man's right to exercise a certain control over his wife, and his duty to provide for her security and sustenance. The superiority of man over woman rests on certain innate qualities which man generally possesses in greater proportion, in regard to knowledge and power. In power of endurance, in audacity and courage, man has a decided advantage over his fair sister. Prophets, apostles, distinguished philosophers and commanders of armies have all been men, not women. Lecky, himself undoubtedly a clear thinker and discerning critic, while discoursing on the distinctive difference between the sexes,

Eastern divorce. If the social touch-stone of a religion is the way, in which it regards the poor and the oppressed, Mohammed's religion can stand the test. He improved the condition of women by freeing them from the arbitrary patriarchal power of the parents or the heirs of the husbands, by inculcating just and kind treatment of them by their husbands themselves, by giving them legal rights in case of unfair treatment, and by absolutely prohibiting the incestuous marriages which were rife in the times of ignorance, and the still more horrible practice of the burying alive of female infants. Nor was this all, for besides imposing restrictions on polygamy, by his severe laws at first, and by the strong moral sentiment aroused by these laws afterwards, he has succeeded, down to this very day, and to a greater extent than has ever been the case elsewhere, in freeing all Mohammedan countries from those professional outcasts who live by their own misery, and by their existence as a recognised class, are a standing reproach to every member of the society, of which they form part [1]."

XVI

The Status of Women in Islam

It has been said that Islam, as a social system, has been a total failure, because "it has misunderstood the relations of sexes . . and by degrading women, has degraded each successive generation of their children down an increasing scale of infamy and corruption, until it seems almost impossible to reach a lower depth of vice." This is certainly strong language and calls for an investigation, as to whether Islam has really misunderstood the relations of the sexes, and whether it has really degraded women.

Very few of the critics take pains to determine what actually are the teachings of Islam in this respect, as embodied in the Holy Koran; and fewer still is the number of those who care to study the life of the Prophet, which is the most authentic commentary on the text of the Holy Book. It is therefore most regrettable that misconception should have arisen about the status of women in Islam — a point, on which the attitude of Islam is clear and unmistakable. I am afraid, many in Europe and in America form such strange opinions from a study of the tales of romance or books of travelling, written by professional globe-trotters. They see in the "harem," which is by the way a name in the East for the ladies' apartment, a home of gross sensuality and voluptuous pleasures. Such ideas have unfortunately prevailed in the West for a very long time; and supported by

(1) "Mohammed and Mohammedanism" by R. B. Smith, M. A., pp. 174-176.

الشيخ محمد عبده

كلمة فى إحياء ذكراه أذيعت بالراديو

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغى

إذا كان لإنسان أن يتحدث بحق معترف به عن الإمام المجدد العظيم الشيخ محمد عبده ، فهو حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى غير منازع . فقد كان فضيلته تلميذه الأول ، ومثابرا على شهود دروسه بالأزهر ، ومتتبعا خطواته فى التفكير ، ومماشيا له فى وجهة النظر ، عن فطرة لا عن تصنع ، فنشأ على غراره ، ثائرا على التقليد ، نزاعا الى تجلية الإسلام فى نقائه الأول ، معتقدا بأن لا نجاة للمسلمين مما وقعوا فيه إلا بترسم خطوات المجددين الذين نبغوا فى خلال القرون الاسلامية ، وطمست معالم تعاليمهم الصروف المختلفة . نزعات تجلت كلها مجتمعة فى كلمته التى ألقاها فى مناسبة إحياء ذكرى مجدد الأزهر العظيم الشيخ محمد عبده ، وقد أذاعها الراديو مساء ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٠ هـ ١١ من شهر يوليو الجارى ، ونحن ننقلها إكبارا لها ، قال حفظه الله :

عبد من عباد الله الذين اختصهم بمزيد فضله ، ومنحهم من صفات الانسانية الفاضلة ما امتازوا به عن أقرانهم فى عصرهم وأمثالهم فى عصور أخرى ، وأشرفوا على الناس يألمون لما عليه الناس من انحطاط علمى وخلقى وأدبى ، ويحاولون تبديل أمم أخرى بهم . ورجل ممن رزقوا لذة المعرفة ، وأفيض عليهم نور العلم الإلهى ، ففهموا أسرار الدين ، وعرفوا السعادة الحقة على وجهها . منحه الله قوة فى الجسم والحواس ، وبسطة فى العلم ، وعقلا قويا نفاذا ، وفطرة سليمة ، وإلهاما صادقا ، وشجاعة فى الحق ، وازدراء للباطل ، وقلبا رحيما بالضعفاء والفقراء ، وحبا للبذل والإحسان .

نشأ الشيخ فى عصر من العصور القاتمة ، كل شىء فيه ممض مؤلم للنفوس الحرة والفطر الصادقة : الأمم الاسلامية تتحدر علميا وسياسيا واجتماعيا الى أحط الدركات ، وليس لطالب الحرية العقلية بينها متنفس ، والدين يفهمه الناس على غير وجهه ، واللغة العربية اختلطت بغيرها من لغات العجم ، والزلفى الى الله لها طرق لم يشرعها الله ، والزلفى الى الحكام لها طرق لا يرضاها ذو مروءة . ذهب ريح المسلمين وتفلت من أيديهم زمام الحياة العامة ، وتداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على القصاع ، وليسوا قلة بين الأمم ، ولكنهم كغثاء السيل .

ذهب يتعلم فتعلم كما يتعلم غيره قواعد جافة ليس لها حياة تصلها بمنابعها من الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، ولا بأصولها من لغة العرب وأساليبهم وأدبهم ؛ وتعلم القواعد فى مختصرات رضيها ذلك العصر المظلم ، لا تفهم إلا بشروح وحواش وصناعة خاصة ، فلا اللغة

العربية بمسعدة على إجادة النظم والنثر والكتابة والخطابة وعلى فهم القرآن الكريم وفق الأساليب العربية ، ولاالفقه بساد حاجة المجتمع وحاجة الحكومات والدول فى التشريع والتنظيم ، ولا دراسة الكلام والمنطق بموصلة الى الاستدلال الصحيح الذى يطمئن إليه العقل ويقنع الخصم . المتحدث فى الاجتهاد وتخير الأحكام لتطابق الأحكام حاجة العصر ولتلائم أحوال الأمم وأحوال الأزمنة ، مبتدع مخالف لما أجمع عليه المحققون ؛ والداعى الى سيرة السلف الصالح داع الى مخالفة سيرة العلماء المبرزين ؛ والداعى الى كتب الأولين مقصر عن فهم كتب المحققين من المتأخرين ؛ والمنادى بأن كتب الفقه وكتب التفسير وكتب الحديث ملئت بمعلومات خاطئة وبأوهام وقصص لفقها من قبل علماء الاسرائيليات ، مخالف لما درج عليه صالحو هذه الأمة وجهابذتها .

عاش الشيخ فى هذه البيئة العلمية ضيق الصدر مرير العيش ، فمن من أصحاب الفطر الصادقة والنظر السليم يؤمن بالقرآن ويعتقد أن فيه هدياً وفيه شفاء ، وأن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم عامة للأمم كلها وللعصور كلها ، يؤمن بأن هذه الدراسة الدينية والعربية تخرج للناس إماماً يهتدون بهديه ، ويشفى أمراض المجتمع فى علمه وخلقه ونظامه ، ويضع له القوانين الصالحة والنظم اللائقة ؟

عاش الشيخ فى هذه البيئة يلتمس الوسيلة ، وتطلب نفسه مخرجا منها ، وتتطلع الى رجل يشفى صدره ، ويزيل قلق نفسه ، ويشد أزره ، ويبصره بالدين وبالحياة ، وينضم رأيه الى رأيه فى أن هذا الذى يراه ليس هو الدين ، وهذا الذى يعيش فيه الناس ليس هو الحياة ، وهذا الذى يدرسه من الكتب ليس موصلا الى العلم الصحيح بل هو مبعد عنه ، وهذا الذى يتعارفه الناس فى طرق الدراسة ليست هى طرق الدراسة الصحيحة النافعة .

مرّ بهذا الطور ، ثم أعطاه الله ما كانت تصبو إليه نفسه ، فهبط الى مصر جمال الدين الأفغانى ، وهو رجل ثائر على النظم الموجودة جميعها : نظم الدراسة ، ونظم الحكومات ، خبير بأحوال الدنيا وأحوال الأمم ، عليم بأدوار التاريخ وما تقلبت عليه الأمم الاسلامية من أطوار ، خبير بالتاريخ العلمى الإسلامى وبغيره من التواريخ ، عالم بمذاهب الأمم ونحلها ، عالم بالاستدلال وطرقه ، بصير بالدعوة الى الله سبحانه ، وبالدعوة الى ما يريده من الآراء والمذاهب ، يفقه أغراض الدين العامة ، ويحترم العقل ويعرف له قدره ، ويضع الرجال مواضعهم لا يعطيهم أكثر مما يستحقون ؛ رجل يمت بصلة نسبية الى صاحب الرسالة ، ويرى أن عليه دَيناً لجده لا بدّ أن يؤديه ؛ ذلك الدّين هو وقْف مواهبه جميعها على تبيين هذا الدين وإصلاح حال المسلمين . وجد الشيخ فى السيد جمال الدين بغيته ، ووجد ما يسد نهمه ، ويشفى صدره ، ويزيل صدأ عقله ويشحذه ، ويرد ذلك الجوهر صافيا نقيا لامعاً كما فطره الله ، ثم يملؤه علما ويقينا وإيماناً ومعرفة ، ويعدّه للإصلاح .

أتم الشيخ دراسته ، ولأمر ما أراد الله به كماله ، هجر مصر لأسباب سياسية وطوّف فى بعض بلاد الإسلام وبعض البلاد الغربية ، فاكتمل نضجه ، ثم عاد واشتغل بالقضاء الأهلى ، وعرف أساليب القضاء الحديثة من منابعها ، فصار قديراً على الإصلاح فى القضاء الشرعى كما هو قدير على الإصلاح العلمى وإصلاح نظم الدراسة .

هيأت له الأسباب جميعها تولى إفتاء الديار المصرية ، وصار له شأن فى إصلاح الأزهر بعضوية الادارة فيه ، وكانت مواهبه وجاهه وخبرته بالدولة ورجال الدولة مما جعله المسيطر على الإصلاح فى الأزهر وصاحب النفوذ فيه .

عرف الشيخ أن النفوذ والجاه ووضع النظم وما الى ذلك لا يكوّن الرجال العاملين ولا العلماء المجددين ، وأنه لا بد لهذا كله من أن يضاف إليه التعليم الصحيح ، وأن يتولاه بنفسه ، فقرأ فى الأزهر كتابا قيما من كتب المنطق ، وقرأ رسالته فى التوحيد ، وقرأ كتب الشيخ عبد القاهر فى البلاغة ، وشرع يفسر كتاب الله .

كانت دروس الشيخ كالغيث ، أما البلد الطيب فقد خرج نباته بإذن ربه ، وأما البلد الخبيث فقد خرج نباته نكدا ؛ وكانت دروسه مثلا عاليا فى طريقة الإلقاء والتفهيم ، وفى العبارات الفصيحة المتخيرة النافذة الى القلوب ؛ وكانت دائرة معارف يجد اللغوى فيها حاجته ، والفقيه رغبته ، والمتكلم بغيته ، ويجد علماء الاجتماع فيها تطبيق آى القرآن على معارفهم ، وكانت صرخاته المدوية منبهة للغافل ومحركة للجامد ، وكانت عاصفة قوية هزت الأشجار الباسقة القوية فسقطت أوراقها الذابلة ثم أورقت ، أما الشجيرات الضعيفة والحشائش الدنيئة فأفلتت منها ولم تنتفع بها .

عاملان من أقوى العوامل وقفا فى طريق الشيخ : عامل الحسد ، وعامل البيئة . ومن المحال أن يوجد رجل كالشيخ فى صفاته وعلمه لا يحسد . ولو أنه لم يحسد ، ولو أنه لم يرم بالكفر والضلال ، ولو أنه لم يشتد حسده ولم يقاوم أشد المقاومة بسبب الحسد ، لما كان شيئا يتحدث عنه ، ولما كان رجلا من رجال التاريخ . وقديما قال الامام الغزالى : « استصغر من علماء الدين كل من بالكفر لا يعرف ، وكل من بالضلال لا يوصف » . والسلاح القاتل الذى يرمى به علماء الدين هو الكفر والزندقة ، والمقتل الوحيد الذى يقصد بالسهام فى علماء الدين هو العقيدة .

وأما البيئة فقد أشرت اليها من قبل ، ولا أبيح لنفسى أن أضرب الأمثال وأقيم الأدلة على أنها بيئة لم يكن من العدل أن ينتظر منها مناصرة الشيخ وقبول آرائه وطرائقه فى الاصلاح الدينى واللغوى وغير ذلك ، ولم يكن من الحق أن يطمع الشيخ فى مناصرتها إياه ، وبخاصة أنه هاجمها هجوما عنيفا لا هوادة فيه ، وسفّه آراءها فى أعز شىء لديها وهو العقيدة .

وسبب ثالث له خطره : وهو أن جهة ذات نفوذ أظهرت عدم الرضا عن الشيخ وساعدت خصومه ، وأن جهة ذات نفوذ آخر ساعدته وشدت أزره ، فظن القوم أنه رجل يريد إفساد

الدين وإفساد العلم وإفساد الأزهر . ومن أشد مظاهر الحسد إذ ذاك أن عالما من كبار العلماء كتب سلسلة مقالات فى جريدة المؤيد يحرم فيها تعليم الحساب والجبر والهندسة والتاريخ فى الأزهر، لأن الشيخ كان أول المبشرين بتعليم هذه العلوم فى الأزهر، وكاد العناد يكون كفرا .

ذهب الشيخ الى جوار ربه منذ ست وثلاثين سنة ، وكان فضله مجحودا ، وكان يرمى بالكفر والزندقة ؛ لكنه كلما ابتعد الناس عنه بالزمان اقتربوا من معرفته، وزاد المقرون له بالعلم والتقوى والإيمان والغيرة على الدين ، والمقرون له بالإصلاح وبالذود عن الاسلام والمسلمين .

مات الشيخ وبقيت طريقتــه فى الاصلاح لم تمت ، وبقيت آراؤه مدونة فى الكتب ، ومرسومة فى صدور تلاميذه المخلصين ، يورثونها الأبناء والأحفاد . إن ذلك المصباح لا يزال يسطع نوره ، ولا يزال نوره يمتد فى آفاق البلاد الاسلامية وغيرها .

وسيتجلى للناس جميعهم ، عند ما ينصفه التاريخ ويتقادم العهد ، أنه علم من أعلام الأمة ، ومجدد من مجددى الاسلام ، وأنه أحد رجال السلف الصالح تأخر ميلاده عن خير القرون لحكمة أرادها الله ، فولد فى القرن الثالث عشر الهجرى .

ترك بذور الإصلاح للتعليم الدينى وتعليم علوم العربية ، وبذور إصلاح القضاء الشرعى ، وبذور إصلاح المجتمع الاسلامى والأمم الاسلامية ، وليس فى رجال تفسير كتاب الله من يضارع الشيخ أو يقاربه فى تطبيق آى القرآن على سنن الاجتماع ، وفى تصوير هدى القرآن ، وفى فهم أغراض الدين العامة .

ودّعته ليلة سفرى الى السودان لتولى قضاء مديرية دنقلة فى نوفمبر سنة ١٩٠٤ ، فسألنى هل معك رفقاء السفر؟ فقلت : نعم ، بعض كتب آنس اليها وأستديم بها اتصالى بالعلم ، فقال : أو معك كتاب الإحياء ؟ فقلت : نعم ، قال : الحمد لله ، هذا كتاب لا يجوز لمسلم أن يسافر سفرا طويلا دون أن يكون رفيقه . ثم قال لى : أنصحك أن تكون للناس مرشداً أكثر من أن تكون قاضيا ، وإذا استطعت أن تحسم النزاع بين الناس بصلح فلا تعدل عنه الى الحكم ، فان الأحكام سلاح يقطع العلاقات بين الأسر ، والصلح دواء تلتئم به النفوس وتداوى به الجراح .

وداعبنى مرة إثر خروجى من امتحان شهادة العالمية : هـل تعرف تعريف العلم ؟ فقلت له : نعم ، وكنت أحفظ إذ ذاك أكثر تعاريف العلم ، فسردت بعضها . فقال : اسمع منى تعريفا مفيدا : العلم هو ما ينفعك وينفع الناس . ثم سأل : هل انتفع الناس بعلمك ؟ قلت له : لا ، قال إذاً أنت لست بعالم ، فانفع الناس بعلمك لتكون عالماً .

ولم يكن يفوته أن يذكر بالقرآن ، وأن يعتبر بالقرآن كلما ذكرت الحوادث وكلما جدت العبر ؛ ولم يكن يفوته أن يشهر بالظالمين ، وأن يثنى على المخلصين العادلين ؛ فقـد كان يحب الحق أكثر مما يحب نفسه . عاش للعلم ، وعاش للدين ، وعاش للاسلام والمسلمين .

رحمة الله ورضوانه عليه ، وعلى إخوانه الأئمة المهتدين ؟

السيرة المحمدية

تحت ضوء العلم والفلسفة

الرسالة المحمدية عامة للبشر كافة – إعلانها للدول رسميا

في السنة السادسة من النبوة ، وبعد صلح الحديبية ، رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن الوقت قد آن لإعلان العالم أجمع برسالته العامة ، فأرسل للملوك الذين كانوا يتوزعون الأمم فى زمانه سفراء يحملون كتبا منه إليهم ، يدعوهم فيها الى الإسلام ، موقعا عليها بخاتم اتخذه منقوشا عليه (محمد رسول الله) . فوجه دحية الكلبي الى أمبراطور الرومانيين بكتاب جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أَسْلِم تَسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين (١) و « يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وبعث عبد الله بن حذافة السهمى بكتاب الى كسرى ملك الفرس جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله . أدعوك بدعاية الله ، فانى أنا رسول الله الى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم ، فان أبيت فإنما عليك إثم المجوس » .

وأرسل حاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس عظيم القبط بكتاب كان فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فانما عليك إثم القبط . و « يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

---

(١) الاريسيين أى الفلاحين فى القرى . وجاء فى رواية (الاكارين) وهم الفلاحون أيضا جمع أكار .

وكلف عمرو بن أمية الضمرى أن يحمل الى النجاشى ملك الحبشة كتابا جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى النجاشى عظيم الحبشة سلم . أما بعد ، فإنى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده . وإنى أدعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتوقن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله . وإنى أدعوك وجنودك الى الله عز وجل . وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى »

وكتب الى ملك البحرين ، والى ملكى عمان ، والى هوذة بن على ملك اليمامة ، والى أقيال اليمن ، والى كل من كان يمكن أن يصل اليه كتاب من قادة الجماعات البشرية ، يدعوهم فيه الى الاسلام ، وينذر من تخلف عن قبول دعوته منهم بسوء المصير .

تأثير هذه الكتب فيمن أرسلت اليهم :

لما وصل كتاب النبى صلى الله عليه وسلم الى قيصر ملك الرومان ، طلب أن يبحث له عن رجال من العرب ليسألهم عن رسول الله ، فاتفق أن كان أبو سفيان بن حرب بالشام فى تجارة مع جماعة من قريش ، فدعوهم لمقابلة الأمبراطور . فلما مثلوا بين يديه ، قال : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه رسول ؟

فأجابه أبو سفيان : أنا . لأنه كان من بنى عبد مناف أحد أجداد النبى ، فقال له قيصر : ادن منى . ثم سأله : كيف نسب الرجل فيكم ؟ فقال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب .

فسأله : هل ادعى هذه الدعوى أحد قبله منكم ؟ فقال : لا . قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يدعى ما ادعى ؟ قال لا . قال : فهل كان من آبائه ملك ؟ قال : لا . قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم . قال : بل ضعفاؤهم . قال : فهل يزيدون أم ينقصون ؟ قال أبو سفيان : بل يزيدون . قال الأمبراطور : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟ قال : لا . قال قيصر : هل يغدر إذا عاهد ؟ قال أبو سفيان : لا ، ونحن الآن منه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها . قال : فهل قاتلتموه ؟ قال : نعم . قال : فكيف حربكم وحربه ؟ قال : هى بيننا سجال مرة لنا ومرة علينا . قال قيصر : فبم يأمركم ؟ قال أبو سفيان : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، وينهى عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

وقد روى بعد هذا أن الامبراطور استنتج من هذه الأجوبة أن محمدا رسول الله حقا . وقال : إن كان ما كلمتنى به صحيحا فسيملك موضع قدمى هاتين .

ثم روى أن قيصر لما كان بحمص جمع عظماء الروم وأمر أن تغلق أبوابها ، وقال لهم : يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها مغلقة . فلما رأى قيصر نفورهم استدعاهم وطيب نفوسهم ، وزعم أنه قال لهم ما قال ليختبر ثباتهم فى دينهم .

أنا أشك فى صحة هذه الرواية ، وإنما أثبتها هنا لإجماع كتاب السير على إيرادها ، وإنما شككت فيها لأنه مما لا يعقل أن يكون قيصر الرومان من سرعة التصديق بحيث يعتمد فى إيمانه على رواية رجال لا يعرف مبلغ صدقهم فيما يقولون ؛ ولم يسألهم عما يجب أن يسأل عنه ذو دين قائم عن الأسباب التى دعت لنسخه بدين جديد ؛ ولم يبحث فى قيمة هذه الأسباب .

فاذا لم تكن هذه الرواية مختلقة كلها ، فيمكن أن تحال الى ما يمكن حدوثه عادة ؛ كأن يظن أن حب الاستطلاع حمل أمبراطور الروم أن يستحضر بعض من كان فى مملكته من تجار العرب ليسألهم عن رأيهم فى هذه الديانة الجديدة وفى سيرة القائم بها . أما أنه يتحول اليها بهذه السرعة ويدعو اليها قومه ، وهم من أشد المسيحيين تمسكا بالمسيحية ، فما لا يمكن قبوله بوجه من الوجوه .

وكان تأثير كتاب النبى صلى الله عليه وسلم فى ملك الفرس أنه غضب منه غضباً شديدا حمله على تمزيقه والقذف به .

أما تأثيره فى المقوقس فكان الشك فى صحة الرسالة المحمدية . فانه لما قرأ كتابه قال لحامله اليه حاطب بن أبى بلتعة : ما منع محمدا إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟

فقال له حاطب : فما منع عيسى حين قبضوا عليه أن يدعو عليهم ويهلكهم ؟

أجمع كتاب السيرة أن المقوقس أجاب النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب قال فيه : « سلام عليك ، أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو اليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط ، وبثياب ، وأهديت اليك بغلة تركبها ، والسلام » .

وأنا أسلم بأن المقوقس أهدى النبى صلى الله عليه وسلم ما ذكر فى هذا الكتاب ، وهو أشبه بكرم أخلاق الأقباط ، ورقة طباعهم ، ولكنى لا أسلم بصحة ما ورد فى الكتاب المنسوب للمقوقس ، من أنه كان يعتقد ببقاء نبى آخر لم يبعث . فان هذا لا يتفق وعقيدة النصارى ، فانهم كانوا يعتبرون أن ديانتهم قد تمت بتجسد الابن وصلبه وافتدائه البشر بنفسه .

والذى وضع هذا الكتاب أراد إظهار المقوقس بمظهر الذى تأثر قلبه بالدعوة المحمدية ، فأخطأه اختيار الأسلوب ، وإلا فما معنى قوله : (بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط) ، فمتى كانت للأرقاء مكانات عظيمة فى نظر الأمم ؟

وإنى إنما أنبه على أمثال هذه المآخذ لشحذ الهمم على تطهير السيرة المحمدية من كل ما لا يتفق والذوق السليم وحكم العقل . فإذا كان بعض القدماء عمدوا الى إهمال النقد فى بعض ما تناقلوه ، فلا يجوز للمعاصرين أن يتابعوهم فيه ، فقد علموا أن الدلائل على سمو مكانة النبى صلى الله عليه وسلم أصبحت تحت ضوء العلم وفلسفته من الكثرة بحيث يعد منها ولا تعد .

وأما تأثير كتاب النبى صلى الله عليه وسلم فى النجاشى ، فقد روى أنه لما وصل إليه الكتاب وضعه على عينيه ، ونزل عن سريره فجلس على الأرض ، ثم أسلم . ودعا بعد ذلك بحق من عاج فجعل فيه كتاب رسول الله وقال : لن تزال الحبشة بخير ما كان هذا الكتاب بين أظهرهم . ثم أمر أن يكتب له جوابه ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الى محمد رسول الله من النجاشى أصحمة . السلام عليك يا نبى الله من الله ورحمة الله وبركات الله الذى لا إله إلا هو الذى هدانى للاسلام . الى أن قال : فأشهد أنك رسول صادق مصدق . وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يده لله رب العالمين »

نقول : لا يخالج قلبى شك فى أن هذا الكتاب مختلق على النجاشى ، لا لأنه أكبر من أن يخضع للدعوة المحمدية ، فقد خضع لها من الملوك من يفخر النجاشى أن يكون خاضعا لسلطانهم ، ولكن لظهور أثر الصنعة فى كل عبارة من عباراته ، بل كل كلمة من كلماته ، فأنَّى للنجاشى وهو فى قاصية من مجاهل أفريقا ، وبين ظهرانى شعب أمى ، يضن بعقائده الموروثة ضنه بنفسه ، يكون من سرعة التصديق بحيث يستبدل بدينه دينا جديدا لمجرد دعوته إليه ، وينقلب متحمسا له الى حد أن يستهتر فى حبه وحب الداعى إليه على نحو ما رأيت ؟

ليست الدعوة المحمدية فى حاجة الى إظهار عظمتها بمثل هذه المفتريات الساذجة ، وقد سرت فى الجماعات والأفراد سريان الروح فى الأجساد ، وبسرعة حار فى تقديرها العقل ، حتى بلغ الذين قبلوها مائة مليون نسمة فى نحو قرن ، وامتد سلطانها على بقاع من الأرض فى ثمانين سنة ، لم يبلغ الى مثلها ملك الرومان بعد جهاد ثمانية قرون متوالية .

الاسلام دين مُنزل للانسانية كافة :

لم تصادف الكتب النبوية التى أرسلها النبى صلى الله عليه وسلم للأمم والجماعات التى كان يمكن الاتصال بها على عهده ، نجاحا يذكر ، وما كان هذا النجاح مؤملا ، ولكنها دلت على أمر جلل ، لم يدوّن له شبيه فى تاريخ رسول من الرسل ؛ دلت على أن الاسلام دين عالمى وليس بدين قومى ، وهنا موطن الدهش من هذا الحادث العظيم الفذ فى تاريخ البشر .

رجل ينهض من بين قبيلة لا عهد لها بكتاب ولا حكمة ، ولا اجتماع جنسى منظم ، ولا رباط أدبى محكم ، ينتدب لدعوة الأمم كافة الى دين عام يجمعها حول أصل واحد ، وهو لا يزال فى وسط الطريق من دعوته لقومه الأقربين ، لا يدرى أيفوز عليهم أم يفوزون عليه ! هذا

حادث عظيم لا يكفى فيه التعجب ، ولا يشفى منـه الدهش ، ما دام يقدر بالموازين العادية ؛ ولا يوضع فى كفته أن محمدا إنمـا كان يعمل بوحى يصدر اليه ، ويترسم خطة توضع له ويكلف بالجرى عليها . بهذا الافتراض وحده تحل هذه العويصة حلا يقبله العقل ، ويثلج عليه الصدر ، وتنكشف به عوامل خفية تحل كثيراً من غوامض النبوة ، ومساتير الاتصالات العلوية .

محمد كان رجلا من قريش مثل سائر مواطنيه ، لا يعرف من أمر العالم أكثر مما يعرفه سواه ، وإنما امتاز عنهم بأنه كان يوحى اليه ، ويؤمر بما يجب أن يسير عليه ، وقد كلف أن يصارح الناس بهذه الحقيقة : « قل لا أقول لـكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لـكم إنى ملك ، إن أتبع إلا ما يوحى الى ، قل هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أفلا تتفكرون ؟ »

فالذى أوعز الى محمد أن يدعو الأمم كافة الى ملته ، قبل أن يطمئن على نجاح دعوته فى البيئة المحدودة التى كان فيها ، هو الحق الذى كان يوحى اليه القرآن ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته .

فالذى يهم الباحث المستقل أن يعرفه هو : هل فيما أنزل على محمد تصريح بأنه أرسل للناس كافة ، وهو ما لم يصرَّح به فى كتاب أنزل على المرسلين الذين جاءوا قبله ؟

إذا بحث هذا الباحث عن ذلك وجد قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ، ولـكن أكثر الناس لا يعلمون » ، ووجد تصريحا خطيرا آخر بأنه خاتم النبيين .

هنا تثور فيه رغيبة ملحة أن يرى هل فى الدعـوة نبأ عظيم يساوى أن يبلغ الى الناس كافة ، وهل فى أصول هذا الدين ما يرشحه لأن يكون دينا عاما للعالمين ؟

إذا بحث فى هذه الناحية تبينت له أمور على أعظم جانب من جلالة القدر ، وهى :

(١) أن الاسلام ليس بدين جديد ولـكنه الدين الأول الذى أنزله الله على جميع المرسلين ، وتناوله أتباعهم بالتحريف .

(٢) أن دين الانسانية واحد ولا يجوز التفرق فيه .

(٣) أن الذى أوجب التفرق فى دين الانسان هو البغى والتعصب لأغراض دنيوية ليست من الدين فى شىء .

(٤) وأن محمدا أُمر أمراً صريحا بالدعوة لوحدة الدين على الأساس الذى تولیناه بالتبيين .

(٥) وأن الدين العالمى الحق هو أن يؤمن الانسان بجميع المرسلين من غير تفرقة بين أحد منهم ، وبكتب الله كافة ، فان فى جميعها الحق والهدى والنور .

(٦) وأن من يؤمن ببعض المرسلين ويكفر بالبعض الآخر فلا يقبل منه دين . ومعنى هذا أن الاسلام يعتبر الدين وحدة لا تقبل التجزئة ، وهذه نظرية فى الدين تصل الى درجة من السمو ليس فوقها مرتقى ، وهى ما ستئول اليها العالم حتما بعد أن يصل به الرقى الى أفق رفيع .

(٧) وأن هذا الدين العام هو مآل البشرية جمعاء ، ولا معدى عنه مهما سعى فى طمس معالمه المضللون .

اليك الآيات الناطقة بالنصوص الصريحة الدالة على ما نقول :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع (أى لتوحيد الدين فادع) ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم (أى لا محاجة ولا خصومة) ، الله يجمع بيننا واليه المصير » .

« قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا ، وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فانما هم فى شقاق ، فسيكفيكهم الله ، وهو السميع العليم » .

« إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » .

« إن الدين عند الله الإسلام (وهو الدين الأقدم) وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب » .

«أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها ، وإليه يرجعون ؟ قل آمنا بالله وما أنزل علينا ، وما أنزل على ابراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

الدين فى نظر الاسلام وحدة لا تتجزأ ، وهو دين الانسانية بأسرها ، فمن لم يؤمن به جملة فلا يقبل منه . قال تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » .

هذه هى بعض الآيات التى أردنا إيرادها . وقد قلنا : هل فى الاسلام نبأ عظيم يساوى أن يبلغ الى الأمم كافة ؟

يسوغ لنا الآن أن نقول بأعلى صوتنا : أجل ! وليس هذا فحسب ، بل ستبقى الحاجة داعية الى تبليغ هذا النبأ العظيم للأمم شرقا وغربا ما بقى فى الناس قلب يعى وأذن تسمع ؟

محمد فريد وجدى

التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

« والأرضِ وما طحاها » : يقال : طحاها ودحاها ، أى بسطها وأوسعها . والمادة تدل على ذلك ، حتى فى قول الشاعر :

طحابك قلب فى الحسان طروب ... بُعَيد الشباب عصر حان مشيب

فكأنه يقول : ذهب القلب كل مذهب فلم تضق به النواحى ، ولم ينحصر فى مذهب واحد ، يقال : طحا يطحو وطحا يطحى ، فهو من ذوات الواو والياء .

وكأن القرآن يرد قول من قال من المبطلين بقدم السماء والأرض وأنهما غير محتاجين لمن يوجدهما ، فذكر بانيها وطاحيها وهو الله عز وجل .

هذا ، ومن عادة القرآن أن يذكّر الناس بآياته الأفقية والنفسية ، وقد قال تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » .

وآيات الأرض كثيرة : منها أنها ممكنة يجوز عليها الوجود والعدم ، فلا بد لها إذاً من موجد يرجح وجودها على عدمها . ولا شك أن من أكبر الآيات البينات وجودها بصفاتها المشاهدة ، وقد كان يجوز عليها غيرها . وتخصيصها بما ينفعنا فى كل ما نحتاج اليه على ما ستسمع آية كبرى .

ومن آياتها بروز جانب منها عن الماء ووجود البحار فى جانب آخر على ذلك النمط البديع الذى وصل غاية الإبداع ، وقد انتفعنا به غاية الانتفاع .

ومنها سعتها ، على ما أشارت اليه الآية هنا .

ومنها تسطيحها ، كما قال تعالى : « وإلى الأرض كيف سطحت » ، ولا ينافى ذلك كونها كروية ، فانها كبيرة ذات سطح واسع يستقر عليه الانسان والحيوان .

ومنها أنه مهدها وجعلها فراشا وذلولا كى تستقر عليها الحيوانات ولا يتألم ما عليها من المخلوقات ، ولولا أنه ذللها لما استطاعت أن تطأها الأقدام ، ولا أن نستعمل فيها الفأس والمعول لدورنا وزروعنا ، فهى ذلول مسخرة لما يريد الانسان منها . فسبحان من جعلها كِفاتاً للأحياء تحملهم على ظهرها ، وللأموات تضمهم فى بطنها ، وسبحان من طحاها فمدها وبسطها ووسعها

وهيأها لما يريد منها ، فأخرج منها ماءها ومرعاها ، وشق فيها الأنهار ، وجعل فيها السبل الفجاج . وقد جعلها الله ساكنة ليهدأ من عليها ولا ينزعج بحركتها .

وإن ذهبت مع الذاهبين الى أنها متحركة حركة سريعة جدا ، كما هو الرأى الجديد ، فالأمر أعجب ، فان تلك الحركة التى لا نحس بها ولا نعرف لها سببا معقولا ، لا من ذاتها ولا من غيرها ، لهى العجب كله . ولعلك لم تنس ما قلناه فى الجاذبية وأن أدلتها لم تتم الى الآن . ولك أن تختصر الطريق وتقول لهم : ما الذى أمسك العوالم كلها فى الفضاء الذى لا نهاية له غير قدرة من يقول للشىء كن فيكون ؟

وبعد : فلو شاء لجعلها فى غاية الصلابة والشدة كالحديد ، فكان لا يمكن حفرها ولا شقها ولا البناء فيها ولا غرسها ، ولو كانت رخوة غير متماسكة لم يمكن ذلك أيضا ، فانه لا يستقر إذاً عليها الحيوان ولا بقية الأجسام . فاقتضت حكمته أن تكون بين الصلابة المفرطة ، والدماثة المفرطة . ولو فرضنا أن الأرض كلها من الذهب والفضة أو بقية الجواهر لفاتت مصالح الإنسان والحيوان ، وتعطلت المنافع التى تراد منها فى سائر ضروب المصالح . لهذا قال بعض الفلاسفة : إن التراب أشرف من الذهب والفضة . ويكفى أنك خلقت من التراب (وإلى الآن تخلق من التراب) ، فان النطفة من الغذاء ، وهو إما لحوم الحيوانات أو النباتات ، ولحوم الحيوانات من النبات ، والنبات من التراب ؛ فأنت من التراب حتى الآن . فسبحان الحكيم الخبير ، العليم القدير . وما كان للذهب تلك المنزلة الرفيعة إلا لقلته وعزته ، بخلاف التراب ، بناء على ما ستسمعه من القاعدة المطردة فى مخلوقات الله تعالى . وانظر الى الهواء وحاجة الناس إليه ، ولكن لما كان ملء الوجود لم نأبه له ولم نلتفت إليه .

ولا بأس أن نشير الى حكمة كبرى من حكم الله تعالى التى نوهنا عنها فنقول : إنه سبحانه جعل كثرة الأشياء وسهولتها على قدر الاحتياج إليها ، فلما كان الهواء يحتاج إليه كل أحد فى كل نفَس من أنفاسه جعله مالئا للوجود كله ، ولما كانت حاجة الناس الى الماء أقل من حاجتهم الى الهواء لم يجعله فى السهولة كالهواء ، ولكنه جعله كثيرا متيسرا لا يحتاج الانسان فى حصوله عليه الى ثمن ولا مشقة . فعزة الأشياء لا زمة لقلتها لا للاحتياج إليها . وقد قال القائل :

سبحان من خص القليل بعزة ... والناس مستغنون عن أجناسه
وأذل أنفاس الهواء وكل من ... فى الكون محتاج الى أنفاسه

ولنرجع الى بقية الكلام على الأرض وآياتها فنقول :

لم يجعلها سبحانه وتعالى شفافة لأن الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور ، وما كان كذلك لا يقبل السخونة فيبقى فى غاية البرودة فلا يستقر عليه الحيوان ولا يتأتى فيه إنبات النبات ، لأن ذلك كله بفضل قبولها لأشعة الشمس التى لولاها لم يكن على الأرض نبات ولا حيوان

« ذلك تقدير العزيز العليم » . وكذلك لم يجعلها صقيلة براقة لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس كما يشاهد من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف عليه ؛ فاقتضت حكمته أن جعلها كثيفة غبراء ، فصلحت أن تكون مستقرا للانسان والحيوان والنبات.

ومن آياته أن جعلها مختلفة الأجناس والصفات والمنافع ، مع أنها قطع متجاورة متلاصقة ، فهذه تصلح لنبات كذا ، وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره ، ليحتاج الناس بعضهم لبعض (وينتفع بعضهم من بعض) ، وهذه سبخة مالحة ، وهذه بضدها ، الى آخر صفاتها الكثيرة وأحوالها المتنوعة . فسلها من نوّعها هذا التنويع ، ومن فرق أجزاءها هذا التفريق ، ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به ، ومن ألقى عليها رواسيها ، وفتح فيها السبل ، وأخرج منها الماء والمرعى ، ومن أمسكها عن الزوال ، ومن بارك فيها وقدر فيها أقواتها ، وأنشأ منها حيوانها ونباتها ، ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها حتى كان منها الدواء والغذاء « بل الرجال والنساء » ، ومن هيأها مسكنا ومستقرا للأنام ، ومن جعلها ذلولا غير مستصعبة ولا ممتنعة ، ومن وطأ مناكبها ، وذلل مسالكها ، ووسع مخارجها ، وشق أنهارها ، وأنبت أشجارها ، وأخرج ثمارها ، ومن صدعها عن النبات وأودع فيها جميع الأقوات ، ومن بسطها وفرشها ومهدها ، وذللها وطحاها ودحاها ، وجعل ماعليها زينة لها ، ومن الذى يمسكها أن تتزلزل فيسقط ما عليها من دور وقصور ، أو يخسفها بمن عليها فاذا هى تمور ، ومن الذى أنشأ منها النوع الانسانى الذى هو أبدع المخلوقات وأحسن المصنوعات ، بل أنشأ منها آدم ونوحا ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمداً ، صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين ، وأنشأ منها أولياءه وأحباءه وعباده الصالحين ، ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق ، والمعادن ، والحيوان ، ومن جعل بينها وبين الشمس هذا القدر من المسافة ، فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر فتعطلت المنفعة الواصلة الى الحيوان والنبات بسبب ذلك ، ولو زادت فى القرب لاشتدت الحرارة والسخونة فاحترقت أبدان الحيوان والنبات . وبالجملة كانت تفوت هذه الحكمة التى بها انتظام العالم .

فان شئت بعد ذلك فانظر الى تلك البذرة الصغيرة كبذرة التوت مثلا كيف توضع فى الأرض فتخرج منها شجرة ذات فروع وأغصان تظلل العدد العديد من الناس .

فيا للأرض من آية تكفى وحدها برهانا ساطعا ودليلا قاطعا على وجود الخالق وصفات كماله وأفعاله ! ولا بأس أن نلفت نظرك الى وجود هذه العناصر المختلفة المتعددة وما أودع فيها من الخصائص والمنافع ، الى آخر ما لا يمكننا الإفاضة فيه ، ولا الوصول الى خوافيه .

يوسف الدجوى
من جماعة كبار العلماء

السنة

ذم الفتوى بغير علم

عن أبى الأسود عن عروة ، قال : « حج علينا عبد الله بن عمرو فسمعته يقول : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاهموه انتزاعا ، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم ، فيبقى ناس جهال يُستفتَون فيُفتُون برأيهم فيُضِلون ويَضِلون » . فحدثتُ عائشة زوجَ النبى صلى الله عليه وسلم . ثم إن عبد الله بن عمرو حج بعدُ ، فقالت : يا ابن أختى انطلق الى عبد الله فاستثبت لى منه الذى حدثتنى عنه ، فجئته فسألته فحدثنى به كنحو ما حدثنى ، فأتيت عائشة فأخبرتها ، فعجبتْ ، فقالت : والله لقد حفظ عبد الله بن عمرو » . رواه البخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه إجمالا ، (٢) ذم الفتوى بغير علم ، (٣) ذم العمل بالرأى إذا كان مخالفا للنص من كتاب وسنة ، (٤) حرص المسلمين الأولين على تعلم العلم ، واستهانتهم بالمشاق فى الحصول عليه .

(١) معنى الحديث : أن عروة بن الزبير ، وهو ابن أخت السيدة عائشة ، حدّث عائشةَ أن عبد الله بن عمرو بن العاص قد قابله بمكة وهو قادم من مصر حاجا ، فحدثه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الله لا ينزع العلم من صدور الناس انتزاعا بعد أن يتعلموه ، ولكن ينتزعه بقبض العلماء مع علمهم ، وعند ذلك يتصدر للفتوى ناس جهال يفتون برأيهم فيضلون هم عن سواء السبيل و يُضلون الناس عن الحق الذى ينشدونه ، وذلك شر مطلق ، وفساد عظيم ؛ فلما سمعت عائشة من عروة هذا الحديث انتظرت حتى جاء موسم الحج ، وعلمت أن عبد الله ابن عمرو قادم من مصر الى الحج أيضا ، فقالت : يا ابن أختى انطلق الى عبد الله فتثبت منه الذى حدثتنى عنه ، ففعل عروة ما أمرته به خالته ، ولقى عبد الله بن عمرو فى الطواف بمكة فسأله عن أشياء وجعل من بينها السؤال الذى طلبته عائشة ، فحدثه به ثانيا كما حدثه به أولا ، فأتى خالته فأخبرها ، فعجبت وقالت : والله لقد حفظ عبد الله بن عمرو ! والظاهر أن عائشة عجبت من حفظ عبد الله بن عمرو ، وذكره للحديث بعد مرور سنة بدون زيادة أو نقص ، أو أنها كانت تحفظ هذا الحديث وتظن أنها منفردة بحفظه ، فلما ذكره لها ابن أختها وتأكدت من روايته مرة أخرى عجبت لذلك .

وقوله : « حج علينا عبد الله بن عمرو » معناه مر علينا حاجا . وقوله : « ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم » معناه ينتزعه بقبض العلماء مع علمهم . ففى العبارة بعض قلب كما أشرنا الى ذلك آنفا . فمن حق لفظ « مع » أن يدخل على لفظ علم ، ومن حق الباء الداخلة على لفظ علم أن تدخل على لفظ قبض ، ويكون المعنى : بقبض العلماء مع علمهم . وفى بعض الروايات « يقبض العلماء فيرفع العلم معهم » ، وفى بعضها « يقبض العلم بقبض العلماء » ، والمعنى واحد على كل حال ، وهو أن الله لا يمحو العلم من صدور العلماء ولكن يميت العلماء فيرتفع العلم . ولعل من أمارات انقراض العلم جعله وسيلة من وسائل الكسب والمعيشة ، وربطه بمظاهر الحياة الدنيا ، حتى إذا فقدت مزاياه التى يتوخاها الناس منه ، انصرفوا عنه انصرافا تاما ، وهجروه هجرا جميلا ، وربما كان لذلك أسوأ الأثر فى المستقبل القريب .

لقد مرت أطوار كثيرة على التعلم والتعليم فى مصر وغيرها ، فدلت التجربة الصحيحة على ضرورة جعل العلم بعيدا عن العلل والغايات التى يذهب بذهابها . ولذا روى المنذرى أحاديث صحاحا فى النهى عن ذلك ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : « من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله تعالى لايتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة » يعنى ريحها . وللدنيا علوم خاصة بها فينبغى للناس أن يتعلموها أيضا ولا يخلطوا بين الحالتين فيضلوا ويفشلوا .

ومن ذلك « من أراد الدنيا فعليه بالعلم » الخ ، فإن المراد به علوم الصناعة والزراعة والتجارة ونحو ذلك مما يحتاج إليه الناس فى معاشهم . وقد حث الدين الاسلامى على تعلم هذه العلوم والاجتهاد فى تحصيلها ، بل جعل ما تتوقف عليه حاجة المجتمع ومصالحه فرضا مقدسا لا يصح إهماله ، وإذا أهملته الأمة كانت من الآثمين ، خصوصا العلوم والصناعات التى يتوقف عليها صيانة الأمة وحفظ كيانها من الأعداء . وقد وعد الله العاملين الصادقين وعدا حسنا وأجرا كريما .

ذلك هو شرح ظاهر الحديث الذى معنا . ولكن البخارى رضى الله عنه قد عنون له بقوله : « باب ما يذكر من ذم الرأى وتكلف القياس » ثم قال : « ولا تقف ـ تقل ـ ماليس لك به علم » . والظاهر أنه أخذ هذا العنوان من قوله صلى الله عليه وسلم « يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون الخ » فاعتبر الإفتاء بالرأى وتكلف القياس من الأمور التى ينهى عنها الدين . ولكن ظاهر الحديث صريح فى أن المراد الجهال الذين لا يعرفون قياسا ولا يدركون معنى الفتوى ، بل هم يخبطون خبط عشواء فيفتون بما يوافق أهواءهم وشهواتهم بعد انقراض العلماء . وعلى كل حال فقد أثار فهم البخارى فى هذا الحديث على هذا النحو الكلامَ فى موضوع الإفتاء بالقياس مما سنبينه لك بعد .

أما تفسير قوله : « ولا تقف ما ليس لك به علم » بقوله : ولا تقل ، فذلك قد تبع فيه

ابن عباس رضى الله عنهما ، فانه قد فسر القفو بالقول ، فمعنى لا تقف ما ليس لك به علم : لا تقل رأيت شيئا لم تره ، ولا تقل سمعت شيئا لم تسمعه . وهذا التفسير حسن ، وقد رواه الطبرى عن السلف ، وقال : إن السلف استعملوا القفو فى شهادة الزور أو القول بغير علم أو الرمى بالباطل . ثم قال : وهذه المعانى متقاربة اهـ . ويستعمل القفو فى غير ذلك ، فيقال : انطلق فلان يقفو أثر فلان أى يتبعه ، ومنه يقتفى أثره أى يتبعه ، الى غير ذلك .

(٢) مما لا ريب فيه أن الفتوى بغير علم إذا صدرت من متعمد تكون مذمومة كل الذم ، إذ هى كذب على الله ورسوله ، وذلك من أخش الكبائر وأشدها خطرا على الدين . ولا فرق فى ذلك بين أن يكون المفتى جاهلا بالإجابة الصحيحة كما هو صريح الحديث ، أو يكون عالما ولكنه يتعمد الإفتاء كذبا لشهوة من الشهوات .

وجزاء من يتعمد الإفتاء بغير علم ، نار جهنم بلا مراء ، لأنه كذب على الله ورسوله ، وقد بشره النبى بالنار . على أن الميزة التى امتاز بها الإنسان عن الحيوان إنما هى العلم والمعرفة . والعلم مشتمل على قضايا وأصول ثابتة ، فاذا حل محلها الجهل وركز فى عقول الناس أن هذا الجهل حقيقة من الحقائق ، فقد الانسان ميزته التى امتاز بها عن الحيوان ، وترتب على ذلك أسوأ الآثار التى تضر المجتمع . وأيضا فمن القضايا البديهية أن حياة المجتمع الانسانى من ضرورياتها التعاون والتآزر بين الأفراد والجماعات ، فلا بد للانسان أن يعيش لمعونة غيره فى أموره كلها ، فلا غنى للجاهل بأمر من الأمور ، سواء كان متعلقا بدينه أو متعلقا بدنياه ، من أن يركن الى من يظنه أعلم منه بهذا الأمر وأقدر على هدايته الى الصواب . فاذا دفعه سوء حظه الى من يفتيه بغير علم فإن ذلك يكون من شر ما قد يناله من مصائب دينية ودنيوية .

ولذا قال بعض شراح هذا الحديث : إن هذا المعنى لا يتحقق إلا عند اقتراب الساعة ، حيث يفنى العلماء والاخصائيون من العالم ولا يبقى إلا الجهال . وهذا وإن كان صحيحا من بعض الوجوه ، ولكن ذلك مشروط بأن تكون البيئة صالحة فلا تصغى إلا للعلماء الاخصائيين ؛ أما إذا فسدت البيئة واستولى الجهل على عقول العامة فأصبحوا لا يركنون إلا الى الشعوذة والفساد كما هو الحال فى زماننا ، فإن هذا المعنى يكون قد تحقق من الآن . وذلك لأن كثيرا من العامة قد يركنون الى من يدعى علم النجم والإخبار بالغيب ، ويتهافتون على الدجالين الذين يبينون لهم مستقبلهم زورا وبهتانا . ومحال أن يحاول عالم تحويل هؤلاء العامة عن عقيدتهم ؛ ومحال أن يصدقوا قوله من أن نبيهم صلى الله عليه وسلم قد نهى عن الكهانة والإخبار بالغيب ، وأمر بالتمسك بالوسائل الصحيحة والأسباب النافعة ؛ فمن ألم به أمر من مرض أو نحوه فليركن الى أهل الاختصاص ؛ ومن أصابته محنة لا دواء لها فعليه أن يلجأ الى الله وحده .

ومن أشد الضالين الذين يضلون عباد الله بغير علم ، عباد الأضرحة ؛ فهؤلاء يفتون الناس

بما يناقض الدين على خط مستقيم ؛ وكثير من هؤلاء من يعلم الحق ويعلم أن فتواه باطلة بإجماع الأئمة ، ولكن حب المال وكسب الحرام يصمهم ويعمى أبصارهم وبصائرهم . فليت الناس لا يستعجلون قبض العلماء من الأرض ، ويعملون بأقوالهم ويتركون الضالين المفسدين . وحسبنا الله ونعم الوكيل !

(٣) أما ما صرح به الامام البخارى من ذم الرأى وتكلف القياس ، فهو قول حق لا شبهة فيه ، لأنه يريد من الرأى المذموم ما يخالف النص ويعارضه ؛ وذلك خطر شديد على الدين ، وهدم لقواعده من أساسها ؛ فان الذى يجرؤ على مخالفة نص شرعى من كتاب أو سنة بحجة أن القياس يقتضى ذلك الحكم ، فانه يستطيع أن يبطل كثيرا من الأحكام أو يعطلها ، ويجعل لعقله سلطة التشريع فى الدين ؛ وذلك ضلال لا شك فيه . إنما الذى يلتمس استنباط الحكم بالقياس لعدم وجود نص شرعى أو لخفائه عليه ، فذلك ممدوح كل المدح ، إنما المطلوب من المفتى فى هذه الحالة أن لا يتكلف القياس ، وأن لا يتعسف فى إثبات علة الحكم الجامعة . على أن قواعد الدين العامة قد ضمنت للناس كل ما تدعو اليه حاجتهم من الأحكام ؛ فاذا لم يوجد نص على مسألة جزئية بخصوصها فانه يمكنه الرجوع الى القواعد الكلية العامة . وقد ذكرنا أمثلة كثيرة منها فى بعض أعداد هذه المجلة ؛ فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « كل مسكر حرام » ، و « كل عمل ليس علينا أمرنا فهو رد » ، و « كل قرض جر نفعا فهو ربا » ، و « كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل » ، و « كل أحد أحق بماله من ولده ووالده والناس أجمعين » ، و « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » ، و « كل معروف صدقة » . الى غير ذلك من القواعد العامة التى يندرج تحتها أنواعها بحسب تجدد الأزمنة والأمكنة . ولذا قال بعض المحققين : إنه من المستحيل أن توجد حادثة واحدة من الحوادث لا تشملها نصوص الشريعة الاسلامية العامة . فمن زعم أن النصوص الدينية لا تحيط بأحكام الحوادث ، وأن العمل بالقياس ضرورة لا بد منها فى كل زمان ومكان ، فقد غفل عن عظمة النصوص الشرعية وجهل أسرار الشريعة الاسلامية تمام الجهل . على أن البحث فى هذا الموضوع طويل لا يسعه هذا المقام . إنما الذى ينبغى معرفته هو أن القياس الصحيح الذى لا يخالف النص الشرعى حجة من الحجج الشرعية ، فاذا لم يوجد نص فى مسألة من كتاب أو سنة أو إجماع فانه فى هذه الحالة يعتمد على القياس الذى لا تكلف فيه ولا تعسف . ولعلنا نعود الى الكتابة فى هذا الموضوع فى فرصة أخرى .

(٤) وبعد : فلعل الناس الذين استهانوا بالعلم والحصول عليه مع كونه قريبا من دارهم ، يخجلون من عناية السيدة عائشة رضى الله عنها بالتثبت من رواية حديث واحد من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فانظر كيف ترقبت حضور عبد الله بن عمرو من مصر الى مكة حاجا ، وكيف أمرت ابن أختها عروة أن يسافر الى مكة ليتثبت من رواية هذا الحديث الذى كانت تحفظه وتريد التأكد من حفظها إياه .

إن فى مثل هذه الحالة لأكبر عظة وعبرة للقوم الذين يطلبون العلم ، وهم لا يقدرونه حق قدره ، ولا يعرفون له ميزة سوى أنه سلعة من السلع التى يتخذونها مرتزقا لهم .

نسال الله أن يوفقنا الى القدوة الصالحة بأمثال هؤلاء الأئمة العاملين ، إنه سميع الدعاء .

عبد الرحمن الجزيرى

البلاغة المرتجلة

عُرف شبيب بن شبة فى الدولة العباسية بالبيان الساحر ، والأدب الباهر ، والعبارات المستعذبة على البديهة ؛ فنفس عليه بعضهم وقالوا لبعض الخلفاء : إن شبيبا يحضّر الكلام ويستعده ليقوله ، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لافتضح أمره . فرأى أمير المؤمنين أن يعجم عوده ، ويحقق قالة الناس فيه ، فأمر رجلا أن يأخذ بيده و يُصعده المنبر ، ففعل ؛ فحمد الله شبيب وأثنى عليه ، وصلى وسلم على رسوله ، ثم قال :

ألا إن لأمير المؤمنين أشباها أربعة : فمنها الأسد الخادر ، والبحر الزاخر ، والقمر الباهر ، والربيع الناضر . فأما الأسد الخادر فأشبه منه صولته ومضاؤه ؛ وأما البحر الزاخر فأشبه منه جوده وعطاؤه ؛ وأما القمر الباهر فأشبه منه نوره وضياؤه ؛ وأما الربيع الناضر فأشبه منه حسنه وبهاؤه .

ثم نزل فدل بما فتح عليه به من بليغ العبارات ، ودقيق الاشارات ، على أنه على عرق من البلاغة عريق ، وعلى أصل من البيان أصيل .

مما يروى من ارتجالاته ما حكاه الشيبانى قال : أقام المنصور صالحا ابنه فتكلم فى أمر فأحسن الكلام .

فقال شبيب بن شبة : تالله ما رأيت كاليوم أبين بيانا ، ولا أعرب لسانا ، ولا أربط جأشاً ، ولا أبل ريقا ، ولا أحسن طريقا ! وحق لمن كان المنصور أباه ، والمهدى أخاه ، أن يكون كما قال زهير :

هو الجواد فان يلحق بشأوهما على تكاليفه فمثله لحقا
أو يسبقاه على ما كان من مهل فمثل ما قدما من صالح سبقا

حياة رجالات الإسلام

أبو بكر الصديق

— ٧ —

موقفه فى أسرى بدر

واقعة بدر أول واقعة وأعظمها ، اصطدمت فيها قوة الباطل العنيد بوافر عَددها وعظيم عدتها ، بقوة الحق ، وعدتُها الإيمان ورسوخ العقيدة ، فكان النصر المؤزر لجند الحق أول أسس الدعوة العملية لرفع راية الاسلام عزيزة قاهرة ، وكان دوى هذا النصر فى أرجاء الجزيرة العربية أعظم عوامل نشر الدعوة وتوجيهها توجيها جديدا ، يحمل فى يمناه الحجة الساطعة للعقول النيرة والبصائر النقية ، وفى يسراه سيف التطهير واستئصال جذور الشر فى نفوس انطمست بصائرها ، واستحالت فيها الفطرة الانسانية الى ضلالة عمياء لا تعرف من أمر الحياة إلا ما تعرف الخفافيش وخشاش الأرض .

قلة فى العَددوالعُدد تنطوى جوانحها على قوة من الإيمان تدك الرواسى دكا ، وكثرة فى العَدد والعدد تحمل قلوبا استفرغتها العنجهية الجاهلة من كل شىء يمت الى الحياة الفاضلة بصلة ، فكانت كالعظام النخرة فى منازل الرياح ، يمر بها الهواء فتسمع لها صفيرا قد يروعك سمعه ، فاذا أنت ذهبت لتختبرها تفتتت وطارت ذراتها مع الريح فى مواطىء الأقدام . روى ابن سعد فى الطبقات « أن المشركين بعثوا عمير بن وهب الجمحى ، فقالوا له : احزُر لنا محمداً وأصحابه ، فصوّب فى الوادى وصعد ، ثم رجع فقال : لا مدد لهم ولا كمين ، القوم ثلاثمائة إن زادوا زادوا قليلا ، ومعهم سبعون بعيرا وفرسان ؛ يا معشر قريش : البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، أما ترونهم خرسا لايتكلمون ، يتلمظون تلمظ الأفاعى ؟ والله ما أرى أن نقتل منهم رجلا حتى يقتل منا رجل ، فاذا أصابوا منكم عددهم فما خير فى العيش بعد ذلك ، فرَوْا رأيكم » .

هكذا كان لقاء الشرك بخيله ورجله وعديده وعتاده مع المؤمنين فى واقعة بدر الكبرى التى يسميها بعض السلف « فتح الفتوح » ، انتصر فيها الاسلام أعظم انتصار ، وهزم فيها الشرك شر هزيمة ، ورجع المسلمون الى المدينة وأيديهم مليئة من الغنائم والأسرى ، وفى الأسرى كثير من غطارفة قريش وذوى رأيها ، تمكن منهم المسلمون فى وطيس الحرب ومنحهم الله أكتافهم

فلم يقتلوهم ، وجاءوا بهم مع الغنائم ليرى فيهم القائد الأعظم صلوات الله عليه رأيه ، والاسلام أنبه شريعة وضعت دعائم الشورى العادلة ، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ليدير معهم الرأى فى شأن هؤلاء الأسرى ، لأن الله تعالى لم ينزل عليه فى هذا الأمر شيئا . روى مسلم فى الصحيح من حديث عمر بن الخطاب : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر وعمر : ما ترون فى هؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر : يارسول الله هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم للاسلام ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا بن الخطاب ؟ قلت : لا والله يا رسول الله ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكننى من فلان (نسيب لعمر) فأضرب عنقه ، فان هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ، ولم يهوَ ما قلت » . وذكر القرطبى فى التفسير من رواية يزيد بن هارون « أنه لما كان يوم بدر جيء بالأسارى وفيهم العباس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك ، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم ؛ وقال عمر : كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ، قدمهم فاضرب أعناقهم ؛ وقال عبد الله بن رواحة : انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم . فقال العباس وهو يسمع : قطعت رحمك ! قال راوى الحديث : فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يرد عليهم شيئا ، فقال أناس : يأخذ بقول أبى بكر رضى الله عنه ، وقال أناس : يأخذ بقول عمر ، وقال أناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ؛ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، ويشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال « فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم » ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » ، ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام إذ قال « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » ، أنتم عالة فلا ينفلتن أحد إلا بفداء أو ضربة بعنق ، فأنزل الله « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » الى آخر الآيتين .

هذه خلاصة الروايات فى هذه القصة ، وهى تمثل مذهبين يأخذان بطرفى الحياة ، أحدهما يمثل الرحمة المطلقة فى شخص الصديق رضى الله عنه ، والآخر يمثل أشد ألوان القسوة على أعداء الحق فى شخص عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ والصديق والفاروق وزيرا الاسلام فى حياة نبيه الأكرم صلوات الله عليه ، وهما خليفتاه بعد مفارقته الحياة الدنيا الى الرفيق الأعلى ، وكل من المذهبين ضرورة اجتماعية ، لا غنى للانسانية عنه فى أى عصر من عصورها ، فهى تتطلب

الرحمة لتكون وسيلة لها الى الخير ، تقودها إليه بلطف المحبة وسحر الإخلاص ، وهى تتطلب القسوة لتكون وجها فى تأديبها ، وذريعة الى زجرها حتى تستقيم قناتها ؛ وإلى هذا يشير قول النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه : « أرحم أمتى بأمتى أبوبكر، وأشدهم فى دين الله عمر » .

روايات الفداء فى القصة تشعر بظاهرها أن آية « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » وردت عتابا على أخذ الفداء من الأسرى واستبقائهم كما هو رأى أبى بكر الذى ارتضاه النبى صلى الله عليه وسلم ، بيد أن أسلوب الآية الكريمة الذى يتذوقه من كانت لديه ملكة البلاغة العربية لا يشعر بأنها جاءت عتابا على ما بدا من الرأى فى شأن الأسارى بعد انفصال المعركة والرجوع بهم الى المدينة ، بل الذى يفيده الأسلوب وتنادى به الآية أنها كانت عتابا على المسارعة الى الغنائم وإنهاء المعركة قبل كسر قناة الشرك كسرا لا ينجبر ، استئصالا لجرثومة الشرك فى غطارفته وجنده ، وقد أمكن الله منهم ، وذلك هو المراد بالأثخان فى الآية الكريمة . ويرشح هذا الفهم عبارة الآية نفسها ، فانها تفيد أنها إرشاد الى الأليق بمقام النبوة إذ مكن الله لها فى أعدائها حتى كانت لها عليهم الغلبة ، وأنه ما كان ينبغى للنبى أن يخرج من المعركة وله أسرى حتى ينكل بأعدائه ويشرد بهم من خلفهم ، فهى عتاب لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على ما كان منهم فى المعركة ، لا على ما كان بعدها فى شأن الأسرى ؛ وهذا ما ذهب اليه جمهرة المفسرين قبل حمل الآية على روايات القصة ، قال القرطبى فى التفسير: «هذه الآية نزلت يوم بدر عتابا من الله عز وجل لأصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : ما كان ينبغى لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذى أوجب أن يكون للنبى صلى الله عليه وسلم أسرى قبل الإثخان ، ولهم هذا الإخبار بقوله : « تريدون عرض الدنيا » ، والنبى صلى الله عليه وسلم لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ، ولا أراد قط عرض الدنيا ، وإنما فعله جمهور مباشرى الحرب ، وجاء ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فى الآية حين لم ينه عنه حين رآه من العريش ، وأذكره سعدُ بن معاذ وعمر بن الخطاب وعبد الله بن رواحة ولكنه عليه السلام شغله بغت الأمر ونزول النصر فترك النهى عن الاستبقاء » .

ويؤيد هذا ما ذكره القشيرى « أن سعد بن معاذ قال : يا رسول الله إنه أول وقعة لنا مع المشركين ، فكان الإثخان أحب الىّ » . وأيضا أسند الطبرى وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس : « إن شئتم أخذتم فداء الأسارى ، ويقتل منكم فى الحرب سبعون على عددهم ، وإن شئتم قتلوا وسلمتم » فقالوا : نأخذ الفداء ويستشهد منا سبعون ؛ وهذا التخيير كان وحيا كما دلت عليه بعض الروايات المصرحة بأن جبريل عليه السلام نزل على النبى صلى الله عليه وسلم به ؛ وإذا ثبت هذا فلا سبيل الى حمل الآية على العتاب فيه لأنه أبيح لهم بالنص ،

فكيف يعاتبون فيه ؟ وأورد القرطبي هنا إشكالا ثم أجاب عنه فقال : « وينشأ هنا إشكال وهو أن يقال : إذا كان التخيير فكيف وقع التوبيخ بقوله « لمسكم » ؟ فالجواب : أن التوبيخ وقع أولا لحرصهم على أخذ الفداء ثم وقع التخيير بعد ذلك ، ومما يدل على ذلك أن المقداد قال حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل عقبة بن أبي معيط : أسيرى يا رسول الله ، وقال مصعب بن عمير للذى أسر أخاه : شد عليه يدك فان له أما موسرة . ولو أن الامام القرطبي حمل العتاب على حرصهم فى أثناء المعركة وظهور الهزيمة فى صفوف المشركين على الغنائم بما فيها الأسرى لكان أسد وأرشد ، لأنه هو المتلائم مع أسلوب الآية وما ساقه من الروايات المفيدة أن بعض الصحابة كان أحب اليه الإثخان فى المعركة ؛ ويعضد هذا بما روى عن الضحاك أن الآية نزلت حين انهزم المشركون يوم بدر واشتغل الناس بالسلب وجمع الغنائم عن القتال حتى خشى عمر أن يعطف عليهم العدو .

هذا ما تطمئن اليه النفس فى أمر يدبر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الرأى مع أجلاء أصحابه ، ويختار بعد التدبر ، ويمثل الشيخين فى موقفهما بأربعة من أولى العزم عليهم السلام بينهم من الفضل ما كان حاملا فى طواياه أعظم مناقب الصديق رضى الله عنه .

وبعد : فما أعظم بركة الصديق فى أسرى بدر ، وما أجل حكمة الله فى تعليم المسلمين ! فقد تكشف الغيب عن سر رأى الصديق ، وأسلم كثير من الأسرى بعد ذلك ، وكانت لهم قدم صدق فى نصرة الدعوة الاسلامية وإقامة دعائمها ، وأخرج الله من ظهورهم من كانوا أعلام الهداية فى الأرض ؟

صادق إبراهيم عرجون

من شعر الصحابة

قال راشد بن عبد الله لما ولاه النبي صلى الله عليه وسلم القضاء بنجران :

صحا القلب عن سلمى وأقصر شأوه ... وردت عليه ما نفته تماضر
وحلمه شيب القذال عن الصبا ... وللشيب عن بعض الغواية زاجر
فأقصر جهلى اليوم وارتد باطلى ... عن الجهل لما ابيض منى الغدائر
على أنه قد هاجه بعد صحوة ... به فرض ذى الآجام عيس بواكر
ولما دنت من جانب الفرض أخصبت ... وحلت ولاقاها سليم وعامر
وخبرها الركبان أن ليس بينها ... وبين قرى بصرى ونجران كافر
فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عينا بالإياب المسافر

التجديد والمجددون فى الاسلام

الامام الأعظم أبو حنيفة — دراسات فى مذهبه

من تجديد أبى حنيفة استنباطه الفقه التقديرى :

لما لم يكن بد من معرفة حكم الله تعالى فى الوقائع ، ولما كانت الحوادث فى العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر ولا العد ، وكان من المقطوع به أنه لم يرد فى كل حادثة نص ، كان هذا من الدواعى الى وجوب اعتبار الاجتهاد والقياس ، ليكون بصدد كل حادثة لم ينص على حكمها اجتهاد ، وكان من الدواعى التى دعت الامام الأعظم الى إحداثه الفقه المستنبط أو التقديرى ، فوضع المسائل التى لم تقع ، وفرض نزول الحوادث التى لم تحدث ، وقدر وقوع الواقعات ، واستنبط لها الأحكام من أصول الشرع ، حتى إذا وقعت كان جوابها حاضرا ، إذ ليس من المتيسر دائما وجود المفتى الذى يفتى الناس فى حوادثهم التى تقع وتحدث لهم فى كل يوم وفى كل مكان ؛ وكان بعض السلف لا يجيب عن مسالة إلا إذا وقعت بالفعل ، ولا يفتى فى أمر لم يحدث .

روى الحافظ ابن عبد البر أن قتادة قدم الكوفة ، فجلس فى مجلس له وقال : سلونى عن سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأجيبكم . فقال جماعة لأبى حنيفة : قم فاسأله . فقام اليه وقال له : ما تقول يا أبا الخطاب فى رجل غاب عن أهله ، فظنت امرأته فقده فتزوجت ، ثم قدم زوجها الأول فدخل عليها وقال لها : يا زانية تزوجت وأنا حى ! ثم دخل زوجها الثانى فقال لها : تزوجت يا زانية ولك زوج ! كيف يكون اللعان ؟ فقال قتادة : وهل وقعت هذه المسألة ؟ فقال أبو حنيفة : وإن لم تقع فاننا نستعد لها حتى إذا وقعت كان جوابها حاضرا . وعلى هذا المنوال أحدث أبو حنيفة الفقه التقديرى ، فكان بهذا وأمثاله مجدداً فى الاسلام غير مدافع .

ولقد ارتضى جمهور العلماء هذه الطريقة ، فاقتدى بأبى حنيفة فى هذا فقهاء الأمصار إلا أقلهم ، فقدروا المسائل وفرضوا وقوعها ، ثم استنبطوا أحكامها من أصول الشرع نسجا على منوال أبى حنيفة ، وبذلك نما الفقه الاسلامى واتسع حتى صار بحرا زاخرا لا ساحل له ، وثروة غنية للمجتمع فى التشريع والنظم الصالحة ، مع أنه كان قبل أبى حنيفة مقصورا على الحوادث التى وقعت فى ذلك العهد الأول .

فهل يجوز فى شرع الله فرض المسائل واستنباط أحكامها قبل وقوعها كما فعل أبو حنيفة ؟

هـذه مسألة مختلف فيها ؛ ولـكن جماهير علماء الإسلام أجازوا ذلك مستدلين بأدلة كثيرة صحيحة ، منها ما روى فى صحيح مسـلم « ج ٢ ص ٩٨ » عن المقـداد بن الأسود أنه قال : «يارسول الله : أرأيت إن لقيت رجلا من الـكفار فقاتلنى فضرب إحدى يدى بالسيف فقطعها ، ثم لاذ منى بشجرة فقال : أسلمت لله ، أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتله ، قال : فقلت : يا رسول الله ، إنه قطع يدى ثم قال ذلك بعد أن قطعها أفأقتله ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتله ، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله ، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التى قال » . ففى هـذا الحديث الشريف لم ينه رسول الله صلى الله عليه وسلم المقداد عن فرض مسألة لم تقع ، بل أجابه عنها وبين حكمها ، فدل ذلك على جواز فرض المسائل واستنباط أحكامها قبل وقوعها ، وكان إحـداث أبى حنيفة لهذا الفقه المستنبط أو التقديرى موافقا للسنة النبوية ، بل هو تطبيق عليها ونسج على منوالها ، واقتداء بعمل الرسول الـكريم صلى الله عليه وسـلم ، فمن عاب أبا حنيفة على ذلك فإنه لم يحط بالسنة خبْرا ، ولم يعرفها معرفة أبى حنيفة بها ، بل لم يعرف مذهب أبى حنيفة ولا مداركه الدقيقة .

شىء من تبريز أبى حنيفة فى علم القضاء والاستنباط :

من بديع استنباط أبى حنيفة ، ومقدرته الفقهية ، وتوقد ذكائه ، وسرعة خاطره ، وتبريزه فى علم القضاء ــ وعلم القضاء غير معرفة الأحكام ، والبصر بالحلال والحرام ، فقد يكون الرجل بصيرا بأحكام الأفعال ، عارفا بالحلال والحرام ، ولـكنه لا يستطيع أن يقوم بفصل القضاء ــ أقول : من ذلك ما ذكره الامام الحافظ ابن العربى فى كتابه أحكام القرآن قال : مما يروى فى معرفة أبى حنيفة بالقضاء أن رجلا جاءه وقال له : إن ابن أبى ليلى قاضى الـكوفة جلد امرأة مجنونة قالت لرجل يا ابن الزانيين فحدها حدين فى المسجد .

فقال أبو حنيفة على الفور : لقد أخطأ ابن أبى ليلى من ستة أوجه :

الأول : أن المجنونة لا حد عليها ، لأن الجنون يسقط التـكليف ، هذا إذا كان القذف فى حال الجنون ، فأما إذا كان يجن مرة ويفيق أخرى فانه يحد بالقذف فى حال إفاقته ، إذا قذف فى حال إفاقته أيضا .

الثانى : قولها يا ابن الزانيين ، جلدها من أجله حدين ، لـكل أب حد ، وهو خطأ ، لأن حد القذف يتدخل ولا يتعدد بتعدد المقذوف ، لأنه حق لله تعالى كحد الخمر والزنا ، ولو أن رجلا قذف قوما ، ما كان عليه إلا حد واحد .

الثالث : أنه حـدّ بدون مطالبة المقذوف ، ولا يجوز إقامة حد باجماع الأمة إلا بعـد المطالبة باقامته .

الرابع : أنه والى بين الحدين ، ومن وجب عليه حدّان لم يُوَالَ بينهما ، بل يحد لأحدهما ثم يترك حتى يندمل الضرب ، ويستبل المضروب ، ثم يقام عليه الحد الآخر .

الخامس : أنه حدّها قائمة ، ولا تحد المرأة إلا جالسة مستورة .

السادس : أنه أقام الحد فى المسجد ، والحدود لا تقام فى المساجد إجماعا .

ثم قال ابن العربى : إن هذا الذى قاله أبو حنيفة على البديهة لايدركه أحد بالروية إلا العلماء الماهرون الراسخون فى العلم ، وهو يدل على معرفته بعلم القضاء .

لما بلغ ابن أبى ليلى هذا النقد شكا أبا حنيفة للوالى وقال له : إن بالكوفة شابا يعارضنى فى الأحكام ويشنع على بالخطأ ، فمنعه الوالى من الفتوى ، ولزم بيته . ثم وردت مسائل لعيسى ابن موسى فاستفتى أبا حنيفة فيها ، فأفتى بما استحسنه عيسى وأذن له بالفتوى ، فجلس فى مجلسه كما كان . وفى رواية أخرى أن امرأة استفتته يوما بأنه خرج من أسنانها دم وهى صائمة ، فبصقته حتى عاد الريق أبيض ، فهل تفطر إذا بلعت الريق ؟ فأمر أبو حنيفة ولده حمادا أن يفتيها وقال لها : إن الوالى منعنى من الافتاء ؛ وهذه من مناقب أبى حنيفة فى حسن تمسكه بالطاعة لأولى الأمر .

ومن ذلك ما رواه الحسن ابن أبى مالك أحد أصحاب أبى يوسف ، أنه دخل أبوحنيفة الى قاضى الكوفة ابن أبى ليلى ومعه أبو يوسف ليقضى حقه ، فلما جلس أبو حنيفة عنده قال ابن أبى ليلى لحاجبه : ائذن لمن حضر من الخصوم بالدخول ، كأنه أراد أن يُرى أبا حنيفة كيفية الاجراءات التى يتخذها مع الخصوم ، وكيفية أعماله فى القضاء وإمضائه الحكم ، فدخل عليه الخصوم وتقدم اليه جماعة فحكم بينهم ، ثم تقدم اليه رجلان فقال أحدهما : أعزك الله ، إن هذا الرجل قذف أمى بالزنا وقال لى يا ابن الزانية ، وأنا أسأل القاضى أن يأخذ لى بحقى منه ، فقال ابن أبى ليلى للمدعى عليه : ما تقول فى هذا ؟ فقال له أبوحنيفة : أتسأله عن دعواه وليس هو له بخصم ؟! إنه رمى بالزنا أمه ، فهل ثبتت وكالته عن أمه عندك ؟ قال : لا ، فقال : أقبل على المدعى واسأله أحيَّة أمه أم ميتة ؟ فان كانت حية فلا وجه لدعواه إلا بوكالة منها فى المطالبة بحقها ، وإن كانت ميتة كان قولا آخر . فسأل ابن أبى ليلى المدعى فقال له : أمك حية أم ميتة ؟ قال بل ميتة ، قال له : أقم عندى البينة بوفاتها حتى أعلم ذلك ، فأقام عنده البينة بوفاتها ، فسأل ابن أبى ليلى المدعى عليه عن دعوى المدعى ، فقال له أبو حنيفة : سَل المدعى هل لأمه وارث غيره ؟ فان كان له إخوة كانت المطالبة له ولهم ، وإن كان هو وحده كان قولا آخر ، فقال ابن أبى ليلى للمدعى : هل لأمك وارث غيرك ؟ قال لا ، قال : فأقم عندى البينة بذلك ، فأقام البينة أنه وارث أمه ولا وارث لها سواه ، فذهب ابن أبى ليلى ليسأل المدعى عليه عن دعوى المدعى ، فقال أبو حنيفة : سَله عن أمه أحرة هى أم أمة ؟ فقال ابن أبى ليلى

للرجل : أمك حرة أم أمة ؟ قال : بل حرة ، قال فأقم عندى البينة ، فأقام بينة بذلك ، فذهب ابن أبى ليلى ليسأل المدعى عليه ، فقال أبو حنيفة : اسأله أمسلمة هى أم معاهدة ؟ قال : هى حرة مسلمة من بنات آل فلان سراة بالكوفة ، قال : فأقم عندى البينة بأنها مسلمة ، فأقام البينة عنده بأنها مسلمة ، ثم أقام البينة على أن أمه عفيفة عن وطء تحد به ، وأن ذلك الرجل لم يقذفها فى حياتها وأنها ساحته من حد القذف لأنه إذا قذفها وهى حية وساحته من الحد لم يحد بقذفها . ثم قال أبو حنيفة لابن أبى ليلى بعد ذلك : شأنك الآن ، فسل المدعى عليه عن دعوى المدعى ، فسأله فأنكر ، فقال للمدعى : ألك بينة ؟ قال : نعم جماعة من وجوه أهل الكوفة ، قال : فأحضرهم مع خصمك حتى أسمع شهادتهم عليه . ثم نهض أبو حنيفة بعد هذا وانصرف . . .

فمن هذه الوقائع يتبين تبريز أبى حنيفة فى علم القضاء وبديع استنباطه ، وسرعة خاطره ، وتوقد ذكائه ، ومقدرته الفقهية التى بلغت فى التجديد فى الدين أعلى الدرجات .

نقول : لو صح هذا كله لكان ابن أبى ليلى غير جدير بتولى القضاء ، فإن ما لاحظه أبو حنيفة عليه من الأوليات الاجرائية ، فنحن نشك فى صحته ، وإنما أوردناه لما فيه من الطرافة ، وإدلالا على اعتراف الجماهير بثقوب نظر أبى حنيفة فى إدارة شئون التقاضى ، مع أنه لما دعى لتولى القضاء أبى أن يقبله تورعا ، وشدد عليه فى القبول فأصر على الإباء ؟

السيد عفيفى

من أخبار الكرماء

من الكرماء المعدودين يزيد بن المهلب بن أبى صفرة . كان هشام بن حسان إذا ذكره قال : والله إن كانت السفن لتجرى فى جوده .

وقيل ليزيد بن المهلب هذا : مالك لا تبنى دارا ؟ قال : منزلى دار الامارة أو الحبس . إنه بين أن يكون مرضيا عنه فيؤمر ، أو مغضوبا عليه فيحبس . وتلك كانت عادة ذلك الزمان يتردد كبار الرجال فيه بين الامارة والحبس والتجريد من الممتلكات .

دخل الفرزدق عليه وهو مغضوب عليه فى الحبس فأنشده :

أصبح فى قيدك السماحة والمجـ ـد وفك العناة والأغلال

فأمر له بعشرة آلاف درهم .

التصوف والمتصوفون

— ٥ —

تتمة الحديث عن الحلاج

مذهبه :

شرح الحلاج الحديث النبوى القائل : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » بأن أداء فريضة العلم لا يتحقق بأن ينقل الشخص الى المؤمنين صحة قراءة القرآن أو القواعد الاجتماعية والمواريث والمعاملات التى وردت فى الكتاب والسنة ، ولا بافهامهم معانى القانون الشرعى ، وإنما يتحقق واجب العالم بأن يجد الحقيقة نفسها ، وأن يساهم فيها ويعزلها عما يفنى ، وأن يصير طويته متفقة مع الأمر الإلهى . وإذاً فليس منهج الحلاج هو تسجيل القواعد والتقاليد ، ولا موازنة بعض المعانى ببعض ، وإنما هو بحث أخلاقى عميق فى داخل النفس .

وقد سبق الحلاج الى هذا الرأى أستاذاه : الجنيد وسهل المكى ، اللذان يعرف مذهبهما بعلم القلوب والخواطر .

لهذا كانت الإلهيات التنسكية أهم آراء الحلاج . وغاية هذه الإلهيات عنده هى توطيد اتحاد حقيقى أبدى بين الانسان وربه ؛ والمبدأ الذى صدرعنه للوصول الى هذه الغاية هو رياضة الجسم بالأفعال الدينية على الطاعة ، وشغل القلب بالتقوى ، والحرمان من الرغبات ، وامتلاك النفس بالحيلولة بينها وبين شهواتها ، وتنقية الطبيعة من كل ما هوجسدانى . فاذا وصل الى هذه المرتبة حلت فيه روح القدس . ولهذه المرتبة ثلاث درجات : الأولى هى درجة الرياضة والكبح والزهد ، وتدعى درجة المريد ؛ والثانية درجة الاضطرار والبلاء واستهلاك الناسوتية ، والخلاء والفناء عن الأوصاف البشرية ، وتدعى درجة وحدة الذات أوالمراد ، أى الذى أراده الإله ونقى جوهره من كل ما عداه ؛ والثالثة درجة حياة الاتحاد أو عين الجمع أو رفع الآنية وهى عليا الدرجات التى تحقق فيها الاتحاد التام (١) .

يقرر الحلاج متأثرا بروحانية النظام أن لدى الانسان وحدة أساسية هى رياسته المدبرة ، وهى القلب ، ولهذا فان عملية التنقية السالفة تتم بوساطة القلب . ولما كان هذا القلب مؤلفا من عدة أغلفة كان ذلك النقاء على عدة درجات ، والقسم الأخير من أقسام القلب يدعوه الحلاج

---

(١) انظر صفحة ٥١٥ وما بعدها من كتاب الاستاذ ماسينيون .

بالسر ، ويسميه بالخلوة الخفية الممتنعة على المخلوقات ؛ وهـذا الذى عناه السراج بقـوله : « أسرارنا بكر لايفتضها وهم واهم » . فما دام الله لم يتجل على هذا القسم فان شخصية الانسان تظل بدون صورة ، أو تظل نوعا من السريرة المؤقتة أو الآنية والهوية ، ولـكنه حين يبدأ الانسان فى التخلى عن كل شىء يخصب الله هذا القسم ويكسبه الضمير وهو شخصيته المحددة ، وحقه فى أن يقول : أنا . وهذا الحق هو الذى يجمع الشخص الواصل بمنبع الـكلمة الإلهية ، لأن الله هو سر السر وضمير الضمير (١) .

ومن هذا كله يتضح أن مذهب الحلاج كان نوعا من الحلولية التشريفية التى لا تزيد على نزول التجلى الإلهى فى قلب المتنسك ، وسكب الأسرار الربانية فيه ، وإلهامه الحقيقة العليا التى ترفعه الى مرتبة الاتحاد الـكامل ، وتبيح له أن يقول : « أنا الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، أنا الحق والـكل ، ووجودى غير محتاج الى دليل ، لأنى فى كل شىء مقيم » .

ومما أوضح به مذهبه هذا قوله :

سبحان من أظهر ناسوتُه سِرَّ سَنا لا هـوته الثاقب
ثم بدا فى خلقـه ظاهـرا فى صـورة الآكل والشـارب
حتى لقـد عاينه خلقـه كلحظـة الحـاجب بالحـاجب

أحسب أن فهم فـكرة وحدة الوجود وبسطها على هذا النحو لا يدعان مجالا للريب فى أن المبادىء الإشراقية التى هى مزيج من التنسكات الإغريقية والهندية والاسكندرية ، كانت قد نضجت فى عهد الحلاج نضوجا يشرف النهضة العربية ،ويرفع من شأن الثقافة الاسلامية ،ويشهد بفضل المشرفين على الحركة العقلية إذ ذاك . وإذا أغضينا عن أن مبدأ وحدة الوجود يخالف ظاهر الشرع أو يوافقه ويرضى رجال الدين أو يسخطهم ، فإنه لا يسعنا إلا أن نحنى الرءوس إجـلالا لأولئك المفـكرين الأفـذاذ الذين حقد عليهم الفقهاء واضطهدهم الحـكام وثارت بهم الجماهير ، وقاسوا من التعذيب والتنكيل ما سيبقى وصمة فى جبهات الذين اقترفوه إرضاء لشهوة خاصة أو مطمع شخصى أو تملقا للمتعصبين والعامة ، وهذا الإجلال الذى نحسه لأولئك المفـكرين ليس ناشئا من جدارتهم العلمية وعظمتهم الفكرية فحسب ، بل هو ناشىء كذلك من شعورنا بقوة نفوسهم ، وكبر قلوبهم ، ومتانة إيمانهم بمـا كانوا يدينون به ، واستهانتهم بالحياة فى سبيل مبادئهم . ولا جرم أنه لو سادت هـذه القوة النفسية بيئة العلماء واحتقروا عرض الحياة الدنيا فى سبيل مبادئهم لعاد للشرق سلطانه العلمى الغابر ، ورجعت إليه سيادته التى تفرد بها فى شباب الزمان .

---

(١) انظر صفحتى ٤٨٥ و ٤٨٦ من الـكتاب المذكور .

أنصار الحلاج وخصومه :

لسنا نريد أن نعرض لأنصار الحلاج وخصومه من الفقهاء والمحدثين وعامة المسلمين ، فقد كانت الأكثرية الغالبة من هؤلاء جميعا معادية له ، ثم تغيرت آراء بعضهم فيه على الزمن وبقيت آراء البعض الآخر كما هى ، وإنما نقصد أنصاره وخصومه من المتصوفين ، وله من كلا الفريقين عدد عظيم لو تتبعناه لطال المدى . ولهذا سنقتصر على الاشارة الى نماذج من الأنصار والخصوم ، لنقفك على نوع من الوفاء لدى القسم الأول ، ولون من الحقد لدى القسم الثانى . وإليك هذه النماذج :

من الأنصار :

ابن عطاء : هو أبو العباس أحمد بن سهل بن عطاء ، عاش فى القرنين الثالث والرابع الهجرى ، وكان شديد الاخلاص والوفاء لدينه ، قوى التمسك بأهداب السنة الى حد أن اتفق المالكيون ـ وهم إذ ذاك على رأس المحافظين ـ أنه من أجلاء السنيين . وكان من ألد خصوم الجنيد بسبب اختلافهما فى الاجتهاد فى المسائل الدينية . وقد أعلن إيمانه بالخلود الشخصى للنفس ، وبحقيقة الجنة الموعود بها فى القرآن . ومن أشهر ما اختلف فيه مع الجنيد مسألة التفضيل بين الغنى الشاكر والفقير الصابر ، إذ قرر ابن عطاء رفعة الأول على الثانى ، بينما قرر الجنيد العكس ، ومسألة التفضيل بين المؤمن الذى قطع الطريق على الفتن فاستراح منها ، والمؤمن الذى لا تزال الفتن تعترض سبيله فيتخاص منها ، حيث قرر الجنيد سمو الأول ، وأعلن ابن عطاء العكس ، وما شاكل ذلك .

بعد هذه الحياة العادية التى كان الكثيرون من الفقهاء يحيونها ، اتصل ابن عطاء بالحلاج واستحكمت بينهما أواصر الصداقة ، فجعل يشاطره كثيرا من آرائه . فلما سمع الوزير حامد ابن عباس أحضره وعرض عليه اعتقاد الحلاج الذى أدانه الفقهاء من قبل ، وطلب اليه أن يكتب رأيه فيه ، فكتب بخطه هذه العبارة : « إنه اعتقاد حق ، وإننى أدين به ، وكل من لا يدين به لا عقيدة له » . فاستشاط الوزير غضبا وقال : « إذاً ، أنت تؤيد هذه العقيدة ! » . فأجاب ابن عطاء قائلا : « ماذا عندك لهذا الرجل ؟ ماذا تأخذ عليه ؟ ولماذا أنت تتعقبه بغضبك ؟ ولماذا أنت تصادر أموال الناس وتتعقبهم وتقتلهم ؟ ولماذا يضايقك كلام هؤلاء الأشخاص الأجلاء ؟ » فلما سمع الوزير هذه العبارات الجريئة انجرح غروره وأمر بضربه فوق فكه ، فصاح ابن عطاء مخاطبا الإله قائلا : « يا إلهى إنك لم تلق بى فى هذه المهانة إلا لتعاقبنى على أن دخلت عند رجل مثل هذا » . فأمر الوزير بأن تخلع نعله ويضرب بها على رأسه ، فأخذوا يضربونه حتى نزف الدم من أنفه ، ثم أراد الوزير أن يسجنه ، ولكن بعض خلصائه نصحوه

ألا يفعل ، لأن الشعب كان شديد التعلق به ، فخشى حدوث ثورة فأمر بحمله الى منزله ، فتوسل ابن عطاء الى ربه أن يميت هذا الوزير موتا عنيفا ، ثم توفى بعد سبعة أيام من هـذه الحادثة . وقد روى السلمى أن هذا الوزير لم يمت إلا بعد قطع يديه ورجليه وإحراق منزله ، وكان ذلك فى العام التالى لموت ابن عطاء . وقـد حدثنا الأستاذ « ماسينيون » عن « أميد روز » أن الوزير لم يمت على هـذه الصورة ، وإنما طرد فى سنة ٣١١ هـ من الوزارة ثم قبض عليه وسلم الى ابن الوزير الجـديد ، وكان له عنده ترة قديمة ، فألبسه جلد قرد وأمر بترقيصه فى الطرقات وضربه كلما تلكأ فى الرقص . وأخيرا قتل . وقيل قدمت إليه بيضة مسمومة (١) .

ومن أنصار الحلاج أيضا : ابن أبى الخير ، وابراهيم النصر اباذى ، وغيرهما .

من الخصـوم :

ابن شيبان : هو ابراهيم بن شيبان القِرْمسينى المتوفى فى سنة ٣٣٧ هـ وكان رئيس الصوفية من السنيين فى أصبهان وقد هاجم الحلاج وشنع عليه كثيرا ، ورماه بأنه ما طوّح به الى الهاوية التى سقط فيها إلا كبره وغروره .

ومن هؤلاء الخصوم كذلك : ابن أبى زرعة الطبرى المتوفى حوالى سنة ٣٥٣ هـ وقـد كتب رسالة ضد الحلاج حمل فيها عليه حملة شعواء .

ومنهم أيضا أبونعيم الأصفهانى المتوفى فى سنة ٤٣٠ هـ وصاحب كتاب « حلية الأولياء » الذى عنى بأن ينفى منه الحلاج بغضا له واستهانة بشأنه . « يتبع »

الدكتور محمد غلاب

(١) انظر صفحة ٢٦٠ وما بعدها من كتاب الاستاذ ماسينيون .

التحايل على العطاء

كان أبوجعفر المنصور يجلس فى حلقة أزهر السمان المحدث ، فلما ولى الخلافة قصده أزهر ، فسأله عن حاجته ، فقال : إن دارى تهدمت وعلىّ دين ، فأمر له باثنى عشر ألف درهم ، وقال له : لا تأتنا بعدها طالبا . فلما مرت سنة رآه فى مجلسه ، فسأله أبوجعفر عن شأنه ، فقال : يا أمير المؤمنين جئت مسلما ، فأمر له باثنى عشر ألفا وقال له : لا تأتنا طالبا ولا مسلما . فلما كان بعد سنة أتاه ، فسأله ما جاء بك ؟ فقال جئت عائدا ، فأمر له باثنى عشر ألفا وقال له : لا تأتنا طالبا ولا مسلما ولا عائد . فلما مضت سنة جاءه ، فسأله عن مراده ، فقال : سمعتك يا أمير المؤمنين تدعو بدعاء فجئت لأستكتبه . فضحك أبو جعفر المنصور ، وقال له : ائتنا متى شئت فقد أعيتنى فيك الحيل !

دراسات في القرآن الكريم

تاريخ علم التفسير

نماذج من تفسير الصحابة رضوان الله عليهم

عروة بن الزبير — عائشة

١ — قول الله تعالى : « حتى إذا استَيْأسَ الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرُنا فنُجِّيَ مَن نشاء ، ولا يُرَدُّ بأْسنا عن القومِ المجرمين » :

روى البخارى بسنده عن ابن شهاب قال : أخبرنى عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها ، قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى : حتى إذا استيأس الرسل ، قال : قلت : أكُذِبوا أم كُذِّبوا ؟ قالت عائشة : كُذِّبوا ؛ قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن ، قالت : أجلْ لعمرى لقد استيقنوا بذلك ؛ فقلت لها : وظنوا أنهم قد كُذِبوا ؟ قالت : معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ؛ قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدّقوهم فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر ، حتى إذا استياس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذّبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك .

محاورة شائقة ، ونقاش شريف ، يرمى الى رفع مقام الرسل عليهم الصلاة والسلام الى المستوى اللائق بهم ، حيث اصطفاهم الله وجعلهم هداة العالم وأعلام الحقائق .

والصحابة رضوان الله عليهم — كما قلنا غير مرة — خريجو مدرسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المستنون بسنته ، المهتدون بهديه ، فلا عجب أن حذوا فى تفسيرهم للقرآن الكريم حذو رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن كان هناك تفسير للرسول صلوات الله عليه لآية من الآيات تمسكوا به ، وأغناهم ذلك عن مؤونة الاجتهاد ، وإلا اجتهدوا فى تفسير الآية اجتهادا مرماه بيان الأحكام فى الآية ، وإيضاح معناها ، وبيان مطلقها ومقيدها ، وعامها وخاصها ... الخ ، لا أن يخصصوا أو يقيدوا من عند أنفسهم ، ولكن يبينون ذلك إذا كان موجودا ؛ فليس لهم ما للرسول صلى الله عليه وسلم من تخصيص عام القرآن أو تقييد مطلقه أو نسخه (١) ونحو ذلك .

---

(١) يرى الامام الشافعى أن السنة المتواترة تنسخ القرآن . راجع كتب الاصول .

وليس تفسير الصحابة كتفسير المتأخرين من علماء الطبقات ، وهم الذين جمعوا بين التفسير بالمأثور والتأويل ، فليس فيه تبسيط للمعانى وتنويع لهـا ، وبيان الاحتمالات الكثيرة فى الآية ، وتوجيه كل احتمال ـ الناشىء ذلك كله من أوجه الإعراب والقراءات وغير ذلك مما أدخله المتأخرون من العلماء فى علم التفسير ـ وإنما هو تفسير مقصور على جوهر المعانى ، وصميم الأحكام ، وبيان المراد .

وليس أدل على هـذا من الآية التى نحن بصددها ، فاذا قارنت بين تفسير السيدة عائشة رضى الله عنها لها ، وبيانها معنى الآية لعروة بن الزبير ، وبين ما كتبه علماء التفسير على الآية ، وجدت الفرق هائلا والبون شاسعا . ونحن كمؤرخين لعلم التفسير ليس من شأننا الدخول فى التفاصيل ، وإنما مهمتنا مقصورة على بيان تطورات هذا العلم ؛ ولكن لأجل أن يستفيد القارىء علما بهذه التطورات ، رأيت أن أشير الى مناط الفروق ، ورءوس المسائل بشىء قليل من الإيضاح ، فأقول :

هناك معنى من المعانى دار بخلد عروة بن الزبير أقلقه ، إذ رآه منافيا لمقام الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فلم يستسغه ، وهذا المعنى هو : أن الرسل ظنت بربها أنه جل شأنه أخلفها ما وعدها من النصر . لا شك أنه معنى باطل قطعا ، ويجب استبعاده عن الذهن استبعادا نهائيا لمنافاته لمقام الرسل .

وعلم عروة أن مناط هذه الشبهة ومثارها كلمة (كذبوا) فى الآية الكريمة ، بالتخفيف ، فتفيد بظاهرها نسبة ما لا يليق من الظن الى الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ، فسارع الى السيدة عائشة يسألها ، وجعل مناط السؤال النص على مثار الشبهة رأسا . انظر الى قوله : قلت : يعنى للسيدة عائشة (أكذبوا) بالتخفيف ، أم (كذبوا) بالتشديد ؟ قالت عائشة : (كذبوا) تعنى بالتشديد . فالمعنى أنهم كذبوا تكذيبا قاطعا لا أثر لاشك فيه ولا إيمان بعده . وهذا من شأنه أن يتناسب مع العلم واليقين لا الظن .

وأدرك هذا المعنى عروة رضى الله عنه على الفور ، وأن هذا العلم وذاك اليقين مصدره الوحى ، وأراد أن يستوثق من فهمه هذا من السيدة عائشة وأن يقررها به ، فقال : قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن ؟ قالت : أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك ، يعنى من طريق الوحى ؛ فقلت لها : وظنوا أنهم قد كذبوا ؟ يعنى بالتخفيف ، قالت : معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ... الخ . علم عروة بعد الجدل والنقاش أن المعنى الذى دار بخلده ، والذى نشأ من قراءة (كذبوا) بالتخفيف ، منفى نفيا باتا ، فالسيدة عائشة رضى الله عنها لا تقرأ إلا (كذبوا) بالتشديد ، والمعنى على هذه القراءة واضح ، وانتهى النقاش والجدل بينهما على ما سمعت ؛ وليس شىء وراء هذا .

فهذا مثال من تفسير الصحابة لآية من القرآن الكريم . وإن شئت فقل لآية مشكلة من متشابه القرآن الكريم ، وبذلك يقف المفسر عن الخوض فيها .

انظر الآن الى المواضع والمسائل التى تناولها علماء الطبقات من المفسرين فى الآية الكريمة :

أولا — بحثوا أول ما بحثوا فى كلمة (حتى) وأنها غاية لشىء ، وأن هذا الشىء غير مذكور فى الآية ، وأنه مقدر دل عليه السياق ؛ ثم اختلفوا فى ذلك الشىء المقدر ما هو ، وذهبوا فيه مذاهب شتى ، ثم عنوا بالترجيح بين هذه الآراء .

ثانيا — بحثوا فى نسبة الاستيئاس الى الرسل ، وأنه مشكل وغير لائق بمقامهم ، بناء على ما هو الظاهر من أن الرسل عليهم السلام استيأسوا مما وعدوا به ، وأخبروا قومهم بأنه كائن ، وهـذا الظاهر غير مراد قطعا ، وإنما المراد أنهم يئسوا من إيمان قومهم ، وإن كان هذا المعنى المراد قد يتنافى ظاهرا مع عطف قوله تعالى : « وظنوا أنهم قد كذبوا » ، فان ظاهر معناه أنهم ظنوا كونهم مكذوبين فيما وعدوا به ، وعنوا بالاجابة عن ظاهر هذا العطف . الخ

ثالثا — بحثوا فى الظن ، هل هو باق على معناه من إدراك الطرف الراجح فيكون حقيقة : أم معناه العلم واليقين فيكون مجازا ، وما نوع هذا المجاز ؟ أم معناه الوهم ووسوسة النفس ، فيكون أيضا مجازا ؟ ثم إذا كان المراد هو المعنى المجازى فما سر العدول عن التعبير بما يفيده على سبيل الحقيقة ؟ الخ .

رابعا — بحثوا فى قراءة (كذِبوا) بالتخفيف (وكذِّبوا) بالتشديد ، وأثبتوا أنهما قراءتان سبعيتان ، وعرضوا لتفسير السيدة عائشة المذكور وإنكارها قراءة التخفيف ، وأجابوا عليه ، ثم عنوا عناية خاصة ببحث معنى الآية على قراءة التخفيف التى هى مثار الشبهة والإشكال ، ووضحوا المعنى عليها من جهات مختلفة ، دخلت فيها الضمائر الثلاث : ضمير (وظنوا) ، وضمير (أنهم) ، وضمير (كذبوا) ، وهل هى عائدة جميعها على الرسل ، أم على الأمم ، أم بعضها على هؤلاء وبعضها على هؤلاء ؟

خامسا — هذا عدا ما بحثوا فيه من إعراب الآية وموقعها من سابقتها ، والمعنى العام الذى ترمى اليه ، ومعنى التهديد والوعيد للكفار المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم ، المفهوم ذلك من ربط قوله تعالى : « حتى إذا استيأس الرسل » بقوله تعالى قبل ذلك : «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى اليهم » ، أى فتراخى نصرهم حتى إذا استيأس الرسل الخ . فالمعنى التهديدى حاصله : فلا يغرنكم يا كفار قريش ما أنتم فيه فليس حالكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كحال الأمم السابقة مع رسلها .

ومهما يكن من شىء فلست أريد تفسير الآية — كما قلت — وإنما أردت أن أعرض الاتجاهات المختلفة التى تثبت الفرق الظاهر بين تفسير المتأخرين من علماء الطبقات ، وتفسير الصحابة رضوان الله عليهم .

وفى الحق أن للمفسرين المتأخرين العذر كل العذر فى كثرة الأبحاث فى هذه الآية وتنوع

الاتجاهات فى معناها ، فالآية مشكلة ، وقد أشكل معناها على كثير من السلف . فهاهو عروة ابن الزبير قد سمعت قصته مع السيدة عائشة رضى الله عنها فى صدر هذا المقال .

وها هو مسلم بن يسار قد أقلقه الاشتباه فى معنى الآية فذهب الى سعيد بن جبير رضى الله عنه وساله عن معناها . والقصة بنصها كما أخرجها ابن جرير وأبوالشيخ عن ربيعة بن كلثوم قال : حدثنى أبى أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير فقال : يا أبا عبد الله آية قد بلغت منى كل مبلغ : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا » فان الموت أن تظن الرسل أنهم قد كذِّبوا مثقلة أو تظن أنهم قد كـذِبوا مخففة ! فقال سعيد : حتى اذا استيأس الرسل من قومهم أن يستجيبوا لهم ، وظن قومهم أن الرسل كذَبتهم ، جاءهم نصرنا ... الخ .

فقام مسلم اليه فاعتنقه وقال : فرج الله عنك كما فرجت عنى ! وروى أنه قال ذلك بمحضر من الضحاك فقال له : لو رحلت فى هذه الى اليمن لكان قليلا ؟

حسن حسين

بلاغة الاستعطاء

قال أبو عثمان المازنى : وفدت على أمير المؤمنين الواثق بالله ، فقال لى : هل خليت وراءك أحدا يهمك أمره ؟

قلت : نعم يا أمير المؤمنين : أخية لى ربيتها فكأنها بنتى .

قال الخليفة : ليت شعرى ما قالت حين فارقتها ؟

قال المازنى : قلت أنشدتنى قول الأعشى :

تقول ابنتى حين جد الرحيل أرانا سواء ومن قد يَتِم
أبانا فلا زلت من عندنا فإنا نخاف بأن تخترم
أرانا إذا أضمرتك البلا د تجفى وتقطع منا الرحم

قال أمير المؤمنين : ليت شعرى ما قلت لها ؟

قال أبو عثمان : أنشدتها يا أمير المؤمنين قول جرير :

ثقى بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح

قال الواثق بالله : أتاك النجاح ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

باب الأسئلة والفتاوى

فى الزكاة

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى من حضرة عيسى البابى الحلبى وشركاه : تألفت شركة تجارية من أشخاص شافعيي المذهب ، ونص فى العقد على ما يأتى :

أولاً — يتولى إدارتها أحد الشركاء على نظام مبين فى العقد (البند الرابع من العقد).

ثانيا — الزكاة الشرعية تصرف على حسب الشريعة الاسلامية (البند العاشر من العقد) .

وقد مات أحد الشركاء عن قواصر ، هن أمينه وليلى وإلفت وانشراح ، وعينت والدتهن وصية عليهن ، وعين معها مدير الشركة مشرفا عليها .

فهل الزكاة واجبة فيما تستحق القواصر من هذه الشركة ؟

ومن يتولى إخراج هذه الزكاة بالنسبة للمستحق لهن ، هل يتولاه الوصية أم المشرف ؟ وإذا أرادت الوصية عدم إخراج الزكاة أو عدم تمكين المشرف من الاطلاع على إخراجها فهل له التمسك بالإشراف على إخراجه بمقتضى أنه مشرف ، وبمقتضى أنه منفذ لعقد الشركة الموجب لإخراج الزكاة ، واعتبار ذلك من التصرفات الواجب على المدير أداؤها ؟

والجواب على مذهب الامام الشافعى رحمه الله

١ — أن الزكاة تجب فى مال القواصر إذا بلغ نصابا وحال عليه الحول .

٢ — وأن الذى يتولى إخراج الزكاة من مالهن هو الذى يتولى الانفاق عليهن والقيام بشئونهن .

٣ — وأن للمشرف حق الاطلاع على إخراج الزكاة والاشراف على التنفيذ . والله أعلم ؟

فى الوقف

وجاء الى اللجنة الاستفتاء الآتى من الدكتور عيسى أحمد عيسى :

أنشأ الواقف وقفه على نفسه أيام حياته ثم من بعد وفاته يكون ذلك وقفا مصروفا ريعه على أولاده الذكور وهم فلان وفلان الى آخر ما جاء بكتاب وقفه ، ثم شرط شروطا منها أن يصرف من ريع الأطيان الموقوفة ريع اثنى عشر فدانا لكل من زوجته وبنتيه بالسوية ، هكذا جاء بكتابه ، ثم حدث أن أخذت الحكومة للمنافع العامة مقدارا من هذه الأطيان

الموقوفة ، فهل يؤخذ هـذا المقدار من جميع المقدار الموقوف بحيث ينقص نصيب الزوجة والبنتين بمقدار ما يخصه من المقـدار المأخوذ للمنافع ، أو أن نصيبهم لا ينقص منه شىء ويؤخذ هذا المقدار المأخوذ للمنافع من نصيب الأولاد الذكور فقط ؟

الجواب :

بعد الاطلاع على صورة كتاب الوقف المرسلة مع السؤال تبين أن الواقف وقف ٦٤ فدانا وكسورا على نفسه أيام حياته ، ثم من بعد وفاته يكون منها اثنا عشر فدانا مصروفا ريعها على زوجته وبنـاته المسميات بكتاب الوقف ، منها ربع خمسة أفـدنة يصرف على إخوته المسمين بكتاب الوقف ، والباقى بعد ذلك يكون لأولاده الذكور على حسب ما فى الـكتاب المذكور ، ولم يفرز نصيب واحد من هذه الأنصبة عن الآخر بل جعل ذلك كله على الشيوع .

وقد تبين من مشافهة المستفتى أن الواقف توفى الى رحمة الله وآل الوقف الى أولاده الذكور وزوجته وبناته المسمين بكتاب الوقف .

وبما أن هذه الأنصبة جعلت فى الوقف على سبيل الشيوع ولم يفرز واحد منها عن الآخر ، فترى اللجنة أن كل ما أخذ أو يؤخذ من هـذه الأطيان للمنافع العامة أو غيرها فإنه يخصم من أصل الوقف ، ويدخل به النقص على كل نصيب من هذه الأنصبة الثلاثة بالنسبة ، ولا يختص به فريق دون فريق . والله علم ؟

فى الاسترقاق

وجاء الى اللجنة أيضا الاستفتاء الآتى من محمد عبد الرازق محمد عيسى بدنقلة بالسودان :

فى الجهات النائية من بلادنا ناس ليس لهم دين ، ولا يعرفون عن الاسلام شيئا ، والناس يسمونهم « المجوس » ويستولون عليهم أفرادا وجماعات ويبيعونهم بحجة أنهم عبيد أرقاء ، ويستولدون النساء منهم أو يبيعونهن . فما الحـكم الشرعى فى ذلك ؟

الجواب :

أن هذا العمل حرام ، ولا يجوز بيع مثل هؤلاء ولا شراؤهم ، ولا استيلاد نسائهم بغير الطريق الشرعى . وعلى المسلمين وخصوصا الذين بالقرب منهم أن يرشدوهم الى دين الله ويهدوهم الى الإسلام . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

الطـــلاق

– ٢ –

(٥) الطلاق عند العرب فى الجاهلية :

كان الطلاق عند العرب فى الجاهلية مشروعا ، وكان أهل العرب فى الجاهلية واهل الاسلام فى الصدر الأول لا حد للطلاق عندهم ، فكان للرجل أن يطلق امرأته ما شاء ويرجعها بعد ذلك ، وكان ذلك قد يؤدى الى الإضرار بالمرأة فتترك لا هى بذات زوج ولا هى خلية تحل للأزواج . فقد أخرج ابن جرير الطبرى عن هشام بن عروة عن أبيه قال : كان الرجل يطلق ما شاء ثم إن راجع امرأته قبل أن تنقضى عدتها كانت امرأته ، فغضب رجل من الأنصار على امرأته فقال لها : لا أقربك ولا تحلين منى ؛ قالت له : كيف ؟ قال : أطلقك حتى إذا دنا أجلك راجعتك ، ثم أطلقك فاذا دنا أجلك راجعتك . قال : فشكت ذلك الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى قوله الكريم : « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أوتسريح باحسان » . ومن العرب من تمسك بسنة اسماعيل عليه السلام ، وهو أن يطلق الرجل امرأته ثلاثا على التفرقة ، والرجل أحق بزوجته حتى يستوفى الثلاث ، ومنه قول الأعشى حينما تزوج امرأة فرغب بها عنه ، فأتاه قومها فهددوه بالضرب أو يطلقها ، فقال :

أيا جارتى بينى فانك طالقه ... كذاك أمور الناس غاد وطالقه

قالوا : ثانية ، فقال :

وبينى فان البين خير من العصا ... وإلا ترينى فوق رأسك بارقه

قالوا : ثالثة ، فقال :

وبينى حصان الفرج غير ذميمة ... وموموقة قد كنت فينا ووامقه

(٦) الطلاق فى التشريع الاسلامى :

لقد ذهب بعض الناس الى أن إيقاع الطلاق ليس بمباح إلا عند الضرورة لقوله عليه الصلاة والسلام : « لعن الله كل ذواق مطلاق » . ولكن الجمهور ذهبوا الى إباحته بالنصوص المطلقة كقوله تعالى : « لا جناح عليكم إن طلقتم النساء » ، وقوله تعالى : « يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » . وعلى كل فان الطلاق مباح لكنه بغيض الى الله لقول النبى « أبغض الحلال الى الله الطلاق » ، فيكره إن لم تكن حاجة اليه لأن ذلك كفران للنعمة وسوء أدب . وهو يقع بإيقاع الزوج ، فهو حق خالص للزوج دون المرأة ، إلا أن للزوجة أن تشترط عليه وقت عقد الزواج أو بعده أن تكون عصمتها بيدها ، فتوقع الطلاق على نفسها نيابة عنه متى شاءت ، أو أن تعلقه بشرط : كأن لا يتزوج عليها مثلا ، وكذلك لها أن تفتدى منه بالمال

فإذا قبل الزوج أن يطلقها مقابل ما سيأخذه منها من المال صح ذلك وسمى خلعا ، فقد قال تعالى : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ... » الآية . ويقسم الطلاق الى طلاق رجعى وطلاق بائن ، فالرجعى ما يرتفع به قيد النكاح بعد انقضاء العدة ، والبائن هو الطلاق الذى يرتفع به قيد النكاح فى الحال . وينقسم الطلاق البائن الى قسمين : بائن ببينونة صغرى وهو ما كان بما دون الثلاث ، وبائن ببينونة كبرى وهو ما كان بالطلقات الثلاث . وعلى ذلك يكون للرجل أن يطلق امرأته ثلاث مرات لأنه ربما يندم بعد طلاقه لها ، فشرعه الله ثلاثا ليجرب الزوج نفسه فاذا ندم على فعلته أرجعها ، قال الله تعالى : « وبعولتهن أحق بردهن » ، ثم إذا ظهر الشقاق مرة أخرى له أن يطلقها مرة ثانية وإن ندم له أن يرجعها ، فاذا أوقع الثالثة يكون قد جرب وفقه الحال ، وبعد تعدد الثلاث تبلى الأعذار ، لذلك لا تحل له بعد ذلك إلا إذا تزوجت شخصا آخر ودخل بها وطلقها بعد ذلك ، فقد قال تعالى : « فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ، فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله ، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون » . والطلاق يكون على ثلاثة أوجه (١) : حسن ، وأحسن ، وبدعى ، (١) فالأحسن هو أن يطلق الرجل امرأته تطليقة واحدة فى طهر لم يجامعها فيه ويتركها حتى تنقضى عدتها ، وبذلك يمكنه أن يرجعها إن ندم فى العدة بدون عقد ، وبعدها بعقد ومهر جديدين . (٢) والحسن هو طلاق السنة ، وهو أن يطلق المدخول بها ثلاثا فى ثلاثة أطهار ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابن عمر : إن من السنة أن نستقبل الطهر استقبالا ويطلقها لكل مرة تطليقة » . (٣) وطلاق البدعة : أن يطلقها ثلاثا بكلمة واحدة أو ثلاثا فى طهر واحد .

الخاتمة :

والآن يمكننى أن أقول على ضوء هذه الدراسة التاريخية المطولة : إن مشروعية الطلاق يمكن أن تكون على أربعة أشكال :

(ا) مبدأ تحريم الطلاق وعدم تلاشى النكاح . (ب) مبدأ إباحة الطلاق بصورة واسعة جدا ، وذلك بأن يتم رفع قيد النكاح بارادة المرأة فقط ، أو بارادة الرجل فقط ، أو برضا الطرفين كما كان عليه الأمر عند الرومانيين فى النكاح دون ما سلطة . (ج) مبدأ إباحة الطلاق بصورة ضيقة نوعا ، دون التقيد بسبب أو تدخل القضاء ، وذلك بأن يتم الطلاق بارادة الرجل فقط (كما هو الأمر عندنا وعند الجرمانيين) . (د) مبدأ إباحة الطلاق بصورة ضيقة جدا كأن يكون عقوبة للزوج المذنب ، وأن يكون بواسطة القضاء ولأسباب معينة .

وكذلك يمكننى أن أستنتج من هذه المعلومات التاريخية أن الطلاق كالنكاح من الضروريات المقومة للمجتمع . والدليل على ذلك أن مبدأ « عدم تلاشى النكاح » لم يمكن تطبيقه قط حتى

(١) فتح القدير ج ٣ ص ٢٣ .

أن التفريق الجسدى الذى وضع أسسه رجال الـكنيسة لا يختلف عن الطلاق إلا بمسألة عدم تلاشى النكاح اسما ، لـكن النـكاح فى الحقيقة قد تلاشى فعلا . فالزوجان (١) يعيشان متباعدين ولم يبق بين الزوجين من أحكام النـكاح إلا أمران : وجوب النفقة عند الحاجة (٢) ووجوب المحافظة على فروجهما ، فاذا بحثنا فى الأمر الثانى ألفينا أن كل شخص منهى عن الزنا ، وإذا كان سبب التفريق الجسدى هو نفس الزنا يحصل معنا دور : فأحد الزوجين منهى عن الزنا ، إلا أنه قد زنى ، فحـكم بينهما بالتفريق الجسدى ، وهذا الأخير يوجب أيضا النهى عن الزنا ، فيجب أن يحكم (إن زنى أيضا) بالتفريق الجسدى مرة أخرى لأنه لاحكم وراء ذلك . أما نفقة أحد الزوجين على الآخر عند الحاجة القصوى فهى لا تتعدى أن تـكون كصلة ورابطة القرابة العادية أو إحدى بقايا الروابط القديمة ، لـكن معنى الازدواج غير موجود قط .

زد على ذلك أن قيام النـكاح اسما يمنعهما من الزواج ثانية ، ويكونان كما قال مسيو بلانيول (٣) « قـد ضحيا ببقاءهما دون ما أمل ، ويجدان أنفسهما قـد حكم عليهما بالعزوبة الاجبارية Cèlibat forcé » . وقال أيضا : « إن فى أغلب الأوقات يكون الباعث على استحالة بقاء الحياة الزوجية هو زنا أحد الزوجين أو زنا الاثنين معا ، فهل يظن إذا فرق بينهما أن يتخليا عن علاقتهما غـير المشروعة ؟ ثم ما هـو المركز الاجتماعى لمرأة مهجورة ؟ وما هو مركز الزوج إذا كانت المرأة تعبث بشرفه حاملة ومجرزة اسمه واسم أولاده فى كل مـكان ، ومعجزة إياه بطلب الدراهم ، أو مهددة إياه بفضائح جـديدة ؟ ثم قال : « إن التفريق الجسدى لا يزيل داء إلا ويستبدله بداء آخر ، فانه لا يوجد البتة صبغة حياة زوجية بين زوجين مكرهين أن يعيشا معا ، ولـكن يوجد فضائح علنية تحمل الزوج الآخر على اليأس ، حتى إن الزوجين بعد التفريق الجسدى يمـكنهما أن يقترفا المساوئ أكثر ممـا قبل » لأنهما متباعدان ، فـكل منهما حر طليق يفعل ما بدا له .

وممـا يدل أيضا على أن الطلاق كالنـكاح من الضروريات المقومة للمجتمع : أن الزوجين اللذين يريدان الافتراق يسعيان إذا كان الطلاق محرما الى إبطال عقد النـكاح من أساسه بشتى الوسائل ، كأن يدعى أحدهما أنه أكره على العقد أو غير ذلك من الوسائل التى كانوا يخترعونها كما كان عليه الأمر فى القرون الوسطى وفى إبان تحريم النـكاح فى أوروبا .

فإذا كان تحريم الطلاق غير مجد فهل يجب أن يباح بصورة واسعة جدا أم يجب تقييده بقيود تختلف وفقا لعادات الشعوب ومبادئهم القانونيـة ؟ إن إباحة الطلاق بصورة واسعة جدا هى عظيمة الضرر . وإليك شاهدا على ذلك ما حصل عند الرومانيين فى باكورة الحـكم الامبراطورى : فإن النساء كن لا يحصين السنين بأسماء القناصل ، بل كن يحصين السنين بأسماء

(١) هـو مشتق من الازدواج ، والمراد منه العيش معا (٢) موجز دالوز ، القـانون المدنى ج ١ ص ١٢٣ (٣) بلانيول القانون المدنى الافرنسى ج ١ ص ٣٦٧

أزواجهن ، أضف الى ذلك أن اتباع هذا المبدأ يقضى أن يجعل الطلاق بيد النساء أيضا ، والمرأة يغلب عليها الهوى ، وقد تكون سريعة الاغترار ، وأكثر شغفها بالدنيا وترتيب المكايد وإفشاء سر الأزواج . إذن يجب أن يتبع مبدأ إباحة الطلاق المقيدة بقيود تختلف بالنسبة للعادات ، وأن يكون الطلاق بيد من يدفع المهر ، فالمهر عند الجرمانيين فى القرون الوسطى يدفعه الرجل للمرأة وله الطلاق وحده . وقد جاء الإسلام قبل ذلك فأمر الرجال بدفع الصدقات ، وجعل لهم حق الطلاق ، فالرجل الذى يرى أن الحياة الزوجية قد أضحت لا تطاق يمكنه أن يضحى ما ملك بالمهر من البضع ، لأنه هو المتوخى من النكاح والازدواج . أما إذا كان دفع المهر من المرأة والطلاق للرجل فإن ذلك يكون واسطة للغنى والإثراء (١) . فالرجل يأخذ المهر ويقضى شهوة البطن والفرج ثم يطلق وهكذا . وهى إن قدرت على دفع المهر فى المرة الأولى فإنها قد لا تقوى على دفع المهر فى المرة الثانية أو الثالثة ، فيجب إذن إذا كان دفع المهر من قبل المرأة إما أن يحرم الطلاق وهذا ما ذهب إليه رجال الكنيسة ، وإما أن يتبع المبدأ الرابع وهو إباحة الطلاق بصورة ضيقة جدا ، وأن يكون كعقاب يحصل بواسطة القضاء لأسباب معينة كما هو الأمر الآن فى فرنسا ، وإما أن يكون المهر أمانة فى يد الرجل يعيده إليها عند تلاشى النكاح ، وهذا ما فعله جوستنيان وسمى بسبب ذلك (صديق النساء المتزوجات) (٢) .

إن هذا البحث كما قلت يصح أن يكون دليلا قاطعا وردا مفحما على من يدعى أن التشريع الإسلامى مأخوذ ومستقى من التشريع الرومانى ، لأن لكل منهما مبادئ واسما وتفاصيل يباين بعضها بعضا ، فالتشريع الإسلامى لا يعرف مسألة (السلطة manns) وما ينجم عنها من نتائج من طلاق وميراث وغير ذلك ، والرومانيون لا يعرفون الطلاق الرجعى والطلاق البائن وما ينشأ عن ذلك من فروع ، وكذلك لا يأخذ الرومانيون بعين الاعتبار مسألة الوقاع والطلاق فى طهر وتعدد الطلقات الى الثلاث . إذن لا يجوز قط أن يقال إن التشريع الإسلامى منقول عن التشريع الرومانى . ومما يزيد فى دحض هذا الادعاء هو أن الرومانيين قد اتبعوا المبدأ الثانى أى مبدأ إباحة الطلاق بصورة واسعة جدا ، فالطلاق عندهم كان يتم بارادة الرجل أو بارادة المرأة أو برضا الطرفين ، مع أن الطلاق عندنا هو للرجل فقط .

وقصارى القول وجماعه يمكننى أن أقول : إن الطلاق قد يورث بعض الآلام لاسيما إذا كان هناك أولاد ، ولكن تحمل هذه الآلام هو ضرورى لأنه دواء لمرض عضال عظيم الخطر ، وأن منع الطلاق لما قد ينجم عنه من الآلام هو كتحريم البتر بحجة تشويه المريض .

وفى الحقيقة أن الطلاق لا يقوض دعائم النكاح بل الذى يقوض دعائم النكاح هو الخلاف بين الزوجين ، والطلاق هو الذى يضع حدا لذلك .

فخر الدين الصاحب

(١) راجع ما كتبته مجددا فى مجلة الازهر تحت عنوان « المهر » .

مقارنة ومفاضلة

بين الشريعة الإسلامية والشرائع الأخرى

إن من حق الأمة الإسلامية أن تفخر بعراقتها فى الأصول وتتيه بقدمتها فى المبادئ، لما لها من تراث ثمين هو شريعتها الخالدة التى استمدت من كتاب الله القديم وسنة رسوله الكريم، فكانت للناس نبراسا يسترشد به التائهون، ونورا يهتدى بهديه طلاب الحق المستقيم.

شريعة غنية بنظمها، متينة بقواعدها، حريصة على صيانة الحقوق والأخلاق والآداب، عرّفت الإنسان مدى واجباته وحقوقه فى دائرة الحق الطبيعى، والنظام الحكيم.

بدأ بناء تلك الشريعة السمحة فى عصر خاتم المرسلين محمد بن عبد الله صلوات الله عليه، فكانت تنمو وتتكمل تحت رعاية القرآن الذى أنزله الله فى إبان تكون الأمة الإسلامية ليكون لها قانونا ونظاما، وحياة وتاريخا، وعبرا وأحكاما، وقد أتم الله تلك الشريعة بقوله تعالى: « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ». فكان محمد صلى الله عليه وسلم أول قاض قضى بين الناس بهذا القانون الكامل لقوله تعالى: « فاحكم بينهم بما أنزل الله »، وقوله تبارك وتعالى « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ».

ولقد كان محمد صلى الله عليه وسلم يقضى إما بنص كلام الله الذى ينزل به الوحى عليه، أو باجتهاده فيما لم يكن فيه نص.

ولقد قام مقامه بعد انتقاله الخلفاء الراشدون، فاجتهدوا فى تعرف الأمور التى تعرض عليهم، فكانوا يرجعون فيها الى كتاب الله، فإن لم يجدوا نصا اتجهوا الى المأثور عن الرسول صلوات الله عليه فى مثلها، فإن لم يجدوا حكموا الآراء وأجهدوا العقول، حتى يصلوا للحق وبه يحكمون.

من هذا نتبين أن المصادر للفقه الاسلامى كانت أربعة: الكتاب، والسنة، والقياس الفقهى، وهو تطبيق حكم حالة منصوص عليها على حالة غير منصوص عليها؛ والمصدر الرابع الإجماع، لقوله صلى الله عليه وسلم: « لا تجتمع أمتى على ضلالة ».

ولما كان باب الفهم واسعا فقد نشأ عنه خلاف بين المجتهدين يرجع الى ما يتجه كل منهم لناحية من الفهم، لاحتمال الألفاظ لأكثر من معنى واحد، كما يرجع الى الاختلاف فى رواية حديث، فمنهم من يرى أن الشواهد كثيرة على صحته، ومنهم من يرى العكس؛ غير

أن اختلافهم لم يكن ناشئا عن تعصب ولا تعسف ، بل كان فى سبيل الله والحقيقة ، وتحرى الصواب والوصول الى قانون شرعى يطبق على المجتمع .

وبسبب ذلك اتسعت دائرة البحث الفقهى ، وانطلق المسلمون فى كل ناحية من نواحى الأرض لنشر الدعوة الإسلامية وترويج الآراء الفقهية ، فسمت الحضارة الاسلامية ، واتسع نطاقها ، وانتشرت العلوم العقلية ، ووضعت للعلوم ضوابط ، فدوّن النحو واتسع أفق الكلام ، ودرست الناحية العلمية من فلسفة اليونان وفارس ، والهند والصين وغيرها ، واشتغل علماء الاسلام بها ، وعنى بمعرفة السمين من الغث منها ، وتكونت المذاهب ، وانجلى نور الإسلام وسطعت شمس الشريعة فتطلع إليها الجميع . فلما تناولت طائفة من علماء الغرب الشريعة الاسلامية بأبحاثهم ، وأخذوا يتعرفون مبادئها وأصولها دهشوا من متانة أسسها وقوة وطائدها ، وسعة مداركها .

ولقد قدم كثير من المصريين المشتغلين بالعلوم القانونية بأوروبا موضوعات قيمة فى الشريعة الاسلامية كانت سببا فى وقوف الكثير من علماء الغرب على نظمها وأحكامها ، وعلى أنها أخصب مصدر للبحث المقارن .

فاذا نحن أرسلنا نظرة الى الشرائع غير الاسلامية كاليونانية والرومانية التى كانت معاصرة لعهد تكون الشريعة الاسلامية ، نجد المدى بعيدا شاسعا بين الطرفين . إذا رجعنا الى الشريعة الرومانية وهى أشهرها وأوجهها ، رأينا فيها الطابع المميز لحضارة الرومان ورقيهم الفكرى ، ونشاطهم الفقهى ، وثقافتهم الأصولية ، وهى التى قال عنها العالم الألمانى إهرنج Ihering : « إن روما فتحت العالم ثلاث مرات : الأولى بجيشها ، والثانية بدينها ، والثالثة بقانونها ، وكان الفتح الأخير أكثرها سلاما وأبعد هامدى » . وقال عنها العالم الانجليزى Price (برايس) : « القانون الرومانى إنما هو قانون عالمى يمثل وحدة الانسانية المدنية ، فما من مسألة من مسائل الفقه إلا عرض لها ، وما من جانب من جوانب العلم السياسى لم يلق عليه نوره » . وقال الأستاذ الأمريكانى شيرمان Cherman : « إن الفضل فى عودة المدنية الى أوروبا بعد طوفان العصور المظلمة راجع الى القانون الرومانى » .

وإنا لنورد طرفا منها لتتبين الفروق بينها وبين الشريعة الاسلامية :

كانت شريعة الرومان أول أمرها عبارة عن تقاليد مبنية على معتقدات دينية خرافية ، كانت أساسا لنظام الملك ، ونظام الأسرة ، وكان الملك هو الرئيس الدينى المشرع ، وهو القاضى الذى يحكم طبقا لهوى نفسه ، وإن لم يتفق حكمه مع العدالة أحيانا ، وكان من يخالف حكمه يعتبر معرضا لسخط الآلهة ، وكانت طرق الادعاء مبنية على أساليب غريبة معقدة شاقة ، وإشارات وعبارات معينة أقل هفوة فيها كانت تضيع الحق على صاحبه . ولبيان ذلك

نسوق المثل الذى أورده « جيوس Gauis » وهو يتلخص فى أن شخصا قطع أشجارا لجاره بغير حق ، فذهب الرجل لرجال الدين يستلهمهم صورة الدعوى ، فمنحوه الصورة الآتية : « أقول إن المدعى عليه قطع أشجارى بغير حق » ، ولكن المدعى عندما ذهب للحاكم القضائى وبدأ يلقيها لم يقل قطع أشجارى ، ولكنه قال : قطع كرومى ، ظناً منه أن التخصيص أفضل من التعميم ، فترتب على هذا التغيير اللفظى سقوط الدعوى وضياع الحق .

دع هذا وانظر فى الشريعة الاسلامية والى ما فيها من اليسر ، تجد الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « إنكم تختصمون الىّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق أخيه فلا يأخذ منه شيئا ، فإنما أقضى له قطعة من نار » . أليس فى هذه المقارنة البسيطة ما يدل دلالة صريحة على أن الشريعة الاسلامية شريعة حق وعدل وإنصاف ، وأنها تعنى باحقاق الحق لذاته ، ولا تعنى بالأعراض ؟

خذ مثلا آخر عن الشهود وما كانوا يلاقونه من مشقة وتعقيد : كان الخصوم يستصحبون أصدقاءهم وأقاربهم لتأدية الشهادة شفهيا ، طبقا لنصوص معروفة وشكليات مخصوصة ، فاذا امتنع الشاهد عن تأدية الشهادة لنسيان طرأ عليه لطول عهد الحادثة ، أو لنسيان بعض كلمات الصيغة التى يمليها عليه رجال الدين ، فإن الشاهد يتعرض للجزاء ؛ ذلك الجزاء هو أن يذهب من طلبه للشهادة أمام داره ، ويلقى بعبارات هى فى الواقع لعنات ، ولخطورة هذه اللعنات يخول للشاهد إبطال ذلك السباب ، إذا استطاع أن يثبت أنه لم يشهد زورا ، أو لم ير شيئا يشهد عليه .

وكان عندهم أن للدائن حق الاستيلاء على مدينه إن لم يدفع الدين أو لم يقدم كفيلا للسداد ، وللدائن أن يبيع مدينه كالرقيق ، وله أن يسترده إن سرق منه .

وكان عندهم أن السارق إن ضبط متلبسا ، فللمسروق منه أن يبيع السارق كالعبد .

شريعة قاسية فى أحكامها ، عتيقة فى مبادئها ، يقتل المدين إن لم يسدد ما عليه من الدين ، كما أن للمجنى عليه أن يقتص من خصمه بيده .

وكان عندهم أن من يدعى بدين على آخر ولم يثبته ، فللمدعى عليه أن يدعوه للمبارزة ، ويثبت الحق فى ذمة المغلوب .

وكانت عقوبة الموت عندهم شنقا أو حرقا أو بفصل الرأس عن الجسد ، أو بالجلد أو بالالقاء من صخرة .

لعل معترضا يقول : إن هذه الاجراءات الخرافية والمنافية للعدالة كانت فى بدء حياة الرومان ، وقد تحسنت حالتهم ووصلت بعد تطورها الى الحالة العظيمة التى جعلت علماء

الغرب يتغنون بذكرها . ونحن نقول : إن الشريعة الإسلامية بدأت متمشية مع العدالة جنبا لجنب ، وقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم فى قوم أشداء مشركين طغاة متجبرين متكبرين ؛ فبما أودع الله فيه من صميم الحكمة ، ولباب الحق ، وبلاغة الحجة ، رفع علم الإنصاف والعدل ، فلا ترى فى الشريعة الاسلامية من بدئها للآن خرافة ، ولا ترى فيها عوجا ، وستظل كذلك ليوم الساعة إن شاء الله .

وقد ألمعنا إلماعا خفيفا عن بعض الفروق بين الشريعة الرومانية والشريعة الاسلامية ، وسنأتى فى مقال تال إن شاء الله عن الكثير مما كانت عليه شريعة الرومان غير الذى أسلفناه والشرائع الأخرى .

ونحن فى هذا المقام يحق لنا أن نهيب بحكومتنا بارك الله فيها أن تعمل على سن قوانين يكون مصدرها الشريعة الإسلامية ، وعندنا والحمد لله رجال عمرت قلوبهم بالتقوى ، وتفقهوا فى الدين ، وأظهروا للأمم جلالها ، وسموها على كل الشرائع قديمها وحديثها ، نخص بالذكر منهم حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأعظم إمام هذا الزمان الشيخ محمد مصطفى المراغى . وفقنا الله للصواب ، وسدد خطانا لما فيه الاصلاح ؟

مصطفى عبد الحميد أبو زيد

التأثم عن الولاية

قال أبو أيوب السختيانى : طُلب أبو قلابة للقضاء فهرب الى الشام فأقام حينا ثم رجع . قال أبو أيوب : فقلت له : لو وليت القضاء وعدلت كان لك أجران .

فقال أبو قلابة : يا أبا أيوب إذا وقع السابح فى البحر كم عسى أن يسبح ؟

قال أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان لجلسائه يوما : دلونى على رجل أوليه .

فقال له روح بن زنباع : أدلك يا أمير المؤمنين على رجل إن دعوتموه أجابكم ، وإن تركتموه لم يأتكم ، ليس بالملحف طلبا ، ولا بالممعن هربا ؟ عامر الشعبى .

فولاه عبد الملك قضاء البصرة .

تطور التصميم والزخرفة
فى مساجد مصر

التصميم والزخرفة فى الدولة الطولونية :

لمسجد ابن طولون مكانة سامية بين الآثار الاسلامية لا فى مصر وحدها ولكن فى العالم الاسلامى أجمع ، وقلما نجد كتابا فى العمارة الاسلامية دون أن يكون لهذا الأثر العظيم ذكر فيه .

وهو يعرض علينا بتصميمه وزخارفه أروع صفحة فى تاريخ العمارة الاسلامية ، ويلخص لنا بخصائصه ومئذنته جانبا كبيرا من العوامل المختلفة التى اشتركت فى تكوين هذا الفن الجميل .

فلنتخذ طريقنا الى هذا الأثر الخالد لنستوحى منه هذه الحقائق التى ذكرنا :

إنه على ربوة عالية على جبل يشكر ، ذلك الجبل الذى يقول فيه ابن عبد الظاهر : إن الله تعالى كلم موسى عليه . تحيط به من الشرق والشمال والغرب أسوار عالية ، تتلوها الى الداخل أسوار أخرى موازية لها ، وتزيد عنها ارتفاعا ، وكلاهما عار من الزخرفة إلا من خوصتين يعلوهما صف من دوائر فى مربعات ، وينتهيان من أعلى بشرفات إن قلت إنها تحكى ألسنة اللهب ، أو تشبه عرف الديك ، أو تقرب فى شكلها من العمامة ، ما عداك الصواب .

يحصر السوران بينهما ساحات أو زيادات على حد تعبير ابن دقماق ، تحيط بالجامع من جميع جهاته عدا جانب القبلة . ترى ما هو الغرض من هذه الساحات ؟ يقول ابن دقماق : إنها أضيفت الى المسجد عندما ضاق بالمصلين لتزيد فى رقعته . ولكن الأستاذ كرزول يرجح أنها إنما أنشئت لتحول بين ضجيج الأسواق التى كانت تحيط بالمسجد وبين وصولها الى الداخل حتى لا تعكر على المصلين هدوءهم . وهو يبنى قوله هذا على أن هذه الظاهرة العمارية تستمد أصلها من تصميم المعابد القديمة التى رآها المسلمون فى دمشق عندما فتحوها ، والتى كانت محاطة بساحات الغرض منها الفصل بين المعبد نفسه وبين ما يحيط به من أبنية ليكون بمعزل عن الضوضاء . وليس ببعيد إذن أن يكون المسلمون قد استخدموا هذه الساحات فى مساجدهم للغرض نفسه ، لا سيما وقد كان المسجد فى فجر الاسلام وضحاه قلب المدينة النابض . وهو يؤيد رأيه هذا عن طريق القياس أيضا : ذلك أن جامع عمرو بن العاص كان واقعا وسط أسواق مدينة الفسطاط كما يقول المؤرخون ، وكانت أبوابه تسمى باسم الأسواق التى تنتهى اليها . ولئن صح تعليل الأستاذ كرزول ، ولا نخاله إلا صحيحا ، كان جعل مسجد ابن طولون فى وسط ميدان فسيح بهدم ما كان يحيط به من أبنية ، فيه خروج على أصول علم الآثار الذى يفرض علينا احترام

الأثر والإبقاء عليه دون تعديل فى جوهره ومظهره ، ولا يمكن أن يشفع فى هـذا العمل الرغبة فى التجميل أو ملاءمة الذوق الحديث (١) .

لننفذ الى داخل المسجد مخترقين الرواق الشرقى الى الصحن حتى نأخـذ المـكان بنظرة واحدة ؛ فنجد أمامنا صحنا مربعا مكشوفا طول ضلعه اثنان وتسعون مترا تقريبا ، يتوسطه فوارة عليها قبة عالية تشغل مكان الفوّارة القديمة التى أنشأها مؤسس المسجد ، ويقوم فى شماله (خلف الرواق البحرى) مئذنة غريبة فى شكلها ، ويحيط به من جهاته الأربع أروقة مسقوفة ، أوسعها رواق القبلة ، إذ يوجد به خمسة صفوف من الدعائم ، كل صف به ستة عشر دعامة تحمل فوقها سبعة عشر عقدا ، وكلا الدعائم والعقود مبنية بالآجر .

أما الدعائم فمنشورية الشـكل ، يندمج فى الزوايا الأربع لـكل واحدة منها أعمدة ، تزينها تيجان تشبه الناقوس فى شكلها ، وتتحلى بزخرفة نباتية . وأما العقود فيذكرنا تقوسها بعقود إيوان كسرى ، وهى تجرى فى موازاة حائط القبلة ، وبين كل عقدين منها طاقة صغيرة تؤدى غرضين مختلفين : فهى زخرف ترتاح العين لرؤيته وسط الفراغ الممتد بين كل عقدين ، ثم هى وسيلة لتخفيف ثقل البناء .

واستعمال الآجر بدلا من الحجر ، واتخاذ الدعائم بدلا من الأعمدة الرخامية ، ظاهرتان معماريتان جـديدتان فى العمارة الإسلامية بمصر ، عللهما قدماء المؤرخين من المسلمين بعلة ، وعللهما علماء الآثار بعلة أخرى . أما الأولون فيقولون : إن ابن طولون عندما عزم على بناء جامعه هذا قال : أريد بناء إن احترقت مصر بقى ، وإن غرقت بقى ؛ فقيل له : يبنى بالجير والرماد ، والآجر الأحمر القوى على النار الى السقف ، ولا يجعل فيه أساطين من رخام فإنه لا صبر لها على النار . ويقولون أيضا : إنه قدر للجامع ثلاثمائة عمود ، وقيل لابن طولون إنه لا يجـدها إلا إذا أرسل الى الـكنائس فى الأرياف والضياع الخراب لتحمل منها فأنـكر ذلك . وأما علماء الآثار فيقولون : إن استعمال الآجر بدلا من الحجر واتخاذ الأرجل بدلا من العمد الرخامية من خصائص العمارة العراقية نقلهما ابن طولون الى مصر . وينتهى هذا الرواق جنوبا بحائط القبلة يتوسطها محراب مجوف لعبت فيه يد التجديد حتى انتهى الى الصورة التى هو عليها الآن ، والتى ترجع الى عصر المماليك ، ويكتنفه من كل جانب عمودان من الرخام متلاصقان يرجعان الى عهد إنشاء المسجد ، تزينها تيجان من الرخام المفرغ على شـكل السلال يخالها النـاظر أنها من المعدن وما هى كذلك (٢) . ويخترق جدار القبلة من أعلى اثنان وثلاثون نافذة قد سدت

(1) Creswell: Early Muslim Architecture Part II. p. 339 - 340.

(٢) فى المسجد عدا هذا المحراب محاريب خمسة من الجص موجودة فى هذا الرواق متأخرة فى إنشائها عن تاريخ بناء المسجد إلا واحدا يظن أنه من أواخر العصر الطولونى .

جميعها بشبابيك من الجص تجلو على الناظر أشكالا هندسية جميلة . ولا يعاصر إنشاء المسجد منها إلا أربعة ، قوام زخارفها دوائر متشابكة (١) . كما يخترق الجدار من أسفل أبواب أربعة : الأول والرابع يفضيان الى الطريق ، والثانى يفتح على مخزن صغير ، أما الثالث فكان ينفذ منه الى دار الإمارة . وهذا الأخير يذكرنا بحادثتين تاريخيتين مضى عليهما أكثر من ألف سنة ، ويدلنا على أنه ما من ظاهرة معمارية فى هذه الآثار التى تركها أجدادنا المسلمون إلا ولها حديث صادق ترويه عن هؤلاء الأجداد . أما الحادثة الأولى فقد وقعت فى الكوفة سنة ١٧ ﻫ يوم كان سعد بن أبى وقاص واليا عليها من قبل عمر بن الخطاب ، إذ اتخذ سعد لسكناه قصرا يفصله عن الناحية القبلية لمسجد الكوفة طريق ضيق ، وكان بيت المال بالقصر ، واستطاع اللصوص ذات ليلة أن ينقبوا حائط القصر من هذا الطريق ، وأن ينفذوا الى داخل القصر ويسرقوا جانبا من مال المسلمين ، فشكا سعد الأمر الى عمر فأمره بجعل حائط القبلة ملاصقا لجدار القصر تماما . وأما الحادثة الثانية فقد وقعت فى البصرة عام ٤٤ ﻫ يوم كان زياد بن أبيه واليا عليها من قبل معاوية بن أبى سفيان ، إذ رأى زياد ــ عندما كان يوسع مسجد البصرة ــ أنه لا ينبغى للإمام أن يتخطى الناس عند توجهه الى المحراب ، فحول دار الامارة الى قبلى المسجد حتى يخرج الامام من الدار الى الباب الذى فى حائط القبلة مباشرة .

ويخترق الجدارين الشرقى والغربى لهذا الرواق خمسة نوافذ متقابلة شبيهة بالنوافذ التى رأيناها فى جدار القبلة ، كما أننا نرى على إحدى دعامات الصف الثالث لوحا من الرخام يتضمن إنشاء تاريخ المسجد (٢٦٥ ﻫ) وبعض الآيات القرآنية .

أما الأروقة الثلاثة الأخرى ففى كل منها صفان من الدعائم عليها عقود تسير بحذاء حائط القبلة فى الرواق البحرى وفى موازاة الجدارين الشرقى والغربى فى الرواقين الجانبيين .

ويحيط بفتحات عقود المسجد صغيرها وكبيرها شريط من الزخرفة يتكون من فرع نباتى متموج تتخلله أوراق العنب المنسقة وتتصل به وريقات نباتية . كما يحف بالسقف إيزار من خشب محفور عليه حفرا بارزا آيات من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفى المربع العاطل من الزخرف . وفى الحق أن هذا الخط الساذج البسيط كان نواة لفن جميل لم يستوح فيه المسلمون فنا من فنون الأمم السابقة عليها ، بل استلفتت أنظارهم الحروف العربية برءوسها وسيقانها وأقواسها ومداتها ، فخلقوا منها طرازا زخرفيا رائعا ؛ سنرى كيف سما الى قمة الجمال الفنى عند التحدث على العصر الفاطمى .

ويدور حول جدر المسجد أسفل هذا الإيزار طراز من زخرفة نباتية يقول عنها هرسفلد إنها شبيهة جدا بالزخارف المصرية القديمة . على أن أهم زخارف هذا المسجد جميعا هى تلك التى

---

(١) فى الجدار البحرى ٣٣ نافذة وفى الغربى ٣٢ وفى الشرقى ٣١

تزين بواطن معظم العقود المطلة على الصحن فى الرواقين الغربى والبحرى ، ففيها نرى الزخرفة الاسلامية الحقة بعد أن تخلصت من ربقة تقاليد الفنون التى أخذت عنها ، فيها تتجلى لنا تلك الزخرفة التى أبدعها المسلمون بفضل توجيهات الاسلام ونواهيه ، تذكرنا رؤيتها بموطنها الأصلى الذى وفدت منه على هذه البلاد ، بمدينة (سُرَّ مَن رأى) التى أنشأها المعتصم ابن هارون الرشيد عام ٢٢١ هـ والتى كان يعيش فيها ابن طولون قبل أن يلى الحكم فى مصر. والواقع أن لزخارف هذه المدينة مكانة ممتازة فى الفن الاسلامى ، فقد درسها علماء الآثار وحللوها الى عناصرها وقسموها الى أقسام مختلفة واتخذوها نبراسا لهم يهتدون به فى أبحاثهم . وهكذا نرى الفن يخلد على صفحة الزمن ذكرى الماضى البعيد ، فقد امحت مدينة سامرا ، واندرست معالمها ، ولكن اسمها لم يمت ، بل انتقل منها الى ما كان يزين قصورها ومساجدها من زخرف ، ولا يزال يتردد حتى اليوم على ألسنة علماء الآثار ومؤرخى الفن .

ومئذنة هذا المسجد من أغرب الظواهر فيه ، ظفرت من عناية علماء الآثار بما لم يظفر به أثر آخر ، تسترعى النظر بشكلها العجيب الذى لا شبيه له فى مآذن مصر ، والذى علله بعض المؤرخين المتقدمين بتعليل أقرب الى القصص منه الى البحث العلمى الصحيح ، إذ روى المقريزى وابن دقماق عن ابن طولون أنه « كان لا يعبث بشىء قط ، فاتفق أنه أخذ درجا أبيض بيده وأخرجه ومده ، واستيقظ لنفسه وعلم أنه قد فطن به وأخذ عليه لكونه لم تكن تلك عادته ، فطلب المعمار الذى على الجامع وقال : تبنى المنارة التى للتأذين هكذا ، فبنيت على تلك الصورة » . وظاهر أن هذه القصة لا تنطبق فى شىء على مئذنة ابن طولون التى تتكون من قاعدة مربعة تعلوها طبقة اسطوانية تنتهى بطبقة مثمنة .

وأما علماء الآثار فقد تخطوا هذا التفسير الساذج الى البحث عن مصدر هذا التصميم وعن تاريخ الانشاء ، واشتد الجدل فيما بينهم . ونحن نكتفى بأن نثبت هنا خلاصة ما انتهوا اليه من أن هذه المئذنة متأثرة بمئذنة المسجد الجامع بسامرا ، وأن كليهما استمد تصميمه من تصميم معابد النار الفارسية المعروفة باسم الزيجورات ، وأنها متأخرة فى إنشائها عن عصر بناء الجامع ، وأنها كانت فى وقت ما أشد شبها بمئذنة مسجد سامرا الأعظم منها الآن .

هذا وقد عرف المسلمون الرسم التخطيطى للمبانى قبل إنشائها . ويقول المقريزى إن مهندس هذا المسجد رسمه على الجلد وعرضه على ابن طولون . ولئن كان العرب قد نقلوا هذه الفكرة عن الرومان فلن يقلل هذا من فضلهم على حضارة العالم ، لأنهم كما تجلت عبقريتهم فى ابتكار أشياء جديدة ، فقد ظهر حذقهم فى بعث ما اندثر من القديم المفيد ؟

محمد عبد العزيز مرزوق

الأمين المساعد بدار الآثار العربية

اثبات الروح الانسانية حسيا

أدلة جديدة قائمة على قواعد الدستور العلمى

نعود الى نقل بعض ما أورده الأستاذ الكبير أرنست بوزانو فى كتابه خروج الروح من الجسد ثم عودها إليه ، وإنما نحرص على أن لا يفوت قراء العربية هذا الضرب من المشاهدات الجديدة لأنها تثبت وجود الروح الإنسانية واستقلالها عن الجسد وخلودها بعد الموت ، على وجه لا يقبل الشك ، وفى ثبوت هذه العقيدة على مقتضى الأسلوب العلمى خير عظيم للانسانية لأنه يحفزها الى التحلى برفيع الصفات ، والى تطلب السمو الأدبى استكمالا لأسباب البقاء .

الحادثة التى نحن اليوم بسبيلها حدثت للكابتن (جيلبرت نوبس) الانجليزى وهو يقاتل الألمانيين فى أرض فرنسا فى الحرب الماضية . وقد نشرها فى مذكراته التى أسماها Englishman Kamarad . وقد نقلها عنه الأستاذ أرنست بوزانو ؛ وهى تتلخص فى أنه أصيب بقذيفة فى صدغه الأيسر ، فسقط فى حفرة أحدثتها قنبلة ، وخرجت الرصاصة من عينه اليمنى ، وعمى لوقته ؛ ومرت طوافة ألمانية فنقلته الى المستشفى ، وبعد أن بقى فاقدا رشده يومين أفاق ، وظل فى الأسر حتى وضعت الحرب أوزارها سنة ١٩١٨ . ونحن ننقل ما كتبه من لفظه فى كتابه ، قال :

« إنى أتردد فى حكاية ما وقع لى ، ولكنى وقد اعتزمت أن أثبت على الورق ما شعرت به حينما أصابتنى القذيفة فى رأسى ، فسأقوم بذلك فى عبارات بسيطة ، تاركا للقارىء العناية فى تكوين فكرة لنفسه على ما سأورده عليه :

« لقد أصابنى العمى مفاجأة ، ولن أزال أعمى ما بقيت . ولكن ما أحطت به من الظلمات فى ذلك الوقت تخللته فترة من النور حينما سمعت صوتا فى أعماق نفسى يقول لى : « قد دنا الموت ، أتريد أن تجىء إلينا ؟ » ، فما كاد يتم كلامه حتى آنست حجاب الظلمات ينجاب عنى يسيرا يسيرا ، وإذا بى عدت بصيرا وبصرت بالوجود . فغمرنى عند ذاك شعور لا يمكن وصفه بالصفاء والسلام . فما أعظمها كانت من سعادة لا يستطاع التعبير عنها بالألفاظ ! ولاحت منى التفاتة وأنا على تلك الحال ، وإذا بى أرى جثمانى مطروحا فى حفرة القنبلة ، والدم ينطف من أحد صدغيه . فقلت فى نفسى : لقد مت وهذه جثتى أمامى هامدة ، ولكنى مع ذلك كنت أشعر بأنى سعيد .

« وكنت كذلك أشعر بأن الصوت الذى سمعته ينتظر منى جوابا . فبذلت جهدا جهيدا ، وصحت ، ولا أدرى كيف كان ذلك ، قائلا : « إن يومى لم يحن بعد ، فلست بميت » . وما كدت

أتمها حتى آنست حجاب الظلمة الذى كان انجاب عنى عاد فانسدل على ، وتحرك جسمى بإرادتى وعدت ثانية الى الحياة الأرضية !

« لقد وصفت الشعورات التى حدثت لى أكمل ما استطعت . وإنى أضيف الى ما قدمت بأنى لم أكن فاقد الوعى حينما حدث ما ذكرت ، وما كنت قبلها فاقد الوعى أيضا بضع دقائق ؛ ولما حدث لى ما حدث أدركت الفرق العظيم بين الحالة التى يكون فيها الانسان عادم الوعى حقيقة وبين ما كنت فيه .

« والحالة التى دخلت فيها ، ليدعها من شاء هذيانا ، أو يعتبرها وهما مخيا . كل هذا لا يهمنى ، ولست أقصد أن أؤثر على القارئ بشىء من ناحيتها . ولكنى مكتف بأن أثبت على الورق ما حدث لى من الشعور فى تلك البرهة الخطيرة . أما اعتقادى الشخصى فيها فإنى أحتفظ به لنفسى . ولست بضانّ به عليك وهو : « بأية علة يعللون الحالة التى حدثت لى ؟ فإن غامضة الموت قد أصبحت غير موجودة فى نظرى ، وقد أضحيت لا أخشى الموت قط » .

علق الأستاذ بوزانو على هذه المشاهدة بقوله :

« لقد رأيت أن كل الذين أصابتهم هذه الحالة خرجوا منها حاصلين على اقتناع ذاتى لا يتزعزع بأنهم شهدوا انفصال أرواحهم عن أجسادهم ، وكان ثمرة ذلك أنهم حصلوا على يقين راسخ بأن الروح تبقى بعد موت الجسد . ومن المعقول بعد هذا أن يصروا على رفض أقوال المنكرين من ممثلى العلم الرسمى الذين لم يسعدهم الحظ بالوقوع فى مثل هذه الحالة ، ولم يروا أن أرواحهم إذا زايلت أجسادهم بقيت حائزة لشخصيتها الواعية المدركة العاقلة ، فلم يقدروا القيمة العملية الحسية لدليل كهذا قائم على التجربة الذاتية » .

ثم قال : إنه سينشر ثلاث حالات أخرى سبق للدكتور (أوستى) Dr. Osty أن نشرها فى مجلة المباحث النفسية الفرنسية La Revue Métapsychique الفرنسية سنة ١٩٣٠ .

أولى هذه الحالات أرسلها المسيو م . ل . هيمان Hymans الى الأستاذ شارل ريشيه مدرس الفيزيولوجيا بجامعة الطب الفرنسية وعضو المجمع العلمى . قال المسيو هيمان :

« أرى أن مما يفيد العلم أن أحيطكم علما بحالة حدثت لى مرتين تثبت بأن الضمير البشرى يمكن أن يستمر فى عمله وهو مستقل عن المخ .

« حدث لى مرتين ، وأنا حاصل على كل شعورى ، أن رأيت جثمانى بعيدا عنى فى حالة همود ، وكنت مقتنعا بأنه شىء أجنبى عنى . ولست أحاول أن أعرف كيف كنت أرى بلا عينين ماديتين ، فانى إنما أتحدث عن حالتين وقعتا لى وكفى .

« الحالة الأولى حدثت لى وأنا على كرسى لطبيب أسنان . فبينما كنت واقعا تحت تأثير

البنج شعرت بأنى قد عدت الى وعيي ، وبأنى سابح فى أعلى الحجرة ، ومن هنالك كنت أشاهد الطبيب ، وأنا فى دهش عظيم ، يعمل فى جثمانى ، والطبيب المبنج قائما الى جانبه . وقد رأيت ذلك الجثمان هامدا ، كما كنت أرى بوضوح كل ما فى الحجرة . وكان ما أشاهده يبدو لى منظرا حيا كل الحياة . ولكن هذا المنظر لم يدم إلا بضع ثوان ثم عدت الى ما كنت عليه من فقد الشعور ، واستيقظت على الكرسى حافظا كل ما رأيته غاية فى الوضوح .

« لما حدثت لى الحالة الثانية كنت بلوندرة فى فندق . استيقظت ذات يوم مريضا ، بسبب ضعف فى قلبى ، وبعد قليل من تيقظى أصابتنى غشية . وما كان أشد دهشى حينما رأيت نفسى فى أعلى الحجرة ، ناظرا ، وأنا فى حالة هلع ، الى جسدى ملقى على السرير لاحراك به ، وعيناه مقفلتان . فحاولت أن أدخل فيه فلم أفلح ، فأيقنت بأنى قد مت . وأخذت أفكر فيما عسى أن يقوله فى ذلك رجال الفندق وأهلى وأصحابى . وسألت نفسى هل يجر هذا الأمر الى تحريات قضائية ؟ وفكرت فيما ستئول اليه أعمالى . والذى أنا متحققه أنى لم أفقد فى تلك الحالة ذاكرتى ولا شعورى بنفسى . وكنت أرى جثمانى لاحياة فيه كأنه شيء مستقل عنى ، واستطعت أن أتأمل فى وجهى . ومع هذا فلم أستطع أن أزايل الحجرة ، وكنت أشعر بأنى مقيد لا أستطيع أن أبرح الركن الذى كنت فيه .

« وبعد ما مضت ساعة أو ساعتان سمعت طرقا على الباب مرات عديدة وهو موصد بمفتاح ، دون أن أستطيع أن أعمل ما يثبت أنى فى حالة حياة . وبعد قليل رأيت بواب الفندق على شرفة الحجرة (بلكونها) صعد اليها على سلم للنجاة . ثم دخل الى الحجرة ، ونظر الى وجهى مكروبا ، وفتح الباب . وبعد قليل دخلت مديرة الفندق ومعها ناس آخرون . وما لبثوا غير هنيهة حتى حضر طبيب ، فرأيته يهز رأسى ، ويتسمع دقات قلبى ، ثم أدخل ملعقة بين شفتى . عند ذلك فقدت وعيي ، واستيقظت فى سريرى . كل هذا كان فى نحو ساعتين » .

وقد علق الأستاذ بوزانو على هذه الحادثة بقوله : إنها على أعظم جانب من القيمة العلمية لأنها تنفى كل شبهة تتأتى من سرعة زوال هذا الشعور بالاستقلال عن الجسد ، فقد بقيت الروح فى الحالة المتقدمة خارج جسدها حاصلة على جميع خصائصها الذاتية نحو ساعتين .

ثم نقل الأستاذ المذكور حالة من هذا القبيل حدثت للمسيو شارل كارتييه وهو أحد محررى مجلة المباحث النفسية . قال :

« فى شهر سبتمبر من سنة ١٩١٨ كنت قد أصبت بضعف شديد على أثر مرضى بالأنفلونزا الموسومة بالأسبانيولية ، فكنت وأنا فى دور النقاهة كثيرا ما أقع فى الاغماء مفاجأة . وفى ذات يوم كنت بعد الظهر مضطجعا على كرسى فى زاوية من حجرتى طلباً للراحة . فى تلك السويعة كانت والدتى تتحدث فى فسحة الدار مع بعض الزائرات ، فحدث لى بغتة أن انحرفت عن الكرسى ، فتدلى رأسى ونصفى الأعلى نحو الأرض ، وبقيت ساقىَّ فوقه .

« تخالج صدرى إذ ذاك ثلاثة شعورات مختلفة ، ولست أدرى إن كانت كلها فى آن واحد أم على التعاقب .

« أحدها شعور بارتياح عظيم جدا لا أستطيع وصفه ، وباكتمال فى خصائصى النفسية ، وفى الاحساس بالوجود العام ، وبخفة متناهية ، وفى الجملة بسعادة لم أشعر بمثلها بعد ذلك .

« ثانيها شعور بانزعاج مفرط يكاد يكون هلعا ، أثاره فىّ وجودى إزاء حالة غير عادية ، بل مستحيلة ، وهى رؤيتى لشخصى خارج جسمى كأنى أراه فى مرآة ، وليس فى الحجرة مرآة .

« ثالثها شعور بالخطر من بقاء رأسى مدلى ، وبوجوب بذل الجهد فى تعديله ، وحاولت ذلك من خارجه ، كما يحاول رجل أن يعدل رأس رجل غيره . ولكنى لم أفلح فى هذه المحاولة .

« بعد ذلك رأيتنى انتقلت الى فسحة البيت ، واجتهدت أن ألفت نظر أمى الى ما وقع فيه جسمى ، فسمعتها تقول لصاحباتها : « انتظرننى حتى أرى ماذا حدث لابنى فكأنى سمعته ينادينى » ، ثم حدث لى غيبوبة ، تنبهت منها فوجدتنى فوق الكرسى وأمى أمامى تبذل لى العنايات المعتادة فى حالة الاغماء » اهـ .

هذا ما حدث للمسيو شارل كارتيه محرر مجلة المباحث النفسية ، وقد سُئلت والدته عما شاهدته فى هذه الحادثة فأجابت بما يأتى :

« نعم إنى أذكر هذه الحادثة ، كأنها حدثت بالأمس ، كما جرت عادة الناس أن يقولوا ، وقد كانت مدهشة جدا .

« أصيب ولدى بأنفلونزا كادت تقضى على حياته ، ثم شفى ودخل فى دور النقه ، واستطاع أن يقوم برهات قصيرة .

« ففى ذات يوم بعد الظهر كان مستلقيا على كرسى طويل بعد أن مشى بضع خطوات فى الحجرة ، وخرجت أنا الى الفسحة لمقابلة بعض الزائرات وكن سيدة وبنتيها . فما كدنا نتبادل بعض العبارات حتى صحت بصاحبتى قائلة : « عذرا ياسيدتى ، فانى أظن بأن ابنى ينادينى » فقالت لى صاحبتى وبنتاها : « ولكنا لم نسمع شيئا » ، فقلت نعم نعم ، إنى واثقة بأنه استدعانى »

« فدخلت الى الحجرة فوجدت مريضى الناقه قد تدلى رأسه من الكرسى الطويل ، وهو مغمى عليه ، ولم يبق على الكرسى غير ساقيه :

« وبمجرد ما عاد اليه وعيه ، وكان ذلك بعد أن مكث طويلا فى غيبوبته ، حكى لى ما كان من خروج روحه من جسده ، فتأثرت من ذلك كل التأثر ، كما لا يخفى على إنسان ، وقد أكثرنا من التكلم فى هذه الحادثة ولا نزال الى اليوم .

« ولما كان جسد ابنى ثقيلا ، تطوعت زائرتى بمساعدتى لإمكان إعادة وضعه على السرير . ثم ختمت كلامها بقولها : مثل هذه الحادثة لا يمكن أن تنسى مطلقا » .

علق الأستاذ بوزانو على هذه المشاهدة بقوله :

« إن من الأمور الخطيرة ذات الدلالة القوية هذا الشعور بالسعادة وبالتبسط فى الوجود ، وباكتمال الحياة ، وبعمومية الوعى لاتصاله بالوعى الشخصى ، كما شعر به هـذا المريض ، وكما يشعر به العدد الضخم من الذين يخرجون أرواحهم من أجسادهم مؤقتا . ويجرى هذا المجرى ما يحدث للمتصوفة وهم فى حالة التواجد ، وما يحـدث أيضا لذوى الحياة الطبيعية فى أوينات استثنائية من وجودهم . ينطبق على هـؤلاء جميعا ما أتى به الشاعر الانجليزى الكبير ألفريد تنيسون Alfred Tennyson من وصف هذا الشعور كما تجلى لضميره الراقى ، قال :

« إنى لم أجرب قط مسألة الكشف بواسطة المواد المخدرة ، ولـكنى كثيرا ما جربت نوعا من الذهول (إنى لم أجد أفضل من هذا اللفظ للإعراب عما أريد) منذ طفولتى ، وفى الأوقات التى أجد نفسى فيها وحيدا . وقد رأيت أن التجربة كانت تتم بسهولة إذا كررت فى نفسى ذكر اسمى باستمرار . فى هـذه الحالة أجدنى ـ ولعل شـعورى القوى بشخصيتى هو الذى يولد هذه الظاهرة ـ قد دخلت فى حالة تنحل فيها شخصيتى وتتحول الى حالة فوق الحالة العادية ، حالة غير مشوشة ، بل واضحة كل الوضـوح ، وحقيقية ككل ما هو حقيقى لا غبار عليه ، ولو أنها مما لا يمكن التعبير عنه بالألفاظ ، حالة فيها يظهر الموت لمن وصل إليها من المحالات المضحكة . ففقد الشعور بالشخصية العادية لا يعنى الفناء ، ولـكنه يعنى كما انكشف لى الحياة الحقيقية . وإنى لضائق الصدر من عدم كفاية تعبيرى ، ولـكن أما قدمت بأن هذه الحالة لا يمكن التعبير عنها باللهجة الانسانية ؟ »

* * *

نكتفى بهذا القدر لهذا العدد ، وموعدنا بغيره الأعداد المقبلة ، ولا أظن أنه توجد أدل من هذه الأدلة الذاتية على بقاء النفس بعد الموت . إن الذى يغر الناس بنظريات الماديين أنهم لم يجربوا فى أنفسهم ، ولم يُنـقـل لهم على أساس علمى صحيح ما يثبت لهم أن وراء هذه الحالة العادية حالة أرقى منها .

ولـكن مما مَن الله به على الناس فى هـذا العصر ، أن يَنتدب رجال من كبار العلماء لجمع المشاهدات المحققة المتفرقة فى أكناف الأرض من هذا النوع ، ومعاملتها على مقتضى الدستور العلمى بالنقد والتمحيص ، ليجد من يريد الاهتداء الى الحق الصريح ما يسعفه بالدليل الذى يطلبه خالصا من جميـع الشوائب ، « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » ؟

محمد فريد وجدى

كلمات في الأخلاق

القوة فى الحق

كان المسلمون فى الصدر الأول لا يوارون ولا يدارون ، فإن رأى أحدهم على أخيه عيبا ، أولاحظ فيه نقصا ، أو لمح منه تقصيرا ، نبهه الى ذلك ، وحاول جهدما يستطيع أن يرشده بالتى هى أحسن ؛ ولقد كانوا يبالغون فى درء العيوب ، ورأب الصدوع أكثر من ذلك ؛ وقد كان منهم من لا يسمح لنفسه أن ينتهك الحرمات ، ويتعدى الحدود ، فيما بينه وبين الله ، دون أن يرفع أمره الى الحاكم ، ويتقدم بين يدى السلطان ، ليأخذه بذنبه ويقتص منه جزاء وفاقا .

جاء أحد الصحابة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله هلكت وأهلكت ، فقال له : ماذا أصابك ؟ قال : واقعت أهلى فى نهار رمضان ، فقال له : كفّر عن ذلك ، قال : لا أملك ما أكفّر به ، فأطرق النبى ، وأطرق الرجل ، وأطرق الصحابة من حوله ، وبينما هم كذلك جاءت الى النبى صلى الله عليه وسلم هدايا تمر ، فأشار الى الرجل أن يأخذ منها شيئا يتصدق به ، عسى الله أن يكفر عنه ، ويتوب عليه ، فقال الرجل : أعلى أفقر منى أتصدق يا رسول الله ؟ والله ما بين لا بتيها من يجد ما أجد من الخصاصة والفقر ! فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : كلها فقد كفر الله عنك !

ونحن نعلم ما اعتاده العرب فى صيامهم ، وما تمشى به التشريع الاسلامى معهم فى المبدأ ، ونعلم من ذلك أنه إذا جاء وقت الإفطار ، وكان الرجل نائما ، تحتم عليه ألا يأكل ولا يأتى أهله حتى يجىء المغرب من اليوم الثانى ، وأن عمر رضى الله عنه تمرد على هذه العادة فتيقظ من نومه بعد المغرب فأكل ثم أتى أهله ، فلم يسع زوجته إلا أن تشكوه الى النبى صلى الله عليه وسلم . فانظر الى مبلغ هذا الورع وتعجب منه ما شئت . فإن كان عمر قد استحيا أن يشكو نفسه وكفر عن خطيئته بينه وبين الله ، فإن امرأته لم ترض منه ذلك ، فكشفت الأمر غير خاشية لومة لائم . فبمثل هذه العزمات الصادقة عز الاسلام ، وبمثل هذا الايمان الراسخ ثبتت أصوله ، وآتت أهله خلافة الله فى الأرض .

وقد خفف هذا الحكم بعد ذلك وأحل للمسلمين ما كان حرم عليهم فى هذه الناحية .

والذى يتدبر التشريع الاسلامى ويعرف ما احتواه هذا الدين من مزايا وخصائص ، يعلم أن المسلمين الأولين فى ترابطهم كانوا أشبه بالأسرة الواحدة . وقد أراد النبى صلى الله عليه

وسلم أن ينبه أمته الى هـذا المعنى فضرب لهم المثل فى الائتلاف ، والتماسك ، والترابط ، بقوم قد ركبوا سفينة بعضهم فى أعلاها ، وبعضهم فى أسفلها ، وأن أهل الأسفل كانوا إذا أرادوا الشرب ، اجتازوا الركاب ، وتخطوا أهل العلو ، وأنهم حينما وجدوا هذه المشقة ، حدثتهم أنفسهم أن يخرقوا فى أسفل السفينة خرقا ، يشربون منه ، فكان أهل العلو حينئذ بين أمرين : إما أن يسكتوا على هذا الخرق فيهلك الركاب جميعا ، وإما أن يضربوا على يد العابث فلا يخرق هذا الخرق ، وهنالك ينجو الركاب جميعا . ولعل هذا هو المعنى الذى تشير اليه الآية : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

وقد تدلى بعض المسلمين بعد ذلك فى عقيدتهم ، وانحطوا فى فهمهم لهذا الدين ، الى درجة أن صار الرجل منهم لا يبالى بغير وزره ولا يعبأ إلا بجريرته ؛ فان رأى منكرا لم يغيره بيده ، أو بلسانه ، أو بقلبه ، وربما احتج لذلك بينه وبين نفسه ، أو بينه وبين الناس بظاهر الآية .

وفى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، فهم بعض الناس من قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » أن الإنسان لا يسأل إلا عن نفسه ، فلم يسعه رحمه الله إلا أن يرقى المنبر حانقا غاضبا ، وقال : أما بعد ما بال رجال يقولون فى كتاب الله بغير ما أراد ، ويأخذون بظاهر قوله تعالى : « عليكم أنفسكم » ثم يفهمون من ذلك أن الرجل منهم لا ينبغى له أن يعنى إلا بخاصة نفسه ، وكأنما يغضون الطرف عن الآية الأخرى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

لعل هـذا المعنى الذى يتحدث عنه أبو بكر هو الذى يشير اليه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

والمسلمون لا يزالون بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . هكذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم فى كثير من أحاديثه . فهل نجد بيننا من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقول للمخطئ أخطأت وللمقصر قصرت ، أم نجدهم جميعا يغضون العين على القذى ؟

لقد امتطيت سيارة « الأتوبيس » يوما وقد ركبها فيمن ركب غلام صغير قد اختفى بين الركاب وتوارى عن أعين الناظرين ، فلما جاء المفتش رأيت رجلا عليه وقار المسلمين وسمات الصالحين يجره من مكمنه ويبرزه من مخبئه ، ويقول له : ادفع ! ادفع ! ادفع أجر ركوبك ! فلما انصرف المفتش عاتبه الغلام ، وعاتبه الناس ، وأصر ذلك الرجل على أنه أصاب فى ذلك وأنهم أخطئوا . فقلت أنا : يالله هذا هو الدين الاسلامى ، وهذه هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها ! فكيف يستنكر الناس الحق ويتجهمون للمعروف ، ويغضبون للسلوك الصحيح ؟ هذا مظهر من مظاهر التدليس ، وأشباه ذلك كثير . « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة » ؟

ابراهيم على أبو الخشب

المتألهون والادب

أدب قس وحكمته :

يقول الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين : « ومن الشعراء الخطباء الأبيناء الحكماء قس ابن ساعدة الإيادى . والخطباء كثير والشعراء أكثر منهم ، ومن يجمع الخطابة والشعر قليل ». فقد جمع قس بين الخطابة والشعر ، فكان من أولئك النفر القليل الذين امتازوا بتلك الميزة ، حتى ضربت به الأمثال فى الحكمة والبيان ، فقال فيه أعشى بنى قيس بن ثعلبة :

وأحكم من قس وأجرأ مِلَّذى　　بذى الغيل من خفان أصبح حاردا

وقال الحطيئة :

وأقول من قس وأمضى إذا مضى　　من الرمح إن مسَّ النفوسَ نَكالُها

وقال آخر :

كقس إياد أو لَقيط بن مَعْبد　　وعُذْرَةَ والمنطيق زيد بن جُندَب

وقبل أن نحكم على منزلته فى الخطابة والشعر ، نقدم بين يدى القارئ شواهد من خطبه وشعره ، حتى يكون الحكم واضحا جليا لا لبس فيه ولا خفاء :

لقس خطبة مشهورة توجد فى أمهات كتب الأدب ، قد رويت من طرق مختلفة ، وقل أن تجدها فى مصدر قد اتفقت معها فى المصدر الآخر ؛ فمن زيادة ونقص ، وتبديل وتغيير ، وتقديم وتأخير ؛ بل ومن سند يغاير السند ويخالفه ؛ ومع ذلك فالغرض منها لم يختلف ، والمغزى لم يتبدل ، مما يجعلنا نقول : إنه لا يبعد أن يكون شىء منها مدسوسا على قس ، وأنها ليست كلها له ، وإن كان له منها أوفر حظ وأكبر نصيب . وليست هذه أول الخطب التى وقع فيها التزيد ، بل أمثالها كثير . ولا نقول كما قال غيرنا : إنها جميعا منحولة عليه وليست له ، إكبارا للرواة وثقة بهم ؛ إذ لا يقول إنسان بأن زيادة فقرة أو فقرات فى خطبة من الخطب تخرجها عن دائرة الصحة ، وتقطع الصلة بينها وبين صاحبها . وها هى تلك خطبته ننقلها عن كتاب المعمَّرين لأبى حاتم السجستانى ، قال :

قال أبو حاتم : وذكروا أن وفد بكر بن وائل قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هل فيكم أحد من إياد ؟ قالوا : نعم . قال : ألكم علم بقس بن ساعدة ؟ قالوا : مات يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كأنى أنظر اليه بسوق عكاظ يخطب الناس على جمل أحمر وهو يقول : « أيها الناس : اجتمعوا واسمعوا وعوا : من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل

ما هو آت آت ؛ ثم قال : أما بعد ، فان فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ؛ نجوم تغور ، وبحار تمور ولا تفور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ؛ أقسم قس قسما بالله وما أثم ، لتطلُبن من الأمر سَخَطا ، ولئن كان بعض الأمر رضا إن لله فى بعضه سخطا ، وما هذا لعبا ، وإن من وراء هذا عجبا ؛ أقسم قس قسما بالله وما أثم ، إن لله دينا هو أرضى من دين نحن عليه ! ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون ، أنعموا فاقاموا ، أو تركوا فناموا » ؟

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وسمعته لفظ بشعر ولسانى لا ينطلق به . فقال بعضهم : أنا أحفظه يا رسول الله فهل ترى علىّ فيه شيئا ؟ قال : لا ، الشعر كلام ، فحسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، فهاته ؛ وذكروا أنه ابن عباس ؛ فقال ، وهو يومئذ غلام لم يبلغ الحلم ، فأنشده :

فى الذاهبين الأولـين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها يمضى الأصاغرُ والأكابر
لا يرجع الماضى ولا ينجو من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا لة حيث صار القوم صائر

وقال أبو حاتم : ذكر حزم بن أبى راشد قال : أملى علىّ رجل من أهل خراسان من مواعظ قس : « مطر ونبات ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ، وأموات بعد أموات ، وضوء وظلام ، وليال وأيام ، وغنى وفقير ، وشقى وسعيد ، ومسىء ومحسن ، أين الأرباب العملة (أو قال الفعلة) ، إن لكل عامل عمله . كلا : بل هو الله إله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى ، واليه المعاد غدا . أما بعد : يا معشر إياد ، فأين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد ، وأين المعروف الذى لم يشكر ، والظلم الذى لم ينتقم ؟ (أو قال لم ينكر) كلا ورب الكعبة ، ليعودن ما باد ، ولئن ذهب يوما ليعودن يوما » .

وحدث الأديب القس لويس شيخو فى كتابه شعراء النصرانية قال : « أخبر بعض معاصريه عنه قال : لقد رأيت من قس عجبا : أشرف بى جملى على واد ، وشجر من شجر عاد ، مورقة مونقة ، وقد تهدّل أغصانها ، قال : فدنوت منه فاذا بقس فى ظل شجرة بيده قضيب من أراك ينكت به الأرض وهو يترنم ويقول :

يا ناعى الموت والملحود فى جدث عليهم من بقايا خَزِّهم خِرَق
دعهم فان لهم يوما يصاح بهم فهم إذا انتبهوا من نومهم فُرُق
حتى يعودوا بحال غير حالهم خلقاً جديدا كما من قبلها خلقوا
منهم عراة ومنهم فى ثيابهم منها الجديد ومنها المُنهج الخَلَق

قال : فدنوت منه وسلمت عليه ، فرد علىّ السلام ، وإذا بعين خرّارة ، فى أرض خوّارة ،

ومسجد بين قبرين ، وأسدين عظيمين ، يلوذان به ، ويتمسحان بأثوابه ، فأراد أحدهما يسبق الى الماء ، وتبعه الآخر يطلب الماء ، فضربه قس بالقضيب وقال : ارجع ثكلتك أمك حتى يشرب الذى ورد قبلك ، فرجع ، ثم ورد بعده . فقلت له : ما هذان القبران ؟ قال : هذان قبرا أخوين لى كانا يعبدان الله معى فى هذا المكان لا يشركان بالله شيئا ، فأدركهما الموت فقبرتهما ، وهأنا بين قبريهما حتى ألحق بهما ؛ ثم نظر الى السماء فتغرغرت عيناه بالدموع ، وانكب عليهما وجعل يقول :

خليلىَّ هُبَّا طالما قد رقدتما ... أجِدّ كما لا تقضيان كراكما
ألم تعلما أنى بسمعان (١) مفرد ... وما لى فيها من خليل سواكما
أقيم على قبريكما لست بارحا ... طوال الليالى أو يجيبَ صداكما

الى أن قال :

كأنكما والموت أقرب غاية ... بروحىَ فى قبريكما قد أتاكما
قضيت بأنى لا محالة هالك ... وأنى سيعرونى الذى قد عراكما
فلو جعلت نفس لنفس وقاية ... لجدت بنفسى أن تكون فداكما
سأبكيكما طول الحياة وما الذى ... يرد على ذى عَوْلة (٢) إن بكاكما

نقول : إننا أوردنا هذه الرواية على ما فيها مما لا يعقل من أمر الأسدين : للإتيان بما فيها من الشعر المنسوب لقس .

ومن خطب قس بن ساعدة : « أيها الأشهاد : أين ثمود وعاد ؟ أين الآباء والأجداد ؟ أين ذهب أبرهة ذو المنار ، وعمرو ذو الأذعار ؟ هل تدرون الى ما صار إليه عبادة الفتاح ، وأذينة الصيَّاح ، وجذيمة الوضاح ؟ عزوا فقهروا ، ونهوا وأمروا ، وجددوا المصانع والآثار ، وجدولوا الأنهار ، وغرسوا الأشجار ، واستخدموا الليل والنهار ، فهجمت الآجال دون الآمال ، ألا وإن كل شىء الى الزوال . ثم أنشد :

قد كنت أسمع بالزمان ولا أرى ... أن الزمان يطيق نتف جناحى
فأراه أسرع فىّ حتى أصبحت ... بيضا مُتونُ عوارضى وصفاحى
وأنا الكبير لنسبة فى قومه ... هيهات كم ناسمتُ من أرواحى
صاحت ذا جَدَن وأدرك مولدى ... شَمِرَ بن عمرو يُتقى بالراح
والقيل ذويزن رأيت محله ... بالقهر بين جنادل وصفاح
فتك الزمان بملك حمير فتكة ... تسعى بكل عشية وصباح

فترى من هذه الشواهد أن قسا كان خطيبا مفوها ، وحكيما مهذبا ؛ وتراه مع هذا قد

(١) دير سمعان : فى نواحى الشام . (٢) العويل : صوت الصدر

وهب فطرة وسليقة فى الشعر جعلته يتبع الخطبة بأبيات تناسبها وتتفق معها فى الغرض الذى قيلت فيه .

وقد أنكر بعض الباحثين المعاصرين نسبة هذه الخطب والأشعار لقس ، وذهب الى أنها منحولة ومدسوسة عليه ، استنادا الى هذه الرقة فى الألفاظ ، والسهولة فى التعبير ، والبعد عن الغريب ، والحوشى من الكلام ، زاعما أنها لا تلائم طبيعة الزمن الذى كان قس يعيش فيه . قد يكون هذا صحيحا ، ولكنه يزيد من قدر قس ، فان الشخصية التى يعزى اليها ما لم تقله تكون من رفعة المنزلة بحيث ينتحل اسمها لترويج العبارات البليغة ، والأقاويل الحكيمة .

وإلى هذا فقد كان قس متعبدا متألها ، يعظ الناس ويذكرهم بأيام الله ، ويدعوهم الى التوحيد ونبذ الإشراك ؛ وكل خطبه وشعره يدور حول هذا الغرض كما رأيت .

وفاة قس :

روى أن قسا توفى فى رَوحين ، وهى قرية قريبة من حلب وفى لحف جبل . وقد قال أبو جعبل الألبيرى لما زار قبره :

هذى منازل ذى العلا — قس بن ساعدة الإيادى
كم عاش فى الدنيا وكم — أسدى إلينا من أياد
قد نالها بحلى البلا — غة مفصحا فى كل ناد
قد قرّ فى بطن الثرى — متفردا بين العباد

هذا كل ما أعثر عليه البحث ، وهدى اليه الفكر ، فى الكشف عن حياة قس ، وبيان شعره وخطبه ؟

أحمد ابراهيم موسى
تخصص البلاغة والأدب

راحته فى الاملاق

قال أبو الشمقمق ، وكان أديبا ظريفا مهزارا ، وهو من أهل القرن الثانى للهجرة :

برزت من المنازل والقباب — فلم يعسر على أحد حجابى
فمنزلى الفضاء وسقف بيتى — سماء الله أو قطع السحاب
فأنت إذا أردت دخلت بيتى — علىّ مسلِّما من غير باب
ولا خفت الإباق على عبيدى — ولا خفت الهلاك على دوابى
ولا حاسبت يوما قهرمانا — محاسبة فأغلط فى حسابى
وفى ذا راحة وفراغ بال — فدأب الدهر ذا أبدا دوابى

مذاهب العرب فى كلامهم

تأثير القرآن فيها

— ٤ —

قد يظن بعض العلماء أنه يبدو غريبا أن تطرد سنة القول عند العرب حتى آخر عصر بنى أمية ، وقد حدث فى العالم ما هز أركانه وغير مجرى الحياة فى جزيرة العرب فنال من نظامهم وأخلاقهم وعاداتهم ؛ ذلك هو الإسلام . ولكنه قد فاتهم أن الإسلام قد غير فى كثير من حياة العرب حقا ، ولكنه كان لهم مادة وفكرا ، ونظاما وعلما ، ودينا وحكما ؛ أما ألسنتهم ونظام القول عندهم فإنه قد جاء مهذبا لها ، مرقيا لأساليبها . وإن الانسان ليدهش لو فكر فى مبلغ ما قام به من القرآن من نقل اللغة العربية من عنجهية البداوة وسذاجة الأمية الى سلاسة الحضارة وبلاغة الثقافة . والعلة فى ذلك بينة ، فإن الجاهليين بقصرهم همهم على تنازع البقاء وانصرافهم الى الحروب والغارات ، لم يتسع لهم الوقت للمحاولات التى لا تينع إلا تحت ظلال السلام . ولضيق مجالات العمل لديهم ، واقتصارها على اتخاذ الماشية كمادة للعيش ، خلت لغتهم من كل ما يتعلق بالمعنويات والمجردات ، فكل ما تصادفه من أشعارهم وخطبهم تجده لا يتعدى ذكر الطعن والضرب ، وشفاء الأحقاد ، والأخذ بالثأر ، والتنكيل بالأعداء ، وتجاوز الحدود فى الاعتداء ، والتمدح باحتقار المخاوف ، والتباهى بركوب المخاطر . فإن راموا الضرب فى بيد الخيالات الشعرية لم يجدوا أمامهم غير التبسط فى ذكر الصحارى والنجاد والوهاد ، والمفاوز وما يصادفهم فيها من الحمر الوحشية ، والوعول والضباب والأغوال .

ولكن لما انتشر فيهم بما حمله إليهم من أصول الأخلاق ، ومبادئ العدل والإنصاف ، وما وصف به الصالحين من حسن السمت والوقار ، وكرم النفس والإيثار ، وتأييد الحق ومكافحة الضلال ، وما ذكر مما يجب أن يكونوا عليه من سمو النفس فى سلمهم وحربهم ، وعقودهم وعهودهم ، وتسلطهم وغلبهم ، وما اقتضته هذه التعاليم من استخدام الألفاظ الدالة عليها ، ونقل كثير منها الى المدلولات الجديدة . قلنا لما انتشر فيهم بما حمله إليهم من هذه الثروة الحكمية كابدت لغة العرب من التهذيب ما لا كان ينتظر حدوثه فى عدة أجيال ، وحدث فيها من الأساليب ما لا كان يتأتى إلا بعد مرور كثير من الأدوار .

نعم إن القرآن لم يتعد حدود الألفاظ العربية . وقد افتتن بعضهم بهذا فخيل إليهم أن الاسلام لم يأت العرب من ناحية اللغة بجديد ، فلقنوا أعداء القرآن بحجة كانوا ينتظرونها باعترافنا من زمان بعيد ؛ وفاتهم أن وحدة الألفاظ فى العهدين الجاهلى والاسلامى لا تدل على قوة هذه الشبهة ، فالمدار على الصياغة الفنية ، والمعانى السرية . فهل تستطيع أن تقدر لى الفرق

بين سمو شعر أبى الطيب المتنبى وبين انحطاط شعر أحد الغفل من حفظة الأوزان ، والألفاظ فى كلا القريضين واحدة ؟

فليسمح لى القراء وقد انتهيت الى هذا الحد أن أذكر لهم طرفا من بلاغات القرآن التى ستبقى على الدهر دلائل إعجاز لا يصيبها وهن ولا يعتورها زوال . فإذا نظرت الى قصة يوسف مثلا وجدتها وحدة قائمة لا يتخللها إلا استطراد خفيف مع صاحبى السجن ، وقد جاءت فى نظام غريب ، وأسلوب عجيب ، وإيجاز بالغ ، ووضوح سابغ ؛ وفى الحق أن من يفهم شيئا من العربية يرى أن هذه القصة قد جمعت من أسباب الاعجاز ما يأخذ بالألباب ، فهى فوق ما عرف للقرآن من فصاحة وبلاغة ، قد جمعت من الايجاز والوضوح ما يملك القلوب . ذلك بأن شأن الايجاز اقتصار فى القول وإدماج فى اللفظ والمعنى معا ، وإن هذا لما يدعو الى الابهام والاغلاق ؛ فإذا جاء القول مع ذلك واضحا بينا كان الاعجاز فيه قائما ، وهذا شأن القرآن فى أغلب أمره ، يوجز ويوضح فيعجز ، فإذا ما بسط القول فى سبيل دعوة أو ترغيب أو ترهيب أو تشريع كان الاعجاز فوق ماله من صفات فى أنه طبق المفصل ، فلا تزيد ولا فضول ، فهو يوجز القول ويبسطه ، ويستطرد فيه وينتقل ، ويستقل ويجتمع ، وإعجازه بيّن فى جميع حالاته .

رأى العرب هذا من قرآنهم فأغرموا بتلاوته ، وكلفوا بحفظه ، واتخذوا منه مادة وعلما ودينا وحكما ، واقتبسوا من عباراته وزينوا القول بآياته .

كل هذا حفز رجال القول والخطابة والشعر على أن يسلكوا ما سلك القرآن ، فيحرصون على محاكاته ، ويقومون على أسلوبه ، ويتسابقون فى حلبة البلاغة والتفاصح سباق الجياد الكريمة. فانظر هنالك النعمان بن بشير زعيم الأنصار ، وقد ذهب الى معاوية يطلب رأس الأخطل وقد هجا قومه بتحريض يزيد ؛ فقد ساق قصيدة فى ذلك جاءت نسيج وحدها وأولها :

معاوى إلا تعطنا النّصف تعترف ...

وقد فعل الفرزدق مثله فى شأن على بن الحسين بن على بقصيدته المشهورة التى أولها :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

فقد أقام كل منهما قوله كأنه البنيان المرصوص ، ودخل فى موضوعه من غير أن ينظر فى عطفيه فيخاطب غادة هنا وجملا هناك ، وأظن هذا الذى يدعو اليه أدباؤنا اليوم . أما فى الناحية الأخرى من النقلة هنا ، والاستطراد هناك ، فهنالك جمهور القوم ومعظمهم . فهذا حسان ابن ثابت قد أخذ ينفح عن رسول الله بهمزيته التى مطلعها :

عفت ذات الأصابع فالجواء الى عذراء منزلها خلاء

ديار من بنى الحسحاس قفر يعفيها الروامس والسماء

فجعل يعرض فيها للديار وللنسيب ، وللخيل وللخمر ، حتى وصل الى أبى سفيان وقد قطع شقة طويلة ، يقول فيها وقد أجاد :

وجبريل رسـول الله فينا ... وروح القـدس ليس له خفاء
وقال الله قـد أرسلت عبدا ... يقـول الحق إن نفع البلاء
شهدت به فقوموا صـدقوه ... فقلتم لا نقـوم ولا نشاء
وقال الله قـد سيرت جندا ... هم الأنصار عـرضتها اللقاء
لنا فى كل يوم من معـد ... سباب أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقـوافى من هجانا ... ونضرب حـين تختلط الدماء
ألا أبلـغ أبا سفيان عنا ... فأنت مجـوف نخب هـواء
بأن سيوفنا تركتك عبدا ... وعبـد الدار سادتها الإماء
هجـوت محمدا فأجبت عنه ... وعنـد الله فى ذاك الجـزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخـيركما الفـداء

وقد فعل مثل ذلك الأخطل وجرير والفرزدق وغيرهم فى عهود معاوية وعبد الملك والوليد وهشام ، فـكانوا يدفعون بالقول شرقا وغربا ، ويطوحون بألسنتهم يمينا وشمالا ، فلا يقفون عند غرض ولا يثبتون أمام مكان . فهذه الدورات الـكثيرة فى القصيدة الواحدة قد كانت سائغة مقبولة عند جميعهم وكلها مقتبس من أساليب القرآن ، فلم يكن غريبا أن ينشد الشاعر خليفة أو أميرا فيبدأ بذكر الأحباب وما قاساه فى سبيلهم ، وما لفحوا به قلبه ، ولوحوا جلده ، وأطالوا سهده ، فطال ليله ، وقام يومه ، وفارق نومه ، فأصبح سلوة الأحباب ، وعبرة الأصحاب ، ومساءة الأتراب ، وقد كان يجول فى ذلك جولات صادقة فيأتى على وصف رمحه وترسه وزجه وفرسه ، فاذا ما وصل الى ممدوحه كان قد سلخ من قصيدته نصفها أو يزيد ؛ بل لم يكن غريبا أن يجىء حسان فيمدح رسول الله بهمزيته التى قدمنا ، أو يجىء كعب بن زهير فيمدح محمدا صلى الله عليه وسلم ، فيقول :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفـد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول

فاذا كان هذا شأن القول وطبيعته مع باعث الاسلام ومهبط الالهام وسيد الأنام ، فكيف به يكون مع الوزراء أو الأمراء أو الخلفاء ؟ ألا إنها طبيعة القوم قـد أضفت ذيلها على جميعهم ، فلم تفرق فى ذلك بين رفيع ووضيع ، ونفيس وخسيس .

وجملة القول أن تأثير القرآن فى اللغة كان بالغا الى حد أنه صاغها صياغة جديدة فى سنين قليلة ، وجعلها تصلح للبقاء ما بقى أهلها ، وهذه إحدى معجزاته الـكثيرة ؟

محمد ناصف

من وحى الشريعة الخالدة

لعل من أوليات الأخلاق الفاضلة ، ترك الكذب والجدل والمراء ، وسوء الخلق المندرج تحته الغش والمخاتلة ، وظلم الانسان لنفسه ولغيره ، والمفاخرة فى زهو وخيلاء ، والمكاثرة بالمال والرجال ابتغاء الفت فى ساعد نوع من الناس يراد البطش به والتسلط عليه ، والمداخلة فى العلوم ، والسفه فى الرأى ، والمخاتلة فى الحجة ، والكذب فى النصيحة ، والمداهنة فى الرياسات ، وأخذ المرءوسين بأساليب من التوجيهات مختلفات ، وإشاعة ريح الخلاف بين المرءوسين ليجنى الرؤساء من وراء ذلك انقساما على أنفسهم ، وانشقاقا فى صفوفهم ، قد يذهب بريحهم ويأتى على حاضرهم ومستقبلهم . فاذا ندّت الأخلاق عن لوثاتها ، وسمت الى المستوى الذى يصير منها أداة مثالية تهدى الى الحق والى طريق مستقيم ، فأنعم ما هى .

ولقد مر بنا فى بحث سابق أن عرضنا بقدر لمبلغ ما يحدثه الجدل والمراء من لوثة أخلاقية قد يبلغ بها المماروں والمجادلون من أنفسهم ومن ظاهرات المجتمع ما لا تبلغه أعداء البشرية بين أمم الأرض . والجدل والمراء وإن أسىء فهمه فى بعض أوضاع المصطلحين فقدر فريق من الناس أن الجدل والمراء من حوافز سلاطة اللسان وقوة البيان ، ومن دلائل لحن الحجة فتراه ينافح ويكافح حين تعرض له ريح المناخة والمكافحة ، يجن فيها جنونا ، ويفتن فيها فتونا ، يعقب على الحق حين يراه باطلا ، ويخرس عن الباطل حين يرى سلطانه أخذه بزبرجه وغشى بصره ببهرجه ، فهذا الفريق من البشر على البشرية ذاتها جد خطر . ولعله هو المعنى يقول الرسول الأعظم فيما رواه الطبرانى « إذا أراد الله بقوم سوءا فتح عليهم باب الجدل وسلبهم نعمة العمل » . ولعله أخطر ما يؤذى البشرية فى أجل ظاهراتها وأقوم مقوماتها .

حكى العلامة صاحب الملل والنحل أن الجدل والمراء متعدد المفهوم واسع مدلول العموم ، فقد يطلق الجدل والمراء ويراد منه المناظرة بالحق وبالباطل ، ويكون الجدل فى تلك الحالة قائما على المماراة والمباهاة بقدر ما يبلغه المجادل من حدود تبعث فيه ريح الأفن والغرور ، وتخلق فى صدره سخائم العجب والشرور . وهذ الفريق هو أخطر من كل خطر .

وهناك نوع من الجدل سليم لا بد من الأخذ به وركوب متنه والتسلح به فى حالات كثيرة ، أخلقها بالعناية وأجداها على بنى الانسان ، هوًى يتحكم وغيظ يحتدم فيمن أوتوا بسطة فى الجاه والمال . فالجدل مع هؤلاء المغرضين معناه توجيههم الى الصراط السوى والنمط المضى ، ومجادلتهم قضاء على جدوة ظلمهم وإطفاء لنار بغضائهم . والمبطلون إذا اتسع بهم السلطان وخلصت لهم وسائل البطش كانوا أفتك من الوباء وأخطر من أصفر الهواء . فمن خير البشرية

مكافحتهم كما تكافح النار . والحق إن لم يظفر بأنصاره كان الباطل أعم منه سلطانا وأقوى أركانا ولو الى حين . فلا غضاضة أن يكافح ظلم الظالم برده الى العدالة ، وأن يغالب إبطال المبطل برده الى الحق .

قال العلامة ابن خلدون فى مقدمته : إن الخلاف بين أنصار الظلم وأنصار العدل وأهل الحق وأشياع الجدال قديم الوجود والناس جميعا محاصون فيه ، ففريقا هدى وفريقا حق عليه الضلالة .

يبقى بعد ذلك الجدل فى الدين ، والجدل فى الدين متصل بهذا الوجود حتى بين الأمم الأولى وبين رسلهم ، كذبوهم فى أصول العقائد الدينية عنادا واستكبارا ، ثم ورث العلماء وخلوفهم من بعدهم ذلك الاضطهاد وذلك الخلاف الناشب بينهم وبين أولئك المعاندين ، ولهذا البحث شرح يطول سوف نفرد له بحثا آخر . لكن مما لا ينبغى إغفاله فى خاتمة هذا البحث أن نورد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدة فتخلفه » . وقوله : « كفى بك إثما أن لا تزال مخاصما » ؟

عباس طه

تصحيح

جاء فى العدد السابق ص ٣٢٥ س ٣ : أو معمول لعامل .

والصواب : أو مفسر لعامل .

وجاء فى العدد السابق أيضا ص ٣٤١ س ٣ : ينتهى نسبه الى عبد شمس الأموى .

والصواب : ينتهى نسبه الى يزيد مولى يزيد بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموى .

بين رجال الدين والفلسفة

نشرنا فى العدد السادس لفضيلة الأستاذ المفضال الشيخ محمد يوسف موسى المدرس بكلية أصول الدين مقالا بالعنوان المتقدم ، وكان قد وعد بتكميله فى العدد الذى يليه . وقد أرسل إلينا فضيلته التكملة فلم نستطع نشرها فى العدد السابع بسبب ازدحام المقالات ، فأرجأناها للعدد الثامن ، فنلفت اليها الأنظار .

Section IV

Moralities

Moralities embrace the consideration of all those moral excellences which are enjoined in the Koran and in the teachings of the Prophet, such as, Sincerity ; Confidence in God ; Humility ; Resignation ; Keeping worldly ambitions within bounds ; Giving good counsel and advice ; Contentment ; Liberality ; Love to God and man ; Patience ; Ethical instructions and rules of conduct relating to (1) salutations, (2) asking permission to enter a house, (3) shaking hands, and embracing, (4) rising up, (5) sitting, sleeping and walking, (6) sneezing and yawning, (7) laughing, (8) names, (9) poetry and eloquence, (10) backbiting and abuse, (11) promises, (12) joking, (13) boasting and party spirit.

Section V

Punishments

Punishments include (1) penalties exacted for manslaughter or serious bodily injuries, (2) punishment for theft by the loss of a hand, (3) punishment for fornication and adultery : stoning for a married person, and one hundred lashes for an unmarried person, (4) punishment for slander by eighty lashes, (5) punishment for apostasy by death, (6) punishment for inebriation by eighty lashes.

My object in writing this book, however, is quite limited. It is to deal with two important sections only of the religion of Islam, namely, Beliefs which embrace all matters of faith, and Devotions which include all matters of practice, as distinguished from articles of faith. Hence, I will confine the following pages to the two above mentioned comprehensive divisions of the Law. Meanwhile, I will give a brief summary of the more important articles embodied in the rest of the sections.

DIGEST OF THE MOHAMMADAN CREED

The creed of Mohammadans demands faith in the following :

(1) God ; (2) The Angels of God ; (3) The books of God ; (4) The Apostles of God ; (5) The day of Judgment or Resurrection ; (6) Predestination.

I will now deal with each of these articles separately :

BOOK III

EXPOSITION OF THE RELIGION OF ISLAM

The word Islam which literally signifies 'resignation' (to God's will), is a comprehensive name commonly applied to the religion of the followers of the Prophet Mohammad. It embodies the various sections of the Mohammadan Law which God has established for the guidance of His people, both for the worship of their Lord, and for the duties of life.

These sections are five in number, namely :— Beliefs ; Practical Devotions ; Transactions ; Moralities ; and Punishments.

Section I

Beliefs

Beliefs embrace the six articles of the Mohammadan faith, namely ; Belief in (a) God ; (b) His angels ; (c) His books ; (d) His prophets ; (e) The day of Resurrection ; (f) Predestination.

Section II

Devotions

Devotions are sub-divided into five articles of practice : (a) Recital of the Creed ; (b) Prayer to God ; (c) Paying legal alms ; (d) Fasting the month of Ramadan ; (e) Pilgrimage to the Temple of Mecca once in a life-time, if means allow it.

Devotions also embrace legal warfare for the defence of the religion of Islam.

Section III

Transactions

Transactions include such duties as are required between man and man, and may be divided into three sub-divisions, namely :— Contests ; Nuptials ; and Securities. Almost all the various sections of civil jurisprudence relating to barter, sale, agency, larceny, marriage, divorce, dower, partnership, claims etc., are embraced under those three heads.

Islam does not compel a woman to remain within her house under all circumstances. It permits her to go out, whenever there arises any legitimate necessity for her to go out. It is certain, that she has to take permission, either express or implicit, from her husband. There are, however, occasions when the husband cannot deny his wife such a permission, as for example, when she intends to acquaint herself with the opinion of the learned on any matter affecting herself, or to visit her sick parents, etc.

As regards attending public prayers, there is nothing to prevent women from doing so under certain reservations, but it is preferable that they should pray at home. "It is more meritorious," said the Prophet, "that a woman should say her prayers in the courtyard of her house, rather than in the mosque ; it is more meritorious that she should say her prayers within the house, rather than in the courtyard ; and better still, in her closet, rather than in her house ; and all this with a view to conceal her from public view."

I hope that I have succeeded in presenting the correct teaching in accordance with the Islamic laws, in regard to the question of female seclusion.

It can be emphatically asserted, that Islam never favours woman's seclusion in any extravagant form. Seclusion or the Islamic veil system is defined as throwing a wrapper over the body from head to foot, and it is clear, that in this sense, it is not incompatible with a woman's stepping beyond the threshold of the house, particularly when occasion demands, and when she obtains the consent of her husband or guardian. Certain restrictions have, doubtless, been imposed on the freedom of her movements, as we have shown above. But this is due as much to moral considerations as to the fact, which has been so often ignored, that woman's proper sphere of action and influence is her own house. Man, to go abroad with a view to earn a living for himself, his wife, and children,—and woman, free from such cares, to remain at home, in order to watch over the trust committed to her, and to discharge her own responsibilities, as a mother and a wife,—such is the Islamic conception of the relation between the two sexes.

influence of Islam was a blessing to the Arab race. It was Islam that awakened in the Arab mind respect for women, and a high sense of decency, and social decorum. It was only an extension of the laws of decency and social decorum, when too close intercourse between strangers and the Prophet's wives was forbidden, as we have seen in the verse of the veil. It is really to be much regretted, that the critics of Islam will not see all this, and should obstinately ascribe the framing of all these healthy rules, to motives of selfish jealousy.

There is one more verse, in the same chapter, to which reference may be made in this connection : "O Prophet, speak unto thy wives, and thy daughters, and the wives of the true believers, that they cast their outer garments over them (when they walk abroad); this (will be) more proper, that thev may be known (to be matrons of reputation), and may not be affronted (by unseemly words or actions) God is gracious (and) merciful."

The purport of this verse is quite clear, and requires no elucidation. The wives of the Prophet, as well as the wives of the faithful, are permitted to go abroad, if necessary,—and they are required to cover themselves with large wrappers. The object of this qualification, as briefly indicated in the verse, may be best understood by a reference to the fact, that before the revelation of this verse, both the free women, as well as the slave women, used to go abroad, without any wrappers on, and with their heads bare; and wicked men very often affronted them in the streets. If in the case of a free woman, any altercation ensued, these men were ready with their explanation that they took them for slave women. The free women were, therefore, commanded by this verse, to cover themselves with wrappers, when they walked out of doors, so that they might easily be distinguished from slave women, and thus be safe from the insolence of street-men. Nor was the wrapper, a mere mark of their social states—it was a mark of their chastity as well. For, by using large wrappers, and thereby covering the bodies, including the faces, which it is not at all obligatory to cover, they bore a silent, but strong testimony to their moral purity, and inspired awe, even in the tainted hearts of wicked people.

The Koranic verses are very clear on this point, and leave little room for doubt. Leaving aside the difference of interpretation, two facts stand out in bold relief :

(1) That the object of the verses is to secure chastity of heart and mind, and purity of looks for man and woman.

(2) That the verses actually forbid an unrestrained and promiscuous mingling of both sexes, and this in the interest of good morals and social well-being.

cattle and furniture. Free women, as well as slave women, freely walked in the open, with their heads bare, and often with scanty clothing. The houses were not large enough, and the rooms were narrow and few in number. In most cases, one and the same room served many different purposes. It is easy to see, therefore, that amid such conditions, it was very difficult to maintain privacy. Indeed violation of privacy, and even of decency, was an every day occurrence. It was to put a stop to such an undesirable state of things, that the following teachings were revealed :

"O ye who believe, enter not into other houses than your own, until ye have asked leave, and have saluted the family thereof ; this is better for you : haply ye will bear this in mind.

"And if ye find no one therein, then enter it not, till leave be given you ; and if it be said unto you, 'Go ye back', then go ye back. This will be more pure for you, and God knoweth what ye do.

"There shall be no harm in your entering houses, in which no one dwelleth. God knoweth that which ye discover and that which ye conceal [1]."

Commentators mention a significant tradition obout a person who, after the revelation of these verses, inquired of the Prophet, if it were necessary for him to get permission even from his mother, before entering into her chamber, "Yes," said the Prophet. "But she has none to attend to her, except myself," put in the Arab inquirer. "Likest thou to see your mother naked ?" observed the Prophet. "Certainly not," replied the man. "Ask her permission then," said the Prophet emphatically.

Likewise, we find that, at certain times of the day, even domestics and children should not come into our presence without notice. Here are the instructions bearing on the occasion :

"O ye who believe, let your slaves and those of you who have not come of age, ask leave of you, three times a day, ere they come into your presence ; before morning prayer, and when ye lay aside your garments at mid-day, and after the evening prayer. These are three times of privacy. No blame shall attach to you or to them, if after these times, when ye go your rounds of attendance on one another (they come in without permission). Thus doth God make clear to you His signs : and God is knowing, wise. And when your children come of age, let them ask leave to come into your presence, as they who were before them, asked it [2]."

Under such circumstances and conditions Arab society grew. The

(1) Koran : XXIV : 27-29.

(2) Koran : XXIV : 57-58.

wives of the Prophet should speak to these religious inquirers, as mothers would do to their sons.

The next verse, to which we would like to allude, is called the verse of the veil, and it occurs further on in the same chapter: "And when ye would ask any gift of his wives, ask it from behind a veil. Purer will this be for your hearts and for theirs [1]."

According to some commentators, strangers may approach the wives of the Prophet, and talk to them, if they are veiled; and presumably this applies to the generality of Moslem women as well. Aiming, as it does, at the purification of the heart, the verse only forbids too familiar an intercourse between strangers and the wives of the Prophet. It does not warrant the conclusion, that the Koran laws are responsible for the immurement of the fair sex.

There are other commentators, who follow a stricter interpretation of the verse, namely, that the wives of the Prophet were here commended, not to appear before strangers, even though they were veiled. Those who uphold this interpretation, are careful to limit the applications of the verse to the Prophet's wives only. "If any other Moslem woman appears before stranger, she commits no fault; but if she does not appear at all, it is better still [2]."

The occasion of this verse, in accordance with one version, olso lends supprot to the view, that the verse was intended for the wives of the Prophet alone. Omar, who afterwards was elevated to the Caliphate, once happened to come upon the wives of the Prophet, who were still sitting in a mosque in company with many other women. Such a sight was not to Omar's liking, for he was always in favour of the seclusion of the Prophet's wives. He there and then exclaimed—"What a happy thing it would have been, if the 'mothers of the faithful' [3] had been under veils." In that case, thought he, their superiority would have been established over other women, much in the same way as the superiority of their noble husband is established over other men [4].

In studying these verses, many forget to take into account the circumstances and conditions that prevailed in those times in Arab Society. A sort of chivalrous spirit doubtless existed; but it existed in Arab poetry, rather than in the actual life of the people. Women were no better than

(1) Koran, XXXIII : 53.

(2) Zamakhshari's Commentary of The Koran.

(3) Thus were the wives of the Prophet termed in the Koran.

(4) Zamakhshari, p. 1141.

their sweet songs, or to the stories of their love and beauty, provided it is done with a pure heart; but that it is never lawful for us, to cast glances at them, whether to lust or otherwise, and to listen to their voices, whether with a pure or an impure heart. We are forbidden to do an act, in the doing of which we are not treading upon sure ground. If the eyes are accustomed to look after strange women, there is a fear, lest this practice should, some time, lead to dangerous consequences. The Word of God, as revealed in the Holy Koran, therefore, restrains the carnal desires of man, and enjoins upon him, to avoid the occasions, where there is danger of the excitement of the evil passions.

We now advert to another passage in the Holy Book, where the 'mothers of the faithful' are thus addressed: "O Wives of the Prophet, ye are not as other women. If ye fear God, be not too complaisant of speech, lest the man of unhealthy heart should lust after you, but speak with discreet speech. And abide still in your houses, and go not in public, decked as was common in the days of ignorance, but observe prayer and give alms, and obey God and the Apostle: God but desireth to put away all impurity from you, O ye the household of the Prophet, and purify you thoroughly. And study what is rehearsed to you in your houses, of the Book of God, and of Wisdom: for God is keen-sighted and cognisant of all[1]."

The wives of the Prophet, who were destined to be patterns for all faithful women, are here given positive injunctions, to fear God, purify their hearts, observe prayer, give alms, obey the Prophet, and read constantly the Holy Koran,—in short, to lead a life of purity, devotion, and piety. In the sublimity of their thoughts, these noble women were not unmindful of the humbler duties of domestic life. The great lesson which their noble husband taught, was that woman's proper sphere is her house, and the claims of domestic duties should receive her first and best consideration. He set up an ideal before his wives, and through them, to all believing women: it was the ideal of plain living and high thinking.

It is to be remembered, that the wives of the Prophet were all accessible to religious inquiries. Ayesha was, as it were, the repository of the traditions, and was frequently consulted on matters of religion and ritual. Men came from distant parts of the country and straightway saw the wives of the Prophet, and all of these visitors were certainly not of blameless character. It was quite natural, that the wives of the Prophet should have received guidance with regard to general deportment and propriety of speech. By "discreet speech," in the above quoted verse, is meant that the

(1) Koran, XXXIII: 32-34.

husband's fathers, or their sons, or their husband's sons, or their brothers, or their brothers' sons, or their sisters' sons, or their women, or their slaves, or male domestics who have no natural force, or to children who distinguish not women's nakedness. And let them not strike their feet together, so as to discover their hidden ornaments. And be ye all turned to God, O ye believers, that it may be well with you[1]."

The chief object of these verses is to secure greater purity of heart and increasing chastity of mind; and hence the believers are here reminded that God is well aware of what they do, and that it shall be well for them, if they constantly turn to Him. To attain this moral purity, the believing man is first directed to restrain his eyes and observe continence. Then the believing woman is likewise directed to cover her person and ornaments from public view, to restrain her eyes and observe continence. A Moslem woman is at liberty to go out of her house, if necessary, after she has obtained permission from her husband or guardians. Only, she has to take good care to dress herself properly, so as to cover her person from head to foot, and to walk in the street with downcast eyes.

It is needless to point out, that the injunction with respect to looking down, is useless and uncalled for, if the women are never to walk abroad. Likewise the reference to external ornaments, too, becomes pointless, if women are to appear only before persons mentioned in the verses quoted above. It is allowable for a woman to uncover part of her face, fingers of her hands, soles of her feet, when she feels the necessity of going out. The rest of the body must be concealed before strangers, but before the persons enumerated in the verses, it is enough that the part from breast to knee remains covered.

It is clear then, that the verses quoted above deal with propriety of dress, and forbid women to flirt and coquet, in order to gain admirers. On the other hand, they enjoin upon the faithful women modesty of deportment, purity of heart, and fear of God.

It can be confidently asserted, that the excellent teachings upon chastity, together with the remedies for incontinence, as contained in the Holy Koran, are a peculiarity of Islam. One particular point deserves especial attention. The natural inclination of man is to sexual desire, over which he cannot have full control, except by undergoing a thorough transformation. The divine injunction in this respect is, therefore, not that we may look at strange women and their beauty and ornaments, or their gait and dancing, so long as we do it with pure looks, nor that it is lawful for us to listen to

(1) Koran : XXIV ; 31.

husband; no less so, as far as legal obligation goes, than slaves commonly so-called. She vows a lifelong obedience to him at the altar, and is held to it all through her life by law. Casuists may say that the obligation of obedience stops short of participation in crime, but it certainly extends to everything else. She can do no act whatever, but by his permission, at least, tacit. She can acquire no property, but for him; the instant it becomes hers, even if by inheritance, it becomes ipso facto his. In this respect the wife's position under the Common Law of England is worse than that of slaves in the laws of many countries; by the Roman Law, for example, a slave might have peculium which, to a certain extent, the law guaranteed him for his exclusive use[1]."

9. Female Seclusion

The Islamic laws regulating the social intercourse of the Moslems, have often given rise to needless criticism in Europe. In their enthusiasm for social liberty, the Western critics say, that these laws are degrading to Moslem women, and are responsible for the low state of morality among Moslems. However, the true fact is, that these laws, strict as they are, had for their very aim the preservation of good morals in society. Indeed, preservation of good morals—and not unrestricted freedom of social intercourse among men and women, such as is prevalent to-day in Christian Europe—is the intention of the Islamic laws. Female seclusion is misunderstood in many quarters in foreign countries, for the apparent reason that sanctions of religion and usage have not been kept apart, as they ought to have been, but have been grossly mixed one with another. Failing to distinguish between the two, our Western critics have fallen into the very serious fault of disseminating a false notion among their countrymen, that Islam is responsible for the seclusion of females, and for all the evils that flow therefrom.

I will dwell on the subject a little, and make an attempt to show whether the religion of Islam actually sanctions the seclusion of women, as is misunderstood by European critics.

The following verse occurs in the Koran, which touch on our present subject: "Speak unto the female believers that they restrain their eyes, and keep themselves from immodest actions; and that they display not their charms and ornaments, except to their husbands or their fathers, or their

(1) The Review of Religions, May 1913. Evidently J. S. Mill wrote prior to the Married Women's Property Act of 1882.

forced his wife to enter into a "kholaa," the wife is entitled to get back the dowry, but the separation will be valid in law.

I have already made mention of the procedure known as "Tafriq," which legally means dissolution of the status of marriage by a judicial decree. I give here some of the causes, for which a wife can demand a divorce by authority of the Court It must be remembered that, where the wife has the right to prefer a claim of "tafriq," the husband is entitled to no compensation, as he is so entitled in "kholaa," A divorce may be granted by the Court for :—

(1) Habitual ill-treatment of the wife.

(2) Non-fulfilment of the terms of the marriage contract.

(3) Insanity. (4) Incurable incompetency.

(5) Quitting the conjugal domicile without making provision for the wife.

(6) Any other similar causes which in the opinion of the Court justify a divorce.

We have seen, then, the position of woman and her legal status in Islam.

To sum up, in the words of Syed Ameer Ali : "Her legal status is decidedly superior to that of European women. The social immunities she enjoys, allow the fullest exercise, on her part, of the powers and privileges which the law gives to her. She acts, if sui-juris, in all matters which relate to herself and to her own property, in her own individual right, without the intervention of husband or father. She appoints her own attorney, and delegates to him all the powers she herself posseses. She enters into valid contracts with her husband and her male relations, on a footing of equality. If she is ill-treated, she has the right to have the marriage tie dissolved. She is entitled to pledge the credit of her husband for the maintenance of herself and her children. She is able, even if holding a creed different to that of her husband, to claim the free and unfettered exercise of her own religious observances... Her ante-nuptial settlement is her own by absolute right, and she can deal with it according to her own will and pleasure. To become entitled to its enjoyment, she requires no intermediaries, trustees or next of kin. When she is aggrieved by her husband, she has the right to sue him in her individual capacity."

It is both interesting and instructive to compare this extract with another, from the writings of J. S. Mill, which gives us an idea of the corresponding position of women in Christianity : "We are continually told" says he, "that civilisation and Christianity have restored to woman her just rights. Meanwhile, the wife is the actual bond-servant of her

be able to observe the bounds set by God namely not to perform her functions as a wife. The Prophet here permitted the woman to release herself by returning to the husband the ante-nuptial settlement, as compensation for the release granted to her.

In the "kholaa" form, the basic principle of repudiation is, that the husband is lawfully entitled to compensation, only when he is not at all responsible for the breach—neither wholly nor in part,—but when the wife is alone responsible, as in the tradition quoted above.

Moslem jurists are all agreed, that the compensation extorted from an innocent wife is unlawful. Compensation is absolutely unlawful for the husband, even when the wife happens to be partly responsible for the disagreement. The Moslem religion is the only one that can produce a set of laws which jealously protects the property and person of a wife against her "husband's cupidity and tyranny."

I now advert to a passage in the Koran which expressly forbids the husband to resort to cruelty or other violent means, with a view to compel a woman to enter into "kholaa" and to relinquish her dowry. "O believers, it is not allowed you to be heirs of your wives against their will; nor to imprison them[1], in order to take from them a part of the dowry you gave them, unless they have been guilty of manifest crime; but associate kindly with them; for, if ye are estranged from them, haply ye are estranged from that, in which God hath placed abundant good. And if ye be desirous to exchange one wife for another, and have given one of them a talent, make no deduction from it. Would ye take it by slandering her, and with manifest wrong? How, moreover, could ye take it, when one of you hath gone in unto the other, and they (the wives) have received from you a strict bond of union [2]." It is impossible to think of a more appealing and forcible exhortation to a husband, to deal kindly with his wife, even if she happens to be a woman of unseemly manners. It is forbidden in the strongest terms, to lay hold on her property in the event of a separation.

Before these verses were revealed, brutal husbands used to maltreat their wives, and even to imprison and torture them until, unable to bear their sufferings, they were forced to relinquish the dowry settled upon them at marriage; and this property they used to endow their new wives with. This was expressly forbidden by the verses quoted above.

According to the Malikite Moslem School of law,—if a husband has

(1) Sometimes the phrase is translated, 'Do not hinder them from marrying others."

(2) Koran, IV : 18.

The compensation is a matter of arrangement between the husband and wife. The wife may return the whole, or a portion of the dower, if it has been paid; or she may simply surrender her dower or other rights, such as the right to maintenance and lodging during the "iddat" period, or she may make any other agreement for the benefit of the husband such as for instance, to nurse their child during its two years of suckling, or to keep and maintain the child for a fixed period, at her own expense after having weaned it.

It should be remembered that the distinction between "talaq" and "kholaa" is real and not merely technical. If the cause of disagreement proceeds from the husband, or if he alone wishes for a "talaq," he must pay off the settlement debt to the wife. But, in case the proposal for a divorce emanates from the wife, because of her aversion to the husband, and her consequent failure to perform her duties as a wife, or if she alone wishes for a "kholaa," she has to surrender her dower or abandon some of her rights, as compensation. If the wife be so unfortunate as to be subject to abuse by a brutal husband who may wish her either to forfeit the whole of her dower, or live with him, she need not forfeit the whole of her dower. Let her only go to the judge, prefer a complaint against her husband and demand a formal separation by the decree of the Court. If her allegations are true, the judge will call upon the husband to repudiate her. In case he refuses to do so, the judge himself pronounces a repudiation which will operate as a valid repudiation, and the husband will be liable for the whole of the deferred dower. This procedure is known as "tafriq," or legal separation, in the Mohammadan law, and is based on the words of the Prophet: "If a woman be prejudiced by a marriage, let it be broken off [1]."

The first "kholaa" case in Islam is quoted by Bukhari in the following words: The wife of Thabit-ibn-Qais came to the Prophet and said 'O Messenger of God, I am not angry with Thabet for his temper or religion; but I am afraid that something may happen to me contrary to Islam, on which account I wish to be separated from him.' The Prophet said: "Will you give back to Thabit the garden which he gave to you as your settlement?" She said, 'Yes': Then the Prophet said to Thabit, "Take your garden and divorce her at once [2]."

This tradition clearly tells us that Thabit was blameless, and that the proposal for separation emanated from the wife who feared she would not

---

(1) Bukhari's Commentary.

(2) Bukhary is the greatest commentary of Mohammadan orthodox traditions

It is to be remembered that the abuses, likely to arise from the laxity of the laws, may conveniently be counteracted by other lawful impositions. The wife or her guardian, for instance, may stipulate, at the time of marriage, against the arbitrary exercise of the power of divorce by the husband. The right of dissolution of the contract may be stipulated to be with the wife, instead of with the husband, if necessary. The same object may also be achieved indirectly, by fixing the dower at a large sum, beyond the means of the husband to liquidate. The wife may also, by stipulation, reserve to herself the power of dissolving the marriage under certain legitimate circumstances, for example, if the husband marries a second wife.

In the event of a divorce, the Islamic laws are very particular in providing for the protection of the wife's property against the avarice of the husband. If the divorce is due to a cause imputable to the husband, he has to make over to her all her property, and pay off the dower that had been settled upon her. If, however, the divorce has been resorted to at the instance of the wife, without any justifiable cause, she has simply to abandon her claim to the dower. "The wife thus occupies," observes Syed Ameer Ali, "a decidedly more advantageous position than the husband."

8. "Kholaa" Divorce

Kholaa divorce is defined thus: When married parties disagree and are apprehensive that they cannot observe the bounds prescribed by the divine laws,—that is, cannot perform the duties imposed on them by the conjugal relationship,— the woman can release herself from the tie, by giving up some property in return, in consideration of which the husband is to give her a "Kholaa," and when they have done this, an irreversible divorce would take place."

"Kholaa" is therefore a repudiation with consent, and at the instance of the wife, in which she agrees to give a consideration to the husband for her release from the marriage tie. But if the wife fails to pay the compensation, there is yet another means to dissolve the marriage, namely, "Mubarat," according to which no compensation has to be paid, and a complete separation is effected, merely by mutual consent of the parties. If, however, the husband gives a "Kholaa" to his wife *without* any compensation, the respective claims of husband and wife are not cancelled forthwith, and they are quite competent to sue each other for the payment of any debts which may be due.

and does not exercise the right of return on the repudiated wife, he loses the power of recantation at the expiration of the term, and complete cessation of the marital rights and duties takes place, a fresh marriage being necessary for the parties to re-unite[1].

It is obvious, that the very spirit of the prescribed traditional form of repudiation is towards a revocation of the divorce and a reconciliation between the parties concerned. If, however, the parties fail to take advantage of the prescribed interim, and are determined to break from each other, the husband may pronounce the repudiation for the third time and thus dissolve the marriage definitely. The divorced wife is forthwith rendered unlawful to him, and he cannot remarry her, unless the wife marries first another person by a valid and binding contract, is divorced by this person, after a bona fide consummation of marriage, and completes the period of 'iddat' consequent upon such repudiation[2].

This severe condition, has been the subject of much comment by the critics ; but they forget that the very existence of such a condition demonstrates most strongly that the principles of Islam are entirely opposed to the alleged facility of divorce. The object of laying down such a rule, was to prevent a definite dissolution of marriage, by appealing to the sense of honour of the people.

"Sautayra and Sedillot agree with the Mohammadan jurists, in thinking that this rule was framed with the object of restraining the frequency of divorce in Arabia. Sedillot speaks of the condition as a 'very wise one,' as it rendered separation more rare, by imposing a check on its frequent practice among the Hebrews and the Heathen Arabs of the Peninsula. Sautayra says that the check was intended to control a jealous, sensitive, but half cultured race, by appealing to their sense of honour[3]."

Sir W. Muir erroneously thinks that Islam positively sanctions the hiring of a temporary husband, to legalise re-marriage with a thrice-divorced wife[4]. The idea of getting the divorced wife married to a third person, on an express understanding that he would divorce her in favour of her former husband, was condemned by the Prophet in the most emphatic terms.

In the other form of divorce, three repudiations are pronounced in the period of purity, either on one occasion or on three separate occasions. This divorce is valid, but is an act of sin. This form of divorce is called "Talaq Bid-à," i.e. not in conformity with pious practice.

---

(1) Koran, II : 232. (2) Koran, chap. II : 230.

(3) Personal Law of the Mohammadans, p. 335.

(4) Sir. Wm. Muir's 'Life of Mahomet.' vol. III. p. 349.

(c) The husband must abstain from connubial intercourse with his wife after pronouncing repudiation for the period of three months [1]."

There is a tradition of accepted authenticity that throws considerable light on the wisdom underlying the last two restrictions. Abdullah-ibn-Omar divorced his wife while she was in her menses; and the matter was reported to the Prophet who, much exasperated at the levity of his conduct, said: "Let him take her back and retain her; till she be pure and again have her courses and again gets pure. Then, if he thinks it prudent, let him divorce her, but he should do so when she is clean and has not been approached: and this is the period of retirement (Iddat) which God has ordered for divorce."

Some learned commentators observe in connection with this tradition that the purpose of this condition is, to avoid a rash and hasty procedure on the part of the husband, through aversion arising from the wife's impurity, and, by fixing a long period of abstinence, to give him opportunities to reconsider his decision about the divorce, so that perchance he may repent, and exercise the right of return before the expiry of the term.

During this period of probation, the marriage subsists between the parties, and the husband retains his marital authority over his wife. He may, therefore, have access to the wife even without her permission, and can treat her as his wife, but this would actually amount to his exercising the right of return. During 'iddat,' the husband is under legal obligation to lodge the wife in his house, though in a separate apartment, and maintain her. The laws of the Koran are quite clear on this point. "O Prophet, when ye divorce women, divorce them at their appointed time, and compute the term exactly, and fear God your Lord. Oblige them not to go out of their apartments, nor allow them to depart, unless they be guilty of manifest uncleanness [2]."

"House the divorced, as ye house yourselves, according to your means, and distress them not, by reducing them to straits. And if they are pregnant, then be at charges for them, till they are delivered of their burden; and if they suckle your children, then pay them their hire; and consult among yourselves, and act generously [3]."

If, the husband has pronounced one, or even two repudiations, and if within the prescribed period, he abstains from intercourse with his wife,

(1) These three months constitute the 'iddat' period which is obligatory on such wives with whom the marriage has been consummated. "The women who are divorced shall wait concerning themselves until they have their courses thrice." Koran. II : 228.

(2) Koran, ch. LXV : I. (3) Ibid : 6.

your wives, and then either retain them with humanity, or dismiss them with kindness[1]." "When ye divorce women, and the time for sending them is come, either retain them with generosity, or put them away with generosity; but retain them not by constraint so as to be unjust towards them. He who doth so, indeed injures himself[2]."

7. The Form of Separation—A Check on Separation

The Holy Prophet imposed certain such conditions on the exercise of the power of divorce that while, on the one hand, they served as a powerful check on the injudicious and arbitrary use of this power, they afforded, on the other hand, many opportunities to the parties for an amicable agreement, if they so desired. Of the several forms of divorce recognised by Islamic law, the one that bears the impress of the Holy Prophet's sanction and approval is the "Ahsan" type of "Talaq[3]." This form of repudiation involves the following conditions, each of which being intended to prevent a permanent breach :

(a) The husband, in the first place, must pronounce only one repudiation, the object of this limitation being, that he may subsequently, when better sense prevails, revoke the repudiation —if he has pronounced it from caprice or in a moment of excitement—within the period of the wife's retirement consequent upon that repudiation and that, he may re-marry her, if the period expires without the right of return having been exercised by the husband[4].

(b) The repudiation must be pronounced when the wife is in a state of purity, and there is no bar to sexual intercourse, it being declared unlawful to pronounce repudiation when the wife is in menses, or when she is pure, but has already been approached[5]."

Again :

"Men used to divorce their wives, and take them back, not because they intended to retain them, but because they wanted to tease their wives by putting off the divorce indefinitely; so God revealed the verse : "Retain them not by constraint etc." (Malik's Mowattaa).

(1) Koran, ch. II : 229.

(2) Koran, ch. II : 231.

(3) Ehyiaa-el-Uloum, by Ghazali.

(4) Fatawi Moughiri.

(5) Ehyiaa-el-Uloum, by Ghazali.

their part, may perhaps do away with the difference. I give below some of the verses of the Holy Koran, and the reader will see how they ask us to make allowance for the frailties, to which our human nature is prone, and in what manner a reconciliation is recommended. It is impossible to read the verses without being impressed with their appealing tone and graceful simplicity. "And if a woman," so runs the fine verse, "fear ill-usage or aversion, on the part of her husband, it shall be no fault in them, if they can agree with mutual agreement; for agreement is best[1]. Souls are prone to avarice[2], but if ye act kindly and fear God, then verily your actions are not unnoticed by God. And ye will not have it at all in your power to treat your wives alike, even though you fain would do so; but yield not wholly to disinclination, so that ye leave one of them, as it were, in suspense; but if ye come to an understanding, and fear God, verily God is forgiving and merciful; but if they separate, God can compensate both out of His abundance, for God is vast and wise[3]."

We have seen, then, that divorce is permissible in Islam only in cases of extreme emergency. When all efforts for effecting a reconciliation have failed, the parties may proceed to a dissolution of the marriage by "Talaq" or by "Kholaa[4]," When the proposal of divorce proceeds from the husband, it is called "Talaq," and when it takes effect at the instance of the wife it is called "Kholaa."

Under many systems of law, divorce was certainly permitted, but it could not be revoked. But the Islam legislator, while he permitted divorce, recognised under certain circumstances, the right of return in the husband. This privilege, in the infancy of Islam, was indefinitely exercised, and often abused to the detriment of women, until the Prophet received revelations, setting limits to the act of divorce, and forbidding wanton cruelty to wives, by keeping them in suspense for an indefinite period[5]. "You may divorce

---

(1) To wit, agreement is better than separation, better than ill-usage and better than aversion. (Razi Commentary.)

(2) "Avarice" here implies whatever is an impediment to reconciliation. On the part of the wife it takes the form of an uncompromising attitude and a tenacious insistence on her rights which may prevent a meeting half-way; and as applied to the husband, it means unwillingness to associate with the wife for ugliness of her features or old age, or other like causes. (Razi Commentary.)

(3) Koran: IV, 127-129.

(4) There is a third way, also called "Mubarat," which is divorce by mutual consent.

(5) "A man divorced his wife, took her back, when the period of retirement was coming to an end, again divorced her, saying—By God, I will neither accept thee, nor allow thee freedom to marry another. So God revealed the verse: "You may divorce your wives etc." (Malik's Mowattaa.)

The drift and tone of the verses quoted above, point to the desirability of exercising the power of correction in three degrees. He may begin with a reprimand, if her conduct calls for such. Then, if she still remains rebellious, he may banish her from his bed for a few days. If this also proves unavailing, he may next beat his wife, but not so as to cause her permanent injury, for he is not allowed to use violence, even under extreme provocation [1]. In the event of the failure of all these expedients, divorce need not follow, but a resort to arbitratiors is advised, each party being represented by a member of his or her family. The arbitrators after hearing both sides, shall endeavour by all possible means, to bring about a reconcliation. If their efforts prove unsuccessful, they may grant a repudiation, when empowered by both parties to do so.

The Holy Prophet, who no doubt understood the import of the Koranic verses better than anybody else is reported on good authority to have said: "Feed thy wife as thou feedest thyself, clothe her as thou clothest thyself, strike her not on her face, separate not from her, except within the house ; but if she persists in her refractoriness.... begin with admonitions, and awaken in her the fear of God the Most High ; if she does not submit, banish her from thy bed, and converse not with her for three days ; if she still refuses to mend her manners, beat her but not so as to leave any mark on her person, as would be the case if a rod were used : for the object is to correct her, and not to destroy her. Should this course fail to mend matters, let the case be referred to two Moslem arbitrators, free and just, one chosen from the family of each of the parties ; and they shall see whether in that particular case reconciliation or separation is desirable ; and their decision shall be binding upon them both [2]."

When, however, the cause of disagreement proceeds from the husband, the wife is certainly not given the power of correction, but then, she is empowered by the Islamic law to obtain a divorce, if she so desires. Before the advent of Islam, neither the Jews nor the Arabs recognised the right of divorce for women : and it was the Holy Koran that, for the first time in the history of Arabia, gave this great privilege to women. And, at the same time, it must be remembered, the spirit of the Koran is opposed to an indiscriminate exercise of this privilege. The Prophet warned women, not to play the hypocrite, and men are advised in the most emphatic terms, to refrain from seeking a breach, where a little moderation on

---

(1) "The Mohammadan Law," stated the Lord of the Privy Council, on a question of what is legal cruelty between man and wife, "would probably not differ materially from our own" (Abdul Kader 1886.)

(2) "Ghunyat el Talibeen ch : Manners of Marriage."

prevention of divorce, and that everywhere a reconciliation is recommended in the most appealing terms. Before the parties proceed to the extremity of divorce for unavoidable reasons, it is expressly laid down, that all lawful means be adopted for avoiding a breach ; and it is only in the event of their failure that a separation is permitted, of course, as a last recourse. Under such extreme circumstances, divorce is not merely permissible, but has been held quite expedient, and recourse to it is recommended, in spite of deterrents, like poverty. It is believed, God Himself opens out many a way for those whose intentions are honest : "And if they separate, God will make them richer out of his abundance, for God is extensive and wise[1]." It is interesting to note that very nearly the same idea is expressed in the Koran where those who are single are exhorted to marry. "Marry those who are single among you, and such as are honest of your men-servants and your maid-servants, if they be poor, God will enrich them of His abundance[2]." It follows, then, that according to the Islamic laws, divorce, under certain circumstances, is as necessary as marriage.

The directions of the Koran in respect of the adoption of the courses that tend to make reconciliation possible, are as explicit as they are full of wisdom. Thus, in the chapter on women, we read :—

"Virtuous women are obedient, careful during the husband's absence, because God hath of them been careful. But those, for whose refractoriness ye have cause to fear, chide ; remove them into beds apart ; and chastise them, but if they are obedient to you, then seek not occasion against them : verily God is high and great. And if ye fear a breach between husband and wife, send a judge out of his family, and a judge out of her family : if they are desirous of agreement, God will effect a reconciliation between them ; for God is knowing and apprised of all[3]."

If a woman is chaste and mindful of her duties as wife, the Islamic law makes it obligatory upon the husband to associate with her on the best of terms, and with kindness and courtesy. But, if she proves refractory in her behaviour, the law confers on the husband the power of correction if exercised in moderation[4]."

---

(1) Koran. IV ; 129.

(2) Koran. XXIV ; 32.

(3) Koran. IV : 33, 34.

(4) The law of England similarly vested in the husband the right of chastising his wife for levity of conduct, "and the husband in quite recent times, was allowed to restrain her personal liberty, but his right so to do was first expressly negatived by decision of the Court of Appeal in the year 1891." Holland's Jurisprudence, page 240.

live together in peace and harmony. It avoids, therefore, greater evil by choosing the lesser one, and opens a way for the parties to seek agreeable companions and, thus, to accommodate themselves more comfortably in their new homes.

For, under Islam, a divorced woman, like the husband who divorces her, acquires the right of marrying any person she or he likes, the moment the separation is recognised by the law [1].

Fully recognising the evils that arise from divorce, the Prophet of Islam took very cautious steps in framing the laws ; and the ruling idea seems to be, that divorce should be permitted only when marriage fails in its effects, and the parties cease to fulfil the duties that spring from the marriage relation. There is in fact no justification for permanently yoking together two hostile souls, who might make themselves quite comfortable in new homes, if they were permitted to effect a separation. To compel them to live together "in pursuance of a most vexatious law under a yoke of the heaviest slavery,—for such is marriage without love—would indeed be a hardship more cruel than any divorce whatever. God, therefore, gave laws of divorce, in their proper use, most equitable and humane [2]." For, most appalling consequences sometimes follow, unless divorce is permitted where it is desirable. Justinian the great Roman emperor, had to repeal the prohibition of his predecessor on divorce by mutual consent, despite the opposition of the clergy, and the ground stated by the enactment was, that it was difficult "to reconcile those who once came to hate each other and who, if compelled to live together, frequently attempted each other's lives." "He yielded" writes Gibbon, "to the prayers of his unhappy subjects, and restored the liberty of divorce by mutual consent, the civilians were unanimous, the theologians were divided, and the ambiguous word [3] which contains the precepts of Christ, is flexible to any interpretation that the wisdom of a legislature can demand."

6. Islam's Suggestions for Reconciliation

A careful study of the laws of the Koran which relate to marriage and divorce, will show that the spirit of the verses unmistakably points to a

(1) With Christians the case is not so : Whosoever shall put away his wife, saving for the cause of fornication, causeth her to commit adultery ; and whosoever shall marry her that is divorced committeth adultery." Matt. v : 32.

(2) A Treatise on Christian Doctrine by J. Milton.

(3) St. Matt. v. 32.

revoke the divorce and again divorce her, and again take her back, to divorce her again, and so on indefinitely. Sometimes, again, she was divorced, but she was not free to marry. Women under such circumstances, were in a perpetual state of suspense, as it were. At last, the Prophet, the Mercy for the Universe, came. He declared divorce to be 'the most disliked of lawful things in the sight of God.' He was indeed never tired of expressing his abhorrence of divorce. Once he said : 'God created not anything on the face of the earth which He loveth more than the act of manumission, nor did He create anything on the face of the earth which He detesteth more than the act of divorce.' On another occasion he said : Forbidden is the fragrance of paradise to her who demands divorce from her husband without unavoidable reasons.' Nor is this all. The Prophet actually imposed many conditions on the exercise of the power of divorce, and so vehemently did he protect the women against the tyranny of their husbands, that there soon grew up a general feeling among the women of the time, that the Prophet would defend their cause, whether it be just or unjust, and that his decision would be invariably in their favour. His defence of the cause of women, and of orphans and of children, had in fact passed into a byword.

In the Holy Koran, there is a most edifying verse which is generally overlooked. "Associate with the wives," so runs the verse, "with goodness ; and if ye dislike them, it may be that ye dislike a thing and God may put abundant good in it[1]." Thus the Koran enjoins forbearance, even with a wife one does not like. One really wonders at the boldness of the critics who say that the law of Islam permits divorce "even on the slightest disgust."

Many and various are the sayings of the Prophet of Islam that teach love, untiring patience, forgiving disposition and, above all, fear of God in the treatment of women. "The man who bears with the ill manners of his wife," said the Prophet, "shall receive from God rewards equivalent to what the Lord gave unto Job, when he suffered his affliction : And to the woman who bears with the ill manners of her husband, God granteth rewards equivalent to what He granted to Assiyah, the wife of Pharaoh."

The great Moslem commentator, Al Ghazali, observes that divorce is allowable when the object is not to trouble the wife by divorcing her without just grounds, as refractory or unseemly behaviour on her part, or extreme necessity on the part of the husband.

It is clear, then, that Islam discourages divorce in principle, and permits it only when it has become altogether impossible for the parties, to

(1) Koran,

divorce is allowed to a husband and to a wife,—it being necessary to prove infidelity in both cases, but a wife being compelled to show either an aggravation of that offence or an addition to it. Opinions probably will always differ whether the two sexes should be placed on an equality in this respect, abstract justice being invoked, and the idea of marriage as a mere contract, pointing in one direction, and social considerations in the other. But the reason of the legislature for making the distinction, is clear. It is that the wife is entitled to an absolute divorce only if her reconcialition with her husband is neither to be expected nor desired. This was no doubt the view taken by the House of Lords [1]."

5. Limitations of Divorce

A Moslem is not free to exercise the right of divorce "on the slightest disgust." The law has put many limitations upon the exercise of this power. Then, again, the example and precepts of the Prophet in this particular, have rendered divorce, most repellent to the Moslem mind. A Moslem is permitted to have recourse to divorce, provided there be ample justification for such an extreme measure. The whole Koran expressly forbids a man to seek pretexts for divorcing his wife, so long as she remains faithful and obedient to him, "If they (namely, women) obey you, then do not seek a way against them [2]." The law gives to the man primarily the faculty of dissolving the marriage, if the wife, by her indocility or her bad character, renders the married life unhappy ; but in the absence of serious reasons, no Moslem can justify a divorce, either in the eyes of religion or the law. If he abandons his wife or puts her away from simple caprice, he draws upon himself the divine anger, for 'the curse of God' said the Prophet, 'rests on him who repudiates his wife capriciously.'

Intrinsically, divorce is an evil, and must be regarded as such, wherever there is the least respect for the law of God and the precepts of the Prophet. The pagan Arab, before the time of the Prophet, was absolutely free to repudiate his wife or wives, whenever it suited his whim or purpose. He was not bound to offer any reasons for the exercise of the power of divorce. The mere expression of his will was enough to effect a separation. The wife was a mere plaything. Sometimes the husband would

---

(1) The Review of Religion, April, 1913.

(2) Koran. IV : 34. Obedience here signifies obedience to man only in matters recommended by the law of God. This significance is made clear by a comparison with Koran, 33 : 31, 33 ; 35 and 66 : 5. This verse Al Ghazali holds to mean "Seek not a pretext for separation."

The great majority of the girls being quite innocent of the nature of the contract, it is therefore necessary that the guardian of the girl should intervene and protect her from being duped by interested persons, or from the evil consequences likely to flow from the choice of the girl, when injudicious or against her own interest.

4. The Inequality of the Two Sexes with regard to Divorce

Marriage being regarded as a civil contract and as such not indissoluble, the Islamic law naturally recognises the right in both the parties, to dissolve the contract under certain given circumstances. Divorce, then, is a natural corollary to the conception of marriage as a contract, and it is regrettable that it should have furnished European critics a handle for attack. Even Sale, that eminent scholar, has fallen into the same error; for he too seems to entertain the view, that the Islamic law permits a man to repudiate his wife "even on the slightest disgust[1]." Whether the law permits, or favours, repudiation on the slightest disgust, we shall presently see. But as to the other point raised by the same learned critic, namely; the inequality of the two sexes in regard to the right of obtaining a divorce, one has to remember that this inequality is more seeming than real. The theory of marriage, no doubt, points to a subordination of the wife to her husband, because of her comparative inferiority in discretionary powers; but in practice the hands of the husbands are fettered in more ways than one. The theoretical discretion must not be understood as giving a tacit sanction to the excesses of a brutal husband; on the other hand it is intended to guard against the possible dangers of an imperfect judgment. The relations between the members of the opposite sexes which marriage legalises are, however, so subtle and delicate, and require such constant adjustment, involving the fate and well-being of the future generations, that in their regulation the law considers it expedient to allow the voice of one partner, more or less, predominance over that of the other[2].

Perhaps it is here worthy of notice that in Europe the two sexes are not placed on an equal footing in respect of the right of divorce. Lord Helier, P. C., K. C. B., who was President of the Probate, Divorce and Admiralty Division of the High Court of Justice, 1892-1905, observes on this point: "Much comment has been made on the different grounds, on which

(1) G. Sale's Prelim. Disc. to his translation of the Koran. Sec. vi.

(2) Mohammadan Jurisprudence, page 327.

3. The Guardian and the Consent of the Bride

Though the Islamic Laws recognise the consent of a woman as an indispensable element of a valid marriage, they recommend that the consent of her guardian be also taken. Moslem jurists are, no doubt, divided in their opinions, as to whether the consent of the bride's guardian is essential, but they all agree in holding that 'a woman who is sui-juris can under no circumstances be married without her own express consent.' According to the Hanafi Islamic School of Law, the capacity of a woman who is adult and of sound mind, to contract herself in marriage, is absolute. The same school explicitly lays down that 'a woman who is adult and of sound mind may be married by virtue of her own consent, although the contract may not have been made or acceeded to by her guardian, and this whether she be a virgin, or a 'Thayyiba [1].' On the same principle, the marriage of an adult woman under compulsion, has been held to be invalid. It is related on good authority, that an adult woman who was married by her father to a man against her will, came and spoke about it to the Prophet who declared the marriage void. According to the Hanafi School also, the marriage of a minor under compulsion of her father or grand-father, holds good, on the assumption that a marriage thus contracted is, prima facie, in the best interests of the child, and therefore she cannot cancel the contract of marriage when she arrives at her full age, unless there be good grounds for such a step. If, however she was given in marriage by a guardian, other than her father or grand-father, she can exercise, if she like, 'the option of puberty,' and ask the Court to set aside the marriage.

It is clear, then, that under the Hanafi School of law, a marriage can be contracted with or without a guardian, provided the girl is adult and has given her consent to the contract.

The Shafei and the Maleki Schools of law, on the other hand, maintain that a maiden cannot personally consent to her marriage. According to them, the Wali's (the guardian's) consent, in the case of a maiden, is one of the essential factors of marriage, though not in the case of a thayyiba. The distinction seems to have been derived from the idea that a thayyiba's judgment is naturally more reliable than a virgin's, and that she is expected to understand better the nature of the marriage contract. In support of their view they refer to the tradition, related by Ayesha, that the Prophet said that the contract of marriage is absolutely void, if a woman enters into such without the consent of her guardian.

(1) Namely, a girl who is not a virgin ; a widow or a divorced woman.

بسم الله الرحمن الرحيم

حكم الشرع فى المخدرات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير مفتى الديار المصرية

طلب سعادة مدير مكتب المخدرات من حضرة صاحب الفضيلة مفتى الديار المصرية بيان حكم الشرع فى المواد المخدرة ، واشتمل السؤال على المسائل الآتية :

(١) تعاطى المواد المخدرة (٢) الاتجار بالمواد المخدرة واتخاذها وسيلة للربح التجارى (٣) زراعة الخشخاش والحشيش بقصد البيع أو استخراج المادة المخدرة منهما للتعاطى أو للتجارة (٤) الربح الناجم من هذا السبيل أهو ربح حلال أم حرام ؟

وقد أجاب فضيلته بما يأتى :

(١) تعاطى المواد المخدرة :

إنه لا يشك شاك ولا يرتاب مرتاب فى أن تعاطى هذه المواد حرام ، لأنها تؤدى الى مضار جسيمة ومفاسد كثيرة ، فهى تفسد العقل ، وتفتك بالبدن ، الى غير ذلك من المضار والمفاسد ، فلا يمكن أن تأذن الشريعة بتعاطيها مع تحريمها لما هو أقل منها مفسدة وأخف ضررا . ولذلك قال بعض علماء الحنفية : « إن من قال بحل الحشيش زنديق مبتدع » ، وهذا منه دلالة على ظهور حرمتها ووضوحها . ولأنه لما كان الكثير من هذه المواد يخامر العقل ويغطيه ويحدث من الطرب واللذة عند متناوليها ما يدعوهم الى تعاطيها والمداومة عليها ، كانت داخلة فيما حرمه الله تعالى فى كتابه العزيز وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من الخمر والمسكر .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى كتابه السياسة الشرعية ما خلاصته : « إن الحشيشة حرام يحد متناولها كما يحد شارب الخمر ، وهى أخبث من الخمر من جهة أنها تفسد العقل والمزاج حتى يصير فى الرجل تخنث ودياثة وغير ذلك من الفساد ، وأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهى داخلة فيما حرمه الله ورسوله من الخمر والمسكر لفظا أو معنى . قال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه : يا رسول الله أفتنا فى شرابين كنا نصنعهما باليمن : البِتْع وهو العسل ينبذ حتى يشتد ، والمِزْر وهو من الذرة والشعير ينبذ حتى يشتد . قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعطى جوامع الكلم بخواتمه فقال : « كل مسكر حرام » . رواه البخارى ومسلم .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من الحنطة خمرا ، ومن الشعير خمرا ، ومن الزبيب خمرا ، ومن التمر خمرا ، ومن العسل خمرا ، وأنا أنهى عن كل مسكر » . رواه أبو داود وغيره . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام » وفى رواية « كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام » . رواهما مسلم . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مسكر حرام ، وما أسكر الفَرَق منه فملء الكف منه حرام » . قال الترمذى حديث حسن . (والفرق مكيال يسع ستة عشر رطلا . والمعنى ما أسكر كثيره فقليله حرام) . وروى أهل السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم من وجوه أنه قال : « ما أسكر كثيره فقليله حرام » وصححه الحفاظ . وعن جابر رضى الله عنه أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له المِزْر ، قال : أمسكر هو ؟ قال: نعم ، فقال : « كل مسكر حرام ، إن على الله عهدا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال ، قالوا : يا رسول الله وما طينة الخبال ؟ قال عرق أهل النار أو عصارة أهل النار » رواه مسلم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم : « كل مخمِّر وكل مسكر حرام » رواه أبو داود (والمخمر ما يغطى العقل) . والأحاديث فى هذا الباب كثيرة مستفيضة ، جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أوتيه من جوامع الكلم كل ما غطى العقل وأسكر ، ولم يفرق بين نوع ونوع ، ولا تأثير لكونه مأكولا أو مشروبا . على أن الخمر قد يصطبغ بها ، أى تجعل إداما ، وهذه الحشيشة قد تذاب بالماء وتشرب ، فالخمر يشرب ويؤكل ، والحشيشة تؤكل وتشرب ، وكل ذلك حرام . وحدوثها بعد عصر النبى صلى الله عليه وسلم والأئمة لا يمنع من دخولها فى عموم كلام رسول الله عن المسكر ، فقد حدثت أشربة مسكرة بعد النبى صلى الله عليه وسلم وكلها داخلة فى الكلم الجوامع من الكتاب والسنة » . انتهت خلاصة كلام ابن تيمية . وقد تكلم رحمه الله عنها أيضا غير مرة فى فتاواه ، فقال ما خلاصته : « هذه الحشيشة الملعونة هى وآكلوها ومستحلوها ، الموجبة لسخط الله تعالى وسخط رسوله وسخط عباده المؤمنين ، المعرضة صاحبها لعقوبة الله ، تشتمل على ضرر فى دين المرء وعقله وخلقه وطبعه ، وتفسد الأمزجة حتى جعلت خلقا كثيرا مجانين ، وتورث من مهانة آكلها ودناءة نفسه وغير ذلك مالا تورث الخمر ، ففيها من المفاسد ما ليس فى الخمر ، فهى بالتحريم أولى ، وقد أجمع المسلمون على أن السكر منها حرام ، ومن استحل ذلك وزعم أنه حلال فإنه يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل مرتدا لا يصلى عليه ولا يدفن فى مقابر المسلمين . وإن القليل منها حرام أيضا بالنصوص الدالة على تحريم الخمر وتحريم كل مسكر » اهـ .

وقد تبعه تلميذه الامام المحقق ابن القيم رحمه الله فقال فى زاد المعاد ما خلاصته :

« إن الخمر يدخل فيها كل مسكر ، مائعا كان أو جامدا ، عصيرا أو مطبوخا ، فيدخل فيها لقمة الفسق والفجور — ويعنى بها الحشيشة — لأن هذا كله خمر بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيح الصريح الذى لا مطعن فى سنده ولا إجمال فى متنه ، إذ صح عنه قوله : « كل مسكر خمر » ، وصح عن أصحابه رضى الله عنهم الذين هم أعلم الأمة بخطابه ومراده بأن الخمر ما خامر العقل . على أنه لو لم يتناول لفظه صلى الله عليه وسلم كل مسكر لكان القياس الصحيح الصريح الذى استوى فيه الأصل والفرع من كل وجهة حاكما بالتسوية بين أنواع المسكر ، فالتفريق بين نوع ونوع تفريق بين متماثلين من جميع الوجوه » اه .

وقال صاحب سبل السلام شرح بلوغ المرام : « إنه يحرم ما أسكر من أى شىء وإن لم يكن مشروبا كالحشيشة » . ونقل عن الحافظ ابن حجر « أن من قال إن الحشيشة لا تسكر وإنما هى مخدر ، مكابر ، فإنها تحدث ما تحدثه الخمر من الطرب والنشوة » . ونقل عن ابن البيطار من الأطباء « أن الحشيشة التى توجد فى مصر مسكرة جدا إذا تناول الانسان منها قدر درهم أو درهمين ، وقبائح خصالها كثيرة ، وعدّ منها بعض العلماء مائة وعشرين مضرة دينية ودنيوية ، وقبائح خصالها موجودة فى الأفيون ، وفيه زيادة مضار » اه .

وما قاله شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهما من العلماء هو الحق الذى يسوق إليه الدليل وتطمئن به النفس . وإذ قد تبين أن النصوص من الكتاب والسنة تتناول الحشيش، فهى تتناول أيضا الأفيون الذى بيّن العلماء أنه أكثر ضررا ، ويترتب عليه من المفاسد ما يزيد على مفاسد الحشيش كما سبق عن ابن البيطار ، وتتناول أيضا سائر المخدرات التى حدثت ولم تكن معروفة من قبل ، إذ هى كالخمر من العنب مثلا فى أنها تخامر العقل وتغطيه ، وفيها ما فى هذه الخمر من مفاسد ومضار ، وتزيد عليها بمفاسد أخرى كما فى الحشيش ، بل أفظع وأعظم كما هو مشاهد ومعلوم ضرورة . ولا يمكن أن تبيح الشريعة الاسلامية شيئا من هذه المخدرات ، ومن قال بحل شىء منها فهو من الذين يفترون على الله الكذب أو يقولون على الله ما لا يعلمون . وقد سبق أن قلنا إن بعض علماء الحنفية قال « إن من قال بحل الحشيشة زنديق مبتدع » ، وإذا كان من يقول بحل الحشيشة زنديقا مبتدعا ، فالقائل بحل شىء من هذه المخدرات الحادثة التى هى أكثر ضررا وأكبر فسادا زنديق مبتدع أيضا ، بل أولى بأن يكون كذلك . وكيف تبيح الشريعة الاسلامية شيئا من هذه المخدرات التى يلمس ضررها البليغ بالأمة أفرادا وجماعات ماديا وصحيا وأدبيا كما جاء فى السؤال ، مع أن مبنى الشريعة الاسلامية على جلب المصالح الخالصة أو الراجحة ، وعلى درء المفاسد والمضار كذلك ؟ وكيف يحرم الله سبحانه وتعالى العليم الحكيم الخمر من العنب مثلا كثيرها وقليلها لما فيها من المفسدة ، ولأن قليلها داع الى كثيرها وذريعة

اليه ، ويبيح من المخدرات ما فيه هذه المفسدة ويزيد عليها بما هو أعظم منها وأكثر ضررا للبدن والعقل والدين والخلق والمزاج ؟ هذا لا يقوله إلا رجل جاهل بالدين الاسلامى أو زنديق مبتدع كما سبق القول . فتعاطى هـذه المخدرات على أى وجه من وجـوه التعاطى من أكل أو شرب أو شم أو احتقان ، حرام ، والأمر فى ذلك ظاهر جلى .

٢ — الاتجار بالمواد المخدرة واتخاذها وسيلة للربح التجارى :

إنه قـد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة فى تحريم بيع الخمر ، منها ما روى البخارى ومسلم عن جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسـلم قال : « إن الله حـرم بيع الخمر والميتة والخـنزير والأصنام » . وورد عنه أيضا أحاديث كثيرة مؤداها أن ما حرم الله الانتفاع به يحرم بيعه وأكل ثمنه . وقـد علم من الجواب عن السؤال الأول أن اسم الخمر يتناول هذه المخدرات شرعا ، فيكون النهى عن بيع الخمر متناولا لتحريم بيع هذه المخدرات ، كما أن ما ورد من تحريم بيع كل ما حرمه الله يدل أيضا على تحريم بيع هذه المخدرات . وحينئذ يتبين جليا حرمة الاتجار فى هذه المخدرات واتخاذها حرفة تدر الربح ، فضلا عما فى ذلك من الاعانة على المعصية التى لا شبهة فى حـرمتها لدلالة القرآن على تحريمها بقـوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعـدوان » . ولأجـل ذلك كان الحق ما ذهب اليه جمهور الفقهاء من تحريم بيع عصير العنب لمن يتخذه خمرا ، وبطلان هذا البيع لأنه إعانة على المعصية .

٣ — زراعة الخشخاش والحشيش بقصد البيع أو استخراج المادة المخدرة منهما للتعاطى أو للتجارة :

إن زراعة الحشيش والأفيون لاستخراج المادة المخـدرة منهما لتعاطيها أو الاتجار فيها حرام بلا شك ، لوجوه :

أولا : ما ورد فى الحديث الذى رواه أبو داود وغيره عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من حبس العنب أيام القطاف حتى يبيعه ممن يتخذه خمرا فقد تقحم النار » . فان هذا يدل على حرمة زراعة الحشيش والأفيون للغرض المذكور بطريق دلالة النص .

ثانيا : أن ذلك إعانة على المعصية ، وهى تعاطى هذه المخدرات أو الاتجار فيها ، وقد بينا فيما سبق أن الاعانة على المعصية معصية .

ثالثا : أن زراعتها لهذا الغرض رضا من الزارع بتعاطى الناس لها واتجارهم فيها ، والرضا بالمعصية معصية ، وذلك لأن إنـكار المنكر بالقلب الذى هو عبارة عن كراهة القلب وبغضه للمنكر فرض على كل مسلم فى كل حال ، بل ورد فى صحيح مسلم عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « إن من لم ينكر المنكر بقلبه — بالمعنى الذى أسلفنا — ليس عنده من الايمان حبة خردل » . على أن زراعة الحشيش والأفيون معصية من جهة أخرى بعد نهى ولى الأمر عنها بالقوانين التى وضعت لذلك ، لوجوب طاعة ولى الأمر فيما ليس بمعصية لله ولرسوله باجماع المسلمين ، كما ذكر ذلك الامام النووى فى شرح مسلم فى باب طاعة الأمراء ، وكذا يقال هذا الوجه الأخير فى حرمة تعاطى المخدرات والاتجار فيها .

٤ — الربح الناجم من هذا السبيل :

قد علم مما سبق أن بيع هذه المخدرات حرام ، فيكون الثمن حراما :

أولا : لقوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » أى لا يأخذ ولا يتناول بعضكم مال بعض بالباطل ، وأخذ المال بالباطل على وجهين :

الأول : أخذه على وجه الظلم والسرقة والخيانة والغصب وما جرى مجرى ذلك .

الثانى : أخذه من جهة محظورة كأخذه بالقمار أو بطريق العقود المحرمة كما فى الربا وبيع ما حرم الله الانتفاع به كالخمر المتناولة للمخدرات المذكورة كما بينا آنفا ، فان هذا كله حرام وإن كان بطيبة نفس من مالكه .

وثانيا : للأحاديث الواردة فى تحريم ثمن ماحرم الله الانتفاع به ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله إذا حرم شيئا حرم ثمنه » . رواه ابن أبى شيبة عن ابن عباس .

وقد جاء فى زاد المعاد ما نصه : « قال جمهور الفقهاء : إنه إذا بيع العنب لمن يعصره خمرا حرم أكل ثمنه ، بخلاف ما إذا بيع لمن يأكله ؛ وكذلك السلاح إذا بيع لمن يقاتل به مسلما حرم أكل ثمنه ، وإذا بيع لمن يغزو به فى سبيل الله فثمنه من الطيبات ؛ وكذلك ثياب الحرير إذا بيعت لمن يلبسها ممن يحرم عليه لبسها حرم أكل ثمنها بخلاف بيعها ممن يحل له لبسها » اهـ .

وإذا كانت الأعيان التى يحل الانتفاع بها اذا بيعت لمن يستعملها فى معصية الله على رأى جمهور الفقهاء وهو الحق يحرم ثمنها لدلالة ما ذكرنا من الأدلة وغيرها عليه ، كان ثمن العين التى لا يحل الانتفاع بها كالمخدرات حراماً من باب أولى .

وإذا كان ثمن هذه المخدرات حراما كان خبيثا ، وكان إنفاقه فى القربات كالصدقات والحج غير مقبول أى لا يثاب المنفق عليه . فقد روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا الآية » ، وقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون » . ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده الى السماء يارب يارب

ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فانى يستجاب لذلك ؟ » وقد جاء فى الحديث الذى رواه الامام أحمد فى المسند عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفسى بيده لا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده فى النار ، إن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » . وجاء فى كتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب أحاديث كثيرة وآثار عن الصحابة رضى الله عنهم فى هذا الموضوع ، منها ما روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من كسب مالا حراما فتصدق به لم يكن له أجر ، وكان إصره — يعنى إثمه وعقوبته — عليه » ، ومنها ما فى مراسيل القاسم ابن مخيمرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحمه أو تصدق به أو أنفقه فى سبيل الله ، جمع ذلك جميعا ثم قذف به فى نار جهنم » .

وجاء فى شرح ملاّ على القارى للأربعين النووية عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أنه إذا خرج الحاج بالنفقة الخبيثة فوضع رجله فى الغرز — أى الركاب — وقال لبيك ، ناداه ملك من السماء : لا لبيك ولا سعديك وحجك مردود عليك » .

فهذه الأحاديث التى يشد بعضها بعضا تدل على أنه لا يقبل الله صدقة ولا حجة ولا قربة أخرى من القرب من مال خبيث حرام . ومن أجل ذلك نص علماء الحنفية على أن الإنفاق على الحج من المال الحرام حرام . وخلاصة ما قلناه :

أولاً — تحريم تعاطى الحشيش والأفيون والكوكايين ونحوها من المخدر .

ثانيا — تحريم الاتجار فيها واتخاذها حرفة تدر الربح .

ثالثا — حرمة زراعة الأفيون والحشيش لاستخلاص المادة المخدرة لتعاطيها أو الاتجار فيها .

رابعا — أن الربح الناتج من الاتجار فى هذه المواد حرام خبيث ، وأن إنفاقه فى القربات غير مقبول بل حرام .

قد أطلت القول إطالة قد تؤدى الى شىء من الملل ، ولكنى آثرتها تبيانا للحق ، وكشفا للصواب ، ليزول ما قد عرض من شبهة عند الجاهلين ، وليعلم أن القول بحل هذه المخدرات من أباطيل المبطلين وأضاليل الضالين المضلين ، وقد اعتمدت فيما قلت أو اخترت على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أقوال الفقهاء التى تتفق مع أصول الشريعة الغراء ومبادئها القويمة .

والحمد لله رب العالمين ، وهو الهادى الى سواء السبيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ؟

عبد المجيد سليم

التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلنا من تفسير سورة « الشمس وضحاها » الى قوله تعالى : « ونفسٍ وما سوّاها » :

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يلفت نظر عباده الى أنفسهم وما فيها من العجائب والغرائب ، فقال : « ونفس وما سواها » : أى خلقها مستوية فى أحسن صورة من الصور فى ظاهرها وباطنها . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه » . وفى صحيح مسلم : « يقول الله : إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » . وعلى كل حال فأقرب الأشياء الى الانسان نفسه ، فينبغى أن يتفكر فيها ، وكيف خلق من قطرة ماء مهين فصار إنسانا عاقلا يتيه على المخلوقات .

وحقا إذا تفكر الانسان فى نفسه استنارت له آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب ، وانقشعت عنه ظلمات الجهل . فانه إذا نظر فى نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات ، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات ، شاهدات لمدبره ، دالة عليه ، مرشدة اليه ، إذ يجده مكونا من قطرة ماء مهين صارت لحوماً منضدة ، وعظاماً مركبة ، وأوصالا متعددة ، مأسورة مشدودة بحبال العروق ؛ والأعصاب قد شدت وجمعت بجلد متين ، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلا ، على ما يقول الكثير من علماء التشريح الأولين ، ما بين كبير وصغير ، وثخين ودقيق ، ومستطيل ومستدير ، ومستقيم ومنحن ؛ وقد شدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقا للاتصال والانفصال ، والقبض والبسط ، والمد والضم ، لأجل مختلف الصنائع التى تراد منها .

وجعل فيه تسعة أبواب ، فبابان للسمع ، وبابان للبصر ، وبابان للشم ، وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفس ، وبابان لخروج الفضلات التى يؤدى احتباسها الى الأضرار البليغة ، وجعل داخل بابى السمع مرًّا قاتلا للحشرات لئلا يلج فيها دابة تخلص الى الدماغ فتؤذيه ، وجعل داخل بابى البصر مالحاً لئلا تذيب الحرارة الدائمة ما هناك من الشحم ، وجعل داخل باب الطعام والشراب مهيأ لإساغة ما يأكله وما يشربه .

وجعل له مصباحين من نور كالسراج المضىء ، مركبين فى أعلى مكان منه ، وفى أشرف عضو من أعضائه طليعة له ، وركب هذا النور فى جزء صغير جدا يبصر به السماء والأرض وما بينهما ؛

وجعل العـين مركبة من سبع طبقات وثلاث رطوبات بعضها فـوق بعض ، حماية له وصيانة وحراسة ، وجعـل عليها غلقا بمصراعين أعلى وأسفل ، وركب فى ذيل المصراعين أهدابا من الشعر وقاية للعين وزينة وجمالا . وجعل فـوق ذلك كله حاجبين من الشعر يحفظان العين من العرق النازل ، ويتلقيان عنها ما ينصب من هناك . وجعـل سبحانه لـكل طبقـة من العين وظيفة مخصوصة ، ولـكل واحد من الرطوبات مقدارا مخصوصاً لو زاد على ذلك أو نقص عنه لاختلت المنافع وضاعت المصالح المطلوبة . وجعل هـذا النور الباصر فى قدر عدسة ، ثم أظهر فى تلك العدسة صورة السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والعالم العلوى والسفلى مع اتساع أطـرافه وتباعد أقطاره . واقتضت حكمته أن جعـل فيها سبحانه بياضاً وسواداً ، وجعل القوة الباصرة فى السواد ، وجعل البياض مستقرا لها ومسكناً ، وزيّن كلا منهما بالآخر ، وجعـل الحدقة مصونة بالأجفان والحواجب ، وجعلها سوداً ، إذ لو كانت بيضا لتفرق النور الباصر فضعف الإدراك ، فان السواد يجمع البصر ويمنع من تفرق النور ، وخلق سبحانه لتحريك الحدقة وتقليبها أربعا وعشرين عضلة لو نقصت عضلة واحدة لاختل أمر العين .

ولما كانت العين كالمرآة التى إنما تنطبع فيها الصور إذا كانت فى غاية الصقالة والصفاء ، جعل سبحانه الأجفان متحركة بغاية السهولة فى الانطباق والانفتاح بلا تكلف ، لتبقى هذه المرآة نقية صافية من جميع الـكدورات . ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفانا لا نزال نراها تنظف عينها بيدها من آثار الغبار والـكدورات .

وكما جعل سبحانه العينين مؤديتين للقلب ما يريانه فيوصلانه اليه ، جعلهما مرآتين للقلب يظهر فيهما ما هو مودع فيه من الحب والبغض والخير والشر والبلادة والفطنة والزيغ والاستقامة ، فيستدل بأحوال العين على أحوال القلب ، وهو أحد أنواع الفراسة . فالعين مرآة للقلب وطليعة ورسول . ومن عجيب أمرها أنها من ألطف الأعضاء وأبعدها تأثرا بالحر والبرد . وليس ذلك بسبب الغطاء الذى عليها من الأجفان ، فانها ولو كانت منفتحة لم تتأثر بذلك مع أنها من الأعضاء اللطيفة .

هذا بعض ما ذكره علماؤنا الأقدمون ، وللأطباء العصريين ما هو أعجب وأغرب . ولعلك اطلعت على بعض ما اكتشفوه من أسرار الغدد التى كانت مجهولة . وقـد قال بعض فلاسفة الأوربيين : يكفينى هدب العين فى الدلالة على الله . الى آخر كلامهم فى هذا .

ولعلنا لا نعدم فرصة تمكننا من العودة لهذا الموضوع مرة أخرى ، إن شاء الله ؟

يوسف الدجوى
من جماعة كبار العلماء

السُّنَّة

كيف كان يدعو النبى أمته الى توحيد الله

عن يحيى بن عبد الله بن محمد بن صيفى أنه سمع أبا معبد مولى ابن عباس يقول : سمعت ابن عباس يقول : « لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذا نحو اليمن قال له : إنك تَقدُم على قوم من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم الى أن يوحدوا الله تعالى ، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلتهم ، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة فى أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم ، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوقّ كرائم أموال الناس » .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معنى توحيد الإله عز وجل ؛ (٢) بيان ما يجب على الداعى الى الله من مراعاة حال المدعوين ؛ (٣) بيان أن الصلاة أساس الأعمال الدينية وقوام التكاليف الشرعية .

(١) ظاهر هذا الحديث أن اليهود القاطنين باليمن يومئذ لم يكونوا موحدين على الوجه الذى يرتضيه الاسلام ؛ وذلك لأن بعضهم كان يعتقد أن عزيراً ابن الله ، فضلا عن أن التوراة نفسها تشهد عليهم بأنهم كانوا مغرمين بالوثنية الى أبعد مدى ، فكانوا ينتهزون الفرصة للتخلص من الشريعة التى جاءهم بها موسى ويعبدون ما يشتهون من الأوثان ؛ فما من عصر من عصورهم الأولى إلا وفيه شاهد عليهم بالكفر ، والتدين بعبادة الأوثان . فاليهود الذين كانوا فى اليمن يومئذ لم يكونوا أمثل من غيرهم .

على أنهم قد حرفوا التوراة تحريفا شائنا حتى رووا فيها أن يعقوب عليه السلام قابله ربه فى الليل وصارعه فضايق ربه ، تعالى عما يقولون ، ولم يستطع ربه الخلاص منه إلا بعد أن ضربه على فخذه فكسر فخذه ، وبعد ذلك هنأه ربه بالفوز والغلبة . والذى يعتقد ذلك ليس وثنيا فحسب ، بل هو سخيف الى أبعد مدى ؛ لأن الوثنيين كانوا يعتقدون عظمة أوثانهم وقدرتها على الضر والنفع ، فلا يستطيع مخلوق أن يغالب الروح المتسلطة على الوثن . فقول النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ : « فليكن أول ما تدعوهم الى أن يوحدوا الله تعالى » ظاهر لا ريب فيه ؛ لأن مراده عليه الصلاة والسلام بالتوحيد ، التوحيد الخالص الذى جاءت به كل الشرائع

الإلهية ، وهو أن خالق الكائنات وبارىء النسم إله واحد مجرد عن المادة وعلائقها ، ليس كمثله شيء ، ولا هو مثل شيء ، فكل ما تحتاج إليه الأجسام من مكان ومادة وتحيز ، وما يلابس ذلك من شهوة ولذة وألم ، يتنزه عنه الإله تعالى ؛ وكل ما تحتاج إليه الموجودات فى هذا العالم من وسائل مادية مخلوق لله وحده ، ومسيطر عليه وحده ، فلا شريك له فى شيء ، ولا منازع له فى إيجاد نسمة أو إعدامها .

ذلك هو معنى التوحيد الذى يعنيه الاسلام ؛ وهذا المعنى متفق عليه عند كل المسلمين الموحدين . أما ما وراء ذلك من بحوث فلسفية ومذاهب صوفية فى معنى التوحيد والوحدة ، فانه يجب أن يكون بعيدا عن هذا المقام كل البعد ؛ لأن الدين الاسلامى إنما يدعو الناس جميعا الى توحيد الإله : « قل يأيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعا » ؛ وليس من المعقول أن تكون الدعوة العامة مطابقة لأهواء أولئك المعقدين الذين ينطقون بما لا تدركه عقول الأذكياء من العلماء فضلا عن عامة الناس . محال أن يكون المراد من التوحيد الذى يدعو اليه الاسلام هو وحدة الوجود . وما هى وحدة الوجود ؟ هى ألفاظ سمجة لا تسيغها العقول السليمة ، ولا ترتضيها الأذهان الناضجة ؛ لأن منهم من فسرها بالحلول كما يقول النصارى بحلول الإله فى المسيح ؛ ولا يخفى ما فى ذلك من سخافة ينبو عنها الدين . ومنهم من فسرها بأن الموجودات كلها مظهر لوجود الإله ؛ وإذا سألته عن معنى ذلك يقول لك : أنا الله ، وما فى ملابسى غير الله ، ونحو ذلك . ومنهم من فسرها بأن الوجود نور والعدم ظلمة ، وأصل الوجود وجود الله تعالى ، فوجود الله تعالى وجود العالم ، لأنه سبحانه نور كلى أشرقت به الكائنات ، فوجود الكائنات وجوده . الى غير ذلك من العبارات التى لم يكلف الله بها عباده ، وتأباها طبيعة الاسلام الذى هو دين الفطرة والسماحة والعلم الصحيح النافع للمجتمع الانسانى فى كل زمان ومكان .

ومن هذا تعلم معنى الدعوة الى توحيد الله ؛ فليست هى التوحيد الذى كان عليه اليهود يومئذ ؛ وليست هى التوحيد الذى يريده غلاة الصوفية ؛ وقد بينا لك بعض ما فى ذلك من خلل واضطراب .

ولنذكر لك عبارة الفتح هنا فى نقل ما قاله غلاة الصوفية ، قال ما معناه : لقد بالغ بعضهم حتى ضاهى المرجئة فى نفى نسبة الفعل الى العبد ؛ وجر ذلك بعضهم الى معذرة العصاة . ثم غلا بعضهم فعذر الكفار أيضا . ثم غلا بعضهم فزعم أن المراد بالتوحيد اعتقاد وحدة الوجود ، وعظم الخطب حتى ساء ظن كثير من أهل العلم بمتقدميهم . الى أن قال : ولهم كلام طويل فى وحدة الوجود ينبو عنه سمع كل من كان على فطرة الاسلام ... انتهى .

وهذا كلام حسن لا شك فيه ، فإن الدين الاسلامى ليس دينا معقدا لا تدركه العقول السليمة ، وليس فيه على الناس خفاء . فكل شيء يلصقه به المتنطعون من الغموض والإبهام فانما إثمه عليهم ، وهو منه ومنهم براء .

على أن بعض رواة الحديث تخلص من هذا الموضوع بحذافيره ، فقال : إن لفظ الحديث « فليكن أول ما تدعوهم اليه عبادة الله » ، وعلى هذا فلم يتعرض لعقيدة اليهود الذين هم من أهل الكتاب ، وكانوا مستعدين لقبول الاسلام ، فان ظاهر حالهم أنهم كانوا موحدين . وقد عرفت أن صحة الرواية الثانية لا يضيرنا ، لأنهم على أى حال كانوا يؤمنون بالتوراة المحرفة فى نظر الدين الاسلامى يومئذ ، وهى أصل من أصول العقائد . فقول النبى صلى الله عليه وسلم : « ادعهم الى توحيد الإله » صحيح لا شك فيه .

بقى هنا بحث آخر ذكره شراح هذا الحديث وأطنبوا فيه كثيرا ، وهو أن أول واجب على المكلف إنما هو النظر فى الكائنات لإثبات الإله الواحد ، وهذا النظر مقيد بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام من كتاب وسنة ؛ ومعنى هذا أنه لا فائدة فى النظر لأن المفروض ترك الحرية للعقل حتى يستنبط الدليل من الكائنات .

والجواب عن ذلك سهل هين لا تعقيد فيه : وذلك لأن المفروض قبل كل شىء ثبوت نبوة هذا الرسول وأنه من عند الله ، فاذا ثبت صدق رسالة النبى صلى الله عليه وسلم بالبراهين القاطعة والمعجزات الدائمة المتواترة ، أصبح من الضرورى تصديق كل ما جاء به من عند الله ، فليس التقيد بما جاء به القرآن ووردت به السنة الصحيحة تقليدا ، وإنما هو إيمان بقضايا مبنية على أجل البراهين وأوضحها وأقواها . على أننا نقول أيضا : إن كتاب الله هو الذى حث على النظر والاستدلال ، والآيات الواردة فى ذلك أكثر من أن تحصى . فالعقل يفكر ويتأمل ويركب الأدلة والمقدمات ويقف على النتائج ، وكتاب الله يحفظه من الزيغ والزلل ؛ لأن العقول البشرية مهما أوتيت من ذكاء وصفاء فهى عرضة للخطأ والزلل ؛ أما الرسل فهم معصومون عن الخطأ فيما يبلغونه عن ربهم . ومع هذا كله فالدين الاسلامى قد أطلق لعقول الناظرين العنان فى البحث والاستدلال ، وتحداهم فى كل ما جاء به من الأحكام ، وجادل المبطلين فى كل ما أوردوه من شبه ، فبرهن على خطئهم بأوضح الأدلة وأصدق المقدمات ، ولم يأت بشىء يعارض العقول السليمة والنظر الصحيح ، ولم يكلف الناس أن يؤمنوا بالمحال الذى لاتقبله العقول ولا تدركه الأفهام ، عملا بالقاعدة المعروفة عند بعض الأمم « الدين فوق العقل » ، وما ذاك إلا لكونه حقا لا يرهب نزغات المبطلين ، وقوة لا تخشى هجمات الضالين .

بقى هنا شىء آخر ، وهو إيمان المقلد الذى لا يستطيع النظر والاستدلال ، فانه على هذا لا يكون صحيحا .

والجواب عن هذا أيضا سهل : وهو أن إيمان المقلد الذى يعجز عن الاستدلال صحيح بلا شك ، لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها ، أما الذين يستطيعون الادراك والفهم ويعرفون معنى الأدلة والبراهين ، فانه يجب عليهم أن يتعلموا بلا نزاع ، وإلا كانوا على خطر عظيم .

(٢) لعل الذين يقومون بالدعوة الى الله يسترشدون بقول النبي صلى الله عليه وسلم للدعاة، ويتتبعون الآثار التي بينها لهم. فانه صلى الله عليه وسلم أمر معاذا أن ينظر الى حال هؤلاء القوم الذين بعثه اليهم، فلا يرهقهم بالتكاليف الشرعية قبل أن يستقر الإيمان في قلوبهم ويبعثهم الى الطاعة فيما يأمرون به وينهون عنه، فقال له: لا تأمرهم بعد توحيد الإله إلا بالصلاة، وهى سهلة سمحة لا مشقة فيها على المؤمنين. فاذا قاموا بأداء الصلاة كاملة وأدوها لربهم بخشوع وخضوع فانهم يستعدون بعد ذلك لقبول ما يكلفون به من زكاة وغيرها. ثم أرشده صلى الله عليه وسلم الى استعمال الرفق فى أخذ الزكاة، فنهاه عن أخذ كرائم أموال الناس التى تعز عليهم ولا تسمح أنفسهم بالتفريط فيها. وذلك خير مثال للمرشدين الذين يريدون إصلاح المجتمع الانسانى، ومعالجة مرض النفوس ومرض الشهوات القاتلة.

(٣) أما كونه صلى الله عليه وسلم قد حث معاذا على العناية بالصلاة، فذلك لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. ولعل الناس الذين يصلون ولا ينتهون عن الفحشاء والمنكر لا يشعرون قلوبهم بعظمة الإله الخالق الذى يقومون بين يديه ركعا سجدا. فليس الغرض من الصلاة فى الواقع مجرد الحركات والسكنات فحسب، بل الغرض منها تهذيب النفوس وتطهير القلوب بالخضوع للإله الخالق لجميع الكائنات، المهيمن القدير الذى لا ينبغى لأحد غيره أن يخضع له العباد هذا الخضوع. فإذا ماقام العبد فى اليوم والليلة بخمس صلوات على هذا الوجه وهو خاشع خاضع لمولاه فإنه لا بد أن ينتهى عن الفحشاء والمنكر، ولا بد أن تثبت فى نفسه عظمة الإله الخالق، ولا بد أن يدرك تمام الإدراك معنى تلك العظمة، ويخاف كل الخوف من عصيان ذلك الخالق العظيم الذى أفاض الوجود على مخلوقاته، وأمدهم بكل ما يحتاجون إليه فى معاشهم ومعادهم. فلعل الناس يدركون معانى التكاليف الشرعية ويعملون بها، ويقتدون فى أقوالهم وأعمالهم بما جاءهم على لسان نبيهم لعلهم يرشدون؟

عبد الرحمن الجزيرى

آداب عيادة المريض

قال شاعر:

عيادة المرء يوم بين يومين — وجلسة لك مثل اللحظ بالعين
لا تبرمن مريضا من مساءلة — يكفيك من ذاك تسآل بحرفين

ومرض يحيى بن خالد الوزير، فكان اسماعيل بن صبيح إذا دخل عليه يعوده، وقف عند رأسه ودعا له، ثم يخرج فيسأل حاجبه عن منامه وطعامه وشرابه، فلما أبل يحيى من مرضه قال: ما عادنى فى مرضى هذا إلا اسماعيل بن صبيح.

التجديد والمجددون فى الاسلام

الامام الأعظم أبو حنيفة — دراسات فى مذهبه وطبقات فقهائه

سند المذهب وتواتره :

أخذ أبو حنيفة الفقه عن حماد بن أبى سليمان التابعى ، مفتى الكوفة ، أفقه أهل عصره ، مضرب المثل فى العلم والفضل والمكارم ، كان يفطّر فى كل ليلة من شهر رمضان خمسين صائما ، فاذا كانت ليلة الفطر كساهم ثوبا ، وأعطاهم مائة مائة من الدراهم .

وقال الامام أبو يوسف : ما رأيت أجود من أبى حنيفة ، وكنت أقول له : ما رأيت أجود منك ، فيقول لى : لو رأيت حمادا !

ومن تقدير أبى حنيفة لشيخه حماد وبره به ، أنه كان يقول : ما مددت رجلى نحو دار أستاذى حماد إجلالا له ، وما صليت منذ مات حماد صلاة إلا استغفرت له مع والدى ، وإنى لأستغفر لمن تعلمت منه أو تعلم منى . هذا هو الأدب العالى الذى يجب أن يكون عليه طالب العلم مع أستاذه . مات حماد سنة (١٢٠) ه .

أخذ حماد عن ابراهيم النخعى فقيه العراق ، ومفتى الكوفة قبل حماد ، الذى يقول فيه مغيرة : كنا نهاب ابراهيم كما يهاب الأمير . ويقول فيه الشعبى : ما ترك إبراهيم بعده أعلم منه . ويقول فيه سعيد بن جبير : تستفتوننى وفيكم ابراهيم النخعى ! وكان من العلماء ذوى الاخلاص ، وكان يتوقى الشهرة ، ولا يتكلم فى العلم إلا أن يسأل ، فكان أبو حنيفة ألزم العلماء بمذهب ابراهيم هذا وأمثاله ، لا يجاوزه إلا ما شاء الله . توفى إبراهيم سنة ٩٥ أو ٩٦ ه .

أخذ ابراهيم عن علقمة ، ومسروق ، والأسود ؛ أما علقمة فقد كان فقيه العراق ، ويقول فيه ابن مسعود : ما أقرأ شيئا ، وما أعلم شيئا إلا وعلقمة يقرأه أو يعلمه . ويقول فيه قابوس : أدركت ناسا من الصحابة يسألون علقمة ويستفتونه . سمع عمر وعثمان وعليا ، وتفقه بابن مسعود ، وكان أنبل أصحابه .

وقال الذهبى : كان علقمة إماما فقيها بارعا ثبتا فيما ينقل ، طيب الصوت بالقرآن ، صاحب خير وورع ، وكان يشبه ابن مسعود فى هديه ودله وسمته وفضله . توفى سنة ٦٢ أو ٦٣ ه .

وأما مسروق : فهو الامام القدوة الفقيه أحد الأعلام ، روى عن أبى بكر وعمر وعلى وغيرهم ، وهو راوية عمر الناقل عنه الكثير من فقهه وقضاياه ، كان أعلم بالفتوى من شريح ، وكان شريح يستشيره ويستفتيه . توفى سنة ٦٣ ه .

وأما الأسود : فهو عالم الكوفة ، وأحد كبار فقهاء التابعين ، أخذ عن معاذ وابن مسعود وغيرهما . توفى سنة ٧٤ هـ .

فهؤلاء من كبار فقهاء التابعين ، وقد أخذوا الفقه عن فقهاء الصحابة خصوصا عن ابن مسعود ، فإن الفقه انتشر عن أربعة : ابن مسعود وأصحابه وهم العراقيون ، وزيد ابن ثابت ، وعبد الله بن عمر وأصحابهما وهم أهل المدينة ، وابن عباس وأصحابه وهم أهل مكة ، وأخذ فقهاء الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن رب العالمين . فالفقه الاسلامى إذاً مؤسس بالوحى الإلهى المبين فى كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

من هذا يعلم المصدر الذى أخذ أبو حنيفة الفقه عنه . وحسب هذا الفقه أنه نظم حال الهيئة الاجتماعية وأحوال الانسان الدينية والدنيوية من مولده الى مماته ، فأنس به المسلمون ، ومازج أرواحهم مدة أربعة عشر قرنا ، وفيه مرآة مشاعرهم ، وعلاج أمراضهم الاجتماعية .

ثم انتقل الفقه من أبى حنيفة الى أصحابه ، ومنهم الى تلاميذهم ، وهكذا صار ينتقل من طبقة الى طبقة قرنا بعد قرن حتى وصل إلينا متواترا محفوظا . ولقد أيد الله المذهب الحنفى بالفقهاء الأعلام من المتقدمين والمتأخرين ، فجددوا ديباجته ، ووطدوا قواعده ، وقرروا حججه ، وبسطوا أدلته ، وبثوه فى أقطار الأرض ، فلم يزل موروثا من أول الى آخر ، ومنقولا من كابر الى كابر ، حتى انتهى إلينا مدونا فى صحائف الكتب محررا ، مشيد البنيان ، الى هذا الزمان ، وسيبقى باذن الله مصونا من الاختلال منتفعا به الى ما شاء الله .

العلماء الذين حملوا لواء هذا المذهب بعد أبى حنيفة طبقات :

الطبقة الأولى : طبقة المجتهدين فى المذهب وهم تلاميذ أبى حنيفة وأصحابه : أبو يوسف ومحمد ، وزفر ، والحسن ، وغيرهم ، الذين كانوا يجتهدون فى المذهب ويستخرجون الأحكام من الأدلة الأربعة على مقتضى القواعد التى قررها أستاذهم أبوحنيفة ، وهم وإن خالفوه فى بعض الفروع قد قلدوه فى قواعد الأصول ، بخلاف الأئمة : مالك والشافعى وأحمد وغيرهم ، فانهم يخالفون أبا حنيفة فى الفروع غير مقلدين له فى الأصول .

والطبقة الثانية : طبقة المجتهدين فى المسائل التى لا رواية فيها عن صاحب المذهب : كالخصاف ، وأبى جعفر الطحاوى ، وأبى الحسن الكرخى ، وشمس الأئمة الحلوانى ، وشمس الأئمة السرخسى ، وفخر الاسلام البزدوى ، وفخر الدين قاضيخان ، والصدر برهان الدين محمود صاحب المحيط البرهانى ، وطاهر بن أحمد صاحب خلاصة الفتاوى ، وشيخ الحنفية بما وراء النهر ، وغيرهم ، فانهم يقدرون على الاجتهاد فى المسائل التى لا رواية فيها عن صاحب المذهب ، ويستنبطون أحكامها على حسب أصول قررها ومقتضى قواعد بسطها ، ولا يقدرون على مخالفته لا فى الأصول ولا فى الفروع .

الطبقة الثالثة : طبقة أصحاب التخريج : كالرازى المعروف بأبى عباس وأضرابه ، فانهم لا يقدرون على الاجتهاد أصلا ، لكنهم لإحاطتهم بالأصول ، وضبطهم المآخذ ، يقدرون على تفصيل قول مجمل ذى وجهين ، وحكم مبهم محتمل لأمرين ، منقول عن صاحب المذهب أو عن أحد من أصحابه المجتهدين ، برأيهم ونظرهم فى الأصول ، والمقايسة على أمثاله ونظائره عن الفروع ؛ وما وقع فى بعض المواضع من الهداية من قوله : كذا فى تخريج الكرخى ، وتخريج الرازى من هذا القبيل .

الطبقة الرابعة : طبقة أصحاب الترجيح : كأبى الحسين أحمد القدورى ، وشيخ الاسلام برهان الدين صاحب الهداية وأمثالها ، وشأنهم تفضيل بعض الروايات على البعض الآخر ، كقولهم : هذا أولى ، وهذا أرجح رواية ، وهذا أوضح دراية ، وهذا أوفق للقياس .

الطبقة الخامسة طبقة القادرين على التمييز بين الأقوى والقوى والضعيف ، وظاهر الرواية ، والروايات النادرة : كشمس الأئمة محمد الكردرى صاحب الفتاوى البزازية ، وجمال الدين الحصيرى صاحب الخلاف بين الحنفية والشافعية ، وحافظ الدين النسفى ، وغيرهم ، مثل أصحاب المتون المعتبرة من المتأخرين : كصاحب الكنز ، وصاحب المختار ، وصاحب الوقاية ، وصاحب المجمع ؛ وشأنهم أن لا ينقلوا فى كتبهم الأقوال المردودة والروايات الضعيفة .

الطبقة السادسة : طبقة المقلدين الذين لا يقدرون على ما ذكر ، فهؤلاء لا يحل لهم أن يفتوا إلا بطريق الحكاية والنقل عن الكتب المعتبرة والفقهاء المعتمدين .

هذه قسمة شهيرة لطبقات فقهاء المذهب الحنفى ، ذكرها كثيرون من محققيهم وأثنوا عليها ، حتى قال التميمى فى طبقاته : هذا التقسيم حسن جدا بعد أن ذكره ، ومع هذا فالاختلاف من طبائع البشر ، وقد لا تعدم الحسناء ذاما ، فقد لاحظ عليه بعضهم ؛ ولاستيفاء هذا البحث نذكر مضمون ملاحظاته ، قال :

(١) إن القول بأن الخصاف والطحاوى والكرخى لا يقدرون على مخالفة أبى حنيفة لافى الأصول ولا فى الفروع ليس بشىء ، فان ما خالفوه من المسائل لا يعد ولا يحصى ، ولهم اختيارات فى الأصول والفروع ، وأقوال مستنبطة بالقياس والمسموع ، واحتجاجات بالمعقول والمنقول ، على مالا يخفى على من تتبع كتب الفقه والخلافيات والأصول وقد انفرد الكرخى عن أبى حنيفة وغيره فى أن العام بعد التخصيص لا يبقى حجة أصلا ، وأن خبر الواحد الوارد فى حادثة تعمّ بها البلوى ومتروك المحاجة به عند الحاجة ليس بحجة قط . وانفرد أبو بكر الرازى الجصاص فى أن العام المخصوص حقيقة إن كان الباقى جمعا ، وإلا فمجاز ، أليس هذا من مسائل الأصول ؟ ...

(٢) وإن القول بأن أبا بكر الرازى الجصاص من المقلدين الذين لايقدرون على الاجتهاد أصلا ظلم عظيم فى حقه، وتنزيل له عن رفيع محله، وغض منه، وجهل بين بجلالة شأنه فى العلم وباعه الممتد فى الفقه، وكعبه العالى فى الأصول، ورسوخ قدمه وشدة وطأته وقوة بطشه فى معارك النظر والاستدلال؛ ومن تتبع تصانيفه والأقوال المنقولة عنه علم أن الذين عدهم من المجتهدين من شمس الأئمة ومن بعده كلهم عيال لأبى بكر الرازى. قال شمس الأئمة الحلوانى فيه: هو رجل كبير معروف فى العلم، وإنا نقلده ونأخذ بقوله، فكيف يصح تقليد المجتهد المقلد؟! وقال قاضيخان فى التوكيل بالخصومة: يجوز للمرأة المخدرة أن توكِّل. كذا ذكره أبو بكر الرازى؛ وقال صاحب الهداية: لو كانت المرأة مخدرة قال الرازى يلزم التوكيل منها، ثم قال: وهذا شىء استحسنه المتأخرون. وقال ابن الهمام: هو الامام الكبير أبو بكر الجصاص أحمد بن على الرازى، والفتوى على ما اختاره فى مسألة المرأة المخدرة.

والقول بأن القدورى وصاحب الهداية من أصحاب الترجيح، وقاضيخان من المجتهدين، فيه نظر، لتقدم القدورى على شمس الأئمة زمانا؛ وكونه أعلى منه كعبا وأطول باعا، فكيف من قاضيخان؟ وأما صاحب الهداية فهو المشار اليه فى عصره، المعقود عليه الخناصر فى دهره، وقد ذكر فى الجواهر وغيرها أنه أقر له أهل عصره بالفضل والتقدم كقاضيخان والعتابى وغيرهما وقالوا: إنه فاق على أقرانه حتى على شيوخه فى الفقه، فكيف ينزل شأنه عن قاضيخان؟ بل هو أحق منه بالاجتهاد وأثبت فى أسبابه وألزم لأبوابه.

(٣) والقول بأن أبا يوسف ومحمدا مجتهدان فى المذهب فيه نظر؛ وإنما هما مجتهدان مطلقان مستقلان؛ وإنما عد مذهب أبى يوسف ومحمد مع مذهب أبى حنيفة مذهبا واحدا مع مخالفتهما له فى كثير من الأصول والفروع لأنهما لم يتجاوزا عن محجة ابراهيم النخعى وغيره من علماء الكوفة؛ ولكنهم لحسن تعظيمهم لأستاذهم أبى حنيفة، وفرط إجلالهم لمحله، ورعايتهم لحقه، تعاونوا على التنويه بشأنه، والاحتجاج لأقواله وروايتها للناس، وتجردوا لتحقيق فروعها وتعيين أبوابها وفصولها، لاعتقادهم أن أبا حنيفة أعلم وأورع وأحق للاقتداء به، والأخذ بقوله، وأوثق للمفتى، وأرفق للمستفتى. ومقام أبى حنيفة فى الفقه لا يلحق، كما شهد له بذلك أهل فنه خصوصا مالكا والشافعى، ومن ذلك الوجه امتاز أبو يوسف ومحمد عن المخالفين لأبى حنيفة لا لأنهم لم يبلغوا درجة الاجتهاد المطلق فى الشرع، ولو أنهم أولعوا بنشر آرائهم بين الخلق لكان لكل منهما مذهب منفرد عن مذهب الامام أبى حنيفة مخالف له؛ ولكل وجهة هو موليها؟

السيد عفيفى

بين رجال الدين والفلسفة

— ٢ —

كتبت الكلمة الأولى من هذا البحث ، وما كنت أتوهم أن تكون سببا للتعقيب عليها من حضرة . . . . . . رئيس التحرير فى نحو ثمان صفحات فى نفس العدد الذى ظهرت به . ذلك أنى عنيت — كدأبى دائما — بنسبة كل حقيقة علمية أو نقل تاريخى للمرجع الذى رجعت إليه بكل دقة ووضوح . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان الكلام لا يزال فى أوله ومقدماته ، ولم نصل الى موضع بيان الرأى الذى أراه فى الخلاف بين رجال الدين والفلسفة ، حتى يصح أن يتوجه عليه نقد مهما كان أمره . على أنى وقد تفضل حضرة الأستاذ الجليل بالتعقيب الذى أشرت إليه لا أجد بدّا من تناوله بكلمات موجزات قبل متابعة الحديث فيما رأيت بحثه من أمر العلاقة بين رجال الدين والفلسفة .

(١) القارئ للتعليق المذكور يعتقد — كما قال السيد الأستاذ — « أنى سردت تاريخ المسلمين فى مجافاة الفلسفة اليونانية متابعين فى ذلك أئمتهم » ، مع أنى لم أتكلم إلا عن جانب من موقف رجال الدين من علماء الكلام ورجالاته ، ولم أشرع بعدُ فى بيان موقفهم من الفلسفة والفلاسفة ؛ كما يعتقد أنى قد أدليت برأيى فى هذا الموقف ورأيت ما يراه الفرنجة الذين يعللونه بجهل أئمة المسلمين والرغبة فى استبقاء سلطانهم على العامة . هكذا قال السيد الأستاذ الجليل ، وسارع فقرر أن بحث مسألة الفلسفة على هذا الوضع لا يؤدى لحسم مادة الخصومة بينها وبين الاسلام ، مع أنى أيضا لم أصل الى الكلام على بواعث تلك الخصومة وتحديدها حتى يمكن أن يقال إنى ذهبت الى هذا الرأى أو ذاك ، وإن ما رأيته يتفق ورأى الفرنجة .

(٢) وأحب لهذه المناسبة أن أذكر فى صراحة أنى مع انتفاعى الى حد كبير ببحوث الفرنجة ودراسات المستشرقين ، وبما عرفونا به من مصادر لها خطرها وقيمتها فى بحث تاريخنا العلمى ، لا أرضى لنفسى أن أكون تابعا لأحد منهم فيما يرى عن هوى أوتقليد . إنى أومن بضرورة الرجوع للمصادر الأصلية العربية التى رجعوا إليها وتفهمها واستنتاج ما يجب استنتاجه منها ؛ فنحن أقدر منهم بلا جدال على فهم العربية وأساليبها ، وإن كانت الأيام وعوادى الزمن مكنتهم من الاطلاع على مراجع لا نجدها بين أيدينا بفضل كسلنا وإهمالنا تراثنا العلمى المجيد ! .

(٣) لا يرى بعد هذا صاحب العزة رئيس التحرير أن من المعقول أن يعادى الأئمة الفلسفة اليونانية مع حثهم ذويهم على الأخذ بما نضج من ثمرات العلم مهما كان مصدره . ولست أتقدم للقارئ فى هذا إلا بوجوب التريث حتى أتكلم عن موقف رجال الدين من

الفلسفة ، فيتبين من الوقائع والحالات التاريخية الثابتة كيف أن هذا الذى يراه عزته غير معقول هو الذى كان ! وإنما أتعجل فأشير الى حادث إحراق كتب عبد السلام بن عبد القادر المعروف بالدكن ، وهو – كما يقول القفطى (١) – من بيت تصوف وتعبد ، قرأ علوم الأوائل فأجادها ، فحسده أرباب الشر واتهموه بالاعتداد بأقوال الفلاسفة ، فصدر الأمر بأحراق كتبه فى حفل كبير ، وتولى كبر هذا العمل عبدالله التيمى البكرى المعروف بابن المارستانية . جعل لعبد الله هذا منبر صعد عليه ، وبدأ تنفيذ ما أمر به بخطبة لعن فيها الفلاسفة ومن يقول بقولهم ، وذكر الدكن عبد السلام بشَر ، وكان يخرج الكتب التى له كتابا كتابا فيتكلم عليه ويبالغ فى ذمه وذم مصنفه ثم يلقيه من يده لمن يلقيه فى النار ! والذى يهمنا أكثر ، هو أنه – كما يرويه القفطى شاهد عيان – لما وصل الى كتاب الهيئة لابن الهيثم قال ، وهو يشير الى الدائرة التى مثل بها الفلك : « وهذه الداهية الدهياء ، والنازلة الصماء ، والمصيبة العمياء » ! وبعد تمام كلامه خرقها وألقاها فى النار ! فهل لا يعد هذا جهلا وتعصبا ؟ ! وأخيرا انتهى الأمر بسجن عبد السلام عقابا على أنه كان له فضل عقل فاستعمله فيما أمر الله به من النظر فى الوجود وملكوت السموات والأرض ، واستمر فى السجن حتى أفرج عنه عام ٥٨٩ هـ . كما أشير أيضا الى فتوى ابن الصلاح والنواوى بتحريم دراسة المنطق ! والى الحكم بالإلحاد – إن لم يكن بالكفر – على الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده لتدريسه العلوم الحديثة بالأزهر ، ومنها الحساب والجغرافيا ! جهلا وحسدا وبغيا أن يؤتى الله من فضله من يشاء من عباده ، كما حدثنا بذلك منذ قريب حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى فى ذكرى الأستاذ الامام .

(٤) بقى بعد هذا تأكيد السيد الأستاذ « بأن القرآن جاء للمسلمين بفلسفة تبز فى سموها أرقى فلسفة ، وأطلق عليها ما يقابل هذه الكلمة من اللغة العربية ، وهى : الحكمة » . هذا الموضوع لا يحسن أن يمس مسا رفيقا فى مقال أو مقالين ، بل يجب أن يبحث فى دقة وعناية بحثا تدعمه الأدلة والأسانيد ، وليس هذا موضعه ، ولا يتصل بما جعلته عنوانا عاما للكلمات التى اعتزمت كتابتها . ولكن يجب مع هذا أن نقول بأن كلمة الحكمة كما وردت فى القرآن لا تدل على ما يراد فى اصطلاح العلم بكلمة فلسفة ، حتى ما كان منها قائما على النظر الصحيح . وأعتقد الأمر فى هذا واضحا يكفى فى التثبت منه أن يتصفح القارئ أى كتاب من كتب التفاسير المعتبرة ، فيرى أن كلمة الحكمة فى الآيات التى ذكرها صاحب العزة الأستاذ الجليل وأمثالها يراد بها السنة النبوية ، أو الأحكام والشرائع كما يذكر أبو السعود ، أو القضاء بالوحى كما يقول القرطبى . وأين هذا من الفلسفة التى حاول كثير من المفكرين التوفيق بينها وبين الدين !

---

(١) أخبار الحكماء ص ١٥٤ .

ومهما يكن فان مما لا ريب فيه أن كلمتى التى كانت سبب هـذا التعقيب الطويل كانت خيرا وبركة ، أو بعبارة أخرى كانت سبب خير كثير نال القراء الكثر الذين يعجبون بحق بالسيد الأستاذ ، ويقدرون ما يطالعون له من بحوث لها قيمتها وقدرها .

وبعد ما تقدم كله نعود لاستئناف الكلام فى الموضوع الأصلى ، فنقول :

ذكرنا فى المقال الماضى ثلاثة أمور ، رأينا أنها تبين بجلاء موقف رجال الدين عامة من علم الكلام ، فماذا يأخذ الباحث من هـذه النصوص عن المؤرخين الثقات ، ومن النصوص الأخرى التى نقلناها أو أشرنا اليها ؟ للباحث أن يقرر وهو آمن من اتهامه بالمبالغة أن النظر الحر، حتى فى علم الكلام ، صار فى القرن الثالث مقيتا بغيضا محرما من جهة الدين ، حتى لا يجوز للناسخ أن يشتغل ولو لحساب الغير بنسخ شىء من كتبه ، وأن هـذا المقت لعلم الكلام ـ وخاصة على غرار نظر المعتزلة ـ أخذ صورة إيجابية أقلقت بال الدولة ، ووجدت فيها ما تخشاه من اضطراب حبل الأمن العام ، فيصدر الخليفة أمرا يقضى بتحريم النظر فى هـذا العلم والمناظرة فيه ، وإلا فالويل لمن يعصى الأمر المرسوم ، وأنه أخيرا ـ كما يقول المقريزى ـ صار مذهب الأشعرى هو مذهب جماهير أهل الأمصار حتى العصر الذى عاش فيه ، وأن من خالفه كان مطلول الدم . ومعنى هذا كله خصومة عنيفة صارت عداء واضحاً يستباح فيه دم المخالف من رجال الدين ، أقضّت على المتكلمين الأحرار مضاجعهم ، وأوردت الكثير منهم موارد المنون دفاعا من رجال الدين عنه حينا ، وتعصبا له عن جهـل حينا آخر . ونقول : دفاعا آنا وتعصبا آنا عامدين لا مسرفين فى القول ولا متجنين ؛ ذلك أنه لنا أن نلتمس لرجال الدين والمحدثين وعلى رأسهم الحنابلة بعض العذر فى خصومتهم الحادة للمعتزلة وانتقامهم منهم لما فعلوا بهم أيام فتنة القول بخلق القرآن التى أحدثها المأمون ، وقفاه فيها المعتصم والواثق ، حتى ولى المتوكل عام ٢٣٢ هـ فأبطل هـذه المحنة ورفع عن الناس الإصر ؛ وحسبنا مما نال المحدثين فيها من أذى أنْ ضرب الامام الجليل أحمد بن حنبل بالسياط ضربا مبرحا سال منه الدم وتعددت الجراحات . على أن المحدثين لم ينقموا على المعتزلة إثارتهم هذه المحنة وموقفهم فيها فحسب ، بل نقموا منهم أيضا فلسفتهم للدين وتأويلهم للآيات التى تعارض أصلا من أصولهم الخمسة (هى: التوحيد ،والعدل ،والوعد والوعيد ،والمنزلة بين المنزلتين ،والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر(١)) ، وردهم للأحاديث التى لا تتفق معها ، مما هال المحدثين وجعلهم يرون فيهم أعداء للدين يجب ذيادهم عنه والوقوف فى وجه اعتدائهم عليه ، وينسون ما كان لهم من بلاء مبين فى الرد على الفرق الضالة وطوائف الملاحدة ، كما يدل لذلك إجالة النظر فى مؤلفاتهم

(١) الانتصار والرد على ابن الروندى للخياط المعتزلى ص ١٢٦ ، ومروج الذهب للمسعودى طبع دار الرجاء بمصر ج ٢ ص ١٥٠

ومنها كتاب الانتصار للخياط الذى يقول عن النظام وأمثاله من المعتزلة : إنهم « شغلوا أنفسهم بجوابات الملحدين ووضع الكتب عليهم إذ شُغل أهل الدنيا بلذاتها وجمع حطامها (١) » . ولكن إذا كان للمحدثين ومن اليهم من رجال الدين بعض العذر فى وقوفهم موقف الخصم اللدود من المعتزلة ، فما عذرهم وقد انتصروا عليهم بمجىء المتوكل العباسى فى عدائهم للأشاعرة ـ الذين كانوا يرمون المعتزلة معهم عن قوس واحدة ـ حتى لا يرى شيخ الحنابلة كما قدمنا بأساً فى لعن أبى الحسن الأشعرى ، وحتى يمنعوا الخطيب البغدادى من دخول المسجد الجامع لذهابه فى علم الكلام مذهب الأشعرى ؟ ! ثم بعد أن تنفس الأشاعرة الصعداء بعد ذهاب سلطان الحنابلة بمرور الزمن ، وصار مذهبهم هو المذهب الرسمى ، ما ذنب مخالفيهم فى عقيدتهم حتى يكونوا مطلولى الدم إن جهروا بما يرون كما روينا عن المقريزى !

ومهما يكن فهذا جانب من موقف رجال الدين من علم الكلام ورجاله وكتبه ، ومنه يتبين أنهم كانوا يعتبرونه مدة طويلة علما مقيتا بغيضا لا يتفق الخوض فيه والدين الحق . ولم يكن هذا بالمشرق فقط بل كان بالمغرب أيضا ، حتى إنه لما تولى على بن يوسف بن تاشفين الحكم بعد وفاة أبيه عام ٤٩٣ هـ قرر الفقهاء عنده تقبيح علم الكلام وأنه بدعة فى الدين ، حتى استحكم فى نفسه بغضه وأهله ، فكتب للبلاد مشدداً فى نبذ الخوض فى شىء منه ، وتوعد من وجد عنده شىء من كتبه (٢) بل إن ابن تاشفين هذا أمر باحراق كتب حجة الاسلام الغزالى نفسه لما دخلت المغرب ، وتوعد بالقتل من خاطر بنفسه فاقتنى شيئا منها ، لأنه قيل له إنها مشتملة على الفلسفة ، وفعل ذلك قبل أن يطلع عليها أو يعرف ما فيها ! (٣)

والآن نترك الحديث فيما يتصل بعلم الكلام ، وننتقل لعرض موقف رجال الدين من الفلسفة ورجالاتها ؛ فإلى اللقاء إن شاء الله تعالى ؟

محمد يوسف موسى

(١) كتاب الانتصار المذكور طبع دار الكتب ص ٤١ .
(٢) المعجب للمراكشى نشر دوزى ص ١٢٣ .
(٣) نفسه ص ٩٦ وطبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى ج ٤ ص ١١٤ .

* * *

(انظر تعليقنا على هذا المقال فى الصفحة التالية)

الحكمة القرآنية والفلسفة اليونانية

نشرنا المقال السابق لفضيلة الأستاذ الألمعي الشيخ محمد يوسف ، وإنا لنثني على حسن تقديره للنقد ، وعظيم تمكنه من آداب البحث ، راجين له توفيقا عظيما في حياته العلمية والفلسفية .

لاحظ عليّ فضيلته ملاحظات أرى من مصلحة الفلسفة أن أتحدث اليه عنها ، فان شأن الفلسفة خطير لا يجوز لمن يتولون الرقابة على ثقافة الأمة أن يغفلوه ، وقد علموا أن الذى يوجه الأمم في هذا العصر الى الغايات هي فلسفاتها ، أي الأصول والمبادئ التي تسيطر على عقليتها ، وتتسلط على نفسيتها ، وإن لم يتعين اسمها لدى آحادها ، ولكن يعرفها من يتأمل في دوافعها الأدبية من أبنائها وغير أبنائها . لذلك لا آلو كل ما يكتب فيها هنا تعقيبا ، إذا رأيت ما يوجب ذلك ، تفاديا من أن قارئا أو عددا من القراء لا يوفقون لقراءة ردود قد لا تأتي إلا بعد شهور عديدة .

لاحظ عليّ فضيلة الأستاذ أمورا :

١ — أني تسرعت بالرد على مقدمات لم تصل الى موضع بيان الرأي في موضوعها .

٢ — أني قلت ليس من المعقول أن يعادي الأئمة الفلسفة اليونانية ، ويحضون ذويهم على الأخذ بما نضج من ثمرات العلم ، والواقع أن غير المعقول هذا هو الذى كان .

٣ — أني قلت بأن القرآن آتى المسلمين بحكمة تبز أرقى الفلسفات ، والواقع أن الحكمة المذكورة في القرآن تعني السنة النبوية أو الأحكام والشرائع ، كما ذكر ذلك أبو السعود ، أو القضاء بالوحي ، كما قال القرطبي .

ملاحظاتنا على الملاحظة الأولى :

إن الذى رددنا عليه من مقالة فضيلة الأستاذ ليس قولا له ورد في صيغة تشكيك ، وجُعل تحت البحث ، ولكنا رددنا على حكم له مقرر ، أتى به نتيجة لبحث مدعم ، فليس لنا بعد أن كتب فضيلته : « إن جانبا كبيرا منا لا يزال يخلط في هذه الخصومة (أي بين الدين والفلسفة) التي أذكى نارها رجال الدين ضد الفلاسفة والمفكرين » .

وبعد أن كتب : « هذه الخصومة بل هذا العداء ، لم يكن بين رجال الدين والفلسفة وحدها ، بل كان بين الأولين ورجال علم الكلام أيضا ، كما كان كذلك بين أهل السنة والمعتزلة » .

بعد أن كتب فضيلة الأستاذ هذا وأمثاله ، لم أر أن من التسرع الدفاع عن أهل السنة ، وبيان عذرهم في معاداة الفلسفة والاعتزال والكلام ، لا جهلا منهم ولا تعصبا ، ولكن لقيامهم

على حكمة آتاهم القرآن إياها تبز فى سمو أصولها ، وفى بعد مجال نظرها ، كل فلسفة فى الأرض ، ولا أستثنى منها الفلسفة العلمية العصرية ، كما بينت ذلك فى مقالات سابقة بالدلائل القاطعة .

وما دمت أرى هـذا الرأى ، وأملك عليه من الأدلة ما لا يمكن دحضه ، فانى أرى من الحـكمة المسارعة الى بيانه ، وخاصة لأنى أعتقد أن التشكيك فى صدق نظر أئمة الدين الأولين ، واتهامهم بعدم الانصاف والجهل ، يزعزع صرح هذا الدين فى نظر أهله ، ويعرض بناءه للخطر .

ومما يدل دلالة حسية على أنى لم أتسرع فى ملاحظاتى ، وأنى كنت من مقال الأستاذ حيال أحكام مقررة ، وآراء ثابتة ، أن فضيلته أيدها فى مقاله الثانى ، فزاد فى ملاحظاتى قوة جديدة غير منتظرة .

ملاحظاتنا على الملاحظة الثانية :

قال فضيلة الأستاذ : « ما قلت أنا إنه غير معقول هو الذى كان » ، مشيرا بذلك الى قولى :

« فكيف يعقل أن الأئمة الذين لم يمنعوا ذويهم من الأخذ بما نضج من ثمرات العلم مهما كان مصدره ، والذين قرروا وجوب تأويل كل نص يخالف ظاهره حكم العلم ، يعمدون الى معاداة الفلسفة ، مع شغفهم بأخذ كل جديد صادفوه لدى الأمم ؟ السبب فى ذلك هو ما ذكرناه فى عدد سابق ، ووعدنا ببسط القول فيه ، أن المسلمين لم يجافوا الفلسفة اليونانية سذاجة وبلاهة منهم ، ولـكن لأنه كان لديهم فلسفة آتاهم إياها القرآن تسمو على كل فلسفة فى الأرض ، وتجليها على ما هى عليه أوهاما لا يقام لها وزن » .

واستدل فضيلة الأستاذ على أن ما قلت فى هذه الفقرة إنه غير معقول هو الذى كان ، بما فعله عبد الله التيمى من إحراق مؤلفات عبد السلام بن عبد القادر المعروف بالدكن وحبسه .

واستدل الأستاذ على ذلك أيضا بما أفتى به ابن الصلاح والنواوى بتحريم دراسة المنطق ، وبما اتُّهم به الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده بالإلحاد لسماحه بتدريس العلوم الحديثة بالأزهر .

ثم قال فضيلته : « فهل لا يعد هذا جهلا وحسدا وبغيا ؟ »

نقول : نعم نعم ، أى جهل وأى حسد وأى بغى ، عملتْ مجتمعة فى الحوادث التى رواها الأستاذ فى هذا الموطن !

ولـكنها من حوادث القـرن السادس والسابع الهجرى ، أى عصر التدهور الاعتقادى والثقافى والسياسى للمسلمين ، العصر الذى كانت فيه الأقطار الإسـلامية موزعة بين أصحاب المغامرات من التركمان والفرس والديلم وصنائعهم ، العصر الذى قال فيه الشاعر :

وتفرقـوا شيعا فـكل مدينة   فيهـا أمير المؤمنـين ومنبر

العصر الذى لو كان أُحرق فيه علماء بالنار ، أو أُلقى بهم من شواهق الجبال ، بسبب

ما حيك فى حقهم من الوشايات ، لما كان ذلك بعجيب . ولو أراد عدو للمسلمين أن يحكم على الإسلام وأئمته بما يتصيده من الحوادث الشاذة المنكرة التى كانت تحدث هنا وهناك فى دور تدهورهم ، لكتب عنه وعنهم تاريخا مخزيا ، ولكنه يكون فى الوقت نفسه قد ارتكب خطأ تلزمه تبعته ما بقى لكتابه أثر فى الأذهان .

إنما يُكتب تاريخ الأديان بالاستناد الى نصوص كتبها ، وإنما يُكتب تاريخ الآخذين بها بدراسة تأثيرها فيهم أيام ازدهار أصولها ، وسلطان مبادئها ، وتوافرهم على العمل بها .

هذه هى القاعدة العلمية فى الحكم على الأديان وعلى أئمتها .

تمّ نزول الإسلام حوالى سنة ٦٣٠ الميلاد ، فما مضى عليه قرن حتى كان ملك المسلمين أوسع ملك عُرف فى تاريخ الأمم ، حتى الأمة الرومانية ، وما تلاه قرن آخر حتى وصل المسلمون الى زعامة العالم كله فى العلم والأدب والسياسة ، وكان من آثار هذه الزعامة حدوث انتقالات أدبية وسياسية واجتماعية فى الأمم كافة ، حولتها من حال الى حال آخر .

هذه حوادث لا يمكن نكرانها اعترف بها جميع مؤرخى الأرض ، فهل تمت اتفاقا ومن طريق الخبط ، وبمعاداة الآراء الجديدة ، والتضييق على أهلها وإحراق كتبهم ؟ .

المؤرخون الأجانب ، بله المسلمين ، تكفلوا ببيان أسباب هذه الانتقالات الأدبية التى أوجدها الاسلام ، فذكروا أن المسلمين بعد وفاة نبيهم بست سنين ، شرعوا يطلبون العلم من جميع مظانه ، وكانوا كلما اتصلوا بأمة تلقفوا أفضل ما لديها منه ومن حكمة وفن ؛ ثم علم المسلمون أن تلك الجماعات على ما كان عندها من المعارف كانت فى دور تدهور ، وأن أسلافها كانوا أغزر منها علما وأرفع مدنية ، وأن كتبهم موجودة فى خزانات موصدة ، فعملوا على الحصول على تلك الكتب ؛ ولكن كيف السبيل الى فهمها ؟ عمدوا الى استخدام المترجمين من السريان والإسرائيليين والمجوس والنصارى ، وأغدقوا عليهم المال ليتمكنوا من نقل تلك الكتب الى العربية .

فكان أمراء المؤمنين ، والقادة ، والوزراء ، والحكام ، والسراة ، يتسابقون الى استخدام هؤلاء المترجمين ، ويغمرونهم بالأعطيات ، وصنوف الرعايات ، ليقوموا بابراز مكنونات تلك الكتب .

فهل كل هذا كان يمكن حدوثه إذا كان الاسلام لا يشجع على العلم ، وكان أئمته يصدون عنه ، ويضعون فى سبيله العراقيل ؟

بدأت حركة الترجمة والنقل فى عهد الخليفة المنصور سنة (١٣٠) فشجع عليها ، وازدادت نشاطا على عهد أولاده الهادى والمهدى وهرون الرشيد ؛ ولما ولى المأمون زادها قوة وازدهارا ، حتى كان يشتغل هو نفسه بعلم الفلك ويناقش فيه أهله الراسخين .

فى هذا المدى الذى يبلغ نحو مائتين وخمسين سنة ، نبغ جميع أئمة المسلمين أصحاب المذاهب الفقهية ، وأعلام المفسرين والمحدثين ، فهل يحفظ عن واحد من هؤلاء صدٌ عن العلوم الطبيعية النافعة ، أو تحقير للمشتغلين بها ، أو شكوى من انصراف جمهور كبير الى تلقيها وإتقانها ، والذهاب بها الى أبعد غاياتها ؟

وهل كان منهم من أفتى بحرمة تعلم المنطق ؟ كيف يكون ذلك وقد برعوا هم فيه وجعلوه من أسلحتهم فى تقرير الأصول الاعتقادية والفقهية ؟

إذا كان على عهد هذه النهضة العلمية الواسعة النطاق ، البعيدة المدى فى المائتين والخمسين سنة الأولى للاسلام ، أن الاشتغال بالعلوم الطبيعية وبالفنون يناقض المبادئ الاسلامية الحقة ، فما الذى كان يمنع الأئمة الأولين من مؤسسى فقه الدين وشريعته وأصوله وفروعه من أن يثوروا عليه ، أو ينبهوا فى كتبهم إليه ؛ وقد كانوا من الحساسية الدينية بحيث لم يدعوا الصغريات تقع عليها أعينهم إلا شهروا بها ، وحذروا منها ، فهل كانوا يرون هذا النهم الجامح من المسلمين لاقتباس العلوم والفنون الأجنبية ولا يحذرونهم منها إن كان فيها ما يكرهه الدين ؟

أما وقد سكتوا عنها ، وتركوا الناس أحرارا فى شفاء أوامهم منها ، فمعنى ذلك أنهم لم يروا بأسا فى تعلمها ، بل رأوا أنها مما لا بد منه لرفع مستوى الانسانية ، وصقل المواهب النفسية ، وزيادة المرافق العمرانية ، ولكى لا يؤتى المسلمون من قبلها بكارثة عدوانية . لذلك رأيناهم أحلوا تعلم كل شيء حتى السحر ، فقال قائلهم : تعلم السحر ولا تعمل به ، فحرموا العمل به ولم يحرموا تعلمه . (ارجع الى باب الفتوى فى هذا العدد) .

بهذه الروح الخالصة من جميع شوائب الجهل والتعصب ، أطلق أئمة المسلمين الأولين ، عملا بسماحة الاسلام ، الحرية للناس فى أخذ كل ما كان يروقهم فى ديار مقهوريهم من العلم والصناعة ، حتى تفردوا فى العالم كله بزعامة عامة ، لم تتمتع أمة قبلهم ولا بعدهم بمثلها .

فلما توالت القرون بعد ذلك العصر الذهبى للاسلام ، وأخذ الملك الإسلامى يتفتت ، واغتصبت الحكومات الاقليمية عصابات من أجناس شتى ، انحط مستوى العلم الدينى ، وضعف أهله ، وتدهورت عقليتهم ، وراجت الأحاديث الموضوعة ، والخرافات المصنوعة بينهم ، وترك القائمون بالأمر حبلهم على غاربهم ما داموا لا يتعرضون لسلطانهم المطلق الجائر بكلمة ؛ فصدرت فى هذه العهود تعاليم تناقض صريح الكتاب والسنة ، وراجت بدع كان الغرض منها جر المغانم الى القائمين بأمر الدين ، حتى صارت الفتاوى تباع وتشرى .

فاذا كان فضيلة الأستاذ الكاتب يتخذ من هؤلاء أمثلة على ما كان عليه أئمة الدين الاسلامى من قصر النظر ، وضيق الصدر ، والجهل والبغى والحسد ، فليس هذا بالأسلوب الذى يقوم عليه البحث التاريخى ، والنقد العلمى ، وليس مثله يقدم عليه .

عداء الأئمة الأولين للمعتزلة وعلماء الكلام :

الدين حاجة من أفعل حاجات النفس تأثيرا فى العقل ، وتحكما فى العواطف ، ولا يوجد شىء ضحى الانسان فى سبيله نفسه وماله وولده غير الدين . وقد سد الخالق الحكيم هذه الحاجة فيه بأديان شرعها له فى خلال القرون ، فكانت كلما تقادم على واحد منها العهد انحرف عن صراطه ، وطمست الآراء والتأويلات حقائقه ، حتى كان الزمان الأخير ، فشرع الخالق الاسلام يعدِّل للناس فيه كل عوج تأدوا اليه بخروجهم عن الصراط السوى ، الذى نهجه لهم فى الأديان السابقة ، وأحاطه فى وحيه الأخير من الحوافظ بما يحميهم من كل تأويل له يدفعون فيه .

أمرهم فيه بأن يطلبوا العلم من مظانه ، وأن يتثبتوا مما يلقى اليهم منه فلا يأخذوه إلا معززا بالدليل ، وحثهم على إقامة سلطان العقل ، فلا يقبلون كل ما يقدم لهم حتى يزنوه بقسطاسه ، ويحاكموه الى أولياته ؛ ونهاهم عن الأخذ بالظنون ، والتلهى بالأوهام ، والخضوع للأهواء ، والتقليد للكبراء ، والانخداع بالظواهر ، مكثرا لهم من سير الضالين والمضلين ، معددا لهم فى ألوان باهرة من البيان سير الخادعين والمخدوعين ، ومصاير المقلِّدين والمقلدين ، غير معتد بعذر الجاهلين ، ولا بذلة المستضعفين ؛ ملقيا التبعة على كاهل الناكب عن السبيل ، ما دام قد جعل له عقلا يدرك ، وقلبا يعى .

وقد شدد الاسلام على أهله فى وجوب تجنب الخلاف حتى فى سبيل فهم بعض الكلام الإلهى ، فبين لهم أن فى كلامه آيات محكمات لا يتردد العقل فى إدراكها ، وأخرى متشابهات تنشعب عليها الفهوم ، وتتشعب فيها المفاهيم ، فحذر من الاشتغال بها ، ونص على أن من يحاول تأويلها يعتبر زائغا عن الصراط القويم .

كل ذلك لتتوحد وجهة الناس فيما يغذى عقولهم وقلوبهم ، وينفع أرواحهم ، ويبنى وجودهم ؛ أما قيل وقال ، وكثرة التسآل ، والتمادى فيما لا يمكن أن تتفق فيه المذاهب بحال، فقد عده من عمل المتبطلين ، وشغل المبطلين ، وعَرَضا من همزات الشياطين ، حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما أراد الله بقوم سوءا إلا آتاهم الجدل » . وقد ورد فى هذا المعنى عشرات من الأحاديث الصحيحة .

ليس مقصد الاسلام من كبح العقول عن تفهم المسائل الغامضة ، أن يبقوا فى الظلام البهيم ، وأن يؤمنوا بدون نظر ولا تمحيص ، بدليل أنه طالبهم بالدليل على ما كلفهم الإيمان به من الكليات الأساسية ؛ والتدليل لا يكون إلا بعد نظر وفهم وتحقيق ؛ ولكنه نهاهم عن الجدل فيما لم يكلفهم الإيمان به من الأمور التى لا تصل الى فهمها وتمحيصها العقول .

فاذا كان دين فى الأرض تأبى طبيعته أن ينشأ فيه اعتزال وعلم للكلام فهو الاسلام . ولكن جمحات العقول ، واندفاعات الميول ، حفزت الى نشوء هاتين العقبتين من لدن القرن الثانى للهجرة ، وجرت الى خلافات ومنازعات يأباها الاسلام ويتشدد فى النهى عنها ، ونحن قبل أن نقول كلمتنا فى هذا الموضوع نعطى القارىء فذلكة من تاريخ هذا العلم كتبها بقلمه فى كتابه (رسالة التوحيد) العلامة الحجة زعيم النهضة الدينية فى هذا العصر الشيخ محمد عبده . قال رحمه الله :

« كانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال الانسان بإرادته وأفعاله الاختيارية ، ومسألة من ارتكب الكبيرة ولم يتب ، اختلف فيها واصل بن عطاء (١) وأستاذه الحسن البصرى واعتزله يعلم أصولا لم يكن أخذها عنه .

« تفرقت السبل بأتباع واصل ، وتناولوا من كتب اليونان ما لاق بعقولهم ، وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعا الى أوليات العقل ، وما كان سرابا فى نظر الوهم ؛ فخلطوا بمعارف الدين ما لا ينطبق على أصل من أصول النظر ، ولجوا فى ذلك حتى صارت شيعهم تعد (بالعشرات) ، أيدتهم الدولة العباسية وهى فى ريعان القوة ، فغلب رأيهم ، وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب ، فأخذ المتمسكون بمذهب السلف يناضلونهم معتصمين بقوة اليقين ، وإن لم يكن لهم عضد من الحاكمين » .

الى أن قال أجزل الله ثوابه :

« جاء الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى أوائل القرن الرابع ، وسلك مسلكه المعروف وسطا بين موقف السلف ، وتطرف من خالفهم ، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر ، وارتاب فى أمره الأولون (يريد الواقفين مع مذهب السلف) ، وطعن كثير منهم فى عقيدته ، وكفره الحنابلة واستباحوا دمه ، ونصره جماعة من أكابر العلماء ، كأبى بكر الباقلانى وإمام الحرمين والأسفرايني وغيرهم ، وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة .

« غير أن الناصرين لمذهب الأشعرى بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون ، أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها ، كما يجب عليه اليقين بما تؤدى اليه من عقائد الإيمان ؛ ذهابا منهم الى أن عدم الدليل يؤدى الى عدم المدلول . ومضى الأمر على ذلك الى أن جاء الإمام الغزالى والامام الرازى ومن أخذ مأخذهما نخالفوهم فى ذلك ، وقرروا أن

(١) هو واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصرى . خالفه فى مسائل واعتزله فسمى أتباعه المعتزلة لهذا السبب توفى سنة ١٨١ للهجرة .

دليلا واحدا أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها فلا وجه للحجر فى الاستدلال (١) .

« أما مذاهب الفلاسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ، ولم يكن من همّ أهل النظر من الفلاسفة إلا تحصيل العلم ، والوفاء بما تندفع إليه رغبة العقل ، من كشف مجهول أو استكناه معقول ، وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ماشاءوا ، وكان الجمهور من أهل الدين يكنفهم بحمايته . . .

« لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم ، (الأول) الإعجاب بما نُقل إليهم عن فلاسفة اليونان ، خصوصا أرسطو وأفلاطون ، ووجدان اللذة فى تقليدهما لبادئ الأمر . و (الثانى) الشهوة الغالبة على الناس فى ذلك الوقت ، وهو أشأم الأمرين : زجوا بأنفسهم فى المنازعات التى كانت قائمة بين أهل النظر فى الدين ، واصطدموا بعلومهم فى قلة عددهم ، مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة ، فمال حماة العقائد عليهم . وجاء الغزالى ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجدوا فى كتب الفلاسفة مما يتعلق بالالهيات ، وما يتصل بها من الأمور العامة وأحكام الجواهر والأعراض ، ومذاهبهم فى المادة ، وتركيب الأجسام ، وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام يمس شيئا من مبانى الدين ، واشتدوا فى نقده (٢) . . .

« ثم جاءت فتن طلاب الملك من الأجيال المختلفة ، وتغلب الجهال على الأمر ، وفتكوا بما بقى من أثر العلم النظرى النابع من عيون الدين الإسلامى ، فانحرفت الطريق بسالكيها ، ولم يعد بين الناظرين فى كتب السابقين إلا تحاور فى الألفاظ أو تناظر فى الأساليب ، على أن ذلك فى قليل من الكتب اختارها الضعف ، وفضلها القصور .

« ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم ، فجاء قوم ظنوا فى أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم ، فوضعوا ما لم يعد للاسلام قبل باحتماله . غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصارا ، ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانا ، فشردوا بالعقول عن مواطنها ، وتحكموا فى التضليل والتكفير ، وغلوا فى ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم دعوى العداوة بين العلم والدين الخ » .

هذا كلام الإمام الحجة الشيخ محمد عبده ، ومنه يتضح للقارئ كيف نشأ علم الكلام فى الإسلام وعلى أى أساس قام ، وكيف تطور فى اتجاهات مخالفة لمذهب القرآن حتى آل الى شر مآل .

---

(١) وقد تحقق رأى حجة الاسلام الغزالى والامام الرازى فظهر بطلان كثير من تلك المستندات ، وظهر اليوم غيرها أقوى منها بما لا يقاس عليه .

(٢) وقد ظهر اليوم لمن لهم إلمام بالفلسفة اليونانية أنها كانت تقوم من بناء الوجود على الاوهام ، وعلى ما يولده التصور من الخيالات .

يشكو فضيلة الأستاذ كاتب المقال اليوم مما لقيه علماء الكلام من أئمة المسلمين من العداء والاضطهاد ، وما وجده المعتزلة منهم من الكراهية والعناد ، فماذا كان يريد أن يكون عليه أولئك الأئمة حيال قوم ذهبوا فى الخلاف كل مذهب ، حتى أصبحت فرقهم كما يقول الامام الشيخ محمد عبده تمد بالعشرات ؟ هل كان عليهم أن يغضوا الطرف عن هذه الفتنة الشاعبة لوحدة الاسلام ، والوحدة أساسه الأول الذى يقوم عليه ، ووصفه المميز له عن سائر الملل ، والله يقول : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » ؟ .

ولو كلف أحدنا نفسه ونظر فى موضوع خلافاتهم لعجب من قوم لهم عقول تدرك يختلفون على أشياء لو مُد فى آجالهم حتى عمروا الى قيام الساعة ، لما وصلوا من العلم بها الى شىء ، ولو رجعوا الى الكتاب لوجدوه يعدها من المتشابهات وينهاهم عن الاشتغال بها باسم القرآن .

أنا لا أنكر أن للعقول شهوات جامحة ، وميولا عارمة ، تدفع الفكر فى تيارها ، وخاصة فى عهد طفولة الأمم ، الى ما لا يصح التفكر فيه ؛ نعتذر عن المعتزلة بهذا ، ولكن كان يسعهم أن يفكروا فى مسائلهم العويصة لحسابهم الخاص تحت أى اسم شاءوا . إذا كانوا فعلوا ذلك ما كان تعرض لهم أحد ؛ ولكنهم اشتغلوا بها لحساب الدين ، وانتدبوا لنشرها بين المسلمين ، وجلسوا فى المساجد للمجادلة فيها والدين ينهاهم عنها وعن أمثالها ، ولم يحملهم تبعة جهلها ؛ فلم يكفهم أن يخالفوا الكتاب بالبحث فيها ، ولكنهم اختلفوا فيها اختلافا شنيعا ، حتى كانت تعد مذاهبهم بالعشرات ، كما يقول الامام الشيخ محمد عبده ، وكفر بعضهم بعضا عليها ، فضربوا للناس بحالهم أسوأ الأمثال . فلو كان خف حلم المسلمين وجنحوا إليهم فيها ، لكان شاع بين جماعتهم خلاف لا يقف عند حد ، ولا نشقت عصاهم ، وتصدعت جماعتهم ، وبادوا كما بادت قبلهم أمم اشتغلت بأمثال هذه المسائل ؛ ولكانت النتيجة أن الدين الذى شرع لتوحيد الأديان والمذاهب ، يقع هو نفسه فى شر مما جاء لمداواته من أدواء العقل البشرى !

ومما يدلك بدليل محسوس على أنهم كانوا يشتغلون بمسائل لا تهتم بها العقلية الانسانية اهتماما جديا ، أن أحدا ممن يعتد بعقله لا يشتغل بها اليوم لا هنا ولا فى أية بقعة من بقاع الأرض . فأى عاقل يستسيغ أن يسأل هل القرآن قديم أم محدث ، وهل صفات الله متصلة به أم خارجة عنه ، وهل مرتكب الكبيرة يعتبر مؤمنا أم كافرا ، وهل أطفال الكفرة يخلدون فى النار الخ الخ ، مما توجبه على أهلها الثقافة الناقصة ، والعقلية الطفلة القاصرة ؟

فهل يلام أئمة إسلاميون على أنهم حاولوا أن يقاوموا تأثير هؤلاء المتحذلقين ، وأن لا يدعوهم يصدعوا بأمثال هذه الوساوس وحدة المسلمين ؟

نحن الآن فى زمان ثارت فى نفوسنا رغبة ملحة فى ترسم خطوات الأئمة المهديين فى أى عصر كانوا ، وبأى مظهر ظهروا ، أحرارا غير مقيدين ؛ فهل فينا واحد ، حتى من الذين

يدافعون عن المعتزلة والمتكلمين ، يقبل أن ينصحنا بأن نشتغل بمثل ما كانوا به يشتغلون ؟ وهل فينا من يمكنه بعد إطالة البحث والتنقيب ، أن يدلنا على مسألة كانوا يفنون أيامهم فى المجادلة والملاحاة فيها ، يصح أن نحتذى مثالهم فى الاشتغال بها على أسلوبنا ، ونجعلها شغلا شاغلا لنا كما كانوا يفعلون ؟

يجوز أن يكون وقع من بعض الذين وقفوا فى وجه هذه الطوائف من أهل السنة فى القرون المتأخرة غلو فى العدوان ، أو صدر منهم ما يعتبر مثل سوء فى الرجعية وسوء النية ؛ فهذه الجزئيات تحدث فى كل أمة ، وفى معمعان كل ملاحاة ، وهى لا تهم الفيلسوف المعاصر ، ولكن الذى يهمه هو أن يعرف هل كان فى مذاهب تلك الطوائف ، وقد تركت لها حرية القول والتأليف أجيالا ، ما هو نافع جدير بأن يتولاه ناموس الانتخاب الطبيعى ، فأيده واستبقاه على الرغم من كل ما سُلط عليه من عوامل الإدحاض ، كما هو شأن كل حق من يوم أن خلق الله الخلق الى اليوم ؟

الذى هو ظاهر للعيان أنه لم يكن فيها ما يستحق البقاء ، خصوصا وكل ما قالوه موجود تحت أنظار الناس اليوم ، لا يرفع به أحد رأسا ، ولا يقيم له وزنا .

الحكمة الاسلامية فلسفة تبز أرفع فلسفة فى الأرض :

قلنا إن أئمة المسلمين لم ينابزوا الفلسفة اليونانية سذاجة وبلاهة ، ولكنهم كانوا فى منابزتهم إياها يصدرون عن حكمة آتاهم إياها القرآن ، لا تعد الفلسفة اليونانية إزاءها إلا كما يعد المصباح إزاء الشمس فى رابعة النهار ، فلم يقتنع فضيلة الأستاذ الكاتب بهذا القول ، وقال إنه بالرجوع الى التفاسير يتضح أن كلمة الحكمة فى الآيات التى أوردناها لا تدل على الفلسفة حتى ما كان منها قائما على النظر الصحيح ، ولكن يراد بها (السنة النبوية) أو (الأحكام والشرائع) أو (القضاء بالوحى) .

أقول : إن حصر مدلولات الألفاظ القرآنية فيما فهمه منها أفراد من المتقدمين ، لم يقل به أحد من أئمة المسلمين ، فإذا قال أبو السعود إنها الأحكام والشرائع ، وقال القرطبى إنها القضاء بالوحى ، وقال غيرهما إنها السنة النبوية ، فأنا أقول ، والدليل يؤيدنى ، إن المراد بها الأصول والمبادىء التى أُطلق على أمثالها كلمة الفلسفة فى كل أمة ، والفرق بينهما أن تلك أصول ومبادىء نزل بها الوحى ، وهذه أصول ومبادىء جاء بها العقل . فاذا قرأتُ قول الدارونيين بأن فى الطبيعة عملا انتخابيا يستبقى الأصلح للبقاء وينفى ما دونه مما لا يصلح له ، عددتُ هذا أصلا فلسفيا ، فاذا قرأتُ قوله تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » فالى أى باب من أبواب الأغراض القرآنية أنسبه ، أإلى باب العبادات ، أم

المعاملات أم الأحكام ، أم الشرائع ، أم القضاء بالوحى ، أم الى السنة النبوية ؟ لا أستطيع أن أنسبه إلا الى الحكمة القرآنية ، التى جعلت لتوجيه الأمة الاسلامية علميا وعمليا الى الوجهة الموصلة للكمال الذى خلق الانسان ليصل اليه ، وهذا غرض كل فلسفة فى الأرض .

وإذا قرأتُ فى علم الاجتماع قولهم : إن للأمم نواميس مقررة تحيا على موجبها وتتطور ، ثم تضمحل وتتلاشى ، عددتُ هذا أصلا من أصول الفلسفة الاجتماعية ، وإذا قرأتُ قوله تعالى : « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » فالى أى باب من أبواب الأغراض القرآنية أعزوه ؟ أنا مضطر أن أعزوه الى الحكمة القرآنية .

وإذا قرأت فى الفلسفة أصولا كثيرة ، وقرأت فى القرآن قوله تعالى : « إنا كل شىء خلقناه بقدَر » ، وقوله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » ، وقوله : « من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها » ، وقوله : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، وقوله : « وهو يتولى الصالحين » ، وقوله : « فماذا بعد الحق إلا الضلال » ، وقوله : « إن الباطل كان زهوقا » ، وقوله : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فاذا هو زاهق » ، وقوله : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ، وقوله : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، وقوله : « وقل رب زدنى علما » ، وقوله : « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » ، وقوله : « قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » ، وقوله : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون » ، وقوله : « ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم » ، وقوله : « وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لا يغنى من الحق شيئا » ، وقوله : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ، وقوله : « نبئونى بعلم إن كنتم صادقين » ، وقوله : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » ، وقوله : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » ، وقوله : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » الخ الخ .

هذه آيات قرآنية من عشرات أمثالها مبثوثة فى الكتاب الكريم ، أنزلها موحى القرآن لاقامة العقلية الانسانية على السَنن الطبيعى ، خالصةً من حجب الأهواء والأوهام والظنون ؛ نقيةً من آثار العقائد الموروثة والتقاليد العتيقة ، حاصلةً على جميع ما تقتضيه الحيطة الأدبية من سماع كل ما يقال ، واتباع أحسنه ، ولكن بعد التثبت منه ، وتحرى الدليل عليه ؛ متجردةً لطلب العلم الصحيح باعتبار أنه أساس كل رقى صورى ومعنوى ، ومِساك كل وجود شخصى واجتماعى ؛ أليس هذا غرض كل فلسفة فى العالم ؟ أهى شىء غير جمهرة من أصول ومبادىء تؤدى الآخذ بها لأحسن موقف عقلى وأدبى يمكن أن يقفه الانسان فى الحياة وحيال الوجود ، متعرضا على موجبه لنفحات العلم ، وتطورات الرقى ؟

إن هذه الحكمة القرآنية أخذت بها أمة بدوية لا عهد لها بكتاب ولا حكمة ، فنالت زعامة العالم فى العلم والسلطان والسياسة والصناعة فى نحو قرنين من الزمان ، فان كان يُضَن عليها بلقب فلسفة ، فربما كان للضانين بذلك الحق باعتبار أنها أرقى من الفلسفة بما لا يقدر !

الفلسفة اليونانية وغيرها لم تخلق أمما ، ولكن الأمم هى التى خلقتها ، وهذه الحكمة القرآنية أوجدت من العدم أمة كان لها أثر فى الأرض لا يشتبه بغيره ، ولا تزال الحكمة التى أوجدتها حية ، وسينتهى الأمر بسيادتها على كل فلسفة فى الأرض ؛ ألم نثبت للقارئين فى مقالة لنا نُشرت بالعدد الرابع أن الفلسفة العلمية فى أوروبا آبت اليها بعد تطورات دخلت فيها فى قرون طويلة ؟

مما يدلك بدليل محسوس على أن المراد من كلمة الحكمة فى القرآن هى الأصول والمبادىء التى ذكرناها قوله صلى الله عليه وسلم : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ولو من مشرك » ، فهل يعقل أن النبى يدعو المؤمن ليأخذ عن المشرك علم الشرائع والأحكام ، أو القضاء بالوحى أو علم السنة النبوية ! ؟

القرآن :

الأمة الإسلامية أمة ذات صبغة عالمية ، قامت ، خلافا لسائر الجماعات البشرية ، على أصول أدبية ، ومبادىء خلقية ، لا على الحاجات الحيوية ، ولا الضرورات المادية ، فهى أمة مثالية لم تُقم للفروق الجنسية واللغوية وزنا . وقد نالت من بسطة السلطان ، وعزة الملك ، وقوة المناعة ، وسمو الثقافة ، ما لم تنله أمة قبلها ؛ غالبت عقبات النشوء فاجتازتها ، وصارعت تقلبات الأحداث وتفادتها .

فهذا البناء الاجتماعى الفخم ، لا يعقل أن يكون قد قام على الوهم ، ولا بد له من أصول مكينة ، ووطائد متينة قام عليها ، ولا بد كذلك من أن يكون فى بنيته من الحوافظ ما يحميه من أعاصير الانقلابات ، ومن العوامل ما يدفعه لضروب التطورات .

فإذا كان قوام هذا كله القرآن ، كما هو معلوم بالضرورة ، وجب أن نلتمس سر هذا البناء الفخم على ما اقتضاه من أصول اجتماعية ، وقوى أدبية ، وعوامل عمرانية ، فى هذا القرآن .

فهل يستكثر على كتاب هذا أثره الخالد ، أن تكون فيه حكمة تقيم أهله على أقوم السبل الحيوية ، وتوجه عقولها ونفوسها الى أسمى الوجهات الأدبية ، بحيث تفوق فى ذلك أشهر فلسفة فى الأرض ؟

وقد ثبت أن أهل هذا الكتاب أبوا أن يقعوا تحت سلطان الفلسفة اليونانية وطغوا عليها ، وصدوا عنها ، فهل منعهم ذلك أن تكون لهم الزعامة العلمية والسياسية فى الأرض ؟

محمد فريد وجدى

حياة رجالات الإسلام

أبو بكر الصديق

— ٨ —

موقفه فى صلح الحديبية

لا نكاد نخطو فى حياة الصديق رضى الله عنه حتى نجد فى كل خطوة سراجا من سرج العظمة الإيمانية ، يكشف لنا عناصر العبقرية التى تفرد بها أبو بكر رضى الله عنه ، ويطلعنا على منازع التفكير عنده ، وأنه ينزع بغرب من منابع الحياة النبوية ، وأن الله تعالى اختصه بما لم يعطه أحدا من أتباع النبيين ، فكان لذلك خيرهم إيمانا ، وأرجحهم سياسة ، وأحسنهم تفكيرا ، وأبعدهم نظرا ، وأهداهم طريقا ، وأرشدهم نصحا لله ولرسوله والناس أجمعين .

أسلفنا فى مقالنا السابق الحديثَ عن موقف الصديق رضى الله عنه فى أسارى بدر ، وما جعل الله تعالى فى رأيه من خير وبركة على الاسلام والمسلمين ، وما تكشّف عنه الغيب من تقدير صالح فى عواقب ذلك الرأى الرحيم ؛ والآن نحدثك عن موقف من مواقف الصديق رضى الله عنه فى مرحلة من أدق مراحل النضال الاسلامى ، تزلزلت فيه أقدام الراسخين ، واضطربت له قلوب المؤمنين وأفكار المسلمين ، فكان موقف الصديق عنوان رسوخ الإيمان ، والنظر من وراء سجف الغيب بنور الله ، وكان آية صادقة على ما أمد الله تعالى به صديق نبيه ووزيره وخليفته من تسديد الرأى وتوفيق التفكير ؛ وحسبنا أنه موقف يقول فيه الفاروق ، وهو من هو : « لقد دخلنى أمر عظيم ، وراجعت النبى صلى الله عليه وسلم مراجعة ما راجعته مثلها قط » .

روى البخارى فى الصحيح وأصحاب المغازى « أن بديل بن ورقاء الخزاعى جاء الى رسول الله فى نفر من قومه ، فقال : إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا أعداد مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نجيء لقتال أحد ، ولكننا جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم ، فان شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس ، فان أظهر فان شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جمّوا ، وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ولينفذن الله أمره ! » وفى رواية « فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم عينا له ،

فأتاه عينه، فقال : إن قريشا جمعوا لك جموعا، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت ومانعوك » ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أشيروا عليّ أيها الناس، أترون أن أميل الى عيالهم وذرارى هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ؟ » فقال أبو بكر رضى الله عنه : « يا رسول الله ، خرجت عامدا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولاحرب أحد ، فتوجه فمن صدنا قاتلناه » ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « امضوا على اسم الله » .

فى هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنه جاء سلما ، وأنه لا يريد قتال أحد ، وأنه اعتذر لقريش لو قبلت ، وأنه يعطيها فرصة الاستجمام حتى تستعد لو شاءت قتالا ؛ ومن وراء ذلك عزيمة صارمة إذا ركبت قريش رأسها ؛ ولكن المسلمين ولا سيما الأنصار كانوا يرونها حربا شعواء ، حتى كان حامل لوائهم سعد بن عبادة يرتجز فى فتح مكة قائلا : اليوم يوم الملحمة ! فلما توالت الرسل وجاء عين النبي صلى الله عليه وسلم يخبره أن قريشا مصممة على حربه ومنعه استشار أصحابه ، فكان رأى الصديق رضى الله عنه أن يسير النبي صلى الله عليه وسلم فى أصحابه على ما خرج عليه قاصدا البيت لا يتعرض لأحد حتى يصدوه ، فمن صده قاتلوه ، فهشّ النبي صلى الله عليه وسلم لرأى صديقه وقال : « امضوا على اسم الله » . وهذا من حسن سياسة الصديق وفضل رأيه ، تمشيا مع طبيعته الرحيمة ، لأنه لم يكن فى حياته يرمى الى غلبة الحروب وظفر المعارك فحسب ، ولكنه كان يرمى الى غلبة العقيدة وسمو الفكرة ، فإذا تحقق هذا بغير أن تسفك فى سبيله قطرة دم كان أحب الى نفسه وأرضى ؛ وقد أيده الله تعالى فى رأيه ، فكان فى رسل قريش الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من كنانة ، وهم قوم يعظمون البدن ، ولا يصدون من أمَّ البيت الحرام ، فاستقبله المسلمون يلبون ، والهدى يساق بين أيديهم ، فقال : سبحان الله ! ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت . فكان هذا أول النصر للمسلمين ، وأول الفشل والفرقة لأحابيش المشركين ؛ وتتابعت الرسل فيما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقريش ، وكان فيهم سيد ثقيف عروة بن مسعود ، فرأى من أمر النبي صلى الله عليه وسلم وإعظام أصحابه له ما بعث فى نفسه الرعب على قومه وحلفائه ، فوصف ما رأى لقريش ، ودعاها الى مصالحته ، ولكنه أراد ألا يطمع المسلمين وأن يتهددهم لعله يخيفهم ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم فى مفاوضته : « أى محمد : أرأيت إن استأصلت أمر قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى فإنى والله لأرى وجوها ، وإنى لأرى أشوابا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك » . فلم يملك أبو بكر الصديق رضى الله عنه نفسه إذ سمع عروة يطعن فى إخلاص المؤمنين لعقيدتهم وهى أعز ما لديهم ، فانتهض يرد عليه ردا يغمز عقله ورجولته ويسخر منه ليفل من غرب غروره ، منكرا عليه أشد الإنكار زعمه أن المؤمنين يفرون عن نبيهم ؛ وقد رأى عروة بعد ذلك من تعظيم

الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم ما كان مؤيدا لرد أبي بكر عليه ، ولكن عروة لم تشأ له عنجهيته أن يترك رد أبي بكر حتى يعلم صاحبه ، فقال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر ، قال : أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها لأجبتك !

لم تجد قريش وأحابيشها من المؤمنين إلا عزما وتصميما ، فمالت الى المصالحة ، وأرسلت سهيل بن عمرو ليكتب بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينها عهد الصلح ، وأخذت قريش لنفسها ما أرادت من الشروط ، وكان من أشدها على المسلمين « ألا يأتى رجل من قريش الى المسلمين إلا ردوه اليهم وإن كان مسلما » ، فعظم الأمر على المسلمين جدا ، حتى قال بعضهم : « سبحان الله كيف يرد الى المشركين وقد جاء مسلما ! » وبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل ابن سهيل بن عمرو يرسف فى قيوده ، فقال سهيل : هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده الىّ ، فعظم الأمر على أبي جندل ، وكان قد عذب عذابا شديدا فى الله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا جندل اصبر واحتسب ، فانا لا نغدر ، وإن الله جاعل لك فرجا ومخرجا » ؛ ووثب عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع أبي جندل يمشى الى جنبه ويدنى قائم سيفه منه ويقول : اصبر ، قال عمر رضى الله عنه : رجوت أن يأخذ السيف منى فيضرب به أباه ، فضن الرجل ونفذت القضية .

هنا تتجلى مراتب الايمان ، وتظهر درجات النفوس المؤمنة ، وفقا لفيض الله تعالى عليها ، فان الأمر شديد ، والتسليم به عن طواعية ورضاء أشد ، كيف والمسلمون فى عنفوان قوتهم وقد بدأ الانحلال فى عدوهم ، وهم يرضون شروطاً يفرضها عليهم ؟ ! ولكن شأن النبوة فوق قوانين الحياة ؛ رضى النبي صلى الله عليه وسلم شروط المعاهدة لأنه يعلم ما انطوت عليه من تدبير الله تعالى ، ورضى لرضائه صديقه رضى الله عنه لأنه يعلم ما انطوى عليه رضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من حكم وآيات ، ووقف جميع الناس عند طوق البشرية تغلى مراجلهم ، فمن يتكلم لهم ؟ لو كان أبو بكر فى صفهم لكان محاميهم لأنه أقرب الناس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولكن أبا بكر غمره فيض النبوة فسما به الى ساحة الشهود ، فرضى كل الرضا بما رضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أليس فى القوم فاروق الاسلام وهو أشدهم فى دين الله ؟ قال عمر رضى الله عنه : « فأتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فقلت : ألست نبي الله حقا ؟ قال : بلى ، قلت : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذاً ؟ قال : إنى رسول الله ولست أعصيه ، وهو ناصرى ؛ قلت : أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ؟ قال : بلى ، فأخبرتك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا ، قال : فإنك آتيه ومطوّف به » . قال عمر رضى الله عنه : « فأتيت أبا بكر ، فقلت : يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً ؟ قال : بلى ، قلت : ألسنا على الحق ؟ قال بلى ، وعدونا على

الباطل ؟ قلت : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذاً ؟ قال : أيها الرجل ! إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه ، فوالله إنه على الحق ! قلت : أليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرك أنك آتيه العام ؟ قلت : لا ، قال : فانك آتيه ومطوّف به » . قال عمر رضى الله عنه فى رواية ابن اسحاق : « ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به » .

قال القسطلانى فى المواهب : « وأما جواب أبى بكر لعمر رضى الله عنهما بمثل جواب النبى صلى الله عليه وسلم فهو من الدلائل الظاهرة على عظيم فضله ، وبارع علمه ، وزيادة عرفانه ورسوخه ، وزيادته فى ذلك على غيره » . وذكر ابن القيم فى روضة المحبين أن الرواية وقعت فى بعض المغازى بعكس ما فى البخارى ، وأن مساءلة عمر لأبى بكر كانت أولا ، ومساءلة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت ثانيا . قال الامام السهيلى : « وهذا هو الأولى ، ويشبه أن يكون المحفوظ ، فانه لا يظن بعمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له قولا فلا يرضى به حتى يأتى أبا بكر رضى الله عنه بعد ذلك والشبهة عنده لم تزل فيعيدها عليه » . قال ابن القيم : « ولعمرى لقد نزع أبو القاسم (السهيلى) بذنوب صحيح ، ولكن المحفوظ هو الذى وقع فى البخارى ، وعليه عامة أهل السير والمسانيد والسنن ، وأما ما نسب اليه عمر رضى الله عنه فقد أجيب عنه بأنه كان يرجو النسخ وموافقة ربه له فى ذلك كما تقدم له أمثالها ، فانه كان يقول القول فينزل به الوحى ؛ على أن المقام كان مقام محنة وابتلاء ، عجز عنه صبر أكثر الصحابة ولم يتسع له بطانهم ، وداخلهم من الهم والقلق والتحرق على أعدائهم أمر عظيم ، وعذرهم الله سبحانه لقوة الوارد وضعفهم عن حمله ، حتى لم يحمله عمر رضى الله عنه فى قوته وشدته ، واحتمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وكان جوابهما من مشكاة واحدة » . وليس وراء ذلك درجة فى الفضل ورسوخ الإيمان ؛ وقد حقق الله تعالى لنبيه وصديقه وعدهما لجاء الفتح المبين .

روى الحاكم من حديث مجمع بن جارية قال « شهدت الحديبية فلما انصرفنا وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفا عند كراع الغميم وقد جمع الناس فقرأ عليهم « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، فقال رجل : يارسول الله أو فتح هو ؟ فقال : إى والذى نفسى بيده » ! قال الشعبى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » : الحديبية ، « وغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » وتبايعوا بيعة الرضوان ، وأطعموا نخيل خيبر ، وظهرت الروم على فارس ، وفرح المسلمون بنصر الله ؟

صادق ابراهيم عرجون

التصوف والمتصوفون

— ٦ —

القشـــــيرى

حيـاته :

ولد عبد الـكريم أبو القاسم القشيرى فى سنة ٣٧٦ هـ فى خراسان من أسرة يرجع تاريخ استقرارها فى تلك البلاد الى عهد الفتح الاسلامى . ولما شب ذهب الى نيسابور ، ليتلقى فيها العلم ، فالتقى هناك بأبى على الدقاق كبير أساتذة المتنسكين فى تلك المدينة فى ذلك العصر ، وأخذ يختلف الى دروسه ، فدفعه هذا الأستاذ فى طريق الصوفية ثم زوجه ابنته . وفى سنة ٤٣٧ هـ ألف رسالته القشيرية الشهيرة . وفى سنة ٤٤٨ هـ ارتحل الى بغداد ؛ وهناك جعل يلقى دروسا فى السنة والفقه على مذهب الامام الشافعى ، ثم عاد الى نيسابور ، وتوفى فيها فى سنة ٤٦٥ هـ .

أهم مؤلفاته :

إن أهم مؤلفات القشيرى فى التصوف كتابان ، وهما : الرسالة القشيرية ، والترتيب فى طريق الله ، لأن الأولى سجلت عن الصوفية الذين سبقوا مؤلفها أوثق المعارف ، وهى لهذا تعتبر فى مقدمة المصادر المعتمدة عن التصوف والمتصوفين . وسنرى أن الغزالى مدين لهذه الرسالة بالشىء الـكثير .

كتب القشيرى هذه الرسالة الى طوائف الصوفية فى جميع بلاد الاسلام ، فترجم فيها لاثنين وثمانين شيخا من شيوخهم بعد أن أعلن تشاؤمه بمـا آل اليه مصير هذه الطائفة فى عصره ، فقال : « اعلموا رحمـكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم ، كما قيل :

أما الخيـام فانهـا كخيامهم   وأرى نساء الحى غير نسائها

حصلت الفترة فى هذه الطريقة بل اندرست بالحقيقة » .

تنقسم هـذه الرسالة الى قسمين أساسيين : فالأول عنى بالأحـوال التنسكية التى منحها الصوفية من قبله اهتماما عظيما وحددوها تحديدا دقيقا . والقسم الثانى عنى بأخلاق المتصوفين .

ومما ذكر فى القسم الأول أحوال الاضطراب والانقباض والانبساط ، والفراق والاجتماع والذكر والسكر .

وهذه العبارات فى ذاتها ـ كما يلاحظ الأستاذ كارادى فو ـ كانت واضحة بسيطة لا تخرج عن شرحها عواطف النفس فى حالة قربها من الإله ، ولـكن المتصوفين قد عقدوها بما وضعوا لها من تعريفات متعملة .

اهتم القشيرى فى هـذه الرسالة على الأخص بالأحـوال دون المقامات ، إلا أنه رغم ذلك ذكر من هـذه الأخيرة ثلاثة : الأول مقام التوحيـد ، والثانى مقام الوجد ، والثالث مقام الوجود . وهذا الأخير هو الغاية العليا .

أما الأخلاق الصوفية فقد بدأها بمقدمة عن حياة الزهادة قال فيها : إن مبدأ هذه الحياة هو الندم ، وهو ثلاث درجات : التوبة والإنابة والأوبة . وبعد ذلك وصف سلوك المتنسكين ومشاعرهم ، فذكر الاجلال والمجاهدة ، والخلوة والعزلة والمراقبة ، والصبر والشكر ، والخوف والرجاء . وأخيرا ذكر الفضـائل الضرورية للصوفى ، وهى : الصمت والاسـتهانة بالنفس ، والخشوع والتوكل ، وما شاكل ذلك .

أما الـكتاب الثانى فهو كمنهج للمبتدئين فى التصوف . وقد كان لهذين الـكتابين أثر عظيم فى عصرهما وفى العصور التى تلته .

الجيلانى :

ولد عبد القادر الجيلانى فى جيلان فى سنة ٤٧٠ هـ من أسرة تنتسب الى على . وقد سجلت أخيلة الشعب حول طفولته وشـبابه كثيرا من الخرافات ، فنبأتنا إحـداها بأنه كان إذا حل شهر رمضان ينقطع عن الرضاع . وذكرت لنا خرافة أخرى أنه حين اتجـه الى بغداد فى الثامنة عشرة من عمره عرض له الخضر وحال بينه وبينها سبعة أعوام ، وبعد أن زال خوفه عليه من فتن تلك المدينة الزاخرة بالشكوك والريب سمح له بالدخول .

أما التاريخ الحقيقى ، فهو يحدثنا أنه حين شب توجه الى بغـداد ليدرس فيها الفقـه على مذهب الحنابلة ، وكان ذلك فى سنة ٤٨٨ هـ ثم التقى هناك ببعض الصوفية فأخذ عنهم الطريق . وفى سنة ٥٢١ هـ بدأ يلقى دروسا على الجماهير فى الوعظ والارشاد ، ثم اشتهر بالصلاح والتقوى ، وعلى أثر ذلك نسبت اليـه كرامات كثيرة وعبارات لم يقلها ، وآراء لم يعتقـدها . فمن ذلك مثلا ما حدثتنا به إحدى الخرافات من أنه كان يقول : إن الأحوال الصوفية عندى كأثواب معلقة فى حجرة ألبس منها ما أشاء . أو يقول : إذا سألتم الله شيئا فاسألوه باسمى فانى رئيس الملائـكة والأناسى والجن . أو يقول : أيها المريد سافر ألف سـنة ، لتسمع كلمة من فمى . أو يحدثنا عن نفسه فيقول : « كنت وأنا ابن عشر سنين فى بلدنا أخـرج من دارنا وأذهب الى المـكتب فأرى الملائـكة عليهم السـلام تمشى حولى ، فاذا وصلت الى المـكتب سمعت الملائـكة يقولون : افسحوا لولى الله حتى يجلس ، فمر بنـا يوما رجل ما عرفته يومئذ ، فسمع الملائـكة يقولون ذلك ، فقال لأحدهم : ما هذا الصبى ؟ فقال له أحدهم : هذا من بيت الأشراف ، قال : سيكون لهذا شأن عظيم ؛ هذا يعطى فلا يمنع ، ويمكن فلا يحجب ، ويقربُ فلا يمكر به .

ثم عرفت ذلك الرجل بعد أربعين سنة فإذا هو من الأبدال فى ذلك الوقت (١) » .
أو كقوله : « كنت صغيرا فى بلدنا فخرجت الى السواد فى يوم عرفة وتبعت بقرة حراثة ، فالتفتت إلىّ بقرة وقالت : يا عبد القادر ما لهذا خلقت ، فرجعت فزعا الى دارنا وصعدت الى سطح الدار ، فرأيت الناس واقفين بعرفات ، فجئت الى أمى وقلت لها : هبينى لله عز وجل وأذنى لى فى المسير الى بغداد أشتغل بالعلم وأزور الصالحين ، فسألتنى عن سبب ذلك ، فأخبرتها خبرى (٢) » .

هذا هو نموذج مما نسب زيفا الى الجيلانى وأثبت فى بعض الكتب المنتحلة ككتاب « قلائد الجواهر فى مناقب الشيخ عبد القادر » ، وهو كتاب ألفه محمد بن يحيى التادفى الحنبلى ، وليس فيه ما يعتمد عليه ، ولكن بهامشه رسالة حقيقية كتبها الجيلانى ، وعنوانها : « فتوح الغيب » ، وبمطالعتها يرى الباحث التناقض المدهش الموجود بين العبارات المفعمة بالكبرياء والغرور المثبتة فى الكتاب المزيف ، والعبارات المتواضعة المفعمة بالتقوى المثبتة فى هذه الرسالة ، كقوله مثلا :

« اتبعوا ولا تبتدعوا ، وأطيعوا ولا تمرقوا ، ووحدوا ولا تشركوا ، ونزهوا الحق ولا تتهموا ، وصدقوا ولا تشكوا ، واصبروا ولا تجزعوا ، واثبتوا ولا تنفروا ، واسألوا ولا تسأموا ، وانتظروا وترقبوا ولا تيأسوا ، وتآخوا ولا تتعادوا ، واجتمعوا على الطاعة ولا تتفرقوا ، وتحابوا ولا تباغضوا ، وتتطهروا عن الذنوب ، وبها لا تتدنسوا ولا تتلطخوا ، وبطاعة ربكم فتزينوا ، وعن باب مولاكم فلا تبرحوا ، وعن الإقبال عليه فلا تتولوا ، وبالتوبة فلا تسرفوا ، وعن الاعتذار الى خالقكم فى آناء الليل وأطراف النهار ، فلا تملوا ، فلعلكم ترحموا وتسعدوا ، وعن النار تبتعدوا ، وفى الجنة تحبروا ، وإلى الله توصلوا » (٣) أو قوله :

« ... مع حفظ لحدود الأوامر والنواهى ، فان انخرم فيك شىء من الحدود فاعلم أنك مفتون متلاعبة بك الشياطين ، وارجع الى حكم الشرع ودع عنك رأى الهوى لأن كل حقيقة لم تشهد لها الشريعة فهى زندقة » (٤) .

وأخيرا توفى فى سنة ٥٦١ هـ — سنة ١١٦٥ م .

أما مؤلفاته فكثيرة ، منها : « فتوح الغيب » و « الفتح الربانى » و « الغنية لطالبى طريق الحق » و « جلاء الخاطر » وغيرها .

---

(١) انظر صفحة ١١ من كتاب « قلائد الجواهر فى مناقب الشيخ عبد القادر تأليف الشيخ محمد بن يحيى التادفى . (٢) انظر صفحة ١٠ من الكتاب المذكور . (٣) انظر صفحتى ٦ و ٧ من رسالة فتوح الغيب للشيخ محيى الدين عبد القادر الجيلانى . (٤) انظر صفحتى ٩٨ و ٩٩ من الرسالة المذكورة .

أبو نجيب السهروردى .

ولد أبو نجيب السهروردى فى مدينة سهرورد حوالى سنة ٤٩١ هـ من أسرة تنتمى الى أبى بكر الصديق . ومنذ طليعة شبابه ارتحل الى بغداد وتخصص فى دراسة الفقه ، وبعد أن أتم دراسته ارتحل الى « إصبهان » وكان قد بدأ يتصوف ، فاحترف السقاية ليعيش من عرق جبينه ، وفى هذه الآونة اشتهر بالتقوى ، ووقف كل أوقات فراغه على الذكر وإرشاد المريدين ، فنال احترام الجماهير ، وبنى أهل المدينة له ولمريديه عدة ملاجئ . وبعد ذلك عاد الى بغداد واشتغل فيها بتدريس السنة لعدد كبير من التلاميذ .

وفى سنة ٥٥٨ هـ ارتحل الى دمشق ، فخلع عليه نور الدين زنجى خلعا فاخرة . وأخيرا عاد الى بغداد فاستقر فيها حتى توفى بها فى سنة ٥٦٤ هـ .

أما مؤلفاته فلم يأتنا من أنبائها إلا نبأ كتابيه : « آداب المريدين » و « شرح أسماء الله الحسنى » ولم يرد فيهما من الآراء ما يؤخذ على مؤلفهما . وبهذا يتضح أنه كان من المتصوفين العمليين ، أو من قسم السنيين الذين لم يتأثروا بالفلسفة فى نظرياتهم التنسكية ؟

« يتبع » الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

بم ينال السودد

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من أسرع به عمله ، لم يبطىء به حسبه ، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

هذا كلام من لباب الحكمة ، وهو من صميم الديمقراطية الإسلامية . ومعناه أن من حسن عمله لم يبطىء به شىء عن نيل السؤدد ، ومن ساء عمله لم ينفعه نسبه ، ولو اعتزى الى أعظم عظيم فى الأرض .

وقال قس بن ساعدة الإيادى ، وكان من حكماء العرب : من فاته حسب نفسه ، لم ينفعه حسب أبيه .

والحسب ما يكسبه المرء بنفسه من المحامد .

ولما انفرد سفيان بن عيينة برياسة العلم ومات نظراؤه من العلماء ، أنشد :

خلت الديار فسدت غير مسوَّد ومن الشقاء تفردى بالسودد

باب الأسئلة والفتاوى

ادارة أموال القصر

ورد الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر من حضرة عبد المطلب افندى الحسينى الاستفتاء الآتى ملخصه :

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل وكيل الجامع الأزهر ورئيس لجنة الفتوى .

ألّف المرحوم الحاج محمد حسن نمر شركة بينه وبين أولاده وزوجته على نظام مدوّن فى العقد ومذكرة التأسيس المرفوعين مع هذا الاستفتاء .

ثم أقام أولاده الثلاثة : راضى افندى ، وحسن افندى ، وابراهيم افندى ، أوصياء على أولاده القصر : هاشم ، ونجاة ، وعمر ؛ وقد صدر بتلك الوصاية قرار من محكمة نابلس الشرعية مرفوع أيضا مع بقية المستندات الى فضيلتكم ، وقد اختلف الأوصياء فى أمر يتعلق بأموال الشركة التى للقصر فيها سهام .

والمرجو التفضل باصدار فتوى تبين ما الذى ينبغى الأخذ به فى إدارة تلك الأموال من الآراء عند الاختلاف فى الآراء فى الاجتماعات العامة . ولفضيلتكم الشكر والثواب .

الجواب :

اطلعت اللجنة على الاستفتاء المقدم من عبد المطلب افندى الحسينى ، وعلى الأوراق المقدمة معه ، وهى :

(١) صورة من قرار الوصاية الصادر من قاضى نابلس الشرعى فى ٣٠ ربيع الآخرة سنة ١٣٥٩ (٧ مارس سنة ١٩٤٠) .

(٢) صورة من مذكرة تأسيس شركة باسم الحاج محمد حسن نمر وأولاده لمتد ، (محدودة الضمان) .

(٣) صورة من قانون الشركة .

(٤) إيضاح من المستفتى يبين عدد المساهمين الآن فى شركة الحاج محمد حسن نمر ، وعدد

الذين لهم حق حضور الاجتماعات العامة فى هذه الشركة والذين لا يحضرون الاجتماعات لمانع أو للتنازل ، وعدد أعضاء مجلس إدارة الشركة وأشخاصهم .

وتبين للجنة بعد الاطلاع على هذه الأوراق وبحثها ما يأتى :

(١) أن الحاج محمد حسن نمر ألف شركة منه ومن أولاده وزوجته المبينين فى العقد ، ومنهم راضى افندى نمر ، وحسن افندى نمر ، وابراهيم افندى نمر .

(٢) أنه نص فى العقد على أن مجلس إدارة هذه الشركة يتألف من ثلاثة من المساهمين ، وأنهم لا يزيدون عن ثلاثة ، وأن مجلس الادارة يتولى شئون الشركة فيما عدا الأمور التى نص على أنها من اختصاص الاجتماعات العامة .

ونص فى القانون أيضا على أن القرارات التى تطرح للتصويت فى الاجتماعات العامة تتخذ بأكثرية أصوات حاملى الأسهم الحاضرين شخصيا أو بالوكالة ، وإذا تساوت الأصوات يكون للرئيس صوت مرجح .

(٣) أن الموصى هو الحاج محمد حسن نمر مؤلف الشركة ، وأن الأوصياء الذين فى قرار الوصاية هم راضى افندى وحسن افندى وابراهيم افندى أولاده ومؤلفو الشركة معه أيضا .

(٤) أن القصر هم هاشم وعمر ونجاة .

(٥) أن القصر المذكورين مساهمون فى الشركة .

(٦) أن هاشما وعمر يملكان النصاب الذى يخولهما حق حضور الاجتماع العام بمقتضى قانون الشركة ، ولكنهما قاصران فلا يجوز حضورهما بل يحضر عنهما الأوصياء عليهما .

(٧) أن نجاة قاصرة ولا تملك النصاب الذى يخولها حق حضور الاجتماعات العامة .

(٨) أن السيدة صباح والدتهم تملك النصاب الذى يخولها حق حضور الاجتماع العام ولكنها متنازلة عنه وتاركة إياه لأولادها راضى وحسن وإبراهيم .

ومن ذلك كله يتبين أن من له حق حضور المجلس العام لاتخاذ القرارات العامة ينحصر فى أعضاء مجلس الادارة الذين هم أنفسهم الأوصياء الثلاثة .

ويتبين كذلك أن راضى افندى وحسن افندى وإبراهيم افندى يحضرون الاجتماعات العامة بصفتهم شركاء مساهمين فى الشركة لهم حق حضور تلك الاجتماعات ، وبصفتهم أوصياء على القصر المساهمين فيها أيضا ، فيكونون خاضعين لقانون الشركة الذى يقرر أن اتخاذ القرارات العامة يكون بأغلبية الآراء كما هو منصوص فى المادتين الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين من قانون الشركة .

وبناء على ما تقدم : ترى اللجنة أنه إذا اختلف هؤلاء الشركاء الأوصياء فى أمر يتعلق بالشركة أو بحقوق القصر فيها فإن الرأى يكون للأغلبية ، بشرط أن لا تخرج هذه الأغلبية عن مرامى الشرع الشريف من توخى المصلحة العامة ، والابتعاد بأموال الشركة عن المعاملات غير المشروعة فى الدين الحنيف ، كما ينص على ذلك البند السادس عشر من مذكرة التأسيس . والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

تعلم السحر وحكمه

جاءنا من أحد طلبة المعهد الأحمدى هذا السؤال :

هل تعلم السحر جائز أم حرام (١) لأن عندنا بعض المنتسبين الى العلم يفتى بجوازه ، بحجة أنه يخلص الناس مما يقعون فيه من الأضرار ولا يضر أحداً . وحجته القوية فيما يزعم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تعلموا السحر ولا تعملوا به » ، الى أن قال : وأخيرا أجمعنا على استفتاء فضيلتكم فى هذا المبحث الخطير ونشره بمجلة الأزهر التى هى مجلتنا الزهراء فى أقرب عدد ممكن . لا زلتم محفوفين بعناية الله ورعايته ، والسلام ؟ ابرهيم محمد حسين

بمعهد طنطا الأحمدى

الجواب :

الفاصل فى ذلك كله هو الحديث الشريف الذى هو القاعدة العظمى فى كل شىء ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » . وأما قوله « تعلم السحر ولا تعمل به » فليس بحديث ألبتة . وكثير من العلماء يمنع تعلم السحر مطلقا ويرى قتل الساحر ، وإن لم يقتل أحداً بسحره ، ولكن الصحيح الذى يوجبه البرهان ويطمئن له الوجدان وتشهد له أصول الشريعة ، أن الأمور بمقاصدها والأعمال بآثارها ، وإن كان اللازم أن يحتاط الانسان لنفسه ولا يأمنها ، وأن يراقب هواها فى الدقيق والجليل « وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء » ، « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » ، « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » .

(١) هذه عبارته ، وإن كانت (هل) لا يؤتى لها بمعادل إلا على رأى ضعيف لأنها لطلب التصديق لا التصور كما هو مقرر فى محله .

ولنتل عليك ما قاله العلماء فى ذلك الموضوع ، وما وقع بينهم من الخلاف فى ذلك فنقول :

اختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله ، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد : يكفر بذلك . ومن أصحاب أبى حنيفة من قال : إنْ تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه ، فلا يكفر ، ومن تعلمه معتقدا جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا إن اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر . وقال الشافعى رحمه الله : إذا تعلم السحر قلنا له : صف لنا سحرك ، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب الى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر ، وإن كان لا يوجب الكفر فان اعتقد إباحته فهو كافر . قال ابن هبيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد : نعم . وقال الشافعى وأبو حنيفة : لا . فأما إن قتل بسحره إنسانا فانه يقتل عند مالك الشافعى وأحمد ، وقال أبو حنيفة : لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك أو يقر بذلك فى حق شخص معين . وإذا قتل فانه يقتل حداً عندهم ، إلاعند الشافعى فانه قال : يقتل والحالة هذه قصاصاً . قال : وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد فى المشهور عنهم : لا تقبل ، وقال الشافعى وأحمد فى الرواية الأخرى : تقبل . ولنكتف بهذا القدر سائلين الله التوفيق والتسديد ، والسلام ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

ذم التظاهر بالورع

روى أبو الحسن المداينى قال : دخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم والى خراسان ، وهو من أهل القرن الأول ، فى مدرعة صوف .

فقال له الأمير : ما يدعوك الى لباس هذه ؟

فسكت محمد بن واسع .

فقال له قتيبة : أكلمك لا تجيبنى ؟

قال محمد بن واسع : أكره أن أقول : زهدا فأزكى نفسى ، أو أقول : فقرا فأشكو ربى ، فما جوابك إلا السكوت . وكان محمد صادق الورع ، ولذلك وجد الجواب المسكت .

فالذين يتظاهرون بالورع إنما يقصدون به تصيد المغانم .

قال أبو العلاء فى أهل الرياء :

إذا رام كيدا بالصلاة مقيمها   فتاركها عمدا الى الله أقرب

مقارنة ومفاضلة

بين الشريعة الاسلامية والشرائع الأخرى

— ٣ —

تـكلمت فى المقال السابق من العدد الفائت من هذه المجلة المباركة عن الشريعة الاسلامية وكيف بدأت والى أى مدى وصلت ، وألممت إلماماً خفيفاً عما كانت عليه شريعة الرومان التى طالما تغنى بها الغربيون واعتبروها الطابع المميز لحضارة الرومان ورقيهم الفكرى وثقافتهم القانونية ، ووقفت عند ذكر بعض الأمثلة لبيان الفروق بينها وبين الشريعة الاسلامية ، وأرى للعدالة فى المقارنة أن أتكلم عن شريعة الرومان وكيف نشأت وكيف تطورت وكيف انتهت ، مع الإيجاز التام ، والاختصار الغير المضيع للفائدة .

أنشئت روما فى القرن الثامن قبل ميـلاد المسيح ، فـكانت عبارة عن جماعة صغيرة من الزراع والرعاة ، مكونة من ثلاث قبائل على مقربة من نهر التيبر . وكانت حياتهم الاقتصادية عبارة عن زراعة الأرض وتربية الدواب ، وكانوا يعيشون فى نظام الأبوة على رأس كل أسرة ربهـا الذى له مطلق السلطان والسيطرة عليها . فيخضع له كل ما بالمنزل من أشياء بما فيهم الزوجة والولد والرقيق ومن لجأ اليه . وهو الذى يفصل فى المنازعات بين أفراد أسرته ، وله أن يوقع من العقوبات ما شاء من حبس ونفى وتعـذيب وموت دون أن يتقيد برأى لغيره .

أما نظامهم السياسى فقد كان يتناسب مع النظام العائلى ، وينحصر فى ثلاثة عناصر :

(١) الملك ، وهو الذى ينتخبه مجلس الشعب للحكم مدى حياته ، فيكون رئيسا للديانات ، ويدير أعمال المدينة كما يدير رب الأسرة أعمال منزله ، ويقود الحروب ، ويحكم بين العائلات .

(٢) مجلس الشيوخ ، وهو مكون من رؤساء العشائر ، وعمله أنه محل استشارة الملك فى الأمور الخطيرة ، وإن كان الملك قـد لا يتقيد برأيه أحيانا ، وينظر كذلك فى قرارات مجلس الشعب .

(٣) مجلس الشعب ، وهـو مكون من مجموعة من رجال الرومان الأحرار لا فرق بين الوالد والولد ، كل يجتمع للجهاد .

أما نظامهم القانونى فقد كان مصدره التقاليـد المبنية على المعتقدات الدينيـة التى كانت أساساً لنظام الملك ونظام الأسرة . وكانت الجزاءات دينية ينطق بهـا الملك أو رب الأسرة ، فكل خروج على سلطته وكل إنكار لحقوقه يعتبر خطيئة تستوجب سخط الآلهة والاقتصاص

ممن ارتكبها . وكان زواجهم وطلاقهم وتقاضيهم والعتق والتبنى أنظمة مصبوغة بصبغات دينية ، وكان الملك باعتباره رئيس الديانات يقرر القواعد الدينية تبعاً لما يراه متفقا وإرادة الآلهة .

وكانت هناك جماعة ليست من أهل روما الأصلاء ، فمنهم من كان نزيلا ، ومنهم من كان مهاجرا أو لاجئا لم يخضع لحالة الرق ، ولم يلجأ لحماية أسرة ، بل استمر تحت حماية الملك ، فنمت تلك الجماعة حتى صارت أغلبية فى المدينة أطلق عليها اسم العامة أو الرعاع ، وكان هؤلاء العامة أو الرعاع محرومين من النظم القانونية ومن الحقوق العامة ، وكانت العائلات الرومانية الأصيلة هى الآرستوقراطية التى تتمتع وحدها بالحكم وبكل الحقوق ، واستمر ذلك الى عهد الملك السادس (سرفيوس تاليوس) السابق للملك الأخير ، ثم تذمر الأشراف من تحملهم وحدهم أعباء الضرائب والجهاد ، كما تذمر العامة من حرمانهم من الحقوق المدنية والسياسية ، مما جعل الملك يحدث تغييرا فى النظام بأن كفل للعامة حق الاقتراع ، وفرض عليهم الضريبة والخدمة العسكرية بأن قسم جميع الأحرار من سكان روما الى خمسة أقسام انتخابية وحربية ، لا بحسب الأسر وإنما بحسب الثروة ، وكل قسم يشمل العامة والأشراف ، وترتب على هذا قيد أسماء الأهالى والملاك فى سجلات المدينة ، ويتغير هذا القيد بتغير التصرفات فى الأملاك ، وللتثبت من هذا التغير نشأ نظام الإشهاد الذى هو عقد يتم إجراؤه بصفة علنية رسمية بحضور خمسة من الرومان كشهود ، وحامل الميزان الذى يزن مقدار الثمن ، وهنا بدأ تطور جديد ، وتغير النظام القانونى ، فأنشىء نظام خاص بالمعاملات المدنية المحضة بين الأهالى ، كما أنشىء نظام خاص بالروابط العائلية والتوريث بالوصية والعقود .

وإنه وإن كان هذا الإصلاح الذى قام به الملك جعل العامة تنتظم فى عشائر عائلية كالأشراف ، إلا أنهم ما زالوا محرومين من الاشتراك فى مناصب الحكم ، ومن العضوية فى مجلس الشيوخ ومن التزوج بالأشراف ، فخلقت هذه الحالة نزاعا بين العامة والأشراف جعلت العامة يهجرون المدينة بقصد الانفصال عن الأشراف ، فراع ذلك الأشراف واشتد جزعهم ، فأعادوهم وسمحوا لهم بنظام خاص يماثل نظام الأشراف ، فشكلت لجنة الحكام العشرة من العامة والأشراف ووضعوا قانونا صادق عليه مجلس الشعب ، ونقشت نصوصه فى اثنى عشر لوحا من الخشب ، وقيل من البرنز ، ونصبت تلك الألواح فى روما ، وكان ذلك قبل ميلاد المسيح بنحو ٤٥٠ سنة ، وسمى هذا القانون بقانون الألواح الاثنى عشر ، وهو البناء الأساسى للشريعة اللاتينية ، كما أنه هو فاتحة التطورات فى العصور التالية ، أما هذا القانون فقد صيغت عباراته فى أسلوب شعرى موجز ، وأحكامه خاصة بالنظم المدنية مستقلة عن الدين ، فلم تشتمل لا على كفارات ولا على عقوبات دينية ، وكانت بعض قواعده مستعارة على الاخص من القوانين اليونانية ، وبعضها تسجيلا للتقاليد التى كانت متبعة فى روما قبل وضعه ، ومع ذلك فقد

كان تشريعا ضيقا فى إجراءاته ، قاسيا فى أحكامه فطريا فى مبادئه ، يضيع الحق بهفوة شكلية ، ويقتل المدين إن لم يسدد ما عليه لدائنه من الدين ، ويقتص المجنى عليه بيده من خصمه ، وكان نظام الوصاية والقوامة مقررا على القصر والنساء والمجانين والسفهاء لمراعاة صالح الوصى أو الأسرة أكثر منه لصالح المشمول بالوصاية أوالقوامة ، وكانت العقود كلها شكلية ، ونظام الدعاوى فيه بقية من العهد الفطرى الذى يخول للشخص أن يأخذ حقه بيده دون الالتجاء للسلطة العامة ، وكانت الدعاوى أربعة : الأولى وتسمى أخذ رهينة ، وهى أن يستولى الدائن على بعض أموال مدينه حتى يسدد . والثانية ، وتسمى إلقاءاليد ، وهى أن يضع الدائن يده على المدين الذى تعهد بالدين فى عقد الاستدانة وذلك بغير حكم من القاضى ، وكذلك يأخذ المدين الذى حكم عليه فى دعوى القسم سجينا حتى يدفع الدين وإلا قتله أو باعه ، ويتم القبض على المدين أمام القاضى ، فإن اعترض شخص آخر على هذا القبض برئ المدين نهائيا ونشأت دعوى جديدة بين الدائن والمعترض ، فإذا اتضح أنه تدخل بغير حق حكم عليه مضاعفا جزاء له . والثالثة ، وتسمى دعوى القسم ، وهى التى يدعى رافعها بحق على آخر ، فإن أقر الخصم أو سكت نفذ عليه الحكم فى الدعوى الثانية ، وإن نازع يقسم كل منهما على صحة دعواه ثم تحال على حكم للتحقيق ، فإن تبين أن المدعى حلف صادقا نفذ على خصمه كما فى الدعوى الثانية . والرابعة ، وتسمى طلب الحكم وهى خاصة بطلب التعويض عن الضرر وقسمة المشاع وفصل الحدود .

هذا هو مجمل ما كان سائدا من القواعد فى عهد الألواح الاثنى عشر ، وهى التى كانت تسمى بقانون الرومان . وقد بدأ عهد الجمهورية التالى للألواح سنة ٨٩ ق . م فتطور القانون فى خلال القرون الباقية من الجمهورية حتى خرج من قواعد الشكليات الضيقة بأن أضيف إليه نظم ومبادئ جديدة دعت إليها العدالة وضرورة المعاملة ، كما بدأ تطور بالتسوية التامة بين طبقتى العامة والأشراف فأصبح الزواج مباحا بينهما ، كما أصبح مجلس الشيوخ ومناصب الحكم والوظائف الجديدة مثل وظيفة (البريتور) . Censeur Préteur أو الحاكم القضائى ووظيفة المكلف بالتعداد والإدارة المالية من حق العامة الاشتراك فيها ، وكانت وظيفة (البريتور) التى أنشئت سنة ٣٦٧ ق . م هى سماع عبارات الطرفين فى الدعوى ، فإن كانت متفقة مع نصوص الألواح مطابقة للاجراءات أحالها على حكم للفصل فيها وإلا رفضها وصرف الخصمين ولو كان الظلم ظاهراً ، غير أن (البريتور) رأى فى ذلك النظام العتيق ضياعا للحقوق ، فلا محل للصيغ الرسمية ولا للاجراءات الشكلية ، فغيره بنظام جديد بحيث يشرح كل خصم دعواه على الصورة التى يراها ، وقد صدر قانون تشريعى سمى بقانون « إيبوتيا » Loi Aebutia ق . م بنحو ٢٠٠ سنة يؤيد هذا النظام .

وبذلك اتسع التشريع كما اتسع نطاق الدولة الرومانية فى عهد الجمهورية الأخير من سنة

٨٩ ق . م فكثرت الفتوحات وتغيرت الحياة الاجتماعية وضعف الإيمان بالأديان وضاع احترام التقاليد، وانتقل كثير من الرومان الى مستعمرات أخرى، وأخذت الأفكار القانونية فى التهذيب والإصلاح ، وكان الفضل فى هذه الحركة العلمية راجعا الى الفقهاء والشراح حتى اعتبر هذا العهد فاتحة للعصر العلمى ، وكان من الفقهاء المشهود لهم بالبلاغة والقوة فى الكتابة « شيشيرون » ذلك الذى اعتنق فلسفة الزهد اليونانية وتناول نظرية القانون الطبيعى بالتهذيب واعتبره مصدرا لقانون الشعوب ، وكان لعمله هذا أثر خطير فى تطور القانون الرومانى فى العصر الامبراطورى الأخير، وكان يعتبر حسن النية ميزانا للتعامل بين الناس ، وقد بلغ القانون الرومانى مرحلته الأخيرة فنسق وقسم وصيغ فى نصوص محدودة ومجموعات رسمية وغير رسمية ، الى أن بدأ انتشار الديانة المسيحية فى أوائل القرن الرابع بعد الميلاد ، فتغلبت الروح الدينية على نفوس القياصرة ، فأنشأوا نظما وقواعد تتمشى مع هذه الديانة المسيحية ، وألغوا نظما وقواعد ومبادئ كانت مخالفة لها ، كتحريم الزواج بين المسيحيين واليهود وغير ذلك ، الى أن جاء جستنيان سنة ٥٢٧ م ورأى كثرة التنوع فى مصادر التشريع وكثرة المبادئ القانونية ، فبذل الجهود لجمع القوانين حتى صدرت فى قالب موجز ذى صبغة رسمية للعمل بها فى المحاكم ، وأخيرا وفى سنة ٥٣٣ م وضعت مجموعة علمية أطلق عليها اسم « النظم القانونية » وهى موجز لآراء الفقهاء فى أربعة كتب ، وكذلك فى عهده جمعت قوانين وقرارات الامبراطورية وأطلق عليها اسم القوانين الجديدة ، كما جمعت كل المدونات القانونية وسميت باسم « مجمع القانون المدنى » وهى آخر مرحلة وصل اليها التطور القانونى الرومانى الذى يعد عملا مجيدا وفخرا خالدا لجستنيان ، والذى اعتبر ميراثا من بعده للعالم الأوروبى . وأهم ما أحدثه جستنيان من الاصلاحات هو هدم السلطة الأبوية وإلغاء حق الوالد فى قتل ولده أو بيعه أو تسليمه وضياع آثار السيادة الزوجية وغير ذلك ، الى أن انتهى عهده سنة ٥٦٥ م .

فالشريعة اللاتينية إذاً بدأت بعهد الألواح الاثنى عشر ، وانتهت بوضع مجاميع جستنيان فى القرن السادس بعد الميلاد .

الى هنا يجب أن نقف ، ومن هنا يجب أن نبدأ بالمقارنة والمفاضلة بين الشريعتين الاسلامية والرومانية ، وموعدنا بذلك العدد الآتى إن شاء الله . وفقنا الله للصواب وسدد خطانا؟

مصطفى عبد الحميد أبو زيد
المندوب القضائى بالأوقاف الملكية سابقا

تعقيب على السيرة

قرأت مقالكم فى مجلة الأزهر عدد رجب سنة ١٣٦٠ تحت عنوان «الرسالة المحمدية للبشر كافة».

وقد أعجبنى الموضوع جدا ، لكن بالرغم من ذلك وجدت به بعض عبارات جامحة ، وبعض جمل لا يصح إغماض الطرف عنها ، لأنها تمس صحيحى البخارى ومسلم ، وربما كانت تمس غيرهما من كتب الصحيح ، ولم أصدق بادئ ذى بدء أنها للأستاذ الكبير صاحب المقالات الممتعة والأبحاث الشيقة ، وقلت لعلها لأحد « أولئك الذين يريدون أن يظهروا » ولو من باب (خالف تعرف) ، ولذلك أعدت قراءتها ، ثم قلت لنفسى : قد يكبو الجواد وهو كريم ، وينبو السيف وهو صميم ، ويهفو الشيخ وهو عليم . ولاعتقادى حسن نيتكم فيما تكتبون ، وأنكم إنما تكتبون خدمة للحق ، وروم الوصول الى الحقيقة ، كتبت إليكم هذا .

ذكرتم حضرتكم ما رواه علماء الحديث من كتب النبى صلى الله عليه وسلم الى ملوك زمنه وما كان لها من أثر لديهم ، وأن منهم من مزق الكتاب ككسرى ، ومنهم من أسلم بالفعل كالنجاشى ، ومنهم من قارب كهرقل ، ومنهم من جامل ورد ردا جميلا كالمقوقس . ثم كررتم على ما حكى عن هرقل والنجاشى والمقوقس بالنقد ، بل جعلتموه من غير المعقول ، وماذاك إلا لشبهتين: الأولى : أن المسيحيين كانوا متمسكين بدينهم أشد تمسك ، ومن غير المعقول أن يتحول أحد منهم عن دينه ويتقبل دينا آخر بهذه السرعة وبهذه السهولة . الثانية : أن النصارى كانوا يعتبرون أن دينهم قدتم بتجسد الابن وصلبه وافتدائه البشر ، ومن غير المعقول أن المقوقس كان ينتظر نبيا آخر ، وأن يقول : قد علمت أن نبيا قد بقى . ويمكن أن يقال بالقياس على هذا إن من غير المعقول أن يقول هرقل كما فى صحيح البخارى : « قد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم » .

وبقيت شبهة ثالثة لا تستحق الإبطال لأنها واهية من أساسها ، وهى أن هرقل لم يكن من سرعة التصديق بحيث يعتمد فى إيمانه على رواية رجال لا يعرف مبلغ صدقهم فيما يقولون ولم يسألهم عما يجب أن يسأل عنه .

فإن المطلع على صحيح البخارى يرى أنه سأل عما يجب أن يسأل عنه ، أسئلة فى منتهى الدقة تدل على عقل ناضج وعلم واسع ، حتى أعجب به رواة الحديث ، وقد علم أن أبا سفيان ومن معه أعداء للنبى صلى الله عليه وسلم ، فكلامهم الذى يشهد للنبى صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن يكون موضع شك وريبة لأنه شهادة من عدو .

إذا فأساس البحث فى هذا الموضوع هو : هل كان النصارى يعتبرون أن ديانتهم قد تمت ولا نبى بعد عيسى عليه السلام ، وأنهم كانوا من التمسك بدينهم بحيث يستحيل أن أحدا منهم يسلم بسهولة وسرعة ، أو أن الأمر بالعكس ، أى كانوا يترقبون نبيا آخر ، وأن منهم من هو سريع الانقياد الى الحق متى ظهر ؟

يروق لى أن أسوق اليكم نصا من القرآن الكريم يقلب هاتين الشبهتين رأسا على عقب ، ثم أعقب ببيان السر فى ذلك : قال الله تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ؛ وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » الآيات .

فهذا هو القرآن يقرر لنا جملة حقائق عن النصارى : (١) أنهم أقرب الناس مودة للمؤمنين، وهذا يستلزم أنهم أقرب الناس لهذا الدين ، لأن تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بعلّية مبدأ الاشتقاق ، فهم ما قربت مودتهم من المؤمنين إلا لأنهم مؤمنون . (٢) أن شيمتهم التواضع وعدم الاستكبار والاستنكاف عن قبول الحق . (٣) أن منهم من إذا سمع القرآن فاضت أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق وبادروا بالإيمان .

فما هو رأى سيدى الأستاذ الجليل ، وكيف جاز لطائفة من النصارى أن تبكى بمجرد سماع القرآن ، وكيف لم يمنعها من الإيمان السريع تمسكها بدينها واعتقادها تمامه بتجسد الابن ؟ ولم لا يجوز أن يكون هرقل أو النجاشى أو المقوقس أو أى نصرانى آخر مثل هذه الطائفة ، فى رقة العاطفة ولطف الشمائل وعدم التعصب والانقياد الى الحق ؟ اللهم إن هذا لا مانع منه لاسيما إذا علمنا أن الملوك فى العادة أعلى كعبا فى العلوم والمعارف ، وأرق طباعا وألطف شمائل . وإذ قد ثبت هذا ، ولا شك فيه ، فلننتقل الى بيان السر فى ذلك ، وبه تعلم السر فى أنه لما افترق الحال بين رد كسرى المجوسى وبين ردود ملوك المسيحية أهل الكتاب ، بل تدرك به السر فى سرعة انقياد كثير من المسيحيين للاسلام الى يومنا هذا متى فهموه على وجهه الصحيح ؟

من المعلوم أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم كان مبشرا به فى الكتب السماوية السابقة ؛ يعلم هذا من نصوص القرآن نفسه ، ومن الرجوع الى تلك الكتب نفسها ، والقرآن قد ذكر ذلك فى مواضع كثيرة فى مواجهة اليهود والنصارى ، ولم يجرؤ واحد منهم على تكذيبه ، ولو لم يكن له حقيقة لقامت قيامة اليهود والنصارى وملأوا الدنيا تكذيبا وتشنيعا على صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم .

ولنسق لك بعض الآيات القرآنية فى ذلك الصدد : قال الله تعالى : « ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل » الآية .

وقال الله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » . وقال الله تعالى : « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » . بل قال عبد الله بن سلام : إن معرفتى بمحمد عليه السلام أشد من معرفتى بابنى . فقيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : أنا لا أرتاب فى أمر محمد بحال ، وأما ابنى فلا علم لى بما يفعل النساء . فقام عمر فقبل رأسه . فقال الله تعالى « وكانوا من قبل يستفتحون

على الذين كفروا » أى كان اليهود إذا غلبهم مشركو المدينة قالوا لهم : قد آن أوان نبى يبعث نقتلكم معه قتل عاد وثمود « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين » والمجال فى هذا فسيح والقول فيه يطول ، فلنقتصر على هذا القدر .

أما الكتب السماوية السابقة ، فالمجال فيها أوسع ، ولننقل منها ما فيه الكفاية .

ففى التوراة : جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعيد وتلألأ من جبل فاران . إصحاح ٣٣ تكوين . وفاران جبل من جبال مكة ، بدليل ما ورد فى التوراة نفسها فى حكاية قصة سيدنا اسماعيل والسيدة هاجر عليهما السلام : وكان الله مع الغلام ، فكبر وسكن فى البرية ، وكان ينمو رامى قوس ، وسكن فى برية فاران . إصحاح ٢٨ تكوين .

وفى التوراة أيضا : قال لى الرب : قد أحسنوا فيما تكلموا ، أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى فأنا أطالبه . إصحاح ١٦ تثنية . وإخوة بنى اسرائيل هم أولاد اسماعيل بلا شك .

وفى إنجيل يوحنا إصحاح ١٦: لكنى أقول لكم الحق : إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى، ولكن إن ذهبت أرسله اليكم. وفيه أيضا إصحاح ١٦: إن لى أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ، ذاك يمجدنى . وهكذا يجد المتتبع لكتب العهدين القديم والحديث بشائر كثيرة لا تدع أدنى فى ريبة شأن محمد عليه الصلاة والسلام .

هذا هو السبب فيما كان من النصارى إجابة على كتب النبى عليه الصلاة والسلام ، بخلاف كسرى الذى لم يكن عنده علم من الكتاب ، ولم يكن منه إلا تمزيق كتاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فدعا عليه بأن يمزق الله ملكه ، وقد كان . وهذا هو السبب فى كون كثير من النصارى الى يومنا هذا يدخلون فى دين الله عن طيب نفس وانشراح صدر حتى القسيسين .

وبعد : فليعلم سيدى الأستاذ أن قصة هرقل مع أبى سفيان وصحبه قد رواها البخارى فى صحيحه ، وربما يكون قد رواها غيره من أصحاب الصحاح .

وقصة إسلام النجاشى وصلاة النبى صلى الله عليه وسلم عليه لما مات رواها البخارى ومسلم. فهل يسوغ عقلا أن نكذب هذه الأسانيد الصحيحة بهذه السرعة وبهذه السهولة بمجرد شبهة أظن أنه قد ثبت لك أنها لم تقم على أساس صحيح ؟ والله أسأل لى ولكم السداد فى القول والعمل؟

محمد عبد الله الجهنى

ملاحظاتنا على هذا التعقيب

فيما يتعلق بدعوة هرقل لقومه الى الاسلام وجواب النجاشي

نحن بكتابتنا فى السيرة المحمدية نرمى الى غرضين : (أولهما) أن نشرح حوادثها على ضوء ما اهتدت اليه العلوم النفسية والاجتماعية من المكتشفات التى تجليها فى مظهر يؤثر على العقلية العصرية أعظم تأثير ، فنجعل الأدلة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فى مستوى البدهيات . (ثانيهما) أن نجرد من تلك السيرة كل ما أضيف اليها من ضروب المبالغات التى تضعف من تأثيرها على العقول ، وتكفى فى جملتها لإقناع الناهلين من حوض الثقافة الحديثة بوهن أصول الدين ، وأن الاسلام ليس من العزة والمناعة بحيث يرتد عنه طرف الناقد خاسئا وهو حسير .

موقف عظيم الخطر يتعرض فيه المؤلف لمصادمات من نواح شتى ، ولكن ما لابد منه لا يمكن النكوص عنه ، لا سيما والرغبة أصبحت عامة فى وجود مؤلف من هذا الطراز ، ليمكن اتقاء شرور الدعايات السيئة بالاعتماد عليه ، أو بالرجوع فى حل الشبهات اليه .

من أشد ما وقفنا عليه من أنواع الدعايات تأثيرا فى العقول ، ما قام به كاتبان من الفرنسيين هما (لوميريس) و (جاستون دوجاريك) من وضع كتاب فى السيرة المحمدية تحت عنوان حياة محمد La vie de Mahomet فى مجلدين ، ذكرا فى مقدمته أنهما سيوردان تاريخ النبى العربى مأخوذا من الكتب الاسلامية ، لا يزيدان على ما قالته حرفا . فجاء كتابا من أفعل ما يتخيله العقل صدا عن الاسلام ونبى الاسلام ، لكثرة ما اشتمل عليه من الخرافات ، وهو لا يزال ماثلا بين كتبى ، كلما وقعت عليه عينى انقبض صدرى .

هذه الاعتبارات كلها دفعتنى لوضع السيرة المحمدية على أساس متين تحت ضوء العلم والفلسفة ، حتى إذا تمت سعينا الى ترجمتها الى الفرنسية والانجليزية ، وعملنا على نشرها .

***

أسوق هذا الكلام لمناسبة ما ورد الىّ من حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الموقر الشيخ محمد عبد الله الجهنى ، وإنى أشكر لفضيلته حسن تقديره لما أكتبه ، وأتقبل نقده بالارتياح ، فما لا ينقد من الآراء الجريئة لا تظهر قيمته الفلسفية ، ورب نقد جر الى فوائد علمية جمة كانت لا تنكشف بدونه .

أخذ علىّ فضيلة الأستاذ أمورا :

(١) شكِّى فيما لا يصح الشك فيه من صحيح البخارى .

(٢) ارتيابى فى سرعة تصديق هيرقل .

(٣) إنكارى انتظار النصارى لنبى بعد عيسى .

الشك فى إسلام هيرقل ومحاولته حمل قومه على الاسلام :

ليس كل ما ورد فى كتاب البخارى من آرائه الشخصية ، وتعليقاته ، يسرى عليه مايسرى على ما أورده من الأحاديث مسندا الى النبى صلى الله عليه وسلم . وقد سمح الأئمة السابقون لأنفسهم بنقد كل شىء فيه ، حتى الأحاديث ، فضعفوا مائة وعشرة منها .

وقد ظن بعض الناس أن الإمام البخارى روى ما قاله عن هيرقل عن الزهرى عن عبيد الله عن ابن عباس عن أبى سفيان بن حرب ؛ والواقع أنه روى خبر سؤال هيرقل لأبى سفيان بهذا الإسناد ، وقد شاركه فيه مسلم ، ولكن البخارى انفرد بروايته إسلام هيرقل ومحاولته حمل أمته على الاسلام ، عن الزهرى عن ابن الناطور ، وهو أحد أساقفة دمشق كما نبه على ذلك الامام ابن حجر العسقلانى فى المجلد الأول من كتابه فتح البارى صفحة (٣١) .

وبناء عليه يكون ما شككنا فيه خبرا زائدا على حديث أبى سفيان ، نقله الزهرى عن ابن الناطور . ولذلك لم يذكره مسلم عند ذكره حديث مقابلة أبى سفيان لهيرقل .

وبذلك أصبحنا فى حل من نقده ، لأن ابن الناطور ليس بثقة فى نظرنا ولا فى نظر غيرنا من المسلمين .

ونحن إنما تشددنا فى هذا الأمر نظرا لمكانة الدولة الرومانية الشرقية من الدول النصرانية ، ومطامح هيرقل من حماية المسيحية . فانه فى العصر الذى أرسل فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، كانت الدولة الرومانية الغربية قد حطمتها غارات القبائل الهمجية ، وسقطت هيبتها الدولية ، وضعفت عن حماية نفسها ، فتحولت الأنظار عنها الى شقيقتها الدولة الرومانية الشرقية ، وعلق المسيحيون على وجودها حماية عقائدهم الدينية .

هذه الاعتبارات هى التى أوجبت علينا الشك فى رواية ابن الناطور ، وليس هو من رواة البخارى حتى يعتد بروايته ، وقد علمتَ أن هذه الرواية ترجع اليه وحده .

ارتيابى فى سرعة تصديق هيرقل :

لم ير فضيلة الأستاذ من حقى أن أرتاب فى سرعة تصديق أمبراطور الرومان ، معتمدا فى ذلك على الآية القرآنية التى قررت أن النصارى أقرب مودة من سواهم الى المسلمين ، وأن منهم من إذا سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع .

وإنى أرى أن هذه الآية الكريمة لا تدل إلا على شىء واحد ، وهو أن النصارى أقرب مودة الى المسلمين من سواهم ، لأن من أخلاقهم التواضع وعدم الاستكبار ، فهى تمدحهم بهذه الخلال ، ولا يعقل أن يُقرن هذا المدح بالذم بأن يتهموا بسرعة التصديق ، فان هذه صفة ذم ، وقد مدح الله المتثبتين المطالبين بالدليل ، ولم يمدح سريعى التصديق .

ولو استعنا بالتاريخ فى هذا الموطن رأينا أن النصارى كانوا أبعد تصديقا من جميع الأمم ، وقد وقفت دولهم للإسلام فى أول ظهوره وقفات ، لولا أن الله كتب له الغلب والانتشار لقضت عليه وليدا . وقد دخلت أمم برمتها فى الاسلام كالفرس والديلم والترك ، وجماعات غفيرة أخرى تعد بعشرات الملايين فى الهند والصين وغيرها ، إلا الأمم النصرانية فانها تمسكت بعقيدتها الى أبعد مدى .

وأما قوله تعالى : « وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » ، فهو قول صريح فى أن الذين فاضت أعينهم بالدمع كانوا قد آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم من قبل ، وآمنوا بالقرآن ، فلا عجب أن ترق قلوبهم عند سماعه فيبكوا ، وليس هذا بعجيب من قوم تذوقوا طعم اليقين .

يريد فضيلة الأستاذ أن يتخذ من حال هذه الطائفة مثالا يطبقه على أفراد معينين ، وغير معينين من جميع الطبقات ، وأنا لا أحيله من التدليل إلا الى شىء واحد وهو الواقع المحسوس .

إنكارى انتظار النصارى رسولا بعد عيسى :

قلت : إن النصارى يعتقدون أن دينهم قد تم بتجسد الابن ، وأنهم ما كانوا ينتظرون رسولا يأتى بعده .

فلاحظ علىّ فضيلة الأستاذ ذلك وقال : « إن نبينا كان مبشرا به فى التوراة والانجيل ، وقد ذكر القرآن ذلك ، ولم يجرؤ واحد منهم على تكذيبه ، ولو لم يكن ذلك حقيقة لقامت قيامة اليهود والنصارى وملأوا الدنيا تكذيبا وتشنيعا على صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم » .

نقول : أما أن النبى صلى الله عليه وسلم قد بُشر به فى التوراة والإنجيل فصحيح ، ولكن ليس المعول على إيماننا نحن بذلك ، وإنما المعول على إيمان أصحاب تلك الكتب به ، وقد دل تاريخ الدعوة الاسلامية على أنهم لم يؤمنوا به ، وقد ملأوا الدنيا تكذيبا وتشنيعا ، بل عمدوا الى الحرب الضروس . ومن الذى يستطيع أن ينكر ما لقيه الاسلام والمسلمون من عنت القبائل اليهودية فى بلاد العرب ؟ نعم لم يقع من النصارى هنالك شىء ، ولكن ليس لأنهم كانوا أقل من اليهود تكذيبا ، ولكن لأنهم كانوا فى بلاد العرب قليلين ، ولا تجمعهم جامعة قوية ، فجاءت حروبهم متأخرة ، أى على عهد أبى بكر ومن جاءوا بعده ، وكانت من أفظع ما رواه التاريخ هولا وشدة .

قلنا : إن المسيحيين لم يكونوا ينتظرون رسولا بعد عيسى ، حتى فى أقدم عهودهم ، وما استشهد به فضيلة الاستاذ من إنجيل يوحنا ، وعده علماؤنا تبشيرا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فانهم ينكرون أن المقصود به محمد ، ويقولون إن المقصود به روح القدس ، وهو الأقنوم الثالث من الأقانيم الثلاثة فى عقيدتهم ، وقد أجمعوا على ذلك من أول عهدهم بالنصرانية الى اليوم .

وإذا ساغ لنا أن نقول بأن اليهود كانوا يتوقعون ظهور نبي جديد ، فانهم كانوا ينتظرون أن يكون اسرائيليا ، فان اليهودية مبنية على ما لأسرة اسرائيل من الامتيازات الروحية والعقلية ، كما ورد ذلك فى كتبهم ، لذلك لا تجد لهم دعاوة دينية فى الأرض . حتى أنه إذا أراد أحد الناس من الأجناس الأخرى أن يتهود ، وجب على القس اليهودى أن ينصحه بالعدول عن عزيمته ثلاث مرات ، بالتنويه له بصعوبة تكاليف اليهودية ، وتعذر قيامه بما تفرضه عليه منها . فان أصر على طلبه وجب عليه أن يلقنه الناحية الخلقية من اليهودية دون الناحية العبادية . فلما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم من ولد إسماعيل كان ذلك كافيا فى نظرهم للتكذيب به .

والمعول فى موضوعنا على إيمانهم هم ، لا على إيماننا نحن ، فلو كانت البشارات فى كتبهم أصرح مما أورده الأستاذ ، ولم يفهموا هم منها ما نفهمه نحن ، كانت كأن لم تكن فى علاقتها بالموضوع الذى نحن بصدده .

أما ما قاله فضيلة الأستاذ عن إسلام النجاشى وصلاة النبي صلى الله عليه وسلم عليه بعد موته . فقد نص البخارى على أن النبي صلى على نجاشى مات مسلما ، ولم ينص على أنه هو الذى أرسل اليه كتاب الدعوة ؛ وجاء مسلم تلميذ البخارى فنص على أن النجاشى الذى صلى عليه النبي غير الذى أرسل اليه كتاب الدعوة ، ويبتنى على ذلك أن الجواب الذى شككنا فيه مختلق . وقد كان كلامى محصورا فى ذلك الكتاب وجوابه .

وهذا لا يمنع أن يكون سلف هذا النجاشى قد أسلم سرا ، وأرسل الى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره بذلك خفية ، وكتم إسلامه عن قومه . لأن النجاشى لو استبدل دينا آخر بدينه ، وبلغ قومه خبره ، لكان هذا وحده يكفى فى أن يثوروا عليه ثورة عامة ، لأنهم من أشد الشعوب تمسكا بالمسيحية .

ومرادى من هذا كله تمحيص الحوادث التاريخية ، وتخليص السيرة النبوية من الأوهام التقليدية .

وإنى أختتم مقالى هذا بشكر فضيلة الأستاذ على ملاحظاته ، فان غرضى من نشر سيرة للنبي صلى الله عليه وسلم على مقتضى الدستور العلمى ، أن تناسب عقلية الشبيبة المتعلمة ، فيقبلوا على مطالعتها واجدين فيها من دقة التمحيص العلمى ، والنقد الفلسفى ، ما لا يدع لهم عذرا فى مقاطعتها ، وهى من أقوى أسباب الإيمان به ، والتسليم برسالته للناس كافة ؟

محمد فريد وجدى

فى اختلاط الجنسين

بالأمس القريب أرهف الدكتور منصور بك فهمى قلمه ، وهو من أخص رجال التربية الحديثة ، فى بيان أضرار الاختلاط ، وأهاب بأولياء الأمور أن يضعوا حدا لتلك الفوضى الجامحة .

واليوم ينصح لقومه أن يحترسوا من جوارف المؤثرات الاجتماعية ، ويحذرهم من ويلاتها ووخيم عواقبها ، كاشفا عن سيء آثارها .

وخالق الكائنات الخبير بها وبأفضل السبل لسيرها يقول : « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » ، ثم يقول مخاطبا نبيه عليه السلام : « يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين » ، ثم يقول : « ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن ... الآية » .

والمشاهدة والوقائع تدل فى وضوح وعلانية أن أشد الأمور خطرا على الأسرة والبيت أولا ، وعلى الجماعة ثانيا ، هو الاختلاط .

وأنا تحت راية القرآن ، وفى دائرة التجارب والمشاهدات ، أقرر فى جرأة أن الاختلاط مفسدة لأخلاق الأمم ، مضيعة لآداب الآحاد ، وهو أفعل فى دهورة الكرامات ، وإضاعة شرف البيوتات من أية جريمة مما لا تسلم منها الجماعات .

هذا رأى المفكر الحكيم الدكتور منصور بك فهمى ، ورأى جميع النبغاء من أهل هذا الجيل ممن تقدموه وتلوه ، وبه نزل القرآن ، وشرحته السنة المحمدية الرشيدة ، وهو ما أقرته التجارب ، وقررته الوقائع الكثيرة . فما هو رأى الجهات الرسمية التى أقيمت للإشراف على أخلاق الأمة ؟ وما الذى اعتزمته حيال هذا التيار الجارف من الفوضى الخلقية ، وهذا الفساد الاجتماعى المنتشر ؟

حوادث خطيرة تحدث تباعا ، وتتناقلها الصحف ، ويقرأها الناس من جميع الطبقات ، وكانوا يقابلونها فى أول الأمر بكثير من الأسى والأسف ، ولكن تواترها قلل من الشعور بشناعتها ، حتى أصبحت اليوم من الحوادث العادية ؛ وفى ضعف الشعور بها الخطر كل الخطر ، فان أصحاب النفوس المنحطة يتشجعون بذلك ، ويرتكبون كل ما تسوقهم اليه الشهوات البهيمية من ضروب المنكرات غير مبالين بعقاب لأنه لا عقاب عليها ، ولا حاسبين للخزى أمام الناس حسابا لأنهم أصبحوا لا يستنكرونها من اعتيادهم سماع أمثالها ، بقدر ما يجب أن يكون استنكارهم لها .

فالذى أراه من العلاج لهـذه الاباحية الجائحة ، أن تمنع الجرائد من نشر حوادث هذه الفضائح ، وعدم كتابة الفصول الطويلة فى بسط حوادثها ، كما تفعل كثير من الجرائد التى تؤلف منها شبه أقصوصة تتحف بها قراءها .

إن ما أشير به هنا من عـدم نشر هذه الفضائح علاج بسيكولوجى مجرب ، فقد منعت بعض الأمم نشر أخبار الانتحار بعد ما علمت أن نشر أخبار المنتحرين يزيد عـدد مرتكبي هذه الرذيلة ، وأن عدم نشرها يقلل منه .

ثم أرى وجوب مراقبة أشرطة السينما ، فإن أكثر ما يعرض على الناس ضروب الفضائح باعتبارها من أعمال البطولة ؛ وعرضها على النظار على هـذا النحو يحمل نفوس الضعفاء على تقليدها ، وعلى القليل على عدم التحرج منها .

لقد تغيرت الأرض غير الأرض ، والناس غير الناس ، وقد أصبحنا فى انحرافات كان أصغرها يقيم القلوب ويقعدها ، فأصبحت من تكررها كأنها أمور عادية !

فكم من لقيط ملقى فى الطريق ، وكم من جنين قذف به فى صناديق القاذورات ، وكم من فتاة انتحرت بالاحتراق أو تجرع السم الزعاف ، وكم من فتاة قتلها أهلها احتفاظا بكرامتهم وغسلا للعار الذى ألحقته بهم ، وكم من فتاة توارت عن الأنظار خجلا فكان مآلها أن ذلت بعد عز ، وشقيت بعد سعادة ، فأصبحت نزيلة فى بيوت الناس تخدمهم ويحتقرونها ، بعد أن كانت النجمة الساطعة فى بيت أبويها ، والزهرة اليانعة فى أسرتها ، أو دهورها ضعف أخلاقها فأصبحت فى عداد البغيات والمتداعرات !

هـذا وذاك مما لا تصل إليه أيدى القضاء ؛ وبين ظهرانينا العـلة الحقيقية لـكل هذه النكبات ، ففى الشوارع والأندية والملاهى ودور الخيالة تذبح الفضيلة جهارا وبلا حياء .

ها هى ذى مدارس الرقص ، ومعاهد الخلاعة ، وحصون الإباحة ، مفتوحة الأبواب ، معدة للزائرين والزائرات .

وها هى ذى الأخلاق المنحطة تجترف الفضيلة أمامها اجترافا ، وموجات الافساد تكتسح كل فضيلة اكتساحا ، وصروح البيوتات الشوامخ تتداعى وتتصدع الواحد تلو الآخر ، وكأن بالقوم عمى أو فى آذانهم وقرا ، فلا يحسون ولا يتألمون ولا يغضبون !

أصبحت الحياة غريبة فى وضعها ، غريبة فى صورها ، شاذة فى تكوينها ، فالبيت قد هجر إلا قليلا من الليل ، وملـكة الطهى قد ماتت فى أدمغة النساء والفتيات ، والقوامة على تربية الأنسال قد أصبحت فى المرتبة الأخيرة من الشئون .

نعم أصبحت الحياة غريبـة ، فالأكل فى المطعم ، والمجلس والسمر الخاص والعام لا يلذ

للناس إلا فى المقاهى والملاهى ، والاجتماع الذى لا بد منه لربط وشائج الأسرة قد فقد . وما البيت فى نظر أولئك إلا سجن مظلم فى النهار ، وكن غير مألوف لا يركن إليه إلا فى الهزيع الأخير من الليل وإن كانوا له كارهين .

فإذا ما بزغت الشمس رأيت النساء يسابقن الطيور فى الخروج الى الشوارع تاركات أولادهن فى البيت غير آبهات بما خلفن من حاجات تقتضى أن يكن هن المباشرات لها .

فبربك قل لى : أى حياة تلك التى نحياها ، وأى معيشة تلك التى نعيشها ؟ وهل تلك الحياة هى الحياة المستقرة التى نستطيع فى ظلها أن نربى نشأ صالحا وجيلا متينا ؟

وهل بهذا نستطيع أن نربى بنتا تكون بعدُ أمّاً تشرف على تنظيم بيت ، وتقويم أسرة ؟ إنى لفى شك من ذلك كبير .

أعتقد أن البيت فى طريق التهدم ، وبناء الأسرة فى سبيل التقوض ، والأخلاق تنحدر بسرعة الى درك الرذيلة .

فإن لم يكن علاج عاجل ، وتأديب حاسم ، وتقويم صارم ، عم البلاء ، وفدح الخطب ، واستعصى الداء . ومهما حاول المصلحون بعد ذلك من علاج فليسوا بمفلحين .

الحق أن لا شفاء لهـذا الداء ، داء الفوضى الخلقية الناشئة عن التبرج والاختلاط ، إلا فى طب السماء ، ولادواء له إلا من صيدلة الدين ، ولا يقتل جراثيم هـذا المرض العضال إلا مطهرات الوحى .

لست بهذه الدعوة جامدا أريد أن تكون المرأة متاعا فى البيت لا يجوز إخراجه ، وليس فى حاجة الى تنسم طلق الهواء . لا ، ولا أريد من الفتاة أن تظل فى عماية جامـدة لا تعرف ما يحيط بها من تطورات الزمن وتغيرات الأحوال .

إنما أقصـد أن تكون النساء كأمهاتهن السابقات اللواتى درسن العلوم ، وتحملن أمانة القوامة والوصاية والتربية .

أريد من الفتاة أن تكون كزميلاتها السوابق اللواتى ضربن المثل الأعلى فى النبل والحياء والمحافظة على الشرف والكرامة . أما أن يترك لها الزمام على الوضع الممقوت الذى نراه الآن ، فذلك مؤد لهدم كيان الأمة ، وذلك ما لا يرتضيه عاقل . ألا قد بلغت ، اللهم فاشهد ؟

مصطفى الصاوى
المدرس بمعهد القاهرة

تطور التصميم والزخرفة فى مساجد مصر

التصميم والزخرفة فى العصر الفاطمى(١)

— ١ —

سطر الفاطميون فى تاريخ مصر صفحات ذهبية تشع من بين سطورها آيات المجد والعظمة ، وارتفعوا بهذه البلاد الى درجة من التقدم المادى قلما ارتفعت إليها فى غابر تاريخها وحاضره ، وقد اكتملت فى عصرها شخصية الفن العصرى الإسلامى ، وتجلت براعة رجال الفن من المسلمين فى صور كثيرة تفرض الإعجاب على كل من يشاهدها . فلقد ترك لنا الفاطميون آثارا عدة تدل على عظم ثروتهم ، وتكشف عن مدى ما بلغوه من الخبرة الواسعة بطرق البناء والتصميم ، ومقدار ما ابتدعوه من الأوضاع الزخرفية والأساليب الفنية ، وتشهد بسمو الفن عند المسلمين ، ومقدرة رجالهم الفنيين ، وتحريهم الدقة والكمال فى أعمالهم . وما لنا نصوغ الألفاظ عقود مدح فى جمال آثارهم وهى على كثب منا ؟ فلنمض فى طريقنا قدما إليها لنستروح عبير العظمة منها ، ونستجلى رواء الفن فى زخارفها ، ونستذكر المجد الغابر بين ساحاتها .

ها نحن بين يدى أول أثر شيدوه : بين يدى الجامع الأزهر الشريف الذى ارتفع به ذكر مصر فى الخافقين عاليا . ترى أكان كذلك يوم أسسه جوهر قائد المعز لدين الله الخليفة الفاطمى عام ٣٥٩ من الهجرة ؟ إن المظاهر العمارية ، والكتب التاريخية تقول لنا فى وضوح وجلاء إن هذا الجامع العظيم قد أضيفت إليه زيادات ودخلت عليه تغييرات ، ولعبت به يد الإهمال تارة ويد التجديد أخرى حتى انتهى الى صورة مغايرة لما كان عليه يوم ولادته . ولكى نقف على تخطيطه القديم ، علينا أن نستبعد ما جد عليه أولا بأول حتى يخلص لنا المسجد الأصلى ، فنشهد فيه مدى التطور فى التصمم والزخرفة .

فلندخل الجامع من « باب المزينين » ، ولنغض الطرف عما نراه من المنشآت على اليسار وعلى اليمين لأنها من عصر متأخر عن العصر الذى نتحدث عنه ، ولنتقدم قليلا حتى نقف على عتبة الباب المواجه لنا ــ باب قايتباى ــ حتى ناخذ المكان بنظرة واحدة ، فإذا نحن أمام صورة سبق أن رأينا مثلها فى جامع ابن طولون ، وتخيلنا مثلها فى جامع عمرو : صحن مكشوف تحيط به من نواحيه الأربع أروقة مسقوفة ، وإذا استبعدنا البلاطة الأولى من هذه الأروقة المطلة على الصحن (لأنها متأخرة فى إنشائها عن الجامع الأصلى) وجدنا أن عدد البلاطات فى رواق

(١) بعد سقوط الدولة الطولونية حكمت مصر الدولة الأخشيدية ، وقد كانت مدة حكمها قصيرة ، ولم يصلنا من آثارها شيء .

القبلة خمس – كما فى مسجد ابن طولون – وفى كل من الرواقين الشرقى والغربى ثلاث ، أما الرواق البحرى فلا ندرى بالضبط عدد بلاطاته الأصلية .

فالتصميم إذن لم يتغير ، ولكن دخلت عليه عناصر جديدة نتبينها إذا ما اخترقنا الصحن الى رواق المحراب . وأول ما يسترعى النظر قبل دخول هذا الرواق وجود قبة رشيقة تعلو مدخله ، ترجع الى أواخر العصر الفاطمى ، وتزدان بزخارف جميلة وكتابات كوفية رشيقة كلتاهما محفورة على الجص . وإذا نحن تذكرنا طراز الكتابة الذى شاهدناه فى جامع ابن طولون ، وقارنا بينه وبين هذا الخط الذى نشهده فى هذه القبة ، رأينا بونا شاسعا بينهما ، ولمسنا تطورا عظيما فى رسم الحروف وتصويرها ، وأدركنا أن تلك الحروف القديمة التى تبدو بسيطة فى غلظة وثقل ، قد صارت معقدة فى خفة ورشاقة ، يشيع منظرها فى النفس غبطة وانشراحا . والواقع أنه ما تجلت عبقرية رجل الفن المسلم فى ناحية من نواحى الفن بقدر ما تجلت فى الخط العربى ؛ فعندما نضج فيه الذوق الفنى ، واكتملت لديه ملكة الإبداع ، أخرج لنا من الحروف العربية : من رءوسها وسيقانها ، وأقواسها ومدّاتها ، وخطوطها الرأسية وخطوطها الأفقية ، عناصر زخرفية فيها سحر ولها روعة ؛ واستهواه جمال هذا الفن الجديد ، فأخذ يدخل على صور الحروف بعض التعديل ، يصعد ببعضها فى غير حاجة الى صعود ، ويحذف من أجزائها ما يتنافر مع أصول الزخرفة من تناسق أوتقابل أوتناسب ، فجاءت كتابته جميلة حقا ، ولكنها تستعصى فى قراءتها على الكثيرين ؛ ولئن كانت تكلفنا – إن شئنا أن ندرك ما وراءها من المعانى – جهدا ليس بالقليل ، فإنها تعوضنا عن جهدنا هذا – بعد أن ينكشف لنا ما استغلق منها – بلذة فكرية لا يدرك كنهها إلا من كابد هذا الأمر . وأمامنا ما سطر داخل هذه القبة من النصوص ، فلنجرب حظنا فى قراءتها (١)

فى هذه القبة من الجهة القبلية نافذة من الجص تزدان بزجاج ملون ، هى الأولى من نوعها فى مساجد مصر . والآن فلندخل رواق المحراب :

---

(١) ابتداء من رأس العقد المحيط بالنافذة البحرية جهة اليسار نقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم . إن المتقين فى مقام أمين . فى جنات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ، ووقاهم عذاب الجحيم . فضلا من ربك ، ذلك هو الفوز العظيم . فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون . فارتقب إنهم مرتقبون (سورة الدخان الآيات ٥١ – ٥٩) . بسم الله الرحمن الرحيم . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب (سورة النور ٣٧ و ٣٨) . وفى رقبة القبة فوق هذه العقود مباشرة نجد آية الكرسى بخط كوفى كبير .

إن الظاهرة الجديدة فى هذا الرواق التى لم نشهد مثلها فى جامع عمرو ومسجد ابن طولون ، هى ذلك المجاز المتسع الذى يتوسط الرواق ، والممتد من الصحن الى المحراب القديم مباشرة ، والذى يمتاز بعلو سقفه عن سقف الرواق نفسه ، وباحاطة من اليمين ومن اليسار بسلسلتين من العقود بشكل منهماست طارات متصلة ببعضها ، وتسير من الشمال الى الجنوب ، بينما تسير باقى عقود هذا الرواق بل وعقود الأخرى فى موازاة حائط القبلة من الشرق الى الغرب . أما الأعمدة التى تتكئ عليها هذه العقود فمن الرخام ، وهى مختلفة الطرز والأشكال ، ويذكرنا منظرها بأعمدة جامع عمرو ، إذ أن كليهما مأخوذ من الكنائس القديمة . وينتهى هذا المجاز بقبة فوق المحراب القديم ، حديثة البناء ولكنها فى الغالب قد حلت محل قبة قديمة كانت فى هذا الموضع .

ولقد كان هذا الرواق يزدان بزخارف جصية جميلة لا تزال بقاياها تشاهد فى المجاز ، وفى الجدار الأيسر ، وفى بعض أجزاء الجدار الأيمن ، وفى امتداد جدار القبلة القديمة نفسه (بجوار باب رواق الشوام) الذى كان ينتهى عنده المسجد الأول (١) . وتذكرنا هذه النقوش بزخارف مسجد ابن طولون ، إذ هى قريبة منها فى روحها . والواقع أن شخصية الفن الفاطمى لم تكن قد نضجت بعد ، فليست الحدود التى تفصل العصور السياسية بعضها عن بعض هى بعينها الحدود التى تفصل العصور الفنية ، لأن التطور الفنى على عكس التطور السياسى بطئ جدا يحتاج الى وقت طويل لكى ينمو ويظهر .

على أننا لا ينبغى أن نمر هكذا سراعا على ذلك العنصر المعمارى الجديد الذى دخل على تصميم المساجد فى مصر ، والذى نراه لأول مرة فى الجامع الأزهر ، ونعنى به المجاز ، فهو جدير بأن نقف عنده قليلا مفكرين فى منشئه ومصدره . أما المنشأ ففى الكنائس المسيحية الشرقية (البازيليكا) (٢) وقد كانت هذه الكنائس مألوفة لدى المسلمين : كثيرا ما صلوا بين جدرانها ، وكثيرا ما اقتسموا الواحدة منها مع المسيحيين فجعلوا من نصفها مسجدا يصلون فيه وأبقوا النصف الآخر كنيسة كما كان للمسيحيين يتعبدون فيها ، وكثيرا ما حولوا الكنيسة بأكملها الى مسجد .

---

١ — الجزء المرتفع الذى يقع خلف المحراب القديم أضيف الى المسجد الأول فى أيام عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣ م) .

٢ — البازيليكا Basilica معناها البيت الملكى . وكانت فى العصر الرومانى مكانا لانجاز الأعمال التجارية والقضائية . وقد اتخذها المسيحيون نموذجا لكنائسهم ، وهى تتكون عادة من مستطيل تقسمه أربعة صفوف من الأعمدة الى مجاز واسع فى الوسط ، وأجنحة جانبية أقل سعة وأوطأ سقفا من المجاز .

وأما المصدر فالمسجد الأموى بدمشق، ذلك المسجد الذى لعب فى تصميم المساجد دورا هاما لم يلعبه مسجد آخر . ولعل خير ما نسوقه للدلالة على أهميته وعلو مكانته عند المسلمين هو ما ذكره الجغرافى المشهور (المقدسى) فى كتابه (أحسن التقاسيم) إذ يقول: «قلت يوما لعمى: ياعم، لم يحسن الوليد حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق، ولو صرف فى عمارة الطرق والمصانع ورم الحصون لكان أصوب وأفضل. قال: لا تعقل يا بنى، إن الوليد وفق، وكشف له عن أمر جليل، وذلك أنه رأى الشام بلد النصارى، ورأى لهم فيها بيعا حسنة قد افتتن فى زخارفها، وانتشر ذكرها كالقمامة (١) وبيعة لد، والرها، فاتخذ للمسلمين مسجدا أشغلهم به عنهن، وجعله أحد عجائب الدنيا» . فليس بدعا إذن أن يتخذ هذا الجامع العظيم إماما فى تصميم المساجد، وأن ينقل عنه الكثيرون من عناصره. وهكذا نرى المجاز الذى ظهر لأول مرة فى مسجد دمشق قد انتقل الى مساجد تونس، ونقله الفاطميون معهم الى مصر .

ولكن الجامع الأزهر، لا يستطيع وحده أن يعطينا صورة واضحة عن تصميم المساجد فى العصر الفاطمى بسبب ما دخل عليه من التعديل. فنحن لا ندرى أكانت له مآذن يوم أنشئ أم لا، وإن كانت فأين موقعها ؟ ولا نعرف أكانت واجهته كواجهة المسجد الطولونى مثلا أم كانت له واجهة عظيمة، وإن كانت فما شكلها ؟ لذلك سنتركه الى جامع فاطمى آخر قد احتفظ لنا بالكثير من مميزات المساجد الفاطمية هو جامع الحاكم بأمر الله الذى سيكون موضوع بحثنا فى العدد المقبل، إن شاء الله ؟ يتبع

(١) هى كنيسة القيامة فى بيت المقدس التى يحج إليها المسيحيون .

محمد عبد العزيز مرزوق
الأمين المساعد بدار الآثار العربية

كلمات نابغة

قال أبو عمرو بن العلاء : خذ الخير من أهله ، ودع الشر لأهله .

وقال عمر بن الخطاب : بع الحيوان أحسن ما يكون فى عينك .

وقال حكيم : إحسان المسىء أن يكف عنك أذاه ، وإساءة المحسن أن يمنعك جدواه .

وتكلم ربيعة الرأى يوما فأكثر والى جنبه أعرابى ، فالتفت اليه ربيعة وقال له : ما تعدون البلاغة يا أعرابى ؟

قال : قلة الكلام وإيجاز الصواب ؟

فقال له ربيعة : فما تعدون العى ؟

قال الأعرابى : ما كنت فيه مذ اليوم !

ليلة الاسراء

احتفلت الأمة المصرية بليلة الاسراء فى مساء يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رجب ، واحتفل به رسميا فى مسجد محمد على بالقلعة ، فتفضل حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم بشهود هذا الاحتفال فى عدد جم من رجال الدولة يتقدمهم حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء ، وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى ، وقام بقراءة حديث الإسراء والمعراج فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الله عفيفى ، إمام حضرة صاحب الجلالة ، وكان بين الحاضرين من رجال السلك السياسى دولة سفير إيران .

واحتفلت بهذه الليلة المباركة مشيخة الطرق الصوفية بدار السادة البكرية بالخرنفش ، فأم تلك الدار عدد كبير من العلماء وشيوخ الصوفية وكبار الموظفين والأعيان .

وكان قوام الاحتفال قراءة القرآن الكريم ، وإطعام الفقراء .

واحتفل سلاح الاشارة الملكى بهذه الذكرى أيضا بحضور حضرة صاحب العزة الميرالاى أحمد الصاوى بك ، قائد ذلك السلاح ، وحضرة البكباشى ابراهيم البرديني ، وجميع ضباط السلاح وجنوده .

وألقى حضرة الأستاذ محمد الدرديرى محاضرة قيمة فى ذكرى الإسراء فى الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم بدار الاتحاد ، وقد شهد هذه المحاضرة جم غفير من الأدباء والعلماء ورجال الدين وغيرهم .

واحتفل بهذه الليلة فى جميع البلاد المصرية فى أشهر مساجدها تحت رئاسة مديرى المديريات وكبار موظفيها . فرتل الكتاب الكريم مشهورو القراء ، وألقيت الخطب والمحاضرات فى النوادى والجمعيات ، ووزعت الصدقات على الفقراء والمعوزين .

وقد احتفل بها أيضا جريا على العادة السنوية جميع شعوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأم مساجدهم عشرات الملايين منهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم .

لا جرم أن لهذه الاحتفالات فوائد أدبية لا تقدر ، فانها تذكر المسلمين بماضيهم المجيد ، وتعيد الى أذهانهم أيام رسولهم الكريم ، وأدوار حياة الدعوة الاسلامية ، وفى كل هذه الذكريات إحياء للشعور ، وتنبيه للعاطفة الدينية ، وتحضيض عملى على التعاون على البر والتقوى .

وقد رأى بعض المتشددين أن هذه الاحتفالات من البدع المستحدثة ، ولكنها فى نظرنا بدعة حسنة إذا خلت من الغلو فى القول ، والإغراق فى الوصف ، والاعتماد على الأقوال الضعيفة فى إيراد التاريخ ، والاسلام ثرى بحقائقه وبيناته لا يحتاج الى الاستكثار من الموضوعات عليه .

من وحى الشريعة الخالدة

سبق بنا فى بحوث متلاحقة أن كشفنا بقدَر عن مبلغ ما يداخل المجتمع من آفات أخلاقية ، وما نكبت به البشرية فى أولى مراحلها من فرط تلك المداخلة ، وكيف أن رواد الأخلاق صدوا عن مناهلها المختلفة بما أشكل على الناس فهمه فى المنتصبين حماة عن الأخلاق الفاضلة من جهة ، وذيادا عن مبادئ الدين القويم من جهة أخرى . فقد نبتت فى بعض الرءوس نابتة حاولت أن تفصل بين الأخلاق المثالية العليا وبين مبادىء هذا الدين . و َعتاد هذا الفريق أن الخلق القويم فى ظاهرات معينة قد يبدو مناقضا للدين ، وهو فى واقع أمره خير محض وسعادة محضة . والجدل مع هذا الفريق قديم الاتصال ، وخير لخصومهم أن يقفوا بهم عند مفترق هذا الطريق ، وأن يدعوهم وشأنهم ، ما دامت العبرة لا تفل من غرب عصبيتهم ، ولا تنهض بهم الى سواء السبيل ، فخير للبشرية أن تظل قائمة على تراثها الأول عن هدى كتاب الله وهدى الرسول الأعظم وأخلاق الصدر الأول ، وأن يعنى علماء الأخلاق بتجنيبها الآفات التى تأخذ عليها غاياتها ، وتقف بها دون نبيل مقاصدها .

فالبخل وسوء الخلق مثلا آفة من الآفات الأخلاقية التى لا سلامة منها إلا بمناجزتها ومناهضتها فى عنف وقوة . والبخل معناه استكثار البخيل فيض الله على عباده ومدده على أوليائه ، وليس البخيل من بخل بالمال فحسب ، بل البخيل من بخل بجاهه عن طلابه والمفتقرين اليه ، إما لأنه يحاول أن يحتجن الخير كله فى يده وفى يد ذوى قرباه ، فيرى أن امتداد جاهه وراء ذلك المحيط تفويت لخير كثير عليه أو على ذوى قرباه ، وفى ذلك بلاء عليه مبين ، وإما لأنه أخذ نفسه بالكف عن استثمار جاهه فلا تنفرج شفتاه عن قالة يفرج بها كربة مكروب ، أو يدفع بها غصب مغصوب ، وإما هما معا . ومرد ذلك كله فى هذا المخلوق العجيب الى شحه وأفن رأيه .

قال العلامة ابن حزم فى كتابه الملل والنحل والأهواء : « ليس من الضرورى أن يدعى الغنى الذى لا يؤدى حق الله عليه فى الناس بخيلا وحده ، بل هناك صنف هو شر من البخيل بالمال ، وهو الذى يستطيع أن يدفع الأذى ولا يفعل ، وأن يجلب الخير ولا يفعل ، وأن يهدم صروح الظلم فى الظالمين ولا يفعل ، وأن ينصر من نصره الله ولا يفعل ، وأن يرسل كلمة الخير يصيب بها قلوب ذوى السلطان فتنطلق أيديهم بالأعطية وألسنتهم بالدعوة الى الاستزادة منها بين أنصارها ولا يفعل » . ومن هذه الناحية كان خطر البخيل من هذا النوع على البشرية أشد من الوباء وأفتك من أصفر الهواء .

قد يكون لبخيل المال تعلات فى الإمساك بتشبه عن المساهمة به بين أبناء جنسه ، إما لأن ذلك كان موروثا فهو داء قد أعضل ومرض قد أشكل ، وإما لأن بخيل المال قد جمعه من وسائل مقيتة وقد كان سليبه وطريده ، وإما لمرض نفسانى انفعلت به نفسه وطاب له إحساسه .

وما من شك فى أن الأصل الأول لأنواع البخل مجتمعة هو البخل بالمال ، فالبخيل بالمال فى واقع أمره مستكثر فضل يده على المحتاجين اليه ، وقد كان خليقا أن يكون فى متناول ألسنتهم ومهب عواصفهم ، لأن البخل فيه لا يعدو أن يكون منابذة للإيثار ، ومجاهدة لتعهد جماعة من خلق الله بفيض الله وما أفاء به عليه من مال يوطد به فى الناس ذكراه ويدفع عنه بلواه ، قال جل ثناؤه : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة خب ولا منان ولا بخيل » . وقال صلى الله عليه وسلم : « خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن : البخل وسوء الخلق » .

ولم تخل أمم الأرض بين مسيحييها ومسلميها ويهوديها ووثنييها من هداة يدعون الى البر بالإنسانية والحدب عليها ، ويقيمون للفضيلة صروحا شامخة البنيان وطيدة الأركان ، حتى تتعاون البشرية فى بناء صرح هـذا المجتمع من جهة ، وحتى تطفأ جذوة الحاقدين على كنّاز المال من جهة أخرى .

لكن يبقى بعـد ذلك أن صنفا من بخلاء المال قد ألانوا جانبهم للناس ، وخفضوا لهم أجنحتهم وأعسلوا لهم فى الخطاب ، وهـذا بدهى الظهور فى جانب غير قليل من الخلق ، لأن شح النفوس أعيا الأدواء وأعصى العلل والأهواء ، فهو يحاول أن يستر علته عن الناس بما يظهر من مداورة والتواء ، فإذا جد الجـد وطالبه الواجب بمساهمة فى مبذول مال وإصلاح حال ، رأيته يفر أمام العيون فرار الإبل الى أعطانها ، والطيور الحائرة الى أعشاشها ، وليس ذلك إلا لأن البخل داء دوى كشف عن نفس معتلة وقلب سقيم . فهل حانت الساعة التى تتلاقى فيها أطباء البشرية بمرضاها ؟ وهـل آن أن تنفرج لمة الظـلام عن جبين الصباح ؟ ذلك علمه الى علام الغيوب ؟

عباس طه

(تنبيه)

فاتنا ، ونحن نضع تعليقات على ما نقلناه من رسالة التوحيد للاستاذ المرحوم الشيخ محمد عبده ، أن ننبه أن هذه التعليقات لنا لا له .

* * *

وقد جاء فى السطر الرابع من الصفحة (٣٨٩) من العدد السابق قولنا (فى السنة السادسة من النبوة) ، وصحتها (من الهجرة) .

They do not teach that, because the deepening anxiety of Jesus, in alliance with a fear of treacherous betrayal on the part of some of his disciples, led to his sudden and skilfully planned disappearance; we should believe that he soared upwards to heaven. Their accounts of the incident of the crucifixion do not show that God saved Jesus from the cursed death on the cross. The plain and useful teachings of Jesus, as pronounced in the Gospels, however make the belief in the atoning and propitiating powers of the crucifixion unnecessary. His disciples also betray total ignorance of such a dogma as the vicarious atonement. Jesus himself believed in one God, worshipped Him, and prayed to Him, and laid all possible stress on good living and cherishing love for one's neighbour.

This brings the treatment to a close, with my sincerest hopes that it will be of some interest and benefit to God's people.

THE KORAN

As to the Koran, it consists exclusively of the revelation or commands which the Prophet professsd, to have received from time to time, as a message direct from God ; and which, under divine direction, the Prophet delivered to those about him.

Every syllable of the Koran is of divine origin, eternal and 'uncreated' as the Deity Himself. It is one of the Mohammadan arguments against the Jewish and Christian Scriptures, that they are not exclusively oracles professing to proceed from the mouth of God.

The Prophet himself neither read nor wrote. His being an illiterate man, enhances the marvel of his revelation [1]. 'Learning' says the Rev. Margoliouth, 'he had none, or next to none [2].'

At the moment of inspiration or shortly after, each passage was recited by the Prophet in the presence of friends or followers, and was generally committed to writing by someone amongst them, at the time or afterwards, upon palm-leaves, leather, stones, or such other rude materia as conveniently came to hand. These divine messages continued throughout the twenty-three years of his prophetic life, so that the last portion was not received till near the time of his death.

(1) Sir. W. Muir. Life of Mohammad.

(2) The Rev. Margoliouth's introduction to Rodwell's translation of the Koran.

treatise, with the object of making the laity and non-Christians in general acquainted with it. In doing so, I have purposely refrained from quoting the opinions expressed in the learned commentaries of the nonconformists, and in the books issued on the subject by the Rational Press. I have, on the contrary, restricted the treatment to the views expounded by the Clergy of the Church of England, in the main, and to the views of those who are rather conservative. I have also deliberately overlooked the question, whether we can ascribe with certainty the authorship of the Gospels to the Evangelists, whose names they bear now. All the commentaries are agreed upon the fact, that the original copies of the Gospel, were without indication as to the authors' names. It was guessed, later, who were the most probable writers of them. The probable conjecture has not yet reached certainty. The authenticity of the names, to which, the Gospels are attributed, is open to doubt, as can be seen by referring to any commentray."

What, we have learnt, with respect to the origin of the Christian Gospels, and the creed preached therein, can be recapitulated in a few words. Mark was the first Gospel, and not Matthew, as is generally indicated by the present arrangement of the four books. Mark, who was a convert and interpreter of St.Peter, penned at the instance of 'his hearers', what St. Peter had adopted and preached to his Roman audiences. Mark has been incorporated into Matthew and Luke. But Matthew has represented the words and works of Jesus as fulfilling the prophecies of the Old Testament. No less than sixty-five references have been made to Old Testament texts, to establish that the advent of the Messiah was in strict accordance with the Jewish ideals. This conception and purpose pervade the whole of Matthew, and distinguish it from the other three. Luke represents St. Paul's views, which are in conflict with St.Peter's. Thus we have in Luke an altogether different point of view. It opposes Matthew and Mark most boldly, and places its literal and Catholic description of Christianity in a striking contrast to Matthew and Mark, who confine God's blessings and ministrations to the elect alone. John strikes an entirely different note. It offers, to interpret Christianity for us. We may respect his opinion, as an individual one, and as different from the other three ; but we cannot be assured, that his vague and mythical representation of Christianity is identical with the definite and plain teachings of the holy prophet Jesus. In a word, the Gospels are as divergent, in expressing the Christian doctrines, as their versions are discrepant, in the reproduction of the words and works of Jesus. They have not been safeguarded against mistakes and interpolations. On the contrary, they are replete with extraneous matter. Sometimes glosses and editorial notes have been absorbed in the body of the book, and sometimes irrelevant additions have been made. Matthew and Luke have either toned down or omitted what they deemed objectionable in Mark.

the last twelve verses are not by St. Mark." It further supplies the following information on the subject : "When at the close of the apostolic age, an attempt was made (probably in Rome) to collect the authentic memorials of the Apostles and their companions, a copy of the neglected second Gospel was not easily found. *The one that was actually discovered, and wâs used to multiply copies, had lost its last leaf, and so a fitting termination (the present appendix) was added by another hand.*"

The unanimous verdict given in the New Testaments of Dr. Weymouth, Dr. Moffat, Ferrar Fenton, and in the Twentieth Century New Testament, is that Mark xvi-9-20, is an addition.

(D) Luke xxiv. 51 is another interpolation, as is conceded on all hands. It elicits the following comment from the Rev. Dummelow : "A few ancient authorities omit these words. If they are omitted, *it is possible to regard this event, not* as the ascension, but as a miraculous disappearance of Jesus at the end of the interview begun in verse 36."

Peake's Commentary makes similar remarks ; "The words 'and was carried up into heaven' are omitted in some of the best MSS.. and have probably crept in from Acts. i. 9 f."

The Twentieth Century New Testament and Dr Moffat's "New Testament" mark it as an interpolation."

Ascension.

Our co religionist, Maulvi Sadr-ud-Din, B.A., from whose interesting essay, "Are the Gospels inspired[1]." I have chiefly reproduced the above chapter, makes the following conclusion to his work ;

"If according to Christ and Mohammed (peace be upon them and all the other prophets,) the essence of religion lies in our perfect love of God, which can only be manifested in our willing obedience to His Divine will, we must be assured, as rational beings, of the genuineness and credibility of God's message, as much as of the soundness of the truth, that it reveals. It is this natural craving, that has led to what is known as the higher criticism of the Bible. A similar test has been applied to the Holy Koran as well, to which reference has been made previously. The result of the higher criticism of the four Gospels has partially been presented in this

(1) For a fuller treatment of the subject of the higher criticism of the New Testament see a very interesting treatise entitled 'Are the Gospels inspired ?' by Maulvi Sadar-nd-Din, B.A., from whose work the foregoing passage has been chiefly reproduced.

being a difficulty to faith." Peake's Commentary offers the following note on it :

"Mark xiii. 32— This is one of 'Schmiedel's pillar-passages.' A passage admitting a limit to Christ; knowledge must be trustworthy history, according to Schmiedel. Certainly later commentators found the verse difficult."

"My God, my God, why hast Thou forsaken me?" (Mark xv. 34) These words have been copied by Matthew only. They picture the inborn weakness of Jesus. This expression of his human nature was unworthy of record, in the opinion of Luke and John.

Interpolations.

Of many interpolations, mention will be made here of a few only :

(A) John vii. 53 and viii. 1-11, that is, the last verse of the seventh chapter, with its continuation in the first eleven verses of the eighth chapter, which relate the story of an adultress, is an interpolation. This is admitted universally. The Rev. Dummelow's Commentary has the following observations on it : "The woman taken in adultery.—All modern critics agree, that this section (vii. 53-viii. 1-11) is no original part of the fourth Gospel. It is not in the author's style; it breaks the sequence of our Lord's discourses, and is omitted by most of the ancient authorities."

Peake's Commentary comments on the story at the end of John vii. 53-viii-1-11, *Jesus, and the woman accused of sin :* "The well known story of the woman taken in adultery has no claim to be regarded as part of the original text of this... It is supported by no early Patristic evidence. The evidence proves it to be an interpolation of a 'western' character."

Dr. Weymouth's 'New Testament in modern English' marks the section as an interpolation. 'The Twentieth Century New Testament' has excised it, and placed it in such a place as indicates clearly, that it has no connection with John. 'The Complete Bible in Modern English' writes in a footnote: "The narrative of the sinful woman (chap. vii. 53 to viii-1-11) is rejected by the most competent authorities as a spurious interpolation."

(B) John xxi :—In the opinion of the Rev. Dummelow, the last two verses at least, 24 and 25—are really doubtful, and they "may have been added by the Ephesian elders, who first put the Gospel in circulation, after the death of the Apostle, and who wished to testify to its genuineness and trustworthiness."

(C) Mark xvi. 9-20 is another interpolation. Dummelow's Commentary observes that "Internal evidence points definitely to the conclusion, that

Now, these quotations point very clearly to the fact, that there is a general agreement, as to John having played the role of an interpreter or a commentator of the three other Gospels. There is not an allusion or a reference, made to John having received a revelation from Heaven, or having been inspired to furnish the world with an explanation of the doctrines of Christ. We learn on the other hand, that, while the authors of the three other Gospels compiled the incidents of the life of Jesus, John gave a mystical meaning to them. He himself does not lay claim to revelation, or to consequent perfection. He has, on the contrary, confessed the imperfection of his attempts, to depict the incidents of the life of Jesus. Likewise he admits, that he is but a recorder of incidents or signs. "There were also a great number of signs which Jesus performed in the presence of the disciples, which are not recorded in this book; but these have been recorded, in order that you may believe, that he is the Christ, the son of God, and that, through believing, you may have Life through his name [1]." This text, which reveals the object of the fourth Gospel, announces that this is a partial record of some of those signs which Jesus performed before his disciples. To record events or signs which are known to many, or all, of the disciples and others, does not require the aid of revelation which supplies information which is not already in the possession of human beings.

Some Important Discrepancies.

Jesus said to them (who took offence, at him and who were not prepared to recognise his claims simply because he was a carpenter's son and had other humble ties): "A *prophet* is not without honour, but in his own country, and among his own kin, and in his own house" (Mark.) This statement was curtailed by Matthew, and still more by John. Luke ignored it altogether.

"But of that day and that hour knoweth no man, no, not the angels which are in heaven, neither the Son, but the Father" (Mark xiii, 32.) This text embodies a confession by Jesus, eloquent of his limited knowledge and avowed ignorance; while Luke and John, however make no mention of that humiliating reference.

The Rev. Dummelow's Commentary makes the following remark on "Neither the Son": "This is the true reading not only here (in Mark) but in Matthew xxiv, 36, where it has been ***altered*** in many MSS., probably as

---

(1) John xx, 30.

in character is no less, than the difference in scene. Further, *the synoptists do not* claim to be eyewitnesses of our Lord's work ; the first three Gospels are usually called the synoptic Gospels... It is obvious, that not only all three synoptic Gospels differ from John, but they differ *widely* from each other. The account of the birth and infancy of Christ in Matthew differs widely from that in Luke. The incidents of the temptation of our Lord are recorded in a different order in Matthew and Luke, and the temptation is recorded without these incidents in Mark. All three Gospels give a slightly different account of the inscription on the cross, and the words spoken by the centurion at the death of Jesus, vary in Luke from the words in Matthew and Mark. Also the language differs and differs in a very singular manner.

From the above quotations it is very clear, that the material for Mark's Gospel was supplied by St.Peter's preaching, and that Mark was freely drawn upon by Matthew and Luke ; which establishes the fact, that the synoptic Gospels are no revelations at all, but are purely and simply human compilations. It remains to deal with St. John's Gospel.

The Twentieth Century New Testament makes the following observation on John :

"The writer apparently proposed to himself to illustrate the spirit of the 'Gospel of Love' by such incidents in the life of Jesus, as best suited his purpose. There is no attempt at a regular connected narrative ; and the writer allows himself such freedom, in commenting upon the teaching of Jesus, that it is not always easy to tell where that teaching ends and the writer's comments begin. It is to the great struggle between Light and Darkness, Death and Life,—words much in use and much debated in the current philosophy of Ephesus,—that the writer devotes his attention, rather than to the external incidents of a story which has already been told, and which is plainly viewed by him from a greater distance of time, than is the case with the compilers of the three other Gospels."

Another eminent authority, namely Dr. Weymouth, in his Introduction to John, observes :

"It must be owned that, although the fourth Gospel makes no assertion which contradicts the character of Teacher and Reformer attributed to Him by the synoptists, it presents to us a personage so enwrapped in mystery and dignity, as altogether to transcend ordinary human nature. This transcendent personality is, indeed, the avowed centre of the whole record, and his portrayal is its avowed purpose[1]."

---

(1) Dr. Weymouth's Introduction to St. John's Gospel.

In the opinion of the best English scholars of the New Testament, the Gospels are not to be looked upon as revealed books, the sole source of which should have been God and not man. But they are to be regarded, on the other hand, as inadequate attempts, made by pious but not talented followers of Christ, at the description of his life. It is a great pity, that the world never availed itself of the collection of those life inspiring words that were uttered by the Holy Prophet of Nazareth. However, piety and veneration, for a long time, assured the credulity of the early Christians, that the Gospels revealed the Word of God, and in consequence were infallible. There was a time, when every article of it was firmly and reverently believed to have directly proceeded from God [1]. In short, what had been written by man, passed for the word of God. This is clear to those clergy who have undergone university training. But the pity of it is, that they have not the moral courage to enlighten their congregation on the subject. It would only seem, that pious anxiety dictates, that a character of infallibility should still be given to what has been written by human hands, and that crude attempts at the biography of the Holy Prophet of Nazareth, should continue to be believed to have been revealed by God Himself.

Anyhow, what scholarship and research have now brought to light, was revealed over thirteen centuries ago in the Koran :

"Do they not know, that God knows, what they keep secret, and what they make known ; and there are among them ignorant, who know not the Book, but only idle stories, and they do but conjecture ; woe, then, to those who write the book with their own hands, and then say. This is from God, so that they may obtain therewith a small gain ; therefore, woe to them, for what their hands have written, and woe to them, for what they have earned [2]."

Dr. Murray's illustrated "Bible Dictionary" which is a valuable commentary, enlightens us thus :

Gospels :—The first point which attracts our notice in reading the Gospels is, that the first three Gospels are distinct from the fourth. The first three Gospels confine themselves almost exclusively to the events which took place in Galilee, until Christ's last journey to Jerusalem, If we had three Gospels alone, we could not definitely say, that our Lord went to Jerusalem during his ministry, until he went there to die. The difference

(1) Dr. Ph. Schaff's Companion to the Greek Testaments and the English version pp. 88 & 89.

(2) Translation of the Holy Koran II. 72; 73 & 74.

human hands and brains only as a man may use a typewriter... Their inspiration did not involve a suspension of thier natural faculties, nor abolish the differences of training and character ; it did not even make them perfectly free from earthly passion. Therefore, we find that their knowledge sometimes is no higher than their contemporaries, and their indignation against oppression and wrongdoing sometimes breaks out into desire of revenge. It surprises us in the Bible, because of our false preconception ; because of our false theory of Verbal Inspiration."

The same Commentary further throws light upon the insufficieney and incompleteness of these sacred records, and thus precludes any chance of their claiming divine origin. "To-day we realise, that the life of Jesus can never be written. The material is wanting. Neither in quality, nor in extent, do the Gospels satisfy the requirements of a modern biography. At best, they offer us certain memorabilia of the public ministry of Jesus, hardly adequate to construct the story of the year or years, during which he evangelised his people, and barely sufficing to mirror the chief features of his message. Where the modern mind is most curious. the Gospels seem to be least communicative. Men would fain trace the development of innermost convictions which condition his activity as a prophet. But the facts that the Gospels tell us little or nothing of the early life of Jesus, and that almost every story consists of a simple record of outward act and utterance, with few hints as to inward feeling or historical setting, seem at first sight to defeat the hopes of analysing motive, and tracing growth."

3. The four Gospels.

Dealing with the sources of the four Gospels of the Christian faith, the Encyclopædia Biblica comments as follows :

"These documents are of varying value from a historical point of view. Critical opinion is much divided as to the fourth, that which bears the name of John, the judgment of many critics being, that it is the *least trustworthy as a source, whether for words or for the acts of Jesus.* By comparison, the first three, from their resemblances called synoptical, are regarded by many as possessing a considerable measure of historical worth, but even these, from a critical point of view, are not of equal value, nor do the contents of any of them possess a uniform degree of historical probability. They present to the critic a curious, interesting, and perplexing problem, still far from final solution. By their resemblances and differences, agreements and disagreements, they raise many questions as to origin, relative dates, and literary connections, which have called forth a multitude of conflicting hypotheses and a most extensive critical literature."

The quotations cited above clearly buttress the Islamic belief, that the Christian gospels are but human attempts to draw up accounts of the life of Jesus, and as such are neither complete nor satisfactory. Revelation alone can make a recipient immune from error ; for it suspends, for the time being, all other mental activity of the person, upon whom the Word of God descends. His Word and Will were revealed to holy prophets, like Abraham, Moses, Jesus and Mohammad. But the followers of Jesus were animated, or inspired, to compile what was already known to them. They had but to collect, sift and arrange the material which was in the possession of the people. As such the works of the Apostles are necessarily characterised by mortal shortcomings. Even the devout Christian scholar admits it, and is ready to bear testimony to the fact, that the record of the gospels is not altogether complete and reliable. We cannot do better than quote some of the most scholarly and popularly admitted opinions which carry weight and conviction in this connection.

The Rev. Dummelow, M.A., expresses his opinion as follows :

"Speaking broadly, the Christians mean by their inspiration an impulse from God, causing, certain persons to write, and directing them how to write, for the edification of others. Though it is closely connected with *revelation*, it is not identical with it. By *revelation*, God makes known to a soul truths which were unknown to it before But it is not at all necessary, that an inspired writer should receive any new truths by way of revelation. Thus, St. Mark was inspired to write his Gospel, but he was inspired *to write down truths* which were already familiar to him and to others through the instruction given by St. Peter.[1]"

2. The Gospel of St. Matthew and that of St. Mark.

The foregoing also applies to both St. Matthew's and St. Mark's Gospels. "St. Mark is the oldest of the Synoptists, and has been used by St. Matthew and St. Luke, who have incorporated the bulk of his Gospel into their own with comparatively few alterations [2]."

It is thus plain, that Christian scholars of sacred literature do not claim divine origin for Christian Gospels. They, on the other hand, admit that the said books were compiled by mere men who were by no means experts. They were consequently liable to mistakes. I quote the Rev. Dummelow once more on the point : "We must not regard the Bible as an absolutely perfect book, in which God is Himself the author, using

(1) The Rev. Dummelow's Commentary, p. 71.

(2) Ibid p. 133.

may be, but St. Luke dedicates his books to the "most excellent Theophilus".

The Encyclopædia Biblica throws further light on this dedication : "The dedication of Luke (i. 1-4) shows, that we have passed into a new literary province. The Muratorian fragment calls attention to the fact, that the author writes *in his own name*, a novelty among Evangelists. He also dedicates his work to someone who, if not an imaginary 'God beloved', would appear to be a patron, a man of rank. The apostles—the (I-2) 'eyewitnesses and ministers of the word'—appear to have delivered their testimony by oral tradition, and to have passed away. To supply their places, (I-i) 'many' had attempted to draw up a formal narrative concerning the matters fully established in the Church. These writers had clearly not been eyewitnesses, nor were they, in Luke's judgment, so successful as to make unnecessary any further attempts. Apparently they had failed in the three points, in which he hopes to excel : (1) they had not traced everthing up to the source, and this (2), as far as it went, not 'accurately' and (3) they had not written 'in order' [1]."

The same book further discusses the point whether or not the work of St. Luke's justifes the claims of that Apostle : "We are led to the conclusion that, though Luke attempted to write 'accurately', and in 'order', yet *he could not always succeed.* When deciding between an earlier and a later date, between this and that place and occasion, between metaphor and literalism, between what Jesus himself said and what he said through his disciples, he (Luke) had to be guided by evidence which sometimes led him aright, but not always.[2] "

We further read in the same work : "Luke's absolute omission of genuine and valuable traditions—especially in connection with Christ's appearance to women after the Resurrection, and with Christ's promise to go to 'Galilee'—....seriously diminishes the value of his work It is probably the best adapted for making converts. But if bold bare facts are in question, *it is probably the least authoritative of the Four* [3]."

Luke's failure has evidently been ascribed to his attempts being human, and his sources mortal, which could 'not always' guide him aright. If his work had been revealed, he could not have been accused of having omitted some most important incidents, or of his book being "the least authoritative".

---

(1) Encyclopædia Biblica, p. 1790.

(2) Ibid.

(3) Encyclopædia Biblica, p. 1793.

It seems, however, that the laity in Christendom are generally as ignorant, with regard to these vital questions, as non-Christians, to whom Christian literature is inaccessible in the main. A brief account of these questions is, therefore, likely to be of interest and use.

According to the doctrines of Islam, the four Gospels are not revealed by God. Nor was it the Holy Ghost that moved the writers of the said Gospels to write them. But it was the example of other writers, that inspired them with the desire of compiling brief biographies of Jesus.

1. St. Luke's Gospel

St. Luke's own words to this effect are :

"For as much as many have taken in hand to set forth, in order, a declaration of those things which are most surely believed among us,

"Even as they delivered them unto us, who from the beginning were eyewitnesses, and ministers of the word ;

"It *seemed good to me also*, having had perfect understanding of all things, from the very first, to write unto thee in order, most excellent Theophilus,

"That thou mightest know the certainty of those things, wherein thou hast been instructed" St. Luke : i-4.

St. Luke has very plainly set forth the grounds of his inspiration, namely : (1) the example of other writers of Jesus' life ; (2) his consciousness of possessing "perfect uuderstanding of all things from the first"; and (3) to impart reliable information to Theophilus. Thus, St. Luke does not call his Gospel a divine revelation, but he claims for it (a) diligence in collecting all available material, (b) fullness, (c) careful investigation, (d) orderly arrangement and (e) accuracy.

The Rev. Grieve, M.A.,D.D., Principal of the Congregational Hall, Edinburgh, and a joint Editor of Peake's famous Commentary, explains Luke's preface in the following words : I. 1-4. "The writer, *influenced by the attempts* of others, to record the primitive tradition of Christianity, as it was handed down by the first generation of disciples, essays the same task, and having taken pains to collect, examine, sift and arrange the contents of the *written oral tradition*, presents the result to Theophilus, a Roman official of some standing—a literary patron of the Evangelist's—who needed fuller acquaintance with the historic basis of the oral teaching about Christianity which he had received [1]."

God reveals books for the guidance of a nation or nations, as the case

(1) Peake's Commentary, p. 725.

wrote in the city of Alexandria, his gospel, in which he gave an account of the birth and life of the Master of Christianity, mentioning several events which are not to be traced in the other three gospels. (2) St. Luke also did not see Jesus, but he was converted to Christianity by St. Paul, the latter being an Israelite who himself had not seen Jesus, but was converted by St. Anamias. (3) St. Matthew also did not see Jesus, bu was converted to the Christian faith by St. Peter, some time after the ascension of Jesus; he took his gospel from St. Peter in the city of Rome. St. Matthew's gospel contradicts several statements of the other three Gospels.

St. John was the nephew of Jesus. It was at the wedding of John, that Jesus converted water into wine. Witnessing this miracle, John immediately became a Christian proselyte, left his wife and followed Jesus. He was the author of the fourth gospel, called after him, written in the Greek language, in the city of Ephesus.

These are the four gospels of the Christian New Testament, although Moslems do not believe them to contain the uncorrupted word of God. They are nothing more than biographical works which are liable to defects and errors. There was but one Gospel, namely, the "Evangel" which God vouchsafed to give to Jesus, for him to preach to the Israilites. The Book containing the True Word of God must needs be free from all discrepancies; yet it is written in St. Mark's gospel, that in the book of the Prophet Isaiah it was said by God: 'I have sent an Angel before thy face,' namely, before the face of Jesus; whereas the words *are not* in the book of Isaiah, but in that of Malachi (see St. Mark R V) Again it is related in St. Matthew's gospel (Matt. xii. 40) that Jesus said 'My body will remain in the belly, of the earth three days and three nights after my death, just as Jones was in the whale's belly,' and it is evident this was not true, for St. Matthew himself agrees with the three other writers of the gospels, that Jesus died at the sixth hour on Friday, and was buried at the first hour of the night and rose from the dead early on Sunday morning, so that he remained in the belly of the earth two nights only.

Islam and the Four Gospels

As already pointed out, Moslems do not admit the authenticity of the Gospels, or the creed contained therein, or the leading events in the life of the Holy Prophet Jesus, as depicted by these same Gospels. In this attitude Moslems are supported by the scholarly researches of devout Christians even.

2. Ordering the Prophet to praise God :

"Say, O God, possessor of the Kingdom, Thou givest dominion, to whom Thou wilt, and Thou takest away Kingdom from whom Thou wilt: Thou exaltest whom Thou wilt, and Thou humblest whom Thou wilt, in Thy hand is Good, and Thou art the Almighty : Thou causest the night to succeed the day, and Thou causest the day to succeed the night : Thou bringest forth the living out of the dead, and Thou bringest forth the dead out of the living, and Thou art the provider of substance, to whomsoever Thou wilt, without measure."

3. Right and Wrong :

"Say, whether ye conceal that which is in your hearts, or whether ye show it God knoweth it : He knoweth whatever is in heaven and whatever is on earth : and He is the Almighty. On the Day of Judgment, every soul shall find present the good which it wrought. And the evil which it wrought, will cause it such a disgrace, that it shall wish that there was a vast distance between itself and that evil."

4. Belief of the faithful :

"The Apostle (Mohammad) believeth in that which hath been sent down unto him from his Lord, as do the faithful (also) Every one (of them) believeth in God and His Angels, and His Scriptures, and His Apostles : We make no distinction between any of His Apostles. And they say 'We have listened, and so we obey. Thy mercy, O Lord, for unto Thee (O Lord) must we return.' God will not burden any soul beyond its power. It shall enjoy the good which it hath gained, and shall bear the evil which it hath wrought. O Lord, punish us not, if we forget or fall into sin ; O Lord, lay not on us a burden, like that which Thou hast laid on those who have been before us, neither make us, O Lord, to bear what we have no strength to bear, but be favourable unto us, and spare us, and be merciful unto us. Thou art our patron, help us therefore against the unbelieving people."

With regard to the New Testament, Moslems hold the belief that, although God revealed the Gospel to His Messenger Jesus Christ, the so-called gospels, ascribed to the four saints, do not represent the true word of God as revealed to the Teacher of Nazareth. With Moslems these books *are mere historical works, dealing with the history of Jesus*, and they contradict each other in certain statements. Three of the authors of the four gospels, did not see Jesus at all. (1) St. Mark did not see Jesus, until the year he was taken up to heaven. After the ascension of Jesus, St. Mark

in the Koran, to come to a reasoning with the followers of the new faith and, then, to judge for themselves, as to whether Mohammadanism was to be rejected by pure reason cleared of every grain of partiality. But the high voice from Heaven was not hearkened to and differences of a religious nature still continue between Moslems and non-Moslems.

The Koran is a Divine Book which from the day of its revelation through the message of the Arabian Prophet and Apostle of God, up to this moment, has undergone no alteration whatever [1]. It is the Sacred Book that continues to reign over the hearts of its hearers, to convince them, through their own conscience and spiritual nature of its Divine origin. No human pen, however powerful, can venture to imitate it. The miraculous nature of the Koran has, long ago, been solemnly confirmed by those who were the most competent judges. The Arabians could boast of no other literature than witty poems of eloquence in their own language,—though as they paid due honour to any distinguished poem by their famous poets—were struck with infinite admiration, when they heard the Prophet of God rehearsing certain portions of God's new Gospel to them. Their own celebrated Rabiaa, whose poem was attached to the Sacred Pantheon of the Kaaba, could, without much trouble or hesitation, judge that the Koran of Mohammad was rightly a Divine Book, and that the illiterate orphan was the true messenger of God. From the perusal of the concise, but accurate history of the Prophet, in part II of this essay, it is clear enough, how the obstinate minded Arabs of the Desert received the Book with adoration and perfect reverence. Again, the contents of the Koran most readily answer all questions that may be raised on religious or civil matters. I will quote here some translated passages from that Holy Book, as specimens of the rest, and leave them to recommend themselves :

1. Calling the Jews and Christians to come to agreement[2] with the Moslems :

"Say. O ye who have received the Scripture (Jews and Christians) come to a just determination between us and you ; that we worship not any except God, and associate no creature with Him ; and that the one of us takes no other for lord,[3] beside God. But if they turn back, say ; Bear witness that we are true believers."

---

(1) See Sir Muit's Life of Mohammad ; Dr. Hughes' Dict. of Islam.

(2) That is to come to such terms of agreement as are indispensably consonant to the doctrine of all the prophets and scriptures, and therefore cannot be reasonably rejected.

(3) The Jews and Christians used to pay rather blind obedience to their priests and monks who took upon them to pronounce what things were lawful and what were unlawful, and to dispense with the laws of God. (Sale)

where the eternal consequences of man's submission to God's holy will, or of rebellion against it, are pictured ; touching in its simple, almost crude earnestness, when it seeks again and again encouragement or consolation for God's messenger, and a solemn warning for those, to whom he has been sent, in the histories of the prophets of old : the language of the Koran adapts itself to the exigencies of everyday life, when this everyday life, in its private and public bearings, is to be brought in to harmony with the fundamental principles of the new dispensation.

"Here, therefore, its merits, as a literary production should, perhaps, not be measured by some preconceived maxims of subjective and aesthetic taste, but by the effects which it produced in Mohammad's contemporaries and fellow-countrymen. If it spoke so powerfully and convincingly to the hearts of his hearers, as to weld hitherto centrifugal and antagonistic elements into one compact and well-organised body, animated by ideas, far beyond these which had until now ruled the Arabian mind, then its eloquence was perfect, simply because it created a civilised nation out of savage tribes, and shot a fresh woof into the old warp of history.

"When a long period of conquests scattered the Arabs to the farthest East and to the farthest West, their spoken language might deviate from its pristine purity, slurring over unaccented syllables and dropping terminations. But the fine idiom of their forefathers, as deposited in the Koran, remained the language of their prayer and their pious meditation, and thus lived on with them, as a bond of unity, an object of national love and admiration, and a source of literary development, for all times [1]."

The Koran, therefore, is the last Scripture from God which has superseded by its new dispensation all preceding Scriptures, containing all comprehensible instructions and laws, all matters concerning the relation between the Creator and His creature, and between man and man. It is a miraculous book which is a poem, far beyond the power of poets to imitate, a code of laws bearing on every institution of an extensive commomwealth, on instruction, on the adminstration of justice, on military organisation, on finance, on a most careful legislation for the poor ; and a complete code of beliefs and morals : all built up on the perfected belief in the one God Who holds man's destiny in His Hand. It embodies a correct summary of the true religion which former prophets from the time of Adam had taught to their respective countries, and a solemn warning to all mankind, to whom the "Seal of Prophets" had been sent to reclaim and to reform. It exposes and refutes the pretensions and incorrect interpretations of rabbins and priests who had misled their people. These latter were often called upon,

(1) Vide Dr. Hughes' Dict. of Islam pp. 526-530.

appears to me as the real and undeniable 'seal of prophecy' in Mohammad[1] . . . ."

But the approaches to truth are many, and he who devoted all his powers and energies, with untiring patience and self-denial, to the task of leading a whole nation by one of these approaches, from a coarse and effete idolatry, to the worship of the living God, has certainly a strong claim to our warmest sympathies, as a faithful servant and noble champion of truth.

It is, however, not my intention to dwell here any longer upon this side of the question. Praise has been bestowed in this work on the Koran and its author, without stint or grudge, and the unanimity of so many distinguished voices, in this respect, will no doubt impress the general reader in favour of the sacred book of the Mohammadans which until now he may have known only by name.

Dealing with the opinion, expressed on the Koran by some European authors who dwell upon the pretended inferiority of the later portions of the Koran in comparison with the earlier chapters, Dr. Steingass ably remarks as follows :

"Not being an Arabic scholar himself (Goethe), he knew the Koran only through the translations existing at the time which follow throughout the order of the received text... Those critics, on the other hand, who view the Koran with regard to the chronological order of its constituents, follow the descending scale in their estimate. But if we consider the variety and heterogeneousness of the topics, on which the Koran touches, uniformity of style and diction can scarcely be expected ; on the contrary, it would appear to be strangely out of place. Let us not forget that in the book, as Mohammad's newest biographer, Ludolf Krehl (Das Leben des Mohammed, Leipzig 1884) expresses it, 'there is given a complete code of creed and morals, as well as of the law based thereupon. There are also the foundations laid for every institution of an extensive commonwealth, for instruction, for the administration of justice, for military organisation, for finance, for a most careful legislation for the poor : all built up on the belief in the one God Who holds man's destiny in His hand' Where so many important objects are concerned, the standard of excellence, by which we have to gauge the composition of the Koran as a whole, must needs vary with the matter treated upon in each particular case. Sublime, and chaste, where the supreme truth of God's unity is to be proclaimed ; appealing in high-pitched strains to the imagination of a poetically-gifted people,

1. See Von Goethe's, West-Oestlicher Divan.

was afterwards of great service to Mohammed, in writing answers to the satires and invectives that were made on him and his religion [1]."

Von Gœthe renowned German author, speaking of the Koran in his West-Oestlicher Divan, states:

"However often we turn to it, (the Koran), at first disgusting us each time afresh, it soon attracts, astounds and, in the end, enforces our reverence....Its style, in accordance with its contents and aim, is stern, grand, terrible,—ever and anon truly sublime...Thus, this book will go on exercising, through all ages, a most potent influence [2]."

Dr. Steingass, the learned compiler of an English-Arabic and Arabic-English Dictionary (W.H.Allen and Co,) has recorded his opinion on the Koran in Dr.Hughes' Dictionary of Islam. After alluding to the above words of Goethe Dr. Steingass writes : "These words seem to me so much the more weighty and worthy of attention, as they are uttered by one who, whatever his merits or demerits in other respects may be deemed to be, indisputably belongs to the greatest masters of language of all times, and stands foremost as a leader of modern thought and the intellectual culture of modern times". (Here Dr. Steingass quotes the words of Goethe and then says) "A work, then which calls forth so powerful and seemingly incompatible emotions, even in the distant reader,—distant as to time, and still more so, as to mental development—a work which not only conquers repugnance with which he may begin its perusals, but changes this adverse feeling into astonishment and admiration. such, a work must be a wonderful production of the human mind indeed, and a problem of the highest interest to every thoughtful observer of the destinies of mankind. Much has been said, in the preceding pages, to acknowledge, to appreciate, and to explain the literary excellencies of the Koran, and a more or less distinct admission, that Buffon's much-quoted saying : "Le style est l'homme", is here more justified than ever, underlies all these verdicts. We may well say, the Koran is one of the grandest books ever written, because it faithfully reflects the character and life of one of the greatest men that ever breathed. 'Sincerity' writes Carlyle, 'sincerity, in all senses, seems to me the merit of the Koran.' This same sincerity, this ardour and earnestness in the search for truth, this never-flagging perseverance in trying to impress it, when partly found, again and again upon his unwilling hearers,

---

(1) See Sale's Prelim. Discourse.

(2) See Goethe's West-Oestlicher Divan. These words of Goethe were placed by Mr. Rodwell by way of motto on the reverse of the title page of his translation of the Koran.

and that deficiency is made good by the Koran, it being the last divine word of God.

Let us now make a swift survey of the Koran, as far as our limited space in this work allows; for to describe it in detail would require unlimited time and space. For various reasons, all being much to the advantage of the non-Moslem reader,—I shall content myself with a number of quotations of what was written on the Koran by the pen of non Moslem critics, whose writings on the subject can be passed by a Moslem, as giving a sufficiently true picture of the Holy Koran. However, it must ever be remembered that, as a miraculously Divine Book, the Koran, when translated into a foreign language, necessarily loses a great deal of its supernatural elegance and purity of style.

Mr. Sale addresses the reader of his English version—praiseworthy as it is—in the following words :

".... though he (the reader) must not imagine the translation to come up to the original, notwithstanding my endeavours to do it justice."

In another place, the same writer comments on the Koran as follows :
"The Koran is univesally allowed to be written with the utmost elegance and purity of language, in the dialect of the tribe of the Koreish, the most noble and polite of all the Arabians; but with some mixture, though very rarely, of other dialects. It is confessedly the standard of the Arabian tongue and, as the more orthodox believe and are taught by the book itself, inimitable by any human pen, and therefore insisted on as a permanent miracle, greater than that of raising the dead, and alone sufficient to convince the world of its origin

"And to this miracle Mohammed himself chiefly appealed for the confirmation of his mission, publicly challenging the most eloquent men in Arabia which was at the same time stocked with thousands whose sole study and ambition it was, to excel in elegance of style and composition ; to produce even a single chapter that might be compared with it I will mention but one instance out of several, to show that this book was really admired for the beauty of its composition by those who must be allowed to have been competent judges. A poem of Labid Ebn Rabia, in Mohammed's time, being affixed to the gate of the temple of Mecca, an honour allowed to none but the most esteemed performances, none of the other poets durst offer anything of their own in competition with it. But the second chapter of the Koran, being affixed near it soon after, Labid himself (then an idolater) on reading the first verses only, was struck with admiration, and immediately professed the religion taught therein, declaring that such words could proceed from an inspired person only. This Labid

The crucifixion of Jesus by the Jews is entirely refuted, according to St. Barnabas and the Koran. In that Gospel, it is asserted, that Judas, the traitor, was he who was crucified, in the place of the Lord Jesus. "Of this Gospel", writes Mr. Sale, "the Moriscoes in Africa have a translation in Spanish, and there is in the library of Prince Eugene of Savoy, a manuscript of some antiquity, containing an Italian translation of the same Gospel made, it is supposed, for the use of renegades.."

In St. Barnabs' Gospel, the Prophet Mohammad is foretold by name, as the Periclyte, that is, the famous or illustrious, that being the signification of the name of Mohammad in Arabic ; thereby justifying the passage in the Koran (chap. 61) where Jesus is formally asserted to have foretold his coming, under his other name of Ahmad, which is derived from the same root as Mohammad and of the same import.

Mr. Sale states that he inspected a Spanish translation of the Italian copy ot St. Barnabas' Gospel, of which he gives the following account :

"There is a preface prefixed to it, wherein the discoverer of the original MS., who was a Christian monk called Fra Marion, tells us that, having accidentally met with a writing of Irenacus (among others), wherein he speaks against St. Paul, alleging for his authority the gospel of St. Barnabas, he became exceedingly desirous to find this gospel ; and that God, of His mercy, having made him very intimate with Pope Sixtus V (1521-1590) one day, as they were together in that Pope's library, His Holiness fell asleep and he, to employ himself, reached down a book to read, the first he laid hand on proved to be the very gospel he wanted ; overjoyed at the discovery, he scrupled not to hide his prize in his sleeve, and on the Pope's awaking, took leave of him, carrying with him that celestial treasure, by reading of which he become a convert to Mohammadanism.

"This Gospel of Barnabas contains a complete history of Jesus Christ, from His birth to His ascension, and most of the circumstances of the four real..gospels are to be found therein, but many of them turned, and some artfully enough, to favour the Mohammedan system...... The passages produced from the Italian MS. by M. de la Monnoye, are to be seen in this Spanish version almost word for word [1]."

But to return.

On the other hand, the practical side of both the Jewish and Christian dispensations, as concerning social matters and civil law, is most deficient ;

(1) Sale's preface to his translation of the Koran.

In brief, it is enjoined upon every Moslem, to believe in God's previous Books of revelations, from Adam to Jesus, in so far as the contents of any extant book of them are not contradicted by the Koran.

At the advent of Islam, the Word of God, as revealed in the Old and New Testsments, was wrapped up in various superstitions, and was spoiled by an admixture of ungodly beliefs and imaginations. The Jews were openly charged, in the early chapters of the Koran, with having corrupted their Scriptures, with stifling passages. They obstinately and impiously denied the advent of Jesus. They believed that Christ was yet to come. They spoke ill, and most wrongly and indecently, of the acknowledged Jesus Christ and of his revered mother, the Virgin Mary. They attributed to God the adoption of a son in the person of Ezra.

With regard to Christianity, its real and pure doctrines were exceedingly and abominably corrupted[1]. A sect substituted the Virgin Mary for God, or worshipped her as such. These were called the Mariamites[2].

Christians also believed in the divinity of Jesus. They worshipped him as God, called him the son of God, and even God Himself.

Dr. Hughes, commenting on the state of degradation, into which the Christian Church had fallen, at the advent of Islam, writes as follows :—

"The bitter dissensions of the Greeks, Nestorians, Eutechians and Monophysites, are matters of history, and must have held up the religion of Jesus to the ridicule of the heathen world. The controversies, regarding the nature and person of our Divine Lord, had begotten a sect of Tritheists...

"The worship of the Virgin Mary had also given rise to a religious controversy between the Antidus—Mariamites and the Collyridians ; the former holding that the Virgin Mary was not immaculate, and the latter, raising her to a position of a goddess. Under these circumstances, it is not surprising to find that the Arabian reformer turned away from Christianity[3]."

The Gospel of St. Barnabas commonly considered by Christian theologians as "apocryphal",—is most in harmony, as to matters of faith, with the Koran. Jesus Christ is spoken of in that Gospel as the servant of God ; the word of God and a Spirit from God. His miraculous birth, being born without a father was even less supernatural than the creation of Adam who was created by God's power without father or mother.

---

(1) Vide G. Sale's Prelim. Discourse. (2) Vide Dr. Hughes' Dict. of Islam p. 53.
(3) See Hughes' Dictionary of Islam. p. 53.

believe to have undergone many alterations and corruptions, though there might possibly be some part of the true word of God therein. Any passages in the present copies which in sense are not in harmony with the teachings of the Koran, as far as matters of faith are concerned, are held by Moslems to be no true revelation. Hence, such statements in the present copies of the Old and New Testaments, as attribute to God a son, or to the Divinity a plurality or a corporeal from, are dogmatically and emphatically condemned as schismatic.

On the other hand, if any precept, tenet, law or regulation, relating to mode of worship, or rules of right and wrong, found in the Koran, is in harmony with similar precepts, as taught by the Testaments, it is because such tenets are immutable and eternal, and relate to that part of God's one, true and orthodox religion which is subject to no change or alteration, inasmuch as such laws were saved from corruption.

Apparently it is due to the misunderstanding of this fundamental superstructure of the Mohammadan Religion (to wit : that from the beginning to the end of the world, there has been, and still for ever will be, but one true religion), that some of the prejudiced class of Western historians and commentators have been apt to wrongly describe such systems, rites or rules of the Religion of Islam, of which the like exist in the Jewish Scriptures, as 'borrowed' from these books. Such critics, if absolutely innocent, conscientious and well-informed, must needs admit, that these common precepts are but confirmed by the Koran as immutable in themselves.

It must be again and again re-iterated until the basis of the Religion of Islam is well understood, that this religion does not profess to be a new religion, formulated by the Prophet Mohammad, but a continuation of the true religious principles, established by God through His revelations to Adam, Noah, Abraham, Moses and to other inspired Messengers of God. The revelations of God's prophets, prior to the advent of Mohammadanism, are held to have been partly corrupted by the hand of man, through the various renderings and divers versions of same. All portions of the Word of God that were by chance, or otherwise, saved from corruption,—such as relate to that part of God's religion which is eternal and immutable,—have been preserved and confirmed by the Koran, together with other corrected beliefs and dogmas of faith, and such additional rules of practical devotion, as God judged fit for the new and eternal dispensation. Hence, it is out of place and entirely misleading, that any critic should suggest, that Mohammadanism is 'indebted,' either to tho Jewish or any other dispensation, for any elements in its system.

There are also two celebrated angels, 'Radwan' who is in charge of Paradise, and 'Malik' who is in charge of Hell.

The angels intercede for men, while they celebrate the praise of God; they implore forgiveness for the dwellers of earth. They also act as guardians for men. Each man has a succession of angels before and behind him, who watch over him by God's behest.

3. Belief in the Scriptures of God

The fundamental position, on which the superstructure of the Mohammadan Religion is erected, is that, from the beginning to the end of the world, there has been, and for ever will be, but one true orthodox religion. This true religion consists as to matter of faith, in the acknowledgement of the only true God, and in the belief in, and obedience to such messengers or prophets of God, as He has been pleased to send from time to time, with credentials, to reveal His will to mankind; and as to matter of practice, the religion of God consists in the observance of the immutable and eternal laws of right and wrong, together with such other precepts and ceremonies, as God ordained as fit, for the time being, according to the different dispensations in different ages. These precepts and ceremonies were in themselves non-essential, but they became strictly obligatory by God's positive command; and were, therefore, temporary and subject to alteration, according to His will and wisdom. Hence, the name 'Islam,' signifying absolute surrender to the will of God, is used commonly to denote the Mohammadan Religion. This name, however, also applies to God's religion, since the beginning of the World, inasmuch as all true religion is nothing, but absolute submission to God's will. As to scriptures, the Moslems are taught, that God, in divers ages of the world, gave revelations of His will in Books, to several prophets. The number of these sacred Books is said to be 104: ten Books were given to Adam, fifty to Seth, thirty to Idris (Enoch), ten to Abraham; and the other four, being the Pentateuch, the Psalms, the Gospel and the Koran, were successively delivered to Moses, David, Jesus and Mohammad. No further revelation to mankind is to be expected. The Prophet Mohammad is, as taught by the Koran, the seal of God's messengers and prophets.

All of these divine Books, except the four last, are believed to be now entirely lost. As to the Pentateuch, the Psalms and the Gospel, the Moslems give no credit to the present copies of these Books, which they

If, then, the scientific world agree, that Law predominates in matter, force and energy and if it also believes in Monism, it follows that it must believe in one design and in one mind. There may be a hundred and one laws at work in Nature, but they all converge on one purpose. In short, Law is, and must be obeyed, if the world is to go on at all. Law is the "Obeyed" Entity and in this connection, the reader may be interested to learn, that the word Allah, Who is the object of worship with Moslems, literally means "The Obeyed".

"God says", says Mohammad, "do not abuse the Universe, because *I am the Universe*."—a great truth and undeniable reality. It means, that all the manifestations of Nature are the manifestations of the God-Mind, and that all the forces and laws of Nature are the features and characteristics of that Great Being.

To be in touch with Nature, is the secret of all success, of all felicity in life ; and if, in Islam, the dictum has been pronounced, in a somewhat different language, "to imbue ourselves with Divine Attributes", it means the same thing. For the attributes of God, as mentioned in the Holy Koran, do perfectly and completely index the working of Nature ; and if, to believe in God, is to accept Him, as the Source of all Law, and to worship Him means simply to obey His Law, how can we disbelieve in the God of Islam ?

2. Belief in the Angels of God

The angels are created of light, and endowed with life, speech and reason. They are free from carnal desire and the disturbance of anger : they disobey not God in what He has commanded them, but do all that they are commanded. Their food is, to celebrate God's glory ; their drink, to proclaim His holiness ; their conversation, to commemorate God ; their pleasure, to worship Him. The angels are created in different forms and with different powers.

The number of angels is very great ; it can be known to no one except to God. Four of the angels are archangels, namely, Jibril (Gabriel), the angel of revelations ; Mikhail (Michael), the angel of rain ; Israfil, the angel who will announce the advent of Resurrection ; Azrail, the angel of death.

Every man is attended by two recording angels, called the "Kiram-ul-Katibeen," or the illustrious writers, one of whom records his good actions, and the other his evil actions. There are also two other kinds of angels, called 'Monkar' and 'Nakeer,' who examine the dead in the grave.

Note the words in italics. The whole universe has been regulated with mathematical precision ; and that we may derive the best advantage from it, we must respect the *measure*,—find out these *reckonings* and *measures*, and not make them *deficient*.

Every created thing, from the stars of heaven to the smallest herbs that grow on the earth, observes rules laid down with mathematical reckoning, and observes measures, prescribed for its creation and development.

In short everything that is created in this universe, is based on mathematical principles ; and all our scientific researches owe their existence to this science of measure and reckoning,

I could agree with Ernst Haeckel, if man, in this search for purpose in Nature, could disregard these mathematical principles. In reality we did not create purpose for Nature ; we simply discovered those measures and rules which had been laid down for the working out of the purpose.

Can we, then, deny, behind the working of Nature, the existence of some Great Mind,—the Regularizer, the Reckoner and the Measurer ? Let us, in the words of the Holy Koran, "glorify the Name of Our Lord Most High, Who creates, then balances ; Who measures, then guides".

Does evolution of matter really consist in the development of its potentialities ? Is not the human organism proved, by biological research, to be the final and best evolution of matter ?

The consciousness which is evolved out of animated matter, in the animal kingdom, in the form of impulses, evolves into natural passion in man. But this is not the final growth In its turn, it must evolve ethics and high philosophy. Where, then, is the constructive ability, inherent in matter, which should now work all the more vigorously, to sublimate my consciousoness into high moral and philosophic growth ? Do I possess a nature which automatically distinguishes between Right and Wrong ? Or must I cultivate such a nature, through guidance ? Do I, by nature, nauseate at wrong philosophy ? Do I, by instinct, spurn things injurious to my intellect ? Do I discern between wholesome and unwholesome food, without guidance ? Man, who represents the highest possible form of evolved matter, is hopelessly destitute of that constructive ability for the evolution of this intellect, which discriminates so unerringly in the physical building of organism. The very fact that, as far as the unconscious growth of matter goes, this constructive ability works so splendidly, but disappears on the rise of consciousness, proves conclusively, that it was not an inherent faculty in matter, but an external guidance, — guidance form the Source that has been called *Rabb*—Who is the God of Islam.

and that it is due to us, that it has become active. All of which tends rather to prove design, than otherwise. But there are other ways of looking at it.

If a mind works upon material, giving it shape to serve a certain purpose, it is impossible for another person, to use that material in a way other than that in which it was designed by its maker. If you deny the design of its maker, you are looking for trouble, and wasting your effort.

Here are pieces of iron and wood before me: I use them in making a machine, and any person desirous of using that machine, must do so in the way intended by me, and in that way only.

Can you use the things that God has made, otherwise than in the way intended by Him ?

Your body is a wonderful machine,—endowed with numerous faculties, to which are added Free-will, and the power of discretion. But can you use your nose for seeing ? Or can you eat through your ear ?

This machine of your body has been fashioned by an Intelligence and a Mind, and if you act contary to its designs, your actions will not be acceptable in the realm of Nature. For thus says the Holy Koran : "Is it, then, other than Allah's way that they seek to follow ; and to Him submits whoever is in the heaven or on the earth, willingly or unwillingly... And whoever desires a way other than submission (Islam) it shall not be accepted from him ; and in the end, he shall be the loser" (III. 82-84)

Again, if a particular form of matter involves, in its being, certain principles, the knowledge and application of which, alone make the realisation of that purpose possible; then it is certain that a mind has pre-ordained it. If the small form of matter had existed independently of such principles, and if there had been no need of their knowledge, nor had any advantage accrued to us in our application of such knowledge, then one might, perhaps, deny the purpose behind it.

The Holy Koran tells us, that everything in Nature is for our benefit, and further apprises us of the principles which will enable us thoroughly to make use of them : "The Beneficient God taught the Koran. He created man, taught him the mode of expression. The sun and the moon follow a *reckoning, and the herbs do obey (Him).* And the heaven, He raised it on high ; and He made the *measure* ; *that* you may not be *inordinate in respect of the measure* ; and keep up the *balance* with equity, and do not *make the measure* deficient. And the earth He has set it for living creatures ; therein are fruit and palms having sheathed clusters, and the grain with (its) husk and fragrance. Which then of the bounties of the Lord will you reject" ? (LV. 1-13).

Yet, I could even worship this Fetish of Accident, if all these defined movements of our planet had failed to produce desirable results, making for our benefit. And this being so, I am compelled to believe in some Will, under whose control Nature works, not blindly. The alternation of day and nigt—which causes changes in the weather, affecting the atmosphere, changing the course of the winds, bringing the rainy seasons and the dry weather, in a desired order ; the withering of Nature, and its resuscitation ; these, and the life of man himself, depending on the peculiar bend of the earth sphere towards its orbit, are these all at random ?

You will not find a single thing in the realm of Nature which is unconnected with your own existence. As the Book says : "Those who remember Allah.. and reflect on the creation of the heavens and the earth, (say) : Our Lord—Who looks to our sustenance and maintenance,—Thou hast not created all this in vain. Glory be to Thee." (III : 190).

The unintelligible phenomena of yesterday are, today, instinct with a great and real purpose, And so it will be with the milliards of things which still baffle us. Which being the case, I have every right to suppose that every object in Nature admits of my using it for my benefit—if only I know how,—and is subservient to me under the ordinance of some Mind, Which I call Allah ; for, did you ever think of a contrivance, or scheme out a design, in the working out of which you did not find the necessary aids already existing in Nature ?

But, you will say, things in themselves are not subject to design ; it is only man's intelligent use of them that makes them useful.

We all know that light, and the colour known as green, strengthen the sight ; and green is the prevailing colour in Nature after light. But, it is said, the green colour was not made intentionally to strengthen sight ; rather the eye became accustomed to it, and so derived benefit from it.

But consider the case of the mole. The mole has eyes, but being generally away from the light, it is blind. It cannot make its surroundings subservient to its sight. Whence it may be seen, to what an extent the eye is indebted to light and green colour.

In support of his theory, that Nature is not with purpose intrinsically, but that its purpose is, as it were, of man's contriving. Ernst Haeckel adduces the illustration of powder.

Powder was for ages lying useless and unused ;—by finding a use for it we have invested it with a purpose. But that is tantamount to asserting that inquiries have invested powder with its properties, or in other words that the purpose of the explosive was already in it, but in a dormant state ;

as an accident, but under a Law—the Law of Condensation—from the collocation of ethereal specks. But this ether, as it is called, is, in its turn, a law-ridden entity.

Ernst Haeckel and others, refusing to admit the priority of Mind to Matter, sought a way out by regarding matter and energy as one and the same thing, with "law-abidingness" as a permanent characteristic, and calling it Law-Substance. Law-Substance, therefore, is a first cause, self-created, and the creator of other things,—self-existing, and the maintainer of subsequent growth, omnipresent, and all-pervading, indestructible and infinite; add to these the attributes of all-knowing and all-powerful, designer and regularizer, and, though you style yourself atheist or free-thinker, you believe in the God of Islam. As the Holy Koran says: "And to Him doth obey what is in the heavens and the earth. And a sign to them is the night; we draw forth from it the day, then lo, they are in the dark; and the sun runs on to a term appointed for it; that is the ordinance of the Mighty and the knowing. And as for the moon, We have ordained for it stages, till it becomes again as an old dry palm-branch. Neither is it allowable to the sun, that he should overtake the moon, nor can the night outstrip the day. All float on in a sphere" (XXXIV: 37-40). Thus is the whole Solar System under Divine Ordinance.

What was that Law—the Law of Gravity,—"evolved from accidence," what made the earth stand on its orbit, with its axis inclined?

What a contradiction in terms—law and accident. To what lengths will we not go, to avoid belief in the Divine Ordinance.

Is the camera an accident? The lens, the sensitive paper. The light regulating contrivance, and so forth, all suggest design and mind; and yet the camera is but the crudest copy of an eye which is, presumably, a thing evolved at random. And what about the feeling that the image reflected produces? The lens of the camera reflects the image, but it does not see, it does not feel; whereas the eye sends a thrill into the very soul, when we see anything beautiful.

Can we give or receive a telephone message without an "exchange"? Some *design* to connect the giver and the receiver is indispensable.

The brain of an army—known in modern parlance as General Head Quarters—is preeminently the product of design. Is the brain of man just a haphazard contrivance, meaningless in its inception?

We assign a distinct design to every one of the hundred and one pipes fixed, in the machinery of an ordinary steam engine. Are the million and one nerves that work so miraculously in our own bodies, purposeless and without intent?

There are three main laws in the Universe—the Law of Creation, the Law of Substance and the Law of Evolution ; so if we seek, as it were, to personify the Great Mysterious Power, and clothe Him with attributes that we mortal men can comprehend, we shall endeavour to visualise him as Creator, Sustainer and Evolver.

The Arabic language has one word which comprises all three ideas—*Rabb-ul-Aalameen* ; the word *Rabb* signifying Creator, Sustainer, and one who has endowed every object with the capacity of ultimate development,—thereby anticipating the doctrine of Evolution, many centuries before Darwin gave his theories to the world.

At every evolutionary stage of matter, however transient it be, we find a course prescribed, and an organisation pre-ordained—Nature everywhere obeying the Law.

As the Holy Koran says :"And to Allah does obeisance whatever is in heaven and earth—willingly or unwillingly."

Over and over again, the Holy Koran lays down with great clarity, that a Reign of Law exists, dominating the whole material world; and every day, fresh discoveries of science do but prove inspired accuracy of the Sacred Book. For after all, this is the sum-total of all scientific discovery,—that all growth and all development of every element in Nature, is under the Rule of the Law.

Is, therefore, this Reign of Law,—this mechanism, as it were, of rule and regulation,—intentional ? Or is it accidental ?

Call it mechanism if you will ; but can you dissociate mechanism, from mind ?

The machine itself cannot think ; but what of the mind that made it ? Mechanism cannot construct itself.

In all human mechanism, we believe in the priority of laws and principles, on which certain mechanism is working. We acknowledge the pre-existence of the mind that devised the machine, and set it working.

Why do we hesitate, when we come to the great mechanism of Nature ? I suppose, we are afraid lest, if we once make such an admission, we shall have to accept Law, as separate from Matter,—to admit that Mind has priority over Subatance.

About seventy years ago, the Atomic theory was the popular craze. The Atom was our great God, our first cause and origin ; but later, we found this god itself a slave to Law. It was found to be, not an origin, but a product of some electronic specialization, which in its turn received its birth, not

anybody ever seen electricity ? But can we, then, deny the transmission of messages and signals to long distances, lighting and the working of machinery by means of electricity ? The discovery of ether has brought about a revolution in the world of physical science, but has any scientist been able to find it by means of his five senses ? But if we deny its existence, we find ourselves unable to explain, how the rays of the sun reach the earth, How unjust is, then, the demand that in order to be believed in, God must be visible to the eye, while there are so many things which are believed in, though they are not visible to the eye, or perceptible by any other of the five senses. God is visible, but only to the eyes that are capable of seeing Him. But if anybody is desirous of seeing Him, He is before the whole world through His powers, and in spite of His being hidden, He is the most apparent of all. This fact has been briefly, but very exquisitely mentioned in the Holy Koran in the following words :

"The eyes do not reach Him, but He reacheth the eyes : and He is the Subtile, the Knowing".

In this verse, God draws the attention of man to the fact, that his eyes are not capable of seeing Him, for He is subtile, and subtile things cannot be perceived by the eyes. What, then, is the way of knowing God ? The Koran answers this question by saying : "And He reacheth the eyes" namely though the eyes of man are not capable of seeing Him, yet he reveals Himself to man by a display of His powers, and by a manifestation of His attributes. Manifold are the ways in which He reveals Himself to man. He displays His unlimited power sometimes by terror-striking signs, sometimes by signs of mercy, and at others, by accepting prayer. If God were to be believed in, only if He were perceptible by the eye, then we should have to deny the existence of about four-fifths of the things of the world, or the existence of all things, if we accept as true the view of certain philosophers who allege, that nobody can see the substance of anything in the world, and that it is only the form that we see.

We know very little of God, and yet we know that God exists ; that there is a Great Mysterious Power, at work behind the Universe.

In ancient times, Nature, or the forces of Nature, were deemed to be freakish, capricious powers, personified, to popular intelligence, as demons, and the like. Now we know that there is nothing freakish or capricious about Nature, that Nature works in accordance with a fixed law—the law of the Universe, the law laid and established by the Great Mysterious Power at work behind ihe Universe.

All we know of that Great Mysterious Power is compounded of all we know of the various laws—discovered from time to time—which govern the Universe.

that he will acknowledge a colour, only if he is made to hear the sound of it, would not such a proposition be considered unreasonable ? Similarly, fragrance is known by means of smelling. Now, if anyone should say that he will consider a rose to be fragrant, only if he is made to taste its fragrance, would such a person be regarded as wise ? On the other hand, if any body seeks to know, by smelling, things which can be known by tasting, such as sourness and sweetness, bitterness and saltiness, he will never be able to do so. Therefore it is not right, that we should accept those things only which we can behold with our eye, and disbelieve those things which are not recognizable by the eye. How absurd is, then, the demand that God must be shown to us before we believe in Him.

Moreover, there are certain things in man himself, the existence of which he recognises, without having seen them. We do not know all things merely by seeing, but they are known by means of five different senses. Now, there are many things which are not knowable, even by these gateways of knowledge, there being other ways of knowing them. For instance, reason, memory and intelligence are things which are not denied by any body; yet nobody has ever seen, heard, tasted, smelt or touched them. How did we, then, come to know that there were such things as reason, or memory, or intelligence ? Again, has anybody ever seen, smelt, touched or tasted energy ? Even the simplest man can see that we have not known these things by means of the five senses, but that there are other evidences that have led us to the knowledge of their existence. We see that when a man is confronted with a difficulty, he thinks for a while, and then devises a plan, by which he is able to solve his difficulty. When we see difficulties being removed in this way, we conclude that there is something in man which is of service to him on such occasions, and we call it reason. Thus, we do not become aware of the existence of reason directly through the five senses, but we obtain a knowledge of it by means of its wonderful manifestations. Similarly, when we see a man able to carry heavy loads, and some man, able to carry heavier weights than others, we infer that there is a capacity in man, which enables him to bear these burdens, and which some persons possess in a greater degree than others. This capacity we call strength. We have not seen strength, but we have seen the deeds that are done by strength, and from these we have concluded its existence.

Thus, we find that the more subtile a thing is, the more hidden it is from the human eye, and it is by actions, and not by the five senses, that we perceive the existence of such things.

But God is the subtlest of all. How unjust is it, then, to say that we cannot believe in the existence of God, unless He is shown to us. Has

Omniscient and Omnipotent.

"And with Him are the keys of the secret things ; none knoweth them, but He : He knoweth whatever is on the land and in the sea ; and no leaf falleth but He knoweth it ; neither is there a grain in the darkness of the earth, nor a thing green or sere, but it is noted in a distinct writing [1]."

All-Seeing but Unseen.

"Eyes do not reach Him, but He reaches the eyes : and He is the Subtile, the All-informed."

"It is He Who in six days created the Heavens and the Earth, then ascended His throne. He knoweth that which entereth the earth, and that which goeth forth from it, and what cometh down from Heaven, and what mounteth up to it ; and wherever ye are, He is with you, and God beholdeth all your actions.

His is the Kingdom of the Heavens and the Earth : and to God shall all things return. He causeth the night to pass into the day, and He causeth the day to pass into the night ; and He knoweth the very secrets of the bosom."

The Existence of God.

Of all the doctrines and beliefs that have been objected to in this age of materialism, the greatest is the belief in the existence of God. The first demand which an atheist makes is : "If you show God to me, I will believe in Him. How can I believe in Him without seeing Him ?" Western influences have gone a long way towards effacing from the hearts of many young men, the imprint of the Divine Being, and hundreds of college students and others, have begun to deny existence of God. There are thousands of persons who, though refraining from an open declaration of their views through fear of the community, have really no faith in Him ; therefore I submit the following suggestions on the subject, that haply some fortunate soul may be benefited thereby.

Man knows different things by means of different senses. Some things we know by means of seeing, some by tasting. A colour is known by seeing. not by smelling, touching or tasting. If anybody should say,

(1) On the preserved tablet, on which are written all the deerces of God.

"Sole maker of the Heavens and the Earth, how, when He hath no consort, should He have a son ? He Hath created every thing, and He knoweth every thing.

"This is God your Lord. There is no deity but He, the creator of all things ; therefore worship Him alone ; and He watches over all things. They say ; 'The God of Mercy hath gotten offspring.' Now have ye done a monstrous thing. Almost might the very Heavens be rent thereat, and the Earth cleave asunder, and the mountains fall down in fragments, that they ascribe a son to the God of Mercy, when it beseemeth not the God of Mercy to beget a son...."

Created All Beings to Adore Him.

"I have not created Jins and men, but that they should worship Me."

How He Speaketh with Man.

"It is not for man that God should speak with him, but by vision, or from behind a veil: Or, He sendeth a messenger to reveal, by His permission, what He will : for He is exalted (and) wise.

"Thus have We sent the Spirit (Gabriel) to thee with a revelation, by our command ; Thou knewest not, ere this, what the 'Book' was, or what the (true) faith was. But We have ordained it for a light : by it will We guide whom We please of Our servants. And thou (O, Mohammad,) shalt guide their feet into the right way."

God is Creator of Good and Evil Deeds, and Yet Good is from Him, but Evil from Man in Consequence of his Ignorance or Disobedience.

"By the sun and his noonday brightness ; By the moon when she followeth him ; By the day when it revealeth his glory ; By the night when it enshroudeth him ; By the earth and Him Who spread it forth ; By a soul and Him Who revealed to it the way of wickedness and the way of piety (to choose between them)—Blessed now is he who hath kept it pure, and undone is he who hath corrupted it." "If good fortune betide them, they say, 'this is from God' and if evil betide them, they say 'this is from thee (the Prophet). Say : All is form God : Whatever good betideth thee, is from God, and whatever betideth thee, of evil, is from thyself ; and We have sent thee to mankind as an apostle : God is thy sufficient witness".

of the East nor of the West, whose oil shines out as it were, even though fire touched it not. It is light upon light. God guideth whom He will to His light, and God setteth forth parables to men, for God knoweth all things."

Provides for All.

"Whoso chooseth this quickly passing life, quickly will We bestow thereon that which We please—even on him We choose; afterwards We will appoint hell for him, in which he shall burn—disgraced, outcast.

"But they who choose the life to come and strive after it, as it should be striven for, being also believers—as for these, their striving shall be grateful (to God).

"To all—both to these and those—will We prolong the gifts of (Us We) your Lord ; for not to any shall the gifts of thy Lord be denied.

"See how We have caused some of them to excel others ; but the next life shall be greater in its grades, and greater in excellence.

"Set not up another Lord with God, lest thou sit thee down disgraced, helpless.

Thy Lord ordained that ye worship none but Him . . . ."

His Words are Countless.

"Say : Should the sea become ink, to write the words of my Lord, the sea would surely fail, ere the words of my Lord would fail, though we brought (other seas) like it in aid....

"If all the trees that are upon earth were to become pens, and if God should after that swell the sea into seven seas (of ink) His words would not be exhausted ; for God is Mighty and Wise."

Has no Offspring.

"And they say, 'God hath a son' : No ; Praise be to Him. But—His is whatever is in the Heavens and the Earth. All obey Him.

"Sole maker of the Heavens and of the Earth. And when He decreeth a thing, He only saith to it, 'Be' and it is....

"Yet have they assigned the jins to God as His associates, though He created them ; and in their ignorance they have falsely ascribed to Him sons and daughters. Glory to be Him, and high let Him be exalted above that which they attribute to Him.

Creator of all things.

"He causes the dawn to appear, and hath ordained the night for rest, and the sun and the moon for computing time. The ordinance of the Mighty, the Wise."

"And it is He Who hath ordained the stars for you, that ye may be guided thereby in the darkness of the land and of the sea. Clear have We made Our signs to men of knowledge."

"And it is He Who produced you from one man, and hath (provided for you) an abode and resting-place. Clear have We made our signs for men of insight."

"And it is He Who sendeth rain from Heaven, and We bring forth by it the buds of all the plants, and from them bring We forth the green foliage, and the close growing grain, and palm trees with sheaths of clustering dates, and gardens of grapes, and the olive and the pomegranate, like and unlike. Look ye on their fruits, when they ripen and bear fruit. Truly herein are signs unto people who believe... This is God your Lord. There is no deity but He, the creator of all things, therefore worship Him alone; and He watcheth over all things..."

"We created the heavens and the earth and all that is between them in six days, and no weariness touched Us."

Perfect in His Works.

"Blessed be He in Whose hand is the Kingdom; and over all things is He potent:

"Who hath created death and life, to prove who of you will be most righteous in deed; and He is the Mighty, the Forgiving."

"Who hath created seven heavens one above another. No defect canst thou see in the creation of the God of mercy; repeat the gaze: seest thou a single flaw?

Then twice more repeat the gaze; thy gaze shall return to thee dulled and weary."

The Light of Heaven and Earth.

"God is the Light of the Heavens and of the Earth. His light is like a niche in which there is a lamp—the lamp encased in glass—the glass, as it were a glistening star. From a blessed tree it is lighted, the olive, neither

and to give hope (of rain,) and that He sendeth down water from heaven, and quickeneth thereby the earth, after it hath been dead : verily herein are signs unto people who understand. And of His signs (this also is one, namely) that the heavens and the earth stand firm at His command : hereafter, when He shall call ye out of the earth at one summons, behold, ye shall come forth...."

"When adversity befalleth man, they call upon their Lord, turning unto Him ; afterwards, when He hath caused them to taste of His mercy, behold, a part of them associate (other deities) with their Lord ; showing themselves ungrateful for the favours which We have bestowed on them...."

"When We cause men to taste mercy, they rejoice therein ; but if evil befalleth them, for that which their hands have before committed, behold, they despair. (It is) God Who Hath created you, and hath provided food for you : hereafter will He cause you to die ; and after that, will He raise you again to life."

"(It is) God Who created you in weakness, and after weakness hath given (you) strength ; and after strength, he will (again) reduce (you) to weakness, and grey hairs : He createth that which He pleaseth ; and He (is) the Wise, the Powerful."

God's Omnipresence asserted.

"There is no private discourse among three persons, but He is the fourth of them ; nor (among) five, but He is the sixth of them ; neither (among) a smaller number than this, nor a larger, but He is with them, wheresoever they be : and He will declare unto them that which they have done, on the day of resurrection ; for God knoweth all things."

God's Omnipotence.

"God, There is no deity but He, the Living, the Self-subsisting : Neither slumber seizeth Him nor sleep ; His, whatsoever is in the heavens, and whatsoever is on the earth. Who is He that can intercede with Him, but by His permission ? He knoweth what hath been before them and what shall be after them ; yet nought of His knowledge shall they grasp, save what He willeth. His seat reaches over the heavens and the earth, and the upholding of both is no burden unto Him ; and He is the High and the Great[1]."

---

(1) The above lines contain a magnificent description of the divine majesty and providence, but it must not be supposed that the translation comes up to the dignity of the original. This passage is justly admired by the Mohammedans who recite it in their prayers, and some of them wear it about them. Vide G. Sale, Trans. of Koran.

having declared by the tongues of the Prophets, that it was due to Him by them. The worship of God is not simply the dictates of the understanding, but He sent messengers to carry to men His commands and promises and admonitions : the veracity of these messengers He proved by manifest miracles, whereby men are obliged to give credit to them in those things which they relate.

Mr. George Sale rightly comments on the Mohammadan notion of God as follows :

"That both Mohammed and those among his followers who are reckoned orthodox, had and continue to have, just and true notions of God and His attributes, appears plain from the Koran itself and all the Mohammedan divines, so that it would be loss of time, to refute those who suppose the God of Mohammed to be different from the true God, and only a fictitious deity or idol of his own creation [1]."

I will now give a translation of some quotations from the Koran, bearing on the essence of God ; this subject forming such an important feature of the teachings of the religion of Islam :—

The Unity of God : "Say : He is God, the Singular, God the Lord, He begetteth not, nor is He begotten, nor is anything equal unto Him."

"Truly your God is but one, Lord of the Heavens and of the Earth, and of all that is between them, and Lord of the points (at which the sun rises and sets in the course of the year.) God, There is no deity but He, Most excellent are His attributes."

Proofs of His existence : "The (God) bringeth forth the living out of the dead, and He bringeth forth the dead out of the living, and He quickeneth the earth after it hath been dead ; and in like manner shall ye be brought forth (from your graves.) Of His signs (one is,) that He hath created you of dust ; and behold, ye (are become) men, spread over the face of the earth. And of His signs (another is,) that He hath created for you, out of yourselves, wives, that ye may cohabit with them ; and hath put love and compassion between you : verily herein are signs unto people who consider. And of His signs (are also,) the creation of the heavans and the earth, and the variety of your languages, and of your complexions ; verily herein are signs unto men of understanding. And of His signs (are,) your sleeping by night and by day, and your seeking (to provide for yourselves) of His abundance ; verily herein (are) signs unto people who hearken. Of His signs (others are) that He showeth you the lightning, to strike terror

(1) Vide Sale's Prelim. Disc.

collision of bodies; nor in letters which are separated by the joining together of the lips, or the motion of the tongue. The Koran, the Law, the Gospel and the Psalter are books sent down by Him to His Apostles. The Koran, indeed, is read with tongues, written in books and kept in hearts: yet, as subsisting in the essence of God, it does not become liable to separation and division, when it is transferred into the hearts and the papers. Thus Moses also heard the word of God, without voice or letter, even as the saints behold the essence of God, without substance. And since these are His attributes, He lives and knows and wills and hears and sees and speaks, by life and knowledge and will and hearing and sight and word, not by His simple essence.

God's Works.

God—praised be His name—exists after such a manner, that nothing besides Him has any being, but what is produced by His operation, and flows from His justice, after the best, most excellent, most perfect and most just model. He is, moreover, wise in His works, and just in His decrees. But His justice is not to be compared with the justice of men. For a man may be held to act unjustly by invading the possessions of another; but to God, inasmuch as there is nothing which may belong to any other besides Himself, no wrong is imputable, for He cannot be considered as meddling with things not appertaining to Him. All things, Himself only excepted, genii, men, devils, angels, heaven, earth, animals, plants, substance, and their attributes, all are His creation. He created them by His power out of nothingness, and brought them into existence, when as yet they were nothing at all, but He alone existing from eternity, neither was there any other with him. Now, He created all things from the beginning, for the manifestation of His power and His will, and for the confirmation of His word which was true from all eternity. Not that He stood in need of them, nor wanted them; but He manifestly declared His glory in creating and producing and commanding, without being under any obligation, nor out of necessity. Loving, kindness, favour, and grace and beneficence, belong to Him; whereas it is in His power to pour forth upon men a variety of torments, and to afflict them with various kinds of sorrows and diseases; and should He do this, His justice would not be arraigned, nor would He be chargeable with injustice. Yet He rewards those who worship Him for their obedience, on account of His promise and beneficence, not for their merit or of necessity, since there is nothing which He is under an obligation to perform; nor can any injustice be supposed in Him, nor can He be under any obligation to any person whatsoever. That His creatures, however, should be bound to serve Him, arises from His

God's Will.

God wills those things to be that exist, and disposes of all accidents. Nothing passes in the earth or in the heavens, neither little nor much, nor small nor great, nor good nor evil, nor profitable nor hurtful, nor faith nor infidelity, nor knowledge nor ignorance, nor prosperity nor adversity, nor increase nor decrease, nor obedience nor rebellion, but by His determinate counsel and decree, and His definite sentence and will. Nor does the wink of him that sees, nor the subtlety of him that thinks, exceed the bounds of His will; but it is He who gave all things their existence or being. He is the Creator and Restorer and the sole operator of what He pleases, there is no one to reverse His decree, or delay what He has determined, nor is there any refuge for man from rebellion against Him, but only His help and mercy; nor has any man any power to perform any duty towards Him, but through His love and will. Though men, genii, angels and devils should conspire together, either to put one single atom in motion, or cause it to cease its motion, without His will and approbation, they would not be able to do so. His will subsists in His essence, with the rest of His attributes, by which He willed from eternity the existence of those things that He decreed, which were produced in their proper seasons, according to His eternal will, without any Before or After, and with agreement both with His knowledge and will, and not by methodising of thoughts, nor waiting for a proper time, for which reason no one thing is in Him a hindrance from another.

God's Hearing and Sight.

God—praised be His name—is hearing and seeing, and hears and sees. No audible sound however still, escapes His hearing; nor is anything visible so small as to escape His sight; for distance is no hindrance to His hearing, nor darkness to His sight. He sees without pupil or eye-lid, and hears without any passage or ear, even as He knows without a brain, and performs His actions without the assistance of any corporeal limb, and creates without any instrument, for His attributes are not like those of men, any more than His essence is like theirs.

God's Word.

God commands, forbids, promises, threatens by an eternal word, subsisting in His essence. Neither is it like the word of the creatures, nor does it consist in a voice, arising from the commotion of the air and the

existed before He created time and place; and He is now as He always existed. He is also distinct from the creatures by His attributes, neither is there anything besides Himself in His essence, nor is His essence in any other besides Him.

He is too holy to be subject to change, or any local motion; neither do any accidents dwell in Him, nor any contingencies befall Him; but He abides through all generations with His glorious attributes, free from all dissolution. As to the attribute of perfection, He wants no addition of perfection. As to being, He is known to exist by the apprehension of the understanding, and seen as He is by the eyes, through a favour which will be vouchsafed out of His mercy and grace, to the holy in the eternal mansion, completing their joy by vision of His glorious presence.

God's Life and Power.

God is living, powerfel, mighty, omnipotent, not liable to any defect or impotence, neither slumbering nor sleeping, nor being subject to decay or death. To Him belongs the Kingdom, the power and the might. His is the dominion and the excellence and the creation and the command. The heavens are folded in His hands, and all creatures are held within His grasp. He is the sole creator of beings and producer of things, and He is the communicator of existence, and from Him everything has its beginning. He created men and their works, and destined their maintenance, and determined their lives. Nothing that is possible, can escape His grasp, nor can the vicissitudes of things elude His power. The effects of His might are innumerable, and the objects of His knowledge infinite.

God's Knowledge.

God knows all things that can be known, and comprehends whatsoever comes to pass, from the extremities of the earth to the highest heavens: even the weight of an atom cannot escape His knowledge, either in earth or heaven. He knows all things hidden or manifest. He knows the number of leaves of the trees, of the grains of wheat and of sand. Events past and future are known to Him. He knows what enters into the heart of man, and what he utters with his mouth. He alone, except those to whom He has revealed them, knows the invisible things. He is free from forgetfulness, negligence and error. His knowledge is internal, it is not posterior to His essence.

1. Belief in God

Belief in God is best represented by the following formula which every sunni, or orthodox Mohammadan must profess sincerely :

God is one and has no partner ; Singular, without any like Him ; Uniform, having no contrary ; Separate, having no equal ; Ancient, having no first ; Eternal, having no beginning ; Everlasting, having no end ; Ever-existing, without termination ; Perpetual and constant, with neither interruption nor termination ; Ever qualified with the attributes of supreme greatness ; nor is He bound to be determined by lapse of ages or times. But He is the Alpha and Omega (the First and the Last,) and the Evident [1], and the Hidden [2].

What God is not.

God is not a formed body ; nor a measurable substance ; neither does He resemble bodies, either in their being measurable or divisible. Neither is He a substance, nor do substances exist in Him ; neither is He an accidental form, nor do accidentals exist in Him.

He is not like anything that exists, neither does anything resemble Him. He is not determined by dimensions, nor contained within bounds ; nor is He surrounded by sides ; nor is He comprised within the heavens or earth. He sits upon the throne, after the manner which He Himself has described, and in that same sense which He Himself meant : it is a sitting, far removed from any notion of contact, or resting upon, or local situation ; but both the throne itself, and whatsoever supports it, are sustained by the goodness of His power, and are conquered by His will. He is above His throne and above all things, but so above, as at the same time not to be a whit nearer to the throne and the heaven, or farther from the earth.

God is exalted by infinite degrees above the throne, no less than He is exalted above the earth, and at the same time, He is near to everything that has being ; nay, he is nearer to men than their jugular veins, and is witness to everything : though His nearness is not like the nearness of bodies ; neither is His essence like the essence of bodies. He does not exist in anything, nor does anything exist in Him ; but He is too exalted, to be contained in any place, and too holy, to be determined by time ; for He

---

(1) As to His obvious existence. (2) As to His reality.

القرآن هدى للناس وبينات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام فى مستهل كل رمضان كلمة ينفح بها الناس تشرح صدورهم لاستقبال شهر الصيام ، فوق ما هو عليه من دواعى الارتياح اليه ؛ وتوقظ فى قلوبهم عوامل الشوق الى عالم الروح ، وحوافز الانبعاث الى العمل الطيب ؛ فتسرى فى النفوس سريان الكهرباء فى الأجسام ، فتتزود زادا أدبيا تستعين به على ما هى بسبيله من المجاهدة للوصول الى الله . وقد تفضل فضيلته على عادته فأذاعها بواسطة الأهرام ، ونحن نضيفها درة عصماء الى ما ندخره من درر كلماته القيمة .

قال حفظه الله :

قال الله سبحانه : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

وصف الله سبحانه القرآن بأنه هدى ، وبأنه آيات بينات من الهدى ، ومن أجلّ الآيات البينات فى القرآن قوله سبحانه : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

فالصوم وسيلة من وسائل التقوى ، وطريق من طرق تهذيب النفوس ، فهو يروض الجسم ، ويهذب الخلق ، ويطهر الروح ويزكيها . وما من أحد فى هذه الحياة إلا وهو عرضة للفقر بعد الغنى ، والمرض بعد الصحة ، والذل بعد العز ، والنزوح عن الأوطان بعد الاطمئنان اليها ، الى غير ذلك مما هو بسبيل أن يعرض له ، وعروض هذه الأشياء على نفس مدللة ، وجسم مترف ، قد يصدمها صدمة لا تقوى على احتمالها ، ويسوق اليها الجزع ، ويورثها اليأس .

كذلك اقتضت حكمة الله أن يجعل من العبادات ما هو رياضة وإعداد لاحتمال هذه المشقات والنوائب ، فجعل منها الصوم ، وإذا كان الصوم وقاية من المعاصى ، فلا يليق أن يكون معه فحش فى القول ، وإيذاء للخلق ، بل يجب أن يكون مقترنا بالوقار والحلم ، ومقترنا بالوفاء والبذل والاحسان ، ومواساة الفقراء والضعفاء .

ومن أفضل الهدى قوله سبحانه : « يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين » .

طلب الله سبحانه الاستعانة بالصبر ، والاستعانة بالصلاة ، ولولا الصبر لما احتمل الانسان ما ينوبه مما يؤلمه ، ولكان سيئ الخلق ، فاسد التدبير سيئ الرأى ، لكن الصبر زينة للنفس

يتحلى بها الصابرون ويمتازون بها، فهم فى وقار إذا خفت الاحلام، وعزة إذا ذلت النفوس، ورضا بالقدر إذا سخط الجازعون على الأقدار، وفى طمأنينة الى ما يسوقه اليهم القضاء إذا هلعت النفوس، وأصابها اليأس، ولذلك قال الله تعالى: « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وقال « إن الله مع الصابرين » وقال « والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ».

ونحن فى هذه الحقبة من الدهر فى أشد الحاجة الى الصبر، فليتخلق المسلمون بخلق الصبر، وليستعينوا به على هذه النائبات، ليكون الله معهم، وليوفيهم أجرهم بغير حساب.

والصلاة وسيلة من وسائل العون والهدى والتقى، بل هى أكبر وسيلة الى ذلك، بل هى الوسيلة الى الصبر وغيره على شريطة أن تقام وتقوم، وأن توجد فيها الحياة وتوجد فيها الروح.

روح الصلاة: الاخلاص لله سبحانه، واستشعار العبودية، وإدراك الفرق بين المخلوق والخالق وبين المرزوق والرازق، والتوجه الى المعبود وحده لاشريك له فى العبادة، ولا شريك له فى النجوى، ولا شريك له فى الضراعة، والوقوف بين يديه مع التجرد عن غيره ومع الفناء فيه، ومع ملاحظة أنه رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الجزاء، به العون وحده وبه الاستعانة وحده

الصلاة فيها روحها تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصلاة فيها روحها تدفع الجزع وتكون وسيلة الى الصبر، والصلاة فيها روحها طهر للنفوس وتهذيب ليس وراءه تهذيب، والصلاة فيها روحها معينة على الصبر، ومعينة على إحسان الصوم، ومعينة على البذل فى سبيل الله ومساعدة البؤساء والاحسان الى اليتامى والضعفاء، ومعينة على الرفق بالعباد فيما يجب فيه الرفق، وعلى حسن المعاشرة.

والتقوى هى الأثر الذى فرض الصيام له، وفرضت سائر العبادات، فلم يفرض الصوم للجوع والعطش وترك الملذات على أن يكون هذا وحده هو المطلوب، كلا فليس لله حاجة فى أن يدع العبد طعامه وشرابه، ولكن الله يريد التقوى، ويريد تهذيب النفوس وطهرها.

تهنئتى الخالصة بشهر رمضان أزجيها الى المسلمين جميعهم فى مشرق الأرض ومغربها، ونصيحتى إليهم تلاوة القرآن فى شهر رمضان، مع التدبر والعمل به بعد التدبر؛ وليعلموا أن الحياة الدنيا متاع الغرور، وأن العاقبة للمتقين، وأن مرد الأمور جميعها إليه، وأنه مالك الملك، يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شى قدير.

محمد مصطفى المراغى

التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » :

ذكرنا لك فى مقالنا السابق بعض ما اشتملت عليه خلقة الانسان من الحكم العالية والأسرار السامية ؛ والأمر أكبر من أن نأتى على تفصيله . وعلى كل حال فمن نظر الى وظائف الأعضاء كالكبد والمعدة والأمعاء والرئتين ، ثم تهيئة السبيلين ، وما أودعه الله العينين والأذنين واليدين والرجلين الخ ، أخذ منه الدهش كل مأخذ ، وامتلأ قلبه بعظمة الله تعالى وعظيم حكمته ومختلف نعمته ، فنطق لسانه قائلا : سبحانك لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

وقد رأيت أن أذكر لك فى هذا المقال بعض ما فى الفم واللسان والريق والأسنان من اللطائف التى من علينا بها اللطيف الخبير ، فنقول :

جعل سبحانه الفم أكثر الأعضاء رطوبة والريق يتحلل اليه دائما لا يفارقه ، وجعله حلواً لا مالحاً كماء العين ، ولا مراً كالذى فى الأذن ، ولا عفنا كالذى فى الأنف ، بل هو أعذب مياه البدن وأحلاها ؛ حكمة بالغة ، فان الطعام والشراب يخالطه ، بل هو الذى يحيل الطعام ويمتزج به امتزاج العجين بالماء . فلولا أنه حلو لما التذ إنسان بل ولا حيوان بطعام ولا شراب ، ولا ساغه إلا على كره وتنغيص . ولما كان كثير من الطعام لا يمكن إحالته إلا بعد طبخه ، جعل الرب تعالى آلة للتقطيع والتفصيل ، وآلة للطحن ، فجعل آلة القطع وهى الثنايا وما يليها حادة الرءوس ليسهل بها القطع ، وجعل النواجذ وما يليها من الأضراس مسطحة الرءوس عريضة ليتأتى بها الطحن ، وجعلها فى أحسن نظام كاللؤلؤ المنظم ، وجعلها من الجانب الأعلى والأسفل ليتأتى بها القطع والطحن ، وجعلها من الجانب الأيمن والأيسر ، إذ ربما كلّت إحدى الآلتين أو تعطلت أو عرض لها عارض فينتقل الى الآلة الأخرى . وأيضا لو كان العمل على جانب واحد دائما أوشك أن يتعطل ويضعف .

وتأمل كيف أنبتها سبحانه من نفس اللحم وتخرج من خلاله نابتة كما ينبت الزرع فى الأرض ، ولم يكسها سبحانه لحما كسائر العظام سواها ، إذ لو كساها اللحم لتعطلت المنفعة المقصودة .

ولما كانت العظام محتاجة الى لحم يكسوها ويحفظها ، ويتلقى عنها الحر والبرد ، ويحفظ عليها رطوبتها ، لم تكمل مصلحة الحيوان إلا بهذه الكسوة . ولما كانت عظام الانسان محتاجة الى ذلك من وجه مستغنية عنه من وجه ، جعلت كسوتها منفصلة عنها ، وجعلت هى المكتسية العارية لتمام المنفعة بذلك .

ولما كانت آلة القطع والكسر والطحن لم تنشأ مع الطفل من أول نشأته كسائر عظامه لعدم حاجته إليها ، خلا عنها وقت استغنائه عنها بالرضاع ، وأعطيها وقت حاجته إليها . وفيه حكمة أخرى وهى أنه لو نشأ معه من حين يولد لأضرت بحلمة الثدى ، إذ لا عقل له يمنعه عن عضها ، فكانت الأم تمتنع عن رضاعه .

ومن عجيب أمرها الاتفاق والموالاة التى بينها وبين المعدة ، فإنه يسلم إليها الشىء اليابس والصلب فتطحنه ثم تسلمه الى اللسان فيعجنه ، ثم يسلمه الى الحلق فيوصله الى المعدة فتنضجه وتطبخه ، ثم ترسله المعدة الى الأمعاء ليتم هضمه فيها ، ويميز هناك الخبيث المؤذى من الطيب النافع ، فترسله الى الكبد فيفرز الصفراء ثم يرسله الى القلب . وبعد عملية الأذين والبطين وملاقاة الهواء فى الرئتين يرسل الى الأبهر ، ثم يتفرع منه الى جميع أنحاء البدن فيعطى كل عضو ما يناسبه والمقدار الذى يليق به ؛ فسبحان الحكيم العليم . ومن المعلوم أن الأسنان إذا عجزت عن قطع شىء وطحنه عجزت المعدة عن إنضاجه وطبخه ، فإذا كلت الأسنان كلت المعدة ، وإذا ضعفت ضعفت ، الى آخر ما يطول القول فيه ، ولا يمكننا أن نصل الى خوافيه .

وإن شئت فانظر فى أهون شىء عليك وأيسره لديك ، وهو الشعر ، وكيف خلا منه جسد المرأة التى تحسن بها الرقة والنعومة ، بخلاف الرجل .

ولنلفت نظرك الى شعر الرأس وما فيه من الحكم والمنافع . فنها وقايته عن الحر والبرد وما عسى أن يكون عند الاصطدام ، فضلا عما فيه من الحسن . أما السبب الذى صار به شعر الرأس أكثر من شعر البدن ، فهو أن البخار من شأنه أن يصعد من جميع البدن الى الدماغ . وكان هذا الشعر ناميا على الدوام لأن البخار يتصاعد الى الرأس أبدا وهو مادة الشعر ، فكان فيه تخليص للبدن من تلك المواد ، وزيادة لوقايته وغطائه .

وأما شعر الحاجبين ففيه مع الحسن والزينة والجمال وقاية العين مما ينحدر من الرأس ، وجعل هذا المقدار ، فلو نقص عنه لزالت منفعة الجمال والوقاية ، ولو زاد عليه لغطى العين وأضرّ بها وحال بينها وبين ما تدركه . ولما كان الأنفع والأصلح أن يكون شعر الهدب قائما منتصبا ، وأن يكون باقيا على عدد واحد فى مقدار واحد ، جعل منبت هذا الشعر فى جرم

صلب شبيه بالغضروف يمتد فى طول الجفن لئلا يطول وينمو . وهذا كما نشاهد النبات الذى ينبت فى الأرض الرخوة اللينة كيف يطول ويزداد ، والذى ينبت فى الأرض الصخرية لا ينمو إلا نموا يسيرا ، فكذلك الشعر النابت فى الأعضاء اللينة الرطبة فانه سريع النمو كشعر الرأس .

وأما شعر اللحية ففيه منافع ، منها الزينة والوقار والهيبة ؛ ولهذا لا يرى على الصبيان والنساء من الهيبة والوقار ما يرى على ذوى اللحى من الرجال .

ثم انظر كيف هيأ المرأة لما يراد منها ، فخلقها قابلة للتلقيح والحبل والولادة وتربية الطفل بلبن ثديها وشدة عطفها ، كما هيأ الرجل لما يراد منه . وقد قلنا إن بعض فلاسفة الأوربيين قال : « يكفينى فى الدلالة على الله وجود المرأة بجانب الرجل لبقاء النوع واستمرار وجوده » .

هذا بعض ما قاله العلماء . ولنختم كلمتنا هذه بقول الله تعالى : « يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك » ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

الجود مع الاقلال

قال أبو هريرة : ما وددت أن أحدا ولدتنى أمه إلا أم جعفر بن أبى طالب : تبعته ذات يوم وأنا جائع ، فلما بلغ الباب التفت فرآنى فقال لى : ادخل ، فدخلت ، ففكر حينا فما وجد فى بيته شيئا إلا نِحياً كان فيه سمن (النحى : زِق السمن) ، فأنزله من رف لهم فشقه بين أيدينا ، فجعلنا نلعق ما كان فيه من السمن والزيت ، وهو يقول :

ما كلف الله نفسا فوق طاقتها ... ولا تجود يد إلا بما تجد

وقال عبد الملك بن مروان : ما كنت أحب أن أحدا ولدنى من العرب إلا عروة ابن الورد لقوله :

أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى ... بجسمى مس الحق والحق جاهد
لأنى امرؤ عافى إنائى شركة ... وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

ومدحوا ما قاله صريع الغوانى فى الجود :

فلو لم يكن فى كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله

ولكنى لا أمدحه أنا ، فليس من الكرم أن تكلف نفسك ما لا تطيق ، ولكن أن تعطى من القليل الذى عندك ، أو أن تؤثر السائل على نفسك فيما لا يصل الى حد الإضرار بالنفس .

السُّنَّة

تعـــدد الزوجات

وما يترتب عليه من متاعب

عن عائشة رضى الله عنها « أن نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم كنّ حزبين ، فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة ، والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة ، فاذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يُهديها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخّرها حتى إذا كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى بيت عائشة بعث صاحب الهدية الى رسول الله صلى الله عايه وسلم فى بيت عائشة ، فكلم حزبُ أم سلمة فقلن لها كلمى رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلم الناس فيقول : من أراد أن يهدى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية فليهدها اليه حيث كان من بيوت نسائه ، فكلمته أم سلمة بما قلن ، فلم يقل لها شيئا ، فسألنها فقالت : ما قال لى شيئا ، فقلن لها : فكلميه ، قالت : فكلمْته حين دار اليها أيضا فلم يقل لها شيئا ، فسألنها فقالت : ماقال لى شيئا ، فقلن لها : كلميه حتى يكلمك ، فدار اليها فكلمته ، فقال لها : لاتؤذينى فى عائشة فان الوحى لم يأتنى وأنا فى ثوب امرأة إلا عائشة ، قالت : فقلت : أتوب الى الله من أذاك يارسول الله . ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول : إن نساءك يَنشُدنك اللهَ العدلَ فى بنت أبى بكر ، فكلمته ، فقال : يابنية ألا تحبين ما أحب ؟ قالت : بلى ، فرجعت اليهن فأخبرتهن ، فقلن : ارجعى اليه ، فأبت أن ترجع ، فأرسلن زينب بنت جحش ، فأتته فأغلظت ، وقالت : إن نساءك يَنشُدنك اللهَ العدلَ فى بنت ابن أبى قحافة ، فرفعت صوتها حتى تناولت عائشةَ وهى قاعدة فسبّتها ، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لَينظر الى عائشة هل تكلّم ، قال : فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها ، قالت : فنظر النبى صلى الله عليه وسلم الى عائشة وقال : إنها بنت أبى بكر » . رواه البخارى فى كتاب الهبة .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه إجمالا ، (٢) بيان بعض ما يترتب على تعدد الزوجية من مضار نهى عنها الدين ، (٣) بيان حكم الهدية وأن ليس على المهدى أن يتقيد بأى قيد .

(١) معنى الحديث ظاهر لاخفاء فى شىء من ألفاظه ؛ وكل ما فيه أن نساء النبى صلى الله عليه وسلم كن حزبين : حزب مع عائشة ، وهن حفصة بنت عمر رضى الله عنهما ، وصفية بنت حيى ، وسودة بنت زمعة ؛ والحزب الآخر مع أم سلمة ، وهن زينب بنت جحش الأسدية ، وأم حبيبة الأموية ، وجويرية بنت الحرث الخزاعية ، وميمونة بنت الحرث الهلالية .

ولم تكن واحدة من زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم تجهل ما كان عليه من عدل مطلق لا تشوبه أية شائبة ، ولا يمكن أن يمس من أى جانب من جوانبه ، وإنما هى الطبيعة البشرية التى فطر الله عليها النساء من غيرة على الزوج وحب الانفراد به فى كل شأن من شئونه .

وكان أكبر العاملات فى حزب أم سلمة زينب بنت جحش رضى الله عنها ، لأنها هى التى كانت تظن أنها تشابه عائشة فى جمالها ، وكانت مع هذا قريبة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ابنة عمته) ، فأثار هذا الحزب مشكلة هدايا الناس التى يبعثون بها الى رسول الله من وقت لآخر ، ويتعمدون أن يرسلوها اليه وهو فى منزل عائشة ، فأثارت هذه المسالة غضبهن ، وظنن أن فى تصرف الناس ذلك التصرف إجحافا بهن ، فبعثن أم سلمة الى الرسـول ينشدن العدل الذى هو ركن الشريعة الاسلامية ، ويطلبن التسوية فى هذه الميزة ؛ ولا يرفع هذا الحيف إلا أن يأمر النبى صلى الله عليه وسلم الناس بأن لا يقصروا الهدايا على بيت عائشة . ولا أدرى كيف يتصورن تنفيذ هذا .

هذه المسألة حملتها أم سلمة وبلغتها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسكت ولم يرد عليها ، فأعادتها له فى نوبتها الأخرى بناء على طلبهن ، فلم يرد عليها أيضا ، فكلفتها صويحباتها أن تكرر الطلب مرة ثالثة ففعلت ، فقال لها : « لا تؤذينى فى عائشة فان الوحى لم يأتنى وأنا فى ثوب امرأة إلا عائشة » .فقالت أم سلمة : أتوب الى الله من أذاك يا رسول الله . ومعنى وأنا فى ثوب امرأة إلا عائشة : فى فراش امرأة إلا عائشة . وفى بعض الروايات فى لحاف امرأة منكن غيرها . وعلى كل حال فان الأمر ظاهر ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم لا يريد إلا تفضيل الأمور المعنوية ما دامت الماديات لا يتعلق بها حق من حقوق الغير . وإذا كانت أم سلمة قد اقتنعت فان زينب بنت جحش ومن بقى من نسائه لم يقتنعن ، فوسطن فى الأمر السيدة فاطمة ، ولـكن وساطتها لم تفلح أيضا ، فذهبت زينب بنفسها ؛ وهنا تجلت مظاهر الغيرة الطبيعية ، وخرجت زينب عن طبيعتها من الـكمال المعروف عن زوجات الرسول ، واعتدت على عائشة بما قـد يكون سبا فى عرف العرب ؛ ولـكن عائشة صبرت عليها وانتظرت ما عساه أن يبدو على وجه الرسول فى مثل هذه الحالة ، فلم تر فيه مانعا من الرد على زينب ، وكانت كأبيها حافظة لأنساب العرب وتاريخهم وما لهم من مثالب ومحاسن ، فـكرّت على زينب حتى أثخنتها وأفحمتها ، وانتهت المسألة عند هذا الحد .

(٢) ولعل هـذا يرشد المسلمين الى ما قد يترتب على تعـدد الأزواج من مضار ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له المنزلة الأولى فى قلوب جميع المسلمين ، فـكانوا يفدونه بأرواحهم وأموالهم بدون تردد رجالا وإناثا ، وكانت زوجاته الطاهرات أول المخلصات له ولدينه، وأول العاملات على نشر ذلك الدين والقيام بما تفرضه عليهن آدابه وأحكامه . ولـكن مع كل هذا فقد تغلبت الطبيعة البشرية فى بعض نواحيها ، وحملتهن الغيرة على أن يتآمرن ويتحزبن فيما لا حق لهن فيه .

نعم إنهن مجتهدات ، ولهن الحق فى أن يفهمن ما لهن وما عليهن ؛ ولـكن على كل حال فالذى يجب على المسلمين هو أن يقتدوا به صلى الله عليه وسلم فى جميع أقواله وأفعاله التى جاءهم بها ، فإنه إنما يفعل ويقول بوحى من لدن عليم خبير .

لا شك فى أن تعـدد الزوجات يترتب عليه كثير من المضار الخلقية والعمرانية ، وتظهر آثاره السيئة فى الأولاد وتربيتهم ومعاملة بعضهم بعضا ، فانهم بدلا من أن يكونوا متحدين على الجهاد فى هذه الحياة ومقاومة الصعوبات التى تعترضهم ، ينقلبون أعداء يؤذى بعضهم بعضا . ولهـذا اشترط الله تعالى لمن يريد أن يعدد الزوجات أن يعدل بينهن فى الحقوق التى لا بد منها ، ومن هـذا العدلُ بين الأولاد ، فمن عجز عن العـدل أو حملته شهوته على إرضاء حبيبة وإقصاء أخرى فإنه يحرم عليه أن يعـدد الأزواج تحريما باتا . نعم لا يكلف الانسان بالعدل إلا فيما هو قادر عليه وداخل تحت اختياره من مأكل ومشرب وملبس ونحو ذلك ، أما الحب القلبى الطبيعى فذلك ليس مكلفا بالعـدل فيه لأنه ليس داخلا تحت اختياره . وفى هـذه الحالة يقول الله تعالى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل » الآية . ومعناها ظاهر ، وهو أن الانسان لا يستطيع أن يكلف قلبه أن يحب هذه مثل تلك ، لأن ذلك إنما هو فعل الله وحده ولا اختيار للانسان فيه . أما التسوية فيما عـدا ذلك من الحقوق فهى واجبة لأنها فى طوق الانسان واختياره بلا نزاع .

والذى أعتقده أن قوله تعالى : « فإن خفتم ألا تعدلوا » الآية ، زجر شديد للناس ونهى جازم عن تعدد الزوجية ، لأن مجرد الخوف من عدم العـدل يحرم التعدد ؛ فما ظنك إذا كان الرجل ضعيف الشهوة ينقاد لزوجته الجميلة لا محالة ؟ لا شك أن هذه الآية معناها الاقتصار على زوجة واحدة ، ولا عذر للناس الذين يعددون الأزواج خصوصا البؤساء الذين لا يستطيعون الانفاق على أولادهم فيتركونهم عالة يتكففون الناس ، ويتركون نساءهم عرضة للفساد بلا مبالاة .

إن هـذه الحالة الاجتماعية يجب علاجها ، ويجب أن يكون للدين سلطانه القوى فى مثل هذه الأحوال ، ويجب أن يعـلم الناس جميعا أن الدين الاسلامى مبنى على جلب المصالح ودرء المفاسد ، وأنه قائم بالقسط فى جميع أحكامه وأوامره ونواهيه ، وأنه لا ينفك عن محاربة

الشهوات الفاسدة فى كل زمان ومكان ، فلا يقر الدين الاسلامى تعدد الأزواج بدون ضرورة ، ولا يسمح لأحد أن تسوقه شهوته فى السبيل الذى يودى به ونسله بدون حساب .

وبعد : فإن النبى صلى الله عليه وسلم قدوة فى قوله وفعله ، وقد اقتضت ضرورة النبوة أن يعدد الأزواج لأسباب يقتضيها الدين ، وقد اعترف أعداؤه قبل أصدقائه بما كان عليه من عفاف وطهارة وبُعد عن الشهوات ، حتى إنه قد كان فى بعض الأوقات يعصب بطنه بالحزام (الحِجْر) لما يجده من ألم الجوع . والذى يفعل ذلك مع وجود وسائل الشهوات كلها بين يديه لهو جدير بأن يحكم نفسه عن شهوة النساء أيضا ، ومع هذا فانه فى نضارة شبابه ومبدأ قوته كان مقصورا على زوجه السيدة خديجة رضى الله عنها ، فلم تبعثه شهوة الى غيرها ، ولم تؤثر عليه البيئة التى كان فيها فيتزوج من النساء ما يحب بدون حد ولا عد . ولكن بعد نبوته وبعد أن بلغ من العمر مبلغا تنكسر فيه حدة الشهوة غالبا ، اقتضت ظروف النبوة ، وظروف تبليغ الأحكام وحفظها ، وظروف الارتباط بالقبائل للدفاع عن الدين ، أن يخص نفسه بتعدد الأزواج ؛ ومع ذلك فقد نهاه الله تعالى عن أن يتزوج غير هذا العدد الذى اقتضته الضرورة ، فقد قال تعالى : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تَبدّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن » . ولم يكن من نسائه واحدة جميلة سوى عائشة وزينب ، وباقيهن تزوجه للضرورة التى ذكرناها ، فكان صلى الله عليه وسلم فى هذا المقام أقل من جميع أفراد أمته استمتاعا بالنساء لأنه حجر عليه أن يتزوج بغير هؤلاء ولم يكن بينهن شهيرات بالجمال . أما غيره فلا ، كما أوضحناه فى غير هذا المقام .

(٣) أما الهدية فإن الدين الاسلامى يقرها ، وقواعده العامة تحث عليها ، لأن فيها مايقوى روابط المودة بين الناس ، ويؤكد دواعى الألفة بينهم ، وكل ما يفضى الى ذلك يقره الدين حتما ، وعلى هذا فالأصل فى الهدية الجواز ؛ وإذا ترتب عليها أثر صالح كما ذكرنا كانت من أعمال البر التى يثاب الانسان على فعلها ؛ ولكن يشترط فى الهدية أن لا تكون لغرض خاص كالهدية التى توسل الى قاض أو حاكم لغرض خاص ، فإن هذه رشوة لا هدية .

وهاهنا أسئلة بعث الىّ بها بعض طلبة العلم النابهين ، فأحببت أن أذكرها وأجيبه عنها كما طلب منى ، لأن فيها فائدة عامة :

(١) لما سألت النبى أم سلمة فى مسألة الهدايا لم يرد عليها إلا فى المرة الثالثة ، ومع هذا قال لها فى الاجابة « لا تؤذينى فى عائشة فان الوحى لم يأتنى وأنا فى ثوب امرأة إلا عائشة » ، ويقول السائل : إن هذا الجواب ليس فى ظاهره إنصافا لأنها تسأل العدل فى القسمة الظاهرية . أما أنا فأقول لهذا السائل : يجب أن يعلم أن أقوال النبى وأفعاله وحركاته وسكناته فى مثل هذه المواضيع لا يقصد منها إلا أن تكون نموذجا لأمته ، فهو المشرع الأعظم الذى ينبغى للناس أن ينقلوا عنه كل ما يصدر منه بدون تردد أو ريب ، ويعملوا به .

على أن فعله فى هذا المقام فيه تأديب عظيم لأمته ، وعبرة وذكرى لقوم يعقلون ، وذلك لأن الاشتغال بمثل هذا اشتغال بسفاسف الأمور ، وطلب من الزوج لا محل له ، لأنه لا يدخل فى طاقته ، إذ ليس من الحسن مطلقا أن يقول للناس ابعثوا الى الهدايا وأنا فى بيت فلانة أو فلانة ، لأن الهدايا أمر فى ذاته لا يقصد منه إلا التحبب الى المهدى إليه . وما يدرينا أن الناس كانوا يرون أن عائشة أحق وأولى بأن ترسل لها الهدايا لأنها ابنة أبى بكر وفضله على الاسلام مشهور ، ولأنها أعلم نسائه وأشدهن معرفة بدين الله تعالى . ومن المحتم أن حب النبى صلى الله عليه وسلم إياها لم يكن ناشئا إلا عن أمر معنوى محض ، وهو ما امتازت به من علم وذكاء وفطنة ، وحفظ لشريعته التى ما عدّد الأزواج إلا من أجلها ؛ فهذه مسائل كلها ليست فى اختيار الانسان ، ولا يكلف الانسان إلا بما فى اختياره ؛ والمشرع الأعظم قدوة للناس ، فكأنه يقول لهم : لا تكلفوا أزواجكم بما ليس داخلا تحت اختيارهم ، ولا تتعلقوا بسفاسف الأمور ولا بصغائرها . كما أنه يقول لهم : إن العدل بين الزوجات فرض عليكم فى كل ما هو داخل تحت اختياركم ، أما الحب القلبى لميزة من الميزات فإنه أمر ليس داخلا تحت اختياركم . فما فعله صلى الله عليه وسلم عين الصواب ، وإنما فعله ليقتدى الناس به بعد .

(٢) يقول الأستاذ : إن النزاع الذى وقع بين زينب بنت جحش وبين عائشة وسكوت النبى صلى الله عليه وسلم يدل على جواز ذلك الموضوع . ولعله يدرك من جوابى الأول الجواب عن الثانى ، وهو أن المقام كله مقام تشريع ، فيجوز لزوج الضرائر أن يتغاضى عما عساه أن يقع بين زوجاته فى بعض الأوقات على أن يشرف عليهن من بُعد حتى لا يخرجن الى ما يؤذيهن فى دينهن أو عرضهن ، فاذا تمادين على هذا هددهن بالطلاق ، فاذا لم يرتدعن طلقهن فعلا . وهذه الحالة قد وقعت مع زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنهن لما تمادين فى هذا النضال هجرهن أولا ، ثم هددهن بالطلاق ، ثم خيرهن بعد هذا ، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، وتركن ذلك النضال ، وانتهت المسألة عند هذا كما هو معروف فى أحاديث البخارى وتفسير سورة التحريم . ومن هذا يتضح للسائل أن سكوت النبى صلى الله عليه وسلم كان عين الصواب .

أما قوله : إنها ابنة أبى بكر ، فذلك لأن زينب كانت ظالمة ، فإفحامها إفحام للظالم ، ومن شريعته صلى الله عليه وسلم النهى عن الظلم والانتصار للمظلوم ، وإلا فما شأن زينب وشأن عائشة ، وما ذنب عائشة فى هذا المقام ؟ إن الهدايا التى كانت ترسل اليها كانت تقسمها بينهن وتبعث اليهن بها ، ولم تقل للناس اهدوا الرسول وهو فى دارى ، فأى ذنب لها يستلزم غضب زينب بنت جحش حتى تشتمها ؟ لاشك فى أن فعل النبى وقوله فى هذا المقام عدل مطلق ، ومثال صالح لمن يقتدى به من أمته ، فمن ابتلى بالجمع بين الضرائر فعليه أن يقتدى بهذه الأخلاق الكريمة ، وعلى الناس أن يتخذوا من قول النبى صلى الله عليه وسلم وفعله أسوة حسنة لعلهم يفلحون ؟

عبد الرحمن الجزيرى

فى الشدائد دروس وعظات (١)

هذه نظرية علمية صحيحة لا شك فيها ، بل سنة كونية ما تخلفت ولن تتخلف ، بشرط أن يكون من نزلت به الشدة ، أو أحاط بها علما ، جامعا لصفات ثلاث : العقل ، والثقافة ، والتربية . يشهد بذلك أن الانسان مهما ارتقى فى صفاته ومواهبه ، أو انحط فى إدراكه وخلائقه ، فلن يعدو مقصودُه أن يكون جَلبَ محبوب ، أو دفع مكروه ؛ فالتخلص من المكروهات حاجة ضرورية من حاجات النفس ، كتحصيل المحبوبات سواء بسواء . ومما لا ريب فيه أن الحاجة تفتُق وجه الحيلة ، وأن المصائب مظهر المواهب ، والشدائد تصهر النفس ، وتشحذ الهمم ، وتيقظ ما فيها من غفوة وخمود .

لولا اشتعال النار فيما جاورت ماكان يعرف طيبُ عَرفِ العود

إن الأمة السعيدة هى التى تنتفع بالشدائد والمحن ، وتكون فى ذلك أشبه بالذهب يُصهر بالنار ، فيُصقل ويَنصُل ذهباً خالصاً نقياً ، فمهما أصابها من هزاهز الفتن ، وكُرَب البلايا ، فانها تثبت للصدمة ، وتسترشد فى حاضرها بما أصاب غيرها من الأمم السالفة ، وتأخذ نفسها بالحزامة والبصر بما وفقت اليه من عظة واعتبار .

أما الذين تجردوا من تلك الخلال التى أسلفنا بيانها ، فليس لهم حظ من الاعتبار بالشدائد والانتفاع بها ، وإنما الذى يصيبهم عند حلولها هو اليأس والقنوط ، وهو موت الأحياء ، إذ لا حياة مع اليأس ، ولا يأس مع الحياة . وإن فردا من الناس ، أو أمة من الأمم على هذا النحو من ضروب الخور والضعف ، جدراء بأن يصيبهم ما أصاب الأمم الضعيفة من الاستعباد والهوان ، ثم الانقراضِ والفناء .

والذين أخذوا نصيبا من الخصال المذكورة ولم يستوفوها ، فأولئك يكون اعتبارهم بالشدائد ، وانتفاعهم بها على قدر ما أخذوا وحصلوا ، قل أو كثر ؛ وفى المشاهد الكونية ، والمثل العلوية ، وفى بطون التاريخ والحوادث الحاضرة ، ما يشهد بذلك ، ويدل عليه أصدق دلالة . وإن القرآن الكريم ، وهو أجمع وأفضل كتاب أنزل على خاتم الأنبياء وخيرهم صلى الله عليه وسلم ، ذكر الشدائد التى نزلت بأمم سلفت ، وبيّن أسبابها وبواعثها ، وكرر ذلك فى مواطن كثيرة ، تنبيهاً للعقلاء ، ولفتا لأنظارهم الى سنة الله فى كونه ، وعقّب ذلك بنحو قوله : « لقد كان فى قَصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترَى ، ولـكنْ تصديقَ الذى بين يديه ، وتفصيلَ كل شىء وهدى ورحمةً لقوم يؤمنون » ، وقوله : « وكلاًّ نقص عليك من

(١) أطرف حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل شيخ علماء الاسكندرية قراء العربية بهذه الكلمة القيمة بناء على دعوة من وزارة الشئون الاجتماعية ، فأصبح واجبا علينا أن نعين على توسيع دائرة انتشارها .

أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » ، وقوله : «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » ، عقب بهذه الآية كل قصة من قصص أولئك الذين أهلكهم الله بسيئات أعمالهم .

وليست العبرة والعظة فى الشدائد وحدها ، بل إن فى السعادة عظة وعبرة ، لذلك بين الله سبحانه وتعالى فى إسعاد من أسعدهم ، الأعمال الصالحة التى سعدوا بها ، فكما أن الأعمال الصالحة سبب لارتقاء الفرد والجماعة ، وسبب لتحصيل الحياة الطيبة ، كذلك أضدادها سبب للتعس فى الدنيا ، وسوء المنقلب فى الآخرة ، وذلك حكمة القصص فى القرآن ، فما كان إلا لبيان سنة الله فى خلقه التى لا تتبدل ، كما قال سبحانه وتعالى : « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

ولسنا نُبعد بالمثل لذلك فى القديم والحديث ، فالتاريخ الإسلامى حدثنا عن الشدة لقيها الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فى دعوته حين تألب عليه المشركون ، ووقفوا له بالمرصاد ، وحاولوا أن يحولوا بينه وبين دعوته الى الله تعالى ، وإبلاغها الى الناس كافة ، وخذله فى ذلك قومه من قريش ، حتى أهله وأعمامه وبنو قرابته الأدنون . ألح به صلى الله عليه وسلم العدوان والهوان ، وقل الصاحب ، وعز النصير ، وضاقت عليه وعلى أصحابه ، الفئة المجاهدة الصابرة القليلة ، مكة وشعابها ، وصارت قريش تفتقل معه من أذى الى أذى ، وتتبعه الى المجامع والأسواق ، يدعو الناس الى التوحيد ، فيقولون للناس : لا تسمعوا له ، إنه كذاب ، إنه ساحر ، إنه مجنون !

كل ذلك احتمله النبى صابرا ، واحتمل أصحابه معه أعظم السخرية والمهانة ، وباعوا أرواحهم معه بيع السماح ، فلم يعدل به عن الدعوة الى الله تعالى ، وتبليغها بكافة الطرق الى الناس ، وجعل يعالج القوم باللين مرة وبالشدة أخرى ، وفى غضون ذلك يظفر منهم بالرجل والرجلين والثلاثة ينضمون الى صفوفه وينفحون عنه وعن أنفسهم ، حتى إذا ضاق به خصومه ذرعا ، ويئسوا من انصرافه عن دعوته ، وأنه إذا استمر على ذلك نجح وخسروا فى زعمهم ، ائتمروا على قتله ، وتلك نهاية مخيفة ؛ ولكن الله أعلم نبيه الكريم بما ائتمروا به ، ورأى المعصوم صلى الله عليه وسلم بوحى منه تعالى أن يفر بدينه وبدعوته الى قوم من أهل المدينة ، تعاهدوا معه على النصر والهدم والدم ، وهم بعض الأوس والخزرج من النساء والرجال لا يزيدون على المائة ، كانوا قد تلاقوا معه سرا فى بعض حجيجهم الى مكة ، وسمعوا دعوته ، واستجابوا له ، وعقدوا معه هذا العهد . وإذ بيت الخصوم ما ائتمروا عليه من قتله صلى الله عليه وسلم فى هدأة من الليل كان النبى صلى الله عليه وسلم مع صاحبه أبى بكر يضرب فى رمال الصحراء مهاجرا الى المدينة وقد وصل اليها ، وخاب القوم فى اللحاق به ؛ وفى المدينة أنجر فجر الاسلام ، وانبثقت الدعوة فوارة ، وتمت كلمة الله .

ذلك هو المثل الأعلى لمن استوفى شرائط الكمال فى الحياة من العقل الناضج ، والثقافة العالية ، والتربية الصحيحة ، والدروس التى يُنتفع بها من ذلك . والعبرة التى تستخلص من تلك الشدة القاصمة ، هى أن الثبات على العقيدة ، والصدق فى الجهاد ، والصبر على الشدائد ، تستتبع حتما الجزاء الأوفى ، وحسن المصير . وذلك مصداق قوله تعالى : « إنه من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

ولا جرم أن الله سبحانه وتعالى حقق للمعصوم صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، رضوان الله عليهم ، نصره ووعده ، تلقاء ما احتملوا واتقوا وصبروا وصدقوا ، فبدل فقرهم غنى ، وخوفهم أمنا ، وذلتهم عزة ، وقلتهم كثرة ، ووحدتهم جماعة ، وبداوتهم حضارة ، واستخلفهم فى الأرض ، ومكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وأخضع لهم عروش الأكاسرة والقياصرة ، وملكهم زمام الدنيا فى المشرق والمغرب .

ولنضرب مثلا لمن لم يستوف شرائط الكمال فى الحياة ، بل أخذ حظا منها ، بفرنسا الصريعة الجريحة ، تلك الدولة التى شارفت السماكين ثقافة وازدهارا ، وحضارة وعمرانا ، ونافست أقوى الأمم مالا وجندا وعَتاداً ، وأحاطت بعلوم الدنيا ، حتى قصد اليها الوارد والمتردد من الشرق والغرب ، يَنهَل من وردها الصافى شرابا سائغا ، وضربت المثل للعالم كله للحرية والإخاء والمساواة ، وكانت مثابة للمضطهدين والمظلومين والفارين السياسيين من كل ملة ونحلة ؛ ولكن مع هذا كله كان ينقصها شرط أساسى لكمال الحياة وبقائها ظليلة ؛ كان ينقصها التربية الخلقية ، فقد نهِلت وعَلّت من الشهوات ، وأسرفت فى الاستمتاع بكل لذة آثمة ، وتحللت من كل قيد للآداب العامة ، والأخلاق الفاضلة ، وغفلت عن المصير للأمم التى استعبدتها الشهوات واللذات ؛ لهذا لم تحتمل الشدة فى لقاء العدو ، وانهارت عند أول صدمة ، وضربت مثلا للهزيمة والفشل ؛ وفى ذلك دروس وعظات ينتفع بها غيرها من الأمم الأخرى فى حاضرها ومستقبلها ، فتأخذ نفسها بتحصين أخلاقها ، فانها الأساس المنعة والقوة ، وأمتن الروابط بين الأسر والعشائر وأبناء الوطن .

والحرب القائمة ـ وهى تعتبر من أكبر الشدائد على الانسانية فى التاريخ ـ فيها من العظات والعبر الشىء الكثير ؛ فلقد علمتنا أن المعاهدات الدولية التى كان الوفاء بها من أقدس الواجبات ، والشرف الدولى ، لا وزن لها ولا اعتبار ، بل هى قصاصات ورق ، وأن على كل أمة أن تأخذ حذرها من الأخرى مهما كان بينهما من عهود ومواثيق .

وعلمتنا أن لا قيمة للكيان السياسى لأى أمة إلا بما تحرزه من قوة التسليح والتجنيد ، وأن لا قيمة للدول الصغيرة إلا باتحادها وترابطها كتلة واحدة . وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية .

وعلمتنا أن دعاية الأمم الى احترام الحريات السياسية ، والرثاء لها ، والبكاء عليها ، وأن الدعاية الى نقص التسليح ، ووضع موازنة عامة للدول المساحة ، كل ذلك وهم وكذب وتضليل ، وإنما هو حيلة الثعلب لتنويم الفريسة .

وعلمتنا أن العلم كالسكين تذبح بها الذبيحة للتذكية ، ويذبح بها الانسان للانتقام والشهوة ، وأن علم الدنيا لا يعصم المتصف به من اقتراف الشرور والآثام ، وأنه وحده لا يثقف الروح ، وإنما يغذى الناحية الحيوانية فى الانسان ويجعله حيوانا شرساً فتاكا ؛ فهذه المجازر البشرية ، ومحق الملايين من الخلق بلا رحمة ولا شفقة ، وتركها فى العراء تعافها الوحوش والطيور ، أكبر دليل على ذلك .

وعلمتنا أخيرا أن المدنيات الحاضرة هى مدنيات كاذبة ، وأنه جدير بالعالم أن يبحث من جديد عن مدنية جديدة تكفل له الاطمئنان والاستقرار والسعادة ، وتلك المدنية الجديدة التى نعنيها ، هى الرجوع الى الدين الصحيح .

ومن الأمم التى هى أجدر وأحرى أن تأخذ دروسا وعبرا من الحالة الحاضرة ، مصر ، فانها وإن تكن قد انتفعت بالشدائد والمحن التى صادفتها فى الحرب العالمية الكبرى ، وفى ثورتها الاستقلالية التى عقّبت الحرب ، فكسبت بجهاد شبابها ، واتحاد أقطابها استقلالا لا تزال تسعى لاستكمال بنائه ، وانتفعت بتنظيم جيش عديد الجند والسلاح والعتاد الى حد سمحت به الظروف ، وانتفعت بنشر العلوم والمعارف والثقافات ، وتأسيس الصناعات المختلفة مما سدت به بعض الحاجة التى أرهقتها فى الحرب الماضية — إن تكن قد انتفعت بالشدائد فقامت بكثير من المجهودات النافعة ، ولكنها مع الأسف لا تزال يُعْوزها كثير من المعانى والاعتبارات والمقدرات التى هى شرط جوهرى لاستدامة حياة الأمم فى الوجود وبقائها سعيدة .

يعوزها مع الأسف الكثير تقويم أخلاقها وآدابها من الاعوجاج ، فقد خرجت على تقاليدها الصالحة ، وعلى آداب دينها الحنيف ، وأصبح الفساد شائعا فى كل شىء ؛ ويعوزها مع الأسف الكثير تحصين الأسرة ، فانها قد آذنت بالتفكك والانحلال ؛ ويعوزها مع الأسف الكثير اتفاق زعمائها وأقطابها السياسيين فى وقت هى أحوج ما تكون فيه للاتحاد والتساند والترابط لدرء العدوان ، فالاختلاف فى هذا الوقت العصيب أسوأ ما ينذر بالخطر والهزيمة الى الأبد ؛ ويعوزها مع الأسف الكثير اتقاؤها فوضى الشفاعات والوساطات والمحسوبيات فى الوظائف والأعمال ، فقد أصبحت التوصيات جوازات للتوظيف فى المناصب ، والترقى فى الدرجات ، ومنح العلاوات ؛ ويعوزها مع الأسف الكثير توجيه الشباب المثقف الى النشاط الاجتماعى ، والى نواحى القوة المعنوية فى الأمم الحية ، كالاستشعار بالعزة القومية ،

والكرامة الوطنية ، ونصرة المظلوم ، وإنقاذ المكروب ، وإغاثة الملهوف ، والمروءة والنجدة والشهامة ؛ ويعوزها مع الأسف الكثير تنظيم القرية ، والعناية بصحة الفلاح ، إذ الفلاح عصب الأمة ، تقوم على سواعده حضارتها وعمرانها ورخاؤها .

وأكبر ظنى أن مصر العزيزة التى هى زعيمة الشرق العربى قد أخذت من الشدائد دروسا وعظات ، فمتى استقرت حالتها السياسية وسمحت لها الظروف المواتية ، تستطع أن تأخذ حظها من استمتاعها بالاستقلال الحقيقى فى كل ما تأتى وما تذر ؛ تستطع أن تضطلع بأعباء الحياة الصحيحة ، وأن تقتعد مكانتها تحت الشمس ، وتفوز بالعزة والسيادة والسلطان ، فى ظل زعيم الشباب المجاهد حقا ، جلالة الملك الصالح فاروق الأول ، حفظه الله لدينه ، ولشعبه ، وللوطن المفدى ؟

محمود أبو العيون
شيخ علماء الاسكندرية

كلمات فى السخاء

قال عبد الله بن عباس : سادات الناس فى الدنيا الأسخياء ، وفى الآخرة الأتقياء .

وقال أبو مسلم الخولانى وهو من الصحابة : ما شىء أحسن من المعروف إلا ثوابه ، وما كل من قدر على المعروف كانت له نية ، فاذا اجتمعت القدرة والنية تمت السعادة ؛ وأنشد :

إن المكارم كلها حسن ... والبذل أحسن ذلك الحسن
كم عارف بى لست أعرفه ... ومخبر عنى ولم يرنى
يأتيهم خبرى وإن بعدت ... دارى وبوعد عنهم وطنى
إنى لحر المال ممتهن ... ولحر عرضى غير ممتهن

وقال عبد العزيز بن مروان أخو أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان : إذا أمكننى الرجل من نفسه حتى أضع معروفى عنده ، فيده عندى أعظم من يدى عنده .

ومن الشعر المنسوب لابن عباس قوله :

إذا طارقات الهم ضاجعت الفتى ... وأعمل فكر الليل والليل عاكر
وباكرنى فى حاجة لم يجد لها ... سواى ولا من نكبة الدهر ناصر
فرجت بمالى همه عن خناقه ... وزاوله الهم الطروق المساور
وكان له فضل على بظنه ... بى الخير إنى للذى ظن شاكر

حول السيرة المحمدية

سبق أن نشر الأستاذ الكبير وجدى بك كتب النبى صلى الله عليه وسلم الى ملوك أهل زمنه وما كان لها من أثر لدى أولئك الملوك ، ثم كر على ذلك باستبعاد ما كان من ملوك النصرانية من تقارب هرقل وقوله لأبى سفيان : فان كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم الخ ، وماكان من المقوقس من قوله : وقد علمت أن نبيا قد بقى ، ومن إسلام النجاشى بالفعل ؛ استبعد كل ذلك بل جعله فى حيز غير المعقول ، بحجة أن هؤلاء الملوك كانوا متمسكين بدينهم أشد تمسك ، وأنهم كانوا يعتقدون ختم ديانتهم بتجسد الابن وافتدائه البشر الخ .

فرددت عليه أولاً بأن هذه الأخبار قد رواها أصحاب الصحيح كالبخارى فلا يصح تكذيبها بمجرد الاستبعاد ، لا سيما إذا كان ذلك الاستبعاد لم يقم على أساس . وثانيا بأن هؤلاء الملوك كانوا على ذكر من أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، وأوردت له نصوصا كثيرة من كتبهم ، ومن القرآن الذى نزل فى مواجهتهم ، تدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مبشرا به فى كتبهم ، وأنهم كانوا على علم بأمره . فلاحظ علىّ حضرة الأستاذ جملة ملاحظات أعتقد أنها غير كافية لإقناعى ولا لإقناع أحد من الناس بوجهة نظره : ذلك أنه ترك بعض الأدلة من غير رد كالدليل الذى سقته من التوراة ، وأوّل بعض الأدلة تأويلا لا يمكن قبوله بحال من الأحوال كآية « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، الى آخر الآية ، فانه جعل أولها فى حق النصارى وآخرها فى حق المسلمين ، مع ما يلزم على ذلك من تشتيت مرجع الضمائر واختلال نظام الآية ؛ مع أن الآية مسوقة مساقا واحدا لبيان حال النصارى بالنسبة الى المسلمين بعد أن بينت حال اليهود والمشركين بالنسبة اليهم . وأراد أن يتخلص من تكذيب البخارى بدعوى أن ما كذبه هو القطعة المروية عن ابن الناطورى وهو ليس بثقة عند أحد من الناس ، مع أن قصة هرقل مع أبى سفيان ليست مما رواه ابن الناطورى بل هى مروية عن أبى سفيان . وأنا فى ردى عليه لم أعرج على ما رواه ابن الناطورى ، كما أنى لم أزعم أن هرقل قد أسلم ، والقطعة التى رواها ابن الناطورى لا تدل على إسلام هرقل .

ولما كان هذا الموضوع من الخطورة بمكان ، وكان حضرة الأستاذ الكبير من الاحترام والتقدير عندنا وعند كل من يقرءون له بمكان ، وكان الكتاب المزمع إخراجه فى هذا الموضوع من الأهمية بمكان ، وكان يهمنا جدا أن يخرج هذا الكتاب سليما كاملا غير منقوص ، بعيدا عن الشوائب والشبه التى توجب الاعتراض بل الامتعاض ، وخاليا من

الآراء الخداج حتى يعم النفع به ويؤدى الى النتيجة المرجوة منه إن شاء الله تعالى ؛ لذلك كله رأيت أن أعود الى الكتابة فى هذا الموضوع ببسط أوسع ، وبأدلة أكثر وبيان أوفى ؛ وقبل أن أخوض فى الموضوع أرى لزاما علىّ أن أشكر للأستاذ ما يبذله من جهد فى خدمة الدين الاسلامى ، وأن أسأل الله تعالى أن يسددنا جميعا ويوفقنا لخدمة هذا الدين الحنيف الذى نام عنه أهله وهم فى أشد الحاجة اليه ، بل أعرضوا عنه ، وإنما يعرضون عن عزهم ومجدهم بل حياتهم « لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ، أفلا تعقلون » .

ولما كان أهم ما يدور عليه البحث فى هذا الموضوع هو : هل كان المسيحيون يعتقدون أن ديانتهم قد تمت بتجسد الابن كما يقولون ، وأن من المستحيل مجىء نبى آخر بعد عيسى عليه السلام ، أو أن الأمر بالعكس وأنهم كانوا هم واليهود أيضا يعتقدون مجىء نبى آخر ؟ فانه إذا ثبت هذا الشق الأخير كان من المعقول والمقبول ما حكى عن ملوك المسيحية من إسراع النجاشى الى الاسلام ، وتقارب هرقل وقوله ما قال ، ومجاملة المقوقس وقوله ما قال ، بخلاف ما إذا كانوا على اعتقاد تام باستحالة مجىء نبى آخر ، فان الأمر يشكل حينئذ ، وتجىء قاعدة علم النفس وعلم الاجتماع ، ويكون من المعقول ألا تتغير أفكار هؤلاء الناس دفعة واحدة ؛ بل يحتاج الأمر الى ممارسة طويلة .

لما كان الأمر كذلك رأيت أن أبدأ بهذا الأمر الذى هو بيت القصيد مما يدور اختلافنا عليه ، وسأسوق من الأدلة والوقائع المحسوسة ما يدل دلالة قاطعة على أن اليهود والنصارى كانوا على علم تام بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، مع ذكر ما أورده الأستاذ ودفعه :

١ — ورد فى إنجيل يوحنا إصحاح ١٦ : ٨ : لكنى أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ، ولكن إن ذهبت أرسله اليكم ، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطيته الخ .

وورد فيه أيضا إصحاح ١٦ : ١٢ : إن لى أمورا كثيرة لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق .

فهاتان آيتان من كتاب مقدس عندهم ، صريحتان كل الصراحة فى أنه سيأتى رسول بعد عيسى عليه السلام ، بدليل قوله : إن ذهبت أرسله ، وفى أن شريعتهم لم تكن قد تمت بعيسى عليه السلام ، بدليل قوله : ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وفى أن تمامها سيكون على يد ذلك الرسول المنتظر ، بدليل : فهو يرشدكم الى جميع الحق ، بل وتدلان فوق ذلك على أن الرسول الآتى خير وأفضل من عيسى لأنه جعل انطلاقه الذى يترتب عليه مجىء ذلك الرسول خيرا لهم ، ولا يعقل ذلك إلا إذا كان الآتى خيرا من الذاهب ، وجعل تمام الشريعة على يده ، وفيه إشارة يفهمها ذوو الألباب الى هذا .

هذا الفهم الذى ذهبنا اليه يكاد يكون فى مستوى البدهيات ، والخلاف فيه لا يعدو أن يكون مكابرة لا تسمع . ولكن الأستاذ لم يرتض هذا الدليل دليلا ، فأنه قال : « وما استشهد به فضيلة الأستاذ من إنجيل يوحنا وعده علماؤنا تبشيرا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فأنهم ينكرون أن المقصود به محمد ويقولون إن المقصود به روح القدس ، وهو الأقنوم الثالث من الأقانيم الثلاثة فى شريعتهم ، وقد أجمعوا على ذلك من أول عهدهم بالنصرانية الى اليوم » .

هذا هو الرد الذى رد به الأستاذ الذى يريد أن ينفى السيرة المحمدية مما علق بها من الأساطير الخيالية ، فقل لى بربك ما هو الأقنوم الثالث الذى سيرسل بعد عيسى عليه السلام ويكون خيرا من عيسى ويبين لهم كل شىء ويبكت العالم ؟ هل هو رجل يمشى على رجلين ويتكلم ويحتج ويبكت ويبين ويرشد ؟ وهل أرسل ذلك الأقنوم ، صلى الله عليه وسلم ، ومتى والى أى جهة ، وأين شريعته الجديدة التى هى أوفى من شريعة عيسى عليه السلام بنص الانجيل ؟

أنا أخاطب الأستاذ الذى يريد أن ينفى ما لا دليل عليه ، فهل يرى أن هذه التأويلات ليست مما لا دليل عليه حتى يعول عليها فى رده ؟ وهل كان هرقل صاحب العلم الواسع والعقل الراجح يعتقد بمثل هذه الأساطير ؟

وهل نأخذ من إيراد الأستاذ هذا الجواب مع السكوت عنه أن الأستاذ يرى أن عيسى عليه السلام جاء بالتثليث لأن هذا لازم قولهم بالأقانيم الثلاثة لأول عهدهم بالنصرانية ، لأنهم فى أول عهدهم بالنصرانية لم يكن عندهم إلا ما تلقوه عن المسيح عليه السلام مباشرة ، فكيف يقال إنهم كانوا يقولون بالتثليث فى ذلك الوقت إلا بهذا الاعتبار ؟ أما نحن فنعتقد أن هذا محض اختلاق من متأخرى النصارى ، وأن عيسى عليه السلام ما جاء إلا بالتوحيد الخالص ، شأنه فى ذلك شأن بقية إخوانه من الأنبياء والمرسلين ؛ قال الله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى » الآية ؛ وحاشى للسيد المسيح عليه السلام أنه يقول بالتثليث وهو القائل كما فى إنجيل يوحنا إصحاح ١٧ : ٣ : وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته . أليست هذه الآية نصا فى التوحيد بأبلغ وجه ؟ أليست مساوية فى المعنى لكلمة الشهادة عندنا (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ؟ وفى إنجيل يوحنا أيضا إصحاح ٨ : ٤ : وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله . أما التوراة فتكاد تكون كلها توحيدا ، وقد قرر التوحيد فيها بأشد ما يتصوره العقل ، وقد وصف الإله فيها بأنه إله غيور وبأنه نار كله الخ ، فكيف يسوغ أن نترك ما أجمعت عليه كتبنا وكتبهم ودلت عليه بداهة العقل وندعى إجماعهم على القول بالتثليث من أول عهدهم بالنصرانية ؟ أنا أشك فى أن ذلك مذكور عندهم الى أبعد حدود الشك . وأين ذكر ذلك الإجماع وما سنده ؟ نعم يوجد فى الأناجيل التعبير بالابن والآب

بكثرة ، ولكن الإنجيل نفسه حل هذا الإشكال ، ففسر الابن بالمطيع والأب بالمطاع ، ولم يخصه بعيسى عليه السلام بل أطلقه على الكل ؛ ففى الإنجيل : أنتم أبناء الله لأنكم تعبدون الله ، وأما أولئك الذين يعبدون الشيطان فإنهم أبناء الشيطان . وتكرر التعبير بأبوكم الذى فى السماء ؛ وهذا تعبير سائغ على حد قولنا : فلان هذا ابن الطريقة الشاذلية ، وابن الحانة ، إذا كان ملازما لها .

٢ — ورد فى التوراة إصحاح ٣٣ : ١ تثنية : جاء الرب من سينا وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران . وفاران هذا أحد جبال مكة ، بدليل ما ورد فى التوراة نفسها إصحاح ٢١ : ٢٠ تكوين بصدد بيان قصة اسماعيل وأمه هاجر : وكان الله مع الغلام فكبر وسكن فى البرية ، وكان ينمو رامى قوس ، وسكن فى برية فاران . ولا يخالف أحد فى أن ابراهيم إنما ذهب بابنه وزوجته هاجر الى بطحاء مكة .

وقد سكت الأستاذ عن هذا الدليل فلم ينتقده بشىء . وليت شعرى ماذا عسى كان قائلا فيه ؟ أيقول : إن الأقنوم الثالث راح الى مكة وسكن فى برية فاران ؟

وهناك أدلة كثيرة منثورة فى كتب العهدين لا داعى لذكرها وإنما نشير اليها إجمالا .

٣ — من ذلك اختلاف بنى اسرائيل لما سمعوا قول عيسى عليه السلام هل هو النبى أو المسيح ؟ فقال بعضهم : هذا بالحقيقة هو النبى ، وآخرون قالوا : هذا هو المسيح . إصحاح ٧ : ٢١ يوحنا . فهذا يدل دلالة قاطعة على أنهم كانوا ينتظرون المسيح والنبى عليهما الصلاة والسلام ، ومثل سأقيم لهم نبياً مثلك من بين بنى إخوتهم وأجعل كلامى فى فمه الخ .

وقد أشار القرآن فى مواضع كثيرة جدا الى وجود هذه البشائر فى كتبهم وأنهم يعرفون النبى صلى الله عليه وسلم حق المعرفة .

٤ — قال الله تعالى : « ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها الذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » الآية . أليس هذا يفيد أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان معلوما عندهم ؟ انظر الى قوله تعالى : « الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل » فالواو فى قوله يجدونه راجع الى أهل الكتاب لا الى المسلمين ، فهل يصح بعد هذا أن يقال : « أما أن النبى صلى الله عليه وسلم قد بشر به فى التوراة والإنجيل فصحيح ولكن ليس المعول على إيماننا نحن بذلك وإنما المعول على إيمان أصحاب تلك الكتب به ، وقد دل تاريخ الدعوة الإسلامية على أنهم لم يؤمنوا به » ؟ فما هو ذلك التاريخ الذى دل والقرآن نفسه ينادى بأنهم يعلمونه حق العلم ويجدونه مكتوبا عندهم فى كتبهم ؟ فإن أراد الأستاذ بقوله : وقد دل التاريخ على أنهم لم يؤمنوا به ، إن أراد أنهم لم

يذعنوا وينقادوا قلنا ذاك لم ندعه ، وإنما ادعينا أنهم يعلمونه وأن عـدم إيمانهم به إنما هو جحود ومكابرة .

٥ — قال الله تعالى : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الـكافرين » . فهذه الآية الـكريمة تصرح بأن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم جاءت مصداقا لما فى كتبهم ، وأنهم كانوا ينتظرونه بفروغ صبر لأنهم كانوا يترقبون النصر على يديه ، وكلما غلبهم كفار يثرب قالوا لهم : قد آن أوان نبى يبعث نقتلـكم معه قتل عاد وثمود . وقد كان هذا هو السبب فى سرعة استجابة الأنصار للدعوة الاسلامية ؛ فقد روى أنه لما دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم للاسلام قال بعضهم لبعض : هذا هو النبى الذى كانت توعدكم به يهود لا يسبقنـكم اليه . فهذه حادثة واقعية بل وقائع متكررة تدل على علمهم بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل بعثته .

٦ — روى البخارى فى آخر حـديث الهجرة ص ١٢٧ ج ١٥ قصة اسـلام عبد الله بن سلام ما نصه حرفيا : فلما جاء نبى الله صلى الله عليه وسلم جاء عبد الله بن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله وأنك جئت بحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت ، فانهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فىّ ما ليس فى ، فأرسل نبى الله صلى الله عليه وسلم فأقبلوا فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر اليهود ويلـكم اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقا وأنى جئتـكم بحق فأسلموا ، قالوا ما نعلمه ، قالوا للنبى صلى الله عليه وسـلم وقالها ثلاث مرار ، قال : فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشى لله ما كان ليسلم ، قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشى لله ما كان ليسلم ، قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا حاشى لله ما كان ليسلم . قال : يابن سلام اخرج عليهم ، فخرج فقال : يا معشر اليهود اتقوا الله فو الله الذى لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله حقا وأنه جاءكم بحق . فقالوا : كذبت . فأخرجهم النبى صلى الله عليه وسلم .

وأظن أنه ليس وراء ما جاء فى هـذا الحديث صراحة فى أنهم كانوا على بينة من أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، فها هو النبى صلى الله عليه وسلم يحلف بالله الذى لا إله إلا هو أن اليهود يعلمون أنه رسول الله حقا ، وأنه جاءهم بحق ؛ وها هو عبد الله بن سلام أعلم اليهـود وابن أعلمهم بشهادة اليهود أنفسهم يحلف بالله الذى لا إله إلا هو أن اليهود يعلمون أن محمدا رسول الله حقا وأنه جاءهم بحق . فهل يصح بعد هذا أن يدعى أن اليهود ما كانوا يعلمون من أمر النبى شيئا ، وأنهم كانوا يعتقدون انحصار النبوة فى شعب اسرائيل ، وأنها وقف عليهم لا تتعداهم الى غيرهم ، وأن كون محمد صلى الله عليه وسلم من ولد اسماعيل كاف فى نظرهم للتـكذيب به ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم منهم ؟ البقية للعدد الآتى

محمد عبد الله الجرهزى

حول هذه الملاحظات

حفز بعض ما كتبته فيما يتعلق بما روى عن هيرقل والمقوقس وعن النجاشى ، فضيلةَ الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد الله يوسف الجهنى الى إبداء ملاحظات عليه ، وقد أجبت فضيلته بما اعتقدته فاصلا فى الخلاف الذى شجر بيننا ، ولـكنه لم يقتنع به ، وبعث الى بملاحظات عليه اضطررت الى شطرها للأسباب التى قدمتها ، ولم أر بدا من التعقيب على الشطر الأول منها . وإنى قبل أن أبدأ ما أنا بسبيله مما تصديت له أشكر فضيلته على ثنائه الطيب ، وتقديره الجميل ، راجيا الله أن يجزيه عليهما الجزاء الأوفى .

وبعد ، فإن كل مسألة خـلافية إذا لم توضع وضعا محـددا من بساط البحث ، يتشعب الـكلام عليها ، ويطوح بالمتناظرين الى مواضيع جديدة ، يصبح معها الوصول الى نهاية حاسمة فى الموضوع الأصلى متعذرا .

لذلك رأيت أن أحاول وضع المسألة التى تشغلنا موضعها ، بحيث يتناولها البحث ولا يجر الى غيرها .

أصل الخلاف : أنى ارتبت فيما رواه البخارى عن حشد هيرقل لأهل دولته وعرضه الاسلام عليهم للوجوه التى ذكرتها .

فلاحظ علىّ فضيلة الأستاذ بأن روايات البخارى لا يجوز استبعادها بمجرد الظن .

فبينت لفضيلته أن هذه الرواية ليست مسندة الى الرواة الذين يزكيهم البخارى ، ولـكنها مسندة الى ابن الناطور وهو ليس بثقة عند أحد .

وارتبت أيضا فى إسـلام النجاشى ، وإعلانه الاسلام فى وسط أمة متعصبة لدينها ، واستبعدت أن يكون كتب الجواب المروى عنه فى كتب السير .

فلاحظ على فضيلة الأستاذ بأن إسلام النجاشى رواه البخارى ، وقد صلى عليه النبى بعد موته صلاة الغائب .

فدفعت ذلك بأن ذلك النجاشى الذى صلى عليه النبى ، قد يكون نجاشيا غير الذى أرسل اليه الـكتاب ، أسلم وأخفى إسلامه لتعذر إعلانه ، واستدللت على ذلك بأن البخارى لم يذكر أنه صاحب الـكتاب ، وأن مسلما تلميذه صرح بأن صاحب الـكتاب غير الذى أسلم ، فلا يبقى للجواب الذى تشككنا فيه موجب .

وشككت فى كتاب المقوقس ، وقلت إنه كان مسيحيا ، وأن المسيحيين ما كانوا ينتظرون رسولا .

فلاحظ علىّ فضيلة الأستاذ بأن النصارى كانوا ينتظرون رسولا بعد عيسى ، بدليل ما ورد فى الانجيل من التبشير به ؛ وأن اليهود كانوا ينتظرون نبيا ، بدليل ما ورد فى التوراة من ذلك أيضا .

فرددت على ذلك بأن النصارى فهموا من الانجيل بأن المبشر به فيه هو روح القدس ، وأن اليهود كانوا يتوقعون ظهور نبى ، فلما أرسل محمد صلى الله عليه وسلم من العرب كفروا به لأنهم كانوا ينتظرون أن يكون إسرائيليا .

فلاحظ علىّ بأن ذلك يخالف ما نص عليه القرآن .

فأجبته بأننا إنما نحكى فهمهم هم لا فهمنا نحن .

* * *

هذا هو الوضع الأصلى لهذه المسألة . ولما نُشرت ملاحظات الأستاذ و نُشر ردنا عليها ، أتانا من فضيلته ما يرى القراء الشطر الأول منه هنا . وها نحن نعقب عليه إحقاقا للحق ، لا إيثاراً للجدل :

قال فضيلته ما خلاصته : ولما كان أهم ما يدور عليه البحث هو : هل كان المسيحيون يعتقدون أن ديانتهم قد تمت بتجسد الابن كما يقولون ، وأن من المستحيل مجىء نبى آخر بعد عيسى ، أم كانوا هم واليهود ينتظرون مجىء نبى آخر ؟

ثم ساق فضيلته من الأدلة ما نقله عن انجيل يوحنا من أن المسيح ذاهب ، وأنه سيرسل الى قومه بمن سماه المعزّى وروح الحق ليرشدهم الى كل الحق .

وتشدد فضيلته فى دحض ما قلناه من أن النصارى إنما يعتقدون أن المسيح بشرهم بمجىء روح القدس وهو الأقنوم الإلهى الثالث فى عقيدتهم ، لا برجل رسول كما نعتقد نحن .

وبالغ فضيلته فى التشديد حتى قال : « هذا الفهم يكاد يكون فى مستوى البدهيات ، والخلاف فيه لا يعدو أن يكون مكابرة لا تسمع ، ولكن الأستاذ (يعنينى أنا) لم يرتض هذا الدليل دليلا . فانه قال : وما اشتشهد به فضيلة الأستاذ ، وعده علماؤنا تبشيرا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فانهم ينكرون أن المقصود به محمد ، ويقولون إن المقصود به روح القدس ، وهو الأقنوم الثالث من الأقانيم الثلاثة فى شريعتهم ، وقد أجمعوا على ذلك من أول عهدهم بالنصرانية الى اليوم » .

ثم قال فضيلته :

« هذا هو الرد الذى رد به الأستاذ الذى يريد أن ينقى السيرة المحمدية مما علق بها من الأوهام والخرافات ، فقل لى بربك ما هو الأقنوم الثالث الذى سيرسل بعد عيسى عليه السلام ويكون خيرا من عيسى الخ » .

ثم قال فضيلته محتدا :

« أنا أخاطب الأستاذ الذى يريد أن ينفى الأساطير الخيالية ، فهل لا يرى أن هذه التأويلات أساطير خيالية ، حتى يعول عليها فى رده (كذا) ، وهل كان هيراقل صاحب العلم الواسع ، والعقل الراجح ، يعتقد بمثل هذه الأساطير ؟ وهل نأخذ من إيراد الأستاذ هذا الجواب مع السكوت عنه ، أن الأستاذ يرى أن عيسى عليه السلام جاء بالتثليث (كذا) » .

أقول : إنى متأسف كل الأسف أن يفهم فضيلة الأستاذ مما ذكرته أنى أقر اليهود والنصارى على ما فهموه من كتبهم ، بعد أن قلت فى السطر الثامن عشر من الصفحة (٥٠١) :

« أما أن النبى صلى الله عليه وسلم قد بُشر به فى التوراة والانجيل فصحيح ، ولكن ليس المعول على إيماننا نحن بذلك ، وإنما المعول على إيمان أصحاب تلك الكتب به » .

فأنا مجرد ناقل لمذهبهم لا مثبت له ، والنقل عن الخصوم سنة متبعة ، لا تستوجب أية تبعة . وإذا كنت نقلته ولم أفنده فلأنى كنت فى مقام نسبته إليهم ، لا فى مقام مناقشتهم فيه .

وإنى لأجل أن أثبت للقراء بأن ما ذكرته عما نسميه نحن بشارة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، هو ما ذكرته عن فهم المسيحيين له ، أنقل لهم ما كتب فى دائرة المعارف الكبرى للاروس وهى أكبر موسوعة عالمية ، قال :

« إن كلمة (باراكليت) هو الاسم الذى أطلقه يوحنا صاحب الانجيل الرابع على الروح القدس .

« للباراكليت فى المذهب اليوحانّى شأن عظيم جدا . فان الكلمة الإلهية بعد أن تجسدت وأدت عملها (يريد عيسى) ، وعادت الى جوار أبيها ، تركت للحواريين المحزونين المعزِّى العظيم الشأن ، وهو الباراكليت الذى كُلف بأن يتابع الى آخر الدهر العمل الذى بدأته الكلمة الالهية ، وكان قد وعد عيسى حوارييه وهو يسلم الروح بإرساله اليهم بقوله : « سأرسل لكم الباراكليت » .

« ويوحنا صاحب الانجيل الرابع هذا ، يمثل الباراكليت تارة على شكل شخص متميز ، وتارة ـ ولكن كان هذا منه نادرا جدا ـ على حالة قوة ، على مثال ما فعل الانجيليون الثلاثة الآخر . ولكن فى تلك وفى هذه الحالة قرر يوحنا أن الباراكليت تابع للأب وللابن .

« ومما لا شبهة فيه أن الكنيسة قد اعتمدت على هذا الانجيل الرابع ، وأخذت منه الصورة الأولية لعقيدة التثليث . فالكلمة صارت بقدرة الله إلها مثل الآب ؛ وكذلك البارا كليت الذى يمثل فى هذا الانجيل اتصال الكلمة بالمؤمنين ، قد صار إلها أيضا كالآب والابن .

ثم ختمت دائرة المعارف هذا الفصل بقولها :

« وقد أهملت الكنيسة كلمة بارا كليت الآن ، وصار الشخص الثالث للثالوث المسيحى فى كل صقع مسمى بروح القدس » انتهى .

ونحن لا نورد هذا هنا لأننا نعتقده ، أو نريد المناقشة فيه ، ولكننا نورده لنقنع القراء بأننا فيما قلناه ، حكينا لهم عقيدة النصارى على ما هى عليه فى الواقع .

أفلا تعجب من أن الانجيلى يوحنا الذى استشهد فضيلة الأستاذ بقوله ، كان بسبب تصويره روح القدس شخصا متميزا ، خلافا لإخوانه الانجيليين ، حجة للنصارى فى القول بالتثليث ؟ وما داموا قد أجمعوا على القول بالتثليث على هذا النحو قبل البعثة المحمدية بقرون كثيرة ، وعلى القول بأن المعزِّى المذكور هوأحد أقانيم هذا التثليث ، وأنه قد أُرسل لهم فعلا وتولاهم بعد عيسى مباشرة ، وكُلف بتوليهم الى يوم القيامة ، فقد ثبت قولى إن النصارى ما كانوا ينتظرون رسولا بعد عيسى . وهذا لا يمنع أننا نعتقد أنهم لم يكونوا على حق من هذا الفهم ، وأن المقصود ببارا كليت فى إنجيلهم قد يكون النبى صلى الله عليه وسلم ، فصرفوه على الروح القدس ، وتحللوا بذلك من انتظار خاتم المرسلين .

لماذا سكتُّ عن تفنيد البشارات بالنبى صلى الله عليه وسلم ؟

الجواب : سكتُّ عن تفنيدها لأنى أعتقد صحتها ، كما يعتقدها فضيلة الأستاذ !

مما عجبت له من ملاحظات الأستاذ ، أن فضيلته بعد أن أتى بالبشارة الواردة فى الاصحاح ٣٣ من سفر التثنية فى التوراة قال :

« وقد سكت الأستاذ (يعنينى) عن هذا الدليل فلم ينتقده بشىء ، وليت شعرى ماذا عسى كان قائلا فيه ؟ أيقول إن الأقنوم الثالث راح الى مكة وسكن فى برية فاران الخ » ؟

قال فضيلته هذا كأني قد كذبت بوجود بشارات فى التوراة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد قلت فى السطر (١٨) من الصفحة (٥٠١) : « أما أن النبى صلى الله عليه وسلم قد بُشر به فى التوراة والانجيل فصحيح ، ولكن ليس المعول على إيماننا نحن بذلك ، وإنما المعول على إيمان أصحاب تلك الكتب به » ، ولست أظن أن من يصرح هذا التصريح ويكرره فى مقالة واحدة يصح أن يوجه إليه مثل هذا السؤال .

ولما انتهى الى قولى : « وقد دل تاريخ الدعوة الاسلامية على أنهم لم يؤمنوا به » أى بأن هذا تبشير بمحمد ، قال فضيلته : فما هو ذلك التاريخ الذى دل ، والقرآن نفسه ينادى بأنهم كانوا يعلمونه حق العلم ، ويجدونه مكتوبا عندهم فى كتبهم ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ؟

أقول : أما أنهم لم يؤمنوا به فقد دل عليه القرآن نفسه لا التاريخ وحده ، فقال تعالى : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » . وأما أن كثيرا من أحبارهم وقسا وستهم كانوا يعرفون أنه رسول ، مستدلين على ذلك بما كان مكتوبا عنه فى التوراة والانجيل ، وما شاهدوه من حاله من دلائل النبوة ، فمما لاشك فيه . فأسلم نفر منهم ، وأصر الباقون على عنادهم ، زاعمين أن هذه البشارات لاتعنيه ، حرصا على مكاناتهم أن تضيع ؛ فانقادت لهم الجماهير ، وهم أطوع إليهم من ظلالهم ، وهى طاعة ذمها الله تعالى فى قوله : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » لا بمعنى أنهم كانوا يعبدونهم ، ولكن بمعنى أنهم كانوا يصدقونهم تصديقا مطلقا ويطيعونهم .

يخلص من هذا أن الذين نزل فيهم قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » ، كانوا قلة يمكن أن تتواطأ على الكتمان والعناد ، وعلى حمل من دونها على الانكار والإصرار تقليدا لها . ودليلى على ذلك أن قبائل اليهود التى غزاها النبى صلى الله عليه وسلم كانت تؤثر الجلاء وترك المال والسلاح ، وتخرج بأجسادها مهاجرة الى حيث تتعرض لكل ما يتصور من رزايا الفاقة والاغتراب ، على أن تعترف بالاسلام دينا وبمحمد رسولا .

وقد آثر بنو النضير القتل ، وكانوا ثمان مئة ، على أن يدخلوا فى الاسلام .

فما الذى كان يمنع هؤلاء إذا كانوا يعرفون أن النبى صلى الله عليه وسلم رسول كما يعرفون أبناءهم ، أن يسلموا به وقد انتهوا الى حيث لا يدع للإصرار والعناد محلا ؟

وإذا سلمنا جدلا بأن قصة هيراقل صحيحة ، وأنه جمع أكابر دولته وعرض عليهم الاسلام ، ألم تر أنهم كما رُوى عنهم « حاصوا حيصة حمر الوحش » ، وتدافعوا الى أبواب المدينة منكرين ساخطين؟ فلو كان هؤلاء يعرفون النبى صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم أما كانوا آمنوا به ؟

ليس من السنن الإلهية فى النفوس البشرية ، أن يعرف قوم بأسرهم صحة نبوة نبى كما يعرفون أبناءهم ثم يصرون على عدم الإيمان به ، لأن ما يصدق على النفر القليلين من أصحاب الزعامة من التواطؤ على العناد والإنكار ، لا يصدق على ملايين من الناس ليس لهم فائدة من وراء ذلك العناد والإصرار ، وخاصة على مدى قرون طويلة ، فان تلك البشارات فى التوراة والانجيل لا تزال باقية على ما كانت عليه بكل لغة الى اليوم .

لذلك قلت : إن أهل الكتاب لم يؤمنوا بأن المقصود من تلك البشارات النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فكيف يتفق هذا وما نطق به القرآن من أن أهل الكتاب كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ؟

إذا رجعنا الى الآية التى وردت فيها هذه العبارة ، أمكننا أن نفهم موضوعنا على وجه يثلج عليه الصدر ، ولا يتنافى مع الحوادث وسنن الكون ، فاليك :

قال الله تعالى : « قل أى شىء أكبر شهادة ، قل الله شهيد بينى وبينكم (الخطاب للمشركين) ، وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ، قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد ، وإننى برىء مما تشركون . الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » .

سبب نزول هذه الآية أن رؤساء أهل مكة قالوا : يا محمد أما وجد الله غيرك رسولا . وقد سألنا اليهود والنصارى عنك ، فزعموا أن لا ذكر لك عندهم بالنبوة ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآيات . (الرازى ص ٢٢ ج ٤) .

الآية ناصة على أن اليهود والنصارى كانوا يعرفون أن محمدا رسول الله حقا ، كما يعرفون أبناءهم . والمعرفة الإجماعية محال ، لأن شعبا برمته متى اعتقد شيئا فلا توجد قوة فى الأرض تستطيع أن تصرفه عنه ، فكان يدخل فى الاسلام ضاربا بأقوال رؤسائه وبهم عرض الحائط .

ولكن الآية لم تنص على أن هذه المعرفة كانت بواسطة البشارات التى وردت عنه فى التوراة والانجيل ، لأنها عبارات ملغوزة أشبه بالأحاجى ، أو بالعبارات التى يستعملها كتاب الجفر مدعين بها معرفة الحوادث التى لم تقع ؛ وهذه العبارات يمكن صرفها الى نواح متعددة ، وأشخاص متعددين . وهاهى لا تزال باقية فى التوراة والانجيل ولا تصادف يهوديا أو نصرانيا يعتقد أنها تعنى محمدا ، اللهم إلا إذا كان من أهل النظر والاستدلال .

وقد صرح إمام المفسرين الرازى بأن هذه البشارات لا تحصل لأصحابها معرفة بالنبى تعدل معرفتهم بأبنائهم ، فقال :

« المكتوب فى التوراة والانجيل مجرد أنه سيخرج نبى فى آخر الزمان يدعو الخلق الى الدين الحق ، أو المكتوب فيه هذا المعنى مع تعيين الزمان والمكان والنسب والصفة والحلية والشكل ؟ فان كان الأول فذلك القدر لا يدل على أن ذلك الشخص هو محمد عليه السلام ، فكيف يصح أن يقال علمهم بنبوته مثل علمهم بنبوة أبنائهم ؟ وإن كان الثانى (أى أنه مذكور بنسبه وصفته وحليته) ، وجب أن يكون جميع اليهود والنصارى عالمين بالضرورة من التوراة والانجيل بكون محمد عليه الصلاة والسلام نبيا من عند الله تعالى ، والكذب على الجمع العظيم لا يجوز (أى أن صدور الكذب من أمة برمتها لا يعقل) ، لأنا نعلم بالضرورة أن التوراة والانجيل ما كانا مشتملين على هذه التفاصيل التامة الكاملة ، لأن هذا التفصيل إما أن يقال إنه كان باقيا فى التوراة والانجيل حال ظهور الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو يقال أنه مابقيت هذه التفاصيل فى التوراة والإنجيل فى وقت ظهوره ، لأجل أن التحريف قد تطرق اليهما قبل ذلك .

والأول باطل لأن إخفاء مثل هـذه التفاصيل التامة فى كتاب وصل الى أهل الشرق والغرب ممتنع . والثانى أيضا باطل ، لأن على هـذا التقدير لم يكن يهود ذلك الزمان ، ونصارى ذلك الزمان ، عالمين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مثل علمهم ببنوة أبنائهم ، وحينئذ يسقط هذا الكلام.

«الجواب عن الأول أن يقال : المراد بالذين آتيناهم الكتاب : اليهود والنصارى ، وهم كانوا أهلا للنظر والاستدلال ، وكانوا قد شاهدوا ظهور المعجزات على الرسول عليه الصلاة والسلام فعرفوا بواسطة تلك المعجزات كونه رسولا من عند الله » .

مؤدى كلام الامام الرازى أن البشارات المكتوبة فى التوراة والانجيل ، لم تكن تفصيلية بحيث تؤدى حتما الى الايمان بمحمد عليه السلام بدون اشتباه ، وبما أن القرآن يقرر بأن أهل الكتاب كانوا يعرفون أنه رسول كما يعرفون أبناءهم ، فيكونون قد حصّلوا هذه المعرفة من ناحية اطلاعهم على ما أتى به من المعجزات ، لا اعتماداً على البشارات ، لأنهم كانوا أهل نظر واستدلال .

هذا رأى إمام المفسرين فى قيمة تلك البشارات ، وهو لا يعدو الرأى الذى أبديناه .

بقى علينا أن نعرف : هل مراد الكتاب أن جميع اليهود والنصارى كانوا يعلمون أن محمدا رسول الله ، وأنهم إنما تظاهروا بالكفر به بغيا وعنادا ؟

محال أن يكون هذا مراد الكتاب ، ومُنزله سبحانه يعلم أن السواد الأعظم من الأمم ، وخاصة فى ذلك العهد ، لايجيلون فى شىء نظرا إلا إذا كان يتعلق بحاجاتهم المادية ، وأنهم كانوا فى حياتهم العقلية والروحية عالة على رؤسائهم الدينيين ، حتى عابهم على ذلك وعدّ عملهم هذا عبادة منهم لهم .

أما المعقول فهو أن الذين كانوا يعرفون أنه رسول كما يعرفون أبناءهم ، عدد محصور يمكن تواطؤهم على كتمان الحق حفظا لمكاناتهم المادية ، وأما الذين لم تساعدهم سلامة فطرهم على هذا التواطؤ الأثيم فأعلنوا إيمانهم ودخلوا فى جماعة المؤمنين .

هذا هو المعقول . أما حدوث هذا التواطؤ من أمة برمتها ، فلم تجر به سنة الله من لدن أن خلق العالم الى اليوم .

ومما يدل على أن الإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم بواسطة البشارات ، لم يكن سهلا على العامة ، تاريخ إسلام كعب الأحبار وهو من أعلام بنى إسرائيل . فانه لما دعا رسول الله للاسلام ، فكر فى هذه الدعوة ، ونظر وبحث ، فرجح أن القائم بها رسول ، فكان يحضر مجالسه ولكنه لم يسلم حتى يتحقق من صحة علاماته . ولما توفى صلى الله عليه وسلم وخلفه أبو بكر ، صحبه كعب الأحبار ، ولكنه لم يسلم لعدم استيفائه ما يقنعه ؛ ولما مات الصديق وخلفه عمر ،

صحبه كعب الأحبار ، ولكنه لم يسلم أيضا ، فلما مات عمر وخلفه عثمان ، صحبه كما صحب سلفيه ، ولكنه خشى أن يدركه الموت قبل أن يعلن إسلامه ، فأسلم واندمج فى زمرة المؤمنين .

فإذا كان رجل مثل كعب يحتاج الى كل هذه السنين لتحصيل العقيدة بصحة نبوة الرسول ، فمعنى ذلك أنها كانت تحتاج الى نظر واستدلال وتثبت ، وأين هذا كله من العامة ؟

يخلص من هذا أن قصد القرآن من قوله إن أهل الكتاب كانوا يعرفون النبى كما يعرفون أبناءهم ، تلك الطائفة القليلة التى يمكن تواطؤها على الكتمان والإنكار .

وعليه فان ما قلناه من أن اليهود والنصارى لم يؤمنوا بأن تلك البشارات كان المقصود بها محمداً صلى الله عليه وسلم ، صحيح لا غبار عليه .

ولِمَ نذهب بعيدا ، أليست تلك البشارات موجودة فى كتب اليهود والنصارى الى اليوم ؟ فهل يفهمون منها فى قرارة نفوسهم أنها واردة فى النبى صلى الله عليه وسلم وينكرون ذلك بأفواههم ؟ لا يمكن أن يقول بهذا أحد . ومع هذا فأنا لا أنكر أن من كبار مفكريهم من أدتهم هذه البشارات الى الايمان ، فأصبحوا يعرفون محمدا كما يعرفون أبناءهم ؛ ولكنهم مراعاة لاعتبارات شتى يكتمون ما تأدوا إليه ، ولا يبوحون به إلا لأمثالهم .

ألا ترى أن اليهود والنصارى لو كانوا آمنوا بتلك البشارات ، لكان عدد الداخلين منهم فى الاسلام يساوى على الأقل نسبيا عدد الداخلين فيه من ملل أخرى ؟ أفلا تعجب أن الذين دخلوا فيه من أصحاب هاتين الملتين وقد وُجدت تلك البشارات فى كتبهم ، أقل كثيرا جدا ممن دخل فيه من أصحاب الملل الأخرى التى لم تأت مثل تلك البشارات فى كتبهم ؟

السبب واضح ، وهو أنهم لم يؤمنوا بأن تلك البشارات قد قصد بها محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنها كما يقول الامام الرازى غير مفصلة ولا تامة ، فاذا كان منهم من كانوا يعرفون محمدا كما يعرفون أبناءهم ، فقد كان من تأثير الآيات والمعجزات التى صحبت مجيئه ، وأنا أزيد على ذلك بأن الأحوال والماجريات التى أحاطت بحياته ، دلت الكثيرين من اليهود والنصارى على أنه رسول فعرفوه كما كانوا يعرفون أبناءهم ، ولكنهم آثروا التواطؤ على الكتمان ، والعيش متمتعين بسلطانهم ، على المجاهرة بالحق وتحمل عبء الحياة الصالحة ، والتعرض لما آزمها كما تعرض لها الأنبياء والصالحون والشهداء .

إن غرضنا من هذا كله أن ننفى عن السيرة النبوية كل ما يثير أعاصير الجدل ، مكتفين بالمسلمات من الحجج ، وبالمقررات من البينات ، وهذا أفعل فى التأثير من الاستكثار مما يهيج المنازعات ، ويدعو الى المناظرات ؟

محمد فريد وجدى

باب الأسئلة والفتاوى

فى الرضاع

ورد الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر استفتاء من حضرة السيد عبد الفتاح ابراهيم يتلخص فيما يأتى :

ادعت امرأة إرضاعها لبنت عمها ، وهى أخت زوجها ، رضعات كثيرة على أحد أولادها المرزوقة بهم منه ، ثم رزقت بمولود آخر لم ترضع عليه ، ثم إن الرضيعة رزقت بابنة لها ، فأراد المولود الثانى من المرأة المدعية الارضاع التزوج بهذه البنت ــ الى أن قال المستفتى : ولا عدل هنا بهذه الدعوى لعدم توفر أسباب العدالة المعروفة لنا ، وتقر بذلك هذه المدعية ... وقد خالفت قولها أنثى أخرى تثبت إرضاع وتربية هذه البنت لمدة ثلاثة أعوام ، وأنها هى المربية لها والمرضعة الوحيدة لها المدة المذكورة ، وأنكرت دعوى المدعية الأولى وقولها .

وطلب المستفتى بيان الحكم فى هذه المسألة على المذاهب الأربعة .

الجواب :

أن الرضاع لا يثبت عند الأئمة مالك والشافعى وأبى حنيفة بقول امرأة واحدة ولو توافرت فيها شروط العدالة ، وكذلك فى إحدى الروايات عن الامام أحمد بن حنبل .

وفى رواية ثانية عن الامام أحمد أن الرضاع يثبت بقول امرأة واحدة إذا كانت مرضية ؛ وبما أن المرأة التى فى الاستفتاء ليست مرضية بل صرح فيه بأن العدالة ليست متحققة فيها ، فعلى هذه الرواية أيضا لا يكون الرضاع محرما عند الامام احمد .

وفى مذهب الامام أحمد رواية ثالثة أن الرضاع يثبت بقول امرأة واحدة وتستحلف ، ولكن هذه الرواية ضعيفة فلا تعويل عليها .

وبناء على ما تقدم : تفتى اللجنة بأن الرضاع المذكور فى السؤال لم يثبت شرعا ، ولا بأس بأن يتزوج الابن المشار اليه فى الاستفتاء بالبنت المشار اليها كذلك . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

حياة رجالات الإسلام

أبو بكر الصديق

— ٩ —

امتحان الإيمان

أرهب ساعة فى تاريخ الاسلام ، بل فى تاريخ الوجود ، ساعة أظلم فيها الكون ، وأسدل على الحياة رداء من الحزن الباخع ؛ تلك هى الساعة التى ودع فيها المصطفى سيد الوجود صلوات الله عليه هذه الحياة الى الرفيق الأعلى ، فانقطع لموته مالم ينقطع لموت أحد من الأنبياء قبله ، فطاشت من هول الخطب العقول ، وخرست الألسن ، وصمت الآذان ، وغارت الأبصار ، واختلجت البصائر ، وانحلت القوى ، وذر قرن الشر ، وانقطع وارد الخير ، ومنع خبر السماء ، وأظلمت الدنيا فى وجوه المؤمنين ، واشرأبت أعناق المنافقين ؛ روى أبو عبد الله القرطبى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال . « لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شىء ، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شىء ، وما نفضنا عن النبى صلى الله عليه وسلم الأيدى حتى أنكرنا قلوبنا » .

ياهول الحدث الجلل ! روح الحياة يفارق الحياة ؟ ثم يحيا الناس من بعده ؟ ! أى حياة هذه التى يحيونها ؟ إنها حياة العصب والدم واللحم ، وارحمتا للمؤمنين ، فقدوا النور والخير ، والبر والرحمة ، ونزحت من بين أيديهم منابع العرفان والهداية ، وانقطعت صلة السماء بالأرض ، ولم يعد لجبريل الأمين موطئ بينهم ! روى ابن سعد فى الطبقات : أن ملك الموت استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان معه جبريل الأمين ، فقال جبريل : « يا أحمد إن الله قد اشتاق إليك » ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فامض ياملك الموت لما أمرت به » ! قال جبريل : « السلام عليك يارسول الله ، هذا آخر موطئ من الأرض ، إنما كنت حاجتى من الدنيا » !

أجل ، كان امتحانا مريرا ، فوجئ به المؤمنون فسل أرواحهم من أبدانهم ، وخلع قلوبهم من صدورهم ، وأضفى عليهم الذهول والحيرة ، حتى أخذ عمر بن الخطاب بقائم سيفه وقال : « لا أسمع أحدا يقول : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا ضربته بسيفى هذا ، والله مامات رسول الله ، وإنما أرسل اليه كما أرسل الى موسى عليه الصلاة والسلام ، فلبث عن

قومه أربعين ليلة ! والله إنى لأرجو أن يقطع أيدى رجال وأرجلهم ! » فلم يقدر أحـد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرد على عمر رضى الله عنه ، وذهبت بهم الحيرة كل مذهب ؛ فمن لهم بمن يكشف عنهم هذا الـكرب الفادح ، ويحمل معهم هـذا العبء القاتل ؟ أين صاحب رسـول الله ؟ أين الصـديق ؟ أين عيلم المؤمنين ؟ أين أرسخ الناس إيمانا ؟ إنهم أحوج ما يكونون اليه فى هـذه الساعة المدلهمة ؛ وكان أبو بكر رضى الله عنه قـد رأى من النبى صلى الله عليه وسلم نشاطا فاستأذنه ليذهب الى أهله بالسُّنح من عوالى المدينة فأذن له ؛ وهـذا فى نظرنا يحمل فى باطنه سرا من أسرار الصديقية كان بتدبير الله الحـكيم ، فما كان الصـديق الحبيب ليطيق أن يشهد ما شهد الذين وصّبوا رسول الله صـلى الله عليه وسلم من الشدة ، وما كان ليستطيع أن يسمع من رسول الله صـلى الله عليه وسلم كلمة الوداع الأبدية ، وهو مذخور للمؤمنين يحمل عنهم ما يرزؤهم من فادح الخطب ، وكارث الأفداح ، فغيبه الله تعالى فى تلك الساعة ليستجم فى صـدره الإيمـان حتى يلقى عاطفة حب شخص النبى صلى الله عليه وسلم بجلائل العقل وجـلال الايمـان ، ويرد على المؤمنين ما فقدوا من روحانيتهم ؛ قال ابن المنير : « لمـا مات صلى الله عليه وسلم طاشت العقول ، فمنهم من خبل ، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام ، ومنهم من أخرس فلم يطق الـكلام ، ومنهم من أضنى ، وكان عمر ممن خبل ، وكان عثمان ممن أخرس يذهب به ويجاء ولا يستطيع كلاما ، وكان علىّ ممن أقعد فـلم يستطع حراكا ، وأضنى عبد المطلب بن أنيس فمات كمدا ، وكان أثبتهم أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، جاء وعيناه تهملان ، وزفراته تتردد ، وغصصه تتصاعد ، فدخل على النبى صلى الله عليه وسلم فأكب عليه وكشف الثوب عن وجهه ، وقال : « طبت حيا وميتا ، وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء ، فعظمت عن الصفة ، وجللت عن البـكاء ، ولو أن موتك كان اختيارا لجدنا لموتك بالنفوس » !

ثم خرج الصديق الى المسجد ليعيد للمؤمنين بعض شعورهم حتى لا يشغلهم فادح الخطب عن مدلهمات الأمـور ، فوجد عمر بن الخطاب أجزع الناس وهو يتكلم حتى أزبد شدقاه ، يحلف أن رسول الله لم يمت ، فقال الصديق الأعظم : « على رِسْلك أيها الحالف » ! فسكت عمر ، وتـكلم أبو بكر فقال : « ألا من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت » ثم تلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين » ، فتلقاها الناس من أبى بكر حين تلاها ، حتى قال قائلهم : والله لـكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية أنزلت حتى تلاها أبو بكر ؛ قال سعيد بن المسيب : إن عمر بن الخطاب قال : « والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فعقرت وأنا قائم حتى خررت على الأرض ، وأيقنت أن النبى صلى الله عليه وسلم قد مات » .

الله أكبر ! أى رجل فى بردى الصديق ؟ وأى إيمان بين جنبيه ؟ إن القلم ليعجز عن القول ، وإلا فما عساه أن يقول ؟ الصديق رفيق الغار ، وبكر الاسلام ، وأحب الناس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعرفهم بقدره ، وأصدقهم فى حبه ، ورسول الله ملء قلبه وسمعه وبصره ، ونور روحه ، أترى هؤلاء الذين أصيبوا بما أصيبوا فى صادق حزنهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يبلغون معشار ما كان ينطوى عليه قلب الصديق من الحزن على فراق الحبيب ؟ ولكنه امتحان الإيمان يجوزه الصديق ليسمو الى قيادة الأمة تثبيتا لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال الامام أبو عبد الله القرطبى عند تفسير آية « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » : هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق وجراءته ، فإن الشجاعة والجرءة حدها ثبوت القلب عند حلول المصائب ، ولا مصيبة أعظم من موت النبى صلى الله عليه وسلم ، فظهرت عنده شجاعته وعلمه ، قال الناس : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم عمر ، وخرس عثمان ، واستخفى علىّ ، واضطرب الأمر ، فكشفه الصديق بهذه الآية .

ثبّت الله المؤمنين براسخ إيمان الصديق ، وسما بهم الى روحانية أكمل ، وإيمان أقوى ، لأنه إيمان لفتهم الى مهمتهم ، والى سر إيمانهم بهذا الحب الغامر الذى انطوت عليه جوانحهم للنبى الأكرم صلوات الله عليه ، حتى أصابهم ما أصابهم من هول صدمتهم بمفارقة شخصه فى هذه الحياة ؛ إيمان لفتهم الى هذه الرسالة العظمى التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتى من أجلها حاربوا العدو والصديق ، وضحوا بالنفس والنفيس ، وفارقوا الأهل والوطن ؛ هذه الرسالة التى نزلت رحمة للانسانية فى جميع أقطار الأرض ، ولكنها لم تبلغ فى التبليغ مداها الذى قدر لها ، فمن يقوم على أدائها بعد حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم غير أصحابه وتلاميذه الأعلام ؟ وهل كان الايمان بالرسالة المحمدية فى عمومها وختمها للنبوات حبيسا على حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هذا تساؤل يمليه واقع الحال ، ويجيب عنه الصديق الأعظم بتلك الكلمة الخالدة القوية الباهرة القاهرة « ألا من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت » . فعادت الى المؤمنين سكينتهم ، وبكوا رسولهم بكاء أعز الأحباب ، ولكنهم تمثلوا رسالته وأمانة تبليغها ؛ وهنا يتجلى للمسلمين موقف يعجز القلم عن تصويره فى قوة الإيمان ورسوخ العقيدة .

ذلك أنهم ما كادوا يرون هدوء الصديق الأعظم وقوة يقينه وثباته وتذكيرهم بقانون الله تعالى فى بشرية محمد صلى الله عليه وسلم ، ويعلمون أن الله قد اختار لصفيه ما عنده من تجليات القرب على ما عندهم ، حتى وثبوا الى مجالس الشورى ، والنبى صلى الله عليه وسلم مسجى جسده الشريف فى بيته ، ليقيموا للمسلمين إماما يقودهم ويسوس أمورهم حتى يبلغوا رسالة

نبيهم صلوات الله عليه ؛ فالأنصار وهم عيبة النبي وكرشه الذين أيدوه ونصروه بأرواحهم رأوا أنهم أحقاء بهـذا الأمر ، والمهاجرون الأولون رأوا أنهم السابقون الذين حضنوا الإسـلام فى مهده ، فهم أحق بأن يأخذوا بزمام الأمر ، وكادت الفتنة تعود جزعة ، وكاد الاضطراب يتفاقم فى أمر أخطر وأعظم ، ولـكن الله تعالى الرحيم بهـذه الأمة ادّخر لها صديق نبيها لينقذها من مآزقها ، فـكما ثبتها فى خطب إصابتها بنبيها فليثبتها فى توجيه حياتها لأداء مهمتها العظمى .

خرّج البخارى فى الصحيح من حديث طويل : « اجتمعت الأنصار الى سـعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة فقالوا . منا أمير ، ومنكم أمير ، فذهب اليهم أبو بكر الصديق ، وعمر ابن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح ، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر ، وكان عمر يقول : والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت كلاما قد أعجبنى خشيت أن لا يبلغه أبو بكر ، ثم تـكلم أبو بكر ، فتكلم أبلغ الناس » . وفى رواية ابن عباس قال عمر رضى الله تعالى عنه : « ما ترك أبو بكر كلمة أعجبتنى فى تزويرى إلا قالها فى بديهته وأفضل حتى سكت » ، فقال أبو بـكر فى ضمن خطبته : « نحن الأمراء وأنتم الوزراء » ، فقال حباب بن المنذر : « لا ، والله لا نفعل ، منا أمير ومنكم أمير » ، فقال أبو بكر : « لا ، ولـكنا الأمراء وأنتم الوزراء ، هم أوسط العرب دارا ، وأعربهم أحسابا ، فبايعوا عمر أو أبا عبيـدة ، فقال عمر : بل نبايعك أنت ، فأنت سيدنا وخيرنا ، وأحبنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخـذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس » . قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : « فما كانت من خطبتهما من خطبة إلا نفع الله بها : لقد خوّف عمر الناس ، وإن فيهم لنفاقا فردهم الله بذلك ، ثم لقد بصّر أبو بكر الناس الهدى ، وعرّفهم الحق الذى عليهم » .

فى هذه الأحاديث آيات بينات على عظمة الصديق الاسلامية وعبقريته الايمانية ؛ فهو الذى أنقذ الأجلاء : عمر وعثمان وعليا وغيرهم ، من هول ما أصابهم فى الحادث الفادح ؛ وهو الذى أنقذ الأمة كلها من شر فتنة ، لولا بركته وقوة إيمانه وبراعته الخطابية والسياسية ، وعلمه وجلاله ، لـكانت عليها شرا مستطيرا ؛ وهو الذى عـلم الناس كيف يسمو الإيمان فوق كل شىء ، وكيف يسحق الإيمان كل شىء ، وكيف يتغلب الايمان على كل شىء . فما أحوج المسلمين اليـوم الى نفحة من نفحات الإيمان الصديقى حتى تستقيم قناتهم فى توجيه الحياة الاسلامية وجهة العزة والـكرامة !؟

صادق إبراهيم عرجون

التصوف والمتصوفون

— ٧ —

عمر السهروردى

حياته :

ولد أبو حفص شهاب الدين عمر بن محمد السهروردى فى سهرورد فى سنة ٥٣٩ هـ وهو ابن شقيق أبى نجيب السهروردى السالف الذكر ، ولما نشأ تتلمذ على عمه وعلى الشيخ عبد القادر الجيلى ، وبعد أن أتم معارفه عين شيخ الشيوخ فى بغداد ، وأخيرا توفى فى سنة ٦٣٢ هـ بعد حياة طويلة حافلة بالعلم والعمل .

كان السهروردى من طراز أبى حامد الغـزالى فى حملته على الفلسفة الإغريقية ومناصرة الشريعة الاسلامية عليها ، ولهذا كان من فصيلة عمه .

أما مؤلفاته فمن أهمها كتاب « كشف الفضائح اليونانية » ، وليس فيه حاجة الى التعليق ، فعنوانه يوضح ما فيه ، وكتاب « عوارف المعارف » وهو من المصادر الهامة لآراء مؤلفه وللأخلاق التنسكية الخاصة بطوائف الصوفية .

آراؤه :

للقوى الإنسانية عند السهروردى ثلاث درجات : علياها الروح ، وهى متجهة الى العالم اللامحس ، ودنياها النفس ، وهى متجهة الى العالم المحس ، وبينهما القلب وهو صالح للاتجاهين الأعلى والأدنى . فقبل أن يتم نوره يكون اتجاهه موزعا بين القوتين : العليا والدنيا ، ولـكنه عند ما تتم إنارته يتجه بكليته الى الروح فيتصل بالعالم الروحانى ، وفى هـذه الحالة تنجذب النفس الى القلب ، وعلامة اتجاه النفس الى القلب هى إحساسها بالهدوء .

كما أبان السهروردى درجات القوى الإنسانية ، شرح كذلك الفرق بين الحال والمقام فى التصوف فقال : إن الشيوخ لم يتفقوا فى هذه المسألة على رأى قاطع ، لأن ما هو حال عند البعض قـد يكون مقاما عند البعض الآخر ، ولـكن أوضح الفروق بين الحال والمقام هو أن الحال متغيرة والمقـام ثابت ، وأن الحال إذا ارتقت صارت مقاما ، وأن الحال موهوبة ، والمقام مكتسب بمجهود الفرد .

وقد ذكر السهروردى عددا من الأحوال والمقامات . فمن الأحوال : الحب والشوق ، والأنس والإجـلال ، والانقباض والانبساط ، والقـرب والبعد ، والاجتماع والانفصال ، والبقاء والفناء .

ومن المقامات : الزهد والصبر ، والخوف والرجاء ، والتوكل والتواضع .

وأهم ما أثر عن هـذا الصوفى بعـد الذى أسلفناه هو آراؤه الأخلاقية التى تمثل الصوفى الحقيقى أصـدق تمثيل ، والتى هى الى الديانتين : البوذية والمسيحية أقرب منها الى الاسلام . فمن ذلك مثلا أنه كان يجل التواضع الى حد المهانة التى حمل عليها الاسلام فى عنف ، وكان يغالى فى الرحمة والصفح عن مهينه الى حـد التمثل بقول التعاليم المسيحية : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » . وكان يدعو كذلك الى احتمال كل ما يجىء من الآخرين . ومما أثر عنه قوله : « لو أحب الناس بعضهم بعضا وقدروا ما فى الاحسان من خير لاستغنوا عن العدالة ، إذ العدالة أدنى مرتبة من الرحمة ، ولا تستعمل الأولى إلا عند غيبة الثانيـة ، وإن من ينفذ أوامر الرحمة أسمى ممن ينفذ أوامر القانون ، لأن إطاعة القانون خارجية ، أما إطاعة الرحمة فهى داخلية » .

يحيى السهروردى — حياته :

هو شهاب الدين يحيى السهروردى ، ولا يعرف التاريخ الصحيح شيئا عن مولده وطفولته ، وإنما هو يقدمه إلينا شابا مشردا بين بغداد وأصبهان وحلب ، ثم ينبئنا هذا التاريخ بأنه بينما كان السهروردى يطوف هذه البلاد الاسلامية ناشرا مذهبه ، بلغ أمره صلاح الدين ونقل اليه أنه ضال مضل يبدل فى دين الله ما شاء له هواه ، فبعث اليه ابنه أن يقتله ففعل . وكانت وفاته فى سنة ٥٨٧ هـ وكان عمره إذ ذاك ثمانية وثلاثين عاما . وقد جعل ذلك المؤرخين يستنتجون أنه ولد حوالى سنة ٥٤٩ هـ ولا يزال قبره يزار الى الآن ، وتسميه الجماهير بالشيخ المقتول .

مؤلفاته :

أما مؤلفاته فأهمها كتاب « حـكمة الاشراق » وكتاب « هياكل الأنوار » وكتاب « التلويحات » ، والـكتابان الأول والثانى من هذه الـكتب يعتبران أهم مؤلفاته ، لأن آراءه النظرية قد ظهرت فيهما بوضوح يجعلنا نلمس أنه متأثر فى مذهبه بحلولية الأفلاطونية الحديثة التى ظهر أثرها من قبل فى الحلاج ومن هم على شاكلته . وقد حلل الأستاذ « كارادى فو » هذين الـكتابين ، فقال ما ملخصه :

إن الفـكرة الأولى التى تلهمنا إياهـا مطالعة هـذين الـكتابين هى أن الفلسفة ولا سيما التنسكية منها قد انبثقت من إلهام هو موجود منذ بدء العـالم ، أى أن جميع حكماء العصور القـديمة والحديثة مصريين كانوا أو هنوداً أو إغريقيين أو فارسيين أو عبرانيين قـد بشروا جميعا تحت صور مختلفة بمذهب هو واحد فى أعماقه ، وأنهم لم يعرفوا هذا المذهب عن طريق

النظر العقلى معرفة أساسية ، وإنما عرفوه عن طريق المشاهدة التنسكية والكشف الفوق الطبيعى .

أما الفكرة الثانية التى تخطر لقارىء هذين الكتابين ، فهى أنه وجد أيضا فى جميع العصور الانسانية أفراد ذوو معارف بالأسرار ومواهب لاكتشافها ، وأن رئيس أولئك الأفراد فى كل عصر يدعى بالإمام أو بقطب الوقت . أما الآخرون فهم أعوانه ، وهم يحملون أسماء مختلفة . وهذا القطب يجب أن يكون أعظم الحكماء المتنسكين فى عصره . وإذا تتبعنا تعاليم هؤلاء الأقطاب فى جميع العصور كما ينبغى ، ألفيناها كلها متفقة فى نقطها الأساسية . وعند السهروردى أن هذا القطب يجب أن يكون إمام الإنسانية ورئيس العالم كله .

مذهبه :

على الرغم من الاختلاف فى الأسلوب والتعبيرات ، يلاحظ الباحث أن مذهب السهروردى هو لا يخرج عن كونه نسيجا محكما على منوال مدرسة ابن سينا الاشراقية المتأثرة بالأفلاطونية الحديثة .

ينقسم العالم عند السهروردى الى قسمين : عالم النور ، وعالم الظلام . فالأول هو العالم الروحانى الأعلى المنير ، وعلى رأسه الإله الذى يدعوه بنور النور . ويلى هذا الإله فى المكانة عقول الكواكب ، وهو يسميها الأنوار القاهرة أو الحاكمة أو السائدة . وتليها العقول الأخرى ويسميها الأنوار فقط .

والثانى هو عالم المادة والوضاعة والرداءة ، وأشخاص هذا العالم تدعى عنده بالأوثان أو بالبرازخ .

وكيفية صدور الموجودات عن الإله هى أنه قد انبثق إشراق واحد من نور النور ، وهذا الاشراق الأول ، أو النور الحاكم الصادر عن الإله هو عين ما كان ابن سينا يدعوه بالمعلول الأول . وهذا النور على أثر صدوره ينظر الى باريه والى ذاته فيجد نفسه مظلما بالنسبة الى الإله . ومن هذا ينشأ البرزخ الأول ، وهو ما كان ابن سينا يسميه بجسم الفلك الأول أو الفلك المحيط . وعلى هذا النظام تصدر الأنوار والبرازخ الأخرى . وهذه البرازخ تتحرك بتأثير الأنوار حركة تجعل الأنوار قاهرة والبرازخ مقهورة . وهكذا يظل النور ينتشر نازلا حتى يعم عالمنا على نفس النهج الذى رأيناه فى العالم الأعلى ، أى أن كل عقل إنسانى يمثل فى برزخه العقول العليا فى برازخها .

لم يسلك السهرودى الأنهاج الفلسفية فيما يتعلق بنشأة الكون فحسب ، وإنما سلكها أيضا فى مشكلة هى أخص من مشكلة الصدور العام ، وهى مشكلة «الرياليسم» و«النوميناليسم»

أى الحقيقية والاسمية (١) فقرر أنه لا يؤيد فكرة المثالية المطلقة ، ولا يرى أن للانسانية أو للحيوانية نموذجا ذا وجود ذاتى ، كما قرر أصحاب هذا المذهب ، لأن الفكرة العامة لا يمكن أن توجد إلا فى العقل ، إذ لو فرض وجودها فى الأفراد لفقدت عموميتها ، ولكن ليس معنى هذا أنه لا يوجد غير هذه الفكر العامة ، كلا ، بل إن هناك شيئا حقيقيا آخر أسمى من الكائنات المادية وأثبت من الفكر المجردة ، إذ كيف يعقل أن الكليات العامة التى هى أرفع من الأشخاص المحسة تنتزع منها ؟ وكيف يصدر الأعلى عن الأدنى ؟ وكيف يصدر النموذج المثالى من الوثن الوضيع الذى لم يصنع إلا على صورته ؟ وإذاً ، فهناك مبدأ هو الذى يسود أشخاصها ويحددها ، وهذا المبدأ هو نور ، وهذا النور القاهر الذى يثوى فى عالم النور النقى له استعدادات خاصة وصور معينة . وهذه الصور هى صور الحب والسرور والسيادة . وحينما يقع ظل هذا النور على عالمنا تنتج منه أشخاص نوعه المرئية ، أو أوثانه التى تصير على أثر ذلك أناسى أو حيوانات أو معادن أو طعوما أو روائح . وهذه الصيرورة تقع تبعا للاستعدادات الخفية التى تعد مواد هذه الكائنات لتقبل صور هذا النور . وعلى أثر ذلك توجد الفكر العامة فى العقول .

من هذا يتضح أن السهرودى متأثر طورا بالأفلاطونية الحديثة ، وآخر بالفلسفة الفارسية التى تقسم الكون كله الى نور وظلام ، وتخضع الثانى للأول ، وتجعله قاهراً له سائدا عليه .

يتبع

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) أبنا فى أكثر من موضع من الفلسفة الأغريقية أن هناك ثلاثة مذاهب : المذهب الأول مذهب « النومينااليسم » أو الاسمية ، وهو مذهب السوفسطائيين . والثانى مذهب « الرياليسم » أو الحقيقية ، وهو مذهب أفلاطون . والثالث مذهب « الكونسيبتواليسم » أو المفهومية ، وهو مذهب أرسطو . وشرحنا معنى كل واحد منها ، وذكرنا أن متكلمى الاسلام قد هووا الى مذهب الاسمية من حيث لا يقصدون .

التجديد والمجددون فى الاسلام

الامام الأعظم أبو حنيفة — دراسات فى مذهبه

مسائل المذهب الحنفى ورواياته وكتبه :

اتفقت كلمة المتقدمين والمتأخرين من أئمة مذهب أبى حنيفة على أن مسائل المذهب الحنفى على مراتب :

المرتبة الأولى : مسائل الأصول ، وهى ظاهر الرواية ، وظاهر المذهب ، وهى التى اشتملت عليها تآليف محمد بن الحسن : من الجامع الصغير والجامع الكبير ، والسير الصغير والسير الكبير ، والزيادات ، والمبسوط ؛ وهذه المسائل هى التى أسندها محمد بن الحسن عن أبى يوسف عن أبى حنيفة ؛ وصنف محمد هذه الكتب فى بغداد ثم تواترت عنه أو اشتهرت برواية جمع كثير من أصحابه بلغ عددهم من الكثرة مبلغا لا يجوّز العقل تواطؤهم على الكذب والخطأ ؛ وللمبسوط هذا نسخ أظهرها وأصحها وأشهرها نسخة أبى سليمان الجوزجانى ، ويقال لها الأصل . وقد شرحها جماعة من كبار العلماء . وكتاب الكافى للحاكم الشهيد المروزى مجموع كلام محمد بن الحسن فى الأصول وفى حكمها ، وقد شرحه كثير من الفقهاء الحنفية .

والمرتبة الثانية : مسائل النوادر ، وهى غير ظاهر الرواية ، لأنها لم تظهر كما ظهرت الأولى ، ولم ترو إلا بطريق آحاد بين صحيح وضعيف ، كالرَّقّيات والكيسانيات والجرجانيات والهارونيات من تصانيف محمد التى رواها عنه الآحاد ولم تبلغ حد التواتر والشهرة عنه . والرقيات صنفها حين نزل الرقة قاضيا عليها ، والكيسانيات رواها عنه شعيب بن سليمان الكيسانى ، والجرجانيات رواها عنه على بن صالح الجرجانى من أصحابه . ومن ذلك الأمالى والجوامع لأبى يوسف ، وكتاب المجرد للحسن بن زياد ؛ ومنها الروايات المتفرقة كنوادر محمد بن سماعة ، ونوادر ابراهيم بن رستم المروزى ، ونوادر هشام بن عبيد الله الرازى وغيرهم . وأما المختصرات التى صنفها حذاق الأئمة كالامام أبى جعفر الطحاوى ، وأبى الحسن الكرخى ، والحاكم الشهيد ، وأبى الحسين القدورى فهى موضوعة لضبط أقوال صاحب المذهب وجمع فتاويه المروية عنه ، فمسائلها ملحقة بمسائل الأصول وظواهر الروايات فى صحتها ، وثقة رواتها ؛ ويثبت ما فيها عند أصحابها بين متواتر ومشهور ، أو آحاد صحيحة الإسناد وتواترت عنهم وتلقاها علماء المذهب بالقبول منهم .

والمرتبة الثالثة : الفتاوى وتسمى الواقعات ، وهى مسائل استنبطها المتاخرون من أصحاب محمد وأبى يوسف وزفر والحسن بن زياد وأصحابهم وهلم جرا ، مثل كتاب النوازل لأبى الليث السمرقندى المعروف بامام الهدى ، جمع فيه فتاوى مشايخه ومشايخ مشايخه . ومجموع النوازل

والحوادث والواقعات لأحمد بن موسى بن عيسى، والواقعات لأبى العباس أحمد بن محمد الرازى الناطفى، والواقعات للصدر الشهيد؛ ثم جمع من بعدهم فتاوى هؤلاء مختلطة غير ممتازة: كقاضيخان فى فتاويه، وصاحب المحيط البرهانى، وخلاصة الفتاوى، والسراجية وغيرها؛ ولقد أحسن رضى الدين السرخسى، فانه بدأ فى كتابه المحيط بمسائل الأصول، ثم بمسائل النوادر، ثم بمسائل الفتاوى؛ ومن ذلك اشتهر أن المتون كالنصوص، وأنها مقدمة على ما فى الشروح، وما فيها على مافى الفتاوى، لأن ما يورد فى الشروح من المسائل لاستئناس مافى المتون من الأصول وكشف حاله غالبا، فله اعتضاد ما بالأصول؛ ثم ما فى الفتاوى فانه مخلوط بآراء المتأخرين؛ ودون تلك النوادرُ، إذ هى فى نفسها ليس جميعها من أقوال صاحب المذهب، وليس لها إسناد يرفعها الى صاحب المقالة، وليس أصحابها فى متانة الأصحاب الثلاثة، بل إنما جمعها أشخاص من المتفقهين لم يعرف حالهم غالبا فى الرواية، فلا يعمل بها إلا بشرط مساعدة الأدلة ومعاضدة القواعد الأصولية.

وأما الروايات الغريبة التى ينفرد بنقلها آحاد المصنفين من أهل القرون المتأخرة فلا يعتمد عليها، ولا يعتد بصاحبها، ولا سيما فيما خالف الأصول وباين المعقول والمنقول؛ فإذا اضطر المسلم الحنفى الى التقليد فليأخذ بما فى الأصول، ثم بما فى المتون المختصرات: كمختصر الطحاوى والكرخى والحاكم الشهيد والقدورى، وهى التى أولع بها العلماء حفظا ورواية، ودرسا وشرحا وتعليقا. فقد شرح مختصر الطحاوى أبو الحسن الكرخى وأبو بكر الرازى الجصاص، وخلق كثير من الأئمة؛ وشرح مختصر الكرخى أبو بكر الرازى، وأبو الحسين القدورى، وأبو الفضل الكرمانى، وآخرون؛ وشرح مختصر الحاكم الشهيد: اسماعيل الانبارى، وأحمد بن منصور الأسبيجابى، وشمس الأئمة السرخى وجماعة كثيرون.

وأما مختصر القدورى فهو متن متين، متداول بين الأئمة الأعيان، وهو مراد صاحب الهداية وغيره حيث أطلقوا المختصر أو الكتاب؛ وقد شرحه أبو نصر الأقطع، ومحمد ابن ابراهيم الرازى، وأبو المعالى الغزنوى، وخلق لا يحصون، وليس المراد من المتون إلا مختصرات هؤلاء العلماء.

وقال بعض الباحثين: إن المختصرات التى جمعها المتأخرون كالوقاية والكنز والنقاية وغيرها، فإن أصحابها وإن كانوا علماء صالحين فليسوا بهذه المثابة من الثقة والفقاهة، مع خلوّ كلامهم عن الحجة والاسناد، وعدم سلامته عن نوع تغيير وخلط وتصرف، وإنما يعمل بما فيها مما قد صح فى المذهب اعتمادا على الشهرة أو ظهور الصحة، أو ابتناء على اعتضاد الأصول، وتطابق الأدلة؛ فكتب الغرر والملتقى والتنوير بل والوقاية والكنز وأمثالها مشحونة بآراء المتأخرين؛ وهى وإن تنزلت رتبتها عن ظاهر الرواية باعتبار عدم اشتهار إسنادها، إلا أن غالبها قد صحت به الرواية، فلذلك ربما اختارها كثير من العلماء المتأخرين على ظاهر الرواية؛

ألا ترى صاحب تحفة الفقهاء قد اختار رواية النوادر على الظاهر ، وصححها فى هلال الأضحى حيث قال : والصحيح أنه تقبل فيه شهادة الواحد ؟ وكذلك فى ظاهر الرواية لا يجب تقليد التابعى مطلقا ، وفى رواية النوادر يجب تقليده إذا ظهرت فتاويه فى زمن الصحابة ، واعتبره فخر الإسلام ، وتابعه بعضهم وجعله هو الأصح ؛ ومثل ذلك وقع عن صاحب الهداية وغيره فى مسائل ؛ ثم يأخذ بالأصح والأثبت من الواقعات والفتاوى .

ومن هنا يظهر أن الصحيح نوعان : صحيح دراية ، وهو الذى نهض دليله وظهرت حجته وتعليله ؛ وصحيح رواية لثبوته عن القائل به مثل أبى حنيفة أو أبى يوسف أو محمد أو غيرهم بطريق صحيح : إما برفع إسناده بنقل الثقة عن الثقة سالما عن القادح والعلة ؛ وإما بوجوده فى كتاب معتمد معروف قد عرف صاحبه بالعدالة والثقة فى الرواية ، ككتب محمد بن الحسن وما قد سبق ذكره من المتون ، حتى قال كثير من المحققين : إن المتأخرين قد اعتمدوا على المتون الثلاثة : الوقاية والكنز ومختصر القدورى ؛ ومنهم من اعتمد على أربعة : الوقاية والكنز والمختار ومجمع البحرين ، وقالوا : العبرة لما فيها عند تعارض ما فيها وما فى غيرها لما عرفوا من جلالة قدر مؤلفيها والتزامهم إيراد مسائل ظاهر الرواية والمسائل التى اعتمد عليها المشايخ ، فينبغى للمفتى أو لمن يريد العمل لنفسه أن يجتهد فى الرجوع الى الكتب المعتمدة ولا يعتمد على كل كتاب ما لم يعلم حال مؤلفه . وعدم اعتبار المؤلف يكون لوجوه : منها إعراض أجلة العلماء وأئمة الفقهاء عنه . ومنها عدم الاطلاع على حال مؤلفه هل كان فقيها معتمدا أم كان جامعا بين الغث والسمين ، وإن عرف اسمه واشتهر رسمه : كجامع الرموز للقهستانى ، فإنه وإن تداوله الناس لكنه لما لم يعرف حاله أنزل عن درجة الكتب المعتمدة . ومنها أن يكون مؤلفه قد جمع فيه الروايات الضعيفة والمسائل الشاذة من الكتب غير المعتبرة وإن كان هو فى نفسه فقيها جليلا : « كالقنْية » فإن مؤلفها الزاهدى كان من كبار الأئمة وأعيان الفقهاء ، ولكن العلماء لم يعتمدوا هذا الكتاب لأن الزاهدى كان متساهلا فى نقل الروايات .

أما كتب المذهب التى عليها المعول فهى كثيرة ، وأفضلها كلها كتب الامام محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة . وعلى الجملة فليس تفاوت المصنفات فى الدرجات إلا بحسب تفاوت درجات مؤلفيها أو تفاوت ما فيها لا بحسب التأخر الزمانى أو التقدم الزمانى ، فليس كل تصنيف لمتأخر أدنى من تصنيف لمتقدم ، بل قد يكونِ تصنيف المتأخر أعلى درجة من تصنيف المتقدم بحسب تفوقه عليه فى الصفات الجليلة . وقد قال خير الدين الرملى :

قلْ لمن لم يَرَ المعاصرَ شيئا ... ويرى للأوائل التقديما
إنّ ذاك القديم كان حديثا ... وسيبقى هذا الحديث قديما

السيد عفيفى

رمضان

رمضان هو شهر الصيام ، والصيام شعيرة دينية ، تعبّد الله بها الأمم ، لمكانها من تهذيب النفوس ، وتطهير الأجسام ، وتصفية الأرواح ، ولأنها داعية التعاطف ، ورابطة التواصل ، بين الأغنياء والفقراء . فشعور الأغنياء بالجوع فى رمضان مشعر بحال الفقراء ، داع الى الإحسان اليهم والعطف عليهم .

والصيام إذلال للنفس ، وكسر من شِرّة كبريائها وبطرها ، ثم هو تعويد على الأمانة ، وللأمانة أثرها فى علاقات الأفراد والجماعات .

وما أحسن ما يقول شوقى فى حكمة الصيام :

« الصوم حرمان مشروع ، وتأديب بالجوع ، وخشوع لله وخضوع ؛ لكل فريضة حكمة ، وهذا الحكم ظاهره العذاب وباطنه الرحمة ؛ يستثير الشفقة ، ويحض على الصدقة ؛ يكسر الكبر ، ويعلم الصبر ، ويسن خلال البر ، حتى إذا جاع من ألف الشبع ، وحرم المترف أسباب المتع ، عرف الحرمان كيف يقع ، والجوع كيف ألمه إذا لذع » .

وقد يكون ما يعانيه المريض والمسافر من مشقة وتعب ، وما يقاسيانه من هم ونصب ، وما فى ذلك من تهذيب وتأديب يغنيان عن تهذيب الصوم وتأديبه ، داعيةَ الترخص فى فطرهما .

والصيام تتفاوت مراتبه ، ويتفاوت ثوابه ، تبعا لتفاوت الكمال فى أدائه ؛ فصيام ليس لصائمه منه إلا الجوع والعطش ، وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » ؛ وصيام لصائمه منه جزيل الأجر ، وواسع المغفرة ، وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له » .

وقد قسم الغزالى الصوم تقسيما دقيقا فيه نزعة صوفية تجعله غريبا بعض الغرابة على من لم يسلك طريقه ، ومن لم يذق مذاقه ؛ قال رحمه الله :

« اعلم أن الصوم ثلاث درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص . أما صوم العموم : فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ؛ وأما صوم الخصوص : فهو كف السمع والبصر واللسان ، واليد والرجل ، وسائر الجوارح عن الآثام ؛ وأما صوم خصوص الخصوص : فهو صوم القلب عن الهمم الدنية ، والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل واليوم الآخر ، والفكر فى الدنيا ، إلا دنيا تراد للدين ، فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا ... وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين ، ولا يطول النظر فى تفصيلها قولا ، ولكن فى تحقيقها عملا ، فأنه إقبال بكنه الهمة على الله عز وجل ، وانصراف عن غير الله سبحانه ، وتلبس بمعنى قول الله عز وجل : « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

وفى الصوم بمجموع درجاته معان اجتماعية أشرنا الى بعضها آنفا ؛ وقد قـرن بأعمال مسنونة أو مندوبة تحمل فى طياتها معانى اجتماعية كذلك ، فيها الخير والصلاح لجماعات المسلمين ؛ فقد ندب فيه الإكثار من الجود والتصدق ، حتى إن النبى صلى الله عليه وسلم — وإن كان أجود الناس — كان أجود ما يكون فى رمضان ، حين يلقاه جبريل يدارسه القرآن ، فـلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة .

وشدد فيه النهى عن التسافـه والتشاتم ، وندب للصائم أن يقـول عند دواعى الغضب والاستفزاز : اللهم إنى صائم . وسن فى رمضان صلاة التراويح ، وسنت فيها الجماعة ، كما سنت الجماعة فى وتره خاصة ، تكراراً لاجتماعات المسلمين المشروعة ، وتحصيلا لما فيها من ثمرات .

ومن طريف ما يقال فى هذا الصدد : أن المسافر خُـيِّر بين الصيام والفطر ، إلا أن يكون عامة رفقته مفطرين أو مشتركين فى النفقة ، فالأولى له الفطر موافقة للجماعة .

وختم الصوم بصدقة الفطر على طريق الوجوب ، كما ختم بصلاة العيد ، وشرط فيها الجماعة ؛ وندب فى يوم العيد الإكثار من الصدقات ، حتى لقد صح أن يقال : إن رمضان شهر البر ، وشهر الفقراء .

تلك هى بعض المعانى الاجتماعية فى الصيام ، وفيما سن أو ندب فيه ؛ غـير أن كثيرا من المسلمين غفلوا عنها ، فأضاعوا سر الصوم وروحه ، وأحالوه الى عبادة لا روح فيها ، حتى وصفها بعض الخارجين على الدين أنها عذاب لا خير فيه ، ولا ثمرة له . كبرت كلمـة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذبا . فالله أعلم بمصالح عباده ، وبما هم فى حاجة اليه من شرائع يسيرون على نور هديها فى طريق الحياة ، الى السعادة التى أعدها الله للراشدين .

وإلى هؤلاء نقول : أرأيتم لو جاءكم صيام رمضان فيما جاءتكم به المـدنيات الحديثة ، فماذا كنتم تقولون فيه ؟ أكبر الظن أنـكم كنتم تقولون إنه من الحـكمة التى اهتدى إليها علماء الطب وعلماء النفس فى القرن العشرين ، وإنه الأمر الذى لابد منه فى صلاح الجماعات ، وكبح الشهوات ، وكنتم تنسبون إليه من المحامد ما تنكرون فضله وتجحدون قدره .

ورحم الله البوصيرى حيث يقول :

رب إن الهدى هداك ، وآيا تك نور تهدى بها من تشاء
وإذا حلّت الهـداية قلبا نشطت فى العبادة الأعضاء

نسأل الله أن يفتح قلوبنا لفهم الدين ، ويوفقنا للعمل بهـدى خاتم المرسلين ؛ وأن يجعل صيامنا جُنة من العذاب الأليم . كما نسأله وهو القاهر فوق عباده أن يكشف عن عباده الغم والكرب ، ويمنحهم السلم والسلامة ؟

أبو الوفا المراغى

مقارنة ومفاضلة

بين الشريعة الاسلامية والشرائع الأخرى

— ٤ —

تكلمت فى المقال السابق عن شريعة الرومان وكيف كان نظامهم الاقتصادى والسياسى والقانونى ، وفاتنى أن أذكر نبذة عن التشريع عندهم وعند غيرهم ، وهو شديد الأهمية فى بحثنا هذا .

فالتشريع بصفة عامة : هو عمل القوانين بواسطة السلطة التشريعية فى الحكومات ، وهو يبين نص القانون بحروفه بحيث لا يكون هناك شك فى الألفاظ التى عبر بها المشرع عن غرضه . والقانون : هو قاعدة يكون السير على مقتضاها فى العمل بحيث يجبر السلطان الناس على اتباعها فيما بينهم ، ويعاقب من يخالفها ، وهو نظام ضرورى للحياة الاجتماعية . أما مصادره فهى : العادة ، والدين ، والتشريع ، وآراء الفقهاء ، وأحكام المحاكم ، وقواعد العدل والإنصاف . فالعادة هى أمر يستقر الناس عليه بالتكرار على وتيرة واحدة فترسخ عندهم ويكون الخروج عليها عملا مخالفا للنظام المألوف ، ويعبر عنها فى الشريعة الاسلامية بالعرف . وقد جاءت أمثلة عدة تجمل العرف كأنه قاعدة مسنونة ، منها قولهم : « المعروف عرفا كالمشروط شرطا » . والدين هو قوة غيبية يتعبد بها الناس كل بحسب اعتقاده . وهو ما شرع فيه شرع يحدد كثيرا أوقليلا من العلاقات القانونية . وأوسع الأديان شريعة هو الدين الاسلامى ، فقد أنزلت فيه شريعة تبين الأحكام القانونية بأجمعها . أما التشريع وقد بيناه فى صدر هذا الكلام فهو عمل القوانين بواسطة السلطة التشريعية ، الخ . وأما آراء الفقهاء أو الشراح فهى التى توضح وتبين القواعد والأحكام التفصيلية بالاستنباط والاستنتاج من القواعد العامة ، وهم يختلفون فى وجهات النظر ، فقد لا يرى فقيه ما يراه الآخر ، ولهذا لا تكون آراؤهم قاعدة قانونية واجبة النفاذ حتى ولو أجمعوا عليها ، بل تكون حلا قانونيا . بخلاف ما ورد فى الشريعة الاسلامية ، فاجماع الفقهاء قاعدة شرعية يجرى العمل على مقتضاها ، إذ قالوا : إن من لم يتبع إجماع العلماء يسير فى غير سبيل المؤمنين . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تجتمع أمتى على ضلالة » ، وكان الامام الشافعى رضى الله عنه يقول : « إن الاجماع حجة » ، أما الامام أحمد فقد قال : « إن من ادعى الاجماع فهو كاذب » . وأما الامام مالك رضى الله عنه فقد قال لأبى جعفر المنصور حينما همّ بأن يجمع آراء مالك لتكون قانونا لدولته : « يا أمير المؤمنين لا تفعل ، قد سبقت اليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق اليهم ، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم » . وجاء الرشيد بعد المنصور وأراد أن يحمل الناس على ما جاء فى موطأ مالك ، وشاوره فى أن يعلقه على الكعبة ويحمل الناس

على العمل بما فيه ، فاعترض مالك أيضا قائلا « لا تفعل فان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى الفروع ، وتفرقوا فى البلدان ، وكل مصيب » .

وأما أحكام المحاكم فقد تكون منشئة لقاعدة قانونية تطبق فيما بين الناس فى المنازعات ، ولا تنشأ هذه القاعدة إلا إذا كان هناك غموض أو إيجاز فى نص القانون ، ففى هذه الحالة تتصرف المحاكم فى تفسير مواد القانون بتوسع لتدخل تحتها الأحوال الجديدة . وأما قواعد العدل والإنصاف فقد تطبق فى الأحوال التى لا نص فى القانون على موضوعها ، ومرجعها ضمير القاضى وتحيزه للعدل والانصاف فى حسم النزاع المعروض عليه ، فكأنه بحكمه هذا ينشئ قاعدة قانونية جديدة أساسها العدل والانصاف ، والقاضى فى هذه الحالة يعتبر مشرعا .

هذه هى مصادر القانون الستة . وقد بدأ التشريع عند الرومان لما أن تغيرت حالتهم واتسعت فتوحاتهم ونمت تجارتهم وكثر اختلاطهم بالأجانب ، ورأوا سن القوانين ووضع النظم لتقرير حالاتهم الجديدة . وكانت مصادرهم التشريعية كذلك ستة : (١) أوامر الملوك فى عصر الملكية من ٧٥٣ سنة ق . م (٢) أوامر الأمبراطور فى العصر بين ٢٧ ق . م و ٢٨٤ . ب . م . (٣) قرارات جمعية الشعب . (٤) قرارات مجلس الشيوخ . (٥) أوامر الحكام . (٦) فتاوى العلماء . أما العادة فقد كانت المصدر السابع وحدها .

أما التشريع فى العصور الوسطى فقد كان قليلا جدا ، أو كاد يكون معدوما ، لأن شعوب أوربا كانت تتبع القانون الرومانى فى معاملاتها ، وتتبع القانون الكنسى للأحوال الشخصية . فلما أن تقوت الحكومات المركزية بدأت تسن قوانين خاصة ، مثل إنشاء محاكم أو تقرير إجراءات فى الدعاوى أو فى المسائل الاجتماعية . ففرنسا مثلا كانت فى القسم الجنوبى تتبع القانون الرومانى ، ولذلك سمى هذا القسم ببلاد القانون ، وسمى الجزء الشمالى ببلاد العرف ، إذ كانت تتبع العرف ، غير أنهم رأوا حاجتهم لتقنين ليكون القانون ثابتا وظاهرا ومعروفا وموحدا فى كل فرنسا ، فبدئ بالعمل فى ذلك فى عهد الملك شارل السابع فى منتصف القرن الخامس عشر ، ثم حصل تقنين فى أجزاء أو فروع القانون على عدة وقعات ، وتم كثير منها فى عهد لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر ، ثم جاءت الثورة الفرنسية ونشأت فكرة سن قانون جامع لكل الأحكام . غير أن هذه الفكرة كانت قد أهملت حتى جاء نابليون فصدر القانون المدنى الفرنسى فى ٢١ مارس سنة ١٨٠٤ ، وأتبع بعد ذلك بقوانين جامعة لكل الأحكام الخاصة بمسائل أخرى .

أما التشريع فى الأقطار الاسلامية فلم تكن هناك قد سنت قوانين من أول نشأتها الى أوائل القرن التاسع اكتفاء بالشريعة الاسلامية .

هذه نبذة صغيرة وكلمة مجملة قصيرة عن التشريع وتاريخه عند بعض الأمم ، أتينا بها حتى إذا ما تكلمنا عن الفروق بين شريعتنا الاسلامية وشريعة أمة أخرى نكون على بينة

من مقدار ثقافة تلك الأمة وحضارتها وتشريعها ، وإن كان هناك مساوئ أو محاسن نستطع أن نعرف فى أى عصر هى أفى العصر الفطرى أو العلمى ليكون الحكم عادلا ونزيها . على أن أى شريعة مهما وصلت من الرقى وبلغت أعلى درجات الكمال فلن تصل بحال الى ما وصل إليه العرب الذين اختار الله منهم نبيا ورسولا ، فجاء بشريعة بزت كل الشرائع قديمها وحديثها . وإن نواحى الاستشهاد على ذلك كثيرة ، ولكن هناك ناحية ظاهرة تميزت بها الشريعة الاسلامية وهى حقوق المرأة ، فلقد كانت عند الرومان شيئا من الأشياء كالدابة والرقيق مهضومة الحق مهيضة الجناح : كانت إن تزوجت تنتقل من عائلتها الأصلية الى عائلة زوجها ، وتعتبر ميتة بالنسبة لعائلتها الأصلية ، إذ تنقطع كل صلة كانت لها برب أسرتها وبأعضائها وعشيرتها ، ويسقط كل حق لها قبلهم من ميراث ووصاية وقوامة ، بل وتخرج من ديانة عائلتها الأصلية الى ديانة زوجها ، وتخضع لسيادته وسلطانه ، فله أن يبيعها وأن يعاقبها وأن يعذبها وأن يقتلها ويمتلك عنها كل حق كان لها قبل الزواج إن كانت مستقلة بحقوقها . وكانت عقوبة زنا الزوجة نفيها . ولكن الامبراطور قسطنطين استبدل الإعدام بالنفى ، وقصر حق إقامة الدعوى على الزوج وبعض الأقارب . أما الزوج فلم يقرر له القانون الرومانى سوى بعض عقوبات مالية تفقده حقوقه فى الدوطة وفى الهبات الصادرة إليه بسبب الزواج .

والزواج عندهم على نوعين : زواج مع السيادة ، وزواج بغيرها . وينعقد الزواج بواحدة من ثلاث طرق : (١) طريق الزواج الدينى (٢) طريق الشراء (٣) طريق الاستعمال .

فأما الزواج الدينى فهو مقصور على طبقة الأشراف دون سواهم ، وهو أن يقدم طالب الزواج الى إله الآلهة جوبتر Jupiter قربانا هو عبارة عن كعكة ويرتلان عبارات دينية معينة أمام عشرة شهود ، وهو أكبر عدد ممكن اشترطه القانون الرومانى فى كل عقد من العقود ، وبحضور الحبر الأعظم وكاهن المعبد .

أما الزواج بطريق الشراء فانه يتم بالطريقة التى تكتسب بها ملكية الأشياء ، أى بطريق الاشهاد مع تغير العبارات بعبارات تتفق والغرض المقصود منه (غرض الزواج) .

وأما الزواج بطريق الاستعمال فهو معاشرة الزوج لزوجته مدة سنة كاملة بلا انقطاع بحيث لا تغيب عن المنزل ثلاث ليال متواليات ، وبذلك تكتسب السيادة عليها كما يكتسب الملك بوضع اليد مدة بغير انقطاع .

وهذا النوع من الزواج لا يقام له وزن فى الشريعة الاسلامية ، ولا يقال عنه زواج ، بل هو سفاح ، لأن الزواج عقد لا ينعقد إلا بالألفاظ الصريحة الدالة عليه ، حتى لقد غالى بعض الفقهاء فى ذلك ، فقالوا : إن النكاح لا ينعقد بغير العربية لمن يستطيعون الكلام بها ويفهمونها ، وإن كان ابن تيمية قد رد على هذا بالجواز ولو مع الكراهة ، كما يكره الخطاب

بغير العربية لغير حاجة كما يرى مالك واحمد والشافعى . نعم إن الشارع قد عنى بصراحة اللفظ وشدد فيها لاعتبارات كثيرة أرجعها صاحب تهذيب الفروق الى أربعة أوجه ، وقد نقلها مع بعض التصرف للتوضيح صاحب كتاب الملكية ونظرية العقد ص ٢٠٧ و ٢٠٨ ، ونحن ننقلها عنه كما أوردها ، أولها « أن النكاح لا بد فيه من لفظ يشهد عليه فيه أنه نكاح لا سفاح ، لأن القاعدة أن الشهادة شرط فى النكاح إما مقارنة للعقد كما قال الأئمة الثلاثة ، أو قبل الدخول كما قال مالك . وعلى التقديرين لا بد من لفظ » . وثانيها « أن النكاح عظيم الخطر جليل المقدار لأنه سبب بقاء النوع الإنسانى وسبب للعفاف الحاسم لمادة الفساد واختلاط الأنساب ، وسبب للمودة والمواصلة والسكون ، وغير ذلك من المصالح ، والقاعدة أن الشئ إذا عظم قدره شدد فيه وكثرت شروطه وبولغ فيه فى العادة تعظيما لشأنه ورفعا لقدره . الى أن قال « لذلك كله شدد الشارع فى النكاح فاشترط الصداق والشهادة وخصوص الألفاظ » .

فانظر الى هذا الفرق الكبير الواسع المدى بين الشريعة الإسلامية والشريعة الرومانية فى أهم ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية ، تلك الناحية هى الأساس المتين الذى يقام عليه بناء الإنسانية : تراه فى شريعة الرومان مقوض الأركان ، أما فى الشريعة الإسلامية فثابت الأساس قوى البنيان . وانظر كذلك الى المرأة الرومانية فى أول عهدها كيف كانت ذليلة مسكينة تدين بالعبادة لزوجها وتعتبره إلهاً تخضع له وله عليها سلطان جبار ، وكان القانون الرومانى يعتبرها طول حياتها قاصرة عن مساواة الرجل ، إلى أن أعطيت لها الحرية تدريجياً سنة ٢٩٢ بعد الميلاد وفى عصر ديوقلتيان (Diocletian) . أما فى فرنسا فقد بقى فى القانون الفرنسى فقد بعض أهلية المرأة المتزوجة دون غير المتزوجة لفكرة « حماية الزوجية وإخضاعها لزوجها » . لكن التشريع الحديث يتجه الى مساواتها بالرجل كما جاء فى كينان . أما المرأة العربية ففضلا عما كانت عليه من قوة فى الفصاحة ودقة فى الفهم وعظم فى النبل والأخلاق ، فقد كانت على جانب عظيم من حرية الفكر والرأى . ولولا أن المقام ضيق لسردت الكثير من أخبار نساء العرب ، خصوصا وقد جاء الإسلام فرفع من شأن المرأة حتى وضعها فى مكان عال ، وسوى بينها وبين الرجل فى الحقوق والأهلية والتكاليف الشرعية ، إلا فيما رفه فيه عنها رفقا بها وحرصا على كيانها ، ونظم حياتها الزوجية أحسن تنظيم ، وأوصى الرسول صلى الله عليه وسلم عليها بقوله : « اتقوا الله فى الضعيفين المرأة والرقيق » .

هذا ما أقتصر على ذكره الآن ، وسنأتى فى العدد الآتى بالكثير من الفروق مما يجعلنا نحمد الله على أن هدانا لنكون من أهل الشريعة الإسلامية ، وما كنا لنهتدى اليها لولا أن هدانا الله ؟

مصطفى عبد الحميد أبو زيد
المندوب القضائى بالأوقاف الملكية سابقا

بحوث في المسائل الاقتصادية

نشأة الحياة الاقتصادية عند العرب

بعث النبي صلى الله عليه وسلم سنة ٦١٠ ميلادية ، وشبه جزيرة العرب كان مسرحا للفوضى الاجتماعية والاقتصادية ، والروم وفارس والحبشة فى عهد ضعفها وانحلالها ، ومظاهر الحياة الاقتصادية معطلة فى تلك البقاع ، والمواصلات بينها شاقة وقليلة ، وأكثرها غير مأمون ، فقطع اتصال العالم المادى كما فقد اتصاله الروحى ، وانقسم الى وحدات اقتصادية مفككة تسير على غير برامج موضوعة ، ولا فى هداية قوانين مرسومة .

وتمتاز جزيرة العرب بمكانها الوسط ، ومناخها المتقلب ، وصحاريها الممتدة ، وتلالها المنتشرة حول مدنها ، لذلك احتفظت فى داخل حدودها بحالة موسومة بطابع الجدب والإمحال ، إلا فى بؤر خصيبة مزروعة فى الطائف وحول يثرب وفى بعض جهات اليمن ، وإلا ما خلفته القوافل التى تسير فى وديانها من الشرق الى الغرب ، ومن الجنوب الى الشمال ، من مظاهر الغنى عند سادات القوم ، فتركت فى نفوسهم شغفا بالمال ، ونشرت بين أرجائهم ميلا للشهوات .

فلما جهر النبي صلى الله عليه وسلم بدعوته ، اصطدم بتلك العقول التى غلبت عليها المادة ، وفساد الفطرة ؛ وإنك لتلمح ذلك فى لجاج المشركين فى طلب المعجزات من الرسول ليرفع جبال مكة وما حولها ، حتى لا تظل حبيسة بينها ، ويوجد بدلها الرياض والجنان تجرى بينها الأنهار ، ويحيل الصفا والمروة ذهبا ، أو يوحى إليه ربه أثمان السلع حتى يضاربوا على المستقبل ويكفيهم بذلك الحاجة الى العمل والكد ، ويفيض عليهم ذلك بالخير والغنى ، ويأتى إليهم بكنز من الذهب وغير ذلك مما يظهر مبلغ ميلهم الى الكسل والتواكل ، ورغبتهم عن العمل ، وحبهم المال حبا جما ، شأن سكان الصحارى فى الجهات الحارة . فتعهد الرسول تلك العقول بالتعليم والهداية حتى أدركت وتهيأت لقبول الانقلاب الاقتصادى والاجتماعى الذى أتى به ، ثم الاتجاه نحو النظام والاستقرار الذى أوجده بعد هجرته الى المدينة ، حيث استتب له الأمر ، وبدأ حياة سياسية وضع فيها أمهات النظم والقوانين . وبذلك قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى فى الحبشة : « أيها الملك : كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى

الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ؛ فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ... الخ » .

وكان أول شيء فكر فيه عليه الصلاة والسلام بعد هجرته أن آخى بين المهاجرين والأنصار ، وصرح لهم بأنه لا يكمل إيمان أحدهم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وعلى هذا بنى الاقتصاد فى الاسلام على أسس من الإخاء والمحبة والتعاون ، قضت على الأثرة والحسد والغش .

ولعل أروع مظاهر هذا النظام الجديد نزول كثير من الأنصار عن نصف أملاكهم وأموالهم لإخوانهم المهاجرين ، وأكثرهم أهل تجارة ، فأقبلوا على أسواق المدينة بخبرتهم يدفعهم دينهم الجديد الى الدأب والعمل المتواصل فى أمانة ونزاهة .

ثم بدأ النبي يعالج التجارة ، وهى أهم مظاهر الحياة الاقتصادية فى مثل تلك البيئة ، فقال ينبه الناس الى خطرها : « تسعة أعشار الرزق فى التجارة » ، وبين الحلال والحرام فى المعاملات فاضطرت طوائف كانت تتجر فى النساء والخمور والمخدرات ، أو تتعامل بالربا ، أو تجمع الثروة من المقامرة ، الى الكف عن تلك الأعمال الباطلة والبحث عن عمل شريف فى التجارة أو الزراعة ، يعود عليهم بالكسب الحلال ؛ وأنزل الله قانونا رادعا يقطع أيدى السارقين ، فأمن الناس واطمأنت العير فى طرقها تغدو وتروح بين وديان الجزيرة ، تحمل كنوز التجار وأموالهم ، فى حراسة الله ، وظل السلطة التنفيذية ، التى يمثلها الرسول وجيوش المسلمين .

وحظر التلاعب بالأسعار والمكيال « فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم » ، « ويل للمطففين » ، « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » ، فانتظمت الأسواق ، وأقبل الناس على التعامل ، وعاد ذلك بالربح الوفير على أصحاب رءوس الأموال . وترتب على تحريم الإسراف والتبذير فى قوله تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » أن كثرت فى أيديهم الأموال ، وما استطاعوا كنزها لتحريم الكنز عليهم ، وفرض ضرائب وصدقات عليهم تذيبها إذا بقيت جامدة لديهم ، فلم يجدوا بدا من استخدامها فى التجارة والزراعة ، فنمت وازدهرت ، وكان لفريضة الزكاة أثرها فى ذلك ؛ فزكاة الأموال هى نوع من الضرائب التى تفرضها الحكومات فى الوقت الحاضر على رءوس الأموال وعلى الأرباح ، ومن فوائدها للتجار أنها تحملهم على مراقبة حركات تجاراتهم ومعرفة ما يطرأ عليها من النقص والزيادة لتقدير قيمة الضرائب ، وفى تلك الرقابة ضمان لضبط حساباتهم ، فيأمنون من الوقوع فى الاضطرابات المالية ، وخطر التعرض للإفلاس .

ونشأ عن توحيد جزيرة العرب وخضوعها لشريعة ونظم واحدة ، أن زادت المعاملات بينهم ، وتطورت تبعا للحياة الجديدة ، وظهر فى نواحى العمل المختلفة بعض أرباب الكفايات العالية الذين يعوزهم المال ، فكانوا يعرضون أنفسهم على ثراة المسلمين للاتجار فى سلعهم ، أو الاقتراض منهم بدون ربا الى أجل مسمى ، ولم يعد التعامل مقصورا على التجارة الحاضرة حيث الدفع عند التسليم ، إذ أن كثيرين من المتعاملين لا تقدرهم ظروفهم على الدفع فورا ، ولا مناص لهم من البيع والشراء لحاجة عملهم أو معيشتهم ، فيلجأون حتما الى تأجيل الدفع لزمن معين يتفقون عليه فيما بينهم ، وقد يطول أجله ، وكانوا يعطون المواثيق لسداد الدبون الناشئة عن الاقتراض والمتاجرة ، ولكن المواثيق لا تكفى فى عالم المال خصوصا فى الديون الطويلة الأجل ، فقد يموت المدينون أو يهاجرون الى بلد آخر فتضيع حقوق أصحاب الأموال ، وقد يحنثون فى مواثيقهم أو ينكرها ورثتهم ، لذلك جاء الاسلام يقرر نظاما لم يسبقه اليه تشريع آخر ، فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئا ، فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لايستطيع أن يمل هو ، فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم » الى أن قال : « ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ، إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشهدوا إذا تبايعتم » .

ذلك بلا ريب فتح مبين فى عالم التجارة والمال ، فقد أصبحت الكتابة خير إثبات لديونية المدين ، وخير كفيل لحصول الدائن على دينه فى ميعاده ، وأمكن بذلك انتقال الدين المثبت بالكتابة الى الورثة ، كما أصبح فى إمكان الدائن الذى فى حوزته صك بقيمة الدين أن يستفيد به كضمان لقروض يعقدها مع غيره ، أو بضاعة يشتريها ، وتطور هذا الصك فأطلقوا عليه اسم السُفْتُجة ، وهى أصل الكمبيالة ، التى تقوم على أساسها المبادلات بين العالم الآن ، إذ الكمبيالة ما هى إلا صك موضح به مبلغ من المال هو قيمة الدين المستحق للدائن فى ذمة المدين ، الذى يتعهد بدفعه إليه ، أو الى من يأمر به فى زمن معين ، ويوضح بيان هذا الدين على وجه الكمبيالة .

هذا وقد اكتفت الآية بالشهادة للإثبات فى التجارة الحاضرة ، لأن عمليات البيع والشراء وما تقتضيه من السرعة والبساطة لا تحتاج الى إجراءات الكتابة المطولة ، وذلك عين ما يقرره القانون التجارى الذى وضعه المشترعون فى القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر ، وتسير عليه البلاد اللاتينية ومصر .

وثمة ظاهرة أخرى كان لها أثرها فى حياة العرب الاقتصادية ، وهى طبقة الرقيق ، فكان العرب يملكونهم عن طريق الشراء أو الحروب ، ويستخدمونهم فى أموالهم ورعى إبلهم وخدمتها ، ولا يعترفون ببنوة من يلدون ممن ملكت أيمانهم ، ولا يورثونهم ، فبدأ الاسلام يحررهم بالتدريج ، فساوى بينهم أولا وبين غيرهم فى العبادات والمعاملات ، واعتبر عتقهم كفارة ، وقال عمر بن الخطاب « بماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » . بذلك غدا بعض الرقيق طلقاء يعملون فى الزراعة والتجارة بالخبرة التى اكتسبوها من بلادهم ، كعمال ومستأجرين يتناولون أجورا نظير الأعمال التى يقومون بها ، ومنهم من صار من قادة الرأى وأصحاب الأعمال .

وقد نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى معالجة ظاهرة الرقيق هذه الطريقة نفسها التى اتبعها مع اليهود المزارعين بجوار خيبر ، فانه أبقاهم على أرضهم التى آلت اليه بحكم الفتح ، على أن يكون لهم نصف ثمرها نظير عملهم فى زراعتها ، لأن خيبر غنية بحدائقها ومزارعها ، وهذا يحتاج الى أيد كثيرة خبيرة بفنون الزراعة ؛ كذلك الرقيق فانه لم يبت فى منعهم لأنهم كانوا يقومون بالأعمال الأساسية فى الزراعة والتجارة وبعض الصناعات التى ظهرت فى الجزيرة ولا يمكن للعرب القيام بها ، إما لأنها تتنافى مع طباعهم أو لجهلهم بها ، ولذلك كان من الحكمة الاقتصادية البطء فى إبطال الاسترقاق لأنهم لو حرروا مرة واحدة فإما أنهم كانوا يمتنعون عن أداء ما كلفوا القيام به من تلك الأعمال ، وإما أن يهاجروا فتقل الأيدى العاملة ، ويحرم المبادلة عدد من المستهلكين . ولهذا السبب قامت حرب أهلية طاحنة فى أمريكا فى القرن التاسع عشر بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، وذلك لأن أهل الشمال لما أرادوا تحرير العبيد ، رفض أهل الجنوب تحريرهم حيث الأرض زراعية تحتاج الى تلك الطبقة ، ودخلوا فى حرب مع الشماليين لهذا السبب ؛ ولكن النصر كان لأهل الشمال ، وتحرر العبيد ، ولم يحدث ضرر لأن العالم فى القرن التاسع عشر الميلادى كان غير العالم فى القرن السابع من حيث النهضة الصناعية والزراعية والتجارية .

ولما اشتبك المسلمون فى حروب مع اليهود والروم والعجم ، وأسروا منهم خلقا كثيرا ، كان لهم أثر كبير فى نهضة العرب الاقتصادية ، كما أن نزوح المسلمين الى بلاد الفرس والهند وربوع الشام ومصر ، وانتشار الاسلام فى تلك البقاع ، واتساع رقعة الامبراطورية الاسلامية ، استوجب ابتداع نظم جديدة لادارة شئون الحياة الاقتصادية بدقة . وهذا ما سنبينه فى البحث القادم ، إن شاء الله ؟

ابراهيم زكى
خريج كلية التجارة العليا

بين رجال الدين والفلسفة

من الخير لمن ينشد الحق ألا يمر ما يكتب دون بحث ولا تعقيب حتى يظهر هذا الحق واضحا يفرض نفسه على المنصفين فرضا . ومن الخير الكثير أن يكون الذى يقوم بالتعقيب مثل الأستاذ الجليل فريد وجدى بك : صدراً رحباً ، وتحققاً عميقاً بثقافة الاسلام وثقافة الغرب ، وحبا للحقيقة يطلبها أين تكون ، وقلباً عامراً بالإيمان يجعل لما يصدر عنه أطيب الآثار .

وقد تفضل السيد الأستاذ بالتعليق على كلمتى السابقة تعليقاً قيما أنا به مغتبط وله مقدر ؛ لهذا لايسعنى أن أمر به دون كلمة قصيرة ، أرجو ـ وقد قال عزته كل ما يريد أن يقول فيما أظن فى موضوع النقاش ـ أن تضع الأمر فى نصابه ، وأن أخلص بعدها لإتمام البحث الذى بدأته :

١ — لا أظن مطلقا أن القول « بجهل بعض رجال الدين أو بعدم إنصافهم فى معاداة العلوم الفلسفية » يزعزع صرح الدين ويعرض بناءه للخطر . لأن الدين أثبت دعائم وأمتن بناء من أن يتأثر بقول كلمة الحق فى بعض من انحرفوا عن مبادئه فى محاجتهم لخصومهم فى الفكر ؛ هذه المبادئ التى منها الأمر بمجادلة أهل الكتاب ـ بله المسلمين ـ بالتى هى أحسن ، لا باللعن والسجن والتعذيب ! ولا أنكر أنه مما يؤلم الإشارة الى مواقف لا تسر من نفر من رجال الدين بالنسبة للفلاسفة وأضرابهم ؛ ولكن ماذا يفعل الباحث إذا كان مضطرا ، كى يصل إلى الغاية من بحثه ، أن يستعرض مراحل هذا الخلاف فى جميع العُصُر لا فى عصور الازدهار وحدها ؟ وهو فى الوقت نفسه معترف بما كان من تشجيع للفلسفة وسائر ألوان النظر العقلى فى العصر الذهبى للاسلام ، وبأن طبيعة الاسلام نفسه تدعو الى هذا التشجيع .

٢ - على أنه أيضا ليس معنى هذا أننا نحكم على الاسلام وجميع أئمته وأعلامه بصنيع طائفة فى زمن التأخر والانحطاط ، ولهذا رأيت أن أحتاط من أول الأمر ، فجعلت العنوان العام للبحث : « بين رجال الدين والفلسفة » ولم أجعله بين الدين والفلسفة ، حتى يظل الدين فى أعين المسلمين وغير المسلمين على السواء بريئاً من تهمة التعصب وعداوة العلم . ولذلك أيضا وافقنى السيد الأستاذ فى تعليقه على وصف الدافع لمن أحرقوا كتب ابن الهيثم وعذبوا عبد السلام الركن(١) ونظراءهما بأنه الجهل بالدين ، والبغى بالخروج عن مبادئه السامية التى منها الحث على العلم ، وإلانة القول للخصم ولو كان فرعون ، لعله يتذكر أو يخشى !

(١) صحة اللقب الركن بالراء لا بالدال كما ورد خطأ مطبعياً بالكلمة الثانية .

٣ — يرى السيد الأستاذ الجليل أنه : « إذا كان فى الأرض دين تأبى طبيعته أن ينشأ فيه اعتزال وعلم للكلام فهو الاسلام » . وأعتقد أن الحق أن نقرر أن القرآن الكريم — وهو أساس الدين — بما فيه من الآيات التى توهم التجسيم والتشبيه ، والآيات التى يوهم بعضها الجبر وبعضها الاختيار ، والآيات الأخرى التى أشارت الى أمهات مسائل علم الكلام إشارات قريبة أو بعيدة ، يدفع الى علم الكلام دفعا . إذن يكون من الطبعى حدوث علم الكلام ، وإن كان من التعسف ومن عثار الجد الإسراف فيه وفى الجدل فى هذه المسائل التى أشار اليها القرآن بالحق وبالباطل ، كما ذهب غلاة المعتزلة وأرباب المقالات والفرق الاسلامية الذين أثبت قانون الانتخاب الطبيعى — كما يقول صاحب العزة الأستاذ الجليل بحق — أن كثيرا من الآراء التى أسرفوا فى التعصب لها لم تكن مما يستحق البقاء ؛ حاشا المنطق والفلسفة المتزنة ، فقد حوربا من كثير من رجالات تلك العصور أشد حرب وأعنفها ، ولا يزالان يدرسان لليوم ويزدادان على مر الأيام رسوخا حتى فى الأزهر .

٤ — بقى بعد هذا أن أعترف للسيد الأستاذ بأنه محق فى أن المراد بالحكمة فى قول الرسول : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ولو من مشرك » لا يمكن أن يكون السنة النبوية أو الأحكام والشرائع أو نحو ذلك مما نقلته عن أبى السعود والقرطبى وغيرهما ، وأن أعترف بأن المراد بها الحكمة القرآنية التى تجلت فى الآيات كما جاء بمقال عزته . وهذه الحكمة هى كما يقول حضرته التى جعلت لتوجيه الأمة الاسلامية علميا وعمليا الى الكمال الذى خلق الانسان ليصل اليه ؛ على أنه وإن كان لا يشك مسلم فى سمو هذه الحكمة على كل ما عرف العالم من فلسفات ، فان هذا شىء وتسميتها فلسفة بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة شىء آخر ، ولا ينقص خطرها أن تسمى فلسفة ، فالعبرة بالمسمى لا بالتسمية .

وأخيرا بعد شكرى لصاحب العزة السيد الأستاذ الجليل على ما أفدت من مقاله القيم الممتع ، أنتقل الى متابعة الحديث .



انتهينا فى المقال السابق من الكلام عن موقف رجال الدين من علم الكلام ورجاله ؛ والآن نبدأ الحديث عن موقفهم من الفلسفة ورجالها فى المشرق أولا ثم فى المغرب ثانيا ، لتتكون لمن يعنيهم الأمر من حضرات القراء فكرة واضحة عن الجو العلمى الذى كان يسود فى تلكم الأيام ، وعن الأهواء والنزعات التى كان يضرب بعضها بعضا ، حتى كان من الضرورى ، على ما سيجىء ذكره ببعض البسط ، أن تنبت فى الاسلام فكرة التوفيق بين الدين والفلسفة ، أو بعبارة أخرى بين الوحى والعقل .

أولاً فى المشرق :

عرف المسلمون فى القرنين الثانى والثالث جانبا كبيرا من الفلسفة اليونانية، على كثرة ما انتابها

من المـزج والخلط فى تطوافها من أثينا وروما الى الاسكندرية وبغداد ، فتلقفتها طوائف من المسلمين بعقول ظمأى للمعرفة ، ونفوس طامحة للظهور على مدنيات الأمم السالفة وتمثل تراثها العقلى . بينما أوجس العامة ورجال الدين منها خيفة ، ورأوا الشر يمشى فى ركابها ، والإلحاد كامنا فى ثناياها ، حتى لقد هال البعض ـ كما يقول الغزالى فى مقدمة تهافت الفلاسفة ـ بعض أسماء رجالاتها كسقراط وبقراط وإفلاطون وأرسطوطاليس ! نجم سوء الظن منذ اللحظة الأولى التى التقت فيها فلسفة أثينا والإسكندرية المعقدة ـ التى تقول بقدم العالم وصدوره عن الله صدور المعلول عن العلة ـ بالإسلام السمح السهل ، الذى يحفظ لله كل جلال ، ولا يرضى له تعالى أن يكون علة لمخلوقاته تصدر عنه من غير رضى واختيار .

وكان من الطبعى أن تعلق التهمة أول ما تعلق بالمأمون ، الذى نشر الفلسفة بترجمتها ، وأيدها باحتضان رجالاتها ، فاتهم فى دينه ، حتى يرى تاج الدين السبكى على ما جاء فى طبقات الشافعية أنه انساق للقول بخلق القرآن ، وناهيك بذلك بدعة فى الدين وثلمة فى صرحه ، بسبب القليل الذى كان يعرفه من علوم الأوائل (١) . وكان من الطبعى أيضا اتهام أصحاب المأمون وخاصته بالرقة فى الدين لميلهم الى علوم الأولين ! ومن هؤلاء الأصحاب الذين ألف بينهم وبين المأمون الاتحاد فى النزعة الفلسفية على بن عبيدة الريحانى . لقد كان كما يقول ياقوت فى معجمه له اختصاص بالمأمون ، ويسلك فى تأليفاته طريق الحكمة ، كما كان يرمى بالزندقة (٢) . ويقص علينا ياقوت أيضا فى موضع آخر نبأ أبى زيد أحمد بن سهل البلخى المتوفى عام ٣٢٢ هـ والذى كان يقوم بجميع العلوم القديمة والحديثة ويسلك فيما يؤلف طريقة الفلاسفة ولهذا رمى بالإلحاد . (٣) ولم يحمه من هذه التهمة ما ألفه من كتب فى الدين ؛ ومنها كتاب فى عصمة الأنبياء ، وآخر فى نظم القرآن ، وآخر فى قوارع القرآن ، وآخر فى أسماء الله وصفاته ، وآخر فى تفسير الفاتحة والحروف المقطعة فى أوائل السور ؛ لم يشفع له شىء من هذا لأنه كما يدل عليه التاريخ ويؤيده ياقوت كانت التهمة فى الدين تسير جنبا لجنب مع العناية بعلوم الأوائل (٤) . ولهذا نجده يصف أحمد النهرُجورى ـ الذى عاش فى القرنين الرابع والخامس ومن أهل البصرة ـ فى ترجمته له بأنه كان سىء المذهب ، متظاهرا بالإلحاد ، وأقوى طبقة فى الفلسفة وعلوم الأوائل (٥) .

ولم تكن الطبيعيات والإلهيات وحدها هى المخصوصة بالذم من العلوم الفلسفية ، بل كان بعض المترمتين (وما أكثرهم فى كل عصر !) يتخوفون من الحساب مع الحاجة إليه فى المواريث

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ص ٢١٨ ج ١ (٢) معجم الأدباء طبعة الدكتور رفاعى ج ١٤ ص ٥١ ـ ٥٢ (٣) نفسه ج ٣ ص ٦٤ وما بعدها . (٤) التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية من مقال للمستشرق المعروف جولد زيهر ص ١٣٠ عن معجم الأدباء لياقوت .
(٥) معجم الأدباء الطبعة المذكورة ج ٥ ص ٧٣ وما بعدها .

والمعاملات، ومن المنطق مع عظيم غنائه فى الاستدلال لأصول الدين وقضاياه، لا لشىء إلا لأنهما من علوم الفلاسفة، حتى كان من أمثالهم: من تمنطق فقد تزندق! ها هو ذا الغزالى فى تهافته وفى المنقذ من الضلال (١) ينحى باللائمة على بعض أصدقاء الاسلام الجهلاء الذين أنكروا على الفلاسفة علومهم الرياضية لظنهم أن الدين ينصر بانكار كل ما ينسب إليهم من أنواع العلوم والمعارف، وجرّهم ذلك الانكار الى الزعم بأنهم أخطأوا فيما جعلوه من أسباب للخسوف والكسوف، وأن ما قالوه فى هذا مخالف للشرع. وكانت العاقبة أن ضروا الاسلام دون أن يفيدوه، إذ من عرف وثاقة برهان الفلاسفة لم يشك فيه، لكن يعتقد «أن الاسلام مبنى على الجهل وإنكار البرهان القاطع، فيزداد للفلسفة حبا وللاسلام وبغضا». (٢)

على أن حجة الإسلام وإن رأيناه هنا معتدلا يصيب المحز ويطبق المفصل، فاننا نراه فى موضع آخر متطرفا فى حكمه، غاية فى الشدة فى حذره. فأنه لما تكلم فى المنقذ أيضا على علوم الفلاسفة الخلقية رأى أن الفلاسفة المسلمين كأخوان الصفاء وأمثالهم مزجوا الحق بالباطل، إذ جعلوا فى أثناء كلامهم وكلام القدماء كثيرا من الحكم النبوية وكلام المتصوفين، فربما استحسن الجميع من لا يستطيع التمييز بين الطيب والخبيث فيسارع الى قبول باطلهم، ولهذا يجب الزجر عن مطالعة كتبهم لما فيها من الخطر؛ وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق الشطوط، يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب؛ وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيات، يجب صون الأسماع عن مختلط تلك الكلمات. (٣)

وإذا تجاوز الباحث العصر الذى عاش فيه الغزالى يجد الخليفة العباسى المستنجد بالله يأمر كما يقول ابن الأثير بمصادرة أحد القضاة، فتؤخذ كتبه ويحرق منها ما كان من علوم الفلاسفة، فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا ودائرة معارف إخوان الصفاء (٤). ولعل مما يفيد جدا الإشارة الى رأى جمال الدين بن الجوزى البغدادى المتوفى عام ٥٩٧ ﻫ فى هؤلاء الفلاسفة وأتباعهم الغاوين! يرى ابن الجوزى هذا أن فلاسفة الاسلام الذين اغتروا بفلاسفة الأغريق فأخذوا عنهم وشاركوهم فى آرائهم، خلعوا ربقة الاسلام، فصار اليهود والنصارى أعذر منهم لتمسكهم بشرائع دلت عليها المعجزات؛ أما أولئك فلا مستند لكفرهم إلا علمهم بأن الفلاسفة حكماء! (٥)

ومما تجب الاشارة اليه أيضا فيما نحن بصدده، ما امتحن به سيف الدين أبو الحسن على الآمدى أوحد الفضلاء وسيد العلماء، وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكمية والمذاهب الشرعية كما يقول

---

(١) الأول ص ١٠ وما بعدها طبعة بيروت، والثانى ص ٩٠ وما بعدها طبعة دمشق.
(٢) المنقذ من الضلال ص ٩٠ (٣) نفسه ص ١٠٥ (٤) تاريخ ابن الأثير ج ١١ ص ١٠٤ طبعة بولاق (٥) تلبيس إبليس طبع مصر سنة ١٩٢٨ ص ٤٩

ابن أبى أصيبعة (١)؛ دفعت الأيام بهذا الحبر الحنفى للتنقل من بغداد للشام ثم الى الديار المصرية حيث ألقى عصا التسيار، وظن أن السعادة واتته فلن يلقى إلا العز والعيش الخفض؛ ولكن أنى له هذا وآفة العلم وداء العلماء ـ أعنى الحسد ـ له بالمرصاد! فقد تصدر للتدريس بالجامع الظافرى بالقاهرة، واشتهر فضله، وقصده الناس من كل صوب، فحسده جماعة من الفقهاء وتعصبوا عليه، وطوعت لهم نفوسهم أن يرموه بأشنع التهم، وهى ـ كما كان بدع ذلك الزمن ـ فساد العقيدة وانحلال الطوية، ومذهب الفلاسفة والحكماء. ورغبة منهم فى التوثق من الإيقاع به كتبوا محضرا بما رأوا ووقعوا عليه، وأعلنوا فيه استباحة دمه. إلا أنه نذر بذلك فخرج على استخفاء وفر هاربا للشام حيث قام بالتدريس فترة من الزمن باحدى مدارس دمشق، ثم عزل لمثل ما قرف به فى مصر، وظل متعطلا من العمل الرسمى حتى توفى عام ٦٣١ هـ. ومن جميل ما يذكر فى هذه المأساة أن أحد من دعوا للتوقيع على ذلك المحضر الذى أملاه لؤم الطبع راجع نفسه وضميره فكتب:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه   فالكل أعداء له وخصوم

ثم كتب توقيعه! (٢)

ولا ننسى هنا، والشىء بالشىء يذكر، أن نذكر بحادث عبد السلام البغدادى المدعو بالركن وإحراق كتبه فى حفل كبير قصصنا نبأه فى الكلمة السابقة؛ فان الحسد كان أيضا العامل الذى أثار بعض الذين فى قلوبهم مرض فلم يطيقوا شهرته بالعلم وتصدره فيه، فاتهموه بالتعطيل والرجوع الى أقوال الفلاسفة، فكان ما رواه القِفْطى من إيقاع الحفظة عليه وعلى كتبه وإحراقها، ومنها كتاب الهيئة للحسن بن الهيثم الذى وصفه من باء بإثم هذا العمل بأنه الداهية الدهياء والنازلة الصماء والمصيبة العمياء! على أن حظ الركن تغير بعد هذا من النحس للسعد، فأفرج عنه وأعيد الى ما كان عليه من المناصب، واستمر كذلك حتى مات عام ٦١١ هـ.

ومما يتصل بهذا أيضا أمر شهاب الدين السُّهْرَوَرْدِىّ، وكان كما يقول ابن أبى أصيبعة (٣) «أوحد فى العلوم الحكمية، بارعا فى الأصول الفقهية، مفرط الذكاء جيد الفطرة، فصيح العبارة لم يناظر أحداً إلا بزه، ولم يباحث محصلا إلا أربى عليه». إلا أن علمه وعقله جنيا عليه؛ فقد أتى حلبا وناظر فقهاءها فأفحمهم، فشنعوا عليه، فأراد السلطان الملك الظاهر ابن صلاح الدين أن يقف بنفسه على جلية الأمر، فعقد مجلسا حشر إليه أكابر المدرسين والفقهاء والمتكلمين ليشد بعضهم أزر بعض فى مناظرة السهروردى، إلا أن هذا حجهم وكان له الفَلَج عليهم،

(١) طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٧٤. (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤٦٩ طبع بولاق، والتراث اليونانى ص ١٦٣. (٣) طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٦٧.

فقرّبه السلطان وصار مكينا عنـده مختصا به . عمـل المغلوبون على الثأر لأنفسهم وكرامتهم العلمية ، فعملوا محاضر بكفره رفعوها الى صلاح الدين بدمشق ، طلبوا فيها استئصال الشر بقتله حتى لا ينفث إلحاده بكل بلد يحل فيه ! فـكان لهم ما أرادوا ، إذ ورد الأمر بقتله ، فا ثر وقد عرف أن لا مناص أن يمنع الطعام والشراب حتى يأتيه أمر الله فى مكان منفرد لا يلقى فيه إنسيا ، فـفُعل به ذلك ، ومات عام ٥٨٦ هـ بحلب عن ستة وثلاثين عاما ، ولذلك يلقب بالشاب المقتول . ومما نقله صاحب طبقات الأطباء من شعره ، ما قاله وهو يجود بنفسه :

قـل لأصحاب رأونى ميتـا ... فبكونى إذا رأونى حـزَنا
لا تظنـونى بأنى ميت ... ليس ذا الميت والله أنا
أنا عصفور وهـذا قفصى ... طـرت عنه فتخلى رهنـا
وأنا اليـوم أناجى مـلأً ... وأرى الله عيـانا بهنـا
فاخلعوا الأنفس عن أجسادها ... لـترون الحق حقا بينـا
لا ترعـكم سكرة المـوت فما ... هى إلا انتقال من هنا
فارحمـونى وارحمـوا أنفسكم ... واعلمـوا أنـكم فى إثرنا

(الحديث موصول)

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

تفضيل ناس على آخرين فى العطاء

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد من العرب فأعطاهم وفضّـل رجلا منهم عليهم . فقيل له فى ذلك ، فقال : كل القوم عيال عليه .

نقول : فضله النبى صلى الله عليه وسلم لأنه جواد يتعهد ذوى الحاجة من قومه بالعطاء .

وأعطى النبى صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، المؤلفة قلوبهم ، فأعطى الأقرع بن حابس التيمى وعيينة بن حصن الفزارى مائة من الإبل ، وأعطى العباس بن مرداس السلمى الشاعر خمسين ؛ فشق ذلك عليه ، فقال أبياتا وأنشده إياها ، فقال :

أيذهب نهبى ونهب العبيـ ... ـد بين عيينة والأقـرع
ولا كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت غير امرئ منهم ... ومن تضع اليوم لم يرفع

فقال رسول الله لبلال : اقطع عنى لسان العباس ، فأعطاه حتى أرضاه .

كلمات فى الموضوع نفسه

نشرنا فى هذا العدد ما تفضل بارساله إلينا فضيلة الاستاذ الألمعى الشيخ محمد يوسف موسى ، متابعا ذكر ما صادفه العلم والفلسفة من العقبات فى عهد التدهور عند المسلمين ، وإنى لأحيي فيه فضيلتى الانصاف والاطمئنان الى الحقيقة ، فهو بهذا الوصف يمثل السكينة الفلسفية التى يدرِّسها ، ويخدم العلم الذى وقف حياته لإعلاء كلمته .

وقد لاحظ فى مقاله المنشور اليوم على قولى فى مقالى السابق : « فاذا كان دين فى الأرض تأبى طبيعته أن ينشأ فيه اعتزال وعلم للكلام فهو الاسلام » فقال فضيلته : إن ما فى القرآن مما يوهم التشبيه والتجسيد ، وما فيه مما يفهم منه الجبر والاختيار معا الخ ، يوجب أن يكون فيه علم للكلام .

نقول : لو كان فى الاسلام ما يوجب علم الكلام ، أو يسمح به ، لما كان هو الاسلام الذى أراد الله أن يجمع عليه كلمة الناس ، فلا يتفرقون فيه . قال تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » ؛ وذم المتفرقين فى الدين فقال : « فتقطعوا أمرهم بينهم زُبُراً ، كل حزب بما لديهم فرحون . فذرهم فى غمرتهم حتى حين » .

يقول قائل إذا كان التفرق فى الدين يعتبر خروجا منه فى نظر الاسلام ، فما السبيل الى معالجة ما يوهم التشبيه والتجسيد فى القرآن كقوله تعالى : « فأينما تولوا فثم وجه الله » وما يوهم أيضا التناقض ، كالآيات الدالة على حرية الاختيار والجبر معا ؟ الخ .

نجيب على هذا السؤال بسؤال آخر فنقول : « إذا كان فى القرآن آيات توجب الاعتزال وعلم الكلام ، فكيف مضى على المسلمين الأولين نحو مائة وخمسين سنة ولم ينشأ فيهم اعتزال ولا علم للكلام ؟

مائة وخمسون سنة نشأ فيها الدين ، وتألفت جماعة المسلمين ، ووزعت الأعمال على العاملين ، فانتدبت جماعة لجمع اللغة ، وأخرى لتفسير الكتاب ، وثالثة لجمع الأحاديث ، وغيرها لنشر الدعوة ، وحماية الحوزة ، وفتح البلدان ، وتنظيم سياسة الملك الخ الخ ، كل هذا ولم تنشأ فيهم ناشئة خلاف فى فهم غوامض الدين ، فهل كان تمام الإسلام متوقفا على قيام واصل بن عطاء يجادل أستاذه الحسن البصرى فى الجبر والاختيار ؟

الجواب : نعم مضت هذه المائة والخمسون سنة ، وهى العهد الذهبى للإسلام ، ولم تنشأ ناشئة خلاف فى غوامض الدين ، لأنهم كانوا فاهميه على أكمل وجه .

اعترضتهم كما اعترضت من جاء بعدهم هذه الآيات الموهمة للتشبيه والتجسيد ، فلم يعيروها التفاتا ، لأن الكتاب أكد لهم بأن « ليس كمثله شيء » ، ومن كان كذلك فلا يكون له أعضاء ولا يكون متجسدا ، فصرفوا كل ما صادفوه مما يوهم الأعضاء والجسد الى خصائص اللغات البشرية من التشبيه والمجاز والاستعارة ؛ فما من لغة فى الأرض إلا وفيها من هذه الأنواع حظ كبير ، وقد أفردوا لها علما سموه (علم البيان) وبالفرنسية La Réthorique ، وما كان هذا شأنه أغنت قواعد اللغة عن الثرثرة فيه .

أما ما فى الكتاب من إثبات الجبر والاختيار معا كقوله تعالى : « خلقكم وما تعملون » و « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » و « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » و « فاستحبوا العمى على الهدى » ، مما يثبت الاختيار والجبر معا ، فقد نظروا فيه ولم يتناولوه ببحث ، عملا بالقاعدة الاسلامية الكلية وهى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات (أى لا يمكن الخلاف فيها) هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات (أى تشتبه مدلولاتها ، وتختلف الافهام عليها) ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله » .

على هذه القاعدة سار المسلمون الأولون ، وهو أدب يعتبر اليوم من أسمى درجات المعرفة ، فالكون عظيم ، والقوى التى تعمل فيه لاحد لها ، والعقل قاصر ومحدود ، فلم يحاولوا أن يتخطوا سياج هذا الحظر ، فتركوه الى ما كُلفوا بعلمه والعمل به من الأصول الأدبية ، والمبادئ الخلقية ، فتأدوا الى أعلى ما تتأدى اليه أمة من بسطتى العلم والعمران .

أنا أعلم أن للعقول مطامح لا يستطاع كبتها ، فهى لا تفتأ تشرئب الى ما حُجب عنها علمه ، عساها تبلغ ما يبل أوامها منه . فلتعمل على شاكلتها ، ولكن لحسابها لا لحساب الدين الذى لم يكلفها إياه . وقد أفنى رجال من علماء الكلام أعمارهم فى تحقيق هذه الغوامض فماذا حصّلوا ؟ لا شيء غير تفرق الكلمة ، وتصدع الوحدة ، وبلبلة العقول !

إن آية المحكم والمتشابه فى القرآن لا تسمح بنشوء علم للكلام فى الاسلام ، تختلف عليه المذاهب ، وتتشعب فيه المفاهيم ؛ لأن هذا العلم لا يوجد إلا حيث يوجد ما نهى الله عن محاولة تأويله . ولا يعتبر هذا صدا منه للعقول عن الجولان فى المجهولات ، ولكنها من أصول (حكمته) التى بزت كل فلسفة فى الأرض ؛ فقد تبين أن كل تلك المجهولات هى مما لا تستطيع العقول إدراكه ؛ وقد اعتركت الأمم الكتابية نحو ألفى سنة فى الوصول منها الى ما يثلج عليه الصدر ، فلم تحصُل منها على طائل ؛ وقد أدركت الفلسفة أخيرا أنها مسائل غير قابلة للحل فوضعتها جانبا . ولا تحسبن أن المجهولات التى لا تحل قاصرة على الشئون الدينية . ففى الطبيعة نفسها أمور غير قابلة للحل : هل الوجود محدود أم لا نهاية له ؟ لا يمكنك أن تعقل واحدا من

الأمرين . يقولون إن الكواكب أجزاء انفصلت عن كتلة الشمس ، فوقفت على بعد منها ، ثم أخذت تدور حولها ؛ فأى قوة فصلتها عنها ؟ ولأى علة وقفت على بعد منها ؟ إن عللنا ذلك بالجاذبية العامة ، فما الذى دفعها لأن تدور حولها . قال العلامة (نيوتن) الفلكى العبقرى : لا توجد علة طبيعية يمكن تعليل هذه الحركات الكوكبية حول الشمس بها ، فلا محيد عن القول بأن القدرة الإلهية هى التى قدرت ذلك عليها .

نعود الى ما كنا فيه فنقول : إن مضى مائة وخمسين على أمة ، أتمت فيها نشوءها وتطوراتها الاجتماعية والأدبية ، ووصلت فيها الى أبعد فتوحاتها العالمية ، وهى طوال ذلك العهد الذهبى لا تحتاج فيه لعلم الكلام ، لأدل دليل على أن هذا علم دخيل لا فائدة له ، لا فى تقوية إيمان ، ولا فى تأييد عقيدة ، ولا فى إنارة طريق ؛ فقد مضى خير ما كان للأمة الاسلامية من بسطتى السؤدد والدين فى تلك المائة والخمسين سنة ، فلما نشأ ذلك العلم نشأت معه الخلافات فى أخص الأمور الدينية ، وتطور حتى سبب ظهور الخوارج .

كل هذا كان ، ولست بقصير النظر لأقول إنه كان يمكن اتقاؤه ، ولكنى أقول إنها أعراض أدبية تعترى الأمم فى بعض أدوارها ، فإما تنجو منها وإما تقضى عليها ؛ وقد نجا المسلمون منها بفضل (الحكمة) القرآنية التى تمسك بها أهل السنة . يحتمل أنه صدر منهم بعض التشديد ، فأى تشديد لا يغتفر حيال جائحة الاعتزال وعلم الكلام فى الأمم ؟

إن هؤلاء وصلوا الى السلطة على عهد المأمون ، فما تركوا عالما فى المملكة الاسلامية إلا وأجبروه على أن يقول (القرآن مخلوق) ، ومن لم يقلها ضربوه بالسياط غير مراعين لعلمه وسنه حرمة ، وكان الامام احمد بن حنبل أحد ضحاياهم .

إن الأمة التى تقع فى مثل هذه المحنة تعذر إن ثارت على هؤلاء المتكلمين العاطلين فأبادت خضراءهم ، فكيف لو اقتصرت على مكافحتهم كفاحا أدبيا ، وأحرقت كتب عدد محصور منهم ؟

اللهم إن هذا حلم عظيم من أهل السنة ، حصّل لهم بفضل (الحكمة) القرآنية التى تبيح حرية البحث ، ولا تعاقب على سوء الفهم .

وفى هذه المناسبة ظهر رجحان الحكمة القرآنية على الفلسفة اليونانية بدليل محسوس . ألم تر الأخيرة كيف حملت الناهلين من حياضها على أن يحملوا الناس على مذهبهم بالقوة البالغة أقصى درجات الوحشية . وهو أمر لم يحصل من أهل الحكمة القرآنية لما كان لهم الحكم ، فقد نظروا فى القرآن والسنة ، وفيما بين أيديهم من الحوادث ، فاتفقوا تارة واختلفوا تارة أخرى ، فلم يؤثر اختلافهم على ما بينهم من وحدة ، لأن طائفة منهم لم تقل إنها احتكرت الفهم لنفسها ، وأعطيت حرية التحكم فى عقليات الناس بالقوة ؛ فأين هذا الأدب العالى الذى أثمرته لأهلها الحكمة القرآنية ، من تلك الرعونة الجاهلية التى حملت أنصار الفلسفة اليونانية على

ضرب علماء أمة برمتها بالعصى ، لأنهم لم يقولوا مثل قولهم فى مسألة لا يوردها على نفسه امرؤ له مسكة من عقل !

المعايير التى يحكم بها على الأمم .

إذا أريد الحكم على أمة من الأمم فى أية ناحية من نواحى النشاط العقلى ، فلا يجوز أن تعتبر الحوادث الافرادية التى صحبت تطورها فى اتجاهها ، لأن تلك الحوادث لا بد منها حتى فى أرقى أدوارها ، وإنما يجب أن تعتبر الغاية التى وصلت اليها فى تكملها ، إن كانت بعيدة أم قريبة ، كاملة أم ناقصة ، مثمرة أم عقيمة .

وقد نظر علماء الفرنجة فى المجتمع الذى ألفه الاسلام ، من نواح كثيرة ، وأخصها الناحية الثقافية ، جارين من ذلك على القاعدة الأصولية من عدم الالتفات الى الحوادث الافرادية ، بل الى النتيجة النهائية ، فدهشوا مما رأوا من سرعة خطواتهم فى هذه السبيل ، حتى قالوا إن أمة من الأمم لم يُحفظ عنها أنها طفرت هذه الطفرة الى الغايات القصية من الثقافة الانسانية ، فبنوا حكمهم عليها من هذه الناحية على النتيجة النهائية ، لا على حوادث إفرادية لا أثر لها فى تأخير تلك النتيجة أو صدها . قال العلامة دريبر فى كتابه : (المنازعة بين العلم والدين) وهو مدرس بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة :

« إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة (٦٣٨) أى بعد موت محمد بست سنين ، ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية وقدروها قدرها الصحيح .

« ولما ولى الخلافة أبو جعفر المنصور (٧٥٣ ــ ٧٧٥ م) نقل عاصمة الملك الى بغداد وجعلها عاصمة نخمة ، فلم يأل جهدا فى بذل الوسع فى نشر العلوم الفلكية ، وتأسيس مدارس الطب والشريعة . ولما تولى حفيده الرشيد سنة (٧٨٦) م ، اتبع أثر جده فى هذه الفتوحات العلمية ، الخ »

كان يستطيع الأستاذ دريبر أن يشوه روعة هذه الحركة المباركة بذكر ما قام به بعض الجامدين من الدعوة الى معاداة هذه العلوم ، ولكن البروفسور دريبر يعلم أن كل حركة فى مجتمع لابد من أن يصحبها عوامل تثبيط من نواحيها التى بقيت جامدة لم تتأثر بالحياة الجديدة فى ذلك المجتمع . وهذه العوامل لا يجوز الالتفات إليها إذا كان مجموع الجثمان الاجتماعى لم يتأثر بها ، واستطاع أن يهضم كلما تناوله وأن يحيله الى مادته وازداد به قوة وتضخما .

دريبر يعرف أن الذين حرموا تعلم الحساب جاءوا بعد أن أصبح المسلمون أئمة العلوم الرياضية ، واخترعوا علم الجبر بقرون عديدة ، ولو كانوا عاصروا ظهور هذه الحركة لما عبأ بهم أحد ، لأنهم لم يستطيعوا أن يشعروا المجتمع بوجودهم ، فضلا عن التأثير عليه بخزعبلاتهم ؟

محمد فريد وجدى

مذاهب العرب فى كلامهم

— ٥ —

أسلوبهم وطريقة تفكيرهم

لما قامت دولة بنى العباس تهيأت أسباب التحول والتغير فى أسلوب العرب وطريقة تفكيرهم ، وكانت مقومات ذلك لا تقتصر على الجنس والسلطان وحدهما ، وإنما جاءت من العلم والفن أيضا ، فظهر قسم كبير من الصور البيانية وألوانها فى تعبيرات العرب أنفسهم ، بعد ما صقلها العلم وهذبها العرفان ، فانتظم صدر الدولة العباسية من فحول القول ، وفرسان البلاغة ، أئمة مبرزين ، وكان الأمراء والقادة يستبقون فى هذا المضمار ، ويتشبهون بمن سبقهم من الأبيناء والبلغاء ، فنبغ فيهم من الكتاب والخطباء والشعراء أمثال عبد الحميد وابن المقفع وبشار ومروان ابن أبى حفصة وأبى نواس والجاحظ وعمرو بن مسعدة . وهذه الغيرة التى تتأجج فى صدور الأمراء والبلغاء على اللغة ، وهى أثمن تراث عن الآباء ، كان يعترضها عوامل أخرى تعمل ضدها وتكيد لها أيما كيد ، يحمل أصحابها على ذلك عصبيتهم الجنسية ونعرتهم الأجنبية . من مظاهر هذه العوامل الكيدية الاستكثار من الدخيل فى اللغة لأصغر حاجة عارضة ؛ فلو فتح أحدنا معجما لغويا لاطلع فى كل صفحة منه على كلمات كتب الى جانبها : فارسى معرب . ولست أنكر أن الاسلام اقتضى أن يدخل الى الفارسية عدد كبير من الألفاظ العربية وخاصة ما يتعلق منها بالمعاملات ، حتى لا تكاد تفتح كتابا فارسيا حتى تقع عينك فى كل صفحة منه على كلمات كثيرة تمت بصلة ظاهرة الى اللغة العربية .

هذا أمر طبيعى يحدث عادة بين أمم اتصلت اتصالا اجتماعيا ودينيا ، وتعلم بعضهم لغات بعض ، وعاشوا على صعيد واحد من الأرض ، ولكن كان من أبناء الملل الأجنبية من التحقوا بالاسلام ولم يستشعروه ، وإنما دفعهم اليه مشايعة الكثرة ، والتقرب من رجال الدولة ، فهؤلاء لم يكن لهم من الغيرة على الدين ما يحملهم على المحافظة على جوهره خالصا من الشوائب ، ولا على اللغة ما يجعلهم حريصين على صفاء معينها من الدخيل ، فكما وضعوا فى الدين ما ليس منه ، وأولوا من نصوصه ما لا يقبل التأويل ، ليتفق وما ألفوه من الدين الذى كانوا عليه ، أنحوا على اللغة بالاستكثار من الدخيل لغير حاجة ، تحت حماية ما التحقوه من الاسلام ، وهم لأجل أن يلهوا الناس عن دخيلة نفسياتهم آتوهم كثيرا من وسائل الصناعات ، وأسرار الفنون ، ووقفوهم على عيون مؤلفاتهم ، وما فيها من ثمرات تفكير حكمائهم وعلمائهم ، ناسبين اليهم السبق الى أكثر ما أوتوه من وصايا دينهم وتعاليمه .

صحيح أن هذه الحضارات قد أفاد العرب منها ، ولكن هذه الفائدة لم تكن مقصودة عند هذا الفريق ، وإنما كان المقصود صبغ كل شىء بلون أجنبى ، فدخلت فى اللغة ألفاظ وأساليب ليست منها ، وتغيرت طريقة التفكير تغيرا تاما .

وما كان بالمسلمين من حاجة لمن يحثهم الى الأخذ بكل أحسن من كل ما يصادفونه ، وتلقف كل علم جديد مما يجدونه ، فان دينهم قد بالغ فى تحضيضهم على تصيد العلم والحكمة والوسائل النافعة من جميع مظانها حتى ولو كانت لدى المشركين ؛ فان خلفاء المسلمين كانوا أول من اهتم بتلقف العلوم والفنون الموجودة لدى الأمم ؛ وكان أول من فتح كنزها الخليفة المنصور ، فقد أرسل فى طلب العلماء والفلكيين ، وقدم أهل العلم غير ناظر لجنس ولا متعصب لعقيدة ، وإنما كرامة الناس عنده لعلمهم لا لمذهبهم . وحسبك أن تعلم ما صنع مع آل بختيشوع وما مكن لهم فى الأرض ، وقدم لهم من نشب ، وأباح لهم من سلطان ، لتعلم مكان العلم من نفس الرجل وحبه للعلماء وتقديره لهم . فلما كان حفيده الرشيد وقامت فى عهده دولة البرامكة وهم من رءوس فارس ، قام للعلم فى عهدهم دولة ضخمة وسعت الناس جميعا ، وقد تنافس فى ذلك الرؤساء والأمراء ، وفتحوا للعلم دورهم وأيديهم ، وفعل البرامكة فى ذلك ما لا يصدر مثله إلا عن عظماء الملوك . فلما جاء حكيم الخلفاء وسيد العلماء عبد الله المأمون ، جعل العلم حلية الإمارة ، وطريق الوزارة ، وسبيل الرزق ، وحرفة الشرف ، وجلب العلماء من أطراف الأرض ، وأقام لهم بيوت الحكمة ومعاهد الدرس ، وفسح فى أرزاقهم ، ومد فى سلطانهم ، وجعل العلم وسيلة القربى اليه ، وشفاعة الذنب لديه ، وقرب بين العلوم الشرعية والحكمية ، ومزج الحضارة الأجنبية بالحضارة العربية ، ولم يباعد بين القرآن والعلم ، فنظر الناس نظرا جديدا ، واتجهت أفكارهم اتجاها بعيدا ، فأصبح العربى جديدا فى فكره بعيدا فى تصوره ، دانت له أسباب العلوم ، ومكنته من نفسها أزمة الفنون ، ففهم المسلمون العلوم التى قرأوا ، وعدلوا فيها ، وقوموا منها ، وأضافوا اليها ، واخترعوا فيها بدعا جديدا ، كل أولئك غير فى نظام القول نثره وشعره ، وغير من طريقة التفكير فى أنماطها وأشكالها ، وتغير أسلوب التعبير تبعا لذلك حتى يوافق القول ما تجيش به النفس تعبيرا صحيحا . وهذا الذى عهدناه فى تراث بنى العباس ، فان شعراءهم وكتابهم وخطباءهم كانوا يرسلون القول ليصوروا به ما فى نفوسهم وإن لونوه ألوانا مختلفة ، أو قل إنهم كانوا يرسلون نفوسهم على عذبات ألسنتهم ، وأسلات أقلامهم ، فاذا وجد منهم من يرائى فهو قُلٌّ لا يعتد به ، ولا يدخل فى حساب .

وثالثة أن العلوم والفنون لما وضعت قام العلماء يضعون لها مصطلحات ، ويسمون لها أسماء ، وخلعوا عليها من السمات والصفات ، ما باعد بينها وبين ما ألفه العرب فى قديمهم ، فكان ذلك باعثا آخر على التغيير فى الصور والأشكال ، واقتبس الكتاب والشعراء من ذلك فوضعوه فى أقوالهم ، إما تظرفا ، أو للحاجة اليه ، أو للتقرب من أهله ، أو للنصرة والمشايعة ، وعبوا من ذلك عبا كبيرا .

أما الجديد الذى انحدر الى اللغة من بلاغة الفرس وحكمة الروم ، وأخبار الهند ، فقد ملأ القوم به أقلامهم وأفواههم ، ونثروا منه فى كل مكان .

هـذه الأسباب كلها قد اجتمعت فغيرت من أسلوب العرب وتفكيرهم ، وخلقت منهم فى ذلك خلقا جديدا .

غير أن هنالك فى كل أمة طائفة تعمل على بقاء القـديم ورسوخ أقدامه ، وتوصى عليه حتى تتخذ منه دينا لها ، وغاية لعملها ؛ تدفعها الى ذلك الغيرة على تراث الأولياء ، وتأخذها العزة لـكل ما اعتاد الآباء ، بل يدفعها التعصب أحيانا فتجعل من الحق باطلا ومن الباطل حقا ، فهذا الجاحظ يحدثنا أنه ليس فى الـكلام العربى ما يوصف بأنه سخيف ، فان سخيف الـكلام إن كان يقتضيه المقام فهو كريم فى جوهره نبيل فى معدنه . ثم هو يقول : « ليس فى الأرض كلام هـو ألذ فى الأسماع ، وأمتع للأفهام ، وألصق بالقلوب ، وأنفع للعقـول السليمة ، من سماع كلام الأعراب العقلاء الفصحاء » .

وليس من شك فى أن الرجل قد دفعه الى هذا ذوقه ، فهو قد تذوق لغة العرب وعالجها حتى فهم كثيرا من أسرارها ، فليس هنالك كلام يقـع من نفسه ويفعل فى لبه مثل ما يصنع كلام العظماء من الأعراب ، وإنما قد جاء خطؤه من أنه جعل القضية عامة ، فإن الفارسى والفرنسى والإنجليزى يستمتع جميعهم بقول فصحائهم ، كما يستمتع الجاحظ بقول الأعراب تماما ، فلو أنه قصر كلامه على العرب وحدهم لـكان أسـلم له . فهذه الطائفة الغيور على اللغة ، الحريصة على سلامتها ، عملت على تخليص القول مما ليس عربيا ، وناصبت كل أثر يضم بين أحنائه ألفاظا أعجمية ، أو أسلوبا غير عربى ، ورمت أهله بالعى والعجز عن مجاراة الفصحاء ، ومسايرة البلغاء ، ومدوا فى أسباب ذلك حتى قلدوا العرب فى ديباجتهم وطريقتهم وتفكيرهم ، وأدخلوا فى روع الخلفاء والأمراء والجمهور أنهم وحدهم الخطباء والشعراء والـكتاب ، ومن عداهم عيي أو أعجمى ، تتغلب العجمة على ألفاظه ، وتتسلط اللـكنة على لسانه ، فإذا أراد إنسان أخذ القول صافيا والجوهر كريما ، فـلا يطلبه من مثل هؤلاء ، فانه ليس من تجارتهم ولا هو من بضاعتهم ، وإنما يؤخذ من قادة الـكلام ، وأمراء البيان ، الذين ذل القول لهم فتحكموا فيه ، وتمكنوا منه ، فقـدموا وأخروا ، وذيلوا ورفلوا ، ووصلوا وفصلوا ، وعرفوا لـكل حرف سره ، ولـكل إشارة بيانها ، فهم صيارفة القول وأطباؤه ، وهم أبناء البيان وآباؤه ، وقد خلبوا بذلك عقل كل امرئ فأصبح لا ينكر الواحد منهم أن يمـدحه شاعر فيقدم لمدحته بتشبيب ليس بينه وبين المدح صلة ، أو بذكر أمكنة لم يرها ، وقد طبعوا الجمهور على ذلك فأصبح الشاعر عنده من ابتعد عن الألفاظ الدخيلة ومصطلحات العلوم ، وابتعد عن تعبير الفقهاء ، وكان بيّن الغرض ، بعيدا من التعمق والتعقيد ، وقاسوا الشعراء بهذا المقياس ، ووازنوا بينهم موازنات ملأوا بها بطون الـكتب .

وممـا يوجب النظر حقا أن الخلفاء والرؤساء مع تعلقهم بالعلوم ، وشغفهم بالنظر ، كان ميلهم مع هذا الفريق يدفعهم اليهم صفاء معين العربية فيما يتعلق بلغة الأدب فيها ، كأنهم رأوا أنه يجب أن يكون للبلاغة أسلوبها ، وللعلم أسلوبه ؟

محمد ناصف

من وحى الشريعة الخالدة

ما أحسب فيما أحسب أن أمة انحل رباط الأخلاق فيها وشاع فى جنباتها ريح الملق والرياء والبخل والكذب إلا أسرع إليها الفناء ، وحاق بها الويل . فالبخل والكذب من الآفات الأخلاقية التى ما برحت سوسا ينخز فى جسم المجتمع ، وداء عياء استحال على رواد الأخلاق وأساتها أن يخففوا من حدته وأن يكسروا من شرته .

وما كان البخل الأخلاقى إلا نكبة أتت على الانسانية فى جوانبها ، فليس البخل هو الشح بالمال عن الخلقاء به والمفتقرين إليه فحسب ، بل البخل شيء آخر وراء ذلك : هو شبح ذلك الفزع الذى أخذ على البخيل متنفسه ومطلع أمله ، فالمصاب بهذا الداء ما هو إلا لوثة فى هذا المجتمع قد ند عن قواعده ونجم بين أطوائه نجوم الشجرة الجرداء تعترض الناس فى غدواتهم وروحاتهم ، فلاهم يستمرئون ثمارها ، ولاهم يتفيئون وارف ظلها .

والبخل يورث صاحبه سوء القالة ، فتمتد إليه الألسنة بما يكره وما لا يحب أن يكون ، فهو مجترئ على اقتراف تلك المآثمة الأخلاقية راض بها ، منشرح لها ، ولكنه من ناحية أخرى يحب ألا تبدو فيه تلك النقيصة ، وهو يعمل على عكسها . وما أصدق قول الرسول الأعظم : « يتقارب الزمان ، وينقص العمل ، ويلقى الشح ، ويكثر الهرج ، قالوا : وما الهرج ؟ قال : القتل القتل » .

فقد كشف هذا الحديث عن المآسى الانسانية ترتكب فى أخريات الزمن فتسلك فريقا من الناس فى مآثمها ولوثاتها ، وتكون أداة الى فساد هذا المجتمع ، والكذب واحدة منها .

وللكذب كذلك من المساوئ والمثالب ما لو أحصيت لأربت على كل شر ومأثمة .

يكذب الكاذب فيتمثل فى قلبه أن أكذوبته مطية ذلول الى مطلبه ، فإذا قضى منها وطره ، وبلغ حاجته ، فقد شفى نفسه ووصل الى متمناه ، لكنه يترك من خلفه المآثم غلا يحيط بعنقه ، وقيداً يصفده ويجعله فى المجتمع قعيدا كسيحا ليس له فيه مبتغى ولا به إليه مرد ، وهو مع ذلك كله يستمرئه ويستطيبه ، ويأخذ نفسه بالمضى فيه والسير على نمطه .

حكى صاحب البيان والتبيين ، وهو العلامة أبو بحر الجاحظ ، أن هذه الحكمة وجدت فى كتب الهند : « ليس لكذوب مروءة ، ولا لضجور رياسة ، ولا لملول وفاء ، ولا لبخيل صديق » . وقال قتيبة بن مسلم : « لا تطلبن الحوائج من كذوب ، فانه يقربها وإن كانت بعيدة ، ويبعدها وإن كانت قريبة ، ولا الى رجل قد جعل المسألة مأكلة ، فانه يقدم حاجته قبلها ، ويجعل حاجتك وقاية لها ، ولا الى أحمق فانه يريد نفعك فيضرك » .

وحسب الكذوب أنه لا ينفك عنه أمران ماحي : كثرة المواعيد ، وشدة الاعتذار . وما أحسن قول ابن الجهم :

لى حيلة فيمن ينم وليس فى الكذاب حيله
من كان يخلق مايقول فحيلتى فيه قليله

قال الله جل ثناؤه : « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون » .

وأخرج الامام أحمد وأبو داود فى صحيحيهما عن سفيان بن أسيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له به كاذب » . وأخرج الترمذى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « ما كان خلق أبغض الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ، ولقد كان الرجل يحدث عند النبى صلى الله عليه وسلم بالكذبة فما يزال فى نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة » . وأخرج الترمذى أيضا عن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلا من نتن ما جاء به » .

وعن أم كلثوم بنت عقبة رضى الله عنها ، وكانت من المهاجرات الأول اللاتى بايعن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس ويقول خيرا ويتمنى خيرا ، قالت : ولم أسمعه يرخص فى شىء مما يقول الناس كذبا إلا فى ثلاث : الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها » . وموعدنا بالشرح والبيان الأعداد القادمة ؟

عباس طه

كلمات متفرقة

قال ابن الحوارى قلت لسفيان : بلغنى فى قول الله عز وجل : « إلا من أتى الله بقلب سليم » ، أنه الذى يلقى الله وليس فى قلبه أحد غيره . قال فبكى سفيان وقال : ما سمعت منذ ثلاثين سنة أحسن من هذا .

كان ابراهيم النخعى ، العالم التابعى المشهور ، فى طريق ، فلقيه الأعمش فانصرف معه ، فقال له الأعمش : يا إبراهيم إن الناس إذا رأونا قالوا أعمش وأعور .

قال ابراهيم : وما عليك أن يأثموا ونؤجر ؟ !

قال الأعمش : وما عليك أن يسلموا ونسلم ؟ !

في عالم المؤلفات الجديدة

الرسالة المهذبة فى تفسير آيات من سورة الحج

تقع هذه الرسالة فى ٧٢ صفحة ، وموضوعها كما يدل عليه اسمها تفسير آيات من سورة الحج ، وقع عليها اختيار فضيلة مؤلفها الأستاذ الموقر الشيخ محمد يونس العادلى ، إشادة بذكر البيت الحرام ، وتنويها بفضائل الحج . وقد افتتحها بمقدمة غاية فى الافادة فى مبادئ علم التفسير ، جمع فيها ما يجب أن يعرف عن هذا العلم ؛ وقد نقل تعريف أبى حيان له وهو : « علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الافرادية والتركيبية ، ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك » .

وقد تكفل فضيلة الأستاذ ببيان المراد من هذا التعريف وغيره ، ثم مضى فى تفسير الآيات التى اقتبسها ببيان لم يسبق اليه ، فأتى بالآيات وتصدى للكلام عنها من نواحى اللغة والنحو والبلاغة والمعنى والأحكام والأصول وكل ما تحتمله ؛ فجاءت رسالة كثيرة الفائدة ، جمة المزايا . فنشكر لفضيلته هذه الخدمة العلمية ، أقدره الله على أمثالها .

كتاب كشف الظنون

إن الخدم التاريخية التى أداها هذا الكتاب للمطبوعات العربية لا يمكن تقديرها ، فما من مؤلف فى فن من الفنون العربية إلا واستعان به فى تحقيق أسماء الكتب ومؤلفيها وسنى وفاتهم ، وهذا توفيق عظيم رزقه مؤلفه ملا كاتب جلبي ، أراد الله له به وفرة الأجر وجمال الذكر .

طبع هذا الكتاب مرارا على نقص فيه ، لم يستطع ناشره أن يستدركه ، حتى قيض له اليوم وزارة معارف الدولة التركية ، فأصدت أمرها للمطبعة الأميرية باستنبول بطبعه مضافا إليه بقية له بخط المؤلف نفسه ، وخمس تكملات قام فضلاء نسجوا على منواله ، فأصبح هذا الكتاب زاخرا بأسماء الكتب العربية بحيث لا يمكن أن يستغنى عنه أديب أو مؤلف أو كاتب .

وقد تم طبع المجلد الأول منه فى نحو ألف صفحة ، وبدئ فى طبع المجلد الثانى . فنثنى على همة سعادة وزير معارف تركيا ، راجين أن يعيد الله السلام الى العالم ليتفرغ رجال الإصلاح الى متابعة أعمالهم الثقافية .

hears the prayers, both of the most cultured and the most ignorant, requiring nothing but a pure heart and sincere motive, is the chief characteristic of the religion of Islam. The absence of the priest in the religion of Islam is one of the reasons which helped Moslems to be better acquainted with their religion.

Supposed Divinity of Jesus

Modern Christian Divines agree with Islamic views, as to the supposed Divinity of Jesus.

The following extract is taken from 'The Graphic' of August 20th, 1920 :

"During the last few days orthodox Christianity has received the greatest blow it has suffered for many years. Outside the Church, scores of people, learned and skilled in the ways of theology, have been attempting to prove, that the basis of Christianity was all wrong, and that modern science had destroyed its very foundation. This time, though, a blow has come from the inside itself ; and three highly-placed theologians, all avowed members of the Church of England, in which they live, preach and have their being, have united, to use words which lay men take to mean, that Christ was not the son of God, but a Palestine Jew. . . .

"Now, what Renan argued in 'The Life of Jesus,' what all scientists outside the faith have expressed in learned terms, has been suddenly put into a bomb which, thrown at the Modern Churchmen's Congress at Cambridge not a week ago, has staggered the Anglican Church so much, that the reverberations of the shock will be felt for years . . . Dr. Rashdall, the Dean of Carlisle, Dr. Bethune-Baker, Lady Margaret Professor of Divinity, the Rev. R. G. Persons of Rusholme, have stood up at an Anglican Conference, and—if their words have been reported rightly— denied the Godhead. . . .

" 'Christ was not divine but human,' said Dr. Rashdall. 'I do not for a moment suppose, that Christ ever thought of himself as God', said Dr. Bethune-Baker. 'Jesus was a man, genuinely, utterly, completely, unreservedly human,' said the Rev. R. G. Parsons—'A Palestine Jew who expressed himself through the conditions and limitations of life, and though peculiar to his own time."

These three men are not people whose opinions can be disregarded, even by the most orthodox of all Christians. They are men of the highest

to life, but he has to pray to God, and thank Him on being heard. When he was asked, he admitted that such miracles could be done only through fasting and prayer to God.

Speaking of himself, Jesus also is reported to have said :

"Foxes have holes, and the birds of the air have nests, but the Son of Man hath not where to lay his head."

In another instance he is reported to have said :

"Of myself I can do nothing; of that day and that hour knoweth no man.... neither the son."

Moslems fail to understand, how, in the presence of these admissions on the part of Jesus, divinity can still be attributed to him. This is a problem which can only be solved by the words said of Jesus :

"I thank Thee, O Father, Lord of heaven and earth, that Thou hast kept these things from the wise and prudent, and hast revealed them unto babes."

Priestcraft and Islam

Islam is the Faith of works, of approach to God through self-endeavour, and not through any intermediary. In Islam there is no such teaching as that of "The Holy Spirit descending in the greatest degree to the elected Pope, and in lesser degrees to bishops, deans and clergy." That every soul must labour for its own salvation, is the keystone of Islamic teaching. Islam has no monasticism, no apostolic succession, no body of men whose very livelihood depends upon their claim that, after their ordination as priests, they have the Spirit of God in them, and that, as Jesus was the chief intercessor between God and man, so the priest is the intercessor between the people and Jesus and the saints. While other religions believe, that man cannot approach God, and he cannot even confess his sins to Him, but that he must confess to a priest, who having the "Spirit of God, has the power to assure him that he is forgiven." Islam teaches that "He who is best among men is he who does most good works." In such a religion the priest is not needed. Truly, mosques require attendants, and some men love to devote their lives to religion; but the doctrine of priesthood itself is not, and never has been found, in the religion of Islam. With Islam, a man may attain to spiritual closeness to God, not through his having been ordained a priest, but by living a life of religion, piety and good works.

The simple worship of the One True God Who rules over all, Who

his disciples, when he was with them. Fortunately the narrative of the Teacher of Nazareth as reported in the four gospels, though in the consideration of Islamic judgment not genuine in its entirety, still contains sufficient evidence to corroborate the statement of the Koran. The [following are the sayings of Christ about himself as reported by the Evangelists :

"I do nothing of myself" (John viii. 28).

"My Father is greater than I" (John xiv. 2).

"This is life eternal, that they might know Thee, the only true God, and Jesus Christ whom Thou hast sent" (John xvll. 3).

"The Lord our God is one Lord" (Mark xvii. 29).

"Thou shalt worship the Lord thy God, and Him only shalt thou serve". (Matt. iv. 10).

"Why callest thou me good ? None is good save one, that is God"

"I am not yet ascended to my Father ; but go to my brethren and say unto them, I ascend unto my Father and your Father, and to my God and your God".

"I by the finger of God cast out devils" (Luke x1. 20.)

"Father, I thank thee that thou hast heard me, and I knew that Thou hearest me always ; but because of the people which stand by I said it, that they may believe that Thou hast sent me" (John x1. 41, 42.)

"The works which the Father hath given me to finish, the same works that I do, bear witness of me, that the Father hath sent me" (John v. 36.)

"If anyman hear my words and believe not, I judge him not ; for I came not to judge the world" (John X11. 47.)

"(Jesus then went a little further, fell on his face, and prayed, saying.)

"O My Father, if it be possible, let this cup pass from me : nevertheless, not as I will, but as thou wilt" Matt. XXVI : 38, 39.)

"Eli, Eli, lama sabachthani—My God, my God, why hast Thou foresaken me." (Matt. xxvii. 46)

"Father, into my hands I commend my spirit," (Luke xxiii. 46)

These expressions confirm to a great extent the Islamic notion of the Holy Jesus Christ, namely, that he was a true servant and a messenger of God, and one of His humble creatures, and never a god. Jesus admits his limited knowledge and power. He looks to God even for his daily sustenance. He expresses his complete submission to the divine will. He disavows all goodness for himself, when speaking of God. A messenger, no doubt, he was of God. He spoke to the children of Israel what he heard from God. He has been reported to perform certain miracles, but these he performed by the help of God. He is said to have raised Lazarus

religion knew of no Saviour, besides the one God. He was their Saviour and Redeemer. See Isaiah, 43 : 3, 'I am the Lord thy God, the Holy One of Irael, thy Saviour' and Isaiah 42, v.8, 'I am the Lord that is my name : and my glory will I, not give to another, neither my praise to graven images,' and again Is. 43 : 11. 'I, even I am the Lord, and beside me there is no Saviour', and Is. 44 : 6. 'Thus says the Lord, the King of Israel, and his redeemer, the Lord of hosts. I am the first, and I am the last ; and beside me there is no God'. There are many other passages in Isaiah, and other Old Testament books which insist that there is no God, but the one God, and He is the Saviour and Redeemer, and there is none beside Him. The Christians who take Christ for their Saviour and Redeemer are, therefore, outside of the promise of the Scriptures which they themselves acknowledge to be the word of God. But all this with the many passages in the New Testament, where Christ distinctly says that he is not God, does not convince them."

What Jesus Says About Himself in Relation to his Alleged Divinity.

According to the Koran,[1] Jesus, on the day of Judgment, will be asked by God, whether he told his people to consider him and his mother[2] as two Gods, besides God Himself. Whereupon, Jesus not only disavows his claim of divinity, but also asserts he never preached such a doctrine to

(1) Chap. VII : 116-118.

(2) From the Koranic description of Mary being taken for a God by the Christians, some Christian critics of the Koran conclude that the doctrine of the Trinity, according to the Koran, consists of three persons-God, Jesus and Mary. But this is an unwarranted conclusion. Mary is spoken of as being taken for an object of worship by the Christians ; but the doctrine of the Trinity is not mentioned, here, while the Divinity of Mary is not mentioned, where the Trinity is spoken of. Had Mary not been worshipped by the Christians as the 'Mother of God,' the conclusion would have been safe, that the Koran mistook Mary for the third person of the Trinity. But the doctrine and practice of Mariolatry, as it is called by Protestant controversialists, is too well known. In the catechism of the Roman Church, the following doctrines are to be found : 'That she is truly the mother of God, and the second Eve, by whose means we have received blessing and life ; that she is the mother of Pity and, very specially, our advocate ; that her images are of the utmost utility (Encyc. Brit. 11th ed. vol. 17. 813.) It is also stated that her intercessions are directly appealed to in the Litany. And further, that there were certain women in Thrace, Scythia, and Arabia who were in the habit of worshiping the Virgin as a goddess, the offer of a cake being one of the features of their worship etc.

his farewell from the Unitarian congregation in Washington, he said in his last speech to them: 'It has always been a wonder to me, why all the world is not Unitarian.' The President, of course, meant by 'all the world' all the Protestant world of the United States, because the Catholic church is under the power of the Pope, and admits of no change of creed or dogma.

"The Unitarians consider Christ as a mere man, inspired as other great men are, though in a greater degree; they reject the doctrine of original sin, the belief in miracles, and generally the whole supernatural elements of Christianity. There are many of the so-called liberals in the churches who hold Unitarian doctrines, but do not separate from their old connections. President Taft is, therefore, entirely justified in asserting that the trouble we suffer from—if it be trouble— is, that there are so many Unitarians in other churches who do not sit in the pews of our church. But that means ultimately that they are coming to us. There seems to be every prospect that P, esident Taft's prophecy may be fulfilled in regard to the Protestant world.

"Charles Eliot, President Emeritus of Harvard University, made a similar prophecy in a pamphlet called 'The regligion of the Future' Printed by the American Unitarian Association. Mr. Eliot says: 'The religion of the future will not be based on authority, either spiritual or temporal', (namely on neither Pope nor King). 'It is hardly necessary to say that in the future religion there will be no personification of the forces of nature. There will be in the religion of the future, no identification of any human being, however majestic in character, with the Eternal Deity.'

"The ordinary consolations of constitutional Christianity no longer satisfy intelligent people whose lives are broken by the sickness or premature death of those they love...."

The lecturer quoted above goes on to say: "Jesus Christ prayed (John xvii, 3) 'And this is life eternal, that they might know Thee, the only true God, and Jesus Christ, whom Thou hast sent' (namely, Thine apostle). There are many other places to prove, that Christ did not claim to be God. But Christians cannot see it in that light, because they want three Gods instead of one...."

"Of course, there are points, at which all religions touch each other, but the Christian fails to see this. The Moslem believes in one God, and also in Christ as one of God's great prophets. The Christian says, he also believes in one God, but He has a trinity of persons. This is evidently derived from the Hindu religion, from Bram, Vishnu and Siva. The Jewish religion knew of no trinity in the Old Testament, and yet the Christian pretends, that his religion is founded on the Jewish religion. The Jewish

upon us, at the same time, the necessity of doing good. If Jesus by his unnatural death has atoned for our sins, then there should be no need for us to trouble ourselves about good or bad deeds any more. It matters little whether we do good or evil. We are quite at liberty, to revel and carouse at will. On the one hand, Christianity teaches us the doctrine of Atonement, thus making us independent of all good deeds, while on the other hand, it imposes upon us the obligation to perform good deeds.

The sixth contradictory principle that Christianity offers the world is, that it holds Christ as accursed, dying (as he is believed by Christians) an accursed death on the Cross ; yet it holds him up as the very paragon of excellence, the son of God —His dearest one. It is impossible for a Moslem, to comprehend how an accursed man can be the son of God. Curse betokens divine vengeance, a great gulf between Him and the person accursed. To reconcile these two contradictions passes the wit of a Moslem.

The seventh contradiction is that Jesus is called the son of God, as well as the son of David. How can a man possibly, be the son of two distinct personalities ? He must be either of one or of the other, but not of both at the same time.

The Godhead of Jesus Condemned by Islam

The above has been the doctrine of the Mohammadan Religion with regard to the personality of Jesus Christ. After thirteen centuries the same doctrine is now adopted by some Christian Churches, namely, the Unitarian. Probably it will not be out of place to quote here a few statements from a lecture, delivered before the Cooper Literary Institute, Philadelphia, on March 4th, 1913, by Dr. A. Geo. Naker, late President of the Institute:

"We have now arrived at a time when the literature of all nations, and their history, are being carefully studied by those who are fitted for the task. The many frauds which the Christian churches have practised in the past, are all being exposed now, and the result is that many of the wisest and best men have forsaken the orthodox doctrines of the Christian churches. We have here in the United States, a large and intelligent body of believers who are called Unitarians, i.e. believers in one God, and who object to the old doctrine of a trinity of person in the Godhead, and reject the same. They look upon Christ as a great prophet and a good man, but still only a man, Our ex-President Taft belongs to this Unitarian church. In taking

me to die. Thou hast been the Watcher over them, as Thou art the Watcher over all things. If Thou punish them, they are surely Thy servants, and if Thou forgive them, Thou art the Almighty and the All-wise."

Contradictory Teachings of Christianity From Moslems' Point of View

The following would illustrate certain contradictions in the fundamental principles of Christianity, as viewed by Moslems :

The first and the foremost Christian principle is Unity in Trinity, and Trinity in Unity. This, in itself, is but a clear illustration of the principle of compromise, of which a divine religion should be free. The Romans believed in three gods, whilst the Jews believed in one. When the Romans showed their readiness to adopt Christianity, a compromise was, it seems, at once arrived at. Apparently for the sake of the Romans, the Unity of God, as believed by the Jews, underwent a change; it was assimilated to the tri-headed Godhood, and so the two creeds became merged into one. No Moslem person can think of reconciling such contradictions.

The second instance of contradictory principles is, that Jesus has been called a man and God, at the same time; while the fact is, that the Creator and the created cannot be one and the same. Therefore, Jesus cannot be God and man, at the same time.

The third principle, where contradictions have been brought together, is that, on the one hand, Jesus declares in the Gospels, that violation of even the least commandment of the law dooms a man to eternal perdition, while it is taught by Paul, that the Law was a curse.

The fourth example of contradictory principles, is the Christian doctrine, that God cannot forgive sins, hence the necessity 'of the crucifixion of His only begotten son for the redemption of the sins of mankind', while maintaing, at the same time, that God would forgive us our trespasses, only when we forgive those that trespass, against us. A Moslem cannot understand, how God both can and cannot forgive trespasses. If He cannot forgive, then vain is our forgiving or condemning ; for that is of no avail. If He can, then a Moslem does not see that there is any need of Atonement.

The fifth contradictory principle is the teaching, that Jesus has taken away all our sins by suffering crucifixion for mankind at large, impressing

your Lord'; whoever, shall associate aught with Him, God shall forbid him paradise, and his habitation shall be hell fire ; and the ungodly shall have none to help them. They are certainly infidels who say, God is the third of three, for there is no Deity, but God alone. And if they do not desist from what they say, a painful torment shall surely be inflicted upon those who misbelieved among them. Will they not turn unto God, and ask His pardon ? since God is Gracious and Merciful. Christ, the son of Mary, is no more than apostle : Other apostles preceded him, and his mother was a true believer ; they both used to eat food (as all other creatures of God). Behold, how we declare unto them the signs (of God's unity) ; and then behold, how they turn aside (from the right path). Say, (O Mohammad, unto them) will ye worship, besides God, that which can cause you neither harm nor profit ? God heareth (every thing) and seeth (every thing). Say, O ye who have received the Scriptures, exceed not the just bounds in your religion, by speaking beside the truth, neither follow the desires of people who have heretofore erred, and who have seduced many, and have gone astray from the right path."

(b) "O ye who have received the Scriptures, exceed not the just bounds in your religion, neither say of God otherwise than the truth. Verily, Christ, the son of Mary, was the apostle, and His Word which He conveyed to Mary, and a Spirit coming from Him. Believe, therefore, in God and His apostles, and say not : 'There are three (Deities).' desist : it will be better for you. God is the only Deity. Far be it from Him, that He should have a son ; unto Him belongeth whatever is in heaven and on earth ; and God is the best Protector. Christ doth not proudly disdain to be a servant to God."

(c) "It beseemeth not a man, that God should give the Scripture and the wisdom and the gift of prophecy to him, and that then he should say to the people 'Be ye worshippers of me, as well as of God', but rather, 'Be ye perfect in things pertaining to God, since ye know the Scriptures, and have studied deeply.'"

(d) "And when God shall say (namely unto Jesus on the Day of Judgment,) O Jesus, son of Mary, hast thou said unto the people, 'Take me and my mother for two deities, beside God ?' He shall answer, 'Glory be to Thee, it is not for me, to say that which I ought not in truth ; if I had said it, Thou wouldst surely have known it : Thou knowest what is in me, but I know not what is in Thee ; for Thou art the knower of all secrets. I have not spoken to them otherwise, than Thou didst command me. I said to them : Worship God, my Lord and your Lord ; and I was a witness against them as long as I stayed amongst them ; but when Thou causest

have slain Christ Jesus, the son of Mary, the apostle of God'; yet they slew him not, and crucified him not, but he was represented to them by one in his likeness, and verily, they who disputed about him, were in doubt, concerning this matter: they had no sure knowledge thereof, but followed only an uncertain opinion [1]. They (the Jews) did not really kill him; but God took him up to Himself and God is Mighty and Wise."

Jesus and the Divinity.

(a) "He (Jesus) is no other than a servant of God whom We favoured, and set forth as an instance (of divine power) to the children of Israel; and if We pleased, verily, We could have even produced angels from yourselves, to succeed you on earth."

(b) "And when Jesus came with manifest signs, he said: 'Now I am come to you with wisdom, and to explain to you part of those things, about which you disagree; therefore fear God, and obey me. Verily, God is my Lord and your Lord; wherefore worship ye Him: this is the right path.' But the different parties fell into disputes among themselves [2], but woe to those who thus transgressed, because of the punishment of a grievous day."

(c) "The Jews say: 'Ezra is the son of God'; and the Christians say, 'Christ is the son of God.' This is their saying with their mouths, following the example of those who misbelieved before them. May God resist them. How are they infatuated! They take their priests and their monks for their Lord, besides God, and (take) Christ, the son of Mary, (for their; lord besides God,) although they are commanded to worship one Deity only; There is no Deity but He (the true God); far be those from Him whom they associate (with God.)"

The Trinity condemned.

(a) "They are surely infidels who say, 'Verily, God is Christ the son of Mary; since Christ said, O ye children of Israel, worship God, my Lord and

(1) For some maintained, that he was justly and really crucified; some insisted, that it was not Jesus who suffered, but another who resembled him in the face ... some said, he was taken up to heaven, and others, that his manhood only suffered, and that his godhead ascended into heaven.

(2) Either referring to the Jews in the time of Jesus who opposed his doctrine, or to the Christians since, who have fallen into various opinions concerning him; some making him to be God, others the son of God, and others one of the persons of the trinity etc.

The Mission of Jesus.

(a) "We formerly sent our apostles with evident signs and miracles, and We sent down with them the Scriptures and the balance, that men might observe justice."

"And We caused Jesus, the son of Mary, to succeed them, and We gave him the Gospel : and We put in the ears of those who followed him, compassion and mercy : but as to the monastic life, they invented it themselves : We did not prescribe it to them ; they did it out of design to please God, yet this they did not Properly observe. And We gave to such of them as believed, their reward : but many of them were evil doers."

(b) "We also caused Jesus, the son of Mary, to follow the footsteps of the Prophets, to confirm the Law which was sent down before him ; and We gave him the Gospel, containing guidance and light, and confirming the preceding word and a direction and admonition unto those who fear God : so that they who have received the Gospel might judge, according to what God hath revealed therein. And whose will not judge, according to what God hath revealed, they are certainly transgressors."

(c) "Some of the apostles We have endowed more than others. Those, to whom God hath spoken, He hath raised to the loftiest position. And to Jesus, the son of Mary, We gave manifest signs, and We strengthened him with the Holy Spirit. And if God had pleased, they who come after them, would not have wrangled, after the clear signs had reached them. But into disputes they fell : some of them believed, and some were infidels : yet, if God had pleased, they would not have wrangled : but God doth what He will."

(d) "And Jesus, the son of Mary, said : 'O children of Israel. Verily, I am God's apostle to you who came to confirm the law which was given before me, and to announce an apostle who shall come after me whose name shall be Ahmad. But when he (Ahmad) presented himself with clear signs of his mission, they said ; 'This is manifest sorcery.' Jesus said to them : 'I come to attest the law which was revealed before me, and to allow you part of that which had been forbidden you ; and I come to you with a sign from your Lord : therefore, fear God and obey me ; verily, God is my Lord and your Lord ; therefore, worship Him ; this is the right way."

Jesus not Crucified.

(a) "The Jews were cursed for their unbelief. and for their having spoken a grievous calumny against Mary and for their saying ; 'Verily, we

hast committed a grave thing. O sister of Aaron,[1] thy father was not a bad man, nor was thy mother unchasted. And she made a sign to him (the infant). They said : 'how shall we speak to him who is an infant in the cradel ?' He said : 'Verily, I am the servant of God : He hath given me the Book (the Gospel), and He hath appointed me a prophet. And He hath made me blessed, wheresoever I may be and hath commanded me, to pray to him and to give alms, as long as I live ; and hath made me dutiful towards my mother ; and He hath not made me cruel or wicked. The peace of God was on me the day I was born, and it will be on me the day I shall die and the day I shall be raised again to life'. This was Jesus, the son of Mary, the word of truth, concerning whom they dispute.

(b) "Verily, the case of Jesus with God is the same as that of Adam. He created him (Adam) out of the dust, and then said to him 'Be', and he was. This is the truth from thy Lord ; be not, therefore, one of those who dispute."

One of the Miracles of Jesus.

Remember when the disciples said. 'O Jesus, son of Mary, is thy Lord able to send down to us a table of provisions from heaven ?' He said :'Fear God, if ye be true believers'. They said : 'We desire to eat therefrom, and to have our hearts assured, and to know that thou hast indeed spoken truth to us, and to be witnesses thereof'. Jesus, the son of Mary, said : 'O God, our Lord, send down a table to us from heaven, that the day of its descent become a recurring festival to us, to the first of us and to the last of us, and a sign from Thee ; and do Thou provide food for us, for Thou art the best provider'. God said : 'Verily, I will cause it to descend unto you ; but whosoever among you shall disbelieve hereafter, I will surely punish him with more severe a punishment than I will punish any other of my creatures.

(1) Mr. Sale rightly comments this phrase, "O sister of Aaron" as follows :

Several Christian writers think, the Koran stands convicted of a manifest falsehood in this particular, but I am afraid, the Mohammadans may avoid the charge, as they do, by several answers. Some say, the virgin Mary had really a brother named Aaron, who had the same father, but a different mother ; other suppose Aaron, the brother of Moses, is here meant, but say, Mary is called his sister, either because she was of the Levitical race (as by her being related to Elizabeth, it should seem she was) or by way of comparison ; others say, that it was a different person of that name who was contemporary with her, and conspicuous for his good or bad qualities, and that they likened her to him, either by way of condemnation or reproach.

See Sale's Translation of the Koran.

decreeth a thing. He only saith 'Be,' and 'it is.' He (God) shall teach him the scripture and wisdom and the law and the Gospel ; and He shall

appoint him an apostle to the children of Israel, and he shall say to them : Verily, I come unto you with a sign from your Lord, for I will make before you out of clay, as it were, the figure of a bird ; then I will breathe into it, and it shall become an animated bird, by the will of God ; and I will heal the blind and the leper, by the will of God, and I will raise the dead, by the will of God ; and I will tell you what ye eat and what ye store up in your houses. Verily, this will be a sign to you, if ye believe. And I will come to confirm the law which was revealed before me, and to allow unto you as lawful, part of what hath been forbidden you ; therefore, fear God and obey me. Verily, God is my Lord and your Lord : therefore serve Him. This is the right way. But Jesus perceiving their unbelief, said : who of you will assist towards the way to God ? The disciples said : We are your helpers towards the way to God : we do believe in God, and do thou bear witness, we are true believers. O Lord, we believe in what Thou hast sent down, and have followed Thy apostle ; write us down, then, with those who bear wtiness (of his message.)

(2) Birth of Jesus.

(a) "And make mention in the 'Word', of Mary ; when she retired from her family eastward, and drew a veil upon her to conceal herself from them; and We sent our spirit (Gabriel) to her, and he appeared to her in the form of a perfect man. She said : 'I fly for refuge from thee to the Most Merciful. If thou fearest Him'. He said : 'I am the messenger of thy Lord, that I may bestow on thee a purified son'. She said 'How shall I have a son, when man hath never touched me, and I was never unchaste ?'. He said : 'So shall it be. Thy Lord hath said, it is a simple thing with Him, and that He will make him a sign to mankind, and a mercy from Him : This is a thing already decreed'. Wherefore she conceived him ; and she retired aside with him (in her womb) to a distant place, and the throes came upon her near the trunk of a palm-tree. (She said) 'Would to God, I had died before this, and had become as one lost in oblivion.' And he who was below her (namely the newly born babe) came to her, saying, 'Be not grieved. Thy Lord hath provided for thee a rivulet at thy feet ; and do thou shake the trunk of the palm-tree towards thee : it will drop fresh ripe dates to eat. Therefore, eat and drink and cheer thyself ; and shouldst thou see any human being, say, Verily, I have vowed a fast to the Most Merciful ; wherefore I will by no means speak to a human being this day. So she came with the babe to her people. And they said to her, O Mary, thou

the divine goodness had suffered the mother and disciples of so holy a a prophet, to believe, even for one moment, that he had died in so ignominious a manner. Jesus returned the following answer. "O Barnabas, believe me, that every sin, however small, is punished by God with great torment, because God is offended by sin. My mother, therefore, and faithful disciples, having loved me with a mixture of earthly love, the Just God has been pleased, to punish this love with their present grief, that they might not be punished for it hereafter in the flames of hell. And as for me, though I have myself been blameless in the world, yet other men having called me God and the son of God; therefore God, that I might not be mocked by the devils on the Day of Judgment, has been pleased, that in this world I should be mocked by men with the death of Judas, making every body believe, that I died upon the cross. And hence it is, that this mocking is to continue till the coming of Ahmed, the messenger of God; who, coming into the world, will undeceive everyone who shall believe in the law of God, from this error [1]."

The Moslems are also taught, that after Jesus had left this earth, his disciples disputed among themselves concerning his nature, some calling him God and others the son of God. They believe, that he will come again into the world, will slay Antichrist, and will reign as a just king for many years, marry and have children and die.

The following are a variety of translated passages of the Koran bearing on the story of Jesus Christ, and the disputed nature and life of the Great Teacher of Christianity :

(1) Promised to Mary.

(a) "And when the angels said : O Mary, verily, God hath chosen thee and hath purified thee, and hath raised thee above all other women of the world : O Mary, be, therefore, devout towards thy Lord, and prostrate thyself and bow down in worship with those devotees who bow down to Him."

(b) "And when the angels said : O Mary, verily, God sendeth thee good tidings; thou shalt bear a word from Him, whose name will be Christ Jesus, the son of Mary, and who will be illustrious in this world and in the next, and one of those men who are honoured with approach to the presence of God; and he shall speak to men alike when in the cradle and when he is grown up; and he shall be one of the most righteous : she said, How, O my Lord, shall I have a son, since a man hath not touched me? The angel said : Thus God will create what He will; when He

(1) See G. Sale's Prelim. Discourse.

the leper, quickening the dead, and causing a table of food to be brought down from Heaven. He was sent by God, to confirm the law of Moses, and to preach the Gospel to the people of Israel. He proclaimed his mission by many manifest signs, being confirmed by the Holy Spirit. He foretold the advent of another apostle to succeed him, named Periclete or Ahmad. The Jews intended to crucify Jesus, but God saved him from the plot, took him up to Heaven, and stamped his likeness on a treacherous Jew who was apprehended and crucified in his stead. It is the constant doctrine of the Moslems, that it was not Jesus who underwent crucifixion, but someone else, resembling him in shape, namely, Judas, who agreed with the Jews, to betray Jesus for some pieces of silver, and led those who were sent to take him. After the crucifixion of the wicked Judas, and the taking up of Jesus into Heaven, Christ, the Apostle of God, was sent down again to the earth, to comfort his mother and devoted disciples, and to tell them, how the Jews were deceived ; and he was taken up a second time to Heaven.

"It is supported by several", writes Mr. G. Sale "that this story was an original invention of Mohammad's ; but they are certainly mistaken; for several sectaries held the same opinion, long before his time. The Basilidians, in the very beginning of Christianity, denied, that Christ himself suffered, but that Simon the Cyrenean was crucified in his place. The Cerinthians, before them, and the Carpocratians next, (to name no more of those who affirmed Jesus to have been a mere man) did believe the same thing; that it was not himself, but one of his followers very like him, that was crucified. Photius tells us, that he read a book entitled 'The Journey of The Apostles', relating the acts of Peter, John, Andrew, Thomas and Paul ; and among other things contained therein, this was one, that Christ was not crucified, but another in his stead, and that therefore, he laughed at his crucifiers, or those who thought they had crucified him[1]."

St. Barnabas relates this part of Jesus Christ's history with circumstances approximating to the Mohammadan view. "In that Gospel it is related, that the moment the Jews were going to apprehend Jesus in the garden, he was lifted up to heaven, by the ministry of four angels ; that he will not die, till the end of the world, and that it was Judas who was crucified in his stead ; God having permitted that traitor, to appear so like his master, in the eyes of the Jews, that they took and delivered him to Pilate. That this resemblance was so great, that it deceived the Virgin Mary and the disciples themselves ; but that Jesus Christ afterwards obtained leave of God, to go and comfort them. That Barnabas having then asked him, why

(1) See G. Sale's, Translation of the Koran, chap. III, p. 38 (F. Warne & Co, London).

4. Belief in the Apostles of God

The fourth article of the Mohammedan creed is faith in all the Apostles of God. A Moslem must believe, that the Merciful Creator sent in divers ages certain messengers or apostles, to reclaim mankind from infidelity and superstition, and to teach them the religion and laws of God, and to give them good tidings and admonitions. The number of these apostles is given as 313. Twenty five of them must be remembered, since their names are distinctly given in the Koran; but it is not necessary to learn them by heart. The following are the names, according to chronological order :—

Adam, Noah, Houd (Heber), Saleh (Methuselah), Lot, Abraham, Ishmail, Isaac, Jacob, Shu'aib (Jethro), Haroun (Aaron), Moses, David, Solomon, Ayoub (Job), Zulkifl (Isaiah), Younis (Jonah), Ilias, Alyas'aa (Elisha), Zacharias, Yahia (John the Baptist), Jesus and Mohammad.

If a Moslem is asked about anyone of these men, he must confess his belief, that he was an apostle of God.

Moslems must also believe, that the apostles of God were truthful, faithful and intelligent, and that they delivered in full God's message to their respective people. A moslem must further believe, that all apostles of God were, by their prophetic characteristics, free from (1) telling lies, (2) committing unlawful deeds, (3) stupidity, laziness or cowardice, (4) concealing any part of the message they were ordered to deliver.

The apostles of God were subject to the same human wants as the rest of mankind, such as eating, drinking, sleeping, marrying, etc., They were also liable to ordinary but not disgusting maladies etc.

Since the nature, as well as the story, of Jesus Christ were matters of dispute between Christians and Mohammadans, I must give a summary of the Moslems' belief in this respect, according to the teachings of the Koran and the interpretations of the Prophet.

Moslems hold, that Jesus Christ was the blessed Apostle of God who was sent to reclaim the people of Israel. He was a spirit from God, His messenger, His servant and prophet, illustrious in this world and in the next. He was miraculously born of the Virgin Mary. The Jews having spoken ill of Mary, and charged her with unchastity, Jesus Christ, speaking in the cradle, vindicated his mother's honour. Jesus performed miracles by God's power; giving life to a clay figure of a bird, healing the blind, curing

it has cleared other prophets, like Moses and Jesus, of similar charges For it says : "We heretofore gave a command to Adam, and he forgot it; and We found no intention in him (to disobey our command) [1]."

This is, indeed, an important principle, and it has important bearings on the doctrine of sin, as presented by the Holy Koran. For, elsewhere we read : "God will not punish you for an inconsiderate word in your oaths ; but He will punish you for that which your hearts have assented unto [2]." This verse clearly lays down, that a wrong act, or an evil thought, is a sin, if it is deliberate. Shorn of intention and deliberation, a wrong act or an impure thought is a mere accident which, however deplorable, cannot prove the doer a guilty sinner in the sight of God.

But, if the element of intention is present, even the faintest thought is enough, to render a man guilty before his Maker, not to speak of a deed which is manifestly wrong. God forbids both kinds of sin—open and secret—equally in the same verse : "Draw not near unto sin ; neither open nor secret [3]." "Leave both—the outside of iniquity and the inside thereof [4]." Again : "Say, verily, my Lord hath forbidden sins, whether open or secret, and iniquity and unjust violence [5]."

These verses sufficiently establish the doctrine of personal holiness in Islam ; but to crush the objection of the critics absolutely, we give one more verse which shows, that not only the eyes and the ears, but also the heart, will be required, to give evidence on the Day of Judgment, if any sin has been committed through them. And the verse is this : "And follow not that, whereof thou hast no knowledge ; for the hearing and the sight and the heart—each of these shall be examined [6]."

Personal holiness, it must be remembered, depends largely on a thorough belief in the Omniscience and Omnipresence of God. And nothing is more striking to the reader of the Holy Koran, than the force, with which it impresses upon us these two attributes of the Deity. The belief, that the Supreme Being sees our actions and knows even the innermost secrets of our hearts, is a most powerful check upon the tendency to commit sin. So long as a man realises, that he works and moves under the great Task-master's eyes, he keeps himself from vice : but whenever this consciousness in him grows dim, and he thinks he is not watched by God, he exposes himself to constant danger.

---

(1) Koran, xx : 114. It is interesting to note, that the word .... ('Azma) in the verse quoted, has been taken, both by Rodwell and Sale to mean' firmness of purpose' and not 'intention.' Hence, Mr. Wherry says in his commentary : "This verse is fatal to the Moslem theory of the sinlessness of prophets."

(2) Koran, II : 225. (3) Koran, VI : 151. (4) Koran, XVI : 38.

(5) Koran VII : 34. (6) Koran XVII : 38.

The Koran and the Doctrine of Personal Holiness

Islam has taken due cognisance of the frailties of human nature, and this constitutes its chief excellence as a system of religion. Thus the laws of Islam exhibit an elasticity which is a proof of their beneficence and usefulness. Though Islam, no doubt, points to a lofty idealism, it is, at the same time, thoroughly practical. The merit of Islam, as a religion, consists in a happy harmonious blending of the ideal and the practical. It favours no form of asceticism, and never asks any man, to do what he has not the power to do. There is, however, one thing, on which it lays the greatest emphasis. It is personal holiness, and purity of heart. It is the grand purpose, for which the Prophet was sent down, as it appears from the prayer of Abraham : "Our Lord, raise up among them an apostle who may rehearse Thy signs unto them, and teach them the Book, and Wisdom, and purify them [1]." The reader will observe, that the verse gradually ascends to a climax. Purification of men being put last, as the most important part of the functions of the Prophet of Islam. "He who is purified, hath obtained felicity," says the Koran elsewhere [2]. Again, after mentioning the blessings of heavenly life, the Holy Book adds : "And this shall be the reward of him who shall be pure [3]." That a very important place is given to purity of mind and personal holiness, will be seen from another verse, where sinners are threatened with the punishment, that God shall neither speak unto them nor shall He purify them." "Moreover, they who conceal any part of the scripture which God hath sent down unto them.... God shall not speak unto them, on the day of resurrection, neither shall He purify them, and they shall suffer a grievous punishment [4]." It is clear, then, that communion with the Deity and personal holiness are the keynote of Islam.

But even here, man is not held responsible for the evil thoughts that in spite of himself, pass through his mind, like flashes of lightning. To render man responsible for such passing fancies, over which he has little control, would be sheer injustice. Commission of a wrong act, without previous intention and deliberation, does not make one guilty, far less a passing thought that rises like a bubble only to die and disappear the next moment. Adam ate of the forbidden fruit and thereby committed a mistake, as all men are liable to commit mistakes ; but he was never guilty of committing sin, and the Holy Koran clears him of the false accusation, just as

(1) Koran, chap. ii : 123.
(2) Koran, lxxxvll : 14.
(3) Koran, xx : 78.
(4) Koran, ii : 175.

ills and troubles tried them ; and so tossed were they by trials, that the Apostle and they who shared his faith, said, 'When will the help of God come ?'—Is not the help of God nigh ? [1]." Even the Patriarch Abraham, was tried by God, when He commanded him to leave his home and country, and to offer his beloved son as a sacrifice.

No doubt, it is rather a difficult task, to secure the blessings of God, and to perform the divine laws. But, let not man stagger under the difficulty of the task that lies before him. Let him take courage, and, with a firm trust in God and a cheerful heart, undertake the performance ; and above all fear the Lord ; for it is God's promise, that "He will make His command easy to him who feareth Him". The God of Islam, it should always be remembered, is not a niggardly, exacting God, but "He is gracious unto His servants". Elsewhere, we read a surpassingly comforting verse, which comes as a message of hope to each and all of us. "God desireth, to be gracious unto you... God desireth, to make your burden light : for man hath been created weak. [2]" Again we read ; "God wisheth you ease and never wisheth you discomfort." A world of mercy and forgiveness is surely concealed behind, and breathed out by these verses. God is offering His grace ; we have only to throw ourselves in the right attitude of Faith, and give ourselves up to God, and His Hand will lead us to His blessings. We have but to confess our weakness and ask from our Lord power and strength, and His spirit will descend upon us.

There is another remarkable passage in the Holy Koran which presents to us a just, but at the same time a merciful God, and then gives a most beautiful prayer, so comforting to the helpless man who, toiling up the spiritual heights, sits down totally unnerved, looking up to God for strength and support. "God will not burden any soul beyond its power," so run the words of God, "It shall enjoy the good which it hath acquired, and shall bear the evil, for the acquirement of which it laboured. Our Lord, punish us not if we forget, or fall into sin ; Our Lord, lay not on us a burden, like that which Thou hast laid on those who have been before us ; neither make us, O Lord, to bear what we have not the strength to bear ; but blot out our sins, and forgive us, and have pity on us. Thou art our Patron ; help us, therefore, against those who do not believe [3]."

---

(1) Koran, ii : 210.

(2) Koran, iv : 28.

(3) Koran : last verses of Chap. ii.

The Frailties of Human Nature

The Koran also dwells on the weaknesses, to which the flesh is heir, and constantly reminds man of his inconstancy, injustice and ingratitude. "Man is created weak." "Surely, man is unjust and ungrateful." "Man is hasty." "Man is covetous." "Verily, man is created extremely impatient." "Verily, man is ungrateful unto his Lord." It must, however, not be inferred from verses like these, that man stands condemned before his Creator, as deserving only death and perdition. These verses rather breathe a noble sympathy for the weakness of man and the infirmities of the flesh. They contain in them promises of God's grace and forgiveness. In reminding man of the infirmities of his nature, God desires, that he should realise his weakness and powerlessness, bow down his head before the Lord, turn to Him for strength and assistance, and pray constantly, that He may guide him into the right, straight path. Indeed, the Moslem is enjoined to throw himself in this attitude towards his Maker, and to offer such prayers repeatedly through the day and night. He is taught to say : "Praise be to God, Lord of the worlds ; the Compassionate, the Merciful, King of the day of Reckoning. Thee only do we worship, and to Thee do we cry for help. Guide Thou us in the right path, the path of those, unto whom Thou hast been gracious ;—and not of those, with whom Thou art angry, and neither of those, who go astray [1]."

As will be seen, this human prayer is full of sympathy towards the weakness of man. In it the Lord teaches His servants, to beg of Him spiritual blessings. In it He indirectly asks them not to sink in despair, and indirectly promises, to guide them into the path of holiness and to give them strength, to bear the yoke of His law. What an uplifting hope is breathed into our hearts, when He tells us, that He was gracious in the past, unto those who sought Him, and even so to-day He is ready, to be gracious unto us, if we only turn to Him and look up to His Grace, as our true Saviour.

But, as Shakespeare said : "The course of true love never did run smooth". With equal truth it may be said of divine love, that its course never runs smooth. Trials and tribulations are bound to come. Many a trial the seeker after God has to undergo, before he can expect to receive the grace of God. "Think ye", says the Lord, "to enter Paradise, when no such things have come upon you, as on those who flourished before you?

(1) This is the prayer, with which the Holy Book of Islam opens.

Everywhere, in the Holy Koran, man is represented as the crown and glory of creation. He is the central figure of this beautiful universe. In Adam, he is God's viceregent on earth. Out of love, God hath created

man. And He hath created for him the heavens and the earth, and sendeth down water from the heaven, and so bringeth forth the fruits for his food. And to him He hath subjected the ships, so that by His command they pass through the sea; and to him He hath subjected the sun and the moon in their constant courses; and to him He hath subjected the day and the night; of everything which he may ask Him, giveth He to him; and if he would reckon up the favours of God, he can never count them.

"And the cattle. For you He created them; from them ye have warm garments, and they are useful in many ways; and of them ye eat; and they obey you well when ye fetch them home and when ye drive them forth to pasture: and they carry your burdens to lands which ye could not else reach, but with travail of soul: truly, your Lord is full of goodness, and merciful: And He hath given you horses, mules and asses, that ye may ride them, and for your pleasure: And things, of which ye have no knowledge, hath He created. Of God it is, to point out the way. Some (of you) turn aside from it; but had He pleased, He had guided you all aright [1]."

According to the Koran, God hath endowed us with the power of self-government which is an almost incredible trust. By this power, God not only trusts our destinies to ourselves, but He actually trusts, or seems to trust, the whole final outcome of His creative work to our treatment of it. This earth, at least, is put into our hands, to make what we will of it and of ourselves, its inhabitants. It is stored with all possible helps to us, in natural forces and materials; we are given intelligence, to find them out and to use them for the enrichment and beautifying of our lives; we are given the understanding of a Rule of Right in our conduct towards each other, that will keep us in perfect harmony and happiness together, for the common good; we are given a complete code of regulations, to guide us as to what is right and what is wrong; we are drawn towards well-doing, in accord with the Rule of Right, by a feeling created in us, which will not let us forget it or violate it, without wilful intent; but (and here lies the grandeur of the part, man performs in creation) we are trusted with the freedom, to do with all this what we will. The outcome, good or evil, is what we and our fellows of the human race, past and future, are helping, or have helped, or will help, to make it. The glory of triumph or the shame of failure, in the creation of mankind, is to belong to the race itself.

---

(1) Koran, xvl, 5-9.

influences, unless God Himself undertakes to nurture the little soul. When the child grows into manhood, he may use the God-gifted faculty of discrimination and may become what he chooses in life. Indeed, God gives him many a chance in life, that he may recover himself from sin and iniquity. He may make or mar his fortune, even in the spiritual sense. If in him, Faith asserts its power, if true repentance places him in the right attitude towards God, if the spirit of God impels him to do virtuous deeds, if he feels the hand of God working in the smallest concerns of his life, and, above all, if he accepts death with a smiling countenance, and loses himself to save himself, why this is sufficient atonement in the sight of the Lord, whose pre-eminent attribute is Mercy.

To understand the Koranic conception of man, a reference to the following verses is necessary : "Of goodliest fabric We created man, then brought him down to be the lowest of the low ; save who believe and do things that are right, for theirs shall be a reward that faileth not". These verses indicate that man, at the moment of his creation, is perfectly sinless. It is afterwards, that sin tries to assert itself and bring him down to the level of the brutes. But he has also the divine in him,—the power to offer, if he so wills, a stubborn resistance ; and by the help of this power, he may "grow up to a saint". Although his own force is feeble, there is the Spirit of God, which will cooperate with him in this work of self-regeneration, only if he shows genuine desire to turn to God, to believe, and to do things that are right. The Holy Koran is very clear on this point. It does not ask to believe in the doctrine of original sin ; and so atonement, in a Christian sense, has no place in the Islamic Scripture. What God wants of us, is this, that we for our part, should make the utmost endeavour to secure His pleasure and grace, while He for His part, undertakes to direct us into His ways. "And whoso maketh his utmost endeavour towards Us, We will surely direct him into Our ways," says the Koran. This utmost endeavour on our part, to reach God, involves the idea of personal atonement and sacrifice which the Moslem is required to offer. We find the same thought clearly expressed elsewhere in the Word of God : "They who set their face with resignation God-ward, and do what is right,—their reward is with their Lord ; no fear shall come on them, neither shall they be grieved." Turning his face towards God, gradually proceeding towards Him, till he realises himself in Him—herein lies the salvation of man, according to the Koran. The Moslem is taught the high truth, that "the good drives away the evil in man," and so he requires not anyone, to take the burden of his sin and to undergo punishment as his 'substitute.' He develops his faculties, and tries his very best, to make use of them in doing good deeds and working out the will of his Maker ; and hopes that his little will be accepted as much by the Most Merciful Lord.

"The simple shepherds and wandering bedouins of Arabia, are transformed, as if by a magician's wand, into the founders of empires, the builders of cities, the collectors of more libraries, than they at first destroyed, while cities like Fostat, Baghdad, Cordova and Delhi, attest the power, at which Christian Europe trembled. And thus, while the Koran, which underlies this vast energy and contains the principles which are its springs of action, reflects to a great extent the mixed character of its author, its merit as a code of laws, and as a system of religious teaching, must always be estimated by the changes which it introduced into the customs and beliefs of those who willingly or by compulsion, embraced it. In the suppression of their idolatries, in the substitution of the worship of Allah for that of the powers of nature and genii with Him, in the abolition of child murder, in the extinction of manifold superstitious usages, in the reduction of the number of wives to a fixed standard, it was to the Arabians an unquestionable blessing, and an accession, though not in the Christian sense a Revelation of Truth ; and while every Christian must deplore the overthrow of so many flourishing Eastern churches by the arms of the victorious Moslems, it must not be forgotten that Europe, in the middle ages, owed much of her knowledge of dialectic philosophy, of medicine and architecture to Arabian writers, and that Moslems formed the connecting link between the West and the East for the importation of numerous articles of luxury and use."

"For if he (Mohammad) was indeed the illiterate person the Moslems represent him to have been, then it will be hard to escape their inference, that the Koran is, as they assert it to be, a standing miracle."

The Koranic Conception of Man

The Holy Koran represents man as a free and responsible being, gifted with the faculty of distinguishing between right and wrong. Then, according to the Koran, man is capable of obeying the law of God. He needs nobody to atone for his sins, but himself ; for the Lord is merciful and will forgive him his sins. The Holy Book of Islam mentions no original sin which we inherit at our birth. It does not represent man as coming into the world with a load of sin on his back. On the contrary, it represents him as an unconscious Moslem at the moment of creation. The Prophet of Islam says : "Every child is born with a Moslem heart", and it is the external influences that makes it what it becomes afterwards in life. If bad influences happen to be at work, the child generally surrenders to such

So carefully, indeed, has it been preserved that there are no variations of importance — we might almost say no variations at all - to be found in the innumerable copies scattered throughout the vast bounds of the Empire of Islam.

Yet, but One Koran has been current amongst them; and the consentaneous use by all of the same Scripture, in every age to the present day, is an irrefragable proof, that we have now before us the very text prepared by command of the unfortunate Caliph (Othman who was murdered some time after the compilation of the Koran.)

There is probably in the world no other work, which has remained twelve centuries (1861), with so pure a text [1]. This is only because the various revelations in the Koran, regarding its divine nature, and its remaining for ever free from corruption or contradiction, are rightly confirmed. Here are a few verses bearing on this point;

"We have surely sent down the Koran; and we will certainly preserve the same from corruption." (Chap. XV)

"This Koran could not have been composed by any, except God; but it is a confirmation of that which was revealed before it, and an explanation of the scriptures; there is no doubt thereof; sent down from the Lord of all creatures. Will they say, (Mohammad) hath forged it? Answer, Bring therefore a chapter like unto it; and call whom ye may (to your assistance,) besides God, if ye speak truth." (Chap. X)

"Say, Verily if men and genii were purposely assembled, that they might produce (a book) like this Koran, they could not produce one like unto it, although they assisted each other. And we have variously propounded unto men in this Koran, every kind of figurative argument; but the greater part of men refuse to receive it, merely out of infidelity." (Chap. XVII.)

The Rev. Rodwell states:

"It must be acknowledged too, that the Koran deserves the highest praise for its conception of the divine nature, in reference to the attributes of Power, Knowledge and universal Providence and Unity—that its belief and trust in the One God of Heaven and Earth, is deep and fervent."

"It is due to the Koran, that the occupants, in the sixth century, of an arid peninsula, whose poverty was only equalled by their ignorance, become not only the fervent and sincere votaries of a new creed, but, like Amru and many more, its warlike propagators."

---

(1) It is more than thirteen centuries already (1941). See Sir W. Muir's Life of Mohammad.

The Koran, being the divine revelation and the corner-stone of Islam, the recital of a passage from it formed an essential part of daily prayer, public and private ; and its perusal and repetition were considered to be a great privilege. The preservation of the various chapters during the life-time of the Prophet, was not altogether dependent on their being committed to writing. The Koran was committed to memory by almost every adherent of Islam, and the extent, to which it could be recited, was one of the chief sources of distinction, in the early stages of Islam. Amongst a crowd of warrior martyrs, he who had been the most versed in the Koran, was honoured with the first burial. The person who in any company could most faithfully repeat the Koran, was ipso facto entitled to conduct the public prayers, and in certain cases to pecuniary rewards.

The retentive faculty of the early Arabs favoured the task ; and it was applied, with all the ardour of an awakened spirit, to the Koran. Several of the Prophet's followers could, during his life-time, repeat with scrupulous accuracy, the whole as then in use. Four or five such persons are named ; and several others also who could very nearly repeat the whole, before the Prophet's death [1].

"However retentive the Arab memory, remarks Sir William Muir, we should still have regarded with distrust a transcript made entirely from that source, But there is good reason for believing, that many fragmentary copies, embracing amongst them the whole Koran, or nearly the whole, were during his life-time made by the Prophet's followers.

"Such was the condition of the text during Mohammad's life-time, and such it remained for about a year after his death, imprinted upon the hearts of his people, and fragmentary transcripts increasing daily [2]."

Further the same writer states : "The contents and arrangement of the Koran speak forcibly for its authenticity. All the fragments have, with artless simplicity, been joined together......

Even the frailties of the Prophet, as noticed by the Deity, have with evident faithfulness been entered in the Koran......

In fine, we possess every internal guarantee of confidence (namely in the authenticity of the Koran, as it exists in the present copies.)

....there is otherwise every security, internal and external, that we possess the text which Mohammad himself gave forth and used.

(1) Sir. Muir's Life of Mohammad.

(2) Sir. Muir's Life of Mohammad.

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

يلقى درسا دينيا فى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم بالجامع الأزهر

تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول ، فشهد الدرس الدينى الذى ألقاه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى ، شيخ الجامع الأزهر ، فى الجامع الأزهر ، بعد صلاة العصر يوم الاثنين ٨ من رمضان سنة ١٣٦٠ . وكان يحف بجلالته من رجال الدولة والعلماء والوجهاء والطلبة عدد عظيم يليق بجلال هذه السُّنة الملكية ، التى تعتبر أعظم ما يُعز به الاسلامَ ملك عظيم فى الزمان الأخير .

وكان فضيلة الأستاذ الامام ، كعادته فى كل عام ، يشرح آيات الذكر الحكيم على أسلوبه القويم ، من تبيين معانى الألفاظ ، وما يتصل بهذه المعانى من أبحاث ، ثم يلم بالمعنى العام بعد أن يكون ذهن السامع قد أدركه قبل أن يلقى اليه ، وهى مقدرة فى البيان لم نصادف من يشارك الأستاذ الامام فيها فى هذا العصر .

بسم الله الرحمن الرحيم

«الۤمۤ . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» :

« الم » : هذه وأمثالها من أسماء حروف الهجاء التى ابتدأ الله بها بعض سور القرآن أسماء للسور المبتدأة بها . ولا يجوز حملها على غير ذلك ، لأنها لم توضع فى لغة العرب لمعان غير الحروف ؛ والقرآن جار على لغة العرب فى مفرداته ونظمه وأسلوبه ، فلا يفسر بغير ما تفيده لغة العرب ، فاذا لم تجعل ألقابا وأسماء للسور لم يكن لها معنى ، ومن الواجب أن يكون لكل شىء جاء فى القرآن معنى .

وبعد : فمن الممكن أن يقال فى سبب تسمية السور بها إنه الاشارة الى إعجاز القرآن الذى امتاز به عن سائر الكلام ؛ وكأن الله سبحانه يقول للمعاندين : إن القرآن من جنس هذه الحروف التى تعرفونها ، وليس من مادة غير معروفة ، فاذا لم تستطيعوا الإتيان بمثله وأنتم الفصحاء والبلغاء ، فقد وضح أنه ليس من جنس كلام البشر ، وبان أنه من عند الله .

« تلك آيات الكتاب الحكيم » :

الآية معناها فى الأصل العلامة الظاهرة ، ثم أطلقت على كل قسم من الأقسام التى تتألف منها سور القرآن ، والتى يفصل بعضها عن بعض بالوقف فى التلاوة وفى الكتابة ببياض أو نقط أو عدد .

والعمدة فى معرفة الآيات وعددها هو التوقيف المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم . وسميت هذه الأقسام آيات ، لأنها دلائل على الأحكام والحكم ، والمعارف الدقيقة والعقائد الحقة ، ثم هى بعد ذلك دلائل أيضا على إعجاز القرآن .

والكتاب الحكيم : هو القرآن الكريم المعهود عند النبى صلى الله عليه وسلم ، وعند المخاطبين وقت نزول القرآن ، فقد وعد صلى الله عليه وسلم بكتاب ينزل عليه من عند الله عند مبعثه ، وعرف ذلك أيضا فى الوسط الذى كان يعيش فيه ، وعرف هذا من قول الله سبحانه : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » .

والحكيم هنا معناه المشتمل على الحكمة ، وهى إصابة الحق . ومتى كان القرآن مشتملا على الحكمة جاز أن يوصف بأنه حاكم لأنه يجب رد كل شىء إليه . ومن ذلك قول الله : « وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » . وجاز أن يقال إنه محكم لا فساد فيه ولا خلل : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

ومن المعروف أن آيات هذه السورة ليست أول الآيات نزولا ، وليست آخرها ، وإذا كان الأمر كذلك جاز أن تكون الإشارة الى آيات هذه السورة ، وأن تكون الى التى قبلها ، وأن تكون الى جميع ذلك ، وإلى ما سينزل بعد . والمعنى واضح بعد هذا ، وهو أن الآيات التى تتألف منها سور القرآن فيها الحكمة ، وفيها الخير والسعادة ، وفيها العلم والرشاد ، وفيها الدلالة الى طريق الحق ، فهى صلاح العباد فى الدنيا والآخرة ، ذلك لأنها أجزاء القرآن الحكيم المنزل من رب العباد لصلاح حالهم وسعادتهم .

« هدى ورحمة للمحسنين » :

تطلق الهداية على الدلالة على طريق الحق ، سواء أوجد معها الوصول الى البغية أم لم يوجد . ومن ذلك قوله سبحانه : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » .

وتستعمل بمعنى أخص وهو الدلالة على طريق الحق مع الوصول إليه ، كما فى هذه الآية ، وسيتضح بعد .

والرحمة هنا معناها الإنعام والإفضال ، ويقال الإحسان على الاحسان فى العقيدة ، وفى العمل ، وفى القول ، وهو أن تكون العقيدة حقة ، والعمل صالحا خالصا لله سبحانه ، والقول سديدا رشيدا .

وقول الله سبحانه : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » يدل على أن الاحسان فوق العدل ؛ فالعدل أن يعطى المرء ما عليه ، ويأخذ ماله . والاحسان أن يعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له ، ولذلك قال الله سبحانه : « إن الله يحب المحسنين »

وفى الحديث الصحيح : كان صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس، فأتاه رجل، فقال: ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته ، وبكتابه ورسله ، وتؤمن بالبعث الآخر. قال : ما الاسلام ؟ قال : أن تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان . قال: ما الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فانه يراك . ثم أدبر الرجل . فقال ردوه ، فلم يروا شيئا ، فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم . وخير ما يفسر به كتاب الله ما صح عن رسول الله .

فهذا هو الاحسان فى العبادة ، وهى تشمل العقيدة والعمل الصالح . فاذا راعى المؤمن فى كل شىء يؤديه ، وفى كل شىء يدعه ، أنه يرى الله أو أن الله يراه ، تحقق الإخلاص فى العمل لا شك ، وأدى العمل على أحسن الوجوه وأكملها . وملاحظة الله سبحانه فيها ملاحظة صفاته جميعها أو أظهرها وهى الخلق ، والأمر ، والتدبير ، والحكم فى يوم الجزاء ، وتوزيع المكافأة على الأعمال . وفى الكتاب الكريم آيات كثيرة ترشد الى طلب استحضار الذات فى العبادات ؛ من ذلك قوله سبحانه : « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين . إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » . ثم هو يذكر الناس دائما بأنه معهم « وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون » « وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير » « إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار » . وقد وعد الله المحسنين أن يوفيهم أجرهم « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » « إن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

وصف الله سبحانه آيات الكتاب الحكيم بأنها تهدى المحسنين فى عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم ، وبأنها تأخذ بيدهم الى طريق الحق ، وتشرح صدورهم ، وتعينهم معونة خاصة تسهل عليهم الطاعات وترك المعاصى ، وتبلغهم أعلى الدرجات فى الدنيا والآخرة ، وتفتح لهم أبواب المعرفة والعلم ؛ وبأنها نعمة من الله وفضل ، بها صلاح الانسان فى الدنيا إن اتبعها ، وفيها عزه وطمأنينته إن عمل بها واعتبر ، وفى الإعراض عنها ذله وشقاؤه . وكما وصف الله الآيات هنا بأنها هدى للمحسنين ، وصف الكتاب فى سورة أخرى بأنه هدى للمتقين ، ووصفه مرة أخرى بأنه شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين .

فى هذه المواضع جميعها يجب أن تفسر الهداية بأنها الدلالة الموصلة الى المطلوب فعلا ،

وهى الدلالة مع المعـونة الخاصة وتيسير الطاعة وشرح الصـدور لها . لـكن الله سبحانه فى آية أخرى وصف الـكتاب بأنه هدى للناس ، مثل قوله : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس » ، ومثل قوله : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » فجعله فى ذاته هاديا . ومثل هـذه الآيات تفسر فيها الهداية بأنها الدلالة الى الحق ، ولا يؤخذ فى معناها الوصول الى المطلوب .

والقرآن لا شك أنه فى ذاته دال على طريق الحق ، لأن آياته الخاصة بذات الحق وصفاته تقرر الحق الثابت الذى اهتدت إليه العقول الصحيحة من غير معونة بالأديان ، وسيظهر هذا فيما بعد عند ذكر لقمان وحكمته ؛ ولأنه يعتمد دائما فى الاستدلال على ما هو ظاهر واضح ثابت فى كتاب الوجود الذى يدل دلالة قاطعة على الخالق وعظمته وقدرته ؛ ولأن اياته التى اشتملت على أصول الأخلاق هى أكمل ما يمكن أن يتصف به الانسان فى هذه الحياة ؛ ولأن نظمه للجماعة الانسانية هى النظم الحقة التى سعد بها الناس عند ما عملوا بها ؛ وما هذا الشقاء الذى يكتوى العالم بناره ، ويعمهم شره ، إلا نتيجة البعد عن الهدى الإلهى ، وثمرة لهذه المذاهب الضالة التى اخترعها الملاحدة وزينوها للناس ؛ وليس هذا الخزى والعار الذى عليه المسلمون اليوم ، إلا نتيجة الايمان ببعض الـكتاب والـكفر ببعضه ، ونتيجة إغفاله وعدم تدبره ؛ ولذلك حق عليهم قول الله سبحانه : « أفتؤمنون ببعض الـكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون » .

صدق الله ، فقد حق الخزى فى الحياة الدنيا عليهم ، أما جزاء الآخرة وهو أشد العذاب فسيلاقيهم ، لأن الله صادق الوعد كما هو صادق الوعيد .

القرآن فى ذاته هدى ، وفى ذاته رحمة ، لـكنه لا ينتفع به إلا من يقبل عليه ويؤمن به إيمانا كاملا ، ويخلص فى عمله إخلاصا كاملا . ومثله مثل نجوم السماء ، هى هادية فى ذاتها لـكنها لا ينتفع بهدايتها إلا العلماء ، فليس العيب عيب الـكتاب ، لـكنه عيب أهل الـكتاب ، وقد قرأ بعض القراء هدى ورحمة بالنصب ، وبعضهم هدى ورحمة بالرفع ، وهما قراءتان صحيحتان لا يختلفان فى المعنى .

« الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » :

هذه أوصاف المحسنين ، فهم الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون .

وقد سبق فى بيان معنى الإحسان ما يفيد أنه أخص من الإيمان وأخص من التقوى . ونحن نعلم أن الله سبحانه وصف المؤمنين فى سورة المؤمنين بأكثر من هذه الأوصاف ، ووصف المتقين فى أول سورة البقرة بأكثر من هـذه الأوصاف ، وبيّن صفات أهل البر بأكثر من

هذا فى قوله : « ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

فما هو السر فى الاقتصار هنا على هذه الصفات القليلة فى بيان المحسنين الذين هم أخص من المؤمنين ومن المتقين ؟

الجواب : أن الله سبحانه لم يرد هنا بيان جميع صفات المحسنين ، بل ذكر صفة لكل أصل من أصول الخير . وأصول الخير ثلاثة : صحة العقيدة ، والاحسان الى الجماعة البشرية ، وتهذيب النفس وتطهيرها . وأكمل أمثلة تهذيب النفس الصلاة ، وأكمل أمثلة الاحسان الى الجماعة بذل المال . وفى الايمان باليوم الآخر وما فيه من جزاء ، إيمان بالله سبحانه وبالكتب المنزلة وبالرسل ، فهو مثال كامل لصحة العقيدة .

إقامة الصلاة تقويمها وتجويدها وحفظها من أن يقع فيها فساد فى صورتها أو فى حقيقتها . أما صورتها فهى الأعمال والأقوال المعروفة . وأما حقيقتها فهى الاخلاص لله سبحانه واستشعار سلطانه وقهره .

والصلاة فى الاسلام أكمل مظهر من مظاهر العبودية . وفاتحة الكتاب إذا روعى معناها أثناء التلاوة ، من أكبر العون على استحضار ذات المعبود متجلية بأكمل صفاتها ، ومن أكبر العون على التوحيد الخالص المبرأ من أية شائبة للشرك . وإذا خلت الصلاة من حقيقتها وروحها ـ وهو ذلك الاخلاص الذى وصفناه ـ كانت جسما لا روح فيه ، ولم تؤد الغرض منها وهو التهذيب والنهى عن الفحشاء والمنكر ، والتخلص من الهلع والجزع عند النوائب ؛ والله سبحانه يقول : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ويقول : « إن الانسان خلق هلوعا : إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين » .

والأفضل أن تفسر الزكاة هنا باخراج المال وإنفاقه فى سبيل الله ، وفى سبيل إغاثة الملهوفين والبائسين ، وفى سد حاجة الأفراد والجماعات ، فتشمل الزكاة المفروضة وغيرها من أنواع الصدقات ؛ وذلك لأن الله سبحانه يذكر فى هذه الآية أوصاف المحسنين الذين هم أكمل من المؤمنين والمتقين.

وصفة الاحسان لا تتحقق بالاقتصار على الزكاة المفروضة ؛ وقد عمم الله فى صفات أهل البر عند ذكر الإنفاق فقال : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة » ، وأهل البر لا يزيدون على أهل الإحسان فى أحوالهم . والمراد بالآخرة الدار الآخرة وهى دار الجزاء .

والإيمان بالآخرة يشمل الايمان بما فيها من جنة ونار وحساب وعدل فى توزيع الجزاء

على الأعمال . واليقين اعتقاد مطابق للواقع لا يقبل الزوال أو الشك ، ويطلق باطلاق آخر على الاعتقاد الجازم المبنى على الخبر الصادق أو على الأدلة والأمارات ، فهو العلم مع تحقيق الأمر وإزالة الشك ، والثانى أقرب الى اللغة من الإطلاق الأول . اليقين يملك النفس ويصرفها حتى لا تجد عنه منصرفا ، وتظهر آثاره على الجوانح ، وأول آثار اليقين العمل به ، وأن تجد النفس مضطرة اضطرارا الى لزومه ، وطريقة النظر الصحيح وتخليص الأدلة .

والقرآن الكريم عند تدبره وشرح الصدر به يبعث فى النفوس أكمل اليقين ، وفى الجوارح أعظم آثار اليقين .

« أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » :

هؤلاء المحسنون الذين ذكرت أوصافهم هم المستقرون على الهدى والمتمكنون منه ، لأنهم أحسنوا فى جميع العقائد والأعمال والأقوال ، وهذبوا نفوسهم وطهروها ، وملأ اليقين قلوبهم بعد تمكنهم من الأدلة . وهؤلاء المحسنون هم الفائزون المفلحون فى الآخرة بنعيم الله وجناته ورضوانه ، وفى الدنيا بطمأنينة النفس وسعادتها والرضا بالأقدار . فهم فى نعيم روحى وإن كانوا فى الظاهر فى الشقاء ، وكل ما يصيبهم من ألم وفقر وبلاء يردونه الى القدر ، وهم راضون بالقدر فرحون ، ينتظرون جزاء الله .

وقد قيل : الهدى من الله كثير ، ولا يبصره إلا بصير ، ونجوم السماء يبصرها البصراء ، ولا يهتدى بهديها إلا العلماء .

وقد قيل أيضا : العجب كل العجب من الشاك فى الله وهو يرى خلقه ، وممن يعرف النشأة الأولى وينكر النشأة الاخرة ، وممن ينكر البعث والنشور وهو فى كل يوم وليلة يموت ويحيا ، وعجب ممن يؤمن بالجنة وما فيها من النعيم ثم يسعى لدار الغرور .

وصف الله المحسنين بأنهم على هدى من ربهم ، والهدى من الله سبحانه أكمل أنواع الهداية ، لأنه الهدى الذى لا خطأ فيه ، وفيه الأمان من الزيغ . وهناك ضروب أخر من الهداية ، منها هداية الإلهام والفطرة ، وهداية المشاعر والحواس ، وهاتان الهدايتان يشملان أنواع الحيوان . وهناك هداية العقل الذى يصحح خطأ الحواس ويعلل الأشياء ويستنبط ويقيس ، وهى خاصة بالإنسان ، وبها ذلَّل أسرار الطبيعة ، وفسر كتاب الوجود .

لكن أفضل هذه الهدايات وأقواها هى هداية الدين ، وهى لطف عظيم من الله سبحانه حيث أرشده الى ما لا يستطيع بعقله أن يدركه إدراكا صحيحا ، وأزال حيرته .

وقد بينت فى حديث من أحاديث السنين السابقة على وجه التطويل ضرورة هذه الهداية الإلهية للنوع الإنسانى ، فأكتفى الآن بهذا القدر من البيان .

وأسأل الله أن ينفعنا بالهدى الإلهى ، ويشرح صدورنا بقبوله وفهمه والعمل به ؟

السنة

زيارة القبور

واتخاذ سكانها شفعاء عند الله

عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج » . رواه أبو داود والترمذى وحسّنه ، والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه . ذكره المنذرى .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان الغرض منه إجمالا ؛ (٢) بيان التوسل بالموتى الصالحين ؛ (٣) بيان ما ذكره الفخر الرازى من تشبيه ما يفعله العامة فى الأضرحة والمزارات بعبدة الأوثان .

(١) لعل حضرات قراء هذه المجلة يذكرون ما كتبته فى الجزء السادس من المجلد الثانى عشر ، من أن البخارى روى عن عائشة رضى الله عنها ، أن أم حبيبة وأم سلمة زوجتى الرسول صلى الله عليه وسلم كانتا من بين المهاجرات إلى الحبشة فنظرتا كنيسة فيها صور فذكرتا للنبى صلى الله عليه وسلم ذلك فقال لهما : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

وهذا الحديث يؤيد الحديث الذى نشرحه الآن عن ابن عباس فى أن بناء المساجد على القبور منهى عنه نهياً شديداً ، وكما أن بناء المساجد عليها لا يجوز فكذلك زيارتها لا تجوز للنساء ، وتجوز للرجال لغرض واحد وهو تذكر الآخرة . وقد يقال : إن النساء أيضا قد يتذكرن الآخرة بزيارة القبور . ولكن الشريعة الاسلامية مبنية على جلب المصالح ودرء المفاسد . ولما كانت القبور غالبا فى أمكنة لا يتيسر معها عدم اختلاط النساء بالرجال كان من صيانة النساء أن يمنعن عن كل ما يمس صيانتهن . ولذا أجاز بعض الأئمة للمرأة العجوز التى انقطع منها أرب الرجال أن تخرج الى المصلى وأن تزور المقابر . وعلى كل حال فالعلة فى جواز الزيارة هى تذكر الآخرة وليس وراءها شىء آخر . أما الذين يزورون الأضرحة وقبور الصالحين الآن فان كانوا يقصدون المعنى الذى صرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم

فهم يثابون على زيارتهم ؛ وأما إن كانوا يريدون شيئا وراء ذلك من قضاء حاجة ، ويعتقدون أن الموتى الصالحين يتصرفون فى الاعطاء والحرمان ، فذلك لا يجوز باجماع المسلمين . وهذا هو الذى سنبين لك حكمه فى الأبحاث الآتية .

٢ — أما التوسل بالموتى الصالحين فذلك محل خلاف بين المسلمين ، فنهم من أجاز ، ومنهم من منع . وعلى كل حال فالجميع متفق على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد ، وأن التوسل إليه بالصالحين لا يؤثر فى قضائه وقدره . فمن أجاز الوسيلة قال إنها من باب الأسباب العادية التى أمر الله بالتمسك بها فى كثير من الآيات والأحاديث ، وكونها تؤثر أو لا تؤثر مسألة أخرى ترجع الى ربط الأسباب بالمسببات . أما من منع فانه يقول إن الله سبحانه وتعالى قد بين الأسباب والمسببات ؛ فالأحياء الذين يقطعون معترك الحياة الدنيا لا بد لهم من أن يستعين بعضهم ببعض ، ولا بد لهم من أن يتضافروا على قضاء حاجاتهم الدنيوية ، ومحال أن يستغنى الناس عن هذا التعاون ، وقد أمر الله تعالى به فى كتابه العزيز حيث قال : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . هذا فى حال الحياة ، أما بعد الموت فما هو ذلك التعاون الذى لا بد منه ؟ ليس فى الدين ما يصرح أو يشير الى هذا التعاون ، وليس فيه ما يفيد أن الأحياء يجب عليهم أن يتوسلوا الى الله بالأموات ، بل بالعكس ، ظاهر الأحاديث وظاهر الدين يدل على الالتجاء الى الله وحده ، وأنه لا يجوز اتخاذ أهل القبور وسيلة الى الله تعالى فى قضاء الحوائج ، وهذه الأحاديث التى معنا تدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى النساء عن زيارة القبور وأباحها للرجال لتذكر الآخرة ، ولو كان التوسل بهم جائزا ما منع منه فريقا عظيما من أمته .

ومن هذا يتبين أن علماء المسلمين اختلفوا فى شىء لا يمس جوهر الدين ، ولا يمس عقيدة من العقائد الأساسية ، بل هم مجمعون على أن النفع والضر يرجعان الى الله وحده ، وإنما الخلاف بينهما فى كون التوسل سببا صحيحا يقره الدين أو لا ، فيكون التوسل عبثا لا فائدة منه . فهذا خلاصة ما قاله العلماء فى هذا المقام ، ذكرناه بإيجاز ليسهل على الناس إدراكه ولا يتنازعوا فيما لا يضرهم ولا ينفعهم . ولكن محل الاشتباه حقا هو ما سنذكره فيما يلى :

(٣) إن العامة قد تخطوا حدود الدين فى هذا المقام الى أبعد مدى ، فأخذوا يأتون من ضروب المنكرات ، كتقبيل الأحجار والأعتاب ، وتقديم الذبائح والنذور للأضرحة وسكان القبور ، والطواف حول المزارات المبتدعة المصنوعة من النحاس والخشب ونحو ذلك على الوجه الذى كان يفعله عبدة الأوثان والأصنام قبل الاسلام تماما . ومن الأسف الشديد أنهم وجدوا لهم أعوانا من بعض الخاصة الذين لهم أغراض مادية أو مصالح شهوية ، فعضدوا هؤلاء الخوارج على دين الله حتى أصبح ذلك دينا قيما فى نظر هؤلاء الجهلة ، وأصبح من يرشدهم الى الدين

الصحيح خارجا على الدين فى نظرهم . وكفاهم مستندا ما يفعله بعض الخاصة من جمع حطام الدنيا ، وما وجدوا عليه آباءهم من قبل ، كأن قواعد الدين الاسلامى وآياته محدثة لم تكن معروفة لأحد من قبل ، وهذا هو الشر الوبيل والخطر الداهم الذى عم شره .

إن الدين الاسلامى قد جاء بتوحيد الإله الخالص الذى لا شائبة فيه من أى ناحية من النواحى ، كما جاء لمحاربة الوثنية والقضاء عليها حيث كانت وأنى وجدت ، وقد أظهر الله تعالى دينه القيم الذى تقتضيه الفطرة الانسانية من عبادة إله كامل منزه عن المادة والحلول والاتحاد بأى مادة من المواد ، فهو سبحانه ليس كمثله شىء ، ولا هو مثل شىء ، وهو وحده المتصرف المطلق فى عباده ، فهو الذى يبسط الرزق لهم ، وهو الذى يمنعه إذا شاء ، وبذلك طهر شبه جزيرة العرب وما يتصل بها من الوثنية التى أضلتهم زمانا طويلا فعبدوا الأصنام والأوثان من دون الله الواحد القهار بدون أن يفكروا أو يتدبروا فيما يحيط بهم من أسرار الكائنات ودلائل الآيات الناطقة بأن عبادة وثن أو صنم أو التوسل به الى الله سخف وهراء لا ينبغى لعاقل أن يفعله .

هذه قواعد الدين وهذه أحكامه ، فهل لعلماء المسلمين وأئمة الدين أن يتضافروا على محاربة هذه الموبقات التى نهى عنها الدين الاسلامى نهيا صريحا ، ويقتدوا فى ذلك بسلفهم الصالح الذى كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر مهما لاقى فى سبيل ذلك من عنت وإيذاء ؟

إن هذه العقائد الفاسدة قد أثرت على بعض المتعلمين، فكتب لى أحدهم يقول: « لقد انتابتنى فى هذه الأيام أفكار متعارضة وآراء متناقضة أخشى أن يذهب دينى ضحيتها إن لم تدركنى بإرشادك القيم وتهدنى ببيانك الى الصراط المستقيم » ، ثم قال : « قرأت فى تفسير الفخر الرازى عند قوله تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ما ملخصه أن الفخر قال أوجها منها : أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر يكونون شفعاء لهم عند الله . قال : ونظيره فى هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاءلهم عند الله ... الى آخر ماذكره . ولست أدرى سببا لاضطراب هذا الكاتب والخوف على دينه من مثل هذه المسألة ، لأنه ماذا يضيره إذا اعتقد أن ما يفعله الناس من تقبيل الأحجار ، وتعظيم القبور لا يقره الدين الاسلامى ؟

وأى مذهب من المذاهب يبيح هذه المسائل ؟ وما دامت محرمة فى جميع المذاهب فلماذا يضطرب من عبارة الفخر ؟ إن كان يظن أن الفخر قد حكم عليهم بأنهم مشركون فعلا فانى أقول له : كلا ، إنهم ليسوا بمشركين ، وإنما يعملون ما يشبه عمل المشركين ، والفرق بينهم وبين المشركين أن عبدة الأوثان والأصنام كانوا ينكرون البعث والنشور ، كما قال تعالى : « وأقسموا

بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ـ الآية » وقال تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » . أما العامة فهما فعلوا فهم موحدون مؤمنون بالبعث والنشور ، فإذا أنكر أحد ذلك فقد تساوى مع المشركين الأولين الذين كانوا يعبدون الأوثان لتقربهم الى الله زلفى فتدر عليهم الأرزاق والبركات فيأكلون ويتمتعون فى هذه الحياة الدنيا كما تأكل الأنعام وهم عن الآخرة هم غافلون .

وأظن أن فيما كتبناه للأستاذ الحائر المضطرب ما يقنعه بأن هناك فرقا بين المسألتين ، وإن كان ما يفعله العامة محرما بإجماع المسلمين ولا يليق إقرارهم عليه ، بل ينبغى لكل عالم أن يحارب هذه البدع والموبقات ؟

عبد الرحمن الجزيرى

العطية قبل السؤال

إنما جعلنا أكثر طرفنا فى هذا الشهر ، فى البذل والعطاء ، لأن رمضان شهر الإحسان ، والإكثار من ذكره يلفت القلوب اليه .

سأل معاوية صعصعة بن الصوحان : ما الجود ؟ فقال : التبرع بالمال ، والعطية قبل السؤال .

ومن قول إمام الأدب ابن عبد ربه صاحب العقد فى هذا المعنى :

كريم على العلات جزل عطاؤه ينيل وإن لم يعتمد لنوال
وما الجود من يعطى إذا ماسألته ولكن من يعطى بغير سؤال

وقال سعد بن العاصى : قبّح الله المعروف إن لم يكن ابتدئ من غير مسألة ! فالمعروف عوض عن مسألة الرجل إذا بذل وجهه ، فقلبه خائف ، وفرائصه ترعد ، وجبينه يرشح ، لا يدرى أيرجع بنجح الطلب ، أم بسوء المنقلب ؛ قد انتقع لونه ، وذهب دم وجهه ؛ اللهم فان كانت الدنيا لها عندى حظ ، فلا تجعل لى حظا فى الآخرة !

وقال على أمير المؤمنين لأصحابه : من كانت له الىّ منكم حاجة ، فليرفعها فى كتاب لأصون وجوهكم عن المسألة .

ومن أحسن ما قيل فى هذا المعنى قول أبى تمام :

عطاؤك لا يفنى ويستغرق الثنا وتبقى وجوه الراغبين بمائها

حول السيرة المحمدية

تابع لما قبله

قد يقول قائل : هذا شأن اليهود ونحن إنما نتكلم عن المسيحيين فأين هذا مما نحن فيه ؟ والجواب : أن المسيحيين يعتقدون بالتوراة فعلمهم بها كعلم اليهود ، ويزيدون عن اليهود بما جاء فى الإنجيل .

٧ — قال الله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » (سورة البقرة) .

وهذه الآية الكريمة غنية عن التعليق لإفادة أن أهل الكتاب كانوا على يقين من أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنهم كانوا يكتمون الحق وهم يعلمون أنه الحق .

٨ — روى البخارى فى صحيحه ص ١٩٦ ج ١٦ قال : جاء العاقب والسيد صاحبا نجران الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه (يباهلاه) ، فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا . ويوضح هذا الحديث ما ذكره الإمام القرطبى عند الكلام على قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » الى قوله تعالى : « فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » قال : إن هذه الآيات نزلت فى وفد نجران لما قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم من أبو عيسى ؟ فأنزل الله تعالى إن مثل عيسى عند الله الآيات ، فدعاهم النبى صلى الله عليه وسلم الى المباهلة فأحجموا وخافوا ، وقال بعضهم لبعض إن باهلتم اضطرم عليكم الوادى نارا .. فقل لى بربك هل كان هذا الخوف وهذا القول منهم لأنهم كانوا يعتقدون أن محمدا كذاب إذ لا نبى بعد عيسى ، وأن الديانة قد تمت فى نظرهم ، أو بالعكس ، وأن هذا ماحصل إلا لأنهم كانوا يعتقدون أو يغلب على ظنهم أو يجوزون على الأقل أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله حقا ؟ ويلزم كل هذه الاحتمالات أنهم كانوا لايعتقدون أن الديانة قد تمت ولا استحالة نبى آخر بعد عيسى عليه السلام . قال الامام القرطبى : هذه الآية علم من أعلام النبوة لأنه دعاهم الى المباهلة فأبوا ورضوا بالجزية

٩ — قال الله تعالى : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم

تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » الى آخر الآيات ، فما حكاه القرآن عن فريق منهم فى هذه الآيات لا يتفق مع زعم أنهم كانوا يعتقدون تمام ديانتهم وأنه لا نبى بعد عيسى عليه السلام .

وقد ناقش الأستاذ فى دلالة هذه الآية على مدعانا قال : وأما قوله تعالى : وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول الآية ، فهو صريح فى أن الذين فاضت أعينهم بالدمع كانوا قد آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم من قبل وآمنوا بالقرآن ، فلا عجب أن ترق قلوبهم عند سماعه فيبكوا ، وليس هذا بعجيب من قوم تذوقوا طعم اليقين اهـ .

وبناء على ذلك يكون قوله تعالى : ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الى قوله : وأنهم لا يستكبرون ، فى حق النصارى ، وقوله تعالى : وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول الخ فى حق المسلمين ، فهل سمعتم أيها القراء بتفسير أعجب من هذا ؟ فالعارف بالذوق البلاغى ، وفى مقدمتهم الأستاذ ، يجزم بأن الضمير فى قوله تعالى : وإذا سمعوا ، عائد لما عادت عليه الضمائر السابقة وهم الذين قالوا إنا نصارى ، وأن قوله تعالى : وإذا سمعوا معطوف على قوله تعالى : لا يستكبرون ، فالمرجع واحد ، والمحدث عنه متحد ، وهم الذين قالوا إنا نصارى . أما ما ذهب الأستاذ اليه فانه يلزم عليه تشتيت الضمائر واختلال النظم . والذى دعا الأستاذ الى كل هذا التكلف ما فهمه وحرص عليه من أنه لم تكن لأهل الكتاب معرفة بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، وقد علمت ما فيه .

ثم قد وقع الاختلاف بين المفسرين فى القوم المرادين بهذه الآيات بعد إجماعهم على أنها كلها خاصة بقوم من النصارى ؛ قال العلامة القرطبى ص ٢٥٥ ج ٦ : وهذه الآية نزلت فى النجاشى وأصحابه لما قدم عليهم المسلمون فى الهجرة الأولى ، الى أن قال : ثم دعا جعفر بن أبى طالب والمهاجرين وأرسل الى الرهبان والقسيسين فجمعهم ، ثم أمر جعفرا أن يقرأ عليهم القرآن فقرأ سورة مريم ، وقاموا تفيض أعينهم من الدمع ، فهم الذين أنزل الله فيهم : ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى الى قوله الشاهدين ، رواه أبو داود . وذكر البيهقى عن ابن إسحاق قال : قدم على النبى صلى الله عليه وسلم عشرون رجلا أو قريب من ذلك من نصارى الحبشة ، وهو بمكة ، حين ظهر أمره فوجدوه فى المسجد فكلموه وساءلوه ، ورجال قريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألتهم عما أرادوا دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم الى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتبهم من أمره ، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش فقالوا : خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل فلم تظهر مجالستكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم ، ما نعلم ركبا أحمق منكم ! فقالوا سلام عليكم لا نجاهلكم فلنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا نألو أنفسنا خيرا . ويقال إن النفر النصارى من أهل نجران . ويقال إن فيهم نزلت هذه الآيات

أيضا : الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، الى قوله تعالى : سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين. وقيل إن جعفرا وأصحابه قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فى سبعين رجلا فيهم اثنان وسبعون من الحبشة وثمانية من أهل الشام (وذكر أسماءهم) فقرأ عليهم النبي صلى الله عليه وسلم سورة يس الى آخرها فبكوا حين سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا : ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى ، ونزلت : لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا الآيات . وقال سعيد بن جبير : وأنزل الله فيهم : الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، الى قوله تعالى : أولئك يؤتون أجرهم مرتين الى آخر الآية . وقال مقاتل والكلبي : كانوا أربعين رجلا من نجران من بنى الحارث ، واثنان وثلاثون من الحبشة ، وثمانية وستون من أهل الشام .

وهذا الخلاف فى تعيين القوم المرادين بالآيات الكريمة لا يعنينا فى كثير ولا قليل ، إنما يعنينا القدر المتفق عليه وهو أن هذه الآيات برمتها نزلت فى قوم من النصارى ، كما أنه يؤخذ منها أن كثيرا من النصارى كانوا قد أسلموا . إذن فقد كان من النصارى ناس يبكون ويؤمنون بمجرد سماع القرآن إذ يعرفون أنه الحق طبقا لما كان فى كتبهم ، وكذلك قد كان من اليهود كما مر ، ولكنهم كانوا قلة بجانب من كان يسلم من النصارى .

وهذه ليست صفة ذم كما يقول سيدى الأستاذ ، فإن سرعة الانقياد الى الحق إذا بهر والدليل إذا ظهر من أجل الصفات وأسمى المناقب ، وقد ذم الله تعالى قوما بأنهم يجادلون فى الحق بعد ما تبين ، وكان أبو بكر رضى الله عنه أسرع الناس تصديقا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولذلك مدحه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ما دعوت أحدا الى الاسلام إلا كانت له نبوة غير أبى بكر . فالمسارعة الى قبول الحق منقبة أى منقبة ، سيما وهؤلاء القوم لم يكونوا خالى الذهن كما قد يتوهم بل كانوا على علم تام بأمر النبي صلى الله عليه وسلم كما سبق تحقيقه ، فلم يكونوا بحاجة الى أكثر من أن يطبقوا ما شاهدوا على ما كانوا يعلمون . وقد كانت شخصية النبي صلى الله عليه وسلم ناهيك بها من شخصية ، إنها توحى الى ذوى البصائر النيرة بصدقه . ولقد رآه بعض الناس مرة واحدة فقال : والله ما هذا بوجه كذاب . ولقد رآه رجل من أهل اليمن وهو صغير فقال لقريش : إن هذا الغلام لينظر إليكم أحيانا بعينى جؤذر وأحيانا بعينى أسد ، فلو كانت نظرته الأولى نسيا لأنشرت موتاكم ، ولو كانت نظرته الثانية سهاما لآتت عليكم واحدا واحدا . وتأثير القرآن وما أدراك ما تأثير القرآن ؟ إنه مغناطيس القلوب الطاهرة ، والنفوس الحساسة ، والضمائر الحرة ، وكيف لا ؟ ألم يقل الله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » وألم يقل الله تعالى فى صفة القرآن العظيم : « مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » ؟

ولقد ذهب الوليد بن المغيرة الى النبي صلى الله عليه وسلم يعرض عليه أمورا فى نظير الكف عن دعوته وعيب آلهتهم، فلما فرغ من كلامه، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: اسمع، ثم تلا عليه أول سورة فصلت الى قوله تعالى: « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فأمسك الوليد بفيه وناشده الله والرحم، ثم رجع الى قريش، فلما رأوه من بعيد قالوا: والله لقد جاءكم الوليد بوجه غير الذى ذهب به. فانظر وتأمل بعض آيات سمعها الرجل وهو لا يزال على كفره تؤثر فيه هذا التأثير المحسوس الذى يرى على وجهه من بعيد! ثم مدح الوليد القرآن فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليغلب وما يغلب، وما هو بقول البشر! ولقد قرأ النبي صلى الله عليه وسلم سورة النجم على ملأ من قريش فسحرهم البيان، وأخذت بمجامع قلوبهم قوة الاعجاز، وأنستهم حقدهم الدفين، بل أنستهم أنفسهم حتى إنه لما وصل الى آخرها وسجد، لم يتمالكوا أنفسهم فسجدوا جميعا، فطار الخبر الى مهاجرى الحبشة بأن قريشا قد أسلمت، فرجعوا الى مكة، ولكنهم وجدوا قريشا كما كانت بل أشد عنادا وكفرا. وإذا كان هذا تأثير القرآن على هؤلاء القوم وهم فى أشد درجات الكفر والعناد، فكيف تأثيره على القلوب المستعدة لقبول الهداية بفطرتها؟ نعم إن التريث ممدوح ولكن فى مواطن الريبة. وقوله تعالى: « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » مما يرشد الى ذلك.

إيراد سهل الايراد:

قد يقال: إذا كان المسيحيون أقرب مودة للمسلمين من اليهود والمشركين، فكيف نعلل ما حصل بين الفريقين من الحروب الطاحنة، وكيف دخلت أمم برمتها فى الاسلام بخلاف النصارى؟ والجواب عن الشق الأول لن يحتاج إلا الى لفت النظر الى ما هو حاصل الآن بين الأمم المسيحية من الحروب الطاحنة مع أنهم من ملة واحدة، بل إن الصحابة أنفسهم قد وقعت بينهم حروب. وأما عن الشق الثانى فان مسألة الايمان لها ظروف وأسباب وملابسات شتى، مثل التغلب النهائى على الأمة الفارسية، وامتزاج المسلمين بهم، وكذلك الامتزاج الكلى الذى حصل بين الأمة العربية والأمة التركية.

وبعد إثبات ذلك الأصل المتقدم تنزاح تلك التشكيكات التى أوردت على ما حصل من ملوك النصرانية.

ويحسن بنا أن نبدى بعض ملاحظات على ما كتبه الأستاذ بشأن قصتى هرقل والنجاشى:

أما قصة هرقل مع أبى سفيان وصحبه فقد رواها البخارى فى صحيحه فى جملة مواضع

عن ابن عباس عن أبى سفيان ، وليس عن ابن الناطورى . وكذلك رواها الإمام مسلم فى صحيحه والبيهقى ، وفى آخرها يقول هرقل لأبى سفيان : لئن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص اليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ... فقل لى بربك أى غرابة أو خرافة فى هذا ؟ وأى قاعدة من علم النفس أو علم الاجتماع تمنع من أن يقع فى خاطر هرقل من صدق النبى صلى الله عليه وسلم مثل ما وقع فى قلب الفتاة الانكليزية أمة الله بار ، أو اللورد هدلى ، أو القس طيلر ، وغيرهم من ناضجى العقول وأحرار الأفكار ؟ والله إن هذا ليس ببدع ، بل البدع أن ينكص على عقبيه ويؤثر الفانية على الباقية بعد الذى قدمناه من الأدلة . على أنه كان على يقين من أمر النبى صلى الله عليه وسلم لأنه كان من أكابر علمائهم .

هذا وقد أراد الأستاذ أن يتخلص من إنكارى عليه تكذيب صحيح البخارى فأورد ملاحظتين لا محل لهما : أولاهما أنه ليس كل ما ورد فى كتاب البخارى من آرائه الشخصية وتعليقاته يسرى عليه ما يسرى على ما أورده من الأحاديث مسندا الى النبى صلى الله عليه وسلم . والثانية أن ماروى عن ابن الناطورى ليس بحجة لأن ابن الناطورى ليس بثقة فى نظره ولا فى نظر أحد من المسلمين . وإنما قلنا هاتين الملاحظتين لا محل لهما لأن الحديث الذى أنكرنا تكذيبه وهو قصة هرقل مع أبى سفيان كما قلنا ذلك بصريح العبارة ليس من تعليقات البخارى ولا من آرائه الشخصية ولا هو مروى عن ابن الناطورى ، وإنما هو مروى عن عبد الله بن عباس عن أبى سفيان فهو صحيح الاسناد ، فاعتراضنا فى ناحية وجوابه فى ناحية أخرى لا تلاقى بينهما بوجه من الوجوه .

وقد ذكر الأستاذ أن الأحاديث المروية كلها ليست بمنجاة من النقد ، وقد سمح الأئمة السابقون لأنفسهم بنقد كل شىء فيه ، فضعفوا مائة وعشرين حديثا من الأحاديث المروية فيه . ونحن نوافقه على هذا المبدأ الجليل ، ونصرح بأن الامام البخارى ليس معصوما لاهو ولا غيره من الأئمة ، وأنه عرضة للنقد ، وأنه لا عبرة بكلام غير النبى صلى الله عليه وسلم إلا بالحجة والبرهان ، وهذا مجمع عليه ؛ وقد روى عن الامام مالك رضى الله عنه : ما من أحد إلا ويؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر ، يريد النبى صلى الله عليه وسلم . وروى عن الامام الشافعى رضى الله عنه : إذا رأيتم كلامى يخالف حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذوا بالحديث واضربوا بكلامى عرض الحائط . ومثله عن الامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه . وبالجملة فهذا قدر متفق عليه ، ويدل على سماحة الاسلام وإعطائه العقل منتهى الحرية ما دامت فى حدود المعقول .

ولكن نقد الأحاديث له طريقتان : الأولى ببيان حال رواته من الضعف ، وهذا إنما يكون من الأئمة المعاصرين لهم العارفين بأحوالهم ؛ والثانية ببيان أن الحديث مصادم لحكم

العقل بالدليل المنطق ، ولا شيء منها يتعلق بالحديث الذى نحن بصدده ، وقد مضى على هذا الحديث قرابة ثلاثة عشر قرنا ولم يطعن فيه أحد بمخالفته المعقول ، بل المخالف للمعقول ألا يقع فى قلب هرقل صدق النبى صلى الله عليه وسلم بعد ما قدمناه من الأدلة على أنه كان على علم ببعثته ، وبعد تلك الأسئلة الدقيقة وأجوبتها من أبى سفيان وهـو يعلم أنه ألد أعداء النبى صلى الله عليه وسلم ، فالتشكيك فى هذا بأن النصارى كانوا شديدى التمسك بدينهم ، ويعتقدون تمامه ، وأنهم كانوا يعلقون آمالهم فى حماية دينهم على الدولة الرومانية الشرقية ، لا يقام له وزن لأنه تشكيك فى مقابلة قاطع الأدلة .

بقى أن الأستاذ ذكر جملة غير مفهومة عندى، وهى قوله: « وقد ظن بعض الناس أن البخارى روى ما قاله عن هرقل عن الزهرى عن عبيد الله عن عبد الله بن عباس عن أبى سفيان ، والواقع أنه روى خبر سؤال هرقل لأبى سفيان بهذا الإسناد ، وقد شاركه فيه مسلم » . فهذه الجملة متضاربة ، لأن آخرها يفيد أن خبر مساءلة هرقل لأبى سفيان ومجاوبة أبى سفيان له التى انتهت بقول هرقل : فان كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين وقد كنت أعلم أنه خارج الخ ، مروى بهذا الاسناد ، بينما أولها ينفى ذلك .

هذا ولا بد لنا من كلمة على ما روى عن ابن الناطورى ، فابن الناطورى إما أن يكون قد أسلم كما ذكره ابن حجر فى فتح البارى ، وأن الزهرى لقيه فى خلافة عبد الملك بن مروان ، أو يكون قد بقى على كفره ؛ فان كان الأول فالأمر ظاهر ، ولا شك فى قبول روايته ، وإن كان الثانى فهو إنما شهد للاسلام لا عليه ، فشهادته للاسلام ليست موضع ريبة حتى تشترط فيها العدالة ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

أما مسألة إسلام النجاشى فالأستاذ كفانا فيها المؤونة ، ذلك أنه اعترف معنا بأن نجاشيا أسلم وأنه غير النجاشى الذى أرسل إليه كتاب الدعوة ، ثم قال : وهذا لا يمنع أن يكون سلف هذا النجاشى قد أسلم سرا ، وأرسل الى النبى صلى الله عليه وسلم يخبره بذلك خفية وكتم إسلامه عن قوله . إذن فالأستاذ يجوز أن يكون السلف قد أسلم سرا ، أى وأما الخلف فقد أسلم جهرا ، وهذا فيه الكفاية ، لأننا لم ندع إلا إسلام نجاشى واحد ، فأثبت لنا إسلام نجاشيين اثنين ، وكون الأول أسلم سرا أو جهرا لا يعنينا ، إنما الذى يعنينا إسلام النجاشى الذى نأخذ منه أن النصارى لم يكونوا يعتقدون أن ديانتهم قد تمت بتجسد الابن بل كانوا يعتقدون مجىء نبى آخر ، وأنه مبشر به فى كتبهم ، ولذلك افترق الحال بين رد ملوك المسيحية ورد كسرى الذى مزق كتاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فدعا النبى صلى الله عليه وسلم بأن يمزق الله ملكه ، وقد كان .

وأما كون كتاب النجاشى ركيك العبارة غير مستقيم الأسلوب ، فهو عندنا دليل على صحته لا على اختلاقه ، وهل زعم أحد أن النجاشى تربى فى بادية بنى سعد حتى نشأ على الفصاحة والبلاغة ،

أو تربى فى كلية السربون ؟ أو جامعة أوكسفورد ، حتى تعلم تنميق العبارة وحسن السبك فى الخطاب ، فالرجل ساذج ، وخطابه فطرى ، وإيمانه فطرى أيضا .

ونختم هذا المقال بهذه الآية الكريمة : « فإن كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » ؟

محمد عبد الله الجرهنى

تعقيب على هذا التعقيب

عهدنا عهد شك وتمحيص ، وقواعد للنظر مستمدة من الواقع المحسوس ، ثم هو عهد ثقافة عامة سرت فى جميع الطبقات ، ومعرفة شاملة بالأحوال والشئون العالمية ؛ والجماعات التى تعيش فى مثل هذا العهد يغلب عليها المزاج الفلسفى الحسى فيما يتعلق بالدين والآداب ، أكثر مما تتغلب عليها الغرائز الأدبية للنفس البشرية ؛ فالفيلسوف الذى تحترمه هذه الجماعات وترجو الاستهداء به ، هو الحسى الواقعى الشكاك العنيف ، الذى لا يقيم للعاطفة وزنا ، وينظر للأشياء بمنظار معظم يبين كل ما فيها من عيوب . أما فى الآدب ، ولا بد للأمم من أدب ، فالميل العام منصرف الى اختيار أدب الواقعيين المتشائمين ، الساخطين على الحياة ، والساخرين بالوجود .

أراد الله أن نكون من أهل هذا العهد ، وأراد أن نكون من العاملين فيه على خدمة أمتنا من الناحيتين العقلية والقلبية معا ؛ فأول ما يجب علينا أن نتذرع به ، إذا أريد لنا أن ننجح ، أن نعرف روح هذا العصر ، وأن نكون نحن قد تأثرنا بها ، وأدركنا قوة سلطانها ، وترشحنا بذلك الى معرفة عوامل تأثيرها فى الجماعات .

هذا عصر وُضع كل شىء فيه فى الميزان ، حتى الكتب السماوية ، والعقائد الأولية ؛ وارتاب العقل فى كل مروى حتى فيما أجمعت عليه أمم برمتها آلافا من السنين ؛ ثم هو عصر أصبح فيه من يخالف روحه التى وصفناها تسقط قيمته ، ويعد فى زمرة المعطلين . فعصر مثل هذا تعتبر فيه مهمة إيقاظ العاطفة الدينية من أشق المهام ، وأفدحها تبعات .

كان من سبقنا من أهل العلم إذا أرادوا أن يتكلموا فى أمر من أمور الدين ، شعروا أنهم وسط جمهور مشبع بروح الاعتقاد ، والتطلع للسماع ، والرغب فى المزيد ، يحيط بهم

جو من حسن الظن والتسليم المطلق ؛ ولكن خلفاءهم اليوم يشعرون بتحول عظيم لهذه الحالة النفسية ، وإن لم يجرؤ الناس هنا على إظهارها كما تظهر فى البلاد الغربية ، وإنما ينم عليها عدم الاكتراث بالمتكلمين فى هذه الشئون ، بل عدم سؤالهم عما يحيك بالصدور من شتى الشبهات ، يأسا من سماع ما تطمئن اليه نفوسهم ، واعتقادا بأنهم فى مروقهم أهدى من مرشديهم سبيلا ، وأقوى فى إلحادهم دليلا .

والمهمة التى أشعر بأنى مطالب بأدائها فى هذه المجلة ، هى تنبيه العاطفة الدينية فى القلوب بالأصول نفسها التى كانت سببا فى إخمادها ، لا بهدم تلك الأصول ، والتدليل لها على فسادها ، بعد ما أصبحت أصولا مقررة للفلسفات عامة وللعلوم كافة ، وبعد ما دُعيت بالمنطق العلمى ، وبلغت درجة الخلود .

ليس مرادنا من تقديم هذه الكلمات الدعوة الى إهدار شىء من مقرراتنا الاسلامية ، لإيجاد الصلح المرغوب فيه بين المحافظين والأحرار منا ، فانى منذ درست الاسلام على ضوء العلوم الحديثة أدركت أن السبب فى سوء ظن الأحرار بالدين هو عدم معرفتهم كنه الاسلام على وجهه الصحيح ، من ناحية ، ومبالغة المحافظين فى تجاهل المنطق العلمى الحديث ، والروح الثقافية العامة السائدة على العقول ، من ناحية أخرى .

إن الذى جعل للعلم الرسمى هذا السلطان العظيم على العقول ، حتى تخلت فى سبيله عن الدين ، هو أنه عاملٌ باخلاص على إدراك الحقيقة على ما هى عليه ، لا يهمه أن تكون على لون دون لون ، ولا أن تنصر رأيا على رأى . فلا سبيل لإنالة الدين مثل هذا السلطان على العقول فى هذا العصر ، إلا إذا وضع قادته نصب عيونهم أن يجعلوا أسلوبهم فى الايصال الى الحقيقة الدينية ، أقوم من أسلوب العلم ، وآلاتهم فى معالجة المسائل تحليلا وتركيبا أدق من آلات العلم ، وغيرتهم على المحافظة على هذه الطريقة أشد من غيرة رجال العلم . بهذا ، بل بهذا وحده ، يخدم الدين فى عهدنا الذى نعيش فيه ، وهو وإن كان كثير التبعات على العاملين ، فإنه أرقى العهود البشرية جميعا فى تقرير الحقائق بعيدة عن جميع الملابسات ، وهو جدير بأن تتقرر فيه اليقنيات الكبرى التى قبلها العلم فى حظيرته ، ولا تزال بعيدة عن مرمى بصر الدهماء .

هذه مقدمة قد يراها بعضهم طويلة ، ولكنها ضرورية وهذا وقتها .

فلننظر الآن فى ملاحظات الأستاذ فى الشطر الأخير من مقاله :

عاد فضيلة الأستاذ فى هذا الشطر أيضا الى التأكيد بأن النصارى كانوا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم كما يؤمن به اليهود لأن الطائفتين تقدسان التوراة ، وفى التوراة البشارات . وقد أوردنا فى ردنا على الشطر الأول رأى إمام المفسرين الرازى فى أن هذه البشارات لا تكفى فى تكوين هذه المعرفة . واستشهد الأستاذ بامتناع نصارى نجران عن المباهلة ، على أنهم كانوا

يعرفون أنه نبي فخشوا أن يصيبهم الله بشؤم ما صنعوا ، وآثروا على ذلك أن يفرض النبي عليهم الجزية ، والجزية إذلال ، ومضيعة للاستقلال ، فكيف يعقل أن يخضعوا للذل وإضاعة الاستقلال ، ولا يعترفوا بالنبوة لمحمد ، وهى عقيدتهم القلبية ؟ وهل بقوا فى نظر أنفسهم مسيحيين مع عصيانهم الصريح للبشارة التى وردت عنه فى كتبهم ؟ وفى مقابل أى شىء رضوا بالذل وإضاعة الحرية ومصارحة كتبهم بالعصيان الى هذا الحد ؟

اللهم إنى لا أعلم لذلك مقابلا ، ولذلك لا أعقل أنهم كانوا مؤمنين به فى قلوبهم ، وكافرين به فى ظاهرهم ؛ وعندى أن قوله تعالى : « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » يشير الى قلة من اليهود كانوا يعرفون أنه نبى ، فكتموا إيمانهم حفظا لمكاناتهم ، ثم أخذوا يؤلبون عليه العرب واليهود معا . ومما يساعدنى على هذا الفهم قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » . فاتّهم بكتمان الحق فريقا ولم يتهم الفريق الآخر ، لأنهم كانوا آمنوا ؛ والمراد بأهل الكتاب أهل الحل والعقد منهم ، الذين يستطيعون النظر والاستدلال ، لا جمهرة الشعب ، بدليل أنهم فى حروبهم مع المسلمين سيموا الخسف ، وكُلفوا الجلاء والتجرد من المال والعتاد ، بل قبلوا القتل ، ولم يشهدوا للنبى صلى الله عليه وسلم بالرسالة ؛ ومثل هذا العناد الجنونى لو عُقل صدوره من رجل أو رجلين ، فلا يعقل صدوره من شعب برمته ، فيسلم آحاده أعناقهم للسيف وهم يرون نساءهم وولدانهم يولولون حولهم ، ولا يلفظون بألسنتهم ما يعتقدونه فى صميم أفئدتهم !

هذا غير معقول ، وكل غير معقول يؤول فى سبيله النص كما هى القاعدة الأصولية فى الاسلام ، فما ظنك بما ليس فيه نص محدود ؟ ونحن فى موضوع السيرة المحمدية بسبيل إظهار مكانة الاسلام من تمحيص الحقائق ، وتصفية المسائل ، إحلالا له فى محله من القلوب والعقول .

وقد حاول الأستاذ دحض ما قلته فى معنى قوله تعالى : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » ، فأورد الأستاذ خلاصة تفسيرى لهذه الآية وهو : « إن الذين فاضت أعينهم بالدمع هم النصارى المذكورون فى أول الآية ، وقد آمنوا ففاضت أعينهم بالدمع ، وليس المراد عموم النصارى » ، فعقب عليه الأستاذ بقوله : « فهل سمعتم أيها القراء بتفسير أعجب من هذا ؟ »

ذلك لأنى اعتبرت قوله تعالى : « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا ، الى قوله تعالى : وأنهم لا يستكبرون » فى حق النصارى ، واعتبرت قوله تعالى : « وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ، الخ » فى حق المسلمين .

والواقع أنى لم أفعل ذلك لأنى اعتبرت الآية خاصة بقوم من النصارى كانوا أسلموا وحضروا الى النبى صلى الله عليه وسلم وسمعوا منه . جاء فى تفسير إمام المفسرين الرازى قوله : « قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والسدى : المراد به النجاشى وقومه الذين قدموا من الحبشة على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وآمنوا به ، ولم يُرد جميع النصارى مع ظهور عداوتهم للمسلمين » انتهى .

وهذا صريح فى تأييدنا لا يحتاج لبيان .

ثم قال الامام الرازى عند تفسير قوله تعالى : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا » ما مؤداه : إن بعد النصارى عن الاسلام أشد من بعد اليهود عنه ، لأن النصارى يخالفوننا فى ناحيتين : الإلهيات والنبوات ، ولكن اليهود ينازعوننا فى النبوات فقط .

فهل فيما قلته أنا شطط وقد وافقت فيه إمام المفسرين ؟

وقد ألم الأستاذ بقولى : « إن سرعة التصديق صفة ذم » فقال : « إن سرعة الانقياد الى الحق إذا بهر ، والدليل إذا ظهر من أجل الصفات » . وأنا أوافق فضيلته على ذلك ، ولكن بين سرعة الانقياد للحق (إذا بهر) ، وللدليل (إذا ظهر) ، وبين سرعة التصديق ، بون بعيد ! فسرعة التصديق أن يتعجل فى التصديق قبل أن يتجلى الحق ، وقبل أن يظهر الدليل . وقد ذم الخلقيون جميعا هذه الخصلة ، وأفردوا لها فصولا من كتبهم . وقد حمى الاسلام أهله من الوقوع فى هذه النقيصة العقلية ، فكلفهم التثبت مما يعتقدون ، وزاد فطالبهم بالدليل عليها ، وأوعد على إهماله بتصريحه أن إيمان المقلد غير مقبول .

ولا تطرُّف فيما تحوَّط الاسلام أهله به من هذا التكليف ، فإن أهل كل أمة يزعمون أن الحق الباهر فى جانبهم ، فإن لم يك دليل يستندون اليه ، كانوا خابطين فى الأوهام ، وقانعين عن الحقيقة بالأحلام .

وقد استشهد الأستاذ بسرعة تصديق أبى بكر بالنبى صلى الله عليه وسلم . ولعله يذكر أن أبا بكر كان صديقا لرسول الله منذ صباه ، ويعلم من صدقه وورعه ما يعلمه عن نفسه ، فليس بعجيب أن يسارع الى تصديق نبوته ، ولكن العجيب أن لا يسارع الى تصديقها .

ثم أفاض الأستاذ ــ لأجل تسويغ مدحه لسرعة التصديق ــ فى ذكر ما لشخصية النبى صلى الله عليه وسلم من التأثير الروحانى ، وما للقرآن من سلطان على العقول والقلوب . هذا حسن أن يقال ويكتب ليتروح به (المؤمنون) . أما فى سبيل تمحيص الحقائق ، وتعليل الوقائع فلا ، ويجب أن يُرجع فى ذلك الى حكم القرآن . فالله يقول : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون » ، ويقول : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على

رجل من القريتين عظيم » ؟ ويقول : « وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ، أهذا الذى يذكر آلهتكم ، وهم بذكر الرحمن هم كافرون » .

ويقول الله فى أثر القرآن على قلوب (الكافرين) : « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين » ، ويقول : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى » ، ويقول : « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضل به إلا الفاسقين » .

هذا مذهب القرآن فى تقرير الحقائق ، وبيان الوقائع ، ووضع الأمور فى نصابها ، ورد المعلولات الى عللها ، ليتبين الحق من الباطل ، والرشد من الغى ، وليتضح جد الأسباب من هزلها ، ولباب العوامل من قشورها .

إيراد سهل الايراد :

حاول فضيلة الأستاذ تحت هذا العنوان أن يرد على ما قلته بأن الحروب التى حدثت بين النصارى والمسلمين تنفى كونهم مؤمنين بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن تقاتلهم لا ينفى أن النصارى مؤمنون فى صميم أفئدتهم بالنبى وبالقرآن الكريم ، مستدلا على ذلك بالحروب التى يوقد نارها النصارى بعضهم على بعض ، وهم متفقون فى الدين .

نقول : صدق الأستاذ ، إن بين أمم متفقة فى الدين الآن حربا تشيب لهولها الولدان ، وهى حرب دعت اليها عوامل اقتصادية كما هو بدهى ، وهذه العوامل توجب الشقاق بين أقرب القرابات ، ولكن منذ نحو خمسة قرون شبت حروب بين الكاثوليك والبروتستانت دُعيت رسميا باسم الحروب الدينية ، لأن الحوافز عليها كانت دينية محضة . وكانت قبل ذلك حروب اعتُرِف رسميا بأنها حروب دينية أيضا ، حدثت بين النصارى والمسلمين ودامت نحو أربعة قرون متوالية وُسمت بالحروب الصليبية ، اشتبكت فيها أمم أوروبا بالمسلمين فى آسيا وأفريقا ، وكانت سببا لفظائع انتقامية ترتعد لهولها الفرائص . فهذه حروب كانت بدوافعها وبالاسم الذى أطلقه عليها النصارى أنفسهم دينية محضة ، ولكن هذا النوع من الحروب قد بطل الآن لانتشار روح الزمالة الانسانية بين الشعوب ، وهذا غرض تساعد عليه روحا الاسلام والمسيحية على السواء .

وأراد فضيلته أن يقلل من قيمة ما استدللت به على تسارع أمم برمتها الى الاسلام كالفرس والترك وليس فى كتبها بشارات بالنبى ، ونكوص اليهود والنصارى عنه وفى كتبهم بشارات ، فقال : إن لإسلام تلك الأمم أسبابا شتى مثل التغلب النهائى على الأمة الفارسية وامتزاج المسلمين بهم .

ونحن نرد ذلك بأن الأمة الاسلامية تغلبت على إسبانيا وامتزجت بأهلها قرونا ، فلم يسلم أهلها ، بل أجبروا ألوفا من العرب حين تغلبوا عليهم على التنصر .

ثم علل فضيلته إسلام الأمة التركية بامتزاجها الكلى بالعرب . ونرد ذلك بأن الترك أسلموا قبل أن يمتزجوا بالعرب ، وقبل أن يطوف بخيالهم أنهم سيختلطون بالعرب فى بلادهم بعدة قرون ، فهم لم يتصلوا بهم إلا بعد فتح السلطان سليم لمصر سنة ٩٢٠ هـ .

* * *

نعود الى قصة هيرقل فنقول : كتبنا فى السيرة أن هيرقل لما وصله كتاب النبى صلى الله عليه وسلم يدعوه للاسلام ، أراد أن يسأل عن رسول الله من يعرفه من قومه ، فاتفق وجود أبى سفيان بن حرب ورجال معه ، فاستحضرهم وسأل أبا سفيان عن رسول الله فأجابه . وهنا زاد الرواة قولهم إن هيرقل مال الى الاسلام ، وأراد أن يحمل قومه عليه ، فجمعهم وعرضه عليهم فأبوا عليه ذلك وغضبوا ؛ فهدأ روعهم بأن زعم لهم بأنه إنما فعل ذلك ليختبر قوة تمسكهم بدينهم ؛ أوردت هذا الخبر وتشككت فيه فقلت : يعقل أن أمبراطور الرومان أراد أن يستقصى خبر النبى صلى الله عليه وسلم من قومه مباشرة ، فاستحضر من اتفق وجوده ببلده من العرب وسألهم . أما إسلام هيرقل ودعوته لقومه للاسلام ، فلا يمكن أن يعقل للأسباب التى بسطتها هناك ، لا لأن قيصر أكبر من أن يسلم ، ولكن لعدم كفاية الأسباب التى تدعوه للاسلام ، وهو بعيد عن صاحب الدعوة وعن أصحابه القائمين بها .

فرد علىّ فضيلة الأستاذ بأن التشكك فى قصة هيرقل لا يجوز لأنها واردة فى البخارى . فقلت له إن الوارد بالبخارى بسنده الصحيح هو ما جرى من الحديث بين هيرقل وأبى سفيان ، وقد سلمت به وقلت إنه معقول ؛ وأما خبر ميل هيرقل للاسلام وعرضه إياه على كبراء دولته ، وهو القسم الذى تشككت فيه من هذه القصة ، فهو وإن كان موجودا بالبخارى إلا أنه غير مروى بسند البخارى المعروف ، ولكنه مروى عن الزهرى عن ابن الناطور ، والتشكك فى صحته بل القطع بكذبه ، ليس فيه شىء لأن ابن الناطور ليس بثقة لا عند البخارى ولا عند غيره .

فجاء الأستاذ فى مقاله الأخير يقول ما مؤداه : وقد أراد الأستاذ (يعنينى) أن يتخلص من إنكارى عليه تكذيب صحيح البخارى ، فأورد ملاحظتين لا محل لهما ، لأن الحديث الذى أنكرنا تكذيبه ، وهو قصة هيرقل مع أبى سفيان ، ليس بمروى عن ابن الناطور ، وإنما هو مروى عن عبد الله بن عباس عن أبى سفيان .

وأنا هنا أصرح له بأنى لم أكذِّب حديث أبى سفيان مع هيرقل المروى بسند البخارى الصحيح وقلت إنه معقول ، وإنما كذَّبت بما زيد عليه مما روى عن ابن الناطور ، وهو أسقف دمشق مشكوك فى إسلامه . فيكون الأستاذ قد اتهمنى بتكذيب صحيح البخارى ولم أفعل .

يقول فضيلة الأستاذ : « ابن الناطور إما أن يكون قد أسلم كما ذكره ابن حجر فى فتح الباري ، وأن الزهرى لقيه فى خلافة عبد الملك بن مروان ، أو يكون قد بقى على كفره . فإن كان الأول فالأمر ظاهر ولا شك فى قبول روايته ؛ وإن كان الثانى فهو إنما شهد للاسلام لا عليه ، فشهادته للاسلام ليست موضع ريبة حتى تشترط فيها العدالة ، والفضل ما شهدت به الأعداء » .

نقول : إننا لا نستطيع أن نقر هذا المبدأ ، رجل مشكوك فى إسلامه ، أو أسلم حديثا ، لا يكون من التثبت الإسلامى أن نعتمد روايته على الفور قبل التحقق من عدالته بأدلة حاسمة . فإذا كنا لا نقبل أن يكون المسلم العريق راويا إلا بعد التحقق من ورعه ، وكمال سمته ، فهل نسرع الى قبول رواية من ينضم إلينا من أهل الملل بدون أن نبلو أمرهم ، وننتقد سِيَرهم ؟ ألا يجوز أن يكونوا قد التحفوا الاسلام ولم يستشعروه ليدسوا إليه ما ليس منه ، توهينا لأصوله ، وتشويها لجماله ؟ هل نسينا ما فعله الذين قبلوا الإسلام ظاهرا ، وهم يضمرون له السوء باطنا ، فأكثروا من وضع الأحاديث المنكرة على النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن صَبْغهم الإسرائيليات والمجوسيات بصبغ إسلامية لتروج بين العامة ، فاغتر فيها متكلمون كثيرون فى الشئون الإسلامية ؟

يقول فضيلة الأستاذ : وإن كان ابن الناطور لم يسلم فشهادته للإسلام ليست موضع ريبة .

نقول : إنه لم يشهد للإسلام ولكنه ذكر عن هيرقل كلاما لا يصدر عن أمبراطور رومانى ، بل ولا عن طفل أوتى مسكة من الرزانة ، وهو أن يحبس كبراء دولته فى كنيسة ويطلب إليهم أن يدخلوا فى الإسلام ! وهم بدل أن يقبضوا عليه ويُقصوه عن الحكم ، يحاولون الهرب منه ، فيجدون أنه أغلق عليهم الأبواب ، فيستدعيهم إليه ويكذب عليهم قائلا : إنما فعلت ما فعلت لأختبر إيمانكم ! !

متى كان إيمان رجال الدولة الرومانية الشرقية موضع ريبة حتى يعمد أمبراطورهم لاختبارهم ، وهل يختبر عياهل الأمم قوة إيمان رجال دولتهم على هذا الوجه المنافى لكرامة الرجولة ، ثم يتخلصون من تبعة فعلتهم بالالتجاء الى الكذب ؟

إن فضيلة الأستاذ بالغ فى إحسان الظن بهرقل هذا حتى جعله داعية للإسلام ، ونقل من بعض الروايات عنه أنه قال : « فلو كنت أعلم أنى أخلص اليه (أى الى النبى صلى الله عليه وسلم) لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه » ، واعتبره فضيلته من أكابر علماء الرومان ، ولو كان تقصى أمره لرأى أن النبى صلى الله عليه وسلم وسمه بأنه عدو لله وأنه كاذب .

جاء فى شرح صحيح مسلم للامام الوشتانى الأبِّى (ص ١٠٤ ج ٥) أن هيرقل أرسل مع

رسول الله كتابا قال فيه : إنه مسلم ولكنه مغلوب على أمره ؛ وأرسل الى النبي صلى الله عليه وسلم بهدية . فلما قرأ رسول الله كتابه قال : كذب عدو الله ، ليس بمسلم بل هو على نصرانيته » .

***

نعود الى إسلام النجاشي فنقول : قد ثبت من صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوما لأصحابه : مات أخ لكم في الاسلام هو نجاشي الحبشة ، وقاموا جميعا فصلوا عليه . ولم يذكر البخاري أنه هو الذي أرسل اليه رسول الله كتابا كما أرسل لسائر الملوك .

فجاء الامام مسلم فذكر في صحيحه أن النجاشي الذي صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، غير الذي أرسل اليه كتاب الدعوة ، فيلزم من ذلك أن الكتاب الذي شككنا في صحته لا محل له . لأنه لو كان لكتاب رسول الله جواب لكان من النجاشي الذي لم يسلم ، وهو لا يكون على النحو الذي استبعدنا صدوره من نجاشي الحبشة .

وإني إنما استبعدت أن يسلم نجاشيٌّ ويجاهر قومه بإسلامه ، لأنه تقرر تاريخيا أن الأحباش من الأمم الشديدة التمسك بدينها ، ولملكها مهام دينية ، واحتفالات رسمية لا بد له من أدائها ، فكيف لم يثر عليه شعبه ويسقطه ، ويصبر على هذه الكارثة الاعتقادية ؟

جاء في كتبنا الاسلامية أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخليفة كان منهمكا على اللهو والفجور ، واتُّهم بالتنصر ، فثارت الأمة عليه ، واقتحمت قصره ، واحتزت رأسه ، وحملته على سنان رمح ، وطافت به المدينة تشهيرا به وتشفيا منه سنة (١٢٢) ه . فهل يتورع متعصبة الحبشان ، عن مثل ما أقدم عليه المسلمون ، لو كان كاشفهم النجاشي باسلامه ؟

أما ماذكره الأستاذ عن كتاب النجاشي مريدا به الرد على ، فاني لم أذكر أن من دلائل وضعه ركاكته ، حتى يصح أن يرد على بأن صاحبه لم يترب في بادية بني سعد ولا في كلية السوربون أو جامعة اكسفورد ؛ ولكني قلت : « لظهور أثر الصنعة في كل عبارة من عباراته ، بل كل كلمة من كلماته » ومن يرجع اليه يتحقق مما قلت .

وقد افترض الأستاذ أن النجاشي كتب ذلك الكتاب بنفسه ، وليس هذا من العادات الملكية فإن للملوك كتابا يتولون الكتابة لهم .

أما تشدد فضيلة الأستاذ بأن النصارى كانوا في عهد من عهودهم ينتظرون رسولا رجلا بعد عيسى عليه السلام ، فاني أتحدى كل قائل بهذا أن يثبتها من كتب النصرانية ، أو من تاريخهم المحرر بأقلامهم .

***

إن غرضى من التشدد فى النقد نفى الأقاصيص الخرافية من السيرة النبوية ، حتى لا يستهين بها النابتة المتعلمة فى هذا العصر ، ويعدوها دون مستوى عقليتهم وثقافتهم ، لا سيما وأن كثيرا منهم يصرح علينا بأنه لا يمكن تجريد كتاب دينى من الحصة المناسبة لعقلية العامة منه ، فأردت أن أثبت بالعمل لهذا الفريق أنه يمكن أن يُكتب كتاب إسلامى على الأسلوب العلمى دون أن يُهدر منه أصل من أصول الدين ، ويكون فى الوقت نفسه مرضيا للخاصة والعامة معا وهذا ما فعلته فى كل مؤلف وضعته ، وقمت به فى هذه السيرة المحمدية أيضا .

إن ديننا ببيناته العقلية والحسية ، وبمعجزاته الأدبية والاجتماعية ، غنى غِنىً لا حد له عن التلفيقات القصصية التى تماشى عقلية العامة ، ولكنها تضر الخاصة فتجعل بينهم وبين الدين بونا بعيدا ، لأن العقل والقلب يتجهان عادة الى حيث يصادفان السمو . فإذا أردت لفلسفة أن تنجح فاعمل على إيصالها الى درجة السمو ، فان بلغتها فلا تكون فى حاجة الى دعاوة ، فما فيها من سمو يجذب إليها القلوب والعقول صاغرة ؛ والدين الاسلامى ، والحكمة القرآنية ، وسيرة النبى ، والانتقالات العقلية ، والانقلابات الاجتماعية التى سببها ، والثورة الأدبية العالمية التى أحدثها ، فى كل هذا من السمو ما لا تستطيع هممنا مجتمعة أن تقوم بحقه ، فهل نكسف هذا كله فى سبيل تصيد أقاصيص لا تثبت على النقد ، مع علمنا بأن عدد عديدا من الناقمين على الاسلام دخلوا فيه ظاهرا ، وانتووا إفساده باطنا ، فوضعوا عشرات الألوف من الأحاديث والأقاصيص ذات الدلالات الخرافية ، والتى ثمرتها نشر الحياة الإباحية ، وحل أواصر الجماعات الاسلامية ، متسترين تارة بالصوفية ، وتارة أخرى بالفلسفة اليونانية ، وهم بأى مظهر ظهروا عملوا على أن يفتنوا الناس بسَمْتهم الجميل ، وورعهم البالغ ، وزهادتهم المثالية ، وعباراتهم الخلابة .

إنى أعرف كتبا محشوة بالأضاليل طبعت عشرات من المرات ، وانتشرت بين الناس أيما انتشار ، وأثرت فى عقليات قرائها ونفسياتهم أعمق تأثير .

فالذى أرجوه من المتكلمين فى الاسلام اليوم أن يلاحظوا كل هذا ، وأن يتحروا السمو الذى هو الوصف المميز للاسلام ويظهروه ، وليس إظهاره بأن ينوهوا به تنويها فى ألفاظ محبرة ، ولكن فى أن يعملوا على مقتضى أسلوبه من التمحيص والتحقيق ، ويبلغوا بأنظارهم الى مَثَله الأعلى من التحليل والتركيب . ولست أستطيع أن أبين فداحة التبعة ، وخاصة فى هذا العصر ، من عدم اتباع هذه الطريقة ، فإن نتيجة إهمالها زيادة عمق الهوة التى بين الاسلام ، وبين شبابه المثقفين . فالإسلام امتلك قلوب العالمين بالسمو الذى ظهر به ، ولا يعيد دولته اليه إلا تجلية ذلك السمو الذى فيه ؟

محمد فريد وجدى

حياة رجالات الاسلام

أبو بكر الصديق

— ١٠ —

امتحان الرجولية

في مقالنا السابق رسمنا خطوة من خطوات الفلك في دائرة التاريخ الاسلامي كانت أشد وطأ على قلب الاسلام ، وأقسى امتحانا لايمان المؤمنين من جميع ما ضمت الحياة بين جنباتها من آلام وأهوال ، حتى تزلزت لها أقدام الراسخين ، وذهلت من هولها نفوس الصادقين ، وتفرد الصديق الأعظم رضى الله عنه ، فسما بإيمانه وعقله فوق مستوى العاطفة الى أفق الوراثة العظمى للنبوة الخاتمة في الدعوة الى الله ، وتبليغ دين الله وشرائعه الى الأحمر والأسود ، وثبت الله براسخ يقينه عروة الاسلام .

والآن نتحدث عن خطوة أخرى كانت امتحانا للرجولية عامة ، ووزنا لشخصية الصديق رضى الله عنه بميزان العظمة التي لا يستشرف اليها سوى بكر الاسلام ، ورفيق الغار ، فكان على مهيعه في مواقفه الاسلامية ، عبقريا نسيج وحده ، لا يطاول في رجوليته ، ولا يلحق في وثيق إيمانه ، ولا يدرك في سمو حكمته وحسن سياسته ، ولا يرام في شجاعته وقوة عزمه .

انتهت بيعة أبي بكر رضى الله عنه بالخلافة ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجًّى في بيته لمّا ينقل الى الروضة المطهرة ، فكان في ذلك رأب صدع الأمة ، وجمع شملها بعد ما كادت تعصف بها فتنة هوجاء تداركها الله بثاقب رأي الصديق وجليل حزمه ، وكان في ذلك أيضا وزن الايمان بميزان العقل بعد طغيان العاطفة من هول المصاب ، وهذه البيعة الصديقية كانت أول مظهر من مظاهر نظام الحكم الاسلامي في أول أطوار الأمة ومهد نشأتها ، فكانت بيعة قوية يقول فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر » وهذه القوة في بيعة الخليفة الأول أوضح عنوان على فهم المسلمين الأولين لقيمة الدين ومعنويته ، فهم لا يفهمونه محض تعبّد ورهبنة ، ولكنهم يفهمونه إصلاحا شاملا للفرد والجماعة ، ويفهمونه نظاما يرمى الى وحدة الإنسانية ، وسياستها سياسة حكيمة حتى تصل الى ما قدر لها من كمال ، وحتى تنطلق من القيود والأغلال التي كبلها بها دعاة الأديان فيمن سلف من الأمم ، ودعاة الحكم من المتألهين فوق عروش الاستبداد ، ودعاة العلم من المضللين والمشعوذين باسم العلم والفلسفة ؛ فالإسلام في نظر المسلمين الأولين لا يقيم للشخصيات مهما عظمت وزنا إلا بقدر ما لها من فضيلة تنهض بالمجتمع الانساني وترفع

من شأنه ، فهو يريد أمة يسودها العدل الفردي والاجتماعي ، ونعني به العدل الذي يهذب الحريات الشخصية ، ويهيمن على صلات الفرد بالجماعة ، والجماعة بالفرد ، بل يهيمن على صلات الانسان بغيره من الكائنات .

لم يكد يفرغ أمر البيعة حتى تقدم أبو بكر رضى الله عنه بين يدى الأمة التى ولته قيادها وأسلمته بعد نبيها زمام سياستها ، يرسم سياسته التى سيسير عليها ، ويعاهد الأمة عهدا ينتزعه من الدستور الأعظم ، يأخذ فيه من نفسه للأمة ، ويأخذ من الأمة لنفسه ؛ روى ابن الأثير فى التاريخ قال : « بعد أن تمت البيعة صعد أبو بكر المنبر فقال بعد حمد الله والثناء عليه : « أيها الناس وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ حقه له ، والقوى عندى ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله تعالى ، لا يدع أحد منكم الجهاد ، فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا الى صلاتكم رحمكم الله » .

وهذه الكلمات القليلة المعدودات ، ضمنها الخليفة الأعظم مبادئ الديمقراطية العادلة ، وأسس الحكومة الفاضلة ، ووضح فيها واجب الرعية وحقها على الراعى ، وبيّن واجب الراعى وحقه على الرعية ، وحدد سلطة الحاكم بدستور الطاعة لله ولرسوله ؛ فهل يدلنا المتشدقون من المولعين بالسياسة وأنظمة الحكم ، على نظام حكومى فى أية دولة من هذه الدول المتمدنة ، يعلن فيه رئيس الدولة حق الأمة فى هذه الصورة الباهرة كما أعلنه أول خليفة للأمة الاسلامية فى كلمته الخالدة ؟ وهل يدلنا علماء الاجتماع على أسس لتربية الحيوية فى الأمة وغرس مبادئ الرجولية فى أفرادها أفضل من قول أبى بكر رضى الله عنه : « لا يدع أحد منكم الجهاد ، فانه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ؟ » أفلا يشعر المسلمون اليوم أن ما هم فيه من ذل واستعباد إنما حل بهم من استمرائهم الترف والليونة المهينة ، وتجافيهم عن ذرائع الرجولية ، وتركهم الجهاد تزلفا الى هذه المدنيات الفاجرة ؟ !

كانت وفاة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوق كونها فى ذاتها أفدح نكبة منى بها الاسلام والمسلمون ، بابا ولجت منه فتنة عمياء بأحداث جسام ، فقد ارتد بعض العرب ، وتظاهر المنافقون ، واشرأبت أعناق اليهود ، والمسلمون فى همّ ناصب مع قلة عدد ، وزاد ذلك عليهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أمّر أسامة بن زيد على جيش ليتوجه الى الشام غازيا فى عدد من جند المسلمين عظيم ، وكان صلوات الله عليه شديد الرغبة فى توجه هذا الجيش ، فكثيرا ما كان يقول وهو فى مرضه : « أيها الناس أنفذوا جيش أسامة » . فأى عبء هذا الذى تحمل أبو بكر رضى الله عنه ؟ ولكنها الرجولية تؤدى امتحانها كما امتحن الايمان فرجح بإيمان الأمة جميعها !

تهامس الناس : العرب قد انتقضت علينا ، وفى جيش أسامة جند المسلمين ، وأسامة شاب لم تعركه التجارب ، فليرفعوا أصواتهم الى الخليفة قائلين · « إن جيش أسامة جند المسلمين ، والعرب قد انتقضت علينا ، فلا ينبغى أن تفرق عنك جماعة المسلمين » . ولكن أبا بكر ليس رجلا كالرجال ، بل هو شخصية أسمى وأرفع ؛ إنه كما قلنا ينزع من منبع النبوة ، ومن حديث النبوة الذى اتخذه أبو بكر أسوته فى هذا المقام : أن النبى صلى الله عليه وسلم فى مبدأ الدعوة تحدث اليه عمه أبو طالب حديثا ظنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعفا عن نصرته فقال لعمه : « ياعم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . وأبو بكر رضى الله عنه لم يكد يسمع ممن بلغه مقالة المسلمين حتى قال : « والذى نفس أبى بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته » ! نعم فلينفذ جيش أسامة ، ولكن ليول عليهم من هو أقدم سنا من أسامة ، فمن يكلم الصديق بهذا ؟ وهل غير عمر بن الخطاب يجرؤ على ذلك ؟ قال عمر : « إن الأنصار أمرونى أن أبلغك أنهم يطلبون إليك أن تولى أمرهم رجلا أقدم سنا من أسامة » . فما كان من الصديق إلا أن وثب حين سمع من عمر مقالته حتى أخذ بلحية عمر وقال : « ثكلتك أمك يا بن الخطاب ! استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه ، لو خطفتنى الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم » !

شيع أبو بكر رضى الله عنه جيش أسامة ماشيا وأسامة قائد الجيش راكب ، فقال له أسامة : ياخليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن ! فقال الصديق : « والله لا تنزل ولا أركب ، وما علىّ أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ، فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ، وسبعمائة درجة ترفع له ، وسبعمائة خطيئة ترفع عنه » . وفى هذا تكملة لدرس من دروس الصديق فى قصة أسامة ، فهو قد أراد أن يريهم فى نفسه مقدار تعظيمه لأسامة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاه قائدا ، وهو قد أراد أيضا أن يرغب المؤمنين ويقوى نفوسهم على الجهاد لتتمحض بالإخلاص رغبة فيما عند الله وتجافيا عن الدنيا ، ثم هو يزيد فى إظهار قدر أسامة فى نظر جنده وفيهم كثرة من جلّة الصحابة ، فيستأذنه فى أن يترك له عمر يستعين به لأنه كان جنديا من جنود أسامة فيأذن له فيه ، وفى ذلك بيان لقيمة قائد الحرب العسكرية فى نظر الاسلام .

توجه جيش أسامة فى وجهه ، فزحفت عبس وذبيان على المدينة ، وترامت الى المسلمين أخبار المتنبئين والمرتدين ومانعى الزكاة ، فشمر أبو بكر لقتالهم جميعا ، فتهيب المسلمون وفيهم عمر بن الخطاب ذلك القتال ، ولكن أبا بكر وهو وارث النبوة المحمدية الأول والقائم

على تراثها المجيد أبى إلا أن يمضى فى طريقه قدما وقال : « والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف بيـدى ، ولو منعونى عقالا كانوا يؤدونها الى رسول الله صلى الله عليه وسـلم لقاتلتهم » ! فقال له عمر : « وكيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله تعالى » ؟ فقال أبو بكر : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، وقد قال : إلا بحقها » . قال عمر : « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صـدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

قوة الإيمان إذا صادفت رجولية حركت الجبال الرواسى ، ولو أن ما نزل بالمسلمين فى أول خـلافة الصديق نزل بأعظم الدول وأقواها لعصف بها ، ولـكن أبا بكر انتهض للأمر لجدد الدين وأرسى قواعده ووجه الجيوش بعـد ذلك للفتح والهداية . وإنا لنجد خير ما نختم به الحديث عن سيرة الصديق الأعظم ـ والحديث عنه لا ينتهى ولا يمل ـ تلك الـكلمة العظيمة التى صورت بها شخصية الصديق أم المؤمنين الصديقية السيدة عائشة رضى الله عنها ، قالت : « أبى وما أبيه ؟ أبى والله لا تعطوه الأيدى ، ذاك طود منيف ، وفرع مديد ، هيهات كذبت الظنون ، أنجح إذ أكديتم ، وسبق إذ ونيتم ، سبق الجواد إذا استولى على الأمد ، فتى قريش ناشئا ، وكهفها كهلا ، يفك عانيها ، ويريش مملقها ، ويرأب شعبها ، ويلم شعثها ، حتى حَلِيته القـلوب ، ثم استشرى فى دين الله فما برحت شكيمته فى ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجدا يحيى فيه ما أمات المبطلون ، وكان رحمه الله غزير الدمعة ، وقيذ الجوانح ، شجى النشيج ، فانقضت إليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزئون « الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » فأكبرت ذلك رجالات من قريش فحنت قسيها ، وفوقت سهامها ، وامتثلوه غرضا ، فما فلوا له صفاة ، ولا قصفوا له قناة ، ومر على سيسائه حتى إذا ضرب الدين بجرانه ، ورست أوتاده ، ودخل الناس فيه أفواجا ، ومن كل فرقة أرسالا وأشتاتا ، اختار الله لنبيه ما عنده ، فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رواقه ، ومد طُنُبه ، ونصب حبائله ، وأجلب بخيله ورجله ، واضطرب حبل الإسـلام ، ومرج عهده وماج أهله ، وبُغى الغوائل ، وظنت رجال أن أكثبت أطماعهم نهزها ، ولات حين الذى يرجون ، وأنى والصديق بين أظهرهم ، فقام حاسرا مشمرا ، فجمع حاشيتيه ورفع قطريه ، فرد رسن الإسلام على غربه ، ولم شعثه بطبه ، وانتاش الدين فنعشه ، فلما أراح الحق على أهله ، وقرر الرءوس على كواهلها ، وحقق الدماء فى أهبها ، أتته منيته ، فسد ثلمته بنظيره فى الرحمة وشقيقه فى السيرة والمعدلة ، ذاك ابن الخطاب ، لله در أم حملت به ودرت عليـه ... فأرونى ماذا ترتأون ؟ وأى يومى أبى تنقمون ؟ أيوم إقامته إذ عدل فيكم ؟ أم يوم ظعنه إذ نظر لـكم ؟ ! أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولـكم » م ؟

صادق إبراهيم عرجون

التصوف والمتصوفون

— ٨ —

ابن الفارض

حياته :

ولد فى القاهرة فى سنة ٥٧٦ هـ وتوفى فى الأزهر فى سنة ٦٣٢ هـ وهى السنة التى توفى فيها عمر السهروردى ، وكان فى حياته التصوفية فريسة لأنواع كثيرة من الغيبوبة والاضطراب الى حد أنه كان أحيانا يظل ممتدا على الأرض بضعة أيام دون أن يبدى حراكا ، وأحيانا أخرى يتقلب ويتدحرج على سطح الأرض يمينا وشمالا دون أن يعرف أحد ما به . ومن الغريب أنه كان يصنع شعره على أثر هذه النوبات مباشرة .

منتجاته : أما أهم منتجاته فهو ديوانه المفعم بقصائد الحب والغرام والغزل والخمريات ، الى غير ذلك من القصائد التى يقولون إنها موجهة كلها الى الإله معشوقه الأعلى . ويلاحظ الأستاذ « كارادى فو » أن هذه المعانى — إذا صح أنها متجهة الى البارى — قد أديت بألفاظ خليعة شهوانية . ومن أشهر أشعاره تائيته التنسكية الطويلة التى يقول فيها :

وعن مذهبى فى الحب مالى مذهب ... وإن ملت يوما عنه فارقت ملتى
ولو خطرت لى فى سواك إرادة ... على خاطرى سهوا قضيت بردتى
لك الحكم فى أمرى ، فما شئت فاصنعى ... فلم تك إلا فيك ، لا عنك رغبتى

وقد أثبت فى هذه القصيدة أن الحب هو الوسيلة المثلى للسمو والاتصال بالذات الأوحد ، وهو الذى يحقق لصاحبه التفوق على جميع الكائنات ، وأن المحب هو سيد الأتقياء وأفضل المتنسكين الذين لا ينشغلون إلا بالزهادة والتقاليد الظاهرية ، وأرقى من الصنفين المتعارضين : الذى يتبع فى حكمه الشرع ، والذى يتبع العقل .

ومن قصائده الممتازة أيضا ميميته التى يقول فيها :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة ... سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

وقد كتب بعض المتأخرين شروحا لهذه القصيدة ، أقل ما يقال فيها : إنها مزيج من مذاهب الشيعة التى لا ترضى بأقل من أن تقحم عليا فى كل شىء حتى فى مذهب الحلول ووحدة الوجود .

محيي الدين بن عربى :

حياته : ولد محيي الدين أبو بكر محمد بن على بن عربى الحاتمى الطائى فى مدينة « المُورِّثيَّة » بالأندلس فى سنة ٥٦٠ هـ . وفى الثامنة من عمره بعثه أهله الى إشبيلية فدرس فيها الحديث والفقه حتى تضلع فيهما . وفى سنة ٥٩٠ هـ قام برحلات واسعة الى الشرق ، فزار مصر

وسوريا والحجاز وبغداد والموصل وآسيا الصغرى . وأقام فى مدينة قونية زمنا تزوج أثناءه بسيدة أيم ، وهى والدة صدر الدين القونى المتنسك المعروف ، ثم عاد الى سوريا فأقام بها حتى توفى فيها فى سنة ٦٣٨ ﻫ ودفن بالقرب من دمشق وقد هدم بعض المتعصبين قبره ، ولكن السلطان سليم حين فتح دمشق أعاد بناء هذا القبر وأسس بالقرب منه مسجدا جميلا .

مؤلفاته : كتب ابن عربى من المؤلفات عدداً أدهش الباحثين المستشرقين الى حد أن حمل أحدهم وهو الأستاذ « كليمان هوار » على أن يقول : إنها لكثرتها لا يحصرها الخيال ، وهى فى رأيه تبلغ نحو ثلاثمائة مؤلف . وقد نقل الاستاذ « ماسينيون » عن قائمة ابن عربى المعنونة : « فهرس الكتب المصنفة » أن عدد هذه المؤلفات أربعمائة وتسعة وثلاثون كتابا . وقد عثر الأستاذ « بروكلمان » المستشرق الألمانى منها على نحو مائة وخمسين كتابا فى مكتبات الشرق والغرب . ومن أهم هذه الكتب ما يأتى :

(أ) « الفتوحات المكية » وهو عرض تام لجميع المعارف الصوفية ، ودراسة كاملة لمناهجهم وتعاليمهم فى خمسمائة وستين فصلا تقع فى اثنى عشر جزءا . ويحتوى الفصل التاسع والخمسون بعد الخمسمائة منه على مجمل كامل للكتاب كله . وقد كتب الشعرانى المتوفى فى سنة ٩٧٣ ﻫ — ١٥٦٦ م . ملخصاً هاماً لهذا الكتاب . وحينما طلب ابن عربى الى ابن الفارض أن يكتب شرحا لتائيته أجابه بأنه لا يعرف لها شرحا خيرا من الفتوحات . (ب) « فصوص الحكم » وقد عرض فيه للرسل الخمسة والعشرين وأهميتهم وادعى أنه لم يكتب عن أى رسول منهم إلا بعد ظهوره له . وقد أتمه المؤلف فى دمشق فى سنة ٦٢٧ ﻫ . وطبع مع شرح بالتركية فى بولاق فى سنة ١٢٥٢ ﻫ . ثم أخذت منه صورة شمسية بالقاهرة مع شرح عبد الرازق القاشانى فى سنة ١٣٠٩ ثم فى سنة ١٣٢١ ﻫ .

(ج) « محاضرات الأبرار ومسامرات الأخيار » وهو مجموعة من النكت والملح والنوادر فى الأدب قد طبع فى القاهرة فى سنة ١٢٨٢ ثم فى سنة ١٣٠٥ ﻫ . (د) « مشاهد الأسرار القدسية » . (ﻫ) « الأنوار » (و) « إنشاء الدوائر » وقد عرض فيه مؤلفه لبيان مكانة الإنسان فى العالم . (ز) « حلية الأبدال » . (ح) « كيمياء السعادة » . (ط) « الإفاضة » وقد احتوى أنواع المعرفة الثلاثة الأساسية وهى معرفة الله ، والعالم العقلى ، والعالم الحسى . (ى) « ترجمان الأشواق » وهو مجموعة قصائد صوفية يوهم ظاهرها أنها غزل ووصف لحب مادى ، وقد كتب لها شرحا دفع به هذه التهمة التى قد وجهها السطحيون الى كتابه . (ك) « كتاب الأمر المحكم » . قد طبع مع ترجمة تركية فى الآستانة فى سنة ١٣٠٠ ﻫ . (م) « التجليات الإلهية » . (ن) « تاج الرسائل ومنهاج الوسائل » . (س) « تفسير سورة الضحى » . (ع) « كتاب الأجوبة على الرسائل المنصورية » . (ف) « أنا القرآن والسبع المثانى » . وهى قصيدة عصماء قد احتوت من الآراء التصوفية والوحدية ما لا يستهان به .

(ص) « الرسائل الالهية » قد طبع فى القاهرة فى سنة ١٣٢٥ هـ . (ق) « مواضع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم » طبع فى القاهرة فى سنة ١٣٢٥ هـ . (ر) « كتاب الأخلاق » طبع فى القاهرة بدون تاريخ .

وله كذلك من الكتب الفلسفية والتاريخية والأخلاقية ما لو حاولنا الحديث عنه لطال بنا المدى ، فآثرنا أن نقف عند هذا القدر ، معلنين أن هؤلاء الرجال الأفذاذ كان لهم على الحركة العقلية الشرقية والنهضة الأوروبية أثر غير ممكن الجحود .

مذهبه :

وحدة الوجود : عرض ابن عربى فى كتابه « فصوص الحكم » لكثير من النظريات الفلسفية ، ولكنه لكى يكون فى مأمن من مهاجمة المتعصبين قد مزج بتاريخ كل نبى من الأنبياء الذين تناول الكتابة عنهم فى هذا السفر شيئا من هذه النظريات ، ليضعها تحت حماية ذلك النبى على نحو ما يعبر أحد المستشرقين . فمن ذلك مثلا نظرية صدور العالم التى مزجها بتاريخ آدم فقرر أنه قد وقع فيضان : الأول هو الذى وجدت المادة المستعدة لتقبل الصور ثم أعدها لقبول الحياة الإلهية . والثانى هو الذى أنتج الوجودات الشخصية بإظهار الكائنات التى أريدت بهذا الإعداد . وعن الفيض الأول نتجت الجواهر المعينة أو الكليات واستعداداتها المحددة لها فى العلم الإلهى . وعن الثانى نتج التحقق الخارجى لهذه الأشياء ونتائجها المرادة منها .

وعنده أن هذا الفيض هو الحدث الذى به ينتج الفضل الالهى نور الوجود فى كل جوهر يستقبل الكائن دون أن يحصل انفصال بين الصورة المدركة فى علم الله والإله نفسه كما تستقبل المرآة صورة الانسان دون أن ينفصل من هذا الانسان وجهه المنعكس على المرآة . وإذاً ، فصدور الخلق عند ابن عربى هو شبيه بانعكاس المعلومات الإلهية على مرآة . وآدم هو عنده رمز لروح العالم أو هو لمعان هذه المرآة ، إذ أن الله أوجد العالم قبل آدم ، ولكنه كان وجودا غير حقيقى أى أنه كان ظلا محضا أو وجودا ماديا لا روح فيه ولا حياة كوجود الحمأ الذى صنع منه جسم آدم قبل نفخ الروح فيه ، فلما وجد آدم ظهر الوجود الحقيقى للعالم . ومن هذا يبين أن آدم هو المبدأ النورانى اللطيف الذى أتم الإله به الوجود ومنحه به حقيقته ، كما يبين أيضا أن غاية الإله من إيجاد العالم هى أن يرى فيه جوهره الخاص . وآدم هو المبدأ الروحانى الذى به تحققت هذه الرؤية ، فكان بالنسبة الى الإله كالانسان للعين (١) ؟ « يتبع »

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(١) انظر صفحة ٢٦ وما بعدها من كتاب الغزالى للبارون كارادى فو .

التفكر أس السعادة

رأيت أن أجعل موضـوع اليوم الـكلام فى التفكر وفائدته ونتائجه ، وبيـان أن سعادة الدنيا والآخرة لا تكون إلا بالتفكر الصحيح ، ولذلك حث الله عليـه وناط الخير كله به فى الآيات العديدة ، وقد قال زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهما : عجبت لمن يرى مخلوقات الله وما فيها من العجائب ثم يشك فيـه ! وعجبت لمن يرى النشأة الأولى ثم يشـك فى النشأة الآخرة ! وعجبت لمن يرى الدنيا وفناءها ثم يؤثرها على الآخرة مع صفائها وبقائها ! أو كما قال .

ورأيت أن سبب ذلك كله هـو الغفلة وعدم التفكر ، مع أن الأمر فى غاية الوضوح ، فالسموات شاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها فى طلوعها وغروبها ، والأرض شاهدة بما فيها من جبالهـا ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيـوانها ونباتها ، وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها ، ولا تتحرك ذرة فى السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هـو محركها ، وفى حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة ، وكل ذلك شاهد لله تعـالى بالوحدانية ، ودال على جـلاله وكبريائه وحكمته ، « فسبحان الذى بيده ملـكوت كل شىء وإليه ترجعون » .

وقد حث القرآن على التفكر فى هذه الآيات بأبلغ ما يكون وأقصى ما يتصور ، مثل قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » . الى غير ذلك من الآيات : « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » ، ومع ذلك فنظرك فيك يكفيك .

ففيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعـالى وما تنقضى الأعمـار فى الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه . ولا يزالون يكتشفون من أسرار ما أودع فى الانسان من العجائب حتى الآن والى ما شاء الله ، مثل الغدد وأعمالها ، ومثل المخ ونقطه التى نيط بكل منها وظيفة مخصوصة مما يحير اللب ويهيج القلب .

فيامن هو غافل عن نفسه وجاهل بها ، كيف تطمع فى معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر فى نفسك فى كتابه العزيز فقال : « وفى أنفسكم أفـلا تبصرون » ! وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال : « قتل الانسان ما أكفره ! من أى شىء خلقه . من نطفة خلقه فقدّره ثم السبيل يسّره » . ويقول : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » ،

ويقول : « ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوّى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » ؛ ويقول : « ألم نخلقكم من ماء مهين » .

وقد رأيت منذ زمان بعيد أن بعض الفلاسفة الأوربيين قال : يكفينى فى الدلالة على الله تعالى وجود الأنثى بجانب الذكر . وذلك ما أشار اليه القرآن العزيز فى قوله : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

فانظر أيدك الله الى النطفة وهى قطرة من الماء قذرة ، لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت ، كيف أخرجها رب الأرباب من الصلب والترائب ، وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة فى قلوبهم ، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة الى الاجتماع ، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع ، وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه فى الرحم ، ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذاه حتى نما وربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهى بيضاء مشرقة علقة حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهى متشابهة متساوية الى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ، ثم كيف ركب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة ، فدور الرأس ، وشق السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ ، ثم مد اليد والرجل وقسم رءوسها بالأصابع ، وقسم الأصابع بالأنامل ، ثم كيف ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء ، كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ، ثم كيف ركب كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أخر ، فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار ، فلو ذهبنا الى أن نصف ما فى آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لانقضت فيها الأعمار .

ولنقف بك اليوم هاهنا وموعدنا العدد المقبل إن شاء الله ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

بين رجال الدين والفلسفة (١)

— ٤ —

كنت أعتقد وقد كتبت الكلمة الثالثة أن المساجلة بيني وبين الأستاذ الجليل فريد وجدى بك قد انتهت بظهور الحق أيا كان موضعه وقائله، وأنه ليس عليّ بعد هذا إلا المضى فى السبيل التى اختططها للغاية التى قصدتها. ولكن، ولعل فى هذا خيرا، أجدنى مضطرا لبدء حديث اليوم بكلمات قصيرة تعليقا على الملاحظات التى جاءت لعزته بالعدد الماضى، راجيا أن تكون هذه الكلمات ختام المساجلة فى هذه المسألة بعد أن ضاقت شقة الخلاف، ووضح الحق الذى هو غايتنا جميعا من البحث :

(١) قلت : إن ما فى القرآن من الآيات التى يوهم بعضها التجسيم والتشبيه، وبعضها الجبر، وبعضها الاختيار، والآيات التى أشارت الى أمهات علم الكلام، كل ذلك يدفع الى هذا العلم. قلت هذا، وأردت به كما هو واضح أن هذا كله كان من عوامل نشأة علم الكلام لا العوامل كلها ؛ فرأى السيد الأستاذ أن يرده مقررا أن « لو كان فى الاسلام ما يوجب علم الكلام أو يسمح به لما كان هو الاسلام الذى أراد الله أن يجمع عليه كلمة الناس فلا يتفرقوا فيه »، واستشهد بآيات هى : « إن الذين فرقوا دينهم » الآية « فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا » الآيتين ؛ وأعتقد أن مثل هذا لا يصلح أن يكون ردا على ما قلت، وأن ما استشهد به من آيات لا يستقيم أن يكون شاهدا. القول بأن الله أراد أن يجمع على الاسلام كلمة الناس لا ينافى بأية حال القول بأن الآيات التى ذكرناها، وأمثالها مع عوامل أخرى، دعت لعلم الكلام حتى يزول ما بينها من تعارض. ومع حدوث هذا العلم والخلاف فى بعض مسائله، فالاسلام يجمع كل المتكلمين من معتزلة وغير معتزلة، إذ لم يختلفوا فى أصل من أصول الاسلام التى لا يقوم إلا بها، بل كان الخلاف فى شىء من التفاصيل فى بعض العقائد الدينية، وبذلك لا يكون علم الكلام والخلاف فيه متعارضا مع الاسلام الذى أراد الله أن يجمع عليه كلمة الناس.

أما الآيات التى أوردها السيد الأستاذ فمن الرجوع لبعض كتب التفسير المعتبرة يتبين فى أرجح الأقوال وأظهرها أن المراد بها اليهود والنصارى وسائر أصحاب الديانات المختلفة، لا فِرق أهل الكلام الذين لم يخرجوا بخلافاتهم عن الاسلام. ولهذا قرأ على بن أبى طالب فى الآية الأولى « إن الذين فارقوا » بدل « فرّقوا »، وكان يقول : والله ما فرّقوه ولكن

---

(١) سقط حرف بالسطر التاسع عشر صـ ٥٦٢ بالعدد الماضى فغير المعنى تماما ! فوجب أن يزاد هكذا : ألا تسمى فلسفة بدل أن تسمى فلسفة .

فارقوه . ولهـذا أيضا خوطب النبي صـلى الله عليه وسلم في الآيتين الأخريين بقوله تعالى : « فذرهم في غمرتهم حتى حين » أي ذر الـكفار يا محمد في جهالاتهم حتى يلقوا ما يوعدون . على أني لم أقرر فيما ذهبت اليه إلا الواقع الذي يؤيده تاريخ علم الـكلام ونشأته ، وهو ما ذهب اليه ابن خلدون حين عرض لعلم الـكلام وعوامل حدوثه إذ يقول ما نصه : « إلا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر منارها (لعله : مثاره) من الآية المتشابهة ، فدعا ذلك الى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة الى النقل ، فحدث بذلك علم الـكلام » (١)

٢ — لا أجادل في أن عـلم الـكلام كما يدرّس الآن بالأزهر لا غناء فيه ، وربما كان ضرره أكبر من نفعه ، ولي في هذا كلمة ستنشر إن شاء الله في العدد الذي على وشك الصدور من مجـلة الهداية الاسلامية . ولـكنى لا أستطيع ، ولا يستطيع غـيرى كذلك ، أن يوافق السيد الأستاذ على أن تأخر حدوث هـذا العلم حتى مضى قرن ونصف ـ كما يقول حضرته ـ دليل عدم غنائه . وإلا فكيف كان الرد على أرباب الملل والنحل والمقالات المخالفة والضلالات المنتشرة في تلك العصور ؟ وإلا كانت العلوم التي ظهرت بعد هذه المدة ـ وما أكثرها وأعظم خيرها ـ لا فائدة فيها أيضا ! ثم كيف يقول السيد الأستاذ بعد هذا : إن علم الـكلام هو الذي سبب ظهـور الخوارج ، مع أننا جميعا نعلم أن الخوارج ظهروا بعـد حادث التحكيم بين على ومعاوية عام ٢٧ هـ لا بعد مائة وخمسين عاما كما يقول عزته !

٣ — نحن لا نفاضل بين أنصار الحـكمة القرآنية وبين أشياع الفلسفة اليونانية وإن كان ما دعاه السيد الأستاذ رعونة جعلت هؤلاء يضطهدون مخالفيهم في فتنة القول بخلق القرآن ليس من الفلسفة ولا تدعو الفلسفة إليه . لقد كان هم الفلاسفة أن يعيشوا بسلام لا يعتدى عليهم ولا يعتدون ، ويرون السعادة في هذه العافية . فإن رأينا أحد من ينتسبون للفلسفة رأى اضطهاد المخالف لرأيه وسيلة من وسائل إقناعه ، لم يكن ذلك مما يعيبها .

٤ — وأخيرا قلنا في الـكلمة الماضية : إننا لا نحـكم على الاسلام وجميع أئمته وأعلامه بصنيع طائفة في زمن التأخـر والانحطاط وإذن فنحن على اتفاق مع الاستاذ « دريبر » وأمثاله في عدم اتخاذ الحوادث الفردية دليلا على عقلية أمة وروحها ، وإن كان ما وعاه التاريخ من هذه الحوادث التي تجلى فيها روح العداء من رجال الدين للفلسفة لا يجعلها حوادث فردية يجب ألا نلقى لها بالا . نعم من الحق أن نعتبر هذه الحوادث في الحـكم على العصر الذي كانت فيه ، دون أن نرى فيها طابعا يطبع الأمة كلها وفي كل العصور .

والآن بعد هذه الـكلمات ، التي نرجو أن تـكون فاصلة ، نستأنف الحديث في الموضوع الذي تصدينا لبحثه فنقول :

* * *

(١) المقدمة ص ٣٦٧ طبع مطبعة التقدم سنة ١٣٢٢ .

انتهينا فى الكلمة الماضية من استعراض موقف رجال الدين من الفلسفة فى الشرق الى نهاية القرن السادس الذى مات فى أواخره شهاب الدين السُّهْرَوَرْدِىّ . ولا يسع الباحث وقد وصل الى القرن السابع أن يغفل رجلا كان له خطره الكبير ، كما كان لفتواه فى هذه الناحية أثر بالغ استمر مع الزمن حتى أيامنا هذه ، وهو الإمام المحدث والأصولى الفقيه أبو عمر تقى الدين الشهرزورى المعروف بابن الصلاح المتوفى عام ٦٤٣ هـ . لهذا الفقيه الكبير مجموعة فتاوى فى التفسير والحديث والعقائد والأصول ، ومن بينها فتواه بتحريم المنطق والفلسفة تعلما وتعليما ، ووجوب استئصال شأفة من يعرف بشىء من هذه العلوم . ويكفى أن ننقل بعض عباراتها لنقف على شدتها وخطرها ، ولنعلم مبلغ ما كان لها من سلطان ظل قويا هذا الزمن الطويل :

سئل عن حكم الله فيمن يشتغل بكتب ابن سينا وتصانيفه ، فأجاب غفر الله له : « من فعل ذلك فقد غدر بدينه وتعرض للفتنة العظمى » ، لأن ابن سينا « لم يكن من العلماء بل كان شيطانا من شياطين الأنس » (١) وسئل عن حكم الشارع فيمن يشتغل بالمنطق والفلسفة تعلما وتعليما ، وهل يجوز استعمال المنطق فى إثبات الأحكام الشرعية ، وماذا يجب على السلطان إزاء من يتعلم ويعلم المنطق والفلسفة ؟ فأجاب إجابة طويلة جاء فيها : « إن الفلسفة أس السفه والانحلال ، ومادة الحيرة والضلال ، ومثار الزيغ والزندقة ، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة ، ومن تلبس بها تعليما وتعلما قارنه الخذلان والحرمان ، واستحوذ عليه الشيطان ! وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ، ومدخل الشر شر (٢) ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع . . . وأما استعمال الاصطلاحات المنطقية فى مباحث الأحكام الشرعية فمن المنكرات المستبشعة والرقاعات المستحدثة ، وليس بالأحكام الشرعية والحمد لله افتقار الى المنطق أصلا ! » وانتهى أخيرا بأن قال : « فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المياشيم . . . ويعاقب على الاشتغال بفنهم ، ويعرض من ظهر منه اعتقاد عقائد الفلاسفة على السيف أو الإسلام ، لتخمد نارهم وتمحى آثارهم ! . . ومن أوجب هذا الواجب عزل من كان مدرس مدرسة من أهل الفلسفة والتصنيف فيها والاقراء لها ، ثم سجنه وإلزامه منزله ، وإن زعم أنه غير معتقد لعقائدهم ، فان حاله يكذبه ، والطريق فى قلع الشر قلع أصوله ، وانتصاب مثله مدرسا من العظائم ! » (٣)

وهذا الحكم القاسى على الفلسفة والمنطق ، نجد له شبيها فى القرن الثامن فى رأى الذهبى فى الفلسفة الإلهية ، إذ يقول : إن الفلسفة الإلهية ما ينظر فيها من يرجى فلاحه ، ولا يركن

(١) فتاوى ابن الصلاح نشر منير الدمشقى عام ١٣٤٨ هـ ص ٣٤ (٢) يلاحظ هنا أنه استعمل المنطق دون أن يدرى فى الاستدلال على تحريمه . (٣) الفتاوى نفسها ص ٣٥

الى اعتقادها من يلوح نجاحه ؛ فان هذا العلم فى شق ، وما جاءت به الرسل فى شق ، وما دواء هـذه العلوم وعلمائها والقائمين بها علما وعملا إلا التحريق والإعدام من الوجود ، إذ الدين كان كاملا حتى عرّبت هذه الكتب ونظر فيها المسلمون ، فلو أعدمت لكان فتحا مبينا (١) .

على أنه فى رأينا أن ابن الصلاح لم يكن متفردا بهذا الرأى الخاطئ والحملة الآثمة على العلوم الفلسفية ، بل كان يعبر بفتواه عن الرأى السائد لجمهرة أهل السنة فى عصره . ولعل من الأدلة القوية على هذا ما امتحن به أحد معاصريه وهو سيف الدين الآمدى كما تقدم ذكره ، وموقف تاج الدين السبكى المتوفى عام ٧٧١ هـ ضد الفلسفة والفلاسفة ، بل ضد المتأخرين من المتكلمين الذين مزجوا الكلام بالفلسفة . ذلك أن السبكى يوافق تماما على فتوى ابن الصلاح والأئمة والمشايخ بتحريم الفلسفة ، وإن كان لا يذهب مثل ابن الصلاح الى تحريم المنطق تحريما تاما . وكيف يذهب الى هذا وهو يرى أن حجة الإسلام الغزالى اشتغل به وعنى بدراسته وألف فيه ! على أنه سجل لنا فى طبقاته أن الرأى العام ينسب ما كان للغزالى فى بعض المسائل من آراء لا تتفق ومذهب أهل السنة ، الى ما تأثر به من دراسته لعلوم الأوائل رجاء الرد عليها وبيان تهافتها (٢) . كذلك مما يبين لنا مقدار أثر فتوى ابن الصلاح ما ذكره السيوطى جلال الدين فى مقدمة كتابه « طبقات المفسرين » إذ يقول فى أثناء ترجمته لنفسه : « وقد كنت فى مبادئ الطلب قرأت شيئا فى علم المنطق ، ثم ألقى الله كراهته فى قلبى ، وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك ، فعوضنى الله تعالى عنه علم الحديث وهو أشرف العلوم » (٣) .

هذا ونختم الحديث عن مبلغ احتقار وكراهة الفلسفة والمتفلسفين فى المشرق فى العصور الوسطى ، بآراء ثلاثة من المؤرخين الثقات ، هم ابن خلدون ، والمقريزى ، وطاش كبرى زاده .

أما ابن خلدون المتوفى عام ٨٠٨ هـ فيرى فى مقدمته « أن الفلسفة مخالفة للشريعة ، فليكن الناظر فيها متحذرا من معاطبها » . (٤) وأما تقى الدين المقريزى المتوفى عام ٨٤٥ هـ فقد ذكر فى الفصل الخاص بعقائد أهل الإسلام ، منذ ابتداء الملة الاسلامية الى أن انتشر مذهب الأشعرية : أن الفلسفة بعد أن انتشرت فى الناس بسبب ترجمة المأمون لكتبها ، أقبلت المعتزلة والقرامطة والجهمية وغيرهم عليها وأكثروا من النظر فيها ، « فانجر على الاسلام وأهله من علوم الفلاسفة مالا يوصف من البلاء والمحنة فى الدين ، وعظم بالفلسفة ضلال أهل البدع وزادتهم كفرا الى كفرهم »(٥) . بقى طاش كبرى زاده صاحب كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة . لقد تكلم فى المقدمة الثانية من كتابه على شرائط التعلم ووظائفه ، وحث المتعلم على

(١) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على ج ٢ ص ٤٣ . (٢) طبقات الشافعية ج ٥ ص ١١٠ عن التراث اليونانى ص ١٣٣ . (٣) التراث اليونانى ص ١٦٥ . (٤) المقدمة ص ٤٣٢ .
(٥) الخطط طبع مطبعة النيل بالقاهرة عام ١٣٢٦ هـ ج ٤ ص ١٨٣ — ١٨٤ .

ألا يدع فنا من فنون العلم دون أن ينظر فيه نظرا يطلع به على غايته ومقصده وطريقته ، وحذر من الاستهانة بعلم المنطق الذى هو أصل كل علم وتقويم كل ذهن ، لكنه بعد هذا حذر من أن نطلق اسم العلم على « الحكمة المموهة التى اخترعها الفارابى وابن سينا » . كما وصف حكماء الإسلام بأنهم طائفة « عكفوا على دراسات ترهات أهل الضلال وسموها الحكمة ، وربما استجهلوا من عرى عنها ، وهم أعداء الله وأعداء أنبيائه ورسله ، فالحذر الحذر منهم ؛ والاشتغال بحكمتهم حرام فى شريعتنا ، وهم أضر على عوام المسلمين من اليهود والنصارى لأنهم يتسترون بزى أهل الاسلام » . (١) على أنه بعد هذا الحكم الشديد جدا ، والذى لا أساس له من الحق ، أباح النظر فى علوم الفلسفة لمن رسخت قواعد الشريعة فى قلبه بشرط ألا يتجاوز مسائلهم المخالفة للشريعة إلا للرد عليها ، وألا يمزج كلامهم بكلام علماء الاسلام » (٢) .

***

والآن وقد عرفنا معرفة يؤيدها الدليل موقف أهل السنة ورجال الدين من الفلسفة ورجالها فى المشرق ، ننتقل الى مثل ذلك فى المغرب ، لنتعرف عوامل هذا الموقف ، وليظهر أنه كان طبيعيا وضروريا أن يعنى فلاسفة الاسلام قبل كل شىء بمحاولة التوفيق بين الدين والفلسفة ، ثم لنتخلص بعد هذا كله للكلام على محاولات هذا التوفيق ، إذ كانت هذه المحاولات فى رأينا أبرز جهود الفلاسفة المسلمين ؛ إذ فيها ظهرت روحهم وروح الاسلام واضحة جلية ، وبها أمكن أن يقال إن للمسلمين فلسفة خاصة ، وأنهم فعلوا شيئا أكثر من نقل الفلسفة اليونانية بحروف عربية كما يتجنى بذلك عليهم « أرنست رينان » الكاتب الفرنسى المعروف .

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

كلمة أخرى فى الموضوع نفسه

يتمنى فضيلة الأستاذ صاحب مقالات (بين رجال الدين والفلسفة) أن لو كان انتهى دور التعقيب على مقالاته ؛ ولكن مهمتى فى هذه المجلة تضطرنى الى ذلك ، لا سيما والموضوع الذى يكتب فيه حضرته ، من أكثر الموضوعات اتصالا بمعنى الاسلام ، وبمهمته الروحية والاجتماعية فى النوع البشرى .

وإنى قبل البدء فى الموضوع الذى أريد أن أكتبه اليوم ، أرى أن أعيد ذكر ما سبق لى قوله:

(١) ج ١ ص ٢٦ من الكتاب المذكور . (٢) نفسه ج ١ ص ٢٦ أيضا .

وهو أن الاسلام ليس بدين خاص بأمة ، كـكل الأديان التى سبقته ، ولـكـنه شرع آخرها جميعا ليكون دينا عاما للناس كافة ، توحيدا لوجهاتهم الى غاية واحدة ، ليصلوا الى أسمى ما قدر لهم من رقى صورى ومعنوى ، إخوانا مترافدين متعاونين .

النصوص القرآنية التى بين أيدينا تصرح بأن الله أرسل للسابقين رسلا ، وأوحى اليهم كتبا ، تهدى الى طريق الحق ، وتأخذ بيدهم الى الحياة الطيبة ؛ فـكانوا لا يلبثون أن يختلفوا ويتنازعوا فى تأويلها ، حتى يُخرجوا الدين عن صراطه ، ويصبح عقبة فى طريقهم الى الترقى ، بعد أن كان أقوى دافع لهم اليه .

فلما بلغ العقل رشده بعد طول مراسه للحوادث ، وسهل الاتصال بين الأجزاء المأهولة من الأرض ، واستعدت النفوس لقبول مبدأ وحدة الانسانية ، شرع الله للناس الاسلام ، وأرسل محمدا خاتما للأنبياء ، وأوحى اليه كتابا حوى النهايات القصوى لمطامح القلوب والعقول ، والمُثُل العليا لـكل ما تقتضيه الحياة الأدبية والاجتماعية ؛ وناط به حل جميع الخلافات الدينية لدى الأمم ، وإزالة ما أوجده سوء الفهم من بعضهم ، والغلو أو التقصير من بعضهم الآخر ، والضلالات من كل ضرب عند جميعهم .

وقد نص القرآن الـكريم على هذا ، ونحن نورد بعض الآيات الواردة فيه ، ليتضح فى أكمل مجاليه ، قال تعالى : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ، الآية » .

وقال سبحانه : « كان الناس أمة واحدة (أى فاختلفوا ، وهى محذوفة هنا) ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الـكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم » .

وقال سبحانه : « ولقد آتينا موسى الـكتاب فاختُلف فيه » .

وقال سبحانه : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، فما أصبرهم على النار! ذلك بأن الله نزل الـكتاب بالحق ، وإن الذين اختلفوا فى الـكتاب لفى شقاق بعيد » .

وحـذر المسلمين من أن يلتاثوا بأدواء الأمم ، فيقعوا فى الخلافات مثلهم ، فقال تعالى : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » .

وصرح لهم بعـد ذلك بأن أخص مهام القرآن إزالة الخلافات الدينية ، ومحق المماحكات المذهبية ، وقد سُمى بوصفه المميز له ، فدُعى بالفرقان لتفرقته بين الحق والباطل ، فقال تعالى :

« تالله لقـد أرسلنا الى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم ، فهو وليهم اليوم ولهم عـذاب أليم » .

« وما أنزلنا عليك الـكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وهـدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

إن ديننا هذا شأنه فى ذم الخلافات الدينية ، وفى حصره مهمته فى رفع هذه الخلافات بين البشر ، لا يصح أن يكون هو نفسه ـ بجناية بعض أتباعه عليه ـ محلا للخلافات ، ومثارا للمنازعات ، فيحتاج لغيره فى رفع هذه الخلافات منه ؛ كما لايصح أن يكون المنطق الذى جُعل للتفرقة بين الصحيح والسقيم من المعقولات ، محلا للخلاف بين الناظرين ؛ فيحتاج الى منطق آخر لرفع ذلك الخلاف .

لهذا قلنا : إنه لو كان دين تأبى طبيعته علم الكلام لكان هو الاسلام .

هنا قد يقال : وماذا يُعمل فيما يحتمل النقيضين فى بعض الآيات ، وما يوهم التجسيد والتشبيه فى البعض الآخر ؟

نقول : لقد كفتك خصائص اللغة والكتاب نفسه هذه المؤنة ، فاللغة أزالت بمجازاتها واستعاراتها وكناياتها كل ما يوهم التجسيد والتشبيه ؛ والكتاب منعك بآية المحكم والمتشابه من تناول مالا تدركه من شئون ما فوق الطبيعة بالشرح والتأويل . وهو لم يفعل ذلك وفى قدرة العقل البشرى الوصول الى حل معاضله ، بدليل أن عددا لا يحصى من الناس أمضوا أعمارهم فى البحث والكلام فيها ، وبادوا وخلفتهم أجيال كثيرة فعلوا مثل فعلهم ، وما تزال هذه المعاضل ماثلة فى جميع الأديان بدون حل ، فما الذى كان يمنع المعتزلة وأصحاب الفرق أن يطيعوا الكتاب ، ويكفوا أنفسهم شر تمضية العمر فيما لاطائل تحته من التمارى والملاحاة ؟

يقول فضيلة الأستاذ ردا علينا : إنه مع حدوث علم الكلام فان الاسلام يجمع كل المتكلمين ، لأنهم لم يختلفوا فى أصل من أصوله ، ولا فى شىء من تفاصيل بعض عقائده ، وبذلك لا يكون علم الكلام والخلاف متعارضا مع الاسلام الذى أراد الله أن يجمع عليه كلمة الناس .

وقال فضيلته : إن الآيات التى استشهدتُ بها أنا فى عدم جواز التفرق فى الدين ، إنما نزلت فى أهل الكتاب وسائر أصحاب الديانات ، لا فى المسلمين .

فأما أن الخلافات إذا لم تكن فى أصل من أصول الدين فلا يكون بها باس ، فهو صحيح ، ولكن إذا كانت على نحو ما يحدث بين الاخوان المتحابين ، ولم تصل الى حد التحزب والتحيز الى ناحية ؛ وقد ضرب المسلمون الأولون فى القرنين الأول والثانى أحسن الأمثال فى ذلك ، فكانوا يتخالفون ويتفاهمون ، أو يصر كل فريق على رأيه ، ولا يحملهم ذلك على التحيز ولا التحزب ، ووقوف بعضهم إزاء بعض متحفزين للوثاب .

ولكن لما نشأ المتكلمون نشأت معهم نزعة الجدل والمماراة ، وهى النزعة التى تطورت الى فتن أريقت فيها الدماء ، متناسين قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ضل قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدل » .

وقد نتج من هذا التحزب نزوع من كل فريق الى لفت النظر الى نفسه ، بإثارة المناظرات ، وإهاجة المساجلات ، وعرض المشكلات ، والإكثار من الافتراضات ، وكلها من الأمور المحظورة فى الاسلام ، الداعية الى العناد والخصام .

وقد تحوّط رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته عن الوقوع فى فتنة الكلام ، فنهاهم حتى عن المسألة فقال : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرةُ مسائلهم ، واختلافُهم على أنبيائهم » رواه البخارى ومسلم .

ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يرخص فى المسائل إلا لأهل البوادى والوفود ، فكان أصحابه يفرحون لورود هؤلاء ليسمعوا أجوبة النبى على مسائلهم . قال البراء بن عازب : إن كان لتأتى علىّ السنة أريد أن أسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن شىء فأتهيب منه ، وإن كنا لنتمنى الأعراب .

هنا قد تغمض حكمة نهى النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه عن السؤال فنقول : قد يتولد عن السؤال زيادة تشديد فى التكاليف ، والإسلام مبنى على التيسير لا على التعسير ، فلذلك شدد النبى صلى الله عليه وسلم على أصحابه أن يمتنعوا عن سؤاله ، مكتفين بما أمرهم بالقيام به ، وما أوعز إليهم باجتنابه ؛ ولو كان أطلق لهم الحرية فى سؤاله ، لكانت أخذت التكاليف الدينية شكلا من التعقد والصعوبة تخرج به عما بنى عليه الاسلام ، ولوجد الناس عنتا شديدا من العمل به .

وقد مضى المسلمون على هذه السنة نحوا من مائة وخمسين سنة ، كانت أكثر بركة عليهم من جميع القرون التى تلتها حتى يومنا هذا : فقد ألفوا فيها جماعتهم ، وأقاموا دولتهم ، ونشروا ديانتهم ، وفتحوا ممالك لم يتسن لأكبر دولة فى الأرض – وهى الدولة الرومانية – أن تبلغ شأوها .

فلما التاث المسلمون بداء الأمم الموجودة من التحزب فى أديانها ، والتفرق فيها ، والاشتغال بالجدال والمماراة ، والتوسع فى القيل والقال ، ضاع معنى الاسلام ، ودب الى جثمان دولتهم الضعف ، واستحال الضعف الى جمود أدبى واجتماعى لا نزال فيه الى اليوم .

قال فضيلة الأستاذ : إن الآيات القرآنية التى أوردتها أنا فى الزجر عن التفرق كقوله تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » ، إنما نزلت فى أهل الكتاب وغيرهم لا فى المسلمين ؛ وأنا أوافقه على ذلك بل هو من البداهات العقلية ، ولكن أليس فى طيه نهى رادع للمسلمين عن احتذاء شاكلة من سبقهم ، إذ لا يُعقل أن يسمح لهم بما يعيب عليه غيرهم ؟

قال الأستاذ الفاضل : إن مضى قرن ونصف قرن على المسلمين وهم فى غنى عن علم الكلام ، لا يدل على عدم فائدته ، وإلا فكيف كان يُرد على أرباب الملل والنحل ، والمقالات المخالفة ، والضلالات المنتشرة فى تلك العصور ؟

نقول : إن الضلالات التى كانت انتشرت فى تلك العصور ، نشأت كلها من علم الكلام ، وهو أمر طبيعى لا يمكن التشكك فيه ، فمتى سمح المسلم لنفسه أن يعدى القرآن ، وينظر فى تأويل المتشابهات التى نهى الله عن محاولة تأويلها ، لاستحالة ذلك بالعقل العادى ، تأدى الى مجهولات ، فيضطر إما الى تأويلها فيأتى بما لا يقول به ذو عقل ، وإما الى الكفر بها ، واعتبار كفره مذهبا تصح الدعوة اليه ، والمناخة دونه بكل سلاح .

كل ما يمكن أن يقال ليس بداع مشروع فى نظرى لوجود علم الكلام ، أليس القرآن بكاف فى رد هذه الضلالات ، وكبت تلك الغوايات ؟ أليست حججه وبيناته وأسلوبه ، فى أرفع ما يمكن أن يتصوره العقل من درجات الاقناع ، وأعلى ما يتخيله من قوة التأثير ؟ أهو فى حاجة لما يقوم الى جانبه ليقوى حملاته ضد الكفرة والمبتدعة والمشاغبين ؟

إذا صح ما قيل من أن هذه الأمة لا يصلحها إلا ما صلح به أولها ، فإن الصدر الأول من المسلمين كانوا يكرهون أن يكون للدين غير كتاب مدون واحد ، هو القرآن ، تحرّجوا على أنفسهم أن يكتبوا أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم . لبثوا على ذلك نحو مائة سنة حتى حبب الى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أن يجمع تلك الأحاديث ، فأمر الامام الزهرى بأن يتولى ذلك ، فجمع حفاظها وقاموا بتدوينها .

فهل كان يسمح أولئك المسلمون الأولون ، وقد منعوا تدوين الأحاديث ، بأن تقوم الى جانب القرآن ، آراء وخيالات بشرية مدونة ، تدعى تأويل ما قرر استحالة تأويله منه ، والمناخة عنه ، كأنه لا يغنى عن نفسه حيال الخصوم ؟

إن محاولة كشف ما وراء المحسوس حاجة من حاجات العقول ، وللمؤمنين به أن يملأوا كتبا فى التحسس منه . ولكن لحساب الثقافة العامة الدائمة التحول والتطور ، لا لحساب الدين الثابت المنزه عن التحول ؛ فان ما قد يروج منها فى عصر ، لا يصح أن يكون له سلطان فى كل العصور وعلى كل العقول . وما كان هذا شأنه لا يجوز أن يُسلط على كتاب الدين لأنه قد يضر قضيته أكثر مما يفيدها . فمن يرجع الى أدلة علم الكلام القائم اليوم يجدها غير كافية فى التدليل وفى نفى الشبهات ، بَله أن كثيرا منها وهمى ليس من الواقع فى شىء ، وما نستبدله به اليوم سيعتريه ما اعترى سابقه بعد حين لا محالة ؛ فماذا يكون أثر هذا القصور على المعاصرين وأخلافهم ونحن فى طور الدليل المحسوس ؟

* * *

قال الأستاذ الفاضل : وكيف يقول السيد الأستاذ بعد هذا بأن علم الكلام هو الذى سبب ظهور الخوارج ، مع أننا جميعا نعلم أن الخوارج ظهروا بعد حادث التحكيم بين على ومعاوية سنة (٣٧) الخ ؟

أقول : كنت أود لو كان الأستاذ الفاضل معتقدا بأن هذا لا يكون من مثلى إلا خطأ قلميا ، وبأنى أعرف الخوارج قبل الكثيرين غيرى ، وبأنى نظرت فيهم نظرات علمية قبل أن يطوف خيال منها برأس أكثر الكاتبين ، وبأنى قد دونت تاريخ الخوارج بقلمى فى (دائرة معارف القرن العشرين) فى المجلد الثالث منها صفحة (٦٩١) فقلت :

« (الخوارج) - : كل من خرج على الامام الذى اجتمعت عليه الأمة يسمى خارجيا ؛ وأول من خرج على على أمير المؤمنين قوم ممن كانوا معه فى صفين ضد معاوية لما نازعه فى الخلافة ... الخ الخ

« كبار فرق الخوارج ستة : وهم الأزارقة ، والنجدات ، والصفرية ، والعجاردة ، والاباضية ، والثعالبة ، والباقون فروعهم ... الخ الخ

« كان خروج الخوارج فى الصدر الأول على أمرين ... الخ الخ » .

فالذى يدون بقلمه ما رأيت لا يجهل الخوارج ، وإنما قصدت أن أكتب (الفرق) فكتبت الخوارج سهوا .

قال الأستاذ : « وأخيرا قلنا فى الكلمة الماضية (يريد الرابعة) إننا لا نحكم على الاسلام وجميع أئمته وأعلامه بصنيع طائفة فى زمن التأخر والانحطاط ، وإذن فنحن على اتفاق مع الأستاذ (دريبر) وأمثاله فى عدم اتخاذ الحوادث الفردية دليلا على عقلية أمة وروحها » .

نقول : لو كان الأستاذ كتب هذه العبارة فى مقالته (الأولى) ، لما كنا عقبنا على كتاباته بحرف واحد . فعلام التعقيب على مقالات قصد بها ذكر تاريخ بعض الجامدين الذين كانوا يقفون فى وجوه المفكرين لصدهم عما يبيحه لهم الاسلام من حرية البحث ؟ ولكنى لأجل تبرئة نفسى من وصمة التجنى أقول له : إن المقال الأول للاستاذ كان يقتضى التعقيب أو الاهمال ، فآثرت له الأول حرصا على مبدأ حرية الرأى لأمثاله من المفكرين المجددين . ولست أود إعادة ما قلت ، فإذا شك فى ذلك قارئ فليرجع الى ذلك المقال ؟

محمد فريد وجدى

التثبت فى العلم

قال الله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

وقيل لمحمد بن عبد الله بن عمر : ما هذا العلم الذى بنتَ به عن العالم (أى بعدت به عن الناس واعتزلتهم) ؟

قال : كنت إذا أخذت كتابا جعلته مزرعة .

وقيل لمصقلة : ما أكثر شكك ؟ قال : محاماة عن اليقين .

العيـــــــد

للمصريين فى قضاء الأعياد أساليب مختلفة باختلاف الطوائف ، وتفاوت حظوظها من الثقافة والثروة ، وتمكن سلطان العادات والتقاليد من نفوسها . فطائفة منهم تستن فى الأعياد بسنة الاسلام ، فتحيي ليلة العيد والناس نيام ، وتتجنب الآثام ، وتمتنع عن هجر الكلام ، وتصل الأرحام ، وتعطف على الأيتام ، وتؤدى فى الجملة حقوق الله وحقوق الأنام ، وهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم .

وطائفة أولعت بتقليد الغربيين فى الأعياد ولوعها بتقليدهم فى غيرها ، وجرت فى هذا المضمار الى الغاية ، والتزمت فى الأعياد والمواسم ما التزموه ، فتحيي ليلة العيد باللهو والمجون ، والقصف والشراب ، والأنس بالأحباب ، وتغدو يومه الى المتنزهات ، وتروح بالآثام ، وتقبض أيديها عن الحلال وتبسطها فى الحرام .

وطائفة لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، وهى طائفة العامة من الشعب ، وهى الكثرة الغالبة ، تحاول أن تلحق الطائفة الأولى فيقعد بها جهلها بالدين وأحكامه وما ورثته عن الأجيال السابقة من عادات وتقاليد ، وتحاول اللحاق بالثانية فيقعد بها حظها من المال والثروة ، فهى الطائفة الحائرة :

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن   وإن لقيت معديا فعدنانى

فسلوكها فى الحياة وأسلوبها فى الأعياد والمواسم خليط مشوش من تعاليم الاسلام ، وتقاليد الأغيار . تلهو يوم العيد إلا أنها تسرف فى اللهو وتخرج به أحيانا عن حدود الآداب ، وتظهر فى مظاهر تسودها الفوضى ، وينكرها الذوق ، وتأباها المروءة ، وترسم فى أذهان الأسر الكريمة لهذا اليوم صورا رهيبة ، تفضل من أجلها الاستكنان فى المنازل على الخروج للاستمتاع بنصيبها من سرور ذلك اليوم وبهجته ، فالمتنزهات والمسارح ودور السينما والطرقات تفيض فى ذلك اليوم بما يجرح الشعور ، ويؤلم النفس . وليس المقام بمحتاج الى ضرب الأمثال ، وحسب القراء ما يعرفون .

وقد يكون من أشد المظاهر منافاة للدين والكرامة والشعور ، مظاهر زيارة القبور فى أيام الأعياد ، وما تلقاه الفضيلة فيها من الاستخفاف والامتهان ، تلك المظاهر التى ضج لها العقلاء ، وبحت منها أصوات المصلحين ، وشغل بها العلماء والوعاظ ، وسنت لها النظم ، ثم ذهبت هذه الجهود هباء ، ومازالت تلك المظاهر تتكرر على صورها السابقة ، بل أشد منها نكرا وما زال زوار القبور يتخذونها أندية للهو ، ومباءات للفجور ، وما تزال « عربات الكارو » تحمل قبيل العيد الى المقابر أكداس الزائرين والزائرات ، وصناديق الأطعمة ، وأمتعة الاقامة .

ومن الغريب المخجل أنك تجد بعض (العربات) قد تحولت فى طريقها ذاهبة أو راجعة الى حلقات للهو والتفريح ، وقام فيها من يطبل أو يزمر أو يرقص أو يطنز ، ويسعده من حوله بالحركات والأصوات والآهات . هذه بعض مظاهر السرور والمرح لهذه الطبقة فى الأعياد والمواسم ، وهى الطبقة الغالبة فى الشعب كما أسلفنا ، وليس من شك فى حاجة هذه المظاهر الى الصقل والتهذيب ، كما أنه ليس من شك فى أن المطالب بذلك والمسئول عنه الآن وزارة الشئون الاجتماعية ، وإذا طالبنا وزارة الشئون الاجتماعية أن تنهض بهذه المهمة وتقوم بدور المصلح فانا نطالب الجهة الرسمية ذات الاختصاص بما هو من صميم عملها .

وفى الوقت الذى نطالبها بأن تتناول هذه المظاهر بالتنظيم أو تستبدل بها مظاهر مستساغة توفر للمصريين ، وخاصة كرام الأسر ، الاستمتاع بنصيبها من مرح هذه الأيام ومناظر الابتهاج فيها دون تعرض لمضايقة ، ودون جرح للشعور والكرامة . فى هذا الوقت نقدر خطر هذه المهمة وما يعترضها من صعوبات وراثية وتقليدية تسيطر على عقول الشعب وعواطفه .

غير أنه لا ينبغى أن تثنينا هذه الصعوبات عن العلاج ، فكل شىء يبدو فى أوله عسيرا خصوصا فى النواحى الاجتماعية، ولكن مرور الزمن وتضافر الهمم والشعور بضرورة العلاج كل أولئك يدنى من الأمل ويقرب من الغاية .

ومما يتصل بحديث العيد ولا نرى بأسا فى عرضه على الشعب وعلى وزارة الشئون الاجتماعية فكرة نرجو أن تجد منهما حظا من القبول واستعدادا للتنفيذ . هذه الفكرة هى استغلال عاطفة الخير فى الاصلاح الاجتماعى وقدرة الأفراد على البذل فى أيام الأعياد . فلا ريب أن عاطفة الخير فى أيام الأعياد تكون قوية فى نفوس الأفراد ، وأن استعدادهم للاشتراك فى أعمال البر يكون قويا . ومما لا شك فيه أيضا أن مقدرتهم المالية فى المواسم والأعياد تكون كبيرة الى حد ما ؛ فكلنا يعرف أن كل فرد ، لا أستثنى من ذلك فقيرا ولا طفلا ولا شيخا ، يعد للانفاق فى هذه المواسم مبلغا يختلف باختلاف بيئته وأحواله . فمن الخير أن يغتنم القائمون بأمور الإصلاح فى الشعب هذه الفرصة المواتية فيجمعوا من كل فرد ممن تجود نفسه قرشا واحدا يسمونه (قرش العيد للإصلاح الاجتماعى) ثم يشيدوا من مجموعه معهدا أو ملجأ أو مستشفى أو مصنعا أو شبه ذلك من المؤسسات الاجتماعية . وإننا إذ نفعل ذلك نكون قد استعنا على إصلاح الشعب بأموال الشعب وجهوده ، ونكون قد انتفعنا بهذه العاطفة فى تقدمه ورفاهيته، وعودناه على الاضطلاع بنصيبه منهما . وأهم من ذلك نكون قد حولناه عن فكرة خاطئة ظلت أزمانا طويلة مسيطرة على عقليته ، وهى تحميل الحكومة مسئولية إصلاح الشعب فى شتى نواحيه ، تلك الفكرة التى وقفت فى طريق نهوضه ورقيه ، وتحللت منها شعوب أدركت خطأها فبلغت مناها من التقدم والكمال ؟

أبو الوفا المراغى

روعة البيان القرآنى

يقولون إن السبب فى نشأة علوم البلاغة ، اشتداد الخصومة بين العلماء ، فى آخر القرن الثانى ، على إعجاز القرآن ، وهل ذلك الإعجاز يرجع الى اللفظ أم الى المعنى ، وقد اضطرب عبد القاهر الجرجانى وغيره ، فى أن مزية الكلام فى جرسه ومقاطعه الصوتية ، أم فى معناه السامى السرى ، كأن الألفاظ أشبه بالمنازل ، تزهى بالسكان لا بالبنيان ، وتشرف بالقطان لا بالحيطان ؛ فلما جاء السكاكى بعد هؤلاء جميعا ، أراد أن يوفق بينهم ، فقال « البلاغة راجعة الى اللفظ ، باعتبار إفادته المعنى بالتركيب » . ولم يكونوا يقصدون بذلك ، رحمهم الله ، إلا أن يكشفوا للناس عن معانى الحسن فى هذا الكتاب ، ليتبين لهم أنه « كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير » ، فقالوا : فصل ووصل ، وإيجاز وإطناب ، وتقديم وتأخير ، وتعريف وتنكير ، وما شاكل ذلك ، مما بحثوا فيه وتعرضوا له ؛ وإن تصدوا للروعة فى مثل « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بُعدا للقوم الظالمين » ، عزوا ذلك الى قواعدهم ، وأخضعوه لقوانينهم ، من بناء الفعل لغير فاعله ، وخطاب ما لا يعقل ، وإضمار السفينة « واستوت على الجودى » ، كأن اشتهار الحادثة ، صار بحيث لا يحتاج الى الذكر . وأنت ربما صغت كلاما على هذا المنوال ، فيه أبواب « المعانى والبيان » كلها ، ثم نظرت فوجدته لا يساوى أقصر آية من القرآن ، وفى هذا دليل على أنه لا يسبر غوره ، ولا تدرك غايته ، أو تستطيع أن تحد من جماله ضوابط ومقاييس ، وكيف يقيس المتناهى ما لا يتناهى ، أو يزن هذا الميزان القاصر ، ذلك المعنى الباهر ؟

ولولا ذلك لما تحدى الله به « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . ونحن نعلم أنهم أرتج عليهم ، فلم يجدوا طريقا يسلكونه ، سوى التخبط فى اللجاج ، وامتطاء الهجاج ، حتى وصلوا الى ادعاء أنه مكذوب مفترى ، فأرخى الله لهم العنان ، أن يأتوا بمثله مختلقا متقولا ، فلما نكصوا ، قال : « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » ، فلما عجزوا تدلى معهم الى أدنى من هذا كله « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ، فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين » .
ولا يستطيع كائن من كان أن يقول : إن العرب لم يتغلغل فى نفوسهم أن القرآن كلام بلغ أسمى درجات البيان ، فهم قوم قد وهبوا من سلامة الفطرة ، ما يؤهلهم الى رؤية الواقع وتقديره التقدير الصحيح ، ولكنهم كما تقول الآية « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » .

ومن روعة البيان القرآنى، أنه يصل الى مجرى الدم من الإنسان، فإذا هو كالنشوة التى تتمشى فى المفاصل تمشى البرء فى السقم، وقد يثمر تأثيره، ويجدى بيانه، أو لا يثمر ولا يجدى، فهو أشبه بالماء يصيب الأرض الموات، ثم يختفى فى جوفها فتنكره، ولا يظهر له أثر، أو يحييها بعد موتها، فتنبت من كل زوج بهيج. وقد استمع الوليد بن المغيرة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم لعلكم تذكرون »، فقال: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وما يقول هذا بشر!

وقصة إسلام عمر بن الخطاب، أصدق مثل لروعة هذا البيان، وشدة تأثيره على القلوب، واجتذابه للنفوس. فقد جاء الى أخته، حينما بلغه، أنها وزوجها اتبعا محمدا فى دينه « الجديد »، وأن خباب بن الأرت، يعلمهما القرآن، وكان مما قاله لها: ياعدوة نفسها، قد انتهى الى أنكما صبأتما، فقالت له: ما كنت فاعلا فافعل، إننا نرى الحق فى غير دينك. فضربها هى وزوجها، ثم نظر الى جانبه فوجد شيئا مما كانا يهيمنان به من القرآن، فلما أراد أن يأخذه ليقرأ منه، قالت أخته: « لا يمسه إلا المطهرون »، فتوضأ وأخذ يقرأ فى سورة « طه » الى أن بلغ « إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى، وأقم الصلاة لذكرى، إن الساعة آتية أكاد أخفيها، لتجزى كل نفس بما تسعى. فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها، واتبع هواه فتردى ». هنالك خيل اليه أن القيامة قد قامت، وأن الناس مجتمعون ليوم العرض، يجتازون الصراط، لتجزى كل نفس بما تسعى، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز... فقال: دلونى على محمد، فقال خباب — وكان مختفيا فظهر — أبشر ياعمر فإنى أرجو أن يكون الله قد استجاب فيك دعوة الرسول « اللهم أعز الاسلام بأحب العمرين اليك » — ابن الخطاب، أو عمرو بن هشام « أبو جهل » — ثم ذهب الى النبى صلى الله عليه وسلم فى دار الأرقم، فلما أحس به المسلمون وجلوا وخافوا، إلا حمزة بن عبد المطلب، فانه قال: إن يرد الله به خيرا، يكن على هذا الدين، وإن يرد غير ذلك، يكن قتله علينا هينا. أما النبى فإنه أخذ بمجامع ثوبه، وحمائل سيفه، وقال له: أما أنت منته ياعمر، حتى ينزل الله بك من الخزى والنكال، ما أنزل بالوليد بن المغيرة ؟! فقال عمر: أشهد أنك رسول الله! وأسلم بين تكبير المسلمين وفرحهم، ولم يسعهم إلا أن يطوفوا به الكعبة، ابتهاجا بما غنموا، وسرورا لما لاقوا.

وكفار مكة اجتمعوا على إخراج أبى بكر منها، يوم أن لاقاه ابن الدغنة، آخذا طريقه الى الحبشة، فأرجعه وأجاره، وقال له: ياأبا بكر، مثلك لا يخرج ولا يُخرَج، إنك رجل تكسب المعدوم، وتحمل الكلّ، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الزمن... ولم يكن اجتماعهم هذا لأن الرجل نالهم بسوء، أو ألحق بهم أذى، أو كاد لهم كيدا؛ اللهم إلا

أنه كان يقرأ القرآن ، فتلتف حوله نساؤهم ، وصبيانهم ، يستمعون إليه ، فيجدونه « يهدى للتى هى أقوم » فلا يلبثون أن يثوروا على الأصنام ، ويسـتفهوا من كان يعبدها ، ثم يعلنوا انضواءهم الى لواء محمـد وأصحابه . . . وهكـذا كنت ترى الواحـد منهم – ما بين عشية وضحاها – يفرق الله بينه وبين أخيه ، وأمه وأبيه ، وعشيرته وبنيه . . .

والله سبحانه وتعالى يثنى على من آمن من النصارى ، ويمدحهم ، ويعتبرهم أقـرب الناس مودة من المسلمين ، لأن من أوصافهم التى امتازوا بها ، أنهم لا يستـكبرون ، وإذا آمنوا رأيت أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقـولون : « ربنا آمنـا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنـا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنـا مع القـوم الصالحين ؟ » .

ولا غرابة فقـد اهتدت به الجن ، حين استمعت إليه ، فقالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحـدا ، وأنه تعالى جَـدُّ ربنـا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ! » .

وليس بعد بيان الله فيه ، ووصفه لهذه الناحية منه « تَـقْـشَـعِرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » ، « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفـكرون » ؟

ابراهيم على ابو الخشب
المدرس بمعهد القاهرة

من ينبوع النبوة

قال النبى صلى الله عليه وسلم : لا تقعدوا على ظهور الطرق ، فإن أبيتم فغضوا الأبصار ، وافشوا السلام ، واهدوا الضلال ، وأعينوا الضعيف .

وقال : ألا أنبئكم بشر الناس ؟

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : من أكل وحده ، ومنع رفده ، وجلد عبده .

ثم قال : ألا أنبئـكم بشر من ذلك ؟

قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : من يبغض الناس ويبغضونه .

وقال : المسلمون تتـكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم .

مقارنة ومفاضلة

بين الشريعة الاسلامية والشرائع الأخرى

— ٥ —

الشريعة الانجلوسكسونية

تكلمت فى المقالات السابقة عن الشريعتين الاسلامية والرومانية ، وبينت بعض ما بينهما من الفروق ، وما تمتاز به الشريعة الاسلامية من سمو فى جميع نواحيها .

واليوم أذكر شيئا يسيرا عن الشريعة الانجلوسكسونية . فهى تتشابه فى تاريخها مع كثير من تاريخ شريعة الرومان . فالاثنتان بقيتا أمدا طويلا . فالرومانية نشأت فى القرن الخامس قبل الميلاد وانتهت فى القرن السادس بعده ، وهذه نشأت عام ٤٤٩ الى عام ١٠٦٦ ؛ وانتشار العمل بكل منهما يكاد يكون واحدا ، والاهتمام الذى يقوم به الباحثون فى القانون الانكليزى تكاد تقابله العناية بالقانون الرومانى ، ولكن تطور القانون الرومانى كان مبنيا على مبادىء علمية ، ونظريات فلسفية ، أما القانون الانكليزى فقد كان أكثره مبنيا على اعتبارات وظروف عملية ، وقد مرت عليه صور أربعة ، أولها صلتية وهى صفة القبائل التى كانت متوطنة فى الجزيرة البريطانية قديما ، ثم زالت كلها وحل محلها القانون الرومانى عند ما فتحها الرومانيون سنة ٥٥ قبل الميلاد . واستمر فيها أربعة قرون الى أن زال سلطانه بزوال الفتح الرومانى ، وحلت الصورة الجرمانية مع الفتح الانجلوسكسونى الذى قضى على كل أثر رومانى من دين ولغة وقانون . ثم حلت الصورة الرابعة للقانون الانكليزى وهى صورة نورماندية مستعارة من قوانين قبائل الفرنك ، ومن نظمهم الاقطاعية . وذلك لما احتل النورمانديون انكلترا .

يقرر المؤرخون أن الفتح الانجلوسكسونى هو أول فتح قانونى فى الجزيرة البريطانية ، تلك الجزيرة التى كانت حياة سكانها الأصليين حياة ساذجة قائمة على فلاحة الأراضى واستغلال الغابات تعبيدا للزراعة ، وتربية الدواب ، وكانت قوانينهم عنيفة بربرية تسوى بين الرجل والمرأة ، وكانوا على غير شىء من الحضارة الاجتماعية .

أما نظامهم الاجتماعى فقد كان قائما على تقسيم المجتمع الى طبقتين : طبقة الأحرار ، وطبقة العبيد ؛ وطبقة الأحرار الى طبقتين : طبقة اللوردة أو النبلاء ، وطبقة التابعين للنبلاء ؛ أما الحر الذى ليس له نبيل ينتمى إليه فقد كان يعتبر شريدا مشتبها فى أمره . أما طبقة العبيد أو الأرقاء

فقد كانت تشبه طبقة الرقيق عند قدماء الرومان ، وكانوا يستعملون للخدمة وللاتجار بهم كالسلع حتى القرن الثانى عشر ، وكان بعض الأحرار يلقون بأنفسهم للرق جريا وراء الارتزاق ، وكان العتق يستعمل كوسيلة للإحسان أو التعبد ، وكان المالك للرقيق إذا أساء إليه بقلع عينه ، أو خلع سنه ، أو قتله ، يؤدى غرامة للملك .

أما نظام الأسرة فقد كان يختلف عن نظام الأسرة الرومانية فى شيئين : الأول أن الولد لم يكن خاضعا لسلطة أبيه طول حياته ، بل كانت تنتهى تلك السلطة ببلوغه درجة الرجولة وانخراطه فى سلك الأحرار ، والثانى أن الأسرة تشمل القرابة من الأبوين لا من الأب وحده ، ثم كانت المصالح بين الأقارب مشتركة مثل الأخذ بالثأر ، وقبض الدية ، وتحمل الدية الناشئة عن جناية أحد أفراد الأسرة ، إلا إذا تبرءوا منه فلا ثأر ولا دية عليهم .

أما النظام القضائى فقد كان سلطان الدولة معدوما فى إدارة العدل ، وما كان للملك أن يرقب سلطان العدل بين الناس ، وإنما كانت له سلطة قضائية استثنائية يلجأ إليها الفرد إذا فشل فى دعواه أمام المحكمة الشعبية ، أو إذا لاذ خصمه بجاه نبيل . وما كانت هناك تفرقة بين القضاء المدنى والقضاء الدينى ، فقد كان الأسقف يجلس فى محكمة المقاطعة ويشترك فى الفصل فى المسائل المدنية بموافقة السلطة الزمنية ، ويغلب أن يكون هو العضو الوحيد الذى يملك قسطا من العلم والدراية فى إدارة العدل ، وكانت المجالس الدينية هى التى تنظر فى النزاع الحادث بين الكنيسة وبين الأفراد .

أما المحاكم فكانت على نوعين : محاكم عامة ، ومحاكم خاصة ؛ فالمحاكم العامة كانت تنعقد فى الهواء الطلق ، وهى محكمة المقاطعة ، وتنعقد مرتين فى العام ؛ ومحكمة المائة وتنعقد فى كل أربعة أسابيع مرة ؛ وكل من هاتين المحكمتين مشكل من أفراد الشعب تحت رياسة زعيم المقاطعة ، وتصدر الأحكام بطريقة الاقتراع ، ولم يكن الخصوم ملزمين بالحضور أمامهما ولا بتنفيذ قراراتهما ، وكل ما فيه أن المتخلف يعتبر خارجا على القانون ، فيحرم من حمايته وتنعدم تبعة قتله .

أما المحاكم الخاصة فهى التى يعقدها النبلاء فى بيوتهم لإقامة العدل بين تابعيهم ؛ من هذه المحاكم المحكمة التى يعقدها الملك للفصل بين من يرتكبون أمورا مخلة بأمان الملك .

أما طرق الاثبات فى الدعاوى فقد كانت ساذجة ومعقدة بالشكليات ، لا تتصل بالحق فى ذاته ، وكانت فى الشريعتين الرومانية والانجلوسكسونية على أنواع ، منها القسامة ، وهى أن يستعين أحد الطرفين من المتخاصمين بأحد عشر رجلا من أهله أوجيرانه يقسمون معه على صحة دعواه أو دفاعه ؛ فان أقسموا اعتبر الحق فى جانبه ، أى أن عبء الاثبات كان على من يقوم به ، لأن اليمين حاسمة للدعوى ، فان كانت اليمين كاذبة ففى غضب الآلهة من الترضية ما يكفى الخصم

الآخر ، والمحكمة نفسها هى التى توجه الاثبات بالقسامة الى من ترى من الخصوم بحسب ظروف كل قضية .

ومنها الامتحان أو التجربة ، فقد كانت تلقيه المحكمة على من ترى من طرفى الدعوى أيضا ، ويتبع فى غالب الاحيان فى المسائل الجنائية ، ويكلف به المتهم أحيانا ، وهو أن يمتحن باحدى التجارب التى يعتقدون أن لقوة الآلهة دخلا فيها ، فيقبض المتهم بيده على حديد محمى ، أو يخطو خطوة بقدمه على خشب مضطرم ، ثم يضمد القسيس جرحه بطريقة مخصوصة ، فإن شفى فى ثلاثة أيام فهو برىء ، وإلا فهو مجرم ؛ أو أن يمتحن بأن يضع يده فى ماء مغلى ، ثم يضمدها القسيس كما فى حالة التجربة بالنار ، فإن شفى فى الثلاثة الأيام التالية كان بريئا ، وإلا كان مذنبا ؛ أو أن يمتحن بأن يلقى مكتوفا فى النهر ، فإن عام فهو مذنب وإن غطس فهو برىء ؛ كذلك يمتحن بتناول القطعة اللعينة أو لقمة الزقوم ، وهى قطعة من الخبز الجاف يعدها القسيس ، ثم يدعو الآلهة بأن توقفها فى حلقه إن كان مذنبا ، أو يسيغها بسهولة إن كان بريئا . ويقال إنها وقفت فى حلق أحد كبار النبلاء فحكم بإدانته .

وأما المبارزة القضائية أو المصارعة فلم يكن الغرض منها الاحتكام الى القوة ، وإنما هم يعتقدون أن الآلهة تنصر المحق على المبطل ؛ فالفائز يفوز بعناية الآلهة لا بقوته البدنية . ولما كانت النساء والعجزة لا يقوون على المصارعة فقد سمح بالاستعانة بأنصار ينوبون عنهم ، وكان الشهود يصارع بعضهم بعضا إذا تعارضت أقوالهم ، أو أنكرت عليهم أيمانهم ، حتى إن بعض الخصوم أخذوا يلجأون الى الاستعانة بالأنصار ويقدمونهم فى صورة شهود ؛ وقد استمرت هذه الطريقة فى انكلترا الى سنة ١٨١٩ حيث صدر فى تلك السنة قانون بالغاء المصارعة على أثر الحكم ببراءة متهم ، إذا رفض المدعى أن يصارعه .

أما إجراءات المصارعة ، فقد كان المدعى عليه أو نصيره يعرض أنه سيدافع عن حقه بذراعه ، فيلقى بقفازه على الأرض ، فيلتقطه المدعى أو نصيره ، دلالة على قبول المصارعة التى يحدد لها يوم فى مكان تنصب فيه منصة للقضاء ، ثم يأتى الخصوم أو أنصارهم فى الموعد المحدد وقت الشروق بلباس خاص ، وسلاح كل منهما هراوة طولها ذراعان ومجن (أى درقة) ؛ ولم يكن غرض أحدهما قتل الآخر . ويحلف كل خصم بالله على صحة دعواه ، ويشهده على أنه لم يأكل ولم يشرب شيئا يؤثر فى المصارعة ، ولم يلبس تميمة ، ولم يتعوذ بعوذة تحول دون إظهار الحق ، ثم يأخذان فى المصارعة ؛ فان غلب أحدهما الآخر يحكم للغالب ، وإن لم يتفوق أحدهما على خصمه حتى غروب الشمس وظهور النجوم يحكم للمدعى عليه أو للمتهم باعتبار أنه لم يغلب .

هذه هى طرق الاثبات فى الشرائع غير الاسلامية ؛ وإنها لطرق عقيمة خرافية ، إذ كيف

لا تحترق يد رجل أقدم على الامتحان بالقبض على النار ؟ أو كيف لا يؤثر الوهم على من يتناول لقمة الزقوم فيقف فى حلقه ، وكيف يفوز ضعيف القـوة البدنية على الممتلئ قوة وصحة ؟ وكيف لا تنتشر الفوضى وتتزعزع أركان الأمن إذا كان الوصول الى الغرض المطلوب يمكن أن يكون بالاعتماد على الذراع أو على قوة الأنصار أو الشهداء الذين لا يسمح للخصم بأن يناقشهم الشهادة ، ولا يسمح له بسؤالهم عن مصدر علمهم بما شهدوا به عليه ؟ وكيف لا يظلم برىء إذا كانت هذه طرق الاثبات ؟ وكيف لا يضيع حق ويفلت مجرم من عقاب ؟ حقا إنهم كانوا فى ظـلام وفى جهل عريض . فهل فى الشريعة الاسلامية خرافة واحدة من مثل هذا ؟ وهل نجد محلا للمقارنة أو المفاضلة ؟

ألم تر أن السيف ينقص قـدره   إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

هذه كلمة قصيرة ذكرناها عن الشريعة الانجلوسكسونية ، وفى العدد التالى سنأتى بالـكثير من المقارنات ليتبين الغث من السمين ؟

مصطفى عبد الحميد أبو زيد
المندوب القضائى بالأوقاف الملـكية سابقا

بم يسود المرء

قال الحـكماء : يسود الرجل بأربعة أشياء : بالعقل ، والأدب ، والعلم ، والمال .

وقيل لعرابة الأوسى : بم سودك قومك ؟

قال: بأربع خلال : أنخدع لهم فى مالى ، وأذل لهم فى عرضى ، ولا أحقر صغيرهم ، ولا أحسد كبيرهم .

نقول : قوله : أذل لهم فى عرضى ، ليس مراده من العرض ما يفهم منه اليوم من تخصيصه بحرم الرجل ، ولـكن مراده ما تعطيه اللغة على إطلاقها قبل التخصيص الأخير ، وهو النفس ؛ يقولون : أكرمت عنه عرضى أى صنت عنه نفسى ؛ ومن معانيها موضع المـدح والذم من الانسان ، وما يفتخر به من شرف وحسب ؛ ومن معانيها ما خصص له الآن من حرم الرجل . فمراد عرابة الأوسى من قوله : وأذل لهم فى عرضى ، أنه يحتمل منهم لو خاضوا فى ذمه والنيل منه . وفى عرابة هذا الذى كان يذل لقومه يقول الشماخ الشاعر :

رأيت عـرابة الأوسى يسمو   الى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجـد   تلقاهـا عـرابة باليمين

المتألهون والادب

عدى بن زيد العِبادى

ومن المتألهين الشعراء الكتاب ، عدى بن زيد بن حماد (١) التميمى المضرى ، يكنى أبا عمير ، ويلقب بالعِبادى (٢) ، كان متألها فى الجاهلية ، متعففا فى شعره ، لم يُستَهتَر بالفواحش ، ولم يتهكم فى الهجاء .

نشأ بالحيرة عاصمة العراق على ضفة الفرات ، وكان للفرس النفوذ على ملوكها المناذرة ؛ فلم تكن الحيرة خالصة للعرب ، بل كانت لهم ولغيرهم من شعوب كثيرة ، يؤمونها للتجارة والإقامة ؛ وكانت قاعدة لقرى مُمْرِعة الجنَاب ، خصبة التربة ، مما جعلها تختال فى حلل الخفض ، وتميس فى نعيم الحضارة ؛ فمن سعة فى العُمران ، وعظمة فى البنيان ، الى كثرة فى المدارس والبِيَع والمتاجر ودور اللهو والشراب ، مما جعل العرب يتغنون بمحاسنها ، ويغرمون بمفاتنها ، حتى قالوا : « يوم وليلة فى الحيرة خير من دواء سنة » . وقد كان لقصرى الخورنق والسدير حظ غير يسير من وصف الشعراء .

وترجع إقامة آل عدى بالحيرة الى جده أيوب بن محروف : كان منزله باليمامة فأصاب دما فى قومه ، فهرب لاحقا بأحد أصهاره فى الحيرة ، فأكرم وفادته ، وأعطاه مالا ، واتصل بالملوك الذين كانوا بالحيرة ، فعرفوا حقه وحق ابنه زيد بن أيوب ؛ فلما مات أيوب وشب ابنه زيد تزوج امرأة من أصهار أبيه فولدت له حمادا ، ثم قتل زيد فى قتيل أبيه ، فمكث حماد فى أخواله حتى ناهز البلوغ ، ثم حولته أمه الى دار أبيه ، وعلمته الكتابة ، فبرع فيها حتى صار كاتب ملك النعمان الأكبر ، فمكث وولد له ابن سماه زيدا ؛ وكان لحماد هذا صديق من الدهاقين (٣) العظماء يقال له « فروخ ماهان » ، فلما حضرته الوفاة أوصى بابنه زيد الى الدهقان ، فأخذه إليه فكان عنده مع ولده ، وكان زيد قد حذق الكتابة العربية ، فعلمه الدهقان الفارسية ، وأشار على كسرى أن يجعله على البريد ، ولم يكن كسرى يفعل ذلك إلا بأولاد المرازبة (٤) فمكث يتولى ذلك زمانا حتى مات النعمان ، فاختلف أهل الحيرة فيمن يولونه الى أن يعقد كسرى الأمر لرجل ، فأشار عليهم المرزبان بزيد بن حماد ، فكان على الحيرة الى أن ملّك كسرى المنذر بن ماء السماء ، وولد لزيد ولد فسماه عديا .

---

(١) ويروى جمّاز وحمّار . (٢) نسبة الى العِباد وهم قوم من قبائل شتى قد اجتمعوا على النصرانية وأنفوا أن يتسمّوا بالعبيد وقالوا نحن العِباد . (٣) الدهقان بكسر الدال وضمها : زعيم فلاحى العجم ، ورئيس الاقليم ، معرب ، جمعه دهاقنة ودهاقين — قاموس .

(٤) المرزبة كمرحلة : رياسة الفرس ، وهو مَرْزُبانهم ، جمعه مرازبة .

نشأته : لما ترعرع عدى وحذق الكتابة ، أرسله المرزبان الى كتاب الفارسية فتعلمها ، وقال الشعر ، وتعلم الرمى بالنشاب (١) فخرج من الأساورة الرماة ، وتعلم لعب العجم على الخيل بالصوالجة وغيرها ، فبلغ أمره كسرى ، فأرسل اليه ، فلما كلمه وجده أظرف الناس وأحضرهم جوابا ، فرغب فيه وأثبته فى ديوانه ، فكان أول من كتب بالعربية فى ديوان كسرى ، فرغب أهل الحيرة الى عدى ورهبوه ، فلم يزل بالمدائن فى ديوان كسرى يؤذن له عليه فى الخاصة وهو معجب به قريب منه ، حتى بعد صيته ، وارتفع ذكره ، فكان إذا دخل على المنذر قام له جميع من عنده إجلالا . ولقد بلغ من علو مكانته لدى كسرى أن بعث به الى ملك الروم بهدية ، ولما مر بدمشق أثار جمالها كوامن نفسه ، فكان أول شعر قاله هناك :

رب دار بأسفل الجزع من دو ... مة أشهى الىّ من جيرون
وندامى لا يفرحون بما نا ... لوا ولا يرهبون صرف المنون
قد سقيت الشمول فى دار بشر ... قهوة مرة بماء سخين

فلما رجع الى كسرى وعلم بوفاة أبيه زيد استأذنه فى الإلمام بالحيرة فأذن له ، فتوجه اليها ، وبلغ المنذر خبره فخرج فتلقاه فى الناس ورجع معه ، وأكب على الصيد واللهو ، وتزوج هندا بنت النعمان بن المنذر أو أخته ، على خلاف فى ذلك ؛ فلما مات المنذر بن النعمان وترك اثنى عشر ذكرا من بينهم النعمان بن المنذر منقطعا الى عدى ، فسعى له عدى حتى قلده كسرى مُلك العراق من بين إخوته ، ثم جدّت أمور جعلت النعمان يتبرم بعدى ويغضب عليه ، فحبسه ونسى ما قدمه له من الخدم ؛ فجعل عدى يرسل اليه الشعر ويرققه ، فيأبى النعمان إخراجه من حبسه ؛ فكان أول ما قاله فى محبسه من قصيدة :

أين عنا أخطارنا المال والأنف ... س إذ ناهدوا ليوم المحال
ونضالى فى جنبك ، الناس يرمو ... ن وأرمى وكلنا غير آل
فأصيب الذى تريد بلا غش ... ش وأربى عليهم وأوالى
ليت أنى أخذت حتفى بكفى ... ولم ألق ميتة الأقتال
محلوا محلهم لصرعتنا العا ... م فقد أوقعوا الرحا بالثفال

ومما قال أيضا فى محبسه :

ألا من مبلغ النعمان عنى ... وقد تهوى النصيحة بالمغيب
أحظّى كان سلسلة وقيدا ... وغلاً والبيان لدى الطبيب
أتاك بأننى قد طال حبسى ... ولم تسأم بمسجون حريب
وبيتى مقفر إلا نساء ... أرامل قد هلكن من النحيب

(١) النشاب بضم النون : النبل ، الواحدة بهاء ، وبالفتح مُتَّخِذُه .

إلى أن قال ، وهو آية فى الاعتذار تبلغ الى أقسى القلوب :

فإن أخطأت أو أوهمت أمرا فقـــد يتهم المصافى بالحبيب
وإن أظلِم فقـــد عاقبتمونى وإن أُظلمَ فذلك من نصيبى
فهـل لك أن تدارك ما لدينا ولا تغلب على الرأى المصيب
فأنى قـد وكلت اليـوم أمرى إلى رب قريب مستجيب

ولـكنها لم تستلّ سخيمة النعمان ، ولم تخفف من غضبه .

فلما طـال سجنه ، كتب الى أخيه أبى وهـو مع كسرى بهذا الشعر يستنجده :

أبلغ أبيـــا على نأيه وهل ينفع المرء ما قـــد علم
بأن أخاك شقيق الفـؤا د كنت به واثقا ما ســـلم
لدى ملك موثق بالحديـــد إما بحـــق وإما ظلم
فأرضك أرضك إن تأتنا تنم ليـلة ليس فيها حـــلم

فـكتب اليه أخوه أبى :

إن يكن خانك الزمان فلا عا جز باغ ولا أليف ضعيف
ويمين الإله لو أنهم جا ءوا طحونا فيها تضىء السيوف
ذات رزء مجتابة غمرة المـو ت صحيح سربالها ملفـوف
كنت فى حميها لجئتك أسعى فاعلمن لو سمعت إذ تستضيف

الى أن قال :

ولعمرى لئن جـزعت عليه لجـزوع على الصديق أسـوف
ولعمرى لئن ملـكت عزائى لقليل شرواك فيما أطـوف

ثم دخل أبى على كسرى وكلمه فى أمر عدى ، فـكتب كسرى الى النعمان بعزيمة ليرسلن به اليه ، فبعث النعمان الى عدى سرا فغمه وقتله ، وبعث الى كسرى أنه قد مات ، فلم يزل ابن عدى يبغى للنعمان الغوائل انتقاما لأبيه حتى قتله كسرى أبرويز وانقرض ملك اللخميين .

فتلك النشأة الثقافية الحضرية ، وهذه التربية العالية السامية ، وهذه المخالطة لملوك الفرس والعراق والاضطلاع بأعباء سياستهم ، وهذا البيت الذى انحدر منه عدى ، وهذه الحياة اللاهية الطروب ــ كان لها أبعد الأثر فى توجيه عدى وجهة أخرى ليست على غرار ما كان عليه شعراء الجاهلية فى عصره . ذلك ما سنعرض له فى حياته الأدبية . ويجمل بنا قبل التحدث عن عدى الشاعر الـكاتب أن نعرض لناحيته الدينية ، فقد كان لها أعمق الأثر فى شعره ؟

احمد ابراهيم موسى

الفيلسوف ابن طفيل

حياته :

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسى . تبوأ منصب الوزارة فى عهد أبى يعقوب يوسف بعد أن كان يشغل منصب الحجابة فى غرناطة . ولد فى مدينة قادس بالأندلس ، ومات فى مراكش عاصمة دولة الموحدين فى ذلك الوقت عام ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) . ويلوح للمؤرخ أن حياة الفيلسوف ابن طفيل لم تكن حافلة بالتقلبات ، فقد كان شغفه بالكتب والاطلاع عليها أكثر من حبه للناس . وفى مكتبة مليكه أبى يعقوب تزود بالكثير من العلوم والمعارف ، وكان ميله الى التأمل أكبر من ميله الى التأليف .

وفى عصر ابن طفيل كانت الفلسفة فى المغرب فى أوج قوتها ، حيث أدخل الموحدون مذهب الأشعرى ومذهب الغزالى فى مراكش ، بعد أن كانا حتى ذلك الحين موسومين بالزندقة ، وكان للموحدين عناية بالمذاهب الكلامية ، والعلوم العقلية ، الأمر الذى جعل الفلسفة تزدهر زمنا فى قصورهم وفى دور العلم بينهم .

وفى كتاب (المعجب ، فى تلخيص أخبار المغرب) للمراكشى ص ١٧٢ ، نرى أن ابن طفيل كان أكبر أمله أن يمزج العلم اليونانى بحكمة أهل المشرق ليطالع الناس برأى جديد فى الكون ، وقد أثار اهتمامه أيضا أمر العلاقة بين الفرد والمجتمع ، والى أن منشأ الجماعة هو الفرد ، كما يتبين هذا بوضوح فى قصته المسماة حى بن يقظان .

وقصة ابن يقظان التى وضعها ابن طفيل ، قصة فلسفية ذاع صيتها ، وانتشرت فى أوروبا انتشاراً واسعا ، فترجمت الى اللاتينية والانجليزية والألمانية والهولندية تحت عناوين مختلفة فى الثلاثين سنة الأخيرة من القرن السابع عشر ، وطوال القرن الثامن عشر .

والفكرة الأساسية فى هذه القصة ، كما يقول « برونل » فى مقدمته لتلخيصها ، هى بيان كيف يستطيع الانسان دون معونة من خارج أن يتوصل الى معرفة العالم العلوى ، ويهتدى الى معرفة الله وخلود النفس . وابن طفيل يتخذ من حى بن يقظان شخصا لبسط آرائه الفلسفية .

يتكون مسرح هذه القصة من جزيرتين : يضع ابن طفيل فى إحداها المجتمع الانسانى بما تواضع عليه من عرف وتقاليد وأوضاع ، ويضع فى الثانية إنسانا ينشأ على الفطرة . ويظهر فى المجتمع فتيان من أهل الفضل ، يسمى أحدهما « سلامان » والآخر « آسال » يسموان الى المعرفة العقلية ، والتغلب على الشهوات ؛ فأما الأول فبعقله ينزع نزعة عملية ، فهو يساير دين العامة حتى يتوصل الى السيطرة عليهم ، وأما الآخر ففطرته متجهة الى النظر العقلى

وفيه نزعة صوفية ؛ فهو يرتحل الى الجزيرة المقابلة ظنا منه أنها غير مسكونة ، وفيها ينقطع الى الدرس والزهد .

ترعرع حى بن يقظان فى هـذه الجزيرة حتى صار فيلسوفا كاملا ، وكان قد قذف به الى أرضها طفلا . توصل حى أولا الى حاجاته المادية ، ثم استطاع بالملاحظة والتفكير أن يعرف الطبيعة والسماء ، ويعرف الله ، ويعرف نفسه ، الى أن وصل على رأس التاسعة والأربعين الى الله . عند ذلك لقيه آسال ، ولم يكن حى يعرف اللغة فى أول الأمر ، ولكن بعد أن استطاع كل منهما أن يتفاهم مع صاحبه تبين أن فلسفة وشريعة آسال صورتان لحقيقة واحدة . ولما عرف حى أن فى الجزيرة المقابلة لجزيرته أمة بأسرها لا تزال تتخبط فى ظلمات الجهل ، صحت عزيمته على أن يذهب الى أولئك القوم ويكشف لهم عن الحقيقة . فعلمته التجربة أن العامة لا قدرة لها على إدراك الحقيقة مجردة ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم أصاب إذ أبان لهم الحقيقة بضرب الأمثال الحسية ولم يكاشفهم بالنور الكامل . وبعد أن انتهى الى هذه النتيجة ، عاد أدراجه مع صديقه آسال الى جزيرتيهما الخالية ، ليعبدا ربهما عبادة روحية خالصة ، حتى يأتيهما اليقين . (تاريخ الفلسفة فى الاسلام تأليف الأستاذ ت . ج دى بور) .

بهذا وصل ابن طفيل الى أن كمال الإنسان هو فى إعراضه عن كل ما هو محسوس ، وانغماره فى العقل الكلى فى سكون وخلوة لا يكدرها شىء من مطامع هذه الحياة .

والغاية التى كان يبتغيها حى من عمله هو أن يلتمس القدرة فى كل شىء ، وهو يقتصر فى المطالب البدنية على ما توجبه الضرورة القصوى ، وشعاره الاكتفاء بما يقيم الأود لا ما يؤدى الى النوم .

هذا هو النظام الذى التزمه حى فى مطالب جسمه المادية ، أما روحه فكانت مرتبطة بالعالم العلوى ، وهو يتشبه بهذا العالم ويحاول أن يجعل حركاته متناسقة لحركات الأجرام السماوية . وهكذا أصبح حى بالتدريج قادرا على أن يسمو بنفسه ، حتى صار عقلا صرفا ، وهذه حالة لا تستطيع عقولنا إدراكها .

ومن غريب أمر هذه القصة ، التى وصفها ابن طفيل على لسان حى ، أنه لم يكتبها بوحى من نفسه ، وإنما كتبها إرضاء لصديق له ، فنراه يقول فى مقدمة القصة بعد أن حمد الله : سألت أيها الأخ الكريم الصفى — منحك الله البقاء الأبدى ، وأسعدك السعد السرمدى — أن أبث اليك ما أمكننى بثه من أسرار الحكمة المشرقية ... الخ .

فلسفة ابن طفيل :

تتركز فلسفة ابن طفيل فى قصته التى رويناها من قبل . ولهذا الفيلسوف طريقة فى التدليل

بثها فى قصة حى بن يقظان ، تخالف طريقة الاستشهاد ، والذهاب مع الظواهر السطحية ، وقواعد العرف المتفق عليها ؛ فكان هذا باعثا على الالتفات إليها ، والعناية بقراءتها ومناقشتها .

وقد أفلح ابن طفيل فى تبيينه أن البرهان لا ينقض العقائد التى توارثتها الشعوب ، وأشربتها أرواح الجماعات ، من الكتب المنزلة ، ذلك لأن الفطرة هى الإلهام بأن الله واحد .

والقصة توكيد للأصول التى تقوم عليها عقائد الناس ، وتبنى عليها أطوارها وتقلباتها . فهو يحاول أن يجعل الانسان يتصل بطريق الحس والتجربة الى العقيدة عن طريق الشعور .

والخلاصة فى فلسفة ابن طفيل ، أن للانسان غاية فى الحياة فوق لذاته وآلامه ، وهذه الغاية هى المثل الأعلى .

شخصية ابن طفيل:

كان ابن طفيل يعتقد أن الفلسفة أقرب الى أن تكون من مواهب النفس ، عن أن تكون ثمرة من ثمرات الدرس والتحصيل . وكان من أولئك الكتاب المرهفين ، ومن المفكرين الذين ينزوون فى برج من العاج لا يعرف إلا عالم الكتب .

أثرت الفلسفة فى نفس ابن طفيل ، فأعرض عن لذات الدنيا وزخارف الحياة ، وعمل على مراقبة نفسه ، واستنقاذ روحه من لوث الأوهام ؛ وأصبح الرجل فى أواخر أيام حياته بعيد النظر ، فسيح الأفق ، ذا عقل مفتوح لمرافق الحياة الروحية على اختلافها وتعددها . هذا الى جانب ما امتازت به روحه القوية الفياضة من جوهر طاهر ، ومعدن كريم ، ومن حب للخير وإيثار للغير . كان مشهودا له بالحزم والتصميم ، وتنفيذ ما صدق عليه عزمه ؟

عبد الحميد سامى بيومى

تصحيح

المرجو إثبات هذه التصحيحات فى مواضعها من هذا العدد .

ص	س	خطأ	صواب
٥٨٢	٤	الجوانح	الجوارح
٥٨٢	٥	وطريقة	وطريقه
٥٨٢	٥	وتخليص	وتلخيص

تطور التصميم والزخرفة فى مساجد مصر

التصميم والزخرفة فى الدولة الفاطمية

— ٢ —

لئن كانت الصورة التى أعطاها لنا الجامع الأزهر عن تصميم المساجد الفاطمية ناقصة بسبب ما دخل على هذا الجامع من التغيير، فان الجامع الأنور أو جامع الحاكم بأمر الله قد احتفظ لنا بهذا التصميم كاملا. وبودى لو أحثكم على زيارته وأن أصحبكم فى جولة اليه كتلك التى صحبتكم فيها الى المساجد السابقة، ولكن الحياء يمسكنى لأن رؤيته اليوم تبعث فى النفس الأسى والحزن. فقد اتخذه الصليبيون مقرا لجندهم، وأقاموا بين جدرانه كنيسة يتعبدون فيها، كما جعلت وزارة الأوقاف من رواق محرابه مخزنا لسقط متاعها، وأقامت فى جانبه بناء حديثا (مدرسة السلحدار الابتدائية) لم تمسه يد الفن بعصاها السحرية فبدا عابسا كئيبا، وتركت الباقى فضاء شاسعا يردد الأسف على ما فعله الخلف بآثار السلف.

يقرب هذا الجامع فى مساحته من جامع عمرو، ويشبه فى كثير من تفاصيل تصميمه مسجد ابن طولون، ويتضمن بعض المظاهر المعمارية التى رأيناها فى الجامع الأزهر، ولكنه ينفرد عن هذه الجوامع الثلاثة بواجهة منقطعة النظير، إذ يقوم فى زاويتها الشمالية والجنوبية برجان أجوفان عظيمان (١) يكسبان الجامع مظهر القلاع الحصينة، يخرج منهما مئذنتان عاليتان تزدان كل منهما بزخارف بديعة وكتابة كوفية جميلة تتضمن اسم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله.

أما مدخل الجامع فيقع فى منتصف هذه الواجهة ويبرز عن سمتها بنحو ستة أمتار، وقد كانت تزينه نقوش محفورة على الحجر غاية فى الروعة والجمال لم يبق لنا منها إلا جزء صغير، ولقد كان يتوج هذا المدخل لوح من الرخام فقد مع الزمن، وكان منقوشا عليه بخط كوفى جميل النص الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم. ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. مما أمر بعمله عبد الله ووليه أبو على المنصور الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين. فى شهر رجب سنة ثلاث وتسعين وثلثماية ».

---

(١) يتكون كل من البرجين من مكعبين أجوفين يعلو أحدهما الآخر، العلوى أصغر من السفلى وأحدث منه إنشاء، بينما السفلى معاصر لانشاء المسجد.

أما اللوح الذى يرى الآن فوق المدخل فتشير الكتابة التى عليه الى إصلاحات تمت فى المسجد أيام الناصر محمد بن قلاوون .

هـذه الواجهة التى وصفناها تثير رؤيتها فى النفس ذكريات الماضى ، وتبعث فى الذهن بصور من مجد المسلمين الغابر ، تذكرنا بمدينة المهدية ، ومسجدها الجامع ، وبمؤسسها وقومه ، وبالدور الذى لعبه هؤلاء القوم فى الحضارة الاسلامية .

أما المدينة فلإنشائها قصة طريفة تنطق بما كان لأسلافنا المسلمين من بعد النظر فى اختيار مواقع المدن ، وتشهد بأنهم ضربوا فى الحضارة المادية بسهم وافر . فهذا أبو عبيد الله الملقب بالمهدى أول خلفاء الدولة الفاطمية بعد أن استقر به المقام فى افريقية (تونس) أراد أن يؤسس مدينة منيعة الجانب يتحصن فيها من أعدائه ، نخرج الى تونس وقرطاجنه ، يرتاد ساحل البحر ، فوجد جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند ، فبنى فيها مدينة خلع عليها اسمه ، وجعلها دارا لملكه ، واتخـذ من ساحلها ميناء بحريا كأحسن وأمنع ما تكون الموانى : حفـره فى الصخر بعرض سبعة وخمسين مترا وطول مائة وستة وعشرين مترا ، وجعله بحيث يكفى لايواء ثلاثين سفينة . كما أقام بها دار صناعة (ترسانة) نقرت فى الجبل ، وكانت تتسع لمائتى سفينة (١) .

وأما مسجد المهدية الذى أنشاه المهدى بعد تخطيط مدينته ببضع سنوات ، فقـد كانت واجهته مبعث الوحى للمهندس الذى أشرف على إنشاء جامع الحاكم بمصر ، إذ اتخذها أساسا لتصميم واجهة مسجده ، وأدخل عليها من التعديل والتهذيب ما اقتضته سنة التطور (٢) .

وأما القوم الذين اليهم ينتسب أبو عبيد الله المهدى ، فقد تضاربت الآراء فى حقيقة نسبهم . فهم يرون ـ ويؤيدهم فى هـذا الرأى طائفة من المؤرخين ـ أنهم من نسل السيدة فاطمة بنت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم ، ولذلك عرفوا بالفاطميين نسبة اليها ، بينما ينكر عليهم هذا النسب طائفة أخرى . وليس من شأننا هنا تقصى هذه المسألة ، إنما يكفينا أن نعلم أن صحة نسبهم كانت موضع شك ومحل طعن كثير من المسلمين .

أما الدور الذى لعبه هؤلاء القوم فى الحضارة الاسلامية لا سيما فى مصر ، فعظيم جدا ، تشهد به آثارهم التى تركوها ، ولعله كان نتيجة لذلك الشك الذى حام حول أصلهم . ذلك لأنهم عنـد ما أدركوا أن معظم المصريين على المذهب السنى بينما هم على مذهب الشيعى ، وعلموا أن انتسابهم الى بيت النبوة موضع شك وريبة ، أرادوا أن يقربوا مسافة الخلف بينهم و بين القوم

(١) راجع تاريخ الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٦٥ طبعة مصر سنة ١٣٠١ هـ .

(٢) تتشابه واجهة كل من المسجدين فى أن كلا منهما تتألف من برجين قائمين على طرفى الواجهة ومدخل بارز عن سمتها . وتختلف واجهة جامع الحاكم عن جامع المهدية فى أنها تزدان بزخارف ، وفى أن البرجين فيهما أجوفان .

الذين يحكمونهم ، فأقبلوا على الحياة العامة يوجهون اليها غاية جهدهم ، ويعنون بها أشد العناية حتى يصرفوا الناس عن التحدث فى أصلهم الى التحدث فى منشآتهم وأعمالهم . فاهتموا بشئون الشعب : حببوه فى طلب العلم بما كانوا يغدقونه على الطلاب من النعم ، وشجعوه على إتقان الصناعة فتقدمت فى أيامهم وازدهرت ، كما راجت التجارة وانتعشت ، وأسرفوا فى الترفيه عنه ، وسهلوا له سبل اللهو بما ابتدعوه من المواسم والموالد والأعياد التى لا نزال نحتفل بمعظمها حتى اليوم . وفى الحق لقد بلغت البلاد بفضل سياستهم هذه أوج الرقى فى أيامهم ، وفاقت مدينة القاهرة جميع العواصم المعروفة فى عصرهم فى الثروة والترف والتقدم المادى .

والآن بعد هذه الوقفة الطويلة أمام الواجهة ندخل الى الجامع لنشاهد ما بقى لنا من آثاره : أمامنا فناء واسع ، به على اليمين بناء حديث ، وعلى اليسار بقايا عقود ، وأسس أكتاف ، وجدران مهدمة . أقبل عليها علماء الآثار بحثا وتحليلا حتى استطاعوا بحذقهم أن يعطونا منها صورة ناطقة لما كان عليه المسجد وقت إنشائه ، فإذا هو شبيه بما تقدم عليه من مساجد : صحن مكشوف تطل عليه أروقة أربعة أوسعها رواق المحراب ، إذ به خمسة بلاطات ، بينما الأروقة الثلاثة الأخرى بكل منها ثلاث بلاطات فحسب . ولقد احتفظ لنا رواق القبلة بالكثير من عناصره . ففيه المجاز المتسع الممتد من الصحن الى المحراب الذى رأينا مثله لأول مرة فى الجامع الأزهر ، وفيه العقود والنوافذ والسقف والأكتاف قائمة فى مكانها حافظة لكيانها . ويدلنا تخطيطه على أن مهندسه كان متأثرا الى حد كبير بتخطيط مسجد ابن طولون : فالعقود محمولة على أكتاف بدلا من أعمدة ، وشكلها فى المسجدين واحد ، وبكل منهما طراز من الكتابة إن اختلفا من حيث الفن فى تصوير الحروف ورسم الكلمات وتباينا من حيث المادة (١) التى كتبا عليها ، فقد اتفقا فى أنهما يتضمنان آيات من القرآن الكريم ، وفى أنهما اتخذا مكانهما تحت السقف مباشرة فى كلا المسجدين .

على أننا نشهد هنا لأول مرة ظواهر ثلاثا جديرة بالعناية . أما الأولى فهى تلك الأوتار الخشبية الممتدة بين الأكتاف وبعضها تحت العقود مباشرة ، والتى تزدان بزخارف محفورة . ولقد ولدت هذه الظاهرة فى بيزنطه قبل الاسلام واستخدمها المسلمون لأول مرة فى أقدم وأجمل أثر إسلامى قائم الى اليوم : فى القبة العظيمة التى أقامها عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ هـ فوق صخرة بيت المقدس التى كانت أول قبلة اختارها النبى صلوات الله عليه وللإسلام حينما وصل الى المدينة المنورة ، والتى هى فى الواقع درة فى جبين الآثار الاسلامية جميعا فى الشرق وفى الغرب ، قد توفر حظها من المحاسن ، وأخذت من كل بديعة بطرف ، فى ظاهرها

(١) فى جامع ابن طولون طراز الكتابة محفور على الخشب ، بينما فى جامع الحاكم نراه محفورا على الجص .

وباطنها من أنواع الزواقة ورائق الصنعة ما يعجز الواصف ، وأكثر ذلك مغشى بالذهب ، فهى تتلألأ نورا وتلمع لمعان البرق ، يحار بصر متأملها فى محاسنها ، ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها . (١)

وأما الظاهرة الثانية فهى تلك القباب التى نرى اثنين منها على طرفى جدار القبلة بينما تقوم الثالثة فوق المحراب . وللمسلمين فى عمل القباب فضل غير منكور ، فهم وإن كانوا لم يبتدعوها إذ عرفها المصريون والعراقيون والرومان من قبلهم فى العصور القديمة ، ولكنهم أخذوها باليمين من هذه الأمم صغيرة ، ساذجة ، بسيطة ، وردوها باليسار الى العالم ، كبيرة ، معقدة ، جميلة . لقد ساروا بها فى مدارج الرقى خطوات واسعة ، وتجلت فى إنشائها براعة بنائيهم ، وأكثروا من استعمالها حتى لقد أضحت من المميزات البارزة فى العمارة الإسلامية ، وهذه القباب الصغيرة التى نشهدها فى جامع الحاكم تمثل لنا الخطوة الأولى للقبة المصرية الاسلامية ، فهى تقوم على مربع أنشئ فى كل من زواياه الأربع من أعلى كوة غير نافذة ، فانقلب هذا المربع بذلك الى مثمن أمكن للقبة أن تستقر عليه بسهولة . (٢) وسنرى فى خلال هذا البحث كيف تمت هذه القبة الصغيرة وتطورت حتى استدار هلالها بدرا فى عصر السلطان الغورى .

وأما الظاهرة الثالثة فتبدو فى الزخرفة الرائعة التى يزدان بها هذا المسجد ، سواء فى مئذنتيه أو واجهته أو نوافذه ، فلقد ظهرت فيه الزخرفة النجمية الشكل التى تعتبر من مميزات الفن الإسلامى فى أبسط صورها ممثلة فى نجمة ذات ثمان شعب ، وسترى أن هذا الضرب من الزخرف قد تعقد وتطور فيما بعد ، حتى لقد ارتفع عدد الشعب الى عشر واثنتى عشرة بل وأكثر من ذلك ، وزخارف الواجهة المنقوشة على الحجر تدل على أن الفن العصرى الاسلامى قد خطا الى الامام خطوة واسعة اكتملت بها شخصيته ، وشبابيك الجص التى تسد النوافذ بعد أن كانت زخارفها هندسية قوامها دوائر متشابكة كما هو الحال فى مسجد ابن طولون قد أصبحت الآن مزاجا من الكتابة الكوفية الرائعة والفروع النباتية الجميلة ؟ يتبع

محمد عبد العزيز مرزوق
الأمين المساعد بدار الآثار العربية

(١) رحلة ابن بطوطه ص ٣٣ طبعة مصر سنة ١٣٢٢ هـ

(٢) كانت معظم القباب القديمة صغيرة تحمل فوق غرف مستديرة وكان استعمالها محدودا جدا وفى القرن الثانى الميلادى اهتدى السوريون الى اختراع طريقة معمارية استطاعوا بها إنشاء القبة فوق غرفة مربعة وفى القرن الثالث اهتدى الفرس الى وسيلة أخرى تؤدى الى نفس الغرض وقد أخذ المسلمون هذين الاختراعين وهذبوهما واستطاعوا بهما أن ينشئوا أعظم القباب وأبدعها .

انا لله

إنا لله وإنا إليه راجعون . ننعى الى قراء مجلة الأزهر واحدا من العلماء العاملين هو المرحوم الأستاذ الجليل الشيخ عبد الرحمن الجزيرى أحد محرريها الممتازين . توفاه الله فى أوائل شهر رمضان بعد مرض مزمن لازمه سنين ولكنه ما كان يقعده عن الافادة والتأليف ، فكان لوفاته وقع عظيم فى قلب كل من عرف فضله من قراء هذه المجلة .

كان رحمه الله كبيرا لمفتشى المساجد بوزارة الأوقاف ثم استقال منها بعد قيامه بمهمته سنين ، واشتغل بتدريس الفلسفة فى كلية أصول الدين ، فكان من أحرص المدرسين على الاضطلاع بما عهد إليه ، وكان يحمل نفسه فى هذه السبيل جهدا باهظا تحت ضغط علته التى كانت تتقاضاه الراحة المطلقة . ولما عين محررا لباب السنة من هذه المجلة كان لا يألوها مثابرة وعناية .

وله رحمه الله كتاب ضخم فى الفقه يقع فى أربعة مجلدات ، يعتبر مرجعا قيما لمسائله ، وله كتب أخرى فى أغراض شتى كلها ممتعة . تغمده الله برحمته ، وألهم آله الكرام الصبر على فقده .

***

الرسالة الفاروقية الخالدة ، فى مناسك الحج والعمرة :

وضع هذا الكتاب مهندس ضليع بمصلحة المساحة والمناجم بالزقازيق ، هو الأستاذ عبد الوهاب مصطفى ، وقد أقرت ما فيه لجنة من العلماء تحت إشراف فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبى العيون شيخ علماء الاسكندرية .

أهدى المؤلف الفاضل كتابه هذا لحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ، ووسمه باسمه الكريم ، وهو جدير بأن يحظى بهذه التسمية المباركة . وإنى جد معجب بهذه الرسالة لما اشتملت عليه من مناسك الحج بحيث لا يحتاج مقتنيها الى مرجع غيرها ؛ وجمعت الى ذلك من أوصاف الأمكنة المقدسة ، ما يجعل تاليه كأنه يشاهد بعينيه تلك المواطن الشريفة ، فى بيان شائق ، وشرح موف بالحاجة ، فهو من الكتب النادرة التى يصاحب فيها واضعها التوفيق فتأتى فوق ما يرجو أن تكون عليه .

الى حضرات قراء مجلة الازهر

بهذا العدد تم المجلد الثانى عشر لهذه المجلة . وسيصدر أول عدد من مجلدها الثالث عشر فى أول المحرم من سنة ١٣٦١ إن شاء الله . فنرجو حضرات قرائنا أن يذكروا أن نظامنا يقضى علينا بأن لا نرسلها إلا لمن يجدد طلبه لها مصحوبا بقيمة اشتراكها كله أو نصفه ، فنرجوهم أن لا يعتبروا ذلك جفاء منا . وليكن هذا مجزئا عن الكتابة لكل من حضراتهم خاصة .

References

1. Bosworth Swith "Mohamed and Mohamedanism."
2. "Islam" Her Moral and Spiritual Value" by Major Arthur Glyn Leonard.
3. Crawford's "Indian Archipelago."
4. Rev. J. N. Thoburn, "Report for the Allahabad Missionary Conference."
5. Papers relating to "Her Majesty's Colonial Possessions"
6. Livingstone's "Expedition to the Zambesi."
7. Trench on "Words." 8. Webster's Dictionary.
9. Renan, "Etudes d'Histoire Religieuse" 10. Quarterly Review.
11. George Sale's "Translation of the Koran, Preliminary Discourse."
12. Sir Henry Layard's "Early Travels."
13. Abulfeda. 14. Ed. Pocosk. 15. Koran.
16. Eusebius History. 17. Epiphan.
18. Sir William Muir, "The Life of Mohammed."
19. Ibn Athir. 20. Herodotus. 21. D. Herbelot.
22. Al Shahristani 23. Abul Farag
24. Sayed Amir Aly, "The Spirit of Islan."
25. Ibn Hisham. 26. Hugh's "Dictionary of Islam."
27. Mishkat-ul-Massabeeh. 28. Al Tabari. 29. Al Wakidi.
30. Droits Musulman by M. Querry. 31. Caussin de Perceval.
32. Stanley Lane Poole, "Selections from the Koran."
33. Lectures on "Heroes and Heroship," by Thomas Carlyle.
34. Old Testament 35. Al Razi 36. Qadi Ayad's "Al Shifa."
37. Washington Irving, "Life of Mohamet."
38 Dr. Noldeke's Book on Islam.
39. T. W. Arnold's "The Preaching of Islam."
40. The Review of Religions. 41. Al Ghazali.
42. Nawab Sultan Jahan Begum Sahiba, Ruler of Bhopal's "Muslim Home."
43. "Mohammedan Jurisprudence," by Abdul Kader.
44. New Testament. 45. J. Milton's "A Treatise on Christian Doctrines."
46. Holland's Jurisprudence. 47. "Ghunyat el Talibeen.
48. Malik's Mowattaa. 49. Fatawi Moughiri.
50. "Personal Law of Mohammedans" by Abdul Kader
51. Bukhari's Commentary. 52. Zamakhshari's Commentary of the Koran.
53. Goethe's West-Oestlicher Divan.
54. Peake's Commentary of the Bible.
55. Encyclopaedia Biblica. 56. Rev. Dummelow's Commentary.
57. Dr. Ph. Schaff's Companion to the Greek Testament and the English Version
58. Dr. Weymouth's Introduction to St. John's Gospel.
59. Rev. Margoliouth's Introduction to Rodwell's Translation of the Koran.
60. Chambers's Encyclopoedia.

ERRATA

The reader is kindly requested to make the following corrections before reading :

Wrong	Right	Page	Line
Permitted	permitted	3	12
Bosworte	Bosworth	14	Footnote(5)
prophet	Prophet	17	21
Godesses	Goddesses	20	28
godesses	goddesses	23	12
querrels	quarrels	24	27
preliminery	preliminary	24	34
where	were	26	27
constallation	constellation	26	34
whom	the males	30	17
so persecution . . .	to persecution . . .	29	21
occured	occurred	33	39
vally	valley	47	16
slin	slain	47	22
niles	miles	50	27
Droi	Droits	50	footnote
ntrcductiou	introduction	51	22
idolators	idolaters	52	26
alloted	allotted	54	8
Prophe	Prophet	54	32
Koarn	Koran	55	38
prophet	Prophet	56	38
detachement	detachment	58	1
Suirit	Spirit	58	footnote
nor philosopher . . .	nor a philosopher . .	64	5
hhite	white	66	5
veiwing	viewing	69	30
Cod	God	71	
declars	declares	75	36
bath	hath	80	33
spec es	species	88	14
resistence	resistance	89	27
Begam	Begum	94	footnote
Begam	Begum	96	footnote
arbitratiors	arbitrators	111	8
to be	be to	136	32
ihe	the	140	38
excellencies	excellences	152	27
bu	but	157	6
worshiping	worshipping	189	37
texual	textual	199	32
vailed	veiled	207	52
or	of	214	31

The style is excellent. If the book is published I recommend that copies be placed in the School Libraries as it would be read by the European member of the staff with profit.

— 10 —

Translation of a report submitted to H. E. the Minister of Education, Cairo by Professor Gad el Moola Bey, Inspector General of Arabic at the Ministry :

I have gone through this Book, "The Religion of Islam." It embodies authentic illustrations of a good deal of Islamic questions. As such, it serves as a guide to the Religion of Islam. I agree with my colleague, Professor Walker in that copies of the Book be placed in the School Libraries as it will be read by the members of the European Staff with profit.

— 11 —

Extract of a letter addressed to the author by Professor A. H. Sewyer, Professor of English, Faculty of Agriculture, Egyptian University, Cairo.

. . . .

It would be a great loss if this book were not published.

There is a great new movement in all Moslem Countries, tending towards the development of character and the substitution of deeds for words. There is, at the same time, a determination to use all the best that the scientific developments of the West have perfected. I therefore, hope that someone equally gifted and devout may write a Companion Volume to bring out the good points of Christianity in the formation of right thinking and action, so that a study of the two may lead to a still better feeling between the followers of the two great Religions, which have done so much to help world development, Islam by its great brotherhood under the One God as expounded by Mohamed, and Christianity by its individualistic responsibility to imitate as far as possible, the life of Christ.

A full and accurate knowledge of each other's aspirations must lead to that good understanding you claim as the goal of your book.

— 8 —

Translation of an Arabic letter addressed to the author by Professor Mohammad Farid Wagdy Chief Editor of the Azhar University's Official Review :

May God's Peace and Blessings be showered upon you !

I have perused your very interesting book "The Religion of Islam." I find it to be one of the best compilations that have ever dealt with this important subject. Your minute and clear exposition of the fundamental and more essential doctrines of Islam are remarkably admirable. The book shows the author to be a great learned scholar, who, meantime, is gifted with such a brilliantly enlightened spirit.

I have no sooner brought up the matter to the notice of His Eminence the Rector of the Azhar University asking his authorisation to insert the Book in monthly instalments in the University's Official Organ, Al Azhar Review. I am glad to state that His Eminence is so pleased to give his acceptance. Hence my letter to you, begging you will kindly let me know if you have no objection to the project being carried out as soon as possible. . . . .

Again, I invoke upon you Almighty God's Peace and Blessings.

— 9 —

Extracts of a Report submitted to H. E. the Minister of Education, Cairo by Professor J. Walker of the Ministry :

The book is a work of considerable literary merit.

I have, with very great interest, read the manuscript of the "Religion of Islam and the life of the Prophet Mohammed."

I should say : that as a devout follower and believer in the Koran and the source of its inspiration, the Prophet Mohammed, you have in this treatise set forth such an interpretation of it as shall make more easily understood the fundamentals of this Prophet's teaching.

A fine charitable spirit, accompanied by lucid expression and diction, pervades the whole text.

— 6 —

Copy of a letter from Mr. Hermann Besser, Orientalist, Cairo :

I have just finished the reading of your book and I should like to express to you the deep impression its perusal has made upon me. As one, to whom the study of Eastern religions has been a matter of great attraction during more than forty years and to whom the various works on the Prophet and his Mission are not altogether unknown, I will say that I have never seen this great subject treated with more sincerity, dispassionateness, lucidity, fairness and, at the same time, with a nobler conviction of the truth of the author's own faith, that the work could not have been better described than that of a True Moslem.

As such, it should be of inestimable value to all searchers after Truth throughout the world, and this particularly in an age when materialism threatens to discredit and overcome, in the minds of mankind, those "Things That Really Matter."

That a book of this nature cannot but call forth criticism and opposition from the part of orthodox adherents of other creeds is certain, but as long as these follow the example of tolerance set in your book and no other can matter, the great value of your book and its leading idea of helping men forward, however little, in the way of right understanding, will, I truly believe be, in no wise, affected.

— 7 —

Copy of a letter from Colonel A. S. John Cooks, of London :

I have read your book with great interest. I am fully alive to the need of a better understanding by the Christian Nations of the basic facts of the Islamic Religion and I wish your book every success in consequence.

Many of the English speaking races will, I feel sure, welcome the opportunity to read a book which gives such a restrained and well balanced account of the teaching of Islam.

In your book you have collated and compiled in a most interesting manner the relevant facts about Mohammedanism. The person of Mohamed must always be a subject of great interest and the gathering of so much information between two covers forms most illuminating reading.

While many readers may have a general idea as to the teaching of Islam, this book presents an opportunity to authenticate their knowlodge and appreciate the religious attitude of present day Moslems, on such matters as polygamy, status of women etc.

The prevailing tendency of the world is to judge a religion by its followers instead of first enquiring what the religion taught by the founder was. I think the present book will do much to present the teaching of the Prophet Mohamed in a reasonable and enlightened manner to all who by inclination or circumstance come in contact with his followers and read it.

I must congratulate you on the excellence of the diction and the general tone of moderation which pervades the book.

— 4 —

Copy of a letter from Professor Gerald Brackenbury of the Higher Training College, Ministry of Education Cairo :

I have read Ahmed Galwash's book on Islam with the greatest interest. It presents the case for Islam in a very striking way, and shows a deep knowledge of the Higher Criticism of the Bible and of the most recent arguments used by the chief Anglican Divines against the literal inspiration of the Scriptures. By his quotations from Christian writers he shows himself independent of mere prejudice.

It is important in these days of free thought for all liberal-minded Christians to escape from their prejudices inherited from the Crusades and to learn the spirit of Islam as it exists in the mind of a devout Moslem.

I hope the book will be published and will have the success it deserves. The mastery of English shown is remarkable.

— 5 —

Copy of a letter from Dr. H. E. Morton Howell, Minister and Plenipotentiary of the United States of America to Egypt :

Comments, Reports
and
Letters on the Book.

— 1 —

A letter from Mr. William M. Johnson (Pussyfoot) of the U.S.A ;

I was much interested in the manuscript of your book. I read it far into the night and got a pretty good idea of its contents.

In regards to your remarks on plain speaking in your preface, I could not find anything in the book that need offend the most sensitive.

It is, of course, and properly so, written from the Moslem standpoint, and I should like to see it, published. I would like to have Christians generally read it, for it would give them a new conception of what Islam really is.......

If there is anything that I could do in London to promote the project of publishing the book I would be glad indeed to do so.

— 2 —

Extracts of a letter from Mr. E. V. Finbert, editor of the worthy review "Les Messages d'Orient," Paris :

Many of our friends who are specialised in religious problems are delighted with the substantial documentation and specially with the fervour and sincerity of your writing. I would ask you to send me as soon as possible the manuscript which I already had the pleasure to read with the greatest interest. I would start translating it into French and have it published in our collection of modern eastern works.........

I am always with you in spirit and communion of what constitutes the highest of life.

— 3 —

Copy of a letter from Major T. H. Stern, Adviser, Irrigation Office, Alexandria, Egypt :

I have read your book "The Religion of Islam" with much interest and feel that the objects set forth in the preface have been very ably pursued.

Information about the religion which numbers such a vast proportion of the world's inhabitants amongst its adherents connot but be of very real value.

CONTENTS

him master of himself, and dignifies and exalts him among the creatures of God. Gifts of all other sorts are nothing, to compare with it. If we had not thepower to rule our own actions by our own will, we should be infinitely poorer in moral worth than we are now. Therefore man should be anxious to be dignified in this respect, but the Holy Koran, in the above verse, asserts, that man is unjust and ignorant in this connection. He is unjust, in that he abuses his moral freedom, in choosing to do wrongful deeds, instead of righteous ones. And he in ignorant, in that he gives no heed to the consequences of his choice, because doing what we know that we ought to do, is not only for the good of the world, but likewise, and far more, for the good of ourselves. We derive infinitely more benefit from our own performance of an act of uprightness; and infinitely more harm from an act of wrong, than the good we bestow, or the harm we inflict. The good or ill we do, goes deeply into our nature—refines or coarses it, lifts or lowers it, and is either inspiring or deadening to all that is best in soul and mind. Few men reach old age without saying sadly, "Oh, that I could live my life again," because, time has shown them their youth for a different development of themselves and a different shaping of their lives. In this connection the Holy Koran says :

"Say, O, my worshippers, who have transgressed against your own souls, despair not of the mercy of God : seeing that God forgiveth all sins : for He is Gracious and Merciful. And be turned unto your Lord, and resign yourselves unto Him, before the punishment comes suddenly upon you, and ye perceive not (the approach thereof); when a soul shall say, 'Alas, for that I have been negligent in my duty towards God ; verily, I have been one of the scorners; ' or say : 'If God had directed me, verily, I had been one of the pious' ; or say, when it seeth the prepared punishment: *'If I could return once more into the world, I would become one of the righteous.'* But God shall answer : *'My signs came unto thee heretofore, and thou didst charge them with falsehood, and wast puffed up with pride ; and thou becamest one of the unbelievers."* *(Koran, ch. XXXIX.)*

Conclusion :

In brief, it is reasonable, as well as it is universally religious, to believe, that nothing whatsoever, be it a circumstance, an action or a thought, can take place against the will of God. Again, nothing can happen in the world, either as proceeding from a human being, an animal or a thing, which God had not, from eternity, known and willed it to be. By "will" is here meant the proper acceptation of the Word, namely, the decree, the determination, and not the desire or inclination.

There is nothing contradictory, in holding the belief in absolute predestination and the belief in self responsibility.

END OF VOLUME ONE

fortune and prosperity be his luck, he is not to put distrust in abundance and plenty, and so forget his duties towards his Maker, Sustainer and Nourisher. He is warned by revelation, not to make these very blessings of God a pretext for encroachment upon the rights of others, and thus change them into a curse for himself.

With regard to freedom of human will, the Holy Prophet of Islam has positively declared man's undisputed right, to make a choice between good and evil. Again and again, in the Holy Koran, this point has been emphasized, lest man should forget his own responsibility for his conduct. Indeed, the whole trend of Koranic ethics points in this direction. "Say, the Truth is from your Lord, whosoever may wish, he may believe ; and whosoever may wish, he may disbelieve," says the Holy Koran. God has moreover pointed out to man the right path, and ordered him to follow it, and the wrong one and warned him against taking it. In this respect the Koran says : "Verily, we have shown to man the right path ; he may be grateful or ungrateful," meaning there is no compulsion, on the part of God, felt by man to bear upon him to adopt this course or that Again we read : "Verily this is a reminder to all people; for those of you who wish to take the right course." Here too, man has been let alone in the matter of selection. Further on : "It is for God only, to furnish strong proof, and if He so pleased (to influence man) He would have guided you all." This means, that Almighty God has chosen to let each man feel, that he is a free agent who acts under an intelligent free will. Denial of interference cannot be made in clearer terms. If God were so pleased, as to enforce His own desire upon man, by depriving him of his personal moral freedom, He would not have let a single man go astray. "If God were pleased, He would have brought together the whole of humanity into one and the same path," namely, the path of righteousness. But He has so ordained that He made man to feel that there is no compulsion brought to bear upon him, to incline him this way or that. Man is absolutely conscious of being master of himself and the organiser of his own career. He is given power, by which he can accomplish his own desires, in virtue of the moral freedom which he enjoys. However, accroding to Islam, the power of self-government, with which we are endowed, is a trust, and not a free gift. It not only entrusts our own destiny to ourselves, but it actually trusts, or seems to trust, the whole final outcome of God's creative work to our treatment of it. This earth, at least, is put into our hands, to make what we will of it and of ourselves, its inhabitants, To this effect, the Holy Koran says: "We have proposed the trust unto the heavens and the earth and the mountains, and they refused to undertake the same, and were afraid to undertake it ; but man undertook it, (yet) he is verily unjust and ignorant." This means, that of all God's creations man alone accepted the trust of moral freedom which makes

only with Him, Man's duty is, to spare no effort in observing the injunctions of his Maker, and then he is quite safe.

Prosperity and plenty often tempt man, to turn away from God. Touching this point, the Holy Koran says : "O believers, let not your children make you forget your God." Man makes use frequently of these blessings of God, as a means to encroach upon the rights of others, or as an encouragement to neglect his devotional duties towards God. Therefore the Holy Book wishes it to be remembered, that temptation lies hidden under the enjoyment of wealth and offspring.

Even as man is liable to temptation by abundant prosperity, so is he apt to be retarded from the fulfilment of his duties by misfortunes, However, having perfect faith in predestination, a true believer will not forget, that what happens, good or bad, has been predetermined and decreed by God, and that the inevitable must come to pass, in spite of human efforts to the contrary. Therefore he is bound to submit himself cheerfully and resignedly to all trials. Referring to this, the Holy Koran says : "And We will most certainly try you with fear and hunger, and loss of property and life and blessings ; (therefore, O Prophet) give good tidings to the patient who, when misfortune befalls them, say : Verily, we belong to God, and to Him we shall verily return. Those (the patient) are they, on whom blessings and mercy from their Lord (will descend), and those are the followers of the right course." Thus Islam teaches, that misfortunes serve as good tidings, and as fore-runners of heavenly blessings. And with a heart full of faith in predestination, a true believer cheerfully submits to hardships and trials. Those having a submissive frame of mind under adverse circumstances, "On them," says the Holy Koran, "descend the blessings of God." With Islam, a calamity is a mercy in disguise. Alive to the purpose of divine will, a believing Moslem resigns himself with a cheerful heart to his fate. It is God who alone governs the universe and disposes thereof, according to His eternal and irrevocable Will. One of the comfort-giving verses of the Koran read as follows : "Say : O God, Who art the Owner or the Kingdom : Thou givest authority, to whom Thou wilt ; and Thou takest away authority, from whom Thou wilt ; Thou exaltest whom Thou wilt and Thou humblest whom Thou wilt : in Thy hand is all the good, and Thou art Omnipotent. Thou makest the night to enter into the day, and Thou makest the day to enter into the night. (Thou) bringest forth the living out of the dead, and (Thou) bringest forth the dead out of the living, and (Thou) providest sustenance, to whom Thou wilt, and even so without limit." Thus, under conditions of hardship and misfortune, a true believer will not neglect his duties towards God. With the utterance of his noted formula, "To God we belong, and to Him shall we return," he submits to adversity, and goes on with his duties uninterrupted. On the other hand, if good

actions. The Islamic doctrine of predestination may be reduced to two distinct beliefs :

(1) that God has determined the destiny of man, not only according to the foreknown character of those whose fate is so determined, but also according to God's own will. There is no dispute on this point between divines of all creeds. Judaism, Orthodox Christianity and Islam, all not only agree and acquiesce in this, but they unreservedly admit it, and emphatically declare any possible notion to the contrary to be blasphemy.[1]

(2) that man is directly responsible for his own actions, so long as he is master of his free choice. As man is certainly sensible, that he is morally a free agent, he is accountable for all actions affected by his volitional power. In the Koran we read, that God does not saddle a man with responsibility beyond his capacity to bear it. There is a vast sphere of human activity, where man's apparent will enjoys freedom of control and direction. Consequently, a man is held responsible, by religion, for the right or wrong exercise of his faculties. It is, therefore, a matter of the deepest concern to man, to ascertain the rules and regulations which should guide his conduct in that connection. To supply this need, the All Merciful God has endowed man with intellect, and revelation. By the help of intellect man endeavours to work out his moral and spiritual evolution in all his dealings with his Creator and his fellow creatures. But man's obligation towards God and man, surely involve complications, too delicate for unaided human reason. The result of an intellectual error might be the violation of human or divine laws. Hence, the absolute necessity of direct guidance and laws from God to make up for the frailties of reason, and to enlighten man, as to how he ought to regulate his relations with his Maker, as well as with his fellowmen. In obedience to these laws, man can carry out his duties, and attain what is best in life. Laws relating to human life, have been summed up in the following verse of the Holy Koran : "Surely God orders justice and good works (to all), and (orders) kindness to relation, and He condemns indecency, illicit deeds, and all wrong. He admonishes you, that you may be mindful."

With regard to man's guidance as to his relation to God, the Holy Koran tells us : "Say : my prayers, my sacrifice my life, my death, is for God, the Lord of the worlds Who has no partner with Him. This I have been ordered, and am the first to submit." In carrying out his duties in life, man must not lose sight of God's ordinances, and of what He desires of him, so that he should in no way satisfy himself or his fellow creatures, by disobeying the Universal Cherisher of all, the Creator of all.

Through his faith in predestination, man can behave faithfully and righteously, since he is confident, that all power, help and sustenance lie

(1) See Molesworth's and Chamber's Cyclopædias, Art. Predestination.

predestination. In fact, belief and faith in divine predestination can neither necessitate denial of human consciousness of freedom of will, nor eliminate the factor of individual responsibility from human conduct. So long as man is conscious of personal freedom of will, choice and action within himself, the sense of individual accountability which is the mainspring of moral life, always remains untouched. The said belief, therefore, should neither interfere with man's enthusiasm for progress, nor deprive him from freedom of will, which faculty he is, undoubtedly, conscious of enjoying.

To believe in heart, as an orthodox Jew, Christian or Moslem is bound to, that whatsoever one had to do, right or wrong, whatsoever has befallen one, the minutest movement of man, and the meanest event of his life, has been irrevocably predestined by God from eternity ; and that no amount of effort to the contrary can alter the course of events, predestined by the absolute divine authority. Such a purely religious dogma can, on no account, interfere with any amount of human morality. The doctrine of predestination does not imply denial of man's freedom of will and action. Each componant part of man is bound by religion, to fulfil some function : the heart and conscience, to believe in God, His attributes and His predestination ; the other external members of man, to work, each according to its respective faculty and aptitude, as recommended by the law. Now, if the heart fulfils its proper function, namely : to believe that nothing whatsoever that has happened, or will happen, in the universe, is contrary to the will of God, the function of no other member is necessarily offended or retarded, as it cannot be suggested, that, under such a religious belief in God and His divine attributes, the eyes shall be prevented from seeing, the ears from hearing, the feet from walking, the tongue from speaking, or any other part of man, from the proper discharge of its respective duty.

Therefore, it is quite unfair and illogic for anyone to claim, that faith in predestination, as required by orthodox religion, tends to damp all enthusiasm for progress. Such a claim might be reasonably admitted, only if a man were given accurate foreknowledge of his fate and destiny. If he knew, for instance, from the beginning, that he was doomed to perdition, he might, very naturally, make no effort to resist his destiny, and no attempt at progress : or seeing that he was predestined to salvation, he might make no effort to deserve it. Man, having no foreknowledge whatsoever of his own destiny, his duty lies absolutely in adherence to the law. As far as man's intelligent free action is concerned, he has nothing more to do with the eternal decrees of God, than to have perfect faith in them.

Reason and logic, both dictate to man the belief in God, the One, the sole Creàtor, the absolute Disposer. In like manner, as a cultivator cannot rightly claim to be the creator of his own harvest, so it is the case with man : he cannot rightly claim to be independently the originator of his own

tyrannise, to ascribe plurality to God, or to rob is to render obedience to Him, which obviously enough, is not the case.

(5) If infidelity and sin are decreed by God, it follows that God is in favour of sin and infidelity, but to speak thus of God is blasphemy.

I will answer these questions as briefly as possible, not from a philosophical point of view, but from a strictly religious aspect, this book being devoted exclusively to matters of purely religious nature.

The apparent contradiction involved in the doctrine of predestination, may be reasonably solved by considering, that man is not acquainted, in this life with anything of what has been predestined for him by the Almighty God. Therefore, it cannot be suggested, that under the doctrine of predestination, man's personal freedom of choice and action is affected in any way. Man is so created by All Powerful God, that he is sensible of a personal free will, choice and action, so that belief in predestination by no means interferes with his moral freedom. To speak of man as a free agent, we mean that he is not withheld from action by any external cause, that, morally, he is neither a prisoner, nor a slave, nor paralysed, nor otherwise disabled. Next, we may apply the term "free" to the eternal or psychological decision ; which he is externally free to carry out. In this sense, the freedom of an action evidently consists in the fact, that the action proceeds from the intelligent choice of the agent, and such choice is plainly and strongly contrasted with the mechanical determination which exists in the physical world.

As God's predestination is altogether a secret to man, human beings are in all ages, made acquainted, through God's prophets, with what duties they should perform, and what prohibitions they must respect, so that no act of disobedience, on the part of man, can be justified on the plea of ignorance of what he ought or ought not to do, or on the plea, that man was actuated to disobey or to sin, by divine decree. Man is not cognisant of anything he was predestined to do, whether it be good or bad, until he has committed it, by his own choice and own freedom of will, of which he was quite conscious. It is then, and only then, that a man realises, that his act was predestined. On the other hand, God's predestination has ever been associated with divine foreknowledge of all human character and conditions. As the Almighty God predestined a man to sin, He, at the same time, foreknew that that man would commit the sinful deed, while acting by his own free and intelligent choice. A sinful man can on no account shun the moral responsibility for his deeds, on the plea of having acted upon irrevocable divine predestination, of which he was totally ignorant. Being absolutely conscious of a personal freedom of will and action, an evil doer cannot reasonably justify his action by referring to

happen in the world, whether it respects the conditions and operations of things, or good or evil, or obedience or disobedience, or sickness or health, or riches or poverty, or life or death, which is not contained in the written tablet of the decrees of God. But God hath so decreed, good works, obedience, and faith, that He ordains and wills them, that they may be under His decree, His salutary direction, His good pleasure and command. On the other hand, God hath decreed and does ordain and determine evil, disobedience and infidelity ; yet without His salutaiy direction, good pleasure and command ; but only by way of temptation and trial. Whosoever shall say, that God hath not indignation against evil and unbelief, he is certainly an infidel."

The doctrine of predestination, or the absolute decree. of event, both good and evil, is a recognised element in many creeds.[1] This doctrine has given rise to as much controversy among the Moslems, as it did among Christians ; but the former, generally, believe in predestination, as being in some respects, conditional[2].

Five points, however, arise from the doctrine of predestination, as given in detail in the following formula :

(1) If the destiny of man is determined by the divine purpose, how can we explain man's freedom of choice. Man is absolutely conscious of personal freedom of action, which it is impossible to deny.

(2) If man is affected, in all his actions, by eternal predestination, what then is the meaning of human conduct, and the individual accountability which is the mainspring of moral life ?

(3) If what is to be, must be, with the overruling and irrevocable Decree of God, what is the use of divine commands and prohibitions ; rewards and punishments ; promises and threats ; and after all, what is the use of Prophets, Books etc.

(4) Some acts of man are bad, such as tyranny, polytheism, robbery, etc. If these are predestined and predetermined by God, it follows, that to

---

(1) We read the following statement in Chamber's Cyclopædia :—

"The doctrine of predestination is explicitly enunciated in Rom. 8 : 29f 9, 10, 11, and Eph. 1 : 4f, 11, and it is a recognised element in many creeds (e.g. Conf. of Faith, III : Church of England Articles, XVII.) We further read in the work : The Apostle Paul was doubtless aware of inconsistency for it was a crux of Jewish theology (see Ederstein's Jesus the Messiah, 1 : 316 ff) ; but the Apostle was accustomed, to isolate any particular doctrine, as occasion required, without being careful, to reconcile it with the real or apparent antithesis. (See Chamber's Cyc. Art. Predestination.)

(2) See, "The manners and customs of the Modern Egyptians," by Ed. Lane p. 69.

unto those of the people of hell.'" Hearing the above teaching of the Prophet, a man said to him : "Of what use will deeds of any kind be ?" The Prophet said : "When God createth His servant for Paradise, his actions will be deserving of it, until he die, when he will enter therein; and when God createth one for the fire, his actions will be like those of the people of hell, till he die, when he will enter therein."

The Prophet of God also said to his companions :

"There is no one amongst you whose place is not predestined by God, whether in hell or in paradise." The companions said, 'O Prophet of God, since God hath pre-appointed our places, may we confide in this belief, and abandon our religious and moral duties ?' He said ; 'No, because the righteous will do good works (and be obedient to God), and the wicked will do bad works' : after which the Prophet recited the following verses of the Koran : "To him who giveth alms, and feareth God, and yields assent to the excellent creed, to him will we make easy the path to happiness. But to him who is worldly, and is indifferent, and who does not believe in the excellent creed, to him we will make easy the path to misery."

The Prophet of God also said : "The first thing which God created, was a (divine) pen, and He said to it, 'Write', it said, 'What shall I write ?' And God said 'Write down the fate of every individual thing to be created,' and accordingly the Pen wrote all that was, and that will be, to eternity."

The Prophet also said : "God hath predestined five things to his servants ; their duration of life, their actions, their dwelling places, their travels and their portions."

It happened, that one of the companions said to the Prophet : "O Prophet of God, inform me respecting the medicines which I swallow, and the shields which I make use of for protection, whether they can resist any of the decrees of God ?" The Prophet answered : "These also are by the decree of God."

The Prophet of God once came out of his house, when the companions were debating about fate, and he was angry, and became red in the face. And he said, "Hath God ordered you to debate of fate ? Was I sent to you for this ? Your forefathers were undone through debating about fate and destiny. I conjure you not to argue on those points."

The doctrine of predestination, as forming an essential part of the Mohammadan orthodox faith, may be summarised in the following terms :

"A Moslem should believe in his heart, and confess with his tongue, that the most exalted God hath decreed all things ; so that nothing can

will perish, like those of brutes, and will not be rewarded in the next life. Commenting on this false charge, Mr.G.Sale made the following pertinent observation :

"....it is certain that Mohammad had too great a respect for the fair sex, to teach such a doctrine ; and there are several passages in the Koran which affirm, that women, in the next life, will not only be punished for their evil actions, but will also receive the rewards of their good deeds, as well as the men, and that in this case God will make no distinction of sexes [1]."

6. Predestination

The sixth pillar of the Mohammadan faith is the belief in predestination. Whatever has, or shall, come to pass in this world, whether it be good or evil, proceeds entirely from the divine Will, and has been irrevocably created after a fixed decree. The Koran distinctly states :

"All things have been created after a fixed decree." (ch.IV : 49)

"No one can die, except by God's purpose, according to the book that fixeth the term of life." (ch. III : 139)

"The Lord hath created and balanced all things, and hath fixed their destinies and guided them." (ch. XXXV ii : 2)

"Say : By no means can aught befall us, but what God hath predestined for us." (ch. IX : 51)

"God creates what He will." (ch. XXIV : 44)

"....nor is there any thing not provided beforehand by Us, or which We send down, otherwise than according to a foreknown decree" (ch. XXII : 40).

"....and Who created all things, and determined respecting the same, with absolute determination." (ch. XXV ; 2)

The following are also a few sayings of the Holy Prophet, bearing on God's predetermination :—

"....and God said to Adam : 'I have created this family for paradise, and their actions will be like unto those of the people of paradise' and God said to him : 'I have created this family for hell and their actions will be like

(1) G. Sale ; Prelim. Disc.

Belief in this bridge is essential, to complete the article of creed of the Day of Resurrection.

The infidels alone shall be doomed to eternal damnation. Those who have embraced the true religion of God, even if they have been guilty of atrocious crimes, shall be delivred from hell, after they have expiated their sins by their sufferings. The orthodox doctrine of the Moslem Reliegion is, that no infidel who denied the existence of God, or anyone who did not believe in the unity of God, shall ever be redeemed; but no person who has believed in the existence and unity of God, shall be condemned to eternal punishment.

As to whether paradise and hell are already existent, or are to be created hereafter, the orthodox doctrine of Islam is, that they were created even before the world.

The felicity of the righteous in paradise, and the pains of the wicked in hell, will vary in degree, according to their merits or demerits, respectively. The happiness and felicity of the dwellers of paradise, on the one hand, and the anguish and pains of the inhabitants of hell, on the other, are according to the orthodox doctrine, sensuous and material, both body and soul being entitled or subject to them, respectively. But, the most happy will find the joy of joys, to consist in the beatific visions of the soul in the presence of God. The Prophet said : "The most favoured of God will be he who shall see the face (the glory) of his Lord, night and morning, a felicity which will surpass all the pleasures of the body, as the ocean surpasses a drop of sweat." The reward of virtue will not be confined to an exact measure of man's good works ; it will far exceed his deserts. But the recompense of evil will be strictly proportioned to what a man has done. "They who do right, shall receive a most excellenct reward, and a superabundant addition ; neither darkness nor shame shall cover their faces : these shall be the inhabitants of paradise ; they shall continue therein for ever. But they who commit evil, shall receive the reward of evil, equal thereunto, and they shall be covered with shame, as though their faces were vailed with pieces of nights of profound darkness[1]."

The foregoing is all that is incumbent upon a true Moslem to believe, concerning the Day of Resurrection.

Finally I must, before quitting this chapter, refute a falsehood of vulgar imputation on Mohammadans who are reported, by some Christian writers, to believe, that women have no souls, or, if they have, that they

(1) Koran, ch. x.

their respective owners. God will command the various Apostles, to bear witness against those, to whom they have been respectively sent. Then every person will be examined concerning his actions in this life; not, as if God needed any information in this respect, but to oblige the person, to make public confession and acknowledgement of God's justice.

The next event to take place after the resurrection is over, is the ordeal of the resurrection balance, wherein the weights of all men's actions shall be weighed. According as the good or evil actions shall preponderate, sentence will be given; those whose balances are laden with good works, will be saved; but those whose balances are light, will be condemned. Belief in this balance also forms an essential part of the fifth article of Faith [1].

The above examination being past, and every one's actions weighed in a just balance, mutual retaliation will follow, according to which all persons will have satisfaction for the injuries they suffered. The manner of giving this satisfaction, will be by taking away a proportionate part of the good works of him who did the injury, and adding it to those of him who suffered. If, after this is done, there remains of a person's good works as much as equals the weight of an ant, God will, of His mercy, cause it to be doubled to him, that he may be admitted to Paradise. But if, on the contrary, a person's good works be exhausted, and there remain evil works only, and there be any who have not yet received satisfaction from him, God will, of his justice, order, that an equal weight of their sins be added to his, that he may be punished for them in their stead, and be sent to hell, laden with both. This will be the method of dealing with mankind.

As to brutes, after they have been punished for the injuries which they caused each other, God will command them, to be turned into dust. Wicked men, being reserved for more grievous punishment in hell, they shall cry out, on hearing this sentence pronounced on the brutes": Would to God, that we were dust also."

After the trial is over, those who are to be admitted into paradise, as well as those destined to hell, shall have to pass to their respective abodes, over a bridge, laid over the midst of hell. This bridge is so wonderfully fashioned, that the good shall cross with ease and swifness to paradise, while the infidels and the wicked shall miss their footing, and fall down headlong into hell.

---

(1) "The old Jewish writers make mention as well of the books to be produced at the last day, wherein men's actions are registered, as of the balance, wherein they shall be weighed; and the Scriptures themselves seem to have given the first notion of both."
G. Sale. Prelim. Disc

At the second blast, all creatures in heaven and earth shall die, or be annihilated, except those whom God shall please to exempt from that common fate. The last to die will be the angel of death. Forty years of rain will follow, when the third blast is sounded, and all dead bodies shall be raised for judgment. The resurrection will be general, and extend to all creatures, angels, genii, men and animals[1] .

Mankind shall then be assembled for reckoning. The ungodly and the wicked will appear, on that day, with certain distinguishing marks fixed on them. These will come under ten headings namely (a) the backbiters, (b) they who have been greedy of filthy lucre, and who have enriched themselves by public oppression (c) the usurers (d) unjust judges (e) they who exult in their own works (f) the learned men or preachers whose actions contradicted their sayings (g) they who have injured their neighbours (h) the false accusers and informers (i) they who have indulged their passions and voluptous appetites (j) the proud and the arrogant people.

The first men to be sentenced to hell fire, will be the hypocrites who deceived people, by pretending to do good works for the sake of God. though they did them only in order, that their fellow-men might extol their actions.

As already stated, the object of Resurrection is, that they who are so raised, may give an account of their actions, and receive the reward thereof. It is to be believed, that not only mankind, but the genii and irrational animals also, will be judged on the last day: the unarmed cattle shall take vengeance on the horned, till entire satisfaction be given to the injured.

As to mankind, they are all assembled together. They will not be immediately brought to judgment. They have to wait for that purpose a long time. During this period of waiting, the resuscitated shall suffer greatly, both the just and unjust; but the sufferings of the former shall be light in comparison. Men shall resort to their respective prophets for intercession, that they may be redeemed from that painful situation, and be called upon for trial. Eventually the Prophet Mohammad shall accept the office of intercession, after it has been declined by Adam, Noah, Abraham and Jesus, who shall beg deliverance only for their own souls. Belief in the Prophet's intercession is enjoined upon Moslems, as part of the fifth article of faith.

The above intercession accepted, men shall be ordered, to appear for judgment. On this occasion, the books, wherein the actions of every person have been recorded by their guardian angels, will be distributed to

---

(1) Koran, Ch. lxxxi.

(1) The decay of faith among men ;

(2) The advancing of the meanest persons to positions of dignity ;

(3) Miskat-el-Massabih, by which is probably meant, that towards the end of the world, men shall be much given to sensuality ;

(4) Tumults and seditions ;

(5) A war with the Romans ;

(6) Great distress in the world, so that a man, when he passes by another's grave, shall say : "Would to God, I were in his place."

(7) The appearance of an extraordinary beast which shall be able, by God's power, to speak to men. This sign of the approach of the resurrection is mentioned in the 84th chapter of the Koran.

(8) The buildings of Yathrib (Medina) shall reach Mecca etc.

These are the lesser signs, the greater signs being :—

(1) The sun's rising in the west.

(2) The advent of Antichrist or the false Christ by whom people shall be tempted. He will do many apparent wonders and perform false miracles, sufficient to make people mistake him for the true Christ and, consequently they shall perish through their mistake.

(3) The descent of Jesus on earth. He shall kill Antichrist, and there shall be under him great security and plenty in the world.

(4) The appearance of Gog and Magog. These barbarians will come to Jerusalem and there, greatly distress Jesus and his companions, till at the request of Jesus, God will destroy them.

(5) The advent of Al Mahdi. The Prophet said : "The world should not have an end, till one of his family should govern the Arabians, whose name should be the same as his own name and whose father's name, should be also the same as his own father's name ; and who should fill the world with righteousness."

These are some of the greater signs which, according to the prophecies of the Apostle of God, are to precede the Day of Resurrection ; but the exact time of it is a perfect secret to all, but God. The immediate sign of the coming of the Resurrection will be the first blast of a trumpet which will be sounded three times : (1) the blast of consternation ; (2) that of examination ; (3) the blast of Resurrection. At the first blast, all creatures in heaven and earth shall be struck with terror, except those whom God shall please to exempt from it. The earth will be shaken, all buildings and mountains levelled. Women who give such shall abandon the care of their infants.

true knowledge of his character, and will necessarily admit, that he must have enjoyed the highest degree of prophecy. The above knowlege may still be confirmed, by testing what the Prophet said concerning the magical effect of carrying out the practical religious obligations of cleansing and purifying the heart. He will thereby know, how true the Prophet was, when he said: "To him who shall put into practice what he has been taught, God shall give knowledge of what he does not know;" and how truly he said : "Him who, when getting up, forgets all his cares, except the care of God's duties, God shall relieve from the cares of this life and the next." If a man has tested the truth of the above promises, and of thousands and thousands of others, he will surely have a perfect knowledge of the character of the prophet who foretold them. This is the way to attain conviction of the reality of prophecy, and not by seeking to see a rod turned into a serpent, or the moon divided into parts : because, by confining his researches to such wonderful acts alone, without their being corroborated by numerous other evidences, a man might mistake mere acts of sorcery and imposture for prophetic miracles.

Now it is time, to resume the statements of what, a Moslem should believe, will take place after death, according to the teachings of Islam. The Prophet of Islam prophecied that, when a man is put into the grave, he shall encounter two angels who adopt so fearful a form, that he will be greatly frightened. They shall cause the dead man, by divine power to sit upright, and examine him concerning his faith in the unity of God and the mission of the Prophet Mohammad. These angels are called the 'tempters of the grave,' as they appear to require the man examined, to give a wrong reply. If he answers rightly, he will rest in peace, until the resurrection. If not, he will remain suffering to that day. It is also to be believed, that some of the dead who were sinners during their life, are liable, in their sepulchre, to some torment in the shape of pressure on their bodies. Only the righteous are saved from the torment of the grave. Some people would object to the above prophecy, that the answers of the dead, under such examination, have never been heard ; or ask, how those can undergo it, whose bodies are burnt or devoured by beasts or birds, or otherwise consumed without burial. The answer is that it is possible notwithstanding, since men are not able to perceive what takes place in the next world unless they have been told of it by prophecy ; and God, the all-powerful who created man from dust, and dust from nothing, is able to restore life to the dead so that he may understand any question put to him.

As to the resurrection, Moslems believe, that both body and soul will be raised. The time of resurrection is a profound secret to all, but God alone. However, the Prophet has foretold some signs of its approach. These signs are :

reason is a state of human being, by which an insight is created in man, enabling him to know species of reasonable things, the comprehension of which lie beyond the power of the senses, so prophecy is another state of being by which a still further source of knowledge is created, a peculiar light, capable of making visible unseen things, incomprehensible by reason.

The doubt in prophecy may be connected either with its possibility, its existence and occurrence, or with its occurrence to a certain person. The proof of its possibility is its existence. And the proof of its existence is the existence of branches of knowledge in the world that cannot be acquired by mere reason as for instance, the science of medicine or astrology. Deep study of these sciences is sufficient to tell us of the impossibility of their bieng acquired, except by divine inspiration and guidance from God, and never by mere experience and practice. There are certain astronomic phenomena which do not take place but once every thousand years; but these have been accurately foretold. How then can such be got by practice ? The same argument applies to medicine. Hence it is clear, that there is some supernatural power, by which we acquire the knowledge of things, which cannot be comprehended by mere reason. In this way prophecy can be illustrated. But prophecy does not consist only in these things. The comprehension of certain things, beyond the limits of reason, is but one of the various faculties of prophecy, and represents but a drop in the ocean of the prophetic nature. All men have in themselves a natural example of the prophetic faculty, namely what they foresee of future events while asleep. The two sciences of medicine and astronomy are also examples of the prophetic faculty. Prophecies are the miracles of prophets, which ordinary men can by no means attain by human reason. The nature of prophecy cannot be comprehended, except through a course of Sufism, that is Mohammadan mysticism. By taking a course of Sufism a man, in the early stages of the course, acquires a clear notion of the nature of prophecy. This prepares his mind for a better appreciation of this wonderful subject.

If one doubts a particular person being a person, one cannot be convinced that he is so, except by knowing his character, either by personal observation or by hearing of it repeatedly. If a man has knowledge of medicine or law, he can easily distiguish between physicians and lawyers by seeing their respective qualifications proved, or by hearing their statements. A man cannot fail to know that Galens was a physician, or that Shakespeare was a poet—a knowledge based on experience, and not on hearsay—if he is acquainted with medicine or poetry. By reading their books and words he can, then have a full knowledge of the subjects they treat. The same thing applies to prophecy. If a man carefully goes through the Koran, and closely studies the sayings of the Arabian Prophet, he will surely acquire a

The mind of a newly born infant is so undeveloped, that he has no knowledge of the wondrous world around him. As he grows he gradually acquires knowledge of things through the various channels of comprehension. The first sense created in him is that of feeling by which he can comprehend certain species of things such as heat and coldness, dampness and dryness, softness and coarseness etc. But colours or sounds do not come in the domain of the sense of feeling. Sight is the next to come into operation by which one can comprehend colours and forms and it is the most comprehensive of all the senses. Then hearing is open by which one can distinguish different voices. The child then acquires the power of discriminating different tastes. When a human being approaches his or her seventh year his or her intellect is further awakened. Through this new agency, one acquires knowledge of things, beyond those dependent exclusively on the senses, and of which nothing exists in the world of sense. The child then developed into a still higher state of being, namely the state of reasoning by which necessities, possibilities, impossibilities and other things which the senses cannot teach by themselves are comprehended. Beyond reason, there is still another independent faculty, by which a new agency is given, to see the unseen and things of the future, and other things, from which reason is absolutely a different thing, inasmuch as understanding is different from those things belonging to reason, and as the power of reasoning is from things known only through the senses. A man born blind may well ignore the existence of anything like colours, and a man born deaf may ignore things like voices, merely on account of the lack of the particular senses capable of comprehending them. Inasmuch as it is unreasonable for a man born blind, to deny the existence of colours, or for a man born deaf, to deny the existence of voices, so too it is illogical for a man, to deny the prophetic gift, simply because he himself is lacking in spiritual gifts. God has made it easy for his creatures, to have some idea of the prophetic nature, by giving them a picture or type thereof, namely, sleep. When asleep, a man sometimes foresees things, either directly or symbolically. In the former, the meaning is clear; in the latter, it may be found by interpretation. This is a wonderful state of comprehension which, if not personally experienced by any particular person, but told to this person by another man, who, falling asleep, like the dead, could comprehend unseen things, would certainly be rejected by this person who would set forth proofs against the possibility of the information. It would be asserted that, as the sensitive faculties are the only source of comprehension and that even with their presence, a man can not acquire any knowledge of unseen things, he would all the more and most assuredly be incapable of knowing such things, in the absence of his senses. This is a reasoning by analogy which is however contradicted by actuality and practice. Even as

same as the comforter, mentioned in John xiv. 17, clearly establishes the following points: (1) Jesus could not guide into all truth, because his teaching was confined to reform the Israelites, and he denounced only their crying evils; but the teaching of the Comforter would be a perfect law, guiding men to all truth; and the Holy Koran is the only book which claims to be a perfect Book of Divine Laws. (2) That the Comforter would not speak a word of himself, but that which he shall hear, he shall speak, a qualification which is met with only in the person of the Prophet Mohammad. (3) That he will glorify Jesus, and the Holy Prophet did glorify Jesus by denouncing as utterly false all these calumnies which the Israelites indulgingly attributed to Jesus and his mother.

5. The Belief in the Day of Resurrection

The fifth pillar of fhe Mohammadan creed is belief in the Day of Resurrection, Reckoning or Judgment, which day shall be the beginning of an eternal life after death. The dead shall rise from their graves, restored to life. Every human being shall have to render an account of his or her actions on earth. The happiness or misery of individuals will depend upon the manner, in which they have performed the commandments of God.

The Arabian Prophet, being the seal of God's Messengers to mankind, has given sereval prophecies in detail, with respect to the state of being from the time a man is dead, until the resurrection, and also an account of the eternal destiny of mankind, beginning from that day. Faith in all such prophecies is essential to complete the creed of a perfect Moslem. Before entering into the main subject under discussion, it is desirable to make a few preliminary remarks.

Some people are apt to think that prophecies relating to matters connected with the after-life must be examined by pure reason before they can be adopted. There, however, should be no excuse for rejecting any prophecy on the mere assumption that it is difficult for human reason to comprehend it. Human power of discernment, penetration or discrimination on all questions raised by prophets must be restricted merely to deciding whether the information obtained through such an agency is or is not an impossibility. By impossibility is meant those things which human beings cannot be expected to believe, such as a camel passing through a needle's eye. But once it is no longer a question of impossibility, and the prophetic commission is rightly established there should be no excuse for human reason to reject any prophetic statement.

The Mohammadan School avails itself of the following suggestion with regard to the nature of prophecy and the obligation of mankind thereto.

Christ[1]. Again, the mention of ten thousand saints, in Deuteronomy xxxiii, is very significant.... "he shined forth from Paran and he came with ten thousand of saints." The whole history of the wilderness of Paran shows that there was no other event, but when Mecca was conquered by the Prophet. He came with ten thousand followers from Medina and re-entered the "house of my glory." He gave a fiery law to the world which has superseded and cancelled all other laws. The comforter—the Spirit of Truth – spoken of by Jesus was no other than the Prophet Mohammad himself. It cannot be taken to be the Holy Ghost, as the Church theology says. "It is expedient for you that I go away," says Jesus, "for if I go not away, the Comforter will not come unto you ; but if I depart, I will send him unto you." The way, in which Jesus describes the Comforter, makes him to be a human being, and not a ghost. "He shall not speak of himself, but whatsoever he shall hear, that he shall speak." The words of Jesus clearly refer to some messenger from God. He calls him the Spirit of Truth, and so the Koran speaks of the Prophet Mohammad. "Nay he has come with the Truth and verified the apostles."

The above prophecy of Jesus has also been reported in the Koran in the following words : "Jesus, the son of Mary, said : O children of Israel, surely I am the apostle of Allah to you, verifying that which is before me of the Torah, and giving the good news of an apostle who will come after me, his name being Ahmad." The word 'Ahmad' which is another name of the Prophet Mohammad, is derived from the same root, namely 'Hamd' which signifies praising, and it means a person whose personal qualities are such as to be worthy of praise. It should not be supposed, that Jesus uttered the very words which are reported in the Holy Koran, for he spoke in Hebrew, and not in Arabic. The actual words of Jesus not being preserved, we should depend on a Greek version, in which we find the word paraclete, which is translated in English as comforter. It is a well known fact, that translations are sometimes misleading, and therefore the use of the word paraclete in the Greek version, or that of comforter in the English, does not positively show, what the texual word spoken by Jesus was. Anyhow the qualifications which are reported in John xiv. 16 and xvi. 7, are met with in the person of the Holy Prophet Mohammad. He is stated to be one who shall abide for ever, and it is the Prophet's law, for after him comes no prophet, to promulgate a new law. He is to teach all things, and it was with a perfect law, that the Holy Prophet came. The prophecy in John xvi. 12 — 14, about the Spirit of Truth[2] which is the

(1) See George Sale's Prelim. Discourse.

(2) It is to be noted, that the Holy Prophet Mohammad is frequently called "The Truth" in the Holy Koran, as in 17–81 : "And say, The Truth has come, and the falsehood has vanished."

together unto thee, the rams of Nebaiath shall minister unto thee : they shall come up with acceptance on Mine Altar, and I will glorify the house of my glory." (Isaiah lx. 1-7.) The other prophecy runs thus ; "The burden upon Arabia. In the forest in Arabia shall ye lodge, O ye travelling companies of Dedanim. The inhabitants of the land of Tema brought water to him that was thirsty, they prevented with their bread *Him that fled.* For they fled from the swords, from the drawn sword and from the bent bow, and from the grievousness of war. For thus hath the Lord said unto me, Within a year according to the years of an hireling, and all the glory of Kedar shall fail." (Isaiah xxi. 13-16.)

The above two revelations read in the light of the one in Deuteronomy, will make the meaning quite clear : It is acknowledged, that Ishmael inhabited the wilderness of Paran, where he gave birth to Kedar, who is the ancestor of the Arabs. The sons of Kedar had to receive revelation from God. The flocks of Kedar had to come up with acceptance to a divine altar, to glorify "the house of my glory", where the darkness had to cover the earth for centuries, and then that very land had to receive light from God. All the glory of Kedar had to fail, and the number of archers, the mighty men of the children of Kedar, had to diminish within a year after they fled from the swords and from the bent bows. Therefore, the Holy one from Paran (Hab. iii. 3) should be no one else than the Prophet Mohammad. He is the holy offspring of Ishmael through Kedar, who settled in the wilderness of Paran,[1] the Prophet Mohammad is the only Prophet, through whom the Arabs received revelation at the time when the darkness had covered the earth and gross darkness the people.[2] Through him God shone from Paran, and Mecca is the only place, where the house of God is glorified by the flocks of Kedar who come up with acceptance on its altar. The Prophet Mohammad was persecuted by his people and had to leave Mecca. He was thirsty and fled from the drawn swords and the bent bows ; within a year after his flight, the descendants of Kedar met him at Badr, the field of the first battle between the Meccans and the Prophet.[3] There the children of Kedar and their number of archers diminished, and all the glory of Kedar failed. Besides, the house of 'my glory', referred to in Isaiah lx, is the house of God at Mecca, and not the Church of Christ, as thought by Christian commentators. The flocks of Kedar, as mentioned in verse 7, have never come to the Church of Christ. It is a fact, that the villages of Kedar, and their inhabitants are the only people in the whole world who have remained impenetrable to any influence of the Church of

---

(1) See The History of the Arabs, in this book or anywhere else.

(2) George Sale : Prelim. Discourse.

(3) See Sir William Muir's 'The Life of Mohammad'.

me." The second advent of Christ as well cannot be the fulfilment of the words in Deuteronomy. Jesus, as it is believed by the Church has to appear for the judgment and not for giving the law, while the Prophet like unto Moses, has to come with a fiery law in his right hand. Like Moses, he will bring the law; besides, the Promised Prophet was to be raised not from amongst the Israelites, but from amongst the brethren of the Israelites, namely the Ishmaelites.

In ascertaining the personality of the promised Prophet, the other prophecy of Moses is, however, helpful, in which he speaks of the shining forth of God from Paran. In Deuteronomy xxxiii. 2, the Lord has been compared with the sun. He comes from Sinai, he rises from Seir, but he shines in his full glory from Paran, where he had to appear with ten thousands of saints; from his right hand went a fiery law for them. None of the Israelites, including Jesus, had anything to do with Paran. Hagar, with her son Ishmael, wandered in the wilderness of Beersheba, who afterwards dwelt in the wilderness of Paran. (Gen. xxi. 21.) He married an Egyptian woman, and through his first born, Kedar, gave descent to the Arabs who, from that time till now, are the dwellers of the wilderness of Paran. Admittedly on all hands, the descent of the Holy Mohammad, is traced to Ishmael through Kedar, he appeared as a Prophet in the wilderness of Paran, and re-entered Mecca with ten thousand saints, and gave a fiery law to the people, so that the prophecy has been fulfilled to its very letter. The words of the prophecy in Habakkuk are especially noteworthy. His—the Holy One from Paran's glory covered the heaven and the earth with full praise. The word 'praise' is very significant as the very name 'Mohammad,' as already stated elsewhere in this book, means 'the highly praised.' Again the inhabitants of the wilderness of Paran had been promised a Revelation: "Let the wilderness and the cities thereof lift up their voice, the villages that Kedar doth inhabit: let the inhabitants of the rock sing, let them shout from the top of the mountains. Let them give glory unto the Lord, and declare His praise in the islands. The Lord shall go forth as a mighty man, He shall stir up jealousy like a man of war: He shall cry, yea, roar, He shall prevail against His enemies." (Isa. xlii. 11. 12. 13 [1].)

Moreover we read in Isaiah two other prophecies worthy of note, where references have been made to Kedar. "Arise, shine, for thy light is come, and the glory of the Lord is risen upon thee.... The multitude of camels shall cover thee, the dromedaries of Midian and Ephak; all they from Sheba shall come.... All the flocks of Kedar shall be gathered

---

(1) Reference to the Life of the Prophet in part II of this Book shows how distinctly this prophecy has been fulfilled.

thee, and will put my words in his mouth; and he shall speak unto them all that I shall command him." (Deut. vviii. 18).

"I have yet many things to say unto you, but ye cannot hear them now. Howbeit when he, the Spirit of truth, is come he will guide you into all truth: for he shall not speak of himself: but whatsoever he shall hear, that shall he speak : and he will show you things to come." (John xvi. 12—13).

While Moses promises to the children of Israel the coming Epiphany of God in the person of a "Prophet from among their brethren like unto thee". Jesus characterises the promised one as the Spirit of truth, who will guide them into all truth. The description of the Holy one in the words of Moses and Jesus, however, is strikingly similar: "I will put words in his mouth and he shall speak unto them all that I shall command him." (Deut. xviii. 18.) "He shall not speak of himself but whatsoever he shall hear, that shall he speak." (John xvi. 13). These words make the promised one a messenger from God, and a Prophet rather than one abstract and impersonal Divine Epiphany, and if "The Lord came from Sinai" in His revelation to Moses, and "He rose up from Seir" according to His message from the Nazarene, should we not look for some other son of man "from Paran", to stand for the shining forth of God from the same? — especially when the Prophet Habakkuk calls him 'The Holy One from Paran' "(Hab. iii. 3). The Prophet spoken of by Moses, has however, wrongly been confused with Jesus, in later Christian theology. The house of Jacob always distinguished Christ from the Prophet spoken of in Deut. xviii. 18, as it appears from the following we read about John the Baptist. "What then, art thou Elias?" and He said : "Art thou that Prophet?" And He answered, "No....." And they asked him, "Why baptised thou, if thou be not that Christ, nor Elias, neither that Prophet?" (John i. 21—25). These words speak distinctly of three different personalities, namely Christ, Elias and that Prophet. Jesus himself did not claim to be "that Prophet". If Jesus was the Christ and John the Baptist Elias, as Jesus himself makes him to be, we are quite justified in concluding that the appearance of Jesus was the promised Prophet. Even the first followers of Jesus were of the same opinion. "And He shall send Jesus Christ which before was preached unto you : Whom the heaven must receive until the times of restitution of all things, which God hath spoken by the mouth of all his holy prophets since the world began. For Moses truly said unto the fathers, a prophet shall the Lord your God raise up unto you of your brethren, like unto me; him shall ye hear in all things whatsoever he shall say unto you." (Acts. iii. 20—22). Though the writer of these words looks to the second advent of Jesus for the fulfilment of the Mosaic prophecies, so far it is undisputed that the first advent of Jesus is not the advent of the "Prophet like unto

"It should be clearly realised," said the Rev. Major, "that Jesus did not claim in the Gospels to be the Son of God in a physical sense, such as the *narratives* of the virgin birth suggest, nor did he claim to be the Son of God in a metaphysical sense, such as was required by the Nicene theology. He claimed to be God's son in a moral sense, in the sense, in which all human beings are sons of God, as standing in a filial and moral relationship to God, and capable of acting on those moral principles, on which God acts."

The Dean of Carlisle, who is recognised as one of the most fearless and outspoken of Modern Churchmen, had a distinguished university career. He was a theological tutor at Balliol, and preacher at Lincoln's Inn, for five years. He was Dean of Hereford, before his transfer to Carlisle, in 1917 [1].

The glory of Jesus naturally does not lie in being a God, because he cannot be a God, but his whole triumph lies in being a man, a perfect man, a holy man, and in the words of the Holy Koran, a Model for the people to whom he was sent.

Biblical Prophecies as referring to the Advent of The Prophet—Mohammed

Although Moslems hold, that the original Old and New Testaments have largely been corrupted by the interference of prejudiced men, or otherwise, as has already been pointed out elsewhere in this book, they still believe, that the existing Scriptures contain, to such an extent as they are confirmed and supported by the Holy Koran, the True Word of God.

The following are therefore, a few extracts of the safe contents of the Bible which Mohammadans take to refer directly to the Holy Prophet Mohammad :

"The Lord came from Sinai, and rose up from Seir unto them ; He shined forth from Paran and He came with ten thousands of saints ; from His right hand went a fiery law for them." (Deut. xxxiii-2)

"God came from Teman, and the Holy one from Paran. Selah. His glory covered the heavens, and the earth was full of His praise." (Hab iii. 3.)

"I will raise them up a Prophet from among their brethren, like unto

(1) The Islamic Review, August 1921.

Was Christ Divine ?

Dr. Rashdall, Dean of Carlisle, recently delivered a remarkable speech at the Modern Churchman's Congress on 'Jesus as the Son of God,' and in the course of his address, he said :

"There is a growing demand, that liberal theologians should speak in quite definite language about the divinity of Christ. The following are some of the things that we do not and cannot mean, by ascribing divinity to Christ :

1. *Jesus did not claim divinity for himself.*

He may have allowed himself to be called Messiah, but never in any critically well attested sayings, is there anything which suggests, that his conscious relation to God is other than that of *a man towards God.* The speeches of the fourth Gospel, where they go beyond the synoptic conception, cannot be regarded as history.

2. It follows from this admission that *Jesus was in the fullest sense a man, and that he had not merely a human body, but also a human soul, intellect and will.*

3. It is equally unorthodox to suppose that the human soul of Jesus pre-existed. There is simply no basis for such a doctrine, unless we say that all human souls exist before their birth into the world, but that is not the usually accepted catholic position.

4. The divinity of Christ does not necessarily imply virgin birth, or any other miracle. The virgin birth, if it could be historically proved, would be no demonstration of Christ's divinity, nor would the disproof of it throw any doubt on that doctrine.

5. The divinity of Christ does not imply omniscience. There is no more reason for supposing, that Jesus of Nazareth knew more than his contemporaries about the true scientific explanation of the mental diseases which current belief attributed to diabolic possession, than that he knew more about the authorship of the Pentateuch or the Psalms. It is difficult to deny, that he entertained some expectation about the future which history has not verified."

The Rev.H D.A.Major, Principal of Ripon Hall, Oxford, who opened the discussion was as outspoken as the Dean.

intellectual attainments, men of brilliant achievements in the world of theology ; all of them men who, as lecturers and fellows and professors, have instructed scores of Anglican divines before their ordination and since."

Canon Barnes on the Old Testament

In its issue of January 6th, 1922, the Daily Graphic has dealt with a speech delivered by the Canon of Westminster at the Association of University Women Teachers. The following is an extract of the speech as inserted in the above issue :

"In this connection it was most important, that the true nature and value of the Old Testament should be explained to children. It was Jewish literature; and was valuable for us, mainly, because it showed how the Jewish prophets were led to the idea of God, which Jesus accepted and emphasised, and because, in it vague expectations of a Messiah, foreshadowed the advent of Christ. But in the Old estament were also *to be found folk-lore, defective history, half-savage morality, obsolete forms of worship based upon primitive and erroneous ideas of the nature of God,* and crude science. The whole, however, was valuable, as showing the growth of a pure monotheism among the Jews—a religious phenomenon, as remarkable and inexplicable as the great intellectual development of the Golden Age of Greece. It was very difficult, to convey truths, like this, to children, and so it seemed to him better, to postpone the Old Testament part of religious teaching, to the later stages ; otherwise, children would learn stories, like that, with which the Book of Genesis opened, which they would afterwards discover to be untrue."

The same paper goes on to say :

"He Canon Barnes had come reluctantly to the conclusion, that it was highly. dangerous, to use for didactic purposes such allegories, as the creation of woman, the Daniel stories and Jonah ; it encouraged the prevalent belief, that religious people had a low standard of truth."

Thus, the Reverenced Doctor condemns the Old Testament, and desires to eliminate it from the course of studies. He considers that, among other stories, that of Jonah is dangerous to teach to human intellect, while in its infancy and growth. He acknowledges, that to accept stories, like that of Jonah and Daniel, as genuine pieces of history, would betray a low standard of truth in the believers of Christianity.